عدد خاص بمناسبة معرض الكتاب العر

الكتاب

مايو ١٩٤٦

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .

- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .

- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .

- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :

  ١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان .

  ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى أو ما يعادلها .

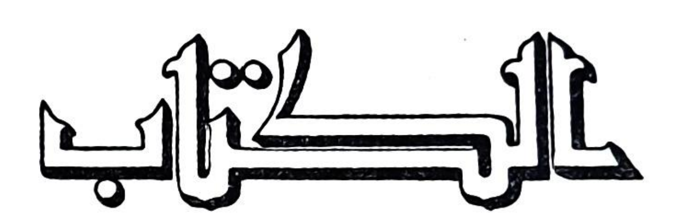
  -/٣/١ لإنجلترا

  -/٧/١ أو ٦½ دولار للبلاد المنتظمة في اتحاد البريد العام

  -/١٣/١ أو ٨ دولارات للبلاد غير المنتظمة في اتحاد البريد العام

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً



مجلة شهرية

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان



السنة الأولى — المجلد الثاني





السنة الأولى | المجلد الثاني | جمادى الأولى ١٣٦٥
الجزء السابع | | مايو ١٩٤٦

غريب

تواعدوا على اللقاء في حديقة الحيوان وحديقة الحيوان بالقاهرة جنّة عظامية عصامية تزهى بتالدها وتزهو بطارفها وإليهما أشار حافظ إبرهيم حيث يقول :

كنت بالأمس جنة الحور ياقصـ ـر فأصبحت جنـة الحيوان*

وتعد هذه الحديقة فيما تحويه من غرائب الطير والوحش مبعثرة في أنحائها الواسعة وشعابها المخضلة مجموعة في نظام دقيق عجيب آية من آيات مصر يقصدها المقيم ويركب إليها النازح ويقضي فيها الزائر برهة من الزمن لا يفتأ يردد فيها بين مشهد ومشهد سبحان الخلاق .

أقبل فيمن أقبل على الحديقة في ذلك اليوم جماعة من أهل مصر وزوارها بيتوا العزم على قضاء نهارهم في متعة وأنس ومرح فما هوأن يوافي الموعد المضروب حتى تزدحم على باب الحديقة سيارات أنيقة فخمة جاءت معتزة بمن حملت من أصحاب العز والجاه والثراء مزهوة بمن نقلت من حسان فيهن الشقر المتمثل في شعرهن لون الذهب وفي أعينهن زرقة السماء وفيهن السمر :

الشارعات الهدب أمثال القنا يحيي الطعين بنظرة ويميته

جال الركب في الحديقة متنقلاً من عجب إلى عجب وكانت خيلاء فتية النيل منهم وفتياته لا تقل عن إعجاب الضيفان بما هنالك من بدائع لا نظير لكثير منها فيما زاروه من حدائق الحيوان في بلاد الغرب فما إن تملت أعينهم مجالي الجمال والغرابة فيما شاهدوه من أسود ونمور ودببة تتنزى في قضبانها وفيلة روّضت لتكون مركباً للأطفال وقردة

---

* كانت حديقة الحيوان حديقة قصر للخديو إسمعيل .

تتعلق بحبال الهواء حيناً وتهبط إلى أديم الأرض تمشي فيه خائرة خائرة حيناً آخر وثعابين افترشت الرمل في بيوتها الزجاجية لا تريم ولاتتحرك وطواويس نشرت أذيالها وتمايست تعلم الحسان معنى العجب والتيه وتغريهن باتخاذ مثل هـذه الأذيال مراوح في المراقص وطيور كأنها تمرغت في قوس قزح قبل أن تحط على الأغصان إلى غير ذلك من أنواع السباع والجوارح والدواجن حتى أخذ التعب ينال من أصحابنا مناله ويتمشى في أجسامهم كتمشي السقم في البرء ولا سيما في أجسام الحسان المترفات اللطاف المثقلات الصدر والخصر والقدمين بقيود الفتنة والإغراء ولما تكبدت الشمس السماء وطفقت أنياب الجوع تقرض منهم جوانب الأحشاء جعلوا خاتمة المطاف مطعم الحديقة فسارع إليهم الخدم يصلون الأخونة بعضها ببعض ويفرشون فوقها الملاء النظيفة ويهيؤون للوافدين مقاعد وثيرة تحت مظلة كبيرة تحجب عنهم وهج الشمس فاستووا في مجالسهم حسبما يقضي به العرف الحديث فكانت كل غادة بين هلالين وكل رجل بين شمسين ألطف نوراً وسني من تلك التي وقفت في عليائها ترسل لافح الأوار وكان لسان حال كل فتى ينشد مع ابن العميد :

قامت تظللني من الشمس   نفس أعز عليّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجبٍ   شمس تظللني من الشمس

ولقد شغل جمال المكان أصحابنا عن التعب والجوع وعن هؤلاء الخدم المصطفين وراءهم رهن تلبية إشاراتهم فألهتهم بركة الماء التي نسج الهواء عليها درعاً من الزرد وظللت حفافيها الأشجار الحانية عليها ونقشتهما بالمتناثر من أوراقها الخضر وزهرها الملون كما انشرحت صدورهم لمنظر البط يتهادى في البركة فرادى وأزواجاً ويذرعها جيئة وذهاباً في هدوء ووقار لا يقف إلا ليزيل عن مسبحه ورقة من الأوراق أو ليلتقط فتات الخبز الذي يرمى له . ولم يخف أصحابنا إعجابهم بنشز من الأرض قام على طرف البركة واشتركت الطبيعة ويد الإنسان في تجميله وتنميقه فسالت في بقعته النضرة مسارب الماء مستقيمة ملتوية متشابكة متعرجة تسقي سلسلة من الشجيرات لا ترى العين منها ورقاً ولا غصناً سوى عناقيد من الزهر متعاطفة متلاحمة قد انفردت كل شجيرة منها بلون فمنها الأحمر القانئ ومنها الأبيض اليقق ومنها الأزرق الكحيل وكلها ملألئة براقة في أشعة الشمس كأنها حبات من المرجان والجمان والياقوت على قصاصات من المخمل في كف ذكاء .

غير أن الإنسان إذا لها عن الجوع فإلى حين وإذا حفل بنفسه وقلبه وعينه

يوفر لها الري والشبع تقاضاه الجسم في إلحاح وإلحاف سدّ خلته وفي كثير من الأحيان يكون الجسم هو الأثير المفضل وكأني بالقوم قد شعروا أن لأجسامهم عليهم حقوقاً فالتفتوا جميعهم إلى الخدم وأرهفوا السمع لما يسرده هؤلاء عليهم من ألوان الطعام فانتقى كلٌّ ما اشتهى . بيد أن الشرقي كريم بطبعه جواد إلى أبعد حدود السرف إذا دعا إلى مأدبة أعدّ من الطعام ما يكفي لأضعاف أضعاف المدعوين . فلا عجب أن لا يكتفي الداعي إلى هذه المأدبة بما في مطعم الحديقة من ألوان وإلا اتهم في مودته وسخائه فأسر بشيء إلى بعض الخدم فعاد بعد دقائق يحمل من سيارة محدثه عدة من الصرر والعلب فيها ما لذّ وطاب من ألوان المأكل فمن مشهّيات منوّعة إلى لحم مقدد إلى لفائف استدارت على الجبن إلى حشايا من مخ العجل وقوانص الطير إلى شرحات من الدجاج المسلول العظم المحشوة باللوز والفستق إلى قوالب من الهبر المدقوق المرصع بفتائل من الألية إلى فخذ حمل شكت فيه فصوص الثوم وغلف بورق الغار إلى ألسنة من الضأن محمرة منقوعة في الخل إلى شكول من الحلوى الشرقية والغربية والفاكهة إلى غير ذلك من ألوان تضيق بوصفها لغة الضاد .

حفلت المائدة بهذه الألوان وبما طلبه القوم من مطعم الحديقة وشرعوا يأكلون في لذاذة وهناءة لم ينقطع لهم حديث طريف أو استذكار ما طافوا به فى الحديقة ولا كفوا عن الضحك كلما مرت بالأسماع نادرة مليحة أو نكتة بارعة ولم يكن من العسير على المتقصي حركاتهم المتتبع لأحاديثهم الناظر إلى تأنقهم في هندامهم وفي أكلهم أن يعرف أنهم أفراد بيوتات كريمة تشع في مظاهرهم أنوار السعادة إلا ما غيبته القلوب مما لا تترجمه قسمات الوجوه . وبينا القوم في غبطة وسرور إذ وقف عليهم رجل غريب الدار رث الثياب زائغ البصر ساهم الوجه وأخذ يجيل طرفه في الحاضرين والقوم في دهشة من أمر هذا الفضولي الذي جاء يقطع عليهم موصول أنسهم وضحكهم وبهجتهم ولقد زاد دهشهم أن رأوه تناول كرسياً من الكراسي المجاورة وأقحمه بين المقاعد وجلس بينهم كأنه كان منهم على ميعاد ثم افترت شفتاه عن ابتسامة بلهاء أعقبها برطانة خفية أقرب إلى المناجاة والهمس منها إلى ألفاظ لغة مفهومة .

تبادلت الجماعة النظرات فيما يكون شأن الرجل وأفاق الفتيان من ذهول المفاجأة وغلى الدم في عروقهم واستكبروا جرأة هذا الأفاق وصفاقته وخشي أحدهم أن تكون سورة الخمر قد لعبت بلب هذا الضيفن الثقيل فدفعته إلى عمله النابي وربما جرّته إلى عربدة لا تحمد عقباها فتصنع اللطف والأدب على قدر ما يستطيعه دم شاب شرقي

يرى النساء في حماه قد تعرضن للنظرات المريبة . واقترب من الغريب وتمكن بعد جهد ولأي من أن يفهمه بالعربية أولاً ثم بالإنجليزية والفرنسية تارة وبالإشارة أخرى أن المجتمع مجتمع عائلي وأنه يعز عليهم استقباله في زمرتهم .

ولم يكن الرجل يعرف شيئاً من اللغات التي سمعها غير أنه فهم من نتف الكلمات الإفرنجية التي طرقت مسمعه ومن إشارات مخاطبه وما أفصحت به عيناه وعيون إخوانه من سخط وإنكار أن اللياقة تتقاضاه الانسحاب فنهض متثاقلاً يهز رأسه هزات الرجل الحزين النفس المحطم الفؤاد ولمح على مقربة منه خواناً خالياً من الطعام والطاعمين فانتقل إليه وارتمى على مقعد من مقاعده ارتماءة من خانته قواه ثم اعتمد رأسه بين كفيه واستسلم إلى التفكير والأحلام .

وما كاد يبتعد حتى تنفس أصحابنا الصعداء ولكنهم كانوا في حيرة من أمره فاندفعوا يفكرون من عسى يكون وما شأنه وما يومه وخطبه فأجمعوا على أنه ليس بالسكير العربيد الذي زيّن له الشراب اقتحام المجالس ولا هو بالفدم الصفيق الذي يعتمد على الثرثرة والهذر ليجلس إلى موائد الناس ولا هو بالمحروم الحريب الذي تعود مسألة أهل الإحسان ولما لم يستقروا على رأي فيه استأنفوا الطعام ووصلوا ما انبتّ من بهجتهم وكان خادم من الخدم قد آب يحمل آنية الماء المثلوج فأومؤوا له إلى الرجل واستوضحوه أمره فضحك الزنجي عن أسنان بيض لمّاعة وقال متأدباً : إنه رجل بولوني فقد زوجه وأبناءه الخمسة في غارة شنّها الألمان على مدينة فرسوفيا في مستهل هذه الحرب ثم التحق بالجيش وخاض المعارك وجرح خمس مرّات وقد يكون الآن من الذين سرحوا من الجندية وهو رجل بائس فقير يقدم له صاحب المطعم لوناً من الطعام كل يوم مجاناً لوجه الله لما يراه فيه من وداعة وانكسار وعبرة لا ترقأ . عرف السامعون خطب الرجل وبذلوا شيئاً من الأناة في فهم كلمتي فرسوفيا وبولوني ينطق بهما فم ذلك الكافوري فصوّبوا أنظارهم إلى حيث يجلس طريدهم فإذا العبرات تنسكب على خديه فيكفكفها بطرف كمّه أو تتساقط على صورة قريبة من وجهه فيمسحها بقبلاته وأدرك أصحابنا أنها صورة زوجه وفلذات كبده فراجعوا أنفسهم مراجعة صامتة وكأنهم أسفوا على مجافاته بعد إذ علموا سرّ سهومه ومبلغ مصابه . ورأى الناس بعد ذلك غادة من غادات تلك الحلقة تنهض إلى صحفة تملؤها من أطايب ما صفّ على المائدة وتذهب بها إلى الرجل فتقدمها إليه فينكب على يدها الناعمة يوسعها قبلاً ولا يرفع رأسه ليتمتم لها عبارات الشكر حتى يرى غادة ثانية جاءته بصحفة أخرى مملوءة بأنواع الحلوى فلا يقوى إلا على أن يجهش بالبكاء .

وعزّ على الفتى الذي كان أول من نهر الرجل الغريب أن تكون الخرّد الغيد أرق عاطفة منه وأسمح يداً فعمد إلى محفظته وانتزع منها ورقة نقد محترمة وحذا حذوه باقي الفتيان وآلى أن يحمل هو نفسه مجموع الهبات إلى الغريب الأرمل الثاكل فسار إليه وطيب خاطره وصافحه مصافحة الند للند بل مصافحة الأدنى للأعلى فقد جال بخاطر الفتى في تلك اللحظة أن جاهه وغناه لا فضل له فيهما وأن ذلك الشريد البائس يفضله في درجات الإنسانية لأن له قلباً تعذب وتألم ...

***

هذه قصة من قصص الحرب التي انتهت ولا يزال تحت رمادها جمر يتقد مع ما تمخضت عنه من بؤس وثكل وأحزان إلى تشريد وتشويه ودمار فليت من بأيديهم مصاير البشر يلمسون جراحات البشر لعلها تهز أوتار الحنو والشفقة فيهم فلا ينقادون وراء الأطماع ولا يبنون صروح المجد على أشلاء الضحايا. ولا يطربون لأناشيد النصر والظفر ووراءها إعوال اليتيم ورنة الثكلى وانتحاب المفجوع. لقد خلق الله الناس ووهبهم نعمة الحياة فكيف يجرؤ المخلوق على سلب نعمة الخالق ولاسيما في زمن يتشدق الإنسان فيه بأنه وارى الهمجية في ترابها وانكفأ يبني نفسه وقلبه وعقله على أسمى صفات المدنية والحضارة في حين أن أعماله وحشية فى وحشية فكأنه ما خرج من همجيته إلا ليجرر أثقال الشقاء عصراً بعد عصر وجيلاً بعد جيل.

إن للانسان على الإنسان حق العدل والرفق فليس بإنسان من لا يتحلى بحلة العدل ومن لا يحاول أن يلطف عن أخيه الإنسان وطأة الآلام والأوجاع وقديماً قال بوسويه: « أبعدوا عنا الأبطال الذين لا تجري في عروقهم دماء الإنسانية ».

ولعمري إن تلك اللفتة من جانب هؤلاء الغادات والفتيان إلى رجل عرفوا بعد إغضابه أنه لم يستحل حرم مجلسهم إلا ائتناساً بمشرق صباهم و ادكاراً لقطع من كبده إنما هي لفتة إنسانية سامية ولولاها لما عدوا من بني الإنسان وبمثل هذه اللفتات يتميز البشر عن البهائم فلا المال الموروث أو المكسوب ولا التقلب في أعطاف العيش الرغد ولا التأنق في الإشارة والحديث ولا الترفه في المأكل والملبس والمسكن بمقيم للانسان وزناً إذا خلت جوانحه من قلب يعطف على البائسين اليائسين.

ما أكثر ما اهتم الناس بالإنسانية في كل زمن وعصر حتى قيل إن سقراط أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض وجعلها إنسانية وحتى أطلق الرومان لفظ الآداب الإنسانية على أرفع الثقافات الأدبية والبلاغة والشعر وتبعهم فى ذلك إلى يومنا هذا بعض معاهد

التعليم وحتى حاول أوجست كنت أن يجعلها ديناً من الأديان وحتى نص شلر على أن المعارف البشرية مرهونة بالطبيعة الإنسانية وحاجاتها وحتى جهر نتشة فقال: إن الأعمال التي يرى فيها الناس أمثلة عليا أرى أنا فيها أعمالاً إنسانية .

ولعل خير هذه الأعمال تهوين المصائب على الناس ولا سيما على أولئك الذين يتمنون الموت فلا يجرعونه إلا قطرة قطرة على حد قول ذي القروح :

فلو أنها نفس تموت جميعة   ولكنها نفس تساقط أنفسا

فما قيمة الحياة لشريد فقد المال والنشب واحتسب الزوج والأبناء ورمته النوى في بلد هو فيه غريب الوجه واليد واللسان . أفكان علي بن الجهم يشعر بما يشعر به هـذا الغريب حينما قال :

يا وحشة للغريب في البلد الـنازح ماذا بنفسه صـنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا   بالعيش من بعده ولا انتفعا
يقول فى نأيه وغربتـه   عدلاً من الله كل ما صنعا

على أن غريبنا لم يفارق أحبابه عن رضى وطواعية وإنما فارقهم قسراً وكرهاً وأنى له أن ينتفع بالعيش من بعدهم وقد صاروا من سكان القبور وربما ضاقت بهم الأرض عن أن تخص كلاً منهم أو تخصهم معاً بخمس أذرع يحج إليها ويستلم بارد حجارتها ويستنشق ريح ترابها ويبلل ثراها بعبراته التي هي ذوب القلب والمقلتين .

وقد يكون من لطف القدر بذلك الهيكل المحطم أن نزل بهذا البلد الطيب الأمين فلكل امرىء وطنان وطنه الأول ومصر وما كان له أن يجوع وهو في رحاب النيل ولا كان له أن ييأس ويعيش ما عاش فريسة الغم والغربة والحزن وفي مصر قلوب رحيمة شفيقة تتوجع للمنكوب وتواسي الحزين وتحنو على الغريب ...

عادل الغضبان

قرأت هذا المقال الحزين
الساعة ١٢/٥٠ من ظهر الاربعاء
١٢/٦/٢٠٠٥
وهي ساعة بداية تصحيحي
للمجلد الثاني

حديقة الأفكار

الكتاب قبل اختراع الطباعة

للدكتور زكي محمد حسن

نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل. من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام
[الآيتان ٣ ، ٤ من سورة آل عمران]

الكتاب من أعظم أدوات العلم وآلات المعرفة ، وإن لم يكن أقدمها . ولسنا نستطيع أن نحدد تماماً التاريخ الذي ظهر فيه الكتاب لأول مرة . ونقصد هنا الكتاب بمدلوله الحالي ، أي مجموعة الصفحات المخطوطة أو المطبوعة ، وُصلت أو ثُبتت أو خيط بعضها في بعض ، فأصبحت وحدة قائمة بذاتها . ولكن الذي لا شك فيه أن الكتاب على هذا النحو لم يظهر إلا بعد أن اهتدى الإنسان إلى نوع من الكتابة جاوز المراحل البدائية في التطور ، وبعد أن عرف بعض المواد اللازمة للكتابة ، وحين أحس أن لديه من الأغراض ما يتطلب التدوين أو ما يريد نقله إلي المعاصرين وإلى الخلف بطريقة أسهل وأضمن مما يحققه النقل الشفوي أو النقش على الحجر أو الفخار أو الطين المجفف أو الصلصال أو العظام أو الخشب أو سعف النخل أو لحاء الشجر أو ألواح الرصاص أو البرنز أو قطع الأقمشة أو غير ذلك من المواد التي كتب عليها القدماء .

وقد كانت بداية التطور في الكتابة على يد السكان القدماء في مواطن الحضارة في الشرق القديم . وهي وادي النيل ووادي دجلة والفرات ووادي اليانج تسي كيانج، فعرف المصريون الكتابة الهيرغليفية ، وعرف البابليون الخط المسماري الذي انتشر في أنحاء الشرق الأدنى ، وعرف الصينيون ضرباً من النقوش الكتابية أتيح له أن ينتشر في الشرق الأقصى ولا تزال له السيادة فيه إلى اليوم .

وكان الإنسان الأول يعبر عن أغراضه بنقش صور تمثل ما في ذهنه . وتطورت

هذه الطريقة حتى وصل الناس في مراكز الحضارة المختلفة إلى التعبير عن المقاطع والكلمات بنقوش اصطلاحية . وكان للمصريين الفضل الأكبر في الوصول إلى المبادئ الأساسية للكتابة المنظمة ، وذلك حين وفقوا إلى نوع من الحروف الهجائية .

فالحروف التي تستعملها الآن معظم أمم العالم تنحدر كلها من مصدر واحد : هو الكتابة المصرية القديمة أو الهيرغليفية (أي النقوش المقدسة) ، كما كانت تسمى عند الإغريق (من hieros بمعنى مقدس و gluphein بمعنى ينقش) . وقد نقل الفينيقيون عن المصريين هذه الكتابة . وتفرعت من الحروف الفينيقية سائر الحروف الهجائية في أوربا والشرق الأدنى ، مما لا يتسع المقام للكلام عليه في هذا المقال .

ولم تكن المواد التي كتب عليها القدماء في البداية سهلة ظاهرة الأثر في نشر الأفكار وتحقيق المطلوب من التدوين ، فكان لابد من الاهتداء إلى مادة خفيفة ومتينة تجمع بين المرونة والرخص . وفطن المصريون القدماء إلى مزايا نبات البردي فاستعملوه في الكتابة وأخذه عنهم الإغريق والرومان . وكتب « بليني » — العالم الروماني المتوفى سنة ٧٩م — : « إن العلم والمعرفة يقومان قبل كل شيء على استعمال هذا النبات » .

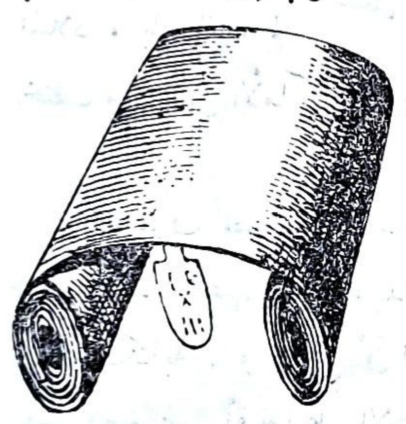
شكل ١ : مجموعة من المخطوطات البردية عثر عليها في أطلال هركولانم

وكان البردي ينبت بكثرة في مصر السفلى ، وكان المصريون القدماء يزيلون لحاءه الرفيع الخشن ويستخدمون لبه ذا الأنسجة الخلوية في صناعة ورق البردي ، فكانوا يشقون البردية شرائح يضعونها جنباً لجنب ، موازياً بعضها لبعض ، ثم يضعون فوقها طبقة أخرى من الشرائح وضعاً عكسياً ، فتكوّن زوايا قائمة مع القطع التي تحتها ، ثم يصمغون الطبقتين ويكبسونهما فيتم التئامهما وتتكون ورقة رفيعة يصقلون سطحها فتصبح صالحة للكتابة . وكانت الأوراق المنفصلة يضم بعضها إلى بعض وتلصق فتتألف منها أدراج أو لفائف قد يزيد طولها في بعض الأحيان على عشرين متراً . وكانت الكتابة في لفافة البردي على الوجه الذي تكون فيه الألياف أفقية ليسهل سير القلم . ولكن روعي الاقتصاد في بعض الحالات فاستعمل الكاتب الوجهين للكتابة ، وحدث أحياناً أن حصل كاتب على ورقة مكتوبة من البردي فغسل ما عليها من المواد وكتب على وجهها .

ولسنا نستطيع أن نحدد تماماً التاريخ الذي بدأ فيه استعمال ورق البردي . ولكن

أقدم الوثائق البردية المعروفة محفوظة في المتحف المصري وهي ترجع إلى عهد الأسرتين الخامسة والسادسة (الألف الثالث قبل الميلاد) . وتدل الوثائق المصرية القديمة على أن ورق البردي كان يصدّر من مصر إلى الشام في القرن الحادي عشر قبل الميلاد . ولسنا نعرف متى بدأ الإغريق في استيراد ورق البردي من وادي النيل ، ولكن أقدم المخطوطات البردية الإغريقية عثر عليها في أرض مصر ، ومن المحتمل أنها ترجع إلى القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد . وأكبر الظن أن ورق البردي وصل إلى اليونان في القرن السادس قبل الميلاد . وأقبل الرومان على استعمال ورق البردي بعد أن فتحوا مصر . ولما كشفت في القرن الثامن عشر أطلال مدينة هركولانم Herculanum ، التي دمرها بركان فيزوف سنة ٧٩ م ، عثر فيها على نحو ألفي لفافة بردية تشتمل على مخطوطات ثمينة من المؤلفات الإغريقية واللاتينية ، ولكن معظمها كان محروقاً (شكل ١) .

وكانت لفافة البردي تطوى بحيث يكون وجهها المكتوب إلى الداخل ، ترتب الكتابة في أعمدة متجاورة ، تنتهي بانتهاء اللفافة . وتثبت اللفافة في نهايتها بعصا صغيرة وتطوى حولها كما تطوى المصورات الجغرافية الآن . وأضيف إلى اللفافة البردية أحياناً — أو إلى لفافة الرق بعد ذلك — قطعة صغيرة يكتب فيها عنوان المخطوط (شكل ٢) . وقد ظلت المخطوطات البردية الملفوفة معروفة إلى العصور الوسطى .

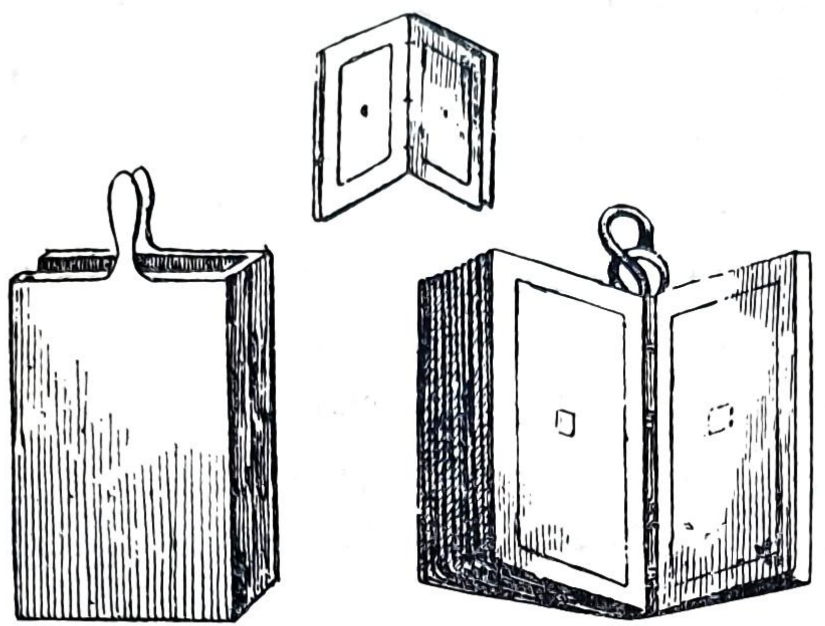


شكل ٢ : لفافة مخطوطة ولها ذيل يحمل عنوان المخطوط

واستعمل القدماء في الكتابة على ورق البردي قلماً من البوص أو القصب — كان يعرف في الإغريقية واللاتينية باسم calamus — وكانوا يبرون طرفه ويدببونه . ثم استعملوا المرود وقلم البرنز وريشة الطير . وعرفوا أنواعاً مختلفة من المداد ، كان بعضها ثابت اللون . وقد وصلت إلينا بعض المخطوطات العريقة في القدم — ولا سيما مخطوطات المصريين القدماء — في حالة جيدة جداً من الحفظ والوضوح ، مما يشهد بجودة المداد الذي استعمل في كتابتها .

ولم يقض استعمال ورق البردي على الكتابة فوق المواد الأخرى . فقد عرف العبرانيون والإغريق الكتابة على ألواح صغيرة من الخشب ، وذاع استعمال هذه الألواح عند الرومان . وكانت تعد على هيئة كتاب أو محفظة وتتألف من لوحين أو عدة ألواح

متصلة ، وتدهن بالشمع ليسهل مسح الكتابة واستعمال الألواح لكتابة نصوص جديدة . (شكل ٣)



شكل ٣ : ألواح خشبية للكتابة . نقلا عن نقوش في مدينة بومبي

وكانت هذه الألواح تستعمل في كتابة دروس التلاميذ وفي المراسلات وفي تدوين المذكرات وأرقام الحساب والضرائب ، وقد ظلت معروفة إلى القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد ، بل إنها لم تختف من بعض الأماكن الأوربية النائية قبل القرن الخامس عشر .

٭ ٭ ٭

وعرف المصريون القدماء الكتابة على جلود الحيوان،وقد وصلت إلينا نماذج من الرق تشهد ببراعتهم فيهذا الميدان . وعرف اليهود والفرس والإغريق من بعدهم استعمال الرق للكتابة . والظاهر أن الصناع في مدينة فرغامس (Pergamon , Pergame) بآسيا الصغرى ، أقبلوا على الاشتغال بإعداد الجلود للكتابة فوصلوا إلى نتائج طيبة في صناعة الرق ، حتى اشتق اسمه في اللغات الأوربية (rergamina , pergament parchemin) من اسم هذه المدينة ، وقد أثبتت الكشوف الأثرية — ولا سيما في إقليم الفيوم — أن الرق أقل احتمالا من ورق البردي في المناخ الدافئ الجاف ، ولكنه أشد مقاومة لخطر اللمس باليد . ومهما يكن من شيء فقد كان للرق عند الإغريق والرومان ميزة كبيرة : هيأنهم لم يحتاجوا إلى استيراده من مصر كورق البردي. وفضلاً عن ذلك فقد كان أكثر احتمالاً من البردي في مناخ بلادهم . وتقدمت صناعة الرق منذ القرن الثالث الميلادي فأخذ يحل تدريجاً محل ورق البردي حتى ندر استعمال الأخير في القرن السابع الميلادي .

وكان ورق البردي أكثر انتشاراً من الرق عند الرومان ، لأنهم لم يجدوا صعوبة كبيرة في الحصول عليه ، ولأن الرق كان في البداية نادراً ولم يكن رخيصاً ، فلم يستعملوه

أولا إلا في كتابة الوثائق المهمة والكتب النفيسة ، وأقدم ما وصل إلينا من المؤلفات المكتوبة على الرق يرجع إلى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد . ونظراً لغلاء الرق وندرته في بعض الأحيان فقد كان بعض الصناع والكتاب يقبلون على تنظيفه وغليه في الماء لتزول كتابته ويمكن استعماله لكتابة نصوص أخرى . وذاع ذلك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر حتى خشي الأباطرة والأمراء على النصوص القديمة ، فأمروا المسجلين والكتاب والنساخين بأن لايكتبوا إلا على رق جديد ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد ضياع كميات وافرة وكنوز ثمينة من المؤلفات القديمة . وكثيراً ما اكتفى الكاتب بحك الكتابة القديمة تمهيداً للكتابة فوقها ولم تزل آثار الكتابة الأولى تماماً ، فاستطاع العلماء في العصر الحديث الاستعانة ببعض المواد الكيميائية لكشف النقاب عن النصوص الأولى ، وظهر أنها أعظم شأناً مما كتب فوقها .

وكان القدماء لا يكتبون عادة إلا على وجه واحد من الرق . وكانت الجلود تقطع شرائح يضم بعضها إلى بعض فتتكون منها اللفافة ، ويكتب فيها النص على هيئة أعمدة متجاورة وظلت لفائف الرق مستعملة في مخطوطات اليهود وفي ضروب من الوثائق العامة ، ولكن اتخذت المخطوطات الأخرى هيئة جديدة: هي هيئة الكتاب كما نعرفه الآن ، فأصبحت الجلود تقطع شرائح مربعة أو مستطيلة ثم تطوي ويضم بعضها إلى بعض لتؤلف « ملازم » الكتاب كما يقال في الاصطلاح الحديث (شكل ٤) .

شكل ٤ : مخطوط على الرق وله هيئة الكتاب الحالى

وإلى آخر العصور الوسطى كانت أوراق المخطوط هي التي ترقم وليست صفحاته ، أي أن الرقم كان يشمل وجه الورقة recto وظهرها verso وكانت « الملزمة » ترقم في أسفل آخر صفحة فيها أو يكتب في آخرها اللفظ الذي تبدأ به الملزمة التالية ، وذلك ليظهر الترتيب الذي يتبع في تجليد المخطوط .

وهكذا اتخذ الكتاب شكله النهائي . وشهد الانتقال إلى الكتابة على الرق وإلى هذا الشكل الجديد ضياع كثيرمن المخطوطات البردية القديمة ، فإنجزءاً كبيراً من تلك المخطوطات التي تضم تراث الإغريق والرومان كان قد اختفى من المكتبات وتطرق إليه التلف . ثم أقبل القوم على « تصفية » المخطوطات المهددة بالدمار لاختيار ما يرون حفظه بإعادة كتابته في مخطوطات جديدة على الرق . فكان ذلك بمثابة حكم بالإعدام على

كثير من المؤلفات القديمة ، ولاسيما بعد أن أقبل القوم على المسيحية وتعاليمها الجديدة .

وكان المخطوط المكتوب على الرق غالياً لايستطيع الحصول عليه القارىء المتوسط . وظل الحال كذلك حتى بدأ استعمال الورق في الشرق الأدنى ، وقد اشتق اسم الورق في اللغات الأوربية من البردي Papyrus, paper, papier, etc. . ولكن الصينيين أول من استطاعوا صناعة الورق من الخرق أو ألياف النبات ولب الأشجار . ونقل المسلمون عنهم هذه الصناعة حين ساقوا إلى سمرقند سنة ٧٥١ م طائفة من أسرى الحرب الصينيين ، كان عاهل الصين قد أرسلهم لنجدة أمير فرغانة في حربه ضد أمير شاش (طشقند) . وأقام أولئك الصينيون صناعة الورق في سمرقند وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي وإلى البلاد الأوربية ، ويبدو أن ظهور الورق في أوربا يرجع إلى نحو القرن الحادي عشر ، وإن تكن أقدم الوثائق الأوربية التي وصلت إلينا مكتوبة على الورق ترجع إلى القرن الثالث عشر .

وأقبل المسلمون على استعمال الورق للمخطوطات منذ القرن العاشر ، ولكن الأوربيين استعملوه في البداية لكتابة المراسلات ، ولم يكتبوا عليه المخطوطات إلا نادراً ، فلم يستطع الورق عندهم أن يحل محل الرق في الكتب إلا منذ القرن الرابع عشر ، وانتشر الكتاب بعد ذلك واستطاع القيام بوظيفته التثقيفية .

وكان معظم النساخين في العصور القديمة من الأرقاء ، أما في العصور الوسطى كان في البلاد الإسلامية نساخون محترفون إلى جانب المؤلفين الذين عنوا بتدوين مؤلفاتهم بخطهم كما عنوا بنسخ بعض المؤلفات التي كانوا يحتاجون إليها . وفي الغرب فقد كان للأديرة الفضل الأكبر في هذا الميدان ، إذ كان كثير من الرهبان يقبلون على نسخ الكتب ولا سيما المؤلفات الدينية ، ونادى بعض القديسين ورجال الكنيسة بأن نسخ الكتب من أصلح الأعمال وأليقها بحياة الرهبان ، وبأنه عمل تفيد منه الروح ويكسب الثواب . وكانت بعض المدارس الدينية تطلب من تلاميذها أن يقدم كل منهم مخطوطين في العام الواحد نفقة لتعليمه . وكان الرهبان ينسخون الكتب في قاعة كبيرة من قاعات الدير تسمى scriptorium ، كانوا يحرصون فيها على الصمت والهدوء حتى يمكنهم الانصراف إلى عملهم الجليل . وكان هذا العمل يسير بإشراف رئيس الدير أو أمين المكتبة . وكان إخراج المخطوطات العظيمة الشأن يوزع بين الرهبان ، فيكلف أحدهم بنسخ المخطوط وآخر بمراجعته وثالث برسم زخارفه ورابع بوضع علامات الترقيم وخامس بتوضيحه بالصور وسادس بتجليده .

وكان بعض الرهبان يوقعون على المخطوط بعد الفراغ منه أو يكتبون وصية إلى القارىء . وقد جاء في إحدى هذه الوصايا : « أيها القارىء الصديق . اسحب أصابعك واحذر أن تفسد كتابة هذه الصفحات ؛ فإن الذي لا يشتغل بنسخ الـكتب لا يعرف الجهد الذي نبذله في هذا السبيل . إن النساخ يرحب بآخر سطر في المخطوط ويطرب لرؤيته كما يطرب الملاح لرؤية الميناء ، فإن النساخ يقبض على القلم بثلاثة أصابع ولـكن جسمه بأجمعه يشق ويعمل في هذه المهمة » . وجاء في وصية أخرى : « احذر من أصابعك ! لا تضعها على كتابتي ! إنك لا تعرف ما النسخ ! إنه سخرة متعبة تحني الظهر وتظلم البصر وتكسر المعدة والأضلاع : فصل إذن أيها الأخ من أجل الفقير راؤول عبد الله الذي كتبه كله بيده في دير سنت أنيان Saint-Aignan » .

وكان الأمراء والأثرياء ورجال العلم في ديار الإسلام في العصور الوسطى يقبلون على رعاية النساخين وشراء المخطوطات وتشجيع المصورين والخطاطين . وكان بعض الأمراء في الغرب يشرفون على نسخ الكتب . وقد ألحق بالبلاط الإمبراطوري في عصر شرلمان مكتبة ومجمع للنساخين، وكان الإمبراطور يشرف على نسخ الكتب ويأمر بإرسال كثير منها إلى الأديرة لينسخ منها غيرها . وأخذ النساخون المحترفون من عامة الشعب ينافسون الرهبان منافسة قوية في بعض البلاد الأوربية ، وأعدت جامعة باريس مكاناً في أبنيتها للنساخين منذ عام ١٢٧٥، فكان لهم الفضل في نمو مكتبتها وتزويدها بالمخطوطات. وكان بعضهم ينسخ الـكتب أو يشرف على نسخها ليبيعها للطلاب أو يؤجرها للفقراء منهم ، وكان هؤلاء النساخون — ويسمون stationarii * — يحلفون اليمين للقيام بعملهم بالدقة والإخلاص . وكانت جامعة باريس تشرف على بيع الرق في العاصمة الفرنسية بوساطة نقابة تجار الرق . وكان للجامعة حق الأولوية في شراء الرق المعروض للبيع . فكانت النقابة تقسم اليمين لمدير الجامعة وتؤدي للسربون ضريبة معينة عن كل حزمة من الرق تباع في باريس .

وكانت مكانة الخط عالية عند المسلمين ، فوصلت إلينا أسماء كثير من الخطاطين . أما في الغرب فقد كان الخط وسيلة فحسب ، فندرت المخطوطات التي تحمل اسم كاتبها ولم تصل إلينا أسماء الخطاطين . ولا عجب فقد كان الخطاط في اللغة العربية فناناً ، يستطيع بفضل طبيعة الخط العربي — أن يبدع في تحسين الحروف وزخرفتها .

* بمعنى بائع الـكتب ، في لاتينية العصـور الوسطى . وقد اشتق منها stationer و stationery في الإنجليزية .

وقد عرف الإغريق توضيح المخطوطات وتزيينها بالصور ، وقلدهم الرومان في هذا الميدان . وأقدم المخطوطات الأوربية التي وصلت إلينا موضحة بالصور يرجع إلى القرن الثالث أو الرابع بعد الميلاد . ولكن المعروف من المخطوطات البيزنطية المصورة كثير ويرجع بعضه إلى القرن التاسع . أما في العالم الإسلامي فقد وصلتنا صفحات من مخطوطات مصورة قد ترجع إلى القرن التاسع أو العاشر بعد الميلاد . وقد كانت معظم الصور في المخطوطات بعيدة عن الإتقان إلى القرن الثالث عشر ، فكان الفنان إذا أصاب بعض التوفيق في رسم الرأس لم يستطع أن يتقن الرسم في سائر أعضاء الجسم . وطبيعي أن الفنانين لم يعرفوا الصور الشخصية في هذه المرحلة، فكانت الرسوم الآدمية التي يصورونها رمزية ولا تمثل الأشخاص المقصودين أي تمثيل .

وكان النساخ في البداية هو الذي يرسم الصور في المخطوط ولذا كانت بعض الأديرة التي تعني بنسخ المخطوطات وتوضيحها بالصور تطلب من الرهبان الذين يريدون المساهمة في هذا العمل نوعاً من الاستعداد الفني . ولكن بدأ التخصص منذ القرن الثالث عشر فأصبح النساخ يترك الفراغ اللازم للصور والزخارف ليقوم بعملها مصور اختصاصي ، وقد وصلت إلينا بعض المخطوطات وعلى بعض صفحاتها بيانات إلى جانب الفراغ لتدل المصور على ما يطلب تصويره . وكان توضيح الكتب وزخرفتها بالصور مهمة شاقة تستغرق وقتاً طويلا ونفقات باهظة . وكان تصوير المخطوطات في الشرق الأدنى وفي الدولة البيزنطية في القرن الثاني عشر أرقى منه في وسط أوربا وغربها ،فأثّر الشرق في تطور هذا الفن في أوربا إبان الحروب الصليبية . وكذلك كان لرسوم الفروع النباتية والزخارف الهندسية الإسلامية تأثير كبير في زخارف المخطوطات الأوربية

وقد زادت العناية بتصوير المخطوطات الأوربية وزخرفتها — ولا سيما الحروف الأولى في الأبواب والفصول — زيادة عظيمة منذ القرن الثالث عشر ، حتى ثار عليها بعض المحافظين ولاموا الحريصين على هذا الترف في المخطوطات . وظهرت أهم قوانين المنظور فى صور الكتب واستطاع الفنان التعبير عن الحركة. وتقدم التصوير في المخطوطات تقدماً كبيراً منذ القرن الخامس عشر ، وذاع صيت أعلام الفنانين في هذا الميدان ، مثل جان فوكيه Jean Fouquet (مصور الملك لويس الحادي عشر الفرنسي) وجان بُرْديشون Jean Bourdichon وجان وهوبرت فان إيك Jean et Hubert van Eyck وجُليو كلفيو Giulio Clovio واشتغل بعض أعلام المصورين في تصوير المخطوطات إلى جانب اشتغالهم برسم اللوحات الفنية الكبيرة . ومن هؤلاء فرا أنجلكو

Fra Angelico وليونردو دافنشي وميكيلانجلو ورفائيل .

أما في العالم الإسلامي فقد ازدهر توضيح المخطوطات بالصور فما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر بعد الميلاد ، ولـكن فن التصوير تطور على يد المسلمين تطوراً خاصاً بسبب كراهية التصوير في الإسلام وغير ذلك من الأسباب التي حملتهم على الانصراف إلى الزخارف النباتية والهندسية والـكتابية *

وكان لتجليد الـكتب شأن كبير منذ اتخذ الـكتاب شكله الحالي . وكانت أوراق المخطوط تجمع في البداية بين لوحين من الخشب بينهما كعب ، وأضيف إلى هذا التجليد البدائي كسوة من الرق أو الجلد أو القماش أو صفائح المعدن للوحي الخشب ، ثم أضيف إلى ذلك كله قفل أو إبزيم واحد أو أكثر ليمكن قفل المجلد قفلا محكما . وكانت جلود الـكتب — ولا سيما الدينية منها — ترصع بالمعادن والأحجار النفيسة . وكانت هذه الجلود بما فيها من أركان ومسامير وأبازيم وأقفال وحلي معدنية ثقيلة الوزن جداً . ويروون أن العالم الإيطالي بترارك (١٣٠٤ — ١٣٧٤) كان قد نسخ بخطه كتاباً من مؤلفات سيسيرون Ciceron وجلده ، وأنه كان يقبل على قراءته كثيراً . ووقع الـكتاب بجلده الثقيل عدة مرات فأتلف ساق بترارك حتى هدد يوماً ما ببترها .

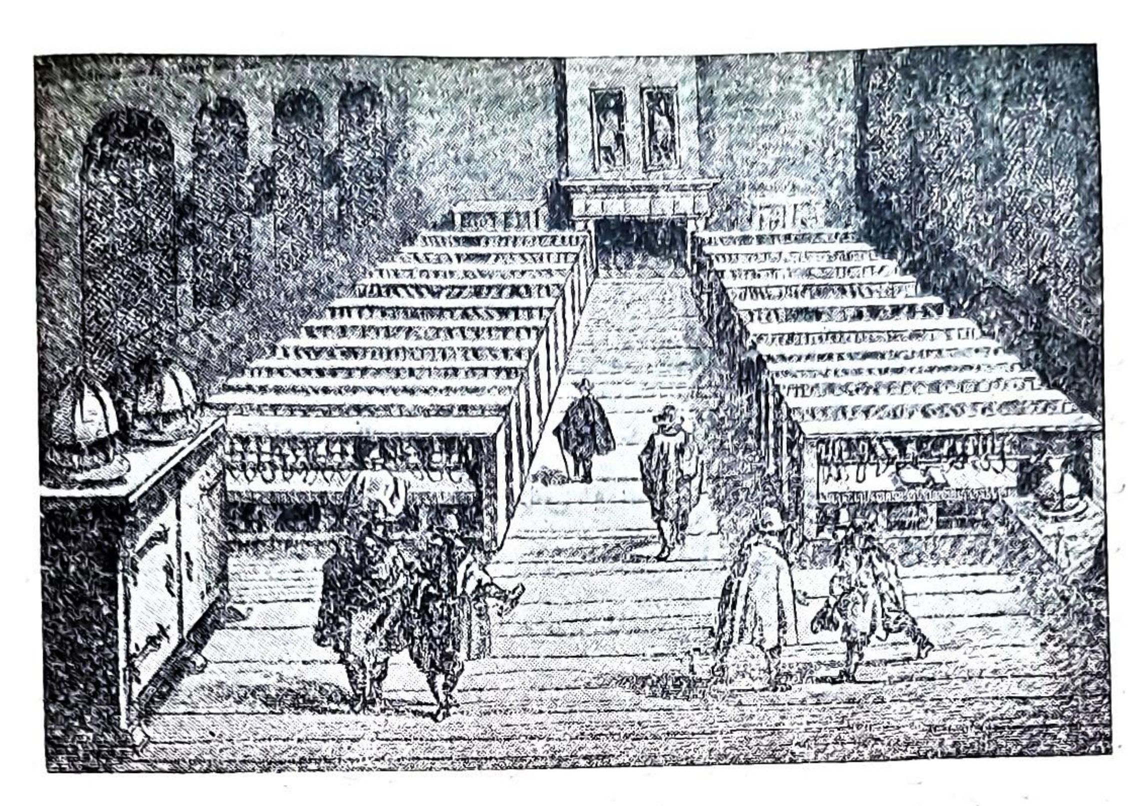
وكان بعض تلك الجلود الفاخرة مطمعاً للسلب والنهب ، فضاع بسببها عدد كبير من المخطوطات النفيسة . بينا يرجع إليها الفضل في حفظ بعض المخطوطات حفظاً تاماً حتى وصلت إلينا في حالة جيدة .

وتفخر بعض المتاحف بما وصل إليها من هذه الجلود المرصعة بالأحجار الـكريمة والمزينة بالذهب والفضة والنحاس وفصوص المينا والزخارف البارزة أو المحفورة أو المطعمة . والغريب أن بعض جلود الكتب الدينية كانت تركب فيها بعض عظام القديسين وقطع من ملابسهم أو سائر مخلفاتهم . وطبيعي أن الـكتب المجلدة على هذا النحو كان يحتفظ بها تحفاً في مخلفات الأسر أو بين كنوز الـكنائس والأمراء .

وكانت المخطوطات في بعض الـكنائس والمكتبات تثبت بسلسلة ، كما تبين من بعض المخطوطات التي وصلت إلينا وفيها الحلقات التي كانت تمر بها السلاسل المثبتة بالأدراج . وكان الغرض من تثبيتها في تلك السلاسل حمايتها من اللصوص مع تمكين الجمهور من الانتفاع بها (شكل ٥) .

---

* راجع كتابنا « التصوير فى الإسلام عند الفرس » وكتابنا « الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامي » وتعليقاتنا على كتاب « التصوير عند العرب » للمرحوم أحمد تيمور باشا .



شكل ٥ : مكتبة جامعة ليدن
وكانت الكتب فيها مثبتة في سلاسل إلى القرن السابع عشر

وكان للحروب الصليبية تأثير كبير على تطور صناعة التجليد في الغرب . فإن المسلمين كانوا قد أصابوا في هذا الميدان تقدماً كبيراً ✡ وجلب الصليبيون معهم من الشرق نماذج طيبة من جلود الكتب الإسلامية ، كما عرف الغربيون هذه الجلود في صقلية والأندلس ثم في تركيا ، فتأثر صناعهم بأساليبها الفنية ، ولا سيما ابتداء من القرن السادس عشر حين انتشر التجليد بالجلد المزخرف بالرسوم المضغوطة أو البارزة . والواقع أن استعمال الجلود الثقيلة الغالية أصبح نادراً منذ القرن الخامس عشر . ولما اخترعت الطباعة وكثرت الكتب وقل وزنها وصغر حجمها ونقصت قيمتها المادية استعمل الورق المقوى عوضاً عن الخشب في جنبي الجلد واختفت الأقفال والأبازيم وأقبل الناس على تجليد الكتب بالورق والجلد .

زكى محمد حسن

✡ راجع كتابنا « الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى » ص ١٣٢ — ١٣٦

كليلة ودمنة

وتصويره في العراق وإيران

للدكتور إبرهيم جمعة مدير قسم المتاحف بوزارة المعارف

أتاح الله للعرب ، وهم يجدّون في السعي إلى علم يتناولونه وفن يتذوقونه ، فريقاً من الناس قام بدور الوسيط . هو فريق اليعاقبة والنساطرة والسريان من أتباع الكنيسة الشرقية . كان هؤلاء في الوقت الذي هبّ فيه العرب يطلبون لأنفسهم تراثاً علمياً وفنياً يخلد على الزمن مقروناً باسمهم ، هم حفظةَ العلم اليوناني ، وحذاقه ومعلميه . وقد كانت المهادنة بينهم وبين عرب العراق من المسلمين من حسن حظ الحضارة العربية ويمن طالعها ...

والحق أنه لم يكن ليقدر للعرب أن ينهلوا مما خلف اليونانيون من علم ، والبيزنطيون من فن ، بغير هذه الوساطة التي تعتبر على جانب كبير من الأهمية والقيمة ، فقد رصد هؤلاء جهودهم لتحصيل الثروة العلمية اليونانية والمساومة عليها بأي ثمن ، وكانوا دعاة فنّ بقدر ما كانوا دعاة علم ، أفاد العرب منهم دراية بالتصوير ، وكانوا لا يعرفونه أصلاً ويرونه شيئاً منافياً للاسلام ، وراحوا يختلفون في شأنه بين التحريم والكراهية اختلافهم المعروف . وعلى يد هؤلاء تعلم المتسامحون من العرب ، وأخصّهم عرب العراق ، فنّ التصوير ، ولكنهم لم يستخدموا هذا الفن في تصوير الكتب الدينية على نحو ما كان المسيحيون يصورون كتبهم الدينية ، أو على غرار ما كان وثنيو إيران من المانويين يفعلون . واقتصر التصوير الإسلامي المبكر في العراق على توضيح كتب الأدب والكيمياء والحيل والطب ، فأكسبها ذلك التزيين جمالاً وزادها وضوحاً .

ومن الكتب التي وضحها العرب المشتغلون بالتصوير تحت إرشاد أساتذتهم من مسيحي الكنيسة الشرقية ، مقامات الحريري ، وكليلة ودمنة ، وكتاب الحيل للجزري ، وكتاب في خواص العقاقير لدسكوريدس ، وكتاب عجائب المخلوقات للقزويني . صور هذه الكتب في العراق مصورون من المسيحيين أو المسلمين الذين تتلمذوا عليهم وأصابوا في ميدان التصوير شيئاً من النجاح . ومن أشهر المصورين العرب يحي بن محمود ابن يحي بن الحسن الواسطي ، وعبد الله بن الفضل ، سلمت لنا ورقات مما رقمت ريشتاها

وحملت اسميهما ، فدلتنا على غير عادة على أسماء فنانين من العرب ، لأن العرب المسلمين عزفوا دائماً عن ذكر أسمائهم على مخلفاتهم زهداً منهم في التخليد وفناء في الشخصية الإسلامية العامة . صوّر الواسطي المقامات ، وصورها غيره في غير زمنه ، وكان فراغ الواسطي من تصويره لها في رمضان ٦٣٤ للهجرة ، وصور عبد الله بن الفضل كتاب خواص العقاقير لدسكوريدس ، وكان فراغه من عمله في عام ٦١٩ هجرية . وصور مصوّر مجهول الاسم كليلة ودمنة في المدرسة العراقية نفسها .



شكل ١ : أبو زيد السروجي وابنه مختصمين إلى قاضي معرة النعمان (من المقامة الثامنة المعرية) مثال من تصوير مقامات الحريري في العراق في القرن السابع الهجري من مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس (تحت رقم ٦٠٩٤ بالقسم العربي) .

وتمتاز صور المدرسة العراقية التصويرية بالقصور والضعف ، وهي في مجموعها محاكاة ركيكة للتصوير المسيحي ، جرت على طريقة الاحتذاء الدقيق الذي يخرج بصانعه عن الحرية والابتكار ، وهما من أخص مميزات الفنان المصور . وتكاد تكون صور المدرسة العراقية نقلاً شكلياً للصور المسيحية مع تغيير في الموضوع . ويرجح أن يكون

المصورون العرب قد اتبعوا في رسومهم طريقة « التخريم » ينقلون بها الخطوط الرئيسية في الصورة إلى ورقهم الخاص على نحو ما يفعل المبتدئون في الرسم . ولم يكن ذلك غريباً على كل حال ، لأن العرب من الجنس السامي الذي يتصف بالقصور في التصوير وغيره من الفنون اليدوية عامة ، على خلاف الجنس الآري الذي وهب المقدرة في هذا الاتجاه . ويميز التصوير العربي العراقي أشياء : أولها وأخصها إحاطة وجوه الأشخاص ذوي الحيثية في الصورة ، كشخصية « أبي زيد السروجي » بطل المقامات ، بهالة كتلك الهالة التي تحيط برؤوس القديسين في الصور البيزنطية ، ثم إظهار الملامح السامية في سحن الأشخاص : من سماحة الوجه واستطالته إلى سواد الشعر واستقامة الأعين وطول الأنف واعتداله ، إلى غير ذلك من المميزات التي اختص بها الذوق العربي ، كاطلاق اللحى وكبر العمامة وفضفضة الملابس وزركشتها . ومن أشهر مدارس التصوير العراقية مدرسة واسط ، وكانت لها طريقتها الخاصة في الرسم بالقلم والمداد بدلا من الفرجون .

⁂

ولم يكن حظ كتاب كليلة ودمنة بأقل من حظ المقامات ، فقد صور في إيران والعراق فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين . وتحتفظ بعض مكتبات العالم بعدد لا بأس به من صور مخطوطات كليلة ودمنة :

١ — ففي المكتبة الأهلية بباريس في القسم الفارسي تحت رقم ١٩٦٥ جزء من مخطوط فارسي كان يملكه « مرتو » قبل إهدائه إلى المكتبة ، ينسبه « بلوشيه » إلى عام ١١٥٠ م وينسبه غيره إلى تاريخ يلي عام ١٣٠٠ م . والمظنون أنه صور في « شيراز »

٢ — وفى نفس المكتبة جزء من مخطوط كتبه « أبو طاهر بن أبي ناصر بن محمد بن محمود الودقاتي ، وصوره ينسبها « بلوشيه » إلى عام ١٢٨٠م لأنه يحمل تاريخاً هجرياً صريحاً ، إذ تمت كتابته سنة ٦٧٨ هـ ، وهو مرقوم ٢٠٢٨ بالقسم الفارسي من المكتبة ، والمعتقد أنه صور في جهة ما غربي إيران قد تكون « شيراز » .

٣ — وهناك مخطوط ثالث ينسبه بلوشيه إلى غرب إيران ويضعه بين عامي ١٢٥٠ و ١٣٣٠ م .

٤ — مخطوط عرض في عام ١٩٣٨ بالمكتبة الأهلية بباريس ، ثم عرضت منه صفحات مصورة في متحف الفن في ورشتر بولاية مساشوست الأمريكية ، اعتاد مؤرخو المخطوطات نسبته إلى عام ١٣٣٣ م .

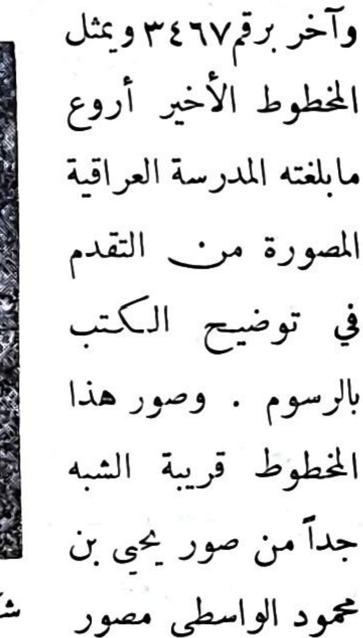
٥ — مخطوط مصور بالفارسية معروض بدار الكتب المصرية تحت رقم (٦١ أدب فارسي) . ويرى الدكتور كينل أنه مصور في « تبريز » .

٦ — خمس وعشرون صورة مقرونة باسم الشاه « طهماسب » الفارسي ، محفوظة في مرقع (ألبوم) بمكتبة جامعة الإستانة ينسبه «ساكسيان » إلى شرق إيران ، ويضعه ضمن مصورات القرن الثاني عشر الميلادي . وأجمع مؤرخو الفنون الإسلامية على وضعه بين عام ١٣٥٠ م ونهاية القرن الرابع عشر . ويعتقد كينل أن تصويره كان في « هراة » حوالي ١٣٤٠ م .

٧ — بعض صور محفوظة في المكتبة الأميرية في « رمبور » .

٨ — مخطوط محفوظ بالقسم العربي بالمكتبة الأهلية في باريس تحت رقم ٣٤٦٥ ، وآخر برقم ٣٤٦٧ ويمثل المخطوط الأخير أروع ما بلغته المدرسة العراقية المصورة من التقدم في توضيح الكتب بالرسوم . وصور هذا المخطوط قريبة الشبه جداً من صور يحيى بن محمود الواسطي مصور مقامات الحريري ، المؤرخة ٦٣٤ هجرية (١٢٣٧ م) ، والتي

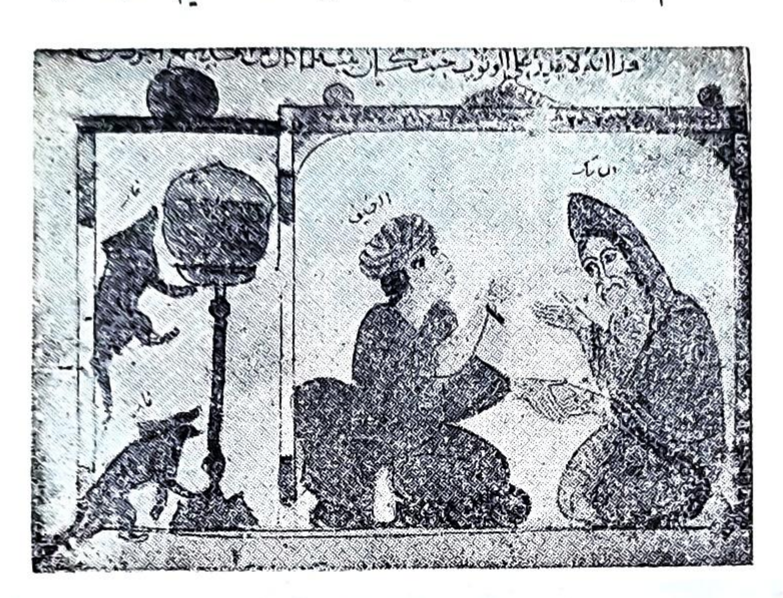




شكل ٢ : دبشليم لبيدبا . . . « وقد أحببت أن تضع لي كتاباً بليغا تستفرغ فيه عقلك يكون ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية على طاعة الملك وخدمته » . من مخطوط لكليلة ودمنة مصوَّر في العراق في القرن السابع الهجري محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٣٤٦٥ بالقسم العربي .

تحتويها مجموعة « شفير » ، كلاهما جرى في تصويره على الأسلوب التقليدي العراقي المتأثر بالرسوم البيزنطية ، وصورهما معاً تبدو فيها طريقة البيزنطيين في رسم المباني وتمثيل النبات وتصوير الثياب ، وتكوينها العام يكاد يكون محاكاة واحتذاءً صريحين لتكوين الصور المسيحية البيزنطية التي تجعل مركز الصورة في العادة شخصاً يجلس جلسة خاصة ، وغالباً ما يكون واعظاً أو متحدثاً أو مستقبلاً لآخرين . ويحتوي هذا المخطوط على نحو

مائة صورة كثير منها للحيوانات التي تكوّن صلب المتن في كتاب كليلة ودمنة ، وبعضها لأشخاص ذوي أهمية وردت أسماؤهم في مقدمات الكتاب ، كبيدبا ودبشليم ، وبرزويه ، وأنوشروان والناسك والضيف .



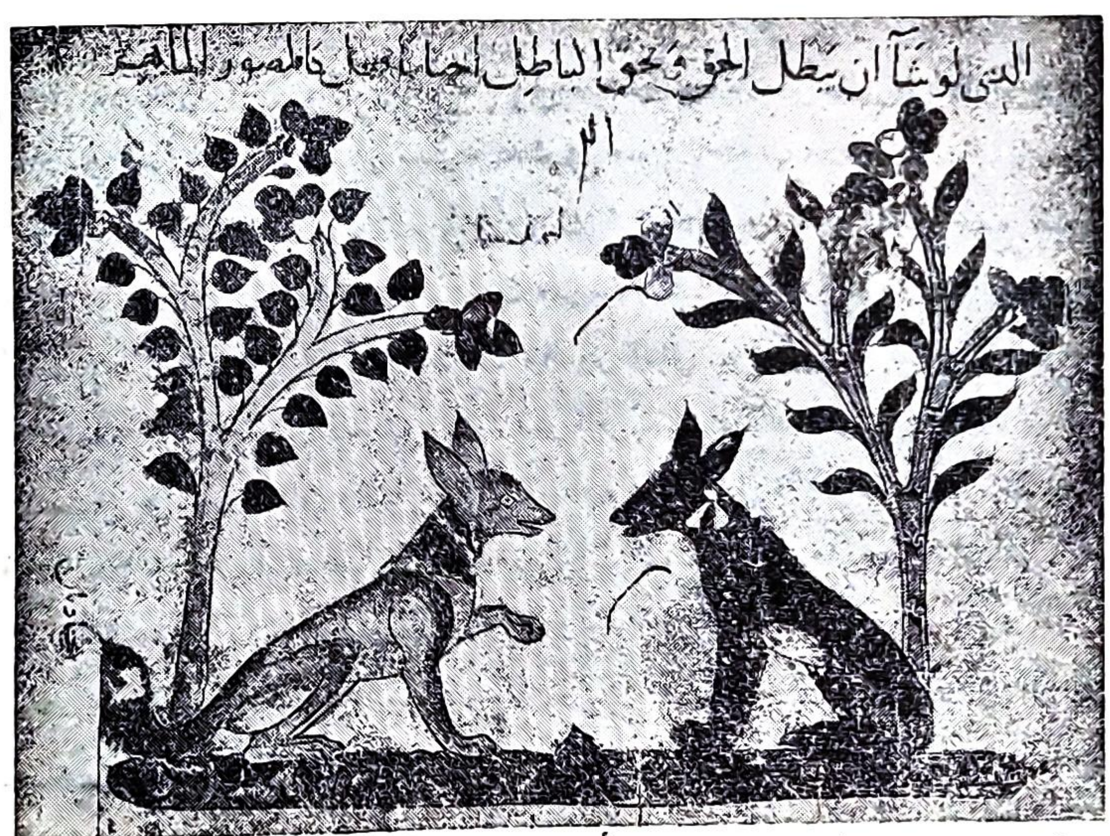
شكل ٣ : الضيف للناسك . . . « ما أحلى هذا التمر وأطيبه فليس هو في بلادي التي أسكنها ، وليته كان فيها ! . . . » من المخطوط سالف الذكر .

وفي المكتبة الأهلية بباريس ،وتعتبر أغنى مكتبات العالم بمخطوطات كليلة ودمنة المصورة وغيرها ، جزء من مخطوط عربي لكتاب كليلة ودمنة رقم ٣٤٦٧ ، تبدو فيه خصائص المدرسة العراقية التصويرية واضحة في صورة صراع الأسد والثور (شكل ٤) وصورة كليلة ودمنة (شكل ٥) وصورة الغربان (شكل ٦) وفي هذا المخطوط الأخير تظهرطريقة العراقيين الخاصة في رسم النبات ، ويتبين مدى جهدهم في تصوير الحيوان .

وقد مرت مدرسة بغداد هـذه في أدوار ثلاثة : كانت في الدور الأول تخضع لقيود هلينية بيزنطية شديدة الظهور في منتجات مدرسة واسط ومدرسة الموصل ، التي يرجح أن يكون كليلة ودمنة قد صور فيها ، والدور الثاني دور ظهرت فيه هذه المدرسة بطابع عربي قوي نفضت فيه عن نفسها غبار الغرب ، فلم تعد تظهر في صورها طريقة البيزنطيين في رسم المباني والثياب والنبات ، ولم تعد الصورة محاكاة للصورة المسيحية في تكوينها وترتيب أشخاصها ، أما الدور الثالث فهو دور تأثر مدرسة بغداد بالمؤثرات الشرقية المغولية ، ومنذ أن وقع ذلك ، وكان وقوعه على ما هو معروف بعد غزو التتار لبغداد ١٢٥٨م ، تلاشت مدرسة بغداد التصويرية العربية ، وأخذت مع الزمن تندمج في المدارس التصويرية الإيرانية ، وطغت عليها أساليب المغول والصينيين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فأصبحت منتجاتها التصويرية لا تفترق في كثير أو قليل عن منتجات تبريز وشيراز وسلطانية وسمرقند . ولا غرابة فقد غدا الذوق العام في كل العالم



شكل ٤ : صراع الأسد والثور : « ثم إن الأسد نظر إلى الثور فرأى الدلالات التي ذكرها له دمنة . فلم يشك في أنه جاء لقتاله ، فواثبه ، ونشأت بينهما الحرب ، واشتد قتال الثور والأسد ، وطال ، وسالت بينهما الدماء » . المدرسة العراقية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي .



شكل ٥ : حوار كليلة ودمنة في « باب الأسد والثور » . المدرسة العراقية في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي .



باب الملك والطير فنزة : « فركب إليه ووقف عنده وناداه باسمه » . (لوحة بريشة الرسام الروسي رومان ستريكالفسكي عن الطبعة الفاخرة التي أخرجتها دار المعارف بمصر من كتاب كليلة ودمنة في سنة ١٩٤١)



شكل ٦ : ملك الغربان يخاطب خمسة منهن « وكان في الغربان خمسة معترف لهن بحسن الرأي ، ... وكان الملك كثيراً ما يشاورهن في الأمور ، ... »
المدرسة العراقية في القرن الثالث عشر .

الإسلامي الشرقي ذوق « مغول ألتاي » أصحاب السيادة فيه . وبقي ذوق المغول في التصوير ، وفيه آثار صينية بارزة ، سائداً في إيران وما جاورها من الغرب حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي وأوائل القرن الذي يليه .

* * *

ونال كتاب كليلة ودمنة حظاً وافراً من عناية المصورين الإيرانيين منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، وفي مكتبات العالم ومتاحفه نسخ صورها رسامون من الفرس ، أشهرها النسخ المحفوظة في المكتبة الأهلية في باريس ، والنسخة المحفوظة في مكتبة « بودليان » في أكسفرد ، ومجموعة الصور الفريدة الموجودة بمكتبة جامعة إسطنبول . وفي دار الكتب المصرية نسخة فارسية مصورة لكتاب كليلة ودمنة تشبه في تصويرها النسخة الفارسية المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس شبهاً يكاد يغري بالاعتقاد بأنهما من عمل



شكل ٧ : صورة من مخطوط لكليلة ودمنة في دار الكتب المصرية بالقاهرة (رقم ٦١ أدب فارسي) شديدة الشبه بالشكل ٨ حتى لكأنهما من إنتاج مصور واحد. المدرسة المغولية المتطورة إلى المدرسة التيمورية (ق ١٣ — ١٤) .



شكل ٨ : الأسد وابن آوى : « فدعا الأسد بابن آوى ، واعتذر إليه مما كان منه ووعده خيراً . . . » من مخطوط محفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس ينسبه ساكسيان إلى المدرسة المغولية (ق ١٣ — ١٤) .

مدرسة واحدة ، إن لم تكونا من إنتاج مصور واحد (قارن الصورة رقم ٧ بدار الكتب المصرية بالصورة رقم ٨ في المكتبة الأهلية بباريس) .

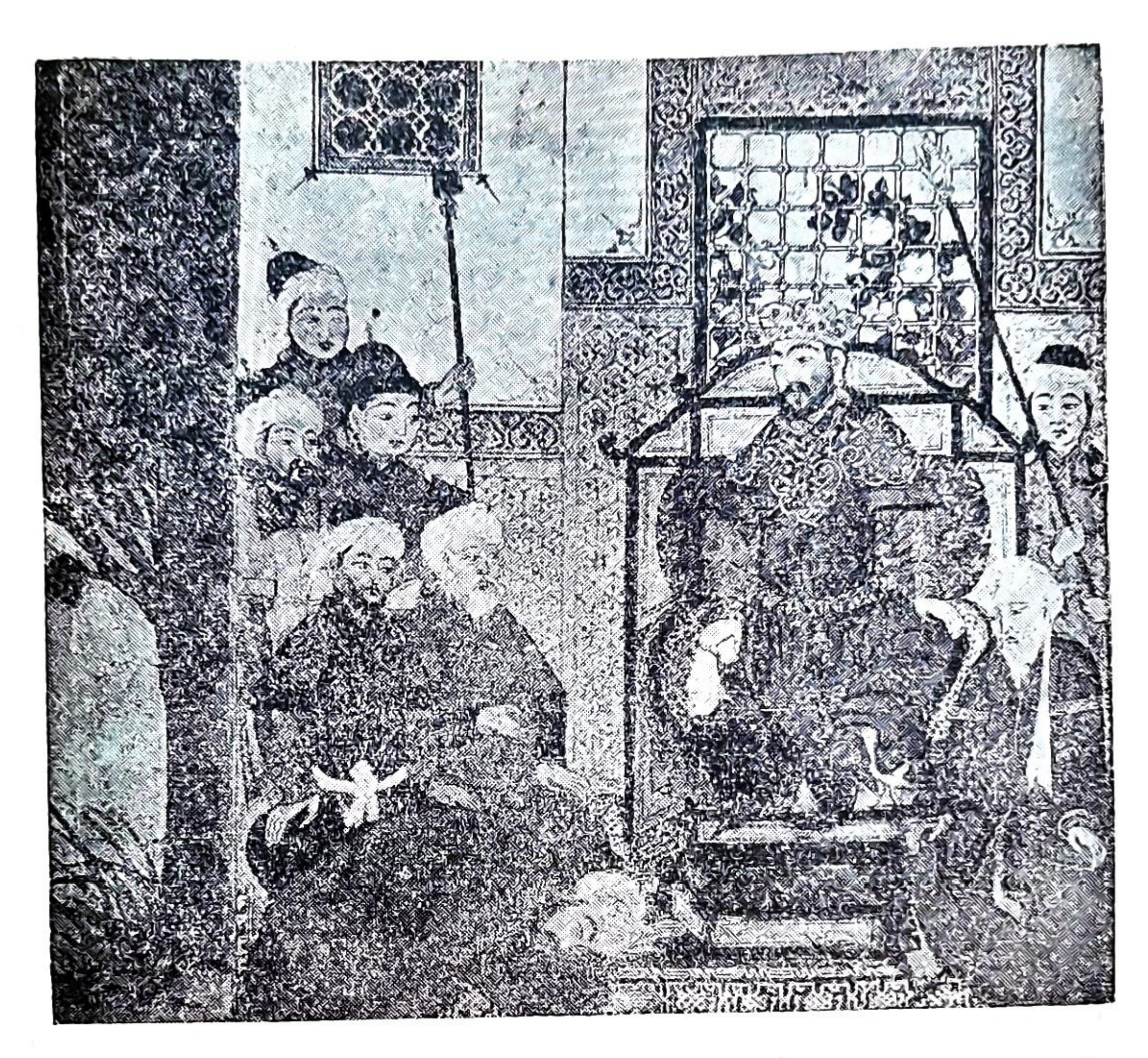
وأجمل صورة عثر عليها لهذا الكتاب صور تبلغ ربع المائة عداً محفوظة الآن بمكتبة جامعة إسطنبول.

ويختلف مؤرخو التصوير في أمرها ، فمنهم من يرى أنها صورت

في شرق إيران في بلاط السامانيين ، ومنهم من يرى أنها صورت في بلاط غزنة في القرن



شكل ٩ : صراع الأسد والثور : من صور المدرسة التي ينسبها سا كسيان إلى شرق إيران في القرن الثاني عشر الميلادي ، وصح الرأي بنسبتها أخيراً إلى مدرسة « هراة » في القرن الرابع عشر الميلادي ، من مجموعة الصور النادرة المحفوظة بمكتبة جامعة إسطنبول .



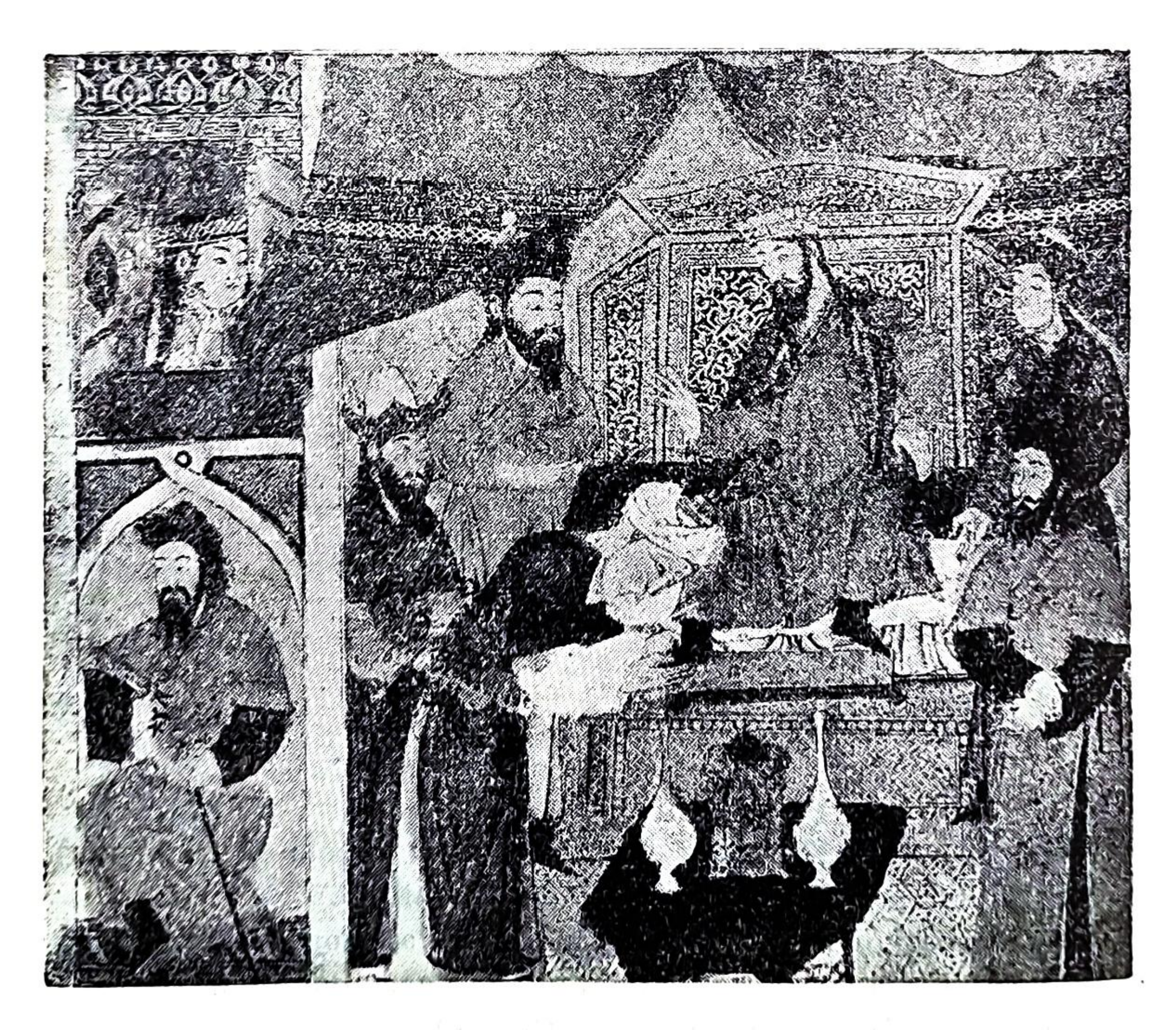
شكل ١٠ : إحدى صور مخطوط جامعة إسطنبول النادرة لكتاب كليلة ودمنة التي رجح أخيراً أنها رقت في « هراة » في القرن الرابع عشر لشدة شبهها بصور مخطوط شاهنامة « ديموت » المغولية المصورة فى هراة .

الثاني عشر ، وحجة هذا الفريق الثاني أن بخارى وسمرقند كانتا في حكم بني سامان مركزي علم وفن . وأصحاب هذا الرأي لا يرتاحون إلى فكرة نسبتها إلى غزنة التي يرونها دون بخارى وسمرقند أهمية ، ومعارضو هذا الرأي يعتقدون أن بلاط محمود الغزنوي وخلفائه كان بمغرياته يجتذب العلماء ورجال الفنون ، وأن الترجمة الفارسية الثانية لكتاب كليلة ودمنة كانت في بلاط الغزنويين وبتكليف منهم . على أن الأغلبية من مؤرخي التصوير الإسلامي يعتقدون أن المدرسة الإيرانية الشرقية لم تتأثر بالمؤثرات المغولية الغالبة على صور مكتبة جامعة إسطنبول إلا بعد القرن الرابع عشر ، ولذلك فهم يميلون إلى نسبة هذه الصور الفريدة إلى مدرسة إيرانية أخرى ، رجحوا أنها مدرسة « هراة » المزدهرة في القرن الرابع عشر للميلاد .

ويذهب الذين يعتقدن أن هذه الصور رقمت في مدرسة «هراة» في منتصف القرن الرابع عشر إلى أن صور كليلة ودمنة في مكتبة إسطنبول شديدة الشبه من حيث تفاصيلها المعمارية وأزيائها وألبسة الرأس وملامح الأشخاص بصور مخطوط الشاهنامة المشهورة بشاهنامة « ديموت » المنسوبة إلى المدرسة المغولية في هراة ، ويرجحون أنها من رقم أحد المصورين المبرزين اللذين أنجبهما هذا القرن : أحمد موسى أو شمس الدين ، وقد تفردا بمقدرة تصويرية فائقة ، وليس بغريب إذن أن تكون هذه الصور من إنتاج أحدهما .

وربما بدا الشبه جلياً بين صور مكتبة جامعة إسطنبول وصور شاهنامة « ديموت » من تدقيق النظر في الصورة رقم ١٠ والصورة رقم ١١

وتمتاز صور كليلة ودمنة المحفوظة بمكتبة جامعة إسطنبول هذه بمقدرة عجيبة على تصوير الحيوان وإلمام بارع بدراسة حركاته ، كما يتضح من صورة الصراع بين الأسد



شكل ١١ : صورة من شاهنامة « ديموت » الشهيرة التى أبدعتها يد المصور أحمد موسى أو المصور شمس الدين . المدرسة المغولية في هراة (القرن الرابع عشر الميلادي).

والثور رقم ٩ ، وبالمقدرة الفائقة على تمثيل الطبيعة في الماء والعشب والسحب وفروع الأشجار وأوراقها .

وتتبين القيمة الفنية لصور مكتبة إسطنبول ، كما يبدو الفرق جلياً بين مقدرة الإيرانيين والعراقيين في التصوير بمعاودة النظر في الصورتين ٤و٩ وهما لموضوع واحد .

وسحن الأشخاص ولباسهم ولاسيما لباس الرأس ، مغولية تدل على أن هذه الصور رقمت في بلاط مغولي نزع فيه الفنانون إلى إرضاء ذوق الطبقة الحاكمة وإشباع مزاجها . فجاءت صورهم آية في إحكام الفن ووثيقة خالدة على الزمن تشهد بالمهارة والتفرد* .

إبرهيم جمعة

---

* المراجع :

1. La Miniature Persane du XII — XVII Siècle (A. Sakisian).
2. Arts Islamica, Vol. VII. PT 2. (Michigan.)
3. A Survey of Persian Art, Miniature Painting (Oxford).
4. Les Arts de l'Iran, L'ancienne Perse & Baghdad.
5. Persian Miniature Painting (Blocket).
6. Iranian Painting of the 14th Century (B. Gray).
7. Miniature Painters and Paintings of Persia, India & Turkey.

أقوال في الكتاب

للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف بزحلة — لبنان

سمي الكتاب كتاباً لاجتماع الحروف فيه ، كما سمي العسكر كتيبة لاجتماع الجند فيه . ولقد أفاض العلماء والشعراء منذ القديم بوصف الكتب ومنافعها نثراً ونظماً ، مما أوردت منه الآن بعض أمثلة بمناسبة ظهور مجلة (الكتاب) الغراء .

قال بزرجمهر : الكتاب أصوات الحكم تنشق عن جواهر الكلم — وقيل له : ما بلغ بكتبك ؟ قال : هي إن سررت لذتي . وإن اهتممت سلوتي .

وكان الحسن بن علي بن أبي طالب يقول لبنيه وبني أخيه : تعلموا العلم فإن لم تستطيعوا حفظه فاكتبوه وضعوه في بيوتكم .

وقال ابن الطقطقي في كتابه (الفخري) : وقالوا في فضيلة الكتب : إن الكتاب هو الجليس الذي لا ينافق ولايمل . ولا يعاتبك إذا جفوته . ولا يفشي سرك . وقال ابن المعتز : الكتاب والج الأبواب جريء على الحجاب ، مفهم لا يفهم ، وناطق لا يتكلم ، وبه يشخص المشتاق إذا أبعده الفراق .

وقال الجاحظ : الكتاب وعاء ملىء علماً ، وظرف حشي ظرفاً . . . وبستان يحمل في ردن ، وروضة تقل في حِجْر ، وناطق ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء... ولا أعلم رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية ، ولا أقل جناية ولا أكثر أعجوبة وتصرفا ، ولا أقل تصلفاً وتكلفاً . . . ولا أزهد في جدال ولا أكف عن قتال من كتاب . ولا أعلم قريناً أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافاة ، ولا أحضر معونة ، ولا اخف مؤونة ، ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أطيب ثمرة ، ولا أقرب مجتنى من كتاب . . . ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، وأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، مايجمع لك الكتاب (اهـ) وهو أبلغ ما قيل . ولما أنشئت المكتبة الأولى في مصر وضعت تحت حماية الآلهة وكتب على بابها : (هنا غذاء النفوس وطب العقول) .

وأعطى ديونسيوس الملك ذات يوم « أفلاطون » كتاباً وأعطى « أرستيبوس » دراهم ، فذم جماعة أرستيبوس ولاموه فيما أعطيه فقال : أنا محتاج إلى الدراهم ، وأفلاطون محتاج إلى الكتب .

وقال الإفرنج : الكتب عقول محنطة . وقالوا : الكتب ذوب أدمغة العلماء في بوتقة الكد والاجتهاد ، وصبها في قوالب المؤلفات .

ويقول الإنجليز : إن كتباً قليلة تزيدها سنة فسنة هي قسم نفيس من حياتك .

ويقول الفرنسيون : لا يكون الإنسان وحده إذا كان بصحبته كتاب .

وقال كرليل الإنجليزي : إن جامعة هذه الأيام الحقيقية هي مجموع الكتب .

وقال هود : الكتب أجنحة النفس ، فما فيها من الأفكار الصادقة والأماني الشريفة والتأملات الرائقة أجنحة ترفعنا إلى العلاء وإلى الأمام .

وقال مكولي الكاتب السياسي المشهور : إنني أفضل أن أكون فقيراً ساكناً في كوخ وحولي الكتب الكثيرة ، على أن أكون ملكاً لا يميل إلى المطالعة .

وقال شيشرون الخطيب الروماني ما عقده كاتب هذه المقالة (المعلوف) بقوله :

شيشرون قال قولا حبذا قول النصوح
إن بيتاً دون كتب جسد من غير روح

وقال شاعر في وصف الكتب :

لنا جلساء ما نمل حديثهم ألباء مأمونون غيباً ومشهداً
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فلا غيبة تخشى ولا سوء عشرة ولا تختشي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت أموات فلم تبد أمرهم وإن قلت أحياء فلست مفندا

وقال آخر :

إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع
أتحضر بالجهل في مجلس وعلمك في البيت مستودع

وقال أحدهم :

كتاب في سرائره سرور مناجيه من الأحزان ناجي
كراح في زجاج بل كروح سرت في جسم معتدل المزاج

وما أحسن قول بعضهم :

هذا كتاب لو يباع بوزنه ذهباً لكان البائع المغبونا

أو ما من الخسران أنك آخذ ذهباً وتترك جوهراً مكنونا

وقال ابن الجهم في الكتاب :

سمير إذا جالسته كان مسلياً فؤادك عما فيه من ألم الوجد
يفيدك علماً أو يزيدك حكمة وغير حسود أو مصر على الحقد
ويحفظ ما استودعته غير غافل ولا خائن عهداً على قدم العهد
زمان ربيع في الزمان بأسره يبيحك روضاً غير ذاو ولا جعد

وقال أحمد بن رضى المالقي :

ليس المدامة مما أستريح له ولا مجاوبة الأوتار والنغم
وإنما لذتي كتب أطالعها وخادمي أبداً في نصرتي قلمي

وقال أحد الشعراء :

عليك بالحفظ دون الجمع في كتب فإن للكتب آفات تفرقها
الماء يغرقها ، والنار تحرقها والفأر يخرقها ، واللص يسرقها

وقال العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد في دار الكتب التي أنشأها الوزير مؤيد الدين بن العلقمي في داره ، وكان فيها عشرة آلاف مجلد من نفائس الكتب :

رأيت الخزانة قد زينت بكتب لها المنظر الهائل
عقول الشيوخ بها ألفت ومحصوله ذاك والحاصل
ولما مثلت بها قائماً وأعجبني الفضل والفاضل
تمثلت أسماءها منكم على النقل ما كذب الناقل
بها (مجمع البحر) لكنه من الجود ليس له ساحل
ومنها (المهذب) من فضلكم و (مغن) ولكنه نائل
ومنها (الوسيط) بما نرتجيه وفيها (النهاية) و (الكامل)
وإن كان أعوزها (شامل) فقد زانها جودك الشامل
وإن كان قد فاتها فائت أبو الفضل في علمه (كامل)

إلى غير ذلك مما لا تحتمله هذه العجالة الآن .

عيسى إسكندر المعلوف

في لسان العرب

للأستاذ أحمد محمد شاكر

١

لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، وأكثرها ألفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي[*] . فذلك هو اللغة . ولسان العرب أوسع المعاجم التي نشرت مما بقي لنا من دواوين الأقدمين . فذلك هو الكتاب .

وقد طبع كتاب « اللسان » الطبعة الواحدة بمطبعة بولاق من سنة ١٣٠٠ إلى سنة ١٣٠٨ هـ . ولم يعد طبعه مرة ثانية إلى الآن ، إلا محاولة لبعض الناشرين لم يهيأ له إتمامها . وهو الحجة القائمة بين أيدي العلماء والأدباء ، لا يغني عنه غيره مما نشر من الدواوين والمعاجم .

وفيه أوهام وأغلاط ومآخذ : بعضها من المؤلف ، وبعضها مما نقل المؤلف عنه من الكتب الخمسة التي بنى عليها كتابه ، وهي : التهذيب لأبي منصور الأزهري ، والمحكم لابن سِيدة ، والصحاح للجوهري ، وحاشيته لابن بري ، والنهاية لابن الأثير . وبعضها مما فات مصححيه في مطبعة بولاق . رحمهم الله جميعاً .

وقد استدرك كثيراً من الأغلاط والمآخذ أستاذنا العلامة الكبير أحمد باشا تيمور رحمه الله ، في كلمات نشرها في بعض الصحف والمجلات ، ثم جمعها في كتاب « تصحيح لسان العرب » ونشره أخونا الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي في قسمين : الأول في سنة ١٣٣٤ بمطبعة الجمالية ، والثاني في سنة ١٣٤٣ بالمطبعة السلفية . وهو كتاب بني على التحقيق العلمي الدقيق الذي امتاز به أستاذنا تيمور باشا في كل ما أثر عنه من آثار .

ولم يك من همّ أستاذنا الجليل تيمور باشا أن يتتبع كل ما في الكتاب من مآخذ ، ولم يقصد إلى ذلك . ولو قصد إليه لأتمه وأتقنه .

وقد وقعت إليّ مآخذ أخرى مصادفة أثناء عملي . رأيت أن أقيدها وأنشرها في

---

[*] من كلام حجة العرب الإمام الشافعي ، في الفقرة ١٣٨ من كتاب « الرسالة » بتحقيقنا ، طبعة الحلبي سنة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٨م

الفينة بعد الفينة . عسى أن يكون في نشرها فائدة . وفيما أقرأ وأرى قد تكون لي لمحات وآراء في « لسان العرب » أحب أن أعرضها للبحث والنقد ، خدمة للعربية ، في وقت تسمو فيه العروبة إلى العُلا .

فهذه أبحاث منثورة حرة ، لا تربطها وحدة ، ولا يؤلف بينها منهج ، إلا أنها أبحاث في « لسان العرب » : اللغة والمعجم . ولا تتقيد بقيود ، إلا الحق والتحقيق .

تعريب الأعلام

٢

تضطرب أقلام الكتاب كثيراً وآراؤهم في تعريب الأعلام الأجنبية ، كما نرى فيما ينشر في الصحف والمجلات والكتب . ويحاول كثير من المحدثين أن يخضعوا اللسان العربي للنطق بحروف ليست من لسانهم ، اتباعاً للغات الأجنبية التي منها يعرّبون ، فلا يكادون ينطقون باسم أعجمي في حديثهم العربي أو يكتبونه حتى تسمعه منهم أو تقرأه لهم أعجمياً صرفاً ! ثم جاء المجمع اللغوي بمصر منذ بضع سنين ، فأصدر قرارات في تعريب الأعلام زادت الأمر اضطراباً ، والألسنة عجمة ! فقرر فيما قرر :

١ — « يكتب العلم الإفرنجي الذي يكتب في الأصل بحروف لاطينية بحسب نطقه في اللغة الإفرنجية ومعه اللفظ الإفرنجي بحروف لاطينية بين قوسين في البحوث والكتب العلمية ، على حسب ما يقرّه المجمع في شأن كتابة الأصوات اللاطينية التي لا نظير لها في العربية » .

٢ — « تكتب الأعلام الأخرى التي ترسم بغير الحروف اللاطينية والعربية بحسب النطق بها في لغتها الأصلية ، أي كما ينطقها أهلها لا كما تكتب » إلخ . وقد نشرت هذه القرارات في مجلة المجمع ، في الجزء الرابع سنة ١٣٥٦هـ (ص ١٨ — ٢١) .

وهذه القرارات إذا ما تأملها القارئ رأى فيها معنى واحداً يجمعها ، وروحاً عاماً يسيطر عليها ، وهو الحرص على أن ينطق أبناء العروبة بالأعلام التي ينقلونها عن لغات أعجمية بالحروف التي ينطقها بها أهلوها ، وقسر اللسان العربي على ارتضاخ كل لكنة أعجمية لا مثال لها في حروف العرب ، وتسجيل هذه الأوابد من الحروف برموز اصطلاحية تدخل على الرسم العربي ، زعموا تزيداً في الحروف وتكثراً .

ولئن تم هذا الذي يُراد لتجدنّ اللغة العربية من بعدُ ، في رسمها وكتابتها ونطقها ولهجاتها ، مجموعة غريبة متنافرة من اللهجات الأعجمية والرسوم الرمزية . ولتجدن

ألسنةَ أبنائها لا تكاد تقيم حرفاً من العربية على ما نطق به العرب ، مما أثبته علماء «التجويد» في إخراج الحروف من مخارجها ، وعلى قواعدهم بنيت قواعد العلوم العربية ، وبها حفظ لنا النطق بالكلم العربي ، وبالقرآن ، وهو سياج اللغة وحاميها .

ولست أدري ممَّ استنبطت هذه القواعد التي اختارها هؤلاء الأعلام الكبار أعضاء المجمع .

فإن لغة العرب قبلت نطقاً ونقلت سماعاً ، لم يضع لها العرب الأقدمون القواعد في الإعراب والتصريف علوماً مدونة . إنما أخذت عنهم اللغة كما ينطقون ، وجاء القرآن العظيم مثبتاً أعلامها ، حافظاً كيانها على مر الدهور . ثم استنبط علماء الإسلام القواعد العلمية في النحو والصرف والبلاغة والعروض وغيرها ، بالاستقصاء والتتبع ، وبضم النظير إلى النظير ، والشبيه إلى الشبيه . ثم جعلوا ما خرج عن النظائر شاذاً أو مسموعاً . ولكنهم لم يرسموا الحدود الدقيقة والقواعد الواضحة في التعريب ونقل الكلمات الأعجمية إلى العربية ، فيما علمنا .

فإذا أردنا أن نضع قواعد مستحدثة في هذا كما وضع المتقدمون لغيره ، وجب أن نترسم خطواتهم ، ونتتبع آثارهم ونصنع صنيعهم في طريق الاستنباط ، وهو الطريق الواضح ، والمحجة البينة : أن نستقرئ النظائر ، ونتتبع الأمثال ، فنضم كل شكل إلى شكله ، وننظر في الأمر الجامع يجمعها ، حتى نخرج القاعدة الغالبة ، ثم يكون ما ندَّ عنها شاذاً أو نادراً أو سماعياً . ثم إن شئنا وطاوعتنا القواعد قليلاً قسنا على الشاذ والسماعي في القلة والندرة وعند الضرورة . وهذا شيء بديهي لا يكاد يشك فيه عالم .

فحين نريد أن نضع قاعدة أو قواعد لتعريب الأعلام على مثال لغة العرب ، يجب علينا أن نستقصي كل علم أجنبي نطق به العرب ، وأن نعرف ماذا كان أصله في لغة أهله ، وماذا صنع فيه العرب حين نقلوه ، لنأخذ من ذلك معنى عاماً جامعاً لصنعهم ، يكون أساساً لما نضع من قاعدة أو قواعد . وأكثر الأعلام التي نقل العرب ، وأوثقها نقلا ما جاء في القرآن الكريم ، من أسماء الأنبياء وغيرهم . فلو تتبعناها وشئنا أن نخرج منها معنى واحداً تشترك فيه كلها ، بالاستقصاء التام والاستيعاب الكامل ، وجدنا فيها معنى لا يخرج عنه اسم منها ، وهو :

أن الأعلام الأجنبية تنقل إلى العربية مغيرة في الحروف والأوزان ، إلى حروف العرب وحدها ، وإلى أوزان كلهم أو ما يقاربها . وأنها لا تنقل أبداً كما ينطقها أهلها إلا أن توافق حروفها وصيغها حروف العرب وأوزانها .

وهذا المعنى هو القاعدة التي لا يصح تجاوزها في نقل الأعلام الأجنبية إلى العربية ، وهو الذي تشير إليه أقوال أئمة العربية من المتقدمين والمتأخرين .

قال الجوهري في الصحاح (ج ١ ص ٨٠) : « تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوه به العرب على منهاجها » . وانظر أيضاً اللسان (ج ٢ ص ٧٩) .

وقال أحمد بن فارس في كتاب الصاحبي في فقه اللغة (ص ٢٤ — ٢٥) : «حدثني علي بن أحمد الصباحي ، قال : سمعت ابن دريد يقول حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة ، فإذا اضطروا إليها حولوها من التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها ، فمن تلك الحروف الحرف الذي بين الباء والفاء ، مثل " بور " إذا اضطروا فقالوا " فور " ثم قال ابن فارس : « قلنا : أما الذي ذكره ابن دريد في "بور" و "فور" فصحيح ، وذلك أن " بور " ليس من كلام العرب ، فلذلك يحتاج العرب عند تعريبه إياه أن يصيره فاء » .

وقال الجواليقي في المعرب (ص ٦) : « اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها ، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجاً ، وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً . والإبدال لازم ، لئلا يدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم » .

وفيه أيضاً (ص ٨ — ٩) : « قال أبو عمرو الجرمي : وربما خلطت العرب في الأعجمي إذا نقلته إلى لغتها . . قال : وإذا كان حكي لك في الأعجمية خلاف ما العلامة عليه فلا ترينه تخليطاً ، فإن العرب تخلط فيه وتتكلم به مخلطاً ، لأنه ليس من كلامهم ، فلما اعتنفوه* وتكلموا به خلطوا » .

وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط (ج ١ ص ٣١٧ — ٣١٨) في اسم « جبريل » : «وقد تصرفت فيه العرب ، على عادتها في تغيير الأسماء الأعجمية ، حتى بلغت فيه إلى ثلاث عشرة لغة » .

ونقل السيوطي في المزهر (ج ١ ص ٢٩٢) عن المرزوقي في شرح الفصيح : « المعربات ما كان منها بناؤه موافقاً لأبنية كلام العرب يحمل عليها ، وما خالف أبنيتهم منها يراعى ما كان إلفهم له أكثر فيختار . وربما اتفق في الاسم الواحد عدة لغات ، كما روي في جبريل ونحوه . وطريق الاختيار في مثله ما ذكرت » .

---

* « اعتنفوه » بالفاء ، يقال « اعتنف الشيء » أي أتاه ولم يكن له به علم ولا حذق ، أو كرهه ووجد له مشقة .

فهذه هي الفطرة العربية السليمة ، المناسبة لقوة عارضة العرب ، ولرصانة لغتهم ، وإتقانهم مخرج حروفهم وتجويدهم إياها . وكذلك لا نزال نرى عامتنا على فطرتهم إذا ما لاكت ألسنتهم اسماً أعجمياً ، يصوغونه صياغة الحرف العربي والنطق العربي ، غير متعملين ولا متكلفين ، وإن أخطؤوا قواعد اللغـة وقواعد الإعراب . أما متعلمونا ومثقفونا — أو أكثرهم — فأنت ترى ماذا صنعوا بلغتهم إذا نقلوا إليها عن اللغات الأعجمية : يتبعون قرار المجمع اللغوي ! أو هم قد سبقوه إلى العمل به قبل وضعه ! فلا يكاد لسانهم ينطق بكلمة أجنبية أو علم أجني حتى ينقلب لساناً إفرنجياً تبرأ منه لغة العرب ، وتنفر منه أسماع العرب . فيأتون بالحروف المعوجة ، والحروف المخطوفة ، ويجمعون بين ساكنين أو ثلاثة ، ويبدؤون بالساكن ، وهكذا ، ينطقون بها « كما ينطقها أهلها » وليتهم فعلوا هذا حقاً ، إنما هم ينطقون كل كلمة أجنبية ، إما كما ينطقها الإنجليز ، وإما كما ينطقها الفرنسيون ، حتى لو كانت الكلمة فارسية أو هندية أو صينية أو يابانية أو جاوية ، أو ما شئت من لغات أمم سمعنا بها ، ومن لغات أمم لم نسمع بها ! ! وإن شئت مصداق قولنا فاستمع للاذاعة في « الرديو » من مصر ومن غيرها ، وتأمل نطق المتحدثين من المتعلمين والمثقفين بالعربية ، حين يعثر لسان أحدهم بكلمة أجنبية ، وانظر كيف « يتفاصح » فيعوج لسانه ويتمطى ويلين ، يحاول أن ينطقها كما ينطقها أهلها «الإنجليز أو الفرنسيون » فقط ، فتسمع لغة عربية أعجمية « حديثة » !! ودع عنك أن هذا « التفاصح » إنما يحرصون عليه في الألفاظ الأعجمية ، أما قواعد اللغة العربية ، وأما صحة الألفاظ العربية فلا « يتفاصح » فيها أحد ، إلا القليل النادر . وهكذا فعلوا في الكتابة ، حتى ما كتب خطأً في اللغات الأخرى ، يحرص أبناء العربية على كتابته على الخطأ ، كما ورد عن السادة الذين نقلدهم ! وأقرب مثل لذلك اسم البلدة الهندية « دَهلي » الشهيرة ، اسمها عند أهلها « دهلي » وكتبها كذلك علماء الهنود الكبار الذين ألفوا نفائس الكتب بالعربية ، وهكذا نسبتهم إليها ، مثل العلامة الكبير «شاه ولي الله الدهلوي » ، ومع ذلك فإن الإنجليز أخطؤوا فنطقوها وكتبوها « دلهي » بتقديم اللام ، ويظهر لي أن هذا خطأ قديم ، منذ أن عدوا على الهند واستعمروها ، ولكن الإنجليز قوم محافظون ، لا يهون عليهم أن يلعبوا بلغتهم ، حتى لو نقلوا إليها نقلا خطأً ، إذا شاع على ألسنتهم . ومن أعجب ما يتصل بهذا أني رأيت كتاباً في الطب باللغة الأردية ، طبع على الحجر في دهلي ، ومؤلفه اسمه «الدكتور ... الدهلوي» وكتب اسمه على صحته هكذا بالحروف العربية في أول الكتاب وبالحروف الإفرنجية في آخره ،

ثم كتب اسم البلد الذي طبع فيه الكتاب « دلهي » ! فهذا هندي دهلوي يتبع الأجانب في خطئهم في تسميته بلده .

ومن العجب أيضاً أن أرى رجلا من كبار علمائنا وأدبائنا يكتب في بعض مؤلفاته الأعلام الإفرنجية ، ويتأنق في ضبطها ، فيضع علامتي السكون على حرفين متتابعين ، بل يضع علامة السكون على آخر حرف من العلم ، وهو موضع الإعراب في العربية ! ولست أدري كيف طاوعته يده على هذا ، وهو رجل « محافظ » مثلي — على التعبير الحديث — يحمل شهادة العالمية التي أحملها ، وإن كان له فضل السبق إليها ، وما أظنه نال شهادة غيرها ، وقد تعلمنا فيما تعلمنا باباً في النحو في « موانع الصرف » ، وأن منها « العلمية والعجمة » وأن من أحكامه أن العلم الأعجمي الأصل يعرب بالضمة في حال الرفع وبالفتحة في حالي النصب والجر، ولم يذكروا أبداً أنه يعرب بالسكون أو يبنى على السكون ! والأعلام الأعجمية الأصل جرت عليها هذه الأحكام في القرآن والحديث والشعر والنثر، لم يجر عليها حكم آخر أبداً ، فأنى جاءت هذه الطريقة المحدثة إلا من التقليد ومن إخضاع أرواحنا وعقولنا إلى الأجانب ؟ ! ولو تأمل المتأمل ، وأنصت السامع ، لما يتحدث به أكثرنا وما يكتبون ، لرأى هذا الخطأ شائعاً ذائعاً ، لا يكاد يتحرز منه أحد ، فترى كل الناس تكتب — مثلا — اسم « تشرشل » هكذا بالتاء قبل الشين ! وليس في الاسم في لغتهم هذا ، إنما هي شين صرف ، تثقل تثقيلا خاصاً هو أقرب إلى لثغة بعض ذوي العاهة من أبناء العربية إذا ما نطقوا بهذا الحرف . ولا أزال أذكر أنه كان يكتب قديماً في الصحف دون هذه التاء المنكرة التي يبدأ بها ساكنة . وما سمعت عامياً ينطقه على فطرته بعد كتابته بالتاء إلا النطق الذي تقتضيه لغة العرب « تشرشل » بكسر التاء والشين معاً ، يجعلونهما حرفين حقيقيين لا حرفاً واحداً خارجاً على اللغة . وهكذا كثير من المثل التي نراها ونسمعها في هذه الأعلام .

وأغرب من كل هذا ، أني حين أنصت للمتحدثين من الأدباء والمثقفين ، من أبناء العروبة المخلصين لها ، أجدهم حين يتحدثون بلغة أجنبية إنجليزية أو فرنسية ، إذا جاء على لسانهم في حديثهم علم عربي نطقه الإفرنج نطقاً خاصاً على لغتهم ، نطقوه نطق الإفرنج الخلص ! ونسوا القاعدة التي يتبعونها في لغتهم إذا نقلوا إليها علماً أعجمياً ، نسوا أن ينطقوا العلم العربي كما ينطقه أهله العرب ، وهم منهم ، بل من خيرتهم ! ! فالمسألة نفسية روحية ، قبل أن تكون علمية لغوية .

أحمد محمد شاكر

كتاب عام ... 12.X.2005

أجوزة السفر في العصور الإسلامية

للأستاذ ميخائيل عواد — ببغداد

١ — تمهيد

من أخطر الأمور التي تهدد كيان بلد ما ، أو مملكة ما ، تسرب الغرباء إليها خلسة ، وتغلغلهم في أنحائها ، واستقصاؤهم خفاياها ، وكشفهم عن أسرارها . فكم من دولة ابتليت بهذا البلاء ، فذهبت ضحية هذا الأمر في العصور القديمة والحديثة !

وقد تنبهت الحكومات منذ قديم الزمان إلى أضرار مثل هذا الدخول غير المشروع ، فعمدت إلى اتخاذ شيء سمي بـ « الجواز » يحمله من يدخل بلداً أجنبياً . والامر جار اليوم على هذه السنّة في كافة بلدان العالم مع الاختلاف في شدة التحذر والتيقظ.

و «الجواز» في اللغة هو « صك المسافر ، جمعه أجوزة . يقال: خذوا أجوزتكم أي صكوك المسافرين لئلا يتعرض لكم [1] » .

وكنا في أثناء المطالعة قد وقفنا على جملة من الأخبار بصدد هذه الأجوزة في العصور الإسلامية السالفة ، ووددنا تقديمها إلى القراء في هذه المقالة .

٢ — صيغة الجواز

شرح ذلك القلقشندي [2] (المتوفى سنة ٨٢١ للهجرة) في عرض كلامه على المكاتبات . قال في أوراق الجواز[3] : « هي المعبر عنه في زماننا بأوراق الطريق .قال في (التثقيف) تكون ورقة الطريق في ثلاثة أوصال في قطع العادة [4]، يكتب في أعلاها سطر واحد ، صورته : (ورقة طريق على يد فلان بن فلان الفلاني) لا غير . ثم يخلى بيت

---

(١) تاج العروس ، وأساس البلاغة في مادة (ج وز) .

(٢) صبح الأعشى (٧ : ٢٣١ — ٢٣٣) .

(٣) وصفه للجواز يمثل ما كان جارياً في عصر المماليك بمصر .

(٤) قطع العادة : وهو القطع الصغير ، وفي هـذا القطع تكتب عامة المكاتبات ، مما يكتب به لأرباب السيوف والأقلام على اختلاف مقاديرهم ، وتباين مراتبهم في الرفعة والضعة . أنظر صبح الأعشى (٢ : ٤٧٦ و ٦ : ١٩١) .

العلامة تقدير شبر ويكتب في بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثاني بأربعة أصابع مطبوقة بغير بسملة : (رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الفلاني — أعلاه الله تعالى وشرفه وأنفذه وصرفه — أن يمكن فلان الفلاني) . وتذكر ألقابه إن كان أميراً ، أو متعمما كبيراً ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة ، أو غير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال (من التوجه إلى جهة قصده والعود ، ويحمل على فرس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور من مركز إلى مركز على العادة متوجهاً وعائداً) ، فإن كان متميز المقدار كتب : (ويعامل بالإكرام والاحترام ، والرعاية الوافرة الأقسام ، فليعتمد ذلك ويعمل بحسبه ، من غير عدول عنه بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه) . قال : وما تقدم من كتابة أنه يمكن من التوجه والعود ، هو فيما إذا كان عائداً ورسم بتمكينه من العود ، وإلا فيكتب (أن يمكن من التوجه إلى جهة قصده) . فإن كان قد حضر إلى الأبواب وهو عائد ، فالأحسن أن يكتب فيه (أن يمكن من العود إلى جهة قصده) . وكذا (ويعامل بالإكرام والاحترام) لا يكتب إلا لأمير ، أو ذي قدر كبير ، فإن كان غيره كتب بدله (مع الوصية به ورعايته) ونحو ذلك . وإن رسم له بنفقة ، كتب بعد ذكر خيل البريد : (ويصرف له من النفقة في كل يوم كذا وكذا درهماً) خلا الأماكن المرسوم بإبطالها . وذلك أن بالطرقات أماكن لا يصرف فيها شيء الآن ، فيحتاج إلى أن تستثنى ، وكانت قبل ذلك تعين ، وهي : بلبيس [١] وطفيس [٢] وأربد [٣] وغيرها . ثم كثرت عن التعداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : ومما ينبه عليه هو أن صاحب ورقة الطريق إن كان من مماليك النواب أو رسل أحد من أكابر البلاد ذكر فيه بعد ذكر ما يليق به من الألقاب : (فلان مملوك فلان أو رسول فلان) وتذكر ألقاب مخدومه التي كوتب بها اختصاراً . ولا تذكر نعوته وعلى يد من رسم بنفيه ، كتب : (أن يمكن الأمير فلان الدين فلان من التوجه صحبة فلان البريدي بالأبواب الشريفة أو أحد النقباء بالباب الشريف ليوصله إلى المكان الفلاني ، ويحمل على كذا وكذا فرساً من خيل البريد المنصور) إن كان قد رسم له بشيء من خيل البريد (ويحمل البريدي على كذا من خيل البريد المنصور) أو (ويحمل النقيب على فرس واحد

---

(١) بلبيس : « بكسر الباءين وسكون اللام وياء وسين مهملة : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام (معجم البلدان ١ : ٧١٢ ؛ طبعة وستنفلد) .

(٢) طفيس : من نواحي الأعمال الشرقية بمصر . ذكرها ابن الجيعان في (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية) (ص ٣٦ ؛ بولاق سنة ١٨٩٨) . (٣) أربد : « بالفتح ثم السكون والباء الموحدة : قرية بالأردن قرب طبرية » : (معجم البلدان ١ : ١٨٤) .

من خيل الكراء من ولاية إلى ولاية على العادة في ذلك ، ويمكن البريدي إن كان بريدياً ، أو النقيب إن كان نقيباً من العود إلى الباب الشريف) ثم يكمل بنسبة ما تقدم . وإذا فرغ من صورته كتب بعد ذلك (إن شاء الله تعالى) ، ثم التاريخ والمستند على العادة » .

ثم واصل كلامه بقوله : « قال في (التثقيف) : والمستند في أوراق الطريق أحد ثلاثة أمور : إما خط كاتب السر [١] ، وهو الغالب ، أو رسالة الدوادار [٢] ، وهو كثير أيضاً ، أو إشارة نائب السلطان[٣] إن كان ثم نائب ، وهو نادر . فإن كان بخط كاتب السر ، كتب على الهامش من الجانب الأيمن سطر واحد يكون آخره يقابل السطر الأول الذي هو رسم بالأمر الشريف . وهو (حسب المرسوم الشريف) . وكذا إن كان بإشارة النائب ، كتب سطران على الهامش المذكور آخرهما يقابل أول السطر الأول (بالإشارة العالية) ... قال : وفي هاتين لا يكتب في ذيلهما بعد التاريخ سوى الحسبلة لا غير . وإن كان برسالة الدوادار ، كتب على الهامش (حسب المرسوم الشريف) فقط ، وكتب تحت التاريخ سطران هما : (رسالة المجلس العالي الأميري الفلاني فلان

---

(١) كاتب السر : أفاض القلقشندي الكلام على هذه الرتبة (صبح الأعشى ١ : ١٠١ — ١١٠ و ٥ : ٤٦٤ و ١١ : ٢٩٤ — ٣١٦ و ١٢ : ١٨٨ — ١٩٠) فما قاله : « كاتب السر ، وهو صاحب ديوان الإنشاء ، ووظيفته قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها ، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها ، وتصريف المراسيم وروداً وصدوراً ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل » .

« أما رفعة محله وشرف قدره ، فأرفع محل وأشرف قدر ، يكاد أن لا يكون عند الملك أخص منه ولا ألزم لمجالسته ، ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن ، مقدماً لديهم على ما عداه ، يلقون إليه أسرارهم ، ويخصونه بخفايا أمورهم ، ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء من الوزراء والأهل والولد ، وناهيك برتبة هذا محلها » .

(٢) الدوادار : قال القلقشندي (صبح الأعشى ٥ : ٤٦٢ ، وانظر أيضاً ٤ : ١٩): « هو لقب على الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير أو غيرهما ، ويتولى أمرها مع ما ينضم إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال ، وهو مركب من لفظين ، أحدهما عربي وهو الدواة ، والمراد التي يكتب منها ، والثاني فارسي وهو داز ، ومعناه ممسك ، ويكون المعنى (ممسك الدواة) » .

(٣) نائب السلطان : عرفه القلقشندي بقوله (صبح الأعشى ٥ : ٤٥٣ ، وراجع أيضاً ٤ : ١٦ — ١٨) : « هو لقب على القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها ... ويطلق هذا اللقب في العرف العام على كل نائب عن السلطان أو غيره بحضرته أو خارجاً عنها في قرب أو بعد ، إلا أن النائب عن السلطان بالحضرة يوصف في عرف الكتاب بالكافل ؛ فيقال (النائب الكافل) وفي حالة الإضافة (كافل الممالك الإسلامية) . . . . » .

الدوادار المنصوري أدام الله تعالى نعمته) ، ثم الحسبلة ».

٣ — متولى الجواز

وقفنا على خبر شخص عراقي واحد ممن تولى أمر الأجوزة في بغداد ، ذكره ابن الساعي (المتوفى سنة ٦٠٦ هـ) في جملة من توفي من الأعيان في سنة ٦٠٣ للهجرة . قال : يوسف بن القاييني حاجب السور ، متولي الجـواز ، توفيّ في عاشر المحرم وكان مشكوراً [١] » .

٤ — متى اتخذت الأجوزة فى ديار المشرق

يظهر من سياق الروايات التاريخية أن أجوزة السفر لم تكن متخذة في المائة الثانية [٢] للهجرة في ديار المشرق . وأفصح نبأ في هذا الشأن ما ورد في ترجمة المؤمل ابن أميل بن أسيد المحاربي ، وهو شاعر كوفيّ من مخضرمي شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، وكانت شهرته في العباسية أكثر . روى أبو الفرج الأصفهاني « ... قال : حدثني المؤمل ، قال : قدمت على المهدي وهو بالري ، وهو إذ ذاك ولي عهد ، فامتدحته بأبيات ، فأمر لي بعشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد إلى أبي جعفر المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أن الأمير المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم ، فكتب إليه يعزله ويلومه ويقول له : إنما ينبغي أن تعطي بعد أن يقيم ببابك سنة : أربعة آلاف درهم ، وكتب إلى كاتب المهدي أن يوجه إليه بالشاعر ، فطلب ولم يقدر عليه ، وكتب إلى أبي جعفر أنه قد توجه مدينة السلام ، فأجلس قائداً من قواده على جسر النهروان وأمره أن يتصفح الناس رجلا رجلا ، فجعل لا يمر به قافلة إلا تصفح من فيها . ومرت به القافلة التي فيها المؤمل ، فتصفحهم ، فلما سأله من أنت ؟ قال : أنا المؤمل بن أميل المحاربي الشاعر أحد زوّار الأمير المهدي ، فقال : إياك طلبت . قال المؤمل : فكاد قلبي أن ينصدع خوفاً من أبي جعفر ، فقبض عليّ وأسلمني إلى الربيع ، فأدخلني إلى أبي جعفر ، وقال له : هذا الشاعر الذي أخذ من المهدي عشرين ألفاً قد ظفرنا به ، فقال : أدخلوه إليّ ، فأدخلت إليه .... [٣] »

---

(١) الجامع المختصر (٩ : ٢٠٧ ؛ بتحقيق الدكتور مصطفى جواد ، بغداد ؛ سنة ١٩٣٤).

(٢) أما في أيام الجاهلية، فقد وصل إلينا بعض الأنباء وهي تخبر بوجود شيء له صلة بالأجوزة عرف يوم ذاك بـ « الأذن بدخول البلد » ، انظر ذلك في كتاب « الإكليل » للهمداني : (٨ : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ؛ طبعة الأب أنستاس ماري الكرملي ، بغداد سنة ١٩٣١) .

(٣) الأغاني (١٩ : ١٤٧ ؛ طبعة الساسي) .

وأنت راء في هذا الخبر عسر الطريقة في الوقوف على الشخص المطلوب ، فلو كان أمر الأجوزة جارياً لما عمدوا إلى هذا العمل الشاق .

والظاهر أن الحال درج حتى النصف الأول من المائة الثالثة للهجرة . فإن أحد الرحالين(١) المسلمين عجب من وجود أجوزة السفر في بلاد الصين ، واعتبره شيئاً جديداً غريباً لا عهد له به (٢) .

فمما رواه في هذا الشأن أن « من أراد سفراً من بعضها إلى بعض (أي من مدينة في الصين إلى مدينة أخرى) ، أخذ كتابين من الملك ومن الخصي . أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه ، وكم عمره وعمر من معه ، ومن أي قبيلة هو . وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به . وأما كتاب الخصي فبالمال وما معه من المتاع ، وذلك لأن في طريقهم مشايخ ينظرون في الكتابين ، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا : ورد علينا فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا ، لئلاّ يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعاً . فمتى ما ذهب منه شيء أو مات علم كيف ذهب ، ورُدّ عليه أو على ورثته من بعده (٣) » .

٥ — أجوزة السفر في بلاد الشام والأطراف

انتهت إلينا بعض الأنباء عن الأجوزة في ديار الإسلام في النصف الثاني من المائة الثالثة للهجرة . ومن أفصح ما ورد في هذا الصدد الخبر الذي جاء في سيرة المعتضد بالله الخليفة العباسي (٢٤٢ — ٢٨٩ هـ) ، وكان شهماً عاقلاً ظاهر الجبروت ، ولي والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته ، وكثرت الأموال ، وضبطت الثغور .

حكى القاضي المحسِّن التنوخي (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) قال : « حدثني أبي عن أبي محمد بن حمدون(٤) ، قال : كنت بحضرة المعتضد ليلة على شرب ، إذ جاءه كتاب

---

(١) سلسلة التواريخ ، من تصنيف سليمان التاجر وأبي زيد السيرافي ، من أبناء المائة الثالثة للهجرة (٢ : ٤٢ — ٤٣ ؛ طبعة رينو ، باريس ١٨١١) .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لمتز (٢ : ٢٣٤ — ٢٣٥) .

(٣) سلسلة التواريخ (٢ : ٤٢ — ٤٣) .

(٤) كان نديم المعتضد بالله وخاصته ، وممن يأنس به في خلواته .

فقرأه وقطع الشرب وتنغص به ، واستدعى عبيد الله بن سليمان [1]، فأحضر للوقت ، وقد كاد يتلف وظن أنه قد قبض عليه ، فرمى بالكتاب إليه فإذا هو كتاب صاحب خبر السرّ بقزوين إليه يقول : إن رجلا من الديلم وجد بقزوين وقد دخلها متنكراً . فقال لعبيد الله ، اكتب الساعة إلى صاحبي الحرب والخراج وأقم قيامتهما وتهددهما عني بالقتل لم تم هذا ؟ وتشدد في الإنكار ، وطالبهما بتحصيل الرجل ولو من تخوم الديلم ، وأعلمهما أن دمهما مرتهن به حتى يحضرا به ، وارسم لهما أن لا يدخل البلد مستأنفاً أحد ولا يخرج إلا بجواز ، حتى لا تتم حيلة لأحد من الديلم في الدخول سراً ، وأن يزيدا في الحرس والتيقظ ، ونفذنا الناس إليهم ، وأفرط في التأكيد . فقال عبيد الله : السمع والطاعة ، أمضي إلى داري وأكتب . فقال : لا ، اجلس بمكانك واكتب بخطك واعرض علي . قال : فأجلسه وعقله ذاهل ، فكتب ذلك وعرض عليه ، فلما ارتضاه دعا بخريطة[2] إلى حضرته فجعلت الكتب فيها وأنفذها ، وقال لعبيد الله : أنفذ معها من يأتيك بخبر وصولها النهروان ، وسيرها عنه وانصرف . فنهض عبيد الله ودعا المعتضد إلى مجلس شربه وكأنه قد لحقه تعب عظيم ، فاستلقى ساعة ثم عاد يشرب . فقلت له : يا أمير المؤمنين تأذن في الكلام ؟ فقال : نعم . فقلت : كنت على سرور طيب ، فورد خبر قد كان يجوز أن تأمر فيه غداً بما أمرت به الساعة ، فضيقت صدرك وقطعت شربك ، ونغصت على نفسك ، وروعت وزيرك وأطرت عقول عياله وأصحابه باستدعائه في هذا

(١) عبيد الله بن سليمان بن وهب بن سعيد، وزير المعتمد والمعتضد. قال ابن الطقطقي (الفخري في الآداب السلطانية ص ٣٠١ — ٣٠٢ ؛ طبعة أهلورت) : « كان عبيد الله من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب ، وكان بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جليلا ، مات في سنة ثمان وثمانين ومائتين » . وقال في مواطن أخرى (الفخري ٢٩٢ — ٢٩٦) : « وكان بنو وهب من رؤساء الناس وحذاقهم وفضلائهم وكرمائهم . وكانت دولتهم ناضرة وأيامهم مشرقة ، والأدب في زمانهم قائم المواسم ، والكرم واضح المعالم ، وكانوا نصارى ثم أسلموا وخدموا في الدواوين حتى آلت بهم الحال إلى ما آلت » .

(٢) خريطة : جمعها خرائط ، وهي على ما في معاجم اللغة (مادة خ ر ط) : « وعاء من أدم وغيره يشرج على ما فيه . وقد أخرط الخريطة إذا أشرجها . وقال الليث في كتاب العين : الخريطة مثل الكيس مشرج ، من أدم أو خرق [أو ليف هندي أو خيش] ويتخذ ما شبه به لكتب العمال فيبعث بها » . والمكلف أمر الخرائط ، يسمى « صاحب الخريطة » ، كما كان للخرائط ديوان خاص ، يسمى « ديوان الخرائط » ، وكانت الخرائط في بعض الأحيان تربط بالمناطق وتشد على الأوساط ، وكانت تحلق بحلقات وتنفذ إلى أصحابها . ومن أصناف الخرائط : خرائط السكر ، وخرائط المال ، وخرائط الموكب ، وخرائط خرسانية ، وخرائط بندارية ، وخرائط سود وخرائط صفر وغيرها .

الوقت المنكر حتى أمرته بهذا الذي لو أخرته إلى غد لكان جائزاً . فقال : يا ابن حمدون ليست من مسائلك ، ولكنا أذنا لك في الكلام . إن الديلم شر أمة في الدنيا وأعمهم مكراً وأشدهم بأساً وأقواهم قلوباً ، ووالله لقد طار عقلي فزعاً على الدولة من أن يتطرق إليهم دخول قزوين سراً ، فيجتمع فيها منهم عدة يوقعون بمن فيها ويهلكونها وهي الثغر بيننا وبينهم ، فيطول ارتجاعها منهم ، ويلحق الملك من الضعف والوهن بذلك أمر عظيم يكون سبباً لبطلان الدولة . وتخيلت أني إن أمسكت عن التدبير ساعة أن يفوت ، وأنهم يجيؤون على قزوين . ووالله لو ملكوها لنبغوا علي من تحت سريري هذا ، واحتووا على دار المملكة ، فما هنأني الشرب ولا طابت نفسي بمضي ساعة من زماني فارغة من تدبير عليهم، فعملت ما رأيت » .(١)

ومن أخبار الأجوزة في هاتيك الديار ، أن السلطان عضد الدولة البويهي (المتوفى سنة ٣٧٢ هـ) ، أحدث في المائة الرابعة للهجرة — لأول مرة نظام مراقبة الأبواب في مدينة شيراز عاصمة بلاده ، حتى قال البشاري في حقها « . . . ومنع الخارج منه إلا بجواز ، وحبس الداخل والمجتاز . . . »(٢)

وكانت سنة سبعمائة للهجرة مشحونة بالأحداث الجسام ، ففي « مستهل صفر [من هذه السنة] ، وردت الأخبار بقصد التتر بلاد الشام ، وأنهم عازمون على دخول مصر فانزعج الناس لذلك وازدادوا ضعفاً على ضعفهم ، وطاشت عقولهم وألبابهم ، وشرع الناس في الهرب إلى بلاد مصر والكرك والشوبك والحصون المنيعة ، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة ، وبيع الجمل بألف ، والحمار بخمسمائة . وبيعت الأمتعة والثياب والمغلات بأرخص الأثمان . وجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية في ثاني صفر بمجلسه في الجامع ، وحرض الناس على القتال ، وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك ، ونهى عن الإسراع في الفرار ، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلمين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق فى أجرة الهرب إذا أنفق فى سبيل الله كان خيراً ، وأوجب جهاد التتر حتما في هذه الكرة ، وتابع المجالس في ذلك ، ونودي في البلاد . لا يسافر أحد إلا بمرسوم وورقة ، فتوقف الناس عن السير وسكن جأشهم . . . » .(٣)

---

(١) نشوار المحاضرة (١ : ١٥٤ — ١٥٥) .
(٢) أحسن التقاسيم (ص ٤٢٩ ؛ طبعة دي خويه في ليدن) .
(٣) البداية والنهاية لابن كثير (١٤ : ١٤) .

٦ — أجوزة السفر في الديار المصرية

كان بمصر منذ أول العصر الإسلامي ، نظام دقيق للأجوزة المتخذة للانتقال الداخلي من مدينة إلى أخرى في الديار المصرية .

وقد وقفنا على جوازين داخليين ، كتبا بالعربية على ورق البردي ، يرتقي تاريخهما إلى أوائل المائة الثانية للهجرة ، كتبهما بعض عمال الأمير عبيد الله بن الحبحاب[1] حين إمارته على مصر .

ويعتور الجواز الأول منهما خروم كثيرة ، لتقادم عهده ولتأثير عوامل التلف الأخرى عليه ، إلا أن المستشرق « جرهمان » توصل بالبحث والاستنتاج إلى ملء بعض ما ذهب من ألفاظ النص الأصلي . وهذا نص الجواز بحسب قراءة « جرهمان »[2] له (أنظر صورته) :

١ بسم الله الرحمن الرحيم
٢ هذا كتب من فلان بن فلان عامل الأمير عبيد الله بن الحبحاب على أعلا
٣ اشمون لشنوده بن
٤ مداهره القمر ؟ من أهل مدينة اشمون
٥ اني أذنت لك عطب ماس الصمد واسـ ١١ .
٦ لوفا جزيته ومعيشته واجلته خمسة اشهر
٧ من مستهل شعبان سنة ثلث ومئه الى انسلخ
٨ ذي الحجة من سنة ثلث ومئه وطـع
٩ د . فمن لقيه بعد الاجل الذي اجلته
١٠ فليسده الى مدينة والسلم على من اتبع الهدى
١١ وكتب سعيد فى شعبان سنة ثلث ومئة

---

(١) عبيد الله بن الحبحاب ، خلف حيان بن شريح على إدارة المال في مصر منذ سنة ١٠٢ إلى ١١٦ للهجرة . وتلقيبه بلقب « أمـير » يدل بوضوح على أنه لم يكن متولي خراج مصر وحسب ، بل كان حاكما عليها . راجع :
Adolf Grohmann : Arabic Papyri in The Egyptian Library. (Cairo, 1938 Vol, III. P. 123.).

(٢) المرجع السابق الذكر (ص ١١٨) .

الله و

سـ

أما الجواز الآخر ، فإن ما أصابه من تلف كان أقل من سالفه . ولعل أدل ما ورد فيه في هذا الباب ما كان يتميز به حامله من علامات فارقة في جسمه . وإليك نصه نقلا عن « جرهمان » أيضاً .[1]

١ بسم الله الرحمن الرحيم

٢ هذا كتاب من عبدالله بن عبيد الله عامل

٣ الأمير عبيد الله بن الحبحاب على اعلا اشمون

٤ لقسطنطين ببسطلس شاب ابط بخده أثر وبعنقه خالين

٥ سبط من أهل بسقنون باهه من اعلى اشمون انى

٦ اذنت له أن يعمل باسفل اشمون لوفا جزيته

٧ والتماس معيشته واجلته شهرين من مستهل ذي الحجة

٨ الى انسلخ المحرم سنة ست عشرة ومائة فمن لقيه

٩ من عمال الأمير أو غيرهم فلا يعترض له في ذلك

١٠ من الاجل الا بخير والسلم على من اتبع الهدى

١١ وكتب طليق في مستهل ذي الحجة تمام سنة

١٢ اثنتى عشرة ومائة

الله و

عبد الله

وكان بنو طولون يبالغون في العناية بهذا الأمر ، فلا يجوز للرجل أن يخرج من مصر على عهدهم إلا بجواز[2] .

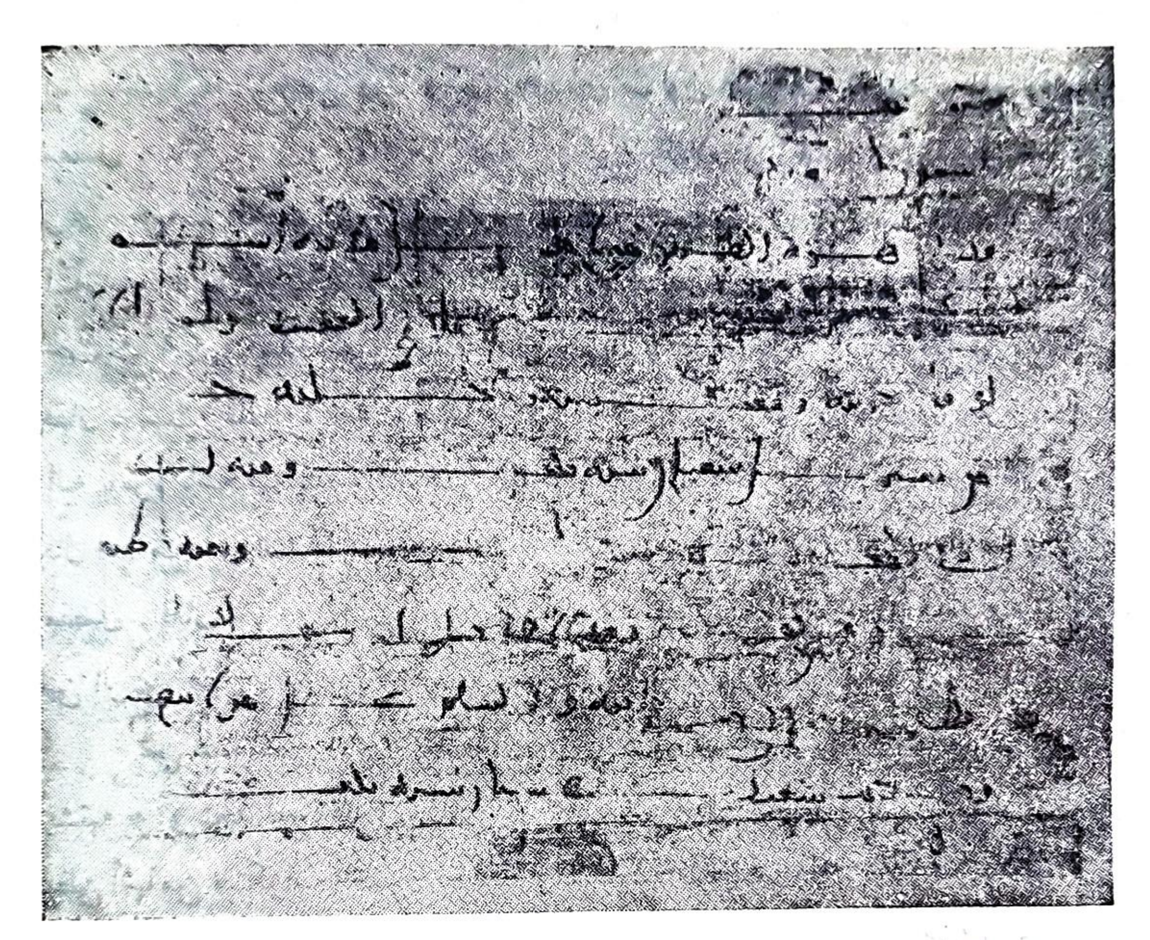
وقد وقفنا على جملة نصوص وأخبار في ذكر الأجوزة بالديار المصرية ، وكلها ترتقي إلى أواخر المائة الثالثة للهجرة ، رواها أبو محمد عبد الله بن محمد المديني البلوي[3] في سيرة أحمد بن طولون صاحب الديار المصرية والشامية والثغور (المتوفى سنة ٢٧٠ هـ)

---

(١) المرجع السابق الذكر (ص ١٢٠ – ١٢١) .

(٢) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (ص ٥٢ ؛ طبعة فولرز ، برلين سنة ١٨٩٤) .

(٣) ألفه في الثلث الثاني من المائة الرابعة للهجرة . وقد عني بتحقيقه والتعليق عليه محمد كرد علي (دمشق ، سنة ١٩٣٩) .



قال البلوي : « . . . فراسله[١] في أن يكتب له جوازاً ليخرج عن البلد ، فتغنم ذلك أحمد بن طولون منه ، ليريح قلبه منه ومن دالّته عليه ، فكتب له الجواز »[٢].

وقال في موطن آخر : « وأنفذ (أحمد بن طولون)[٣] معه من يشيعه ، وكتب له جوازاً وكتباً إلى سائر أعماله ، يأمر أصحابه بها بتلقيه وتشييعه وخدمته . . . »[٤].

وقال في نبأ آخر : « فلما علم عيسى (بن يارجوخ) أنه (أن أحمد بن طولون) قد علم بمقالاته فيه[٥] ، سأله أن يطلقه إلى طرسوس خوفاً منه وحياء من خطئه عليه ، ففعل ووصله بمال جزيل ، وكتب له جوازاً . . . »[٦].

ومن أطرف ما ورد في هذه السيرة من أخبار الأجوزة وصفاتها ، قوله :

---

(١) الكلام على موسى بن طولون حينما راسل أخاه أحمد بن طولون .

(٢) سيرة أحمد بن طولون (ص ٤٩) .

(٣) أي مع القطان الطالقاني ، الذي بعث به الموفق إلى القاهرة ليتجسس له أخبار ابن طولون.

(٤) سيرة أحمد بن طولون (ص ١٣٨) .

(٥) أي ما قاله عيسى بن يارجوخ في تقبيح أحمد بن طولون .

(٦) سيرة أحمد بن طولون (ص ١٥٤) .

« وحدّث العجيفي وكان يتولى شرطة أسفل، أن رجلا من التجار يعرف بالستر والسلامة ابتاع خادماً مما بيع من تركة وكيل أحمد بن طولون الذي قبض عليه ، المعروف بابن مفضل ، بمائتي دينار ، وأنه أخذ جوازاً وخرج بالغلام إلى الشام ، يؤمل في بيعه هناك ربحاً ، فلما بلغ العريش ، وكان بها وال يعرف بحبيب المعرفي قد نصبه أحمد بن طولون ليتأمل ما يرد من الكتب ونفيس الأمتعة إلى الفسطاط ، فقرأ الجواز ، وقال : قد كان يجب أن يحكى في هذا الجواز حلية هذا الخادم . فقال الرجل . أنا اشتريته من الواسطي فقال : لست أطلقه إلا بعد الاستئمار[١] فيه . وكتب إلى أحمد بن طولون يخبره ، فكتب إليه يأمره بإشخاصه إليه ، فأشخص التاجر والغلام . فلما وافى وأدخل مع الغلام إليه ، قال له : من أين لك هذا الخادم ؟ قال : ابتعته من الواسطي كاتبك مما باعه من تركة ابن مفضل . فقال له : أين كنت عازماً به ؟ قال : أستقري به البلدان حتى أجد فيه ما أؤمله من الربح . فقال : اكتبوا له جوازاً وحلوا فيه الخادم ، وأطلقوا سبيله »[٢] .

فمن هذا النص الأخير يتضح أن «الجواز» كان يتضمن صفة الشخص وهيئته لئلا يشتبه به أو يتخذ لغير أهله ، وذاك يدل دلالة لامعة على عناية أولئك الأقدمين بأمور يظن أنها من مبتكرات العصور الحديثة ومستنبطات المدنية الحاضرة[٣] .

ميخائيل عوّاد

---

(١) أي بعد المشاورة .

(٢) سيرة أحمد بن طولون (ص ٢١٨ - ٢١٩) .

(٣) وإذا كان ما كتبه أبو العلاء المعري في رسالة الغفران (ص ٦٠ القاهرة ١٩٠٣) من أنباء وأخبار ، مبعثها الخيال ، فإننا نرى أنها لم تكن إلا صدى للوقائع والحقائق والآراء التي كانت تدور في خلد فيلسوف المعرة . ومن ذلك إشارته إلى ضرب فريد من « الأجوزة » لم يكن متخذاً بين ممالك الأرض وبلدانها بالنحو الذي وصفناه في هذا المقال ، بل هي أجوزة ظريفة طريفة ، نعني بها « أجوزة الدخول إلى الجنة » . وقد اتخذ المتولي عليها مجلسه بباب الجنة ، يحرر الأجوزة لمن رام دخولها من المستحقين وإليك كلام أبي العلاء في ذلك : « . . . فلما صرت إلى باب الجنة قال لي رضوان : هل معك من جواز ؟ فقلت : لا . فقال : لا سبيل إلى الدخول إلا به ، فبعلت بالأمر . وعلى باب الجنة من داخل شجرة صفصاف ، فقلت : أعطني ورقة من هذه الصفصافة حتى أرجع إلى الموقف فآخذ عليها جوازاً . فقال : لا أخرج شيئاً من الجنة إلا بإذن من العلي الأعلى تقدس وتبارك . . . » .

السلم الدائمة في نظر كنت

للدكتور عثمان أمين مدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب

فكرة السلم فكرة قديمة ، اتجه إليها حكماء العصور القديمة ، وحمل لواءها الفلاسفة الرواقيون ، منذ القرن الثالث قبل الميلاد ، حين أهابوا بالإنسانية أن تحرر نفسها مما يفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان من فروق اللغات والأديان والأوطان ، ونظروا إلى الناس جميعاً كأنهم أسرة واحدة ، قانونها العقل ودستورها الأخلاق . وإلى هذه الفكرة أيضاً دعا الفارابي فيلسوف الإسلام ، منذ القرن العاشر الميلادي ، في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة » ✡ . حتى إذا كان القرن الثامن عشر في أوربا ، وضع « الأب دوسان بيير » مشروعاً لإنشاء حلف دائم من جميع الدول المسيحية ، القصد منه أن يضمن لكل دولة من الدول المتعاقدة سلامة أرضها، وحماية أوربا من أي اعتداء جديد تقوم به دول الإسلام .

✡✡✡

غير أن الفيلسوف الألماني « كنْت » كان أكثر الفلاسفة عناية بمسألة السلم ، وله آراء غاية في الطرافة في مسائل الحقوق الدولية وفي فلسفة التاريخ . وهو واضع الاصطلاح الألماني (Volkerbund) الذي أطلق بعد وفاته بنحو قرن وربع قرن على « عصبة الأمم » الحديثة ، وواضع مشروع مشهور خطير نشره سنة ١٧٩٥ بعنوان : « مشروع للسلام الدائم» أعلن فيه أن إنشاء «حلف بين الشعوب» هو السبيل الوحيد للقضاء على شرور الحرب وويلاتها . على أننا إذا رجعنا إلى أقوال « كنْت » قبل «المشروع» وجدناه قد صرح تصريحات كثيرة عما للحرب من أثر حضاري في التاريخ .

وإذا كان قد أعلن في كتابه « فروض عن بداية تاريخ الإنسانية » (سنة١٧٨٦) بأن « أكبر شر يصيب الشعوب المتمدنة ناشيء عن الحرب ، لا بمعنى الحرب الحاضرة أو الماضية ، بل بمعنى دوام الاستعداد للحرب القادمة » فقد سلم مع ذلك بأن الخوف من الحرب قد يكون في طور بسيط من أطوار المدنية من أمتن الضمانات لصون الحرية ودفع

✡ نكتفي هنا بهذه الإشارة عن الفارابي . ويجد القاريء بعض الإيضاح لهذه الفكرة في مقال للأستاذ أحمد خاكي (مجلة « الكتاب » نوفبر سنة ١٩٤٥ ص ٣٩) وفي فصل عقدناه عن الفارابي في كتابنا : « شخصيات ومذاهب فلسفية » ص ٥٨ وما بعدها .

الاستبداد : لأن المستبدين أنفسهم لا يستطيعون أن يستغنوا عن الثروة القومية التي لا تنمو إلا في ظل السلم والحرية . ونقرأ فوق ذلك في كتاب « كنت » عن « نقد ملكة الحكم » (سنة ١٧٩٠) عبارات تفيد بأن للحرب ، باعتبارها قوة هائلة من قوى الطبيعة ، جمالا وروعة ، في حين أن سلماً طويلة الأمد قد تولد « مع روح التكسب والتجارة نوعا من الأنانية العامية الغليظة » .

ويجدر أن نلاحظ أن المؤلفات الثلاثة التي صرح « كنت » فيها بتلك الآمال ظهرت في فترة واحدة وجيزة لا تتجاوز أربع سنوات (١٧٩٣ — ١٧٩٧) . ولعل للثورة الفرنسية ، وما نتج عنها حينئذ من انقضاء عهد السلطة الاستبدادية وزوال الحكم المطلق ، دخلا كبيراً في توجيه ميول « كنت » إلى النظر إلى الأمور بعين الرضى والتفاؤل ، وربما كان نجاح تلك الثورة مما دعا الفيلسوف إلى أن يرى في تنظيم الشعوب تنظيماً داخلياً ، على أساس جمهوري ، تمهيداً ضرورياً لإنشاء جمهورية عالمية شاملة .

***

كتب « كنت » « مشروع السلام الدائم » ، فصاغه مواد محددة ، بسط فيها الشروط الضرورية التي تجعل انتهاء الحروب أمراً ممكناً . وسنلخص المشروع ونحلل النصوص المتصلة به :

نص في المشروع على ست مواد أولية تبين «الشروط السلبية» للسلم . وهي كما يلي :

١ — « إن معاهدة من معاهدات السلام لا تعد معاهدة إذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه إثارة الحرب من جديد » . ذلك أن مثل هذه النية المكتومة تجعل من المعاهدة هدنة لا أكثر . أما السلم الحقيقية فيجب أن تقضي على كل احتمال لوقوع الحرب .

٢ — « إن أية دولة مستقلة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، لا يجوز أن تملكها دولة أخرى بطريق الميراث أو التبادل أو الشراء أو الهبة » . ذلك أن الدولة كالشخص الذي له وحده حق التصرف في نفسه .

٣ — « يجب أن تلغى الجيوش الدائمة على مر الزمان » ، لأنها تهديد دائم للسلام العام ، فضلا عن أننا حين ندفع أجراً لرجل لكي يقف حياته على قتل الغير مع استهدافه هو نفسه لأن يقتل ، فمعنى هذا أننا نعامله معاملة «الماكينة» لا معاملة إنسان .

٤ — « يجب أن لا تعقد ديون وطنية من أجل المصالح الخارجية للدولة » ، لأن هذه القروض ، فضلا عن تيسيرها قيام الحرب ، تؤدي عاجلا أو آجلا إلى الإفلاس.

٥ — « يحظر على كل دولة أن تتدخل بالقوة فى نظام دولة أخرى أو في حكومتها » . وهذه المادة مشتقة مباشرة من اعتبار الأمم كالأشخاص لها حرمتها ، ولها وحدها حق التصرف في شؤونها .

٦ — « لا يسمح لأية دولة في حرب مع أخرى أن ترتكب أعمالا عدائية ، كالقتل والتسميم ونقض التسليم والتحريض على الخيانة ، قد يكون من شأنها ، عند عودة السلم ، امتناع الثقة المتبادلة بين الدولتين » . لأننا يجب أن لا ننسى أن الغرض من الحرب نفسها هو إقامة السلم على أسس أرسخ وأبقى .

هذه المواد التمهيدية أشبه بالنواهي . أما المواد الثلاث النهائية فتنص على الشروط الإيجابية » للسلم ، وهي :

١ — « يجب أن يكون الدستور المدني لكل دولة دستوراً جمهورياً » ، بمعنى أن السلطة التشريعية التي تقرر الحرب يجب أن تكون صادرة عن إرادة الشعب ، وأن تفصل عنها السلطة التنفيذية فصلا تاماً . وهذا النوع من الحكومة أنسب الأنواع لمبدإ الحرية والمساواة ، وهو أيضاً أنسبها لاستتباب السلام ، لأن نظام الدولة الدستورية يجعل من يتعرضون لمعاناة شرور الحرب وحدهم هم الذين يطلب إليهم تقريرها ، في حين أن حاكماً مطلقاً قد يرى في الحرب ملهاة يتلهى بها ، ويترك للهيئة الدبلوماسية ، « وهي دائما على استعداد لهذه المأمورية » ، مهمة الاهتداء إلى أسباب معقولة لتبريرها .

٢ — « يجب أن يقوم الحق الدولي على التحالف بين دول حرة » . لابد من الإقرار بأن الشعوب المتمدنة ما زالت في علاقاتها الدولية على حال من الهمجية « والانحطاط البهيمي » ، فما فتئت الحرب هي الملجأ الوحيد للحق ؛ ومع ذلك فإن « النصر لا يحسم بحال من الأحوال مسألة الحق » . وإذا كانت معاهدات السلم تضع حداً لحرب راهنة ، فإنها لا تلغي ولا تصلح حالة الحرب الكامنة في النفوس . « والعقل في علياء عرشه — وهو المنبع الأعلى لكل تشريع أخلاقي — ينكر إطلاقاً أن تكون الحرب سبيلا من سبل الحق ، ويجعل من حالة السلم واجباً مباشراً » . والوسيلة الوحيدة للامتثال لهذا الواجب هي اقتلاع الداء من جذوره ، والاستعاضة في كافة العلاقات الدولية عن حالة الطبيعة بحالة الحق ، وتنظيم الأمم كلها « مدينة حرة » ، مثلها في ذلك مثل الأمم نفسها ، قامت على تعاقد حر بين الأفراد ، وبعبارة أخرى جمع شملها في « تحالف سلمي » . وهذا التحالف حر بالطبع ، فما من دولة يجب أن تقهر على الانضمام إلى هذا الميثاق . بل يكفي أن تعقد إحدى الدول الكبيرة حلفاً من هذا القبيل مع بعض جاراتها ، وسرعان ما تسعى كل

دولة متمدنة إلى الانتفاع بثمرات نظام يكفل لها سلامتها من كل اعتداء . وإذا كان قيام حلف شامل للانسانية جمعاء أمراً لا يتحقق في مستقبل قريب ، فهو كالهدف الذي يجب أن ترمي إليه جهود الدول المسالمة جميعا .

٣ — « يجب أن يكون الحق الدولي مقصوراً على إكرام الوفادة ، دون أن يكون لدولة من الدول أن تتدخل في شؤون دولة أخرى » ؛ ذلك أنه لما كان من الواجب أن يكون لكل أمة السيادة على تنظيمها الداخلي ، فكل ما يمكن أن يطالب به الأجنبي أهل البلد الذي يحل فيه ، هو أن لا يعاملوه معاملة العدو . ولكن مما يؤسف له أن أوربا لم تجر على هذه السنة في معاملتها للبلاد الشرقية ، كالهند والصين واليابان . وإن المرء ليهتز لهول « المظالم » التي تقترفها الحكومات التجارية أو الدول ذات العصبية الدينية باسم المدنية !

٭٭٭

تلك شروط السلام الدائم التي يستطيع الفيلسوف أن يحددها نظرياً وقبل التجربة . ولكن مهمة الفيلسوف لا تكمل بهذا التحديد النظري ، بل يجب عليه أن يفتح عينيه على عالم الواقع ، ليستوثق من أن فكرة « الحلف السلمي » ليست من قبيل أضغاث الأحلام أو باطل الأوهام . ويقول كنت بهذا الصدد : يبدو أن الطبيعة نفسها تقدم لنا بعض الضمانات الإيجابية ، فقد جعلت الأصقاع الجرداء قابلة للسكنى ، وشتتت الشعوب التي لا تستطيع أن تعيش مجتمعة او لا تستكفي بنفسها على أرض واحدة . وكان اختلاف اللغات والأديان من العوامل التي أكدت هذا التفرق ، الذي بدونه قد يتحول اتحاد الأمم إلى ملكية على حساب الحرية ، ودفعت الناس إلى الائتناس شيئاً فشيئاً بالنظم الجمهورية، وهي بطبيعتها سلمية ، وحملت الأمم على المبادلات التجارية التي تخرجها من عزلتها الأولى، وتجعلها تتقارب تقاربا ساميا عن البحث في المصالح المشتركة .

أما التاريخ فمن الميسور أن نستخلص منه حججاً تؤيد أو تعارض الدعوى التي تحلو لنا . ولكن الحجج التجريبية لا تنهض دليلا ضد مطالب العقل . « وليس يجوز لنا أن نستنتج من أن شيئاً لم ينجح حتى اليوم ، أنه لن ينجح أبداً » . وإذن فليس المهم هو أن نعرف إذا كان السلام الدائم ممكن التحقق في أمد قريب أو بعيد . إنها « فكرة » وكفى ، إنها مثل أعلى معقول ، ولا يجوز أن نقطع في أمره فنقرر أنه مطابق للواقع أو غير مطابق له . بل لقد استطاع كنت أن يصرح بأنها فكرة لا تتحقق ، لأن المطلق لا ينتقل إلى عالم التجربة ، لفقدان التجانس بين العالمين . غير أن هذا لا يمنع من أن

يكون شأن هذه الفكرة كشأن فكرة الله وفكرة الفضيلة ، بمعنى أنها ، وفقاً لاصطلاح كنت نفسه ، « مبدأ منظم » وقاعدة يسترشد بها في العمل ، ذلك أن « العقل العملي (الأخلاقي) يصدر إلينا أمراً صارماً نتلقاه صاغرين : يجب أن لا يكون هناك حرب ! » . وإذن فمن المؤكد عملياً أن يكون « اقترابنا » من ذلك المثل الأعلى « ممكناً » ، فيقوم ذلك « الحلف » بين الشعوب . يكون حلفاً جزئياً أول الأمر ، ثم يقترب رويداً رويداً من « الإنسانية » التي هي آخر حدوده . يومئذ تقل الحروب ويندر وقوعها ، وتتسع رقعة العدالة ، ويصبح حكمها الحكم المطاع ، وتتوطد أواصر القربى بين الأخلاق والسياسة ، ويأوي السلام إلى ركن شديد .

***

نرى في هذا المشروع كيف استطاع الفيلسوف أن يأتي بالمبدع الطريف في التوفيق بين استقلال الحكومات وبين تنظيم دولي من شأنه أن يكفل استتباب السلام .

ولا يظنن القارئ أن هـذه أقوال رجل من الخياليين أو العاطفيين . فالواقع أن أحداً لا يجد فيما كتب كنت عن شرور الحروب وأهوالها أقوالا خطابية ، ولا جملا منمقة يقصد بها إلى تأثير وقتي عابر ، وإنما نجد في معالجة الفيلسوف لهذا الموضوع قصداً واعتدالا ، وإدراكا للضرورات التاريخية ، وما إلى ذلك من الصفات التي تلقي على نظرياته في « مشروع السلام الدائم » طابع العمق والجد ، وتضفي على آرائه قيمة ثابتة ، وتخرجها عن أن تكون أحلاماً شعورية أو رؤى « أوتوبية » أو ملهاة تحكيمية ، كما زعم بعض كتاب الألمان آخر القرن الماضي .

وأكبر الظن أننا إذا توخينا سبيل الإنصاف ، حملنا هذه الآراء على محمل الجد . ورأينا فيها تعبيراً عن آمال نفس كريمة متفائلة ، ومثلا أعلى يرسمه ذهن كبير محيط ، عرف بؤس الناس وفساد الطباع ، ولم يغب عنه أن الماضي ممهد للحاضر ، ولـكنه آمن بأن مستقبل الإنسانية يمكن أن يكون أسعد من ماضيها .

والناظرون في فلسفة كنت الأخلاقية لا يرون ذلك بدعاً ، لأنهم يعلمون أن الفلسفة الـكنتية أبعد الفلسفات الألمانية عن نزعات القومية ونزوات العصبية . ذلك أنها فلسفة ، لا أقول « عالمية » ، بل « إنسانية » بأجمل وأرفع معاني الإنسانية .

عثمان أمين

الصابئة وأثرها في الفكر العربي

للدكتور جبور عبد النور أستاذ الفلسفة بالكلية العلمانية ببيروت

عند ما يأخذ المؤرخون بتدوين الأطوار التي مر بها الفكر ، وتبيان خصائص كل طور منها ، ينتقلون من مدنية إلى مدنية ، ومن مدرسة إلى ثانية ، فيذكرون أن الفكر بدأ يتثاءب لليقظة في الشرق الأقصى أولا ، ثم ما بين النهرين دجلة والفرات ، إلى أن انتقل إلى القسم الشرقي من شاطىء البحر المتوسط ، أي مصر وسورية ، وبعض الجزر اليونانية ، ونزل ضيفاً مكرماً في الحلقات الإغريقية التي تعهدته ورعته وغذته بأطيب ما يغذى به الفكر ، حتى جاء العهد الروماني ، فبدأت شعلته تخبو شيئاً فشيئاً ، إلى أن خمدت في مدينة الإسكندرية عند الفتح العربي، وعمت الظلمة العالم القديم بأجمعه، ونام الفكر نومة أهل الكهف ، في انتظار ما يلوح في الأفق الغربي من تباشير ، أي في ترقب النهضة الأوربية .

يمر أكثر هؤلاء المؤرخين بالحقبة العربية من تاريخ الفكر مروراً عابراً ، وإذا استأنسوا بالسامع قالوا : إن النشاط العقلي ، والنتاج العلمي ، ما كانا في ذلك العهد إلا تقليداً أو مسخاً لما رددته المدرسة الأفلاطونية الحديثة ، أو لما أثر من الفيثاغورية والأكاديمية والمشائية والرواقية . ولم يكن العلم إلا ترديداً لما قاله بطليموس في الفلك ، وجالينوس في الطب ، وإقليدس في الهندسة ، حتى لخص أحدهم مذهب هذه الفئة من المؤرخين بقوله : « لم تكن فلسفة العرب في الواقع إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بلغة عربية » ! وقد لاقى هذا التعبير أذناً صاغية وقلباً واعياً ، لأنه يسهل عملية التحقيق والتدقيق والمقابلة والموازنة ، فتحل ببعض كلمات مشكلة التشابك العقلي بين الأمم التي تعاقبت على حمل مشعل الحضارة الإنسانية .

والواقع أن المنبع الإغريقي كان أغزر المنابع التي استقى منها العرب ، كما كان أعذبها وأحبها إليهم ، حتى كان المفكر منهم ، رغم ذيوع اسمه ، وتقاطر الطلاب عليه ، من مشرق الخلافة ومغربها ، يتمنى — مثلا — لو عاش في عصر أرسطو ليتتلمذ عليه .

ولكننا واجدون فيما وضعوا من مؤلفات ، وما عرضوا من نظريات ، وما فصلوا من آراء ، خواطر لم يظهر لها أثر فيما أشرنا إليه من مدارس إغريقية أو مستغرقة ، وواجدون دلائل تاريخية تؤكد أن العلماء الذين عاشوا في حضارة العرب مدينون إلى منابع أخرى في غذائهم الفكري ، إذا جلوناها بعض الجلاء وضح لنا الكثير من أقوالهم ، بعد أن اكتنفها الغموص ، فظنها بعضهم طلاسم السحرة ، وقال آخرون : هي من بقايا عهد الانحطاط في تاريخ المدارس الرومانية .

ونحن واجدون أيضاً أن كثيراً من الآراء الإغريقية والعربية التي تتلاءم وتتشابه هي من مصدر واحد ، كان منه شعاع في أثينا . وآخر في الإسكندرية ، وثالث في روما ورابع في بغداد . فقد كانت البؤر الفكرية آنذاك متقلصة على نفسها ، محافظة على أرستقراطيتها ، ضنينة بما لديها من علم ومذهب وقول ، حريصة على كنزها ، لا تعطي منه إلا بمقدار ، تحصره في بيئتها كما كان يفعل أهل كل صناعة في القرون الوسطى ، يحتفظون بسر صناعتهم في أبنائهم وأحفادهم . من تلك الجماعات التي أخذ عنها العرب وغير العرب ، من يونان ورومان وروم ، الجماعة التي أطلق عليها التاريخ اسم « الصابئة الحرانية » .

لسنا ندعي دراسة مسهبة لها ، ولكننا مؤمنون أن العناية بها ، وجلاء دياناتها ، يمهدان أمام مؤرخي الفكر تعديل الكثير من النتائج التي ظنوا أنها حتمية لا رجوع فيها .

الصابئة والمأمون

تعرف العرب إلى الصابئة قبل الفتح ، كما أنهم اتصلوا بها اتصالا وثيقاً بعده ، لحاجتهم إلى علمائها ومفكريها وأطبائها . ولكن أمرها لم يشع بين العامة إلا قبيل النصف الأول من القرن الثالث الهجري والعاشر المسيحي . فعند ما توجه المأمون إلى محاربة الروم سنة مائتين وخمس عشرة هجرية (٨٣٠م) مجتازاً ديار مضر ماراً بالقرب من مدينة حران ، تلقاه الناس ، يدعون له بالنصر ، ويحتفلون به ، وبينهم جماعة من الحرانيين ، غريبي الأثواب ، لبسوا الأقبية ، وأطالوا شعورهم ، وتزيوا بأزياء غريبة لا تدل على أنهم من المسلمين أو النصارى أو اليهود . فوقف الخليفة متعجباً مما يراه ، وقد أنكر على الجماعة مظهرها ، ورابه أمرها . وعند ما سألهم عن حقيقتهم لم يجيبوا بما يرضيه ، فأدرك أنهم من عبدة الأوثان ، وأن دماءهم ، حسب الشرع الإسلامي ، حلال ، فأمرهم أن يختاروا أحد أمرين : إما انتحال الإسلام أو دين آخر من الأديان

التي يقرها القرآن ، وإما قتلهم عن آخرهم . وأنظرهم إلى أن يرجع من حملته ، فأقض تهديد المأمون عليهم المضاجع ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن أمرهم قد ذاع ، ولا سبيل إلى المحافظة على دينهم الوثني بعد أن ظلوا منكمشين حوله مدة قرنين ونيف في الإسلام ، لا يفطن أصحاب الأمر في دمشق وبغداد إلى وجود هذه الجزيرة الوثنية في بحر النصرانية والإسلام . وقد كانوا فيما مضى يعمدون إلى الرشوة وبذل المال ، فيحولون دون اضطهاد العمال لهم ، ودون إفشاء أسرارهم ، ونقلها إلى صاحب السلطان . أما الآن وقد وقف الخليفة نفسه على جلية أمرهم ، فلا بد لهم من ترك دين آبائهم وأجدادهم أو الفناء ، لأن تعاليم الإسلام واضحة في تقدير مصير الوثنيين : إما السيف ، أو دين موحد . فأسلم قسم منهم ، وتنصر قسم آخر ، وذهب فريق ثالث يعوذون بفقيه من الفقهاء ، بعد أن نقدوه كثيراً من المال ، فأفتاهم بأن يتسموا بالصابئة ، فينجوا من تهديد المأمون ، ويحتفظوا بنفوسهم ودورهم وأهلهم ، ويتابعوا سيرتهم الأولى . ففعلوا بما أفتى به ، وأصبح الحرانيون منذ ذلك الحين يعرفون باسم « الصابئة » .

والصابئة التي أشار إليها الفقيه ورد ذكرها في القرآن حيث يقول : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ☆ » وبمعناها الآية الثانية والستون من سورة البقرة ، وفي ذلك جعل الكتاب من الصابئة القديمة ديناً منزلا في مستوى الديانات الأخرى ، وجاء المفسرون فيما بعد فاختلفوا في تحديد الصابئة القرآنية ، فقال بعضهم بأنها نحلة تنتمي إلى اليهودية . وقال آخرون إنها فرقة من المسيحية تنتمي إلى يوحنا المعمدان ، ومنها اسم المغتسلة الذي كان يطلقه عليها بعض العرب ، لاشتقاق لفظة « صبأ » من مادة (صبع) الآرامية ، ومعناها خوض الماء والاغتسال ، فعرفهم من جاورهم بهذا الاسم لكثرة مايغتسلون ، غير أنه ليس من علاقة للحرانيين بهذه الفرقة .

وهكذا تم لتلك الجماعة الوثنية التي نزلت بمدينة حران ، وما جاورها من الأرباض ، أن ينتحلوا اسماً لا يمت إلى دينهم بنسب ، ليموهوا حقيقتهم على أصحاب الشأن في الإسلام ، وليتابعوا القيام بشعائر دينهم ، دون أن يعترضهم معترض ، أو يقف في وجههم اضطهاد . ولم يعد المأمون إلى حران ، ولم يتم له ما أراده لهم من تحول عن عقيدتهم القديمة .

هذه هي الرواية الشائعة في معظم الكتب العربية والغربية التي ترجمت لهم ، من

☆ المائدة ، ٦٩

ابن النديم والشهرستاني والدمشقي إلى كولسون ودوزي وكاراده فو . والواقع أن شأن الحرانيين كان قد انتشر في الهيئات الرسمية قبل ذلك بقليل ، وذاع في عهد الرشيد أو قبيل عهده ، ووقف الخلفاء الأمويون ، ولا سيما المتأخرون منهم على أحوالهم، لنزول مروان الثاني في مدينتهم ، ونقله مقر الخلافة إليها أحياناً في عهده .

ولعل أزهر عهودهم كان في خلافة الأمين الوامضة ، فقد أفاد الحرانيون من الخلاف الناشب بين العباسيين ، ومن تحول المسلمين إلى شؤونهم الخاصة ، فأظهروا شعائرهم أمام الناس ، وقادوا الثيران في شوارع حران مزينة بغالي الثياب والورود والرياحين ، والأجراس على قرونها ، وقد سار خلفها الرجال بالمزامير☆ .

عاصمتهم ، حران

أما حران التي ينتسب إليها هؤلاء ، فهي مدينة تقع قرب منابع نهر بليخ ، بين الرها ورأس العين المشهورتين بالعلماء السريان الذين ينتسبون إليهما . وتاريخ الوثنية فيها يعود إلى أقدم العصور ، إلى الكلدانيين الذين تميزوا بتعبدهم للأجرام السماوية ، وبتجويدهم فنون العرافة والكهانة والتنجيم ومعرفة الطلاسم التي ترد عن الإنسان آثام آلهة الشر ، وتسهل له الحصول على نعم آلهة الخير .

لا شك أن الوثنية الحرانية ترقى إلى ذلك العهد القصي . ولم يؤثر فيها النفوذ الفارسي الذي جاء فيما بعد ، ولم يعدل عقائدها ، بل ظلت المدينة محافظة على ما تدين به. ولم تبدأ بالتأثر بالعالم الخارجي ، وبما يطرأ على حياة الشعوب من تطور وتعديل إلا في الزحف الإغريقي ، عند ما خرج الإسكندر من مقدونية ، وانساح بجيوشه نحو الهند، فاستتب الأمر للاغريق ، وعمدوا إلى إقامة الجاليات اليونانية في الشرق ، لتكون لهم نقطة ارتكاز في حروبهم المقبلة ، ودعائم لتثبيت إمبراطوريتهم في اليونان وآسية ومصر .

اختلط الحرانيون بهؤلاء ، وأثروا بهم ، دون أن يعدلوا الأسس التي قامت عليها دياناتهم ، بل اكتفوا بإطلاق أسماء يونانية على تلك الآلهة إلى جانب أسمائها الآرامية . وأما الرومان فلم يكن لهم شبه أثر فيهم ، بل تقلصوا على أنفسهم ، وعاشوا آمنين مستقلين روحياً ، قانعين بما ورثوه عن أجدادهم . ولم تؤثر المسيحية فيهم تأثيراً كبيراً ، رغم

☆ آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ٦ ص ٦٥ ترجمة — أبو ريدة مصر ١٩٤٠

نزول بعض الجماعات النصرانية في مدينة حران ، وتأسيس أسقفية فيها ، بل صادف المبشرون الأولون مقاومة عنيفة عند الحرانيين ، ورأوا فيهم أعداء ألداء لهم ، حتى كادوا ييأسون منهم ، وحتى أطلق بعض الآباء على المدينة اسم « المدينة الوثنية » .

دياناتهم

وثنية حران إذن قديمة العهد ، ترقى إلى فجر الحضارة ، إلى أصول السامية ، احتفظت بخصائصها الرئيسية ثلاثين قرناً ونيفاً ، وسط التيارات المتعددة التي اصطخبت على الرقعة الأسيوية من الأرض . وبقيت آثارها بادية إلى عهد له قسط وافر في المدنية ، وحظ أوفر من التدوين والتسجيل . فحام المؤرخون السريان والعرب من مسيحيين ومسلمين حولها ، وتسقطوا أخبارها ، وأغرموا بجمع ما يقع تحت أيديهم من أنبائها ، وعنوا بذكر مظاهر تلك العبادة ومراميها . منهم ابن عيسون الحراني القاضي المتوفى بعد الثلاثمائة ، الذي يذكر المسعودي عنه في مروجه ☆ أنه كان ذا معرفة وفهم ، ونظم قصيدة أوزد فيها مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة ، وفصل هندسة هيكل لهم ، وما تحته من السراديب المتخذة لأصنام جعلت مثالا للأجسام السماوية ، وما ارتفع من ذلك من الأشخاص الفلكية ، وأسرار هذه الأصنام ، وكيف أنهم يحملون أطفالهم إلى السراديب ، ويعرضونهم على الأصنام ، وما يحدث ذلك في ألوان صبيانهم من الاضطراب والاصفرار عندما يسمعون الأصوات المختلفة الصادرة من الأصنام ، وذلك بحيل ميكانيكية ومنافيخ جعلت في أفواهها ، فإن السدنة يقفون وراء جدر ، ويتكلمون بأنواع الكلام ، فتجري الأصوات في تلك المنافيخ صاخبة مجلجلة ، يصطادون بها العقول ، ويسترقون الرقاب ، ويقام للكهان نفوذ وسلطان وقد اعتمد المسعودي على هـذه القصة في بعض ما قاله عن دياناتهم . ثم ذاع أمرهم بين الناس ذيوعاً كبيراً ، بعد أن انتقل قسم من هؤلاء الحرانيين إلى الإسلام أو النصرانية ، فنشروا بين أبناء دينهم الجديد أسرار عقيدتهم القديمة ، ونقلوا الى اللغة العربية بعض الطقوس التي كانوا يقومون بها . وقد كان في أيام ابن النديم صاحب الفهرست ، كتاب مشهور ذائع بين الناس ، عثر عليه هرون بن إبرهيم بن حماد بن إسحق القاضي لما كان يلي بحران وأعمالها القضاء ، يحتوي على مذهبهم وصلواتهم ، فأحضر رجلاً فصيحا بالسريانية والعربية فنقله له بحضرته من غير زيادة أو نقصان ، ووقف ابن النديم عليه بنفسه ، وأخذ منه إشارات عديدة في الفقرات

☆ ج ٢ ، ص ١٣٤ — ١٤٤ طبعة بغداد .

التي ذكرها عنهم . وكذلك خص بهم الشهرستاني المشهور بدراساته عن الفرق والمذاهب مقطعاً هاماً من كتابه « الملل والنحل » . وفعل فعله الدمشقي في كتاب « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » . وجاءت النصوص التي نقلها المستشرق دوزي عن مخطوطات نادرة في المكاتب الأوربية ، وطبعت بعد وفاته ، مكملة لتبيان مذهب الحرانيين ، وتفصيل ديانتهم ، وتوضيح شعائرهم . وإذا بتلك الديانة الوثنية الفلكية الفلسفية أغرب ما دون الراوون ، وأعجب ما سمعه الناس منذ أجيال . وإذا بدثار الصابئة ، تلك الفرقة النصرانية المتهودة ، أو بالأحرى اليهودية المتنصرة . تخفي فئة من عباد الكواكب السيارة والقوى الطبيعية ، وإذا بديانة السريان القدماء لا تزال حية رغم تعاقب الدول ، وقيام ممالك ، واندثار مدنيات ، وتعاقب أزمنة اضطهاد ، وأزمنة تسامح عليها .

أمامنا قضية يجب أن نفصل فيها ، هي الإجابة عن السؤال التالي : أكانت الوثنية الحرانية موحدة ؟ مع ما في هذا السؤال من التناقض البديهي . والواقع أن الوثنية قد تكون موحدة إذا أقرت بإله أعظم ، يتربع في قمة الألوهية ، ثم تبدأ سلسلة من الآلهة الثنويين ، وآلهة بدرجة ثالثة ورابعة ، ينصرفون إلى أعمال جزئية في الحياة . فالوثنية التي ترتكز على مثل هذا الأساس، وتقر بأن السلطة التي تنعم بها الآلهة مستمدة من الإله الأكبر هي دون شك وثنية موحدة ، أو إذا شئنا ديانة تسير في طريق التوحيد . أكانت ديانة حران على هذا النمط ، أم كانت وثنية على الطريقة العربية الجاهلية ، لكل إله استقلال خاص ، يستمد قوته من نفسه ، دون أن يعني بشأن جاره وزميله ، ودون أن يتأثر بإرادة إله آخر ؟

ليس لدينا نصوص واضحة لجلاء هذه المشكلة الهامة في تاريخ الديانة الحرانية ، وإنما نحن واجدون بعض إشارات غامضة عند ابن سينا وابن حزم والشهرستاني وآخرين، تكاد تقول باعتقادهم بوجود إله أكبر ، هو « الله » إذا شئنا ، وأنه هو صانع العالم وفاطره ، حكيم مقدس عن سمات الحدثان ، علينا معرفة العجز عن الوصول إليه ، نتقرب منه بالمتوسطات ، أي الروحانيات المطهرات المقدسات جوهراً وفعلاً وحالة ، وبكلام آخر بواسطة الآلهة الثنويين . فهو إذن خالق لا يختلف في شيء عن إله اليهود والنصارى والمسلمين . يعتمد المؤمن الحراني في الحصول على نعمه على وساطة الآلهة الآخرين ، كما يعتمد أتباع الديانات الموحدة على الملائكة والقديسين والأولياء وأصحاب الكرامات . فالاختلاف إذن يسير والشبه بارز جلي .

غير أن الواقع هو غير ما يمكن استنتاجه من نصوص الشهرستاني وابن سينا

وابن حزم وسواهم ، لأن هذه الرواية من اختراع الحرانيين المتفلسفين أنفسهم . فهم لم يعترفوا بمثل هذا القول ، ولم يدينوا بمثل هذا الإله ، بل شاعت هذه النظرية في حلقات المتكلمين الذين أثروا فيما بعد في فلسفة العرب . وقد قال نلدكة في كتابة خاصة بعث بها لدوزي : «إن الوحدانية الحرانية ليست مخلصة ، بل علينا أن نعيدها إلى مؤثرات يونانية فلسفية ومسيحية . فإذا كان علماء حران يظهرون أنها من اعتقاد أبناء ملتهم ، فذلك لأن تمويهاً كهذا كان ضرورياً في البيئة الإسلامية » . وفي كل ما كتب عن معابدهم ، وما قيل عن آلهتهم الثنوية ، لايتبين أن تلك الآلهة تستمد نفوذها وسلطانها من خارج نفسها ، وإنما كانت مصدراً لكل ما يحدث عنها ، وإن سلموا تقية بوجود علة هي سبب الأسباب ، كما نرى عند الفارابي ، وقد تعبدوا لآلهة متعددة ، أهمها العقل الأول ، وزحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وجعلوا لكل منها هيكلا خاصاً ، وشعائر خاصة .

الاتصال بالأرباب

أما الاتصال بهؤلاء الأرباب فهو أمر لا يتيسر إلا للنخبة العالمة من الحرانيين ، أي للكهنة المتمرسين بأمور الدين ، أو لمن هم في منزلتهم من الرؤساء والزعماء . وذلك أن الاتصال بالآلهة يقوم على أساس فلكي تنجيمي ، ويتطلب شروطاً إضافية متعددة متشعبة ، لايتقنها الكاهن إلا بعد طول المران والمراس ، ولا يوقف عليها الطالب إلا بعد أن يتناول منه أجر كبير . من تلك الشروط معرفة القرائن الفلكية ، وأسرار الكواكب والنجوم ، ونظام الأبراج ، ومعرفة أثر كل من المخلوقات السابحة في الفضاء في الإنسان ، والتعديل الذي يطرأ على هذا الأثر إذا اعترضه نجم آخر ، فكانت النتيجة النهائية محصلا لأثرين أو ثلاثة أو أكثر . ومنها اختيار الضحية التي تقدم للأرباب ، والشروط التي يجب أن تتم فيها كالتناسب بين مادتها ، وعناصر الأجرام السماوية . فعلما التنجيم والطلاسم كانا إذن ضروريين في عبادة الحرانيين ، وما كانت العناية بهذين العلمين في القرون الوسطى الأوربية إلا مظهراً من مظاهر الوثنية البابلية التي تنكرت في عمة إسلامية أو في جبة نصرانية .

والمدخل إلى الاتصال بالكواكب ، أي بالأرباب ، كما نرى ذلك جلياً عند فلاسفة الإشراق وأصحاب المواجد من المتصوفين هو الاستشعار بالتقوى ، وتطهير القلب من الاعتقادات الفاسدة ، والثياب من الدنس ، وتصفية النفس ، وتعيين الإله المختص بقبول

الرغبات ، ولبس ثياب خاصة بالكوكب الذي يحل فيه ذلك الرب ، والتبخر ببخوره ، والدعاء بدعوته ، عند ما يكون في مكان مناسب معين ، فإذا تمت جميع هذه الشروط ، وذكرت الرغبة تحققت ، وتم المراد .

حران ومدنية العرب

كانت حران في أوج ازدهارها عند ما تعطش العرب إلى العلوم والمتعلمين . وكانت وثنيتها لا تزال تزخر بالقوة الذاتية والسلطة في نفوس أبنائها . ولم يشذ عنها إلا قليل من الأفراد عند ما بدأ الوهن يدب فيها . حتى إن ثابت بن قرة العالم الرياضي المشهور والمترجم الذي تناقلت أمهات الكتب نقوله على أنه في طليعة الذين غذوا الفكر في حضارة العرب . حتى إن ثابتاً هذا لم يجرؤ في يوم من الأيام ، رغم ما شب عليه من حب الاستطلاع والتفقه الفكري ، أن يعدل أمراً في أصول دينه ، وعند ما فكر في جديد يدخله ، أو فكرة يشذ بها ، نقم عليه الكهان ، فأرغم على الجلاء عن المدينة ، واتصل بأبناء موسى ، وهؤلاء مهدوا له الطريق إلى بلاط الخلفاء ، وظل على دين الصابئة إلى آخر عهده بالحياة . وقد أخلص جميع العلماء الحرانيين لعقيدتهم رغم تقلب الأيام واتصالهم بأصحاب الأمر في الإسلام ، فلم يسلموا ، ولم تضعف عزيمتهم أمام ترهيب أو ترغيب . والأمر الذي لا شك فيه هو أن حران كانت على هذه الحالة من حيث العقيدة والشعائر عند ما توثقت الصلات بينها وبين العلماء والمتعلمين في حضارة العرب ، بل بوسعنا الزيادة على ذلك فنقول : إن حران كانت البؤرة المشعة في ذلك الحين ، بعد أن تركزت فيها علوم الإغريق والشرق من فارس وهند ، وورثت المذاهب التي تفرعت وأثمرت وامتدت ظلالها في مدن البحر المتوسط من الإسكندرية إلى بيزنطية مارة بالشاطىء السوري .

فإن هناك نصوصاً تثبت بجلاء أن التعليم الأفلاطوني المحدث ظل حياً في مدينة الإسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز ، أي حوالي عام ٩٩ للهجرة ، وعندئذ انتقل إلى أنطاكية ، حيث ظل رائجاً إلى خلافة المتوكل ، أي بين عامي ٢٣٢ و٢٤٧ هـ (٨٤٧ — ٨٦١ م) ، مدة مائة وثلاثين أو مائة وأربعين سنة ، وعندئذ انطفأت الشعلة الأفلاطونية المحدثة في أنطاكية ، وزهرت في حران مدينة الوثنية . وهكذا رأينا المذهب الإسكندري أو الأفلاطوني المجدد الذي ترعرع في ظل الوثنية الإغريقية يعود فيلتجىء في ساعاته الحرجة إلى أحضان الوثنية الحرانية .

وقد وقف أبو إسحق الكندي فيلسوف العرب على كتبهم ، وأعجب بالآراء التي قالوا بها ، ورأى أن من المحتم على الفيلسوف أن يذهب مذهبهم* . ولعله أخذ الكثير من علومهم ، ولا سيما ما يتعلق بالفلك والتنجيم ، وما يمت إلى هذين العلمين بصلة من حساب وجبر وهندسة ، ولكننا لا نقدر على جلاء الصلة التي ربطته بهم ، وإن كان لا شك في وجودها ومتانتها .

أما الأثر البين فقد تجلى في شخصية الفارابي المعلم الثاني ، وواضع الأسس العامة للفلسفة الإشراقية في حضارة العرب . فالأمر الذي نقرره هو أن الفارابي لم يكن مسلماً إلا في ظاهره ، وإنما كان وثني الأصل والنشأة ، رغم أنه هادن الدين طول حياته ، ولم يضطهده العامة أو أصحاب السلطان . نزل مدينة بغداد متعطشاً إلى العلم ، فانصرف إلى الدرس ، وشغفه المنطق فتعلقه بعد أن أتقن العربية ، وأخذه عن أبي بشر متى بن يونس حتى أجاد فنونه وأساليبه . وعندئذ رحل إلى حران ، حيث اتصل بيوحنا بن جيلان وهو من أشهر رجال عصره في العلوم الكلامية والفلسفية ، وممثل المدرسة الأفلاطونية المحدثة في الخلافة الإسلامية ، فأخذ عنه وتفقه على يده ، وفهم مذاهب الأقدمين والمحدثين فيما يتعلق بمباحث ما وراء الطبيعة ، وذيولها النفسية والخلقية .

لم تكن حران قبل الفتح العربي غريبة عن المذهب الأفلاطوني ، بل كانت تطمئن إليه ، أو الأصح القول إن الأفلاطونية كانت تطمئن إلى حران وإلى ما ترمز إليه وثنيتها ، فإن أفلوطين نفسه (٢٠٥ — ٢٧٠ م) ، الذي يعتبر في تاريخ الفلسفة العام مؤسس الأفلوطينية المحدثة ، وواضع بنائها في محاضراته الإسكندرية والرومانية وفي تاسوعاته ، قد ساهم في حملة الإمبراطور غُرديان على فارس ، لكي يتعرف عن كثب إلى مذاهب هذه الأمة وعلومها . ولم يقرر مذهبه ويدونه ، أو بالأحرى لم يحاضر فيه إلا بعد أن سبر غور المذاهب الشرقية . وقد وقف فيما تعرف إليه على مذهب الحرانيين ، وأخذ عنهم الكثير من الأقوال والنظريات ، ولا سيما ما يتعلق بتأثير الكواكب السيارة في الحدوث الطبيعي ، وفي اتصال الإنسان بالعلة الأولى . فإن حران عند ما احتضنت الأفلوطينية الحديثة ، طريدة الإسكندرية وأنطاكية ، إنما كانت تحتضن ابنة لها ، أو إذا شئنا رفيقة لها ، تجمع بينهما صلات وثيقة من الأخوة الوثنية . نظر الفارابي والفلاسفة الإشراقيون من بعده إلى المذاهب الإغريقية والمستغرقة خلال الموشور الحراني ، وفهموها كما شاء يوحنا بن جيلان أن يفهمها ، وكما شاء الدين الصابئي أن يصوّرها لأتباعه وأشياعه .

---

* الفهرست ص ٤٤٤ — ٤٤٥ .

والواقع الآخر الذي يجب أن نقرره هو أن الفارابي عندما يعرض لنظرية الفيض فيتجاوز الأسس التي وضعها أفلوطين، ويذهب في سلسلة الروحانيات، أو العقول المفارقة، كما يسميها، مذهباً لا نتبين له شبيهاً عند الإسكندريين، عندما نرى مثل هذا الاختلاف نجد ما يوضحه في مذهب الحرانيين.

فأفلوطين يقول مثلا في تاسوعاته: إن أول مخلوق يحدث عن العلة الأولى، بطريقة الفيض، يشابه الخالق مشابهة كبيرة في كماله وصفاته، ويسمى العقل، وهو بدوره يوجد الروح الكلية. ثم ينتقل أفلوطين من الروح الكلية إلى المادة والصورة والكائنات الحسية التي تتألف منهما.

أما الفارابي فيقول بانبثاق العقل الأول من العلة الأولى، وينبثق من الأول عقل ثان يدير شؤون الأفلاك الثابتة، ومن الثالث عقل رابع يدير شؤون كرة زحل، ثم العقل الخامس للمشتري، والسادس للمريخ، والسابع للشمس، والثامن للزهرة، والتاسع لعطارد، والعاشر للقمر.

ومردّ التباين بين أفلوطين والفارابي إلى الأثر الصابئي كما يتجلى لنا. فإن الثاني لم يأخذ عن الأول كما يقول كل الذين بحثوا في مذهب الفارابي، ودرسوا مؤلفاته، وإنما أخذ عن الحرانيين، واتبع خطتهم في تحصيل الفيض. وهذه العقول المفارقة أو الملائكة، أو الروحانيات، كما يسميها الحرانيون تمتاز بالصفات نفسها عند الفريقين هي جواهر ليس لها مادة ولا هيولي، وهي التي تتصرف بشؤون العالم الأرضي، فتهب الرياح بتحريكها، وتنشأ السحب بتأثيرها، ويحدث المعدن والنبات والحيوان والإنسان بفعلها. وهي مكلفة في المذهبين الفارابيّ والحرانيّ بالهياكل العلوية، أو الكواكب السيارة التي تقوم لديها مقام البدن للروح الإنسانية، فتفيض عليها التصريفات والتحريكات إلى جهات الخير، ويحصل النظام من حركاتها، ونسبة بعضها إلى البعض الآخر. وهنا يكون الحدوث الطبيعي، فإذا به واحد عندهما أيضاً.

كان لأقوال الفارابي التفصيلية فيما وراء الطبيعة أثر بين في شخصية ابن سينا فيما بعد، لأن الشيخ الرئيس لم يتوصل إلى فهم الأسس العامة التي قام عليها هذا العلم إلا بعد الاطلاع على شروح الفارابي، كما هو مشهور في كتب التراجم.

فالأثر الصابئي لم يقتصر إذن على الفارابي وإنما تعداه إلى المدرسة التي اتبعت تعاليمه، وسارت على خطاه. وكذلك كان أمر إخوان الصفاء، فإن مطالعة رسائلهم تجلو لنا الأثر الصابئي بوضوح من حيث الفيض والانجذاب والحدوث الطبيعي، وأثر

الكواكب السيارة في أخلاط الناس وأخلاقهم . وليس تشبيه حي بن يقظان في وحدته بحركة الكواكب الإهليليجية أو الدورية إلا من بقايا الأثر الوثني . وليس اعتماد الخلفاء العباسيين على المنجمين لاجتلاء مصير ما ينوون إشهاره من حروب ، إلا أثراً من آثار الصابئة . فقد تعددت كتب العلماء المؤلفة في هذا الباب ، وبات كثيرون منهم ، إذا أرادوا أن يعرفوا ما يحدث على وجه الأرض ، وما قد يتم في مقبل الأيام ، يرفعون بأبصارهم إلى الكواكب السيارة ، إلى زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر ، فيكون لهم ما يريدون . وكان أسبق المفكرين في وضع المؤلفات في هذا العلم الكندي ثم الفارابي في شرحه لكتاب المجسطي ، وللآثار العلوية ، وبحثه في أن حركة الفلك سرمدية . وكلها آثار لم يبق منها سوى أسمائها .

وخلاصة القول أن النظرية الشائعة في كتب الباحثين من شرقيين ومستشرقين ، القائلة بأن العرب أخذوا مباشرة عن اليونان ، واقتصروا في استقائهم على هذا المنبع ، هي نظرية غير ثابتة ، يجب أن نتدبرها بحكمة ، ونعيد التحقيق في أصولها ونتائجها ، لأن المفكرين فى حضارة العرب قبسوا من مدرسة الصابئة القسم الأوفر من مذهبهم فيما وراء الطبيعة ، من فيض وانجذاب ، وفي أثر الكواكب السيارة ، كما أنهم أفادوا من العلوم التي وافقت هذا اللون من التفكير ،كالهيئة ، والتنجيم ، والحساب ، والجبر ، والهندسة ، حتى نكاد لا نجد مؤلفاً فكرياً عربياً واحداً ليس فيه بقية من وثنية حرانية . ولعل الدارسين ينشطون في مقبل الأعوام لكشف الظلمة التي تطيف بحران ، فتنجلي الصلات التي ربطتها ببغداد ، ثم بالحواضر الإسلامية الباقية * .

جبور عبد النور

---

*مراجع البحث :

١. شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الاقتصادي الدمشقي : كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ٢. الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٧٦ وما بعدها ٣. ابن النديم : الفهرست ص ٤٤٤ — ٤٤٥ ٤. المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ — ١٤٤

1. De Gœje : Mémoire posthume de Dozy contenant de nouveaux documents pour l'étude de la religion des Harraniens (Travaux de la 6e session du Congrès des Orientalistes, 1883. Leyde, II. 291). 2. Carra De Vaux : Les penseurs de l'Islam T. III 3. Encyclopédie de l'Islam.

النّفط أو البترول والشرق [1]

للأستاذ السيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

يرى بعض أهل الغرب ومن تبعهم من الشرق ، أن لم يكن للنفط في القديم شأن يذكر ، وأنه كان لدى القدماء مجهول القيمة والمنفعة ، وأن جل ما عرفه الباحثون والرواد والمؤرخون القدماء في العصور الغابرة عن النفط ، هو وصفهم له أنه النيران الهائلة الدائمة التي تستعر بشدة في جهات كثيرة من أقطار القوقاز وإيران . وعليه ظلت فائدة النفط عند هؤلاء في عالم الغيب حتى كشف « نبع بترولي » في سنة ١٨٥٣ ميلادية بأمريكا .

هذا رأي من الآراء الكثيرة التي ظل أهل الغرب يفتخرون بها قروناً ، ولكن التقدم في البحث والتدقيق ، وبلوغ العلوم المراتب السنية من الرقي في العصر الحاضر بددا تلك الأوهام ، وأماطا عنها اللثام . فبالأمس كانوا يدعون أن مخترع البارود هو برتولد شو رتز [2] . وأن مخترع المطبعة هو جوتمبرج [3] ، وأن مخترع إبرة الملاحة هو فلاديوجوجيا [4] ، وهلم جرا ، ولكن البحث العلمي الحديث قشع غمامه وحسر لثامه ، وأثبت أن تلك الدعاوى باطلة وعارية عن الصحة .

كذلك النفط ، فلم يكن للغرب في اكتشافه أي فضل . فإن الشرق اكتشفه وعرفه في زمن ممعن في القدم قبل أن يعرفه الغرب ، فإننا حين نتتبع أثره فيما بأيدينا من أقدم الوثائق التاريخية نجد أن أول من اكتشفه هو نحمياه . فقد ذكر في التوراة [5] أن نحمياه اكتشفه بالقدس عند رجوعه إليها ، وذلك في القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو الذي

---

(١) « بترول » اسم منحوت من كلمتين لاطينيتين Petra Oleum معناهما زيت الصخرة ، سمى بها هذا الزيت أهل الغرب . وأما أهل الشرق فسموه بالنفط كما بيناه في هذا المقال . لذلك كان إطلاق النفط عليه أقدم من إطلاق البترول . ويختلف العلماء في تعميم الكلمتين : فبعضهم يرى أن النفط أعم من البترول ، وإليه نميل ، وبعضهم يرى أن البترول أعم من النفط .

(٢) راهب ألماني كان من كبار الكيميائيين ، عاش في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر الميلادي.

(٣) ألماني من سكان مدينة مائنتز بألمانيا . (٤) من سكان إيطاليا عاش في القرن الرابع عشر الميلادي . (٥) راجع في التوراة سفر المكابيين الثاني الفصل الثاني في الفقرة ٢٠ — ٣٦ .

سماه « نفط » أو « نفطار » ، والكلمة كما يذهب إليه المحققون فارسية الأصل معناها : رشح .

يقدر الإنسان الأشياء حسب انتفاعه بها والاستفادة منها ، وتزداد منزلتها لديه أو تنقص إذا كانت فائدتها خطيرة أو لم تكن ، وترجع خطورة الفائدة إلى شدة احتياجه إليها ، وتتقيد شدة الاحتياج بالزمان والمكان تقيداً سرمدياً . فما كنت تحتاج إليه في طفولتك وحجر أمك غير ما اقتضاك في صباك في فناء دارك ومدرستك . وما لزمك في شبابك عند أهلك غير ما افتقرت إليه في كهولتك وشيخوختك ، وأنت محاط بالأولاد والأحفاد . هذه حالتك الفردية ، وقس عليها أحوال الأمم ، بل أحوال الإنسانية بأسرها ، لأن ظروف كل عصر وأحوال كل مكان خاصة بهما .

لذلك إذا زاد في العصر الحاضر شأن النفط خطورة ، باختراع الآلات والأدوات وبتغلغل الإنسان في الأمور الصناعية الآلية ، فليس معناه أنه كان في القديم مجهول القيمة ، وأن فائدته كانت في عالم الغيب .

إن فائدة كل شيء ترجع إلى صفاته الخاصة التي يتصف بها ، وأهم صفات النفط الحرق ، فلم تك صفته هذه مجهولة لدى الأمم الشرقية ، بل كانت تعرفها ، ولم تأل جهداً في الانتفاع بها طبقاً لأسباب الاستفادة الممكنة الموجودة في عصرها . فكان أهل بابل يستعملون النفط والقصب وقوداً ، ويحرقون بهما موتاهم[١] وقد رفع الأستاذ كولديوي R. Koldewey سدول أغدافه بفحص موتاهم في سرغول وألهيا فأبان أنها أحرقت بالإسفلت[٢] والقصب ، لأنها لم تكن محروقة كلية[٣] .

لم يكن انتفاع تلك الأمم الشرقية بالنفط محصوراً في استعماله كالوقود ، بل كانت تستفيد منه في الدفاع والهجوم كذلك ، وهو أيضاً أقصى المدى جرت إليه الأمم الغربية في الانتفاع به في العصر الحاضر ، وإن اختلف الطريق ، لاختراع آلات الدفاع المختلفة وأدوات الهجوم الكثيرة الآن . فالمؤرخ الروماني بليني Pliny يصرح لنا أن النفط كان أكبر وسيلة عند الانتقام من ميديا[٤]، ونوه به المؤرخ الواعظ في الحروب الصليبية

---

(١) E. Von Starck : Babylonien und Assyrien S. 322

(٢) المراد من الإسفلت هنا رواسب النفط .

(٣) راجع :

Fr. Hommel : Grundritz der Geographie und Geschichte. München 1904, S. 127.

(٤) توفي بليني سنة ٧٩ ميلادية . راجع مصنفه تاريخ الطبيعة المجلد الثاني ص ١٠٩ .

دووتي J. de Vity في مصنفه تاريخ يروشلم بلقب « النبع الشرقي [(١)] » .

أما النار اليونانية التي أشاد كثيراً بذكرها المؤرخون باسم feu grégeois فكان أهم أجزائها أيضاً النفط ، وقد حيكت حولها الأساطير ، منها أن الملك أوحى طريقها إلى أول الملوك وأعظمهم الذين سموا باسم « قسطنطين » ، ووصاه بأنها هبة سماوية له ، ونعمة خاصة أسبغت على الرومانيين ، فيجب أن يستولي الخفاء على جملتها ، ويستمر السرار بأهلها ، ولا تكشف حقيقتها على أحد من الأمم الأجنبية ، وأما إذا كشفت فسيثير ذلك غضب إله النصارى للانتقام . ولكن التحقيق رفع سجاف تلك الأسطورة وأبان أن ذلك « الملك الموحي » كان عربياً من سكان بعلبك اسمه كالي نيكوس . هرب من خدمة الخليفة ودخل في خدمة الإمبراطور [(٢)] .

لم يكن العرب جاهلين النفط ، ولا كانت فائدته لديهم في عالم الغيب ، فإننا إذا أنعمنا النظر في الأدب العربي وجدنا أنه كان عندهم ملحوظ المنزلة مقصود الآمال ، حتى كان اسمه يطلق بتغيير يسير على معان مختلفة ، والشيء إذا نال التقدير من حياة الإنسان تعددت نواحيه للافادة والاستفادة منه ، فتوسع التعبير به ، وتفرعت المعاني .

أما تعريفه عند العرب فأقدم ما وصل إلينا من تعريفه قول اللغوي الشهير أبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هجرية أن النفط عامة القطران ، وكان هذا رأي الأصمعي المتوفي سنة ٢١٦ هجرية أيضاً ، فانتقد الأول أبو حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هجرية وصرح أن النفط حلابة جبل في قعر بئر توقد به النار. ولما كان القطران يستعمله العرب دواءً لبعض أمراض الإبل مثل الجرب ، والدبر ، والقردان انتقد الثاني علي بن حمزة المتوفى سنة ٣٧٥ هجرية مبيناً الفرق بين النفط والقطران ، بأن الأول لا يطلى به الجرب والدبر والقردان وإنما يطلى بالقطران .

ينتهي هذا التحقيق إلى القرن الرابع الهجري ، وأنت عليم بأن الشيء كلما تغلغل استعماله في حياة الإنسان ، تقدمت معرفته به وبأوصافه وفوائده ، فإليك ما عرفه به القزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هجرية ، قال :

«وأما النفط ، فيطفو الماء ، منه أسود ومنه أبيض ، وقد يصاعد الأسود بالقرع والأنبق فيصير أبيض . ينفع من أوجاع المفاصل ، واللقوة ، والفالج ، وبياض العين ،

---

(١) راجع التاريخ المذكور ص ٨٤ .

(٢) راجع :
E. Gibbon : The Decline & Fall of The Roman Empire Vol. VI. P. 11

والماء النازل فيها . وإذا شرب منه نصف مثقال نفع من المغص والرياح ، ويخرج الأجنة الموتى والمشيمة المحتبسة ، ويقتل الدود وحب القرع ، وينفع للملسوع طلاءً . وربما يتوقد من غير نار بل بتحريكه [١] » .

في هذا التعريف للنفط ، أي بعد مرور ثلاثة قرون على التعريف السابق ، نجد تقدماً محسوساً في معرفته ، فإن القزويني يبين لنا فيه وصف النفط ، ثم أقسامه ، ثم أثر التكرير فيه ، ثم فوائده للأمراض والعلل . وقد بين له وصفاً لا تزال تتجلى صحته ، ويثبت صدقه إلى الآن لدى كل منا مرات عديدة في اليوم ، وذلك قوله فيه : « وربما يتوقد من غير نار بل بتحريكه » . فما منا أحد يركب السيارة ولا يستدر من وصفه هذا منفعة .

أما تفرع المعاني من اسمه ، وهو كما قلنا أكبر دليل على إمعان الإنسان في معرفة المسمى، واستبطانه لدخائل خواصه ، فقد ذكر لنا اللغويون أربعة معان لكلمة «نفاطة» أي بتغيير يسير في اسمه ، وهي :

١ — موضع يخرج منه النفط. ٢ — ضرب من السراج يرمى به النفط .
٣ — أداة تعمل من النحاس يرمى فيها بالنفط والنار . ٤ — جماعة الرماة بالنفط [٢] . ثم يظهر أنه في القرن السابع ، أي في عهد القزويني ،كان النفط يستعمل للتنوير في البيوت والشوارع ، فإن غير واحد من مؤرخي هذا القرن يذكرون كلمة «نفاط» بمعنى حامل الضوء [٣]، وإن لم يذكره القزويني . كذلك يظهر أنه كان الاشتغال بالنفط في هذا العهد مهنة خاصة يباشرها رجال صنعون ويسكنون في جهة معينة من بغداد ،كانت تسمى « درب النفاطين » [٤] .

ولما كانت الأمثال في أدب لغة تظهر دائماً متأصلة إما على حادث فريد غريب لفت

---

(١) عجائب المخلوقات للقزويني على هامش حياة الحيوان الكبرى للدميري ج ١ ص ٣٦٨ طبع مصر .

(٢) وكانوا يسمون « الزراقين » أيضاً . قال العماد في الفتح القسي (طبع مصر ص ٥٩) : وكل زراق رزق الجسارة على أهل النار بالنار .

(٣) راجع تاريخ الحكماء للقفطي طبع مصر ص ١٤٥ ؛ ومختصر الدول لابن العبري طبع بيروت ص ٤٢٢ ؛ والحوادث الجامعة لابن الفوطي طبع العراق ص ٢٢٢ ؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ٤ ص ٢٣٣ .

(٤) راجع الحوادث الجامعة ص ١٧٦ .

نظر أصحاب تلك اللغة وأثر فيهم ، وإما على تجربة تكررت في حياتهم ، فلم تكن تجارب النفط المكررة عند العرب ذاهبة سدى ، ومحرومة موثوق أدبهم بها ، فقد ضرب المثل به في أدبهم بقولهم :

« نفط وقطن أسرع احتراقاً »

وذلك للشرين إذا اختلطا . ولم يكن الشعر العربي أيضاً (١) خالياً من ذكره ، قال راوية العرب الإمام اللغوي الأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ هجرية :

كأن بين إبطها والإبط ثوباً من الثوم ثوى والنفط

وقال الشاعر عبد الصمد بن المعذل ، وهو معاصر المبرد صاحب الكامل المتوفى سنة ٢٨٥ هـ في صديق له ولي النفاطات (٢) فأظهر تيهاً :

لعمري لقد أظهرت تيهاً كأنما تولیت للفضل بن مروان منبرا

وما كنت أخشى لو وليت مكانه علي أبا العباس أن تتغيرا

بحفظ عيون النفط أحدثت نخوة فكيف به لو كان مسكا وعنبرا

دع الكبر ، واستبق التواضع ، إنه قبيح لوالي النفط أن يتكبرا (٣)

قلنا إن أقدم ما وصل إلينا من تعريف النفط هو قول اللغوي الشهير أبي عبيدة المتوفى سنة ٢٠٩ هجرية فيه ، وأنت تعرف أن الشيء يسبق تعريفه دائماً علمه واختباره فإن المجهول لا يمكن أن يحدد ويعرف . وعليه فلم يكن النفط قبل تعريف أبي عبيدة مجهولا لدى العرب . فإن الوثائق التاريخية تنبئنا بأنهم كانوا عاجمين عوده وعارفين أوصافه قبل ذلك . ففي عهد بني أمية حين ادعى بيان بن سمعان التميمي الألوهية ، أخذه خالد بن عبدالله القسري (٤) هو وخمسة عشر رجلا من أصحابه ، وشدهم بأطنان القصب ، وصب عليهم النفط وأحرقهم ، وذلك في سنة ١١٩ هجرية (٥) . واستعمله العرب حتى في فتوحهم بلاداً طريحة وأمكنة سحيقة ، فقد ثبت أنهم استعملوه في فتوحهم بلاد الصين .

---

(١) مجمع الأمثال للميداني طبع سنة ١٣١٠ هـ بمصر ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) النفاطات جمع نفاطة تطلق على موضع يخرج منه النفط .

(٣) المحاسن والمساوي للبيهقي طبع مصر ج ١ ص ١٣٠ ؛ وأيضاً المحاسن والأضداد للجاحظ طبع مصر ص ٤٢ .

(٤) تولى أمر العراقين (أي الكوفة والبصرة) من سنة ١٠٥ هجرية إلى سنة ١١٥ هجرية في عهد هشام بن عبد الملك .

(٥) راجع فرق الشيعة للنوبختي ص ٢٨ .

ثم إن كان إحراق النفط سهل الملتمس ، فإن إطفاءه كان عزيز المنال بعيد المطلب ، ومع ذلك فلم يكن أمره مما لم يدخل علم العرب ، إذ كانوا سابرين غوره وخابرين سره ومتخصصين فيه ، فحين صار الجنيد بن عبد الرحمن إلى أرض الصين في عهد هشام في سنة ١١٣ هـ ودعا ملكها إلى الإسلام ، فقاتله ، فثبت له الجنيد ، فأقام يقاتله ، ورمى حصنه بالنفط والنار ، فطفأها ، فقال الجنيد : في الحصن قوم من العرب ، هم أطفؤوا النار ، ولم يزل يقاتله حتى طلب الصلح ، وصالحه وفتح المدينة ، فوجد فيها رجلين من العرب فقتلهما (١) .

كذلك كان عند الخلفاء العباسيين في أوائل عهدهم جيش من النفاطين ، كان مفضى واجبهم في الدفاع والهجوم إلى النفط ، فكان النفط سلاحهم الوحيد ، لم يكونوا يتخطون مراسمه . وقد فتحوا به في عهد الخليفة هارون الرشيد في سنة ١٩٠ هجرية مدينة هرقلة وحصنها ، فإن جيشه حين ارتاد لها نواحي الظفر ، وعانى فيه صعداً ، لأنها كانت شامخة الذرى ، منيعة المرتقى ، وبلغ الخبر الرشيد ، صاح في القواد ليأمروا النفاطين أن يجعلوا النار في المجانيق ويرموهم ، فإنه ليس لدى القوم دفع عنها ، ففعلوا ، وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة ، وأضرموا فيها النار ، ورموا بها السور ، فكانت النار تلصق به وتأخذ الحجارة وقد تصدعت ، فتهافتت . فلما أحاطت بها النيران فتحوا الباب مستأمنين ومستقبلين . وإليه أشار الشاعر المكي بقوله :

هوت هرقلة لما أن رأت عجباً جوائماً ترتمي بالنفط والنار

كأن نيراننا في جنب قلعتهم مصبغات على أرسان قصّار (٢)

كذلك فتح جيش النفاطين مدينة تفليس في سنة ٢٣٨ هجرية في عهد المتوكل ، فحين وجه المتوكل بغا الكبير إلى تفليس استقدم المتغلب عليها ، وهو إسحق بن إسمعيل وكان من موالي بني أمية ، فكتب إليها معتذراً أنه لم يخرج أبداً من طاعة السلطان ، فإن أراد الأموال أمده بها ، وإن أراد الرجال أنفذهم إليه ، وأما القدوم فلا يمكنه . فأمر بغا النفاطين ، فضربوا المدينة بالنار ، وأحرقوها ، لأن المباني فيها كانت من خشب

---

(١) راجع تاريخ اليعقوبي طبع العراق ج ٣ ص ٥٧ .

(٢) ذكر فتح هرقلة موجود في أكثر المراجع التاريخية والأدبية ، ولكن لا تذكر كلها فتحها بالحرق ، وإليك بعض التي تذكره : — الكامل لابن الأثير طبع مصر ج ٦ ص ٧٤، ٧٨ ؛ والبداية والنهاية لابن كثير طبع مصر ج ١٠ ص ١٩٤ ؛ والأغاني للأصفهاني طبع الساسي ج ١٧ ص ٤٦ ؛ ومعجم البلدان لياقوت الحموي طبع مصر ج ٨ ص ٤٥٣ .

الصنوبر ، فهلك خمسون ألف إنسان ، وأسر إسحق ، وضربت عنقه وتم الانتصار[١].

بقي النفط هكذا سلاحاً نافذاً في أيدي المسلمين ، موفقاً لهم مرادهم في حروبهم المستعرة الوطيس ، واستمر التقدم في استعماله إلى أن بدأت الحروب الصليبية في القرن السادس الهجري ، فعظم قدره في نفوسهم ، وارتفعت منزلته في عيونهم ، حين ثبت أنه أفضل سلاح للانتصار غير عارض ، وأسبق الوسائل إلى المراد غير مدافع .

إن النار اليونانية [٢] التي تعلمها الغرب كما قلنا من شرقي عربي بعلبكي بقيت سراً من أسرار الدولة الرومانية الشرقية أربعة قرون ، تحمل المسلمون منها في فتوحهم رهقاً شديداً ، وعانوا بها برحاً بارحاً . فكان شواظها في الحروب يلفح وجوههم ، ويكوي جنوبهم ، فتحملهم على النكوص . وهي التي حالت دون فتح القسطنطينية في أوائل عهدهم في محاولاتهم السبع [٣] .

لكن في الحروب الصليبية دار الدهر دورته ، فهادنتهم صروف الزمان ، وعرفوا حقيقة النار اليونانية ، فسلطوا على أعدائهم بها بأس انتقامهم ، وعاقبوهم عقاباً أصبح عبرة في الغابرين ، وأحدوثة في الآخرين ، فقد ذكر لنا غير واحد من مغامري تلك الحروب بصدق قلوبهم فزعهم الشديد عند سماع صوت تلك النار ورؤيتها ، وإن حملتهم رباطة جأشهم على احتقار آلام سيوف العرب وحرابهم . قال المؤرخ الفرنسي الشهير

---

(١) آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني طبع أوربا ص ٣٤٨ ؛ وأيضاً الكامل لابن الأثير طبع مصر ج ٧ ص ٢٦ ؛ وأيضاً تاريخ اليعقوبي طبع العراق ج ٣ ص ٢١٤ .

(٢) كانت تصنع هذه النار من النفط كالجزء الأساسي ، والكبريت ، والزفت المصنوع من شجرة الصنوبر . وكان إيقاد هذا المركب ينتج دخاناً كثيفاً وانفجاراً هائلا يصحبهما لهب قاس عنيف يحرق كل رطب ويابس حوله ، وكان يتلظى أكثر إذا ألقي الماء عليه ، ولم يكن يخمد إلا بالرمل ، أو البول ، أو الخل . وقد ذكر العماد إخماده بالخل والخمر في الفتح القسي (راجع طبع مصر ص ٢١٤) .

(٣) حاول المسلمون فتح القسطنطينية اثنتي عشرة مرة حتى فتحها في المرة الأخيرة السلطان محمد الفاتح من آل عثمان في سنة ٨٥٧ هجرية ، ومن إحدى عشرة محاولة قبل ذلك كانت السبع في القرنين الأولين من الهجرة ، فأول مرة حاصرها معاوية في خلافة سيدنا علي سنة ٣٤ هـ ؛ ثم حاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧ هـ في خلافة سيدنا علي أيضاً ثم حاصرها سفيان بن أوس في خلافة معاوية سنة ٥٢ هـ ؛ ثم حاصرها مسلمة في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٧ هـ ؛ ثم حوصرت في خلافة هشام سنة ١٣١ هـ ؛ وفي المرة السابعة حاصرها الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٢ هـ .

زانوبيه J. Joinville المتوفى سنة ١٣١٧ ميلادية واصفاً إياها ، وقد خاض غمار الحرب الصليبية السادسة مع ملك فرنسا لويس التاسع الشهير بلويس القديس :

« إنها كانت تأتي طائرة في الهواء كالتنين المجنحة والمذيلة بذيل طويل ، سمكها كسمك برميل كبير ، بدوي الرعد القاصف ، وبسرعة النور ، وكان ظلام الليل الدامس ينعدم بتاتاً بضوئها المهلك [١] » .

إن وصف زانوبيه هذا وصف يقرب إلينا تصور القنابل الطائرة في العصر الحاضر ، فكأن هؤلاء في القرن السادس الهجري أخذوا لأعدائهم من عناصر بسيطة وتكاليف قليلة عدة مثلما أخذ أهل الغرب في القرن الرابع عشر الحاضر من العناصر الكثيرة والتكاليف الباهظة . والفضل في ذلك كله للنفط ، فإنهم لو لم يكونوا عارفي حقيقته وفوائده لما كان ذلك لديهم ممكناً .

إن النفط كان يعد أخطر شأناً بين عتاد تلك الحروب ، فلم يكونوا يضربون على الحرب أطنابهم إلا كان من عتادهم لها النفط . ففي سنة ٥٥٢ هجرية حين حاصر السلطان محمد شاه السلجوقي بغداد ، كان أهم العتاد لدى جيش الخليفة المقتفي لأمر الله في رفعها النفط[٢] . وفي سنة ٥٦٤ هجرية حين أحرق الوزير شاور بن مجير السعدي بإذن الخليفة العاضد الفاطمي الفسطاط خوفاً من استيلاء الإفرنج عليها ، أحرقها بعشرين ألف قارورة نفط[٣]. كذلك في سنة ٥٨٣ هجرية كان النفط من عتاد ذي شأن خطير في واقعة حطين التي تعد معركة فاصلة في الحروب الصليبية[٤]. وفي سنة ٥٨٥ هجرية حين عرف صاحب الموصل تأهب السلطان صلاح الدين للجهاد زف إليه عدة أجزل فائدة ، وهي النفط[٥]. وفي سنة ٥٨٦ هجرية حين بلغ الخليفة الناصر لدين الله استعداد السلطان صلاح الدين للجهاد مع الصليبيين ، أرسل إليه حملين من النفط الطيار ، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنار ، وحملين من القنا الخطي الخطار ، وتوقيعاً لاقتراض

نفط الموصل

---

(١) راجع :
J. Joinville : Histoire de St. Louis P. 39

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق للبنداري طبع مصر ص ٢٨٨؛ والكامل لابن الأثير طبع مصر ج ١٢ ص ٩٦ ؛ والبداية والنهاية لابن كثير طبع مصر ج ١٢ ص ٢٣٤ .

(٣) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة طبع مصر ج ١ ص ١٧١ .

(٤) الفتح القسي للعماد الأصفهاني طبع مصر ص ١٩ ؛ وكتاب الروضتين ج ٢ ص ٨١ ؛ والكامل لابن الأثير ج ١١ ص٢٤٢؛ والبداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٢١ .

(٥) الفتح القسي ص ١٧١؛ وكتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٨ .

عشرين ألف دينار ، فلم يقبل السلطان التوقيع ، فإن نفسه لم ترض بأن يبهظ ديوان الخليفة بالاقتراض ، ولكنه قبل ما كان أنجع في يده منه ، وهو النفط والقنا [١] . وفي السنة نفسها حين حاصر الصليبيون عكة ، عملوا ثلاثة أبراج من خشب وحديد عليها جلود مسقاة بالخل لئلا يعمل فيها النفط ، يسع البرج خمسمائة مقاتل ، وهي أعلى من أبراج البلد ، ومركبة على عجل يديرونها كيف شاؤوا ، وعلى ظهر كل منها منجنيق كبير ، فكان وجودها خطراً عظيما على البلد ، فلم يدرأ ذلك الخطر إلا بحرقها بالنفط والعقاقير الأخرى[٢] . ثم نصب الصليبيون بعد احتراق تلك الأبراج منجنيقات عظيمة بالتكاليف الباهظة ، فأحرقها المجاهدون أيضاً بالنفط[٣] . ثم أتوا في محلها بالكبش[٤] فأحرق كذلك بالنفط[٥] . ثم أقاموا في محلها دبابة عظيمة ذات أربع طبقات ، الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو على سور البلد ، يركب عليها المقاتلة ، وخاف منها أهل البلد خوفاً عظيما ، فأفرغوا مجهودهم وأحرقوها بالنفط[٦] .

هكذا كان للنفط شأن خطير في أكثر وقائع الحروب في الزمن الغابر ، وكان يستعمل فيها استعمالا مباشراً ، ويحوز بين عتادها رتبة لاتدانى ، إلى أن ظهر شيء أقوى منه ، وهو البارود .

كانت أكثر عناصر البارود معلومة لدى معظم الأمم الشرقية إلا عنصراً واحداً ، وهو العنصر الأساسي الهام في تركيبه ، أي « نترات البوتاس » فاكتشفه أهل الصين

---

(١) الفتح القسي ص ١٧٩ ؛ وكتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٢ ؛ والبداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٥ ؛ والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد طبع مصر ص ١٠٢ .

(٢) الفتح القسي ص ١٨١ — ١٨٢ ؛ وكتاب الروضتين ٢ ص ١٥٣ ؛ والبداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣٥ ؛ والكامل لابن الأثير ج ١٢ ص ٢١ — ٢٢ ؛ والنوادر السلطانية ص ١٠٣ .

(٣) الفتح القسي ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ؛ كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ والنوادر السلطانية ص ١١٧ و ١٢٠ .

(٤) هي آلة كانت تستعمل في الحصار ، لها رأس يشبه رأس الكبش وينطح به السور ، كانت تحرك على العجل ويدخلها المقاتلة لابسين صفائح الحديد .

(٥) الفتح القسي ص ٢١٣ — ٢١٥ ؛ وكتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٢ ؛ والنوادر السلطانية ص ١٢٦ .

(٦) الفتح القسي ص ٢٤٥ ؛ وكتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٥ والنوادر السلطانية ص ١٤٩ — ١٥٠ .

في أوائل القرن الخامس الهجري ، أي في وسط القرن الثاني عشر الميلادي[١] . ومنهم عرفه المسلمون في أوائل القرن السابع الهجري ، لذلك يذكرونه في كتبهم بإسم « ثلج الصين »[٢] أو « ملح الصين »[٣]

عند ظهور البارود انحطت منزلة النفط ، فعد من العتاد الثانوي ، إذ أصبح أكثر الاعتماد في الحروب على البارود ، ولكن بنهضة الحضارة الغربية ارتفع شأنه مرة أخرى ، وذلك باختراع الآلات الميكانيكية الكثيرة ، فإنه أصبح بظهورها وسيلة هامة ، لتحريكها ، فنجم عنه التنافس الشديد بين الدول الصناعية لحيازة بقع ينابيعه .

هذا ما عن لنا من بيان اللغويين والأدباء والشعراء والمؤرخين في شأنه . وأما الرواد والباحثون الشرقيون فلم يكونوا جاهلي قيمته ، ولا كان وصفهم له محصوراً في « أنه النيران الهائلة الدائمة التي تستعر بشدة في جهات كثيرة من أقطار إيران والقوقاز » كما ادعى أهل الغرب وأتباعهم ، بل نجد بيان بعضهم أدق من غيرهم ، حتى بيان من وصفه منهم بالنيران إذ قد صرح لنا فيه بطريق الاستفادة منها . قال المراكشي بعد أن وصفه بالنيران وصفاً دقيقاً مبيناً فيه ألوانها وأوقات اشتعالها :

> « يصطادون الغزلان في تلك الأرض ، فيقطعون لحم الصيد ، ويجعلونه في جلده ، ويشدون الجلد عليه على أنبوبة قصب مثقوبة ، ويدفنون الجلد باللحم في ذلك التراب الأسود ، فيغلى ويخرج الزبد من تلك الأنبوبة كما يخرج من القدر ، وإذا نفد الزبد نضج اللحم ، فيخرجون ذلك الجلد صحيحاً واللحم نضيجاً حراً كما يكون في الجلد »[٤].

فيظهر منه أنهم كانوا يستعملون تراب تلك الأرض الحارة كملة يطبخون فيها طعامهم . وأما من لم يصفه منهم بالنيران ، فأبان لنا بين أوصافه المختلفة صفة أخطر شأناً ، وهي قيمته من الوجهة الاقتصادية . فقد نقل لنا ياقوت الحموي قول الشاعر

---

(١) راجع :
J. Von Romocki : Geschichte der Explosivstoffe Band I S. 45.

(٢) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار طبع بولاق ج ١ ص ١٥١ ؛ والكتب والقواميس باللغة الفارسية والتركية أيضاً يذكرانه بهذا الاسم .

(٣) تذكرة أولي الألباب لداود بن عمر الأنطاكي طبع بولاق ج ١ ص ٩٥ .

(٤) تحفة الألباب ونخبة الإعجاب للمراكشي طبع باريس ص ١١٤ .

أبي دلف مسعر بن مهلهل[١] في عينه الموجودة بخانقين ، قال : « وبخانقين عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل »[٢]. فقول أبي دلف هذا يوضح لنا علمه بالنفط وما كان له في زمنه من قيمة وتجارة واستهلاك ، فإنه لو لم يعرفه لما قدر على وصف عينه أنها « كثيرة الدخل » . ويفوق أبا دلف ياقوت الحموي في وصف عينه الأخرى ، إذ يقدر لنا إنتاجها اليومي بتقدير قيمته ، قال :

« فيه (أي في با كويه) عين نفط عظيمة تبلغ قبالتها في كل يوم ألف درهم ، وإلى جانبها عين أخرى تسيل بنفط أبيض كدهن زئبق ، لا تنقطع ليـــلا ولا نهاراً ؛ تبلغ قبالته مثل الأول » .[٣]

وعليه فكان إنتاج هاتين العينين يبلغ فى كل يوم ، حسب تقدير ياقوت الحموي ، ألفي درهم ، أي ثمانمائة جنيه أسترليني حسب تثمين الأستاذ هوبر[٤] . وبيان ياقوت هذا للنفط دحض صريح لمن ادعى أنه كان « مجهول القيمة والمنفعة » لدى الرواد الباحثين .

هذا كان شأن النفط في الشرق الأدنى . وأما في الشرق الأقصى فكانت منابعه في الهند فيما نعرف اكتشفت واستغلت قبل اكتشاف « نبع بترولي » بأمريكا . كذلك كان النفط معلوماً قبله لدى أهل أندونسيا ، فقد نوه بوجوده فيها الرائد جودين

---

(١) أبو دلف مسعر بن مهلهل من رواد العرب في القرن الرابع الهجري ولد في ينبع بالحجاز، قام برحلة إلى سمرقند وهناك اتصل بالوزير الساماني أحمد بن محمد الجهاني الذي كان من كبار الجغرافيين في الإسلام ومن أصحاب التصانيف فيه ، فحرضه على استمرار استخبار أحوال البلاد والقيام بالرحلات،وهو الذي أمره أن يصطحب أميراً هندياً فيرحلته إلى بلاد التبت وغيرها، فاصطحبه وصنف كتابا مسمى « عجائب البلاد » لعل ياقوتاً اطلع عليه .

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي طبع مصر ج ٣ ص ١٣٩٢ ويذكره أيضاً بالإجمال ابن رستة في مصنفه الأعلاق النفسية طبع أوربا ص ١٦٤ .

(٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٤٥ .

(٤) راجع : Hooper : An Enquiry into Ancient Measures. P. 24—36

وقد قدر المستشرق لواسترنج في مصنفه « أراضي الخلافة الشرقية » (راجع طبع كمبردج ص ١٨١) ألف درهم بأربعين جنيهاً أسترلينياً، وتبعه عالم العراق أنستاس الكرملي (راجع حاشيته على كتاب النقود القديمة الإسلامية للمقريزي نشره ضمن مجموعة سماها النقود العربية وعلم النميات طبع مصر ص ٢٤) ولـكن عندنا تقدير الأستاذ هوبر أوفى منهما .

هو* في سنة١٦١٣ ميلادية باسم « منهات تنات » وهو محرف « منياك تنه » ومعناها باللغة الملايوية زيت الأرض .

هذا ما تيسر لنا في مدة وجيزة ، وبما وجد لدينا من المراجع القليلة ، لتحقيق ما كان للنفط عند أهل الشرق من خطورة الشأن ، توخينا به تنبيه القارىء الشرقي على ما كان لأسلافه من المساهمة التي لا يستهان بها في الكشف والتحقيق ، وعلى أن لا يقيم لما يقول فيه أهل الغرب وأتباعهم من جزاف القول وزناً ، والسلام على من اتبع الهدى ؟

السيد ابو النصر احمد الحسينى الهندى

---

* ولد « جودين هو » من أب برتغالي وأم ملايوية في سنة١٥٦٣ م في ملايا ، وأرسل لتعلم الرهبنة في كلية اليسوعيين في مدينة جوا بالهند ، ولكن نزوعه إلى علم الجغرافية وحبه للمغامرات غلبا على ذلك التعليم ، وقد وجد له مصنف موجه إلى فيليب الثالث ملك إسبانيا بدار الكتب الملكية في بروسلز صنفه في سنة ١٦١٣ ميلادية . ونشر المصنف المذكور الأستاذ ليون يانسين عضو الجمعية الجغرافية في بروسلز في سنة ١٨٨٢ ميلادية . والكتاب صورة صادقة لأندونسيا في ذلك العهد .

أندونسيا
بين الاستعمار والاستقلال

للسيدة سيدة كاشف
المدرسة بمعهد التربية العالي للمعلمات بالقاهرة

١

بين المحيطين الهادي والهندي مجموعة من الجزر تفصل آسيا عن أستراليا، وتعرف باسم أرخبيل الملايو أو جزر الهند الشرقية. وقوامها جزر كبيرة مثل سومطرة وجاوة وبرنيو وسيليبز وجزر الفلبين، وأخرى صغيرة مثل بالي وتيمور وطبوك وصماوة وفلوريس وجزر الملوكا وغيرها من مئات الجزر. وكانت هذه المجموعة الكبيرة من الجزر أغنى المستعمرات في العالم. أما الفلبين فقد كشفها ماجلان سنة ١٥٢١ م وأرسل إليها الإسبان عدة حملات انتهت بضمها إلى ممتلكاتهم سنة ١٥٦٩م، ثم نزلوا عنها للولايات المتحدة سنة ١٨٩٨ م بعد هزيمتهم في الحرب الأمريكية الإسبانية. وظلت جزر الفلبين تابعة للولايات المتحدة حتى حصلت منها على قسط وافر من الاستقلال قبيل الحرب الأخيرة. وإذا استثنينا الفلبين، ثم الجزء الشمالي من برنيو — وهو تابع لبريطانيا — والجزء الشرقي من جزيرة تيمور — وهو تابع للبرتغال — فإن سائر جزر الهند الشرقية كانت قبل قيام الحرب الأخيرة تخضع لهولندة، وتعرف باسم إمبراطورية الهند الهولندية. وقد أطلق عليها في القرن التاسع عشر اسم أندونسيا أي « جزر الهند ».

وتبلغ مساحة أندونسيا زهاء مليونين من الكيلو مترات المربعة، أي نحو ضعف مساحة القطر المصري. وتقع في المنطقة الحارة، ومناخها استوائي كثير الأمطار، ولكن البحار المحيطة بجزرها المختلفة، وارتفاع أرضها وكثرة غاباتها، تساعد على تلطيف مناخها. وتكثر فيها سلاسل الجبال المكونة من صخور رسوبية وجرانيتية غنية بالفلزات، ولا سيما الذهب والفضة اللذين لفتا إليها نظر الشعوب الأجنبية منذ العصور القديمة، ومثل القصدير الذي يعتبر اليوم من أعظم موارد الثروة للحكومة ولشركات التعدين. وجادت الطبيعة على البلاد بغير ذلك من الخيرات التي جعلتها طعمة المستعمرين، ففيها البترول والرصاص والمطاط والبن والقطن وقصب السكر وجوز الهند والنيل والبهارات والكينا والأخشاب وغير ذلك من المواد الضرورية للصناعة.

وأندونسيا من أكثر مناطق العالم تعرضاً للزلازل والبراكين ، وقد كان للمقذوفات البركانية فضل كبير في أن أصبحت أرضها من أخصب بقاع العالم .

ويبلغ عدد سكانها نحو سبعين مليون نسمة ، ولكن أكثر هذه الجزر ازدحاماً بالسكان جزيرة جاوة ، فهي أعظمها تقدماً من الوجهة الاقتصادية ، وذلك بفضل خصب تربتها البركانية وانتظام أمطارها وارتفاع أرضها وتنوع منتجاتها الزراعية . فلا عجب أن أصبحت واسطة العقد بين هذه الجزر ، يعيش فيها نحو ثلاثة أخماس سكان أندونسيا ، وفيها مقر الحكم ومركز الحياة الاقتصادية والثقافية ، وتاريخها هو المحور الذى يدور حوله تاريخ جزر الهند الشرقية كلها ، بل إن اسم « جاوة » قد غلب على مجموعة الجزر كلها عند كتاب العرب في العصور الوسطى ، وبعض المسلمين في العصر الحديث .

وسكان أندونسيا خليط من أجناس مختلفة ، ولكن معظمهم من جنس الملايو الذي نزح إلى الجزر من شرقي القارة الأسيوية . ويمتاز الملايويون بمهارتهم في الملاحة والتجارة ، فاختلطوا بغيرهم من الأجناس ، كما نزح إلى أندونسيا كثير من الصينيين والهنود والعرب ، ونزلها الأوربيون وأتيح لهم أن ينفذوا إلى داخل جاوة وسومطرة . أما في سائر الجزر الكثيرة ، مثل برنيو وسيليبيز ، فقد ظلوا في المناطق الساحلية .

ولغات أهل أندونسيا كثيرة ، ولكن أكثرها انتشاراً اللغة الملايوية ، وقد كانت في البداية مستعملة في سومطرة وفي شبه جزيرة الملايو القريبة منها ، ثم ساعد على انتشارها أن التجار من جميع الثغور الأندونسية كانوا يلتقون في ملقا — أعظم المدن وأقدمها في شبه جزيرة الملايو — وأصبحت اللغة الملايوية لغة الملاحين والتجار في أندونسيا ، ولم تلبث أن أصبحت اللغة المشتركة lingua franca بين ذوي اللغات المختلفة من الأندونسيين . وتكتب هذه اللغة الآن بالحروف اللاتينية ، ويكتبها رجال الدين بالحروف العربية .

وأكثر الأديان انتشاراً في أندونسيا الدين الإسلامي ، إذ يبلغ عدد المسلمين فيها نحو ستين مليوناً من الأنفس . أما سائر السكان فمن البراهمة والمسيحين والبوذيين .

وقد قامت في أندونسيا منذ القرون الأولى بعد الميلاد إمارات قوية ، ازدهرت على يدها التجارة ، واتصلت بالهند وإيران وبلاد العرب والصين ، ولكن الثقافة الصينية، رغم غناها وازدهارها ، لم تؤثر في أندونسيا تأثيراً قوياً ، وإنما قامت الحياة الثقافية في تلك البلاد على ما نقلته عن الهند ثم عن إيران وبلاد العرب ، ممزوجاً بما حفظته من حضارتها وتقاليدها الوطنية . وبين القرنين الخامس والتاسع بعد الميلاد ازدهرت في

جاوة وسومطرة عدة مراكز لحضارة أندونسية هندية. ومن أعظم آثارها معبد بوروبودور، الذي لا يزال قائماً على مقربة من مدينة ديوكيا كرتا في جزيرة جاوة ، وهو غني بتماثيله ونقوشه التي تشهد بانتشار الحضارة الهندية في ربوع أندونسيا .

وبدأ التجار المسلمون في الاتصال بأندونسيا منذ القرن التاسع الميلادي ، فكانوا يفدون إليها من الهند وإيران وبلاد العرب ، ويحملون حاصلاتها ، ولا سيما البهارات ، إلى إيران وموانئ البحر الأبيض المتوسط ، لينقلها البنادقة إلى أوربا . ومن المحتمل أن أولئك التجار نجحوا في نشر الإسلام في أندونسيا ، ولكننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن بدء هذه الحركة . ولعل أقدم ما يوثق بصحته في هذا الصدد ما كتبه الرحالة الإيطالي مركو بولو ، ثم الرحالة المغربي ابن بطوطة عن الدولة الإسلامية في شمالي جزيرة سومطرة . أما مركو بولو فقد قضى خمسة أشهر سنة ١٢٩٢ م في ساحل سومطرة الشمالي ، وكتب أن سكانها كانوا وثنيين إذا استثنينا مملكة صغيرة انتشر الإسلام بين رعاياها بفضل التجار المسلمين . وزار ابن بطوطة مدينة سومطرة سنة ١٣٤٥ م ، وكتب عن سلطانها الملك الظاهر* أنه « من فضلاء الملوك وكرمائهم ، شافعي المذهب ، محب في الفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الجهاد والغزو ، ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه ، وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد ، يخرجون معه تطوعاً . وهم غالبون على من يليهم من الكفار . والكفار يعطونهم الجزية على الصلح » .

وكان التجار المسلمون من الهند واليمن وحضرموت يقيمون في جزر أندونسيا فترات طويلة ، ويتزوجون من نسائها ، ويختلطون بسكانها ، ويأخذون عنهم بعض التقاليد والعادات . وتأثر أولئك السكان بوضوح العقيدة الإسلامية وبساطتها وبما فيها من المساواة بين المؤمنين ، كما تأثروا بتفوق المسلمين في المدنية ، وبإقبالهم على مؤاخاة أهل البلاد ، وببعدهم عن الغايات الاستعمارية . فكان ذلك كله سبباً في انتشار العقيدة الإسلامية بينهم ، دون أن يقوم الخلفاء والسلاطين في الإمبراطورية الإسلامية بأي عمل إيجابي في هذا الصدد . وقد ظلت بعض القبائل البدائية في قلب الجزر الأندونسية باقية على الوثنية،

---

* يلاحظ أن ابن بطوطة زار مدينة « سومطرة » عاصمة جزيرة سومطرة ولكنه يذكر سلطانها باسم « سلطان الجاوة » ولا عجب فقد كان اسم الجاوة يطلق على أرخبيل الملايو كله ، وكانت سومطرة تعرف أحياناً باسم جاوة الصغرى ، في حين تعرف جزيرة جاوة باسم جاوة الكبرى .

ولم ينتشر الإسلام بين أفرادها إلا منذ القرن الثامن عشر ، ولـكن الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر كانت زاخرة بالفتوح السلمية التى استطاع الإسلام بفضلها أن يسود الحياة الدينية والاجتماعية والعقلية في أندونسيا ، بعد أن تداعت أمامه واحدة بعد الأخرى الممالك الوثنية فيها ، وعلى رأسها مملـكة « ماجاباهيت » في جزيرة جاوة . ولـكن المسلمين في أندونسيا لم يعملوا على الانضمام إلى الإمبراطورية الإسلامية في الشرقين الأوسط والأدنى ، ولم يتخذوا الإسلام طريقاً لإقامة دولة إسلامية جامعة ، بل قامت في بلادهم ممالك وإمارات مختلفة ، اتبع معظمها الإسلام ، وكان سلطانه فيها قوياً من الناحيتين الاجتماعية والروحية .

٢

كانت الحروب الصليبية بين المسيحيين والمسلمين في الشرق الأدنى ثم في إسبانيا حافزاً للبرتغاليين على فتوحاتهم الأولى . وكان كثير من الملاحين البرتغاليين ، مثل فسكو دي جاما وألبوكرك ، يعتقدون أن جهودهم في المحيطات وفي بحار الهند هدفها قتال المسلمين والقضاء على سلطانهم في أفريقيا وآسيا . بل إن كولمبس نفسه كان يبغي الوصول إلى الهند لينشر المسيحية في الشرق ويستولي لقومه على تجارته ، حتى يحرم المماليك من مصدر ثروتهم .

وقد وصل البرتغاليون إلى ملقا في بداية القرن السادس عشر . واستطاعوا الاستيلاء عليها ، ثم مدوا سلطانهم على بحار أندونسيا ، وعملوا على انتزاع تجارة التوابل من المسلمين ، وعلى نشر المسيحية بين الوثنيين ، ولكنهم لم يصيبوا من النجاح حظاً كبيراً .

وكان الملاحون من بعض الشعوب الأوربية الأخرى قد استطاعوا الوصول إلى أندونسيا ، فأقبل الإسبان من بوغاز مجلان ووصلوا إلى جزر الملوكا ، ثم انسحبوا إلى الجزر التي سموها الفيلبين ، نسبة إلى ملـكهم فيليب الثاني . ووصلت إلى مواني جزر سومطرة وجاوة وجزر الملوكا سفن إنجليزية وهولندية وفرنسية ودنمركية وسويدية ، للحصول على التوابل والمعادن النفيسة وما إلى ذلك من منتجات الشرق التي كانت إلى ذلك الحين احتكاراً للبرتغاليين والصينيين وسكان جنوبي آسيا .

وكان وصول السفن الهولندية الأولى سنة ١٥٩٦ م ، ولما عادت إلى أمستردام أعد أصحابها أسطولا تجارياً آخر ، وحذا حذوهم غيرهم من التجار وأصحاب السفن ، وتوالت البعوث التجارية الهولندية إلى جزر الهند ، ورحب الأندونسيون بها ، لأن

التنافس بين الهولنديين والبرتغاليين ، بل بين الشركات الهولندية المختلفة ، ضاعف ثمن منتجاتهم في بضع سنوات .

ورأى التجار الهولنديون أن يتحدوا ليضمنوا الربح الوافر ، ولينتصروا على منافسيهم من البرتغاليين ، الذين كانوا يرسلون الحملات الحربية الواحدة بعد الأخرى ليستعيدوا سلطانهم في بحار أندونسيا . وهكذا اندمجت جميع الشركات الهولندية للتجارة في جزر الهند ، وتألفت منها سنة ١٦٠٢ م شركة الهند الشرقية المتحدة ، ونالت من الحكومة الهولندية حق احتكار التجارة مع القارة الأسيوية . وأعدت شركة الهند الشرقية الهولندية أساطيل كبيرة لم يكن رائدها التجارة فحسب ، ولكنها عملت على طرد البرتغاليين من مراكزهم التجارية في بحار أندونسيا ، ونجحت في الاستيلاء على معاقلهم في سواحل جزر الهند ، وفي عقد معاهدات مع بعض الأمراء الوطنيين ، ولكن الإسبان أرسلوا حملة من الفيليبين هزمت الهولنديين في جزر الملوكا . وهكذا قامت الحروب بين الدول الأوربية في جزر الهند . بل إن الإنجليز أيضاً يمموا شطر بحار الهند الشرقية . وأقبلوا على منافسة الهولنديين في التجارة هناك . وكانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية قد أسست قبل زميلتها الهولندية بعامين ، ولكن رأس مالها لم يتجاوز $\frac{1}{8}$ رأس مال الشركة الهولندية .

وحدث سنة ١٦١٨ أن تولى منصب الحاكم العام لشركة الهند الشرقية قائد كبير هو كوين Jan Pieterszoon Cœn صاحب المشروع الأول في استعمار أندونسيا استعماراً منظماً ، وأساس هذا المشروع الاستيلاء على بعض أراضيها ونقل جماعات من الهولنديين إليها للاشتغال بالزراعة والتجارة في المواني الأسيوية والعمل على إنشاء إمبراطورية تجارية واسعة في آسيا ، يكون مقرها مدينة بتفيا* التي يرجع إليه فضل تأسيسها بجزيرة جاوة .

وقد استطاع كوين Cœn أن يحصل لهولندة على السيادة في بحار الهند الشرقية ، بعد أن ارتكب من أعمال العنف مع أهل البلاد ما فزع له الهولنديون أنفسهم . وفي منتصف القرن السابع عشر كانت الشركة تقبض على زمام التجارة في المواني الأسيوية من إيران إلى اليابان . ثم نشرت سلطانها في القرن الثامن عشر على أجزاء كبيرة من أندونسيا ، وأخضعت كثيراً من الأمراء الوطنيين ، ثم عنيت بالزراعة بعد أن أصبحت

---

* أطلق الهولنديون على هذه المدينة اسم بتفيا Batavia وهو الاسم الذي كانت تعرف به هولندة في اللغة اللاتينية .

تملك مساحات واسعة من الأرض ، وبعد أن نجحت زراعة شجرة البن . وهكذا أصبح الملاك من الهولنديين في أندونسيا يديرون الضياع الواسعة ، ويستغلون في زراعتها ألوف الفلاحين والعبيد من الأندونسيين ولم يكن حكم الشركة في تلك البقاع خيراً من حكم الطغاة من السلاطين الوطنيين ؛ فقد كانت الثروة رائد الشركة وممثليها ، ولم يكن أهل البلاد إلا عبيداً يكدون ، فضلا عن أن رجال الشركة كانوا ينشرون بينهم الأفيون ، ليجنوا من تجارته الأرباح الوافرة ، وليقضوا في الوقت نفسه على نشاطهم العقلي .

ولكن الثورات الاجتماعية واضطراب الجو السياسي في نهاية القرن الثامن عشر أديا إلى إفلاس شركة الهند الشرقية الهولندية ؛ فقد اشتركت هولندة سنة ١٧٨٠ في حلف من الدول الشمالية المحايدة ، هدد بقتال البحرية البريطانية إذا استمرت في اعتدائها على حرية تجارتها في البحار إبان الحرب الأمريكية الإنجليزية . ونجحت إنجلترا في محاصرة الموانى الهولندية وقطع كل اتصال بينها وبين جزر الهند ، فكسدت تجارة الشركة ، وظهر فساد نظامها ، ولا سيما بعد أن تقرر في معاهدة فرساي سنة ١٧٨٣ فتح بحار الهند الشرقية للتجارة الحرة . وهكذا اضطرت الحكومة الهولندية إلى الاستيلاء على إدارة الشركة سنة ١٧٩٦ م ، ثم حلتها وتعهدت بتسديد ديونها ، ولكنها استولت على ممتلكاتها في الهند الشرقية . ومع ذلك فإنها لم تفعل شيئاً لتحسين حال سكانها ، ولم تقدم على إلغاء الرق واستعباد الوطنيين ، وما إلى ذلك مما كان يخالف مبادىء الحرية والإخاء والمساواة التي تمخضت عنها الثورة الفرنسية ، واعتنقتها هولندة في ذلك الحين . بل إن الحكام الهولنديين في أندونسيا كانوا يذهبون إلى أن الأرض ملك لهولندة ، وكانوا يبيعونها للمستعمرين الأوربيين بمن عليها من الفلاحين الأندونسيين .

ولما ضم نابليون هولندة إلى إمبراطوريته سنة ١٨١٠ مد سلطانه على ممتلكاتها في الشرق ، فبادر الإنجليز إلى احتلال جزر الهند ، ولكنهم أعادوها إلى مملكة الأراضي المنخفضة بعد مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ . وأفرطت الحكومة الهولندية في استغلالها ، واتخذتها مزرعة واسعة ، تحصل على دخلها ولا تكاد تترك منه شيئاً للإنفاق على التعليم أو للترفيه عن أهل البلاد الذين كانوا يشقون في تلك الضياع الهولندية الواسعة .

وزاد ازدهار التجارة الهولندية في أندونسيا بافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وانخفاض نفقات النقل ، وزيادة المنتجات من السكر والشاي والطباق والبن ، وظهور الأسواق الجديدة بعد التطور الاقتصادي في ألمانيا وروسيا وأمريكا الشمالية . ومع ذلك كله فقد بدأ العجز يدب إلى ميزانية تلك البلاد ، وظهر جليا منذ سنة ١٨٧٧ . ولعله

يرجع إلى سوء الإدارة وفساد نظام الضرائب ، فقد كان معظمها يقع على كاهل الأندونسيين أنفسهم ، وكان هؤلاء في فقر مدقع . أما الأوربيون ، أصحاب الثروات الطائلة والإقطاعات الواسعة والمنشآت الصناعية والتجارية ، فقد كانت الضرائب التي يدفعونها قليلة لا تناسب دخلهم ، ولم تفرض الحكومة عليهم ضريبة دخل مناسبة إلا منذ سنة ١٩٠٨ . وكان عددهم قد زاد كثيراً ، وزادت نفقات الحكومة من أجلهم ، فقد أقبلت على العناية بالطرق وبمشروعات الري ، وعلى مد السكك الحديدية ، ونشر الثقافة والتعليم باللغة الهولندية ، ومكافحة الأمراض والأوبئة ، فضلاً عما كانت تنفقه من الأموال الطائلة في أغراضها الاستعمارية ، لإخضاع الإمارات الوطنية المستقلة ، وللقضاء على أية مقاومة تبدو من أهل البلاد ، وفيما يسمونه في لغة الاستعمار « الدفاع عن البلاد وضمان النظام والسلام فيها » ، وكان أعظم تلك الإمارات الوطنية سلطنة أتشة في جزيرة سومطرة . وقد ظلت الحرب سجالا بينها وبين الحكومة الهولندية في أندونسيا زهاء ثلاثين عاماً (١٨٧٣ — ١٩٠٤) ، انتهت بدخول سلطانها تحت الحماية الهولندية .

٣

وبدأت الحكومة الهولندية نحو سنة ١٩٠٠ تعمل على التدخل في الشؤون الإدارية في الإمارات الوطنية التي كانت تحت حمايتها ، فقضت بذلك على قسط وافر مما كانت تحتفظ به هذه الإمارات من مظاهر الاستقلال . وقد أدت جهود بعض المستشرقين الهولنديين ، وعلى رأسهم الأستاذ سنوك هرغرونيه Snouk Hurgronje إلى إقناع الحكومة ببذل بعض النفقات في نشر التعليم بين الأندونسيين ، وبالعمل على كسب ثقتهم وتفهم نظمهم الإسلامية ، وتشجيع مشروعاتهم الاجتماعية ، ولكن ما قامت به الحكومة في هذا السبيل لم يمنع الأندونسيين في بداية القرن العشرين من التفكير في التحرر من الاستعمار الهولندي ، بما حمله إليهم من رق اقتصادي ، مظهره استغلال موارد البلاد وخيراتها لمصلحة الأوربيين من كبار الملاك وأصحاب رؤوس الأموال ، ويتبع ذلك إقصاء الأندونسيين عن الميدان الاقتصادي واستخدامهم للعمل في المزارع والمتاجر والمصانع ، مع الحرص على خفض الأجور وهبوط مستوى المعيشة .

ولا عجب فإن الحكومة لم تفعل شيئاً يذكر لحماية الأندونسيين ، ورأى الوطنيون أن الوقت قد حان ليكون رائد الحكومة مصلحة أهل البلاد ، وهدفها إعلان استقلال أندونسيا وترك مقاليد الأمور فيها لأبنائها . وقد سلمت الحكومة الهولندية بالمسألة

الأولى منذ سنة ١٩٠١ ، ولكنها لم تعلن إلا سنة ١٩٢٢ أنها تعمل على إعداد الأندونسيين لحكم أنفسهم .

ومع أن هولندة لم تدخل الحرب الأوربية الأولى فقد انقطعت المواصلات بينها وبين أندونسيا ، وزادت واردات الأخيرة من المنتجات الصناعية اليابانية والأمريكية ، ولم تستطع هولندة بعد الحرب أن تعوض ما خسرته في هذا الميدان الاقتصادي . وحدث بين عامي ١٩١٧ و ١٩٢٠ أن ثار الشرقيون على الاستعمار الأوربي في آسيا والشرق الأدنى ، فقويت بذلك الحركة الوطنية في أندونسيا . وكان تقدم اليابان مثالا بعث الزعماء الأندونسيين على المطالبة بالمساواة التامة بين الوطنيين والأوربيين من سكان أندونسيا ، ولا سيما بعد أن أصبح اليابانيون فيها يمنحون امتيازات الأوربيين .

وكان من مظاهر الوعي القومي في أندونسيا قيام جمعية «بودي أوتومو» ، التي أسسها الدكتور «رادن سوتومو» في جاوة سنة ١٩٠٨ ، للعمل على نشر الثقافة الوطنية بين أهل البلاد . ونجحت هذه الجمعية نجاحاً كبيراً ثم عنيت بالشؤون السياسية بعد الحرب العظمى الأولى . وقامت جمعية أخرى لها هدفان : أولهما اقتصادي ، قوامه ترقية التجارة ونشر التعاون ومحاربة الفقر والجهل بين الأندونسيين ، والثاني التمسك بأهداب الدين الإسلامي ، وتوثيق الصلة بالأمم الإسلامية . ولم تكن هذه الجمعية تعنى في البداية بالشؤون السياسية ، ولكنها بعد الحرب العظمى الأولى اشتركت في المطالبة بالاستقلال .

وفي سنة ١٩١٦ لم تر الحكومة الهولندية بدا من إنشاء هيئة نيابية في أندونسيا ، سمتها مجلس الشعب ، ولكن سلطته في البداية كانت استشارية ، فضلا عن أن معظم أعضائه كانوا من الهولنديين الذين استوطنوا أندونسيا ؛ بل إن بعض أعضاء هذا المجلس كان يعينهم الحاكم العام لجزر الهند الشرقية الهولندية ، وزيد سلطان المجلس سنة ١٩٢٥ ، فأصبح يشترك مع الحاكم في السلطة التشريعية ، وصار عدد أعضائه ستين عضواً ، من بينهم ثلاثون من الأندونسيين وخمسة وعشرون من الهولنديين ، وكان ذلك بداية الحكم الذاتي في أندونسيا . وقامت في البلاد نقابات العمال والموظفين ، وظهرت الميول الاشتراكية ، واشتدت الحركة الوطنية ، فاندلعت نيران الثورة سنة ١٩٢٦ ، ولكن الحكومة قمعتها بشدة وقسوة ، ونفت إلى غينا الجديدة ألوفا من الأندونسيين ، وامتلأت السجون بغيرهم ، وقامت الحركة ثانية على أكتاف شباب البلاد ، ولا سيما الذين أتموا الدراسة في أوربا ، وعلى رأسهم الدكتور سكرنو .

وقامت احزاب سياسية مختلفة ، رأى بعضها التعاون مع الحكومة انتظاراً لتحقيق

الاستقلال الذي أعلنت أنها تعد البلاد له ، ورأى البعض الآخر أن لا يتعاون مع الحكومة إلا بعد الجلاء والاستقلال التام. ووافق مجلس الشعب في بتفيا سنة ١٩٣٦ على أن يطالب إلى الحكومة الهولندية عقد مؤتمر لبحث أحسن الوسائل لتحقيق استقلال أندونسيا مع بقائها في الإمبراطورية الهولندية « أي أن تمنح نظام الممتلكات المستقلة البريطانية » ، وعلى أن يحدد موعد يتم فيه إعلان هذا الاستقلال .

ولما تمت هزيمة اليابان ألف الأندونسيون حكومة وطنية في بلادهم ، ونظموا جيشاً للدفاع عنها ، ولكن الهولنديين أرادوا استعادة سلطانهم فيها ، وقام القتال بين جيش الحكومة الوطنية وجنود الحاكم العام الهولندي ، وأقبل البريطانيون على مساعدة الهولنديين في إخضاع الحكومة الوطنية . واحتجت روسيا في مجلس الأمن على بقاء الجيوش البريطانية فى جزر الهند ، واشتراكها في إخضاع الوطنيين ، وأعلن البريطانيون أنهم يعملون على التوفيق بين الهولنديين والحكومة الوطنية في أندونسيا ، ولا تزال المفاوضات قائمة بين الفريقين ؛ يريد الأندونسيون استقلالا تاماً ، ويعمل الهولنديون على إقناعهم بقبول الاستقلال في نطاق الإمبراطورية الهولندية ، أو الاحتفاظ بضرب من الصلة بين هولندة وأندونسيا . وقد جاءت الأخبار الأخيرة بأن اتفاقاً وقتياً قد تم بين الدكتور فان موك الحاكم العام لجزر الهند الشرقية الهولندية والحكومة الأندونسية الوطنية ، يتضمن إعتراف هولندة بالحالة الحاضرة في أندونسيا . وقد سافر الدكتور فان موك ومعه وفد من الحكومة الوطنية إلى هولندة ، لإتمام المفاوضات ، تمهيداً لاعتراف هولندة وسائر الدول باستقلال هذا الشعب الأسيوي المجيد . ولعلنا نستطيع في عدد قادم أن نشير إلى حدوث ذلك ، وأن نفصل الكلام على الإسلام في أندونسيا .

سيدة كاشف

رسالة المرأة في المجتمع

للدكتور محمد غلاب أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

من الهنات التي نأخذها على الشرقيين عامة أنهم لم يقدروا أهمية الدور الذي تقوم المرأة بتمثيله في الأسرة حق قدره ، وأنهم لم يعنوا بتثقيفها العناية الضرورية التي تمكنها من تأدية رسالتها على الوجه الأكمل . ومن آيات ذلك أن الأدب العربي شعره ونثره — والأدب مرآة الأمم التي تنعكس عليها حياتها الاجتماعية — لا يكاد يرسم لنا من الزوجات والأمهات صوراً يحوطها الجلال وتحف بها الهيبة كتلك الصور التي نراها في الآداب الأوربية فتأخذ بمجامع قلوبنا . وإذا اجتزنا التصوير الأدبي إلى التاريخ ألفيناه صريحاً فصيحاً في التدليل على خطأ الشرقيين في إهمال المرأة ، وعثرنا بين صفحاته على أمثلة فاتنة تشهد بأنهم لو تعهدوا مواهبها بالتهذيب ، ومحامدها بالتثقيف لأنتجت خير الثمرات ، ولشهد العالم الشرقي اليوم من نشاطها ومساهمتها في نهوضه ما حقق فيها عبارة « أوجست كنت » الشهيرة : « إن المرأة هي الواسطة بين الرجل والإنسانية » لأنه مهما يكن من عمق التطورات التي مرت بها الأسرة في غيابات التاريخ ، فإن مبادئها الأساسية قد ثبتت أمام النقد الذي لم يلحق منها إلا صورها السطحية ومظاهرها الخارجية التي اقتضت طبائع الأشياء أن تجعلها خاضعة للبيئة الاجتماعية تتلون بألوانها المختلفة . وإذا كانت الأسرة في قواعدها الجوهرية بهذا القدر من الصلابة لم يكن هناك بد من أن تكون هي الحقل الطبيعي الذي ينبت وينمو فيه نشاط الأفراد ، وفي هذا يقول الفيلسوف « هارلد أفدنج » : « إنما في الأسرة فقط يعيش الإنسان ككائن كامل ، ففيها وحدها تستطيع غرائزه الأشد بدائية ، وعواطفه الأسمى مثالية أن تجد كل رغباتها وترضياتها ، بينما هو لايساهم في الجماعات الأخرى إلا بجزء واحد من كينونته » . وإذن فالمهمة العظمى التي تقوم بها الحياة الأسرية إرشادنا إلى النهج الأمثل الذي به نتخلص من الفردية ونرتفع إلى الجماعية الحقة .

ولما كانت رسالة الحياة الأسرية من الخطورة بهذا المقدار ، ولما كان الأبوان هما اللذان يغرسان النبتة الأولى من التربية في نفوس النشء ، ويضعان الحجر الاساسي في بناء أخلاقه ، وكان لذلك كله أثر بعيد المدى في أحاسيسه الاجتماعية المقبلة ، فقد كان من الطبيعي أن تظفر المرحلة المنزلية بالصدارة من بين مراحل التربية ، ولا سيما أن المدرسة لم تحاول أن تفقدها دورها ، أو أن تغض من قيمتها . ومن هذا نستطيع أن نتبين أهمية المرأة في تكوين الطفولة الأولى مرددين قول « لامينيه » : « إن التعاليم الملقاة على ركبتي الأم لا تنمحي أبداً » . ونحن لا نجد عسراً في الميل إلى صحة هذه النظرية ، خصوصاً إذا عرفنا أن تلك التعاليم الأولى إنما تنقش على صفحة القلب قبل أن يبدأ الذهن في التفكير ، ومن ثم لا يقوى المنطق بسلطانه وجبروته على القضاء عليها تماماً . ومن دلائل ذلك أن « أرنست رينان » حين تخلى عن الإيمان بالعقيدة المسيحية إذعاناً لتفكيره لم يستطع أن يقهر قلبه على التخلص من تلك العقيدة،لأنه كان قد تلقاها في حجر والدته التقية ، وهو يصور لنا هذه الأزمة النفسية التي كان يعانيها إذ ذاك فيقول : « لقد انتهيت من تصميمي في أواخر سبتمبر ، وكان ذلك أحد الأفعال الدالة على الشرف العظيم ، ولكن أي تمزق داخلي ذلك الذي كنت أحس به ! ؟ إن والدتي هي التي كانت تدمي قلبي أشد من أي شيء أخر ... وإن رسائلها هي التي كانت تمزق فؤادي .... إذ أنني في طفولتي كنت معتاداً أن أسألها عشر مرات في كل يوم قائلاً : هل أنت مسرورة مني ؟ وأن الشعور بتمزق الأواصر بيني وبينها كان قاسياً على نفسي » .

ولكن إذا كان نور المعرفة لم يشع يوماً على عقلية هذه الأم ، فكيف يتيسر لها أن تمثل دروها على صورة نافعة ؟ ومن أين تغترف هذه الثقافة التي تقضي عليها رسالتها بأن تبثها في الطفل ؟ ومن أي نبع تنتهل معين تلك العبقرية التي ينبغي أن تغذي بها نبات مواهبه الناشئة ؟ ومن أي لهيب تقتبس الشعلة التي تضرم بها خياله قبل أن يتفتح ؟ من أين لها كل ذلك ، وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقول الفلاسفة ؟ نعم يتحدث الناس كثيراً عن الحب الأموي ويعزون إليه آثاراً شتى تعين الأم على أداء مهمتها ، ونحن نجزم بأن هذا الحب — مهما قيل في شأنه — لا يكفي وحده للنجاح في تمثيل هذا الدور الخطير ، بل نحن نستطيع أن نقرر في وضوح أنه كثيراً ما يكون مجلبة شر وسوء ، ومبعث خطأ وضلال ، إذ منذا الذي يجحد — وخصوصاً في مصر — أن هذه العاطفة الأموية المفرطة في الدنو من الغرائز الدنيا هي مصدر كثير من الآلام التي تعانيها الأسر المصرية ؟ ومنذا الذي لم يشهد في بيئته تلك الآثار السيئة الناشئة عن الشفقة المغالية ، بل

غير المتعقلة التي تتميز بها الأمهات المصريات الجاهلات ، والتي لا تكاد تقف عند حد في مسايرة الميول السيئة والأهواء الضارة لدى الأطفال وإخفاء مساوئهم عن آبائهم أو عن المشرفين على تربيتهم . ولا ريب أن المصدر الوحيد للشر في مثل هذه الحالة هو الجهل لا بأساليب التربية الحديثة فحسب ، بل بالقديمة أيضاً ، وخلو الذهن من أن القسوة قد تكون في مقدمة الواجبات ، ومن أن تلك العاطفة المفرطة في الرحمة المستولية على قلبها قد تؤدي إلى انهيار الأسرة من أساسها .

لا جرم أننا لا نبغي هنا بسط نظريات التربية أو الإفاضة في مبادئها وقواعدها ، وإنما نحن نرمي فقط إلى تقديم فكرة عامة عن الدور الهام الذى تمثله الأم المستنيرة التي تعرف كيف تخلد أثر الماضي وتعد للمستقبل ، وبالإجمال تعرف كيف تكون المدرسة الأولى للحياة الجماعية ، أي التي تستطيع أن تعد الطفل لتلقي التربية المعقدة ، والثقافة الواسعة . ومما لا شك فيه أن هذا فن عويص يتطلب تأملاً عميقاً وشعوراً قوياً بالمسؤولية ، إذ أن المنهج السليم يقتضي دراسة الطفل قبل البدء في تربيته . ومعنى هذا أن الأم يجب عليها أن تكتفي أول الأمر بتقويم الشؤون العامة عنده ، وأن تراقب طباعه وميوله ومواهبه مراقبة دقيقة متتابعة ، حتى إذا أعلنت عن وجودها أخذت في العناية بها على الفور ، فشذبت منها ما يستحق التشذيب ، ونمّت ما يستوجب التنمية ، فغير خاف على كل ذي دراية بالتربية أن الطبيعة الفاترة مثلا في حاجة إلى تشجيع وتحميس ، وأن الفطرة الملتهبة تقتضي القمع والتلطيف ، أو على حد تعبير القدماء : « إذا كان هذا يستوجب اللجام ، فإن ذلك يستدعى المهماز » . وعلى نفس النحو الذي اختلفت فيه الطبائع تتباين الأساليب في معالجتها ، فأحد الأطفال إصلاحه في المكافأة ، وآخر تقويمه بالرهبة وهلم جرا . ومما يجب الحذر منه في المنزل بإزاء هذه الطفولة البادئة هو الطغيان المغالي الذي يرى فريق من المربين أنه بانضمامه إلى الخوف الغريزي في الطفل يخلق في نفسه الناشئة الكذب والحقد والحسد والغضب المكبوت . وفي مقدمة ما يجب على الأم أن تعنى به هو أن تترك جسم الطفل يربو ويترعرع في حرية تامة لا ينتهي حدها إلا عند العوامل التي تهوي بالروح نحو العبودية أو الوضاعة ، وحينئذ ينبغي أن تكون قاسية فلا تتساهل في شيء ولا تسمح للشفقة بأن تجد إلى قلبها سبيلا . ومما يتحتم عليها أن تراقب مراقبة دقيقة المحيط الذي يحدق بالطفل منذ نعومة أظفاره ، بحيث لا تدع مؤثراً سيء الرأي ينمي فيه الأنانية والغرور ، أو سيء القصد يطبع طفولته بطابع الفساد الخالد الذي لا يزول مهما حاولت مجهودات المراحل التالية أن تقضي عليه .

ومن المهمات الأساسية التي لا محيص للأم عنها أنها يجب عليها أن تصغي إلى الطفل وتطيل النظر إلى حركاته من حيث لا يتنبه إلى ذلك ولا يرتاب فيه ، وأن تدرك أن عبارة الرذيلة التي تجري على لسانه ليست إلا نبتة ضارة قد حملت ريح أجنبية بذرتها إلى حقل طفولته ، وأن المهارة هنا تنحصر في معرفة استئصال شأفتها ، واقتلاع جرثومتها بحكمة وهدوء ، لا في قطعها في ثورة وهياج ، فإن جذورها عند ذلك تظل كامنة إلى أن يتاح المناخ الملائم لظهورها فتظهر أشد خطراً وأفدح ضرراً . وأخيراً هي التي يجب عليها قبل غيرها أن تبدأ بملء رأسه بالأفكار النافعة ، لا بالكلمات الجوفاء لكي تتأسس تعقلاته على قواعد متينة ثابتة ، ولكيلا تكون المبادئ في مستقبل حياته مجرد ألفاظ ، بل عقائد راسخة يعتنقها في يقين وإيمان . فهل يمكن أن نتصور أن هذه الحكمة البالغة ، وتلك الدقة الفائقة ، وهذا الصبر الوافر ، وما إلى ذلك من محامد الأم الصالحة تتيسر بدون ثقافة واسعة وتفكير جدي وتأمل طويل ؟ !

على أن الثقافة وحدها في مثل هذا الموقف الخطر لا تكفي ، فللمقدرة على تنمية ما أودعته الطبيعة في الطفل من استعدادات ، وما منحته إياه من مواهب بالقوة ، ولإمكان إبراز ثمارها إلى حيز الوجود ، ينبغي أن تؤيد الثقافة وتسندها طباع عالية وأخلاق رفيعة ، إذ الفضيلة هنا — كما هي في كل موقف آخر — أساس كل عظيم وخالد .

هكذا شاءت الأقدار إذن ، أن يكون الطفل متأثراً بأمه أكثر منه بأي كائن آخر . ولقد أدرك « جان جاك روسو » هذه الحقيقة أيما إدراك حين قال : « لكي تحفظ الأطفال من الرذائل التي ليست فيهم فليس لديك سوى حماية واحدة هي خير من الخطب التي لا يفهمونها بقلوبهم ولا بعقولهم ، وهي هذه القدوة الخلقية الممثلة فيمن يحوطونهم ، وعلى الأخص أمهاتهم اللواتي يحبونهم أكثر من كل من في الوجود ، وتلك المحادثات التي يسمعونها حولهم والتي ليست منشأة لهم ، وهذا السلام وذاك الاتحاد اللذان هم شهودها المعاينون ، وذلك الوئام الذي يرونه سائداً بدون انقطاع بين خطب أولئك الذين يحدقون بهم وبين سلوكهم » .

حقاً إن هذه المناظر العملية للفضيلة والسلام والوفاق، وملاءمة الأقوال للأفعال ، هي أضمن حصن يقي الأطفال من الرذيلة والأهواء الضارة التي لا يتعرضون لنتائجها الخطيرة منذ الحداثة ، لأنه لا نزاع في أن الأهواء العنيفة من أي نوع كانت هي دائماً — خصوصاً في إبان إفراطها — تشتمل على جوانب تغوي الأطفال وتحبب إليهم ما يجب عليهم أن يرهبوه .

ألمعنا في مطلع هذا الفصل إلى التاريخ وما يحتويه بين صفحاته من نماذج خالدة للأمهات المثاليات اللواتي كان لهن أبرز الأثر في حياة أبنائهن من عظماء الرجال الذين يمتازون عن نظرائهم — فوق العبقرية والخيرية وجلائل الأعمال — بميزات أخرى تفتن النفوس، وتهز القلوب. وفي الحق أن التاريخ هو المنبع الذي لا ينضب والذي يجد المرء نفسه منعطفاً بالفطرة إلى الاتجاه إليه في تأييد نظرياته وتقوية حججه، فإذا نقبنا بين ثناياه ألفينا عدداً ضخماً من آثار تلك المثل العليا للأمهات الخالدات على أبنائهن الأماجد، والآن إليك طائفة من هذه النماذج الخلابة :

(١) نحن في روما في الثلث الأخير من القرن الثاني قبل المسيح، وهي إذ ذاك قد فرغت من أحد فتوحاتها العظمى، وقضت منذ نصف قرن على هانيبال، عدوها الألد، ودمرت قرطاجنة، ولكن الشعب كان قد استسلم لرغباته فتغيرت طباعه، وتبدلت أحواله، فلم تعد روما زاخرة بالعباقرة أرباب المواهب العليا وذوي النفوس الكبيرة من الوطنيين المستعدين للتضحية بأنفس ما لديهم في سبيل بلادهم، وإنما جعل الأشراف يتملقون الجماهير، ليظفروا بأصواتهم في مجلس الشيوخ، وأصبح السواد الأعظم كسولا مبغضاً للعمل عاجزاً عن كل عنايته بحقوق الوطن، لا يعرف شيئاً سوى تسول القمح من الأشراف والمطالبة به في صفاقة، والإلحاح على توزيعه كما تلكأ هؤلاء في ذلك، أو التلهي الماجن بالألعاب البهلوانية التي كان الأرستقراطيون يسرفون في إقامة حفلاتها إغراءً لهم، وهكذا كان الشر قد استحكم وتأصلت جذوره، وكان لا بد لمحوه ولإنهاض الأمة من كبوتها ودفعها في طريق المجد من عبقرية جبارة وخلقية مثالية، وقد كان ذلك فعلا حيث انبرى لهذه المهمة العظمى الأخوان الشقيقان. «تيبريوس» و «كايوس جراكوس»، فبذلا كل ما لديهما من جهود، وقاما بجميع المحاولات السلمية المشروعة لإنهاض وطنهما، ولكنهما سقطا صريعين في معمعان الجهاد قبل أن يحققا رسالتهما الكبرى. ونحن إذا استجوبنا التاريخ عن أسرة هذين الشقيقين العظيمين لنرى ما عسى أن يكون لأمهما في حياتهما من أثر، أنبأنا بأنهما ولدا «كرنليا» ابنة «سبيون» القائد الروماني الأشهر الملقب بالأفريقي لانتصاره في أفريقيا، وكانت هذه السيدة إحدى فضليات عصرها تغذت ككل أفراد أسرتها بالثقافة الهيلينية، فتلونت نفسيتها بما بين صفحات أسفارها من الفضائل العليا. ولما صارت أماً كرست حياتها لتربية ابنيها وتهذيبهما حتى جعلت منهما بدرين ساطعين، لا في سماء روما وحدها، بل في سماء التاريخ القديم كله. ولقد وضعت هذه السيدة المثالية نصب عينيها أن تخلق من

ولديها مجداً خالداً يفوق مجد انتصار أبيها فكانت تقول : « لا أريد أن أدعى بابنة « سبيون » الأفريقي ، وإنما أريد أن أدعى بأم الجرا كوسين ». ولقد أطلعتها يوماً إحدى صديقاتها الثريات على جواهرها فقالت لها مشيرة إلى ابنيها : « هذان هما حليتي وزينتي » .

ولا نحسب أن من العسير أن ابنين تتولى تهذيبهما مثل هذه السيدة يكونان نموذجاً خالداً من نماذج الفضيلة والوطنية في عصرهما كما كان هذا البطلان العظيمان .

(٢) وإذا غادرنا العصر الأثري مؤقتاً وانحدرنا نحو العصور الوسطى ألفينا أنفسنا في فرنسا ماثلين أمام أحد ملوكها الأفذاذ ، وهو لويس التاسع ، أو القديس لويس ، وكان قديساً حقاً ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون ملكا بأدق ما في هذه الكلمة من معان ، فكان دائم التفكير في إسعاد شعبه والعمل على تحقيق هذه البغية بكل ما أوتي من قوة ، وليس هذا فحسب ، بل إنه كان يبذل مجهودات جبارة في العمل على توحيد الأمم المسيحية وتقويتها وتعميم الرغد والهناء في ربوعها . ففي فرنسا ساد في عهده السلام والنظام والعدل ، إذ كان هو الذي يسهر على تحقيق كل ذلك بنفسه سهراً جدياً . وفي الخارج كان مثلا من أمثلة الشجاعة والشهامة ، يدافع عن أدنى حقوق بلاده دفاع الأبطال ، ولكنه في الوقت ذاته كان ميالا إلى السلام ، ولذا لم يكن في عروضه للوئام شيء من العسف ، بل إنه — رغم قوته الوافرة ، وانتصاراته المتكررة — قد نزل عن بعض المستعمرات التي فتحها أسلافه ، لأن شرعية امتلاكها لم تبد له واضحة إلى الحد الذي يؤيد الاحتفاظ بها . ولقد عرفت عنه كل ممالك أوربا هذه العدالة النزيهة ، فارتضى الجميع وساطته وحكمه . ومن أمثلة تلك العدالة التي تشبه السيف في مضائه ، تلك الرسالة التاريخية التي كتبها إلى الإمبراطور الجرماني — وكان إذ ذاك مختصما مع البابا — والتي أنحى فيها باللائمة القاسية على كلا الخصمين ، واتهمهما بالمطامع الشخصية والأهواء الفردية وحثهما في شدة على الإسراع إلى الوفاق حرصاً على وحدة الأمم المسيحية وخيرها العام . ونحن نحسب أننا لسنا في حاجة إلى التنبيه على أهمية توبيخ البابا من ملك مؤمن تقي كلويس التاسع في تلك العصور التي كان الجميع يؤمنون فيها بعصمته . وبفضل هذه المحامد العالية ظفرت المملكة الفرنسية منذ ذلك الحين ، بأعظم تقدماتها وأكثرها شرعية ، وظلت عدة قرون موضع احترام الجميع وحبهم ، وبقي عرشها بعد ذلك عزيزاً مكيناً يتعاقب عليه أخلاف لويس التاسع من الملوك ، فيرى الشعب فيهم صورة ذلك القديس المحبوب ، أي مثال النظام الدنيوي والعدالة السماوية . فإذا أنعمنا النظر ملياً في تاريخ هذا الملك الجليل ألفينا أنه ثمرة كاملة النضج لجهود أمه الملكة « بلانش دي كاستي »

إذ أنه عند ما توفي والده لويس الثامن كانت سنه اثنتي عشرة سنة ، فوليت والدته الوصاية على العرش ، وفي أثناء مزاولتها تدبير المملكة في حكمة وتبصر كانت تعنى أشد العناية بتربية ابنها حتى غرست في نفسه منذ حداثته جميع الفضائل الضرورية للرجل وللملك . ومن عبارتها المأثورة في تربيتها إياه قولها له : « يا بني إني أفضل أن أراك جثة هامدة أمام عيني على أن أراك تقترف خطيئة جدية » . ومن ثم كان اسم لويس التاسع واسم أمه « بلانش دي كاستي » متلازمين في التاريخ بهيئة غير قابلة للانفصال .

(٣) وإذا سايرنا سنة الكون فطوينا ، ولو إلى حين ، سجل العصور الوسطى واستعرضنا العصر الحديث، باحثين بين طياته عن طبقة أخرى غير طبقتي الأبطال والملوك، وهي طبقة العلماء مثلا ، فسنجد في طليعة من يتجه إليهم تنقيبنا ، بستور ، ذلك العالم الفرنسي الأكبر الذي سحرتنا خلاله ومحامده، بقدر ما بهرتنا عبقريته ومواهبه ، وقد اختلط علينا الأمر بإزائه إلى حد جعلنا لا ندري أنتحدث عنه كعالم قلب كيان العلوم التي سبقت عصره رأساً على عقب ، أم كإنسان جمع من الفضائل السامية والصفات الممتازة ما تعجز الأقلام عن تصويره ، فقد كان ابناً وأخاً وزوجاً وأباً وصديقاً ووطنياً وكاتباً وعالماً ، وكان في جميع هذه المواقف مثلا يحتذى ونموذجاً ينسج على منواله ، وإذا تصورنا كائناً تألفت هويته من عبقرية فائقة ، وثقافة واسعة ، ومعرفة شاملة ، ووفاء كامل ، وخلق كريم ، وشعور نبيل يدفعه إلى نقل ثمار جهده ، ومنتجات كده إلى من حوله من الناس في غبطة وسرور ، كان ذلك الكائن هو ، بستور . وقصارى القول أنه كان — على حد التعبير الإغريقي القديم — الرجل الذي ليس شيء مما هو إنساني أجنبياً عنه . وإذا بحثنا عن النبع النقي الذى انبجست منه هذه الإنسانية الفاتنة لدى ذلك العالم الممتاز وجدناه ماثلا للعيان في خطبته الشهيرة التي ألقاها في الحفل الذي أقيم لتكريمه أمام منزله في سنة ١٨٨٣ والتي يقول فيها : « أي والدي ووالدتي ، أيها العزيزان اللذان اختفيا ، واللذان عاشا في هذا المنزل الصغير عيشة متواضعة ، إنما أنا مدين لكما بكل شيء . أيتها الأم الشجاعة ، إنك أنت التي نقلت إلي حماستك ، وإذا كنت أجمع دائماً عظمة العلم إلى عظمة الوطن ، فذلك لأن نفسي امتلأت تماماً بالعواطف التي ألهمتنيها . . . » .

وإذا كانت هذه الأمثلة بين الأبطال والملوك والعلماء غير موفورة العدد ، لأن الفريق الأول صيرته مناظر الدماء قاسياً ، والثاني عزله السلطان عن بقية البشر ، والثالث طبعه العلم بطابعه الجاف ، فإن هذه الوفرة تتيسر بين الأدباء بصورة أخاذة ، إذ لا يكاد عصر من عصور الأدب في أي بلد من بلاد العالم يخلو من هذه النماذج

الشيقة ، ولكثرتها وتزاحمها في صفحات التاريخ أردنا أن ننتقي منها ثلاثة فقط تجنباً للاطالة ، وإليك تلك الصور في بعض جوانبها التي تعنينا هنا :

(٤) أمضى الأديب الألماني الموهوب « فردريك شيلر » طفولته الأولى بين أحضان أمه ، وكانت سيدة مثقفة دقيقة الحس ، رقيقة العاطفة، تعيش في جو من الأحلام، فلم تقتصر على تلقينه مبادئ القراءة والكتابة والتربية الحسنة فحسب ، ولكنها نمت خياله بإطلاعه على الخرافات الألمانية العتيقة التي تمتاز بجمالها وسحرها، كما أحاطته علماً بجميع الشعراء المحدثين ، وهكذا كان « شيلر » مديناً للتأثير الأموي بهذه الطبيعة الخصبة وذلك المزاج الحساس المحزون الشغوف بالشعر ، الكلف بالمثل العليا ، والذي كون منه أحد أعلام الأدب في بلاده .

(٥) ومن نظراء هذا الأديب صديقه « جوتا » ذلك الشاعر العبقري ، والكاتب الألماني الأكبر ، وهو كصاحبه مدين بأعظم الفضل لوالدته التي كانت مشتعلة الذكاء ، مرهفة الشعور ، عطوفة يقظة الخيال ، ذات ذوق ممتاز ، وإليها يرجع الفضل في حفظ التوازن بين قوى ذلك الطفل الذي كان والده يوجهه في مغالاة صوب المناهج الجافة ، والتحديدات العلمية ، والذي لم يكن يعنيه إلا أن ينمي في عقله قوانين المنطق وحدها . وإذن ، فمن أمه فقط قد عرف « جوتا » كيف يدرك جمال الشعر ويحس بالعالم الخارجي ، وهذان الجانبان هما اللذان شغلا في منتجاته مكاناً فسيحاً ، وأبرزا مواهبه إلى عالم النور ، وجعلاه أعظم كتاب ألمانيا على الإطلاق .

(٦) وأخيراً نود أن نختتم اليوم هذه الصور الفاتنة باسم « لامرتين » ذلك الكاتب الفرنسي الغني عن التعريف ، ففي حياته نعثر على لون خاص من الطابع الأموي، إذ أنه قضى طفولته في أسرته ، فأما والده فكان من نبلاء الأقاليم المترفعين الفاتري الطباع ، وأما والدته فقد كانت سيدة حادة الذهن ، جمة الثقافة ، وافرة الرحمة ، عظيمة الإحسان ، ولذا كانت إحدى بارزات نساء بيئتها، بسبب رجاحة عقلها ، وصفاء نفسها ، وسمو قلبها . ولقد استطاعت أن تحتفظ بتأثيرها البليغ في حياة ابنها حتى آخر لحظة منها. ولطالما أشاد بذلك هو في عدة مواضع من مؤلفاته بأسلوب ساحر ، وتغنى بذكريات شبابه السعيد الهنيء الذي أمضاه بين ذراعي هذه الأم العطوفة ، وتباهى بإشرافها على تكوين عقليته ، وتنمية خياله ، وإرشاد عبقريته ، وإيضاح الطريق أمام مواهبه . ومن هذا العرض الموجز للآثار الأموية في مختلف البيئات والطبقات تتبين أهمية المرأة ورسالتها في المجتمع بهيئة من شأنها أن تدفعنا في شدة إلى العناية بها !

محمد غلاب

الملك فؤاد والعلم

١٨٦٨ — ١٩٣٦

لسعادة الأستاذ يوسف فيليب جلاد باشا
مدير الإدارة الأوربية بديوان جلالة الملك

مما أثر عن ولاة مصر، منذ عهد محمد علي الكبير مؤسس الأسرة المالكة المصرية، عنايتهم الخاصة بتربية أبنائهم، وتثقيفهم ثقافة عالية تمكنهم من الاضطلاع بسياسة الأمور، وتدبير شؤون الدولة. ولو اتسع المجال لنقلنا لقراء «الكتاب» طائفة من الوثائق الرسمية، وكلها شاهد عَدْلٌ على عناية هؤلاء العظام الخالدين، الذين تدين لهم مصر بما أصبحت عليه اليوم من تقدم ورقي.



عني الخديو إسمعيل، على وجه أخص، بتربية أولاده عناية فائقة، لا يقنع بما يحصلونه من علم بمصر، بل يوفدهم إلى الأقطار الأوربية لينهلوا من ينابيع علمها. فكانت إنجلترا وجهة الأمير حسن والأمير إبرهيم حامي؛ فشبّ الأول جندياً ممتازاً، وأثر عن الثاني ولوعه بالكتب والمطالعة. وها

هي ذي مكتبته الثمينة قد ضمت منذ عشر سنوات ونيف إلى مكتبة جامعة فؤاد الأول ، كما أن الأمير وضع فهرساً شاملاً في جزئين ضخمين عما كتب ونشر عن مصر والسودان .

أما الأمير أحمد فؤاد ، فكانت وجهته سويسرا . فقد أوفده والده في سنة ١٨٧٨ إلى معهد توديكوم في مدينة جنيف ، وكان إذ ذاك قد بلغ العاشرة من عمره . ولم يفت إسمعيل أن يضمّ إلى حاشيته أساتذة يلقّنون الأمير الصغير اللغات العربية والتركية والفارسية ، إلاّ أن الأحداث السياسية ما لبثت بعد عام أو ما يقاربه أن قضت بانتقال الأمير إلى إيطاليا ، ليقيم في صحبة إسمعيل ، وكان قد نزل عن العرش وغادر بلده ووطنه إلى قصر لافافوريتا بضواحي نابولي .

التحق فؤاد بالمعهد الدولي بمدينة تورينو ، ثم انتقل في سنة ١٨٨٥ إلى الكلية الحربية بها ، ثم درس الهندسة العسكرية والمدفعية . وكان لهذه المعاهد أثرها في عقليته ونفسيته ، فشبّ على مبادىء المدرسة اللاتينية بما تنطوي عليه من تكوين الذهن وتهذيبه ، وترويضه على البحث والتمحيص ، وضبط النفس والأخذ بالنظام . وما كاد الأمير فؤاد يتخرج في الكلية الحربية ، حتى سعى أبوه لدى السلطان فعيّنه ياوراً له ، ثم أوفده ملحقاً عسكرياً بالسفارة العثمانية في عاصمة النمسا ، فأقام بها إلى أن عين كبيراً لياوران الخديو عباس ، وظل شاغلا لهذا المنصب السامي حتى رفع استقالته إلى وليّ الأمر .

كان لكل هذا أثره في تكوين الأمير الشاب ، وهو بطبعه شغوف بالاطلاع ، كلف بالعلم ، ميّال إلى الملاحظة ، بحّاث عن أصل كل شيء ؛ فأخذ ، وهو في مصر يشاهد ما هي عليه ويقارن حالتها بما رآه في إيطاليا ثم في النمسا وفي غيرهما من البلاد والحواضر . ثم غادر الأمير فؤاد البلاد ميمماً شطر أوربا ، وبقي فيها سنوات يتتبع فيها التطورات العلمية ، ويتصل بكبار رجالاتها ، ويتعهد الجامعات والمؤسسات العلمية ، فجمع منها بضاعة طيبة أفادته ليومه ومستقبله ، فأفاد منها بلده ووطنه .

كان يحلو للملك فؤاد في بعض الأحايين أن يعود بالذاكرة إلى سنيه الأولى ، فيدب في نفسه الحنين إلى عهد شبابه ، ويأخذ يستعرض بنظره الداخلي ما كان يبذله من جهد ، ثم ما كان يطمح إليه من النهوض ببني وطنه . وإنه لكذلك يوماً ، وأمامه رجل من حاشيته ماثل بين يديه ، إذ ذكر جلالته جهده الأول في إنشاء الجامعة المصرية ، وما تبعها من منشآت أخرى جليلة تجني اليوم مصر ثمارها الشهية . ثم فطن رحمه الله ، إلى أن الماثل أمامه راغب في أن يستفسر منه عن أمر وهو لا يجرؤ على مخالفة العرف بتوجيه السؤال إلى سيده ومولاه ؛ فبادره الملك قائلاً : ما بك يا فلان ؟ . الأمر

يا مولاي أن الدهشة مالكة علي وعلى غيري مشاعرنا . إننا نفهم أن يولي الملك عنايته شؤون دولته ، ولكنا ما كنا لنظن أن أميراً غير مطالب بحساب ، يبذل مابذلتم من جهد وتعب في سبيل إنشاء جماعة علمية أو غيرها ، وكلنا يسائل نفسه ما الذي حدا بالأمير فؤاد إلى كل هذا ؟ فكان جواب الملك : كنت في روما أزور أحد أساتذتي من كبار العلماء ، وهو شيخ مهيب مافتىء يوماً يحوطني بعطف جم وحدب أبوي لن أنساهما ما حييت، وكنت إذ ذاك على وشك العودة إلى مصر ، فتجاذبنا أطراف الحديث وبدا على أسارير وجهي وفي نبرات صوتي ما كان يخالجني من رغبة ملحة في أن لا أكون أميراً فحسب ، بل في أن أكون عاملا نافعاً في الحياة ، فأؤدي واجبي كإنسان ومواطن ، وأعمل بوصية والدي إسمعيل ، مقتفياً أثره فيما أراده من خير لأهله وبلده ، فشجعني أستاذي على العمل . ولما كان يعلم أن أمر مصر إذ ذاك ومركزي الشخصي لا يسمحان لي بأن ألج ميدان السياسة ، فقد أشار علي أن أهتم بالعلم والثقافة والإصلاحات الاجتماعية ، فآليت على نفسي أن أعمل ما استطعت ، مؤمناً بأن الله ولي التوفيق .

عاد الأمير فؤاد إلى مصر بعد غيبة طويلة في أوربا ، فوجد أن فكرة إنشاء جامعة مصرية ، وكانت تختمر في الأذهان مذ نادى بها مصطفى كامل وقاسم أمين ، قد أخذت تتجسم ، وأن الرغبة في إخراجها إلى حيز الوجود تزداد يوماً بعد يوم ، على أن الهمم كانت تعجز عن التنفيذ . فما إن فوتح في أمرها حتى تولاه، فأذاع نداء كان من أثره أن توالت الاكتتابات بسخاء ، فبلغت في أقل من سنتين عشرين ألفا من الجنيهات ، وحبست على المشروع مئات الأفدنة ، يصرف ريعها عليه . كما تبرعت الأميرة فاطمة إسمعيل بجل مصوغاتها وجواهرها في سبيله ، ثم انتخب الأمير رئيساً للجامعة . ولقد اعترفت بها الحكومة في سنة ١٩٠٨ كمؤسسة من مؤسسات النفع العام . وافتتحت الدراسة فيها وبعثت بعثتها الدراسية الأولى إلى أوربا ، ثم أخذ الأمير ينشىء مكتبة الجامعة ، وما لبث أن جمع لها نحو خمسة عشر ألف مجلد ،تبرع بها المتبرعون في مصر وأوربا تلبية لنداء الأمير وإجابة لدعوته .

وفي سنة ١٩١٠ ألقى بعض أعضاء المؤتمر الدولي لعلم الآثار المنعقد في القاهرة محاضرات في دار الجامعة . وفي السنة نفسها سافرت البعثة الدراسية الثانية ، وكانت وجهتها إنجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا كما وفد على القاهرة لفيف من أكابر الأساتذة الأوربيين للتدريس في الجامعة الناشئة .

وكان من أثر شخصية الأمير فؤاد ، وما يتمتع به من التقدير والاحترام ، أن فتحت

مدارس فرنسا وإيطاليا أبوابها للفتيان المصريين ممن لم تتجاوز سنهم إذ ذاك ثماني سنوات أو عشر ، وأخذت حكومتا باريس وروما على عاتقها نفقات تعليمهم وإقامتهم ، حتى إذا حل عام ١٩١١ سافر الأمير فؤاد إلى أوروبا ، فزار برلين وبودابست ولندرة وباريس وبراج وروما وفينا ، مبشراً بإنشاء الجامعة المصرية في عاصمة الفراعنة ، مستحثاً همم ذوي الأمر في هاتيك البلاد ، فعاد من رحلته عوداً موفقاً ميموناً ، وفي جعبته العدد الوافي من الأسفار النفيسة ، والكتب القيمة ، والمداليات الأثرية . وكلها مهداة إلى الجامعة من مختلف الحكومات والهيئات تشجيعاً وتقديراً .

وقد ذكر رئيس جمهورية فرنسا المسيو دومرج إبان زيارة الملك فؤاد في سنة ١٩٢٧ عناية الأمير بجامعته فقال : ليست هذه أول مقابلة لي مع ملك مصر ، فقد عرفته أميراً يوم كنت أنا وزيراً للمعارف ، فجاء إلي يطلب مني كتباً وأساتذة للجامعة المصرية التي بلغت اليوم بفضل جهوده الجبارة شأواً عظيما ، وهي لا شك تضارع أهم الجامعات التي نفخر بها نحن معاشر الأوربيين .

وفي الوقت نفسه خطا الأمير فؤاد خطوة عدها هو نفسه خطوة جريئة . إذ أنشأ في الجامعات قسما للطالبات نال قسطاً وافراً من النجاح إذا قيس بما كانت عليه الأفكار حينذاك من ناحية الحجاب والسفور ، واختلاط البنين والبنات في دور التعليم ومعاهدها .

على أن انهماك الأمير فؤاد في تزويد مصر بجامعة تسد حاجتها الشديدة إلى التعليم العالي ، لم يمنعه من الاهتمام بإنشاء جمعية الاقتصاد السياسي والتشريع ، التي تولى رياستها منذ إنشائها في سنة ١٩٠٨ إلى أن استقال منها في سنة ١٩١٣ بسبب عزمه على السفر إلى أوروبا ، وهو لم يتخلف عن جلساتها إلا مرة واحدة خلال تلك المدة الطويلة التي تولى فيها شؤونها ، (كما أنها لم تحل دون عنايته بأمر جمعية الإسعاف ومشغل الأعمال النسوية . ولكن هذا أمر آخر ليس المقام مقام التحدث عنه) . ومثل جمعية الاقتصاد السياسي مثل الجامعة المصرية وغيرها من منشئات الأمير فؤاد ، فإنهما ظلتا سائرتين تتدرجان في سلم الرقي حتى بلغتا ما بلغتاه من شأن ونجاح .

فكان من نصيب الجامعة المصرية أن تحولت بعد أن تولى الأمير فؤاد العرش إلى جامعة رسمية، قامت صروحها الشامخات في الجيزة ، ناطقة بفضل منشئها الأول، متحدثة إلى بنيها وبناتها بما كان يكنه لهم جميعا من حب عميق .

وفي سنة ١٩١٥ بعد أن ارتقى المغفور له السلطان حسين عرش مصر ، سعى الأمير فؤاد إلى النهوض بالجمعية الجغرافية التي كان الخديو إسمعيل قد أنشأها في

سنة ١٨٧٥ ، فعينه السلطان حسين رئيساً لها ، فما لبثت أن دبت فيها روح الجد والنشاط ، وصدر مرسوم سلطاني بتعديل قانونها لتتمشى مع تطور العصر ومقتضياته . وقد رأى ، رحمه الله ، أن يردف الجمعية الجغرافية بمعهد للصحراء أقيم بناؤه في ضاحية هليو بوليس، غير أنه لم تواته الظروف لافتتاحه قبل انتقاله إلى الدار الباقية . هذا وما كادت مقاليد الأمور تلقى إلى الأمير فؤاد في سنة ١٩١٧حتى آلى على نفسه أن يعمل مجداً في سبيل مصر ، وقد اتسع أمامه أفق العمل وتوافرت لديه وسائله . وما كانت تبعات الملك وأعباؤه لتحول دون نشاطه العلمي والثقافي . ففي سنة ١٩١٨ أنشأ في حي الشاطبي بالإسكندرية معهداً للأحياء المائية ، ما لبث أن أدى خدمات لها خطرها . وهو معهد كان يرجى له النجاح في مهمته لو لم تقض عليه ، بعد حياة قصيرة ، ظروف واعتبارات لا غناء في ذكرها.

ولما كان العلم لا يقدره إلا ذووه ، فإن التعليم كذلك لا يقدره إلا من علم . وفي نظرة عاجلة تلقى إلى ميزانية التعليم في مصر منذ أن اعتلى الملك فؤاد العرش ، أبلغ دليل على مقدار حرصه على نشر التعليم . ففي ميزانية سنة ١٩١٧ — ١٩١٨ ، بلغ مجمل الاعتمادات المخصصة للتعليم في كافة نواحيه بالقطر المصري مليوناً وربع مليون من الجنيهات ثم إلى ما يقارب أربعة الملايين في سنة ١٩٢٧ ، وخمسة الملايين في سنة ١٩٣٦ ،كما أن عدد التلاميذ في المدارس الأميرية ازداد ازدياداً كبيراً .

وقد اهتم الملك فؤاد اهتماماً خاصاً بالتعليم الأولي ،كما أولى عنايته التعليمين الثانوي والعالي وتعليم البنات ، وحوّل الجامعة التي أنشأها فى سنة ١٩٠٨ إلى جامعة رسمية كما سبق بيانه ، وزاد عدد الطلبة الموفدين إلى أوربا لإتمام ثقافتهم العالية وللتخصص زيادة عظيمة . وكان الأزهر الشريف ومعاهده موضع عنايته الفائقة ، فأدخل على برامج التعليم تعديلات هامة جليلة الأثر . وكانت مسائل الأزهر شغله الشاغل ، لما كان يعلقه عليه من كبار الآمال . ولم تقف عنايته به عند حد الإصلاحات الموضوعية الجوهرية ، بل إنها تجاوزت ذلك إلى الإصلاحات المادية المعيشية ، من نحو مساكن لطلبته وخلافها .

تأسست بمصر في سنة ١٩٠٧ جمعية لدراسة الحشرات انتظمت بعض المتخصصين وبعض الهواة ، وظلت تعمل متواضعة إلى أن أخذ الملك فؤاد بناصرها في سنة ١٩٢٣، فأصبحت بفضل عطفه وعطاياه من أرقى مثيلاتها فى العالم .

وهكذا ظل المليك العظيم إلى سنة ١٩٣٠ ينشيء الجديد ، ويتعهد القديم ، مشجعاً حافزاً للهمم ، ضارباً المثل الأعلى في الجد والنشاط . وقد عقدت بأمره في مصر مؤتمرات عالمية . نذكر منها مؤتمر الجغرافيا ، ومؤتمر الملاحة ، ومؤتمر الطب ، كما اشتركت

مصر في عدد كبير من المؤتمرات العلمية التي انعقدت فى الخارج . وفى سنة ١٩٣٠ أنشأ جلالته ، رحمه الله ، الجمعية الملكية لعلم أوراق البردي، ثم أنشأ مجمع اللغة العربية . وعقد فى القاهرة سنة ١٩٣٢ مؤتمراً للموسيقى العربية حضره جهابذة علماء الموسيقى في العالمين الشرقي والغربي .

أما عطاياه وهباته للجمعيات والمؤسسات العلمية فحسبنا أن نقول إن المعاهد كلها التي أشرنا إليها ، كانت تنهل من ماله بما فيه الكفاية لتعيش وتزدهر ، فضلا عما كان ، رحمه الله ، يحيط به أهل العلم من عطف وتأييد .

ثم إن حرصه على نشر المؤلفات العلمية والجغرافية والتاريخية غني عن الإشارة والتعريف ، وها هي ذي كلها ناطقة بفضله وكرمه . وحسب القارىء الكريم نظرة يلقيها إلي فهرس الجمعية الجغرافية ليرى العدد الكبير من الأسفار الجغرافية والتاريخية وقد طبعت كلها على نفقة الملك فؤاد ، تبرعاً منه وخدمة للعلم وأهله .

وأما ما كان عليه الملك فؤاد من علم وثقافة ، فيشهد به أولئك العلماء الأعلام الذين كانوا كلما قابلوه خرجوا من حضرته معجبين باطلاعه ووافر معرفته . بل تشهد به ملاحظاته الشائقة التي كان يبديها فى أثناء تجولاته في أوربا وفي معارضها ومتاحفها .

إنه الميل الطبيعي للاطلاع حدا به منذ صغره إلى جمع الكتب وقراءتها ، والإحاطة بما تحويه المجلات الأدبية والعلمية ، مهما تنوعت موضوعاتها وتباينت موادها . أضف إلى ذلك ما وهبه الله من ذاكرة قوية تحفظ ما تودعه ، وذهن نقاد يتبين غث الأمور من سمينها، مما أوحى إلى إميل لدويج المؤرخ المترجم أن يقول عن الملك فؤاد بعد مقابلة له : لقد عرفت كثيرين من أعاظم الرجال ، عرفتهم شخصياً وحادثتهم أو تبينتهم فيما كتبه عنهم المؤرخون ، أو ما تركوه هم من تراث ، على أني قلما صادفت رجلا من طراز الملك فؤاد ، فإذا نظر نظر من علٍ فألم بأطراف المشهد ، وإذا حكم سما فوق الأهواء والنزعات ، وإذا تحدث أبان عن علم غزير ومعرفة عميقة بالأشياء وبالرجال .

وهكذا كان الملك فؤاد يمثل العاهل العالم العامل ، يمثله فى تواضع جم . فقد كان لا يؤمن بأن ما علمه كثير وبأن ما عمله كثير فإذا تحدث إليه متحدث فى موضوع علمي طلب المزيد وسعى إليه فى بطون الكتب والأسفار ، وإذا أشاد أحد أمامه بما عمل وأنشأ استغفر الرحمن الرحيم وطلب منه التوفيق لإتمام مابقي ،وهو فى نظره أكبر وأعظم.

يوسف فيليب جلاد

كتاب المردفات من قريش ✡ (٢)

تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

وخطب سُكينة عبد الملك بن مرْوان فقالت أمها : والله لا أزوجها منه أبداً وقد قتل ابنَ أختي — تعني مصعباً(١) — فتزوجها عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم ابن حزام — وأم عبد الله بن عثمان رملةُ ابنة الزبير بن العوّام — فولدت له سكينة ابناً يقال له قُرَيْن ، وحكيماً ، وابنة ويقال ابنتين . فمات عنها فتزوّجها الأصبغ ابن عبد العزيز بن مروان ، فأصدقها صداقاً كثيراً ، فقال عبد الملك : إنا تزوجْنا أحسابنا فلِمَ نغرق في الصداق ، طلّقها . فطلقها ، فقال أيمن بن خُرَيم :

نكحت سُكينةُ في الحساب ثلاثةً ... فإذا دخلتَ بها فأنتَ الرابعُ

إنَّ البَقيعَ إذا تتابعَ زرعُه ... خابَ البقيعُ وخابَ فيه الزارعُ(٢)

فتزوّجها زيد بن عمرو بن عثمان — وأمه أم ولد — فأصدقها صداقاً كثيراً ، واشترطتْ عليه أن لا يعصي لها أمراً ولا يغيرها ، ولا يمنعها شيئاً تريده ، ولا يمنع أحداً يدخل عليها ، وأن يقيمها حيث خلّتها أمُّ منظور(٣) ، فتزوجها على هذه الشروط ، فقال له سليمان بن عبد الملك : يازيد بن عمرو ، إنك شرطت لسكينة لا تطأ جارية وعندك أمثالُ المها ، وأنا أعلم أنك لا تصبر وأنك قد وطئت بعضهن ، وشرطت لها شروطاً لا تستطيع أن تفيَ بها ، وقد حرمت عليك سكينة . فطلقها زيد فتزوجها إبرهيم

✡ انظر مجلة الكتاب ص ٨٣٩ — ٨٤٤

(١) هو مصعب بن الزبير ، وكان عبد الملك قد سار إلى العراق ، فالتقى مع مصعب بمسكن ، من أرض العراق ، فقتل مصعب سنة ٧٢ . وفي ذلك يقول عبيد الله بن قيس الرقيات :

إن الرزية يوم مسـ ... ـكن والمصيبة والفجيعه

بابن الحواري الذي ... لم يعده يوم الوقيعـه

(٢) البقيع : الأرض الواسعة ، ولا تسمى بقيعاً إلا وفيها شجر .

(٣) في الأصل : « أن يقفها حيث جلتها أم منظور » صوابه من الأغاني (١٤ : ١٦٣) .

ابن عبد الرحمن بن عوف ، فأبى أهلها أن يرضَوا ، فخاصموه وتحاكموا إلى إبرهيم بن هشام ، فقال له : انطلقْ فادخل على أهلك ، فإن حال بينك وبينها أحد فامنعه . وكان إبرهيم ابن عبد الرحمن بن عوف شرساً كثير الشرّ ، فجاء في رجال من بني زُهرة ، فأعانه قوم من قريش ، وجاء بنو هاشم وبنو أميّة ، وأرسل عبد الله بن عمرو بن عثمان مواليَه وغلمانه في السلاح ، فقيل للوالي : إن لم تمنعهم تقاتلوا . فأرسل فردّ الفريقين ، وكتب إلى هشام فكتب إليه هشام : خيروها ، فإن اختارته فاحملها إليه . فاختارت نفسها ، وأتى الخبرُ إبرهيمَ فأتاها فقال : أنا خيرُ الناس لكِ . قالت : ما تقول ، يا بأبي ؟ ! فعلم أنها تهزأ به ، فانصرف فخيروها فاختارت نفسها ، فجاء عليُّ بن حسين بن حسين عليهم السلام فحملها.

وكانت سكينة تقول لزوجها زيد بن عمرو بن عثمان : اخرج إلى مكة وأخرج معك أشعب . فيُخرجه ويخرجُ من أرادت ، فإذا قضوا حجهم ورجعوا فكانوا في نصف الطريق قالت : يا ابنَ عثمان ، ارجع إلى مكة . فيقول نعم . فإذا صرفوا الإبل إلى مكة قال لها : يا سكينة ما أستطيع أن أخالفك وقد انصرف الناس ، فإن رأيتِ أن تمضي معهم . فتقول : نعم . فتمضي معهم يومهم ذلك ، ثم تقول : يا ابن عثمان ، ارجعْ ! فيقول : نعم . فتفعل ذلك مراراً ، ومع هذا مواتاةٌ منها وقرّةُ عينٍ وشفقةٌ ونصيحة ، وإنما كان ذلك كله منها مزاحاً لتسرَّه ثم ترجع إلى ما يريد . فعتب عليها يوماً في بعض الأمر فصارمها وخرج إلى قصر له في ماله . قال أشعبُ : فدعتني ليلة بعد العشاء فقالت : ويلك ، هل لك أن تأتيَ ابن عثمان فتعلم لي علمه أيّةً خرج وأخذ . قلتُ : لا أستطيع أن أذهب هذه الساعة . قالت : فإني أعطيك ثلاثين ديناراً . قلت : ادفعيها إليّ . فأعطتني ثم مضيتُ فانتهيتُ إلى القصر بعد ما هزيعٍ من الليل ، وليس على باب القصر أحد ، فدخلت الدار فإذا هو بين يديه مصباح ، قد نزل عن فرُشه وهو ينكتُ في الأرض ، فسمع حسّي أو رأى خيالي فقال : إن في الدار إنساناً فانظروا ما هو . فجاؤوني فرأوْني فقالوا : شعيب[1] . فدعا بي فقال : ويلك يا شعيب ما قصتُك ؟ قلت : أرسلتني سكينة . قال : ولم ؟ قلت : ذكرتْ منك ما ذكرتَ منها فأرسلتني أعلمُ لها علمك . قال : ويحك غنني فإن جئتني بما في نفسي فلك حلتي الطبريّة[2] فقد أخذتها بثلثمائة[3] . فغنيته :

---

(١) يعنون أشعب ، وهو ترخيم ، كما قالوا في أحمد حميد ، لغير نداء .

(٢) الطبرية : نسبة إلى طبرستان ، وفي الأصل : « الصبرية » بالصاد، تحريف . وجاء في كتاب (التبصر بالتجارة) للجاحظ ٢٢ بتحقيق العلامة حسن حسني عبد الوهاب باشا « وخير الطيالسة الرويانية الطبرية » . وفي الحيوان (٣ : ٢٧) : « قلت لأحمد بن رياح : اشتريت كساء أبيض طبرياً بأربعمائة درهم » . (٣) أي ثلاثمائة درهم . انظر ما سبق .

عُلِّقَ القلبُ بعضَ ما قد شجاه من حبيبٍ أمسى هواناً هَـواهُ

ما ضراري نفسي بهجرانِ من لَيْـ سَ مسيئاً ولا بعيـداً نَواهُ

قال : ما عدوتَ ما في نفسي . وأعطاني حلته ، فرجعت إلى سُكينة وهي جالسة تنتظر رجوعي فأخبرتها عنـه وعن حاله التي رأيت عليها وما قلت وما صنع . قالت : فأين الحُلة ؟ قلت : معي . قالت : أفتريد يا شعيب أن تلبس حُلة قد لبسها ابن عثمان وتسلبه إياها . لا ولا كرامة . فقلت : والله لألبسنها . قالت : فأنا أشتريها منك . فاشترتها بمائة دينار ، ويقال بثلاثين ديناراً .

وكان تزويجُ إبرهيم بن عبد الرحمن بها أنها مكثت حيناً بعـد زيد لا تخطب ، فقالت لها مولاة لها : جعلت فداك ، لا أرى أهل المدينة يذكروننا . قالت : أما والله لأجعلنّ لهم حديثاً . فأرسلت إلى إبرهيم بن عبد الرحمن بن عوف ، وكان شرساً كثير الشر ، فقالت له : كيف أنت إن تزوجتك ؟ قال : تجديني خير الناس .

وكانت ظريفة فقيل لها : يا سُكينة أختك ناسكة وأنت مزّاحة . قالت : إنكم سميتموها باسم جدّتها المؤمنة ، وسميتموني باسم جدّتي التي لم تدرك الإسلام(١) .

ويقال إنها لما زُفت إلى زيد ُحملت ، قالت لمولى لها كان يمشي مع دابتها يقال له بخة : ويلك ما لَك . وقالت لرجل قوّم هذا الأديم .

وذكر الفرزدق سكينة وشبّب بها وعمرُ بن عبد العزيز على المدينة ، فأخرجه منها ونفاه . فقال جرير في ذلك :

نفـاك الأغرُّ ابنُ عبد العزيز بِحَقِّـك تُنفَى من المسـجدِ(٢)

وطافت سكينة بنت حسينٍ رضي الله عنه ، فلما انتهت إلى الرّكن اليماني أعيتْ في أول طواف ونظر إليها العرْجيّ فقـال :

يقعُـدنَ في التَّطوافِ آونةً وَيطُفْنَ أحيـاناً على فَـتْرِ

حتى استـلَمْنَ الرُّكنَ في أُنُـفٍ من لَيْلهنّ يطأن في الأزْر

ففرَغْنَ في سبعٍ وقد جُهِدَتْ أحشاؤُهن مَـوائِلَ الخُمْر

(١) أختها فاطمة بنت الحسين بن علي ، سميت باسم جدتها فاطمة بنت الرسول زوج علي ابن أبي طالب . ومما هو جدير بالذكر أن اسم سكينة بنت الحسين، هو آمنة، وأما سكينة فلقب لها ، وسميت آمنة باسم جدتها آمنة بنت وهب أم الرسول صلوات الله عليه . انظر الأغاني (١٤ : ١٥٨).

(٢) وكذا رواية النقائض ٧٩٨ . وفي الأغاني (١٩ : ٥٢) : « ومثلك ينفى » .

فسمعت شعر امرأة ووصفته لها ، فحفظت الشعر فأخبرتها ، قالت : «لو أن الجمال طُفن سبعاً لجهدت أحشاؤهن » .

وقال أبو دهبل يمدح عبد الله بن عثمان بن عبد الله بن حكيم بن حزام (وهو زوج سكينة ، ولدت منه قُريناً ، وحكيما ، وابنة . وأم عبد الله بن عثمان بن عبد الله ابن حكيم رملة ابنة الزبير) فقال :

أَكرم بنسلٍ منكَ بين محمدٍ ... وبينَ عليٍّ فاسمعنَّ كلامي

وبين حكيم والزُّبير فلا أرى ... لهم شبهاً في مُنْجِدٍ وَتِهَامِ

تمطّت به بيضاءُ فرعُ نجيبةٍ ... حَصَانٌ وبعض الوالدِينَ عُرامُ[١]

٦ — أخبرنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أمُّ إسحق بن طلحة بن عبيد الله كانت عند الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، فولدت له طلحة ، فلما حضرته الوفاة أمر أخاه الحسين بن علي أن يتزوّجها ، فتزوّجها فولدت له فاطمة بنت الحسين . فقتل الحسين فتزوَّجها محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، فولدت له آمنة .

٧ — أحمد قال أنبأنا أبو الحسن قال : ميمونة ابنة عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي بكر ، كانت عند عبد العزيز بن الوليد ، فولدت له عبد الملك ، وعتيقا . ثم خلف عليها محمد بن الوليد ، ثم خلف عليها هشام بن عبد الملك .

٨ — عائشة ابنة طلحة . أنبأنا أحمد قال : أنا أبو الحسن عن سحيم بن حفص قال : تزوّج عائشة ابنة طلحة عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهو أبو عذرتها ، فولدت له أولاداً ، فابنها طلحة الذي يقول له الشاعر :

يا طَلْح إن كنتَ أعطيتني ... جُماليّةً تستخفُّ الضِّفارا[٢]

فما كان نفعُك لي مرّةً ... ولا مرّتين ولكنْ مِرارا

أبوكَ الذي بايعَ المصطفى ... وسارَ مع المهتدِي حيثُ سارا

قال أبو الحسن : عن سحيم ، صارمت عائشة زوجها ، وكان في خلقها زعارة ، فخرجت وهي مصارمة له في مِلحفة ، فمرَّت في المسجد حتى دخلت حجرة عائشة ، فرآها أبو هريرة رضي الله عنه فسبَّح وقال : كأنها من الحور . فمكثت عند عائشة قريباً

---

(١) العرام : الأذى ، وفى البيت إقواء .

(٢) الضفار ، بالفتح : ما يشد به البعير من شعر مضفور .

من أربعة أشهر ، فأرسلت عائشة إلى ابن أخيها : إني أخاف عليك الإيلاء إن تمت أربعة أشهر ، فضُمها إليك . وكان يلقى منها البلاء ، فقيل له طلقها . فقال :

يقولون طلِّقْها ، وأصبحَ ثاويا مقيماً عليك الهمُّ ، أحلامُ نائمِ
وإنّ فراقي أهلَ بيتٍ أودُّهم لهم زُلفةٌ عندي لإحدى العظائمِ
فكيف بِصَفو العيشِ من بعد بَينهم وسُخْطُهمُ يوماً على الأنف خاطمي

وخطبها مصعب بن الزبير فقالت : إن تزوّجته فهو عليّ كظهر أمي . ثم سألت أهل المدينة فقالوا : أعتِقي رقبة وتزوّجيه ، فتزوّجها فأصدقها خمسمائة ألف ، وأهدى لها خمسمائة ألف . فقال أنس بن أبي أنس بن زُنيم :

بُضْعُ الفتاةِ بألفِ ألفٍ كاملٍ وتبيتُ ساداتُ الجنودِ جياعا
لوْ لأبي حفصٍ أقولُ مَقالتي وأبثه ما قد رأى لارتاعا[1]

فبلغ الشعرُ عبد الله بن الزبير فقال : إنّ مصعباً قدّم خيره ، وأخّر . . . وبلغ الكلامُ عبد الملك بن مروان قال : لكن عبد الله قدم . . . ، وأخر خيره .

أحمد قال : قال أبو الحسن : قال الشعبي : كان يجالسنا أيام الفتنة رجلٌ فقلت : من أنت ؟ قال : مولى عائشة بنت طلحة ، خطبها مصعب بن الزبير وتزوّجها فأحبها ، وكانت خطبة جميلة من امرأة في أذنها عظم ، وفي ساقها حموشة[2] ؛ وقال قوم : في قدمها عِظمٌ ، فأغارها مصعب يوماً فسمّته .

أنبأنا أحمد قال : قال أبو الحسن : عن عليّ بن مجاهد ، عن الشعبي قال : قال الشّعبي : أخذ بيدي مصعب فمضى وأنا معه حتى دخل منزله ويده في يدي ، فرفع ستراً فإذا عائشة ، فإذا أحسن الناس وجهاً ، فأعرضت وخلاني ودخل ، فرجعت ثم رحت إليه بالعشيّ وهو جالس فأشار إليّ بيده فقال : رأيت ذاك الإنسان ؟ قلت : نعم . فقال : أفرأيت مثله ؟ فقلت : لا . قال : تلك ليلى التي يقول فيها الشاعر :

وما زلتُ من ليلى لَدُنْ طرَّ شاربي إلى اليوم أُخفِي حبَّها فأُبايِنُ[3]
وأحملُ في ليلَى لقلبي ضَغينةً وتُحمَلُ في ليلى عليَّ الضغائنُ

---

(١) في الأصل : « لولا أبو حفص » ، تحريف .
(٢) الحموشة : الدقة . وفي الأصل : « جوسة » محرفة .
(٣) البيتان لكثير عزة كما في الأغاني (٢ : ١٣٣) . وروايته : « وأداجن » .

يا شعبيُّ رأيت عائشة وما بدٌّ لك إذ رأيتها من صلة . ثم قال لابن أبي فروة : أعط الشعبيَّ عشرة آلاف درهم وعشرين ثوباً . فقتل عنها مصعب فخطبها بشر بن مروان . وقدِم عمرُ بن عبيد الله بن مَعْمر من الشام فنزل إلى الكوفة ، فبلغه أن بشراً خطب عائشة فأرسل إليها : « أنا خير لك من هذا المبسور ، وأنا ابن عمِّك وأحق بك ، وإن تزوّجت بك ملأت بيتك خيراً ، وملأت حِ . . . » . فبنى بها بالحيرة فمهدت له فرُشاً سعة عرضها أربع أذرع ، فأصبح ليلة بنائها عن تسعة . وكان عمر غليظاً أحمر يحتجم كل سبعة أيام ، فأخرجها معه إلى فديك[1] . ولها يقول الشاعر :

انعَمْ بعَيْشَةَ عيشاً غير ذي رَنَقِ وانبِذْ برَمْلَةَ نبْذَ الجورب الخَلَقِ

وقال آخر :

من يجعَل الدِّيباج عِـدْلاً للزِّيقْ

أراد الريح ، وهو ريح الخميس[2] .

بين الحْوارِيِّ وَبين الصِّـدِّيقْ

فمات عنها فبكتْـه ، فعلموا أنها لا تزَوّج .

أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن ، عن سحيم بن حفص قال : قالت رملة بنت طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي لمولاة عائشة : أريني عائشة متجردة ، ولك ألفا درهم . فقالت لمولاتها : إن رملة جعلت لي ألفي درهم إن رأتك متجردة . قالت : فإني أتجرد لها فأعلميها . وتجردت وجعلت تغتسل مدبرة ومقبلة ، ورملة تنظر إليها ، ثم لبست ثيابها فأعطت رملة مولاتها ألفي درهم ثم قالت : وددت أني أعطيتك أربعة آلاف ولم أرها .

قال أبو الحسن : عن أبي عمرو طارق بن المبارك قال : قال عمر بن أبي ربيعة لعائشة بنت طلحة يشبّب بها :

أصبح القلبُ في الحبال رهيناً مُقْصَداً يوم فارق الظّاعنينا

لم يرُعني إلا الفتاةُ وإلا دمعُها في الرّداء سَحّاً سَنِينا[3]

---

(١) فديك ، بالتصغير : موضع ، ولم يعينه ياقوت ولا صاحب القاموس .

(٢) كذا وردت هذه العبارة محرفة .

(٣) السنين ، بفتح السين : المسنون المصبوب .

تَجَلَّت حُمَّةُ الفراق علينا   برحيلٍ ولم تخف أن تبينا
أنت أهْوَى العِبادِ قُرْباً وَوُدًّا   لو تُواتِينَ عاشقاً محزُونا
قاده الطرف يوم مرَّ إلى الحيـ   ـن جهاراً ولم يخف أن يَحينا
وجلا بُردُ بِرْكةٍ جَنَديٌّ   ضوءَ وجهٍ يُضيءُ للنّاظرينا[1]
فإذا ظبيةٌ تراعي نعاجاً   في مَهًا بُهَّجِ المناظِرِ عِينا
قلت : من أنتمُ ؟ فصدّتْ وقالت: أمُبِدٌّ سؤالُك العالمينا[2]
قلتُ : بالله ذي الجلالة لَمّا   إذ تبلتِ الفؤاد أنْ تصدُقِينا
أيُّ مَنْ تجمعُ المواسمُ أنتمْ   فَأبيني لنا ولا تَكذِبينا
نحن من ساكني العراق وكُنّا   قبلها قاطنين مكّةَ حِينا
قد صدقناكِ إنْ سألتِ فمن أنـ   ـتِ، عسى أن يجُرَّ شأنٌ شؤونا[3]
قد نرى أننا عرفناكِ بالنّعـ   ـت بظَنٍّ وما قَتَلْنا يقينا[4]
بسواد الثَّنيّتين وثغرٍ   قد تَراهُ لناظرٍ مُستَبينا

فكانت عائشة تقول : والله ما قلت له هذا وما كلمته قط .

أنبأنا أحمد قال أنبأنا أبو الحسن عن عبد الله بن فائد قال : دخلت عائشة بنت طلحة بمكة على الوليد بن عبد الملك فحدثتْه وقالت : يا أمير المؤمنين ، مُر لي بأعوانٍ. فصيَّرَ إليها قوماً يكونون معها ، فحجت ومعها ستون بغلاً عليها الهوادج والرحائلُ ، فقال عروة بن الزبير :

عائشَ يا ذاتَ البِغال السِّتِّينْ   أكلَّ عامٍ هكذا تحجِّينْ

---

(١) البركة ، بالكسر : ضرب من برود اليمن . والجندي : نسبة إلى الجند بالتحريك ، وهو موضع باليمن . والبيت لم يرو في ديوان عمر . انظر ص ٦٩ .

(٢) قال ابن الأعرابي : يبدهم يفرق القول فيهم . وأنشد :

بلغ بي عجب وبلغ مأربا   قولا يبدهم وقولا يجمع

انظر اللسان (٤ : ٤٥) . وفي الأصل : « مبذ » وهو على الصواب في الديوان .

(٣) في الأصل : « قد سألناك إذ سألت » والوجه ما أثبت من الديوان .

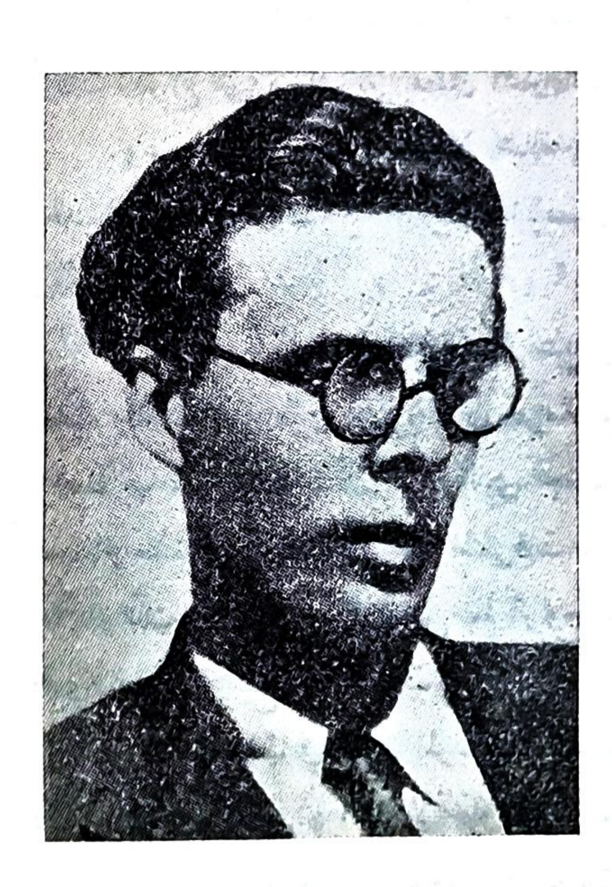
(٤) هو من قول الله « وما قتلوه يقينا » . وفي الأصل والديوان « وما قبلنا يقينا » .

التصوّف عند ألدوس هكسلي

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرضنا لناحية من نواحي الكاتبين الكبيرين شو و ولز في بعض أعداد «الكتاب» السابقة ، وهما نمطان مختلفان من أنماط الأدب ، لا يجمع بينهما إلا الموضوع الذي يكتبان فيه ويهتمان به ، وهو مستقبل الإنسان فرداً وجماعة ، ونظام الحياة الذي يصلح عليه الأفراد والجماعات .

ونعرض في هذا العدد لناحية بارزة من نواحي أديب آخر شريك لهما في هذا الموضوع على نمط مختلف جد الاختلاف عن كلا النمطين ، وهو ألدوس هكسلي الروائي الشاعر الناقد الفنان الباحث الأديب ، والمتصوف قبل كل شيء وبعد كل شيء ، في كل جانب من هذه الجوانب المتوزعة في حياته الذهنية والنفسية ، ولا شك عندنا ولا عند غيرنا — فيما نعتقد — أنه أوفر الثلاثة نصيباً من الثقافة بأنواعها الفنية والعلمية والفلسفية ، وإن كان أصغر الثلاثة سناً لأنه الآن في الثانية والخمسين ، وقد جاوز شو و ولز الثمانين .



اطلاعه أوسع من كل اطلاع عرف به كاتب من كتاب أوربة المشهورين في العصر الحاضر ، وأفقه الذهني يتناول البيولوجية وهندسة العمارة وفن الموسيقى وأدب الأقدمين والمحدثين ، ومعرفته بالعالم معرفة الرجل الذي إطلع ذلك الاطلاع وساح في أرجاء العالمين القديم و الحديث ، ومزج هذه المعرفة بفطنة نادرة وحس مرهف وقلب جياش وعقل وثاب .

تكلمنا عن سخرية شو وفي ألدوس هكسلي شيء كثير من سخرية شو وحبه للدعابة ، ولكنه يشوب سخريته بمرارة وقسوة لا تحسبان من خلائق شو ، ويزيد عليه بأنه يسخر سخرية المسؤول حين يعفي شو نفسه من تبعات آرائه ، وإن دعابته ضربات عقلية في ميدان الضمير . . . أما دعابة شو فهي تمرينات بهلوانية في ميدان الاجتماع أو معترك المعيشة .

وتكلمنا عن آمال ولز في المستقبل ، وهكسلي ممن ينظرون إلى المستقبل ويقدرون مصير الإنسان فيه ، ولكنه لا يؤمن بمستقبل الناس مع العلم كما يؤمن به ولز ويدعو إليه ، ولا يأتمن العلم على مصير الإنسان فرداً كان أو جماعة . بل يرى أن العلم خليق أن يمسخ الناس آلات قاصرة لا روح فيها ، تتوزع بينها الأعمال على حسب الاختصاص وتقسيم الوظائف الاجتماعية ، ولا يهديهم إلى شغل نافع أو بطالة صالحة يقضون بها أوقات الفراغ التي تتوافر لهم بفضل المخترعات وأدوات الصناعة الحديثة .

وعنده أن الإنسان ضائع لا محالة إذا كان معوّله كله في المستقبل على العلم الحديث . إنما سبيل الهداية أن يسعى الإنسان في سبيل السلام ، وأن يتوجه إلى السلام في عالم الروح .

ولا ينسى هكسلي علمه حين يتكلم عن الروح أو عن الشخصية الإنسانية ، فهو يسلم للعلماء وللفلاسفة الماديين أن الإنسان حزمة من الإحساسات والأعضاء المحسة لما يخالجها ويحيط بها ، ولكنه يسأل : وما الذي جعلها حزمة ؟ ولماذا تجمعت بعد تفرق ؟ وما هذه الوحدة التي تربط بين هذه المتفرقات .

تلك الوحدة هي شيء من عالم الروح ، وهي شيء على اتصال «بالروح الكلي» الذي تقوم به جميع الموجودات .

وغاية الغايات في حياة المرء أن يعقد الصلة بين القبس الروحاني الذي فيه وبين ذلك « الروح الكلي » الذي لا تخلو منه حياة .

وقد يصل المرء إلى ذلك من أبواب ثلاثة لا من باب واحد : يصل إليه من الباب

الأعلى كما يسميه ، وهو باب التأمل والنظر ، ومن الباب الأدنى ، وهو باب الزهد والقناعة وإخضاع الشهوات ، ومن الباب الأوسط الذي هو قوام بين هذا وذاك ، وهو باب الرياضة الروحية والديانة الصوفية ، وقد سلك متصوفة الإسلام في هذا الباب .

وإن المرء ليهتدي إلى الحقيقة الإلهية — أو إلى الروح الكلي — وإن لم يكن من من كبار الفلاسفة أو من كبار ذوي العقول . لأن طلب الحقيقة الإلهية استعداد غير استعداد العلم والفلسفة ، وخلاصته الحب ونقاء القلب والوداعة . ويتساءل لماذا كان هذا ؟ ثم يقول : إنه لا يدري على التحقيق ، ولكنه في أطواء كتبه يعطي الجواب لمن يستخلصه من شواهده ومراميه . وزبدة ما يتجمع من كلامه في هذا الموضوع أن المرء ينحصر في حدوده كلما اشتغل بشهواته وحاجاته وطاوع كبرياءه وتعالى على غيره ، ومتى انحصر في تلك الحدود قامت الأسداد والحجب بينه وبين الروح الكلي الذي يعم الأكوان ولا يخص الأفراد والجزئيات ، وأنه لا يزال كذلك حتى يخرج من جزئياته فيروض نفسه على الحب ، وهو سبب الاتصال الذي يشفيه من داء الانفصال ، ويروض نفسه على الدعة ، وهي التي تحطم له سور الكبرياء فيلتقي بالعالم الذي كان يحجبه عنه ذلك السور ، ويروض نفسه على نقاء القلب فلا يطويه على شيء ينعزل به عن نور البصائر والأبصار .

وليس معنى هذا أن الإنسان يفني قوام شخصه كما يقع في روع المتسرع العجول . بل معناه أنه يحيي أفضل جانبيه « على حساب » الجانب المفضول ، وأنه يتسلط بالجوهر الإنساني فيه على الصفات التي يشارك فيها الحيوان والجماد .

وليس على الإنسان خسارة في التضحية بتلك الصفات المبتذلة في سبيل الكمال الذي تنشده خلص النفوس القادرة عليه . فإن الروح أقوى من الجسد وأقدر على تطويعه وتسخيره ، ومن ترك القوي في سبيل الأقوى فما هو بخاسر ولا مغبون . وكلام هكسلي في هذا المعنى يذكرنا بكلام ابن سينا الذي تناول الموضوع من الوجهة الفلسفية في غير كتاب من كتبه فوفاه حقه من البيان ، لأن هكسلي يقول: إننا لا نعرف كيف يؤثر العقل في بدنه فكيف نمنع أن يؤثر العقل في غيره من الأبدان والأجسام . وكذلك يقول ابن سينا ، كما قال في كتاب الإشارات عن القوة الروحية إنه « لا يبعد إتيان العارف بما يخرق العادة في الأمور السفلية . وذلك لأن الأجرام السفلية قابلة لهذه الصفات . والنفس الناطقة ليست بجسم ولا حالة في الجسم ، فإذا لم يبعد وقوعها بحيث تقدر على التأثير في هذا البدن لا يبعد وقوعها بحيث تقوى على التصرف في مادة هذا العالم العنصري ، لا سيما على قولنا إن النفوس الناطقة مختلفة بالماهية ، فلا يبعد أن تكون الماهية المخصوصة التي

لنفسه تقتضي تلك القدرة » إلى آخر ما قال واستشهد عليه بكثير من الأحوال .

ومن الجائز أن يهتدي السالك إلى «الروح الكلي» بهدي المرشدين والنصحاء من العارفين ، غير أنه لا يصل إليه إلا إذا وصل إليه بنفسه واعتمد على بصيرته ووجدانه . فالعين لا ترى القمر بتعليم كما نقل عن بعض الأقطاب ، فكيف ترجو الروح أن ترى الحقيقة الإلهية بتعليم ؟ إن الهداية قد تجديك في رؤية ما يشار إليه ويقوم الدليل الحسي أو العقلي عليه ، ولكن الحقيقة الإلهية هي التي تريك ما لا يرى ، وتعرفك ما لا يعرف ، وتصل بك إلى « الكل » الذي يوجد في كل شيء ، وما هو بمنظور لأنه وراء كل منظور .

ومالا شك فيه أن إيمان هكسلي بسلطان العقل والإرادة علي الجسد إيمان وثيق مستقر من نفسه في قرار عميق ، لأنه بهذا الإيمان صدق ما شاع عن بعض المتطببين أنهم يشفون ضعف البصر بالعزيمة من غير حاجة إلى الاستعانة بالنظارات والعقاقير ، فاستعاد بصره بعد أن كاد يعمى في مقتبل الشباب .

على أنه لا يذهب في التجرد مذهب الدراويش أو نساك الصوامع أو أبناء الطريق ، لأنه يرى أن معرفة الحقيقة الإلهية من طريق العالم متممة لمعرفتها من طريق البصيرة والروح . فهناك ، كما قال ، طريقة إلى الحقيقة الإلهية من داخل النفس وطريقة إليها من داخل العالم وجواهره وأعراضه ، ومشكوك فيه أن تغنينا واحدة من الطريقتين عن الأخرى كل الغنى ، فأما إذا اتفقتا معاً فذلك هو المنهج السديد .

ويفرق هكسلي بين طلب البقاء وطلب الحقيقة الإلهية ، لأن الحقيقة الإلهية « حضور سرمدي » لا ينحصر في زمان أو مكان . أما البقاء فهو في قبضة الزمان انتقال من حال إلى حال .

ولعله لم يعتمد في فهم هذا المعنى على أحد كما اعتمد على حكماء الشرق ، وبخاصة حكماء الإسلام ، فنقل عن جلال الدين الرومي حين عرض لهذا المعنى قوله : « إنني مت معدناً وعدت نباتاً ؛ ثم مت نباتاً وعدت حياً ، ثم مت حياً وعدت إنساناً ، فماذا عساني أن أخاف ؟ إنني لا أصغر ولا أخسر بالموت . وسأموت مرة أخرى إنساناً لأبعث في عالم الملائكة والأرواح . ولا مناص لي حتى في عالم الملائكة والأرواح من اجتياز وارتفاع . ويومئذ أنزع روحي الملكية لأصبح ما لا يخطر على عقل ولا يلم بشعور . يارب لا تشغلني بالوجود واشغلني باللاوجود . فإن ما أطلب هو الفناء . وبه يصدق السر المكنون إنا إليه راجعون » .

ونقل عن الهروي في هذا المعنى قوله : « يارب . أنا بين يديك ابن سبيل . ولكني

أسألك ما لا يطلبه منك ألف سلطان . فكلهم يطلب منك شيئاً يأخذه إليه . أما أنا فأطلبك أنت يا الله . . . » .

وكثيراً ما استشهد هكسلي على أمثال هذه المعاني بكلمات من أقوال المتصوفة المسلمين غير هذين الشاعرين ، ومنهم رابعة العدوية والغزالي والبسطامي وغيرهم من الحكماء والشعراء . ويعجبه قول أبي يزيد البسطامي حين سئل : كم عمرك ؟ فقال: أربع سنوات . لأنه لا يحسب من عمره ما تقدم من حياته قبل أن يهتدي إلى الطريق .

هذه خلاصة موجزة من ناحية التصوف في أدب هذا الكاتب الذي يعد الآن في طليعة الكتاب العالميين . وموضع العجب أن تستولي هذه الحكمة الصوفية في هذا العصر المادي الجحود على عقل رجل قد أخذ من حضارة أوربة وثقافة الغرب كله بأوفى نصيب ، ويحدث هذا حين نرى بيننا في الشرق أناساً لم يتذوقوا قطرة من ذلك العباب العلمي ، الذي يخوض فيه هكسلي ويعوم ، قائمين قاعدين بإنكار كل قول عن الحياة الروحية ، وتقرير كل رأي عما يسمونه بحقائق المادة وقواعد العلم الحديث ، وما هي إلا آفة العقل المحدود الذي يحد هذا الكون العظيم ، فيحسبه مما يفرغ القول عن سره في عصر واحد أو فترة في عصر واحد ، ركوناً إلى كشف ظاهر يغير العوارض والأسماء ولا يغير جواهر الأشياء .

وأصدق ما يفهم من نزعة هكسلي هذه ونزعات أمثاله الأدباء والعلماء أن الحقائق المادية المزعومة ليست من الثبوت بحيث لا يختلف فيها قولان من أقوال العلماء ، فضلا عن أقوال الفلاسفة والمتصوفة وسائر المؤمنين ، وإن أحق الناس بعرفان هذا لأولئك الذين نظروا إلى الكون بعين الباطن قبل أن ينظر إليه الأوربيون بتلك العين ، وقالوا في ذلك ما لم ينقضه علم ولن ينقضه ما دام للانسان لباب وراء الحواس والعقول .

ولا نحب مع هذا أن نحيل الأمر في العقائد الصوفية إلى مجهول لا تلم به الأسباب. فإن الأسباب لتفسر لنا على الأقل لماذا يدين هكسلي بهذه العقائد ولا يدين بها كل من تعلم كما تعلم وكل من نشأ كما نشأ في القرن العشرين وفي البلاد الإنجليزية ، ومن هذه الأسباب التي يصح أن تفرده بهذه الخصلة بين أمثاله ونظرائه أنه ورث الجد في طلب الحقيقة من أبويه كما ورثه من جده لأبيه وجده لأمه . فجده لأبيه هو توماس هكسلي العظيم قائد الحملة الأكبر في مذهب النشوء والارتقاء ، وجده لأمه الدكتور توماس أرنلد المشهور بالغيرة الدينية والحماسة الروحية ، ولم يكن توماس هكسلي كالدكتور

أرنلد من المتدينين المتنطسين ، ولكنه كان أشجع الشجعان في الجهر بالحقيقة والوفاء بالواجب ، ولو غضب عليه الثقلان .

وهكسلي نفسه يقول في كلامه عن المتصوف الفرنسي بسكال : إننا إذا نظرنا إلى حالة كرليل أو حالة بسكال نفسه وكثيرين غيره رأينا أن هناك علاقة حميمة بين أحشاء المرء وفلسفته ، فإقامة الحجة على يأس كرليل المتوهج العينين عبث كاقامة الحجة على جهاز هضمه . . . » .

وهو قول لانبطله ولا نرى بنا ولا بأحد حاجة إلى إبطاله ، لأن تهيؤ الجسم لحالة من الحالات النفسية لا ينقض تلك الحالة ولا ينفيها ، كما أن تهيؤ الظلام لإبراز النجوم لا يقيم الحجة على تلك النجوم ، ولعلنا نرد شيئا من « النزعة الصوفية » في هكسلي إلى بنيته ، كما نردها إلى ميراثه العقلي من جديه وأبويه ، فإنه لقي في بصره وجسده ما يرهف حسه لاستطلاع عالم الأسرار ، ولا جناح عليه في ذلك ، ولا هو مما يثبت مذاهب الماديين، أن لهم تركيباً من وظائف الجسد يخالف هذا التركيب ، ولكن الاستعداد لمعرفة من المعارف شيء ونصيب تلك المعرفة من الحقيقة شيء سواه .

ونحسبنا في غنى — ونحن نختم هذا المقال — عن التنبيه إلى الفارق في شرح هذه المذاهب بين الإجمال والتفصيل ، فما قدمناه هنا هو إجمال يلم بالأطراف ولا يتكفل بالشمول والاستيعاب، ومن شاء المزيد من الإحاطة بتصوف هكسلي فلا غنى له عن مراجعة كتبه، ولا سيما الأخير منها ، وأنفعها في هذا الغرض هما كتاب Ends and Means أي الغايات والوسائل، وكتاب The Perennial Philosphy أي الحكمة الخالدة ، ولم يصدر له بعده كتاب مخصص لهذا الوضوع .

عباس محمود العقاد

الشعر وعلم العروض والقوافي

الأستاذ محمد الأسمر

عرّف العلماء علم العروض بأنه « علم يعرف به صحيح أوزان الشعر وفاسدها وما يعتريها من الزحافات والعلل » وعرفوا علم القوافي بأنه « علم يعرف به أواخر الأبيات الشعرية من حركة وسكون ولزوم وجواز وفصيح وقبيح ونحوها » .

وقد وجد الشعر قبل أن يوجد علم العروض والقوافي ، وقد وجد الشعراء قبل أن يوجد علماء العروض والقوافي ، ولست أعني بكلامي هذا أن علم العروض والقوافي لا لزوم له ، أو أنه علم قليل النفع ، فهذا لا يقوله عاقل بعد ما استعجمت الألسنة وأصبح الناس في كلامهم ليسوا عربيين بالفطرة ، ولكن الذي أريد أن أقوله أن للشعراء ذوقهم الخاص بهم ، فهم غير مطالبين بأن يتقيدوا بما رسمه لهم علماء العروض . وأقصد بالشعراء هنا من مارس الشعر زمناً طويلاً نظماً وقراءة ، ومن درس فيما درسه العلوم المتصلة بالشعر ، كالعروض والقوافي والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ومر عليه في ذلك زمن يتسع لنمو ملكة الشعر لديه ، كل هذا على أن يكون في طبع الشاعر الميل الفطري إلى عمل الشعر ، فإنه إن لم يكن في طبعه هذا الميل فكل ما ذكرناه لا يجعل منه شاعراً ، أو لا يجعل منه شاعراً له ذوق معترف به ، تأخذ به الناشئة وتنسج على منواله .

هذا وكم تمنيت أن يكون في هذا العصر من يتولى عن الشعراء بحث ما يوجهه إليهم الناقدون والمتكلمون باسم العروض والقوافي حينا ، والنحو حيناً آخر كما كان ابن جني للمتنبي ، حتى يتفرغ الشعراء لشعرهم . فلو أخذ الشاعر في الرد على هذا وذاك مااتسع له وقت لنظم بيت واحد ، ولتقطعت الأسباب بينه وبين الشعر ، ولكن لما كان لا بد مما ليس منه بد فسأتحدث فيما يأتي عن أربع مسائل تتعلق بعلم العروض والقوافي ، محاولاً الإيجاز وتبسيط العبارة .

المسألة الأولى

كنت نظمت أبياتاً على لسان الدكتور زكي مبارك يصف بها (ساعة) أهدانيها الهراوي رحمه الله جاء فيها :

واهاً لبعض الهدايا بعض الهدايا رزايا

(ساعات) باريس عندي لها جميع المزايا

وساعة الهراوي أولى ببعض (التكايا)

وقد كان البيت الأخير موضع دراسة عروضية في بعض المعاهد الأدبية العالية ، وكان رأي حضرة الأستاذ الفاضل الذي عرض هذا البيت على تلامذته لبحثه أن البيت من بحر (المجتث) وأنه مكسور ، لأن به (التشعيث) ✲ ، والتشعيث في البيت المذكور دخل في غير موضعه ، لأنه وإن كان جائزاً إلا أن موضع جوازه هو الشطر الثاني لا الشطر الأول .

وأزيد على ذلك أن (التشعيث) يدخل أيضاً الشطر الأول من (المجتث) ولكن علماء العروض يشترطون لذلك أن يكون البيت مصرّعاً والبيت المصرّع ما كانت عروضه تابعة لضربه ، والعروض آخر المصراع الأول من البيت ، والضرب آخر المصراع الثاني .

وجواز دخول (التشعيث) في (المجتث) إذا كان مصرعاً — كما اشترط علماء العروض ، جاء من جواز دخول (التشعيث) عروض البحر (الخفيف) بهذا الشرط المتقدم لأن بحر (المجتث) مأخوذ من الخفيف ومجتث منه أي مقطوع منه ، كما هو معروف ، فالخفيف أجزاؤه (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) مرتين ، والمجتث أجزاؤه (مستفعلن فاعلاتن) مرتين .

ومما تقدم يتبين أن البيت الآتي :

وساعة الهراوي أولى ببعض التكايا

لو كان مصرعاً ما كان البيت مكسوراً في نظر علماء العروض الذي يجيزون دخول التشعيث في (ضرب) المجتث بلا قيد ولا شرط . وأقول : إن البيت الآنف الذكر سليم وإن كان في نظر علماء العروض غير سليم . وقول علماء العروض ليس حجة أبد الآبدين على الشعراء ، كما أن القواعد التي قعدها علماء البلاغة ليست حجة أبد الآبدين

✲ التشعيث تغيير فاعلاتن لزنة مفعولن .

على البلغاء . وإن تعجب لشيء فعجب قول علماء العروض في البيت الآتي وهو من (المجتث) أيضاً :

لم لا يعي ما أقول ذا السيد المأمول

أن (التشعيث) الموجود في (الضرب) من الشطر الثاني جائز ! وتقول لعلماء العروض أليس الشطر الثاني في بيتكم هذا مثل الشطر الأول في (ساعة الهراوي) ، فلماذا يكون التشعيث جائزاً في الشطر الثاني غير جائز في الشطر الأول ؟ ! أليس كلاهما تشعيثاً ؟ ! ثم ما معنى أن يكون البيت مكسوراً فإذا ما صُرِّع على وزنه الذي هو عليه كان غير مكسور ، ومادته هي هي لم تتغير ، وميزانه هو هو لم يتحول ؟! مثل ما يقوله علماء العروض في ذلك مثل من يقول لك : هذا القصر بابه له مصراعان ، فإذا كان لون المصراعين واحداً فالقصر قائم ، وإذا كان لون المصراعين مختلفاً فالقصر منهدم ! وما دخل ألوان مصاريع الأبواب في انهدام القصور أو قيامها ؟! كذلك ما للأمور الشكلية وكسر البيت من الشعر أو عدم كسره!؟ وإني بعد ما أبنت أقول : إن مايجوز دخوله هنا في (الضرب) فهو كذلك يجوز دخوله في (العروض)، وما جاز لأحد المثلين جاز للآخر .

المسألة الثانية

قابلت أصدقائي الأستاذ علي الجندي ، والأستاذ محمود النواوي ، والأستاذ عادل الغضبان ، وكلهم شاعر له ثقافته الخاصة به ، وأسمعت كلا منهم البيتين الآتيتين :

(هُدى) وتلك الشمس تعرفونها زعيمة كم من زعيم دونها
(جندرك) وادي النيل إن ريع الحمى صانت حماها ، ربها يصونها

وكنت أقول لكل منهم بعد ما أسمعه البيتين : ألا ترى شيئاً في هذين البيتين من جهة النحو أو من جهة العروض والقوافي ؟ ! فيكون الجواب بعد التروي — لا — فأقول : وأنا أيضاً كذلك لا أرى شيئاً ، ولكن علماء العروض يرون غير مانرى، فهم يجعلون حرف الرويّ في هذه الأبيات النون ، وقد اختلفت حركة النون في البيتين . فالنون في البيت الأول مفتوحة وفي البيت الثاني مضمومة ، وهذا الاختلاف يسمونه (الإصراف) وهو عيب من عيوب القافية .

ولست أراه عيباً في البيتين السابقين ولا فيما يشابههما ، وذلك لأن لفظة (ها) بعد النون تجعل الفرق بعيداً بين هذا (الإصراف) وبين (الإصراف) إذا كان حرف الرويّ غير متصل بشيء . أقول هذا ولا أستسيغ دخول حركة الكسر هنا مع الضمة أو

الفتحة، وحجتي على أن الإصراف ليس بعيب في هذين البيتين أمران : الأول أن الشعراء حين استمعوا للبيتين لم يحس واحد منهم (نشازاً) شعرياً فيهما ، وهذا وحده كاف . الثاني أنه ليس من العسير في شيء أن نجعل (ها) في البيتين المذكورين (الروي) ، كما جعلوا واو الجماعة روياً في قول مروان بن الحكم :

وهل نحن إلا مثل من كان قبلنا نموت كما ماتوا ونحيا كما حيُوا
وينقص منا كل يوم وليـــلة ولا بد أن نلقى من الأمر ما لقُوا

هذا وقد ذهب ابن المعتز إلى ما ذهبنا إليه فقال :

أفنى العـداة إمام ماله شبه ولا ترى مثله يوماً ولم تره
ضار إذا انقض لم تحرم مخالبه : مستوفز لاتباع الحق منتبه

وذهب أيضا إلى ماذهبنا إليه كثير من فحول الشعراء على ماهو ثابت في دواوينهم.

المسألة الثالثة

جاء في كلمة للأديب عدنان أسعد أن قصيدة (العصفور الصغير) قصيدة منورة شاكرة ، بيد أن ببعض أبياتها خطأ يسميه العروضيون (سناد التوجيه) ، ونقول لحضرته : إننا لا نرى في سناد التوجيه أي عيب والذي نقوله هنا قاله قبلنا الأخفش حتى قيل إنه إنما سمي سناد التوجيه لأن الشاعر له أن يوجهه إلى أي جهة شاء من الحركات ، وهو أيضاً اختيار القطاع وابن الحاجب . وليقرأ الأديب الفاضل قصيدة أبي الطيب المتنبي «فهمت الكتاب أبر الكتب» وليقرأ قصيدة شوقي« أبا الهول طال عليك العصر» وهذه المسألة في نظرنا غير محتاجة إلى برهنة وتدليل ، خصوصاً إذا كان الكلام مع شاعر .

المسألة الرابعة .

هذه المسألة خاصة بالسناد وهي في حاجة إلى التأمل ، ولإيضاحها نذكر ما قاله ابن رشيق في كتابه « العمدة » مع إختصاره :

« الشعر كله مطلق ومقيد ، فالمقيد ما كان حرف الرويّ فيه ساكناً ، وحركة ما قبل الروي في المقيد خاصة دون المطلق توجيه ، وقيل هي توجيه في المطلق والمقيد جميعاً — ما لم يكن الشعر مردفاً — ويجوز في التوجيه التغيير فيكون سناداً » .

وعلى هذا فقصيدة امرىء القيس التي أولها « أحار بن عمرو كأني خَمِرْ » والتي فيها «وكندة حولي جميعا صبر» دخلها سناد التوجيه لاختلاف حركة ما قبل الرويّ والرويّ هنا الراء ، فالميم في (خمر) مكسورة ، والباء في (صبر) مضمومة . وقد كان القياس أنه

لو كان قبل حرف الرويّ في الشطر الأول ياء ممدودة ، وكان قبل حرف الروي فى الشطر الثاني واو ممدودة فى قصيدة من القصائد نحو :

يا بدر والأمثـــال يضـ ـربها لذي اللب الحكيم

دم للخليـــل بوده ماخير ود لا يدوم

لكان ذلك أدعى إلى القول بأن القصيدة دخلها السناد ، لأن الياء الممدودة إشباع لحركة الكسرة ، والواو الممدودة إشباع لحركة الضمة ، فاختلاف ما قبل الروي بحرفي الياء والواو الممدوتين أولى بأن يسمى سناداً من اختلاف ما قبل الروي بحركتي الكسرة والضمة ، ولكن علماء العروض قالوا كما ذكرناه في كلام ابن رشيق حينما تكلموا عن السناد (مالم يكن الشعر مردفاً) والردف هو حرف مدّ قبل الروي كما في البيتين السابقين ، فكيف أجازوا اختلاف الحرفين ولم يجيزوا اختلاف الحركتين ؟ ! وغير خاف ما هناك في النطق من فرق واضح بين الياء المدودة والواو الممدودة وإن كان كلاهما من (أحرف المد). يتبين ذلك بالالتفات إلى الضم حين النطق بهما ، وهذا البحث يجب أن ينظر فيه إلى هذه الفروق الدقيقة . هذا على أن عليا بن عيسى الرماني قال إن السناد اختلاف ما قبل حرف الروي أو بعده على أي وجه كان الاختلاف بحركة كان أو بحرف ، وقال ابن جني مثل ذلك . وعلى هذا فقصيدة (يابدر والأمثال . .) دخلها السناد مع أن الشعر العربي فى جميع عصوره يزخر بعيون القصائد التي من هذا النوع ، وسيزخر بغيرها ، رضي بعض الناس أم أبى .

محمد الأسمر

لقاء

لحكيم بن عكرمة☆

تقولُ بُثَيْنَةُ إذْ أنكرتْ ... قُنُوءاً من الشعرَ الأحمرِ

برأسي كبِرْتَ وأوْدَى الشبابُ ... فقلتُ مجيباً لها أقصِري

أما كنتِ أبْصَرْتِني مرَّةً ... ليالِيَ نحنُ بذي جَوْهَرِ

ليالِيَ أنتُمْ لنا جيرةٌ ... ألاَ تذكرينَ بَلَى فاذْكري

وإذ أنا أغْيَدُ غضُّ الشبابِ ... أجُرُّ الرِّداءَ معَ المِئزَرِ

وإذْ لِمَّتي كجَنَاحِ الغُرابِ ... تُرَجَّلُ بالمِسكِ والعنْبَرِ

فغيَّرَ ذلكِ ما تعلمينَ ... تغيُّرُ ذا الزَّمَنِ المُنْكَرِ

وأنتِ كلؤلؤةِ المَرْزُبانِ ... بماءِ شبابكِ لَمْ يُعْصَرِ

وقد كان مضمارُنا واحداً ... فإني كَبِرْتُ ولم تَكْبَرِي (١)

☆ شاعر إسلامي

(١) هذا الختام الذي يختم به الشاعر قصيدته فيقول لمحبوبته إنه كبر على الأيام وإنها هي لم تكبر ، فيه من لطف الحسن وسلامة الذوق والإمعان في المجاملة ما لا يقول أحسن منه فتى رقيق راق في هذا العصر الحديث الذي وصل الناس فيه إلى أعلى درجات الرقي والحضارة والتأنق في الكلام .

بعد عام

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

مراثيكِ جابتْ كالحريق اللياليا — وما برحَتْ تُجْلى على الناس ثانيا

وَصفتُكِ فاستبكيتُ بالوصف وحدَه — شيوخاً وشباناً وغيداً غوانيا

بكتكِ على وَحْيِ السماع خلائقٌ — تراءَوْكِ* أوصافاً حِساناً غواليا

فكيف وقد مُلّيتها وضممتُها — حقائقَ حسٍّ بالحياة نوازيا

وكيف ولم أبلغ بلفظيَ شأوَها — وما كان معناكِ القريبَ المؤاتيا

أرانيَ أجلو من معانيكِ لمحةً — فأجلو على الدنيا سناً متلاليا

وأملكُ أسماعاً يعزّ امتلاكُها — وأطلق أقلاماً تحيّي بيانيا

أولو كرَمٍ أضْفَوْا عليَّ ثناءَهم — بما رُضْتُ –من حزني عليك– القوافيا

إذا أخذَتْ عيني الثناءَ تحلّبتْ — وسحّتْ مآقيها حِراراً هواميا

لقد دِنْتِني قبلَ المماتِ وبعده — وقصَّر عن بعض القديم وفائيا

لكِ الفضلُ من قبل الردى في سعادتي — ومن بعده في شهرتي وشقائيا

عبد الرحمن صدقي

---

* يقال : « تراءينا الهلالَ » أي تكافنا النظر أنراه أم لا . وفي الحديث : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل عليين كما ترون الكوكب الدري في كبد السماء » . يتراءون وزان يتفاعلون أي يرون ، يدل على ذلك قوله كما ترون (لسان العرب) .

الحسان المدخنات

للاستاذ علي الجندي

كن ثلاثاً خلق الحسن على صورتهن في مركبة الدرجة الأولى من الترام ، متماثلات في الهيئة والشارة والجمال ، وفي أيديهن لفافات التبغ ينفثن منها الدخان ! فلما وقف الترام شرعت فيهن عيون النظارة تعجب بهذا الحسن وتزري على هذا الصنع ! وكأنهن قرأن ما جال في الخواطر ، فطرحن ما بأيديهن وخفضن الرؤوس مستحييات متهامسات مبتسمات ! فقال أحد الظرفاء : إياكن أن تعدْن ! وقلت أنا :

قُلْ للغــواني عن نصيـ ـحٍ ضاق ذَرْعاً بالغـوانـي
قَوْلاً لوجه الحسن أَمْــلاهُ الوِدادُ على لســاني
والشّعرُ لا ينفكّ خِـلا للجمال مـدى الزمانِ
: تلك الثغــورُ الزّاريا[1] تُ على نَدِيّ الأقْحُـوان
الرّاوايات من الرَّحيـ ـق المُثْرِيات من الجُمان[2]
السّالبات « عُمانَ » ما ذخرتْه « عبقرُ » في عُمان
الضّاحكات عن البُرو ق خَطَفْنَ في السُّحُب الدّواني
النّاطقات اللّفظَ مَنغــوماً كوسْوسة « المَثـاني[3] »
، خُلقتْ لِتُنْشِقَنا أريـ ـجَ المسكِ لا رِيحَ « الدُّخان »

***

قل للغــواني عن نصيـ ـحٍ ضاق ذرعاً بالغـواني

(١) العابثات (٢) صغار اللؤلؤ (٣) الأوتار

: تلك الشِّفاهُ الحائما تُ على سُلافتها الأماني
النّافحاتُ إذا انفرجْ نَ بعِطْرِ أزهارِ الجِنان
الرّامزات إلى المحبّـ ـة والبَراءة والحنـــان
في رقّــة الورْد النّضيـ ـر وفي احمرار الأُرْجُوان
تُغـنِي مُراشِفُهـا رَبيـ ـبَ الكأسِ عن «بنتِ الدِّنان»
هانَتْ ! وهانَ بِها «لَمَى»[1] ما كان أَهْـلاً للهوان
عَبِثَ «الدُّخانُ» بحسنها والحسنُ أَوْلى بالصّيان

✡✡✡

قل للغـواني عن نصيـ ـح ضاق ذرعاً بالغـواني
: تلك العيـــون النّافثا تِ السِّحرَ في عُقَدِ الجَنان[2]
السّاجيـــاتُ كأنما نَظَراتُها نظـراتُ عاني
النّاصبات الهُـدْبَ أشْـ ـراكاً تصيد بلا تَواني
المرســـلات السّهمَ يخـ ـشَى حَدَّه حدُّ «اليماني»
الآمِنـــات وليس منـ ـها ذو فؤادٍ في أمانِ
المُطمِعات بغـير وعـ ـدٍ في الوصال ولا ضَمان
طمَس «الدُّخانُ» بها الفتو رَ وكان قَيْداً للعِيان
ومشى على السِّحر المُرَقْـ ـرَقِ في لواحظهـا الرّواني

---

(١) سمرة في الشفة مستحسنة . (٢) بفتح الجيم : القلب

* * *

ما للحسان يُرِدْنَ أنْ يُفلِتنْ من سحر الحسان ؟ !

إنْ صَحَّ ذاك فما الذي يبقى لهنَّ من المعاني

أزْرَيْنَ في أفعالهنّ بكلّ مُحْصَنَةٍ حَصان (١)

وركضْنَ في ظلّ الصِّبا زُمَرًا خليعاتِ العِنان

قَلَّدْنَ حتى قد صَلِينَ بجمرة الحرب العَوان

أَيَرُمْنَ أن يصبحْنَ أشواكاً وهنَّ غصونُ بان ؟ !

* * *

قل للملاح الناعمات البيض والسُّمرُ اللّدان

« البيضُ » راعفةُ الظُّبا بدمٍ من الأوْداج قاني

و « السُّمْر » تَكْرع في الأبا هر (٢) والطُّلَى ظمأى السِّنان

دُونَ « اللُّفافة » هُجْنةً في ثغر مخضوب البَنان

على الجندى

---

(١) العفيفة من نفسها (٢) الأباهر : كبار الشرايين . الطلى : الأعناق

من أغاني الرق

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

[إلى الذين استعبدتهم قيود الحرية !]

أَلقَيْتَني بين شِباكِ العَذابْ وقلْتَ لي : غَنِّ !
وكلُّ ما يُشجِي حنينَ الرَّبابْ ضيَّعْتَه مِنِّي ...
هذا جَناحِي صارخٌ لا يُجابْ في ظُلْمَةِ السِّجْنِ
ونَشْوَتي صارتْ بَقايا سَرابْ في حانَةِ الجِنِّ

أوَّاهُ يا فَنِّي !
لوْ لمْ أَعِشْ كالنَّاسِ فوْقَ التُّرابْ ! !

* * *

رَمانيَ الرِّقُّ بدُنْيا زَوالْ مَغْلولةِ الجنْبِ !
وقال : حوِّمْ في سُفوحِ الجِبالْ واهْبِطْ على العُشْبِ
واضرِبْ جناحيْكَ بأُفْقِ المُحالْ واسألْ عنِ الغَيْبِ ..
وهأنا .. لا شيْءَ ؛ إلَّا ضَلالْ سارٍ مع الرَّكْبِ !

أوَّاهُ يا رَبِّي !
لوْ لمْ أَكُنْ عَبْداً لهذا الخيالْ ! !

* * *

جعلتَ زادي من عَويلِ الرِّياحْ وفزْعةِ الطَّيْرِ

ومِنْ أسَى اللَّيْلِ ووَجْدِ الصَّباحْ وَشهْقَةِ النَّهرِ

وسُقْتَني ظَمْآنَ بيْنَ البطاحْ إلَّا منَ السِّحْرِ

وقُلْتَ لي : رَفْرِفْ بهذا الجناحْ واشربْ منَ السِّرّْ . .

والسِّرُّ في صدْري

قَيَّدْتَ ساقيْهِ بتِلْكَ الجِراحْ !

* * *

خدَعْتَني يا نايُ . . حتَّى الغِناءْ لمَ تُعْطِني سِرَّهْ !

والعالَمَ الرَّحْبُ ، ومُلكُ الفَضاءْ زَيَّفْتَ لي أمْرَهْ !

ورُحْتَ تُغْريني بفَنِّ السَّماءْ والوَحْيِ ، والفِطْرَهْ

وأنتَ عَبْدٌ . . مِنْ جحيمِ الشَّقاءْ جَرَّعْتَني جَمْرَهْ !

وقلتَ لي : خَمْرَهْ !

وسُقْتَني عَبْداً لهذا الرِّياءْ ! !

محمود حسن اسماعيل

على ضفاف الغدير

للأستاذ محمود غنيم

جنِّباني خليج[1] بحرِ الرومِ   وقِفا بي على ضفاف الغديرِ
ها هنا الغيد في ائتلاقِ النجومِ   حُمْنَ حول المياهِ مثل الطيور

* * *

هنَّ أقبلن بارزاتِ الصدورِ   ثم شمَّرن كلَّ ذيل عنيفِ
يا لها من طهارةٍ في سفورِ   جُمعَ الطّهرُ كله في الرِّيفِ

* * *

قد كشفن الذيولَ عن سيقانِ   أرأيتَ الدُّمى وهنّ عوارِ
وتقدّمن في خُطا متوانِ   يتمايلن خيفة الطيارِ

* * *

رفعتْ ذيل حالكٍ في السَّوادِ   عن حواشي مورَّد اللون دامِ
فإذا طيٌّ هذه الأبرادِ   شفق لاح تحت جنحِ الظلامِ

* * *

وإذا ما رأيتَ رأيَ العيْنِ   منظر السوق[2] غصْنَ في الأمواجِ
قلتَ وادٍ أديمُهُ من لجيْنِ   نبتَتْ فيه غابةٌ من عاجِ

---

(١) يريد خليج « إستنلي باي » أشهر شواطئ الاستحمام بالاسكندرية
(٢) السوق : جمع ساق

***

رَكعَتْ كل غادة هيفاءِ كركوع البتول في المحرابِ
فرأت ظل وجهها في الماءِ ورأى الماءُ فيه ظل العباب

***

رُمْنَ غمس الجرار في الآذيِّ فأبى[1] غمسها دلالاً وتيها
فإذا ما انتصرن نصر الكميِّ ضحكت[2] كلُّ جرة ملء فيها

***

ثم أدبرن يحتملن الجرارَا تتثنى من تحتها الأجيادُ
ما دلالاً تميس تلك العذارى كلُّ لدْنٍ تؤوده ينآدُ

***

رفعت عند سيرها باليمين ذيل ضاف مهفهف معثارِ
واتّقت بالشِّمالِ فوق الجبينِ غزوات الشعاع للأبصارِ

***

سرْن سير المجدّ عند الورودِ فإذا ما صدرن سرن اتئادا
أرأيت الظليم عند الشرودِ ؟ أو رأيت القطاة إذ تتهادَى ؟

***

وعجبنا لحاملات الجرارِ لُحْنَ فوق الرؤوس كالأبراجِ
كيف تبدو في عزمة الجبّارِ ذات جسم كالزئبق الرّجراجِ ؟

---

(١) يريد بإباء الماء ضغطه الذي يقاوم الجرة عند محاولة غمسها في الماء .
(٢) يريد بضحك الماء صوت القفاقيع الناشئ عن حلول الماء محل الهواء .

⁂

تلك سوقٌ مصقولةٌ في العراءِ لم تمِسْ في جواربٍ من حريرِ
ورؤوس خُلقنَ للأعباءِ لا رؤوس ألفنَ قصّ الشّعور

⁂

ما ترهّلن في ظـلامِ الخدورِ أو طلينَ الأديمَ بالألوانِ
بل جرتْ في الوجوهِ جَرْيَ النميرِ حمرةُ الشمسِ صبغة الرحمنِ

⁂

سائلاني عن أهل تلك المغاني إن هذا الأديمَ مسقط راسِي
لقّنتْني طيـــــوره ألحاني وسقاني هـــواه أول كاسِ

⁂

مسرحٌ كنتُ فوقه منذ حينِ وعليه لعبتُ دور الغـــلامِ
لك يا ريف زفرتي وحنيني لك عندي تقديسُ بيت حرامِ

محمود غنيم

المرأة والشاعر

هاكَ يا شاعرُ مِعْراجَ السَّماءْ فارْقَ فيه بجَناحِ الأنبياءْ
وتنقلْ بين سَهْلٍ زاهرٍ بالدَّراري وجبالٍ من ضياءْ
واجْمَعِ السِّحْرَ ورَجِّعْهُ على وَترٍ للشِّعْرِ قُدْسيِّ الغِناءْ
في سَنى المرأةِ أو في فَضلِها إنَّما المرأةُ وَحْيُ الشُّعَراءْ

⁂

هَيْكلٌ أوْدَعَهُ اللهُ بَهاهْ فتلالى يبهرُ العينَ سَناهْ
جبَلَ المرْمَرَ والتِّبْرَ به وبأنداءِ الرَّياحينِ سقاهْ
نَفَخَ الرُّوحَ به من روحِهِ وحَباهُ بشعاعٍ من ذَكاهْ
فتجلى بين مخلوقاتِهِ آيةً أبْدَعَها فنُّ الإلٰهْ

⁂

قامةٌ أزرتْ بأغصانِ النَّقَى تتهادى وتبثُّ العَبَقا
فإذا مالتْ بها كفُّ الهَوَى مالَ بالصبِّ نعيمٌ أو شَقا
وَدَّ يجلو لُغْزَها القلبُ فلمْ يَدْرِ حُبًّا أضمرَتْ أم حَنَقا
خُلقتْ في النّاسِ سرًّا مُغْلَقاً وستبقى الدَّهْرَ سِرًّا مُغْلَقا

⁂

هِيَ من ينهضُ في جنحِ الظَّلامْ والكَرَى في الجفْنِ معقودُ الزِّمامْ
أجهَشَ الطِّفلُ فلم ينصتْ له غيرُ قلبِ الأمِّ والخَلْقُ نِيامْ
فَغَذَتْهُ قطرةً من دَمِها ثم هزَّتْ مَهْدَهُ حتى يَنامْ
هكذا المرأةُ من تضحيةٍ صاغَها اللهُ وعطْفٍ وابْتِسامْ

هِيَ مَنْ تَسْبِي فَتاها بالجمالْ وتُناجيهِ بِسِحْرٍ ودَلالْ
تشربُ الكأسَ وتَسْقيه بها كدرًا كان طلاها أم زُلالْ
كلما أذكتْ بهِ العَزْمَ مَشَى يطلبُ المجدَ ولو كان مُحالْ
قوّةٌ قُدتْ من الضعْفِ وكم خَلَقَتْ من ذلك الضعْفِ رِجالْ

✡✡✡

هذه العاطفةُ المُثْلَى وقدْ قَسَمَتْها بين أهلٍ ووَلَدْ
شعلة من رحمةٍ كم غمرَتْ من فقيرٍ وَيتيمٍ مضطهَدْ
وعليلٍ يتلوّى ألماً وجريحٍ يتنزّى في الضمَدْ
أرأيتمْ صورةً أجملَ مِنْ صورةِ الظبيةِ تُعْنَى بالأسَدْ

✡✡✡

هِيَ في السِّلْمِ هِزارٌ في فَنَنْ وهْيَ في الحربِ عُقابٌ في قُنَنْ
تقحمُ الأهوالَ لا يرهبها ظهرُ الموتُ أمِ الموتُ كَمَنْ
لا تبالي اتّخذَتْ نَقْعَ الوَغَى كفناً أم زبدَ البحْرِ كفَنْ
وكذا الحرُّ إذا اجتيحَ الحِمَى جادَ بالنَّفْسِ فِداءً للوطَنْ

✡✡✡

سحَرَ الشاعرَ هاتيك الصُّوَرْ فجلاها في رموزٍ وصُوَرْ
واستمدَّ الوَحْيَ من شرقيَّةٍ جمعتْ بُرْدَتُها أسْنَى الغُرَرْ
غادةٌ نمَّ عليها فضلُها مثلما نمَّ على الرَّوْضِ الزَّهَرْ
لو حوَى المشرقُ من أمثالِها كاثرَ المغربَ فيها وافتخَرْ

عادل الغضبان

في كفة الميزان

ننشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته نزولا عند حرية الرأى تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النقد

حضارة العرب

تأليف الدكتور غستاف لوبون
تعريب الأستاذ محمد عادل زعيتر
٦٧٤ صفحة من القطع الكبير . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٥
نقد الأستاذ محمود اللبابيدي بحلب

لما ظهرت الطبعة العربية لكتاب « حضارة العرب » للدكتور غستاف لوبون ، تناولتها بنهم زائد ، حتى قرأت غالب فصولها . فلما أسعدتني الظروف بالاطلاع على الأصل الفرنسي La Civilisation des Arabes رأيت ، أول ما رأيت ، أن الفرق في المظهر العام بين النسختين بعيد جداً ، إذ وجدت أن نسخة المؤلف معتنى بها عناية عظيمة ، بينما لم ألحظ في نسخة المعرّب مثل تلك العناية ، مع أن المعرب ، وهو رجل عربي قبل كل شيء ، كان أولى من المؤلف الفرنسي بهذا المظهر .

ولما قرأت عرضاً فصل « خلاصة القرآن » داخلني ريب في أنني أمام نصوص لم أجد لها مقابلا في النسخة العربية ، خطر لي أن أجري مقابلة بين الأصل والتعريب ؛ ولما أجريت المقابلة وجدت أن المعرب قد تصرف في آراء المؤلف تصرفاً عجيباً حذفاً وتحويراً وتبديلا ، حتى ضاع بعضها وخرج البعض الآخر عن حقيقته .

لقد شاع التصرف الكيفي في التعريب في أيامنا كثيراً ، وهذه ظاهرة يجب أن لا تفوتنا ، ولا يفوتنا كذلك التعليق عليها . فالجماعة التي تسمت باسم لجنة النشر للجامعيين مثلا ، قد أخرجت كتاب تراث الإسلام لطائفة من المستشرقين على أنه كتاب The Legacy of Islam المعروف ، وبالمقابلة تبين أن المعربين قد حذفوا أهم فصول الكتاب ، وهي أبحاث القسم العلمي من تراث الحضارة الإسلامية ، وهو لباب الكتاب ، دون أن يكلفوا أنفسهم الإشارة إلى ذلك ، حتى رماهم بعض الناس بسوء النية وبالنزعة

التصرف المخزي في الترجمة

تراث الإسلام

التجارية . واليوم نجد أن الأديب الفلسطيني ، لم يحذ حذو أولئك النفر بحذف فصل برمته، وإنما اكتفى بحذف بعض آراء المؤلف الفرنسي، واستبد بتعريب البعض على هواه، كما زاد في البعض الآخر زيادة ليست مما عرف من آراء المؤلف .

ونحن إذ نلاحظ ذلك نرجو مخلصين أن يلتفت أصحاب الشأن إلى هذه الأمور ، فيقفوا دونها قبل استفحالها ، دفاعاً عن الحقيقة ، وإصلاحاً لسير الثقافة العامة ، لتجريدها من النزعة التجارية وكل نزعة أخرى ضارة ، وتصحيحاً للأغلاط الشائعة مما علق في وهم بعضهم ، من أن ستر الآراء القاسية في حق العرب والمسلمين عن أعين الجيل الحاضر ، أنفع وأصلح لهم .

خطر لي ذلك لما رأيته من تعمد الأستاذ محمد عادل زعيتر كتم كثير من آراء الدكتور لوبون،تارة بالحذف ، وطوراً بالتحوير ، وحيناً بالزيادة ، حتى ثبت عندي أن الرجل يسير على خطة مرسومة في إخراج آراء المؤلف في ثوب يرضى عنه أبناء العرب والمسلمون ، ولا يشمئزون منه ، ولو كتم الحقيقة وتعدى على الواقع بخروجه على دستور الأمانة . ولما كان مثل هذا التصرف لا يخدم الحقيقة ، كما لا يخدم مصلحة العرب والمسلمين ، وهو في الوقت نفسه اعتداء صريح على حقوق القراء وحقوق المؤلف معاً ، وظلم بين للأجيال الطالعة ، رأيت من واجبي أن أدل على بعض ما لا بد من الدلالة عليه ، مما لاحظته من المواضع التي تصرف بها المعرب على الوجه الموصوف آنفاً ، منوهاً بأن ذكر هذه الآراء وآراء كل مؤلف كما وردت ، هو في مصلحتنا نحن العرب ، نحن المسلمين ، مهما كانت هذه الآراء قاسية بالنسبة إلينا ، تاركا معالجة النتائج الضارة من ستر هذه الآراء إلى مكان آخر .

* * *

لقد لاحظت فيما لاحظت أن الدكتور غستاف لوبون مؤلف من صنف ممتاز ، وصاحب ذوق عال جداً ، كما أنه صاحب عناية خاصة بآثاره ، فقد أخرج كتابه هذا وعليه مسحة من آثار القوم الذين درسهم في صفحاته ، وأحياهم بين دفتيه ، وخصوصاً تلك الآثار القائمة في أخلاقهم وعوائدهم . فالشرقيون، ومنهم العرب والمسلمون ، مولعون بالنقوش والزخارف والتزيينات ، فلم يغفل المؤلف عن تقليدهم في مظاهر كتابه هذا ، وباعتباره كتاباً يتكلم عن الحضارة العربية الفنية بمثل هذه الزخارف ، فعدا عن أن الكتاب ضخم من القطع الكبير وورقه كذلك من الورق الجميل ، والحرف الأول من الصفحة الأولى من كل باب ، حرف كبير تحته ساحة ذات نقش مخصوص ، فإن صفحات

الكتاب التي أربت على السبعمائة ، قد ملئت بمئات من مختلف الرسوم والصور والنقوش والكتابات والخطوط والخرائط واللوحات الملونة الزاهية ، وعدا عن كل هذا فإن المؤلف لم يبال ، على غرار ما نصنع في حوانيتنا وبيوتنا من تعليق الأواني المنقوشة على حيطانها — بتقليدنا في تزيين وسط وجه كتابه بصورة إناء خزفي مزخرف كالترس كتب في وسطه بخط عربي جميل « هو الخلاق الباقي » إمعاناً في أن يكون الكتاب تام الدلالة على أهله من جلده إلى جلده . غير أن المعرب ويا للأسف العظيم ، قد جرد الكتاب من هذه الحلية ومن مئات أخرى غيرها ، كما يتضح من الاطلاع على فهرس الصور الواردة في الأصل ، وبذلك حرم قراء العربية أروع وأهم آثار الحضارة العربية التي اجتهد المؤلف أن يمثلها تمثيلاً صحيحاً . وإليك فهرس الصور التي جاءت في الكتاب مع توسع في الشرح :

	عدد
١ — نماذج لصور بشرية تدل على العرق العربي وغيره من الأعراق التي دخلت في الإسلام من مختلف البلاد	٣٤
٢ — مشاهد من القرى العربية والقرى الإسلامية مختلفة	١٠
٣ — مناظر تدل على الأخلاق من بيع وشراء وغيره ، وأخرى تصلح لتكون لوحات فنية	٢١
٤ — فن العمارة من كافة البلدان في القارات الثلاث	١٥٠
٥ — نقود مختلفة ومن عصور متباينة شرقية وأندلسية	١٤
٦ — فنون جميلة وفنون صناعية من مختلف العصور والأقطار	١٢٠
٧ — مخطوطات وخطوط عربية مختلفة	١٣
	٣٦٢
٨ — خرائط	٥
٩ — لوحات ملونة	١٠

وهذه الكثرة من الصور والرسوم وثائق قيمة حتى لم تخل صورة من تدوين للمؤلف يقول عنها إنه صورها بنفسه أو اقتطعها أو جردها أو استعارها من أوثق ما عرف من الوثائق الصحيحة المتعلقة بالحضارة العربية .

وإذا عرف القارىء أن ما نشر في النسخة المعربة لا يزيد على (٤٧) رسماً من هذه المجموعة الضخمة أخذه العجب ، لا سيما والمؤلف قد أشاد كثيراً (انظر المقدمة) بالعناية التي خص بها كتابه هذا بحشره مئات من الصور فيه ، لأنه على حد تعبيره أن الصورة

تغني عما لا تغنيه المجلدات في الوصف ، فطي المعرب القسم الأعظم من الصور واقتصاره على قسم ضئيل شائع منها ، يعتبر تفويتاً لأعظم مزايا الكتاب ، وهضما موجعاً لحقوق الحضارة العربية التي حوربت واستجهلت بسبب فقدان أهم آثارها ومقوماتها ، مما لا يصح معه التفريط بالوثائق التي حواها كتاب الدكتور لوبون مهما بلغت نفقاتها .

لو قال المعرب إن طبع اللوحات الملونة متعذر في مصر ، لما قبل منه، ولو احتج بكثرة النفقات التى تستتبع غلاء النسخة العربية ، لما قبل منه أيضاً ، ولو قبل جدلا ، لما كان له عذر في أن يجعل صور الطبعة العربية كلها خاصة بفن العمارة (عدا خريطة الإدريسي ووجهي إسطرلاب ووجه إسكملة نحاسية) كأن الحضارة العربية ليست إلا فن البناء .

إنا لنعجب كل العجب من أنه لم يخطر على بال المعرب على الأقل ، أن يستبدل بعض صور الأبنية الشائعة بآثار غير معروفة أو ليست شائعة ، وهي كثيرة في الكتاب ، كقطع النقود المختلفة ، وخاصة الأندلسية منها ، وكأنواع الأسلحة والمفاتيح المزخرفة بالكتابات العربية الجميلة ، وغير ذلك من الآثار الصناعية . ثم أين الخرائط الخمس التي عني بها المؤلف ووضعت تحت إشرافه ، وخاصة تلك الخريطة المواجهة للصفحة ٦٧٤، فقد وضعت لتبين أولا ، الإمبراطورية العربية القديمة ، ولتبين ثانياً تقدم الإسلام منذ سقوط العرب سياسياً ، وهو أمر مهم بالنسبة لمن يريد أن يتكلم عن مبادئ الحضارة العربية وقوتها التي استمدتها من روح الإسلام ، وهي تشمل مساحات يجهلها إلى اليوم كثير من المؤرخين فضلا عن غيرهم ، ثم لتبين ثالثاً البلاد التي انحسر عنها الإسلام وضاعت منه . مع ما فيها من مزايا أخرى لا محل لذكرها هنا .

كنت أتمنى ، والكتاب من أنفس ما كتب عن الحضارة العربية والدفاع عنها ، بالاستناد إلى الوثائق الصحيحة ، لا إلى الكلام والتمنطق ، أن لا تقل عناية المعرب في طبعته العربية عن عناية المؤلف الفرنسي في طبعته . والاحتجاج بكثرة النفقات أو غير ذلك من الأعذار ، لا يبرر إخراج الطبعة العربية هذا الإخراج الهزيل المشوه . لا سيما والكتاب المذكور من الكتب التي طالما اشرأبت إليها الأعناق ، وهدأت من حولها الأصوات، لاستماع أخبار تعريبه منذ نصف قرن أو يزيد ، وطالما سمعنا بكثيرين تصدوا لنقله إلى العربية ، أقدمهم فيما أعلم محمد بك مسعود رحمه الله .

قد يطلع علينا المعرب معتذراً عن تصرفه فيما فعل بعذر ما ، وقد يكون عذره مقبولا أو لا يكون ، وقد يستطيع أن يبرر عمله أو لا يستطيع ، ولكن من المحال أن

يستطيع تبرير سكوته عما فعل . نكتفي إلى هنا ببيان ملاحظاتنا على تقصير المعرب في إخراج الطبعة العربية ، ولا نتهمه بقلة الأمانة في سكوته عن التصرفات التي قام بها ، بل حسبنا أن نلاحظ أن هذا التصرف قد قلل كثيراً من قيمة العمل الذي اضطلع به .

وها نحن الآن نبدأ بتدوين تصرفاته في حقل الترجمة والتعريب ، راجين أن يعذرنا حضرة المعرب إذا لاحظنا هنا أن تصرفاته بستر آراء المؤلف حيناً ، وتحويرها وتبديلها حيناً آخر ، كان عملا خطيراً لا يشبه عمله السابق من حيث المحافظة على دستور الأمانة . فقد لاحظت أن فصل « خلاصة القرآن » الذي خطر لي أن أجري عليه المقابلة بين التعريب والأصل ، قد فقد الصورة الصحيحة التي صوّر بها المؤلف آراءه في القرآن ، إذ لم يبق المعرب منها في الطبعة العربية إلا صورة شوهاء ، لا تعبر عن رأي المؤلف بحال من الأحوال ، بعد أن تناولها قلم المعرب نسخاً وتحويراً وتبديلا .

ونحن وإن كنا لا نتهم المعرب بسوء القصد ، معاذ الله ، إلا أننا نعتبره مخطئاً ومسيئاً فهم المسألة ، وهذا الخطأ شائع عند الكثيرين ، وقد نشأ من توهم بعضهم أن إذاعة الآراء الحرة التي يكتبها علماء الأوربيين وكتابهم في عقائد المسلمين ومقدساتهم ، أمر خطر بالنسبة للناشئة الإسلامية وجمهور الناس ، بحيث يستلزم الأمر إما تخفيف صدمة تلك الآراء بتحويرها ، وإما حذفها تماماً ، وعلى هذا المنطق سار المعرب في تعريب كتاب حضارة العرب ، فبدل وغير وحور .

إن شيوع هذا الخطأ عند الكثيرين ، لا يستدعي أن يقع فيه المعرب سواء اعتقد بخطئه أو بصوابه ، ذلك أن الأستاذ عادل زعيتر ليس رجل ثقافة عامة فحسب ، بل هو رجل شرع وقانون أيضاً ، وقد عرب كثيراً من كتب الدكتور لوبون ووقف على جملة آرائه وأسلوبه العلمي ، فلا يجوز له أن يسلك معه هذا السلوك ، بل كان عليه أن يثبت آراءه كما هي على عهدة صاحبها وإن لم يرض عنها ، ثم يلاحظ عليها إن أراد ، وان لم يرد فليخلها إلى غيره ليقتلها بحثاً ومناقشة . لا أن يكتمها أو يحورها ثم لا يشير إلى كتمها وتحويرها .

لقد وجد الإسلام في كافة عصوره أمام آراء شبيهة بالآراء التي حذفها وحورها ، وإنما تصدوا إليها فأبانوا زيفها . وهذه كتب الفرق الإسلامية ، وكتب التفسير وغيرها ، مليئة بتلك المناقشات والردود التي سلمتها للأجيال التي جاءت بعدها ، سلاحاً ماضياً يستعملونه كلما كانت الحاجة ماسة إليه ، ولم يجبن علماء الإسلام ، كما جبن المعرب ، عن بسط تلك الآراء المضادة ، بل بسطوها بسطاً وافياً ، ثم كروا عليها . إننا نحن العرب نحب

أن نعرف ما يقال عنا ، لتعطى لنا الفرصة للدفاع عن أنفسنا كلما كان الأمر يستدعي ذلك ، وكل من حاول ستر الحقيقة عنا نعده مخطئاً ، إن لم نعده غاشاً .

لقد كان من أثر ستر بعض الآراء الأجنبية التي تقال في النبي العربي وفي القرآن وفي نظام المسلمين الاجتماعي ، أن أثرت هذه الآراء تأثيراً سيئاً في نفوس بعض الذين أصابوا حظاً من الثقافة الأجنبية ، ولم يصيبوا نصيباً معادلا له من الثقافة العربية الصحيحة ، فنشأ بيننا قوم من إخواننا شاعت في رؤوسهم أوهام وضلالات ، لم تقو ثقافتهم العربية الضعيفة على تصحيحها ، فخسرناهم ، أوكدنا نخسرهم على أقل تقدير ، والسبب في ذلك أنهم قرؤوا وحدهم ولأنفسهم بلغة أجنبية . ولو أن القائمين بالتعريب منا قد فهموا المسألة على وجهها الصحيح ، فلم يستروا آراء العلماء الأغراب ، لفند القادرون منا هذه الآراء ولكشفوا شبهاتها ولردوها إلى الصواب .

أما أن يستر هذه الآراء القائمون بالتعريب ، بحجة أنها آراء خاطئة أو مغرضة أو سفيهة تغيظ الناس ، فحجة واهية ، أقل نتائجها السيئة أنها أوقعت بعض إخواننا في تصديق تلك الشبهات واعتنقوها على أنها حقائق مسلمة ، ومن ثم قسمت المثقفين العرب إلى معسكرين ، أو معسكرات ، تتخالف وتتدابر وتتراشق التهم ، صدقاً أو كذباً ، نحن في غنى عن ذلك ، بل نحن في أشد الظروف حاجة إلى التفاهم والتماسك .

ولو أن المعرب ، أصلحه الله ، قد أثبت آراء الدكتور لوبون كما هي ، لوجد من يصحح تلك الأغلاط التي وقع فيها ، ويرد الشبهات التي أوردها ، ويفند الآراء التي ارتآها ، ولكنه بستره تلك الأخطاء وبتحويره تلك الآراء ، قد ترك الداء يتسرب إلى النفوس المقتصرة على الثقافة الفرنسية دون حائل ، كما أوجد بين المقتصرين على القراءة العربية دعاة أقحاح لآراء الدكتور لوبون من غير علم بحقيقتها ، ولو علموا حقيقتها لما أرادوا لأنفسهم هذا الموقف .

وبعد فماذا قال الدكتور لوبون ! وماذا أخفى المعرب ؟ إن ما قاله لوبون لا يعدو ما قاله غيره وبحثه علماء الإسلام وردوه وفندوه ، فإذا بسطناه فلا نكون قد جئنا بجديد ، وإنما هي دعاوى قديمة رددها المستشرقون والكتاب الغربيون .

قال لوبون (ص ٩٤) وحذف المعرب ما قال : « ومع أن القرآن قد نزل وحياً من الله على محمد ، فإن هذا الكتاب المقدس ضعيف الارتباط بعضه ببعض »

Bien que révélé par Dieu à Mahomet, ce livre sacré est assez incohérent.

إن هذا الاعتراض قديم . وقد رده علماء المسلمين بأن ألفوا كتباً في مناسبات

الآي وارتباط بعضها ببعض . فلم يكن المعرب على صواب حين حذف هذا الرأي من الطبعة العربية جملة .

قال المؤلف (ص٩٤) ما تعريبه من غير تصرف : «إن أسلوب القرآن وإن كان ممتازاً أحياناً ، إلا أن الترتيب والمنطق فيه معدومان غالباً »

Le style en est parfois remarquable, mais l'ordre et la logique y font fréquemment défaut.

فأورد المعرب هذا القول في طبعته العربية (ص ١٢٩) هكذا :

« والقرآن قليل الترتيب ، مع ما فيه من بلاغة أسلوب وإعجاز بيان » والفرق ظاهر بين الأصل والتعريب ، إذ أثبت المعرب رأي المؤلف في ترتيب القرآن إجمالا ولكنه حذف رأيه في منطقه جملة . ونحن إذا تسامحنا مع المعرب في التعريب الإجمالي ، فإننا لا نستطيع أن نتسامح معه في حذف رأي للمؤلف وإضافة رأي ليس له . إن المؤلف لم يقل إن بيان القرآن معجز ، فكيف تسنى للمعرب أن يدسه عليه ! ألأن القرآن في حاجة لمن يشهد له هذه الشهادة ، حتى يجيء حضرة المعرب فيلصقها بالدكتور لوبون إلصاقاً ؟ ! اللهم إن هذا تصرف صبياني ، ولا نقول عنه شيئاً آخر .

لقد قال المؤلف بأن منطق القرآن غير سليم غالبا . فما حجته ! وأين وجد ذلك ؟ كان عليه أن يدلنا ، لأن القضايا التي يثيرها القرآن متعددة ، فمنها الديني ومنها الاجتماعي ومنها السياسي ومنها العلمي . وعلى رأي المؤلف ، إن لكل من هذه القضايا منطقاً خاصاً لا ينفع فيه المنطق الآخر ، حتى ذهب إلى أن أحد الزعماء لو راح ضحية الخطأ ، فذلك لمحاولته أن يطبق منطقاً مكان منطق آخر (انظر كتابه لآراء والمعتقدات ص ٤٦ — ٦٨) فما هو المنطق الذي اعتمد عليه المؤلف في حكمه هذا ؟

ومع أن معرب كتاب « حضارة العـرب » هو معرب كتاب « الآراء والمعتقدات » نفسه ، فإنه عجز عن ملاحظة تهافت رأي المؤلف وفضل طيه على مواجهته . ويجب أن نلاحظ أن هزيمة المعرب أمام آراء المؤلف في هذا المكان وفي غيره ، لا يتحمل وزرها ونتائجها إلا هو ، ولا يسأل عنها أحد غيره .

قال المؤلف (ص٩٤) ما تعريبه من غير تصرف : « ومحمد هو الذي يتكلم دوماً في القرآن باسم الله» . Mahomet y parle toujours au nom de Dieu

فحرف المعرب هذا القول في الطبعة العربية (ص ١٣٠) وجعله هكذا : « والله هو الذي يخاطب الناس في القرآن » أي حوره بما ينفي عن المؤلف رأيه الشائع في كل

صفحة من صفحات الكتاب ، من أن القرآن أثر محمد . حتى استتبع ذلك أن يحور المعرب كل عبارة من الكتاب تدل على هذا الرأي .

على أن إخفاء مثل هذا الرأي المعروف عن الدكتور لوبون وأمثاله من الأوربيين لم يعد منه فائدة ولا فيه غائلة ، لا سيما والمسألة بعد مسألة إعتقاد لا أكثر ولا اقل .

وقال المؤلف (ص ٩٥) ما تعريبه من غير تصرف : « ولم يكن محمد قط من كبار الفلاسفة ذوي التفكير العميق ، من نمط مؤسسي دين البراهمة والديانة البوذية » .

Mahomet n'était nullement un grand philosophe, un de ces profonds comparables aux fondateurs du brahmanisne et boudhisme.

فحذف المعرب النصف الأول من رأي المؤلف وا كتفى منه في الطبعة العربية (ص ١٣٠) بإثبات النصف الثاني هكذا :

« ولم يكن محمد من نمط . . . إلخ » . ومع أن وصف المؤلف النبي العربي بما وصفه ليس له قيمة كبيرة في نظر المسلمين ، فلا ندري ما وجه العلة التي حملت المعرب على أن يتصرف هذا التصرف الغريب . ذلك لأن النبي محمداً ليس فليسوفاً ولا من نمط الفلاسفة، وشخصيته لا يمكن أن تقارن بشخصية الفيلسوف ، فما كان لإثبات رأي المؤلف كما هو ما يبدل الوضع . نعم قد يكون لهذا الرأي قيمة عند من يحشر النبي محمداً في عداد الفلاسفة ، ووضع محمد بين الفلاسفة كوضع القرآن بين كتب الفلاسفة ، كلاهما لا يستقيم . ولا شك أن هذا الوضع الشاذ هو الذي أوحى إلى المؤلف بتلك الآراء الفجة التي تخالف حتى التقريرات التي انتهى إليها في أكثر كتبه ، وخاصة منها كتاب « الآراء والمعتقدات » Les Opinions et Les Croyances

وقال المؤلف (ص٨٨) ما تعريبه من غير تصرف : « إن ضعف محمد الوحيد ، كائن في حبه للنساء ، ذلك الحب الذي جاء — مع ذلك — متأخراً ، إذ ظل وفياً لزوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره » .

La seule faiblesse de Mahomet fut son amour pour les femmes, amour tardif du reste, car jusqu'à l'âge de cinquante ans, il resta fidèle à sa première épouse.

فما كان من المعرب إلا أن أثبت ذلك في الطبعة العربية (ص ١٢٤) هكذا :

« ولا يلام محمد على غير حبه الطارىء للنساء ، وهو الذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره » . وبذلك قلب رأي المؤلف من نسبة الضعف إلى محمد بسبب حبه للنساء، إلى ملامة بسبب هذا الحب ، مع أن المؤلف لم يلم محمداً بحال

ما ، لا من أجل حبه ، ولا من أجل ما نسبه إليه من ضعف ، ولعله يعذره ولا يلومه على ما نسبه إليه من ضعف ، إذا كان الحب الصارم يعد ضعفاً ، وما هو بالضعف في حقيقة الأمر، لا سيما وقد اعترف الدكتور لوبون هو نفسه بعد قليل (ص٨٩) بأن محمداً على الرغم مما نسبه إليه من ضعف ، كان قليل التسامح نحو النساء :

Malgré son faible pour les femmes, Mohamet fut peu indulgent pour elles.

وهذا ما أغفله المعرب أيضاً في الطبعة العربية ، وبذلك أفقد القارىء العربي الحجة على فساد نظرية الدكتور لوبون ، من أقوال الدكتور نفسه ، إذ أثبت الفقرة الأخيرة (ص ١٢٥) هكذا : « وقد كان محمد قليل المسامحة نحو النساء على رغم حبه لهن » ولم يقل على رغم ضعفه تجاههن كما هو الأصل .

***

هذه بعض أمثلة مما تصرف به المعرب في آراء مؤلف كتاب حضارة العرب ، اخترناها من فصلين، أحدهما « خلاصة القرآن » والثاني « حياة محمد وأخلاقه ». على أن في هذين الفصلين آراء أخرى تصرف فيها المعرب على هواه حذفاً وتحويراً ، ولم نتعرض لها ، كتعليل المؤلف غلو العرب في تعظيم القرآن بعدّه أفصح كتاب عرفه الإنسان ، ورده ذلك إلى مزاج الشرقيين المعروف في الغلو والمبالغة في كثير من شؤونهم حسب رأيه ،

d'une éxagération tout orientale .

(ص ٩٥ ط ف و ١٣٠ ط ع) وهو ما أغفله المعرب من الطبعة العربية تماماً . ومثل ذلك ، ما فعل في حذف بعض التفصيلات التي ذكرها المؤلف عن كيفية جمع القرآن ، وصحح له رأيه في الخليفة الذي أمر بجمعه ، إذ أورده المؤلف على انه الخليفة الرابع ، فأثبته في الطبعة العربية علي أنه الخليفة الثالث (ص ١٢٩) دون أن يشير إلى ذلك .

ولا بد أن نشير هنا إلى أشياء أخرى لاحظناها عرضاً أيضاً ، من مثل طرحه تسمية المؤلف للحكومات العربية بـ «الإمبراطورية العربية » L'Empire des Arabes وتسميته لها « الدولة العربية » وهو عنوان الباب الثالث ، ومثله عنوان الفصل الأول من الباب الثاني ، كما تصرف بعنوان الباب الثاني الذي وضعه المؤلف هكذا :

Les Origines de la Civilisation des Arabes.

وما تعريبه «أصول الحضارة العربية» لجعله كما شاء هواه في الطبعة العربية هكذا « مصادر قوة العرب » ومثل ذلك كثير . وإذا كنا نعزو إلى المعرب تصرفه بآراء المؤلف محواً وتحويراً لسبب من الأسباب ، فليقل لنا حضرته ما وجه العلة في تصرفاته الأخيرة هذه ؟ حتى يمحو من عنوان المؤلف كلمة «الحضارة» ليضع محلها كلمة «قوة» ؟ إنه لا سبب

يدعو إلى ذلك ! ولكن قل هو التصرف حسب الهوى ، التصرف الكيفى أو الوهم الباطل ، أو كل ذلك معاً .

لقد كنت أعنى من حضرة المعرب أن يكون أكثر شجاعة في إيمانه بالمثل العربية وبالمقدسات الإسلامية وأكثر أمانة في عمله ، فيثبت آراء المؤلف عيناً كما كان يفعل أئمة العرب في السابق ، لا أن يحذفها أو يعدلها كما فعل ، وليس يضيره ما فيها من الخطأ والصواب . وأنت يا سيدي معرب ، لا منشىء . ولا يمكن أن تلحقك تبعة في تعريبك ، إلا ما انحرفت به عن وجه الصحة ، أما ما لم تنحرف به ، فتبعة الخطأ فيه على قائله ، يصححه من هو أهل وكفاء له .

ونقف عند هذا الحد ، لنقول : إن التعديلات التي أدخلها المعرب الفلسطيني على آراء المؤلف الفرنسي في تعريبه لكتاب « حضارة العرب » سواء أكان هذا التعديل بحذف بعض آرائه أم بتحويرها ، أم بالزيادة عليها ، قد قلبت آراء المؤلف في بعض المواقف رأساً على عقب ، حتى خرجت عن قصد واضعها إلى رأي آخر لا صلة له بالمؤلف مطلقاً . وقد اكتفينا بعرض طائفة من هذا التعديلات ، ولم نطلب المزيد ، لأنه لم يكن قصدنا تتبع المعرب فى كافة فصول الكتاب ، فذلك عمل آخر .

وكان حسبنا فى ذلك أن نعطي فكرة عن مدى نقل المعرب لآراء مؤلف أجنبي معروف في الأوساط الثقافية العربية ، ولنقول إن النسخة الفرنسية لكتاب « حضارة العرب » على ندرتها وغلاء ثمنها وطول انتظار الناس لتعريبها ، ما زالت تملك ذلك القدر العظيم من الحظ والتقدير الكبير ، لا لجمالها وفتنة ما فيها من صور ووثائق بالغة الأهمية عن الحضارة العربية لم تنشر في الطبعة العربية فحسب ، بل لما فيها من آراء وأفكار حجبها المعرب فلم تأخذ حظها بالظهور في الطبعة العربية هي أيضاً .

هذا وإني لأرجو مخلصاً أن تتهيأ لجنة من أهل العلم لمقابلة الطبعة العربية وتصحيحها على الأصل الفرنسي ، وإعادة طبع هذا الكتاب النفيس بكافة صوره وخرائطه ووثائقه ، التي لم تحتو الطبعة العربية إلا على جزء يسير مما فيه ، وإخراجه إخراجاً يليق به ، ولا يقل عن إخراج النسخة الفرنسية . على أن ما آخذت به المعرب ، لا يمنعني أن أوجه إلى حضرته تقديري العظيم ، لشجاعته على تحمل مسؤولية إخراج هذا الكتاب الضخم ، وأن أنوه بالتوفيق الكبير الذي أصابه في تعريبه ، وباللباقة التي تناول بها نقل الكتاب ، حتى جاء وكأنه وضع بالعربية وضعاً بقلم سائغ .

الدراسة الأدبية

تأليف الأستاذ رئيف خوري

٢٠٧ صفحات من القطع المتوسط . دار المكشوف . بيروت ١٩٤٥

نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

كان اسم هذا الكتاب في الأصل « النقد والدراسة الأدبية » . فحذف المؤلف كلمة النقد من عنوان الكتاب على اعتبار أن النقد جزء من الدراسة الأدبية .

وخيراً فعل المؤلف حين اتخذ العنوان الجديد لكتابه . فإن الأدب نقد وتاريخ أدبي ، ولا يكون الأديب أديباً — في نظر الحق — حتى يستكمل عدته من النقد الذي يتذوق الكلام ، ومن تاريخ الادب الذي يدرس العصور والأشخاص والآثار الادبية على ضوء ما يحدث بين بعضها بعضاً من تفاعل .

فليس كتاب الأستاذ رئيف نقداً كله ، وليس تاريخ أدب كله ؛ ولكنه جمع بين الاثنين وتأليف بين الشقيقين . وما النقد إلا أخ للتاريخ الأدبي . ولن يكون الأديب مستوفياً الأداة مالم يجمع بين الأخوين في نسب تربطه لحمة الأدب .

ولكن ميزان الأخوة اضطرب في يد المؤلف ... فاستوفى حين اكتال على النقد ، وأخسر حين كال تاريخ الأدب . . . وبهذا كان حظ الدراسة النقدية في الكتاب أوفى وأوفر من حظ أختها الأدبية ... حتى كاد الكتاب كله يكون نقداً .

أفما كان من العدل في القسْم ، وتسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية أن يرجع المؤلف إلى العنوان القديم لكتابه ، فهو أدل على موضوعه وأتمُّ على مادته .

ومنهج المؤلف في قسم النقد منهج سليم مستقيم ، وفيه من حسن التقسيم وسلامة التنظيم وتسلسل المنطق ما تتأكد به جدة البحث وعراقة الدرس . أما قسم التاريخ الأدبي فكلام مبعثر لا تؤلف بينه غاية ولا ينتظمه هدف . ولكنه نقلة من هنا ونقلة من هناك . ففيه سيرة لطرفة بن العبد شاعراً باكره الموت في ريعانه ، وفيه كلمة عن طريقة أبي تمام في اصطناع البديع واستخدام المحسنات . وفيه موازنة بين قصيدتي المتنبي والبحتري في وصف الأسد . وفيه لوحة عن أبي فراس في سجنه والحمامة النائحة ... وفيه كلمات أخر لا نسب يؤلف بينها ولا تنحدر من غمام واحد ...

وعجيب أن تظهر شخصية المؤلف في قسم النقد ، وأن تمحى في قسم التاريخ

الأدبي . ففي هذا القسم الأخير نرى المؤلف يستعين بنماذج كثيرة طويلة يجعلها تطبيقاً على أحكام أدبية مجملة . وهذه النماذج في ذاتها دراسات في تاريخ الأدب ، ولكنها ليست من قلم المؤلف ولا هي مما عاناه فكره وكد فيه عقله . وإنما هي لطائفة من الأدباء استلذ المؤلف موائدهم ، واستطاب ألوان طعامهم . . وآثر السلامة في النقل على المجاهدة بالعقل ... فنقل اثنتي عشرة صفحة من كتاب (الرؤوس) لمارون عبود ، ونقل مثلها في العدد من كتاب « أدباء العرب » لبطرس البستاني . ونقل ست صفحات من كتاب « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان التوحيدي . ونقل خمس صفحات من كتاب « محاولات في فهم الأدب » للطفي حيدر . ونقل أربع صفحات أو تزيد من كتاب « الفصول الأربعة » لعمر فاخوري ... فماذا بقي بعد ذلك من الكتاب للمؤلف نفسه !

ولو أن المؤلف سمى كتابه « الدراسات الأدبية ونماذج لها من دراسات المؤلفين » لقلنا : ذلك مذهبه ، وتلك في الدراسة طريقته ، ولالتمسنا له العذر في منهج أخذ به نفسه في عنوان كتابه . ولكنه لم يسم كتابه هذا الاسم ، ولم يأخذ نفسه في مقدمة كتابه بهذا المنهج الغريب . . ومن هنا حق علينا أن نلومه وأن نسرف في لومه ، فقد خرج شطر من كتابه جمعاً أكثر مما خرج تأليفاً .

ومعقول أن يوثق المؤلف أحكامه بآراء العلماء وأن يدعم قضاياه بأقوال الأدباء في الجملة أو الجملتين ، والمقطع أو المقطعين . . ولكنه حين ينقل لنا فصولا برمتها من كتب الآخرين فإنه لم يصنع أكثر من أن يكون وسيطاً موصلا لا أديباً متأصلا . . .

على أن ذلك لا يطعن في منزلة المؤلِّف ولا في مزية المؤلَّف . فقسم النقد في الكتاب حافل بموضوعات تتشهاها النفس وتجد فيها لذة ومتاعاً . ومبعث اللذة في هذه الموضوعات هو طرافتها وتنوعها من ناحية ، وحسن الذوق في عرضها من ناحية أخرى . وناهيك من كتاب يتناول الموضوعات الآتية : الألفاظ ، جوها ، موافقتها للعصر ، الاختيار بين الألفاظ المتشابهة معنى ، جودة التزويج بين الألفاظ ، الزخرف ، الغنى في اللفظ ، طرق الأداء ، المعاني وموافقتها للمقام ، وضوحها ، تسلسلها ، المعاني بين الابتذال والتقليد والابتكار ، الشعر والنثر وأنواعهما . ويدخل تحت كل موضوع من هؤلاء دراسات أخر . فيدخل في طرق الأداء التشبية والاستعارة والمجاز والكناية والمبالغة والطباق . ويدخل في الشعر الموشح والزجل والأراجيز والملاحم والشعر الغنائي والمسرحي . . .

ونحن هنا في مصر ندخل دراسة الشعر وأنواعه وأبوابه ومعانيه وأخيلته وألفاظه في قسم التاريخ الأدبي ، ولكن المؤلف أدخلها في قسم النقد . كما تدخل الموازنات الشعرية

في قسم النقد ، ولكن المؤلف أدخلها في قسم التاريخ الأدبي . ولا يعنينا أن يكون للناس فيما يعشقون من التقسيم مذاهب . . . ولكن الذي يعنينا أن تأخذ الأوضاع صحتها ، وأن تسلك الأمور في سمطها وتدخل في بابها . فالموازنات الشعرية أو النثرية هي بالنقد أشبه وإليه أقرب . وقد أدخلها ابن الأثير في كتابه « المثل السائر » وهو من كتب النقد لا من تاريخ الأدب . والموازنة بين قصيدتي المتنبي والبحتري في وصف الأسد سلكها ابن الأثير في كتابه مسلك النقد ، ولكن المؤلف ساقها من كتاب لطفي حيدر في قسم التاريخ الأدبي ، وهي ليست منه في شيء . وقد يقال إن في هذا التقسيم الجديد شيئاً من التجديد الذي يصطنعه من لا يرون الأوائل شيئاً ... ولكن ما بالنا حين ننكر القدماء في بعض الأمر نتكىء عليهم في كثير من الأمور ؟ والاتهام هنا واضح لا غموض فيه . فالمؤلف لم يجعل الموازنات من باب النقد إنكاراً لمذهب تقرر ومخالفة عن محاكاة القدماء ، ولكنه في الوقت نفسه يصطنع أمثلة القدماء حين يتمثل للقاعدة بالبيت من الشعر أو الكلمة من النثر .

فألفاظ (الجرشى) بمعنى النفس ، (والتكأكؤ) بمعنى التجمع ، (والافرنقاع) بمعنى التفرق ، التي ساقها المؤلف هي بعينها التي وردت في كتب القدماء من علماء البلاغة . والبيت المشهور .

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

هو بعينه المثال الذي أورده العلماء منذ بضع مئات من الأعوام . وتشبيه « أبي النجم » الشمس بالمرآة في كف الأشل هو بعينه مثال القدماء في حسن التشبيه .

ولو أن الاستشهاد جرى في الكتاب كله على هذا النحو لكان ترديداً لكلام ملته الآذان وأخلقه الزمان . ولكن المؤلف أحسن وألطف حين ساق أمثلة من نثر الشيخ إبرهيم اليازجي ومن شعر شوقي ومن كلام جبران خليل جبران ومن لطائف إيليا أبي ماضي ومن طرائف إسمعيل باشا صبري ومن آثار غيرهم من الأدباء .

والاستشهاد يحسن حين يؤيد القضية ويدعم الفكرة ، على شرط أن يكون من بليغ المقال . كما صنع المؤلف حين استشهد للتوكيد اللفظي بقول ابن الرومي :

ضلة ضلة لمن وعظته غير الشيب وهو غير منيب

وحين استشهد للطباق بقول أبي تمام :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسر من التعب

ولكنه لم يوفق حين استشهد بشعر شاعر لم يذكر اسمه . وقد كان أمامه من شعر الفحول

ما يتمثل به للربط بين الجمل ببل ولا . والبيت المستشهد به هو :

فاز بالغـايات طالبها لا كسول عاش منتظرا

وهو من ضعيف الكلام . وفيه كلمة «كسول» على أنها صفة للمذكر وهي صفة للأنثى . فيقال رجل كسل وكسلان ، وامرأة كسلة وكسلانة وكسول ومكسال .

والتمثيل في النقد الأدبي لا يكتفى فيه بالمثال الواحد أو المثالين. فما بالك بالمؤلف حين يغفل المثال إغفالا ويهمله إهمالا في موطن يتلهف فيه القارى إلى المثال ويتطلع إلى السؤال ؟ فقد ذكر الأستاذ رئيف خوري أن أبا نواس ممن أتيح لهم الابتكار في موضوع الخمر ، ولكنه لم يسق مثالا واحداً قد كان يكلفه بعض العناء في البحث ولكنه يريح قارئه ويطمئنه إلى أحكامه الأدبية ، ولم يسق من ابتكارات خليل مطران إلا قوله في تمثال رمسيس المنحوت من المرمر الأحمر حين كان يقبله المصريون :

فبجلت تحت تاج الملك مدمنها وقبلت دمها في المرمر القاني

وما أكثر ابتكارات أستاذنا شاعر الأقطار العربية لمن يتصفح (ديوان الخليل) .

* *

والمؤلف شاعر حتى في منثور عبارته . ويبدو ذلك في أسلوب الكتاب كله . كما يبدو خاصة في القطعة الأدبية الرائعة التي يخاطب بها شقائق النعمان[1] ، وفي القصيدة الفاتنة[2] التي عربها المؤلف في شعر تنقل فيه من وزن إلى وزن . وله فوق طبيعة الشعر البادية على وجه تعبيره معرفة بالعروض والقوافي ،وعلى ذكر الشعر والشعراء نقول : إن باب الشعر الذي عالجه المؤلف قد وفق فيه إلى حد بعيد . فقد ذكر من مسائل الوزن والقافية والموشحات والزجل والأرجوزة وأنواع الشعر مالا بد من معرفته للأديب . ولكنه ذكر « الدوبيت » في الأشكال الشعرية القديمة، والواقع أنه مما استحدث في الأدب العربي من أثر اختلاط العرب بالفرس .

كما عاد هو نفسه فقرر ذلك في هامش صفحة ٩٤ .

أما الوشاح صاحب الموشحة التي مطلعها :

ما للمـولَه

من سكره لا يفيق

فهو أبو بكر بن زهر[3] لا ابن زهير كما ورد في ص ٨٨ . وقد ورد هذا الاسم

---

(١) ص ١٣٥ . (٢) ص ٩٠ .

(٣) انظر كتاب «أزهار الرياض في أخبار عياض» من مطبوعات بيت المغرب جـ ٢ ص ٢١٠

محرفا كما أورده المؤلف في مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٥ من الطبعة الثالثة في المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٩٠٠ . والتصويب الذي ذكرته عن كتاب « نفح الطيب » للمقري جزء ٤ — صفحة ١٩٧ من طبعة المطبعة الأزهرية المصرية ، وعن كتاب «أزهار الرياض في أخبار عياض» طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ج ٢ صفحة ٢١٠.

والأستاذ رئيف ، يتمنى على الشاعر العربي الحديث (لو أقام هيكل قصة ملحمية من أجزاء القصص العربية الكثيرة التي تصلح لهذا الغرض ، كقصة عنترة وغيرها ، وحشد لها أبطالا يمثلون ما شاء من أخلاق وقيم ، وافترض لهذه الأخلاق والقيم آلهة ميثولوجية تتقمصها وتدخل في سير وقائع القصة) .

وعجب جداً أن تفرض آلهة ميثولوجية انقضى زمانها من بعيد لملحمة عربية . وإذا كانت الملحمة اليونانية قد أنزلت الآلهة من سماواتهم وأشركتهم مع البشر وأشركت البشر معهم في إدارة المعارك وتدبير المعايش وتخطيط المسالك ، فذلك كان اعتقاد عصرهم وإيمان زمانهم . أما اليوم فما حاجتنا إلى إحياء آلهة أماتتهم ثلاثة الأديان ؟؟ على أن فكرة الآلهة عند اليونان غيرها عند عرب الجاهلية في أيام عنترة وغيره من الأبطال . فقد كان آلهة اليونان يطيرون في الجو ويغوصون في البحر ويضربون في الأودية . أما أوثان العرب فكانت قارة قاعدة تفد إليها الركبان ، ويقدم لها في مكانها القربان ...

***

أما لغة المؤلف فسليمة رفيعة ، يتخير الكلم الفصاح ويؤثرها على دارج الكلام ، حتى لقد كان ذلك طابع كتابه في جملته . وأسلوبه يحمل معانيه في رصانة لا تهرجها ألفاظ . ولكن اللفظ والمعنى عنده على قدر . فما كان كتابه إنشاء أجوف ولا أفكار جافة ، ولكنه فكرة وإنشاء ، ومعان وأداء . ومن هنا كان كتاب « الدراسة الأدبية » جملة من البحث العميق ، وقطعة من الأدب الرقيق .

وأشهد ما عثرت في الكتاب على لفظة عامية ، إلا لفظة « أسياد » ويقصد المؤلف « سادة » جمع سيد . فهو يقول في صفحة ٦٤ :« وكان أبو تمام من أسياد هذا الفن» ويقول في صفحة ٩١ : «أسياد النظم» . وقد خطأها المرحوم اليازجي . فالأسياد جمع سيد بوزن عيد وهو الذئب ، أما السيد من السيادة فيجمع على سادة .*

أما رسم الحروف أو « الأملاء » فقد أهمله المؤلف من حسابه ،حتى شاعت في

* انظر مجلة الضياء و « لغة الجرائد » لإبرهيم اليازجي ص ٥١ — الطبعة الأولى بمطبعة المعارف سنة ١٣١٩ هـ

الكتاب أغلاط الرسم شيوعاً ما كان له أن يكون في كتاب أدبي .

ومن أخطاء الرسم في هذا الكتاب « طال ظمأك ياوارد السراب » ص ٦٠ وصواب رسمها « ظمؤك » . و « تفاجئنا حين نقرأها » ص ٧٣ وصوابها « تقرؤها » وقد وقع مثله في ص ١٧٩ سطر ١٨ . وفي ص ٢٠٥ « وعن ظمأها » وصوابها « ظمئها » . وفى ص ٢٠٦ « إنشاء الله » وهي من أقبح أخطاء الرسم الفاشية بين العوام ، وصوابها « إن شاء الله » بفصل حرف الشرط « إن » عن فعل الشرط « شاء » . ولا أدرى أعلى المؤلف يقع وزر ذلك أم على الأستاذ عمر فاخوري الذي نقل الفصل الأخير كله عن أحد كتبه . على أن ذلك ليس بمانع أن يحتل كتاب (الدراسة الأدبية) مكانه الكريم في المكتبة العربية الحديثة .

محمد عبد الغني حسن

التعريف

محمــــد عبده

تأليف فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق
١٣٦ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

يشتمل هذا الكتاب على سبع محاضرات كان الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق قد ألقاها سنة ١٩١٩ م في الجامعة الشعبية التي كان من أعضاء مجلس إدارتها . وهذه الجامعة الشعبية قد أنشأها الكونت ده بروزور مندوب روسيا في صندوق الدين مع فريق من المصريين والأجانب لتكون مثابة لمن تعوقهم أعمالهم عن متابعة الدراسة في المعاهد العالية أثناء النهار . وقد دعاه لإلقاء تلك المحاضرات ما لاحظه من جهل الشباب بمنزلة الأستاذ الإمام وأثره العظيم في النهضة الحديثة ، ورمى بها كما يقول إلى (تمثيل صورة صحيحة من أخلاق الشيخ ومعارفه ومذاهبه في الإصلاح ، مع بذل الجهد فى بيان العوامل التي كونت كل ذلك وأثرت في نموه وتطوره من البيئة والتربية) . لم ينشر الأستاذ الأكبر هذه المحاضرات وإن كان قد نشر بعدها لمناسبات خاصة فصولا مختلفة في الصحف والمجلات عن مذاهب الأستاذ الإمام وآرائه في الإصلاح

وأثر المرأة في حياته . وظلت تلك المحاضرات مخطوطة لا ينتفع بها إلا خاصة الخاصة من تلاميذ الأستاذ الأكبر ومريديه ، حتى جاء الأستاذ عثمان نجاتي فاستأذنه في نشرها ليعم الانتفاع بها ، فأذن له وكان هذا الكتاب . ومما يجعل لهذا الكتاب قيمة فذة أن الأستاذ الأكبر قد أسعده الحظ بالتلمذة للأستاذ الإمام ، فهو عند ما يكتب عنه يكتب كتابة من قد خالطه عن كثب ، ولمس بنفسه عظمته ، وأدرك بفكره سر نبوغه وتبين ذكاءه الوقاد وعلمه الفياض ، وتعرفت روحه إلى تلك الروح السامية التي أشعت على من حولها من نورها الباهر وسناها الوهاج وأشاعت اليقظة والمعرفة في العقول والقلوب والضمائر فأيقظتها من سباتها ، وأشعرتها بعزتها وكرامتها ، وجعلتها تهدف إلى المثل الأعلى .

تحدث الأستاذ الأكبر في الفصل الأول عن نشأة الأستاذ الإمام ودراسته . وتحدث في الفصل الثاني عن حياته في الجامع الأزهر ، وعرض بهذه المناسبة لتاريخ الأزهر ، ولا سيما في العهد الذي كان الإمام فيه مجاوراً ، فشرح حالة الأزهر العلمية وبوادر الإصلاح التي بدأت تلمع في أرجاء الأزهر ، وكان الإمام فى هذه المرحلة يميل إلى التصوف بتأثير خاله في بلده ، وبتأثير أساتذته بالأزهر ، وكان لهذا الميل أثر كبير في طريقته العلمية وإنتاجه البياني ، ولم يصرفه عن هذا الاتجاه إلا اتصاله بالسيد جمال الدين الأفغاني سنة ١٢٨٧ هـ . وتحدث الأستاذ الأكبر في الفصل الثالث عن بوادر الحركة النظامية في الأزهر ، وقد ظهرت هذه البوادر بفضل نشاط العلماء الممتازين في الأزهر ، كالشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيوني ، وأمثالهما من العلماء . وفي الفصل الرابع تحدث الأستاذ الأكبر عن نضوجه العلمي ودعوته إلى الإصلاح فشرح ما جرى له مع الشيخ عليش ، وكيف خرج من مجلسه مغيظاً محنقاً عاري الرأس ، لأنه فيما يقال رجح مذهب المعتزلة على مذهب الأشعرية . وفي الفصل الخامس تحدث الأستاذ الأكبر عن الأستاذ الإمام في ميدان التدريس والصحافة . وفي الفصل السادس تكلم الأستاذ الأكبر عن مبادىء الأستاذ الإمام الوطنية ومنهجه في الإصلاح . وتحدث في الفصل السابع عن الإمام والثورة العرابية .

وفي كل هذه الفصول دراسة عميقة مفصلة لحياة الأستاذ الإمام تجلو حياته بطريقة جميلة، وتفصح عن آرائه ونزعاته وتبين أثره القوي في النهضة الحديثة التي كان طيب الله ثراه من أبرز أعلامها وأعظم المجاهدين في سبيلها .

ولنا أعظم الرجاء في أن يتفضل فضيلة الأستاذ الأكبر مشكوراً بإصدار جزء ثان يكون متمماً لهذا الكتاب ، يفصل فيه القول في حياة الأستاذ في المنفى ، وتحريره

لجريدة العروة الوثقى ، وزيارته لمدينة لندن ، وما دار بينه وبين عظمائها من أحاديث رائعة ، وعن حياته في بيروت وفي مصر منذ أن عاد إليها إلى أن وافاه أجله ، فيتحدث عن عمله في القضاء ، ورأيه في إصلاحه ، وعمله في الإفتاء ، وفي مجلس شورى القوانين ، ومجهوده العظيم في الجمعية الخيرية وجمعية إحياء الكتب العربية ، ودفاعه عن الإسلام ، ومنزلته بين الزعماء والمصلحين ، إلى غير ذلك من المباحث التي تجعل الكتاب بجزأيه مرجعاً هاماً فيه كل الغناء .

الملك

ديوان شعر للأستاذ محمود حسن إسمعيل

١٩٢ صفحة من القطع المتوسط . شركة فن الطباعة . القاهرة ١٩٤٦

يعد هذا الديوان قيثارة العواطف التي تزخر بجيشانها جوانح الشعب المصري من الولاء الخالص ، والحب العميق ، نحو تاجها المفدى ، وعاهلها المرموق ، أوقع أغاريدها الشاعر كلما هزته الدواعي الكريمة ، وأثارت نشوته البواعث الحبيبة ، فلم يكد يتألق في آفاق الوادي سنا عيد ميلاد المليك . حتى يصدح الشاعر هاتفاً :

نور من الله ترعاه العنايات هاتوا أغانيكم في حبه هاتوا

ويقبل موكب عيد الجلوس ، فيردد :

منك الربيع ومني اللحن والوتر فلا علي إذا بالشدو أنهمر
قوافل من أغان ، أنت ملهمها وأنت فيها الهوى ، والسحر ، والذكر

وتشن — الملاريا — غارة عنيفة على الصعيد فيهب — الفاروق — لإغاثة شعبه ، ومسح دموعه ، وتخفيف أوجاعه ، ويؤثر أن يشهد عيد ميلاده بين رعاياه البائسين على شهوده في عاصمة ملكه ، فيقول له الشاعر :

فاروق ! حبك سحر لم تدع يده في الشاطئين حشا إلا وقد ذابا
قال الصعيد ــ وقد كرمت ساحته نزلت بالركب أرواحاً وألبابا

وتتوالى أيادي الفاروق بيضاء في عنق شعبه ؛ وتتابع نعمه على واديه ؛ فها هو ذا يواسي « الإسكندرية » بعد غارة مدمرة روعتها ؛ ويتولى بعطفه « يوم الفقير » فيستوحي الشاعر كل هذا أعذب الألحان ، ويستلهمه بياناً عاطفياً مصفى . هذا هو المحور الذي دارت حوله شاعرية الشاعر . أما من ناحية الفن والصناعة ، فلا تكاد

ترى في هذا الديوان هذا اللون من التعبير الذي يخمد حرارته الغموض ، أو ذلك الاضطراب الذي يجعلك لا تهتدي إلى وجه الرأي فيه ، فالشاعرية الموهوبة هي التي تستنزل المعنى مهما شرد وحلّق ، وتضعه بين يديك في الصورة التي تبرز ملامحه ، أما أن تترك المعنى بعضه في النور ، وسائره في الظلام ، أو أن تقتنصه ولا تستطيع أن تلبسه ثوبه اللائق به ، فهذا ما يجرح الشاعرية ، والديوان الذي بين أيدينا قد برئ إلى حد كبير من هذه الشوائب .

رسالة في مُعْطيات الوجدان البديهية

Essai sur les Données Immédiates de la Conscience

تأليف هنري برجسون وترجمة كمال يوسف الحاج

١٤٢ صفحة من القطع الكبير . شركة النشر للآداب الفرنسية . بيروت ١٩٤٥

في الشرق العربي حركة مباركة ترمي إلى نقل أمهات الكتب الأجنبية إلى اللغة العربية ، وليس من المستغرب أن يتفق أكثر من شخص على ترجمة كتاب واحد ، أو نقل مؤلفات عالم واحد . فمنذ بضعة أشهر ظهرت في مصر ترجمة كتاب برجسون المشهور « منبعا الأخلاق والدين » ولكنها ترجمة غير موفقة . والنقل أشق من التأليف لأنه يقيد الحرية ، ويتطلب الدقة ، مع التمكن من اللغتين .

وضع مصطلحات جديدة أعظم خدمة يؤديها النقلة إلى اللغة العربية . ولقد أحسن المترجم صنعاً بأن أثبت في آخر الكتاب فهرساً بالمصطلحات الفلسفية . ويعنينا في هذا المقام أن ننظر في بعض هذه المصطلحات من حيث صحة الآداء ، دون التعرض لفكرة المؤلف أو دقة الترجمة .

ولعلك — إن كنت تعرف الفرنسية — قد فطنت إلى الاختلاف في ترجمة عنوان الكتاب . والصواب « المباشرة » بدلا من البديهية . والفرق بينهما هو كل شيء في فلسفة برجسون . وخلاصة منهجه أن اللغة التي نضطر إلى استعمالها في التعبير عن أفكارنا تضللنا ، لأنها تستعير من المادة والمكان ما تؤدى به حقائق النفس . تقول : ورد هذا في ذهني ، ولفظ « في » يعبر عن المكان ، غير أن الخواطر النفسية لا مكان لها . ولقد انتهى برجسون إلى القول بالاتصال المباشر Intuition بالأحوال النفسية حتى لا تضللنا اللغة عن المعرفة الأصيلة بالظواهر النفسية .

الائتلافية Associationnisme — ما ذكره المترجم بين قوسين من أن الائتلافية هي مبدأ تداعي الأفكار وتسلسل المعاني والخواطر، صحيح. وهذا غير الائتلاف، والصواب مبدأ تداعي المعاني أو الترابطية، واللفظ الاجنبي يدل على معنيين في آن واحد: التداعي والترابط.

الإلهيات Métaphysique — ليست الميتافيزيقا مقصورة على الإلهيات إذ تشمل جميع «ما بعد الطبيعة».

الانعكاسية Réflexe — الصواب الفعل المنعكس، لأن الانعكاس معنى عام يطلق على كل ما ينعكس. والمقصود هنا بالفعل المنعكس اصطلاحاً، حركة عضو من أعضاء الجسم تكون رداً على مؤثر خارجي من غير شعور أو إرادة مثل السعال.

الإيجابية Positivisme — الصواب الوضعية — وهو مذهب فلسفي أول من دعا إليه أوجست كنت.

تناغم Harmonie — الصواب تناسق — في القاموس التنسيق التنظيم، وتناسقت الأشياء بعضها إلى بعض.

مضاعف Multiple — الصواب متكثر أو متعدد، كما في اصطلاح المناطقة.

مفهوم Concept — الصواب تصور أو المعنى الكلي — أما مفهوم فهي Compréhension. ولكل لفظ مفهوم وما صدق، المفهوم مجموع صفاته، والماصدق أفراده الذين ينطبق أو يصدق عليهم في الخارج. مثال ذلك «إنسان» معنى كلي Concept له مفهوم هو حيوان ناطق، وما صدقاته أفراد الإنسان.

ابن باجة والفلسفة المغربية

تأليف الدكتور عمر فروخ

٥٨ صفحة من القطع المتوسط. مكتبة منيمنة. بيروت ١٩٤٥

هذه إحدى بضع عشرة رسالة في الأدب والتاريخ والفلسفة، إذ كتب المؤلف قبل ذلك عن ابن طفيل وابن رشد والفارابي وابن سينا وإخوان الصفا وغيرهم. وهذه الرسالة على صغر حجمها جيدة في بابها. مراجعها كثيرة أثبتها المؤلف في الصدر، كما رجع إلى مخطوطات لم تنشر بعد. وقد نشر في آخر الكتاب عدة صفحات عن مخطوطة برلين، وكذلك المقالة الأولى من كتاب «تدبير المتوحد»، وهي مخطوطة

بالقاهرة . ويجنح المؤلف إلى التحقيق العلمي ، ويرمي إلى خدمة الحقيقة وإبرازها وكشف الستار عن فيلسوف مشهور مغمور هو : أبو بكر محمد بن يحي الصائغ المعروف بابن باجة . والباجة بلغة الفرنجة الفضة .

وذكر الدكتور عمر أن المخطوطات الموجودة من قلم ابن باجة ثلاث : الأولى مخطوطة برلين ، ثم مخطوطة بغداد ، وثالثة بالقاهرة . وقال عند عرض نماذج فلسفته : « وعسى أن أستطيع أنا أو يستطيع غيري أن ينشر ما تبقى أو ما يمكن أن يكتشف بعد الآن » . ويحسن بالباحث عن مخطوطاته المفقودة أن يتجه إلى مكتبات المغرب الخاصة ، ولعل الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب باشا وزير القلم في تونس قد وقع على شيء من ذلك . ولدى الأب موراتا في مدريد — وقد انقطعت أخباره منذ الحرب الأهلية الإسبانية — نسخة مصورة من رسالة « الاتصال » لابن باجة ، وأكبر الظن أنها منقولة عن مكتبة لندن . وقد لخص ابن رشد هذه الرسالة في كتاب النفس كما ذكرنا ، وقد نعود إلى تفصيل الكتابة عنها لما لها من أهمية في الفلسفة ، إذ توضح طريقة اتصال العقل الفعال بالإنسان .

تكلم المؤلف في لمحات قصيرة عن المغرب ومعالم تاريخه منذ فتح شمال إفريقية والأندلس إلى أن طرد العرب منه . ثم بين كيف انتقلت الفلسفة إلى المغرب عن طريق الرحلة إلى المشرق ، وترجمة بعض الكتب اليونانية رأساً .

ثم لخص بعد أن ترجم لابن باجة آراءه الفلسفية، وختم الرسالة بعرض نماذج منها. ولعل المؤلف الفاضل يفي بما وعد فيعمل على نشر هذه المخطوطات بأكملها .

صدى النقد

الجانب الإلهي من التفكير الاسلامي

رد على نقد بقلم الدكتور محمد البهي

تناول الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد الأهواني تقديم « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » ونقده لقراء مجلة « الكتاب » الغراء . على أني أود أن أعلق على ما لاحظه، لأنه يتعلق بآراء ربما لا يرجع إليها قارىء المجلة في الكتاب الذي تعرض له الأستاذ الفاضل بالنقد والتقديم . ويمكن تقسيم نقده إلى قسمين : قسم يتعلق بالشكل ، وآخر يتعلق بالموضوع .

١ — ففيما يتعلق بالشكل يرى الأستاذ الناقد :

أنه كان يحسن تغيير عنوان الكتاب الذي خرج به وهو « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » ، واقترح أن يكون بدله : « الثقافات الأجنبية التي أثرت في التفكير الإسلامي » . واستحسن هذا التغيير لأن كثيراً من فصول الكتاب تناول بالمعالجة والعرض مصادر الثقافات المختلفة للعناصر الأجنبية التي اختلطت بالمسلمين .

وحقاً إن عرض هذه المصادر شغل حيزاً كبيراً من حجم الكتاب ، ولكن لا لغاية ادعاء تأثيرها في التفكير الإسلامي ، وهو المعنى الذي يوحي به العنوان المقترح من الأستاذ الناقد ؛ بل المقصود من عرض هذه الثقافات تحقيق الموقف الذي يجب أن يقفه المؤرخ الثقافي إزاء رأيين متقابلين فيما يختص بالتفكير الإسلامي : أهو وليد العقلية الإسلامية ، أم ترديد فحسب للثقافات الأجنبية المختلفة من دينية وفلسفية ، التي اختلط أربابها بالمسلمين اختلاطاً سمح لهم أن يكونوا يوماً ما أساتذتهم ؟ و هذا الموقف حدده الكتاب قبل عرض أي موضوع من موضوعاته ، وأشار إليه في مقدمته (ص ٦) بقوله : « والمؤرخ الثقافي في عرضه للحياة العقلية الإسلامية يجب أن يقف من دعوى محض تأثر المسلمين بغيرهم من أرباب الثقافة الإغريقية أو أرباب الديانات الشرقية ، كما يجب أن يقف مما يقابل هذه الدعوى — من أنه وليد البيئة الإسلامية — موقف الناقد المجرد عن الغرض ، والعارض لتيارات هذه الحياة كما هي دون أن يضع في مجاريها تحويراً ، أو أي تغيير على العموم » .

ولما كانت هناك في الثقافات الأجنبية التي اختلط أصحابها بالمسلمين مواطن متعددة هي مظان لادعاء تأثير هذه الثقافات في التفكير الإسلامي ، رأى الكتاب أن يعرض لهذه المواطن في شيء من التفصيل ويوازن بينها وبين ما ينسب إلى المسلمين ، حتى إذا كان نهاية العرض والموازنة الحكم على هؤلاء بالتأثر بغيرهم أو بعدم التأثر بهم كان الأسلوب العلمي وحده في البحث هو أساس هـذا الحكم في أحد شقيه ، وليست العاطفة أو التقليد . ولو جارى الكتاب الأستاذ الناقد في العنوان الذي فضله لكان متحيزاً من أول الأمر لرأي معين في تفكير المسلمين ، وكان جديراً به حينئذ أن يكون ترديداً وتقليداً لبعض ما قيل في التفكير الإسلامي وليس تاريخاً له نفسه . وهدف الكتاب هو هذا المعنى الثاني دون الأول .

٢ — أما ما يتعلق بنقد الموضوع فيمكن إرجاع ملاحظات الأستاذ الناقد إلى ثلاثة أنواع :

(أ) النوع الأول آراء وردت في الكتاب « ليست بصحيحة » في نظر الأستاذ الناقد ، أو هي « أبعد الأمور عن الصواب » على حد تعبيره . وهي :

١ — أن الكتاب جعل للتفكير الإسلامي الإلهي « مرحلة عزلة كان التفكير فيها عربياً خالصاً » . وعدم صحة هذا في نظر الأستاذ الناقد لأن « العرب في الجاهلية عرفوا النصرانية واليهودية والصابئية والمجوسية ، ولأن القرآن اشتمل على إشارات كثيرة لذلك ، وفيه محاجة للنصارى واليهود ورد على مزاعمهم ، فكيف إذن أن التفكير الإسلامي كان في عزلة ؟ » . هكذا ينتهي الأستاذ الناقد إلى هذا الاستفهام الإنكاري .

والأستاذ يسمح لي أن ألفت نظره إلى أن كتاب « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » لم يوضع لمعالجة التفكير العربي على الإطلاق ، كما لم يكن من أهدافه بيان ما في القرآن الكريم من معارف حول الديانات الأخرى ؟ بل هدفه — كما هو واضح من عنوانه — التأريخ للتفكير الإسلامي . بهذا الوصف نشأ في جماعة معينة من العرب هي التي أسلمت منهم . وتفكيرهم الإلهي ، أو تفكيرهم حول العقيدة ، واختلافهم في الرأي فيها ، جاء متأخراً عن إسلامهم وعن تمام الدعوة الإسلامية وبعد وفاة صاحبها عليه السلام؛ جاء بعد أن خفت حرارة الإيمان الأول بها. إذ « سنة الجماعة الإنسانية أنها لا تشرّح عقيدة من العقائد ولا تسلك فيها ضروب التفهم المختلفة إلا إذا خفت حرارة الإيمان بها ، وقرّبت ما فيها من مثل أعلى إلى مستوى الإنسان . واللحظة التي تصون فيها الجماعة مصدر العقيدة عن المناقشة والتفهم ، وترتفع بها عن مقاييس المعرفة الإنسانية هي دائماً الفترة الأولى للعقيدة ، فترة الإيمان القوي التي يؤخذ فيها الإنسان بما اشتملت عليه من مبادىء ومثل دون تلكؤ في الطاعة ، ودون ترو في التخلص من تبعة عدم المتابعة ، ودون أن يدخل شخصه في تحديدها . فموقف الجماعة الإنسانية من عقيدة اعتقدتها يتمثل دائماً في مظهرين متواليين : في مظهر الإيمان القوي ، ومظهر التفهم والتعقل . وكلما خفت حرارة الإيمان برزت ناحية التفهم للعقيدة ، وبالأحرى ناحية الاختلاف في فهمهما » .[1]

ومع كون اختلافهم في الرأي حول العقيدة يعد عنواناً على خفة حرارة الإيمان بالدعوة فإن إيمان المختلفين بالإسلام وبالدعوة إليه في بدء الاختلاف كان أقوى من غير شك من إيمان من أتى بعدهم وقلدهم في اختلافهم : « خير أمتي القرن الذين يلوني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته »[2]

---

(١) ص ٣١ ، ٣٣ من الكتاب المنقود . (٢) حديث شريف .

وإذا كان إيمان المختلفين في بدء الاختلاف لا يزال قوياً وإن اعتزازهم بالإسلام لا يزال قوياً كذلك . وإحدى نتائج اعتزازهم بالإسلام أنهم يرون أنفسهم في غير حاجة معه إلى الاستعانة بمصدر آخر من مصادر الإرشاد والتوجيه . والرواية التي تنسب إحراق مكتبة الإسكندرية الفلسفية إلى عمرو بن العاص بناء على رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وإن لم تكن صحيحة ، لكنها تصور اعتزاز المؤمن بمصدر عقيدته والاكتفاء الذاتي بدون تطلع إلى غيره ، وإن ذاعت شهرة هذا الغير في الهداية والعصمة في الرأي . وهذه الرواية يحكيها صاحب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » على وجه : أن حديثا جرى بين فيلسوف من فلاسفة مدرسة الإسكندرية وأسقفا من أساقفة كنيستها ، هو يحي النحوي ، وبين عمرو بن العاص مندوب عمر بن الخطاب في مصر ، بعد فتحها ، خاصا بمكتبة الإسكندريه . فيحي استأذن عمرو بن العاص بعد كلام طويل في أن يترك له كتب الحكمة حيث لا نفع للمسلمين بها ، فأجابه بأنه لا يمكنه أن يأمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكتب إلى عمر وعرفه رغبة يحي واستأذنه ما الذي يصنع فيها ، فورد عليه كتاب عمر يقول فيه : « وأما الكتب التي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله غنى عنها ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها » . فشرع عمرو في تفرقتها على حمامات الإسكندرية وإحراقها في مواقدها* إلخ . والجماعة الإسلامية باختلافها في الرأي حول العقيدة ، واعتزازها مع ذلك بالإسلام والرجوع إلى مصدره وحده في البحث عن الرأي دون تطلع إلى أجنبي عنه وهو حالها فيما سماه الكتاب مرحلة العزلة ، يقال عنها حينئذ : إن لها تفكيرا إسلاميا في العقيدة لم تستعن فيه بدخيل على الإسلام ، كما توصف بأنها في تفكيرها هذا كانت في عزلة عن التأثر فيه بغير مالها من مصدر في التوجيه والإرشاد ، وكما يقال أيضاً إن تفكيرها في هذه المرحلة كان عربياً (أو إسلامياً) خالصاً .

حتى إذا ضعف اكتفاؤها بالإسلام فيما يجري فيها من اختلاف ، ورغبت إلى الأجنبي في الأخذ عنه والتعرف بثقافته للانتفاع بما تأخذ وما تعرف في أن يدعم كل فريق فيها رأيه ، ويوجهه ليظهر به على مخالفه وهو حالها فيما سماه الكتاب مرحلة منذ الاختلاط ، يقال عنها حينئذ إن لها تفكيراً إسلاميا في العقيدة استعانت فيه بدخيل على الإسلام ، كما توصف بأنها في تفكيرها على هذا النحو لم تكن في عزلة عن مظنة التأثر فيه بغير مالها من مصدر في التوجيه والإرشاد ، بل اختلطت فيه بالغير وربما تأثرت بثقافته فيه .

* ص ٢٣٣ طبعة الخانكي سنة ١٣٢٦ هـ بمطبعة السعادة بمصر .

وهكذا يصح أن يكون هناك اختلاط بين المسلمين وغيرهم من أرباب الثقافات الأجنبية ، ومع ذلك يكون للمسلمين تفكير يقال في شأنه إنه نشأ في مرحلة عزلة ، إذا كان هذا الاختلاط لم يتعد حد المجاورة ولم يصبح مظهراً على تقريب المسلمين لأرباب هذه الثقافات للانتفاع بثقافتهم ومعارفهم .

فأيام الخلفاء الراشدين ، والأمويين تقريباً اعتبرها الكتاب مرحلة عزلة للتفكير الاسلامي الإلهي ، ومنذ قيام الدولة العباسية تقريبا اعتبرها مرحلة أخرى سماها مرحلة منذ الاختلاط . وفي كلتا المرحلتين كان المسلمون يساكنون غيرهم من أرباب الثقافات الأخرى ، الدينية وغير الدينية ، ولكن مع هذا لم يقرب المسلمون قطعاً غيرهم في المرحلة الأولى لينتفعوا بثقافتهم ، بل إن وجد اشتباك معهم كان لأغراض أخرى غير ثقافية وغير توجيهية .

وإلا ، إذا كانت معرفة العرب في الجاهلية للديانات النصرانية واليهودية والمجوسية والصابئية مدعاة للتأثر بها حتما في تفكير من أسلم منهم في عقيدته الإسلامية ، فنحن لا نعثر أبدا على فترة للجماعة الإسلامية تكون معرفتهم الدينية فيها مرآة صادقة لإسلامهم الجديد . وأظن أن الأستاذ الفاضل لا يرضى أن يصل به منطقه إلى هذه النتيجة . ولكنه منطقه ، ولكن هذه إحدى نتائج هذا المنطق .

٢ — وأن الكتاب يذكر أن مشكلة مرتكب الكبيرة هي التي شغلت التفكير الإسلامي في مرحلة العزلة ، وتفرعت عنها مسألة الإمامة ، والأستاذ الناقد يرى الصواب في أن مسألة الإمامة أسبق في الظهور من مسألة مرتكب الكبيرة ، ويعتمد في هذا التصويب على نص للأشعري في كتابه « مقالات الإسلاميين » ، وهو : « أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم اختلافهم في الإمامة » .

والكتاب في ذكره الخلاف بين المسلمين في مشكلة مرتكب الكبيرة لم يذكره على أنه كان يدور حولها بهذا الاسم من أول أن عرف خلاف بين المسلمين في الرأي حتى يصح أن يقال : إن الإمامة كانت أسبق في الظهور على مرتكب الكبيرة ، أو العكس . ولو ذكر الأستاذ الناقد فقرة الكتاب كاملة لما كان هناك مجال للتصويب أو الاعتراض على العموم ، والفقرة في نصها الكامل : « وإلى هنا نجد أن المشكلة التي شغلت التفكير الإسلامي في هذه الفترة — فترة العزلة — هي مشكلة مرتكب الكبيرة في صورها الجزئية أول الأمر ، ثم في صورة عامة آخره* » . ومعنى ذلك أن خلاف المسلمين كان يدور أول الأمر « حول حوادث جزئية بأسماء معينة مثل قتل عثمان وواقعة

---

* ص ٤٢ من كتاب الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي

الجمل وواقعة صفين * » ، ثم أخذ النزاع بمضي الزمن يبتعد عن أشخاص هذه الحوادث ويدور حول اسم عام لها هو مرتكب الكبيرة . . فإطلاق اسم مرتكب الكبيرة إذن على هذه الأحداث الجزئية في البيئة العقلية الإسلامية كان متأخراً عنها ، والخلاف حولها كان متقدماً زمنياً على تسميتها بهذا الإسم . ولو رجع الأستاذ الناقد إلى ص ٣٨ من الكتاب وقرأ : « وبهذا أصبح لفرقة الخوارج رأي معين في تكييف الحوادث التي وقعت داخل الجماعة الإسلامية ، وهي قتل عثمان وواقعة الجمل وواقعة صفين — وهي الأحداث التي أدرجت فيما بعد تحت اسم مرتكب الكبيرة — وأصبح لها كذلك رأي آخر معروف في الإمامة ، وربما يكون رأيهم في الإمامة مرتبطاً برأيهم في تكييف هذه الحوادث كتفرع عنه أو كأساس له ، وعلى كل حال تكييفهم الخاص بهم لهذه الحوادث ذو صلة وثيقة برأيهم في الإمامة ونظرتهم الخاصة إلى الإمامة ذات صلة وثيقة بحكمهم على تصرفات الإمام » . لو رجع إلى هذا وقرأه لعرف أولاً أن الأمرين اللذين عقد الكتاب بينهما الصلة هما الإمامة من جانب ، والأحداث المعينة المشخصة من جانب آخر ، التي أخذت بعد تطور التفكير في هذه الفترة اسم مرتكب الكبيرة ، وليسا هما الإمامة ومرتكب الكبيرة بهذا العنوان ، ولعرف ثانياً أن الكتاب لم يقطع بأن أحد الأمرين على التعين كان أساساً للآخر وأن أحداً بالذات تقدم زماناً على الآخر ؛ إذ ذلك لم يقصد إليه ، إنما الذي قصده هو بيان الصلة في التفكير عند المسلمين بين المشكلتين فحسب .

٣ — وأن الكتاب يرى أيضاً أن الخلاف في القدر من مسائل المرحلة الثانية ، وهي مرحلة الاختلاط والنقل وأنه بدعة طرأت على التفكير الديني . والأستاذ الناقد يرى الصواب في مسألة القدر أنها من مسائل مرحلة العزلة — التي أنكرها فيما سبق — وليست بدخيلة على الجماعة الإسلامية ، لأن الأستاذ أحمد أمين ، كما يذكر الأستاذ الناقد ، يرى خلاف ما ذهب إليه الكتاب في هذه المسألة وينظر إليها على أنها صادرة من المسلمين أنفسهم ، ولأن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق يرى أن مسألة القدر كانت أول ما خاض فيه المسلمون وتجادلوا من مسائل الاعتقاد ، ولأن دي بور يقول : إن أول مسألة قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هي مسألة الاختيار . ويعقب الأستاذ الناقد بعد سرد هذه الآراء بقوله : « يتضح لنا من ذلك أن فتنة القدر ظهرت في أيام المتأخرين من الصحابة ، أي قبل مرحلة الاختلاط والنقل . وعلى هذا أجمع المؤرخون قديما وحديثا » .

---

* ص ٣٨ من الكتاب نفسه .

ولو قرأ الأستاذ في الكتاب الذي نحن بصدده : « ولكن هل أدى الخلاف في مرتكب الكبيرة إلى الخلاف في : من مصدرها في الواقع ونفس الأمر ، وفي الفعل على العموم ، أهو من الله أم من الأنسان ؟ وهل لنا أن نتصور أن التفكير الاسلامي ، في الوقت الذي نؤرخ له — مرحلة العزلة — اندفع بعد مناقشة الكبيرة إلى السؤال عن مصدر الأفعال والتصرفات في دائرة الإنسان ، لأن تحديد مصدرها يعين على فهم الحكم على صاحب الكبيرة ، فإن كان هو فاعلها حقيقة فأمره واضح ، وإن كان الفعل كله لله فمؤاخذة من وقعت على يده بالحكم عليه بالكفر تجاوز لحدود الروية فى الأحكام ؟

إذا تصورنا أن الخلاف فى مرتكب الكبيرة في هذه الحقبة أدى إلى التساؤل عمن تقع منه الأفعال في دائرة الإنسان : أهو الإنسان نفسه أم الله سبحانه وتعالى ، كانت قولة معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الأسواري بعدم إسناد الشر والخير إلى القدر ، وكان الرأي الآخر — المقابل له — وهو رأي مرجئة القدرية القائل بعدم الاختيار ، مما أملته طبيعة التفكير الإسلامي ودفعت إليه حوادث الوقت ، وكانت مسألة القدر نفياً أو إثباتاً ، من الإنتاج المحلي للبيئة الإسلامية ، وعندئذ تضاف القدرية إلى الفرق الأسلامية التي نشأت فى هذه المرحلة — مرحلة العزلة — ويضاف القول في القدر إلى مسائل هذه المرحلة كذلك .

وإذا لم نتصور هذا الانسياق كان القول بالقدر ، أي بإنكار نسبة الخير والشر في دائرة الإنسان إلى القدر ، كالقول بالجبر ، بدعة طرأت على التفكير الإسلامي الديني ، ودخلت مع دخول العناصر غير الإسلامية ، وظهرت عندما قبلت البيئة الإسلامية هذه العناصر وأصبح لها فيها اعتبار وتقدير . والخلاف في القدر بناء على هذا من مسائل المرحلة الثانية ، وهي مرحلة الاختلاط والنقل (ص ٤٣ ، ٤٤) » . لو قرأ ذلك لعرف أن الكتاب لم يقطع برأي في كون مسألة القدر مما أملته طبيعة التفكير الإسلامى أم هي دخيلة عليه ، إذ أنه ذكر في شأنها : إن كانت مما أملته طبيعة التفكير الإسلامي كانت من مسائل المرحلة الأولى ، وإن كانت دخيلة كان شأنها كشأن كل دخيل على الجماعة الإسلامية فى أن قبوله فى البيئة الإسلامية كان في المرحلة الثانية ، وهي مرحلة منذ الاختلاط . لأن الاختلاط — كما سبق — لم نرد به الجوار في المكان ، بل أريد به رفع الحرج عن محاولة الأجانب التأثير بثقافتهم المختلفة في المسلمين مع استعداد المسلمين نفسياً لقبول هذا التأثير ، ومن غير شك هذه الحال من الأجانب لم تكن وقت شعورهم بالضعف والضعة

واعتداد المسلمين بالعروبة وشعورهم بعدم الحاجة إلى غير الإسلام ، وذلك الوقت هو ما سميناه بالمرحلة الأولى أو مرحلة العزلة .

على أنه من جهة أخرى إذا كانت مسألة القدر — كما يذكر الأستاذ الناقد — هي أول ماخاض فيه المسلمون بالجدل والخلاف كان ذلك مناقضاً لما حاول إثباته من قبل نقلا عن الإسفرائيني فى كتابه « التبصير في الدين » وعن الأشعري في كتابه « مقالات الإسلاميين » — من أن مسألة الإمامة هي أول ما حدث فيه اختلاف بين المسلمين .

وأود أن أقول للاستاذ الناقد بشأن مخالفة رأي في الكتاب لرأى آخرين أجلاء : إن هذه المخالفة لا تدل في أصول البحث العلمي على أن الصواب حتما في جانب معين والخطأ حتما فى الجانب الآخر المقابل للأول ، إنما معيار التصويب والتخطئة في الأمور التاريخية الثبت التاريخي نفسه ، وفي الأمور العقلية المقياس المعتبر لدى العقل العام ، وفي الأمور التجريبية المنهج التجريبي المعروف .

وما ذكره الأستاذ الناقد من روايات تاريخية للاستشهاد بها على رأي معين هنا وهناك ناقضت نفسها في إثبات هذا الرأي المعين هنا وهناك .

٤ — وأن كتاب الجانب الإلهي يرى أن « علم أصول الفقه والفقه نفسه ، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة مدينة في تطورها وتنظيمها — إلى حد كبير — للفلسفة الإغريقية في نواحيها المختلفة » . والأستاذ الناقد فيما يتعلق بالفقه وأصوله يذكر — لتخطئة رأي الكتاب السابق — أن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » ناقش الرأي القائل بأن الفقه الإسلامي يرجع إلى مصادر أجنبية . ثم يعقب بعد ذلك بقوله : إنه يرى أن الفقه الإسلامي نشأ نشأة إسلامية بحتاً ، ولم يتأثر بالفلسفة إلا في عصر متأخر ، وأن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يحاولان إحياء مذهب السلف .

وكتاب الجانب الإلهي — كما في عبارته السابقة التي أوردها الأستاذ الناقد — لم يتعرض لمشاكل الفقه ولا مشاكل أصوله من حيث تأثرها بمصادر أجنبية أو نشأتها نشأة إسلامية ، بل الذي تعرض له هو تنظيم الفقه كعلم وتنظيم أصوله كعلم أيضاً وتطورها . فإذا ما ذكر مثلاً أن الفقه في تنظيمه وتطوره متأثر بالفلسفة الإغريقية التي قامت على التحديد في الألفاظ والعبارات ، وعلى استخدام المنطق في الأخذ والرد في البحث ، وعلى الفروض العقلية في الجدل ؛ إذا ما ذكر ذلك لم يقل : إن الفقه الإسلامي

في قضاياه وأحكامه وفي أصول هذه الأحكام تأثر بالفكر الإغريقي والآراء الإغريقية وأخذ عنها قليلاً أو كثيراً .

على أن قول الأستاذ الناقد : « إن الفقه نشأ نشأة إسلامية بحتاً ، ولم يتأثر بالفلسفة إلا في عصر متأخر » يوهم على الأقل أن الفقه في بعض أحكامه وآرائه تأثر بالفلسفة ، ولكن في عصر متأخر فحسب ، الأمر الذي أنكره الأستاذ في محاولته حمل الكتاب في عبارته السابقة على أنه يبغيه .

وفيما يتعلق بعلوم اللغة يرى الأستاذ الناقد : أن « كون علوم اللغة مدينة للفلسفة الإغريقية أبعد الأمور عن الصواب » . ويذكر أن الرأي الذي تضمنه كتاب الجانب الإلهي ، خاصاً بصلة علوم اللغة بالفلسفة في أن الأولى مدينة في تنظيمها وتطورها ، هو لبعض المستشرقين ، وأن الدكتور علي عبد الواحد قد عني بالرد عليهم وتزييف مقالتهم في كتابه « فقه اللغة » .

وهنا أيضاً لم يذكر الأستاذ الناقد ، مع الأسف ، وجهاً لكون ما تضمنه الكتاب في هذا الشأن أبعد الأمور عن الصواب . وما ذكره من « أن الدكتور علي عبد الواحد في كتابه " فقه اللغة " قد عني بالرد على المستشرقين وتزييف مقالتهم » بهذا الإجمال ليس دليلا على خطأ ما ذكر في كتاب الجانب الإلهي خاصاً بتأثير الفلسفة في تنظيم علوم اللغة . إذ ربما تكون الدعوى التي ناقشها الأستاذ الجليل الدكتور علي عبد الواحد غير هذه الدعوى التي تضمنها كتاب الجانب الإلهي . وحتى إذا كان هناك رأي مخالف لما ذكر في هذا الكتاب فمقاييس التصويب والتخطئة — كما ذكرت هنا أول الأمر — ليست في مغايرة رأي لآخر ولا في موافقته له ؛ بل تكون في موافقة الرأي أو مخالفته للأمور الضرورية ، وللمعايير العقلية العامة ، وللتجارب اليقينية ، وللتواتر التاريخي في الرواية ، أو للآثار المادية التاريخية وغير ذلك من الأسس التي تقوم عليها أصول البحث العلمي .

***

(ب) النوع الثاني ، مما يتعلق بنقد الموضوع ، بعض آراء وردت في الكتاب « ليست براجحة » على حد تعبير الأستاذ الناقد . وهو :

أن الكتاب ذكر أن وجود الخوارج كان منذ مقتل عثمان . والأستاذ الناقد يرى « أن هذا ليس براجح ، لأن الفرقة الأولى من الخوارج كانت « المحكمة » وقد كانت في خلافة علي » .

حقا إن وصف الخوارج بالمحكمة كان في خلافة علي ، لكن عدم اتصافها بهذا

الوصف قبل ذلك لا يدل على عدم وجود نواة هذه الفرقة قبل عهد علي ، إذ أنه من غير شك قد خالفت قلة من المسلمين جمهورهم في الرأي بعد قتل عثمان ، وسبب الخلاف هو هذه الحادثة بالذات . والكتاب لم يصر على أن تسمية هذه القلة المخالفة بـ « الخوارج » فضلا عن تسميتها بـ « الخوارج المحكمة » كان قبل خلافة علي . والكتاب نفسه لا يستبعد أن تكون تسمية هذه القلة المخالفة بـ « الخوارج » من رجال علي رضي الله عنه : « ولا يبعد أن تكون تسميتهم بهذا الاسم من رجال علي رضي الله عنه » (ص٣٦).

ولكن « ليس بلازم أن تكون التسمية للمسمى منذ اللحظة التي وجد هو فيها، بل كثيراً ما تكون التسمية — وبالأخص إذا كانت عنواناً ورمزاً لمعنى خاص يعد تمييزاً للمسمى — متأخرة عن وجود المسمى ذاته ، فتسمية هذه الجماعة بالخوارج أيام إمامة علي لا يمتنع أن يكون وجودها سابقاً على البيعة له ؛ قبيل قتل عثمان أو عند قتله » (ص ٣٦) .

* * *

حـ — النوع الثالث ، فيما يتعلق بنقد الموضوع ، آراء وردت في الكتاب « تعوزها الدقة والتحقيق » . والأستاذ الناقد ذكر بعض أمثلة لهذه الآراء التي تعوزها الدقة والتحقيق :

المثال الأول : أن الكتاب جعل أفلاطون صاحب « الكليات » في المنطق . والأستاذ يرى المنطق كله لأرسطو ! .

ويظهر أن الأستاذ يحكم المعنى الشائع في نسبة المنطق لأرسطو . فكثير من القراء ، بناء على هذه النسبة ، يجعل المنطق في وضعه وتنظيمه لأرسطو ، ولكن لو علم أن كفاح سقراط للسفسطائية كان من أجل إثبات « العام » وهو الذي سمي بـ « الكلي » فيما بعد ، ولو علم مع ذلك أن من أغراض فلسفة أفلاطون تأييد سقراط ، فيما ذهب إليه من إثبات « العام » ضد السفسطائية ، بفكرة « المثل » باعتبارها « كليات » من ناحية ، لو علم ذلك لوجد أن نسبة المنطق إلى أرسطو ترجع إليه أولا وبالذات لتنظيمه له ، لا لأنه وضع كل مبادئه* . فأفلاطون ينظر إلى « مثله » باعتبارين : باعتبار ميتا فيزيقي ، وهو أنها حقائق مجردة مستقلة تكون عالماً آخر غير هذا العالم المشاهد ، وأن وجودات هذا العالم ظلال لها ، وباعتبار آخر منطقي ، وهي أنها ليست مشخصة ؛ بل عامة ، أنها « كليات » وليست أفراداً تندرج تحت اسم عام . وعمومها أو كليتها أتت لها من وصفها

* وكتاب « السفسطائية » لأفلاطون من الكتب المؤسسة لعلم المنطق الإغريقي .

بالتجرد والاستقلال . والفرق بين أرسطو وأستاذه أفلاطون في النظرة إلى الكليات هو الفرق بينهما في الأساس الذي قام عليه تفلسف كل منهما : فأفلاطون ، لأنه يرى عالماً آخر غير هذا العالم وسابقاً في وجوده عليه وهو عالم « المثل » ، ينظر إلى هذه المثل ، وهي كليات ، على أنها موجودة قبل هذا العالم ، وبالتالي غير منتزعة منه ، وأن وجودها وجود خارجي ، وأرسطو ، لأنه ينظر إلى هذا العالم نظرة طبيعية ، أي أنه غير مرتبط في وجوده بعالم آخر وراءه ، يرى أن الكليات أمور عامة منتزعة من الأفراد المشخصة في هذا العالم ، وأن ليس لها وجود خارجي مستقل ، ووجودها ذهني فحسب .

المثال الثاني : أن الكتاب ذكر أن أفلاطون جعل أعلى « مثله » مثال الخير . والأستاذ الناقد « يرى أن أفلاطون مضطرب في هذه المسألة : ففي الجمهورية يجعل الخير أعلى المثل ، وفي المائدة يجعل الجمال أعلاها » .

وأظن أن الأستاذ الناقد أراد هنا « بالمسألة » الإطلاق ، وإذا كان أفلاطون مضطرباً في الإطلاق ، كما يرى الأستاذ الناقد ، فتحديد المثال الأعلى عنده بأحد الإطلاقين اللذين أطلقهما عليه لا يكون سبباً في عدم الدقة والتحقيق ، كما شاء الأستاذ الناقد أن يصف بهما كتاب الجانب الإلهي، لأنه ذكر المثال الأعلى لأفلاطون بأحد الإطلاقين عنده.

على أني أود أن أقول للأستاذ الناقد: إن أفلاطون ليس مضطرباً في الإطلاق ، كما يرى ، لأن الهدف الأخير من فكرة المثل عنده هدف خلقي . وهو توجيه الإنسان نحو الكمال بإبعاده عن المتع الحسية وتشويقه إلى متعة أسمى منها ، وهي الوصول إلى « الكمال » . ففرض « المثل » ، وهي كاملة كلها في نظره ، بريئة من الشر والنقص ، وفرض أن بينها مثالاً يعلوها جميعها تتطلع إليه وتشتاق إلى الاتصال به ، وهو المثال الأعلى لها . والإنسان ، كموجود من موجودات العالم المشاهد ، إذا كانت متعته وسعادته في الوصول إلى الكمال أو عالم المثل – لأنه الكمال – ، فتمام متعته وتمام سعادته بالذات في الوصول إلى المثال الأعلى لهذه المثل ، ولما فرض أفلاطون الشرية في هذا العالم الحسي وفي متعه ، وطلب لأجل ذلك من الإنسان الزهد فيه والتخلي عما له من متع ولذات، وطلب منه أيضا التقرب من عالم المثل بدلا عن ذلك . فكأنه طلب من الإنسان بعبارة أخرى البعد عن الشر والتوجه إلى الخير بعمله ، فإذا عمل الخير كان سعيداً ، وقيل في شأنه : إنه يقترب من عالم المثل ، وإذا خلصت أعماله للخيرية كانت سعادته أتم ، وقيل له عندئذ : إنه ، بتمحض عمله للخير – وهيهات – اقترب من المثال الأعلى، وهو ذلك المتمحض للخير أو هو الخير نفسه . لأن الوصف المفرق بين عالم المثل والعالم

المشاهد المحسوس هو أن الأول خير والثاني شر . والتفرقة بين موجودات أحد العالمين — تبعاً لذلك — تكون بالقياس إلى الأساس الذي قام عليه الفرق الجوهري بين العالمين .
فلو قيل : إن « المثل » تتفاوت فهم ذلك على أنه في درجات الخيرية ، وإذا قيل : إن من بينها مثالا « أعلى » فهم ذلك على أنه الخير المحض .

فإذا وصف أفلاطون بعد ذلك مثاله الأعلى بـ « الخير » (المحض) فلأنه افترض فيه أعلى درجات الوصف الذي ميز به عالم المثل عن العالم المشاهد ، وهو الخيرية . وإذا وصفه بـ « الحق » ، والمثل كلها حقائق ، فلأنه الأكمل في معنى الحقيقة ، وإذا وصفه بـ « المعشوق » فلأنه الغاية الأخيرة التي تتطلع إليها كل الموجودات ، سواء في ذلك بقية المثل وموجودات العالم المشاهد ، وإذا وصفه بـ « الجمال » فلما عليه من تمام الكمال — لأنه أعلى المثل — والكامل من شأنه على الأقل أن لا ينفر منه ، بل يتطلع إليه وينجذب غيره نحوه ، وذلك هو الجميل ، فإذا كان هو الكمال نفسه ، لأنه الحق نفسه ولأنه الخير نفسه ، ولأنه المعشوق الأول والأخير نفسه ، كان من غير شك « الجمال » بعينه .

ومن هذا يتبين أن هذه الأوصاف جميعها لموصوف واحد ، وأن تعددها لا يقتضي تعدداً في الموصوف ، وبالتالي تغايراً فيه . وإذا تبين هذا لم يكن أفلاطون — كما يريد الأستاذ الناقد أن يحكم عليه — مضطرباً في « المثال الأعلى » عنده ، إذ ذكره في مواضع مختلفة بأوصاف متعددة ، لأنه يقصد دائماً شيئاً واحداً بالذات ، وهو الغاية الأخيرة للموجودات كلها ، وتبين بالتالي أن عرض كتاب الجانب الإلهي للمثال الأعلى عند أفلاطون كان بعد روية وفهم للفلسفة الإغريقية .

وأخيراً أكرر شكري للدكتور الأهواني على هذه الفرصة الطيبة التي عرفنا فيها نقده لـكتاب « الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي » ، وعلى ثنائه عليه بأنه « سد حاجة كان الشرق في نهضته الحديثة متعطشاً إليها ، ولا يزال متعطشاً إلى كثير من نوعها » .

محمد البهي

البيـــادر

رد على نقد

بقلم الأستاذ خليل هنداوي — بحلب

(ا) إنه في نظري كتاب الموسم — موسم ١٩٤٥ — لأنه يحاول أن ينظر إلى الكون، وإلى مشكلات الحياة الإنسانية واليومية بعين خاصة، هي عين الشرق.

(ب) كما أن هناك بعض الموضوعات التي تهبط عن مستوى الكاتب والكتاب، مثل مقالي «البيادر» و«الصخور» فليس فيهما من ميزة فنية أو ذهنية تجعلهما جديرين بالنشر في مثل هذا الكتاب الذي يحوي في جانبه قضايا كبرى عولجت أحسن علاج.

الكتاب — سيد قطب

لقد قرأ — قراء الكتاب — نقد الأستاذ سيد قطب لكتاب البيادر وقرأته أنا فيمن قرؤوا. وكنت أهم، بل هممت غير مرة، بأن أكتب عن هذا الكتاب الذي مرت به مصر مرور الكرام، لولا أن الأستاذ قطب سبقني إلى ذلك؛ وللأستاذ يد لا تكفر في تحليل الآثار الأدبية التي تنتجها الأقطار العربية.

ولكن العجيب حقاً أن تكون أحكام الأستاذ العامة صحيحة إلى أبعد ما تدعو الصحة، وأن تكون التفاصيل بعد ذلك ملتوية، غير مستقيمة. وغريب أيضاً أن أقول: إن النظرة العامة للكتاب حين جعله خير كتب الموسم نظرة دلت على تقويم دقيق للأدب الرفيع، والنتاج العقلي الناجح، لكن هذه النظرة العامة لم تكن موفقة حين أرادت أن تتغلغل في مواطن القبح والجمال. ولا عجب أن يكون هذا في الفن، بل العجب أن لا يكون هذا في الفن، فإن التمثال الحي يعجبك ويعجب من رآه بشموله وعمومه. وبعد ذلك تختلف الأنظار في تقديره وتقويم أجزائه، وإن لم تختلف في جمله العام!

ولكن هذا المبدأ لن يجعلني أتردد في مناقشة الأستاذ في هذه الأجزاء، لأن دراستها — عندي — دراسة للكل.

يرى الأستاذ أن جملة مقالات حشرت في الكتاب، تخلو من الميزة الفنية والذهنية، منها مقالتا «البيادر» و«الصخور»، ومن الغريب جداً أن يطلق صاحب الكتاب اسم «البيادر» على كتابه إعجاباً منه بهذا المقال... فهل كان ذوق صاحب الكتاب مريضاً حين انتقى هذا الاسم.

لست أريد بذلك أن أثير جدلا عقيما ، أو أتهم أحد الذوقين قبل أن أتهم ذوقي . ولكني أرى أن الفرصة الآن سنحت لأقول بعض ما يجول في خاطري عن هذه القمم الأدبية :

أنا لا أنكر الأستاذ قطباً ولا القراء أني وجدت في هذين المقالين أروع ما جادت به مخيلة صاحب البيادر، أو ربما لا أغلو ولا أسرف في الغلو إذا أعلنت أن الأستاذ « نعيمة » أضنّ بهاتين القطعتين ، لأنهما تمثلان فنه كل التمثيل ، بل تكادان تمتزجان بحياته . ولست — أنا — في هذا متهماً لذوق الأستاذ ، فقد يكون بعض هذا التقدير يعود إلى تفهم البيئة التي خرجت منها هاتان القطعتان . وليس في مصر شبيه لهذه البيئة التي تستجيب لهما .

يرى الأستاذ قطب أن هاتين القطعتين قد انحطتا بانحطاط موضوعهما . ولكن متى علت الفكرة بمجرد علوها ، وانحطت بمجرد انحطاطها ؟ ونحن ندرك أن الفنان الحقيقي هو من يرى في الشيء البسيط الحقير عالمه كله ، ومن كانت عينه النافذة تهتم بهذه الأشياء التي تقتحمها عيوننا . وهنا تتجلى قدرة الفنان حين يعطينا الصور الفنية الرائعة من صور مررنا بها وازدريناها . وهل كانت قصة البيادر إلا قصتنا وقصة حياتنا وقصة العالم من بدايته حتى نهايته ؟

قدرة « نعيمة » الفنية لا تبرز حين يريد أن يواجه مشاكل الحياة بجملنا واصطلاحاتنا ؛ لكنها تبرز حين تعبر عن هذه المشاكل بهذه الصور البسيطة الدقيقة التي تدل على نفاذ فكر عميق وملاحظة قوية .

أما قطعة الصخور فهي قطعة فنية من الطراز الأول ، ترتعش فيها روح الجبل ، وتمشي الحياة في هذه الكائنات التي لا يشعر بحياتها إلا من فاض بشعوره ، وآمن بأنها مثله تحيا وتحس . وليس بمستنكر أن لا يعرف الصخور من لم يرها ولم يعاشرها ، ولم يعرف أقزامها وجبابرتها . ولم يبلغ عندي شاعر هذه القمة التي تعانق فيها فكر وشعور ، وقلب وعقل . وأنى لي أن أدرك أن « نعيمة » الذي يصاحب هذه الصخور في كل يوم ساعات يذهل عن نفسه ، وعن هذه الصخور التي كان يجود عليها بالحياة فتحيا ، يصبح في عالمها صخرة صماء بكماء تتكسر عليها أمواج الموت والحياة ، وتنزلق عليها العواصف والصواعق انزلاق الطل عن الزجاج ، ولكنها صخرة تملأ الأرض والسماء ... ولكنها صخرة تعي وتحفظ وتدون . . .

وماذا عسى يحس من روعة مَن قدر هذه الألفة الدائمة القائمة بين جبل صنين

والبحر . قد تكون هذه المشاهد من البساطة بمقدار ، لأننا نراها ونبصرها ببساطة ، أو لا نراها ولا نحسها . ولكن نعيمة استطاع أن يحملنا إلى هذا المطاف ، وأن يكشف لنا عن أكبر ألفة متصلة ، ومحبة لا تضاهيها محبة قط .

والآن أحب أن أصل إلى نتيجة قد يوافقني عليها الكثير ، وقد لا يحب أن يجربها الكثير . هي أننا في دراستنا لأي أدب — مهما اتحدت العواطف الإنسانية وتشابكت — ينبغي لنا أن نراعي فيه تلك البيئة العجيبة التي تخلق الأنواع ، وتجود بتنويع ما تخلق . بل أجد أن الأدب العربي نفسه لا تمكن دراسته بمقياس واحد ، لأنه يصدر عن بيئات مختلفة ، فيها المتفق والمختلف ، وفيها ما يلتقي بالأشياء ، وما لا يلتقي أبداً . وبحسب هذه المقادير المتقاربة حيناً والمتباعدة حيناً تتبدل هذه الصور ، وتختلف تركيب هذه الألوان . وليس عبثاً أن يرى النقاد الأقدمون — في تمييزهم طرائق الأدب : للشاميين طريقة ، وللعراقيين أخرى ، وللمصريين غير طريقة . إذن فمن الجور أن نأخذ هذه الأنواع المتباينة بمقياس واحد ، هو مقياس الوضوح مثلا ، أو مقياس الرمز ، أو مقياس وحدة التشابه والصور . ويظهر لي أن هذا التباين ذهب بعيداً في تأثيره ، فترك كل قطر يختار لغة مستقلة — من هذه اللغة الواحدة — أو قل أسلوباً ذاتياً يعبر به عن صوره وشعوره وأفكاره . فاختلفت بذلك طريقة البلاغة نفسها ، ويخطىء من يظن أن البلاغة همها في اللفظ وحده دون المعنى . ومن هنا يأتى الاختلاف بين الطريقة اللبنانية مثلا والطريقة المصرية ، وقد أراد البعض أن يعلل هذا الاختلاف بأسباب قد تكون حقيقية ، لكن هذه الأسباب قد لا تؤلف الحقيقة كلها . فمن الحق القول بأن لبنان أوضع كثيراً في الثقافة الغربية حتى ردته عن الأسلوب العربي الصريح الموروث . لكن هذه الثقافة ليست بكل شيء . لأننا نرى في المصريين من اقتحموا هذه الثقافة دون أن تغير من طريقتهم وأسلوبهم . فلماذا جاء الأدب اللبناني يلتوي حيناً عن الوضوح ويتعقد حيناً إذ يريد أن يعبر عن قبضة مشحونة بالشعور والصور ؟ ذلك مرده — كما أعتقد — إلى هذه البيئة العجيبة التي تمور بعوالم من الجمال زاخرة على رغم ضيقها . فبذلك تتكاثف الصور ، وتتداخل الألوان ، ويبهت البيان ، فيغدو بعض الصور يستمد جماله من جو ذاتي ويغدو بعض الألوان يحيا على تلك الصخور وحدها ، ويغدو بعض البيان بعيداً عن عمود البيان الموروث والبلاغة ، لأنه لا يتسع لهذه الصور التى لا تستقر ولا تتحد !

سيكون خلاف بيننا يسير حله ، إذا قدرنا أن نفرق بين أديبين اثنين : أحدهما لا يزال يستمد مثله الأعلى من نماذج سابقة ، يخضع لها صوره ، وطريقة تفكيره ، ونحت

عباراته واستعاراته . وآخر يأبى إلا أن يستقل بصوره وتفكيره ونحته ، غير مستجيب إلا لطبعه ؛ هذا الطبع الذي ارتسمت عليه حياة أرضه وسمائه ، وجباله وبحره ، بكل ما لهذه الحياة من ألوان . ومن ذا يشك في أن الأدب الأندلسي لو خلص من تقليد المشارقة خلوصاً تاماً ، وكان صادقاً كل الصدق لطبيعته التي نشأ فيها ، لجاء أصدق طبعاً وأغنى شعوراً ، لكنه ظل أميناً للصورة . ولم يكن أميناً لروحها ، متمسكا بالطريقة التقليدية أكثر من تمسكه بالطريقة الطبيعية .

ولكني — إلى ذلك — لا أريد أن أفاضل بين هذه الطرائق المختلفة ، وإنما أردت أن أقول: إن كل قطر صادق فيما اختار لنفسه من طريقة يجدها الغاية في البلاغة. ومن أجل هذا ينبغي للنقد أن يراعي هذا الاختلاف البين . فما يراه ناقدنا مثلا في مقالي « البيادر » و « الصخور » يراه من في لبنان على عكس ذلك ، لأنهم يحسون جمال هذه الصور وروعة هذا التمثيل . وقل مثل هذا القول في كثير من الأدب المصري الذي لا يروق بعض الأدباء والقراء عندنا ! ومن ذلك كانت الطريقة المصرية — إلى الإسلوب المجرد الواضح — أدنى لأنها لا تحفل بالخيال إلا بقدر ضئيل، والطريقة الشآمية اللبنانية إلى الأسلوب الخيالي أقرب ، لأن الخيال الملازم لطبيعتها ملازم أيضاً لتفكيرها . وكثيراً ما إذا أراد الأدب المصري الخيال ظفر إليه بطريق العقل فلا يأتي الخيال بصورته الحية . وإذا أراد الأدب اللبناني الخيال جاءه غير محدود ولا مكدود ، لأن الخيال طبعه الذي تلقنه من الطبيعة . فلذلك ينوء المصري بأسلوبنا الخيالي وطريقتنا الغامضة ، وننوء نحن بأسلوبه المجرد . ولو عقلنا لرددنا ذلك كله إلى الطبيعة التي تريدنا على ذلك راضين أو كارهين .

وبعد هذا كله، أليس في قطعتي « البيادر » و« الصخور » نسمة إنسانية فنية محلقة ؟

إني لأشفق على نفسي من أن تمر ببيدر مفروش بالسنابل ، فلا تبصر عليه غير سنابل !

خليل هنداوي

الأوذيسة

أخي الأستاذ الفاضل رئيس تحرير الكتاب :

أشكركم أجزل الشكر على تفضلكم بالتعريف بكتابي ، وأثني أطيب الثناء على كاتب الكلمة الجميلة ... أما ما لاحظه من انه كان يحسن تسمية الكتاب « مغامرات

أوذسيوس » لا « الأوذيسة » جرياً على ما صنعه الأساتذه الأجلاء الذين سماهم ، فهو ما أخالف حضرته فيه ، لأن الكتاب هو « قصة الأوذيسة » بالفعل كما ذكرت ذلك في المقدمة ، وقد آثرت ، كما هي طريقتي دائماً في نقل روائع الأدب اليوناني القديم إلى اللغة العربية ، أن أختزل كثيراً من الأساطير الثانوية التي يضيق بها قراؤنا ، مشيراً إلى ذلك في هوامش الكتاب ، لأني أحاول ما وسعتني المحاولة أن أجعل روائع هذا الأدب مما تسيغه نفوس قرائنا ، فذلك الذي حذفت هو ، في رأيي ، وفي هذه الأيام ، حسنة الكتاب الأولى ... أما الموضوع الأصلي فلم أنقص منه شيئاً ... وما ذكره الأستاذ عن قصة الحصان ، فأظنه قد نسى أني ألحقته بكتابي « قصة طروادة » الذي هذبت فيه بالطريقة نفسها « إلياذة هوميروس » وذلك لأن هذه القصة هي الفصل الأخير من قصة طروادة التي لا تكمل إلا بها ...

وبعد ، فقد صنعت ذلك ، واجترأت على كل هذا التصرف ، وأنا أعلم أن عندنا نقاداً ذوى فضل سيأخذون ذلك علينا ، ولكن عذرنا دائماً هو ما ذكرنا من وجوب تحبيب هذا الأدب القديم إلى نفوس القراء ، وهو ما تجشمنا في سبيله ما لم نكن نتجشمه لو كان همنا مقصوراً على مجرد نقل الأصل كما هو ... وحسبك أن تلاحظ يا صديقي أنني ، لكي أوضح بعض الفصول ، كنت ألخص تمثيليات بأكملها من يوريبيدز أو إسكيلوس ، متوخياً أن أثبت ذلك ، حتى لا يختلط أدب هوميروس بغيره مما جاء بعده .

ولا يسعني إلا أن أكرر شكري للكتاب وللأستاذ الفاضل الذي عرّف بكتابي .

دريني خشبة



دنيا القصص

بجوار قبر الإمبراطور

عن أندريه موروا بتصرف
للأستاذ أحمد فتحي محمد

هي قصة بسيطة ولكنها جميلة ، تذكرتها بينما كنت جالساً بمفردي في المنزل سادراً في لجج الأفكار، أستعيد الذكريات وأقلب صفحات الماضي تارة ، ثم لا يلبث أن أن يطغى عليّ الخيال تارة أخرى ، فتعاودني أطياف الأماني العذبة والآمال الحلوة والأحلام الجميلة . وكانت الشمس قد جنحت للمغيب ، في حين انتثرت قطع السحاب في الأفق الغربي ، شكلتها الريح الرخاء في مسراها بأشكال متشابهة في التصميم، متباينة تبايناً جميلا في الوحدة ، كأنها ثم أضفت عليها شمس المغيب لونا أرجوانياً هادئاً ، جعلها في صفائها قطع اليواقيت رصعتها يد القدرة على جبين الطبيعة الوادعة .

ظللت في جلستي هذي أمتع عيني بجمال الكون البديع ، وأذكر قلبي بجلال الخالق المبدع ، وما هي إلا برهة وجيزة حتى توارت الشمس بالحجاب خلف ذلك الأفق الدائم دوام تسبيح الملأ لرب الوجود .

حانت مني التفاتة إلى صورة على جدار الحجرة ، قد امتدت إليها يد البلى فطمست معالمها قليلا ، فوجدتني أعود إلى عالم الذكريات مرة أخرى . كانت الصورة لفتاة ذات ملامح جذابة وشعر جميل فاحم يحيط بجبينها الناصع ، وتدل تقاطيع وجهها على قوة وعظمة تكسب الوجه سموًا ورفعة ، كما تجلت أنوثتها في أنفها الجميل وأسنانها اللؤلؤية وفمها الدقيق وعينيها الدعجاوين . كانت صورة جان ماري روز ، التي عرفت الإمبراطور ، فقد ولدت عام ١٧٩٧ وتوفيت حوالي منتصف القرن التاسع عشر .

وإنها لقصة غامضة خافية على الناس يحيطها الإبهام ، ولكني وجدتها بعد أن بحثت ونقبت وسألت الكثيرين وراجعت المذكرات ، وفتشت الأوراق القديمة الصفر ، وأزلت عنها ما تراكم — على مر الزمان — من غبار النسيان ، ورفعت ما أسدلته الأيام من ستر الإهمال .

كانت جان ذات حظ قليل جداً . حرمت حنان الأم وهي لم تنشأ بعد ، حتى إذا ما بدأت أكمامها تتفتح لربيع الحياة فقدت والدها وخلفها وحيدة بائسة ، لا سند لها ولا معين .

مضت بضعة أشهر بعد وفاة والدها ، ولا يعلم إلا الله كم قاست في وحدتها ، وكم كابدت في سبيل عيشها . وبينما كانت تطل من نافذة غرفتها ذات مساء وهي في جلسة متراخية ـ وكان ذلك عام ١٨١٤ ـ إذا بها ترى فارساً يتقدم ثلة من الفرسان يقف أمام منزلها ، وما إن حققت النظر في سحنته ورأت قبعته العجيبة وزيه الرمادي ، حتى عرفته . كان ذلك الفارس هو نابليون عائداً من منت موريل .

ترجل نابليون دون أن يتطلع إليها ، واقتحم باب المنزل بعد أن ترك الفرسان في الخارج ، فامتلأت جان رعباً وخوفاً ، وتوجست شراً ، وأحست هلعاً .

وما إن صعد نابليون إليها حتى جلس متهالكا على أحد المقاعد ، وغرق في تفكير طويل ، غير حاسب مضي الزمن وتعاقب الساعات . وتغير وجه الطبيعة فجأة واربد ، فزمجرت الرياح ، وهطلت الأمطار على الفرسان في الخارج ، وقد التجأ بعض « الماريشالات » إلى فندق على جانب الطريق يحتمون به من المطر ويتقون به عصف الرياح .

مضى الوقت وتقدم الليل وزاده المطر حلكة ، والرياح ودويها وحشة ، والإمبراطور غارق في تفكيره أمام النار المستعرة في الموقد ، فقد كان متعباً من الحرب ، مجهداً من كثرة الركض ، مكدوداً من الكر والفر ، برماً بحظه .

لم يكن في المنزل مع الإمبراطور سوى جان التي لحظت ضجره وأحست تبرمه ، فذهب عنها خوفها بعيداً ، وهدأ روعها قليلا ، فأشفقت عليه ، وألهمتها غريزتها أنها ـ وهي تلك الفتاة الفرنسية البسيطة ـ ستكون في هذه الآونة سيدة العالم ، فإن زائرها المضنى لابد أن يكون في حاجة إلى قلب مفتوح . . . وإنه قلبها . فأشرق وجهها وتاهت ودلت ، فرنا نابليون إليها قليلا ، ثم تغيرت حاله تحت تأثير جمالها الفاتن ، فاحتواها فجأة بين يديه في فظاظة وغلظة ، شأنه في ذلك معها شأنه مع ماري لويزومع الكنتس فالفسكا . فقد شعر في هذه المرة أيضاً أن له قلباً يحب كقلب أي رجل . وفي نحو منتصف الليل امتطى جواده واستأنف حياة الإمبراطور المضنية .

كانت جان ترى بعد ذلك كثيراً في باريس ، إذ ربما كانت تمني نفسها بأن يعود

الإمبراطور لها مرة أخرى ، ولكننا نعرف أن نابليون لم يعد ، بل ذهب إلى جزيرة إلبا بعد أن هيض جناحه في موقعة واترلو .

وفي ذلك المنزل الصغير الذي لم يكن يبعد عن منت موريل كثيراً كانت تجلس جان شاردة الفكر ، محزونة الفؤاد ، مأسورة بتذكار تلك الزيارة . كان بجانب سريرها مهد طفل . . . كان ابن نابليون ، ولكنه لم يكن كذلك الابن الذي فرحت باريس لمجيئه عام ١٨١١ . ترعرع الوليد وكبر الرضيع حتى صار طفلا ، وبلغ من عمره السادسة وهو لا يعرف له أباً ، ولا يدري عن مولده شيئاً . وتهامس الناس في القرية وازداد اللغط وكثرت الأقاويل ، وسادت القرية موجة احتقار نحو جان التي عاشت بينهم وحيدة ، وها هي ذي اليوم يرى لها طفل لا يعرفون أباه . وفي مثل تلك الحالات تتعدد الاتهامات ، ويصبح الجميع شرفاء ينصبون من أنفسهم قضاة دون دعاوى ، اللهم إلا دعواهم باعتبارهم جماعة ضد فرد بائس شاء له حظه العاثر أن تكون لساعة من ساعات نشوته ذكرى مادية لا يستطيع إخفاءها ، وهكذا شأن الناس دائماً .

كظمت جان غيظها في أنفة ، وراضت نفسها على الصمت في عزة وتركتهم يلغطون ، وتساءلت في نفسها : أي نصيب خبيء لها يا ترى ؟ ماذا يكون من أمرها إذا عرف وحيدها . . . ؟ رباه . . . أنت لي ! فكن لي عوناً .

مرت الأيام وكبر الطفل وصار غلاماً ثم صبياً ، ثم يافعاً ثم فتياً ، وتعلم القراءة والكتابة كلداته ، ولكنه لم يعرف عن سنواته الأولى شيئاً ، حتى إذا كان ذات مساء حملته أمه على أن يصلي طويلا وكان ذلك عام ١٨٢١ حيث كان السجين قد مات في الجزيرة ، وفي هذه المرة بكت جان وبكت طويلا .

وفي تلك الآونة كان لويس فيليب متربعاً على عرش فرنسا ، وجاء اليوم الذي هب هو وغيره إلى عرض البحر يستقبلون السفينة التي تحمل جثمان نابليون ، فقد عاد الإمبراطور إلى باريس ، ولكن ليرقد إلى الأبد تحت قبة الإنفاليد . أرادت جان أن تكون هناك على ضفة السين عند مأتم الميت العظيم ، ورأت هي وابنها قوس النصر المزين ، والشعب الذاهل ، والأعلام المنكسة ، والموكب الرهيب ، والأمراء والنبلاء في ملابسهم الرسمية التقليدية ، فوقفت واجمة مأخوذة ، لا تعي حولها شيئاً ، حتى أفاقت على أصوات النبلاء يعلنون قدوم الجثمان : الإمبراطور . ثم رأت النعش محمولا على أكتاف الجنود ، ودوت في تلك اللحظة طلقات المدافع في المدينة .

بقيت جان في باريس مدة طويلة ، فلما أرادت العودة إلى قريتها ذهبت إلى لحد

الإمبراطور لتصلي للمرة الأخيرة ، وبجانبها وقف ابنها الذي تحمل الإهانات وتعيير زملائه له ، وانطوت نظراته الحائرة على ألم ممض ، وتساءل بينه وبين نفسه : من أين أتى . . . ! ! ؟ إنه لا يعرف شيئاً . . . ! ! ! وتداعت به المعاني . . . الشعب ... باريس ... أين هو ... ولماذا . . ؟ كل ذلك دار بمخيلته فازداد ألماً على ألم .

ورأى أمه تصلي تحت قبة الإنفاليد العظيمة متجهة نحو القبر الإمبراطوري ، فلم يتمالك نفسه أن قال مخاطباً إياها :

وأخيراً يا أمي خبريني بما يجب أن أعرفه الآن . خبريني عن أبي . . . فوجئت جان بحديث ابنها ، فاصفر وجهها وخفق قلبها ، ثم مرت لحظة سكون رهيبة وهي تتطلع إلى قبر نابليون العظيم . التفتت إلى ولدها الذي شعر أن أمه تستلهم الجواب من القبر وقالت :

أبوك . . . . . . ؟ . . . . . . كان جندياً يا بني .

ثم انثنت جان من جديد واستأنفت صلاتها بجوار قبر الإمبراطور .

أحمد فتحي محمد



أنبــاء

ننشر في هذا الباب أنباء النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصــر

أقام طلبة المعهد العالي لفن التمثيل العربي حفلة تمثيلية بمسرح البلدية بطنطا في يوم ٨ أبريل لإعانة جمعية الإسعاف فيها وقد قدم الطلبة فيها مشاهد تمثيلية باسم (مجد الفاروق) اشترك في كتابتها الأستاذان عزيز أباظة باشا ، وبيرم التونسي . وهذه المشاهد سبق أن قدمها طلبة المعهد العالي في الحفلة التي أقامتها سمو الأميرة شويكار في قصرها بمناسبة عيد جلالة الملك ، وحظيت بإعجاب جلالته فأمر الأستاذ زكي طليمات مدير المعهد بأن يبلغ التلاميذ رضاءه السامي .

هذا وقد شملت سمو الأميرة المعهد برعايتها فجعلت له في كل عام منحة قدرها ثلاثمائة جنيه توزع بين الطلبة المتفوقين والمتفوقات

☆☆☆

احتفلت المفوضية السورية بالقاهرة في يومي ١٦ و ١٧ من أبريل بعيد الجلاء فضاقت دار المفوضية على رحبها بوفود المهنئين وكان دولة جميل مردم بك وإخوانه من رجال المفوضية يبالغون في إكرام الوافدين والحفاوة بهم . ولقد كان السرور متجلياً في قسمات الوجوه وصفحات العيون كما كانت عبارات التهاني تتناقلها الأفواه في غبطة ظاهرة وطي كل كلمة منها تهنئة لسوريا وأمنية لجاراتها العربيات أن يحقق الله لها يوماً أغر محجلا مثل يوم سوريا .

(والكتاب) تقدم إلى الأمة السورية أخلص التهاني بهذا اليوم السعيد وتدعو الله أن يهيء لسوريا الحبيبة من أمرها رشداً تستعيد به مجد عبد شمس السامق الخالد :

قل للذي ليس يدري عن حفاوتنا ... بالشام من سبب إن الهوى سبب☆
أفراحها فرح الوادي وكربتها ... تصمي حشا النيل حتى تفرج الكرب
فكم أرتها الصروف الغبر من عنت ... وكم توالت على أحرارها النوب
ذل الزمان وما ذلت رقابهم ... وكان من حاصديها السيف واللهب
هم اشتروا بالدم المسفوح عزتهم ... إن العلى بالدم المسفوح تكتسب
لم يبرحوا في أهاويل وتضحية ... حتى تحقق من سورية الأرب
واستبشرت عبد شمس في مضاجعها ... وبث فرحتها الأجداث والقبب

☆ من قصيدة لعادل الغضبان

✡✡✡

تقيم وزارة المعارف المصرية في آخر هذا الشهر معرضاً « للكتاب العربي » دعت المؤلفين ودور النشر وأصحاب الصحف إلى الاشتراك فيه وغايتها منه التعريف بتطور التأليف والترجمة والطباعة والصحافة في العصر الحديث .

وقد رأت مجلة « الكتاب » وهي مجلة فتية ناشئة لم تسلخ من عمرها غير ستة أشهر أن تشترك في هذا المعرض بأقلام كتابها فنشرت في هذا الجزء ثلاث مقالات عن الكتاب إحداها : « الكتاب قبل اختراع الطباعة » للدكتور زكي محمد حسن. وثانيتها : « كليلة ودمنة وتصويره في العراق وإيران » للدكتور إبرهيم جمعة . وثالثتها : « أقوال في الكتاب » للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف . وستنشر في الجزء المقبل إن شاء الله بقية الأبحاث الخاصة بالكتاب إشادة منها بهذا المعرض الجليل الفائدة والأثر .

✡✡✡

تقوم وزارة المعارف بإخراج الجزء الثالث من ديوان البارودي الذي يشرف على إعداده وضبطه وشرحه كل من الأستاذ علي الجارم بك والأستاذ محمد شفيق معروف ، ومما هو جدير بالذكر أن المرحوم جعفر والي باشا هو الذي أمد الوزارة بالأصول الخطية للديوان .

✡✡✡

تهتم الجمعية الجغرافية الملكية بطبع المعجم الجغرافي الذي وضعه المرحوم الأستاذ محمد رمزي بك وهو يعد بمثابة دائرة معارف شاملة لجميع المدن والقرى والكفور بمصر .

✡✡✡

تدور مفاوضات بين نقابة الصحفيين وبين أصحاب الصحف العربية حول عقد مؤتمر للصحافة العربية بالقاهرة في أوائل الشتاء القادم لتقوية الصلات بين الأسرة الصحفية في الشرق العربي وزيادة التعاون وتنظيم أمور الصحافة .

✡✡✡

كان من بين القرارات التي اتخذها مؤتمر المهندسين الذي عقد بالقاهرة في شهر أبريل سنة ١٩٤٦ وضع معجم عربي لجميع الاصطلاحات الهندسية بحيث تستعمله جميع الدول العربية .

✡✡✡

أنشأ فريق من الأدباء جمعية سموها « جماعة أدباء العروبة » وعقدوا رياستها لصاحب المعالي الأستاذ إبرهيم دسوقي أباظة باشا ومن أغراض هذه الجماعة العمل على نشر الأدب العربي الرصين وتوثيق الصلات الأدبية بين أدباء الشرق العربي .

✡✡✡

تبذل الجهود لإعادة نادي القلم الدولي الذي أغلق أبوابه في فترة الحرب . وكان قد اشترك في تأسيس فرع هذا النادي بالقاهرة لفيف من أعلام الأدب والأجانب المتوطنين وكانت عنايته التعاون الإنساني على رفع شأن رجال الأدب .

✡✡✡

تألفت بالاسكندرية « جمعية الوطن العربي » وهدفها نشر دائرة معارف للبلاد العربية تتناول جميع النواحي الاقتصادية والسياسية والقانونية والتعليمية والاجتماعية لتمكين العرب من التعرف على مقومات الحياة في كل قطر عربي على حدة .

✡✡✡

انتهت اللجنة التي عهد إليها في تنظيم مكتبة المغفور له الزعيم الخالد سعد زغلول باشا من مهمتها وقد أعدت كشوفاً خاصة بمحتويات المكتبة ويبلغ عدد المؤلفات الموجودة بها نحو خمسة آلاف كتاب في مختلف الفنون ولا سيما القانون وبلغات شتى معظمها الفرنسية .

✡✡✡

نزلت السلطات العسكرية الأمريكية عن ثمانين ألف مجلد من الكتب الثقافية والعلمية للجامعات والمدارس في مصر وهذه الكتب كانت موضوعة لتثقيف أفراد القوات الأمريكية في الشرق الأوسط.

✡✡✡

طلبت الحكومة الإسبانية إلى وزارة المعارف أن تعيرها أحد أساتذة اللغة العربية من خريجي الأزهر أو دار العلوم للقيام بتدريس هذه اللغة وآدابها في جامعة غرناطة .

✡✡✡

أصدر معالي الدكتور سليمان عزمي باشا كتاباً عنوانه : « على هامش الطب » تناول فيه المباحث الطبية والصحية التي لا يستغني الإنسان عن معرفتها في الحياة والكتاب مصدر بمقدمة لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا .

✡✡✡

فرغ الأستاذ نقولا يوسف من وضع مؤلف عن تاريخ دمياط — مدينة الحقائق والأحلام — منذ أقدم العصور إلى اليوم ، والكتاب يتضمن قصة شاملة عن حياة هذه المدينة التاريخية وما كان يحوطها من أساطير أيام الفراعنة ، ثم يتحدث عن القصر البيزنطي الذي كانت فيه دمياط مدينة زاهرة تمد العالم الشرقي بالمنسوجات وغيرها ، وسيكون الكتاب مرجعاً للباحثين والمتعربين ومزوداً بالرسوم والبيانات والإحصاءات المختلفة .

✡✡✡

من المؤلفات العلمية التي تظهر قريباً كتاب «الكون والذرة » للدكتور محمد محمود غالي وهو يحوي أبحاثاً علمية وتيسر الموضوعات التي تتعلق بالعلم إلى أذهان الجماهير .

✡✡✡

وضع الأستاذ علي أحمد باكثير مسرحية عن البطل إبرهيم باشا وهي في قالب من الشعر المرسل وحرص على أن يظهر فيها عدة شخصيات تاريخية « مثل عبدالله بن سعود والأمير بشير الشهابي والكولونيل سيف « سليمان باشا الفرنساوي » ورفاعة الطهطاوي . وتدور الفكرة في هذه المسرحية التاريخية حول غزو سورية وتفكير إبرهيم باشا في توحيد الأقطار المتكلمة بالعربية وسعيه إلى فصلها عن الإمبراطورية العثمانية .

✲✲✲

يسرنا أن نشير إلى النهضة الأدبية في الحجاز وإلى ما يصدر عن مكة المكرمة من مجلات قوية رصينة منها مجلة « المنهل » لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري فهي مجلة حافلة بالأبحاث العمرانية والأدبية والعلمية إلى شعر وقصص وطرائف تجمع بين المتعة والفائدة فنرجو لها إطراد الازدهار .

السودان

تقوم مصلحة المعارف السودانية منذ ثلاث سنوات بتنظيم رحلات على نفقتها لعدد من الشبان السودانيين ، يرافقهم بعض البريطانيين وأعضاء الجاليات الأخرى المقيمين بالسودان . وذلك لتهيئة جو ثقافي واجتماعي للشبان السودانيين المتعلمين ، يزيد في معلوماتهم ويكسبهم مزايا واستعداداً لحياة اجتماعية أرقى وأسمى . وتستمر هذه الرحلات بضعة أسابيع ، وتكون مزودة دائماً ببرنامج ثقافي واسع . وقد وقع الاختيار للرحلة الثالثة على منطقة « أركويت » القريبة من البحر الأحمر واختير للرحلة ستون عضواً من الشباب السودانيين وبعض البريطانيين .

✲✲✲

عقد مؤتمر للتعليم في « واو » عاصمة المديرية الاستوائية برئاسة مفتش التعليم ، حضره رجال التعليم من بعثة « فيرونا » . وذلك بناء على رغبة زعماء باليوبنج بمركز أويل في افتتاح مدارس صغيرة في دوائرهم . وقد تعهد الزعماء بإحضار التلاميذ إلى المدارس ، ولكن الأهالي ما زالوا يتهربون من إرسال أبنائهم إلى المدرسة .

✲✲✲

انتهزت المدرسات السودانيات فرصة سباق « نيالا » بدرفور ، فأقمن حفلتهن الأولى للآباء وضيوفهم ، وحفلة أخرى للأمهات والسيدات ، وعرضت في الحفلتين قطع تمثيلية ، وقدم الطعام والشراب من صنع الطالبات . وكان إعداد الحفلتين دعاية طيبة لتعليم المرأة .

✲✲✲

تستعد الجمعية الأدبية لنادي « سواكن » للاحتفال باليوبيل الفضي لتأسيسها . وهي تضم نخبة من رجال الأدب والشباب المثقف والموظفين ورجال الأعمال .

✲✲✲

قررت مدرسة « مقرات » التي تضم نحو مائتي طالب تقديم وجبة الإفطار مجاناً لجميع التلاميذ ، بعد أن لاحظت اعتلال صحتهم وسقم أبدانهم . وتفكر بعض المدارس الأخرى في تعميم التغذية لتلاميذها تمشياً مع مبادئ التربية الحديثة في مدارس مصر وأوربا .

☆☆☆

أخطر رئيس بلدية أم درمان أعضاء المجلس أن مصلحة المعارف تهتم بالتعليم المتوسط في المدارس الأهلية ، وأن التعليم الأولي الأهلي من اختصاص مدير المديرية . وعلى من يريد إنشاء مدرسة أولية أن يتقدم إلى لجنة التعليم كي يعرض طلبه على المدير الذي يستشير مفتش التعليم بالمديرية ثم يصرح له بافتتاح المدرسة بعد ذلك .

☆☆☆

بلغت التبرعات ليوم التعليم الأهلي في يومها الأول ألف جنيه . وقد أنشيء مال التعليم الأهلي منذ خمس سنوات ، وتجمع له في كل عام التبرعات من جميع أنحاء السودان ، ويتولى مؤتمر الخريجين العام في أم درمان تنظيم وسائل جمعه وأوجه صرفه .

وقد أنشيء حتى الآن من هذا المال عدد كبير من المدارس الابتدائية والأولية والمعاهد الدينية ومكاتب القرآن . كما ساهم في مساعدة التعليم الأهلي والثانوي والصناعي ، وفي تدريب المدرسين للمدارس الأهلية .

فلسطين

نظرت لجنة الحكم في المسابقة الشعرية لإذاعة لندن ، المؤلفة من الأساتذة عادل جبر وإسحق موسى الحسيني وإسكندر الخوري ، في القصائد . وحكمت بالجائزة الأولى للشاعر نجيب خوري (عكا) وموضوع قصيدته الفلاح . وبالجائزة الثانية للشاعر حسن محمد عبد الرحمن (طولكرم) وموضوع قصيدته الجامعة العربية . وبالجائزة الثالثة للشاعر سيف الدين زيد الكيلاني (القدس) وموضوع قصيدته الجامعة العربية .

☆☆☆

غادرت فلسطين إلى شرق الأردن في أول أبريل اللجنة الأمريكية لدراسة شؤون التعليم في الشرق العربي ، بعد أن مكثت فيها حوالي ثلاثة أسابيع . واللجنة مؤلفة من الدكتور ماثيوس ، والدكتور متى عقراوي مدير دار المعلمين العالية في بغداد ، والأستاذ إمام عبد المجيد من وزارة المعارف المصرية . وستزور اللجنة سوريا ولبنان ، وتضع تقريرها في الصيف المقبل في اللغتين العربية والإنجليزية .

☆☆☆

اختار مجلس التعليم البريطاني أربعة من الشبان العرب ، ثلاثة من فلسطين وواحداً من شرق الأردن ، ليكونوا بعثة في الجامعات البريطانية على نفقته .

☆☆☆

صدرت في هذا الشهر الكتب الآتية :

(١) « بين العلم والأدب » : للأستاذ قدري حافظ طوقان ، محتوياً على ٣٧ محاضرة ومقالة في موضوعات علمية طريفة وبأسلوب أدبي رقيق .

(٢) « أقاصيص » : للأستاذ عبد الحميد ياسين ، محتوياً على ثماني أقاصيص بعضها مترجم وبعضها مؤلف . وهو الجزء الرابع من سلسلة الثقافة العامة .

(٣) « شكوى ملكة اللغات إلى ملوكها » : للأب جبرائيل سويدان ، محتوياً على زهاء ١٦٠ بيتاً في شكوى اللغة العربية .

(٤) « عراقيل في طريق الشباب » : للدكتور أحمد زكي بك ، وهي المحاضرة التي ألقاها في يافا والقدس بدعوة من اتحاد الأندية الثقافي في يافا .

✡✡✡

احتفل النادي الأرثوذكسي في حيفا — وهو من أنشط الأندية العربية — بمهرجان عروبة فلسطين ، فألقى عدد من الشعراء والأديبات والأدباء قصائد وخطباً حماسية . واحتفل نادي الشبيبة الإسلامية في يافا وهو كذلك ناد نشيط بتوقيع ميثاق جامعة الدول العربية وألقيت القصائد والخطب المناسبة .

لبنان

افتتح صاحب الفخامة الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية « إذاعة لبنان » بمناسبة تسلمها من السلطة الفرنسية . ووجه فخامته كلمة فياضة بالوطنية للبنانيين المقيمين والمغتربين جاء فيها : « وفي اتصالي بكم اليوم قلباً لقلب مظهر من مظاهر استكمال تلك السيادة ، وصوت يطوي الحجب والمسافات ويطير فوق الأعاصير ليصل إلى مسامعكم لبنانياً بحتاً وعربياً فصيحاً » .

✡✡✡

تألفت في بيروت رابطة أطلقت على نفسها اسم « إخوان القلم » تهدف إلى « إبراز المواهب المخبوءة ، واكتشاف العبقريات المدفونة ، وتشييد صرح التجديد على أنقاض التقليد » . وقد أصدرت نشرة تنطق بلسانها .

✡✡✡

ينشر قريباً الأستاذ جبران التويني صاحب جريدة « النهار » قصة « اللبناني التائه » وهي رواية تمتاز بعرضها للمشكلة القومية في لبنان ، وتحلل عواطف الشباب المتراوحة بين الانكماش الإقليمي والتحمس للعروبة ، وكل من أشخاصها يمثل فكرة خاصة ، مما قد يثير كثيراً من الاهتمام في البيئات السياسية والأدبية .

✡✡✡

أصدرت مديرية الآثار اللبنانية كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه «أبحاث في تاريخ الأبجدية الفينيقية» للعالم الأثري موريس دونان الموفد من قبل الحكومة اللبنانية بأعمال الحفر والتنقيب في منطقتي جبيل وصيدا . ويتضمن هذا الكتاب كل ما اكتشف في جبيل (بيلوس) من الكتابات المتنوعة لم تحل رموزها . ويتناول الكتاب إلى جانب هذه الكتابات موضوعات هامة تتعلق بتطور الكتابة عند الفينيقيين وعلاقتها بالأسلوبين الهيروغليفيين المصري والفينيقي ، وذلك من الألف الرابع قبل الميلاد إلى الألف الأول . ويقع في ١٩٥ صفحة من القطع الكبير ومحلى بالرسوم . وهذا الكتاب هو الجزء الثاني من مطبوعات مديرية الآثار اللبنانية المعروفة باسم « دروس ووثائق أثرية » يقع

الأول منهما في مجلدين وموضوعه « تقرير أثري » ويعرض المكتشفات التي تمت في جبيل من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٢ .

✡✡✡

اجتمعت اللجنة المكلفة بالحكم في مسابقة الإذاعة البريطانية والمؤلفة من بشارة الخوري الأخطل الصغير والدكتور نقولا فياض ونجيب إليان وطالعت القصائد التي تقدم بها المتبارون ففازت بالجائزة قصيدة « البلبل » للأديب المعروف أمين نخلة .

سوريا

تتجلى الفعالية الفكرية اليوم في مظهرين : التأليف وهو ضئيل محدود ، والصحافة وهي التي تستأثر بالجانب الأوفى من اهتمام الجماهير وإقبالها . ففي سورية أربعون صحيفة يومية ، منها سبع عشرة تصدر في دمشق ممثلة مختلف الأغراض والنزعات والمبادئ . ولدى وزارة الداخلية السورية خمسون طلب امتياز صحف جديدة ؛ ويعود هذا الإقبال على الصحافة إلى : (ا) أن الضغط على حرية الكلام وكبت الرأي اللذين رزحت تحتهما البلاد إبان الحرب قد زالا بزوال الحرب (ب) تنبه الشعور القومي ونمو قوة الملاحظة والنقد في أوساط المثقفين (ج) الاستغلال المادي والمعنوي الذي تضمنه الصحيفة لأصحابها في هذه الأيام (د) تبلور بعض الأحزاب السياسية وحاجتها إلى صحف تثبت وجودها وتنطق بلسان حالها .

أما المجلات الأدبيـــة والعلمية في سوريا فهي قليلة وهزيلة إذا قيست بما في مصر ولبنان من مجلات قوية راقية .

ففي سوريا ست عشرة مجلة شهرية منها اثنتا عشرة مجلة تصدر في دمشق وحدها : وإذا استثنينا مجلتين أو ثلاثاً فإن الإقبال على مطالعتها محدود .

✡✡✡

ظهرت في سوريا بوادر حركة جديدة تستهدف ترجمة الآثار الأدبية العالمية إلى العربية بغية تفهم روحية الغرب واستجلاء سر قوته وعظمته . ولست أعني بذلك ترجمة منظمة خاضعة لمنهاج معين تشرف على تنفيذه هيئة علمية مسؤولة بل أعني الترجمة المتروكة لعناية الأفراد وأذواقهم الفنية فقد ترجم الأستاذ روحي فيصل « حديقة أبيقور » لأناتول فرانس . وترجم المحامي عدنان العجلاني « مختارات من أزهار الألم » للشاعر الفرنسي بودلير وترجم الأستاذان نظيم الموصلي وفاخر عاقل كتاباً عنوانه « لماذا يجب أن تكون اشتراكياً » للكاتب الإنجليزي جون إشتراسي . وترجم السيدان علي أسعد الخانجي وسموحي فوق العادة « تاريخ الأحزاب السياسية » عن عدة مصادر أوربية . وجميع هذه الأبحاث ستصدر قريباً .

✡✡✡

يقوم مكتب الدراسات الإسلامية بترجمة الأبحاث التالية :

(١) ترجمة كتاب « العمائر القديمة بدمشق » للأستاذ سوفاجيه عن اللغة الفرنسية .

(٢) ترجمة فصول كثيرة من كتاب « العمائر الإسلامية » للأستاذ كوزول عن الإنجليزية .

(٣) ترجمة الفصل القيم الذي وضعته السيدة مرغريت فان برشم الأثرية عن فسيفساء الجامع الأموي عن الإنجليزية .
(٤) ترجمة الفصل الكبير من دائرة المعارف البريطانية المتعلق بالقرآن الكريم .
(٥) ترجمة الفصل الكبير من دائرة المعارف الإسلامية المتعلق بالقرآن الكريم عن اللغة الفرنسية .
(٦) ترجمة نصف كتاب « الفنون الإسلامية » للأستاذ ميجو عن الفرنسية .

✡✡✡

في دمشق خمس دور كتب عامة : الأولى دار الكتب الظاهرية وتحتوي على ٣٧٩٣١ مجلداً بين مطبوع ومخطوط . والثانية مكتبة المجمع العلمي العربي وتحتوي على ٣٤٠٠ مجلد بين مطبوع في اللغتين العربية والفرنسية ومجموعات فوتغرافية لنفائس المخطوطات . والثالثة مكتبة الجامعة السورية وتحتوي على ٦٠٠٠ مجلد والرابعة مكتبة المعهد الفرنسي وتحتوي على ٤٠٠٠ مجلد جلها من الكتب العربية المطبوعة في أوربا . والخامسة مكتبة القديس يوحنا الدمشقي الأرثوذكسية وتحتوي على ١٣٠٠ مجلد .

✡✡✡

صدرت في دير الزور مجلة «الثقافة» وغايتها إحياء التراث العربي والأخلاق العربية الإنسانية والنبش عن الكفايات الدفينة وسد حاجات المثقفين .

✡✡✡

صدر في دمشق كتيب عن « الوحدة العربية ومشروع سوريا الكبرى والقضية الفلسطينية » للسيد رفيق كامل القطان .

✡✡✡

صدر في حماة الجزء الأول من كتاب «ثورة حماة على الطغيان الفرنسي» لواضعيه السادة قطان وحداد والشيخ سعيد .

✡✡✡

صدرت في دمشق مجلة فريدة في نوعها وهي « مجلة الطوابع » التي يصدرها نادي هواة الطوابع السوري ، ويحررها فخر الدين الصاحب .

العراق

نشطت وزارة المعارف في هذا العهد لتحقيق مشروع « الجامعة العراقية » فأعدت التشريع اللازم وأرصدت المبالغ والاعتمادات المالية المقتضية لكي تؤسس وتبدأ الدراسة فيها من العام الدراسي القادم .
وسيستعان بجماعة من الأساتذة الأوربيين والأمريكان للتدريس فيها ومن الأساتذة المصريين أيضاً ويتجه العراق في تأسيس جامعته اتجاهاً يجعلها قريبة كثيراً في سيرها وبرامجها مع الجامعتين المصريتين في القاهرة والإسكندرية .

✡✡✡

أنشأت وزارة المعارف في بغداد « متحفاً للتاريخ الطبيعي » يكون مرجعاً للدارسين من طلاب المدارس والأهلين بوجه عام ، واتخذ له بناية خاصة ، وأخذ الموكلون به من أساتذة الطبيعيات في جمع الحيوانات المحنطة ومتحجرات ونباتات ومحاصيل زراعية ولما كان العراق من البلاد النفطية فسيحوي هذا المتحف الشيء الكثير من مواد النفط ومستحضراته بجانب أنواع المعادن التي يحتويها .

✡✡✡

صدر الجزء الأول من كتاب « هاشم وأمية في الجاهلية » تأليف الأستاذ صدر الدين شرف الدين صاحب جريدة « الساعة » في بغداد ورئيس تحريرها ، وهو سفر تناول فيه المؤلف استعراض صفحات من التاريخ العربي والإسلامي دارت حول أقطاب من أمية وهاشم وعبد المطلب وأبي طالب وحمزة والعباس وجعفر والزبير ٠ ونزعة الكاتب هاشمية ، ومذهبه واضح .

✡✡✡

نشر الأستاذ موسى حبيب كتاباً موضوعه وعنوانه : « العراق وأمريكا بعد رحلة الوصي » ضمنه الصلات بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية ووصف رحلة سمو الأمير عبد الإله الوصي على عرش العراق إلى أمريكا بدعوة من رئيس جمهوريتها .

✡✡✡

فرغ الأستاذ إبرهيم الواعظ — رئيس المحاكم في الموصل — من تأليف كتاب في حياة « العباس بن الأحنف » وشعره وقد حلل فيه نشأته وميوله وحقق عن محبوبته (فوز) وحوادث هذا الشاعر الغزل كما هيأ شعره كله الذي تمكن من الوقوف عليه ليعيد طبعه في ديوان جديد مع هذه السيرة الوافية للشاعر .

ابراهيم الواعظ

✡✡✡

أتم الأستاذ أحمد حامد الصراف — القاضي في محاكم العراق — ومؤلف كتاب « عمر الخيام وحياته وأدبه » وضع كتاب عنوانه : « الزهاوي في أماليه ومجالسه » أودعه الكثير من بدوات الزهاوي وأفكاره وآرائه في الأدب والحياة وصلاته بمشهوري الأدباء والمفكرين من أبناء جيله .

أما « معروف الرصافي » الشاعر العظيم الذي فقده العراق في العام الفائت فما برح تلميذه الأستاذ مصطفى علي منهمكا في تأليف كتاب عنه يودعه ما عرفه في الشاعر الثائر الحر ونزواته الذهنية ومذهبه في الحياة ونظراته في مجتمعه في خلال ربع قرن .

الهند

أمرت الإمارة الإسلامية خيربور في مقاطعة بمباي بفتح أبواب جميع المدارس والأديرة فيها لطبقة المنبوذين الهندوكيين .

✡✡✡

قررت جامعة بمباي إنشاء عشر كليات جديدة في مدن مقاطعة بمباي المختلفة في هذه السنة .

✡✡✡

تبرع صاحب السمو مهاراجا كواليار بمبلغ خمسة وعشرين ألف روبية لجمعية التاريخ الهندية ،

ومن برنامج هذه الجمعية تصنيف تاريخ جامع مستخرج من أوثق المصادر للهند بلغات هندية مختلفة في أقرب فرصة .

✿ ✿ ✿

أقرت حكومة مقاطعة مدراس ميزانية قدرها ١٧٠٤٠٠ روبية لمكافأة الأساتذة الأجانب الذين سيدعون في السنة الحالية لإلقاء المحاضرات في العلوم والفنون في جامعة أندهرا فيها .

✿ ✿ ✿

ضمت حكومة المقاطعة الوسطى بالهند عشرة لك روبية إلى خمسة وعشرين لك تبرع بها المثري الكبير الدكتور هنري جندركور لإنشاء جامعة جديدة (راجع أنباء الهند في جزء فبراير) وبدأت تضع أساسها بقرب مدينة ساكر .

✿ ✿ ✿

قررت حكومة الهند إنشاء كلية حربية في مدينه جبلبور لتعليم أولاد الضباط الهنود في الجيش الهندي وسيشمل التعليم فنون الحرب البرية والبحرية والجوية .

✿ ✿ ✿

أقرت حكومة إمارة ريوا ميزانية قدرها ثمانمائة ألف روبية لتنفيذ مشروع خمس سنين لإصلاح التعليم فيها وستزداد الميزانية بعد خمس سنين إلى مليون وسبعمائة ألف روبية للتعليم الإلزامي .

انجلترا

نفد منذ سنوات كتاب «يقظة العرب» The Arab Awakening لمؤلفه الأستاذ جورج أنطونيوس وقد ظهرت أخيراً طبعة جديدة منه استجابة لرغبات كثير من القراء الذين يودون الوقوف على رأي سليم عن أماني العرب ومصادر نهضتهم واتجاهها .

✿ ✿ ✿

« الوقت في الشرق » Time in the East كتاب ظهر أخيراً لرجل قضى خلال الحرب أربع سنوات بين القاهرة وبيروت كما تجول في فلسطين وإيران ولبنان ، والكتاب يكاد يكون ترجمة لحياة صاحبه كما يحوي تحليلا وتقويماً لمن عرفهم من الناس . والكتاب حسن الديباجة باعث على المتعة على مافيه من استطراد ومن آراء تستحق النقد .

✿ ✿ ✿

« حرم الصحراء » Desert Sanctuary هو تاريخ حياة سيدة إنجليزية عاشت سنوات زوجة لشيخ عربي بين خيام البدو في أعماق الصحراء . وقد نشرت هذا الأسبوع ترجمة ممتعة لحياتها وليس من شك أنها تحفل بسحر الحياة العجيب في شمال أفريقيا .

✿ ✿ ✿

أعلن أخيراً عن الطبعة البريطانية لإحدى قصص الكاتب الأمريكي العالمي سنكلير لويس الحائز لجائزة نوبل وعنوان الكتاب Cass Timberlane ، وقد نشرت عنه بعض تعليقات النقاد الأمريكيين فكان منها أن هذا الكتاب مفعم بالنار والحنين ، ومليء بالسخرية والنقد اللاذع والتعلق الصريح على عبث الحياة الزوجية في العصر الحديث وعوزها إلى الجد والوفاء .

✲✲✲

« إن العمل هو المخدر الوحيد الذي لا يعجز البتة عن تمكين الناس من احتمال قوة الحياة» ، بهذا يقول ستاكبول في قصته الأخيرة Harley Street وهي كتابه السابع والستون . وهو يعيش في دار رحبة تطل على البحر ، ولا يزال يكتب ويؤلف وكثيراً ما يراه أهل القرية المجاورة في ملابسه الأنيقة يتردد على الحوانيت لابتياع حاجاته .

✲✲✲

وفد ١٤٠٠ مندوب إلى المؤتمر الذي دعا إليه اتحاد الصناعات البريطانية خاصاً بالصناعة والبحث . وقد كان منهم مندوبون عن أستراليا وكندا وأفريقيا الجنوبية ونيوزيلندا وفرنسا وبلجيكا والسويد والولايات المتحدة وروسيا وهولندا . وقد ألقيت عدة أبحاث في المؤتمر بعضها فني وبعضها يدور حول كيفية إعداد العلماء والباحثين وأهداف البحث وغاياته وطرائق التعاون فيه .

✲✲✲

أشاد النقاد أخيراً بمؤلف ظهر حديثاً عنوانه : .The Real life of Sebastian Knight ومؤلفه روسي ، تعلم في كمبردج ، يدور حول شخصية كاتب وما لاقاه من عسر وعقبات في سبيل النجاح وما تخلل حياته من أحداث وضرب في الآفاق .

✲✲✲

هبوب الريح «The Wind is Rising» عنوان قصة تصف كفاح شاب من الزنوج في أحدى الولايات الجنوبية بأمريكا وصراعه ضد عسف الرجل الأبيض واضطهاده إياه ، وصاحبه مرهف الشعور لا يعرف كيف يثير العطف فحسب بل يجيد الكتابة والتعبير .

✲✲✲

ذكر الأستاذ شوتون أستاذ علم طبقات الأرض بجامعة شفيلد ، في الحديث الذي ألقاه بالجمعية الجيولوجية بلندن عن الأعمال الجيولوجية الخاصة بغزو أوربا : أن علماء طبقات الأرض قضوا سنوات في دراسة أصلح الأمكنة للغزو وأنهم قرروا البقعة الصالحة بالضبط قبل نزول الجنود إلى أوربا بأكثر من سنة فدرسوا تكوين التربة وطبقاتها والمدة التى يستغرقها جفاف الأرض اذا ماغمرها المطر ومقدار صلاحيتها لإقامة المطارات إلخ وكان يزودهم بالمعلومات والعينات اللازمة رجال المخابرات السرية .

✲✲✲

توفي أخيرا الدكتور أليخين بطل الشطرنج في العالم إذ وجد في فندقه بالبرتغال منكفئاً على رقعة اللعب . ومما يذكر عنه أنه استطاع أن يلاعب ٣٠٠ خصم في آن واحد .

أمريكا

توفي الشاعر نسيب عريضة وقد كان عضواً بارزاً في الجالية العربية عمل سنوات كثيرة في الصحافة العربية بالولايات المتحدة وفي « الرابطة القلمية » وكان من زملائه في هذه الرابطة جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وعبد المسيح حداد وإيليا أبوماضي ورشيد أيوب ووليم كتسفليس

وأبرز آثاره منشورة في مجلته « الفنون » ثم في مجلة « السائح » التي أنشأها عبد المسيح حداد وللفقيد ديوان شعر لم يطبع سماه « الأرواح الحائرة » وله قصة « ديك الجن الحمصي » تغزل فيها بجمال الربيع في سوريا وتحدث عن اتحاد المسلم والمسيحي حديثاً ممتعاً . ولقد امتاز نسيب عريضة بوطنيته الملتهبة وصوته المدوي في آفاق العرب المهيب بهم إلى استرجاع مجدهم التالد وعزمهم الغابر وتتجلى هذه الوطنية العربية في منثوره ومنظومه ولا سيما في « قصة الصمصامة » وهي قصة سيف عربي معروض في متحف أخذ يحدث الشاعر عن فعال العرب وفتوحاتهم ثم عن إخلادهم إلى البذخ والترف والتخاذل ويود السيف لو جرد من الجوهر والحلي وأنقذ من سجنه ليعيد إلى العرب رفيع المجد والسلطان .

استأثرت رحمة الله بالفقيد في مطلع الربيع وهو الذي طالما تغنى بربيع بلاده وتمنى عودة إليه فصدق فيه قول حافظ في إسمعيل صبري :

أأول يوم لعهـــد الربيع تجف الرياض ويذوي الزهر

✡ ✡ ✡

ظهرت في أمريكا في الأيام الأخيرة عدة مؤلفات نذكر منها :

١ — « تقدم إلهة الحكمة مينرفا » Minerva's Progress

لمؤلفه الدكتور الفرد ا . كوهن وقد حاول المؤلف فيه أن يحلل المقدرة العقلية في الولايات المتحدة الأمريكية وأن يبين أسسها ودعائمها فذهب إلى أن لكل أمة تاريخها الخاص وتفكيرها الخاص ، وأن أمريكا قد ورثت جميع حضارات الأمم القديمة ، ولكنها تبتكر الآن حضارتها الخاصة المقبلة .

٢ — « الرسول » The Messenger لمؤلفه ر . ف . ك . بودلي

وهو كتاب عن حياة النبي محمد يستعرض فيه المؤلف أطوار حياته المختلفة : كتاجر ، وكزوج وكجندي ، وكحاكم ، وكمؤسس دين ..

٣ — « الرادار » Radar لمؤلفه أورين ق . دنلاب

وهو كتاب علمي مبسط يتناول هذا الاكتشاف العلمي الخطير « الرادار » ويحاول أن يبين بوضوح ما هو الرادار ؟ وكيف يستخدم ؟ وأين يستخدم ؟ وما هي طرق استخدامه في أوقات السلم ؟

٤ — « روايات شكسبير التاريخيـــة » Shakespear's History Plays لمؤلفه الدكتور تليرد .

وهو دراسة قيمة عن شكسبير وفنه يحاول فيها المؤلف أن يبين أسس رواياته التاريخية في عصر الملكة أليصابات . ويحاول المؤلف أن يبين كيف تكون هذه الروايات سلسلة متماسكة تكشف بوضوح عن آراء شكسبير الفلسفية إزاء حوادث التاريخ في زمنه .

٥ — « سيكولوجية الدين » Psychology of Religion لمؤلفه الدكتور بول ا . جنسون أستاذ سيكولوجية الدين بجامعة بسطون .

يحاول في هذا الكتاب تحليل مظاهر الحياة الدينية المختلفة على ضوء علم النفس الحديث فهو يدرس العبادة والصلاة والعقيدة الدينية والسلوك الديني دراسة تحليلية تسهل للإنسان فهم طبيعة الحياة الاجتماعية .

٦ — « لمن فلسطين ؟ » To whom Palestine ? لمؤلفه فرنك جرفاس

وهو كتاب يعرض مشكلة فلسطين من ناحية النظر الصهيونية ويحاول أن يبين حق اليهود في فلسطين في شكل تعسفي تظهر فيه بوضوح نزعة التعصب ، وتنهار فيه مقاييس المنطق .

روسيا

عثرت الجمعية الأثرية في قازان على نسخة من شهنامة أبي القاسم الفردوسي مكتوبة بلغة جغتاي وهذه اللغة مزيج من الإيرانية والتركية والأوزبكية ويعلق علماء الآثار على هذه النسخة أهمية أدبية وتاريخية .

☆☆☆

قامت أكاديمية جورجيا بتنقيبات في منطقة تريالتي أسفرت عن اكتشاف مدينة عريقة لها ارتباط وثيق بالحضارة الحديثة . ودلت الحفريات في منطقة فيسافي على نتائج مهدت السبيل لدراسة تاريخ العلاقات التي كانت قائمة بين روسيا والشرق .

☆☆☆

بلغ عدد ما طبع من مؤلفات ومسرحيات الكاتب ليونيد ليونيف عشرة ملايين نسخة في مدى ربع قرن ، وترجمت هذه المؤلفات إلى معظم اللغات الأوربية كما أن مسرحيته « الغزو » التي ظفرت بجائزة ستالين الأدبية مثلت على مسارح أوربا ؟ وقد منح هذا الكاتب أخيراً وسام الحرب الوطنية من الدرجة الأولى لمناسبة المجهود الصحفي الذي قام به في تحرير صحيفة « برفدا » في غضون الحرب الأخيرة .

☆☆☆

عاد من اليابان الشاعر قسطنطين سيمونوف بعد أن جمع عدة وثائق عن مرحلة الحرب الأخيرة واستسلام اليابان ليضمنها رواية تظهر له قريباً . ومما يذكر عن هذا الشاعر أنه اجتاز جميع قطاعات الجبهة السوفيتية الألمانية في غضون الحرب ليصف في مقطوعاته الشعرية ومسرحياته الغنائية حوادث الحرب الوطنية الكبرى .

☆☆☆

من أفلام السينما التي أحرزت نجاحاً منقطع النظير في الأسابيع القلائل الماضية فلم روسي يصور حياة العلامة بافلوف الملقب بأبي الفيزيولوجيا الحديثة وذلك لمناسبة انقضاء سنوات عشر على وفاته .

بافلوف ت ١٩٣٦

☆☆☆

يستعد المسلمون في روسيا لعقد مؤتمر عام في موسكو في خلال الأسابيع القادمة للبحث في شؤونهم العامة ولاختيار المفتي الأكبر للمسلمين في جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، والمرشح لهذا المنصب السيد عبد الرحمن رسول رئيس المجلس المركزي الإسلامي الذي يبلغ الخامسة والستين من العمر . وهو يتقن العربية ولغات أخرى وقد زار مصر والحجاز والبلاد العربية ، ويرشحون لسكرتارية المجلس الأستاذ زاكر ناصر أيوخان أستاذ الأدب في المدرسة العليا بباشكردستان ، وهو كذلك يجيد العربية وقد تلقى علومه في الجامعة المصرية القديمة فيما بين سنتي ١٩١١ و ١٩١٤ .

فرنسا

ظهر أخيراً كتاب عن الإسلام عنوانه : « الإسلام والعالم الحديث » L'Islam devant le monde moderne لمؤلفه ألفنس جوتيلي يعرض فيه للاسلام من الناحية الدينية والسياسية وهو دراسة تاريخية جغرافية للعالم الإسلامي ومحاولة لتحليل العوامل والجهود التي تبذل في سبيل وحدته . والكتاب جدير بأن يقرأه المفكرون في العالم الإسلامي وأن يتناولوه بالنقد والدراسة .

✡✡✡

« في بلاد السحر » Au pays de la magie عنوان كتاب جديد للشاعر هنري ميشو الذي وضعه جيد في مرتبة بدلير و رمبو . وهو كتاب عجيب مليء بألوان الخيال الجامح والرؤى العجيبة والفكرة الجديدة .

✡✡✡

يستعد اتحاد رجال الفكر لأن يقيم بباريس والأقاليم حفلات كبيرة إحتفاء بذكرى مرور ٣٥٠ سنة على ميلاد ديكرت منها حفلة أدبية كبرى يقيمها يوم ٢ مايو المقبل في مدرج السربون يتكلم فيها طائفة من الأدباء والمفكرين عن أثر ديكرت في الفكر الفرنسي الحديث .

✡✡✡

بناء على دعوة طلبة الفن في السربون قدم إلى باريس جماعة من النادي الأدبي في جامعة بركسل الحرة وألقت في ١٢ و ١٣ أبريل عدة محاضرات موضوعها : (في سبيل الشعر الواقعي) .

✡✡✡

نشر الكاتب المعروف إليان ج ... فنيير مقالا عن عواصم البلاد العربية التي تموج فيها الحركة الأدبية وقال إن القاهرة هي أكثر العواصم العربية استعداداً لتزعم الحركة الأدبية لما فيها من معاهد وكليات وجمعيات علمية وأدبية وفنية ثم عرض لذكر طائفة من الكتاب المصريين مبيناً الجوانب التي اشتهر بها كل منهم .



رسائل القرّاء

حقيقتان

. . . . قرأت في مجلتكم الزاهرة (م ١ ج ٤ ص ٥٣٥) فيما قرأت ، المقال الذي دبجته يراعة الكاتب المعروف الأستاذ محمد عبد الله عنان ، حول كتاب المستشرق (إيفانوف) ، فأعجبني ما به من نقد وتحليل للحوادث التاريخية . نعم عرض لأشياء في مبحثه أحببت الوقوف عند موضعين منها متأملا وباحثاً :

١ — قال (ص ٥٣٩) : « ويرجع سواد هذا الفريق المنكر نسبة الفاطميين إلى عبدالله بن ميمون القداح ، وهو فقيه فارسي من الأهواز ، وافر الذكاء والمعرفة ، يرجع إلى أصل مجوسي ، وقد كان يدعو سراً إلى مذهب إلحادي سري ، رتب على عدة درجات أو دعوات ، وكان يستتر بالتشيع ، ويدعو لإمام من آل البيت هو محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق الخ » .

ونحن نقول : إن عبد الله بن ميمون القداح هو فقيه شيعي إمامي ثقة ، يعتمد عليه فقهاء الشيعة في كتبهم المؤلفة في الحديث والفقه ، ويروي عن جعفر الصادق ، وأبوه ميمون يروي عن علي بن الحسين ومحمد بن الباقر وجعفر الصادق . ولعبد الله المذكور كتاب مبعث النبي (ص) وأخباره ، وكتاب صفة الجنة والنار ، ويروي عنه من رجال الشيعة المعروفين ، أبو طالب عبد الله بن الصلت القمي ، وجعفر بن محمد بن عبيد الله ؛ وإبرهيم بن هاشم القمي ، وأبو خالد صالح القماط ، وعبد الله بن المغيرة البجلي مولى جندب العلقي ، وحماد بن عيسى الجهني البصري ، ومحمد بن الحسن بن أبي الجهم ، وغيرهم من أعلام الشيعة ، نص على هذا كله جماعة من قدماء أصحابنا . ونقل رواياته كل من ألف في الحديث والفقه الجعفري الاستدلالي . فعبد الله المذكور لا يمت إلى الإسمعيلية بصلة من الصلات ، بل لم تكن في عهده هذه الفرقة ، إذ كان معاصراً للصادق والد إسمعيل ، فكيف يدعو إلى محمد بن إسمعيل بن جعفر الصادق ، وفي التاريخ كثير من هذه الأقاويل التي شوهت وجه الحقائق الناصعة ، وهذا لا يعني تصحيح نسبة الفاطميين إلى أهل البيت ، بل يعني فساد نسبتهم إلى هذا الرجل الذي كان مولى لبني

مخزوم ، وكان يبري القداح ، ولو كان فيه شائبة نسبة إلى الإسمعيليين أو غيرهم لنص على هذه النسبة علماء الرجال ، وقد عده ابن النديم في فهرسته المشهور من فقهاء الشيعة .

٢ — قال الأستاذ (ص ٥٤٢) : « وجمعت في العصر الأخير طائفة كبيرة من هذه الأحاديث — يعني الخاصة بقيام المهدي والدولة الفاطمية — في كتاب (بحار الأنوار) لمحمد الباقر بن محمد المتقي « الصحيح التقي » في عدة مجلدات (أصفهان سنة ١٣٠٨ هـ) وفي هذه الأحاديث إشارات كثيرة إلى نسبة الفاطميين والتنبؤ بظهور إمام من ولد علي بن أبي طالب ، والتدليل على صحة قيام المهدي الخ » .

وأقول : الأحاديث الدالة على قيام المهدي من كتب المسلمين — الشيعة والسنة — فوق حد التواتر ، نعم في تعيين هذا المهدي إختلاف عظيم بين الطوائف ، فجمهور السنة يقولون . إنه لم يولد إلى الآن ، والإسمعيليون يحملون هذه الأخبار على « مهديهم » والشيعة الإمامية الاثنا عشرية تحمل هذه الأخبار على إمامها الثاني عشر محمد بن الحسن ابن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) . والبون شاسع بين هاتين الفرقتين ، والأحاديث التي يرويها محمد باقر المجلسي في كتابه (بحار الأنوار) تؤيد مذهب الاثني عشرية ، لا مذهب الإسمعيلية ، وكلها تدور حول تعيينه وأشكاله وغيبته وأسماء الذين رأوه ورووا عنه الخ . وأين هذا من نسبة الفاطميين وتأييد دعوتهم وشرعية إمامتهم ، وصاحب بحار الأنوار كان مرجعاً عظيماً للشيعة في أوائل العصر الحادي عشر الهجري .

كما أن الخمسين حديثاً المختصة بالمهدي التي أوردها القاضي النعمان في كتابه « شرح الأخبار » لا تدل على قيام المهدي الفاطمي والدولة الفاطمية ، بل بعضها يتعلق بالإمام الثاني عشر عند الشيعة . وبعضها من الأحاديث العامة الدالة على قيام المهدي من ولد علي بن أبي طالب (ع) من غير تعيين له . والنعمان المذكور هو ابن محمد بن منصور أبو حنيفة المغربي جاء مع معز الدين الخليفة الفاطمي من الغرب إلى مصر . وكان من الفضلاء المشهورين . وكان مالكيا ثم انتقل إلى مذهب الإمامية . وله جملة كتب منها (دعائم الإسلام) الذي أشرتم إليه . ولم يرو فيه عمن بعد جعفر الصادق من أئمة الشيعة خوفاً من الخلفاء الإسمعيلية . حيث كان قاضياً منصوباً من قبلهم بمصر . وترجمه جماعة منهم ابن خلكان . وابن كثير الشامي . وصاحب تاريخ مصر على ما نقل عنهم غير واحد، وتوفي في رجب سنة ٣٦٣ هـ .

جبل عامل — البياض ابراهيم سليمان

ذنوب الدهر والشعر العربي

... بمناسبة كلمة الأستاذ بطرس البستاني « ذنوب الدهر والشعر العربي » المنشورة في الجزء الرابع من « الكتاب » ، أرى من المستحسن وإتماماً للفائدة أن أسجل على صفحات مجلتكم الغراء أنه لم يمدح الدهر من شعرائنا إلا واحد هو البحتري إذ يقول :

أيها الدهر حبذا أنت دهراً قف حميداً ولا تول حميدا

كل يوم تزداد حسناً فما تبعث يوماً إلا حسبناه عيداً

وعلى أمل أن تتفضلوا بنشر هذه الملاحظة أختم بإهدائكم شكري وتقديري ؟

البصة — فلسطين حنا فارس مخول

مدرس الأدب العربي في المدرسة الوطنية الثانوية

سناد الإشباع

في الجزء الخامس من مجلة الكتاب اطلعت على قصيدة « قمرية » مشعة للأستاذ الشاعر خير الدين الزركلي بعنوان « لم تف يا قمر » ، وهي في الحق الصراح قصيدة عامرة زاهرة كأنها العروس في ليلة البدر .. بيد أنني وقفت عند بيته :

جيشان : كل هب يحمي جانباً يتطاحنان : تباعداً وتقارباً

موقف العروضيين ، إذ أن في البيت خطأ يسميه أهل العروض « سناد الإشباع » وهو حركة الحرف الدخيل . فهي جاءت في الأبيات كلها بالخفض إلا في البيت السابق فحركته هي الضم ، وذلك هو « سناد الإشباع » . ويا ويل الشعراء من أهل العروض .✡

الزيتون عدنان اسعد

التفسير الصحيح للفظ Saracens.

عرض الدكتور زكي محمد حسن لتفسير هذا اللفظ في مقاله القيم عن « الفن الإسلامي : نشأته ومدارسه » المنشور في عدد فبراير من مجلة الكتاب الغراء ، ص ٥٠٣ ، هامش ١ ، فقال : « أكبر الظن أن كلمة Saracens من أصل يوناني

✡ نحيل الأستاذ الناقد إلى مقال الأستاذ الأسمر المنشور في هذا الجزء .

Saraceni ، كان الإغريق القدماء يطلقونه على البدو الذين كانوا ينزلون بادية الشام ، ولعله مشتق من كلمتي «شرق» و«شرقيين» ، ثم اتسع مدلول هذا اللفظ حتى شمل سكان شبه الجزيرة العربية عامة ، وفي عصر الحروب الصليبية غلب على سكان الشرق الأدنى من المسلمين الذين كانوا يقاتلون الصليبيين ، وامتد أحياناً إلى المسلمين في صقلية والأندلس».

وهذا هو الرأي الشائع في جميع كتب المستشرقين والمعاجم الأجنبية ، والشطر الأول منه صحيح — يقيناً لاظناً — أي أن أصل هذه الكلمة يوناني ، أما الشطر الثاني فغير صحيح ، بل هو خطأ شائع ، وقد وفقت منذ سنوات للعثور على نص عربي قديم ، ذكره « المسعودي » في كتابه « التنبيه والإشراف » يفسر معنى هذا اللفظ وأصله تفسيراً تاريخياً لغوياً ، صحيحاً وطريفاً ، قال في ص ١٤٣ (طبعة الصاوي ، القاهرة ١٣٥٧ — ١٩٣٨) : « وكانت ملوك الروم تكتب على كتبها « من فلان ملك النصرانية » ، فغير ذلك نقفور ، وكتب « ملك الروم » ، وقال : « هذا كذب ، ليس أنا ملك النصرانية ، أنا ملك الروم ، والملوك لا تكذب » ، وأنكر على الروم تسميتهم العرب « ساراقينوس » — تفسير ذلك « عبيد سارة » ، طعناً منهم على هاجر وابنها إسمعيل ، وأنها كانت أمة لسارة ، وقال : « تسميتهم عبيد سارة كذب » ، والروم إلى هذا الوقت (أي إلى وقت المسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ) تسمى العرب « ساراقينوس » .

هذا هو القول الفصل الصحيح في تفسير هذا اللفظ ، فاليونان لم يأخذوه عن اللفظ العربي « شرق » و « شرقيين » ، وإنما هو لفظ يوناني مركب من لفظين : « سارة » و « قينوس » أي « عبيد » ، فإذا عرفنا أن لفظة « قن » العربية بمعنى « عبد » ترجع إلى أصل يوناني اتضح أمامنا تفسير المسعودي واستقام .

الإسكندرية جمال الدين الشيال

رد الدكتور زكي محمد حسن

إن النص الذي نقله الأستاذ الشيال عن المسعودي لايكفي لتغيير آراء العلماء في اشتقاق كلمة Saracens ، فإن المسعودي لايمكن أن يتخذ حجة في اللغة اليونانية . وحسبنا أن « قينوس » في « سراقينوس » لايمكن أن يكون معناها « عبيد » وإنما هي — كما علمت من أساتذة اللغة اليونانية في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول — المقطع النهائي في تصريف الكلمة للمفرد المذكر. ولعل المسعودي كان متأثراً في هذا التفسير

بلفظ « قين » في العربية بمعنى عبد . وهو لفظ عربي قديم وليس له هذا المعنى في اللغة اليونانية .

والحق أن العلماء مختلفون في اشتقاق كلمة Saracens فغريق يزعم أن أصلها اليوناني مأخوذ من « السرقة » في العربية . ويرى آخرون أنه من « الشرق والشرقيين » ويرى غيرهم أنه من « الشريك » بينما يظن آخرون أنه مشتق من لفظ بمعنى سكان الصحراء ، والغريب أن بعض العلماء الأوربيين كتبوا أن العرب هم الذين انتحلوا لأنفسهم اسم Saraceni نسبة إلى سارة ليدلوا على أنهم من نسل سارة التي كانت سيدة حرة وليسوا من نسل هاجر .

وقد كتب الأستاذ موردمان Mordtmann مقالا نفيساً في دائرة المعارف الإسلامية (مادة Sarrasins) عرض فيه لكل هذه النظريات في اشتقاق الكلمة التي نحن بصددها . أما رأي المسعودي فخطأ بحت لأنه قائم على سوء فهم للكلمة اليونانية .

زكي محمد حسن

جمال الدين الأفغاني

... اطلعت في عدد مجلتكم الخامس على مقال للدكتور البحاثة عثمان أمين عن الزعيم الشرقي السيد جمال الدين الأفغاني . وقد استوقفتني الجملة الآتية : « لم يكن لجمال الدين الأفغاني ، وطن خاص يستقر به ، وإنما عاش منذ طفولته سائحاً جوابا ، فكان وطنه الشرق كله ! زار بلاد العرب ومصر وتركيا وأقام بالأفغان والهند وفارس . . الخ »

ذكر الدكتور المفضال هذا في حين غرب عنه — ولعله لا يعلم بذلك — أن السيد جمال الدين الأفغاني زار العراق ومكث فيه سنين عدداً ، وخاصة في مدينة « النجف الأشرف » حيث درس العلوم الدينية والفلسفية والأخلاقية ، ثم نزح من العراق إلى عواصم الشرق الأخرى ، ولا يزال حتى الآن في تلك المدينة العراقية حفدة ينتمون لهذا السيد المجاهد بأواصر القربى والنسب .

وهذا معنى من المعاني التي لم أر أي كاتب من أدباء الشقيقة العزيزة الذين بحثوا حياة الأفغاني الكبير ، يتطرق لذكره أو يلمح إليه ، ولعل مرجع ذلك لنزرة المصادر التي توقفهم على حقيقة الأمر .

بغداد جعفر آل ياسين



يونيو ١٩٤٦

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .
- جميع الحقوق الخاصة بما تنشره المجلة من مقالات ورسائل ورسوم محفوظة لدار المعارف للطباعة والنشر بمصر .
- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .
- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .
- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :

١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان .

١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى أو ما يعادلها .

-/ ٣ / ١ لإنجلترا

-/ ٧ / ١ أو $6\frac{1}{2}$ دولار للبلاد المنتظمة في اتحاد البريد العام

-/١٣/١ أو ٨ دولارات للبلاد غير المنتظمة في اتحاد البريد العام

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً

السنة الأولى — الكتاب — جمادى الثانية ١٣٦٥
الجزء الثامن — المجلد الثاني — يونية ١٩٤٦

عيد الجلوس

زُيِّنَ التَّاجُ بهِ عشْرَ سِنِيْنْ ... عاشَ زَيْنَ التَّاجِ أَعواماً مِئِيْنْ
لم يُفَصَّلْ تاجُهُ من عَسْجَدٍ ... ويواقيتَ ولا دُرٍّ ثَمِينْ
إنَّما صِيْغَ من الْحُبِّ جرى ... في الحنايا وتَمَشَّى في الوَتِيْنْ
مَلِكٌ كرَّمَهُ خالِقُهُ ... فحَباهُ بالرَّعايا المُخْلِصِيْنْ
أَخْلَصُوا لابْنِ فؤادٍ إنَّهُ ... نِعمةُ اللهِ على الوادِي الأَمِيْنْ

* * *

ذرَّ قَرْنُ العيدِ فاخْتالتْ لهُ ... مُهَجٌ طالَ عليهنَّ الحنِيْنْ
زخرتْ فيهِ المُنى وائْتلَفَتْ ... غايُ ربِّ العيدِ والمحتفِلِيْنْ
أَنْ يرَى أُمَّتَهُ هانِئَةً ... ويراهُ شعْبُهُ في الهانِئِيْنْ
فَرْحَةٌ فاضَ بها القلبُ كما ... فاضتِ النَّبْعَةُ بالماءِ المَعِيْنْ
فتجلَّتْ في التَّجاليدِ سَنًى ... وتلالَتْ في عيونِ النَّاظِرِيْنْ
وبدتْ في كلِّ وضَّاحٍ وفي ... كلِّ مطويٍّ على البشرى كَنِيْنْ:
في نشيدِ السِّحْرِ تفتنُّ بهِ ... مبدعاتٍ لَهَواتُ المُنْشِدِيْنْ

في قصيدِ الشِّعْرِ يجلو لفظَهُ | آيَ وحيِ الشّعراء المُلْهَمِيْنْ
في دراري الأرضِ في شُهُبِ السَّما | طلعتْ تبْسِمُ كالصُّبْحِ المبينْ
في اصْطِفاقِ الدَّوْحِ في لَحْنِ الرُّبى | في خريرِ النَّهْرِ يَسْبِي السَّامعينْ
في رفيفِ الزَّهْرِ في صفوِ النَّدى | في الشّذا يسطعُ يُسْرَى ويَمِينْ
في أنينِ الغابِ قد بَدَّلَ في | ليلة العيدِ غناءً بأَنِيْنْ
عيدُ فاروقٍ وفاروقٌ بهِ | بَسْمَةُ الْخُلْدِ على ثغرِ السِّنينْ

✡ ✡ ✡

جمعتْ بُرْدَتُهُ غضَّ الصِّبا | وَسَنَى المجدِ ولألاءَ اليقينْ
عَزَّ في أَعْرَقِ مُلْكٍ وزها | وجْهُهُ بالنُّورِ من تقوى ودِينْ
شَنَّها شعْواءَ حتى لا يرى | من فقيرٍ وجهولٍ وزَمِيْنْ
وغدتْ رحمتُهُ في شعْبِهِ | بَلْسماً يشفي جراحاتِ الحزينْ
وإذا الدَّهرُ نبا وانْتُهِكَتْ | حُرْمَةُ الغابِ مضى يحمي العرينْ
ينتضي الحقَّ سِلاحاً ماضياً | ويردُّ الضُّرَّ بالرَّأْيِ الفَطِيْنْ
وإذا ريعتْ لمصرٍ جارةٌ | فهْوَ للجارة في الْجُلَّى مُعِيْنْ
أَرْسَلَ الصَّيْحَةَ غضْبَى حطَّمَتْ | حلقَ السِّجْنِ وعادت بالسَّجِيْنْ
ورأى العِزَّةَ في جامِعَةٍ | يعملُ العُرْبُ بها مجتمعينْ
شادَ رُكْنَيْها وأَعْلَى صرْحَها | وحَماها دون كَيْدِ الكائدينْ
يا لَهُ من مَلِكٍ في مَلَكٍ | طاهرٍ رصَّعَ أُفقَ المالِكِينْ
عيدُهُ وَحْيٌ وَسِحْرٌ وَمُنًى | هتفتْ : عاشَ أميرُ المؤمنينْ

عادل الغضبان

سلام الله يا سوريا

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

دقت بشائر الأفراح فاختلجت أفلاك العرب والتفت الزمن يسمع نغمات الاستبشار تبعث بها المآذن من عليائها تسبيحاً لله وتكبيراً وتطلقها نواقيس الكنائس من قبابها ترتيلا وتهليلا وما هي إلا ألحان العزة والجذل تتساوق وتتآلف تآلف النفوس والقلوب فيستوعبها الأثير في موجه السبّاح ثم يطوف بها على قمم الجبال وبطون الأودية وصدور القفار في الحواضر والقرى والدساكر فيسمع لها صدى حبيب عزيز يقول : الله أكبر هللوا لله هذا يوم الجلاء . . .

مهرجان ولا كالمهرجانات إنه مهرجان الحق تألقت أنواره في مدائن سوريا وانبسطت أشعته إلى بلاد العرب جمعاء فانهزمت دونه دياجي الأتراح وكانت سوريا في ذلك اليوم المنارة العالية ترسل شعاعها الجوال إلى العيون والقلوب في قصي البقاع ودانيها فتغرورق المآقي بدموع الفرح تتلألأ في غمرة الضياء وتخفق الأفئدة مغمورة بسنى النعيم . . .

يوم أغر مشهّر سيظل أنشودة في فم الزمان وبسمة في ثغر الصباح . يوم ألهم الشعراء والخطباء بجوامع الكلم ونيرات القوافي فخلبوا الألباب وفتنوا النهى بأهازيج النصر وترانيم الظفر ينشدونها تحية لشعب صغير في عدده كبير في هممه نال الحرية والاستقلال . . .

فرحة فاضت بها الجوانح فانبثقت على أطراف الألسنة وجوانب الأحداق وتعالى صداها فغمر أجواء الفضاء وتغلغل في طبقات الثرى فاهتز الأبطال في مضاجعهم وسرت في الأضرحة واللحود رنة النبأ الكريم فاختلج كل رفات والتمع ثراك يا سوريا مشعاً ببسمات العبقرية تسطع من خلل التراب . . .

عرضتِ في ذلك اليوم جندك صفوفاً وردوداً فما راع رائيهم سلاح دجّجوا به أو فيالق منهم تطرف عين الشمس مثلما راع رائيهم إباء وشمم وإقدام وبطولة تتجلى في تجاليدهم وتبرز من عروقهم صائحة معتزة : هؤلاء بنو عبد شمس . ولقد شاطرتك شقيقاتك العربيات هذا العرض ببعض جندها وقوادها فما كان في النفوس منظر أبهج

من رؤية هؤلاء الصيّابة الأنجاب حفدة خالد وعمرو وسعد وأضرابهم يلتقون في صعيدك ويؤدون لك تحية الأخ لاخيه والمجاهد للمجاهد . . .

هو الاستقلال شريته بأغلى الأثمان من دماء شهدائك الأبطال المغاوير سفكوا دماءهم فداك فوق تربتك المقدسة فأنبتت لك ريحان العز والحرية وسيذكر التاريخ لأبنائك الغر الميامين في صفحاته النيرة أنهم انتزعوا لك النصر من جبهة الليث وقبة الفلك وأنهم قابلوا النار والحديد تقذفه فوهات المدافع والبنادق وكوى الدبابات بصدورهم العريضة وسواعدهم المفتولة وأفئدتهم التي لا تهاب الموت وما لبسوا ليوم الكريهة إلا دروع الحمية والشجاعة والتضحية ولا تقلدوا سلاحاً غير سلاح الحق وإنه لأكثر الأسلحة مضاءً وأشدها فتكاً بمهجة البطلان . . .

ولئن خرجت من جهادك بربوع مهدمة وأسوار مرقشة بثقوب الرصاص وصعيد مصطبغ بالنجيع الزكي إنها أوسمة الفخار وشارات العزة تنطق بالبذل والفداء وإنها مداد الخلود وحروف النور سطر لك بها التاريخ آيات الجهاد وستبقى هذه الآيات بينات خالدات ما بقي في الخالدين ذكر لداوود وجالوت وأثر من آثار كل فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله وفضل تدبيره . . .

ما كنتِ متجنية ولا ظالمة ولا كنتِ طالبة محال وخيال بل كنتِ طالبة حق لك في الحياة والحرية هي أول خيرات الحياة وما أنت من تستكثر عليها نعمة الحرية فإذا صح أن لا حرية إلا مع الذكاء والإقدام وأصالة الرأي فلك في كل هذه الصفات القدح المعلى فمن ينكر على السوري ذكاءه وإقدامه وأصالة رأيه وهذا ماضيه حافلا بجلائل الأعمال وهذا حاضره مزداناً بالتحفز والوثوب وأما المستقبل فمطبوع على مجد الماضي وعزة الحاضر :

إن اختفى ما في الزمان الآتي فقس على الماضي من الأوقات

إن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ولا بد لصرخة الحق المدوية المجلجلة أن تجد لها الصدى المرجو في نفوس تعترف بالحق ولو بعد حين ولا بد للثورة العادلة أن تؤيدها نفوس أمة هي أم الثورات :

دم الثوار تعرفه فرنسا وتعلم أنه نور وحق

فمحطمة البستيل والمنادية بحقوق الإنسان والباذلة من دماء أبنائها فى سبيل إقامة العدل ومساعدة الأمم الساعية إلى استقلالها لا تغشى عينيها طويلا غشاوة الأثرة والجشع فاليوم تعترف لسوريا بالاستقلال وغداً وإن غداً لناظره قريب تقر سواها على حقها

المهضوم فتجني من صداقة النفوس الحرة الأبية فوق ما تجنيه سياسة بعض بنيها الخرقاء من مطامع باطلة زائلة . . .

لقد عشقت أمة السين الحرية فخطبت ودها ومشت إليها على الدماء والأشواك وردّدت محاسنها حتى في صناعاتها وفنونها فإن غرست الشجر سمته شجر الحرية وإن ضربت النقود رمزت إلى الحرية فيها بغادة حسناء وإن تغنى شعراؤها تغنوا بجمال الحرية وإن استوحى مثّالوها ورسّاموها عرائس الوحي ألهمتهم أروع اللوحات والتماثيل عن الحرية وحسبنا أن نشير منها إلى لوحة أوجين دلاكروا وقد صور فيها الحرية تقود الشعب وإلى تمثال برتلدي وقد مثّل فيه الحرية تنير العالم وهو التمثال الذي أهدته الجمهورية الفرنسية إلى الولايات المتحدة عربون إخاء ومودة فهل لفرنسا أن تهدي اليوم إلى سوريا مثل هذا التمثال تنحته لا من الصوان أو الشبه بل تستوحيه من الروح التي تقدر للشعب السوري حقه في نعمة الحرية والاستقلال . . .

خلا لك جوك فطيري فيه فرحاً وخلت لك أرضك فامشي فيها مرحاً وتطلعت إليك العيون المغيظة والقلوب المحنقة تترقب لك العثار فتيقظي وحاذري ولتكن لك عبر الماضي القريبة نعم النصيح الهادي . . .

ستنعمين بمباهج الحياة في ظل الحرية وستتغير في ناظريك الحياة فلا ترين فيها إلا جمالاً ونوراً ولسوف تتجلى لك آية الحرية في فجرك الوردي وشمسك الساطعة ورياضك النضرة ولسوف تسمعين نشيد الحرية في هبوب النسيم وحفيف الشجر ووسوسة الزهر وخرير الأنهار وترنيم النواعير ولسوف تجدين بذور الحرية قد أزهرت وأثمرت في نباتك الزاكي ودوحك الباسق وريحانك العطر فضلا عن ازدهارها في روائع كتّابك وسطوعها في نفحات شعرائك وآثار علمائك ولسوف يُغذّى رضيعك بعد اليوم بلبان الحرية وينشأ وليدك وفتاك على دروسها بعد أن كان غذاؤهم ودروسهم الجهاد والجلاد . . .

شاء الله أن تكوني الباكورة فاهنئي وانعمي وسيري على بركة الله واحرصي على نعمة الاتحاد واقطعي دابر الفتن يوقظها الجبان والخائن والسمسار وانهضي بأعبائك الثقال بما هو مأمول في طلاب الحرية من ذكاء وإقدام وأصالة رأي يؤيدك الله بروح من عنده وتشد أزرك أخوات شقيقات سبقتهن في مضمار الحرية والاستقلال وأول الغيث قطر ثم ينهمر . . .

عادل الغضبان

الأسباب بين الغزالي وابن رشد

للأستاذ عباس محمود العقاد

الإمام الغزالي ينكر الأسباب ، ويعني بذلك أن الأسباب والمسببات حوادث مقترنة ليس إلا ولكن لا يلزم من اقترانها أن السبب ينشىء المسبب ضرورة ، ويقول : « فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا ، إلى كل المشاهدات من المقترنات في الطب والنجوم والصناعات والحرف » .

والفيلسوف ابن رشد يثبت الأسباب ، ويقول : « إن إنكار الأسباب الفاعلة التي تشاهد في المحسوسات قول سفسطائي . . وما أدرى ما يريدون باسم العادة : هل يريدون أنها عادة الفاعل ، أو عادة الموجودات ، أو عادتنا عند الحكم على هذه الموجودات ، ومحال أن يكون لله تعالى عادة . فإن العادة ملكة يكتسبها الفاعل ، فوجب تكرار الفعل منه على الأكثر ، والله تعالى يقول: (ولن تجد لسنة الله تبديلا) . وإن أرادوا أنها عادة الموجودات ، فالعادة لا تكون إلا لذي نفس ، وإن كانت في غير نفس فهي في الحقيقة طبيعية . . . . وأما أن يكون عادة لنا في الحكم على الموجودات فإن هذه العادة ليست شيئاً أكثر من فعل العقل الذي يقتضيه طبعه ، وبه صار العقل عقلا » .

هذه هي خلاصة القضية — قضية الأسباب — بين الغزالي وابن رشد . وقد أحسن الأستاذ فؤاد الأهواني عرضها في مجلة الكاتب المصري ، ولكنه عرضها في سياق يحتاج على ما نرى إلى تصحيح .

فقال مثلا : إن المسلمين اتبعوا الغزالي فتأخروا ، وإن الأوربيين اتبعوا ابن رشد فتقدموا . ولكن الواقع أن كتب الغزالي أحرقت كما أحرقت كتب ابن رشد ، وأن فقهاء الفلسفة الأوربية في القرون الوسطى قالوا بإنكار الأسباب كما قال بها فقهاء من المسلمين في الشرق والغرب ، فليس هذا التعليل الذي قال به الأستاذ الأهواني مما يؤيد الأسباب أو يشير إلى رابطة وثيقة بين العلل والمعلولات .

وقال مثلا : إن القضية بين الغزالي وابن رشد هي قضية العلم كله . أولا شن للعلم بهذه القضية في الحقيقة ، لأن العلم يعنى بتسجيل المشاهدات وتقييد التجارب ، والغزالي لا ينكر المشاهدات ، ولكنه يقول : إنها تثبت الاقتران ليس إلا ، ولا تثبت السببية على الإطلاق ، ويقول في مثل الاحتراق الذي ساقه الأستاذ الأهواني « إن الخصم يدعي أن فاعل الاحتراق هو النار فقط . وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو طبعه . ولكن هذا غير صحيح ، إذ أن فاعل الاحتراق هو الله تعالى بواسطة الملائكة أو بغير واسطة . وأما النار فهي جماد لا فعل لها ، وليس للفلاسفة من دليل على قولهم إلا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده ولا تدل على الحصول به » .

فالإمام الغزالي لا ينكر المشاهدات ، ولكنه ينكر أن يكون تتابع الحوادث دليلا على السببية ، وكل ما يدل عليه أنها حوادث يقترن بعضها ببعض ، ولا دليل على أن السابق منها ينشىء اللاحق بعده إنشاء الفاعل للمفعول .

ورأي الغزالي هذا هو الرأي الذي قال به — أو بما يقرب منه — صاحب مذهب الجاذبية ، إسحق نيوتن في ملحق التعريفات . فإنه يضرب المثل بجسم يتحرك من ألف إلى باء ، ومن باء إلى جيم ومن جيم إلى دال ، فلا يمكن أن يقال في هذه الحالة إن حركة الجسم من ألف إلى باء هي سبب حركته التالية من باء إلى جيم أو من جيم إلى دال ، وقد عرف نيوتن السبب في الفقرة الثانية عشرة من ملحق التعريفات « بأنه قوة تسلط على جسم لإحداث حركة » ، فهو يوافق الغزالي على أن الجسم جماد لا فعل له بغير قوة مسلطة عليه ، وينكر الأسباب على المعنى المفهوم في اللغة الشائعة ، لأنه يقول إن العمل المسبب هو العمل المقيد ، وإن الأجسام حين تتحرك بالنواميس الطبيعية تتحرك حرة بغير تقييد ، أو بغير أسباب .

وقد جاء نيوتن بعد الغزالي ، وجاء دافيد هيوم بعدهما ، فقال برأي الغزالي بنصه

ومعناه ، لأنه يقول إن المشاهدات تثبت المقارنة ولا تثبت السببية على الإطلاق . فالمدفع إذا أطلق رؤي بريقه قبل أن يسمع صوته ، ويتكرر هذا كل مرة عند كل إطلاق ، فلا يمكن أن يقال من أجل هذا إن البريق سبب الصوت ، وإنه هو الذي أحدثه في الأسماع . ويشبه هذا المثل مثل أصحاب ديكرت عن ساعة تدق ، وساعة أخرى تدق بعدها على الدوام ، فلا يمكن أن يقال إن دقات الساعة الأولى هي سبب منشىء لدقات الساعة الثانية ، وهكذا كل تلاحق في الحوادث والمشاهدات .

ومذهب « كنت » الفيلسوف الألماني الكبير — تلميذ دافيد هيوم — يقول بالأسباب ، ولـكنه يقول بأن السبب حادث سابق . وهو قريب من القول بأن الأسباب والمسببات هي حوادث متلاحقة وتسلسل في المشاهدات .

على أن العلم الحديث لا يذهب في تقرير الأسباب إلى أبعد من القول بأنها مشاهدات مقترنة . وقد عرض العالم العصري الكبير برترند رسل لمسألة الأسباب في العلم الطبيعي ، فقال في كتابه عن تاريخ الفلسفة الأوربية (ص ٦٦٩ طبع أمريكا) : « أما فيما يخص العلوم الطبيعية فالقول بأن ا تسبب ب لا يقبل بحال من الأحوال ، وإنما نميل إليه بحكم العادة والاقتران » .

فالغزالي لا ينقض مشاهدات العلم حين ينكر ضرورة الأسباب ، ولـكنه يبحث المسألة من الوجهة الفلسفية ، لا من الوجهة العلمية المقصورة على التجارب والمشاهدات ، وإنما تنظر الفلسفة إلى الأصول الكبرى ، ولا تتقيد بالعلل القريبة أو التجارب المتفرقة . ولولا البحث في الأصول الكبرى والأسباب الأصيلة لما كان للفلسفة وجود .

وعقل الغزالي القوي يأبى أن يقبل أن الظواهر المادية هي أسباب الحوادث بطبيعة مستمدة منها ملازمة لها مستقرة فيها . لأن التسليم بهذا تسليم بوجود مئات أو ألوف من المادات كلها خالد ، وكلها موجود بذاته ، وكلها مع ذلك مؤثر في غيره ، وهو مستحيل .

فهل هناك ألوف من المادات ، أو هناك مادة واحدة ؟ إن كان هناك ألوف من المادات كلها خالد بصفاته وطبائعه ، فمن العجيب في العقل أن يكون الخالد مؤثراً في خالد مثله ، وأن يوجد الشيء منذ الأزل بطبيعته وخصائصه ليؤثر في شيء آخر موجود مثله منذ الأزل بغير تلك الخصائص وغير تلك الصفات .

أما إن كانت هذه الخصائص تحولات ترجع إلى مادة واحدة في القدم فقد بطل أنها هي أسباب الحوادث بطبعها ، وتعين أن تكون عارضة تؤثر بما أودع فيها على حسب

تلك التحولات التي ترجع في النهاية إلى مصدر واحد لا تعدوه .

ولو كان ابن رشد من الفلاسفة الماديين لجاز أن يقول إن مصدر الأسباب كلها هو المادة الأولى . ولكن ابن رشد — مع اعتقاده قدم المادة — يقول بالعقل الأول ، ويقول إنه هو مصدر الحركة في الكون ، أو هو الفاعل الأول في تعبير المتكلمين . فإذا كان هذا اعتقاده لزاماً فما هو الفرق في أصول الرأي بينه وبين الغزالي حين يقول هذا : « إن الأشياء تعمل بما أودعه الله فيها من القوى ، وإنها يجوز أن تعمل بإرادة الله على غير ما نراه من هذه المشاهدات والمقارنات » ؟

إن ابن رشد يرمي الغزالي بالسفسطة ، والسفسطة في الحقيقة من عنده ، إذ يزعم أن تبديل كلمة الطبيعة بكلمة العادة تنتقل بنا من الخطأ إلى الصواب . وإلا فما هو الفرق بين قول الغزالي إن اقتران المشاهدات عادة وبين قول ابن رشد إن اقترانها طبيعة ، عند النظر إلى الأسباب والمسببات ؟ هل مجرد القول بأنها طبيعة بدلا من القول بأنها عادة يكسب الأشياء قوة التسبيب التي تثبت لها إنشاء الحوادث واستلزام المشاهدات ؟

لقد دقت التفرقة بين القول بالفاعل الأول والقول بالعلة الأولى على فيلسوف آخر من فلاسفة الأندلس المستشرقين فيما بعد ، وهو موسى بن ميمون . فقال : « إن الفلاسفة يسمون الله تعالى العلة الأولى ، والمتكلمون يهربون من تسمية الله بالعلة الأولى والسبب الأول ، وهؤلاء المشهورون بالمتكلمين يهربون من هذه التسمية ويسمونه الفاعل ، ويظنون أن هناك فرقاً عظيما بين سبب وعلة من جانب وبين فاعل من جانب آخر ، لأنهم قالوا : إن قلنا إنه علة لزم وجود المعلول ، وهذا يؤدي إلى قدم العالم ، وأن العالم له على جهة اللزوم ، وإن قلنا فاعل فلا يلزم من ذلك وجود المفعول معه ، لأن الفاعل قد يتقدم فعله ، وهذا قول من لا يفرق بين ما بالقوة وما بالفعل . والذي نعلمه أنه لا فرق بين قولك علة أو فاعل في هذا المعنى ، وذلك أنك إذا أخذت العلة أيضاً بالقوة ، فهي تتقدم معلولها بالزمان » .

والحقيقة أن الفرق عظيم بين القولين كما رأى المتكلمون ، لأن الفرق بينهما هو الفرق بين فهم الأسباب على أنها حوادث مقترنة وفهم الأسباب على أنها علل متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض بحال ، سواء أكانت أسباباً بالفعل ، أم أسباباً بالقوة على تفسير ابن ميمون .

ولسنا نوافق الأستاذ الأهواني على التشابه بين مذهب الغزالي ومذهب ملبرنش (Occasionalism) إذ يفسر الاقتران بين مؤثرات العقل وآثار المادة بالمضارعة

في الزمان . فإن ملبرنش وإخوانه يرون ذلك لأنهم ينكرون أن تؤثر الأسباب العقلية في الأجساد المادية لاختلاف العنصرين ، فإذا ظهر لنا أن هذه الأسباب العقلية تحدث الآثار المادية ، فإنما يظهر لنا ذلك لأن إرادة الله تجمع بينهما في زمان واحد ، فيبدوان لنا كأنهما متلازمان تلازم الأسباب للمسببات .

هذه خلاصة مذهب ملبرنش وإخوانه الذين نفضل أن نسميهم بالمضارعين .

أما الغزالي فلا ينكر أن يؤثر العقل في المادة أو تؤثر الروح في الجسد ، وقد نقل عنه الأستاذ الأهواني ذلك حيث قال : « إن فاعل الاحتراق هو الله تعالى بواسطة الملائكة أو بغير واسطة » .

فلا تشابه بين المذهبين ، ولا موجب عند الغزالي لتفسير آثار العقل في الأجسام بمذهب المضارعة في الزمان .

وإن الغزالي لأكبر عقلاً من نظرائه حين يرد الأسباب كلها إلى سبب واحد ، وحين يفضل أن يكون مصدر هذا السبب الواحد من الله لا من المادة أو الجماد كما قال . فإن نظراءه يستصعبون هذا التفسير ، لأنهم يتصورون أن إبداع الطبائع في الموجودات بإرادة الله السرمدية مشقة تحتاج إلى وقت وانتقال من مكان إلى مكان ومن مادة إلى مادة . ولو أنهم تجردوا من فهم الزمان كما يفهم بالساعات اليدوية ، أو تجردوا من فهم القدرة الإلهية كما يفهمون قدرة الصانع الصاعد الهابط على السلم لإضاءة هذا المصباح و إطفاء ذاك — لعلموا أن انبعاث الطبائع من الإرادة الإلهية أسهل من انبعاث النور في قطر كامل بضغطة على مفتاح ، وأنه أيسر شيء يتخيله العقل ، لأنه لا عائق له من قبل العقل ، ولا من قبل الخيال ، ولا من قبل الواقع المحسوس . وما الواقع المحسوس وما جهود العمل فيه إذا كان الزمان كله بالقياس إلى الفاعل الأول مخلوقاً لا فرق بينه في الصعوبة أو السهولة وبين سائر المخلوقات ؟

قال رينان : « إن الفلسفة العربية لم تنجب عقلا مبتكراً كعقل الغزالي » ، ولو شاء رينان لقال ولم يعد الصواب : إن عقل الغزالي من أكبر العقول في ميادين التفكير كله ، لا في ميدان الفلسفة العربية وحدها . لأنه يناقش مذاهب الفلسفة مناقشة العقل الذي يعلو عليها ويفهم ما فات أصحابها أن يفهموه ، وليست مناقشته لها كمناقشة القاصرين عن فهمها والنفاذ إلى براهينها والقدرة على استكناهها . فهو لم ينقض قط فكرة لأنه عاجز عن فهمها ، وإنما ينقضها لأنه قادر على فهمها ونقدها وتكميلها بالإضافة إليها أو التعقيب عليها . وما كان إنكاره للأسباب إنكار من

يعجز عن ربطها ومراقبة التسلسل بين مقدماتها ونتائجها ، فليس أقدر منه على ربط النتائج بالمقدمات . ولكنه أنكرها لأنه ذهب معها إلى غاية مداها ، فلم ير فيها إلا أنها مشاهدات مقترنة يسبق بعضها بعضاً ، ولا ينتج من هذا السبق ضرورة أن المتقدم فيها منشىء للمتأخر في الزمان ، كما أن زقاء العصافير قبل كل فجر لا ينشىء الفجر ، ولا يخرج الضياء من الظلام ، وكما أن حضور القطار في كل صباح لا يلزم منه أنه سبب لحضور القطار في كل ضحى أو في كل ظهر أو في كل مساء ، وقد ألهمه عقله الكبير أن تواتر الاقتران ألف سنة لا يعطيه من اللزوم العقلي فوق ما يعطيه التواتر في سنة واحدة ، إذ كانت الاحتمالات في تقدير الرياضة غير الاحتمالات في تقدير الفلسفة . فإن مليون احتمال متراكب قد تنتهي في تقدير الفلسفة إلى صفر ولا تزيد ، ثم تظل كذلك حتى ينتفي الصفر بالبرهان القاطع ، فإذا هو يقين واحد أقوى من المليون في حساب الاحتمال .

ولسنا نعصم الغزالي من الخطأ في التفكير ، ولكننا نعلم أن تخطئته من أصعب الأمور ، وأنها أحق شيء بالتأخير إلى أن تبطل معاذير الصواب . فإنه ليعرف ما يقول ، وإنه ليقوله بعد أن يعرف كل ما يقال .

عباس محمود العقاد

تفسير لطغيان الحجاج بن يوسف الثقفي

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

كان الحجاج بن يوسف الثقفي من أفذاذ أشخاص التاريخ بغير جدال . وليس من السهل على مؤرخ أن يكتب له سيرة عادلة ، لأنه كان يعيش في عصر مضطرب أشد ما يكون الاضطراب ، وتحيط به أهواء متعارضة وتيارات متصادمة أشد ما يكون التعارض والتصادم . واقتحم الحجاج ذلك العصر المضطرب بكل ما فيه من عنف ، كأنه شهاب ناري يحرق ويحترق ، وترك وراءه شعلة من أثر نيرانه دمرت وهدمت ، فإذا باللمعة الباهرة تنطوي في دخان وظلام .

ولهذا لا تملك الأجيال المتعاقبة إلا أن تتأمل صورته وتتأثر بروعة قوته ، ثم تعجب من شخصية خفية غامضة تتأبى على الإيضاح والتفسير ، ويقل أن يمر الناس بمثلها بين شخصيات التاريخ . عاش الحجاج ما عاش في حياة عنيفة لا دعة فيها ، وشارك ما شارك في الحوادث الخطيرة ، لا نكاد نجد فيه ناحية مما نسميه عادة بالإنسانية .

ولقد روي عنه أنه لم يعرف الضحك في حياته ، إلا أنه تبسم يوماً عند ما وفدت عليه ليلي الأخيلية الشاعرة التي عرفها الناس من تشبيب توبة بن الحمّير بها ، ورثائها لتوبة بعد موته في قصائدها . قيل إن الحجاج تبسم عند ما دخلت عليه وحدثته وهي عجوز حديث حبها وسمع منها بعض شعرها وشعر توبة فيها .

ولم يكن للحجاج أصدقاء ، ولم يكن هو صديقاً لأحد . وتقرب إليه ألوف من الناس عن رهبة أو عن رغبة ، وتقرب هو إلى الخلفاء أو الأمراء كذلك عن رهبة أو عن رغبة . ولكنه لم يتخذ من الناس أحداً يأوي إليه يحدثه على خلاء ، أو يفضي إليه بما يفضي به الناس بعضهم إلى بعض إذ يتواسون أو يتشاركون في تبادل الفكرة ويخلعون عنهم هموم الحياة الصاخبة حيناً . لم يعرف عن الحجاج شيء مثل هذا الذي نسميه الإنسانية ، فلم يكن بينه وبين الناس إلا أمر وطاعة . ولا نستطيع أن نجد الكثير بين شخصيات التاريخ من يشبهونه في كراهة الناس له ، فقد كان الناس يبغضونه من أعماق قلوبهم ، وكم جرهم ذلك الكره إلى الثورة وسفك الدماء . وكم جر ذلك الكره

قواده إلى إعلان العصيان وشق عصا الطاعة وما نشأ عن ذلك من الحروب العنيفة ، وكم جر ذلك الكره فوق هذا كله إلى المؤامرات الخفية والدعوة العدائية للدولة الأموية في السر ، حتى انتهى الأمر بزوال ملك بني أمية بعد وفاة الحجاج بما لا يزيد على ثلاثين عاماً .

فشخصية رجل مثل هذا لن تزال تسترعي النظر والاهتمام ، وتجتذب الفكر والبحث ، شأنه في ذلك شأن هؤلاء الجبابرة من البشر الذين ملؤوا الأرض حركة وعنفاً ، من أمثال تيمور وجنكيز خان ونابليون وهتلر ، مع فارق واحد ، وهو أن الحجاج لم يكن ملكاً ، ولم يكن له الفضل في بناء دولة من الدول وتجميع كتلة بشرية نحو غاية ؛ لأنه إنما كان يسطو بسيف وضع له في يده ، ويُدل بسلطان لم يكن له فضل في بنائه . ولسنا نتعرض في هذه الكلمة لحوادث العصر الذي عاش الحجاج فيه ، فإن ذلك لايتسع له إلا كتاب مطول في سفر بعد سفر ، وذلك العصر أحفل عصور الإسلام بجلائل الأحداث ، ولسنا نغالي إذا قلنا إنه كان عصر التحول الأعظم في حياة الأمة الإسلامية في كل مناحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وحسبنا هنا أن نلم ببعض الإلمام بالحجاج الرجل ، لعلنا نلمح من بين الأقوال المتضاربة فيه ما يصوّر لنا شيئاً قريباً من صورته .

ولد الحجاج في مدة الخليفة معاوية بن أبي سفيان حوالي سنة ٤١ للهجرة ، (أي في عام ٦٦١ للميلاد) في قرية الطائف موطن قومه «ثقيف» . والطائف في إقليم جبلي عال معتدل الهواء في الصيف، وتكثر فيه البساتين والعيون، وهو من الأقاليم القليلة التي تخرج الطيبات من الثمار والفاكهة في جزيرة العرب. ولأهل الطائف امتياز في الثقافة ، ولا تخلو نفوسهم من الشعور بالتعالي والاعتزاز بالنفس ، وكانت مقاومتهم في عصر النبوة من أشد ما لقيت دولة الإسلام في أول عهدها . فنشأة الحجاج في تلك القرية ذات دلالة كبرى في تفسير ناحية من سيرته ، إذ كان يحسّ في قرارة نفسه أنه ينتمي إلى قوم لهم ميزة قديمة تجعلهم أنداداً لسادة العرب من قريش .

وكان أعداء الحجاج يعيرونه بضعة النسب ، إذ يزعمون أن أجداده كانوا من البنائين الذين يحفرون الآبار للبساتين ، وذهب بعض الرواة إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه أرسل إليه يوماً كتاباً يهدده فيه ويوجه إليه أعنف الأقوال ويشير في كتابه له إلى ضعة نسبه . ولكن أقوال هؤلاء لا ينبغي أن تؤخذ على أنها صحيحة ، لأن في الحقائق الثابتة ما يدخل الشك إليها . ويجعلها أقرب إلى أن تكون من مبالغات الشعراء ، ومفتريات الأعداء ، الذين كانوا يتلمسون في هجائهم له من المعايب ما يسير على ألسنة الكارهين له . ولا شك في أن الحجاج كان كريهاً إلى الناس .

ويكفي أن نعرف أن أمه هي الفارعة ابنة همام بن عروة بن مسعود ، وجده عُروة هذا من أكابر قومه في عهد النبي ، وقد نزلت فيه آية من القرآن سمي فيها « عظيم القريتين » ، وما كان لأهل بيت « عظيم القريتين » أن يرضوا بنسب رجل وضيع من نسل بنائين يحفرون الآبار ، والعرب ما زالوا منذ القدم يحرصون على تزويج نسائهم للأكفاء . وكانت الفارعة قبل زواجها من يوسف بن الحكم أبي الحجاج مطلقة من زوجها الأول المغيرة بن شعبة ، وهو فارس سيد بغير نزاع . فلنا أن نزعم أن يوسف بن الحكم كان من أنداد المغيرة عند ثقيف .

وكان الحجاج فوق هذا يعير بأنه كان في شبابه يعلم الصبية في مكتب القرية . ولسنا ندري إذا كان في ذلك الأمر عار ، ولكن أعداؤه كانوا يرددون هذا المعنى في شعرهم ، فقال مالك بن الريب :

فإن تنصفونا يالَ مروان نقترب إليكم وإلا فأذنوا ببعاد
فإن لنا عنكم مزاحاً ومزحلا بعيسٍ إلي ريح الفلاة صوادي
ففي الأرض عن دار المذلة مذهب وكل بلاد أُوطنت كبلادي
فماذا ترى الحجاج يبلغ جهده إذا نحن جاوزنا حفير زياد
فلولا بنو مروان كان ابن يوسفٍ كما كان عبداً من عبيد إياد
زمان هو العبد المقرّ بذلة يراوح صبيان القرى ويغادي

وقال آخر ، ويسمى الحجاج في شعره « كليباً » :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى وآخر كالقمر الأزهر

فالشاعر الثاني يعير الحجاج بأنه معلم يأخذ الرغفان من الصبيان أجراً على تعليمهم ، فبعضها يختلف عن بعض في شكله بين مستطيل لا دورة له وبين مستدير مثل القمر ، لأنها من بيوت مختلفة .

وقال أحد أهل الطائف يعير أهل العراق بظلم الحجاج :

كليب تمكن في أرضكم وقد كان فينا صغير الخطر

ولكن هذه الأقوال كلها إذا دلت على شيء ، فإنما تدل على أن أهل ذلك العصر كانوا لا يجلون إلا صناعة واحدة وهي صناعة السيف ، وليس في أقوالهم ما يدل على نقص في الحجاج .

ومهما قيل في ذلك فالحقيقة الثابتة هي أنه كان منذ شبابه قارئاً كاتباً فصيح

اللسان راوياً للشعر الجيد. وقد كان لذلك أثر عظيم في حياته؛ لأن العرب كانوا مع شدة كراهتهم لشخصه لا يملكون أنفسهم من الإعجاب بفصاحته، وكثيراً ما كان بيانه المتدفق ولسانه الذلق يجعلان الناس يستمعون إليه مأخوذين مبهورين كأنهم في حضرة عملاق جبار.

ولعل السر الأعظم في حياته كلها كان كامناً في أمر صغير قلما يأبه له مؤرخ حياته، وقلما يفطن الناس إلى حقيقته؛ وذلك أنه كان منذ صغره قبيح الصورة مشوهاً ضعيف الجسم، يكاد المؤرخون ورواة الأدب جميعاً يتفقون في أنه كان إلى آخر حياته ضئيلاً معتلّ الصحة، وكان لا يقوى على الثبات على الخيل، ولا تكاد ساقاه الهزيلتان تقويان على حمل جسمه. وقد مات في سن مبكرة لا تزيد على نيف وخمسين عاماً، إذ مات في عام ٩٧ للهجرة، ويدل وصف مرضه الأخير على أنه أصيب بشيء يشبه أن يكون السرطان في المعدة أو الأمعاء.

هذه هي الحقيقة الصغيرة التي كان لها أعظم الخطر في توجيه حياته، ولا يكاد أحد يقف عندها لحظة ليسائل نفسه عن أثرها. فلا يذكرها المؤرخون إلا على أن فيها إشارة إلى عيب في الخلقة الجسمية، يريدون بذلك مجرد النيل من الحجاج. وقد بالغ أعداؤه في تصوير تشويهه حتى بلغوا حد الإغراق، وإنا لنعجب أن بعض المؤرخين يذكرون عنه من القصص ما يدل على مقدار تأثير كراهة أعدائه له، فيما أدخل على أخبار التاريخ من الخلط.

روى المسعودي في مروج الذهب أنه عند ما ولد الحجاج لم يرض أن يأخذ ثدي أمه، وأنه كان مسدود الشرج حتى فتحوا له فتحة صناعية بالجراحة! وقال المسعودي إن أهله ذهبوا به إلى الحرث بن كلدة طبيب ثقيف يستشيرونه في الطريقة التي يعالجونه بها ليرضى بأن يرضع من أمه؛ فوصف لهم أن يذبحوا له جدياً أسود في اليوم الأول فيسقونه دمه، وكذلك في اليوم الثاني، ثم يذبحوا له في اليوم الثالث ثعباناً سالخاً «شديد السم» فيدهنوا بدمه وجهه!

وظاهر في مثل تلك القصص أن أعداء الحجاج لم يترددوا في اختراع الأخبار وتلفيقها حتى يبدو في نظر الناس مخلوقاً شاذاً شيطانياً.

ولسنا نريد أن نقول إنه لم يكن في حياته جديراً بأن يقول فيه أعداؤه مثل هذا القول، ولكن الجدير بنا — إذا أردنا استجلاء صورته — أن نبعد مثل هذه التهاويل.

والأمر الجدير بأن نقف عنده في كل ذلك هو الأثر النفساني الذي كان لهذه الخلقة المشوهة في سيرة حياة الحجاج.

لم يكن الحجاج رجلاً عاديًّا في نفسيته ، فإن سيرته كلها تشهد بما كان يعتاده من دوافع وحشية تنم عن الشذوذ والمرض . فكان يسفك الدماء لسبب ولغير سبب ، وكان يحب التعذيب ولا تعتريه خلجة ألم من مناظر المتألمين ولا من سماع أنين المتوجعين . وإنه ليطول بنا القول إذا أردنا أن نذكر أمثلة من نوادره في القسوة ، وحسبنا أن نذكر قوله هو، إذ وصف نفسه بأنه أجرأ الناس على سفك الدماء. وقد وصف نفسه مرة أخرى للخليفة عبد الملك بن مروان ، إذ سأله أن يصف له نفسه ، فاستعفى من الجواب مراراً ، فلما ألح الخليفة عليه قال له : « إني لجوج لدود حقود حسود » . ولسنا نشك في أنه قد نطق بالحق .

وفي هذا الوصف ما يدل على أنه كان مصاباً بالتواء نفساني ، يحاول علماء النفس أن يعللوه بطرق شتى ، ذلك الالتواء الذي يجعل ضحيته شخصاً ثائراً على المجتمع ، لا يحس نحو الناس إلا العداوة والكراهة ، ولا تعطفه عليهم رحمة. فمثل هذا المريض إذا كان يقسو ويبطش فإنما ينفس بذلك عن شعور باطني خفي على الناس وعليه نفسه ، لا ينبعث إلى ذلك إلا بدافع في أعماق نفسه ، يحمله قسراً على مسلكه الوحشي ، ليعوض عن شعور عميق بأنه منبوذ محروم محتقر . فالحجاج مذ كان في طفولته قبيح المنظر قصير القامة ضئيل الجسم كان يحس نقصه ، في حين كان يعرف مميزاته وينطوي على شعوره بما فيه ، ولا يزال يرثي لنفسه ويحقد على الناس كلما رآهم يتمتعون وهو محروم ، ويتآلفون وهو منبوذ ، فلا يكون له همّ في الحياة إلا أن يجد وسيلة يحقق لنفسه بها وجوداً في المجتمع ، وإن كان بالقسر والطغيان ، فإذا هو لم يستطع أن يكون مع الناس فليكن عليهم ، وإذا لم تواته الخلقة ليألف ويؤلف فليكن عدوًّا ، وإذا كان المجتمع يريد أن ينبذه فلن يرضى بأن يحل فيه إلا بالعنف والسلطة .

كان يرى لداته من الشبان يذهبون إلى الحروب فيضربون في أطراف الأرض ، ثم يعودون بالمجد ويفوزون بالغنائم من فارس والتركستان والهند ، على حين كان هو قعيد قريته قانعاً بتعليم الصبية في الطائف ، ولا يجد من جسمه ما يواتيه ليكون بينهم في كتائب الفتح . فكان يضمر في نفسه همة يضعف عنها جسمه ، وآمالاً تتضاءل دونها مواهبه ، فكان يتحرق شوقاً إلى الفرصة التي تسنح له ليظهر نفسه ويجتذب الأنظار إليه . ولكن العصر كان لا يعترف إلا بفرسان الكتائب ، الذين يضربون بالسيف ويطعنون بالرمح ، ويركضون فوق الخيل كأنهم سعالي الجن . فلا عجب إذا كان يتربص للفرصة ويثب عليها إذا هي سنحت له ، وقد اتهمه أعداؤه بالجبن ، فقال شاعرهم مثلا :

هلاَّ برزت إلى غزالة في الوغى بل كان قلبك في جناحيْ طائر
أسد عليَّ وفي الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصافر

وغزالة هذه امرأة من الخوارج كانت مشهورة بشجاعتها في الحرب، فالشاعر يعيره بأنه لم يخرج إليها ليقاتلها وهو أمير على العراق ، ويتخذ من ذلك دليلاً على أنه جبان في الحرب . ونحن لا نستطيع أن نتهمه بالجبن لأنه وهو حاكم على إقليم عظيم لم يخرج لمنازلة امرأة من الخوارج .

وقد وقع في مثل هذا الخطأ بعض المؤرخين ، مثل « جان بريبه » ، فإنه يتخذ دليلاً على جبنه أنه فر وهو شاب من موقعة حارب فيها وهي موقعة الربَذَة ، التي كانت بين جيش مروان بن الحكم وجيش منافسه عبد الله بن الزبير ، فإذا كان الحجاج قد فر في تلك الموقعة فإنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن تمزق جيش مروان ولم ينج منه إلا من استطاع الهرب . وليس بدعة في الحرب أن يهرب فل الجيش بعد أن تقع الهزيمة الطاحنة . فنحن إذا كنا نقول إن الحجاج كان ضعيفاً ، وإنه كان قبيحاً ، وإنه لم يكن فارساً ينادى باسمه في مآزق الحروب ، فلسنا نريد بذلك أن نطعن في شجاعته . وفي تاريخه الحافل بالمواقف الشديدة ما يدل أكبر الدلالة على ثبات الجنان إذا تزعزعت النفوس ، كانت كل مدة حكمه حروباً دموية ، بعضها مع الخوارج ، وهم أشجع الناس في القتال، وبعضها مع الثائرين الحانقين عليه من أكابر الفرسان والأبطال، وكان الخطر يحدق به في هذه الحروب حتى تضيق حوله حلقات الكرب ، فلا نجده يوماً يتزعزع أو يفقد اتزانه .

ومن أمثلة ذلك ما حدث أثناء الثورة الكبرى التي أشعلها عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، وهو أحد كبار قواده الذين ثاروا عليه ، وكادوا يقوضون أركان الدولة في ثورتهم الهائلة .

كان عبد الرحمن بن محمد في جيشه يحارب في سجستان وما إليها من بلاد آسيا الوسطى ، وكان في أول الأمر من أعوان الحجاج المقربين إليه ، ثم حدث بينه وبين الحجاج ما دعا إلى ثورته ، فأقبل نحو الغرب بجيوشه ، وخرج إليه الحجاج فجمع له جيوشاً من الكوفة وغيرها ، فكان عبد الرحمن يهزمهم في كل موقف حتى دخل البصرة ، ثم سار بجيوشه منتصراً نحو الكوفة ، ونزل عند دير الجماجم، ولكن الحجاج لم يداخله تردد في متابعة القتال ، فاتجه نحو الكوفة ووقف حياله عند مكان يطلق عليه اسم دير قرة .

وانتهز أهل الكوفة والبصرة هذه الفرصة فثاروا جميعاً على الحجاج ، والتحقوا بجيش عبد الرحمن ، وكان في مقدمتهم الفقهاء والقراء والأعيان ، فكان يخيل إلى الجميع أن الأمر قد تفلت من يد الحجاج ، وأنه لن يلبث حتى ينخلع قلبه ويفر إلى الشام، بل لقد تألب عليه الخليفة نفسه ، فأرسل إلى أهل الكوفة والبصرة يعرض عليهما أن يعزل الحجاج عنهم إذا هم رضوا بغيره وأطفؤوا نار الثورة .

ولكن الحجاج ثبت في القتال شبراً بعد شبر من أرباض الكوفة ، في حرب ذات خنادق ، واستطالت مدة القتال إلى مائة يوم ، والحجاج راصد لعدوه لا يتزعزع ولا تفتر له همة في ليل ولا في نهار ، وهو ثابت الجنان مسيطر كل السيطرة على جنوده، حتى استطاع أن يحفظ الأمل في نفوسهم إلى أن انتهى الأمر إلى ما يشبه المعجزة ، وهزم جيش عبد الرحمن بن محمد وتمزق ، وجلا عن الكوفة ليضرب طريقاً في بلاد إيران والتركستان .

وليس في مثل هذا القتال ما يدل على جبانة في الحرب ، فإن القائد الجبان لا يستطيع أن يثبت جنوده إذا أحاط بهم الخطر واشتد ، كما حدث في أيام وقعة دير الجماجم بالكوفة . فالحجاج لم يكن بالبطل الذي يجتذب الأنظار إليه ببسطة الجسم أو المهارة في الفروسية ، إذ قصرت طبيعته دون ذلك ، ولكنه كان ينطوي على نفس الشجاع الذي لا يخشى مصادمة الأهوال . وقد بقي في صدر شبابه ينتظر الفرصة المواتية التي يستطيع بها أن يظهر للناس ويجتذب أنظارهم ، حتى لاحت له أخيراً عند ما اتصل بالزعيم العربي روح بن زنباع الجذامي « اليمني » الذي كان صاحب عبد الملك بن مروان ورئيس شرطته ووزيره فالتحق أول الأمر بالشرطة حتى رشحه روح ليكون رئيساً من رؤسائها ، ثم لاحت له فرصة أخرى استطاع فيها أن يسترعي نظر الخليفة نفسه . ونورد هنا قصة صغيرة تدل على ناحية من نفسية ذلك الرجل العجيب :

سار الخليفة يوماً في رحلة من رحلاته، وكان الحجاج بن يوسف ضابطاً في حرسه ، وكان في ذلك الحرس جماعة من أتباع روح بن زنباع ، يدلون بمكانة سيدهم المقرب إلى الخليفة ، فكانوا يتراخون في إنفاذ الأوامر التي تلقى إليهم ، وتعودوا من ضباطهم التساهل خشية من سيدهم العظيم .

وفي ذات يوم ألقى الحجاج إلى الشرطة أمراً بالمسير إلى وجهة ، فرأى أن أتباع ابن زنباع لا يزالون يأكلون في تراخ غير مبالين بأمره ، فلما أمرهم بالسير في حزم سبوه قائلين له : « يا ابن اللخناء » ! فلم يجبهم إلا بأن أمر بإحراق الخيمة عليهم ، وأمر بضربهم

بالسياط ، فذهبوا إلى روح بن زنباع يشكون إليه ما لحقهم من الحجاج ، فذهب ابن زنباع إلى الخليفة يشكوه . ولما استدعاه الخليفة عبد الملك ليسأله عما كان منه ، قال له : إنك يا أمير المؤمنين تستطيع أن تعوض ابن زنباع من الخيمة خياماً ، وتهب له بدل التابع أتباعاً ، ولـكني لن أسمح لأحد أن يعصي أمري ، لأنه مستمد من أمرك .

ومنذ ذلك اليوم علا قدره في عين مولاه الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولم يتردد أن يختاره ليقذف به كل من أعجزه من الأعداء ، وكل من أعجز ولاته من الثوار ، فـكأن القضاء حتم على الحجاج أن يكون دائماً في معامع الاضطراب والثورة .

وكان الحجاج لا يعرف في سياسته غير العنف وسفك الدماء . وقد ذكرنا أنه قال مرة في صراحة إنه لا يوجد رجل أجرأ على الدماء منه . كان يقتل عند الشك ولا يتردد في سفك الدماء أينما كان ، حتى لقد كان يبلغ في ذلك مبلغاً يبعث سماع وصفه على التقزز والاشمئزاز .

كان يوماً على مائدته مع بعض ضيوفه ، فجيء إليه برجل اتهم ببعض ما يؤاخذ عليه ، فأمر بقتله ، ثم نظر إلى أحد الضيوف باسماً ابتسامة مريعة، وقدم إليه صنفاً مختاراً من الطعام تـكريماً له ، وكان ذلك الضيف المـكرم متهماً عنده بمثل الذنب الذي قتل من أجله ذلك الرجل البائس .

وإنه ليخيل إلى من يقرأ سيرة عسفه وطغيانه أنه كان يحس نوعاً من اللذة في القسوة والبطش . ألا يكون ذلك كله إشباعاً لذلك العطش إلى الإحساس بالقدرة والبطش؟ ألا يكون مبعث هذا العنف كله ما استقر في أعماق نفسه من الشعور بالنقص ؟ ألا تكون الأنانية الجريحة هي التي دفعت به إلى كل ذلك الشطط ؟

إنه لما يعزز ذلك أنه كان يزداد ثورة في غضبه وفظاعة في بطشه وعسفه إذا وجد من ضحية مقاومة أو تحدياً أو ما يشبه أن يكون مقاومة أو تحدياً ، ولم يفرق في قسوته بين شيخ وشاب ، ولا بين عالم ديني وسوقة . فـكان في حكمه يقف من الناس جميعاً موقف الجلاد الذي يعرف حق المعرفة أن الرعية كلها ترتعد من خوفه وتلعنه في ضمائرها . فهو رجل يقف موقف عداوة وحشية صريحة مع المجتمع كله ، وهو عازم على أن يصارعهم ويجالدهم بالعنف والقسر . فهي الأنانية الجريحة ، وهو الشعور بالنقص والنبذ ، وهو التعطش إلى التعويض من الشعور بالقدرة ، هـذا هو الذي حدد للحجاج بن يوسف خطته في الحياة .

ومما يعزز هذا الرأي أنه كان لا يشتد في القسوة إلا إذا أحس بما يمس شخصه فإذا لم يحس ذلك عفا وتكرم ، بل كان يبالغ في التظاهر بالكرم إلى حد يجعلنا نتهمه بالادعاء والتمثيل .

ومما يزيد هذا التفسير وضوحاً أن الحجاج كان في مسلكه مع الخلفاء الذين يستطيعون عزله يظهر نوعاً من الذلة عجيباً يحار المؤرخ في تفسيره ، وقد يحمله العجب إلى أن ينكره ويعزوه إلى بعض مغالاة أعدائه .

ولكن الأنباء الوثيقة تدل على أن عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك كانا أحياناً يخاطبانه خطاباً أليق ما يكون للعبيد، فلا يجدان منه إلا الاستخذاء والتذلل. ولقد ثار كثير من قواد العرب وولاتهم على الخلفاء إذا بدرت منهم إليهم إشارة تنم عن سخف أو إهانة ، ولكن الحجاج كان لا يعرف القدرة إذا أهين أو وجه إليه أقذع السباب من الخليفة أو ممن يحس فيهم الثورة عليه ، بل لقد كان يبلغ به الأمر أن يستهين بكل قدسي في سبيل إرضاء الخليفة الذي يعامله معاملة العبيد . وقد رويت عنه أخبار تزعم أنه كان يفضل الخليفة على النبي ! ولم يتورع أن يقذف الكعبة بالمنجنيق ويدعو قراء المدينة ومكة كفاراً ، لأنهم خرجوا على الخليفة .

رويت عنه رواية أنه عند ما تزوج بابنة عبد الله بن جعفر أم كلثوم غضب لذلك أحد من يكرهه من أمراء بني مروان وكلم الخليفة في ذلك قائلاً له : « كيف يجرؤ عبد ثقيف على أن يتزوج امرأة قرشية ؟ » فبعث عبد الملك إلى الحجاج خطاباً شديداً في ذلك ، فلم يتردد في الأمر وطلق امرأته أم كلثوم .

فكانت قسوته على المحكومين مقرونة إلى جانب ذلته أمام الخلفاء ، وهما معاً تدلان على أنه إنما كان ينبعث في حياته عن نفس تضمر الشعور بالذلة ، وتلتمس الوسائل للتعويض عنها كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً .

وكان لا يتردد في وسيلة تؤدي إلى هذا الغرض الذي وقف عليه كل همه ، حتى إنه لم يتردد في التحلل من العقائد والأوهام جميعاً ، وكان يحكم عقله صارماً في كل أموره ، ليبلغ غرضه الأثير .

حدث وهو يحاصر الكعبة أن ثارت عاصفة هوجاء ذات برق ورعد ، فقتلت طائفة من أصحابه ، حتى تزعزع الجند وخافوا أن يكون ذلك دليلاً على غضب من الله لانتهاك حرمة البيت الحرام . ولكن الحجاج قال لهم في صراحة : إنه من أهل تهامة ، وإنه يعرف جو تلك الأرض وما يهب عليها من العواصف ذات الصواعق ، وإن البرق

يقتل المحصورين كما يقتل المحاصرين ، ثم قام بنفسه إلى المنجنيق فجعل يضرب به الكعبة بنفسه . وفي اليوم التالي عادت العاصفة ، وجاءت الأنباء إلى جيش الحجاج بموت جماعة من أتباع ابن الزبير المحصورين في مكة .

ومثل هذه القصة كثير ، مما يدل على أنه كان لا يؤمن بشيء سوى نفسه وغايته ، ولا يتردد في شيء يوصله إلى تحقيق ما في نفسه وبلوغ غايته ، لا تحول بينه وبين ذلك عقيدة ولا مقاييس في الخلق ولا عاطفة إنسانية . فهومثال لما يمكن أن نسميه مذهباً كابيًّا كالحاً .

وهناك ناحية من حياة الحجاج يحيط بها الغموض العظيم ، وتلك هي علاقته بالنساء . تزوج الحجاج بعدد من النساء غير ما كان في قصره من الجواري من مختلف الأجناس ، ولكن لم يذكر عنه يوماً أنه كان يعرف الحب ، فقد حكيت قصص كثيرة عن الخلفاء ونسائهم وما بينهم وبين هؤلاء الزوجات من علائق المحبة . فقد روي عن عبد الملك ما يدل على حبه الشديد لامرأته عاتكة ابنة يزيد بن معاوية ، وروي عن الوليد بن عبد الملك أنباء تدل على شدة هيامه بامرأته أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان . ولكن الحجاج لم يرو عنه إلا أنه كان يرغم الناس على تزويج بناتهم إليه قسراً ، وكان الناس يزوجونه خوفاً من سطوته ووحشية غضبه . فقد تزوج هنداً ابنة أسماء بن خارجة ، ورضي أبوها خوفاً ، ولكن هند لم تلبث أن طلقت منه .

وتزوج أم كلثوم ابنة عبد الله بن جعفر ثم طلقها طاعة لأمر الخليفة كما مر ، ولم يحس عند ذلك شيئاً يخدش كرامته ، وتزوج بابنتي النعمان بن بشير بطل الفتح الإسلامي ، وإحداهما أم أبان ، والأخرى حميدة ، وأشهر زوجاته أم الجلاس ، ابنة عبد الله بن خالد بن أسيد ، والفارعة بنت هبار ، والهندان : هند ابنة المهلب وهند ابنة أسماء بن خارجة . وقد طلق كل هاته النساء إلا القليل اللاتي مات عنهن .

وكان زواجه من كثير منهن بالقسر ، لأن آباءهن أو عشائرهن كانوا يخافون سطوته إذا رفضوا . وتروى قصة لها دلالة كبرى على حياته الخاصة ، وما كان بينه وبين نسائه من مودة : أن هنداً ابنة أسماء عند ما بلغها نبأ موته أنشدت أبياتاً تقرنه فيها مع الشيطان .

فالحجاج لم يعرف في حياته الخاصة شيئاً اسمه الحب ، ولم يكن سوى رجل يقطع الحياة في نضال عنيف ، كأنه ينتصف لنفسه من المجتمع الذي أغفله ، ومن الطبيعة الإنسانية التي لم تهب له ما وهبت للناس . ولم يخل من مثل هذا الإحساس وهو

على فراش موته ، فقد كان وهو يصارع الموت يعاني أشد حالات الكرب من خشية شماتة الناس فيه ، ومن خوف ما تصير إليه حاله إذا نجا من الموت ، إذ كانت الأنباء تأتي إليه بمرض الخليفة الوليد ، وهو عماده الوحيد في طغيانه ، فقد كان يخاف أن يموت الوليد وهو حي بعد ، فتؤول السلطة إلى أخيه سليمان بن عبد الملك ، الذي كان له عدوا شديداً .

فإذا نحن نظرنا إلى حياة الحجاج على ضوء هذه الحقائق ، أمكن أن ندرك شيئاً كثيراً من سر وحشيته في الحكم ، فإنه لم يكن سوى رجل يلتمس شفاء لنفسه المريضة التي كان الإحساس بالنقص والكبرياء الجريحة يملآنها حقداً . وكانت السلطة الطاغية هي الوسيلة التي تعلق بها في غير وعي لشفاء غليل هذا المرض الدفين .

محمد فريد أبو حديد

مصرع الثقافة الجرمانية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لقيت ألمانيا في الحرب العالمية الثانية أفدح هزيمة عسكرية وسياسية نزلت في التاريخ بأمة عظيمة ، وإذا كانت ألمانيا قد فقدت من جراء هزيمتها الساحقة مركزها كدولة عظمى . وفقدت كل قواها العسكرية وهيبتها السياسية لأمد قد يطول إلى جيل أو أكثر ، فإنها قد فقدت في الوقت نفسه مكانتها العلمية والأدبية الممتازة في القارة الأوربية ، وانهار نفوذها الأدبي والثقافي القديم ، الذي كان يغمر أمم إسكندناوة وأواسط أوربا والبلقان .

ولقد شهدنا مصرع ألمانيا النازية في ميدان الحرب على يد أعدائها بعد نضال طويل مروع ، ولكن مصرع الثقافة الجرمانية يرجع إلى ما قبل ذلك بأعوام عديدة ، وقد تم على أيدي الألمان أنفسهم طوعاً واختياراً ، تنفيذاً لسياسة قومية وضعها المشرفون على مصاير الشعب الألماني .

كانت زعامة هتلر وقيام النظام النازي في ألمانيا نذيراً بانهيار صروح الآداب الألمانية والثقافة الجرمانية بوجه عام . ذلك أن الطغيان المطبق الذي فرضته النازية على الشعب الألماني ، لم يكن ليسمح بأي لون من ألوان التفكير الحر ، والطابع القومي المغرق الذي فرضته على سائر مناحي التعليم والتفكير والكتابة — كان يحصرها في أضيق الحدود ، ويسبغ عليها صبغة التعصب القومي والجنسي العميق ، ويجردها من كل نزعة إلى التجديد والابتكار . ولا يتفتح التفكير والآداب الرفيعة ولا تزدهر ، إلا في آفاق الحرية المطلقة ، وقد كانت النازية عدواً شديد الوطأة على كل تفكير حر ، إذ كانت تعتبره أخطر ما يهدد سلامتها وتوطدها .

ولم يدع النظام الهتلري منذ قيامه شكا في أنه يحرص على وضع يده الحديدية على مصاير التفكير والثقافة الجرمانية ، وصبغها بالصبغة النازية المحضة ، وتجريدها من كل صبغة علمية أو إنسانية ، وتسخيرها جميعاً بسائر ألوانها ومناحيها لخدمة الدولة النازية والمبادئ الهتلرية . وهكذا أخضعت حركة التأليف والنشر والصحافة ، والفنون والتعليم

بمختلف مراحله ، والسينما والإذاعة ، وكل ما يمت إلى التثقيف والتفكير بأية صلة ، لتوجيه الدولة المطلق ، ورقابتها المرهقة .

وظهرت آثار هذا الانقلاب العنيف بسرعة في التعليم الجامعي . وقد كانت الجامعات الألمانية تتمتع قبل قيام النازية بسمعة علمية رفيعة ، فلم تمض أعوام قلائل حتى أقفرت هذه الجامعات في ظل هتلر من معظم الأساتذة والطلاب . أما الأساتذة فقد اعتقل أو شرد منهم ألوف ، إما لأنهم يهود وإما لأنهم ليسوا من أنصار المبادىء الجديدة . وأما الطلاب الذين كانوا يبلغون عادة نحو ١٢٠ ألف طالب في مختلف الجامعات ، فقد نزل عددهم قبيل الحرب إلى نحو ثلث هذا العدد ! ووضع التعليم الجامعي تحت إشراف سياسي صارم ، واحتل مكان الأساتذة القدماء نفر من النازيين المتعصبين ، وقضي على حرية البحوث الجامعية ، وهوت سمعة الجامعات الألمانية من جراء ذلك إلى الحضيض ، حتى إنه لما احتفلت ألمانيا في سنة ١٩٣٧ بمرور مائتي عام على قيام جامعة جوتنجن أبت سائر الجامعات الإنجليزية والأمريكية أن تشترك في هذا الاحتفال ، احتجاجاً على ما أصاب الجامعة الألمانية في ظل النازية من العنت والإرهاق .

وقد كان هذا التخريب المنظم للتعليم الجامعي الحر يتفق كل الاتفاق مع رأي النازيين في التربية وفي تكوين الشباب ، وقد كانت النازية تميل إلى الإسبرطية القديمة ، وتؤثر التربية العسكرية والرياضية على أي نوع آخر من التربية ، وتؤثر الأجسام القوية على العقول الراجحة والأذهان المستنيرة ! وكانت ترى في التثقيف الجامعي نوعاً من الترف العقيم ، لا يخلق بالجيل القوي السيد الذي تعده للسيطرة على أوربا وعلى العالم . ومن ثم فقد هجر الشباب الألماني طوال عهد النازية أفنية الجامعات والمعاهد ، ليحتشد بلا انقطاع في المواكب السياسية والعسكرية الصاخبة .

وعملت النازية في الوقت نفسه على تحطيم الحركة الأدبية القديمة ، تمهيداً لقيام الأدب النازي الآري الذي قصدت إلى إنشائه . وقد كان الأدب الألماني يحتل مكانته الرفيعة بين الآداب الأوربية العظيمة حتى قيام النازية ، ولم تنل هزيمة ألمانيا في الحرب الكبرى كثيراً من هذه المكانة الممتازة . وقد استمر الأدب الألماني على ازدهاره في ظل جمهورية فيمار ، وإن كان قد اتخذ وجهات وصوراً جديدة . ولكنه لقي في قيام النازية ضربته القاضية . ذلك أن أكابر الكتاب لم يطيقوا الجو الخانق الذي فرضته الدولة الهتلرية وآثروا تحطيم أقلامهم على تصفيد أذهانهم بأغلال العبودية السياسية ، وهجر الوطن القديم من استطاع منهم فراراً إلى الخارج ، وهلك من هلك في السجون ومعسكرات

الاعتقال . ولم يفرق النازيون في هذه المطاردة الشائنة ، بين الكتاب اليهود وغيرهم من الألمان الخلص « الآريين » ، وكانت محنة شاملة . وإليك طرفاً مما أصاب أقطاب الأدب الألماني المعاصر على يد الطغاة الهتلريين .

فر توماس مان أشهر الكتاب الألمان المعاصرين والحائز لجائزة نوبل عن « الآداب » وأخوه هينريخ مان إلى أمريكا ، وهما يعيشان فيها إلى اليوم . وهلك الكاتب السياسي الكبير كارل فون أوسيتسكي الحائز أيضاً لجائزة نوبل « عن السلم » في أحد معسكرات الاعتقال النازية . ولجأ هرمان هيسة إلى سويسرا . وفر الشاعر برونو فرنك إلى أمريكا ، وتوفي في هوليوود في العام الماضي . وفر القصصي فرديننـد بركنر إلى المكسيك . وانتحر هازنكلوفر الذي اشتهر أيام فيمار . وانتحر المؤرخ والقصصي الكبير إستيفان زفايج في منفاه في البرازيل سنة ١٩٤٢ . وكذلك انتحر الكاتب الشيوعي أرنست توللر في المنفى وفر فرنز فرفل مؤلف « أنشودة برناديت » الشهيرة إلى أمريكا ، وتوفي أخيراً في هوليوود . وهاجر أرنولد زفايج إلى فلسطين . وغيرهم وغيرهم ممن لا يتسع المقام لذكرهم ، أو ممن لم تعرف مصايرهم على وجه التحقيق .

وقد اطلعنا أخيراً على خطاب مفتوح مؤثر بعث به توماس مان عميد الأدب الألماني المعاصر المقيم الآن في أمريكا إلى صديقه الشاعر فون مولو ، رداً على دعوته إياه ليعود إلى ألمانيا ليقيم فيها ويعمل مع العاملين على إقالة الوطن الألماني من عثرته ، يعتذر فيه عن عدم قبول هذه الدعوة ، ويشير إلى الحركة الأدبية في عهد النازية بقوله : « وهذه الأعوام الاثنتا عشرة وما حدث فيها هل يمكن محوها من سجل التاريخ ؟ وهل يمكن اعتبارها كأن لم تكن ؟ إن جميع الكتب والمؤلفات التي ظهرت في ألمانيا وأمكن نشرها منذ سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٤٥ تبدو لي أقل من الشيء الذي لا قيمة له ، ولا يجوز أن تتناولها باليد ، ذلك لأنها تفوح برائحة الدم والعار ، ويجب سحقها جميعاً » .

وليس أصدق من ذلك وصف لما أصاب الأدب الألماني في عهد هتلر والنازية ، ففي هذه الفترة التي اضطربت فيها أوضاع الحياة العقلية في المجتمع الألماني ، وحمل تيار النازية العنيف أمامه كل شيء ، وسلب التفكير كل ضروب الحرية والابتكار ورسمت له حدود ضيقة متماثلة لا يتعداها — لم يك معقولاً ولا ممكناً أن يظفر الأدب الألماني بضروب من الإنتاج الممتاز ، التي عرف بها من قبل ، والتي جعلته في مقدمة الآداب العالمية ، فكل ما صدر عن الأدب الألماني في تلك الفترة في ألمانيا يحمل طابع الدعاية المملة ، والتعصب القومي والجنسي العميق ، وينفث روح الكبرياء والبغضاء ، ويجانب الروح

الإنسانية ، فهو أدب خاص بالعهد والبيئة التي غذته وأملته ! ولذلك لم يلق شيئاً من التقدير والترحيب خارج ألمانيا النازية .

وحتى الأدب الألماني القديم « الكلاسيكي » تضاءل مورده وخبا أثره ، بما عمد إليه النازيون من تحطيم دور النشر الألمانية العظيمة ، التي كانت تغذي ملايين القراء داخل ألمانيا وخارجها بالآثار العلمية والأدبية الممتعة في طبعات أنيقة رخيصة معاً . وقد كان لهذا العامل أثره القوي في اضمحلال نفوذ الأدب الألماني في معظم البلاد التي تربطها بالثقافة الألمانية صلات وثيقة .

* * *

ولقيت الصحافة الألمانية المصير المحزن نفسه ، بل ربما كانت محنتها أروع وأدعى إلى الرثاء ، وقد كانت الصحافة الألمانية قبل قيام النازية في مقدمة الصحافات العظيمة ، فلم يمض على قيام النظام الهتلري أشهر قلائل حتى هوت إلى الحضيض ، وفقدت كل خواصها ومميزاتها النقدية والثقافية الممتازة ، التي كانت من قبل فخر التفكير الألماني ، وأخذت الصحف العظيمة تختفي من الميدان تباعاً ، إما طوعاً وإما كرهاً ، لأنها لم تطق الجو الخانق الذي فرض عليها ، ولم تستطع أن تجاري تيار الدعاية المشين الذي جرف الصحافة النازية . وامتدت النكبة إلى الصحافة الأدبية والفنية والعلمية ، فأخذت تنحدر نفس إلى الهاوية ، وتدفعها نفس الاتجاهات السياسية والثقافية الرجعية التي غمرت ألمانيا ، وأضحت الصحف العلمية الألمانية ، التي كانت من قبل مضرب الأمثال في دقة البحث وروعة النقد وجليل الابتكار ، كالصحافة السياسية ، أدوات ذليلة مصفدة ، لبث الدعاية السياسية والعنصرية ، وسرعان ما فقدت سمعتها القديمة في دوائر البحث الرفيع .

وقد أدرك النازيون تمام الإدراك خطورة الصحافة كقوة عظيمة للتوجيه السياسي، فلم يكتفوا بالعمل على تحطيم نفوذها القديم ، وهو ما تنكب به الصحافة دائماً في ظل الطغيان ، ولكنهم رأوا في الوقت نفسه أن يحشدوا هذه القوة العظيمة لتدعيم النظام الجديد ، وتمكينه من أعناق الشعب الألماني ، فبدؤوا بمطاردة الصحافة الحرة وسحقها ، والاستيلاء على شركات النشر الكبرى ، وتشريد الكتاب والصحفيين الأحرار واليهود ، وقد كانوا يسيطرون على معظم الصحف الكبرى ، ووضع قانون جديد للصحافة ، اعتبرت فيه الصحافة مهنة قومية ، تشرف عليها الدولة « ويجب أن لا يزاولها سوى الآريين » ، ولا يسمح لليهود أن يشتغلوا بها أو يساهموا في امتلاكها ، وخولت السلطات الإدارية سلطات واسعة في الإصدار والتعطيل واختيار المحررين ، ووضعت عقوبات رادعة لكل كاتب

أو محرر يجرؤ على نقد النظام الجديد أو معارضته، وأخضعت الصحافة كلها من حيث التوجيه القومي والسياسي للمكتب السياسي الملحق بوزارة الدعاية ، وقد كان لهذا المكتب سلطة لا حد لها في مراقبة الصحف وتوجيهها في سائر المسائل والشؤون الخارجية والداخلية ، ووضعت الصحافة العلمية والأدبية تحت إشراف « غرفة الثقافة » Kultur Kammer ووضعت الصحافة الاقتصادية والمالية تحت إشراف « غرفة الدعاية الاقتصادية » wirtschafts Kammer . وهكذا أخضعت الصحافة الألمانية كلها لنظام حديدي مرهق ، لا تفلت منه شاردة ولا واردة ، وطبعت كلها بطابع النازية المغرق ، وفقدت كل رأي واستقلال ، وكل حق في الجدل والنقد ، وأضحت أدوات ذليلة مصفدة ، يسيرها حكم الطغيان كيفما شاء .

لم يكن غريباً في ظل هذا الجو الخانق أن تختفي الصحف الألمانية الكبرى ، بعد أن اختفى الكتاب والنقدة الأحرار . وهكذا توارى من الميدان عدد من الصحف الألمانية العريقة ، التي كانت تتزعم الصحافة الألمانية ، وتحمل رسالتها إلى العالم الخارجي ، مثل جريدة «فوسيشة تسيتنج » أقدم الصحف البرلينية ، و « كرويتس تسيتنج » التي أنشئت برعاية بسمرك وكانت لسان وحيه ، و «برلينر تاجبلاط» أعظم الصحف الألمانية الديمقراطية ، و « تجليشة رونتشاو » ، و « فوفيرتس » الاشتراكية القديمة ، و « لوكال أنتسيجر » ، و«جرمانيا» الكاثوليكية ، واختفت صحف أولشتاين الإخبارية الشهيرة ، وهي « برلينر تسيتنج» ، و « برلنير أبند بوست» «وبرلينر مورجن بوست» واختفت عشرات بل مئات أخرى من الصحف القديمة والمجلات العلمية الراسخة ، ولم يستمر على الصدور من الصحف القديمة الكبرى سوى القليل ، مثل «دويتشه ألجميه» و « كلنشة تسيتنج » و « فرنكفورتر تسيتنج » وبضع صحف أخرى ، وكانت تصدر في ظروف صعبة ، وقد فقدت كل أهميتها ونفوذها القديم .

وكانت آلاف الصحف الألمانية تصدر في ظل الطغيان الهتلري على نسق واحد من الإرجاف والتهويل وألوان الدعاية المنظمة . بما تقتضيه من بث الأكاذيب ومسخ الحقائق وكان من جراء هذا التماثل الرتيب أن انصرف ملايين الألمان عن قراءة الصحف ، وانحط ذيوعها بسرعة ، حتى إنه كان يندر في عهد النازية أن يبلغ ما تطبعه الصحف الكبرى أكثر من عشرات الألوف ، بينما كانت الصحف الألمانية العريقة في عهد الحرية تصدر مئات الألوف وأحياناً تبلغ الملايين .

***

ولم تقف محنة التفكير الألماني والثقافة الألمانية عند مصرع الآداب والصحافة، ولكنها شملت سائر ضروب التفكير والفنون، فصبغ المسرح والسينما بالصبغة النازية العميقة، وسخر النحت والتصوير لخدمة الدعوة النازية، وقضي على الموسيقى الألمانية الرفيعة، وقد كانت تتمتع بسمعة عالمية راسخة، وشرد أقطابها الأكابر ممن لم يصانعوا العهد الجديد، ففر منهم إلى الخارج من استطاع، وهلك في معسكرات الاعتقال من هلك. وكان بين أولئك الأقطاب لسوء الطالع عدد من اليهود، مثل برونو فالتر وفرتفنجلر وفيلكس فاينجرتر وغيرهم، فكان ذلك عاملاً في إذكاء نقمة الطغاة على الموسيقى وأساطينها، وكان يقام في مدينة سالزبرج النمسوية كل عام موسم موسيقيّ رائع، بإشراف الأستاذ الإيطالي تسكانيني، ينتظم فيه أكابر الموسيقى الألمانية، ويهرع لشهوده عشاق الفن من سائر أنحاء العالم، فلما اعتدى الألمان على النمسا، ألغي الموسم، وغادر النمسا معظم أقطاب الفن، وتفرقوا في سائر الأنحاء، ولم يطق البقاء في ألمانيا الهتلرية من أقطاب الموسيقى المعاصرين سوى ريشر شتراوس، لصداقة بينه وبين هتلر، وهكذا قضى الطغاة على الفنون، كما قضوا على الآداب والصحافة، لتحقيق الغايات القومية والعنصرية المغرقة.

وقد كان لذلك كله أثره العميق في اضمحلال الثقافة الجرمانية، لا في ألمانيا والنمسا فقط، ولكن في سائر المناطق التي كانت الثقافة الجرمانية عنصراً هاماً في تكوين ثقافاتها، وذلك لأسباب تاريخية أو عنصرية، مثل بلاد شرقي أوربا ورومانيا ويوجسلافيا والمجر وتشيكسلوفاكيا وهولندة ودانماركة والسويد والنرويج، فقد كان الأدب الألماني قبل عهد النازية يغمر هذه البلاد، وكانت مؤلفات الكتاب الألمان تقرأ فيها بكثرة، إما بالألمانية وإما مترجمة إلى اللغات القومية، وكان للصحافة الألمانية فيها نفوذها القوي. أما اليوم، وقد عفت الآداب الألمانية الرفيعة، وقضي على الصحافة الألمانية العريقة، فإن هذه الأمم لا بد أن تتجه إلى آفاق ثقافية جديدة. ومن المعقول أن يكون للآداب الأنجلوسكسونية واللاتينية حظ جديد من الذيوع، في مناطق كان للثقافة الجرمانية فيها أكبر نفوذ. وقد كان للأدب الأنجلوسكسوني دائماً نفوذه في البلاد النرديكية « دانماركة وإسكندناوة » فالآن وقد غدا أدب المنتصرين، فإن هذا النفوذ سوف يقوى ويشتد ويحل شيئاً فشيئاً مكان النفوذ الجرماني، ومن جهة أخرى سوف يشتد نفوذ الأدب الروسي في الأمم السلافية في أواسط أوربا وفي البلقان، وهي المناطق التي تخضع الآن لسيطرة روسيا السياسية والاجتماعية.

وهناك قبس من الثقافة الجرمانية لا يزال مضيئاً في شمالي سويسرا ، ففي هذا الركن الصغير الهادىء ما تزال الثقافة الجرمانية محتفظة بقوتها ومميزاتها الرفيعة ، بعيداً عن التأثر بشعوذة المبادىء القومية والعنصرية المغرقة ، وما تزال ثمة صحافة ألمانية قوية محترمة ، ولكن الثقافة الجرمانية تحتفظ في سويسرا بطابعها المحلي الخاص ، فهي ثقافة سويسرية قبل كل شيء ، ونفوذها الخارجي ضئيل محدود .

والخلاصة أن الثقافة الجرمانية المؤثلة قد لقيت على يد هتلر والنازية مصرعها المحزن ، وخسرت نفوذها التاريخي القديم في مناطق واسعة في أوربا لأمد طويل ، وقد أصبحت ألمانيا المهزومة الممزقة تعيش على فتات ضئيل من تراثها الفكري الذاهب . ولكن المحنة الغامرة قد تغدو من جهة أخرى عاملا من عوامل البعث ، وقد تمد الأدب الألماني المحتضر ، والتفكير الألماني الحائر المضعضع ، بعناصر جديدة من القوة والفتوة ، وقد يحدث عندئذ ، بعد أن تزول آثار الصدمة المؤلمة أن يبدأ عهد جديد من الإحياء في الأدب الألماني والثقافة الجرمانية .

محمد عبد الله عنان

غذاؤنا الفكري

للأستاذ شفيق جبري بدمشق

يرى الأستاذ « أيرس » الذي يعلم الاقتصاد السياسي في جامعة « تكساس » في الولايات المتحدة أن التأريخ إنما هو صنع قوتين متنازعتين : التقاليد والاختراع ، فالاختراع لا ينفك يرمي إلى تعديل مهمة الرجل وقدرته في الطبيعة ، والتقاليد ترمي إلى الاحتفاظ بالعادات والدرجات وأشباهها . ففي كل حالة اجتماعية تقاليد ، وأكثر الجماعات « تطوراً » تحرص على طائفة من تقاليد ماضيها ، فالطالب الأمريكي لا يزال في هذا العصر يأخذ شهادة الطب في احتفال يشبه احتفالات الكنائس التي يباركون فيها للملوك ، فإن شهادته تخوله حق المداواة والتعليم كما تخول الملوك احتفالات الكنائس حق الحكم .

ثم يندفع الأستاذ « أيرس » في الكلام على هذه التقاليد ، فمنها ما هو نافع ، ومنها ما لا فائدة فيه أو ضار ، ثم يضرب الأمثال الناطقة لنفعها وضررها ، فقد خطر بباله بط « لابرادور » وهي شبه جزيرة ، يقول الأستاذ : تعوّد هذا البط إذا شاء أن يحصل على غذائه من جوف الأرض أن يضغط الوحل الراسب في أعماق الماء بمجامع رجليه العريضتين فيستخرج غذاءه بهذا الضغط ، ولا يشك الأستاذ « أيرس » في أن هذه العادة غير خالية من الحكمة ، ولكنا إذا جعلنا هذا البط في حديقة من حدائق الحيوان على أرض مزفتة : فإنا نرى أنه يظل يضغط الأرض المزفتة أملاً أن يخرج من تحتها غذاءه ، ولكنه لا يستطيع أن يحصل على هذا الغذاء ، فإذا لم يخترع هذا البط شيئاً في مثل هذه الحالة فلا يلبث أن يموت من الجوع !

وقد أوحى بط « لابرادور » إلى الأستاذ « أيرس » النتيجة الآتية : أن تقاليد البشر في بعض الأحيان يقضي عليها تغير ظروف الزمان والمكان ، فإن اختراعات فن الرماية قضت في القديم على نظام الإقطاع ، لأنها جعلت قصور أصحاب هذا النظام المحصنة عرضة لمدافع الملوك ، كما أن السلاح الناري قلب نظام الطبقات ، لأنه جعل بين أيدي المتمولين وسائل دفاع استطاع رجال لم يدربوا على القتل ، مثل الشرفاء ، أن يستخدموها

أغادر الأستاذ « أيرس » قبل أن ينطلق قلمه البليغ في الكلام على سرعة الاختراعات وبطء التقاليد لأسمع كلام أستاذ آخر من أساتيذ جامعة « هرفرد » وهو : « رلف برتون بيري » ، يقول هذا الأستاذ في كتاب له حديث ، يبحث فيه عن جماعة الديمقراطية وعن جماعة التقاليد : «أحسن مورد ترده الأمة للحصول على غذائها الفكري إنما هو ماضيها الخاص ، على أن تكشف هذا الماضي كشفاً حديثاً ، وتجدده تجديداً . فالأمة التي تنكر تقاليدها تضيع مقوماتها التأريخية ، وينضب معين حياتها الفكرية ، والأمة التي تقتصر على تثبيت تقاليدها دون شيء من التجديد تصبح أمة راكدة فاسدة . »

✡ ✡ ✡

هل نستطيع أن ننتفع بكلام هذين الأستاذين ؟ لقد أنشأ لنا هذان الفاضلان قاعدة نتبعها معاشر العرب في حاضرنا من حيث اختراعات العصر في هذا الحاضر ، وفي ماضينا من حيث ميراثنا في هذا الماضي ، ففي كل بلد من بلاد العرب نجد طائفتين : طائفة تلزق بالماضي ، وطائفة لا تعرف غير الحاضر والمستقبل، وأذكر أني لما كنت في القاهرة من شهرين كنت أحضر مجالس لا أسمع من أهلها الأفاضل غير أخبار الماضي ، ومجالس لا أسمع من شبابها الثائر إلا أخبار الحاضر ، وإذا اجتمع أهل هذه المجالس بعضهم إلى بعض ، تعذر اتفاقهم في موضوع من موضوعات الحياة ، مثل موضوع الأدب . مثلنا في هذه الحال كمثل البط الذي أشار إليه الأستاذ « أيرس » . لقد أتى علينا زمن كنا نقنع فيه بماضينا ، إذ كان هذا الماضي بالنسبة إلى حياتنا يشتمل على كل شيء : على غذائنا الفكري والروحي والسياسي وغير ذلك ، أما اليوم فقد تغيرت ظروف الزمان والمكان ، ولكن ليس من الضروري أن نلغي هذا الماضي وما يشتمل عليه من المواريث ، ولكن من الضروري أن نكشف هذا الماضي كشفاً حديثاً ، وأن نجدده حتى نجد فيه غذاءنا الفكري ، فإذا أنكرنا الماضي ضاعت مقوماتنا التأريخية ونضب معين حياتنا الفكرية ، وإذا اقتصرنا على تثبيته دون تجديده أصبحنا أمة راكدة فاسدة ، فلا ثورة ولا رجعى . لقد نقل بط « لابرادور » إلى بيئة غير البيئة التي كان يجد فيها غذاءه من جوف الأرض ، فلزمه أن يهتدي إلى طريقة حديثة يستخرج بها هذا الغذاء في بيئته الجديدة ، ونحن صرنا إلى بيئة غير البيئة التي كان فيها آباؤنا الأولون ، صرنا إلى بيئة جديدة في مجامع أوضاع الحياة ، فإذا لم نهتد في هذه البيئة إلى أساليب جديدة نجدد بها ماضينا وميراثنا فلا تلبث عقولنا أن تموت كما يموت بط « لابرادور » في الأرض المزفتة .

وإذا تعذرَ عليّ أن أتوسع في ضرب الأمثال لبيئتنا الجديدة ، فلا عذر لي إذا لم أضرب مثلين أو ثلاثة أمثال في الأدب والتأريخ .

إذا كان الماضي إنما هو أحسن مورد ترده الأمة للحصول على غذائها الفكري ، فالجاهلية جزء من ماضينا ، ولكنا إذا حرصنا على جاهليتنا دون أن نكشفها كشفاً حديثاً أو نجددها تجديداً ، فأي غذاء فكري لنا فيها ؟ ففي الجاهلية شعر ، ولكن هذا الشعر بالنسبة إلى عصرنا غريب عنا ، إلا أننا يلزمنا أن نعرف كيف نستنبط لعقولنا غذاءً منه ، ففي معلقة امرىء القيس وفي غيرها من المعلقات شعر مشتمل على ما يسميه الإفرنجة : حسّ الطبيعة ، مثل وصف المطر وما يفعله هذا المطر في الجماد والنبات والحيوان ، فإذا نحن لم ننظر إلى هذه المعلقات إلا من حيث إنها جزء من ماضينا الأدبي ، فلن نجد في هذا الجزء غذاءنا الفكري ، ولكنا إذا عرفنا كيف نستخرج حسّ الطبيعة من مدافن هذا الماضي الأدبي البعيد استطعنا أن نعرف أن أبناء الصحراء لم يكونوا مجردين — على نحو ما يقوله بعض كتاب الإفرنجة — من هذا الحس ، فهم يشعرون بمحاسن الصحراء وإن كانت هذه المحاسن تختلف عن محاسن البحر ، فإذا كانوا غير مجردين من حس الطبيعة ، أي من الفتنة بأرضهم وسمائهم ، فهم ميالون إلى أوطانهم ، متعلقون بهذه الأوطان ، فإذا نحن لم نجدد جاهليتنا على هذا النحو وأمثاله فأي غذاء فكري لنا في بيئة تختلف عن بيئتنا ؟

وكما يفضي بنا تجديد ماضينا إلى النتائج المتقدمة أو إلى أشكالها ، فكذلك يفضي بنا تجديد هذا الماضي إلى نتائج ثانية ليست بأقل شأناً من الأولى ، لقد رجعت من أيام إلى بعض دفاتري في الأدب، فوجدت في دفترمنها قطعة من رسالة لأبي بكرالخوارزمي يصف فيها إيثاره الغربةَ على وطن فيه أذى ، ويقول في آخرها : « وما علمت أني أعيش حتى أصادر على اللسان ، وأسلف الشكر قبل الإحسان، وقد كنت رأيت حاكما يحجر على يتيم أو معتوه في وفره ، ولم أر أميراً يحجر على كاتب في كتابته أو على شاعر في شعره» !.

أبو بكر الخوارزمي في نظر الثعالبي باقعة الدهر، وبحر الأدب وعلم النثر والنظم ، وعالم الفضل والظرف ، ولكني لما قلبت الرأي في القطعة التي ذكرتها لم أهتم بفصاحة الخوارزمي ولا ببلاغته ولا بنوادره ولا بملاحة عبارته، اهتمامي بالحالة الاجتماعية المدفونة تحت كلام الخوارزمي : يفصح هذا الكلام عن ثورة صاحبه على الاضطهاد في زمانه ، وعن ميل رجال الحكم إلى تضييق حرية الرأي بحسب تعبير هذا العصر . فهذه الحالة التي اهتديت إليها في تضاعيف كلام الخوارزمي أعظم شأناً في رأيي من بلاغته وفصاحته ،

فهي غذائي الفكري ، فما تهمنا البلاغة بقدر ما يهمنا نفور البلغاء من الاضطهاد ، ولا تعنينا الفصاحة بقدر ما يعنينا دفاع الفصحاء عن حرية الرأي .

وإذا خرجنا من أفق الأدب ودخلنا في أفق التأريخ فإنا نجد أن حاجتنا إلى تجديد تأريخنا ليست بأقل من حاجتنا إلى تجديد أدبنا ، حتى نجد في هذا التأريخ غذاء لأفكارنا . قال الجاحظ : « نزل رجل من أهل العسكر ، فغدا بين يدي المأمون ، وشكا إليه مظلمته ، فأشار بيده أن : حسبك ! فقال له بعض من كان يقرب من المأمون : يقول لك أمير المؤمنين : اركب ، فقال المأمون : لا يقال لمثل هذا : اركب ، إنما يقال له : انصرف » !

فإذا كنت من رجال التأريخ وأحببت أن أضع تأريخ المأمون، فإني أستطيع أن أستنبط من تأريخه في خبر مثل هذا الخبر غذاء فكرياً ، على شرط أن أعرف كيف أكشف هذا التأريخ كشفاً حديثاً ، وكيف أجدده تجديداً . لا يخطرن ببال أحد أن في كلام المأمون شيئاً من العنجهية ، فمن الناس من لا ينقاد إلا بالشدة ، ومنهم من لا يطيع إلا باللين ، وإذا استعمل رجال السياسة اللين مع الفريق الأول أفسدوا سلطانهم وهدموا بنيانهم ، حتى تطمع العامة في الاستطالة عليهم والمشاركة لهم في جلائل أعمالهم ، وإذا استعملوا الشدة مع الفريق الثاني نفروا القلوب وأوحشوا النفوس ، فلا يجدون من حولهم جماعة يجتمع بهم شملهم ويشتد بهم سلطانهم ، وقد فطن المتنبيء إلى هذا المعنى فقذف ببيتيه الخالدين : ووضع الندى في موضع . . . . فإن إكرام المأمون لمن لا يقدر هذا الإكرام حق قدره قد يحمل على التمرد . ولقد شاهدنا هذه الأمور بأعيننا، ورأينا عواقب الذين استعانوا في سياستهم بالرعاع، وأعطوهم في معاملاتهم أكثر من حقوقهم . فالمأمون في معاملته لرجل من أهل العسكر على هذا الوجه قد جاء ببرهان على مهارته في السياسة النفسية . ولسنا نجهل في عصر مثل عصرنا مقام الأمور النفسية في السياسة وغيرها .

هذا هو الغذاء الفكري الذي يجب علينا أن نبحث عنه في ماضينا ، في كل فرع من فروع هذا الماضي . معاذ الله أن ننكر ماضينا ، ولكننا إذا لم نكشف هذا الماضي كشفاً حديثاً فأخلق بنا أن نصير إلى ما صار إليه بط « لابرادور » في أرضه المزفتة !

شفيق جبري

خدام الحضارة وأبطالها

للأستاذ محمود الدسوقي

تتعرض الحضارة الأوربية هذه الأيام لانفعالات لا تبشر بخير . وظاهرة هذه الانفعالات هي حكم الطبقة العاملة التي بدأ تكونها في القرن التاسع عشر . فهي في كل مكان الآن من أوربا إما حاكمة وإما بسبيل انتزاع الحكم . وقد ساعدها على إحراز هذه النتيجة أسباب ليست كلها من عمل العقيدة والمذهب ، فقد تهيأ فيما مضى لأصحاب العقائد والمذاهب ما كان كفيلاً أن يبوئهم مقاعد الحكم ، وكان لهم من الاقتناع بهذه المذاهب سند أي سند بين الشعوب ، لكن قوى يمسكها التنظيم ويدعمها العزم كانت تعترض طريقهم ، فلم تنجح أعمالهم إلا بمقدار . ولو درجت عجلة الحظ إلى اليمين بدل درجها إلى الشمال ، ولو تغلبت عزيمة على عزيمة ، لكان وجه الإنسانية يتجهم اليوم بانفعالات أخرى منذرة أيضاً بالشر ، ولكان الحكم اليوم لطبقة غير هذه الطبقة .

إن تاريخ الحضارة الأوربية في ألف السنة الأخيرة تسلسل منطقي لما ينبغي أن تسير فيه حضارة واعية تغالب أحداث الزمان ولا تغافلها الحوادث . والحضارة الأوربية وريثة حضارات ، ومهذبة حضارات ، وإن كان يخشى أكبر الخشية أن تبوء بلقب جديد هو مبددة الحضارات . وليس غرضنا هذا أن نبين كيف كان ذلك أو كيف يكون ، فإنه ما يزال باقياً على هذه الحضارة أن تثبت أنها واعية للأخطار التي تهددها في المستقبل كما وعت إلى الآن ، وأنها ما تزال تكن من المواهب ما تستخدمه في سبيل البقاء لا الفناء . وقد كان خدامها في كل العصور من كل الطبقات ، أو لعله أصح أن نقول : إن كل الطبقات خدمتها ، كل في عصره . فكيف تدرجت الحضارة الأوربية حتى أسلمت الطبقة العاملة ولاية الأمر ؟

يتساءلون عن الحضارة الأولى كيف نبتت ؟ وكيف انتقل قوم أو أقوام من أصلهم الخشن ، وبعثرتهم وتفككهم ، إلى رابطة متينة قادرة على الحياة الحضارية والتطور الحضاري ؟ إن التاريخ وما قبل التاريخ كالنور والظلام ، يستطيع من في الظلام أن يخرج منه على هدى النور ، ولا يستطيع من في النور أن يرى ما يجري في

الظلام . كذلك ظل ما قبل التاريخ طي الظلام إلى حد كبير ، لم يستطع نور البحث التاريخي أن يكشفه كشف اليقين ، وأن يهدي الباحثين إلى الحلقات المفقودة المبعثرة في نواح لم ينفذ إليها النور. فخروج قوم بالذات من كيانهم البدائي إلى الكيان الحضاري في طريق واضحة المعالم ، والقول بأن هؤلاء القوم بالذات هم أصحاب الحضارة الأولى شيء لم يصل فيه البحث إلى نتيجة تبعث على الاطمئنان .

فهل هؤلاء القوم ممن نشؤوا في وادي النيل ، أو بين النهرين ، أو في مكان ما من أفريقيا ، أو في أمريكا ؟ هل يدل على الحضارة الأولى تلك الآثار والصور الرائعة التي وجدت في إحدى مغارات جبال البرانس وبين مقابر هالشتات* ، وهل تدل عليها زهرة فيلندورف وأهرامات الجيزة ؟

إن كل ما نستطيع أن نقوله في هذا المقام أنه منذ ستة أو سبعة آلاف سنة مضت خرجت جماعات من بني الإنسان من ظلمات البداءة إلى نهار التاريخ الحضاري ، وأن ظروفاً لا نعلمها علم اليقين فرضت على نخبة من تلك الجماعات البشرية رسالة عليا تؤديها. لكنا لا نعلم بم امتازت هذه الصفوة عن غيرها حتى كانت أكثر منها استعداداً لتلقي هذه الرسالة وتأديتها ، فإنه مما لا شك فيه أن الشعوب البدائية لم تكن كلها على استعداد واحد لذلك ، وهي هي من نعرفها مختلفة في اللون والكفاية ، ومن نعلمها قابلة للتطور وجامدة لا تتطور . فما يزال الزنوج حين يختلطون بشعوب أرقى منهم لا يأخذون عنها إلا على سبيل التقليد والمحاكاة ، وحين يعيشون منعزلين منذ عرفهم التاريخ لا يتطورون.

وقد اختلفت آراء العلماء فيما يجعل بعض الشعوب أكثر استعداداً من غيره للحضارة ؟ فأرجع منتسكيو Montesquieu هذا التفاوت إلى اختلاف المناخ ، وأرجعه بكل Buckle إلى نوع الغذاء ، فأراد أن يرد مواهب الهنود الآريين واستعدادهم الحضاري إلى تناول الأرز . وجاء جوبينو Gobineau فغلب الجنس وما يقوم بين الأجناس من فوارق ذهنية موروثة مرجعاً للاستعداد الحضاري عند بعض الشعوب دون البعض الآخر .

ومهما يكن من أمر الشعوب وتطورها الحضاري والظروف التي حفزتها إلى التقدم والرقي ، فإن حملة ألوية الحضارة في هذه الشعوب هم محط الأنظار وقبلة الباحثين، وهم الذين نتجه إليهم بهذا البحث ، لأنه بهم تقاس الأمم ، وبأعمالهم يذكرها التاريخ . وخدام الحضارة هؤلاء منهم من كان طبقة حضارية مجهولة أوجدت حركات وأجرت

* مدينة بشمال النمسا اكتشفت فيها مقابر للكلتيين عامرة بالآثار .

تيارات لم تظهر أو لم يظهر أثرها إلا بعد قرون ؛ ومنهم من طبعوا زمنهم بطابعهم الشخصي القوي ، وكانوا من ذوي الأذهان الجبارة ، فأحدثوا في الحال أو بعد حين نتائج على جانب كبير من عظم الشأن . وحيث لا يوجد أناس يتحلون بمواهب حضارية لا تنشأ حضارة ، وحيث لا يعود يوجد من يتحلون بهذه المواهب لا تستمر حضارة تكون قائمة بالفعل . وأصحاب المواهب السامية هم أصحاب الأعمال الإنسانية الجليلة التي تؤلف تاريخ الحضارة .

إن العصر الذي يعيش فيه خدام الحضارة لا يدرك في الغالب قيمتهم كل الإدراك ، وقد يجهلهم كل الجهل . ذلك أن المختص بالنظر في قضيتهم والحكم فيها هو الأجيال القادمة وحدها ، إذ هي التي تطالع مواهبهم وآثارها بعيدة عن المحاباة والتحامل . وكلما بعدت هذه الأجيال عن أولئك الموهوبين كان حكمها أدنى إلى الإنصاف ، وأبعد عن الشخصيات ، وأدخل في الموضوع .

وخدام الحضارة وأبطالها لا يظهرون بطريقة منتظمة ، فقد تزدحم بهم أجيال متعاقبة ، وقد تتعاقب الأجيال وهي مقفرة منهم كل الإقفار . وظهور هؤلاء الأفذاذ واختفاؤهم في الحضارات مرهون بظروف بعينها أو بانتفائها . فقد كانت أوربا بين سنتي ١٠٠٠ و ١٢٠٠ ميلادية يزداد شبابها زيادة ملحوظة لم تلبث أن شذبت أطرافها عند ما أخذ النورمنديون يغزون إنجلترة . كذلك لوحظ أن طبقة الفرسان ، وكانت في تلك العصور صاحبة الشأن الأكبر ، ازدادت وأعقبت من الأبناء من ضاق محيطه بطموحه ومن لم تساعده حاله على الاستقرار . فقد كان انحصار الإرث في الأكبر من الأبناء يدع بقيتهم بلا مورد يذكر ، ولا مكانة يغبط عليها ، فتحفزهم هذه الحالة إلى طلب المجد والثراء في المغامرات والحروب ، فينزف دم هذه الطبقة — طبقة الفرسان — حيناً بعد حين ، ويضيع عليها عتاد قيم من الشجاعة والفتوة والعزيمة والقابلية لعظائم الأمور . مثال ذلك أنه لما لاحت أسباب الحروب الصليبية ، وناشدت الكنيسة هؤلاء الفرسان المعونة ، هبوا لنصرتها خفافاً يتفززون حماسة ، يرجع الفضل فيها إلى حالتهم التي أسلفنا ذكرها أكثر مما يرجع إلى الحمية الدينية في ذاتها ، فلو لم تكن ظروفهم هي تلك الظروف ، وحالتهم من الحرمان هي هذه الحال ، لكان من المشكوك فيه أن يخرج هذا الجم الغفير من الفرسان إلى الشرق مدفوعين بشتى البواعث ، مجاهدين بهذا الروح .

فهذا الظرف هو من الظروف التي نزف فيها دم الغرب ، إذ يذهب هذا الدم الغزير في الغربة هدراً ، ويضيع هذا العتاد الكبير من البسالة والمثالية . وهذا من شأنه

أن يضعف احتمال ظهور النوابغ ، لأن المادة الوراثية التي تتألف من الاستعدادات والمواهب يلم بها نقص ، فلا تولد النبوغ والعبقرية اللذين يولدهما التكاثر وقدرة الإنسانية على الحياة والبقاء. وهكذا كان من جراء الحملات الصليبية السبع التي دامت من سنة ١٠٩٦ إلى أواخر القرن الثالث عشر أن خارت قوى الصفوة من سكان الغرب ، فكان النقص الذي ألم في الفترة التالية لسنة ١٢٠٠ بعدد النوابغ ، وكانت ندرتهم إلى أمد طويل .

وعامل آخر من العوامل التي اعتاقت ظهور خدام الحضارة وأبطالها ، هو الأوبئة . فقد كان الطاعون الأسود الذي اجتاح الغرب في سنة ١٣٤٨ مهلكا مدمراً إلى حد أن ظهور عبقري واحد بعده احتاج إلى خمسة أجيال ، وإن كان هذا العبقري الواحد هو ليونردو دافنشي .

وكذلك الحروب عامل هدام ، فحرب الثلاثين السنة التي نشبت في أوربا عام ١٦١٨ قد كان لها آثار شتى في الغرب . فبينا الطاعون الأسود قد فتك بالأهلين فتكاً ذريعاً لم يميز فيه بين طبقة وطبقة ، ولم يرحم المواليد الضعاف ، وإن كان بطبيعته قد حابى أهل الريف لتوزعهم ، وتحامل على أهل الحضر لتكاثفهم ، فذهبت ضحيته نخبة من أمهر العناصر وأنشطها — نقول : بينا هذا شأن الطاعون وشأن الأوبئة عامة كانت حرب الثلاثين سنة حرباً جائحة ، أهلكت الحرث والنسل ، وفتكت بالطبقات الدنيا التي لم تجد منها مهرباً — فتكاً مروعاً .

والرهبنة وخدمة الكنيسة من الأسباب التي حدت من ظهور أبطال الحضارة وخدامها ، فقد كان عدد كبير من فرسان القرون الوسطى يدخل الأديرة ويشغل المناصب الكنسية ، فيحكم على نفسه بالعقم ، ويخرج من الدنيا وقد حرم حضارته ما كان يمكن أن يكون في صلبه من نبوغ خليق بأن يظهر لو أنه لم يترهب أو لم يفرض على نفسه الرهبنة .

هذه هي بعض العوامل والظروف والأسباب التي كان من شأنها تعطيل ظهور النوابغ والعباقرة في الحضارة الأوربية ، أو الحدّ من هذا الظهور . أما عوامل التشجيع وظروفه : فمنها ما طرأ على الحياة الغربية من تحويل حين أنشئت المدن في الغرب. فإنه في مستهل تاريخ الغرب وبدء هجرة الشعوب كانت القبائل الفتية تنتشر في أراض واسعة مما تستولى عليه بحد السيف . فلما تكاثرت هذه القبائل ، وبدأت كثافة السكان تظهر ، بدت ظاهرات الحضارة ولاحت في الأفق . ذلك أن احتشاد سكان من أصحاب القيم يصحبه دائماً تقدم حضاري وتلازمه مدنية . ومن شأن هذا الاحتشاد أن يولد

التواصل ، وينوّع المصاهرة ، وأن تخرج من ذلك توليفات وراثية قيمة، يظهر أثرها في الموهوبين ، ويساعد على ظهوره كثرة المواليد وكثرة الأطفال ، وازدياد عدد السكان على العموم يعني ازدياد التنوع في المادة الوراثية .

وقد كان القرن الثالث عشر عصر الاستعمار الداخلي في الغرب وتأسيس المدن . ففي ناحية تشتتٌ ، وفي ناحية تكاثفٌ موزع على مراكز ، قوامه الصفوة من السكان الصالحين المفكرين المتحضرين . وقد ازدهرت الحضارة بتجمع هذه الصفوة في المدن ، وازدهر العمران ازدهاراً كانت فاتحته ليوناردو دافنشي ، فلم ينقض جيل بعد حتى كان في هذا الجيل من أصحاب المواهب السامية والعباقرة ما لم تحوه قرون عدة . وقد أسفر هذا الازدهار الحضاري عن نهضة عجيبة في الفن والعلم في القرن السادس عشر : نهضة قال عنها جوته : « إن العالم لن يشهد بسهولة مثل هذه الظاهرة ». وقال عنها يُستوس فون ليبج : « ليس بعد القرن السادس عشر قرن أغنى منه في الرجال ذوي الذهن الخالق » .

وثمة ظاهرة في تاريخ الحضارة الغربية تبدو عجيبة لأول وهلة . ذلك أنه لوحظ أنه من سنة ١٢٠٠ ميلادية كانت تظهر كل ثلاثمائة سنة جمهرة من الموهوبين النوابغ ذوي الشأن . ظهرت هذه الجمهرة وهذا الفيض من الموهبة البشرية حوالي سني ١٢٠٠ و ١٥٠٠ و ١٨٠٠ ، فدلت على ثلاثة عهود مختلفة ، سادت في كل منها طبقة من ثلاث طبقات مختلفة . فالازدهار الأول حوالي سنة ١٢٠٠ كان في عهد النبلاء الأولين ، وقد كانوا الطبقة الحاكمة إذ ذاك ، فكان جميع المشاهير في ذلك العهد من هذه الطبقة تقريباً . والازدهار الثاني يرجع إلى الحضريين الأولين ، أو طبقة البرجوازي الأصلية التي سكنت مدن القرون الوسطى ، وكانت أنشط عناصر السكان فيها ، وقوامها بقايا النبلاء ، والتجار ، والصناع . وإلى هذه الطبقة ينتمي أغلب الجمهرة الموهوبة في ذلك العهد . أما حوالي سنة ١٨٠٠ فنشهد هذه الجمهرة تنهض من بين صفوف طبقة من الحضريين تكونت في الغرب من بين طبقات السكان جميعاً . ولهذا دلالته على أن جوهر النبوغ ليس وقفاً على طبقة دون طبقة ، وأنه متى كان المستوى الحضاري رفيعاً نبت فيه النبوغ . فلما كان النبلاء في الغرب هم الصفوة وأصحاب أقيم مادة وراثية ظهر فيهم خدام الحضارة وأبطالها . فلما اندثرت طبقة النبلاء وحلت محلها في السيادة نبالة حديثة وجاه عريض ومركز مكتسب ، تدعمها جميعاً مادة وراثية غزيرة ، ظهر في هؤلاء كذلك خدام الحضارة وأبطالها . فلما أخذت هذه الطبقة في الحياة بأسلوب خاص ، وعمدت

إلى ضبط النسل والإقلال من الذرية ، ضعفت مادتها الوراثية ، وأوشكت أن تندثر هي أيضاً ، وارتفع إلى مستواها قوم من العامة نجحوا في الحياة ، فاختلطوا ببقايا الطبقة السابقة ونبلِ معدنهم ، وكان البقاء يدخرهم ، فأعطوه من ذريتهم الكثير من الأولاد ، وتنوعت مع هذه الكثرة الاستعدادات والمواهب ، فخرجت الجمهرة الثالثة من خدام الحضارة وأبطالها .

واليوم تسود الطبقة العاملة . ولا شك أن التاريخ سيعيد نفسه معها ، وأنها ستنبل إن لم تكن بسبيل التنبل ، فتخرج جمهرة أخرى من أبطال الحضارة ، تعوض من أطاحت رؤوسهم الحرب ، ومن تطيح رؤوسهم السياسة ، وتعمر ذلك القفر اليباب الذي تنعق فوق رممه الغربان الآن في قسوة الزمان .

محمود الدسوقي

اتممت قراءة الموضوع الساعة ١,٤٥ ليلاً
من مساء الثلاثاء الاول من تشرين الثاني ٢٠٠٥
على ضوء شمعة لتعود الى العصور الحجرية
قبل الدول .

الألكتروكرديوجرافي
أو
كهرباء القلب والجهاز العصبي

للأستاذ عبد السلام فهمي

لست أحاول الإشارة من قريب أو بعيد إلى منافع الكهرباء ، ولا إلى شتى وسائل استخدامها في الأغراض الحيوية والعمرانية ، إذ لا يوجد — بطبيعة الحال — أحد منا يجهل ذلك ، أو من هو فى حاجة إلى من يدله عليها .

موضوعنا هذا قد يكون غريباً على الأسماع ، و بقدر ما هو بحث شائق فإنه والحق شائك . إذ من للقلب والأعصاب أن يتحدث عنها غير الطبيب ؟ ولكن ليطمئن صاحبنا على قلبه وأعصابه ، فإنني سأدخل إليها من باب غير بابه .

تسألونني عن الكهرباء وقد مضى على كشفها ما ينيف على خمسة وعشرين قرناً فلا أجيب بأكثر مما قيل عنها وقت ظهورها، من أنها قوة خفية لا يستدل عليها إلا من آثارها.

الكهرباء والمغناطيسية هما توأمان متلازمان حيثما كانا ، فلا يوجد أحدهما حتى يتكون في أثره الآخر . والأصل في كشف المغناطيسية يعود إلى مصادفة مرور أحد الرعاة السويسريين فوق منطقة جبلية ، وكان ينتعل حذاء به مسامير من الحديد ، فلم يشعر المسكين إلا وقدماه قد التصقتا بقوة في الأرض ، وعبثاً حاول انتزاعهما ، ولم يجد بداً للخلاص بنفسه من إخراج قدميه من الحذاء ، وعاد يجري إلى منزله قانعاً من الغنيمة بالإياب ، حافياً مذعوراً ، وهو يلعن الشياطين بلا حساب . وتبين آخر الأمر أن حقيقة هذه الشياطين إنما كانت حجراً مغناطيسياً طبيعياً مر عليه الرجل ، فجذب مسامير الحذاء ، فصير صاحبه مجذوباً بكل ما في الكلمة من معان .

طرق توليد الكهرباء

لما كانت الطرق التي تتولد بها الكهرباء داخل الأجسام تختلف كل الاختلاف عن الطريقة المعروفة لنا ، وهي طريقة الإدارة الآلية ، فأرى لزاماً عليّ أن أمر سراعاً على تلك الوسائل :

الطريقة الأولى : بواسطة الاحتكاك ، ويستخدم في توليد الكهرباء الإستاتيكية ، أي الساكنة ، وذلك بدلك مادتين مختلفتين مع بعضهما فيكتسبان خاصية الجاذبية والتنافر ، ولما كشف العرب هذه الخاصية في الكهرمان أطلقوا عليه اسم الكهرباء ، وكذلك اليونانيون لما كشفوها في مادة العنبر سموه (Electricity)

الطريقة الثانية : بواسطة التفاعل الكيمائي الحادث بين أي معدنين من تأثير سائل موصل للكهرباء يحيط بهما ، فتتغير حالتهما الطبيعية ، وينجم من هذا التأثير اختلاف درجة الفلزين في التكهرب ، وينطلق التيار خلال السائل من أكثر المعدنين تأثراً إلى الآخر . وقد استخدم الأمريكيون هذه النظرية البسيطه كوسيلة لإشعال الألغام المغناطيسية ، حيث إن جهاز الاشتعال فيها يتأثر من إبرة مغناطيسية حساسة بداخله تنحرف من التيار الذي يتكون من قرص نحاسي مثبت فوق سطح اللغم ، فعند مرور السفينة بقاعها المصنوع من الصلب على اللغم الموجود في الأعماق يتكون التيار الكهربائي في الحال من تأثير مياه البحر نفسها على المعدنين المختلفين (النحاس والصلب) ويتم بذلك الانفجار ، ويصيب الهدف في الصميم بلا إبطاء ولا أخطاء .

الطريقة الثالثة : بواسطة الحرارة ، فإن مجرد تسخين قطعتين من معدنين مختلفين من موضع اتصالهما ببعضهما يحدث تكهرباً بينهما . وتستخدم هذه الخاصية في تشغيل الأجهزة التي تقيس حرارة الأفران العالية المسماة بالبيرومترات .

الطريقة الرابعة : بواسطة استخلاصها من الجو والسحب المشبعة بالكهرباء ، كما فعل ذلك بنيامين فرنكلين سنة ١٧٤٩ ، حينما رأى البرق يلمع في السماء ، فقام من فوره وصنع طيارة وأرسلها في الجو ، فلاحظ أن طرف الخيط المثبت فيها يحدث شرراً متتابعاً بينه وبين الأرض . وأعاد هذه التجربة من بعده رشمان (Richman) بيترغراد ، واستبدل الخيط القطني بآخر معدني ، ولكنه لم يكد يلمسه حتى صعق لساعته . وأيضاً فإن العالم مكسويل قد ذهب إلى أن أشعة الضوء نفسها لم تكن غير تموجات مغناطيسية كهربائية . وليس ببعيد علينا أن نرانا وقد صار في متناول الجميع استخلاص الكهرباء من الأشعة الضوئية والانتفاع بها أنى وكيفما شئنا ، وذلك بعد أن يتم إتقان العين الكهربائية التي أمكن بها الآن استخلاص قوة ١٠٠ وات من أشعة الشمس .غير أني أسأل الله أن لا يقرب هذا اليوم حتى لا تكسد بضاعتنا .

القلب

القلب هو ذلك العضو الذي يدل على عظمة الله وقدرته ، فهو آلة دافعية عجيبة الصناعة ، قد بذت ، والحق يقال ، كل ما صنعه البشر من الآلات المدهشة .

وهو و إن كان عضلة لحمية إلا أنه أمتن من الآلة الحديدية ، كيف لا وهو يبدأ عمله مذ يكون الجنين في بطن أمه ، ويفتأ يعمل دون توقف مدة عمر قد يطول إلى ثمانين أو تسعين سنة ، من غير ما حاجة إلى صيانة أو إصلاح كما تتطلب الآلة الحديدية مع قلة الفترات التي تعمل فيها . وينقبض القلب عادة في كل دقيقة نحو ٧٨ مرة في المتوسط ، ويزداد هذا العدد عند الأطفال وقت الولادة حيث يبلغ ١٣٠ ، وفي الحالات النادرة جداً قد يقل إلى ٤٠ ، كما كان نبض نابليون الأول .

أقسام القلب ، ينقسم القلب إلى أربعة أقسام ، كل اثنين منهما في جهة :

(١) الأذين الأيمن في أعلى الجهة اليمنى .

(٢) البطين الأيمن في الجهة اليمنى أيضاً تحت الأذين الأيمن السابق .

(٣) الأذين الأيسر في أعلى الجهة اليسرى .

(٤) البطين الأيسر في الجهة اليسرى تحت الأذين الأيسر .

عمل القلب : إن عمل القلب كما هو معلوم مقصور على تسيير الدورة الدموية في الجسم ، وتنقسم هذه الدورة إلى قسمين : رئيسية ، وفرعية .

الدورة الرئيسية ، الدورة الرئيسية تتلخص فيما يلي :

(١) يحمل الأبهر الدم الصالح للجسم من البطين الأيسر ، وذلك فى حالة انقباضه ، و يمرّ به على جميع الأعضاء في فروعه التي بلغت من الدقة والكثرة أنها لو وضع ثلاثة آلاف منها بعضها بجانب بعض لما شغلت أكثر من مسافة ٢,٥ سنقيمترين ونصف فقط .

(٢) تتجمع الأوردة الحاملة للدم الفاسد ، وتكون الوريد الأجوف السفلي والوريد الأجوف العلوي .

(٣) ينقل الوريدان الأجوفان الدم إلى الأذين الأيمن ، ومنه إلى البطين الأيمن من الفتحة التي بينهما ، ويتم ذلك عند انقباض الأذين الأيمن .

الدورة الفرعية أو الرئوية :

(١) حينما ينقبض البطين الأيمن يندفع الدم الفاسد داخل الشريان الرئوي ويوصله إلى الرئتين

(٢) يتم إصلاح الدم الفاسد داخل الرئتين بواسطة الهواء .

(٣) تحمل الأوردة الرئوية الأربعة إلى الأذين الأيسر الدم الصالح ، و يندفع إلى البطين الأيسر ، حيث تبدأ الدورة أمرها من جديد . ولقد وجد أن هذه الدورة تتم في مدة تختلف بين ٢٣ ، ٢٥ ثانية ، أي أن الدم يدور فى الجسم مرتين في أقل من دقيقة واحدة ، وهذا مما يفسر لنا السبب في سرعة تأثير السموم في الجسم .

القلب مولد كهربائي

إن الفضل في كشف ظاهرة توليد التيار الكهربائي من القلب يعود إلى العالم الطبيعي الشهير درسُنفال ، الذي أخرج إلى العالم نظريته القائلة بأن كل جسم حي آلة مولدة للكهرباء . وقد ساعده على تكوين رأيه هذا ما كان لاحظه من أن بعض الأسماك في نهر الأمزون والبحر الأبيض المتوسط يحدث رعشة كهربائية شديدة عند لمسه . ونوع هذا السمك ليس بغريب عنا ، إذ هو معروف في بلادنا أيضاً باسم الرّعاش ، أو « سيليروس » ، وهو ثعباني الشكل ، يتكون على جسمه شحنتان كهربائيتان : إحداهما موجبة ، وهي بأعلى الرأس ، والثانية سالبة ، وتكون بأسفلها . فحينما يقبض الإنسان بيديه عليها يحدث التفريغ في جسمه ، ويشعر في الحال برعدة شديدة ، وتكون هذه الشحنات الكهربية بسبب وجود عضو في رأس السمكة به ما ينيف عن ألف خلية مضلعة الشكل ومزودة بأربع مجموعات كبيرة من الألياف العصبية ، فمن سرعة تحرك هذه الأعصاب تتكون الشحنات الكهربائية حولها . وكم في خلق الله من الآيات .

أما القلب : فهو عبارة عن عضلة عضوية مضلعة الألياف في حجم قبضة اليد ، وهي تكون من طبقة بيضاء عازلة ، ومن فوقها طبقة سمراء موصلة للكهرباء . فحينما تتقلص العضلة المذكورة من حركة القلب الطبيعية يحدث أن الطبقة الخارجية تكون في حالة تمدد ، بينما الطبقة الداخلية البيضاء تكون في تقلص ، والعكس بالعكس . وينشأ من احتكاك هاتين الطبقتين بعضهما ببعض تيار كهربائي متغير الاتجاه ، يتذبذب فى الدقيقة مرات بقدر عدد نبضات القلب ، وتنتشر خطوطه المغناطيسية فى كل أنحاء الجسم ، بحيث إذا ما وصلت قبضة اليد اليمنى بسلك وعضلة القدم اليسري بسلك آخر ووصل طرفاهما بجهاز كهربائي حساس أمكن الاستدلال بوضوح على وجود التيار . وأول من استخدم هذا التيار في أجل خدمة للعلم ، وهي تشخيص الأمراض القلبية ، هو الدكتور الفرنسي « يا كوؤل » حيث صمم جهازاً مكبراً للتيارات القلبية ، ثم

هو يسلطها على جهاز سينمائي فتسجل ضربات القلب على شريط خاص معروف باسم Electro cardiogram ومن اطلاع الطبيب المختص بأمراض القلب على هذا الشريط يمكنه بسهولة أن يصف العلاج المناسب في الوقت المناسب . وقد أنشىء أخيراً في نيويورك جهاز من هذا النوع بلغت تكاليفه مليوناً من الفرنكات .

كهرباء مجموعة الأعصاب : لننتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الجهاز العصبي ، فنقول : إنه هو الجهاز الحيوي الذي يقوم بجميع ظواهر الحياة ، ووظيفته إدارة الحواس والحركة . وهذا النسيج العصبي يتصل بمركز الحركة في الجسم ، وهو المخ . وأظن أن الكلام على المخ لا يقل لذة عن أكله ؟

المخ في نظري يشبه مديراً قد اتخذ مقر عمله في عاصمة مديريته ، والأعصاب المتفرقة منه في جميع أجزاء الجسم تشبه أسلاك البرق التي تجعل اتصالاً وثيقاً بين مقر الحاكم والمراكز ، فتجيء الرسالة محمولة على أجنحة هذه الأسلاك البرقية من أحد المركز إلى المدير لتعلمه بما هو جار هناك ، فيرسل رأيه في الحال على أسلاك أخرى بما يستدعيه الأمر من إجراءات . فهذا هو بالضبط عمل المخ في الجسم الإنساني ، فإذا أردنا أن نمشي مثلاً فإنه يأمر عضلات القدمين بتحريكهما ، وإذا كانت الرسالة الواردة من العين إلى المخ تخبره بوجود أفعى ، فإن المخ عندئذ يبعث رسالة إلى العضلات ويحملها على إبعاد البدن عنها بسرعة . فكيف يا ترى تستطيع عملية الاستقبال والإرسال أن تتم بمثل هذه السرعة والدقة ، دون أي اضطراب بين أعضاء الجسم عند التنفيذ ؟ او هل تعرفون وسيلة يستطاع بها أداء مثل هذه المأمورية الحيوية الخطيرة غير الكهرباء ؟ إن علماء القرن العشرين حينما قرروا هذه الحقيقة وانتهوا من إثباتها عملياً سنة ١٩٣٧ كان مرجعهم الوحيد في ذلك إلى تلك المصادفة التي كشف بها « جلفاني » سنة ١٧٨٨ رعشة الضفدعة التي كان قد علقها من عصب رأسها وحصل اتصال خارجي بطريقة المصادفة بين رأسها وعضلة ساقها ، ودل البحث على أن السبب في إحداث هذه الرعشة يرجع أمره إلى تفريغ كهربائي لتيار تولد من الأعصاب في جسم الضفدعة . بعد هذا الكشف اتجه نظر العلماء في ذلك الحين إلى أن المخ يتناول الإشارات مع عضلات الجسم بتيارات لاسلكية ، ولكنهم عدلوا عن هذا الرأي حينما وجدوا أن سرعة الانتشار في هذه الأعصاب لا تتفق مع سرعة التموجات اللاسلكية وقدرها ٣٠٠٫٠٠٠ كيلومتراً في الثانية ، ولا سيما أن هذه السرعة قد وجدت في الأسماك الرعاشة لا تتجاوز أربعة أمتار فقط في الثانية ، وفي الحيوانات الثديية التي يعتبر الإنسان

فصيلة منها لا تتجاوز مائة متر في الثانية ، مما دعا إلى اعتبار أن النقل يحدث بطريق الأسلاك التي تمثلها الأعصاب ، وظلت الكيفية التي يتولد بها التيار من هذه الأعصاب مجهولة ، حتى ظهر الطبيعي الأمريكي « راف ليلي » وكشف لنا عن أمرها مثبتاً أن الكهرباء المتولدة من الأعصاب إنما تأتي من طريق التفاعل الكيميائي ، وليست من طريق الاحتكاك كما في القلب ، واعتبر الأعصاب موصلات للكهرباء كالأسلاك ، وأن المادة المعروفة (بالمايليني) المكونة من الشحم والفسفور ، والتي تحيط بالأعصاب وباعتبارها نصف موصلة للكهرباء ، هي التي تقوم بإحداث التفاعل الكيميائي عند مجرد لمس أي عصب من الأعصاب . ولقد شبه لنا تلك الحالة التي يُوخز الإنسان بإبرة في قدمه وشعوره بهذا لحظة حدوثه — بسلك من الحديد وضع في حامض الأزوتيك المركز فا كتسى بطبقة خارجية من مادة عازلة بالكهرباء ، لعلها أكسيد الحديد أو الأزوت ، فإذا ما خفف هذا الحامض بالماء ولمس هذا السلك الذي يمثل العصب بسلك رفيع من معدن آخر ، وهو الإبرة ، فإنه ينشأ من هذه الملامسة زوال المادة العازلة المحيطة بالعصب في وضع التقابل ، وينتج من ملامسة العصب والإبرة لبعضهما ، وهما مادتان مختلفتان ، تفاعل كيميائي خلال الميلين ، ويتولد من ذلك التيار ، وحينما يمتنع الضغط ، أو الوخز فإن الطبقة الخارجية العازلة تعود من نفسها وتكسو مكانها في الحال كما كانت أولاً . وهذه التيارات الحادثة من الأعصاب ضئيلة الشأن ، بحيث إن ضغطها لا يزيد عن عشرات من المليفولت ، ولو جمعنا كل القوة المولدة من كافة المخلوقات البشرية في العالم ، أي من مليارى نفس ، فإنها لا تكاد تكفي لعمل « فنجان » واحد من الشاي .

عبد السلام فهمي

أخطر المجاعات بمصر
منذ عهد الفراعنة إلى نهاية عصر المماليك

للدكتور علي إبرهيم حسن
مدرس التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

لا تكاد توجد أمة في العالم لم تكتسحها في فترات من تاريخها طائفة المجاعات والأوبئة ، حتى مصر التي اشتهرت بخصب أرضها ووفرة إنتاجها ، نكبت بمجاعات لم يدون التاريخ لها نظيراً . ويرجع معظم المجاعات إلى كساد الزراعة لإهمال العناية بوسائل الري ، مما سبب انخفاض ماء النيل وما تبع ذلك من النكبات . وسنتتبع أخطر تلك المجاعات في عصور مصر : الفرعونية ، والفاطمية ، والمملوكية . وهي العصور التي حدثت فيها مجاعات هدت كيان مصر ، وكادت كل منها تودي بالبلاد وساكنيها ، لولا لطف الله ورحمته .

فى العصر الفرعونى

أعرض المجد بوجهه عن الدولة القديمة ، فأخذت شمسها الساطعة تنحدر نحو المغيب شيئاً فشيئاً ، حتى إذا ما أدركت الغروب في أواخر الأسرة السادسة كان كل شيء قد تغير : ضعفت السلطة المركزية ، وعجزت الحكومة عن إدارة الدولة التي سارعت نحو الانحلال بخطى واسعة ، وبدأ كل أمير يستقل بإمارته وينفصل عن العاصمة . وهكذا خضعت مصر تدريجاً لعهد إقطاعي ، وأدت حالة الضعف التي انتابت البلاد إلى الفوضى والاضطراب ، وطمع الغزاة فيها وأغار عليها البدو ، وقامت الثورات والانقلابات . وزاد الحالة سوءاً أنه لم يكن هناك جيش قوي يحمي الدولة ، فكثر السلب والنهب ، وأخذ قطاع الطرق يرتعون في ربوع البلاد . وساد الناس شعور من الرعب والفزع ، واستولى عليهم الهلع ، حتى كان الشخص يذهب ليحرث أرضه وهو مسربل بدرعه ، وانتشرت العصابات تسرق دور الحكومة والمحاكم ، ولم يعد الإنسان يعرف أين يوجد معبوده ليتعبد له ويقدم القرابين .

وفي وسط تلك الفوضى ضعفت ثقة الناس بحراس الأمن ، فأغلقت المتاجر أبوابها ، وأحجم الفلاحون عن فلاحة أراضيهم خشية اللصوص المنبثين في الطرقات ،

حتى كسد الإنتاج ، وتعطلت الزراعة ، وندرت الحبوب ، وانتشر القحط ، وعمت الأوبئة ، ولم يجد الناس ما يقتاتون به ، فمات كثير منهم جوعاً ، وعاش الباقون على الحشائش ، بل إن الناس كانوا يختطفون القاذورات من أفواه الخنازير ، وحصد الموت الناس حصداً ، وكثر حفارو القبور في مختلف الأماكن بسبب كثرة الموتى ، ولما كثر عددهم واستحال تدبير أماكن دفنهم كانت جثثهم يلقى بها في الطرقات أو في البحر كالماشية الميتة ، حتى إن كتاب ذلك العصر يقولون إن التماسيح أصبحت في تخمة مما ألقي إليها . وساد الناس الأسى والاكتئاب ، وتناوبتهم الهموم والأحزان ، فكان الكبير يردد قوله : « ليتني مت قبل هذا » ، والطفل يقول : « ليتني لم أولد » ، وبدأ الناس يكفرون بالله ويدعون أنه ليس موجوداً وحدثت في البلاد انقلابات اجتماعية : فأصبح الفقراء هم الأغنياء ، وتشرد النبلاء ، وسارت السيدات الكريمات في الطرقات بملابس بالية ، ونهب الناس القبور واختلسوا ما فيها من جواهر وحلي ، وتعددت حوادث القتل ، وكثر الحكماء يعظون الناس .

ويمكننا أن نتصور حالة الشقاء التي سادت مصر إبان العصر الإقطاعي ، إذا علمنا أن أهلها قد ضاق صدرهم ، وأدركهم اليأس حتى فضلوا الموت على الحياة . ونتبين ذلك من حديث تصوره أحد كتاب ذلك العصر كأنه دار بين الجسم والروح . الجسم يقول إنه تعب ، ويسأل الروح أن تقوده إلى حيث تغرب الشمس « أي إلى الموت » ، ويسألها : « هل في الموت آلام ؟ » فتجيبه الروح : « الموت مؤلم تسيل الدموع من أجله ، يختطف الإنسان من بيته ، ثم يترك وحده هناك في وحشة الصحراوات أو الهضاب المرتفعة . انظر إلى هؤلاء الذين شيدوا الأهرام الشاهقة كيف تخربت معابدهم وخلت موائد قرابينهم ، أصغ إلي أيها الجسم وعش فرحاً » . فيجيب الجسم : « ما الفائدة من العيش ؟ مع من أتحدث ، والنهب سائد حتى بين الأخ وأخيه ؟ مع من أتحدث ، وفاعل الخير يجازى بالشر ؟ دعيني أذهب إلى وحشة هذه الهضاب ، لأن حالتي بلغت من السوء حداً يجعلني أشعر أن شوقي إلى الموت كشوق الغائب عن أهله ، الذي صار أسيراً مدة طويلة في بلاد نائية » .

على أن تلك المجاعة قد أخذت تخف شيئاً فشيئاً ، بعودة الأمن والنظام في أعقاب هذا العهد الإقطاعي المنكوب . وهناك مجاعة أخرى شهيرة اكتسحت مصر ، وتحدثت عنها الكتب المقدسة ، وهي المجاعة التي حدثت أيام يوسف الصديق ، فقد اجتاحت البلاد سبع سنين عجاف ، انعدم فيها الزرع ، وندرت الغلال ، ولولا حكمة

يوسف وحسن تدبيره لهلك الناس ودمرت البلاد ، وأصبحت مصر في زوايا النسيان .

في العصر الفاطمي

لم يحدث في مصر في ظل الحكم الإسلامي مجاعات تستوقف أنظار الباحثين في تاريخ مصر في العصور الوسطى ، إلى أن انتقلت الأمور في عهد الأخشيديين إلى كافور الأسود (٣٣٤ — ٣٥٧ هـ) ، فكان عهده أسود مثله : انخفض فيه ماء النيل ، فعاود مصر البؤس والشقاء ، واشتد الغلاء ، وما تبعه من انتشار القحط ، وتفشى الوباء ، وندر القمح ، وكثر عدد الموتى بحالة عجز معها الناس عن تكفين موتاهم ومواراتهم ، حتى قيل إن عدد من ماتوا في تلك المحنة بلغ ٦٠٠,٠٠٠ نفس ، وكان يلقى بجثثهم في النيل لكثرتها .

على أن محنة مصر في عهد كافور ، ليست بشيء يذكر إذا ما قورنت بالمجاعة الكبرى التي نكبت بها البلاد في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وهي المجاعة التي اشتدت بين سنتي ٤٥٩ — ٤٦٠ هـ والمعروفة في التاريخ باسم « الشدة المستنصرية » . وقد يبدو عجيباً أن تحدث مجاعة في زمن الفاطميين ، الذين بلغت البلاد في أيامهم حالة من الثراء والرخاء ، أصبحت معها مضرب الأمثال في سائر الأقطار . بل أعجب من ذلك أن تحدث تلك المجاعة في زمن المستنصر ، وهو الذي كانت ثروته لا تقدر بمال ، إذ كان قصره عامراً بالتماثيل الرائعة والتحف النادرة ، وكلها من الذهب والياقوت والزبرجد ، وفي مخازنه من السروج فقط ما تقدر قيمته بعشرات الملايين من الدنانير ، وله سبحة من الأحجار الكريمة تقدر بثمانين ألف دينار .

ولكن هذا الثراء الوافر لم يمنع وقوع تلك الشدة ، إذ اتفق أن انخفض ماء النيل ، وأنتج انخفاضه كثيراً من الويلات التي سبق أن قاستها مصر في العصور التاريخية التي سبقت عصر الدولة الفاطمية ، ولكن بصورة أبشع . فقد أهملت الزراعة ، وندرت الغلال ، وعز القوت ، وزاد الغلاء ، وانتشر القحط والجوع ، وأصبحت البلاد في حالة يرثى لها من البؤس والشقاء والفوضى ، واختل ميزان الأمن ، وكثرت حوادث السلب والنهب ، حتى اعتدى على قصر الخليفة نفسه ، ونهبت تحفه الرائعة ومجموعاته الفنية التي لا تقدر بمال ، وسرقت الكتب والمؤلفات العلمية وأعمل فيها الحريق .

وفي غضون تلك المحنة اشتد الجوع على الناس ، فأكلوا لحم القطط والكلاب ،

وبيعت الخيل والحمير بأثمان غالية ، ثم ندر وجودها ، وبلغ ثمن الكلب خمسة دنانير ، وثمن القطة ثلاثة ، وسرقت كل دواب الخليفة وإبله وخيوله ، وكانت تعد بالآلاف . وقيل في هذا الصدد : إن وزير المستنصر نزل عن بغلته أمام باب القصر وتركها تحت رعاية غلامه ، فهجم ثلاثة رجال على الغلام وأخذوا البغلة منه ، أما هو فلم يقدر على منعهم لضعفه من الجوع ، وذبح الرجال البغلة وأكلوها ، فقبض عليهم وصلبوا عقاباً لهم ، ولكن لما أصبح الناس لم يروا إلا عظامهم ، إذ كان الشعب الجوعان قد أكل لحومهم أثناء الليل .

واشتدت المحنة على الناس حتى كانوا من هول الجوع يأكل بعضهم بعضاً ، ووصلت الوحشية بأحد الطباخين حداً لا يمكن تصديقه ، فقد ذبح عدداً من الصبيان والنساء وطبخ لحومهم وأكل منها وباع للناس . ومما يذكر من حوادث تلك المجاعة أن امرأة بدينة كانت سائرة في الطريق ، فصادها الجنود بالكلاليب ، وأخذوا بعضاً من لحمها وأكلوه ، فلما استغاثت وجاء الوالي لنجدتها وجد في الدار ألوفاً من القتلى . وازدادت الحالة خطورة حتى بيع لحم الإنسان عند الجزارين ، وضاعت قيمة المال والذهب والأحجار الكريمة ، فقد كان النساء يعرضن حليهن في الأسواق ليأخذن عوضاً عنه شيئاً من الدقيق أو الخبز أو الطعام فلا يوجد من يشتريه ، وباع رجل داراً كان قد اشتراها بتسعمائة دينار بعشرين رطل دقيق ، وعزت الأقوات حتى كان الرغيف يباع أحياناً بخمسين ديناراً .

دامت هذه الشدة سبع سنوات طوال ، انتشرت خلالها الأوبئة ، وأهلك الطاعون كثيراً من الأهلين ، وكابد الناس أقسى ألوان البؤس وأشد صنوف البلاء . ورحلت أم الخليفة المستنصر وبناته إلى بغداد خوفاً من الموت جوعاً ، وبدأ الخليفة يبيع أثاث قصره وتحفه وملابسه حتى يسد رمقه ، ولم تبق له غير دابة واحدة يركبها ، أما رجال بلاطه فكانوا يسيرون في معيته مشياً على أقدامهم فيسقطون على الأرض من قسوة الجوع* .

وظل الأمر على هذه الحال حتى سنة ٤٦٥ هـ إذ أتى الوزير الشهير بدر الجمالي من عكا إلى مصر ، وتولى تدبير الأمر ، والقيام بالإصلاحات السريعة ، فبدأ الضيق يخف عن الناس وتنفرج حلقاته شيئاً فشيئاً . ولكن التاريخ أبى إلا أن يقدم لنا صورة أبشع لمجاعات أخرى حدثت في مصر في عصر المماليك .

---

* النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ٥ ص ١٦ .

في العصر المملوكي

إن مصر لتحفظ لعصر المماليك ذكريات عديدة ، ما زال الناس يتداولون الحديث عنها . ومن بين ما نذكره لذلك العصر ، تلك المجاعات المخيفة التي اكتسحت أرض النيل في فترات متفرقة ، فذهب ضحيتها الكثيرون . وكان من أسباب هذه الحالة السيئة أن بعض ولاة ذلك العصر كانوا يصلون إلى مراكزهم عن طريق الرشوة ، فإذا ما وصلوا إلى الحكم أرادوا أن يعوضوا ما دفعوه من مال ، فيفرضون على أهل الريف المغارم ، حتى تضيق بهم الحال فيهجروا أراضيهم ، وتضمحل الزراعة تبعاً لذلك ، وتقل الغلال ، ويبدأ شبح المجاعة في الظهور . وكان انخفاض النيل أو انتشار بعض الأوبئة المروعة كالطاعون من أهم عوامل حدوث المجاعات في العصر المملوكي ، كما كان الحال تماماً حين وقعت « الشدة المستنصرية » في العصر الفاطمي .

ومن أشهر المجاعات التي حدثت أيام المماليك ، تلك المجاعة التي روعت مصر أيام السلطان العادل كتبغا سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥ م) . فقد توقف النيل ونقص نقصاً كبيراً ، فجفت الآبار ، وفات على الفلاحين أوان الزرع ، وندرت المحاصيل . وزاد الحالة شدة أن ريحاً سوداء مظلمة هبت على مصر من بلاد برقة حاملة تراباً أصفر كسا الزرع ، وعمت تلك الريح أقاليم البحيرة والشرقية والغربية وأعالي الصعيد ، ففسدت المزروعات وخاصة الصيفية منها كالأرز والسمسم والقلقاس وقصب السكر . وزاد في وقع هذا الغلاء أن كثيرين من المنكوبين في برقة هاجروا إلى مصر ، فكثر عدد الأهالي في وقت قل فيه القوت . ويقال إن أردب القمح وصل ثمنه إلى مائة وثمانين درهماً والفول إلى تسعين ، وهلك معظم الدواب لعدم وجود علف لإطعامها ، حتى لم توجد دابة واحدة للكراء ، كما ماتت الكلاب والقطط من الجوع ، وسرى البخل بين أكابر الأعيان والأمراء ، حتى كانوا يمنعون الناس من الدخول عليهم أثناء طعامهم .

بلغت الشدة غايتها ، فأكل الناس الميتة من الكلاب والمواشي وبني آدم ، وأكل النساء أولادهن الموتى ، وكان الناس يبيعون أولادهم لشراء القوت . ونهب الأهالي الخبز من الأفران والحوانيت ، ولم يكن الخبز يخرج من الأفران إلا ومعه حراس يحملون العصي ، ومع ذلك كان الجوع يدفع كثيرين منهم إلى أن يلقي أحدهم بنفسه على الخبز ليختطف منه شيئاً ، غير مبال بما ينال رأسه وبدنه من الضرب الشديد . وكثيراً ما ضبط أشخاص ومع كل منهم كتف طفل صغير أو فخذه أو شيء من لحمه ، ولذا كان الأطفال من أوائل ضحايا تلك المجاعة .

وكان لا بد من إيجاد حل لتلك المحنة القاسية التي تمر بالبلاد . فجمع السلطان كتبغا الفقراء والجياع وفرقهم على الأمراء ليطعموهم ، فكانوا يقدمون لهم الخبز واللحم والمرق ، وأحياناً الكعك والرقاق . على أن هذا الإجراء لم يفد كثيراً في تخفيف حدة المجاعة ، إذ انتشر الوباء وعم كل أرجاء القطر وخاصة الأرياف . وبذل الأطباء غاية جهودهم ، وبذلت لهم الأموال ، حتى كان الشخص الواحد منهم يكسب في اليوم أكثر من مائة درهم ، ولكن الوباء أعجزهم عن متابعة جهودهم ، فكثر عدد الموتى وازداد بشكل مروع لم يسبق له مثيل ، حتى كان — على ما ذكره المقريزي — « يخرج من كل باب من أبواب القاهرة في كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت ، ويغسل في الميضأة من الغرباء الطرحاء في كل يوم نحو المائة والخمسين ميتاً ، ولا يكاد أحد من المستورين (يقصد الرجل الغني) بالقاهرة ومصر إلا ويصبح على بابه عدة أموات قد طرحوا حتى يكفنهم ويدفنهم فيشغل نهاره بهم . ثم تزايد الأمر فصارت الأموات تدفن بغير غسل ولا كفن ، فإنه يدفن الواحد في ثوب ثم ساعة ما يوضع في حفرته يؤخذ ثوبه حتى يلبس لميت آخر ، فيكفن في الثوب الواحد عدة أموات . وعجز الناس عن مداراة الأموات في القبور لكثرتهم وقلة من يحفر لهم ، فعملت حفائر كبار ألقيت فيها الأموات من الرجال والنساء والصبيان حتى تمتلىء الحفرة ثم تطم بالتراب »*.

وقد انتفع من هذه المجاعة الأطباء وحفارو القبور ، وذهب ضحيتها أصحاب المزارع . فإن الأمير فخر الدين الطنبغا كان له من بين مزروعاته مائة فدان فولاً ، هجم الناس عليها وظلوا يأكلون فولها الأخضر حتى لم يبقوا على شيء ، وخرج الأمير ليرى مزرعته ، فإذا به يرى تلاً كبيراً من القشر ، فأمر بأن يدرس حتى ينتفع بتبنه . وكان آثار تلك المجاعة أن الناس بدؤوا يهاجرون من مدنهم وقراهم ، حتى إن القرية التي كان بها مائة نفس لم يبق بها إلا نحو العشرين . وقد أراد السلطان أن يصلح الحال ولو قليلاً ، فانطلق بجيشه إلى سوريا وجمع كل ما أمكنه جمعه من الغلال وفرقها في الناس ، ثم أخذت الأحوال تعود سيرتها الطبيعية .

***

على أن أحوال مصر الاقتصادية قد انتعشت في عصر السلطان الناصر محمد بفضل عنايته بالزراعة وزيادة المحاصيل وتحسين الريّ . وعرف الناصر بحزمه فى معالجة

---

* كتاب السلوك للمقريزي ج ١ ص ٨١٤ .

الأزمات . فقد حدث في سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م) أن ساءت أحوال البلاد الاقتصادية وارتفعت أثمان الغلال ، وساعد الأمراء على ازدياد الحالة سوءاً بامتناعهم عن البيع طلباً لزيادة الربح . فخاف الناصر العاقبة ، وأمر نجم الدين محمد بن حسين محتسب القاهرة وعلاء الدين علي بن المرواني والي القاهرة بالطواف معاً على الطواحين . فاشتدا على الخبازين بقصد الوصول إلى انفراج الأزمة . إلا أن الحالة ازدادت سوءاً حتى أغلقت الحوانيت وتعذر على الناس شراء ما يلزمهم من الخبز . ولكن السلطان أمر بأن ترسل الغلال إلى مصر من دمشق وغزة والكرك والشوبك ، وأمر بأن لا يباع الإردب من القمح بأكثر من ثلاثين درهماً ، وطلب إلى الأمراء عدم مخالفة ذلك ، واشتد على المخالفين ، حتى قيل إنه عاقب سمساري الأميرين قوصون وبشتاك بالضرب المبرح لبيعهما الخبز بأكثر من السعر الذي حدده ، وكانت نتيجة ذلك أن خفت حدة المجاعة ، مما يدل على ضرورة الحزم والعزم في مثل تلك الظروف التي كان الشعب فيها على حافة الهلاك[1] .

وفي ذلك يقول المقريزي : « وطلب (الناصر) الأمير قوصون بحضرة الأمراء وصرخ عليه : ويلك ! أنت تريد أن تخرب عليّ مصر وتخالف مرسومي ، وسبه ولعنه وشهرعليه السيف وضربه على رأسه وأكتافه ، وصاح : هاتوا أستاداره[2] ، فتسارع النقباء لإحضاره . ومن شدة غضب السلطان صار يقوم ويقعد ويقول : هاتوا أستاداره ، حتى خرج أمير مسعود الحاجب إلى باب القلعة ... وارتجت القلعة بأسرها وخاف الأمراء كلهم ، لشدة ما رأوه من غضب السلطان . فلم يكن أسرع من حضور قطلو أستادار قوصون ، فأمر بضربه بالمقارع ، ثم أمر به فبطح بين يديه وضرب ... فلم يتجاسر من بعدها أحد من الأمراء أن يفتح شونته إلا بأمر المحتسب »[3] .

* * *

وما لبث خطر المجاعة أن ظهر في مصر سنة ٧٤٩ هـ أيام السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد ، حينما نكبت مصر بالطاعون الذي أزهق الأرواح ، حتى بلغ

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ج ١ ص ١٦٤ و ١٠٩ .

(٢) هذا الاسم (أستادار) يتركب من كلمتين فارسيتين : أولاهما « أستد » ومعناها السيد أو الكبير ، وثانيتهما « دار » ، ومعناها ممسك . وبذلك يكون المقصود من الكلمة : الذي يتولى قبض المال .

(٣) كتاب السلوك للمقريزي ج ٢ ص ٤٤٦ .

عدد الموتى في شهرين تسعمائة ألف ، وقلت المزروعات لموت الفلاحين ، فانتشر القحط والجوع في البلاد من جديد ، وفتك الطاعون بالحيوانات أيضاً ، فكثيراً ما شوهدت الخيول والجمال والحمير والطيور وهي ملقاة في البراري والطرقات . وساد الحزن جميع أرجاء البلاد ، حتى إنه لم يوجد منزل إلا وفيه صياح على ميت ، وخلت كثير من الديار ، وصارت أمتعة أهلها ملقاة لا تجد من يأخذها ، وكان الشخص إذا ورث شيئاً عن قريب له لا يلبث ميراثه أن ينتقل إلى ثان وثالث في الأسبوع نفسه . ولكثرة الموتى لم تكفهم النعوش ، بل كانوا يحملون على أقفاص أو ألواح من الخشب ، ويحمل على اللوح الواحد عدة أشخاص ، وصارت مهنة القراءة على الموتى ومهنة حملهم ودفنهم من المهن الرابحة . وامتلأت المقابر بالناس ، فكان الموتى يلقون في الطرقات على التراب ، وأحياناً كان يموت من في الدار جميعاً ، فيتركون على حالهم دون أن يجدوا من يدفنهم . ولم تكن هناك صلاة خاصة على ميت ، بل كان الإمام يصلي على عدد كبير من الموتى دفعة واحدة .

على أن كثرة عدد الموتى جعلت الناس يتقربون إلى الله ، ويكثرون من الصلاة والصوم وفعل الخير ، وادعى كثيرون أنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحلامهم ، وشكوا إليه ما نزل بهم من الشقاء فأمرهم بالتوبة والدعاء . وهكذا مال الناس إلى العبادة ، وزهد أصحاب الأموال في أموالهم وأكثروا من إحسانهم إلى الفقراء[1] .

وأخذ الشعراء ينظمون الشعر مليئاً بالأسى ، مما يلمحونه كل يوم من مناظر الموت الذي كان شبحه مجسماً أمام أعينهم في كل حين . وفي ذلك يقول بدرالدين الحسن بن حبيب الحلبي :

إن هذا الطاعون يفتك في العا ... لم فتك امرئ ظلوم حقود
ويطوف البلاد شرقاً وغرباً ... ويسوق العباد نحو اللحود
كم طوى النشر من أخ عن أخيه ... وسبا عقل والد بوليد
إن أعش بعده فإني شكور ... مخلص الحمد للولي الحميد[2]

ويقول الصلاح الصفدي في ذلك :

ياطالباً للموت قم واغتنم ... هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله ... ومات من لا عمره ماتا

---

(١) النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) الفصل الأول ص ٦٦ و ٧١ .
(٢) كتاب السلوك (مخطوط) القسم السادس أول ص ٥٩٤

ويقول أيضاً :

قُبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبه
بيعت الأنفس فيه كل نفس بحبه(١)

وقاست مصر الأمرّين في تلك الشدة ، وفقدت مئات الألوف من أهلها الأعزاء عليها ، فهم عدتها في الحروب ، وعلى سواعدهم تزدهر الصناعات وتروج التجارة وتنمو الحاصلات . وظلت الحال في الديار المصرية على هذا المنوال ، حتى تداركها العليّ القدير بعنايته ، وكشف عنها الغمة ، وأزاح عنها تلك الويلات ، وجاهدت البلاد كي تسترد نشاطها السياسي والاقتصادي .

* * *

على أن العصر الحديث يقدم لنا نوعاً جديداً من المجاعات ، لم ينشأ عن إهمال وسائل الري أو انتشار الأوبئة ، وإنما سببته الحروب . وهي نتيجة إنهماك الدول أثناء حربها مع بعضها في صرف مالها ، وتوجيه رجالها وإرسال مؤنها إلى ميادين الحروب . فتفقد الزراعة بذلك ما تحتاج إليه من معدات وأيد عاملة ، فيقل الإنتاج وتحدث المجاعات . ونطلب إلى الله العلي القدير أن يرحم العالم ، وأن يقيه شر تلك المجاعات . ولا سبيل لاتقاء ذلك إلا إذا ساد السلام أرجاء العالم ، ودأبت الدول علي تحسين وسائل الري ، واهتمت بأمر الفلاح ، لأنه بإهماله تتعقد أساليب الحياة وتضيق سبل العيش أمام الناس .

على إبرهيم حسن

---

* بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٢ . [ورد البيت الثاني على هذه الصورة التي لا يرضى عنها العروضيون]

صور من جنوب السودان

بين قبائل الشلك والدنكا والنوير

للأستاذ محمود نجيب أبي الليل

وسط الشلك

تركت القراء في المقال السابق وسط قبائل الشلك في بلدة كودوك في جنوب السودان . وعرضت لوسائل معيشتهم ومصادر ثروتهم وطريقة زينتهم . وقد قضيت في بلدتهم وقتاً غير قصير ، وجلت في أنحائها وطرقاتها . وشاهدت بعضهم في أكواخهم . وكان كثير منهم يلتفّون حولنا في كل خطوة من خطواتنا ، يميزهم جميعاً « الطاي » وهو الوشم البارز في جباههم ، فوق العينين بقليل ، ويسميه العرب « طابور » .

وكان صاحبنا ودليلنا « أحمدكور » يقوم بمهمة الترجمة بيننا وبينهم ، ويشرح لنا ما يستعصي علينا فهمه من مظاهر معيشتهم . وهم يتكلمون لغة غريبة ، تختلط فيها كلمات عربية عرفوها بمعاشرتهم ومعاملتهم للعرب الذين يقطنون بلدتهم ، ومخالطتهم للمسافرين الذين يفدون مع البريد بين حين وآخر ويقضون معهم سويعات ، يبيعون لهم فيها الخراف والدجاج والبيض . وقد عرفت أن أحد القساوسة الإنجليز ، الذين وفدوا على تلك الجهات وقضى فيها زمناً طويلاً ، قام بعمل معجم جمع بين دفتيه كلمات لغة الشلك وأضاف إليها ترجمة إنجليزية . ويعد هذا المعجم مرجعاً جيداً لهذه اللغة ، وقد كتب باللغة اللاتينية ، لأن لغة الشلك يتفاهمون بها وليست لها حروف معروفة تكتب بها .

ويسمى العرب الذين يعيشون بينهم « الجَلاّبة » . وهم يزاولون التجارة . وقد كان لوجودهم في كودوك أثر كبير في تنوير أذهان الشلك وإدراكهم للحياة ، وإدخال الكثيرين منهم في الإسلام وتعليمهم العربية . وهناك مسجد صغير يقوم بالإمامة فيه شيخ سوداني من أصل عربي ، حفظ القرآن ، وتلقى حظاً يسيراً من العلم في المعهد الديني بأم درمان، ويسمى الشيخ « حامد علي » . وله بين أهل البلدة مكانة كبيرة ، ويلقبونه « مولانا الشيخ حامد » ، وقد اشتهر بينهم بالزهد والتقوى والصلاح .

وعلى مسافة يسيرة من البلدة توجد كنيسة ومستشفى ، يشرف عليهما قساوسة

من الأوربيين ، وقد دخلوا في هذه الحلات منذ عشرات السنين ، بغية إدخال الشلك في المسيحية . ولكن أثرهم كان ضعيفاً ، بل يكاد يكون معدوماً ، نظراً لنفور الشلك من البيض . وهم يفضلون اعتناق الإسلام لأن المبشرين به عندهم سود الوجوه مثلهم ، يختلطون بهم بالمعاملة والتجارة ، ويعيشون بينهم ويتزوجون منهم ، ويسكنون في « بطيات » مثلهم ، بينما ترى الأوربيين يعمدون إلى بناء الدور الفخمة نوعاً ما ، ويتكلمون لغات بعيدة كل البعد عن لغاتهم ، وهم فوق ذلك بيض الوجوه ، ليست بينهم وبين الشلك أية صلة من صلات الدم أو اللغة أو الشبه ، وهو ما اكتسبه العرب بطول إقامتهم بينهم . ومن هنا حرم على العرب من السودانيين النزوح إلى المناطق المغلقة في الجنوب ، نظراً للأثر الذي يتركونه سريعاً في إخراج الشلك من حياتهم البدائية ، واعتناقهم الإسلام ، والسير بهم في طريق المدنية واكتمال الحياة الإنسانية الصحيحة .

وفي البلدة كثيرون من المعمرين الذين كانوا جنوداً في الجيش المصري ، وهم يعيشون فى فقر مدقع ، وتدور برؤوسهم بين حين وآخر ذكريات الماضي مع المصريين ، فيقومون بدور الرواة ، ويقصون على إخوانهم من الشلك أحسن القصص ، فتعتمل في نفوسهم شتى العواطف نحو سكان الشمال ، ويظهرونها واضحة جلية عندما يهبط بلدتهم أحد من المصريين الذين يسافرون من وقت لآخر في جنوب الوادي ، طلباً للبحث أو التفتيش في الري .

وما كودوك في الواقع إلا اسم ابتدعه المستعمرون هناك، بدلا من اسم « فاشودة » المشهورة في تاريخ الحكم المصري في السودان ، والتي وقعت فيها الواقعة بين كتشنر ومرشان حول وجوب رفع العلم المصري على البلدة . وما زالت آثار فاشودة باقية ، حية ناطقة ، على بعد ربع ساعة من كودوك . ويحاول الإنجليز محو آثار المصريين من تلك الجهة ، ولكن أثر التاريخ أقوى وأمكن في تثبيت ما أوجدته الأيام ، وأتت به الحوادث ، وورد على لسان الرواة من المحاربين القدماء .

الملك زعيم الشلك

وفي « فاشودة » يقيم زعيم الشلك ، ويسمى « المَكّ » بفتح الميم، ويقوم منهم مقام الملك . وهم يدينون له بالطاعة والولاء ، وقد بلغ احترامهم له حد التقديس . فإذا ما مر في البلدة وقف كل من في الطريق خاشعاً ، مطأطئاً الرأس ، غاضاً البصر ، كأنه بين يدي الله ، وتنتاب جسده رعدة من فرط التقدير والإجلال . ويؤدى كل فرد منهم ،

كبيراً كان أم صغيراً ، جزية سنوية للملك ، من الذرة أو البقر أو الأغنام . وإن نطق الملك فنطقه عندهم هو التنزيل بعينه ، وإن حكم فلا رادّ لحكمه أو قضائه .

ويشترك الملك في مجلس حاكم البلدة الإنجليزي للفصل بين الناس في المنازعات . وقد عمدت الحكومة إلى الاعتراف به وبسلطته ، نظراً لمكانته بين الشلك ، وبذلك ضمنت نفاذ أحكام الحاكم الإنجليزي ، وضمنت الهدوء والسكينة في تلك الأصقاع ، والحكومة لا تتدخل في إصلاح ما هو شائع فيهم من عادات . بل تترك المعوجّ على عوجه ولا تحاول تقويمه . ولذلك لا تجد للاستعمار أثراً يذكر ، فقد دخل الإنجليز هناك منذ أكثر من خمسين عاماً ، ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً نحو ستر أجساد العرايا منهم ، بل لعلهم عمدوا إلى فصل الجنوب عن الشمال حتى لا يعرف أهل الجنوب معنى الكساء فيطالبوا بعده بحقهم في الحياة ويعمدوا إلى المطالبة بأراضيهم والاحتفاظ بكنوزهم التي حبتهم بها الطبيعة .

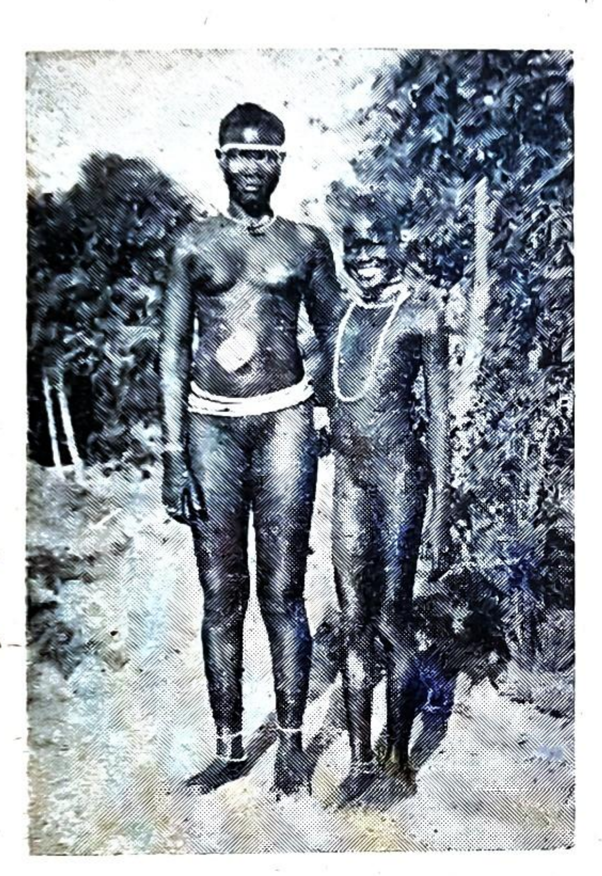
ويختار الملك من إحدى أسر ثلاث تتناوب الزعامة . ويظل الملك زعيماً مدى حياته ، فإذا مات خلفه في الزعامة ابن الملك القديم من الأسرة الثانية ، وبعد وفاة الثاني يخلفه ابن الملك من الأسرة الثالثة ، ثم تعود الزعامة إلى الأسرة الأولى ، وهكذا . ويبلغ عدد الشلك مائة ألف ، ينقسمون إلى عشرين قبيلة . ويتزوج الملك زوجة من كل قبيلة ويفرد لها بيتاً خاصاً بها ، وينام في كل بيت ليلة ، ولا يعلم أحد من أتباعه في أي بيت يبيت ليلته ، خوفاً من أن يغدر به منافسوه فينتزعوا الزعامة منه .

وليس لبنات الملك حق الزواج ، فإن تزوجت إحداهن حكم عليها بالقتل ، حتى لا تنجب أولاداً ربما يدعون الملك أو يطالبون به فيما بعد . ولها الحرية في أن تصاحب من تشاء من أفراد القبيلة ، فتختار هذا وتعيش معه مدة ، فإن زهدت فيه أو ملته تركته إلى غيره من الرجال بمحض إرادتها واختيارها .

نظام الميراث عند الشلك

يرث الفردَ بعد موته إخوته ، يرثون ماله ونساءه . فإذا لم يكن له إخوة يرث الملك نصف ثروته ويرث أولاده الذكور الباقي ، فيرث الولد أباه نساءه ما عدا أمه التي أنجبته . ولا ترث البنات إطلاقاً ، نظراً لأن البنت يمكنها أن تحصل على المال بما تمهر به من أبقار عند الزواج ، بينما على الذكر أن يدفع أبقاراً ومالاً جزية للملك ومهراً للعروس .

ولا تورث المنازل بل تهدم بعد موت رب الأسرة ، فيعمد الوارثون إلى بناء غيرها في الأراضي الواسعة المحيطة بالحلة . وهم يعللون ذلك بأنه من غير اللائق أن يسكن البطية أحد بعد زوال رب الأسرة .



فتاتان من فتيات الشلك في إحدى الحلات الداخلية

وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى صعوبة انقسام البطية في الميراث ، ولمنع وجود سبب للتنازع بين الوارثين ، علاوة على تفاهة قيمتها وضآلة ما تتكلفه من قش وغاب وطين .

ويدفن الميت عاري الجسد في لحد يحفر بعد الموت ، ثم يهيلون التراب على الجثة ويتركونها بعد أن يقوموا بمراسيم الوفاة ، وهي لا تتعدى الدق بالدف والقيام برقصة من الرقصات ، ثم يعودون سريعاً إلى الحياة كأن لم تنزل بهم نازلة ولم تصبهم من الدهر نائبة .

* * *

تركت كودوك آسفاً كل الأسف على تلك الساعات الجميلة التي قضيناها وسط الشلك ، نسينا فيها العالمَ وما فيه ، وانقطعت عنا أخبار المدنية وما جرته علينا من ويلات ومضايقات . فكأن الإنسان في قرارة نفسه يود الرجوع إلى حياته البدائية الأولى ، ويفضلها على زخرف القرن العشرين . وعادت الباخرة فأقلعت بنا ، موجّهة وجهها شطر الجنوب ، وأخذنا نرد الطرف إلى كودوك حتى غابت عن أعيننا ، وعدنا ثانية إلى الهدوء والسكينة ، وشغل كل منا بما رأى وما سمع . ولم يكن يقطع علينا الهدوء إلا صوت الباخرة وهي تشق ماء النيل الهادئ الحنون . واشتدت حرارة الشمس وتوهج انعكاسها على صفحة الماء ، وكثرت الطيور المختلفة الألوان تحلق هنا وهناك ، تحوم حول الباخرة كأنها تحيينا وترحب بنا .

الوصول الى ملاكال

وأخيراً وصلنا إلى ملاكال ، العاصمة الجديدة لمديرية أعالي النيل ، حيث يقيم مدير المديرية الإنجليزي . وقد كانت العاصمة الأصلية بلدة « التوفيقية » وهي تبعد عنها إلى الجنوب نحو كيلو مترين .

وتقع ملاّكال على الضفة الشرقية للنيل الأبيض ، وتبعد عن الخرطوم مسافة ٥٢٠ كيلو متراً ، ويبلغ عدد سكانها ثلاثة آلاف نسمة . وتحيط بها الحلاّت الكثيرة من قبائل الشالك والدنكا والنوير . وفيها مستعمرة كبيرة للري المصري . وهي مركز مهم للإرساليات الدينية من بروتستنتية وكاثوليكية . وليس لهذه الإرساليات كنائس في ملاّكال نفسها ، ولكن في الحلات المحيطة بالبلدة . ويعمد القساوسة إلى اختيار تلاميذهم من أطفال الزنوج ، ويعلمونهم الإنجليزية ، ويلقنونهم مبادىء المسيحية ، ولكن عند ما يشبون عن الطوق يخلعون مالبسوه ويعودون إلى حياتهم كما كانوا عرايا وسط أهلهم ، ويقطعون صلتهم بالكنيسة وقساوستها .

وفي هذه البلدة يكثر العرايا من أبناء القبائل . وقد قابلنا الكثيرون منهم على الشاطىء عند ما لمحوا باخرتنا تدنو من المرفأ . ويعمل في مستعمرة الري كثيرون من الشالك ، ويلبس أغلبهم أثناء عملهم « اللاو » . وكما يحمل الرجل منهم حربته ، ويبدو في زينته التي سبق أن ذكرناها ، تجده يحرص كل الحرص على « نرجيلة » مصنوعة من الطين ، على هيئة سبع فاغر فاه ، وتخرج منها غابة طويلة تنتهي بجزء منتفخ ضخم ، به ثقب صغير ، يضع فيه الرجل فمه ويمتص الدخان ، وهي كثيرة الشبه بالجوزة عند المصريين . والطباق عندهم تافه القيمة ، إذ يزرعونه في مساحات واسعة ، ويدخنون معه نوعاً من الحشيش يسمى « البنجو » ، وله مفعول شديد في تخديرهم ، ولا تحرم الحكومة هذا المخدر بل تبيحه في جنوب السودان وتحرمه في الشمال ! !

وقد رأيت النساء في الملاكال ، ملتفات بلباسهن الأزرق ، وتحمل كل منهن طفلها في « جراب » على جانب من صدرها . وهنّ يحلقن رؤوسهن بالموسى فتبدو صلعاء . يستوي في ذلك الأبكار منهن والمتزوجات .

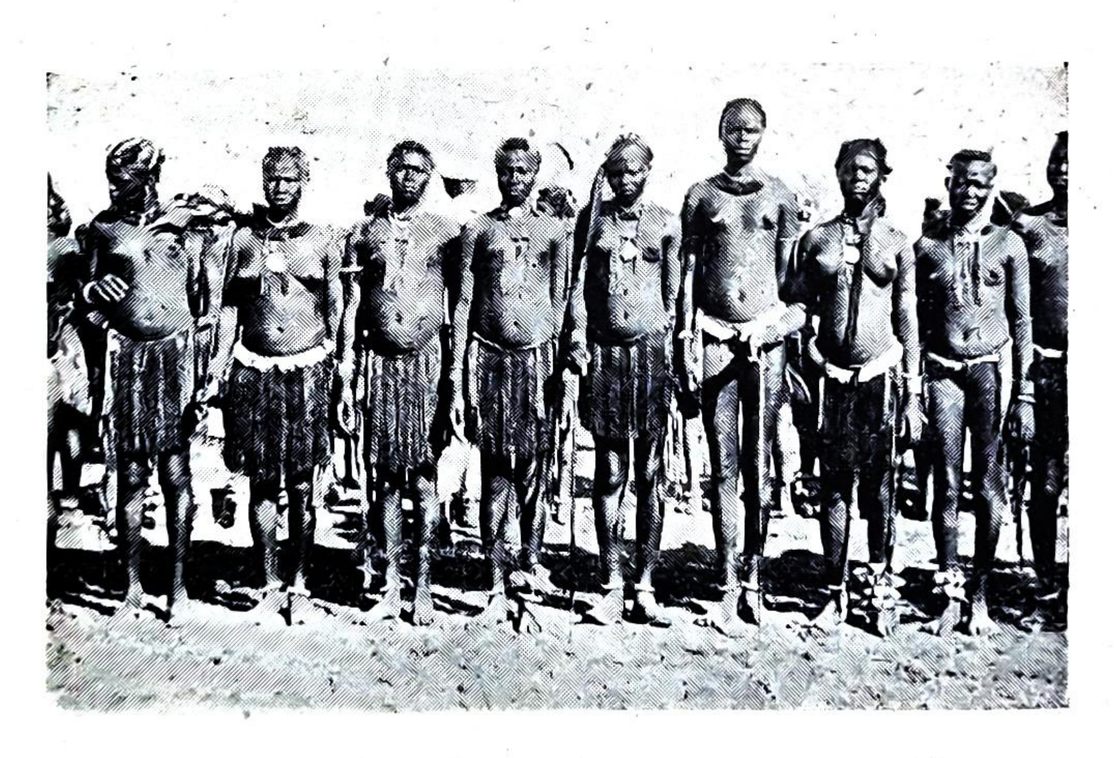
الدنكا في ملوط

ولم أر في الملاّكال شيئاً آخر يسترعي الانتباه غيرما رأيناه في كودوك . وبعدأن

انتهينا من مهمتنا فيها ، أقلعنا إلى مصب السوباط . ثم قفلنا راجعين ، بعد أن أسدل الليل ستاره علينا ، حتى نتمكن من رؤية ملوط في صباح اليوم التالي . وقد وصلنا إليها في الساعة السابعة صباحاً .

وفي ملوط وما حولها من حلاّت تكثر قبائل الدنكا والنوير ، ويقل الشلك ، إذ من عادة الشلك أن يقطنوا الضفة الغربية ، بينما يقطن الدنكا والنوير الضفة الشرقية. وتقع ملوط على الضفة الشرقية للنيل ، وتبعد عن الخرطوم مسافة ٦٧٧ كيلومتراً .

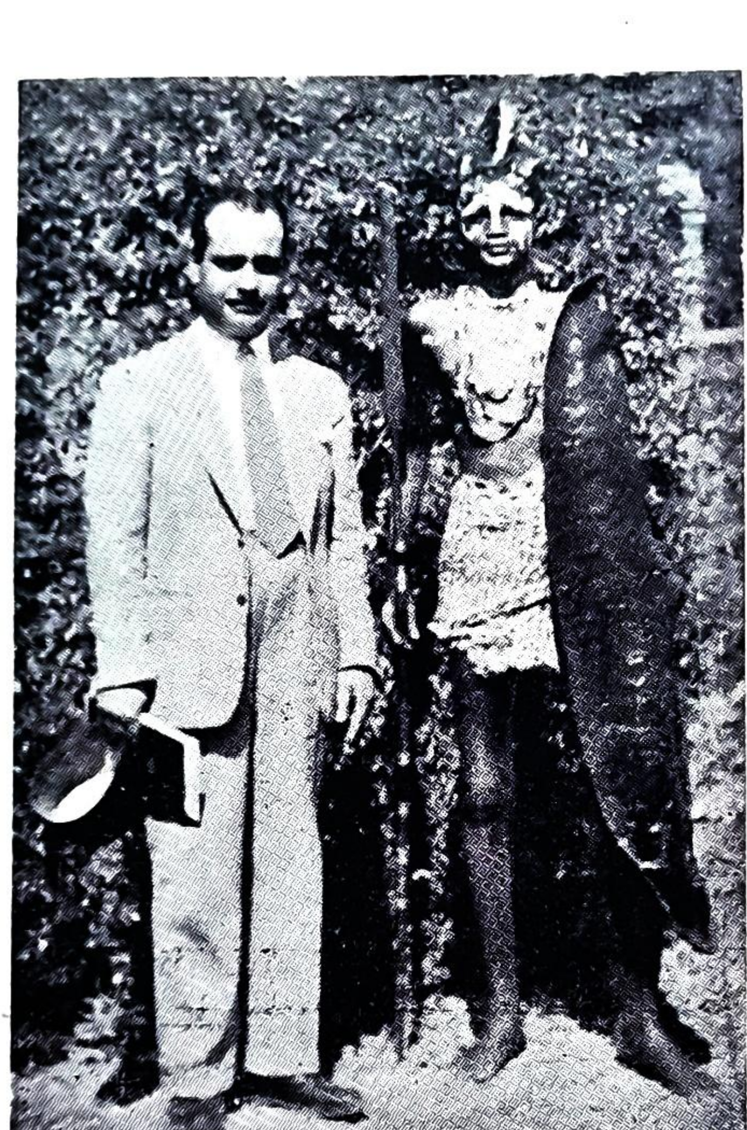
وقد بكرت في النزول ، يصحبني «أحمد كور» وتوجهنا إلى «حلة» قريبة من البلدة، ورأيت عند وصولي إليها فتاة صغيرة السن ، جميلة التقاطيع ، وسيمة الخلق ، تجلس على الأرض في وضع كله إغراء وفتنة ، وتستند إلى الأرض بيديها من الخلف ، فبدا صدرها بارزاً بنهديها الفاتنين ، وإلى جوارها فتى يافع ، اختفت معالم وجهه وجسمه من كثرة الزينة . وقد علمت أنها ابنة « مكّ » من الشلك ، استهواها هذا الفتى فأعجبت به ، وهي تعاشره دون زواج كعادة بنات الملك . وقد اكتفيا حين رآياني أن حيياني بابتسامة .



جمع من نساء الدنكا تبدو فيه الفتيات عاريات والسيدات يتسترن بخيوط البقر ، وفي بطونهن الوشم البارز

وتقص فتيات الدنكا شعرهن ، ولا يتركن منه غير جزء يسير وسط الرأس . ويمتاز أفراد الدنكا جميعاً بخلع الأسنان السفلى الأمامية ، ويعمدون إلى إحداث وشم

بارز في بطونهم، ويلبس الرجال في أعناقهم أطواقاً لامعة ، وعقوداً من الخرز ، وشارات منقوشة من الصفيح ، ويلف بعضهم على عضده حلقة من المعدن أو الصفيح ، كما يلف على معصمه حلقة أخرى .



فتى من النوير يقف على يسار الأستاذ أبي الليل

والفتيات في الحلاّت الداخلية يلبسن حول الخصر أسفل البطن عقداً من الخرز وتظل البكر عارية ، حتى تعرض جسمها على الراغبين في الزواج ، فإذا ما تزوجت عمدت إلى تغطية الجزء الأمامي منها بخيوط رفيعة من جلد البقر ، تعلق في العقد الذي يحيط بالخصر .

وقبائل الدنكا أحسن حالاً من قبائل الشلك ، نظراً لخصب أرضهم التي تقع على الضفة الشرقية . وينقسمون إلى أربع قبائل ، وهي : « بير » و « أبوية » و « نيل » و « أجير » ولكل من هذه القبائل عمدة معترف به من الحكومة ، ولكل عمدة سترة رسمية تمنحها له الحكومة في كل سنة . وليس لهذه القبائل زعيم واحد مثل الشلك ، بل يحكم كل رئيس أفراد قبيلته.

ويمتاز الدنكا عن الشلك بتشريطهم الجباه في خيوط منتظمة بالموسى ، بينما ينفرد الشلك « بالطاي » .

وتغالي قبائل الدنكا في مهور البنات ، ولذلك يؤثر كثير من شبانهم الزواج من

الشلك . ولكن الرجل من الشلك لا يستطيع الزواج من فتاة من الدنكا ، إذ أنه يعد غير كفء لها ، فضلا عن أنه لا يستطيع سداد مهرها من الأبقار لفقره . ولا تجرؤ فتاة من الدنكا على الزواج من الشلك ، وإلا عرضت نفسها للانتقام من رجال قبيلتها .

وتستعمل قبائل الدنكا زوارق من القش خفيفة الحمل ينتقلون بها في النيل لصيد السمك ، ويسمى الزورق عندهم « طرور » ولا يتسع لأكثر من شخصين أو ثلاثة .

النوبر

ويشتهر النوير بالغدر والخيانة . ولذلك يقل اختلاطهم بغيرهم من الدنكا والشلك، ويبالغ الرجال في الزينة ، إذ يطلون أبدانهم ووجوههم بالمساحيق البيضاء ، وتتدلى من أعناقهم عقود طويلة من الخرز ، ويمسك كل منهم بدرع يحميه من ضربات الحراب . ويتيه الرجل منهم بقطعة من جلد النمر يغطي بها عورته ، ويلف رأسه بطوق تخرج منه عدة ريشات من ريش الدجاج . وقد عرفت عنهم شدة المراس في النضال ، وقوة الأبدان ، وميلهم إلى النزاع والقتال ، كما عرفت عنهم شدة غيرتهم على نسائهم ، وعدم سماحهم لهن بالاختلاط بقبائل الشلك أو الدنكا .

محمود نجيب أبو الليل

الكتاب في الفنون الإسلامية

للدكتور زكي محمد حسن

كان من أثر كراهية تصوير الكائنات الحية فى الإسلام أن انصرف الفنانون المسلمون إلى الفنون الزخرفية ، فلم يكن لفن النحت عندهم حظ يستحق الذكر ، ولم يتطور التصوير على يدهم كما تطور عند الغربيين ، بل ظل محدود المجال ، ولم يزدهر إلا في توضيح الكتب وتجميلها بالرسوم الصغيرة ذاتِ الألوان الزاهية . وكانت البيئة التي عاش فيها الفنانون في الإسلام ، والأساليب الفنية التي ورثوها عن أسلافهم من سكان الهضبة الإيرانية وأقاليم الشرق الأدنى ، خير حليف لتلك الكراهية ، فضافرتها في إبعاد المسلمين عن دراسة الجسم الإنساني دراسة متقنة ، وعن العمل على تصويره أو نحت التماثيل له بدقة يراعى فيها صدق تمثيل الطبيعة .

وعني القوم في ديار الإسلام بفنون الكتاب عناية خاصة ، جعلتها في طليعة الفنون الزخرفية التي أصابوا فيها أكبر قسط من النجاح . وخلّف لنا الفنانون في العالم الإسلامي مخطوطات تعد تحفاً نفيسة ، وتشهد بإبداعهم في نسخ الكتب بالخط الجميل ، وتزيينها بالرسوم المذهبة ، وتوضيحها بالصور ، وكسوتها بالجلود الفاخرة .

أما تجويد الخط فكان له شأن عظيم بين الفنون الإسلامية ، وكان الخطاطون أرفع الفنيين مكانة في ديار الإسلام . ولا غرو فقد كانوا يشتغلون بكتابة المصاحف الشريفة ، وبنسخ كتب الأدب والشعر والتاريخ ، التي أحبها القوم وحرصوا على اقتنائها ، فضلا عن أن الفقهاء كانوا راضين عن الخطاطين ، ولم يكن هؤلاء يخشون — كزملائهم المصورين — نقمة المتعصبين من الفقهاء أو من عامة الشعب . وقد ازدهر فن تجويد الخط في العالم الإسلامي ، وظرف ذوق الأمراء وأولي الأمر ، وأقبلوا على اقتناء المخطوطات المكتوبة بالخط الجميل . وعلت مكانة الخطاطين ، فصنفت الكتب في تراجم حياتهم ، ولم يكن لغيرهم من الفنيين نصيب من هذه العناية .

وطبيعي أن تكون المصاحف الشريفة ميداناً لفن تجويد الخط . وقد استعمل الخطاطون في كتابتها في البداية ضروباً من الخط الكوفي ، الذي تطور على يدهم في

سبيل الدقة والرشاقة والجمال الزخرفي، حتى بلغ أوج عظمته في القرن الخامس الهجري ، (الحادي عشر الميلادي) . وكان أكبر عون لهم في هذا الصدد طبيعة الحروف العربية ، وما فيها من تقويس وانبساط واتصال ، وما تقبله رؤوسها وسيقانها من ذيول زخرفية وتوريق وترابط [١] . وأقبل القوم في بلاد المغرب على الكتابة بخط ينسب إليهم ، وله بعض الخصائص ، فضلا عن قربه من الثلث والنسخ . ولكن الخطاطين بدؤوا منذ القرن السادس الهجري في الانصراف عن كتابة المصاحف بالخط الكوفي ، وكتبوها بالثلث والنسخ وبضروب أخرى من الخطوط اللينة [٢] . ومن المخطوطات التي عني فيها بتجويد الخط ، بعض دواوين الشعر الفارسي والعربي والتركي ، وبعض كتب الأدعية والصلاة على النبي ، مثل كتاب « دلائل الخيرات » . وقد استعمل الخطاطون في كتابتها ضروباً شتى من الخطوط ، مثل « التعليق » و « النستعليق » و « الشكستة » الفارسية والنسخ والمغربي والثلث .

وكان الأمراء والأثرياء يقبلون على تجويد الخط . وقد نبغ في هذا الميدان كثير من سلاطين آل عثمان وأباطرة المغول في الهند ، فضلا عن بعض الأمراء الإيرانيين ولا سيما في عصر الدولة التيمورية . وطبيعي أن الخطاطين كانوا يعنون بالحصول على أنواع جيدة من الورق . وقد استطاع المسلمون أن يصنعوا أفخر أنواع الورق في إيران . وكانوا يعنون بضغطها وتلميعها وإكسابها بعض الألوان ، لتليق بدواوين الشعر التي كانت تكتب فيها بالخطوط الجميلة وليزداد عليها بهاء الرسوم المذهبة والصور الملونة التي كانت تحلى بها تلك المخطوطات .

وقد ازدهر بين المسلمين فن آخر من فنون الكتاب : هو تزيين المخطوطات بتذهيب بعض صفحاتها أو بتذهيبها كلها .

وتدل بعض المخطوطات التي وصلت إلينا قبل تمام العمل فيها ، على أن الخطاط كان يفرغ من كتابة المخطوط تاركا في صفحاته الفراغ الذي يطلب منه لترسم فيه الأشكال البنائية والهندسية المذهبة ، أو تنقش فيه صور ذات صلة بنصوص معينة في

---

(١) راجع مقالنا عن « الزخارف الكتابية في الفن الإسلامي » في الجزء الثالث من المجلد الأول من مجلة الكتاب .

(٢) نشرت جامعة شيكاغو سنة ١٩٣٨ كتاباً طيباً ، عرضت فيه المؤلفة لكتابة المصاحف في فجر الإسلام ، فضلا عن إلمامها بما كتب عن نشأة الخط العربي وتطوره في عصوره الأولى ، وهو : The Rise of the North Arabic Script and its kuranic Development, by Dr. Nabia Abbott.



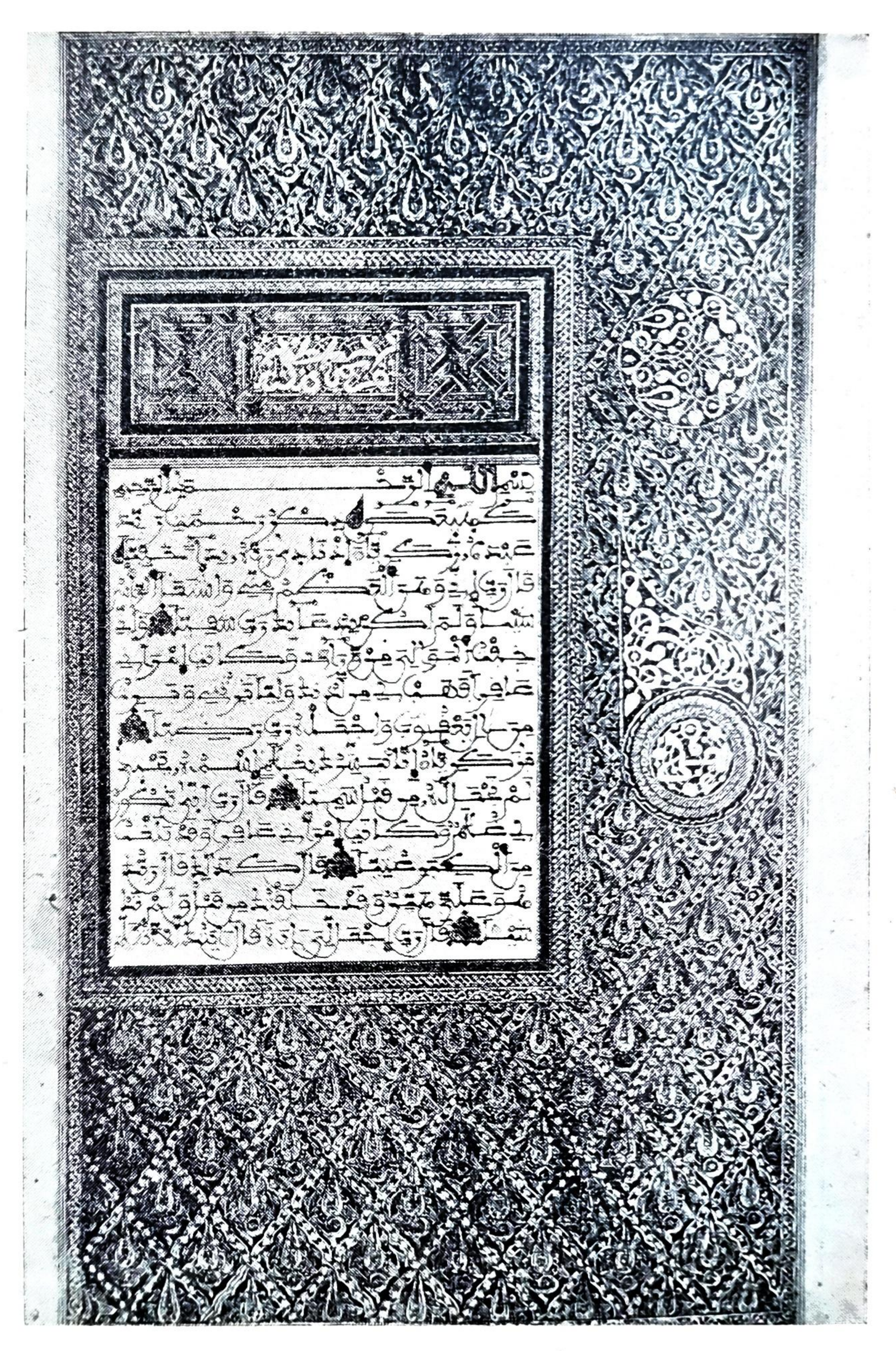
صفحة من مخطوط مؤرخ سنة ١٠٧٤ هـ

المخطوط . وقد لا يكون لبعضها أية صلة قريبة به ، فيكون الغرض من رسمها تجميل المخطوط فحسب . ويكثر في مثل هذه الأحوال أن تكون الصورة منقولة عن مخطوط آخر ، وأن يكون موضوعها عاماً ، كمنظر إستقبال في قصر ، أومنظر طرب أوشراب أو لقاء حبيبين . وكان المخطوط يسلم بعد فراغ الخطاط إلى اختصاصي في رسم الزخارف في الهوامش وفي الصفحات الأولى والأخيرة ، وفي عناوين الفصول وغير ذلك . ثم يتولى المذهّب تذهيب هذه الرسوم . وقد كان التذهيب أرفع فنون الكتاب بعد تجويد الخط . وكان المصور الذي يتقن فن التذهيب يحرص على أن يضاف إلى اسمه لفظ « مذهّب » ، كما أن المؤرخين كان لايفوتهم أن يتحدثوا عن جمعه بين هذين الفنين الرفيعين . وأقبل كثير من العلماء والفقهاء والأمراء على تعلم فن التذهيب على أعلام الاختصاصيين فيه ، وعني الأمراء والأغنياء بمد المذهبين بما كانوا يحتاجون إليه في صناعتهم من المواد الثمينة ، كالذهب وحجر اللازورد والورق الفاخر .

وقد وصل فن التذهيب إلى أوج عظمته في المصاحف الفاخرة التي ترجع إلى عصر المماليك ، والتي تحتفظ دار الكتب المصرية بعدد وافر منها ، وفي طائفة من المخطوطات الإيرانية التي ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر بعد الهجرة ، (الخامس عشر والسادس عشر بعد الميلاد) ، والتي اجتمع فيها الاتزان والدقة وتوافق الألوان .

ومنذ القرن التاسع الهجري زادت العناية بتزيين صفحات بعض المخطوطات ، فلم يعد التذهيب وقفاً على الـ « سرلوح » أي الصفحة أو الصفحات الأولى ، وعلى النجوم الزخرفية التي كانوا يسمون الواحدة منها « شمسة » ، وعلى الجامات (المناطق أو البحور) التي كان يكتب فيها اسم صاحب المخطوط وتاريخ الفراغ منه ، بل أصبح لزخرفة الهوامش شأن كبير . فأقبل القوم على تغطيتها برسوم النبات والحيوان ، وبالرسوم الآدمية في بعض الأحيان . وقد ذاع هذا الضرب من زخرفة المخطوطات في العصر الصفوي في إيران ، كما أصابت الهند الإسلامية قسطاً وافراً من النجاح فيه ، ولاغرو فقد قامت بها فنون الكتاب في عصر الأباطرة المغول على يد أساتذة من الإيرانيين .

وكانت الرسوم المذهبة في المخطوطات بسيطة في البداية ، وقامت على أساس الزخارف الساسانية والبزنطية والقبطية ، وعلى ما عرفه المسلمون في كتب المسيحيين من أتباع الكنيسة الشرقية . وكان كل هذا واضحاً في اختيار الألوان ، وفي الرسوم النباتية والهندسية . ولكنها تطورت في سبيل الإتقان ، وغلبت عليها رسوم النجوم المسدسة أو المثمنة ، ورسوم الفروع النباتية المتصلة (الأرابسك) ، ورسوم المراوح



صفحة من مصحف مخطوط بالخط المغربي من أول سورة مريم

النخيلية (البالمت) . وأبدع المذهبون في أسلوب جديد ازدهر منذ عصر السلاجقة ، وقوامه أن تحاط سطور الكتابة بخطوط دقيقة ، وأن تغطى الصفحة خارج هذه المناطق التي تحد السطور بالرسوم النباتية .

ومن أبدع المخطوطات المذهبة المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة جزء من مصحف شريف كتب سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) بمدينة همذان للسلطان الجايتو خدابنده بيد خطاط اسمه عبد الله بن محمد بن محمود الهمذاني . وهو من المصاحف الكبيرة (٥٠ × ٤٠ سنتيمتراً) التي كانت تقدم للأضرحة والمساجد . وكان كل جزء منها يكتب في مجلد على حدة . ويمتاز هذا الجزء بالألوان الهادئة الجميلة ، وبالإبداع في الرسوم الهندسية ، من نجوم ومثمنات ودوائر متشابكة . وغير ذلك من الأشكال المملوءة بالرسوم النباتية .

وتشهد بعض المخطوطات الثمنية في المتحف القبطي في القاهرة وفي بعض المجموعات الفنية الأخرى بأن تزيين المخطوطات بالرسوم الجميلة وتذهيبها لم يكن وقفاً على المصاحف وكتب المسلمين فحسب ، بل كانت مخطوطات الإنجيل والتوراة والكتب الدينية المسيحية واليهودية تكتب بضروب جميلة من الخط العربي وتذهب وتزين صفحاتها بالرسوم الهندسية والنباتية العربية الطراز ، وهي الرسوم والزخارف التي عم استعمالها بين رجال الفن في ديار الإسلام من مسلمين ومسيحيين ويهود .

أما فن توضيح المخطوطات وتزيينها بالصور فقد ازدهر في ديار الإسلام إلى حد كبير ، بل إنه التصوير الوحيد الذي حاز فيه المسلمون قصب السبق . فقد مر بنا أن كراهية التصوير في الإسلام من ناحية ، والأساليب الفنية التي ورثها الإسلام في الشرق الأدنى وإيران من ناحية أخرى ، جنبت المسلمين تصوير اللوحات الفنية الكبيرة على النحو الذي عرفه الغربيون . وأصبح التصوير في الإسلام ميدانه الكتب قبل كل شيء . ولم يستطع أن يتحرر تماماً من القيود الفنية القديمة ، كرسم الصورة في مستوى واحد ، والبعد عن احترام قوانين المنظور ، وعدم العناية برسم أجزاء الجسم رسماً تحترم فيه الطبيعة وعلم التشريح ، والإفراط في توزيع الألوان دون اكتراث بتوزيع الضوء وبيان الظل ، مما جعل الصورة لا تبدو مجسمة أو ذات أبعاد ثلاثة ، كما هو الحال في الصور عند الغربيين .

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل الكلام على تصوير المخطوطات عند المسلمين ، فقد



صفحة من مخطوط هندي من القرن السابع عشر

قامت بينهم مدارس فنية كبيرة ، ازدهرت في إيران بوجه خاص[١] ، وامتد أثرها إلى الهند وتركية . وحسبنا أن نذكر أن مهارة المصورين في ديار الإسلام ظهرت في توضيح أنواع مختلفة من المخطوطات : منها كتب التاريخ والأدب والقصص ، ودواوين الشعر والكتب العلمية في التاريخ الطبيعي وعجائب المخلوقات والحيل الميكانيكية ، وحدث أن عرض بعض المصورين للسيرة النبوية ، فرسموا بعض صور للأحداث الخطيرة الشأن في حياة النبي عليه السلام[٢] ، كصورة مولده ، ومقابلته الراهب بحيرا في الشام ، ورفعه الحجر الأسود ليضعه في جدار الكعبة ، وشق صدره وهو بالبادية عند مرضعته حليمة السعدية ، وجلوسه في غار حراء يتلقى الوحي ، وقصة المعراج ، واختفائه مع سيدنا أبي بكر في الغار يوم الهجرة وتحطيمه الأصنام في البيت الحرام بعد فتح مكة .

وقد أصاب المصورون في الإسلام نجاحاً كبيراً في رسم الحيوان والنبات في مخطوطات التاريخ الطبيعي ، كما يبدو من الصور التي نعرفها في بعض المخطوطات من كتاب « عجائب المخلوقات » للقزويني ، واستطاعوا في بعض الحالات النادرة أن يزينوا المخطوطات بصور تظهر فيها المهارة والدقة في رسم المناظر الطبيعية الجميلة .

وكانت الألوان التي استعملها المصورون في الإسلام تضطرب في البداية بما فيها من تباين وتنافر ، ولكنهم وفقوا منذ القرن التاسع الهجري إلى التخفيف من ذلك ، بتصغير المساحات الملونة وتكرارها ، وطبيعي أن أولئك المصورين لم يستطيعوا الوصول إلى رسم الصور الشخصية ، أو إلى التعبير عن الحالات النفسية في سحن الأشخاص المرسومين في صورهم . وحسبنا أن الغربيين أنفسهم لم يبلغوا هذا الهدف إلا بعد أن تطور التصوير عندهم تطوراً حراً وسار بخطى واسعة منذ عصر النهضة في إيطاليا .

بقي فن آخر من فنون الكتاب : هو التجليد . وقد كانت هذه الصناعة من الصناعات التي حذقها المصريون في العصر المسيحي . ولا ريب في أن أساليب التجليد في فجر الإسلام كانت تنسج على منوال ماعرفه القبط . ثم تطور التجليد في العالم الإسلامي ، حتى أصبح فناً دقيقاً ، كان له أكبر الأثر في التجليد عند الغربيين ، بعد أن عرفوا جلود الكتب العربية والفارسية والتركية ، في الحروب الصليبية وفي صقلية والأندلس والدولة

---

(١) راجع كتابنا « التصوير في الإسلام عند الفرس » وكتابنا « الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي » . ففيهما عرض لهذه المدارس ، مع بيان المصادر التي يرجع إليها في هذا الميدان .

(٢) انظر مقالنا « السيرة في الفن الإسلامي » في عدد مايو سنة ١٩٤٠ من مجلة المقتطف .

العثمانية ، وعلى يد الصناع المسلمين الذين رحلوا إلى البندقية ونقلوا إليها كثيراً من أساليب الفنون الزخرفية الإسلامية* .

والملاحظ في جلود الكتب الإسلامية أن كعوبها مستوية وغير بارزة ، وأنها تساوي ورق الكتاب في الحجم ، ولكن جانبها الأيسر ذو امتداد يعرف باسم « اللسان » . واستعمل المسلمون في تجليد الكتب الخشب والجلد ، ثم الورق المضغوط والمدهون باللاكيه ، وانصرفوا عن استخدام المعادن النفيسة ، تجنباً للترف واقتصاداً في النفقات .

وكانت الجلود الأولى من الخشب المغطى بالجلد والمزين بالرسوم الهندسية ، ثم استخدم الورق عوضاً عن الخشب ، واستخدمت الزخارف المكونة من الرسوم والخطوط المتشابكة . واتبع المجلدون أساليب شتى : منها التجليد بالدق أو الضغط ، ومنها التخريم والدهان والتلبيس بالقماش ، ومنها تقطيع الجلد بالرسم المطلوب ثم لصقه على القماش الملون ، ومنها خرق الموضوعات الزخرفية على طبقة من الجلد ولصقها على طبقة أخرى من الجلد . وأصاب المجلدون في إيران نجاحاً كبيراً في ابتداع أساليب جديدة لزخرفة الجلود برسوم المناظر الطبيعة ذات الحيوانات والطيور ، عوضاً عن الرسوم الهندسية القديمة . وساعدهم على إتقان الزخارف الجديدة أنهم تركوا طريقة الضغط أو الدق بالآلة البسيطة التي كانت تخرج الرسوم الهندسية والفروع النباتية ، واستعملوا قوالب معدنية مستقلة ، كانوا يضغطون فيها الجلد بقوة ، فتظهر فيه النتوءات الشديدة البروز على شكل العناصر الزخرفية النباتية والحيوانية ، فضلا عن الصور الآدمية ، واستعان المجلدون بالمصورين في « تصميم » بعض رسوم الجلود ، فأسفر هذا التعاون عن آيات جميلة في فن التجليد .

واستعمل المجلدون في بعض الأحيان أساليب الزخرفة برسوم اللاكيه ، ولكن هذا الضرب من التجليد لم يزدهر إلا فترة من القرن العاشر الهجري ، (السادس عشر الميلادي) ، ثم تأخر في القرن التالي ، وسقطت رسومه فريسة للأساليب الفنية في التصوير الأوربي .

زكي محمد حسن

---

* راجع كتاب تراث الإسلام ج ٢ للأساتذة كريستي وبريجز وأرنلد وتعريب زكي محمد حسن . ص ٨٧ وما بعدها .

مقامات الحريري
وتصويرها في العراق

وثائق بالغة القيمة لدراسة الحياة الإجتماعية لعرب العصور الوسطى

للدكتور إبرهيم جمعة

من الكتب التي نالت حظاً طيباً من عناية المصورين العرب ، كتاب « المقامات الحريرية » لواضعها أبي محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري ، الذي اشتهر بين الكتاب بالبلاغة وكثرة الاطلاع وغزارة المادة ، صنفها في خلافة المسترشد العباسي (٥١٢ — ٥٢٩ هـ) لوزيره شرف الدين أبي نصر أنوشروان بن خالد بن محمد القاشاني على قول ، أو لوزيره جلال الدين أبي الحسن علي بن أبي العز بن صدقة على قول آخر، ورحل بها من البصرة إلى واسط فبغداد ، وذاع أمرها واشتهر بها صاحبها من بين تواليفه الأخرى . راويتها الحارث بن همام ، وهو « الحريري » نفسه ، وبطلها رجل رث الحال ، فصيح الكلام ، كثير التندر ، يدعى أبا زيد السروجي، نسبة إلى بلدة « سروج » من أعمال العراق .

وكتاب المقامات ، على خلاف كليلة ودمنة ، من وضع العرب ، ونسج خيالهم ، صدف الفرس عن تصويره لسببين ، أولهما : استغلاق معانيه على الأعاجم ، لكثرة بديعه وإفراط تسجيعه ، وثانيهما : شرود أخيلته عن مألوف « الآريين » من الفرس والهنود، ولعل هذا يفسر إقبال الفرس على حكمة الهند ، حين وردتهم على لسان كليلة ودمنة ومسارعتهم إلى تزيينها وتوضيحها بالرسوم ، وانصرافهم عن كتاب المقامات ، على ذيوع صيته في إثر تصنيفه في النصف الأول من القرن السادس الهجري، وإغفالهم أمر تصويره في القرن التالي .

وهكذا لم ينل كتاب المقامات أقل نصيب من عناية المصورين الفرس ، واقتصر تصويره على العراق . وكانت قد نشأت في العراق منذ بواكير القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) مدرسة تصويرية ذات بال ، لم تتطلع إلى الشرق تستوحيه وتستمد عونه ، وإنما تطلعت إلى الغرب ، نحو البيزنطيين ، تلتمس لديهم أصولا لفن

التصوير ، ولم يكن التصوير عند عرب العراق مقصوداً به أن يكون فناً قائماً بذاته ، وإنما قصد به أن يعين على توضيح الكتب وتزيينها ، واقتصر هذا الفن ، عندما اقتبسه العرب من جيرانهم الغربيين ، على خدمة الكتب ذات الصبغة العلمية أو الأدبية دون الكتب الدينية . وعلى الرغم من كل ما أثير على طول القرون الستة الهجرية الأولى من مناقشات حول تحريم الصور وكراهيتها ، لم يحجم العراقيون عن اتخاذ التصوير ، ومارسه



شكل ١ (ا) : أبو زيد السروجي بطل المقامات يخاطب جمعاً من الحجيج في ملابس الإحرام : « يامعشر الحجاج الناسلين من الفجاج ... » المقامة الحادية والثلاثون الرملية . من صور لمخطوط مقامات الحريري المصور في العراق في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) المحفوظ بالمكتبة الأهلية بباريس برقم ٦٠٩٤ عربي .

منهم نفر تتلمذوا على أساتذة من مسيحيي الكنيسة الشرقية من النساطرة واليعاقبة ، وكانت ممارستهم له ضروباً من المحاكاة والترسم والاحتذاء الدقيق . ولم يقدر للعرب وهم يزاولون التصوير أن يبتدعوا فيه ، وكل ما قدر لهم هو أن يحاكوا فيجيدوا المحاكاة ، وسلمت لهم صور يراها غير الاختصاصيين ابتداعاً ، ويدرك الأخصائيون أنها احتذاء للصور المسيحية الهلينية ، حتى لقد استطاع الفاحصون من هؤلاء أن يدركوا تمام الإدراك

شبه صور المقامات صورة صورة بمثيلات لها من الصور الهلينية ، من حيث عدد الأشخاص فيها ، وترتيب وقفاتهم ، واتجاه حركاتهم ، وبروز أهمية أحدهم ، وإحاطة وجهه بهالة كتلك الهالة التي ألف المصورون المسيحيون أن يحيطوا بها وجوه القديسين ، مما أفصح عن إحكام النقل وتمام الاحتذاء ودمغ التصوير العراقي في القرن السابع الهجري بنقيصة عدم الابتداع . شكل ١ (أ) ، (ب)



شكل ١ (ب) : صورة من مخطوط مسيحي محفوظ بمكتبة الفاتكان ، تمثل « أيوب » وأصدقاءه ، يجلس فيها « أيوب » جلسته المنفردة على نحو ما يجلس « أبو زيد » من جمهوره الذي يعظه في الصورة رقم ١ (أ) ، ولعل تكوين هذه الصورة هو الذي أوحى إلى المصور المسلم تكوين صورته بطريقة الاحتذاء .

وتجلى تبريز هذه المدرسة العراقية التصويرية في نواح خاصة تميز بها التصوير العراقي ، فقد أضفى مصوروها على الصورة مسحة عربية ظاهرة في تقاسيم الوجوه وسواد اللحى وكبر العمائم وفضفضة الملابس وزركشتها بالرسوم النباتية واتساع الأردان فيها . ولم يفت مصوري المدرسة العراقية أن يجملوا الحيطان وقطع الأثاث بزخارف عربية خالصة . والحق أن صور مقامات الحريري ، بخلاف صور كليلة ودمنة الذي صور معه في العراق ، وثائق غاية في الأهمية والقيمة لطلاب التاريخ إذا ما أرادوا الوقوف على الحياة الاجتماعية

لعرب العصور الوسطى الإسلامية ، فهي تصوير صادق لهذه الحياة في مدنها وريفها ، سلمها وحربها ، مقامها ورحيلها . . .

ولذلك فهي تشبه من هذه الناحية قطعة النسيج الكتانية المشهورة بقطعة نسيج بايو✡ . التي تسجل كثيراً من نواحي الحياة الاجتماعية الإنجليزية عند الفتح النرمندي لبلاد الإنجليز .

✡✡✡

ولقد صورت المقامات في العراق كما صور غيرها من الكتب ، ، ككليلة ودمنة ، وكتاب الحيل للجزري ، وخواص العقاقير لديسكوريدس النباتي ، وعجائب المخلوقات للقزويني . وأشهر مصورين عراقيين انتهى إلينا اسماهما : عبد الله بن الفضل ، ويحي بن محمود بن يحي بن الحسن الواسطي ، صور أولهما (٦١٩ هـ) كتاب خواص العقاقير ، وصوره الآن متناثرة في متاحف العالم ، وصور ثانيهما «المقامات» ، وفرغ من تصويرها سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٧ م .

ويعتبر تصوير الواسطي لمقامات الحريري أرقى ما بلغه التصوير العراقي، فقد نجح الواسطي حقاً في تكوين مدرسة تصويرية عربية جاوزت حدود الاحتذاء إلى الابتكار ، تدل على ذلك صوره المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، ويربو عددها على المائة .

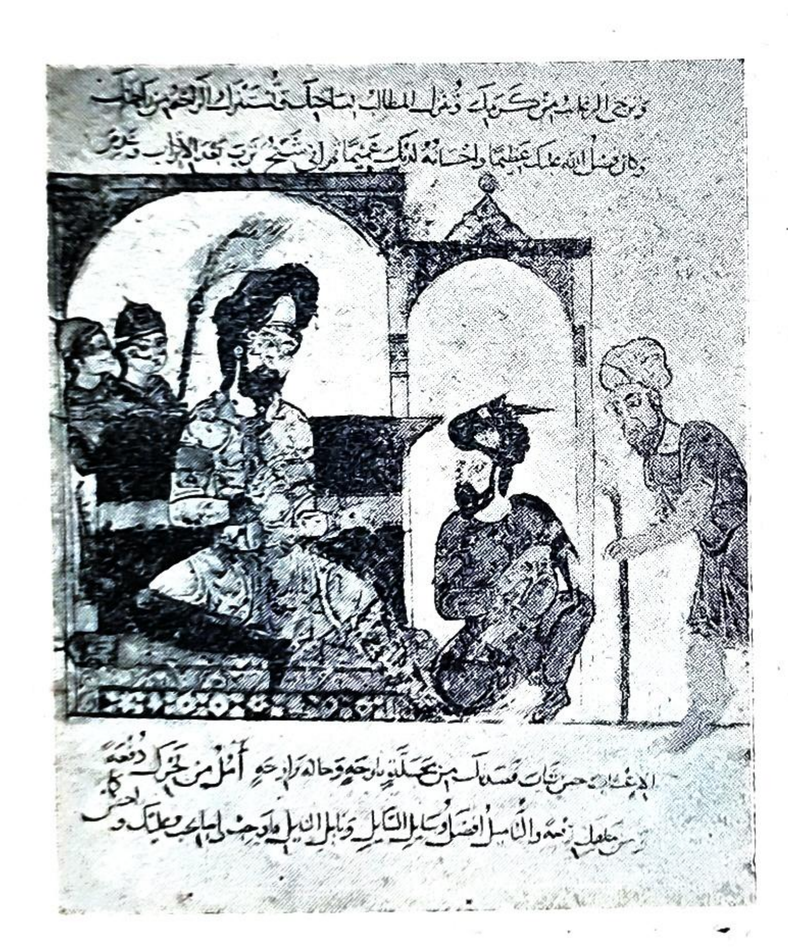
واشتهرت «واسط» من بين مراكز التصوير العربي ، بطريقة خاصة ، تفردت بها من بين مدارس التصوير العراقية في القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) هي استخدام القلم والمداد الأسود بدلا من الفرجون واللون، ولعل ذلك كان من الواسطيين غاية السبق في استعمال طريقة الصينيين في الرسم ، في وقت لم تكن قد عرفت فيه بعد أساليب الصين الفنية في بلاد الشرق القريب . والذي يتتبع العلاقات بين بلاد الصين والشرقين الأوسط والأدنى ، منذ القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) ، يجد تبادلا تجارياً وفنياً مبكراً بين هذين المركزين الحضاريين ؛ وكان الخليج الفارسي محط الرحال في هذا التبادل ، إلى حد أن عرف في وقت من الأوقات بالخليج الصيني، وكانت سيراف وهرمز الواقعتان على سواحل الخليج مركزي هذا التبادل التجاري والفني ، ومنذوردت العرب لطائف الصين التي يذكرها المسعودي ، شغف بها العرب وحلت من قلوبهم منزلة خاصة ، فتطلعوا نحو الصين يحتذونها ، على نحو ما كانوا يتطلعون إلى البيزنطيين .

✡ بايو Bayeaux ، وهي قطعة من نسيج الكتان المطرز بالصوف الملون، توضح حوادث الفتح النرمندي لإنجلترا — من صناعة أواخر القرن الحادي عشر الميلادي ، محفوظة بمتحف بايو بفرنسا .

وكان تطلع العرب إلى البيزنطيين، ينشدون لديهم علماً وفناً، أسبق من تطلعهم إلى الشرق، وليس يبعد أن تكون « واسط » ، الواقعة بين البصرة والكوفة ، قد تلقفت شيئاً من أساليب الصين الفنية في التصوير ، وأخصها طريقة استعمال القلم أو الفرجون الرفيع والمداد الأسود في تخطيط الصورة ، وهكذا بدأت المدرسة العراقية التصويرية حياتها محاكية ، وكانت واسط بحكم مركزها متطلعة إلى الغرب والشرق في آن معاً .

ولم تر بأسا أن يكون تطلعها نحو الغرب أو نحو الشرق ، مادامت تحقق بهذا التطلع غاية تحسينية محققة . ويعتبر تميز الواسطيين في فن التصوير صنواً لتميز الكوفيين والبصريين في مسائل اللغة والفقه والجدال .

واستخدم الواسطيون في رسومهم نوعاً من المداد حصلوا عليه بحرق ألياف الكافور ، وخلط مسحوقها الأسود بزيت الخردل ، وكانوا يستعملون القلم فيما كان الفرجون يستعمل فيه ، وكانت الصورة ترسم به ، ثم تلون ، ثم يعاد على خطوطها الخارجية، لبيان ما يكون قد طغى عليه اللون ، ثم تخط بهذا القلم تجاعيد الوجوه وطيات الملابس، وترسم الزخارف فوق الملابس ، وعلى الحوائط والأجزاء المعمارية الأخرى في الصورة . شكل ٢ (١)



شكل ٢ (١) إحدى صور مخطوط مقامات الحريري بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٦٠٩٤ بالقسم العربي ، تبين طريقة مدرسة واسط في استخدام القلم بدلا من الفرجون في رقم الصور وبيان التجاعيد ، ورسم طيات الملابس والزخارف ... أبوزيد السروجي في حضرة والي مرو . المقامة الثامنة والثلاثون المروزية « فإني لذات يوم بحضرة والي مرو ... »

ويرجح أن يكون كتاب كليلة ودمنة ، المرقوم ٣٤٦٥ بالقسم العربي بالمكتبة الأهلية بباريس قد صور في مدرسة واحدة مع مخطوط مقامات الحريري المرقوم ٦٠٩٤ بالمكتبة نفسها ، لاتفاقهما معاً في ظهور أثر التخطيط بالقلم واضحاً في صورهما ، ولكن صور مقامات الحريري تفضل في مجموعها صور كليلة ودمنة .

وراقم صور المقامات مصور انتهى اسمه إلينا لحسن الحظ ، وهو يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطي ، الذي كان فراغه من عمله فيها في رمضان سنة ٦٣٤ هـ . أما كتاب كليلة ودمنة فلم نستطع معرفة مصوره . ويذهب بعض مؤرخي التصوير إلى أنه صور في جهة من العراق قريبة من سواحل البحر الأبيض المتوسط ، حيث كان يقيم أساتذة العرب في التصوير من مسيحي الكنيسة الشرقية ، ولكن هناك من العلائم ما يدل على أن هذا المخطوط رقم في مدرسة عراقية ذات اتصال بالشرق ، فهو — على خلاف مخطوطات كليلة ودمنة المصورة الأخرى — تبدو فيه طريقة التخطيط الصينية الأصل ، كما تظهر في الملابس وألبسة الرأس صفات تجعل تصويره في جهة أقرب إلى الشرق أمراً غالب الرجحان . شكل ٢ (ب) .



شكل ٢ (ب) إحدى صور مخطوط كليلة ودمنة ، المرجح أنه رقم في مدرسة واسط ، رقم ٣٤٦٥ بالقسم العربي بالمكتبة سالفة الذكر ، وتبدو فيه طريقة التخطيط الصينية ، كما تظهر فيه الملابس وألبسة الرأس علامات تدل على رقمه في مدرسة عراقية متأثرة بأساليب الشرق .

٭٭٭

وقد كشفت صور مقامات الحريري المختلفة ، فوق ما كشفت من نواحي الحياة الاجتماعية العربية في العصور الوسطى عن مقدرة فنية تفرد بها المصورون العرب وأجادوا فيها ، هي مقدرتهم على تصوير الجموع ورسم الحيوان ، ولا سيما الحصان والجمل . شكل ٣ (ا) ، (ب) .

وصُور مقامات الحريري مليئة بالعجيج والضجيج ، يكاد الإنسان يسمع لها صوتاً ! فهي صور صاخبة ، ولا غرو ، فبطلها رجل فصيح اللسان كثير التندر ، لا يلتقي بالناس إلا واعظاً أو متحدثاً أو شاكياً أو مستجدياً أو مختصما ، وكلها مواقف تحتاج إلى الكلام والخطابة والصخب أحياناً . وليس بين صور المقامات صورة تخلو من موقف كلامي من أي نوع .



شكل ٣ (ا) إحدى صور مقامات الحريري المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، وفيها تتجلى مقدرة المصور العربي على تصوير الجموع ، ويظهر مدى استطاعته تمثيل الطبيعة ، والصورة تمثل اجتماعاً أدبياً في أحد المروج . من المقامة الحادية والعشرين « القطيعية » أو « النحوية » ، وفيها يلقي أبو زيد على رفقائه ألغازاً في علم النحو ، يقول : « فما هي كلمة ، إن شئتم حرف محبوب..؟» .

وفي كل هذه الصور تظهر شخصية «أبي زيد السروجي» بطل المقامات، متميزة عن أشخاص الصورة جميعاً ، فهو يبدو واعظاً يعتلي المنبر ، أو يرتقي صخرة ، أو يواجه جمهوره ، على نحو معين ، وهو في كثير من الأحيان يظهر متعامياً يقوده غيره ، أو

متخفياً في زي امرأة عجوز ، أو متغرباً معدماً يستجدي ، أو متخاصماً يحتكم إلى أحد القضاة ، أو ملغزاً يثير الاهتمام بألغازه وأحاجيه ، وقد عرف لتخفيه بذي الطمرين ، بمعنى الثوبين الباليين ، يجوب بهما ويرتديهما عند الاقتضاء شكل ٤ .

وكما تدور المقامة حول شخصية « السروجي » كذلك يدور موضوع الصورة حول شخصه . ولا يصعب على الناظر في صور المقامات أن يقع على صورة « أبي زيد » وأن يتعرف عليه ولو كان متخفياً ، دون إبطاء أو مشقة . ولا شك أن ذلك كان من المصورين غاية النجاح ، فقد استطاعوا أن يجعلوا « السروجي » قطب الرحى في الصورة ، على نحو ما جعله الحريري قطب الرحى في المقامة .



شكل ٣ (ب) قطيع من الإبل يرعى الكلأ بالقرب من مضارب بني حرب . يرجح أن يكون توضيحاً لجزء من المقامة السابعة والعشرين « الوبرية » أو « البدوية » من صور مقامات الحريري المحفوظة بالمكتبة سالفة الذكر — وفيها تتجلى مقدرة المصور على إحكام تصوير الإبل .

وصور الواسطي المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٦٠٩٤ بالقسم العربي ، ويربو عددها على المئة ، أوفى مجموعة من صور المقامات ، كما أنها أدق وأروع ما وصل إلينا من صور هذا الكتاب . وتمتاز إلى جانب كل ما تقدم بصدق تمثيلها للحياة الواقعية ، وفيها تجلت مقدرة المصورين العراقيين على تصوير الحياة العربية في العصور الوسطى ، بقدر ما ساعفتهم المقدرة في هذا الاتجاه . وقد نسب بعض مؤرخي الصور

الإسلامية صور الواسطي هـذه إلى مصور مسيحي ، لمجرد أن تكوينها شديد الشبه بتكوين الصور الهلينية البيزنطية ، ولكن المسحة العربية ، البادية في رسوم الأشخاص والملابس والزخارف والكتابات التي ترى فيها أحياناً ، كلها تقطع بأنها من صناعة مصور عربي عراقي .

وهذه الصور بالغة الدلالة على مقدرة الجنس العربي على تصوير الجمل والحصان . ويتجلى في صور الواسطي ميل شديد إلى حشد الصورة بالرسوم ، ولكنه في جملته الحشد المتزن المعقول . وتمتاز المدرسة العربية التصويرية بمقدرة خاصة على تصوير



شكل ٤ : أبو زيد السروجي وامرأته مختصمين إلى قاضي تبريز ، المقامة الأربعون التبريزية . من صور مقامات الحريري المرقومة ٦٠٩٤ بالمكتبة الأهلية بباريس : « أيد الله القاضي وأحسن إليه ، إن هذه (يريد زوجته) أبية القياد ، كثيرة الشراد ، مع أني أطوع لها من بنانها ، وأحنى عليها من جنانها ... »

الحوانيت ومحتوياتها ، وبالمقدرة على تحقيق الشخصية الفردية في الصورة . فكل وجه من الوجوه الآدمية التي تظهر في صور الواسطي مقصود به أن يمثل شخصاً معيناً ، يضاف إلى ذلك أنها بدأت تدخل رسوم المباني والتفصيلات المعمارية على ما كان مألوفاً من مجرد تصوير الأشخاص ، وتلك محاولة فنية مبكرة ، قدر لها أن تبلغ غاية كمالها في إيران على يد بهزاد وقاسم علي .

ويطبع التصوير العربي العراقي في العصور الوسطى قصور بين في تمثيل الطبيعة ، فلم ينجح المصورون العرب في تصوير المناظر الطبيعية ، وجاء تصويرهم للنبات والأعشاب أشبه شيء بالرمز ، وتحاشوا جهد الطاقة رسم المياه والظلال ، وجهلوا نظرية المنظور جهلا كاد يكون تاماً ، فانعدم « العمق » في صورهم ، وهو لا ينشأ بطبيعته إلا من مراعاة نظرية المنظور ، وهـذا سر تأخر المدرسة العربية واعتبارها من المدارس التصويرية المتقهقرة .

ولقد صور العرب المقامات ، وصوروا غيرها من كتب الأدب والعلم ، ولكن تصويرهم للمقامات لا يكاد يعدله عمل فني آخر — ذلك لأنهم عندما صوروا مقامات الحريري ، سجلوا شيئاً كثيراً من نواحي حياتهم الاجتماعية في أقطار إسلامية متباينة الأخلاق والعادات . وعلى الرغم من كل ما يعتور «التصوير العربي» من عيوب ، جاءت منتجاته وثائق لها قيمتها في تاريخ التصوير الفني ، كونت فصلا مستقلا لا سبيل إلى إغفاله أو الغض من قيمته ، لأنه مدرسة متفردة لها محبوها . أما قيمة هذه الوثائق من الناحية الاجتماعية فبالغة ، لأنها تصوير لحياة المسلمين في العصور الوسطى العربية ، يتناولها من أطرافها المتعددة . والحق أن الإنسان ليعجب كيف استطاع الحريري أن يلم هذا الإلمام الواسع بطبائع الأقوام وعاداتهم وأعرافهم ، وأن يجعل من بطل المقامات « أبي زيد السروجي » جائلا لا يكل ولا تفتر له في تجواله عزيمة ، ومتحدثاً يقطع كلامه قول كل خطيب ، ومتندراً لا يبارى ، وملغزاً لا يشق له في ميدانه غبار ، وعالماً بمسائل الفقه والنحو يقل ضرباؤه ، وهو فوق ذلك كله يواجه الخلق في أقطار متعددة ، يخاطبهم فيما يطيب لهم ، ويشوقهم بسحر حديثه ، يعرف ميولهم ، ويشبع أهواءهم ، وينتزع منهم كامن الإعجاب بما يفعل وبما يقول .

أما المصور فقد بذل أقصى المقدرة في إثبات هذه النواحي الاجتماعية ، فسجل منها ما لم تسجله المقامات ، كالثياب والبنود والمباني والزخارف وأدوات القتال وقطع الأثاث وأنواع الخطوط ، كما صورلنا المجتمع العربي في سلمه وحربه ، وفي ريفه وحضره ، وفي جده ولهوه ، فكان ذلك من المصور غاية التعاون مع واضع المقامات على تمثيل الحياة الاجتماعية بين عرب العصور الوسطى الإسلامية أدق التمثيل وأصدقه وأتمه .

إبرهيم جمعة

٨

محمد عياد الطنطاوي

١٨١٠ — ١٨٦١

في سنة ١٨١٦ أنشىء في بتروغراد عاصمة روسيا فرع للغات الشرقية ، وكان الفضل في ذلك راجعاً إلى « أوفاروف » صاحب مشروع المجمع الأسيوي .

وأخذت العناية باللغات الشرقية تظهر شيئاً فشيئاً في روسيا حتى سنة ١٨٥٤ ، بفضل اهتمام « م . بوشكين » ناظر معارف بتروغراد في ذلك الحين . حتى خصص للدراسات الشرقية قسم منظم كبير في جامعة بتروغراد كانت تدرس فيه بجانب العربية اللغات الفارسية والتركية والمغولية والصينية والأرمنية وغيرها من لغات الشرق .



ورئي بعد ذلك ببضع سنوات ، أو على التحديد في سنة ١٨٦٣ أن يقوى هذا القسم بإنشاء شعبة لتدريس تاريخ المشرق حتى تكون دراسة اللغات الشرقية متمشية جنباً إلى جنب مع دراسة تاريخ أقطارها . وأسندت

رياسة هذا القسم إلى الأستاذ « جريجرياف » الذي رأى أن الاستعانة بالأساتذة المشارقة أنفسهم هي أجدى وسيلة لتعليم اللغات الشرقية للراغبين فيها من الطلاب الروس وغيرهم من الأوربيين . وفي أول العقد الخامس من القرن التاسع عشر عرفنا أزهرياً مصرياً اسمه الشيخ محمد عياد الطنطاوي يعلم اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية بمدينة بطرسبرج ، وأصبح له بمستشرقي عصره صلات وثيقة حتى تتلمذ عليه نفر منهم .

فمن هو هذا الطنطاوي المغامر ، الذي ترك الأزهر وترك التدريس فيه ، وترك مصر ورحل إلى بلاد كان مبلغ العلم عنها قليلاً ، وعاش فيها حياته إلى أن أدركته منيته هناك ، فدفن في بطرسبورج بمقابر المسلمين ؟

ذكر الأستاذ توما ديبو المعلوف في مقال له بعنوان « تاريخ علم المشرقيات العربية » أن اسمه الشيخ محمد عياض ، وأظن الأستاذ توما ترجم الاسم عن حروف لاتينية ترسم هكذا Ayyad . فجعل حرف D ضاداً بدلاً من جعله دالاً . والصواب أن اسمه عياد لا عياض . واسمه محمد بن سعد بن سليمان بن عياد المرحومي — نسبة إلى محلة مرحوم من أعمال مديرية الغربية — وليست المحلة بدار مولده ، ولكنها دار أبيه . أما مولده ففي قرية نجريد من أعمال مركز طنطا . ولكن غلبت على اسمه النسبة إلى مدينة طنطا عاصمة الغربية ، فصار مشهوراً بالطنطاوي .

وليس هناك معلومات وثيقة عن نشأة الشيخ عياد وحياته الأولى ، وقد لقي المرحوم أحمد تيمور باشا عناء كبيراً حينما ترجم له في مجلة المجمع العربي بدمشق ، حتى لقد استقى معلومات مقاله من الشيخ عبد المعطي السقا أحد علماء الأزهر « مجموعاً مما بلغه عنه واستخلصه من مؤلفاته » .

ويُعد الشيخ عياد الطنطاوي من أوائل علماء الأزهر الذين اتجهوا في التدريس وجهة أدبية بعد أن لم يكن لذلك مكان في الأزهر ، ولقد حذا الشيخ فى هذا حذو أستاذه الشيخ حسن العطار الذي كان عنده من النزعات الأدبية ما جعل له مقاماً ملحوظاً في تاريخ ذلك العصر*.

---

* تعصب على الشيخ حسن العطار جماعة من علماء الأزهر بسبب نزعاته التجديدية فكتب له الشيخ شهاب الدين الشاعر قصيدة منها :

كم رهط اجتمعوا ليطفأ نوره ... والله كان متمم الأنوار

لم يظفروا يوماً بنيل مرامهم ... ولغيظهم عضوا على الأظفار

[ديوان السيد محمد شهاب الدين — مطبعة محمد جاهين — مصر سنة ١٢٧٧ هـ. ص ١٢٠ — ١٢١ .]

ولقد كان بدعاً في ذلك الحين أن ينصرف بعض العلماء إلى الشعر والأدب بدلاً من إغراقهم في مباحث الفقه والحديث ، ولكن الطنطاوي لم يبال بما اصطلح عليه العلماء ، ومضى في طريقه يدرس لطلابه مقامات الحريري ويشرح لهم غريب ألفاظها ، ولعله كان يبصرهم بمواطن الحسن والقبح فيها ، ففي الشيخ ذوق يدل على حسن تذوقه للأدب .

وليس عجيباً أن يكون الشيخ عياد الطنطاوي ممن يذكرهم شرلس آدمز وأن يخصه ببضعة أسطر في معرض الحديث عن المحاولات لإصلاح مناهج الدراسة بالأزهر[1].

وإذا كان رجال البعثات من الأزهر قد لقوا من معارضيهم في زمن محمد علي كثيراً من الجمود والمقاومة فإن الشيخ الطنطاوي لم يلق من المعارضة مثلهم ، لأنه كان معتدلاً في نزعته ، ولأن ثقافته إلى ذلك الحين كانت عربية خالصة ، فما عرف شيئاً من التيارات الجديدة التي سبقه إليها زملاؤه الأزهريون العائدون من البعثات .

ويظهر أن أثر الشيخ حسن العطار وهو العالم المستنير بشهادة فولرز[2] لم يكن وحده كل شيء في تكوين ذلك الشيخ المجدد . فقد أتيح للشيخ الطنطاوي من الاتصال بالأوربيين في مصر ما لم يتح لغيره من الشيوخ . فتعرف إلى رئيس (الإرسالية البروتستنتية) لما اشتغل مدرساً بمدرستها في القاهرة سنة ١٨٣٥ . وفي ذلك الحين تعرف عليه من المستشرقين الوافدين على مصر الدكتور بِرُّون الفرنسي Perron أستاذ الطبيعة والكيمياء بمدرسة الطب المصرية ، وكان يعرف العربية كتابة وقراءة وحديثاً ؛ والدكتور فراهن R. Fraehn الألماني الذي كان أبوه مدرساً للشرقيات في كلية قازان الروسية ، وجستاف فيل G. Weil وكان مدرساً لتاريخ الشرقيات في كلية هيدلبرج ، وله من الكتب تاريخ الخلفاء في ثلاثة مجلدات ، وتاريخ العباسيين في مصر في مجلدين ، وفلنجانس فرنيل F. Fresnel الفرنسي ، وله أبحاث في آثار بابل ، وترجم لامية العرب للشنفرى إلى اللغة الفرنسية .

وبطول صحبة الشيخ عياد للمستشرقين عرفوه وتردد اسمه في دوائرهم . فلما احتاج معهد اللغات الشرقية في بطرسبرج إلى مدرس للغة العربية وقع الاختيار على

---

(١) الإسلام والتجديد في مصر ترجمة عباس محمود ص ٢٩

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية ، المجلد الثاني ص ٦٥

الشيخ، وكلفت دوائر روسيا الخواجة «بطرس بكتي»[١] مندوبها القنصلي في القاهرة ليقنع الشيخ بالسفر . ويظهر أنه كان متردداً أول الأمر ، كما كان عبد الله فكري باشا بعده متردداً في السفر إلى مؤتمر المستشرقين الثامن بأستكهلم . ولكن وساطة الخواجة بكتي نجحت وسافر الشيخ ليتبوأ له مقعداً بين أساتذة اللغات الشرقية بجامعة بطرسبرج أو بتروبرغ .

ولا يعلم بالضبط تاريخ السنة التي غادر فيها الشيخ القاهرة إلى روسيا . ويغلب على الظن أنها حوالي سنة ١٨٤٠ م ، فقد كتب نسخة من كتاب سقط الزند لأبي العلاء المعري وهو في الحجر الصحي بالعاصمة التركية ، وذكر في ختامها أنه نسخها سنة ١٢٥٦ هـ المقابلة لسنة ١٨٤٠ م .

ومن المؤكد أنه كان في روسيا عام ١٨٤٣ حينما ولد للقيصر إسكندر الثاني ولد اسمه نقولا في حياة جده القيصر نقولا الأول ، فنظم الشيخ قصيدة يهنىء بهذا الميلاد ويؤرخ له بقوله :

أدعـــو الإله مهنئاً ومؤرخاً للروسـيا رغد بطلع نقولة

١٨٤٣

وقد نشرت هذه القصيدة في كتاب للشيخ اسمه (أحسن النخب في معرفة لسان العرب) وهو كتاب يدور حول ألفاظ وجمل وأمثال وحكايات ورسائل تبودلت بينه وبين أصدقائه في مصر . وقد أرخت بعض هذه الرسائل بتاريخ سنة ١٢٥٧هـ ١٨٤١م ، وهذا يرجح أن يكون سفر الشيخ إلى روسيا قبيل هذه السنة .

وإذا كانت سنة سفر الشيخ إلى روسيا غير معلومة على وجه اليقين فإن سنة وفاته كذلك حارت فيها الظنون بين الشك واليقين . فقد ذكر الأب لويس شيخو اليسوعي أنه توفي سنة ١٨٨١م[٢] . وذكر كليمنت هيوار صاحب « تاريخ الأدب العربي » أنه توفي سنة ١٨٧١م[٣]. وذكر أمين فكري باشا[٤] رواية عن والده عبدالله فكري باشا

---

(١) بطرس بكتي كان مندوباً قنصلياً Agent Consulaire لدولة الروسيا في مصر ، وكان معروفاً بقنصل المبكوف في مصر . وهو من أسرة سورية قديمة اشتهر أفرادها بحذق اللغات الأجنبية . وكان بينه وبين الشاعر شهاب الدين شاعر عباس الأول صلة ود ، بدأها بطرس نفسه بزيارة للشاعر على غير معرفة . فمدحه الشاعر بأبيات في ديوانه ص ١٦٥ مطبعة محمد جاهين . وقد نشر بعض الأبيات محرفاً في كتاب الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب شيخو ج١ ص ٨٥ صوابها بالديوان .

(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر ص ٦٣ طبعة بيروت سنة ١٩٢٦ .

(٣) Littérature Arabe, par Cl. Huart P. 430. سطر ١٢ طبع باريس سنة ١٩٠٢

(٤) إرشاد الألبا إلى محاسن أوربا ص ٦٠٩ - ٦١٠

أن والده تقابل مع المستشرق الروسي يوسف كوتوال[١]، وسأله عن الشيخ محمد عياد الطنطاوي فأخبره كوتوال « أن الشيخ محمداً كان بالمدرسة الكبرى وبديوان الخارجية في بطرسبرج معظماً غاية التعظيم محترماً إلى النهاية مرتباً له معاش عظيم ، وكان له ولد وزوجة ، وأنه مات في سنة ١٨٦٢ م على ما يتذكر » . وذكر المستشرق الروسي المعاصر أغنطيوس كرتشكوفسكي أن الشيخ الطنطاوي توفي في ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٦١ م[٢] .

أما ما ذكره الأب لويس شيخو فهو خطأ مطبعي محرف عن سنة ١٨٧١ كما جاء في الطبعة الأولى من كتابه ، وقد تابع الأب شيخو المستشرق هيوار في هذه الرواية وكلاهما أخذ عن كتاب الأستاذ بروكلمان مؤرخ الأدب العربي المشهور .

وهذه الروايات تختلف عن رواية كوتوال « جوتوالد » التي ذكرها للمرحوم عبد الله فكري باشا وقيدها ولده أمين فكري باشا حين سمعها من والده وهي سنة ١٨٦٢ .

وقد تكون هذه الرواية أقرب الروايات إلى الصحة، لأنها قريبة من سنة ١٨٦١، وهى السنة الصحيحة التي اعتمدها المحقق كرتشوفسكي .

وليس عجباً أن يدخل الشيخ محمد عياد الطنطاوي في أعلام النهضة الأدبية في القرن التاسع عشر . فهو من الطلائع الذين خرجوا على طريقة الأزهر في التدريس ، واتجه فى دروس الشعر والأدب واللغة وجهة جديدة . وقد اتسعت هذه الطريقة فيما بعد على يد الشيخ حسين المرصفي صاحب « الوسيلة الأدبية » الذي تلقى العلم بالأزهر وتولى التدريس فيه وتوفى سنة ١٨٨٩ م .

ولم تصبح دراسة علوم اللغة وآدابها وصناعة الإنشاء قولاً وكتابة رسمية في الجامع الأزهر إلا فى عصر الخديو عباس الثاني ، فقد أصدر أمره في العشرين من المحرم سنة ١٣١٤ هـ بتدريسها وتدريس غيرها من مبادىء الهندسة وتقويم البلدان وتاريخ الإسلام[٣] . ولا شك أن ذلك كان استجابة لدعوة بدأها الشيخ العطار ثم تلميذه الشيخ محمد عياد الطنطاوي من بعده .

وليس للشيخ عياد في الأدب أثر ظاهر ملموس إلا ما كان من دروسه في الأزهر ،

---

(١) هو الأستاذ J. M. Gottwald المستشرق الروسي وقد نشر معجماً للقرآن الكريم في قازان سنة ١٨٦٣ م ، وتوفي فيها سنة ١٨٩٧ م .

(٢) مجلة المجمع العلمي العربى بدمشق . المجلد الرابع . ص ٥٦٢ — ٥٦٤ عدد كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٩٢٤ .

(٣) لمحة في تاريخ الأزهر للدكتور علي عبد الواحد وافي ص ٢٣ .

وقد شرح فيها مقامات الحريري كما سلف القول وديوان الحماسة . ولم يترك لنا شرحاً مخطوطاً لأحد هذين الكتابين . على أن منزلته الأدبية ترجع إلى الروح التي مهد بها في الأزهر لتدريس الأدب والشعر (ولم تكن مثل هذه المواضيع تدرس في الأزهر من قبل) [١] .

وقد اشتهر الشيخ عند المستشرقين بدراساته في اللغة والنحو حتى وصفه هيوار الفرنسي في عداد النحويين[٢] ، وله في ذلك بعض الحق ، فقد ترك الشيخ من مؤلفاته المخطوطة : ١ — حاشية على شرح الشيخ خالد على متن الأزهرية في علم النحو . ٢ — حاشية على متن الزنجاني في الصرف . ٣ — حاشية على كتاب الكافي في علمي العروض والقوافي ، ومنها نسخة خطية في مكتبة بتروغراد ، وأخرى في مكتبة بلدية الإسكندرية .

وقد كانت حياة الشيخ في روسيا جهاداً في سبيل الدرس[٣] ، وبعد بضع سنوات من سفره إلى روسيا ، وعلى التحديد في سنة ١٨٤٧ دعي للتدريس في كلية بطرسبرج وكان هو الأستاذ الأول لمادة اللغة العربية ، ودعي المستشرق الروسي نفروتسكي ليكون مساعداً له ، فرضي بذلك .

وقد ذكر الأب شيخو أن الشيخ عياداً كان يسعف الأستاذ نفروتسكي في تدريس اللغة العامية ، فصحح ذلك الأستاذ كرتشكوفسكي قائلا : (وكان — أي الشيخ عياد — المعلم الأول ، وكان نفروتسكي معاوناً له ، وليس بالمكس)[٤] .

وكان من الطبيعي أن يتخرج على الشيخ عياد نفر من المستشرقين الذين تعلموا في مدرسة بطرسبرج الجامعية ، والذين أسهموا بعد ذلك في الأدب العربي بنصيب كبير . ومن هؤلاء المستشرق الفنلاندي الأصل فالن G. Wallin الذي كان من رواد الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر ، والذي ساح في مصر وسورية زمناً طويلا متخذاً اسم « عبد الولي » ، ولقد دارت بين الأستاذ وتلميذه رسائل جمعها « فالن » نفسه وطبعها مترجمة إلى اللغة الأسوجية . وهناك مجموعة أخرى من رسائل الشيخ عياد محفوظة

---

(١) الإسلام والتجديد في مصر ص ٢٩ . لتشارلس آدمز

(٢) Littérature Arabe. P. 420

(٣) ذكر الأب شيخو أن الشيخ عياداً دعي إلى التدريس في بطرسبرج سنة ١٨٥٤ م ونقلت ذلك عنه مجلة « رعمسيس » المصرية . والصواب ما ذكره الأستاذ كرتشكوفسكي من أن ذلك كان سنة ١٨٤٧ م

(٤) مجلة المجمع العلمي بدمشق . المجلد الرابع عدد ديسمبر سنة ١٩٢٤

في مكتبة جامعة هلسنكي Helsinki التي أضحت فيما بعد هلسنجفور Helsingfors عاصمة فنلندة .

وللأوربيين وأرضهم وطرق معايشهم ونظام حياتهم أثر في الشرقي حينما يفد إلى بلادهم ، وقد أثرت باريس في الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ، فكتب فيها كتابه « تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز » . وأثرت باريس ولندن في الشيخ أحمد فارس الشدياق ، فكتب فيهما كتابه « كشف المخبا عن فنون أوربا * » . وهما من كتب الرحلات الممتعة في القرن التاسع عشر . ولكن الشيخ عياداً لم يترك لنا كتاباً في « بطرسبرج » وآثارها ولكنه ترك لنا رسالة إلى زميله في الأزهر وصديقه رفاعة الطهطاوي ، يذكر له فيها شغفه « بكيفية معيشة الأوربيين وانبساطهم وحسن إدارتهم وترتيبهم وتربيتهم ، خصوصاً ريفهم وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار . . . »

ولقد ظفرت مكتبة بترغراد — لينجراد اليوم — بمخطوطات كثيرة للشيخ ، بعضها من تأليفه وبعضها من نسخ يده . كما ظفر ترابها بجسده الراقد هناك في قبر شاهداً على عربية وجلد وبأس شديد ، في بلاد العجمة والجلاد والجليد . . .

محمد عبد الغني حسن

---

* طبع الجوائب — القسطنطينية سنة ١٢٩٩ هـ

كتاب المردفات من قريش (٣)[*]

تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

٩ — ابنة محمد بن عروة بن الزبير . أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : ابنة محمد بن عروة بن الزبير كانت عند الحكم بن يحيى بن عروة ، وعند أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، فتزوجها محمد بن عمران بن طلحة ، ثم راجعها الحكم بن يحيي بن عروة ، ثم طلقها — وكان قاضياً على المدينة — واشترطت عليه أن عطاءه ما عاشت وغلة أرضه وبضع بناته إليها ، تزوجهن من شاءت ولا يغير عليها . فإن فعل فأمرها بيدها .

١٠ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن : أم سلمة ابنة عبد الرحمن بن سهيل بن عمرو ، كانت عند الحجاج بن يوسف ، فطلقها فتزوجها الوليد بن عبد الملك ، فأعجلها سليمان وعليها درع فأدخله من وراء الثوب ، ثم طلقها فتزوجها هشام بن عبد الملك .

١١ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : ربيحة بنت محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر ، تزوجها يزيد بن عبد الملك ، ثم تزوجها أبو بكر بن عبد الملك ، فقتله عبد الله بن علي وتزوجها صالح بن علي ، فطلقها فتزوجها إسحق بن إبرهيم بن حسن بن حسن بن علي عليهم السلام . وقوم ينكرون تزويج يزيد بن عبد الملك ربيحة .

١٢ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : سحيقة ابنة محمد بن عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب[(١)] ، فطلقها فتزوجها إسمعيل بن إبرهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله ، فولدت له ابنة ، ففارقها فتزوجها إسمعيل بن إبرهيم بن عبد الله بن جعفر ، فتوفي عنها ، فراجعها إسمعيل بن إبرهيم بن محمد بن طلحة ، ثم طلقها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

١٣ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أم إسحق بنت طلحة بن عبيد الله ،

[*] انظر مجلة الكتاب المجلد الأول ص ٨٣٩ — ٨٤٤ والمجلد الثاني ص ١٠٢ — ١٠٨ .

(١) انظر الاشتقاق ص ٤٠ جوتنجن .

كانت عند الحسن بن علي ، فولدت له طلحة بن الحسن ، فمات عنها وأوصى الحسين بتزوجها ، فتزوجها الحسين ، فولدت له فاطمة بنت حسين ، فقتل عنها ، فتزوجها ابن أبي عتيق — وهو عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر — فولدت له آمنة . ويقال تزوجها قبل ابن أبي عتيق تمام بن العباس بن عبد المطلب ، فهلك عنها فتزوجها ابن أبي عتيق .

١٤ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : ميمونة بنت عبد الرحمن بن عبيدالله بن عبدالرحمن بن أبي بكر ، كانت عند عبد العزيز بن الوليد بن عبدالملك ، فولدت له عبدالملك وعتيقاً . وكان عبد الملك من رجالهم ، فمات فرثاه بعض الشعراء من كلب ، فقال :

إنِّي رأيتُ بَنِي أُمِّ البنينَ لهُمْ مجدٌ طويلٌ وفي أعمارهم قِصَرُ[1]
ماتَ الهمامُ أبو مَرْوانَ فاختشعَتْ كلْبٌ لذاك وذلَّتْ بعدَهُ مُضَرُ

ولعتيق يقول الشاعر :

ذهبَ الجودُ غيرَ جودِ عتيـــقِ ابنِ عبد العزيز مِنْ ميمونهْ
بنتِ قَرْمٍ قد مُهِّدتْ من قريشٍ وأَبَى اللهُ أن تكونَ هجينَهْ

ثم تزوجها محمد بن الوليد ثم تزوجها سليمان بن عبد الملك ، ثم تزوجها هشام بن عبد الملك . ويقال : لم يتزوجها سليمان .

١٥ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال: حفصة بنت عمران بن إبرهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله ، تزوجها القاسم بن عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وهو أبو عُذْرِها ، ثم خلف عليها هشام بن عبد الملك ، وكان القاسم شديد الغيرة ، فسمع يوماً كلامها ، أو رآها مشرفة ، فدخل عليها فضربها ، فأثر السوط بها ، فطلقها فتزوجها هشام ، فقالت له أم حكيم[2] : قل لها تريك ظهرها . فقال لها فأبت وقالت : ما تريد من ظهري ، كنت عند رجل كريم غيور خير منك أماً وأباً وبيتاً ، غار

---

(١) أم البنين هذه هي بنت عبد العزيز بن مروان ، وهي كذلك زوجة الوليد بن عبد الملك. انظر الأغاني (٤ : ١٥٦ ساسي) . وأشهر من سمي بهذا الاسم من نساء العرب أم البنين زوج مالك بن جعفر بن كلاب . وفيها يقول لبيد : * نحن بنو أم البنين الأربعة * انظر المعارف ٤٠ مصر. ومنهن أم البنين زوج علي بن أبي طالب ، ولدت له العباس وجعفراً. وعبدالله . انظر المعارف ٣٩ .

(٢) هي أم حكيم بنت يحيي بن الحكم بن العاصي بن أمية . وهي زوج عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . الأغاني (١٥ : ٤٦ — ٤٧) . وسيفرد لها المدائني حديثاً في رقم ٢٥ .

فضربني ضربة فصار في ظهري أثر . فطلقها فتزوجها محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ، ثم تزوجها عثمان بن عُروة بن الزبير .

١٦ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أم كلثوم ابنة عبد الله بن جعفر ، تزوجها القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب ، فولدت له فاطمة ، ثم تزوجها الجرّاح أو الحجاج [١] ، فولدت له ابنة ، فطلقها ، فتزوجها أبان بن عثمان بن عفان .

١٧ — أنبأنا أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أم القاسم ابنة الحسن بن الحسن بن عليّ ، تزوجها مروان بن أبان بن عثمان بن عفان ، فولدت له محمداً ، ثم خلف عليها علي بن حسين بن حسن بن علي ، ثم تزوجها الحسن بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس .

١٨ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : رملة ابنة محمد بن جعفر بن أبي طالب ، تزوجها سليمان بن هشام ، فطلقها فتزوجها أبو القاسم بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، فقتله عبد الله بن علي ، فتزوجها إسمعيل بن علي أو صالح .

١٩ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : قُرَيبةُ بنت أبي أمية بن المغيرة [٢] ، كانت عند عمر بن الخطاب ، فرجعت إلى الكفار ، فلما أسلمت تزوَّجها معاوية بن أبي سفيان ، فقال له أبوه : أتزوَّج ظعينة أمير المؤمنين ؟ انزل عن ثقله [٣] . فطلقها فتزوجها عبدالرحمن بن أبي بكر ، فولدت له محمداً . فكانت عائشة عمته ، وأم حبيبة خالته ، فكان يدخل عليهما .

٢٠ — أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : أسماء بنت عميس ، كانت عند جعفر بن أبي طالب [٤] ، فولدت له عبد الله ، ومحمداً ، وعوناً ، فتزوجها أبو بكر ، فولدت له محمداً ، فتزوجها عليّ عليه السلام ، فولدت له يحيى [٥] ، فقال لها علي :

---

(١) ذكر أبو الفرج في (١٠ : ١٠٥) خبر خطبة الحجاج بن يوسف لها . وأما الجراح فلعله الجراح بن حصين والى وادي القرى من قبل عبد الله بن الزبير ، وكان قد أنهب تمر الوادي ، فجعل عبدالله يخفقه بالدِّرة ويقول : « أكلت تمري وعصيت أمري » . انظر الاشتقاق ٢٤٣ .

(٢) قريبة ، بفتح أوله ويقال بالتصغير . وهي أخت أم سلمة زوج الرسول الكريم . واسم أبيها حذيفة وقيل سهيل وكان يلقب « زاد الركب » كان إذا سافر لا يتزود معه أحد ، لجوده وكرمه . انظر الإصابة ٨٨٧ ، ١٣٠٢ من قسم النساء .

(٣) العرب تقول لكل شيء نفيس خطير مصون : ثقل . والثقل أيضاً : المتاع والحشم .

(٤) وقد هاجرت معه إلى الحبشة ، فولدت له هناك أولاده ، وقد تزوجت أبا بكر بعد ما قتل عنها جعفر . الإصابة ٥١ من قسم النساء .

(٥) في الإصابة أنها ولدت له عوناً ويحيى .

احكمي بين بنيك . فقالت : أما بنو جعفر فبنو الطيار في الجنة [١] ، وأما ابن أبي بكر فابن الصديق ، وإنّ ثلاثة أنت أخسها لخيارٌ . فقال علي لابنه : يا بنيّ قد فَسْكلتْ أباك [٢] .

٢١ — قال : وكانت عائشة بنت طلحة عند عمر بن عبد الله بن معمر ثماني سنين ، ومات سنة اثنتين وثمانين ، فبكته قائمةً . أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن ، عن سحيم بن حفص ، قال : أتاها مصعب وهي نائمة متصبحة [٣] ، ومعه ثمانِ حبات لؤلؤ قيمتها عشرون ألف دينار ، فأيقظها ونثر اللؤلؤ في حجرها ، فقالت : « نومتي كانت أحب إليّ من هذا اللؤلؤ » . وولدتِ عائشة لعبد الله بن الرحمن أولاداً . وجمع مصعب بينها وبين سكينة . ومات مصعب عن سكينة وعائشة وأم حبيب بنت عبد الله بن عامر [٤] .

أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن عن أبي إسحق بن ربيعة قال : قال سلم بن قتيبة : رأيت عائشة بنت طلحة بمكة في المسجد ، فسلمتُ عليها وانتسبت لها ، فبكت وقالت : يرحم الله المصعب . فأرادت النهوض فأخذت امرأتان بيديها — وعندها نسوة — فاعتمدت على المرأتين ، فما كادت أن تستقل [حتى] خزلها وركاها ، فقالت إحدى المرأتين إنا بك لمتعبات . وكانت مديدة الجسم كثيرة اللحم .

٢٢ — أحمد قال : أنبانا أبو الحسن قال : ابنة طلحة بن عمر بن عبيد الله كانت عند الحسن بن الحسن بن علي ، فكان يقول له : إنها [٥] حملت وولدت وهي ما تكلمني وإنها لمصارمة لي .

٢٣ — امرأة [من] آل أبي بكر . أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : تزوج موسى بن عبد الله بن الحسن امرأة من ولد أبي بكر ، فغضبت يوماً فأمرت جواري فأمسكنه وضربنه ، فأفلت وخرج ، فلقيه أخوه إبرهيم فقال : مالك ؟ قالت : ضربتني ابنة أبي بكر . قال : خذ السوط فوالله لئن لم تضربها لا كلمتك . فدخل وقام إبرهيم على الباب وقال للجواري : يا فواسق ، والله لئن منعته واحدة منكن لأدخلن عليكن . وقال لموسى : اضرب وأوجعها . فقال موسى لامرأته :

---

(١) الطيار لقب جعفر . انظر تعليل هذا اللقب في الإصابة ١١٦٢ والحيوان (٣ : ٢٣٣) .

(٢) فسكلت ، بفتح الفاء والكاف وسكون السين : أي أخرته وجعلته كالفسكل ، بالكسر ، وهو الفرس الذي يجيء في آخر خيل السباق .

(٣) المتصبحة : التي تنام الصبحة ، وهي نومة الغداة .

(٤) هذه الفقرة من أولها إلى هنا ، هي في الأصل بعد الفقرة رقم ٢٤ وقد أعدتها إلى موضعها.

(٥) في الأصل : « بما حملت » . ولم تذكر النسخة شيئاً عن تزوجها بغير الحسن كما ترى.

إنّي زعيم أن أجيءَ بضرّةٍ مقابَلةِ الأجداد ، طيّبةِ النَّشْرِ (١)
إذا انتسبت في آل شيبان في الذُّرى وتغلبَ لم تُقرِزْ بفضلِ أبي بكرِ
تحكّمُ أحيانًا علينا وتارةً تبدّى كقرنِ الشمس أو صورةِ البدْرِ (٢)

٢٤ — امرأة من تيم . أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن قال : وكانت عند يحيى بن عبد الله بن الحسن امرأة من بني تيم ، فخاصمته إلى جعفر بن سليمان بالمدينة ، فقضى عليها وقال : اذهب بها حيث شئت .

٢٥ — قال : وكانت أم حكيم ابنة يحيى بن الحكم عند سليمان بن عبد الملك ، ثم يزيد بن عبد الملك ، ثم هشام بن عبد الملك (٣) .

٢٦ — قال : وتزوج عبد العزيز بن الوليد أم خالد بنت عبد الله بن أسيد ، فغلبته على أمره كله ، وكان يقال : عبد العزيز بن الوليد سيد الناس ، إلا أن أم خالد قد غلبته على أمره . فأمره الوليد فطلقها .

٢٧ — أم عمرو ابنة عبدالله بن خالد . قال : أم عمرو بنت عبدالله بن خالد بن أسيد ، كانت عند سليمان بن عبد الملك ، فقدم خالد وعبد الله ، فوصل خالداً وفضله على عبد الله ، فقالت أم عمرو : عبد الله أكرم من خالد وفضلته عليه ! فقال : ويحك ، إني أعرف أن عبد الله أسنهما ولكن خالداً كان خاصتي ، وكانت له عندي يد وأنا صعلوك ، فإنما فضلته لذلك .

٢٨ — قال : أنبأنا أبو الحسن قال : كانت دجاجة ابنة أسماء بن الصلت السلمي عند عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس ، فولدت له عبد الله بن عامر (٤) . ثم تزوجها عمير الليثي فولدت عبيد بن عمير الفقية المحدث (٥) ، ثم تزوجها الأسود فولدت له عبد الله بن الأسود . فكان يقال لها أم العبادلة (٦) .

---

(١) المقابل : الكريم النسب من قبل أبويه جميعاً .

(٢) قرن الشمس : أولها عند الطلوع . وفي الأصل : « لقرن الشمس » .

(٣) وقد تزوجت أيضاً عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، كما في الأغاني (١٥ : ٤٧) .

(٤) في الإصابة ٣٩٢ من قسم النساء « أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد عند عمير خمس نسوة ، فطلق منهن دجاجة بنت أسماء ، نخلف عليها عامر بن كرز ، فولدت له عبد الله بن عامر » .

(٥) في الأصل : « عبيد الله بن عمير » والصواب « عبيد » كما أثبت . انظر الإصابة ٦٢٣٨ وتهذيب التهذيب ، والمعارف ٣١ ، ١٩٢ . وأبوه عمير بن قتادة الليثي . كان عبيد قاضي أهل مكة ، وتوفي سنة ٦٨ . (٦) هذا على التغليب ، وإلا فإن ولد عمير الليثي هو عبيد بن عمير كما مضى في التنبيه السابق . والفقرة التالية صلة للفقرة رقم ٢١ .

***

أنبأنا أحمد قال : أنبانا أبو الحسن عن سحيم بن حفص[١] قال : كان مصعب بن الزبير لا يصل إلى عائشة إلا بشدة ، ولا يقدر عليها إلا ببلاء حتى يخرق ثيابها ويضربها ، فشكا ذلك إلى عبد الله بن أبي فروة كاتبه ، فقال له : أفتأذن لي في الحيلة ؟ قال : نعم اصنع ما شئت فإنها أفضل ما نلت من الدنيا . فأتاها ليلا فاستأذن عليها ، فقالت له : هذه الساعة ! قال : نعم . ففزعت — ومعه أسودان — فقالت له مولاة لها : ما شأنك ؟ قال : شؤم مولاتك . قالت : ومالها ؟ . قال : أمرني هذا الفاسق الفاجر أسفك من خلق الله لدم حرام وأقتله للناس ، أن أحتفر بئراً وأدفنها فيها حية . وقد والله حرصت أن يعفيني من هذا ، فأمر بقتلى ، قالت : فأنظرني أذهب إليه ، قال : لا سبيل إلى ذلك ، وقال للأسودين : احفرا ، فبكت عائشة ورأت الجد ، وقالت : يا ابن أبي فروة ، إنك لتقتلني! قال : ما منه بد ، وإني لأعلم أن الله سيخزيه ، ولكنه قد غضب وهو كافر الغضب ، قالت : فأي شيء أغضبه ؟ قال : في امتناعك عليه ، وقد ظن أنك تبغضينه وأنك تطلعين إلى غيره ، فقد جن . فقالت : أذكرك الله إلا عاودته . قال : أخاف أن يقتلني . فبكت وجواريها فقال : قد رققت وأنا أغرر بنفسي فما أقول ؟ قالت : اضمن عني أني لا أعود أبداً[٢] . قال : فأعطيني مواثيق . فأعطته . فقال للأسودين : مكانكما . وأتى مصعباً فأخبره ، فقال: استوثق منها بالإيمان . فأتاها فقال : هذا الفاسق قد سكن بعض السكون وسكن شيطانه ، فاحلفي لي أن لا تخالفيه . فوثقت له ، وصلحت لمصعب .

نجز الكتاب والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) هو أبو اليقظان عامر بن حفص ، وسحيم لقبه ، وبلقبه هذا يذكره الجاحظ في مواضع كثيرة من البيان ، والمدائني في كتبه يذكره بثمانية ألقاب وأسماء . انظر الفهرست ٩٤ ليبسك و ١٣٨ مصر : قال ابن النديم : كان عالما بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب ، ثقة فيما يرويه . وتوفي سنة ١٩٠ . وانظر الحيوان (٢ : ١٥٥ س ٩) .

(٢) أي لا تعود إلى ما كان منها من التأبي والنشوز .



خيال

لجعفر بن علبة الحارثي☆

عجبتُ لمسراها وأنّى تخلصَتْ إليّ وباب السجن دونيَ مُغْلَقُ
أَلَمّتْ فحيَّتْ ثم قامت فودَّعتْ فلما تولَّتْ كادتِ النفسُ تَزْهَقُ
فلا تحسبي أني تخشَّعتُ بعدكم لشيءٍ ولا أنّي من الموتِ أفْرَقُ
وكيف وفي كفّي حسامٌ مذلّق يَعَضُّ بهاماتِ الرجالِ ويَعْلَقُ
ولا أنَّ قلبي يزدهيهِ وعيدُهمْ ولا أنّني بالمشي في القيدِ أخرقُ
ولكن عرتني من هواكِ صبابةٌ كما كنتُ ألقى منكِ إذ أنا مطلقُ
فأمّا الهوى والودّ منّي فطامحٌ إليكِ وجثماني بمكة مُوثَقُ

☆ من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية شاعر مقل غزل فارس مذكور في قومه. قال هذه الأبيات قبل أن يقتل وهو محبوس.

سجا الليل

للأستاذ سليم حيدر ببيروت

سَجا الليل: ما الدنيا سوى غمرة الوهم ... تلفُّ بني الدنيا بمئزرها الجهم
يرفُّ الكرى كالسحر، في روعة الدجى ... وترقب عين السهد رجرجة النجم
فيغرورق الأيقاظ في الوهم نُوَّماً ... ويسترسل النُّوام في يقظة الحُلم
ويحضن هذا الليل في كنهِ سرِّه ... بتاريخ أسرار الأوادم والبَهم
ويجري بياض البوح سراً معذَّباً ... على النسمة السوداء مستعذب الكتم!

✡ ✡ ✡

سجا الليل: دنيا تمَّحي في هواجسٍ ... مجمجمةٍ محمومةٍ في رؤى العتم
توسوس للساري فينتهر الدجى ... غِناءً، يكمُّ الذعر، مرتجف النغم
وتصطفق الأصداء، والليل سالكٌ ... فيهلولع الساري على رجعها الضخم
ويرجع للصمت الرهيب، منقِّلاً ... خطاه على الليل الرهيب، على الوجم
ويشكر للصرّار أُنسَ غِنائه ... ويسري، على نور الحباحب، في الأجم

✡ ✡ ✡

سجا الليل: في وجه الدجُنَّةِ شامة ... منَ النور، تهدي الفكر في ضِلَّة الحكم
فيأتلق الديجور في قلب ذي الحجى ... وتنطفىء الأنوار للأبله الفَدْم
وتنتفض الأذهان من غفوة الضحى ... وتنغلق الأبصار في موتة الجسم
فهذا أخو ليلٍ يُذيب دماغَه ... على الشمعة الشهباء — يالذَّة العلم!
وذاك أخو ليلٍ يذيب نهاره ... سُدًى وينام الليلَ يا حسرة الفهم!

* * *

سجا الليل، ياساقي، وضجّ بيَ الظّما
وزمزمت الأقداح تشكو من الحرم

وهذي كميت اللون، جياشة الهوى
معتّقةٌ تزداد طيشاً على القدم

يدغدغني شوق إلى رشف ثغرها
وأُمسكُ مختاراً لاذكي جوى النّهم

وأرجمها في العالمين - تقيّةً -
وأشربها، في السرِّ، تبسم للرجم

أداةُ التجلّي . فكرة شف حرفُها
عن الروح فانماعت على مصرع الكرم

* * *

سجا الليل، يا ليلي، وفي الخِدر موضعٌ
يضجّ بِعَرفِ الشمّ والضمّ واللثم

وفي هدأةِ الظلماء رجع صبابةٍ
تحزُّ كتبكيتِ الضمير من الإثم

صدى هَمَساتٍ من شفاهٍ مريضةٍ
تبوح بما يلقى الفؤاد من السقم

على أُذُنٍ صمّاءَ في الحب، لا تعي
من الحب إلاّ متعة اللحم والعظم

فمن فمها، في أُذْنه، صوت مغنمٍ
ومن فمِهِ، في أُذْنِها، أنّةُ الغُرم!

* * *

سجا الليل: أسجافُ الظلام كثيفةٌ
تكاد بها تستافُ رائحةَ الفحم

وفي الغرفة الجرداء تَنمار شمعةٌ
مُزَعفرةُ الإشعاع، واهنةُ العزم

وتحتَ لحافٍ عضّهُ البؤس والأذى
يئنُّ الذي لم يبق منه سوى الرسم

صريع جوًى يقتاتُ ذكرى وحسرةً
على الأَرَقِ الوخّازِ، في قبضة العُدم

فياحنظلَ الآلام، إن كنت سائغاً
مع الأمل الآسي تباركت من طعم!

سليم حيدر

قافلة الرقيق

للأستاذ سيد قطب

قِفْ بنا يا حادِيَ العُمْرِ هُنا لحظةً ننظرُ ماذا حوْلَنا
في طريق قد نثرْنا عمرَنا فيه أشـــلاءَ حياةٍ ومُنى

* * *

قد نثرناها على طولِ الطريق ومضينا ضِمْنَ قطعانِ الرقيقِ !
موكبٌ يَعْطو إلى الشط السحيقِ مُغْمَضَ العينين يَسْري موْهِنَا

* * *

من ظلامِ الغيبِ تخطو قدماهْ لظلامِ الغيب تنساقُ خطاهْ
في طريق غامض يُدْعَى الحياهْ يهتفُ الحادي فيَمضِي مذعنا

* * *

قفْ بنا ننظرْ إلى أشلائِنا نحنُ لا نرجعُ يوماً ها هُنا
مرة تمضي ، ونَمضي وحدنا في ظلام الغيبِ نَطوي الزَّمَنا

* * *

لهفةً لوعدت أرْعَى خُطُواتِي في طريق دَرَجتْ فيه حَياتِي
فتَطلعْتُ إلى هذا الشَّتاتِ وأنا في الكَرَّةِ الأخرى أنا !

* * *

لتَمَلَّيْتُ شِـــيَاتِي وسِماتِي وأمانِيَّ ويأسِي ورَجاتِي
وحماقاتِي ورُشدِي وهَنَاتِي والهوى الحانِي الذي ظلَّلَنَا

* * *

كلُّها عاهدتُ أنْ أقضِيَ عُمْرِي وأنا أخْلِصُها سرِّي وجهرِي
وإذا السَّوْطهوَى يلهبُ ظَهري حيثُ لا أسْطِيعُ رَيْثاً أو وَنى

* * *

وإذا الآمالُ والآلامُ خلفي ساخراتٌ من مواعيدي وخُلفي
مُلقياتٌ بين إهمالٍ مُسِفٍّ لم أُودِّعها . فيا وا حزنا !

* * *

أيها الحادي ألا فامضِ بنا قد أثارتْ ذكرياتي الشجنا
لم نَعُدْ نجزعُ لو تحدُو لنا : « نحنُ لا نرجعُ يوماً ها هُنا »

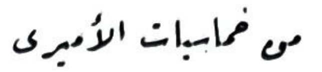
سيد قطب

عندما تحترق الفراشة

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

ستشعرُ يا نورُ بعد الأوانْ وبعد انهزامِ الدُّجى ، بالنَّدَمْ
فإنَّ الفَرَاشةَ رُوحُ الجنانْ خبَتْ روحُها في لهيب الألَمْ
أحبَّتكَ مِلْءَ المدى والزمانْ ومِلْءَ الوُجُودِ ، ومِلْءَ العدمْ
ورَفَّتْ عليكَ هَوًى في حنانْ فأوسعتَها حرقةً تَضْطرِمْ
وكان الجَناحانِ إذْ يخفقانْ يصدَّان عنك رياحَ السَّأَمْ
تجاهلْتَها ، بِئسَ هذا الهوانْ وقد وهَبَتْ رُوحَها عن كَرَمْ
ستَضحكُ يا نورُ في المَهرجانْ وتَسْخَرُ من نزَوَاتِ النَّسَمْ
ولكن ستشعرُ بعد الأوانْ بأنَّكَ فارَقتَ أغلى النِّعَمْ

حسن كامل الصيرفي



النجوم ... والقمر

للأستاذ عمر بهاء الأميري بحلب

« هذه النجوم ... يلمع في تلألؤها معنى من غليان الحياة ، وتتراءى صورة من العيون الشاعرة المرفرفة . إنها في تعانقها وتعاشقها ، تجلي للإنسان روحه الصميمة ، والحب ، والصفاء . وهي في علوها ، ونورها المتردد بين أعطاف السماء ، تعلق نظرة المتأمل ، بجو سني رفيع ، وتوجه تفكيره ، إلى عالم النقاء والصراحة والسجايا النيرة الطاهرة .

وهذا القمر ... في صموده الباهت ، وإشراقه الفاقع ؛ يبدو للناظرين (كالدولة المستعمرة) تجثم في تعال مصطنع ، وترفل في ثراء الأسلاب ، وتريق أساليب الإغراء وفنون الغواية ، ثم ترسل عليهم من (أضوائها الكشافة) ما يفضح هذه المخازي ويجذب إليها العيون ، من أفقها العالي ، في عالم الأرض والمادية ، عالم الشهوة والمكر والجشع .... »

أُحِبُّ النجومَ وأجْفو القَمَرْ وفي الحُبِ والكرهِ ما مِنْ وَزَرْ :

ضياءُ النجومِ صدى كُنهِها وأثوابُها الغرُّ لَمْ تُسْتَعَرْ

وما البَدرُ إلاّ دَعِيُّ السنى فليس يُنيرُ إذا لَمْ يُنَرْ

وتِلكَ تُريني عُلوَّ السما وذاكَ يُريني عتوَّ البشرْ

فلا غروَ إنْ تكُ أُنسَ البَصائرِ إنْ كانَ في ذاكَ أُنسُ البَصَرْ

عمر بهاء الأميري

دموع وأنات

للأستاذ بدر الدين الجارم

لاعج الشوق والهوى في حياتِهْ قد أثار المكبوت من زفراتهْ

عرف الحب قلبه فرأينا هُ يقاسي الصنوف من ويلاتهْ

لم يذق جفنه المنام ولكن بات يرعى النجوم في ليلاتهْ

يذكر الماضيَ البعيد فيرنو لسعيد الأوقات من لحظاتهْ

هاتفُ الحبِ كان لحناً يُغَنِّي فتغار الطيور من نغماتهْ

هاتفُ الحبِّ كان همساً ونجوى كم أذاب الفؤادَ من همساتهْ

هاتفُ الحبِ كان طيباً وعطراً يخجل الوردُ من شذى نفحاتهْ

هاتفُ الحبِ كان في الروض شدواً ردَّدته الطيورُ في أيكاتهْ

هاتفُ الحبِ كان روحاً لقلبي فسلوا القلبَ أو سلوا خفقاتهْ

* * *

كلَّمَا ضمَّنا الغرامُ بدا الطهرُ عناقاً بين الفتى وفتاتهْ

كنتُ لا أعرفُ السعادة حتى ذقت حلو الرحيق من قبلاتهْ

وتعجبتُ للفراش جفا الزهرَ ليحظى بالشهد من رشفاتهْ

أين في الناس آدم فيراني شاردَ الفكر في جمال بناتهْ

نمكث الليلَ وحدنا في حذارٍ نتَّقي العينَ في دجى ظلماتهْ

وكأنَّ الظلامَ خاف علينا حين أرخى الستور من حالكاتهْ

* * *

يا غزالاً فداهُ مهجة نفسي من بلايا الزمان أو كارثاته

في رياض الغـرام لاح لعيني بين سِرب من الظّبى أخَواته

قمت أرميه كي أفوز بصـيدي فرماني وكنت بين رُماته

وشباكي وأين صـيد شباكي . كيف يقوى الأسير في شبكاته ؟

غار نجم الدجى وودّ سـواداً مثل هذا السـوادِ من شعراته

غصن بانٍ بين الخمائل يمشي وشـباك الإغراء في عطفاته

هل درى الغصن أنّني آدميٌّ كم أعاني المقصود من حركاته

بسماتُ الرياضِ من بسماتِه واحمرار الورود من وجناته

* * *

قلت نقضي الشباب إلفين نلهو وحياة الشـباب في لذّاته

لم يكن دهرُنا رفيقاً علينا فرمانا بهجره وشـتاته

يشتكي القلبُ للوساد ويبكي فيئنُّ الوسادُ من أنّاته

يا خليلي وما الحياة سوى الذكـرى فدعني أعيش في ذكرياته

هكذا الحبّ في البداية شهدٌ وعذاب النفوس في أخرياته

شبهوا الحبّ بالجنان ضلالاً أين ذاك النعيمُ من جمراته

بدر الدين الحامد

في كفة الميزان

نشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النقد

الشعر والشعراء

لابن قتيبة [الجزء الأول]
تحقيق وشرح الأستاذ أحمد محمد شاكر .
٥٥٨ صفحة من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية . القاهرة ١٩٤٦
نقد الأستاذ السيد أحمد صقر

وهذا كتاب من أرفع كتب الأدب قدراً ، وأنبهها ذكراً ، وأقدمها نشراً .

فقد طبع لأول مرة في مدينة ليدن سنة ١٧٨٥ وأعيد طبعه فيها مرة ثانية سنة ١٩٠٤ بعناية المستشرق الكبير «دي غوية» ثم طبع بعد ذلك في مصر عدة طبعات سقيمة مبتورة كثيرة التصحيف والتحريف ، لا تعد شيئا مذكوراً بالقياس إلى طبعة ليدن الثانية ، لأن دي غوية قد عني بنشره ، فراجع مخطوط ليدن على خمس نسخ خطية استحضرها من فينا وبرلين وباريس ودمشق والقاهرة ، وأثبت ما بين هذه النسخ من اختلاف في هامش الكتاب ، وبذل مجهوداً كبيراً في مراجعة كل موضع من المواضع التي اقتبسها المؤلفون من الكتاب ، ووضع فهرسين للأعلام والأماكن . وظلت هذه الطبعة عمدة العلماء والباحثين إلى يومنا هذا . بيد أن الحصول على نسخة منها قد أصبح متعذراً بل مستحيلا . فتشوفت النفوس إلى طبعة جديدة تغني عنها أو تسد مسدها ، واستشرف الناس إلى من ينتدب نفسه للقيام بهذا العمل الخطير ، حتى ارتضى الأستاذ العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر أن ينهض بتلك المهمة الشاقة ، فأصدر هذه الطبعة الجديدة التي يقول في مقدمتها : « وخير ما ندل به على منزلة هذا الكتاب من العلم ، وعلى فائدته للعلماء والمتأدبين أن نخرجه إخراجاً صحيحاً متقناً على ما أستطيع بجهدي القاصر ، بأني رجل جل اشتغالي بعلوم الحديث والقرآن ، وما أستطيع أن أزعم أني أهل لمثل هذا العمل إلا أن أبذل ما في وسعي » . وهذا تواضع من الأستاذ ، فقد نشر منذ أزمان بعيدة كتباً عدة نشراً

علمياً ممتازاً دل به على سعة علمه ، وحصافة رأيه ، ودقة نظره وعمق فكره ، وأنفق في سبيل ذلك ما أنفق من جهد ووفر وعافية ووقت ، رضيّ النفس طيب البال ، حتى غدا في طليعة الناشرين المرموقين ، وحسبه أنه ناشر الرسالة للشافعي والمعرب للجواليقي . والأستاذ نفسه يعتبر نشره مثاليا يضارع نشر المستشرقين بل يفوقه ، وقد صرح بذلك إذ يقول : « إنما أرجو أن يجد القارئ هذا الكتاب تحفة من التحف ، ومثالا يحتذى في التصحيح والتنقيح ، وأصلا موثوقاً به حجة ، وليعلم الناس أننا نتقن هذه الصناعة من تصحيح وفهارس ونحوها أكثر مما يتقنها كل المستشرقين ولا أستثني »☆ وقد اعتمد الأستاذ في تحقيق هذا الكتاب على طبعة ليدن اعتماداً كلياً حتى جاءت طبعته وكأنها صورة من الأولى إلا أنه قد شرح بعض الألفاظ الغريبة شرحاً مقارباً ، وراجع كثيرا من النصوص على ما بين يديه من المصادر ودل على أماكن وجودها في الكتب المختلفة ، ولكنه لم يثبت اختلاف الروايات إلا قليلا .

ولئن كانت هذه الطبعة تمتاز بذلك إن طبعة ليدن تمتاز عنها بميزة عظيمة ، فقد حرص « دي غوية » كل الحرص على إثبات كل خلاف بين النسخ مهما كان شأنه ليكون القارىء على بينة منه فيختار ما يختار ويرد ما يرد ، بذوقه الخاص ، ورأيه المستقل ، ولا يكون مقيداً بذوق الناشر ورأيه ، فقد يكون الناشر مصوباً للخطأ أو مخطئاً للصواب وهو لايدري ، والأنظار متباينة ، والأفكار متفاوتة ، وفوق كل ذي علم عليم . ومن أجل ذلك لا أوافق الاستاذ على طرحه لتلك الاختلافات التي أثبتها « دي غوية » ولست أدرى لماذا تركها وهي بين يديه . ومنهج الأستاذ شاكر في نشر هذا الكتاب هو أنه اعتمد في نشره علي طبعة ليدن فقط ، فأخذ منها وترك ، ولم يرجع إلى النسخ المخطوطة في القاهرة وهو يعلم أن فيها نسختين وهما برقمي (٥٥٠ ، ٤٢٤٧ — أدب) رجع « دي غوية » إلى أولاهما ولم يرجع إلى الثانية لأنها لم تكن في دار الكتب إذ ذاك ، وفي دار الكتب نسخة ثالثة تحت رقم ٩١٦٠ — أدب) وصفت في الجزء السابع من فهرس الدار ص ١٨٠ . وفي مكتبة الأزهر نسخة رابعة (٦٨٨٥ — أدب) فكان من الواجب على الأستاذ أن يرجع إلى تلك النسخ كلها حتى يستطيع تحقيق متن الكتاب ، وهو يعلم أن نسخه التي اعتمد عليها « دي غوية » يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً إلى حد جعل « دي غوية » يقول : « إنه ينبغي أن تنشر مستقلة » والحق أن الخلاف بين النسخ اختلاف هائل ، ليس في سطر أو

☆ مقدمة شرحه للترمذي ص ٦٤

سطرين ، أو في صفحة أو صفحتين . بل في فصول وتراجم بأكملها . فامرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والمتلمس ، وطرفة ، وأوس بن حجر ، والمرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وعلقمة الفحل ، وعدي بن زيد . كل شاعر من هؤلاء له ترجمتان متتاليتان، كل واحدة منهما تباين الأخرى في أسلوبها ومنهجها ، وتخالفها في ترتيب عناصرها. وقد راجعت تلك التراجم في النسخ الخطية فلاحظت أن الترجمة الأولى لكل شاعر قد خلت منها النسخ خلوا تاما ، وكنت أحسب أن هذه التراجم الثنائية ستحفز الأستاذ إلى التماس المخطوطات ليخرج الكتاب كما كتبه صاحبه غير ملفق ولا ناقص كما هو الآن ، فقد تبينت أن بعض النصوص التي نقلها الأقدمون عنه لا توجد فيه . كل ذلك يثبت لنا أن طبعة ليدن لاتصلح وحدها لأن تكون أساساً لنشر الكتاب نشراً علمياً يجعل القارئ على ثقة من أن الكتاب كما ألفه مؤلفه لم تعبث به أيدي الماسخين أو الناسخين . ولكن الأستاذ قد اعتمدها واتخذها إماماً لطبعته واتبعها حتى فيما لا ينبغي أن تتبع فيه . وهناك بعض ملاحظات أخرى عنت لي في أثناء مطالعتي رأيت أن أنبه عليها ابتغاء لوجه الحق ، ورغبة في تصحيح الكتاب ، ومساهمة في رجعه إلى أصله ، وبذلك أكون قد أديت واجبي ، فإني أعتقد أنه يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن ينشر ما يرتئيه من أخطاء ليعرفها القارئ ، وينتفع بها الناشر ، وبمثل هذا التعاون العلمي المنشود تخلص الكتب العربية من شوائب التحريف والتصحيف الذي منيت به على أيدي الناسخين قديماً والطابعين حديثاً . وقد رأيت أن لا أنثر ملاحظاتي على الكتاب نثراً ، بل رأيت أن أقسمها إلى أقسام ، فإن ذلك أنفع وأمتع .

فالقسم الأول لما في الكتاب من أخطاء في الشكل والضبط . ومن أمثلته :

١ — ص ٦٧ قال امرؤ القيس :

وإنى أَذِينٌ إنْ رجعتُ مُمَلَّكا ... بِسَيْرٍ تَرَى منه الفُرَانِقَ أَزْوَرَا

على ظَهْرِ عاديٍّ تَحَارَبُهُ القَطَا ... إذا سَاقَهُ العَوْدُ الدِّيَافِيُّ جَرْجَرَا

هكذا ضبطه دي غوية « تحاربه القطا » وتبعه الأستاذ ، وهو خطأ . ولست أدري ما الذي صنعه العادي ـ وهو الطريق القديم ـ مع القطا حتى تحاربه ؟! والصواب « على ظهر عاديّ تحار به القطا » و « تحار به القطا » تعبير شائع في الشعر القديم .

٢ — ص ٧٩ قال الشماخ :

لهـا منسم مثـل المحارة خفّهُ ... كأنّ الحصى من خلفهِ خذفُ أعسَرا

« مِنسم » هكذا ضبطها دي غوية بكسر الميم وفتح السين وتبعه الأستاذ وهو خطأ . وقد نقل الأستاذ ضبطه صحيحاً في المفضليات عند شرحه لقول المخبل السعدي :

ولهــا مَنَاسِمُ كالمَوَاقِعِ لا مُعْــــــرٌ أشَاعِرُها ولا دُرْمُ

فقال (١ : ١١٥) : « المنسم » بفتح الميم وكسر السين : طرف خف البعير . والمواقع : المطارق . الواحدة ميقعة . شبه المناسم بالمطارق » وهذا ما يجعلني أميل إلى أن « خفة » محرفة ، وصوابها كما جاء في ديوان الشماخ ص ٧٩ « خُفُه» قال الشنقيطي : « المعنى أن منسمها قوي يتطاير الحصى من شدة وقعه » .

٣ — قال امرؤ القيس يصف فرساً :

كُمَيْتٍ يَزِل اللّبْدُ عن حال مَتْنِهِ كما زلت الصَّفْواءُ بالمُتَنَزَّلِ

والصواب «بالمتنزّل» كما جاء في شرح المعلقات للتبريزي ص٤١، والديوان ١٣٣.

٤ — ص ٢٥٠ وقال الآخر :

أرأيتَ إن بكرت بليل هامتي وخرجتَ منهــــا بالياً أثوابي

هل تَخْمِشَنْ إبلي عَليَّ وُجُوهَها أو تَعْصِبَنَّ رؤوسها بسلاب

« أرأيت » هكذا ضبطها دي غوية ، وتبعه الأستاذ ، وهو خطأ والصواب :

أرأيتِ إن صرخت بليل هامتي وخرجت منهــــا عارياً أثوابي

لأن الصراخ من شأن الهامة فيما يزعم العرب ، ولأن الإنسان لا يخرج من الدنيا بالي الأثواب بل يخرج منها عارياً . والشعر لضمرة بن ضمرة النهشلي كما في نوادر أبي زيد ص ٢ وأمالي القالي ٢ / ٢٧٩ .

وأوله :

بكرت تلومك بعد وهْن في الندى بَسْلٌ عليكِ ملامتي وعتابي ٭

أأصرها وُبنيُّ عمي ساغِبٌ فكفاكِ من إبَةٍ عليّ وعاب

٥ — ص ٢٦٤ قال أبو زبيد الطائي يصف الأسد :

إذا واجَهَ الأقرانَ كان مَجَنَّهُ جبين كَتَطْبَاقِ الرحا اجتاب مَمْطَرا

« ممطراً » هكذا ضبطها دي غوية بفتح الميم ، ظناً منه أنها اسم مكان ، وأن

٭ بكرت : عجلت . بسل : حرام . السلاب : خرقة سوداء تتقنع بها المرأة في المأتم . الإبة : الحياء .

اجتاب بمعنى قطع . وتبعه الأستاذ ، وهو خطأ ، والصواب « اجتاب ممطراً » بكسر الميم ، وفي القاموس (٢ - ١٣٥) « الممطر والممطرة بكسرهما ثوب صوف يتقى به من المطر » واجتاب هنا بمعنى لبس ، جاء في لسان العرب (١ : ٢٧٨) واجتبت القميص إذا لبسته . قال لبيد :

فبتلك إذ رقصَ اللوامع بالضُّحَى ... واجتاب أردية السَّراب إكامُها
أقضي اللبانة لا أفرط ريبة ... أو أن يلوم بحاجة لوامها

٦ — ص ٣٩ قال الشماخ :

لم يبق إلا مِنْطَقٌ وأَطْرافْ ... وريطتان وقميص هفهافْ
وشُعْبَتَا مَيْس براها إسكاف ... يا رب غاز كاره للإيجاف

« إلا مِنطق » هكذا ضبطها دي غوية . وتبعه الأستاذ ، وهو خطأ ، لأن « المنطق » كمنبر : شقة تلبسها المرأة » وأول الشعر كما في الديوان ص ١٠٢ :

قالت ألا يُدْعَى لهذا عراف ... لم يبق إلا منطق وأطراف

والصواب « إلا منطق » بفتح الميم وكسر الطاء ، والمراد به النطق ، وجمعه مناطق . قال زهير (ديوانه ص ٣٤٤) :

من يتجرم لي المناطق ظالماً ... فيجر إلى شأوْ بعيد ويَسْبَحِ
يكن كالحُبَارى إن أصيبت فمثلها ... أصيب وإن تفلت من الصقر تَسْلَحِ

* * *

والقسم الثاني من أقسام الملاحظات يتعلق بالتحريف ، وهو كثير جداً في ثنايا الكتاب ، ومن أمثلته :

١ — ص ٤٠ قال الشماخ :

أو كظباء السِّدر العُبْرِيَّاتْ ... يَحْضُنّ بالقيظ على رَكِيَّاتْ

« يحضن بالقيظ » هكذا جاءت في طبعة ليدن ، ونقلها الأستاذ كما هي ، ولا معنى لها لأنها محرفة .

والصواب « يصفن بالقيظ على ركيات » أى يقمن زمن الصيف على آبار ، كما جاء في الديوان ص ١٠٤ . وقد ذكر دي غوية رواية أخرى في هامش الكتاب ، وهي « يحضرن » ولكن الأستاذ لم يذكرها .

٢ - ص ٣٤

وأخو الوجهين حيث وهى ... بهواه فهو مدخول

« حيث وهي » هكذا في طبعة ليدن ، ونقلها الأستاذ ، وهو خطأ ، والصواب كما في النسخ المخطوطة « حيث رمى » وقد أشار دي غوية إلى أنها قد وردت كذلك في إحدى النسخ ، ولكن الأستاذ على عادته لم يذكرها .

٣ — ص ٤٨ كقول العباس بن مرداس السلمي :

وما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في مجمـــع

وكذلك ورد مرة أخرى ص ٢٦٠ وهو خطأ ، والصواب « وما كان حصن ولا حابس » كما جاء في النسخ المخطوطة كلها . وسيرة ابن هشام ٤ : ١٣٧ ولسان العرب ٧ : ٤٠٠ ، والأغاني ١٣ : ٦٤ وخزانة الأدب ١ : ٧٣ والموشح ص ٩٣ ، والبيت من قصيدة قالها العباس لما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم يوم حنين ، وأعطاه أقل مما أعطى الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزاري . ومن الغريب أن دي غوية ذكر في هامش ص ٣٤ ، ١٦٦ أن رواية بعض النسخ المخطوطة : « وما كان حصن ولا حابس » ولكن الأستاذ لم يأبه لتلك الرواية .

٤ — ص ٦٥ في ترجمة امرئ القيس : « فنزل على قوم منهم عامر بن جوين الطائي ، فقالت له ابنته : إن الرجل مأكول فكله ، فأتى عامر أجأ فصاح : ألا إن عامر بن جوين غدر فلم يجبه الصدى ، ثم صاح : ألا إن عامر بن جوين وفى ، فأجابه الصدى ، فقال : ما أحسن هذه وما أقبح تلك » و « غدر فلم يجبه الصدى » تحريف واضح . والصواب كما في الأصل المخطوط « غدر فأجابه الصدى » وإذا كان الصدى لم يجبه في الأولى ، وأجابه في الثانية فكيف تسنى له أن يفاضل بينهما ويقول « ما أحسن هذه وما أقبح تلك » ؟ ومن الغريب أن دي غوية أثبت ذلك عن بعض النسخ ، ولكن الأستاذ لم يشر إليها . وقد نقل صاحب الأغاني هذا الخبر عن ابن قتيبة (٩ : ٩٠) وفيه : « غدر ، فأجابه الصدى بمثل قوله، فقال : ما أقبح هذا من قول » .

٥ ص ١٠٩ قال النابغة :

ستة آبائهـــم ما هُمُ هُمْ خيرُ مَن يشرب صفو المدامْ

« ستة آبائهم ما هم » هكذا رسم شطر هذا البيت في طبعة ليدن ، وتبعه الأستاذ وهو خطأ ، والصواب :

ســــتة آباء همُ ما همُ هم خيرُ من يشرب صفو المُدَامْ

راجع خزانة الأدب ٢ : ١١٨

٦ — ص ١٧٣ : « ... وأخذ جملين، يقال لهما عوهج وداعر، فصارا بعمان، فمنها العوهجية والداعرية » وهكذا جاء في طبعة ليدن «فمنها» . والصواب « فمنهما » .

٧ — ص ١٧٩ :

وقَـدَّمَتِ الأديمَ لِرَاهِشَيْهِ وألفى قولَها كذباً ومَيْنا

هكذا جاء في الطبعتين: «وقدمت الأديم» وهو خطأ . والصواب «وقددت»وقد ذكر دي غوية : أنها جاءت كذلك في بعض النسخ ، ولكن الأستاذ قد تركها أيضاً .

٨ — ص ٣٩٣ . قال يزيد بن الطثرية :

يعجل للقــوم الشّواء يجرّه بأقصى عصــاه مُنْضَجًا أو مُرَمَّدا

حلوفٌ : لقد أنْضَجْتُ وهو مُلَهْوَجٌ بِنِصْفَيْنِ لو حركته لَتَقَصَّدَا

هكذا جاء في الطبعتين وهو خطأ ، والصواب : « لتفصّدا » بالفاء ، أي إن هذا اللحم الملهوج لو حركته لتفصد منه الدم .

٩ — ٣١٦ من قصيدة لابن أحمر الباهلي :

فــلا تحرقا جــلدي سواء عليكما أداويتما العُصْرَيْن أم لا تَدَاوِيا

هكذا جاء في الطبعتين « أم لا تداويا » وهو خطأ والصواب « أم لم تداويا » لأن « تداويا » فعل مضارع من الأفعال الخمسة محذوف النون ، وهي لا تحذف نونها إلا إذا سبقت بناصب أو جازم ، و « لا » النافية ليست بجازمة ، و إنما الجازم هنا « لم » .

١٠ — ص ٣١٩ قال يزيد بن مفرغ في عباد بن زياد :

سبق عباد وصلّت لحيته وكان خَرّازاً تجور قَرْبَتُه

هكذا في الطبعتين « تجور قربته » وفي النسخ المخطوطة : « وكان خرازاً تجود قربته » وكذلك جاء في خزانة الأدب (٢ : ٢١٣) .

١١ — ص ٣٢٠ « فأخذه عبيد الله بن زياد فحبسه وعذبه وسقاه التربذ في النبيذ ، وحمله على بعير وقرن به خنزيرة فأمشاه بطنه مشياً شديداً فكان يسيل على الخنزيرة فتُصيء » والصواب «فأمشى بطنه . . . فتَصيء» بفتح التاء ، جاء في اللسان ١ : ١٦٤ : « صاءت العقرب تصيء إذا صاحت » .

١٢ — ص ٣٥١ من قصيدة لحميد بن ثور الهلالي في وصف ذئب وامرأة :

ترى ربة البهم الفرار عشية إذا ما عدا في بهمها وهو ضائع

رأته فشكت وهو أكْحَلُ مائل إلى الأرض مثني إليه الأكارع

هكذا جاء في الطبعتين « أكحل مائل » وهو خطأ . وصحة التحريف :

رأته فشكت وهو أطحل مائل إلى الأرض مثنى إليه الأكارع

وكذلك جاء في ديوان الشاعر ص ٣٧ ، وأمالي المرتضى ٤ – ١٢١ وحماسة ابن الشجري ص ٢٠٧ وفي لسان العرب (١٣ : ٤٢٤) قال ابن سيدة : الطحلة لون بين الغبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد . ذئب أطحل وشاة طحلاء » .

قال الأخطل :

يشق سماحيق السلا عن جنينها أخو قفرة بادي السغابة أطحل

السماحيق : جلدة رقيقة تكون على جنين الناقة ، وأطحل : كدر اللون ، يعني به الذئب .

١٣ – ص ٣٥٥ « . . . ولعل الأثاب أن تكون تسمى أفناؤه جعلا كما تسمى أفناء النخل وقصاره جعلا » هكذا جاء في الطبعتين « أن تكون تسمى أفناؤه جعلا » وهو خطأ . والصواب : « أن تكون أفناؤه تسمى جعلا كما تسمى أفناء النخل وقصاره جعلا » كما جاء في المخطوطات . والقنو : العذق .

١٤ – ص ٤٣٣ :

لا ينفرون الأرض عند سؤالهم لتطلب العِلّات بالعيدان

ورواية الأصل والديوان « لا ينكتون الأرض » وهو تعبير شائع في الشعر .

١٥ – ص ٥٠٠ قال الأحوص :

ستُبلى لكم في مضمَر القلب والحشى سريرة حب يوم تُبلى السرائرُ

ورواية الأصل المخطوط (وخزانة الأدب ١ – ٣٣) : « ستبقى » :

وفي الأغاني : أن عمر بن عبد العزيز أنشد قول الأحوص :

ستبقى لكم في مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

فقال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول » .

وقد أخطأ مصحح الجزء الرابع من طبعة الدار إذ جعلها « ستبلى » وعلق عليها بقوله : كذا في الشعر والشعراء ص ٣٣٠ طبع أوربا . وفي الأصول والخزانة « ستبقى لها » ولو نظر في هامش الصفحة التي أشار إليها من طبعة الشعر والشعراء لوجد دي غوية يذكر أن الرواية في بعض النسخ الخطية « ستبقى » .

١٦ — ص ٥٠٨ : « قال أبو سوار الغنوي : رأيت مية وإذا معها بنون لها صغار، فقلت : صفها لي ، فقال : مسنونة الوجه ، طويلة الخد » وأول الخبر محذوف . وهو كما جاء في الأغاني (١٦ : ١١٥) : « قال محمد بن سلام: قال أبو سوار الغنوي » .

١٧ — ص ٥١٤ : هذا البيت وشرحه :

من الفَراشِ المقفّى عاش في رَنَقٍ رَخْفَ السَّحَايات ولّى غير مطعوم

السحايات : بقية الماء؛ واحدتها سحاية » . لم يضبط دى غوية كلمة «السحايات» وضبطها الأستاذ بفتح السين وهو خطأ . وفيها مع ذلك تحريف وصحتها « السُّحابات: بقية المـاء . واحدتها سحابة » جاء في القاموس : « السحبة بالضم كالسحابة : فضلة ماء الغدير » .

١٨ — ص ٥١٧ : « وأخذ ذو الرمة قوله :

إذا استهلت عليه غَيْبةٌ أرجَتْ مرابض العين حتى يأرج الخشب

من معني قول العجاج : مثواه عطارين بالعطور » وفي هذا النص تحريفان . الأول في « عيبة » وصحتها كما في ديوانه ص ٢٠ «غبية» وهي الدفعة من المطر، والثاني في« مثواه عطارين »وصحتها كما في ديوان العجاج المخطوط ص ٦٣ « مثواةعطارين ».

قال العجاج يصف ثوراً ص ٦٣ :

فبات في مُكْتَنَسٍ مَعْمورِ مُسَّاقِطٍ كالهودَجِ المَخْدُورِ
كأنَّ ريحَ جَوْفِهِ المزبورِ في الخشب تحت الهَدَبِ اليَخْضُورِ
مَثْواةُ عطارين بالعُطـــورِ أهاضمها والمسكِ والكافورِ*

وإذا نظرنا إلى بيت ذي الرمة الذي يقول ابن قتيبة إنه أخذ معناه من قول العجاج لم نجد بينهما من الاشتراك ما يجعلنا نأخذ برأيه ، وأكبر الظن أنه قد أورد بيتين لذي الرمة سقط ثانيهما من الكتاب وهو :

كأنه بيت عطـــار يُضَمِّنُه لطائمَ المسك يحويها وتُنْتَهَبُ

١٩ — ص ١٤١ : «هو طرفة بين العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن عباد بن صعصعة بن قيس بن ثعلبة » وعلق الأستاذ على هذا بقوله « عباد بن صعصعة هكذا أثبت

* المخدور : المستور . المزبور : المطوي . الهدب : الأطراف . اليخضور : الأخضر. مثواة : مقامة . الأهضام : ضرب من الطيب .

هنا وفي معاهد التنصيص وهو خطأ صوابه ضبيعة » كما أثبت كل من ذكر نسب طرفه ونسب أقربائه . فإن المرقش الأصغر عم طرفة ، واسمه ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك ، والمرقش الأكبر عم الأصغر ، واسمه عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل انظر المفضليتين ٤٥ ، ٥٥ وشرح القصائد العشر ٥٦ وجمهرة أشعار العرب ٨٣ والخزانة وغير ذلك » . وهذا جهاد في غير عدو كما يقول الأزهريون ، أضنى الأستاذ فيه نفسه وأجهد فكره دون أن يأتي بأية فائدة تسوغ كتابة هذا التعليق الطويل . ولو رجع الأستاذ إلى المخطوطات لألفى فيها اسم « ضبيعة » صحيحاً غير محرف ولا مبدل، ولما أثبت حرفاً واحداً من تعليقه هذا . ومن الغريب أني وجدت دي غوية قد ذكر في هامش الكتاب اسم « ضبيعة » صحيحاً نقلا عن بعض النسخ التي اعتمد عليها ! أفما كان في هذا وحده غناء عن ذلك الجهاد ؟

١٩ — ص ٥٠٨ : « وكان ذو الرمة أحد عشاق العرب المشهورين بذلك ، وصاحبته مية بنت فلان بن طلبة بن قيس بن عاصم بن سنان » وعلق الأستاذ على هذا بقوله : « هكذا أبهم المؤلف اسم أبيها لعله نسيه أو من أجل الاختلاف فيه، ففي اللالي أنها بنت عاصم بن طلبة ، وفي ابن خلكان ابنة مقاتل بن طلبة » ولو اطلع على الأصل المخطوط لعلم أن المؤلف لم يبهم اسم أبيها ففي ورقة ٧٨ : « مية بنت مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم بن سلام » وكنت أعتقد أن الأستاذ لم يحكم بأن المؤلف أبهم اسم أبيها إلا بعد أن رأى أن النسخ التي اعتمد عليها دي غوية أجمعت كلها على أنها « بنت فلان » ولكني عجبت العجب كله عند ما رأيت في طبعة ليدن ص ٣٣٥ أن بعض النسخ فيها « بنت مقاتل » .

٢٠ — ص ٥١٨ قال الراعي يصف ناقته :

وواضعة خـــدها الزمام فالخـــدُّ منها له أصْعَرُ
ولا تعجل المرء قبـل البرو ك وهْيَ بركبتها أبْصَرُ

والصواب كما جاء في المخطوطات :

ولا تعجل المرء قبـل الركو ب وهْي بركبتـه أبْصَرُ

٢١ — ص ٢١٧ قال الأعشى :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به في جحفل كهزيع الليل جرار

ورواية الأصول المخطوطة والديوان : « في جحفل كسواد الليل جرار » وهي الصواب ، لأن الهزيع هو القطعة من الليل ، والمراد وصف الجيش بالكثرة .

٢٢ — ص ٢٣٠ :

زوجك يا ذات الثنايا الغر   الرتلات والجبين الحُرّ

والصواب كما جاء في المخطوطات : « ويحك يا ذات الثنايا الغر » .

٢٣ — ص ٥٢ « هو امرؤ القيس بن حجر بن عمرو الكندي » هكذا ورد في الطبعتين ، والصواب « . . بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي » راجع خزانة الأدب ١ : ٢٩٩) .

٢٤ — ص ٢١٨ قال الأعشى :

خيّره خطتي خسف فقال له   اعرضْهُمَا هكذا أسمعهما حار

ورواية الديوان :

خيره خطتي خسف فقال له   مهما تقله فإني سامع حار

وهناك رواية أخرى ذكرها دي غوية في هامش الكتاب وهي « قل ما تشاء فإني سامع حار » ولكن الأستاذ لم يشر إلى هذه ولا إلى تلك ، وارتضى الأولى التي لا يكاد اللسان يقيم نطقها .

* * *

أما الملاحظات التي تتعلق بالشرح والتعليقات ، وعدم الرجوع إلى المخطوطات ، والاعتماد على المصادر الثانوية في تحقيق النصوص ، فإني أجمل الكلام عليها وأكتفي ببعض النماذج منها . . .

١ — ص ٣٩ قال الشماخ :

لما رأتنا واقفي المطيات   قامت تبدى لي بأَصْلتيّات

غُرّ أضاء ظلمها الثنيات   خَوْدٌ من الظَّعائن الضَمْريّات

ترك الأستاذ شرح الأصلتيات مع غرابتها ، ومعناها الأسنان الجميلة المستوية البراقة ، وشرح الشطر الأخير بقوله « الخود : الفتاة الحسنة الشابة . الضمريات : من الضمور وهو الهزال ، فالضمر من الرجال المهضم البطن اللطيف الجسم والأنثى ضمرة » والصواب في شرح الضمريات ما قاله الشنقيطي في شرح الديوان « الضمريات صفة ظعائن أي هن من بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة » .

٢ — ص ٢٧٦ قال الشماخ :

تخامَصُ عن برد الوشاح إذا مشت   تخامُصَ حافي الرجل في الأمعز الوَجِي

وشرح الأستاذ البيت بقوله « تخامض : تتخامص ، أي تتجافى عن المشي . الأمعز : الأرض الغليظة ذات الحجارة . الوجى : الحافي وهو هنا صفة للحافي » والذي في لسان العرب نقلا عن ابن السكيت : « الوجى أن يشتكي البعير باطن خفه » ويقول الأعشى في هذا المعنى :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوجل

وقد جاء بيت الشماخ صحيحاً في ديوانه : « تخامص حافي الخيل في الأمعز الوجي » وذكر دي غوية أن بعض النسخ فيها « تخامص جافي الخيل » . ولهما وجه ، جاء في لسان العرب : « جفا الشيء يجفو جفاء لم يلزم مكانه كالسرج ، يجفو عن الظهر ، وكالجنب يجفو عن الفراش »

٣ — ص ٢٦٨ في ترجمة النمر بن تولب : « وهو القائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنا أتيناكَ وقد طال السَّفَرْ نقود خيلا ضُمَّراً فيها عَسَرْ

نُطْعِمُها الشحم إذا عَزَّ الشَّجَرْ والخيلُ في إطعامها اللحم ضررْ

الشحم : يعني اللبن » وعلق الأستاذ على هذا بقوله : « تفسير الشحم باللبن شيء نادر جداً لم أجده إلا للمؤلف » قلت قد ذكر دي غوية أن بعض النسخ فيها نطعمها اللحم . وقد جاء في لسان العرب (١١ : ١٦٢) :

نطعمها اللحم إذا عزَّ الشجر والخيل في إطعامها اللحم ضررْ

إنما يعني أنهم يسقون الخيل الألبان إذا أجدبت الأرض فيقيمها مقام العلف »

٤ — ص ٥٠٦ في ترجمة ذي الرمة : « وكان يوماً ينشد في سوق الإبل شعره الذي يقول فيه : عذبتهن صيدح . وصيدح : اسم ناقته ، فجاء الفرزدق فوقف عليه ... » .

وعلق الأستاذ على ذلك بقوله : « لم أجد هذه الجملة في القصيدة الحائية التي يظن أن تكون منها في ديوان ذى الرمة ، ولكن البيت ثابت في الأغاني » . أقول : بل هي منها كما في ديوانه المطبوع في أوربا ص ٨٧ ، وفي ديوانه المخطوط بدار الكتب ورقة ٢٠٣ . قال ذو الرمة :

إذا مات فوق الرحل أحييت روحَه بذكراك والعِيسُ المراسيل جُنَّحُ

إذا ارفض أطراف السياط وهُلِّت جروم المطـــــايا عذبتهن صَيْدَحُ

وقد اعتمد الأستاذ على الديوان المطبوع في بيروت سنة ١٣٥٣هـ وما كان ينبغي له أن يعتمد عليه وقد ذكر ناشره في مقدمته أنه حذف منـه ما يتعلق بوصف الإبل والفيافي .

٥ — ص ٣١٣ في ترجمة مالك بن الريب : « وهو القائل في الحبس :

أَتلحق بالرَّيْبِ الرِّفاقَ ومالكٌ   بمكة في سجن يعنيه رَاقِبُهْ

شرحه الأستاذ بقوله . « يعنيه . يحبسه حبساً طويلا » والصواب : يعنيه : يذيقه ألوان العذاب ، لأن الراقب وهو ملاحظ السجن لا يملك إطالة مدة الحبس أو تقصيرها ، وإنما يملك ذلك الأمير .

٦ — ص ٥١١ من شعر هشام أخي ذي الرمة .

حتى إذا أَمْعَرُوا صَفْقَيْ مَبَاءَتِهِمْ   وجَرَّدَ الخُطْبُ أَثباجَ الجَرَاثِيمِ

وأَبَّ ذو المَحْضَرِ البَادِي إِبَابَتَهُ   وقَوَّضَتْ نِيَّةٌ أَطْنَابَ تَخْيِيمِ

أَلْوَى الجِمَالُ هَرَامِيلُ العِفَاءِ بها   وبالمنَاكب رَيْعٌ غَـيرُ مَجْلُومِ

شرح الأستاذ البيت الأول بقوله : « أمعروا : أكلوا . الصفقتان . الناحيتان . المباءة : منزل القوم حيث يتبوؤن . الخطب - بضم الخاء وسكون الطاء - جمع أخطب ، وهو الحمار تعلوه خضرة » وهو خطأ لأن الشاعر لم يرد بالخطب الحمير ، وإنما أراد النوق التى كانت ترعى . جاء فى لسان العرب « الخطب جمع خطباء ، وناقة بينة الخطب ، والخطب، والخطبة لون يضرب إلى الكدرة مشرب حمرة في صفرة كلون الحنظلة الخطباء قبل أن تيبس » وشرح البيت الثاني بقوله : « أب : أى رجع . إبابته : أي رجوعه ، يقال أب إلى وطنه نزع » والصواب أن يقال في تفسيرهما أب إبابته : أي نزع نزوعه إلى وطنه .

وشرح البيت الثالث بقوله : « ألوى الجمال : ذهبن . هراميل العـفاء بها حال من الجماعة . الهراميل جمع هرمول - بضم الهاء : قطعة من الشعر . العفاء : ما كثر من الوبر يريد متساقطة الوبر . الريع : الزيادة . غير مجلوم : غير مقطوع » وهذا شرح مضطرب لا يجلو معنى البيت . ولست أدري من أين أخذ الأستاذ أن الشاعر يريد أن يصف الإبل التي شبعت من المرعى بأنها متساقطة الشعر وكيف يوفق بين معنى شطري البيت ! أيجوز أن يقول الشاعر في صدر البيت إن وبرها متساقط من المرعى ثم يقول فى عجزه إن وبرها كثير نام غير مقصوص أو مقطوع ؟ وفى البيت تحريف

يبهم معناه ، فالشاعر لم يقل « ألوى الجمال » كما ذكر الناشران ، وإنما قال « آلوا الجمال » جاء في لسان العرب (١١ – ٣٤) .

حتى إذا أمعروا صفقي مباءتهم ... وجرد الخطب أثباج الجراثيم

آلوا الجمال هراميل العفاء بها ... على المناكب ريع غير مجلوم

آلوا الجمال أي ردوها ليرتحلوا عليها » .

٧ – ص ٥١٣ من القصيدة نفسها :

واسْتَنَّ فوق الحَذارى القُلْقُلانُ كما ... شَكْلُ الشُّنُوفِ يُحَاكى بالهيانيم

الحذارى : جمع حذرية وهي الأرض الصلبة . والقلقلان : النبت

وشرح الأستاذ هذا النص بقوله: «استن : أسرع.» كما شكل « ما » زائدة أراد كشكل الشنوف جمع شنف وهو القرط الذى يلبس في أعلى الأذن . الهيانيم : جمع هينمة وهي الصوت الخفي لايفهم. والقلقلان كما في اللسان: شجر أخضر ينهض على ساق ومنابته الآكام دون الرياض وله حب كحب اللوبياء يؤكل والسائمة حريصة عليه » وهذا شرح قاموسي لايوضح المعنى للقارىء . وإذا كانت « ما » زائدة كما قال الأستاذ فلماذا ضبط شكل بضم اللام ؟ والصواب « كما شكل » بكسر اللام . واستن القلقلان . اضطرب وتحرك . أراد عند ما يبس . وكان من الواجب على الأستاذ أن لا ينقل ماتقله فى تعريف القلقلان عن اللسان، لأنه لايفيد ولايعين على اجتلاء التشبيه ، وأن ينقل بدله ما جاء فى اللسان (١٤ : ٨٣) : القلقلان . نبت ينبت في الجلد وغلظ السهل . وله سنف أفيطح ينبت فى حبات كأنهن العدس فاذا يبس فانتفخ وهبت به الريح سمعت تقلقله كأنه جرس» . فهذا التعريف هو الذي يجلو معنى البيت ويفصح عن وجه الشبه الذي أراغ إليه الشاعر .

أما الملاحظات التى تتعلق بمراجعة الكتاب بالمخطوطات فكثيرة جداً . ولورجع اليها الأستاذ لغير في الكتاب وبدل ، وقدم وأخر ، وبتر ووصل وزاد ونقص ، ولظهر الكتاب فى صورة أخرى . وما أريد أن أذكر أمثلة لما ذكرت ، فقد طال الكلام ، وحسبي أن أذكر بعض المثل الموجزة فى أصلها :

١ – ص ٨ : « فمن أحب أن يعرف ذلك ليستدل به على حلو الشعر ومره نظر في ذلك الكتاب » وفي الأصل المخطوط « . . . يستدل به على علو الشعر وعظيم نفعه وضره نظر في ذلك الكتاب » .

٢ — ص ٩ : « تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، كقول القائل في بعض بني أمية » وفي الأصل المخطوط « إني تدبرت ... كقول الشاعر لبعض بني أمية ، ويقال هو لكثير السهمي في محمد بن علي بن الحسن رضي الله عنهما » .

٣ — ص ٢٠ : « لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب » وفي الأصل « . . . قريب من النفوس ملائم لها » .

٤ — ص ٤٦ : قال الشاعر :

☆ فهبها أمة ذهبت ضياعا ☆ وفي الأصل المخطوط « قال أبو عتيبة بن هبيرة الأسدي : فهبنا أمة هلكت » . وفي نسخة « أبو عقيبة » وفي أخرى « عقبة » .

٥ — ص ١٣٤ « فقال — أي المتلمس — لطرفة : ادفع إليه صحيفتك يقرأها ففيها والله ما في صحيفتي ، فقال طرفة : كلا لم يكن ليجترئ عليّ فقذف المتلمس بصحيفته» . وفي الأصل المخطوط « . . . لم يكن ليجترئ عليّ فإن بني ثعلبة ليسوا كبني ضبيعة فقذف المتلمس . . . » .

٦ — ص ١٨١ « فصف له كسرى ثمانية آلاف جارية صفين » وفي المخطوطة « فصف له كسرى عن يمينه ألف جارية » وقد ذكر دي غوية هذه الرواية ، ولكن الأستاذ لم يذكرها .

٧ — ص ٥١٥ : وقال ظالم بن البراء :

ويوم من الجوزاء أما سكونه فضح وأما ريحه فسموم

ورواية الأصل المخطوط «أما سكونه فصمد» والصمد : «تأثير لفح الشمس في الوجه» .

ولا ينبغي أن ينسينا حديث المآخذ والأخطاء شكر الأستاذ الجليل أحمد محمد شاكر على ما بذل فى نشر هذا الكتاب من جهد عنيف لا يدرك كنهه ولا يعرف قدره إلا من زج بنفسه في هذا المضمار . وحسبه أنه قدم للقراء طبعة لا مثيل لها فيما بين أيديهم من طبعات . وإنا لنتمنى له النجاح واطراد التوفيق فى إخراج الجزء الثاني إن شاء الله تعالى.

السيد احمد صقر

اللغة والمجتمع

تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي
١٤١ صفحة من القطع المتوسط . دار إحياء الكتب العربية. القاهرة ١٩٤٦ .
نقد الأستاذ محمود محمد شاكر

أدق تعريف للغة وأوجزه . فيما أعلم ، هو ما جاء في كتاب الخصائص لابن جني من أنها : « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ، وهو على إيجازه مغن عن التفصيل ، ومصيب حد المقطع في الخلاف ، ومساير لمدارج اللغات منذ نشأتها الأولى إلى أن صارت أوضاعاً محفوظة يقاس عليها . ففيه تحديد الصوت ، وهو أصل الكلام المنطوق كله ، وفيه ذكر الجماعة ، وهم القوم الذين يتفاهمون بينهم بهذه الأصوات المختلفة ، وفيه ذكر الأغراض ، وهي حاجات المجتمع الذي يتفاهم بتلك الأصوات المعينة. وهذه هي حقيقة كل لغة فى كل زمان وفي كل مكان وبين كل جماعة .

ولما كانت أداة الصوت ، وهي الحلق واللسان وما يكتنفهما ، هي بطبيعتها مختلفة في الناس على تباينهم منذ كان الناس ، وكانت الأعراض والعلل التي تلحقها تزيد الاختلاف كثرة وشدة ، كانت الأصوات المعبرة عن الأغراض عرضة للتباين والاختلاف أيضاً . ولامراء في أن الحلق واللسان وعملهما في النطق خاضعة لقانون طبيعي كالقانون الذي اكتشفه الإنسان وأصدر عنه أكثر آلات الموسيقى على اختلاف تركيبها ، وعرف بذلك كيف يبتدع الأصوات ويقلدها ويفسد منها ويصلح .

وكذلك الجماعات أيضاً خاضعة لقانون — أوقوانين كثيرة — تجعل لكل جماعة دستوراً أو دساتير تجري عليه في كل شأن من شؤونها ، وتفضي بها إلى غايات أو نتائج لامحيص عنها . وهذه القوانين تنشىء من الأغراض — أو تنشأ هي من الأغراض — ما تصبح به الجماعة فئة ذات حضارة مدنية على اختلاف الدرجات .

فمن أجل ذلك كان لابد للغة من قوانين تسير بها وتتغير على قواعدها طبقا لما يلحق أداة التعبير نفسها من التغير والتباين ، وبحسب ما تخضع له الجماعة من تطور إلى علو أو سفل ، وتبعاً للأغراض التي تقتضيها طبيعة التبدل التي هي سنة من سنن الله في الحضارات والمدنيات . ومن أجل ذلك نشأ علم جديد يبحث عن هذه القوانين التي

تشمل طبائع الألسنة المختلفة في العصور المتطاولة ، وهو الذي في شأنه ألف الدكتور وافي كتابه « اللغة والمجتمع » .

ولاشك أن علماء العربية القدماء لم يؤلفوا في هذا الباب كتباً قائمة برأسها . وليس معنى هذا أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً من هذه القوانين التي انتهى إليها بحث المحدَثين . كلا ، بل كان في كتبهم ما يدل على أنهم ألموا بأطراف من هـذه القوانين وساروا في بعض أبحاثهم سيرة من يدرك حق الإدراك طبيعة تلك القوانين ومقتضياتها . ولكن كل ذلك من علمهم كان شيئاً مبعثراً في كتبهم وفي مطاوي كلامهم ، ولم يتنبهوا إلى إفراده بالتأليف على النسق الذي انتهى إليه المحدَثون ، وتركوا لمن يأتي بعدهم جهد الإبداع فيما أشاروا إليه أو ألموا به . وكان من أعظم من تعاطى القول في بعض ذلك في تضاعيف كلامه ، فيما أعلم ، الجاحظ أولا ، ثم أبو علي الفارسي ، ثم تلميذه إمام العربية أبو الفتح بن جني ، في كتاب « الخصائص » ، وفي كتاب « سر صناعة الإعراب » ، وفي كتاب « المحتسب في شواذ القراءات » بيد أن انتثار القول هنا وهنا يجعلنا نقضي بأنه لم يكن عندهم « علماً » ولا « فناً » ، بل كان باباً من المعرفة غير مضبوط ولا محصور ولا مترابط .

أما العلماء المحدَثون — من غير أهل اللسان العربي — فقد تدارسوا ما يختلف على اللغات أو أكثرها من تغير وتبدل على مدى عصور متطاولة ، فانتهوا إلى شيء كثير من هذه القوانين التي يخضع لها اللسان في أمم كثيرة ، وصارت اللغات عندهم ظاهرة من الظواهر الطبيعية تدرس على حدتها ، دراسة استقصاء للأطوار التي مرت على مفرداتها ونحوها وإعرابها وبيانها . أما عندنا في العربية فقل ما ألف من الكتب في ذلك ، وندر من شغل نفسه بتتبع مثله في مدارج العربية من أول أمرها إلى يومنا هذا . ولعل رجلا أو رجالا لو تتبعوا ذلك في بلاد العرب كلها أن يهتدوا إلى كثير من خوافي هذا الفن ، فيسدوا بذلك إلى العربية في العصر الحاضر خيراً كثيراً في إصلاح تعليمها ، وتيسيرها على أهل العصر ، وتبسيطها لهم حتى يدرك منها الرجل من عامة الناس ما لا يزال يجد العوائق دونه جمة مستعصية .

وقد أراد الدكتور وافي بكتابه « اللغة والمجتمع » أن ينقل إلى العربية صفوة ما انتهى إليه الرأي في شأن القوانين التي تسير عليها لغات الأرض قاطبة من حيث هي إحدى الظواهر الاجتماعية على اختلاف ألسنة البشر الناطقين بها . وقد قسم رسالته هذه ثلاثة أقسام : الفصل الأول في تطور اللغة وارتقائها . والفصل الثاني فى صراع اللغات بعضها مع بعض . والفصل الثالث في تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات .

في الفصل الأول طوى المؤلف جمهرة العوامل والمؤثرات التي تعمل في تطور اللغة من حالة إلى حالة أعلى أو أسفل ، وهذا الفصل هو أهم الفصول في أمر اللغة . ففيه تكمن العوامل الاجتماعية والأدبية والطبيعية واللغوية التي كان لها أكبر شأن في تحول اللغات من لهجة إلى لهجة ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ومن لغة إلى لغة . ودراسة أسرار هذه العوامل ودراسة آثارها بعد الاستقصاء والتحقيق ، لها خطر أي خطر — لا في معرفة التطور اللغوي وحده ، بل أيضاً في استخراج أشياء من اللغة نفسها بعد تطورها تتيح للباحث أن يقف على أحوال الشعب الذي كان يتكلم بها ، من حيث الحضارة والثقافة والأدب والأخلاق ، وسائر أسباب مدنيته ، وتكشف له الغطاء عن علاقاته بالأمم التي جاورته أو احتلته أو عقدت بينه وبينها أواصر الرحم والقربى . وما كان بينهما من تبادل الثقافات والتجارات والفنون وما سواها .

فمعرفة القوانين التي تخضع لها اللغات في تطورها أمر لا غنى عنه لمن يريد أن يصور تاريخ الأمم الماضية بصور أقرب إلى الواقع . فما أكاد أرتاب في أن علم التاريخ وحده علم « قاصر » لم يلم كل الإلمام بما ينبغي أن يشتمل عليه من الحالات الاجتماعية السائدة بين الناس ، والتي لها فيما أظن أكبر الأثر في حضارة الأمة ، ولعل أثرها في ذلك أعظم وأخطر من أثر الأحداث التي عنيت أكثر كتب التاريخ بجمعها واستيعابها .

وقد أتى في هذا الباب طرف مما يتعلق بآثار هذه القوانين في اللغة العربية ، غير أنه جاء عرضاً ومن ناحية الاستدلال وحده على صحة القانون الشامل لسائر اللغات . وأظنه يكون أجدر بالأستاذ أن يفرد لمثل هذا الشأن كتاباً يتتبَّع فيه العربية ولهجاتها واختلافها على العصور وفي البلدان المتباينة . وذلك لأن إدراك ذلك في اللغة التي يعرفها القارىء أتم معرفة ، يكون أقرب وأسهل منه في لغة أجنبية عنه ، قلما يتاح له أن ينفذ إلى تاريخ ألفاظها نفاذاً يعينه على حسن فهم الموضوع الذي يعالجه المؤلف . وليس في الذي أقول غض من شأن الكتاب في ذاته ، بل هو نقص في المكتبة العربية يجب أن يسده من كان أهلا له وقائماً به . وقد رأيت الدكتور وافي حسن التهدي إلى أشياء من ذلك في كتابه ، فلذلك أحببت له وللعربية أن يتولى تأليف كتاب يغني القارىء العربي عن كثير من فضول القول في لغات لا يسهل عليه أن يضطلع بعبئها مستقلاً ، والفائدة التى تهدى إليه من مثل ذلك خليقة أن تحفز الهمة إلى إنجازه .

أما الفصل الثاني وهو صراع اللغات ، من ناحية نزوح العناصر الأجنبية إلى بلاد فيها لغة قائمة ، ومن ناحية تجاور الشعوب المختلفة الألسنة ، ومن ناحية العلاقات

التجارية والثقافية والأدبية ، فهو أقرب إلى دراسة تاريخ اللغات وما كان من أمرها بين الحياة والموت وبين الغلبة والهزيمة ، وكيف يتم أحد هذين الأمرين للغة على أخرى ، وما هي الأسباب المفضية إلى هذه العاقبة . ومعظم هذه الأسباب كما قال المؤلف نفسه تُرَدّ في أخراها إلى العوامل الاجتماعية التي عالج بحثها في الفصل الأول ، بل هي في الحقيقة شيء لا مفر منه في العالم الاجتماعي كله .

وأما الفصل الثالث ، وهو تفرع اللغة الواحدة إلى لهجات ولغات ، فهو عندي من أقوم فصول الكتاب. ولو كنت مؤلفاً في مثل ذلك لبدأت بهذا الباب أو بأكثره ، لأن اللغة الواحدة تتشعب من أول نشأتها إلى شعب من اللهجات قبل أن يلحقها التطور اللغوي الذي بينه المؤلف في أول كتابه . فعندئذ تتشعب مرة أخرى بعامل من العوامل الكثيرة التي تصطلح عليها حتى تستقل لهجة عن لهجة فتصير إحداها لغة ثانية. والقوانين التي تخضع لها اللغة في انشعابها إلى لهجات هي أصل القوانين التي تخضع لها في انشعابها إلى لغات ، وهي أشبه شبهاً بالقوانين التي تفضي إلى تطورها وارتقائها أو انتكاسها . والمؤلف فيما أظن كان عارفاً بذلك كل المعرفة ، لأنه قدم في أول هذا الفصل ما يفهم منه أنه كالملحق بالفصل الأول ، وجاء في أثناء كلامه ما يجعل الشبه بين الفصلين أقرب ما يكون . ولعل الذي دعاه إلى تقديم الأول وتأخير الثالث خطر التطور اللغوي في تاريخ الألسنة ، وخفاء شأنه في انشعاب اللهجات . وهذا رأي ، ولكنى أميل إلى الذي قلت به .

هذا عرض الكتاب، رأيت أن أقتصر فيه على هذا القدر. بيد أني رأيت المؤلف قد كان يقف من بعض الآراء التي ينسبها إلى أهلها موقف البصير المتعقب ، فكان في تعقيبه في أكثر الأحيان موفقاً غاية التوفيق ؛ وكان في أحيان قليلة يميل به كرم طبيعته إلى ترجيح رأي قال به عالم كانت بينه وبينه مودة سابقة ، أو لعلي مخطىء ، فيكون هو لقربه من صاحبه أنفذ بصراً وأهدى فهماً في حقيقة ما كان يقول به، غير أنه في حجاجه لم يكن مبيناً كل الإبانة عن حقيقة رأيه .

وبقي في الكتاب أشياء كثيرة أخرى لم نتعرض لها بالنقد ولا بالتوضيح ، لأن ذلك يقتضيني أن أكتب فيها كلاماً قائماً بنفسه ، فإن موضوع اللغة متشعب تشعباً يجعل المرء أمضى قلماً في باب التوسع، فلذلك آثرت أن أطوي ذكرها حتى يحين حينها، ونعود فيها إلى بقية آراء المؤلف في سائر كتبه الأخرى ، ليكون الموضوع أملأ بالرأي وأقوم بالحجة .

هذا ، ولابد لقارىء الكتاب من أن ينتهي إلى رأي لا محيص عنه : هو أنه لابد من دراسة اللهجات العامية في البلاد العربية كلها دراسة تبويب وتقسيم وفهم ، ولا بد من رد كل طارىء على هذه اللهجات إلى الأصول القديمة التي لا تزال باقية متوارثة في سلائق الشعوب التي تنطق بالعربية إلى يوم الناس هذا ، وأن نجعل أكبر همنا أن ننتهي إلى معرفة هذه السلائق المشتركة بين العرب على اختلافهم . فإذا وقفنا على ذلك وعرفناه تمام المعرفة ، تيسر لنا أن ننمي هذه السلائق ، وأن نعلمها العربية على هدى من قوانينها الثابتة ، وبذلك تجري العربية يسيرة سهلة على الألسنة ، ونصير في مندوحة عن الخضوع للقوانين التيجعلت اللغة العربية الأولى تنشعب في ميادين المحادثة إلى لهجات متباينة ، على الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت في سبيل صيانتها والاحتفاظ بوحدتها ومحاربة ما يطر أعليها من لحن وخطأ وتحريف (كما قال المؤلف في ص ١٣٢) . بل نقلب الأمر ، ونجعل هذه القوانين خاضعة لسيطرة علماء العربية في تيسير أمرها على متعلمها من أهل اللسان العربي والسليقة العربية . وكفى بهذا غرضاً تبذل في سبيله كرائم الجهود والآراء .

محمود محمد شاكر

التعريف

على هامش الطب

تأليف معالي الدكتور سليمان عزمي باشا وزير الصحة

٣٢٤ صفحة من القطع الكبير . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

تدبير الغذاء أساس صحة الإنسان . والحياة تتطلب الغذاء قبل أي شيء آخر من مقوماتها . والمعدة بيت الداء ، فإذا دبر الغذاء بما يناسب المعدة تفادى الناس شرا كثيراً ، ووقوا أمراضاً قد تذهب بهم . وليس من يجهل أن أولى الناس بعلم هذا ودرسه وتعليمه لهم هم الأطباء ، وهم القوامون على الأبدان وما يصلحها وما يضرها من عرض ومرض .

وهذا الجزء الأول من الكتاب مقصور على تدبير الغذاء وآثاره في جسم الإنسان ، وقد كتبه المؤلف بقلم سهل لين ، يستطيع القارىء المتوسط الثقافة أن يفيد منه فوائد

جمة ، فيعرف ما يضره وما ينفعه ، لا يحتاج إلى التوسع في درس الطب الذي لم يهيأ له ، والذي لا يستطيعه كل أحد . فهو نصيحة خالصة من رجل حجة في صناعته ، ممتاز فيها ، مما يجعل الموضوع ميسراً لكل قارىء ، فإن الرجل إذا لم يكن راسخاً في علمه متمكناً منه ، أعجزه أن يفهم غيره . أما الراسخ المتمكن فإنه يحدثك في دقائق علمه كما يحدثك فى البسائط ، لا يغرب ولا يلغز ، حتى إذا ما تحدث إلى نظرائه في العلم وأكفائه في المعرفة سما بهم إلى ما لا يفهمه إلا الخاصة من أمثاله .

وقد بدأ المؤلف بذكر تجارب الإنسانية الأولى في الاهتداء إلى الغذاء ، وفي تحسينه ، وفي اختيار أيسره هضماً وأكثره فائدة . ثم تدرج بالقارىء إلى تفصيل الكلام في الغذاء ، فبدأ القول بمعلومات أولية أساسية في مواد الغذاء ، وشرح بعض اصطلاحات فنية ليتسنى للقارىء فهم الموضوع بسهولة . ثم أسهب القول في المواد الغذائية مادة مادة ، وقدر ما فيها من فائدة للصحيح وللمريض ، وشرح مسائل الفيتامينات شرحاً وافياً ، وهي أساس الصحة فيما يزعم الطب الحديث ، وفيما دلت عليه تجاربه . وتوسع المؤلف في بيان ما تحتوي عليه كل مادة غذائية من مركبات ، وما في كل جزء من فائدة للجسم أو إرهاق له أو إضرار به .

والكتاب مصدر بمقدمة لمعالي الدكتور محمد حسين هيكل باشا يشير فيها إلى الفوائد العظيمة التي يجنيها القراء من الوجهة الجسمية والوجهة النفسية والروحية .

إيفيجينيا وإجمنت

للشاعر جوتة — ترجمة الأستاذ محمود إبرهيم الدسوقي
١٦٥ صفحة من القطع الكبير . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٤٦

إيفيجينيا هي بطلة لمسرحية يوريبيد اليونانية ومسرحية جوتة الألمانية . وقد استمد الثاني من الأول موضوع روايته في عصر كان فيه التراث المسرحي اليوناني موضوعاً للمحاكاة عند كتاب أوربا وشعرائها .

ومزية جوتة أنه وجد أمامه هيكلاً لقصة يونانية فحافظ على هيكلها وعلى عمقها ، كما حافظ علي وحدة الزمان والمكان والموضوع . ولكنه نقل الصراع عند الشاعر القديم إلى صميم النفس . فكانت إيفيجينيا الألمانية شيئاً غير أختها اليونانية ، فهي تقية صادقة !

وهي رقيقة القلب رحيمة النفس حافظة للجميل، وهي محبة لوالديها وإخوتها، وهي فوق ذلك إنسانة فتانة لا بجمال وجهها ولكن بجمال روحها .

ومن هي إيفيجينيا على كل حال ؟ إنها ابنة أغاممنون . ألقت بها الإلاهة أرتيميس في أرض طوريس على حين ذهب أبوها ليشترك في حرب طروادة .ولإيفيجينيا أخ اسمه «أورست» قتل أمه ، وشردته الأرواح الشريرة إلى أن ينقذ أخته التي لا يعلم مستقرها وتلق به الأقدار مع رفيقه بيلادس في أرض طوريس فتعرفه أخته . وهنا يتجلى صفاء نفسها فتخرج أخاها القاتل من ورطة الشك إلى فسحة الأمل .

* * *

أما إجمنت فهي مسرحية ثانية للشاعر جوتة ، لم يرجع فيها إلى ملاحم اليونان ولا إلى شعرائهم ، ولكنه رجع إلى أوربا في عصر فيليب الثاني حيث كانت الأراضي المنخفضة تتراوح تحت ظلال ملكه . وبطلها « إجمنت » زعيم كبير جملته الصراحة والاستقامة فأحبه الناس ، وأحبته الفتاة « كلارا » فلم تتخل عنه في الساعة التي سجن فيها بتهمة عدم الولاء للملك. وما كان إجمنت خائناً ولا عديم الولاء؛ ولكنه وطني مخلص لبلاده يوم كانت الوطنية لا تعجب الطغاة ولا أذيالهم . . . فدبر الخبيث « إلبا » هذه المكيدة ليتخلص الطغيان من محبي الأوطان .

هاتان مسرحيتان كتبهما جوتة وترجمهما الأستاذ محمود إبرهيم الدسوقي . ولنا من أدب المترجم وأمانته ما تطمئن إليه النفوس ، أما أسلوب المترجم فمتين لولا هذه الأنشودة في صفحة ٩٦ التي حاول المترجم أن يجعلها شعراً فخرجت أخلاطاً من المنظوم والمنثور ، وكذلك كانت أغنية « كلارا » في صفحة ١٢٣ .

السودان القديم والجديد (طبعة ثانية)

تأليف الأستاذ عبد الله حسين المحامي

٥٣٦ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة الشباب الحديثة . القاهرة ١٩٤٦

ألف في تاريخ السودان القديم والحديث كتاب يعد أوفى مرجع في اللغة العربية عن القطر الشقيق . أتمه المؤرخ الجليل نعوم بك شقير منذ أكثر من أربعين عاماً ، في أكثر من سبعمائة صفحة. ولقد حدثت في السودان بعد الأمور أمور منذ ذلك التاريخ، وكتاب شقير باك لم يدرك من هذا القرن إلا ثلاثاً من السنين . ولكن الله شاء أن

يجعل على يد الأستاذ عبد الله حسين وصل هدا التاريخ المنقطع ؛ وأن يلقي عليه عب. التأريخ الحديث ، وخاصة في أعقاب الحركة الوطنية المصرية سنة ١٩١٩ .

ولقد أتيح للمؤلف الفاضل أن يسافر إلى السودان مع أعضاء البعثة المصرية فى فبراير سنة ١٩٣٥ ، فأتاحت له هذه الرحلة أن يرى كثيراً من أمور السودان رأي العين ، وأن يتعرف معها إلى كثير من وجوه الحياة فيه ، وأن يتفقد معها مزارعه ومرابعه ومصانعه ومجامعه .. وأن يعقد بينه وبين إخواننا في السودان صلات من الود. فكانت كتابته عن السودان كتابة من أغنته الرؤية عن السماع .

ولم يدع المؤلف نبأ يتعلق بالسودان أو أثراً يتصل به إلا تعرض له بالشرح والتفصيل ، تسعفه في ذلك وثائق لا تكذب وتسعده دلائل لا تخطىء ، وله من تمكنه في الصحافة قدم راسخة تسعى إلى الخبر في مظنته وإلى الحدث في موضعه .

والحق أننا أحوج مانكون إلى التعرف إلى أشقائنا في السودان ، أما وقد أبعدت المناسبات الشقة بيننا وبينهم، ولم تطو الأرض لنا ولم يَـدنُ بعيدها فلا أقل من أن نجلس ساعتين أو بضع ساعات إلى كتاب عبد الله حسين ندرع فيها سهول السودان وحزونه، ونطوي — على طيات الكتاب — فدافد النيل وروافده ، ونقرأ بين السطور مالم يتح للعين أن تكشفه وللنظر أن يعرفه . وإن كان ذلك أضعف الحب وأدنى مراتب الود ... إلا أنه فضل نسجله للمؤلف الذي أتحف المكتبة العربية قبل اليوم بطائفة من الكتب تدل على مبذول جهده في البحث وموفور نشاطه في التصنيف .

•

الغربال (طبعة ثانية)

تأليف الأستاذ ميخائيل نعيمة بسكنتا (لبنان)

٢٢٤ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

كانت اليقظة الأدبية تحاول أن تفك عقال ذلك الفن الروحي الخالد بعد أن طال به القيد ؛ ونال من جلده الوهن ، ولكن سلطان القديم على البيئة ، وتأصل جذوره ، واشتباك فروعه ، جعل مهمة زلزلته ورجه وإزالته ، غاية في الصعوبة ، فلقد راع زعماء المذهب الجديد في الأدب تلك الألاعيب اللفظية ، وهذه الصولة التي يتمتع بها هؤلاء الحواة الذين يجنون على ذوق الأمة وإحساسها شر جناية بسيطرتهم على ينابيع الأدب ، وهم لا يعرفون من شعره إلا الزحافات والعلل ، ولا يدركون من نثره

إلا ذلك الأسلوب الذي تشيع فيه الصناعة الرخيصة المبتذلة ، من سجع وازدواج ومطابقة ، لا صلة بينها وبين الطبع الموهوب والقريحة الثرّة . أما فهم الأدب ، وجوهر الشاعرية ، ورسالة الشاعر ، ومهمة الأديب ، والإيمان بأنها مواهب وملكات إنسانية سامية ، قبل أن تكون عبثاً بالألفاظ ، وملهاة بسجعات ، وأن لهذه الفنون أصولها وقواعدها وتأثيرها البالغ في النهوض بمعنويات الشعوب، فكل هذا وراء مقدورهم تصوره . في هذا الجو المظلم الراكد انطلقت صيحات المدرسة الحديثة مبشرة بدعوتها ، واضعة موازينها ، راسمة الصورة التي يجب أن يكون عليها الأدب ، وما زالت صيحاتها تتتابع ، وغاراتها تتوالى تترى ، وضوؤها ينتشر ، حتى استطاعت بعد الجهد أن تهدم تلك الأصنام وتديل دولتها . هذا هو الميدان الذي تحمل الأستاذ — نعيمة — مشقة الجهاد فيه ، وكان له من الفضل ما لبعض القادة الذين لهم نصيب المساهمة في الجهاد ، والمشاركة في الانتصار . فالغربال هو دراسات أدبية نقدية لكثير من الآثار الأدبية المعاصرة ، وهذه الدراسات تطبعها المدرسة الحديثة بطابعها .

والكتاب مصدر بمقدمة للأستاذ العقاد يقول فيها : « صفاء في الذهن، واستقامة في النقد ، وغيرة على الإصلاح ، وفهم لوظيفة الأدب ، وقبس من الفلسفة ، ولذعة من التهكم ». ولعل في بيان الأستاذ العقاد ما يكشف عن قيمة الكتاب، ويصور تلك المزايا التي ينفرد بها الأستاذ نعيمة .

• الدكتور كنوك أو انتصار الطب

تأليف جول رومان
ترجمة الأستاذ إبرهيم الكيلاني بدمشق

١٠٩ صفحات من القطع الصغير . دمشق ١٩٤٥

يمثل جول رومان المدرسة الإجماعية « Unanimism » في الأدب الحديث . وهي مدرسة وجدت بذورها الأولى في كتاب بدلير ، فرهارن ، ويتمان ، في الأدب وكتابات لوبون ودركهايم في الفلسفة . وقد تبع نمو هذا المذهب نمو المدن الكبيرة، إلى أن استقر في الأدب على يد جول رومان الذي كانت آثاره في الشعر والمسرحية والرواية مستمدة من هذا المذهب .

ومسرحية « انتصار الطب » التي ألفها جول رومان سنة ١٩٢٣ خير مثال لهذا

المذهب ، وإن كانت لا تقل عن بعض مسرحياته ورواياته الأخرى مثل « الجيش في المدينة » التي كتبها سنة ١٩١١ و « موت بعض الناس » التي كتبها في العام نفسه .

والدكتور كنوك بطل المسرحية، وإن كان كل من فيها أبطالاً حتى هؤلاء المرضى الذين يترددون على عيادته . ولكنه لا يحمل إجازة في الطب ولم يتلق فيه علماً . . . إلا هذه الاعلانات عن الأدوية والعقاقير وطرق استعمالها . . . ومن عجب أنه اشترى عيادة الدكتور بربليد الطبيب المجاز في مهنته وحل محله فى قرية سان موريس . وهنا يصف المؤلف براعة الدكتور كنوك في إيهام أهل القرية جميعاً بأن أجسامهم مباءة لكثير من الأمراض .. وكان يتحسس دخل عملائه بطريقة يعجز عنها جباة الضرائب.

والمؤلف متهكم أشد التهكم حين يصور غفلة الجماهير وانصياعهم لأوهام يشيعها أدعياء الطب في نفوسهم .

لقد خلت هذه المسرحية الفاتنة من عنصر الحب ودوافع الغرام . وبطلاتها من نساء لم يجعلهن المؤلف هدفاً لعواطف الرجال ، ولكنهن مريضات أو ممرضات لم يكن من وجودهن بدّ لتتم للمسرحية عناصر الطرافة والفكاهة والتغفل التي أداها جول رومان أحسن أداء ، فنقلها إلى العربية الأستاذ إبرهيم الكيلاني نقلاً حسناً جلا به لقراء العربية ناحية من نواحي التفكير الغربي .

صَدَى النّقد

الفائق في غريب الحديث

رد على نقد بقلم الأستاذ علي محمد البجاوي

قرأنا في العدد الأخير من مجلة الكتاب نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن كتاب الفائق الذي أخرجناه أخيراً .

وإننا لنشكر للأستاذ ما تفضل به علينا من ثناء ، ونقدر له إشادته بما بذلنا في الكتاب من جهد ، ونسارع إلى الاعتراف بأنه كان ناقداً نزيهاً غايته — كغاية مجلة الكتاب — الإصلاح ، وناصحاً أديباً ، يعرض آراءه في حذر ورفق ، وذلك شأن العلماء الذين لا يرصدون المآخذ وحدها ، ولكنهم يشيدون بالفضل إن وجدوه ، ويرشدون إلى الخطأ إن عثروا عليه .

والحق أنه لو سار النقاد سيرته لبلغ الكتاب العربي أسمى ما نحب من تجويد وإتقان .

ولما كنا جميعاً ننشد للكتاب العربي الكمال ، فلا بأس من أن نقدم بين يدي القارىء هذه الكلمة لتستبين وجهة نظرنا في بعض المآخذ ؛ ولن نحاول أن ننفي عن أنفسنا الخطأ حين حققنا كتاباً تبلغ صفحاته السبعمائة ، فالعصمة لله وحده ، ولكننا نأمل أن نخفف من شدة المؤاخذة ـ كما يقول الأستاذ :

١ — هال الأستاذ أن نخرج الكتاب من غير أن نعتمد على مخطوطاته ، ويرى أنه كان يحسن تأخير الكتاب حتى نعثر على هذه المخطوطات .

وقد كان من أعز أمانينا أن نظفر بمخطوطات الكتاب ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه — كما يقال .

والأستاذ يعلم أن كتاب الزمخشري كان من أهم المراجع التي استقى منها ابن الأثير ، ويمكن أن يقال : إن كتاب الزمخشري أكثره منثور في النهاية ، ويعلم الأستاذ أيضاً أن لسان العرب نقل ما في النهاية ، لذلك رأينا أن هذين الكتابين — وهما على ما نعلم جميعاً من التحقيق — مرجعان هامان للكتاب يمكن الاعتماد عليهما بعد الرجوع إلى كتب الأدب والحديث واللغة .

نقول هذا ليطمئن الأستاذ وليثق أننا بحثنا ، وما زلنا نبحث ، عن مخطوطات الكتاب ، ولعلنا نهتدي إليها .

٢ — قال الأستاذ :

في صفحة ٢١ : « وعن أهل المدينة : إنهم كانوا يرون هذا الرأى .

والصواب أنهم بفتح همزة أن . وقد تكرر هذا الخطأ كثيراً في الكتاب » .

ورأينا أن مثل هذا التعبير يجوز فيه كسر همزة « إن » على اعتبارها وقعت في أول الكلام ، وهذا ما حدا بنا إلى كتابتها على هذا الحال كثيراً .

٣ — وقال : « وفي صفحة ٢٦ : الآنك : الأسربّ . وفي الهامش : ليس في الكلام على فاعل غيره ، وكلمة آنك على وزن أفعل لا على وزن فاعل . وليس في الكلام على أفعل غيرها ، وغير أشد التي في قوله تعالى : فلما بلغ أشده » .

ومرجعنا فيما كتبناه بالهامش لسان العرب والنهاية لابن الأثير ؛ فقد جاء في اللسان مادة ـ أنك : « الآنك : الأسرب ، وهو . . . . وقال كراع : ليس في الكلام على مثال فاعل غيره » جزء ٦ صفحة ٢٧٤ .

وجاء في ابن الأثير — مادة : أنك أيضاً — بعد أن أورد رأى القاموس الذي أشار اليه الأستاذ : «وقيل يحتمل أن يكون الآنك فاعلا لا أفعل ، وهو أيضاً شاذ» .

ونحن لا نخطىء الأستاذ ، ولكن ندله على مرجعنا في الرأي الآخر في وزن هذه الكلمة .

٤ — قال الأستاذ : « وفي صفحة ١٥٨ هذا الرجز :

✡ كنا ذوي ثمه ورمه ✡ . وهذا الشعر من بحر الرجز ، والشطر الأول منه مكسور على روايتهما ، ولا يستقيم إلا بروايته على الوجه الآتي :

كنا ذوات ثمـة ورمه ويؤيده أن المتكلم امرأة لا رجل » .

ونريد أن نقول في الرد على هذا النقد : إن هذه ليست روايتنا ، ولكنها رواية الزمخشري في الفائق ، ورواية اللسان — مادة ر م : جزء ١٥ صفحة ١٤٦ ، وقد رواه صاحب اللسان هكذا مرتين في صفحة واحدة ؛ مرة عن شمر ، وأخرى عن أبي منصور . هذا هو مرجعنا في هذا الرجز ، فلم تكن الأبيات من روايتنا ، وإنما هي من رواية الزمخشري وابن منظور عن شمر وأبي منصور .

٥ — وقال : « وفي صفحة ١١٦ هذا البيت :

ووطئتنا وطأة على حنَقٍ . . . . والشطر الأول منه مكسور وصوابه :

ووطئتنا طِئة على حنق . . . . ثم فسر كلمة طئة » .

وهذا البيت فيه خطأ مطبعي وقع أثناء طبعنا الكتاب ، وليست رواية البيت كما رأى الأستاذ ، بل الرواية الصحيحة :

ووطئتنا وطأ على حنق . . . . كما ورد في اللسان ـ مادة هرم : جزء ١٦ صفحة ٥٩ ، ومادة وطأ : جزء أول صفحة ١٩٢ .

٦ — وقال : « وفي صفحة ١٧٥ : جدب الثمر بعد العتمة » ويأخذ علينا أننا كتبنا في الهامش : « في اللسان السمر » . قال : ومعنى هذا أن رواية اللسان لم تعجبهما » . ونريد هنا أن نقول : إن معنى هذا أن رواية الزمخشري لم تعجبنا ، ولو كنا مقتنعين بصحتها ما أشرنا إلى رواية اللسان .

٧ - قال : « وفي صفحة ٢١٦ هذا البيت :

حتى انتهينا ولنـــا غاية من بين جماع وغيرَ جماع

وذكر المحققان رواية اللسان :

حتى انتهينا ولنـــا غاية من بين جمع وغير جُمَّاع

وهي أصح وأصوب لصحة الوزن ولم يشيرا إلى ذلك » وهكذا أورد الأستاذ البيت الأول في نقده ، فقد ضُبطت غير بالفتحة ، مع أننا لم نضع هذه الفتحة في كتابنا ، كما أنه وضع واواً قبل غير في البيت الثاني ، وليس في كتابنا ولا في لسان العرب ذكر لهذه الواو .

ولا شك أن هذا خطأ مطبعي في مقاله ، مما يطمعنا في تخفيف مؤاخذته ؛ فمقاله معدود الصفحات ، ومع ذلك لم يسلم من الأخطاء المطبعية .

٨ — وقال : « وفي صفحة ٢٤٩ : فلو كتبت اليه أذبحُ لأهل المدينة شاة . وصواب الفعل اذبحْ هنا أن يكون على صيغة الأمر » .

ولم نضع في كتابنا ضمة علي الحاء ، ولا ندرى من أين جاءت ، ولعلها من أخطاء الطبع ، فلا يظن الأستاذ أننا أردنا أن تكون هذه الكلمة فعلاً مضارعاً ، بل كل ما في الأمر أن همزة ندّت عن نظرنا حين الطبع . وكثيراً ما يفوت المصحح مثل هذا . والجملة على ما نعتقد لا تحمل إلا أن تكون الكلمة فعل أمر ، فالعبارة بتمامها : « فأما أبو بكر بن حزم فلو كتبت اليه اذبح لأهل المدينة شاة لراجعني فيها أقرناء أم جماء » ؟ — والكلام لعمر بن عبد العزيز .

٩ — وقال : « وفي صفحة ٣٣٧ : وهي سِمَتْنا اليوم ، والصواب سِمَتُنا » . وشرح الأستاذ لكلمة سمة يدل على أنه لم يعتبرها خطأ مطبعياً .

ونرجو الأستاذ أن يرجع إلى السطر الثالث قبل هذه العبارة فيجد هذه الكلمة مضبوطة بالضبط الصحيح ، فأول الفقرة : صفحة ٣٣٧ السطر الرابع : « فأمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يسم إبله في أعناقها قيد الفرس . . . .

قيد الفرس : سمة . أنشد أبو عبيد :

كوم على أعناقها قيد الفرس تنجو إذ الليل تدانى والتبس

قال صخر : وهي سمتنا اليوم ، وصورتها أن تحلق حلقتين وتمدّ بينهما مدة » .

فنحن قد ضبطنا الكلمة مرة وفعلها مرة أخرى في نفس العبارة مما يدل على أنها خطأ مطبعي .

١٠ — وقال : « وفي صفحة ٤٥٨ جاء هذا البيت على هذه الصورة .

بحمد من سنانك لا بذم أبا قـران متّ على مثال

قال : وهو وضع غريب لا يفهم من هذا البيت » . والوضع الذي آخذنا به الأستاذ إبعاد الألف والنون عن الراء في كلة قران . ومثل هذا يفوت المصحح كثيراً

حين الطبع من غير أن ينتبه اليه ؛ ولا شك أن هذا هو السبب في أن البيت الآتي في مقال الأستاذ وضع على هذه الصورة :

صلخدا لوان الجن تعزف تحته . . . .

وهو أيضاً وضع غريب لا يقرأ معه البيت . نقول هذا لنعذر للأستاذ .

١١ — وقال : « وفي صفحة ٤٧٨ هذا البيت :

ضربت بالمرسب رأس البطريق بصارم ذي هبة فتيق

بكسر القاف ، والصواب أن تسكن القاف » . وليست هذه روايتنا ، ولكنها رواية اللسان للبيت ، مادة رسب ، صفحة ٤٠٢ جزء أول .

١٢ — وقال : « وفي صفحة ٥٠٩ رواية شمَر ؛ والصواب شمِر » .

وهو خطأ في الطبع بدليل أن هذا العلم نفسه قد جاء مضبوطاً بالضبط الصحيح الذى أشار اليه الأستاذ في صفحة ٤٨٠ سطر ١٢ ، وفي صفحات غيرها .

١٣ — وقال : « وفي صفحة ٥٧٠ :

تنادوا يا لبهثة إذ رأونا فقلنا أحسني ملاءً جهينا

والصواب ملأً » .

وكلام الأستاذ حق ، وهو خطأ مطبعي ، بدليل أنا أشرنا إلى مرجع البيت ، وزدنا في صلب الكتاب اسم قائل البيت ، وكتبنا في الهامش : « من اللسان » . والبيت في اللسان كما قال .

١٤ — وقال : « وفي صفحة ٥٧٢ :

فردّي فؤادي أو أثيبي ثوابه فقد يملك المرء الكريم فيسجح

والصواب فيُسجح بضم ياء المضارعة لأن الفعل رباعي » . ورأينا في هذا أن الفعل ثلاثي ورباعي ، فقد جاء في اللسان : « السجح : لين الخد ، وخد أسجح سهل طويل ، وقد سجح سجحاً ، وخلق سجيح : لين سهل » . وإن كنا نوافق الأستاذ على أن الفعل الرباعي معناه هنا أوفق .

وقد يرى الأستاذ أننا اعتمدنا في كلتنا هذه على المراجع اللغوية خصوصاً اللسان ، ولنا عذرنا ؛ لأن لسان العرب من أمهات الكتب التي يعتمد عليها كل محقق ، والأستاذ نفسه اعتمد عليه كثيراً في نقده ؛ ولأننا لا نستطيع أن نسير في مضماره ، ونجاريه في علمه بالعروض ووزن الشعر ، فهو فنه الذي لا نشق له غباراً فيه .

وللأستاذ بعد ذلك نقد سديد ، ينبىء عن غزارة علمه وسعة اطلاعه ، نعترف له بالتوفيق فيه ، ونقدم له موفور الشكر .

أما رجاؤه أن نضع فهرساً للألفاظ آخر الكتاب ، فليثق الأستاذ أننا عند حسن ظنه ، وسنختم الجزء الثاني ـ إذا أمدَّ الله في حياتنا ـ بتصحيح الأخطاء المطبعية والاستدراكات التي فاتتنا عند الطبع ، والفهارس الكاملة للكتاب ، وسيكون من بينها فهرس الأنماط، إن شاء الله .

على محمد البجاوى

أسس الصحة النفسية

تعليق على نقد

بقلم الدكتور عبد العزيز القوصي

قرأت في العدد السادس من مجلة الكتاب تعريفاً بكتابي (أسس الصحة النفسية) وإني أشكر لصديقي الأستاذ الدكتور الأهواني العبارات الطيبة التي قدم بها الكتاب . وقد قرأت إلى جانب عبارات إبداء المحاسن عبارات أخرى رحبت بها كثيراً ، فإن كتاباً مهماً بلغت قيمته لابد أن يكون فيه بعض أوجه النقص .

ولكن لي ملاحظات على ما كتبه الدكتور عن هذا المؤلف ، أجملها فما يأتي :

أولاً : يذكر الدكتور أن هذا الكتاب يهدف إلى تزويد المعلم بالثقافة النفسية اللازمة في فهم مشكلات الأطفال والشباب . ولكن الكتاب وضع ليفهم الكبار عامة معلمين وغير معلمين من معهم من الأطفال . وإلا فما حاجة المعلم الماسة لدراسة (مشكلات النوم) و (مشكلات التغذية) و (مشكلات التبول اللاإرادي) و (مص الأصابع) وما إلى ذلك من فصول الكتاب .

ثانياً : يقول الدكتور في صفحة ٦٧٢ : « ولست أفهم السر في تعلق أساتذة معهد التربية بنظرية مكدوجل في الغرائز وتهافتهم عليها » . ويجاب عن هذا بطريقتين :

أولاهما ــ أن نظرية مكدوجل نجحت في تفسير مظاهر السلوك . ومفهوم أن النظرية العلمية تظل قائمة مادامت تفسر ما لدينا من الحقائق ، ولا يتناولها الرفض أو التعديل إلا متى ظهر فشلها في ذلك . على أن الذين لا يريدون الأخذ بنظريةٍ مّا عليهم

دائماً أن يتقدموا إلينا بنظرية أخرى ، لنوازن بين النظريتين ونختار أفضلهما . أما الإقلال من قيمة نظرية والاكتفاء بذلك فإنه أمر لا يقبله من يشتغل بالعلم اشتغالاً جدياً . وأما الرد الثاني على هذه النقطة فهي أن هناك مناقشة دامت ثلاث سنوات على صفحات British Journal of Educational Psychology ، وكانت تحت عنوان Is the Instinct Theory dead ? وانتهت هذه المناقشة حديثاً جداً (عام ١٩٤٣) ، واشترك عمداء علم النفس في مختلف البلدان والميادين ، ومنهم ثورندياك وبيرت وبير ومايرز وفلوجل وفرنون وغيرهم ، وقد لخص المناقشات الأستاذ بيرت ، الأستاذ العالمي المعروف لعلم النفس ، بأن قال : إن نظرية مكدوجل ما زالت قائمة ، غير أنها تحتاج إلى تعديلات طفيفة في التفاصيل ، كحتمية الصلة بين الغريزة والانفعال . . وما إلى ذلك . فإذا اطلع الدكتور الأهواني على هذه البحوث فإنه لا شك يكون أكثر إنصافاً لمعهد التربية وأساتذته . على أني لم أغفل الإشارة إلى هذه البحوث والمناقشات التي جرت إلى ١٩٤٣ في كتاب الصحة النفسية ، ولا شك أن الدكتور الأهواني سيكون أكثر تقديراً لتمسك واحد مثلي بنظرية مكدوجل ، هذا على الرغم من وقوفي على كل ما يكتب ضدها وهو ليس بالقليل .

ثالثاً : يرى الدكتور الأهواني رغم كل ما تقدم أنه من المعقول اعتناق نظرية مكدوجل لدراسة المظاهر النفسية العادية ، واعتناق نظرية فردية لدراسة المظاهر الشاذة ولكن من المعروف في مناهج البحث العلمي أن العلم يهدف عادة إلى وضع نظرية واحدة لفهم المظاهر العادية والشاذة ، وهذا هو السرّ في أن فرويد نفسه كتب كثيراً جداً عن تفسيره للمظاهر العادية ، وهو السر أيضاً في أن مكدوجل نفسه كتب كذلك كثيراً جداً في المظاهر المرضية . ومواضع الصفحات في مراجع كل منهما موجودة لا يتعذر الاطلاع عليها .

رابعاً : ما كنت أحب أن يستشهد الدكتور الأهواني باستشهادات أدبية صرفة ، كبيت شعر ، للرد على مبحث علمي قائم على عدد كبير من الحقائق ، كما حدث في صفحة ٨٧٤ . وليس معنى هذا أني أنكر صحة الحقيقة التي يحملها بيت الشعر الذي قاله المغفور له حافظ إبرهيم ، ولكن بيت الشعر في موضوع والكتاب في موضوع آخر . وأخالفه فيما ذكر من أن أساس العيب في مصر هو تفاوت الثقافة بين الرجل والمرأة ، فكم من امرأة تبدو جاهلة غير مثقفة بالمعنى الذي يفهمه الناس قد أحسنت تربية أولادها ، وكم من امرأة مثقفة أساءت تربية أولادها . والمسألة ليست مسألة ثقافة أو معرفة ، وإنما المسألة

مسألة حكمة في المعاملة . على أني لا أنكر أن تفاوت الثقافة أحد العوامل ولكنه ليس العامل الوحيد . ومع ذلك فقد أشرت إلى وجوب اتفاق الوالدين على طرق التربية ، وبينت ما ينشأ عن غير ذلك . وأعتقد أن في هذا ما يكفي . .

وأراد الدكتور أن ينكر أهمية ترتيب الطفل في الأسرة ، ولكن هذا موضوع فرغ منه الأئمة من علماء النفس ، أمثال أدلر وفلوجل والمئات من تلاميذهم ، وقد برهنت عليه بعدد كاف من الحالات . على أني لم أذكر قط أن ترتيب الطفل في الأسرة هو العامل الوحيد في تكوينه ، وإنما ذكرت دائماً أنه عامل هام إلى جانب العوامل الأخرى .

خامساً : جاء في صفحة ٨٧٥ أن النزوع إلى الهرب أسبق من حدوث الخوف ، وقال إن هذا يتفق مع رأي مكدوجل . مع أن مكدوجل قد عقد فصلاً طويلاً في كتابه Outline of Psychology من صفحة ٣٢٦ إلى صفحة ٣٢٨ لهدم هذا الرأي من أساسه . وما كنت أحب أن يستشهد الدكتور في هذا بالآية الكريمة : (لوا طلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً) والأسبقية في ذكر الفرار على ذكر الرعب وعطفهما معاً بواو العطف ليس معناه إطلاقاً أسبقية في الحدوث . وهناك أدوات للعطف تفيد الأسبقية في الحدوث مثل « ثم » ولكن الواو ليست واحدة منها على أي حال .

سادساً : أرى أن أقدم الاعتذار للدكتور الأهواني لأن ما استشهدت به من حالات لا يمثل الواقع دائماً تمثيلاً حقيقياً ، فتقع السجلات الأصلية لدراسة الحالة الواحدة عادة في صفحات مطولة ، وقد وصل عدد صفحات الحالة الواحدة أحياناً إلى ما يقرب من المائة صفحة . فإذا اختلف معي الدكتور في تفسير إحدى الحالات كما حدث في صفحة ٨٧٦ فسبب الاختلاف هو أني لم أقدم له إلا بضعة أسطر عن حالة تقع دراستها في عشرات الصفحات وإذا أنا أردت أن أقنعه فإن الكتاب سيقع في حجم لا يمكن تصوره بحال من الأحوال .

وأكتفي الآن بذكر هذه الملاحظات ، وأترك ما عداها لمناسبة أخرى . وأشكر الأستاذ الصديق لتعطفه بالكتابة عن هذا المؤلف . وأشكر له الطريقة التي اتبعها حتى يستخلص مني هذا الرد ، لكي أوضح بعض النقط بالصورة التي بينتها في هذه الكلمة .

عبد العزيز القوصي

البيـادر

رد على رد

بقلم الأستاذ سيد قطب

ليس لي أن يكون نقدي لكتاب مّا حكماً نهائياً لا تعقيب عليه . فمقال النقد — في اعتقادي — هو عمل فني قابل للنقد !

ولكني أطلب الأمانة في التعقيب ، كما أطلب أن يكون العمل الفني وحده هو مناط الجدل مجرداً عن جميع الملابسات .

وقد كتبت عن كتاب « البيادر » في عدد فبراير من « مجلة الكتاب » فوفيته حقه حسبما اعتقدت ، وامتدحت اتجاهه لتقرير روح الشرق وطبيعته ، ثم انتقدت بعض موضوعاته من حيث مستواها كما انتقدت وضوح « الذهنية » فيه .

وفي العدد الماضي من « الكتاب » جاء الأستاذ « خليل هنداوي » يعقب على نقدي فيقول :

« يرى الأستاذ قطب أن هاتين القطعتين (البيادر والصخور) قد انحطتا بانحطاط موضوعهما . ولكن متى علت الفكرة بمجرد علوها ، وانحطت بمجرد انحطاطها ؟ ونحن ندرك أن الفنان الحقيقي هو من يرى في الشيء البسيط الحقير عالمه كله ومن كانت عينه النافذة تهتم بهذه الأشياء التي تقتحمها عيوننا ... إلخ » .

ثم انتقل من الثناء على قطعتي « البيادر والصخور » إلى تعليل اختلاف الحكم بيني وبينه ، فرد هذا إلى أنني مصري !

ثم تحدث عن الأسلوب المصري الواضح والأسلوب اللبناني الغامض فقال :

« سيكون خلاف بيننا يسير حله ، إذا قدرنا أن نفرق بين أديبين اثنين : أحدهما لا يزال يستمد مثله الأعلى من نماذج سابقة ، يخضع لها صوره وطريقة تفكيره ونحت عباراته واستعاراته . وآخر يأبى إلا أن يستقل بصوره وتفكيره ونحته غير مستجيب إلا لطبعه » .

ثم يقول :

« فما يراه ناقدنا مثلا في مقالي « البيادر والصخور » يراه من في لبنان على

عكس ذلك ، لأنهم يحسون جمال هذه الصور وروعة هذا التمثيل . وقل مثل هذا القول في كثير من الأدب المصري الذي لا يروق بعض الأدباء والقراء عندنا ! ومن ذلك كانت الطريقة المصرية إلى الأسلوب المجرد الواضح أدنى ، لأنها لا تحفل بالخيال إلا بقدر ضئيل . والطريقة الشآمية اللبنانية إلى الأسلوب الخيالي أقرب ، لأن الخيال الملازم لطبيعتها ملازم أيضاً لتفكيرها . وكثيراً ما إذا أراد الأدب المصري الخيال طفر إليه بطريق العقل فلا يأتي الخيال بصورته الحية . وإذا أراد الأدب اللبناني الخيال جاءه غير محدود ولا مكدود ، لأن الخيال طبعه الذي تلقنه من الطبيعة . فلذلك ينوء المصري بأسلوبنا الخيالي وطريقتنا الغامضة . وننوء نحن بأسلوبه المجرد ... »

***

وأنا أكره أن أتناول مسائل الفن والأدب بمثل هذه الروح التي يصدر عنها الأستاذ خليل هنداوي ، والتي سبق أن أثارتها جماعة معينة في « لبنان » ، ثم خفتت وماتت كما تستحق أن تخفت وأن تموت !

كذلك أحب أن أمر بالغمزات الكثيرة المبثوثة في المقال لذوقي الفني وإحساسي بالجمال ، وقصوري عن إدراك ما يعنيه مؤلف البيادر بالبيادر ، واستعاذة الأستاذ هنداوي أن يعتقد أن « البيادر » مجرد سنابل من القمح !.. أي أن يكون فهمه لها كفهمي !

أمر بهذا كله لأسأل الأستاذ : من أي جملة في مقالي فهمت أنني أرى قطعتي البيادر والصخور قد انحطتا بانحطاط موضوعهما ! حتى ترتب على هذا الفهم كل الفقرات التالية في مقالك ؟

ليس الموضوع هو الذي كان في حسابي ، ولكنها طريقة علاج الموضوع . وأنا أرى أن مؤلف البيادر يظل موفقاً ما ظل يواجه المسائل مباشرة ، فإذا مال إلى الرمز والإيماء فارقه التوفيق — كما قلت في مقالي — لا لأن الوضوح أفضل من الرمز ، ولا لأن العكس صحيح ، كما يريد الأستاذ أن يرتب الأمور لرفع قوم وخفض آخرين ! ولكن ، لأن ميخائيل نعيمة موهوب في طريقة الوضوح ، وليس موهوباً في طريقة الرمز والإيماء . على عكس « جبران خليل جبران » مثلا . وكلاهما من لبنان !

وقد عالج مؤلف البيادر مسائل « الشرق والغرب » وسواها في الكتاب بأفضل مواهبه فنجح . لا لأن « الموضوع » عال أو عظيم . ولكن لأنه عالجه بأفضل مواهبه . وقد عالج موضوعات أخرى في الكتاب بأضعف مواهبه ففشل ، لا لأن الموضوع منحط ، ولكن لأنه عالجه بأضعف مواهبه كذلك .

أما أن الأستاذ « خليل هنداوي » يعجب بالصخور لأنه يعرف جبل « صنين » ويعجب بالبيادر لأنه يشهدها في لبنان . فذلك خلط بين حب المنظر والحكم على صورته الأدبية . والناقد يجب أن يتجرد من مثل هذه الملابسات ليجيء حكمه على الصورة الفنية صحيحاً غير مختلط بملابسات خارجية .

أما الكلام عن الخيال الغامض في لبنان ، والتجريد الواضح في مصر ، ليكون هذا علة عدم إدراكي للجمال في مقالي البيادر والصخور ، فهو عجيب !

عجيب لأن أشد ما انتقدته على كتاب البيادر أن « هناك تلاعبات لفظية وذهنية تقلل من الأصالة الفنية والصدق الشعوري في الكتاب في بعض الأحيان ، ولعل هذه الظاهرة هي التي تعوق هذا الكتاب أن يرتفع إلى مستوى الأعمال العظيمة ، لأن القارىء يحس عندها أنه أمام ذهن يعرض المسائل الروحية ، لا أمام طبع يفيض وشعور يتدفق . وقد يجد في هذا العرض براعة ودقة وتوضيحاً للمسائل التي يتصدى لها في مستوى يعجب ، ولكنه يظل في حاجة إلى عنصر آخر ؛ عنصر الطبع الدافق الفياض » .

فالذهنية هي التي أخذتها على الكتاب ؛ وكان يجب — حسب منطق الأستاذ هنداوي — أن تعجبني لأنني مصري يعجبه تجريد الذهن الواضح ! والطبع الدافق والفيض الروحي هما اللذان أفتقدتهما في الكتاب ، وكان يجب — حسب منطق الأستاذ هنداوي — أن لا أفتقدهما بحال ، لأنهما خاصة لبنانية ؟

والأستاذ هنداوي ينشر مقاله هذا في مجلة الكتاب ؛ وفي عددها الذي سبق مقاله مباشرة ، كلمة لي عن الصور والمعاني ، أو الحس والذهن في الشعر ، لا يبقى بعده مجال للخطأ في حقيقة اتجاهي ، وفي دعوتي إلى إبعاد الذهنيات بقدر الإمكان عن البروز في الفنون .

وأخيرا تجيء قصة التجديد والتقليد . فأحب أن أقول للأستاذ : أن ليس التقليد المقيد طبيعة مصرية ، ولا التجديد المنطلق طبيعة لبنانية في كل حال . إنما هي طبائع الأفراد هنا وهناك . وأذكر الأستاذ هنداوي بأن أهم أعماله الفنية وهو كتاب « سارق النار » قد سبقته إلى الوجود المسرحيات الرمزية لتوفيق الحكيم !

سيد قطب

دنيا القصص

يقظة الرّوح

للأستاذ حسين محمد القباني

١

كانت سعاد في ذلك الصباح وهي تسير مطرقة تشبه « ديانا » إلهة الصيد ، يختفي وجهها الوضاح الجميل بين أمواج شعرها الداكن المنهدل ويتهادى ثوبها الأبيض الطويل فيلمس العشب عند أقدامها ؛ وكانت غزالتها الصغيرة « سميحة » تخب وراءها في صمت وسكون كأنما تحس بما يثور في قلب سيدتها من شجن . وكانت أعواد الحنطة تموج على الجانبين كأنها أطياف من ذهب تسبح في نور الشمس .

وبلغت سعاد ربوة عالية فوقفت تمسح رأس غزالتها الوادعة ، وتهمس لها في حنان :

— هيا يا سميحة ، مالك لا تلعبين ولا ترتعين ، ألأحزاني صدى في قلبك الصغير ، أم إنك أيضاً تحبين بغير أمل ولا رجاء ؟

وأطرقت سميحة ومضت تمسح جيدها الأتلع في ثوب سعاد ، فرفعت هذه رأسها ، وأزاحت خصلات شعرها ، وتلفتت حولها وتنهدت من قلب حزين . . . فلقد كانت تمتد أمامها مزارع الحنطة ، وكان هناك عند الأفق دار أبيها النافرة ذات الحديقة الزاخرة بالزهر والثمر وحظائر الغزلان ، وكان هناك عن يمينها بعض الزراع يعملون في الأرض الطيبة ، وعن يسارها قطيع من الماشية تشرف عليه أعرابية جوالة ، ووراءها ساقية متصلة الأنين . . .

كانت سعاد ترى هذا كله ، ولكن عقلها كان لا يفسر شيئاً مما ترى ؛ وكانت آذانها تسمع أنين هذه الساقية ، وثغاء شاة في تلك الناحية وهمس نسائم الربيع ،

وحفيف أجنحة الفراش ، وتغريد هذا العصفور الوحيد فوق الشجرة ، ولكنها كانت في شبه ذهول عن هذا كله ، كانت تشعر أن حولها سكوناً عميقاً ، يزداد عمقاً كلما ازداد قلبها خفقاً ، وكلما تراءى أمام عينيها الحالمتين ، ذلك العالم الآخر الذي ما فتئت تعيش فيه خلال الأيام الأخيرة . . . عالم من النور الأرجواني ، تسبح فيه أطياف شفافة بيضاء ، يومض في وجوهها الابتسام الساخر ، وتحمل في أيديها أقواساً وسهاماً تخضبت بنجيع القلوب . . .

« سامي . . . سامي . . . سامي . . . » إن سعاد لتردد الاسم في يقظتها الحالمة ، ثم يحمر وجهها ، وتتلفت حولها . لا . . ليس هناك من يسمع هتاف قلبها — إلا سميحة - وإلا هذا العصفور الوحيد فوق الشجرة ؛ وإن سعاد لترفع إليه عينيها ، فتخنقها الدموع ويخيل إليها أن شدوه بكاء ، وأنه أيضاً يحب دون أمل ولا رجاء .

رأته أول مرة أصيل ذلك اليوم منذ نحو شهرين ، كانت حينذاك في حديقتها تستقبل أول زهراتها المتفتحة عند ما هبط من السيارة ، فاستقبله أبوها ، ثم قدمه إليها . كان طويلا نحيلا ذا وجه شاحب معروق وعينين روعتا قلبها .

من هو . . ؟ ولما ذا جاء . . ! ! وماذا يعمل ! . . وكم يقضي من وقت ! ! إنها لا تعرف شيئاً من هذا إلا أنه سامي (بك) وأنه يقيم في العاصمة ، وأن والده كان زميلا وصديقا لعمها الدكتور وجدي ، وأنه جاء ليريح جسمه المتعب وأعصابه المتفززة ، ولا شيء غير هذا. ولكن الأيام تمضي ، فإذا الشاب الهزيل الضاوي يغدو ممتلىء الجسم ، وإذا بالوجه الشاحب المعروق يستدير ويتورد وينضح بالشباب ، وإذا معاني الخوف واليأس واللهفة تتلاشى من عينيه ، ولا يبقى فيهما سوى هذا الحزن الدفين . . . وإذا به أمهر من عرفت سعاد عزفاً على الكمان أو العود أو البيانو .

إن الموسيقى في حياة سعاد تكاد تكون كل الحياة ، وإنها — من ثم - لا تنسى تلك الأمسية الجميلة ، حين كان القمر بدراً يغمر الدنيا بالابتسام المنير ، وكانت هي جالسة في الشرفة الواسعة مع والديها والضيف يتحدثون ، فقال أبوها وهو يبتسم خفية لسامي : إنك يا سعاد لم توقعي شيئاً لسامي بك . . . إنه يهوى الموسيقى .

فقال سامي مؤكداً : جداً . . .

وارتبكت سعاد رغم الفرح الغامر الذي ملأ قلبها ، فلطالما هفت إلى كمانها أو العود ، لتعبر بهما لهذا الشاب الحزين عن جمال الشباب وجمال الحياة ، وعما يزخر به قلب عذراء تعيش للطبيعة وللموسيقى وهمس الحب الخفي في أعماق روح طاهر . وبعد

تمنع وجيز ، أحضرت العود ثم رفعت وجهها نحو القمر ، ومضت تدغدغه بأنامل رقيقة ، فترسل من بين أوتاره ألحاناً راقصة مرحة من وضعها . وكانت تختاس النظر — بين آن وآخر — إلى وجه سامي ، فتراه مطرقاً ، تعلو شفتيه بسمة حالمة ، وتومض فيه لمسات من الدهشة والإعجاب . فلما انتهت ، هنأها في حرارة وحماسة وهو يقول : مدهش ، مدهش يا سعاد هانم . إن لك ذوقاً موسيقياً رفيعاً . وقال الوالد : ما رأيك في أن تسمعنا أنت شيئاً . . !

فقالت هي : أويعرف البك . . أنْ . . ! !

فتمتم — قليلا . . .

ولما ألحوا عليه ، تناول العود فداعب أوتاره برهة ، ثم أنشأ يعزف قطعة حديثة لم تسمعها سعاد غير مرة واحدة في المذياع ، ورغم أن سامي لم يبلغ في تلك الأمسية الحد الرفيع الذي بلغه في أمسيات أخر ، فإن سعاد بقيت مأخوذة بجمال إيقاعه ، لا تكاد تصدق أن ضيفهم ماهر إلى هذا الحد ، وأن العود بين يديه يكاد يهتف راقصاً ، وأن أنامله لا تكاد تمس الأوتار إلا كما يمس ضياء القمر باسمات الزهور . . يا لضيعة الأمسيات التي مضت دون أن تسمع منه أو تسمعه أو يشتركا معاً في العزف والإيقاع . . .

ولـكن الأمسيات تتوالى ، فتعوض سعاد ما فاتها من أمسيات ، وتسعد روحها الظامىء إلى رائع اللحن بالإنصات إليه ، أو العزف له ، أو الاشتراك معه أحياناً على العود أو الكمان ، وحيناً على البيانو ، حتى كانت الأمسية الماضية عند ما عزفا معاً اللحن الأخير — أو على الأصح عند ما عزفت معه بعض هذا اللحن الأخير ، لحن « الرحيل ». كانت واقفة بجانبه توقع على الكمان ، وكان هو جالساً إلى البيانو ، فإذا هي تكف عن الإيقاع ، ثم تقف مشدوهة مروعة ، تكاد تحس أن روحه تذوب لحناً ، وأن قلبه يسيل من بين أنامله ، وأن الأنغام المتهادية دموع تسح ، وأن الزمن نفسه توقف لينصت إلى قلب يسيل بالأنين .

لقد فرت سعاد إلى فراشها قبل أن ينتهي ، وهناك أرسلت دموعها حرى ، لقد أيقنت أن سامي سيرحل غداً ، وأنها في تلك الليلة صارحت نفسها بأنها تحبه ، وأنها لا تدري أأحبت الموسيقى فيه ، أم أحبت هذا الحزن المطل من عينيه ، أم أن هذا اللحن الأخير ، ذا الأنغام الحزينة الباكية التي تصور الشكوى والأنين ، والوحشة والانفراد ، والخوف من المستقبل المجهول ، والأيام الطويلة للقلب الشريد ، كان اللمسة الأخيرة التي رفعت الستار عن حب ظل يتغلغل في قلبها مع أمسيات القمر والأنغام دون أن تدري ! !

وبكت سعاد طويلا في ليلتها ، وتمنت لو أنها لم تر سامي قط ، ولم تصبح — من ثمة — أسيرة هذه المشاعر الطاغية . لقد كانت من قبل سعيدة بحياتها الهانئة في قلب هذا الريف الساحر ، فمنذ أن أتمت دراستها الثانوية ، جاءت إلى هذه القرية النموذجية لتعيش مع والديها الحبيبين . ورغم أنها قضت أكثر حياتها في المدن ، لم تسأم الريف يوماً ولا ملت الحياة فيه . لقد عشقت خضرة المزارع ، وألوان الزهور ، وشمس الغروب وراء النخيل ، ونسائم الفجر وروعة الأصيل ، وأحبت الأطيار وأغاريدها ، والغزلان وسواد عيونها ، وأحبت كل ما يدب على الأرض من هوامّ ويسبح في الجو من أطيار تغرد وفراشات تحوم ونحل يطن ، وأحبت هؤلياء القرويات السعيدات بما يؤدين من واجبات وبما ينلن من حقوق ، وأحبت أغانيهن في الصباح وهن يملأن الجرار ، وأحبت وفاء الفلاح لأرضه حتى ليهون عليه انتزاع روحه ولا ينتزع منها ، وأحبت آلاتها الموسيقية وما تهمس لها الطبيعة من ألحان تصورها تلك الآلات . . .

أما الآن فقد انتهى كل شيء ، إن هذا كله تراجع ليفسح المجال لحب شخص واحد فحسب ، وإنه لراحل في يومه .

وحين بلغت سعاد مرحلة التفكير بالرحيل ، شعرت بحزن قاس يشيع في نفسها ، وبالدموع تتجمع في عينيها وبأن ثمة أنامل تعصر قلبها ، فصحت من غفوتها على صوت يقول لها :

— سيدتي الهانم ، هذا البريد لك .

فأجفلت مروعة ، وإذا بغلام العمدة على جحشته العجفاء يحمل البريد والصحف ليوزعها على أهل الضياع ، فمدت يدها وتناولت حزمة المجلات التي تخصها ، ثم أومأت إليه شاكرة واستدارت حتى لا تشجعه على الثرثرة كعادته . فهز الغلام رأسه وانطلق بجحشته وهو يعجب في نفسه مما دهى (الست الأميرة) — كما يسمونها — فبدت شاحبة متوفزة الأعصاب ، صامتة كئيبة .

ومضت تتصفح المجلات دون أن ترى فيها شيئاً . لقد عاد ذهنها إلى الشرود . إن أفكاراً مبهمة غامضة تراودها ، أفكاراً طالما دارت بنفسها وبعثت إليها بالحيرة والفضول . إنه يخيل إليها أنها رأت سامي من قبل ، وأنها سمعت ما يشبه صوته هذا الحنون ذا النبرات الحزينة ، ولكنها لا تدري أين رأته ، ولا متى سمعت صوته ، أكان حلماً جميلا أم يقظة مبهمة! وثمة أمر آخر طالما حيرها وأثار فضولها . ما من مرة التقت فيها عيناها بعيني سامي إلا رأت سمات الحزن النبيل على وجهه . ترى ما معنى هذا ! أهو يبادلها الحب ؟

لا . . لا ، إنه لم يضغط على يدها مرة ، ولم يحاول أن يوجه إليها نظرة أو كلمة تحمل هذا المعنى بتة . كان يفر منها أحياناً ! ولكن لماذا يفر ، ولماذا يرحل سريعاً ! أثمة شواغل تقتضي سفره ، أم إنه مل الريف ومن فيه . ثم هذا اللحن الأخير بالأمس ، لحن الرحيل ، لماذا كانت روحه تذوب أنغاماً ، وقلبه يسيل بين أنامله ! أهو استغراق فني ، ولا شيء غيره ؟ ؟ من هو ؟ ولماذا جاء ؟ وماذا يفعل في الحياة ؟ ! وكيف يعود وقد حمل معه قلبها وهناءها وهو لا يدري ! !

وخيل إلى سعاد أن عقلها سينفجر إذا هي تمادت في أفكارها ، فأرسلت آهة حرى ، ثم ركزت عينيها في مجلة مصورة ، ولم تلبث أن ندت عنها صيحة خافتة . إن صورة سامي تطالعها ، وإن عبارة مرحة طريفة تحتها تقول : إن الموسيقار المعروف (عز الدين سامي) قد اختفى فجأة وإن أصدقاءه يبحثون عنه على غير جدوى .

وتبدت لها الحقيقة سافرة ، ولكنها زمت على شفتيها يأساً وحنقاً . إنها تعجب لغبائها . . كيف لم تعرف هذا من قبل؟ ! كيف عجزت عن تفسير مهارته الموسيقية ؟! مهارة فنان محترف . إنها الآن تذكر متى رأته ، ومتى سمعت صوته ، لقد كان له بعض الصور في مجلات قديمة ، وكانت له منذ سنوات حفلات تذاع ، أما ألحانه فكان لها يوماً شهرة وذيوع . وأخيراً افتر ثغرها عن بسمة شاحبة كلها يأس . إن حبها « لعز الدين سامي » الموسيقار المعروف — ولو منذ سنوات — غدا أشد يأساً من ذاك الضيف المجهول الذي جاء هزيلا ضاوياً يبغي الراحة والهدوء .

وغرد العصفور الوحيد فوق الشجرة ، ومسحت الغزالة جيدها في ثوب سعاد ، فربتت هذه على رأسها ، ورفعت عينيها إلى العصفور وقد تعلق الدمع في أهدابها ، ثم أزاحت خصلات شعرها ، وسارت نحو الخميلة الوارفة عند الجدول الرقراق حيث اعتاد سامي أن يمضي فترة هادئة كل صباح . فلما اقتربت من المكان ، بلغت أذنيها أنغام رقيقة هادئة ، لحن جديد لم تسمع به من قبل . . فوقفت مشدوهة مروعة ، وكأنما تفتحت السماء عن نبع ساحر من نور غامر ، وعن أطياف شادية شجية النفحات ، وعن أرواح معذبة هاتفة بالحزن والأسى في صورة لحن جميل ، وعن قلوب تئن وتسيل في أنينها الشادي . . وعن إحساس جديد رائع كأنه السحر الذي يطمس المادة ويوقظ الروح .

٢

كان سامي هناك في هذه البقعة الساحرة من الضيعة ، وقد أسند قدمه إلى مقعد من جذوع الشجر ، وفي يده كمان يعبث بأوتاره ذاهلا وكان متفتح النفس متيقظ

الروح يرنو إلى الأفق البعيد فيرى صحائف ماضية تطوى وتنشر ، فيعجب ويفزع ويتمنى لو أنه مات قبل أن يولد . . .

لقد مات أبواه وتركا له بعض المال ، فأقبل على رغباته المكبوتة يرضيها . كان يريد أن يكون موسيقاراً وأن يكون موضع الحب من الفتيات ، وأن يقضي ليالي حمراء حتى مطلع الفجر ، فحققت له الدنيا بعض ما أراد ، فعاش سنوات بين خمر ونساء وألحان وليال حمراء . فلما انقضت هذه السنون ، صحا ذات يوم على أنين جسمه المتعب وصدره المنهوك ، وأخذ يجر نفسه إلى الدكتور وجدي صديقه وصديق أبيه من قبل ، فلم يجد في كل ما تحقق من رغباته إلا جسما مهدماً وشباباً ضائعاً . . .

أما الشهرة والفن فقد نال منهما نصيباً ضئيلا . . . كانت الغيرة تأكله كلما رأى موسيقاراً يظفر بالشهرة دونه ، وكان اليأس يشقيه كلما رأى ألحانه تموت على الشفاه بأسرع مما تولد ، وكانت الحقيقة السافرة تروعه كلما همست له بأن المجد والخلود في الأنغام إنما يكون في قوتها لا في ضعفها ، في وحيها الأصيل وليس في التكلف ، وكان الحزن يشيع فيه كلما حاول أن يسمو بفنه فيجعله قويا كالحياة ، مضيئاً كالنور ، منعشاً كنسيم الربيع ، محسناً كشمس الشتاء ، فيعجز ويخفق لأن الخمر تغلف عقله بالضباب . والنسوة يمتصصن منه رحيق الشباب وموائد الميسر تلتهم لحظات هو أحوج ما يكون إليها ليتعهد فنه ويرعاه . وكان جسمه بعد هذا كله هو الذي يدفع الثمن .

إن الطبيب يهز رأسه أسفاً ، وإنه ليصارحه برفق بأن حالته إن لم يتداركها ستزداد سوءاً ، وإنه ليضعه بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يهجر هذه الحياة المروعة ولو إلى حين ، وإما أن يمضي سادراً حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا . ثم عرض عليه أخيراً أن يذهب إلى ضيعة نموذجية يديرها أخوه حيث يقضي هناك — على الرحب والسعة — أي فترة من الوقت يريد .

وعند ما آوى إلى بيته ذلك المساء ، ظل ليله مسهداً يشد شعره ويهتف « كيف أموت يا رب ولم آت قط عملا صالحاً » .

وبعد ثلاثة أيام كان يهبط أمام دار السيد سالم — شقيق الدكتور وجدي — بعد أن اتفق مع الاثنين على أن يخفيا شخصيته ونبأ سفره عن الجميع ، ولا سيما أصدقائه الذين كانوا — ولا ريب — سيحاولون تسفيه محاولته للفرار .

وإن سامي ليذكر استقبال السيد سالم له — بقلب شاكر — وإحلاله في قلبه مكان الابن ، وتقديمه إلى ابنته سعاد وإلى زوجته دون كلفة أو حجاب . وإن سامي ليفتح عينيه

على جنة في الارض لم يكن يحلم بوجودها ، وإنه ليرى الطبيعة تستقبله في حنان ، وتكشف لبصيرته وروحه أجمل ما فيها وأروع ما انطوت عليه ، كأنها الأم الحنون تضم إليها ابنها العاق الضليل ، وإنه لينام ملء جفونه ، ثم يصحو مبكراً ليشاهد الفجر الأرجواني ينساب إلى الدنيا في موكب من نور ، ثم تبتعد الشمس في بهاء وجلال مصعدة إلى السماء في زورق من ذهب ، وإنه ليرفرف بين المزارع كالطير الطليق ، يغني لنفسه وللطبيعة ، ويهمس للماء في القنوات ، ويأكل التوت مثقلا بالندى ، ويقطف الكرز أحمر كاليواقيت ، ويلتهم العناب دامياً كشفاه حسناء ، وإنه ليطلق لروحه العنان فترتوي من سحر الضياء الذي طالما حرمه ، وإنه ليقضي هذه الأمسيات القمرية في حديث وعزف موسيقى وآمال كبار . . .

٣

وتلفت سامي حوله كأنما يودع هذا النعيم للمرة الأخيرة ، ثم تمتم لنفسه « إن مثلي لم يخلق للحياة هنا .. إن هذا الطهر كله لا يحتمل ماضيّ الأثيم » . وشعر عندئذ أن قلبه يئن وأن صدره يجيش بالأسى والحزن، وأن عينيه تتهيآن للدموع ، وأنه إنسان منبوذ ... وعبثاً حاولت روحه اليقظى أن تخفف عن نفسه الشجن ، وعن قلبه الأنين ... وأخيراً تناول سامي الكمان يلتمس منه السلوى والعزاء ، فمضى يرسل من أوتاره أنين قلبه المعذب ، وتوجع نفسه الثائرة ، وهتاف روحه اليقظة . إنه ــ بخياله ــ يلتفت وراءه في شوق ولهفة ويرنو أمامه في خوف وجزع . . . النور الساحر يتبعه ، والظلام الموحش يستقبله ، والليالي الطوال كلها الأسى في انتظار قلبه الشريد ، إنه يصور باللحن ذلك الألم الخالد في قلب كل إنسان ، ألم آدم ــ عليه السلام ــ وهو يهبط من الفردوس المفقود ...

وفاضت نفسه أخيراً ، وشعر بدماء قلبه تفور إلى عينيه دموعاً . ولكنه سمع ــ على غرة ــ آهة خافتة ، فاستدار خجلا ، وإذا بسعاد واقفة ، وبجانبها « سمحية » وكلاهما لا يتحرك ولا يريم . . .

وقف أمامها صامتاً أيضاً . . الكمان في يد ، والقوس في الأخرى ، والسكون العميق يشمل الكون، ليس فيه سوى وجيب قلبين يكاد صاحب كل أن يسمع خفق الآخر.. وأخيراً تململ سامي في وقفته ، واستعاد هدوءه وعزيمته ، ثم راح يردد لنفسه « لا .. لا . . إنني مخطىء ، إنني مغرور . . لا يمكن أن تحبني ، يجب أن أكون شريفاً ولو مرة واحدة في حياتي ، يجب أن أسرع في الرحيل . . الآن . . »

ثم حانت منه نظرة إلى يدها فإذا بالمجلات المصورة تطالعه ، وإذا وجهه يزداد

شحوباً . . آه . . إذن فقد عرفت . . إذن فوجهها الشاحب ودموعها الجامدة على أهدابها ، وذهولها العجيب ، ليست إلا مجرد عطف أو رثاء ، وربما احتقار وازدراء أيضاً . . فتاة كهذه لا يمكن أن تحترم أو تحب عربيداً ذا ماض رهيب . . . وإذا أحبته قبل أن تعرف حقيقته ، فلا شك أنها تدوس مثل هذا الحب بأقدامها . وزم سامي على شفتيه ، ثم نظر في ساعته ، وقال مبتسما وهو يحاول السيطرة على صوته المضطرب :

— أظن العربة قد وصلت الآن . . فهل أنتهز هذه الفرصة فأودعك .. مع .. شكري . . على . .

وسقطت المجلات من يد سعاد ، فانحنت لاستعادتها واستعادة قلبها المشتت في الوقت نفسه . ولكنها ظلت رغم هذا صامتة . . . فاستطرد سامي وصوته يقطر ألما : لن أنسى أبداً رعايتكم وعطفكم . . . و . .

فتمتمت سعاد أخيراً ... لماذا أخفيت عنا . . حقيقتك . . ! ؟

— لأني خجل منها . . .

— وهل فيها ما يعيب إلى هذا الحد . . ! ؟

— لا أذكر فيهاحسنة واحدة ... إلا ... ولكن ، لابد أن أسرع ، ويجب أن أمر على والدك الكريم لأودعه ، أظنه الآن في العزبة المجاورة . . كم كنت أود لو سلمت على جميع الأهالي واحداً واحداً . . ! . ولما تناول يدها مسلماً ، شعر بها باردة كالثلج ، ثم أحس بالأرض تميد من تحته وهو يخطو بعيداً ، وخيل إليه أن الظلام يغمره من كل جانب وأنه لن يستطيع أبداً أن يواصل سيره . فلما بلغ نهاية الطريق ، التفت وراءه ليتزوّد من سعاد بنظرة أخيرة . . . كانت راكعة على ركبتيها ، وقد جعلت رأسها على جيد « سميحة » وتدلى شعرها الطويل حتى ليلمس العشب...إن قدمي سامي — بل قلبه — يعود به إليها ، وإنه ليركع بجانبها هامساً « سعاد . . أقسم لك أني سأعود يوماً . . قريباً ، ولكن يجب أولا أن أتطهر وأصبح جديراً بهذا النعيم . . » .

ورفعت سعاد رأسها ونظرت إليه طويلا في صمت ، ثم تبسمت رغم الدموع العالقة بأهدابها . . .

حسين محمد القباني

انبـاء

نشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

تقوم المطبعة الأميرية بطبع المشروع الذي قدمه معالي عبد العزيز باشا فهمي لتيسير الكتابة العربية ، ومعه ردود أعضاء المجمع اللغوي والهيئات العلمية على المشروع . وكذلك الاقتراح الذي قدمه الأستاذ علي الجارم بك الخاص بإلحاق زوائد بالحروف العربية تقوم مقام الشكل . والغرض من إخراج هذا السفر العلمي هو أن يتاح لأبناء البلاد العربية الوقوف على كل ما يتعلق بمشروع تيسير الكتابة العربية تمهيداً لاشتراكهم في المسابقة التي أعلن عنها المجمع ورصد لها جائزة قدرها ألف جنيه.

✡ ✡ ✡

أصدرت وزارة المعارف قراراً بتأليف مجلس إدارة الجمعية الملكية للدراسات التاريخية. ومهمة هذه الجمعية محددة بمرسوم ملكي ، وهي جمع عناصر الدراسات التاريخية وتشجيعها ووضع فهرس عام للمؤلفات والمطبوعات ذات الاتصال الوثيق بمصر .

✡ ✡ ✡

ترجم الأستاذ سليم سعدة كتاب « سليمان باشا الفرنساوي » لمؤلفه آميه فان ترنبيه وهو يحوي تاريخ الجنرال سيف الذي قدم إلى مصر في عصر محمد علي فاعتنق الإسلام ووضع جهوده في خدمة جيشها ويفصل الكتاب نشأة أسرته وتاريخها والحروب التي اشترك فيها وعلاقاته بولاة مصر.

✡ ✡ ✡

اكتشفت سيدة إنجليزية في مكتبة ديرطورسيناء نصوصاً قرآنية على رقوق قديمة كتب فوقها بالسريانية بعد محو العربية من تحتها ، وهي تظن أن تلك النصوص خطت قبل أن يجمع القرآن . والمعروف عن هذه المكتبة أنها كانت تملك أعظم أثر ديني في العالم وهو نسخة خطية من الكتاب المقدس بالسريانية فسرقت هذه النسخة وتسربت إلى روسيا ومنها ابتاعها المتحف البريطاني بمائة ألف من الجنيهات .

✡ ✡ ✡

أصدر « الإخوان المسلمون » في أوائل الشهر الماضي جريدة يومية تضارع كبريات الصحف اليومية في غزارة مادتها وجميل تنسيقها وموثوق أنبائها فضلا عن الروح الطيبة التي تبث بها في قراء الشرق العربي الدعوة الصالحة إلى الخير والتقوى والمعروف وتأليف القلوب على المحبة والتعاون وحب الوطن فنرحب بالزميلة الكريمة ونرجو لها التوفيق والرواج .

☆☆☆

كتب السير رونلد ستروس إلى سعادة هيكل باشا يرجوه تكليف أحد الأدباء ترجمة كتابه « مشرقيات » الذي سرد فيه طائفة من ذكرياته عن بلاد الشرق الأوسط وكشف فيه القناع عن الكثير من المسائل السياسية والمؤامرات التي كانت تدبر في الخفاء في غضون الحرب الماضية .

☆☆☆

أقام المعهد العالي لفن التمثيل العربي حفلتين تمثيليتين في الشهر الماضي بدار الأوبرا الملكية حيث قدم مسرحيتي (الجلف) للكاتب الروسي تشيكوف و (البخيل) للكاتب الفرنسي (مليير) .

وهذه هي أول مرة يواجه فيها طلاب المعهد جمهوراً كبيراً من رجال الأدب والفن وكبار رجال الدولة ، ويعملون في مسرحيات تتطلب الحذق في التمثيل ، لأنها مسرحيات ترتكز على التحليل النفسي العميق . وفي الحق قد أجاد الطلاب إجادة تنبئ بأنهم سيكونون عناصر طيبة للمسرح المصري ، ولاسيما أنهم يعملون بروح المجموعة ولا ينزعون نزعة تفردية في التمثيل ، ولا شك في أن الأستاذ زكي طليمات مدير المعهد الذي تولى إخراج هاتين المسرحيتين مغتبط بما انتهى إليه تلاميذه .

☆☆☆

تبرعت الجالية الأمريكية بمصر بمبلغ ٦٠٠٠ جنيه مصري لتشييد مبنى خاص في كلية البنات الأمريكية لإنشاء مكتبة يطلق عليها مكتبة « المرأة المصرية المتعلمة » على أن تضم الكتب والمجلات التي تعالج مسائل الأطفال ، وإعارة الكتب عن طريق البريد للمشتركات اللواتي يقطن خارج القاهرة .

☆☆☆

مما يذكر عن ملك إيطاليا السابق جلالة فكتور عمانويل الذي يزور مصر الآن أنه من هواة النقود القديمة والحديثة ، وله كتاب فذ لعله الأول من نوعه وعنوانه : « النقود فى أوربا » ويقع في خمسة مجلدات وقد طبع سنة ١٩٢٨ .

السودان

اجتمع مجلس إدارة كلية غردون الجامعية للنظر في تصميمات مباني الكلية الجديدة ، التي وضعها الرسام العالمي نيوتن . وقد عمل من هذا التصميم نموذج مصغر لا يزال معروضاً للجمهور في كلية الهندسة بالخرطوم ، كما عمل نموذج لمباني سكنى الطلاب وهو معروض أيضاً بدار الكلية .

☆☆☆

تشرع وزارة المعارف المصرية في توسيع مدرسة مباني الملك فاروق الثانوية بالخرطوم بعد أن اشتد إقبال السودانيين عليها ، وقد اعتمدت لهذا التوسيع مبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه .

☆☆☆

يهتم بعض ذوي الرأي من السودانيين بوضع خطة لإنشاء مدرسة عليا على غرار كلية دار العلوم في مصر ويكون مقرها الخرطوم . وسيعهد إلى الطلبة السودانيين الملتحقين بكلية دار العلوم الآن في تدريس اللغة العربية والديانة عند عودتهم إلى السودان .

☆☆☆

صرحت حكومة السودان للسيد عبد الرحمن المهدي باشا بإعادة تشييد قبة الإمام المهدي ، بعد أن ظل ضريحه مهدماً نصف قرن ، وقد أعد سعادته جميع مواد البناء اللازمة .

☆☆☆

انتهت الحكومة من اختيار ٢٥ شخصاً من المتقدمين لدراسة المحاسبة ، ومدة الدراسة ثلاث سنوات في المالية حسب منهج خاص . ويشرف على تعليمهم محاسب قانوني عين لهذا الغرض . وبعد الانتهاء من دراستهم سيوفدون في بعثة علمية إلى إنجلترا مدتها سنتان .

☆☆☆

هناك اقتراحات تلوكها الألسن وتتناقلها الصحف ، ترمي إلى تغيير اسم السودان بأسماء «عروبة النيل» أو « بلاد النيل » أو « الوادي الجنوبي » أو « البلاد البيضاء » وذلك لأن لفظة السودان معناها بلاد السواد ،أي البلاد التي يسكنها ذوو البشرة السوداء ، حين كانوا وحدهم سكان إفريقيا ، أما سكان جنوب الوادي فهم يرجعون إلى القبائل العربية الصميمة العريقة ، وسواد لونهم أخف كثيراً من سواد زنوج إفريقية .

☆☆☆

قدمت الحكومة البريطانية هبة مالية إلى حكومة السودان قدرها مليونان من الجنيهات ، وقد خصص منه مبلغ ١٢٧٥٠٠٠ جنيهاً مصرياً للتعليم وحده ، على أن يخص كلية غوردون من هذا المبلغ مليون جنيه للعمل على ارتقائها إلى مستوى جامعة . وسيوضع المال تحت تصرف لجنة خاصة تستثمره ، ويدفع دخله إلى مجلس الكلية للصرف عليها .

فلسطين

أرسلت لجنة الثقافة العربية دعوة إلى المؤلفين والناشرين ليرسلوا إليها نسخاً من المؤلفات العربية التي ظهرت في فلسطين لعرضها في معرض « الكتاب العربي » الذي ستقيمه اللجنة في أواخر شهر يوليو . وبينت في دعوتها أن الغرض من المعرض التعريف بالمؤلفات العربية ، وتنشيط التأليف، وتوسيع المجال أمام المؤلفات العربية ، وإعطاء صورة عن الحياة الفكرية في فلسطين في القرن الأخير . وقد لاقت الدعوة استحساناً وتشجيعاً عظيمين .

☆☆☆

ورد في بعض النشرات أن عدد الكتب العربية التي ظهرت في فلسطين في الثلاثين سنة الأخيرة يزيد على ٢٥٠ كتاباً .

☆☆☆

تدرس لجنة الثقافة مشروع عقد مؤتمر ثقافي في أحد مصايف فلسطين في الصيف المقبل لدرس مسائل التأليف والثقافة والتعليم .

☆☆☆

ورد من لندن أن عدد الطلاب والطالبات العرب في معاهد إنجلترا ٤٥٠ ، بعضهم يدرس على نفقته الخاصة ، وبعضهم على نفقة الحكومة ، وبعضهم على نفقة المجلس البريطاني . وأكثرهم في جامعات لندن وأكسفرد وكمبردج وأدنبره وليدز ولفربول ومنشستر وأكستر . وهذا أكبر رقم عرف في السنوات الأخيرة .

✡ ✡ ✡

بلغ عدد المتقدمين إلى امتحان « الاجتياز إلى التعليم العالي الفلسطيني » المعروف بالمتريكوليشن ، الذي يعقد في شهر يوليو ، زهاء ٥٠٠ طالب وطالبة . وهذا الفحص هو نهاية التعليم الثانوي . والعدد يعطي صورة عن نسبة الطلاب الثانويين إلى سائر الطلاب .

✡ ✡ ✡

نشطت الأندية العربية وأعدت برامج لمحاضرات متسلسلة يلقيها الأدباء والعلماء في مختلف المدن الفلسطينية . ومن أسبق الأندية في هذا المضمار نادي الشبيبة الإسلامية في يافا ، والنادي الأرثوذكسي في حيفا وجمعية الشبان المسيحية في القدس .

✡ ✡ ✡

صدر هذا الشهر كتاب « أقنعة الحب » مترجماً عن الإنجليزية بقلم الأستاذ السيد أحمد سامح الخالدي . وهو يحتوي على صور « بسيكو أنا ليتيقية » لمؤلفه الدكتور وليم شتيكل .

لبنان

فجع الأدب العربي عامة ، واللبناني خاصة ، بالأديب الكبير الأستاذ عمر فاخوري . ولد في بيروت سنة ١٨٩٦ ، وأنهى دروسه الثانوية في الكلية العثمانية التي أسسها الشيخ أحمد عباس ، وكان هذا المعهد من منائر الفكرة العربية آنذاك . وقد زامله في الدراسة كثيرون من زعماء حركة التحرر في لبنان والأقطار العربية الأخرى ، منهم : محمد المحمصاني ، وعمر حمد ، وعبد الغني العريسي ، الذين استشهدوا في سبيل العروبة أيام جمال باشا التركي ، وكان عضواً عاملا في حزب « الاستقلال » وفي « جمعية العربية الفتاة » السرية ، ووضع كتاباً بعنوان « كيف ينهض العرب » كاد يؤدي به إلى المشنقة ، فاكتفى الأتراك لصغر سنه ، بإتلاف نسخ الكتاب .

قاوم الاحتلال الفرنسي منذ سنة ١٩١٨ وانخرط في سلك الجمعيات السرية ، وأبدى نشاطاً ملحوظاً ، وعمل على بث فكرة المقاومة بما كان يذيعه من النشرات .

دعاه الملك فيصل لتولي تحرير الجريدة الرسمية التي صدرت في دمشق باسم « العاصمة » ، فتابع هناك نضاله وبث فكرته الاستقلالية . ثم سافر عام ١٩٢٠ إلى باريس لإتمام دروسه الحقوقية . وقد ساهم عمر فاخوري بعد عودته من فرنسا في تحرير كثير من الجرائد والمجلات ، نذكر منها : « الميزان » الأدبية ، و « المفيد » في دمشق ، و « الحقيقة » و « الكشاف » ، التي ترجم لها كتاب « رومان رولان » عن غاندي ، و « المراحل المصورة » في بيروت . ووضع في السنوات الأخيرة مؤلفات قيمة تمتاز بصفاء الديباجة ، وبراعة اللفظ ، ودقة المعاني ، منها : « الباب المرصود » ، و « الحقيقة اللبنانية » ، و « وأديب في السوق » ، و « الفصول الأربعة » ، و « آراء أناتول فرانس » و « آراء غربية في مسائل شرقية » ، و « لا هوادة » ، و « حجر الزاوية » . وأدار الدروس العربية في العامين الأخيرين في مدرسة الآداب العليا .

✡ ✡ ✡

أصدر الدكتور عمر فروخ رسالة بعنوان « دفاعاً عن الوطن » يعرض فيها المؤلف لعيوب

النظام الحاضر في لبنان من الوجهتين السياسية والإدارية . وهي محاولة جريئة في تشخيص الحالة في لبنان من حيث محاولة الفكرة العربية التحررية القضاء على ما تبقى من جراثيم الرجعية .

☼☼☼

صدرحديثاً مبحث موجزللدكتورنبيه فارس بعنوان «العالم العربي ومستقبله» يحلل فيه العقيدة العربية الواعية التي ترتكز على الحقائق المحضة ، فتسعى جهدها في خضم الحضارة المعاصرة إلى الأخذ بأسباب التقدم المدني الصناعي والاجتماعي لإتمام الرسالة التي بدأها الجدود . والدكتور فارس يعتقد أن العروبة أساس صالح للتقدم البشري ، وهي قادرة على خلق جزء منحضارة العالم ،لأنها كانت أساساً متيناً للتقدم البشري .

☼☼☼

صدرت الترجمة العربية لـكتاب فلنير المشهور في الآداب الفرنسية بعنوان « ميكرميغاس » ، وقد قام بتعريبه الأستاذ إلياس أبوشبكة صاحب ديوان « غلواء » و « أفاعي الفردوس » وسواهما من المؤلفات والترجمات القيمة .

☼☼☼

صدر عن « دار المكشوف » مجموعة شعرية بعنوان « آفاق » للدكتور سليم حيدر القائم بأعمال المفوضية اللبنانية في إيران نشر فيها الشاعر القصائد التي نظمها في السنوات الثلاث الأخيرة ، والأستاذ حيدر دكتور في القانون من جامعة باريس ، واسع الاطلاع على الآداب الأوربية ، وهو منصرف اليوم إلى التفقه في اللغة الإيرانية للاستقاء من آدابها .

☼☼☼

نشرت « مكتبة صادر » كتيباً للأستاذ ميخائيل نعيمة بعنوان « الأوثان » يشير فيه المؤلف إلى الأصنام التي يتعبد لها الجيل الحاضر ، كالمال والقوة والقومية والكلمة السوداء وما إليها .

كما نشرت له قصة بعنوان « لقاء » مزينة برسوم فنية بريشه الفنان رضوان شهال . وموضوع الرواية واقعي أسطوري معاً ، حلل فيه الكاتب بأسلوبه الخاص المذهب القائل بانتقال الأرواح من جيل إلى آخر ، أو بالأحرى المذهب البوذي القائل بأن السبب في رجوع الروح إلى العالم الأرضي أنها لا تحقق رغباتها في أدوارها الأولى ، فتعود إلى الحياة كرة أخرى . وهي الفكرة التي أشار إليها جبران خليل جبران في قطعته الأدبية « الشاعر البعلبكي » التي بعث بها إلى مي لتقرأها عام ١٩١٢في حفلة تكريم شاعر القطرين خليل بك مطران .

☼☼☼

وأصدرت « مكتبة صادر » أيضاً للأستاذ كرم ملحم كرم رواية بعنوان « دمعة يزيد » تتناول الحياة السياسية والاجتماعية في مستهل الخلافة الأموية . وقد عرض فيها لغرام يزيد بن معاوية بالحسناء أرينب بنت إسحق التي يرى فيها المؤلف « زهرة من ياسمين على عود من الند » .

☼☼☼

نشر الدكتور كريم عزقول كتاباً بعنوان « العقل في الإسلام » ، يتناول فيه مباحث هامة منها : طريق المعرفة في الإسلام قبل الغزالي ، وقيمة العقل وحدوده عند الغزالي . والدكتور عزقول مؤمن بسمو الحضارة الإسلامية عامة ، وعبقرية الفكر العربي خاصة . ويرى أننا « نحن أبناء العالم العربي أعرق الشعوب في الحضارات وأخصبها للحضارات وأكثرها هضماً للحضارات ، فنحن إذن مدعوون إلى المساهمة في خلق الحضارة الإنسانية المنشودة »

سوريا

بين رجال التعليم في سوريا فئة من الأساتذة رجعوا أخيراً من فرنسا بعد غياب طويل قضوه في التحصيل الجامعي . وقد تسنى لهؤلاء الأساتذة تأليف عدة رسائل في الآداب والعلوم والحقوق والاقتصاد والطب الإنساني والحيواني ، لحيازة شهادة الدكتورية ، وتتصف أغلب هذه الأبحاث بالطرافة والجدة ، ويعتزم فريق من هؤلاء المؤلفين نقل رسائلهم من اللغة الفرنسية إلى العربية ، تعميما لفائدتها وخدمة للعلم والمعرفة . ومن هذه الرسائل :

(١) « روح النقد عند إخوان الصفاء » للأستاذ عادل العوا .
(٢) « مقالة في دراسة أسرار الجمال عند ابن الفارض » للأستاذ عبد الكريم يافي .
(٣) « نشأة النقد الشعري عند العرب حتى القرن الرابع للهجرة » للأستاذ أمجد طرابلسي .
(٤) « وسائل اللعب التهذيبي المستعملة في مدارس الحضانة الباريزية » للأستاذ جميل محفوظ .
(٥) « المجاز في القرآن » للأستاذ توفيق صباغ .
(٦) « الرأي العام الفرنسي حيال حوادث لبنان سنة ١٨٦٠ » للأستاذ نور الدين حاطوم .
(٧) « الرأي العام الفرنسي حيال المسألة الشرقية » للأستاذ علاء الدين الخاني .
(٨) « التجارة الخارجية في سوريا » للأستاذ واصل قنابي .
(٩) « الزراعة في سوريا » للأستاذ عزة طرابلسي .
(١٠) « قضايا الموازنة في سوريا » للأستاذ عوض بركات .
(١١) « قضايا الإرث في الشريعة الإسلامية » للأستاذ إحسان جوخدار .
(١٢) « حاضر الاقتصاديات السورية » للأستاذ صلاح الصالح .
(١٣) « المسؤولية الجزائية في الحقوق الإسلامية » للأستاذ أنور إبرهيم باشا .
(١٤) « مشكلة الأقليات في سوريا » للأستاذ حلمي اللحام .
(١٥) « النقد والأسعار في سوريا » للأستاذ يوسف خوري .
(١٦) « الإجرام السياسي في الحقوق المقارنة » للأستاذ عبد الوهاب حومد .
(١٧) « السلفاميد وتأثيره في العمليات الجراحية » للدكتور أسعد جلبي .
(١٨) « إنتاج اللحم واستهلاكه في سوريا » للدكتور في البيطرة عبد الرحمن دقاق .
(١٩) « الإبل » « « « بشارة حزي .
(٢٠) « حفظ الأسماك » « « « فاتح صقال .

٭٭٭

تعمل أندية حماة وجمعياتها على مكافحة الأمية . فقد أنشأت مدارس ليلية تسجل فيها عدد كبير من الأميين . وقد صحت عزيمة القائمين على شؤون الجمعية للقيام بحملة جبارة على الجهل والأمية ، فعينت يوم ٥ نيسان لجمع التبرعات من المحسنين وسمته يوم الأميين .

٭٭٭

أصدرت مطبعة أبي الفداء فى حماة رواية « ميسلون » للأستاذ بدر الدين حامد ، وهي تمثيلية شعرية تبتدئ حوادثها بإعلان الملكية في سوريا وتتويج جلالة الملك فيصل يوم ١٨ آذار ١٩٢٠ وتنتهي بخروج جلالته من دمشق يوم ٢٨ تموز ١٩٢٠ .

وألف الأستاذ الشيخ سليم الجندي عن أبي العلاء المعري كتاباً يقع في ألف صفحة ونيف ، وهو ثمرة دراسة طويلة وتبحر دقيق . وسيصدر قريباً شرح ديوان النابغة الذبياني للأستاذ المذكور .

وألف الأستاذ عمر رضا كحالة كتاباً عن القبائل العربية في مجلدين . وألف كتاباً عن العرب وطبيعتهم الجسمية والعقلية .

وترجم الأستاذ ليان ديراني عن الفرنسية كتاب « الأم » للكاتب الروسي مكسيم غركي .

✡✡✡

يملك أحد كبار علماء دمشق مخطوطة نفيسة عنوانها « بهجة النفوس والأسماع والأحداق فيما تميز به القوم من الآداب والأخلاق » لعبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني المصري والنسخة بخط المؤلف سنة ٩٧٠ هـ .

العراق

وصلت إلى بغداد الهدية التي قدمتها مصلحة الآثار في مصر إلى دار الآثار في العراق وهي الكتب والمؤلفات والنشرات العلمية التي نشرتها مصلحة الآثار وتبلغ المئات . وأكثرها باللغتين الفرنسية والإنجليزية ، فضمت إلى خزانة الآثار العراقية .

✡✡✡

أعدت وزارة المعارف قانوناً لمكافحة الأمية ، أرسلت مشروعه إلى مجلس الوزراء ، وينتظر أن يوافق عليه البرلمان في اجتماعه الحالي . وهذا القانون يفرض على الأميين في العراق تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وتزويدهم بالمعرفة العامة لفهم مشاكلهم الخاصة وواجباتهم الوطنية .

وسيساعد هذا التشريع على مكافحة الأمية في بلاد الرافدين ، وتقدر الدوائر المختصة الأميين في البلاد العراقية ب ٩٥٪ .

✡✡✡

نشطت الجماعات العلمية والثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية ، لإنشاء جامعة أمريكية في بغداد ، على غرار الجامعات التي لأمريكا في الشرق الأوسط ، ومنها في إسطنبول وبيروت والقاهرة .

✡✡✡

أصدر الدكتور محمد مهدي البصير كتابا في « نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر » ترجم فيه لثمانية وعشرين شاعراً عراقياً من شعراء القرن الماضي ، ونظر نظرة خاطفة إلى آثارهم وخصائصهم الفنية ، وأورد نماذج من شعرهم ، بينهم جماعة منسيون لا يعرف عنهم الأدباء العراقيون شيئاً ، فضلا عن عامة القراء في العراق والخارج .

ونشرت (مكتبة الشعب) في العمارة كتاباً عن «مكسيم غركي» تأليف المحامي سليم طه التكريتي.

وصدر من (جمعية الرابطة الثقافية) ببغداد رسالة « الأصول التاريخية للأمبريالزم الألماني » تأليف أ. فاركا وترجمة الأستاذ ناظم الزهاوي المحامي .

وطبع (المجمع الديني لمنتدى النشر) في النجف كتاب « الشيعة والإمامة » تأليف الأستاذ محمد الحسين المظفري ، بحث فيه الإمامة في نظر الشيعة .

ونشر كتاب « من عبقريات نساء القرن التاسع عشر » ألفه الأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

أودعه دراسة للشاعرات العربيات في العصر الأخير ، وهن عائشة عصمت تيمور ووردة اليازجي وزينب فواز .

✡✡✡

وأخرج الأستاذ عبد الرزاق الهلالي كتاباً عنوانه « ٤٠ يوماً في لندن » وكان قد أوفد إلى لندن للاطلاع على بعض أصول الكشافة والرياضة البدنية هناك ، فأوحت له هناك الزيارة خواطر دونها في مقالات ضمنها بين دفتي المجموعة .

✡✡✡

يطبع الآن كتاب « نظام الحكم في العراق » تأليف الدكتور مجيد خدوري ، وهذا الكتاب سبق أن طبع موجزاً بالإنجليزية قبل سنتين ثم وسعه المؤلف وأكمله وأعده للنشر بالعربية .

✡✡✡

وتحت الطبع ببغداد أيضاً كتاب « مشروع إنماء الثروة الوطنية في العراق » تأليف الدكتور يوسف عبود المختص بالمباحث الصناعية والاقتصادية .

✡✡✡

وأكمل القس أفرام عبدال رئيس (دير مابهنام في الموصل) تأليفاً في تاريخ هذا الدير القديم الذي عرف منذ صدر الإسلام واشتهر في المراجع العربية والإسلامية باسم (دير الجب) والذي يعد تحفة أثرية ، إذ يحوي زخارف وفنوناً بديعة تحاكي من بعض الوجوه الآثار العربية في سامراء .

الهند

فتحت حكومة الهند مراكز متعددة لتعليم الجنود المسرحين الصناعات المختلفة والزراعة . ومما يستحق الذكر أن بنايات تلك المراكز شيدها الجنود أنفسهم ، حتى صنعوا قراميدها ومونتها وكل ما احتاجوا إليه فيها بأيديهم .

✡✡✡

عينت حكومة مقاطعة السند لجنة لإصلاح تعليم البنات فيها ، ولتبدي رأيها فيما تحتاج إليه المقاطعة من فتح المدارس الجديدة لهن في جهات خاصة .

✡✡✡

أتم رائد هندي شهير رحلته التي استمرت ٥٢ ساعة على العجلة ولم ينزل عنها في تلك المدة ولم يأكل فيها غير البرتقال والماء .

✡✡✡

أقرت حكومة إمارة ميسور ميزانية قدرها تسعمائة ألف روبية لتنفيذ مشروع إصلاح التعليم فيها .

✡✡✡

اشتدت أزمة المجاعة بالهند لجفاف أصابها من عدم نزول المطر ، فجفت الأنهر والآبار ، فبيع كوب ماء بخاصة في جنوب الهند بقرش صاغ ؛ وحدث أن أحد الأغنياء دعا بعض أصدقائه إلى حفلة زواج ، ولكن الحكومة لما لم تسمح له بطبخ الطعام اضطر إلى أن يدفع لكل من المدعوين

سبعين قرشاً ثمن الطعام ؛ وحدث في مدينة لكناؤ أن سمحت الحكومة لأحد من الوجهاء بطبخ الطعام فى وليمة على شرط أن لا يزيد عما يكفى ٢٥ نفراً ، ولما فتشت الحكومة وجدت الطعام مطبوخاً زائداً عن المقدار المعين ، فصادرته جميعه ، فرجع الضيوف جائعين .

✡ ✡ ✡

قدمت مملكة أفغانستان خمسين ألف طن قمح هدية إلى جارتها الهند مساعدة لها في أزمة المجاعة المخيمة فيها .

✡ ✡ ✡

وضع عالم هندي شهير أساس جامعة جديدة في مدينة جوهاتي بمقاطعة آسام ، وهي إحدى الجامعتين اللتين قررت المقاطعة إنشاءهما في هذه السنة (راجع أنباء الهند في عدد فبراير) فقال في خطابه : إن هذه الجامعة ستمثل القديم والحديث ، فلن تألو جهداً في إحياء التقاليد الهندية القديمة في التربية والتعليم وفي استقاء العلوم الحديثة من منابعها .

انجلترا

يظهر قريباً كتاب عن «سوريا» مؤلفه روبن فدين Robin Fedden ، الذي كتب عن مصر من قبل . وهو فى كتابه عن سوريا سوف يعرض على القراء دراسة شاملة لهذه البلاد .

✡ ✡ ✡

كان الفلد مرشال ويفل قد أصدر كتابين عن ألنبي بعنوان دراسة للعظمة Allenby: A Study of Greatness ، والثانى بعنوان ألنبي في مصر Allenby in Egypt . وقد أعاد ويفل نشر هذين الكتابين فى مجلد واحد بعنوان « ألنبي : الجندي والسياسي » . وقد أثنى النقاد مرة أخرى على هذا الكتاب ، وعلى ما يبدو من مهارة مؤلفه فى العرض والتحليل والدفاع عن ألنبي وخططه الحربية في فلسطين خلال الحرب العظمى الماضية وعن سياسته في مصر التي هاجمه من أجلها الرجعيون في بلاده وكرهه من أجلها المصريون واشتدوا في كرهه .

✡ ✡ ✡

« صورة إفريقية » African Portraits by Stuart Clœte كتاب شائق يعرض صفحات رائعة من تاريخ الاستعمار فى إفريقية ، ويدور حول حياة ثلاثة من الرجال الذين اشتد بينهم الصراع للسيطرة على جنوب إفريقية وهم : لوبنجولا ملك قبائل المتابيلي وكروجو زعيم البوير وردس الرحالة المستعمر الإنجليزي . وفي الكتاب تحليل دقيق لشخصيات هؤلاء الثلاثة .

✡ ✡ ✡

يظهر خلال الصيف للفيلسوف المعروف برترند رسل كتاب « تاريخ الفلسفة الغربية » وعلاقتها بالأحوال الاجتماعية منذ أقدم العصور حتى اليوم ، وقد راج هذا الكتاب فى أمريكا لكنه لم ينشر في إنجلترا من قبل . ويهدف رسل في كتابه هذا إلى « عرض الفلسفة على أنها جزء متمم أساسي للحياة الاجتماعية والسياسية » .

✡ ✡ ✡

« سوريا ولبنان » A. H. Hourani كتاب ممتاز ظهر برعاية المعهد الملكي للشؤون الدولية

ورحبت به الصحف ترحيباً كثيراً ، حتى قال عنه الملحق الأدبي للتيمس « إن (السيد) حوراني قد كتب كتاباً لا يستطيع أن يغفله أي سياسي أو باحث في شؤون الشرق الأوسط . »

ويعرض المؤلف في فصول الكتاب المتتابعة عرضاً كاملا للأسس التاريخية للموقف الحالي في سوريا ولبنان ، ولتيارات المدنية الغربية والوحدة العربية ولمسألة الأقليات ، وللسياسة البريطانية والسياسة الفرنسية بإزاء العالم العربي، ولآثار الحرب العالمية الثانية. والكتاب مدعم بالوثائق والخرائط.

✡ ✡ ✡

ظهر هذه الأيام أيضاً كتاب آخر يجدر بالمشتغلين بالشؤون العربية دراسته ونقده ، هو كتاب عن « مشكلة فلسطين » The Palestine Problem by Lt. Col. Wiliams Thompson يزعمون أنه عرض مباشر لهذه المشكلة وشرح محايد لأسبابها التاريخية والسياسية والدينية ، وبيان لوجهة نظر كل من العرب واليهود ومطالبهم وما يؤيدها أو يدحضها .

✡ ✡ ✡

« التنتالوم » Tantalum معدن في لون الفضة اهتدى إليه منذ ١٨٢٠ الكيماوي السويدي برزليوس ، ورغم استعماله منذ ذلك الحين إلا أن ما كشف عن منافعه خلال الحرب قد نبه العلماء إلى زيادة الإفادة منه . من ذلك أن الجراحين قد أخذوا يستعملون شرائح منه لإصلاح الجماجم أو العظام المكسورة ، بل إنهم ليستخدمونه اليوم لتغليف الأعصاب « المقطوعة » بصفائح منه لا يزيد سمكها عن جزء من ألف جزء من البوصة، ويمكن أن يترك هنا أو هناك في البدن إلى أن يشاء الله.

أمريكا

من الوسائل التي تتخذها الحكومة الأمريكية الآن لإصلاح الأسرة تنظيم نوع من الدراسات التي تعالج الوسائل الصحيحة لتربية الأولاد تربية سليمة يحضرها الآباء والأمهات الذين يخفقون في تربية أولادهم تربية سليمة . فإذا ما ارتكب الأبناء أموراً يعاقب عليها القانون ، فإن القاضي الذي تعرض عليه القضية يأمر — على حسب ظروف القضية — بضرورة حضور آباء هؤلاء الأبناء وأمهاتهم هذه الدروس ، إذ أنهم قد أظهروا إخفاقهم في تربية أبنائهم . ويطلق على هذه المدارس اسم « مدارس الآباء والأمهات » .

✡ ✡ ✡

ظهرت في هذا الشهر عدة مؤلفات نذكر من أهمها : —

(١) « هل يجب أن نحارب روسيا » ؟

Most we fight Russia ? by Ely Cullertson.

عاش المؤلف في روسيا أربع سنوات درس في خلالها الحالة في روسيا دراسة دقيقة . وهو يحاول في هذا الكتاب أن يبسط أوجه الخلاف بين الأمتين الأمريكية والروسية ، وأن يشرح وجهة نظر كل من الدولتين تجاه الأخرى ، ولماذا تخشى كل منها الأخرى . وهو يعرض الوسائل التي يمكن بها تجنب وقوع حرب بين هاتين الدولتين ، وكيف يمكن أن يتعاونا في بناء مستقبل العالم.

(٢) « العلم في عالم متغير »

Science in a changin world by E. J. Cable, W. H, Kadesch and R. W. Getchell.

وهذا الكتاب عبارة عن ملخص قصة الإنسان والعلوم الطبيعية يسرد في أسلوب سهل للقارئ العادي تاريخ تطور العلوم الطبيعية منذ ابتداء التفكير الإنساني إلى آخر ما وصل إليه الاكتشاف العلمي الحديث (الرادار — التليفزيون — الطاقة الذرية) . وهو مزود برسوم وصور .

(٣) « دائرة معارف الفنون »

Encyclopedia of the arts, edited by Dagobert D. Runes and Narry G. Schrickel.

هو كتاب شامل لتاريخ جميع الفنون وخصائصها ومختلف المدارس والمذاهب فيها . اشترك فيه عدا مؤلفيه الثلاثة نحو من ١٥٠ كاتباً . ومن الموضوعات التي يتناولها : الموسيقى ، والمسرح ، والسينما ، والراديو ، والرقص ، والرسم ، والتصوير ، والنحت ، والعمارة ، والطباعة ، والزخرفة ، والتعدين ، والصناعة ، والتدريس والتنسيق الزهور ، وتصوير الكتب ، وسيكولوجية الفن ، والرمزية في الفن ... إلخ

(٤) « أطباء العقل » Doctors of Mind, by Marie Beynon Ray

وهو عبارة عن قصة الطب النفسي مسرودة بأسلوب مبسط للقارئ العادي . فهو يشرح الاضطرابات العصبية والنفسية المختلفة التي قد يتعرض لها الإنسان ويبين طرق علاجها بالطب النفسي .

رُوسيا

تعد « الرميانا » للكاتب الهندي كولسي من الملاحم الشعرية الخالدة في أدب الشرق ، وقد توفر على نقلها إلى الروسية أعضاء معهد الاستشراق بأكاديمية العلوم بلينجراد تحت إشراف العلامة برنيكوف .

✡✡✡

بعد أن منح المستعرب أغناطيوس كراتشقويفسكي وسام لينين منذ أعوام ثلاثة أهدى إليه الماريشال ستالين في غضون هذا الشهر إحدى الجوائز العلمية تقديراً لجهوده في خدمة التاريخ الإسلامي وبحوثه القيمة في الأدب العربي الحديث . وبهذه المناسبة أعاد العلامة كراتشقويفسكي طبع رسالته عن الشاعر الدمشقي أبي الفرج الوأواء ، وكان قد نشرها لأكثر من ثلاثين عاماً ونال بها إجازة الدكتورية في الأدب .

✡✡✡

من الكتب التي تقرر تدريسها في جامعة موسكو كتاب « الخلافة في الشرق الأدنى » للأستاذ زاخودر المتخصص في تاريخ القرون الوسطى في الشرق ، ويتضمن هذا الكتاب معلومات لا يستغني عن الإلمام بها طالب العلم ومعلم التاريخ في المدارس السفيتية . ويقدم المؤلف في كتابه لوحات تاريخية عن الساسانية وظهور الإسلام والدول السلجوقية والحروب الصليبية والفتوحات العربية والفتوحات المغولية وقيام الإمبراطورية العثمانية والحركة الوهابية وتاريخ إيران إلى نهاية القرن الثامن عشر .

✡ ✡ ✡

لا تقل شهرة أبي العلاء المعري في أكرانيا عن شهرة الشاعر عمر الخيام فيها ، إلى حد أن الصحف والمجلات الأدبية تتناقل ترجمات نثرية وشعرية من آثاره، وكان آخر الاهتمام بأدبه أن « رسالة الغفران » نقلت إلى اللغة الأكرانية، وعلق على هذه الترجمة السيد أحمد أغا على زادة مفتي جنوب القوقاز تعليقات غاية في الأهمية .

✡ ✡ ✡

من الآثار القصصية التي راجت رواجاً فذاً في غضون الحرب الأخيرة رواية « نهر الدون يفيض في هدوء » لمؤلفها الكاتب النابه ميخائيل شولوخوف ، والتي بناها على ما وصف به إيليا أهرنبرج الاتحاد السوفيتي من أنه « مجموعة بلاد أبناؤه يقرؤن كتباً ويلدون أطفالا » وقد نقلت هذه القصة إلى أكثر من عشرين لغة من بينها لغة الإسكيمو .

فرنسا

انتخب المجمع العلمي الفرنسي ستة أعضاء جدد وكان بين الأعضاء الجدد المنتخبين الكنت دي شمبران فقد انتخب بالإجماع والطريف في انتخاب هؤلاء الأعضاء أن المجمع الفرنسي قد تجاوز في هذه المرة عن تقاليده المتبعة وضم إليه ستة أعضاء دفعة واحدة حتى أن واحداً منهم لم يرشح نفسه ويقال ان أختيار الاعضاء في المستقبل سيجري علي قاعدة جديدة هي أن يكون الترشيح من اختصاص المجمع .

✡ ✡ ✡

في الكتب التي ظهرت حديثاً وكان لها شأن في الاوساط الأدبية كتاب « رباعيات عمر الخيام » نقلها الي الفرنسية شعراً الاستاذ إيف جيرار لودانتك Yves Gérard Le Dantec وليست هذه أول ترجمة فرنسية لرباعيات الخيام .

والمظنون أن الأدب الفرنسي يريد أن ينافس الأدب الإنجليزي في هذه الرباعيات لأن الترجمة الإنجليزية تعد في عرف الأدب الإنجليزي من الروائع التي يزهى بها .

✡ ✡ ✡

وظهر أيضاً كتاب عن الكاتب الفرنسى الشهير « زولا » بقلم إسكندر زيفاس ولعل هذا الكتاب أوفى مؤلف ظهر عن زولا في تمجيد عبقريته وفيما يحويه من وثائق ومعلومات وآراء شخصية .



رسائل القراء

الآثار الإسماعيلية في قيام الدولة الفاطمية

قرأت في عدد مايو من مجلة « الكتاب » (ص ١٨٧) كلمة للأديب إبراهيم سليمان (من لبنان) يعقب فيها على بعض ماورد في مقالي الذى نشر في عدد فبراير الماضي من « الكتاب » بعنوان الآثار الإسماعيلية في قيام الدولة الفاطمية .

وقد حاول الكاتب الأديب أن يفند ما قلته عن عبد الله بن ميمون القداح من أنه فقيه فارسي يرجع إلى أصل مجوسي وأنه كان يستتر بالتشيع ويدعو لإمام من آل البيت هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . . . الخ (ص ٥٣٩ من الكتاب) فذكر في تعقيبه أن عبد الله المذكور كان من فقهاء الشيعة وأنه كان معاصراً لجعفر الصادق والد إسماعيل المذكور ، وإذاً فليس من المعقول في رأيه أن يدعو لإمام لم يكن قد وجد في عصره .

أما أن عبد الله بن ميمون كان من فقهاء الشيعة فهذا ما قلناه في مقالنا وفي سائر بحوثنا وكتبنا (تاريخ الجمعيات السرية . الحاكم بأمر الله ... الخ) وأما أنه كان معاصراً للإمام جعفر الصادق فهذا لا يدحض من قولنا أنه كان يدعو لإمامه محمد بن إسماعيل حفيد الصادق . ذلك أن جعفر الصادق توفي سنة ١٤٨ ﻫ وقد توفي ولده إسماعيل أثناء حياته ولكنه كان قد عهد إليه بالإمامة من بعده ، وعهد قبل وفاته أيضا بالإمامة من بعده إلى ولده محمد وذلك بموافقة أبيه جعفر الصادق ، ووقع ذلك كله قبل الإمام جعفر سنة ١٤٨ ﻫ وكان عبد الله بن ميمون يومئذ حسبما تؤكد لنا الروايات الشيعية شابا لم يجاوز الثلاثين من عمره ، وقد عمر ابن ميمون بعد ذلك طويلا وتوفي وفقا للرواية الشيعية سنة ١٨٠ ﻫ وإذا فليس هناك تناقض زمني ، ومن الممكن والمعقول أن يدعو ابن القداح إلى إمامة محمد بن إسماعيل الذي تلقى عهد الإمامة قبل سنة ١٤٨ ﻫ .

على أني أزيد على ذلك بأني لست كبير الثقة في الرواية الشيعية عن ابن ميمون وقد انتهى البحث الحديث إلى روايات أوضح وأوثق عن عصره ونشأته . ويضع بعضهم (مثل ماسنيون) وفاته سنة ٢١٠ﻫ ، ويضع البعض الآخر (مثل دي جويه ودوزي)

وفاته بعد ذلك . ولكن المهم في ذلك كله هو ما يرجحه البحث من أن عبد الله بن ميمون بن ديصان يرجع الى أصل مجوسي وأنه قام بدعوته السرية التي انتهت فيما بعد إلى قيام الدعوة الفاطمية .

هذا ما أردت أن أوضحه ولست أعنى في ذلك بغير البحث العلمي المجرد ، ولست أحب أن أقف عند بيانات أو روايات مذهبية لا تؤيدها الأدلة التاريخية الوثيقة .

محمد عبد الله عنان

تصحيح

حضرة المحترم رئيس تحرير مجلة الكتاب .

تحية وسلاماً . وبعد ، فقد قرأت في عدد مايو في نقد الأستاذ محمود اللبابيدي لكتاب حضارة العرب « ... فالجماعة التي تسمت باسم لجنة النشر للجامعيين مثلاً ، قد أخرجت كتاب تراث الإسلام لطائفة من المستشرقين على أنه كتاب The Legacy of Islam المعروف ، وبالمقابلة تبين أن المعربين قد حذفوا أهم فصول الكتاب ، وهي أبحاث القسم العلمي من تراث الحضارة الإسلامية ، وهو لباب الكتاب ، دون أن يكلفوا أنفسهم الإشارة إلى ذلك ، حتى رماهم بعض الناس بسوء النية ، وبالنزعة التجارية » .

وإني لأقرر أن لجنة النشر للجامعيين لم تقم بتعريب هذا الكتاب ، وكنت أحب أن يكلف حضرة الناقد نفسه فيتأكد من اسم اللجنة التي يعنيها قبل أن يرميها برأيه . وأغلب ظني أن اللجنة التي قامت بتعريب هذا الكتاب هي لجنة الجامعيين لنشر العلم وهي غير لجنة النشر للجامعيين التي ما أنشئت إلا لتشجيع الخلق الفني ممثلاً في ظواهره المعروفة ، وهي الرواية والقصة والأقصوصة والمسرحية والشعر والتراجم .

وتفضلوا بقبول فائق احترامي ؟

عبد الحميد جودة السحار
سكرتير لجنة النشر للجامعيين

الكتاب

يولية ١٩٤٦

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .

- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .

- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .

- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :

١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان .

١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى أو ما يعادلها .

-/ ٣ /١ لإنجلترا

-/ ٧ /١ أو ٦½ دولار للبلاد المنتظمة في اتحاد البريد العام

-/١٣/١ أو ٨ دولارات للبلاد غير المنتظمة في اتحاد البريد العام

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً

الكتاب

السـنة الأولى
الجزء التاسع

المجلد الثاني

شعبان ١٣٦٥
يولية ١٩٤٦

هذا أوان الجد

هذا أوان الشدّ فاشتدّي زيَمْ   قد لفّها الليل بسوّاقٍ حُطَمْ
ليس براعي إبلٍ ولا غَنَمْ   ولا بجزّارٍ على ظهر وَضَمْ

قيل إن الحجاج لما تمثل بهذين البيتين وما يليهما من رجز غريب تصور معانيه الهول والفزع وتقعقع ألفاظه بالزجر والردع قصد إلى التهويل على السامعين كما كان يهول عليهم في نبرات صوته ومتوعد إشاراته . ويروي المبرد أن الحجاج «كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد» .

هذه الصورة العابسة التي تفرقت ألوانها القاتمة في كتب الأدب عن الحجاج وجمعها صديقنا الدكتور شوقي ضيف في كتابه « الفن ومذاهبه في النثر العربي» . هي الصورة التي لاحت للخاطر حين هممنا بكتابة هذا المقال فإننا لما عرضنا لحال الشرق العربي في عهده الجديد وأنعمنا النظر في واجبات رجال الفكر حياله رقي الذهن على جناح تداعي الأفكار إلى عهد الحجاج يوم ولي العراق ويوم افتتح ولايته بالتحذير والتنبيه .

قصد الحجاج إلى التهويل كبحاً لجماح النفوس الثائرة واستئصالا لشأفة الفوضى وإنذاراً لمن تحدثه نفسه أن يعبث بالأمن ويعيث في الأرض فساداً .ولقد نهج هذا النهج حتى تجتمع في يده مقاليد هؤلاء الناس الذين أمره الخليفة عليهم فيوجههم الوجهة التي يبغي من ورائها المجد والسلطان وتأثيل الملك والغلبة على الأعداء .

ولئن جارينا الحجاج في الخطة وبدا لنا وجوب تحذير أهل النهى إننا مختلفون

عنه في الغرض فما إلى مضمار السياسة والحكم رمينا بل إلى مضمار العلم والأدب . هو دعا إلى تسويم أفراس الجلاد ونحن ندعو إلى تسويم أفراس الفكر هو قرع العصا للثائر المتمرد ونحن نقرع العصا لذي الحلم وننزل أنفسنا منه منزلة ولد ذلك الحكم الذي كانوا يقرعون له العصا كلما أخطأ في الحكم فيفطن للصواب . ولسنا نبغي من وراء هذا التنبيه إلا توطيد أركان الأدب ومواجهة العهد الجديد بما هو أهل له من وافر العدة وصادق العزم وحاشا أولي الألباب ألا يستبينوا الرشد في منعرج اللوى إلا ضحى الغد :

وهل أنا إلا من غزيّةَ إن غوتْ غويتُ وإن ترشد غزيّة أرشد

أجل نحن اليوم في منعرج اللوى وما تبعة رجال القلم في هداية الشرق العربي إلى الطريق السوي بأقل من تبعة رجال الحكم في السير به في فجاج العزة والفلاح . وهذه التبعة المشتركة بين رجال القلم ورجال الحكم عروة وثقى بين الفريقين أيدها التاريخ في كل طور من أطوار اليقظة بعد السبات والهدى بعد الضلال والتحرر بعد العبودية . ولعل مهمة رجال القلم أبلغ خطراً وأجل شأناً فهي من جيش التحرر الطليعة التي تمهد الطريق لدخول فيالق الحكم قاهرة منصورة . يقول تين : « إن الثورات الفكرية لا توقد نارها مهارة رجال الحكم بل الغرائز الشعبية » . وهل غير حملة الأقلام من يحرك هذه الغرائز ويدفعها إلى اطلاب الحق والحرية . وهل قامت في أمة من الأمم ثورة من هذه الثورات الاجتماعية والسياسية والدينية في القرنين الأخيرين مثلاً إلا كان أرباب اليراعات هم النافخين في صورها والعاملين على إعداد النفوس لما يريدونه لها من خير ونعيم حتى إذا انطلقت إلى غاياتها كانت كالخيل قد خرجت من حبل مجريها لا تتريث ولا تقف أو تبلغ الهدف المنشود .

كان الشرق العربي إلى الأمس القريب يتنزى في أصفاد الاستعمار وأغلال الاقتصاد ولا يجد بين هذه وتلك فكاكاً من هذه السلاسل التي يجررها حية رقطاء . وكان المفكرون من أبنائه محبوسة أقلامهم يعز عليهم السبيل إلى كشف غمته وإجلاء الظلمات عن أفقه إلا ما كان يلمع في سمائه بين الفينة والفينة من ومضات خاطفة تنبثق من فكر بعض المخلصين من مثل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وطاهر الجزائري وقاسم أمين ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم فتنير القلوب وتبعث فيها ميت الآمال . ومن هؤلاء المفكرين من تخذ العلم والأدب وسيلة إلى غرس بذور العزة والكرامة في النفوس علماً بأن النفس المتعلمة المهذبة لن تخنع للذل طويلا فكان منهم الشدياق والحوراني وكرامة واليازجي والبستاني والزهاوي والشنقيطي وتيمور

ومن لف لفهم ثم تبعهم في القيام بهذه المهمة النبيلة كبار رجال العلم والأدب في هذا العصر.

على أن شجرة العلم والأدب لا تنمو ولا تزدهر ولا تؤتي أكلها إذا لم تغمرها الحرية بأشعة شمسها الساطعة وهوائها النقي وريها العذب. فلا عجب إذا ذوى بعض النبات بعيد انبثاقه وجفت بعض البراعم قبيل أن ينعقد عليها الثمر. ولا عجب إذا نمت هنا وهناك بعض الطفيليات إلى جوار غراس الثقافة فكانت قبلة الأعين وإن لم تزهر إلا بتافه الإنتاج. ولا عجب كذلك إذا رأينا بعض الأقلام الرصينة قد رضيت بالأمن والعافية وندت عن المثال الأعلى وأسفت إلى حيث ترضي اللاهين والعابثين حتى صح فينا قول حافظ إبرهيم:

أمور تمرّ وعيش يُمرّ ونحن من اللهو في ملعب

فبينا أخضعت السياسة الأدب والعلم والفن تصرفها كيف شاءت وشاء لها الهوى وتحرم عليها ما لا تشاء وما لا تهوى وبينا قام نفر من أحرار الفكر يحاولون الإفلات من ربقة الأسر إلى فضاء الحرية ويضربون في مناكب الأرض ويحطون عصا التسيار في مختلف الأصقاع التي لا سلطان على أقلامهم فيها فتسبينا آيات المراش والريحاني وجبران وأضرابهم إذا بالتعليم يتعثر في سيره ويمشي وفق الرغبات والأهواء فلا يخرج إلا آلات شرقية أو ببغاوات غربية وإذا بالمادة تطغى على بعض الأفكار فتصبح عجلها المعبود.

جرى الأدب على هذه الحال في شعاب ثلاثة: فمنها شعب الأدب الخفيف الذي لا يشبع من جوع ولا يروي من ظمأ وإنما هو مدى نفري بها الوقت لاهين باسمين. ومنها شعب الأدب الملتاث بلوثة العجمة فلا نفع فيه ولا غناء فما هو في المكان العالي من الآداب الإنسانية العالمية ليحمل إلينا دخائل النفس في مطاوي أسرارها وخفي نزعاتها أو ليعرض لنا صور الفكر في أرفع تدويمه وتحليقه وإنما هو رسوم من سرد لا وزن له أو تصوير حوادث ينبو عنها ذوقنا الشرقي أو استثارة لكوامن غرائز الشباب. ومنها شعب الأدب الرصين وهو إما أدب قديم وإما من وحي هذا الأدب القديم وفيهما كل الخير وإما من وحي هذا العصر وبيئته وقليل فيه الإبداع والتجويد وإما مترجم عن الآداب الأجنبية الجديرة بالترجمة. ولم يخل هذا الأدب الرصين من سمة الفردية التي لا تجاوب إلا روح المؤلف ونزعته كما أنه لم يخل من طابع التقليد المضروب على قوالب العبودية.

إن الفردية في أدب هذا الشعب هي نظر المؤلف إلى الفائدة الأدبية أو المادية التي يجنيها من نفثات يراعته لا إلى الفائدة التي يجنيها المجتمع مما تشتمل عليه دفتا كتابه

فكأنه ينظر بعين ديكرت فلا يعترف بغير الحق الذي يحدوه عليه عقله أو ينظر بعين روسو فلا يرى العدل والصلاح إلا حيث يدله عليهما وجدانه وفي هذا ما فيه من خطر على المجتمع بل على المؤلف نفسه لأن الإغراق في الفردية مثل التخلي عنها بتة كلاهما مضيعة للعبقرية. ولا نريد أن نقول بلسان مدام دي ستايل لهذا الغارق في الفردية إن المجموع هو اليوم كل شيء وإن الفرد أصبح هين الشأن. ولكننا نود لو وقف الفرد صفاته وعبقريته لصلاح المجموع ومصلحته ولا خفاء أن هذا العصر قد جرد كلمة «أنا» من عنجهانيتها فرأى الناس فيها من الكراهية ما كان قد رآه بسكال من قبل فطرحوها طرح النواة وخمدت بعدها أنفاس «أنا الدولة» و «بعدي الطوفان» فأحر بحملة الأقلام أن يتنكبوا هذه المعاني وهم الشموع تحترق لتنير دياجي الأفهام أو الرياحين تبث الشذا وقصاراها إلى الذوي والذبول.

وأما التقليد فأمر لا مفر منه في الأدب لكل أمة ناهضة غير أن صواب الرأي ألا يدوم إلا ريثما تتوطد أركان أدب هذه الأمة على أركان من سمات العصر. ولا غضاضة على الأمة الناشئة أن تنصرف إلى التقليد والمحاكاة فالتقليد هو أول خطوات الابتداع وقلّ أن صدف عنه أعاظم الكتاب والشعراء شأنهم فيه شأن الصبي يحبو ثم ينهض ليمشي فيتعثر ثم يتدرج بين النهوض والعثار حتى تتعود قدماه المشي فالجري الحثيث. بيد أنه إذا اتخذ التقليد غاية لا وسيلة تماثلت النفوس وتشابهت العقول كأن الله لم يهب كل إنسان نفساً خاصة وعقلا خاصاً. ثم إن التقليد مهما بلغ من الإتقان والإحكام لا تنتفي عنه صفة الزيف ولا يدنو من جوهر الأصل قيد شعرة ويظل هذا الأصل منه غاية لا ترام فالورق الملون الذي تخرجه آلات الصناعة تقليداً للجلد لا يستحيل جلداً والتطريز الآلي المحلى بأبرع الصور لا ينقلب وإن خدع العين تطريز الإبرة تركبها الخمس اللطاف وقطع الحديد تطلى بماء الفضة أو تلبس قشرة من الذهب ليس لها قيمة اللجين أو العسجد وحبات الزجاج التي كان جاكان الفرنسي صانع السبح أول من فكر في أن يقلد بها اللآلي لم تكتسب على طول السنين وعلى شدة الإقبال عليها فرند اللآلي وإشراقها. أفما آن لنا أن نعنى في أدبنا بالجوهر دون العرض وباللباب دون القشور. كان الغُيُر العقلاء منا يرون إنتاج الشعبين الأولين من أدبنا فيحز في صدورهم وتضيق به نفوسهم حزناً وأسفاً وكانوا مع ذلك صابرين عليه صبر الكرام إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا. ولقد قضى الله هذا الأمر فاستقلت بلاد العرب جمعاء أو كادت وزالت الحجج التي كنا نتمسك بها كلما عيب علينا عمل لا يمت إلى السمو والرفعة بصلة من الصلات وأصبحنا أحراراً في تفكيرنا وتصرفنا فماذا نحن فاعلون.

السياسة في حاجة إلى رجال يمسكون الدفة ويسيرون بسفينة الحكم سيراً موفقاً ناجحاً والاقتصاد في حاجة إلى متخصصين يدر علينا علمهم وذكاؤهم وإخلاصهم المال الوافر ننفقه في وجوه الإصلاح في شؤوننا والاجتماع في حاجة إلى علماء هداة يعنون بنا أفراداً وأسرة وأمة ويوفرون لنا حياة كلها سعد وهناءة والتعليم في شتى مراحله محتاج إلى رجال يضعون له البرامج القوية بعد دراسة وتمحيص وتدقيق فلا يشوبها الارتجال ولا تمليها الأهواء. ومرتبة حملة الأقلام من كل هذا مرتبة الرائد الرفيق والهادي النصيح. فهل أعدوا عدتهم لما يتطلبه هذا العهد الجديد الذي أشفقنا عليهم وعلى أنفسنا منه فدفعنا الإخلاص إلى أن نستعير من الحجاج تهويله وتفخيمه ونصيح قائلين: هذا أوان الجد.

أيها الناضون الأقلام الرهيفة إن في أيديكم أفلاكاً تدور فسطروا لأممكم بها سطور العزة والرفعة واذكروا قول ابن المعتز:

كم منايا وكم عطايا وكم حتـــفٍ وعيش تضم تلك السطور

أو اذكروا قول رنان: « إن الخلود أن تقوم بعمل يبقى على الزمان » أو قول هوجو: « إن المستقبل رهن بالكتّاب الذين يعرّفون الإنسان لبني الإنسان على مدار الأزمنة والأجيال ».

لقد كان لكتاب الشرق العربي بالأمس من وجداناتهم رقيب واليوم أصبح لهم من الوعي القومي حسيب جديد فإن اشتد هذا الوعي الجديد في الحساب وجوامع الأدلة من يقظته وتوثبه وحبه الكمال تشير إلى أنه سيشتد كان ذلك مدعاة إلى أن يكسب الأدب ويكسب الوطن وإلى أن تبتسم للكتاب عرائس الخلود. ولا نخال مهمة كتابنا متعذرة عسيرة فوراءهم مجد ضخم يعتمدون عليه وعندهم حاضر بسام يفتر عن أعذب الأماني ويجلو لهم خلاصة حضارات صيغ من تبرها في الماضي الأكاليل والتيجان ثم اختزن الدهر هذا التبر حقبة من الزمان إلى يوم يبعث في الشرق الصاغة المهرة فيحدوهم الشغف بالمثال الأعلى إلى الانقطاع له والتفاني فيه وتجويد القرابين التي يقدمونها على مذبحه. ويا سعد الشرق يوم تتفق كلمة كتّابه أجمعين على أن يقفوا أنفسهم للفن والخلق والابتكار وإيثار مصلحة المجموع على مصلحة الفرد فيكون لنا من هذا كله أدب إنساني خالد تهتز له كل نفس لأنه صورة كل نفس ويبقى على الزمن لأنه منارة كل زمن.

عادل الغضبان

حديقة الأفكار

التتويج والمبايعة عند الأمم وعند العرب

لمناسبة مبايعة عبد الله بن الحسين ملك شرق الأردن

للأستاذ عباس محمود العقاد

قليل من الناس من يخطر بباله أن مراسم التتويج لها علاقة في الزمن القديم بصناعة التدليك والتجبير .

ولكن الواقع أن العلاقة التي بينهما متواترة السند من أقدم عصور التاريخ ، ولا سيما في بلاد الشرق القريب .

فالكهانة والطب صناعتان مختلفتان في عصور الحضارة الحديثة ، ولكنهما كانتا فيما غبر من الزمن — ولا تزالان في بعض الشعوب الهمجية — صناعة واحدة يزاولها الكهان دون غيرهم ، ويفهمون الناس أن كل شفاء فهو إخراج لروح شرير من الجسم ، وكل تعويذة فهي حماية للجسم من روح شرير .

وكان الزيت — والدهن على العموم — من أخص وسائل العلاج في الأحوال التي تتصلب فيها العروق ويغيب فيها الوعي ويحتاج فيها إلى تطرية الجسم أو استعادة الحرارة بالتدليك والتمريس . فكان المسح بالزيت مرادفاً لحماية الجسم من الأرواح الخبيثة وتحصينه بالعناية الإلهية ، أو كان رمزاً للتبريك وعلامة على القدس والتقديس .

وتقدمت الحضارة شيئاً مع الزمن فاقترن الزيت بالبركة من طريقين آخرين ، وهما طريق الخير والوفر والغذاء ، وطريق النور الذي يضيء للأبصار ويشير إلى ضياء البصائر والنفوس . إذ لم يكن ثمة نور يضيء بغير الزيت والفتيل ، إلا أن يكون ناراً من مشعل يرمز إلى قوة النار المهلكة ولا يرمز إلى البركة والضياء .

ومن هنا نشأت عادة المسح بالزيت لتبريك الملوك وكبار القسيسين والكهان ، وأطلق اسم « المسيح » على الملك الذى رجاه بنو إسرائيل لإعادة ملكهم القديم ، وظهرت في العبرية والآرمية هذه الكلمة من مادة واحدة وهي مادة « المسح » التي

تتقارب في اللغتين ، ثم ترجمت إلى اليونانية واللغات الأوروبية بمثل هذا الاشتقاق .

* * *

على أن التتويج كان يشتمل على المراسم المدنية إلى جانب المراسم الدينية ، وهي ترجع إلى لبس « التاج » ويبتدئ بها تنصيب الملك وتقديم شعائر الولاء بين يديه .

وقد شاع اسم التاج في اللغات الأوروبية حتى غطى على غيره من الشارات والعناوين الملكية في بعض البلاد . فهم يقولون خطاب التاج ومستشار التاج ومحامي التاج وعيد التتويج وحفلة التتويج ، فيخيل إلى السامع أن الملك والتاج شيئان متلازمان لم ينفصلا قط فيما مضى من الزمان .

والحقيقة أن التتويج يرجع إلى أصلين قديمين لا إلى أصل واحد ، وهما الإكليل والعصابة ، وكلاهما كان من ألوان الزينة المشتركة بين الملوك والأمراء وسائر الناس . فكانوا يضفرون الأكاليل من الفروع والأغصان للعروسين وللضيوف الأعزاء وللفائزين في مسابقات الفروسية والألعاب الرياضية ، ثم سرت هذه العادة إلى مظاهر التكريم عامة ، فأصبحوا يضفرون الأكاليل للقواد الظافرين والجنود المستبسلين ، وربما أخذوا الإكليل من نبات البلد الذي فتحه القائد أو فك عنه الحصار ، واختاروه من النبات الذي يعيش ولا يسرع إليه الذبول .

أما العصابة — وهي في رأي المؤرخين أصل التاج الأصيل دون الإكليل — فقد كانوا يلفونها على الرأس ويتخذونها من نسيج الكتان أو الحرير الموشى بالمعدن النفيس ، ثم أصبح الشريط من النسيج الموشى صفيحاً من الذهب المطروق ، ثم أضيفت إليه صفائح أخرى وحليت الصفائح بالرصائع من الجواهر الكريمة على اختلاف في الأوضاع والأشكال ، كما نرى في التيجان الحديثة التي تقدر تكاليفها بمئات الألوف من الجنيهات .

وربما أدخلوا الحديد في التاج ، كما صنعوا في تاج «لمباردي» المشهور الذي قيل إن حديده من مسمار الصليب ، وظلت له شهرته وقداسته ، حتى بعد أن كتب المؤرخون ما كتبوه في تصحيح هذه الإشاعة القديمة ، ولم يزل كذلك إلى أن توج نابليون به نفسه ملكاً على إيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر ، ثم أعيد إلى الإيطاليين بعد سقوط نابليون .

وعلى اشتهار الملوك الأوربيين بالتيجان واهتمامهم بحفلات التتويج لم يكن لبس التاج من مراسم الملك في الدول الأوربية القديمة ، فقد كان أول عاهل أوربي لبس

تاجاً الإسكندر المقدوني الذي رفع الكهان نسبه في واحة سيوه إلى الإله أمون ، واستعار التاج من مصر القديمة فانتقل معه إلى الأمم الأوربية ، وكانت مصر أقدم الأمم التي اتخذت التيجان شارة الملوك .

على أن المصريين كانوا يقرنون التاج بالرموز الزراعية ، ولا يكتفون به في الدلالة على حكم البلاد . فكانت النحلة رمزاً لمصر الشمالية ، وورق البردي رمزاً لمصر الجنوبية ، وكان الرمزان يسبقان اسم الملك على الآثار والشارات .

ومن المشهور أن العرب اقتبسوا لباس الرأس قديماً من سكان مصر الشرقيين ، ولكن أمراءهم ورؤساءهم كانوا على الأغلب الأعم يتشبهون بملوك الغرب في مراسم الإمارة ، مع احتفاظهم بالأزياء العربية التي ألفها سادة القوم في اليمن والحيرة ، ولا سيما الحواضر الكبار .

ولما ظهر الإسلام كان المسلمون يبايعون النبي عليه السلام مبايعة الأمان والإيمان ، وأقدم ما عرف من ذلك بيعة العقبة التي عاهد فيها الأنصار النبي أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم ، ولم يكن للنبوة ولا للخلافة من بعدها مراسم من قبيل مراسم التتويج كما هو مفهوم بالبداهة ، وإنما كانت المبايعة والمصافحة هي كل ما هنالك من مراسم الولاية في عهود الخلفاء الراشدين ، ولم تكن للنبي عليه السلام شارة من قبيل مراسم الرئاسة غير العنزة التي كان بلال بن رباح رضي الله عنه يحملها بين يديه ، وهي حربة من هدايا النجاشي ملك الحبشة، بقيت إلى أيام الخلفاء الراشدين ، ولم تظهر بعدهم إلا في أيام المتوكل العباسي كما قيل ، فكان صاحب شرطته يحملها بين يديه .

واقتصرت شارات الخلافة على ما حفظ من آثار النبي عليه السلام ، وأشهرها البردة الشريفة التي أجاز بها صلوات الله عليه كعب بن زهير، فباعها ورثته معاوية بن أبي سفيان ، ثم توارثها الخلفاء من بعده إلى أن صارت لخلفاء بني عثمان .

وكان للنبي عليه السلام أثر آخر انتقل من بعده إلى أبي بكر فعمر فعثمان بن عفان رضي الله عنهم ، وهو الخاتم الذي كان يختم به رسائله إلى الملوك والولاة يدعوهم إلى الإسلام أو يعاهدهم على بعض العهود . فصنع عثمان خاتماً مثله وأصبح الخاتم على هذه السنة من لوازم الخلفاء .

وكانت العمامة وعليها العصابة أحياناً هي تاج الخلفاء المسلمين ، وأصبحت الخلافة « ملكا عضوضاً » في عهد بني أمية ، وهم مع ذلك ينفرون من لبس التاج ولا يرتضون ذكره في قصائد الشعراء الذين يمدحونهم، فلما مدح ابن قيس الرقيات عبد الملك بن مروان

بقصيدته البائية التي يقول فيها :

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك ولا تصلح إلا عليهم العرب

استوقفه عبد الملك حين قال :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقال له : أتمدحني بالتاج كما يمدح علوج العجم وأنت القائل في مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلت عن وجهه الظلماء

فاتهم الشاعر في إخلاصه لأنه جعل مصعب بن الزبير شهاباً من الله وجعل له هو جبيناً من الذهب يأتلق عليه التاج .

على أن عبد الملك بن مروان تشبه بملوك العجم في لبس الطراز ،وهو يجهل معاني الكلمات المنقوشة عليه ، فقد كان الأكاسرة والقياصرة يطرزون ثيابهم بأسمائهم ويكتبون تلك الأسماء بلغاتهم في صورة الحلية على نحو يشبه حلية الطغراء التي شاعت في أيام بني عثمان ، وكان ملوك الروم وأمراؤهم يجلبون بعض هذه الطرز من مصر ويستكتبون الصناع عليها بعض الكلمات الدينية باللغة الرومية ومنها التسمية المسيحية : باسم الأب والابن والروح القدس ... فلما تنبه عبد الملك إلى ترجمة هذه الكلمات أبطل النقوش الرومية على الطرز واستبدل بها النقوش العربية ، فبطلت في ملابس الخلفاء والرؤساء من ذلك الحين .

وصدق من قال إن الدول والأيام عاريات وديون . فهذا الذي حدث عند نقل الحضارة من الروم إلى العرب قد حدث مثله حرفاً لحرف عند نقل الحضارة من العرب إلى الأوربيين . فوجد في إيرلندة صليب من مخلفات القرن التاسع منقوش في وسطه بالحرف الكوفي « بسم الله الرحمن الرحيم . . . » . واشتمل منظر تتويج العذراء بمعبد من معابد فلورنسة المشهورة على أشرطة تحملها الملائكة في السماء مطرزة بالحروف العربية ، وهكذا يدان الإنسان في هذه الدنيا ويدين .

وكان الخليفة يجلس في داره يوم البيعة لاستقبال رجال الدولة فيدخل عليه الوزراء والقواد والقضاة فيعاهدونه على الطاعة والولاء ، ويصافحه كل فريق منهم وهم يرددون القسم الذي يتلوه عليهم الكاتب الماثل بين يدي الخليفة ، ثم يعممه كبير الوزراء ويلبسه البردة ويناديه بلقب أمير المؤمنين ، وجرت عادة بني العباس بعد سماع قسم البيعة باختيار لقب للخليفة ، كالواثق بالله والمتوكل على الله والمعتضد بالله ، إلى أشباه هذه الألقاب ، ثم أصبحت الخلافة في أواخر الدولة العباسية

مقترنة بالسلطنة فكانت لهؤلاء السلاطين ألقاب يخلعها عليهم الخليفة، كشمس الدولة وركن الدولة وعز الدولة ، وما شابه هذه المضافات إلى الدولة ، ثم يخرج الخليفة على إثر انتهاء البيعة بين صفين من الجند وفي ركابه وجوه القوم وعظماء المملكة إلى دار الخلافة حيث تكتب الكتب إلى الأمصار لدعوة المبايعين من الولاة والقواد وسروات البلاد .

وما زالت عبارات البيعة تزداد في التطويل والتفخيم حتى أصبحت تلاوتها تستغرق ساعة أو أكثر من ساعة ، وكلما زاد الشك في الولاء زاد القسم على الولاء ، وزاد الكتاب في التنميق والتنسيق وحشو الكلام بالفضول والتكرار المملول ، ومن ذاك قولهم : «.. إن عبد الله وخليفته المفترض عليك طاعته ، الواجب على الأمة إمامته وولايته اللازم لهم القيام بحقه والوفاء بعهده ، لا تشك فيه ولا ترتاب به ولا تداهن بأمره ولا تميل إلى غيره ، وأنك ولي أوليائه وعدو أعدائه من خاص وعام وقريب وبعيد وحاضر وغائب متمسك في بيعته بوفاء العهود وذمة العقد : سريرتك مثل علانيتك وضميرك فيه وفق ظاهرك ، على أن إعطاءك هذه البيعة من نفسك وتوكيدك إياها في عنقك لأمير المؤمنين عن سلامة من قلبك واستقامة من عزمك واستمرار من هواك ورأيك ، في أن لا تتأول عليه فيها ، ولا تسعى في نقض شيء منها ، ولا تقعد عن نصره في الرخاء والشدة ولا تدع النصح له في كل حال راهنة أو حادثة ، حتى تلقى الله موفياً بها مؤدياً للأمانة فيها ، إذ كان الذين ولاة الأمر خلفاء الله في الأرض ، إنما يبايعون الله ويد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه . عليك بهذه البيعة التي طوقتها عنقك وبسطت لها يدك وأعطيت فيها صفقتك وما شرط عليك فيها من وفاء وموالاة ونصح ومشايعة وطاعة وموافقة واجتهاد ومبالغة : عهد الله ، إن عهده كان مسؤولا . . . . » .

وعلى الجملة يقرأ القارىء نص البيعة في القرن السابع أو الثامن للهجرة فيعرف منها تاريخ العوارض التي تعرض لها الخلفاء بعد إدبار الدولة وشيوع الفتنة كأنها تسجيل لكل ما وقع وتحذير من كل ما يخشى وقوعه على خلاف الصيغ الأولى التي تجتمع فيها قوة الثقة وسلامة النية وتقل فيها الحاجة إلى التوكيد والتشديد ، كما تقل فيها الحاجة إلى الترديد والتعديد .

ثم عدل عن هذه الصيغ جميعاً عند قيام الخلافة العثمانية واكتفى السلاطين بالخطبة والدعاء واستقبال الوفود في يوم البيعة الذي سمي بيوم الجلوس ولم يسم باسمه الغالب في الأمم الغربية وهو يوم التتويج ، لأن ملوك العرب والإسلام نهجوا أو نهج أكثرهم على سنة السلف في اجتناب التيجان ، واعتبار الجلوس على العرش مبدأ لولاية الملك والقيام

بأمانة الحكم ، وأصبح من مراسم الملك أن يقسم الملك اليمين في مجلس الأمة فيعاهد الرعية وتعاهده على خدمة الدولة ورعاية الدستور والقانون .

وكثيراً ما تدل الكلمات على أصول النظم السياسية وحقائق الأطوار التاريخية . ومن ذلك دلالة الفرق بين التتويج والبيعة على الفرق بين أساس الملك عند العرب وأساسه عند الأمم الأوربية .

فالتتويج هو إعلان السلطة من جانب صاحب التاج ومالك زمام الأمور ، وحضور التتويج هو إعلان الخضوع لتلك السلطة والاعتراف لها بحقوق مطلقة لا تقابلها واجبات مفروضة .

أما البيعة فهي اتفاق بين طرفين على أساس الاختيار والأخذ والعطاء ، والقاعدة التي تجري عليها هي قاعدة المبايعة بين من يعطي باختياره ويأخذ باختياره ، ولا إكراه في الأخذ والعطاء ، ولا في البيع والشراء .

بل كان هذا الأساس هو أساس الفروض بين الخلق والخالق في القرآن الكريم : « . . . وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

أو كما تنزل في سورة الفتح « ... إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما » .

فكلمة المبايعة خير من كلمة التتويج في الدلالة على العلاقة الدستورية التي تنعقد بين الملوك والرعايا ، وقد نشأ التتويج كما نشأت المبايعة في الأمم الشرقية ، فأخذهما الغربيون عنها وتتلمذوا على الشرق في كل نظام من أنظمة الملك وكل علاقة من علاقات الحاكمين والمحكومين ، فلم يجاوزوا الشرقيين في مراسم الملك وأبهة السلطان ولم يجاوزوهم في حقوق الرعية وقواعد الحكومة الدستورية .

وقد كتب هذا المقال لمناسبة الاحتفال منذ أسابيع بمبايعة الملك العربي الهاشمي عبد الله بن الحسين ملك شرق الأردن أيده الله بتوفيقه وتمكينه ، فيسرنا أنه احتفال جرى على السنة العربية الدستورية ، وأنه كان حقيقاً باسم المبايعة في مراسمه وأحكامه . فللملك العريق تهنئة طيبة تزجى إلى جلالته وتزجى إلى رعاياه ، ونسأل الله أن يجعل زيادة الملوك المستقلين في الشرق كله زيادة في استقلال الشعوب وزيادة في توثيق الولاء بين الحاكمين والمحكومين على سنة الحرية والدستور ورعاية الواجبات والحقوق .

عباس محمود العقاد

جولة في أول معرض للكتاب العربي

افتتح معالي وزير المعارف المصرية أول معرض للكتاب العربي في صباح يوم الخميس الموافق ٢٠ من رجب ١٣٦٥ و ٢٠ من يونية سنة ١٩٤٦ يحف به نخبة من رجال العلم والأدب وكبار رجال وزارة المعارف المصرية ، فجدد ذكرى عناية العرب بالكتاب ؛ فقد كان « الحكم » الأندلسي يبعث رسله إلى بلاد المشرق ليشتروا له الكتب حين ظهورها وكان للخليفة العزيز الفاطمي مكتبة كبيرة ، قدر بعض المؤرخين ما فيها بأكثر من مائتي ألف كتاب . وكان الجاحظ يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر، وما فرح ابن العميد بشيء قدر فرحه حين سلمت خزانة كتبه من أيدي بعض الغزاة حين ثاروا عليه . وقد عاين ذلك الخبر ابن مسكويه المؤرخ ورواه في « تجاربه » .

* * *

يصادف الداخل إلى المعرض على يساره قسما للكتاب العربي المطبوع في أوربا وأمريكا ؛ وفي هذا القسم تظهر جهود المستشرقين في خدمة الكتاب العربي واضحة جلية، ففيه كتاب « القانون » لابن سينا مطبوعاً في روما سنة ١٥٩٣ بحروف عربية واضحة . و « العهد الجديد » مطبوعاً في ليدن سنة ١٦١٦ م و « تاريخ مختصر الدول» لأبي الفرج الملطي مطبوعاً في اكسفرد سنة ١٦٦٣ م و « نظم الجوهر » لسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية في القرن الثالث الهجري مطبوعاً في أكسفرد سنة ١٦٥٩م و « عجائب المقدور » لابن عربشاه مطبوعاً سنة ١٧٧٢م. وفيه عدا ذلك عشرات وعشرات من الكتب المطبوعة في أوربا، أمثال « الكامل » لابن الأثير سنة ١٨٧٠ م و « تاريخ الطبري » طبع ليدن سنة ١٨٨١ م ، و « تجارب الأمم » لابن مسكويه ، ليدن سنة ١٨٦٩ م ، و تاريخ المسلمين » لجرجس بن العميد من مؤرخي القرن السابع الهجري طبع ليدن سنة ١٦٢٥ م، وشرح التبريزي « للحماسة » و « ألف ليلة وليلة » و « معجم البلدان » و « الشعر والشعراء » لابن قتيبة . أما الجانب الشرقي من هذا القسم ففيه الدليل على سبق السوريين أهل الشرق في طبع الكتاب العربي . وهو سبق فيه من الفضل ما يستحق التسجيل في معرض الحديث عن أول معرض للكتاب العربي .

* * *

ولم تعرف مصر الطباعة العربية قبل الحملة الفرنسية . وفي المعرض كتابان طبعا في مطبعة الحملة الفرنسية ، وكانت تسمى المطبعة الأهلية . وأولهما « مجمع التحريرات المتعلقة إلى ما جرى بإعلام ومحاكمة سليمان الحلبي » وسليمان هذا قاتل القائد كليبر ، وكانت محاكمته بالعامية على هذا المثال : (إنسأل — يعني الحلبي — عن معارفه في مدينة مصر ، فجاوب : إنه لم يعرف أحد ، وأكثر قعاده في جامع الأزهر ، وجملة ناس تعرفه ، وأكثرهم يشهدوا في مشيه الطيب ..) وثاني الكتابين مجموعة أجزاء من مجلة « لاديكاد إيجبسيان » التي أصدرها نابليون بالفرنسية . ولكن في العدد الثالث منها قصيدة مطبوعة بالحروف العربية نظمها نقولا الترك الشاعر البيروتي مشيداً بنابليون .

* * *

طويت مطبعة نابليون العربية مع الحملة المطوية ، وظلت مصر بلا مطبعة عشرين عاماً . إلى أن استقر الأمر لمحمد علي . وقد بدأ في مصر عصراً من النور .

ففي قسم محمد علي في المعرض يجد الزائر فضل هذا الرجل على الثقافة العربية الحاضرة ، وليس بعيب على أمة تنوي النهوض أن ترجع إلى ثقافات غيرها فتقدمها إلى أبنائها . ألم يفعل العرب ذلك مع الفرس واليونان والهنود ؟ فلم لا يفعل محمد علي مثل ذلك مع أوربا التي سبقت الدنيا في عصره بأشواط وأشواط ؟ ولكن النقل يحتاج إلى مترجمين ، والمطبعة تحتاج إلى مصححين ، والكتاب يحتاج إلى قارئين . . . فمن أين لمصر بهذه الأسباب فى خدمة « الكتاب » ؟

أما القارئون فقد أوجدهم المصلح بإنشاء المدارس ، وأما المصححون ففي رجال الأزهر الغناء ، من أمثال الشيوخ محمد محرم ، وعلي العدوي ، ومصطفى كساب ، وأحمد صويبع الرشيدى ، ومحمد الهراوي ، وإبرهيم الدسوقي ، ويجد زائر المعرض أسماءهم فى مقدمات الكتب المعروضة ، مصحوبة بسجعات لطيفة انتهى اليوم عهدها ، من مثل « الأخ المواتي الشيخ سالم القنياتي » و « مَنْ للعلوم يعانى ، الشيخ على العدوي المصحح الثاني » .ولم تكن هذه السجعات نصيب المصححين وحدهم ، ولكن المؤلفين والمترجمين نالوا منها قسطاً ، مثل « الطبيب الآسي محمد أفندى الشباسي » . كما أن عناوين الكتب جرت على طريقة المماليك ومن بعدهم في السجع . ويصادف الزائر هنا كتاب « بهجة الرؤساء ، في معالجة أمراض النساء » للحكيم الرشيدي من أعضاء البعثة . وكتاب « نزهة الأمثال ، في مداواة الأطفال» له أيضاً. وكتاب « نزهة الرياض في علم الأمراض »

ترجمة يوسف فرعون ، وكتاب « إسعاف المرضى من علم منافع الأعضا » للحكيم علي هيبة . وهنا يخطر بالبال عناويننا الحديثة من مثل « على هامش الطب » للدكتور سليمان عزمي باشا . و « فن الولادة » للدكتور نجيب محفوظ باشا . أما المترجمون طائفة الأطباء ممن كانوا أعضاء البعثة العلوية أمثال إبرهيم النبراوي ، وأحمد حسن الرشيدي ، ومحمد علي البقلي ومحمد شافعي وعلي هيبة ومحمد عبد الفتاح . وطائفة غير الأطباء، ومنهم يوحنا عنحوري ويوسف فرعون وأوغسطين سكاكيني من أهل الشام ومحمد لاز من العارفين بالتركية والفارسية .

ولقد بلغ من دقة حركة الترجمة في عصر محمد علي أن الكتاب كان يراجع مرة ومرة وثالثة ، كما حدث في كتاب « القانون الرياضي في فن تخطيط الأراضي » . وهي دقة تذكرنا بما حدث في العضر العباسي، فقد كان المترجم قسطا بن لوقا وغيره من مهرة المترجمين يراجعون نقولا كثيرة ويصلحونها . وأول الكتب التي طبعت في مطبعة بولاق أو « مطبعة الباشا » — كما كانت تسمى كتابان معروضان ، أولهما « صناعة صباغة الحرير » تأليف ماكير الفرنسي وترجمة القس روفائيل راهب عن الإيطالية . وثانيهما «قاموس إيطالي عربي» وضعه هذا القس الذي كان متمكناً من اللغة الإيطالية .

ولم يكتف محمد علي بترجمة الكتب، ولكنه وجه همه إلى إحياء الأدب العربي القديم : وفي المعرض أول طبعة مصرية عربية لكتاب « كليلة ودمنة » أخذت عن النسخة التي طبعها المستشرق سلفستر دي ساسي في باريس سنة ١٨١٦ م . وهي طبعة أقرها المرحوم الشيخ حسن العطار . وإذا كان عصر محمد علي يعتز بأول طبعة لهذا الكتاب الجليل فعصر حفيده الفاروق يعتز بالطبعة الفاخرة المصورة التي درسها وعلق عليها الدكتوران طه حسين وعبد الوهاب عزام وأخرجتها دار المعارف سنة ١٩٤١ .

* * *

وإذا كانت حركة الكتاب العربي قد قل نشاطها في عصري عباس الأول وسعيد، فإن إسمعيل العظيم قد أعاد لها الازدهار . ويتجلى ذلك في القسم الخاص به من المعرض، فهناك يلقى الزائر عشرات من الكتب المترجمة والمؤلفة والمطبوعة من أنفس المخطوطات. ومن هذه : « المثل السائر » لابن الأثير، و « قلائد العقيان » لابن خاقان . و « مجمع الأمثال » للميداني ، و«الصحاح» للجوهري و«مروج الذهب» للمسعودي و « تاريخ ابن خلدون» و « شرح » صحيح البخاري و «تفسير الكشاف» للزمخشري ،

وتمتاز كتب الطب في عصر إسمعيل بغلبة التأليف لا الترجمة عليها . ويجد الزائر في

هذا العصر أسماء الأطباء أحمد ندي وسالم سالم باشا ومحمد الدري باشا وعلي رياض الصيدلي . .

☆☆☆

واتسعت حركة الترجمة في عصري فؤاد وفاروق اتساعاً تشهد به الكتب المعروضة في القسمين الخاصين بعهديهما . وهي حركة تمتاز بحرية واسعة في اختيار ما يترجم . وللأدب الأوربي نصيب عظيم من هذه الحركة . وإذا كانت في إلياذة في هوميروس قد ظفر بها الكتاب العربي مترجمة في عصر عباس الثاني فإن عصر فؤاد قد أهدى إلى المكتبة العربية ثلاثة من كتب أرسطو ترجمها عن الفرنسية معالي الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا .

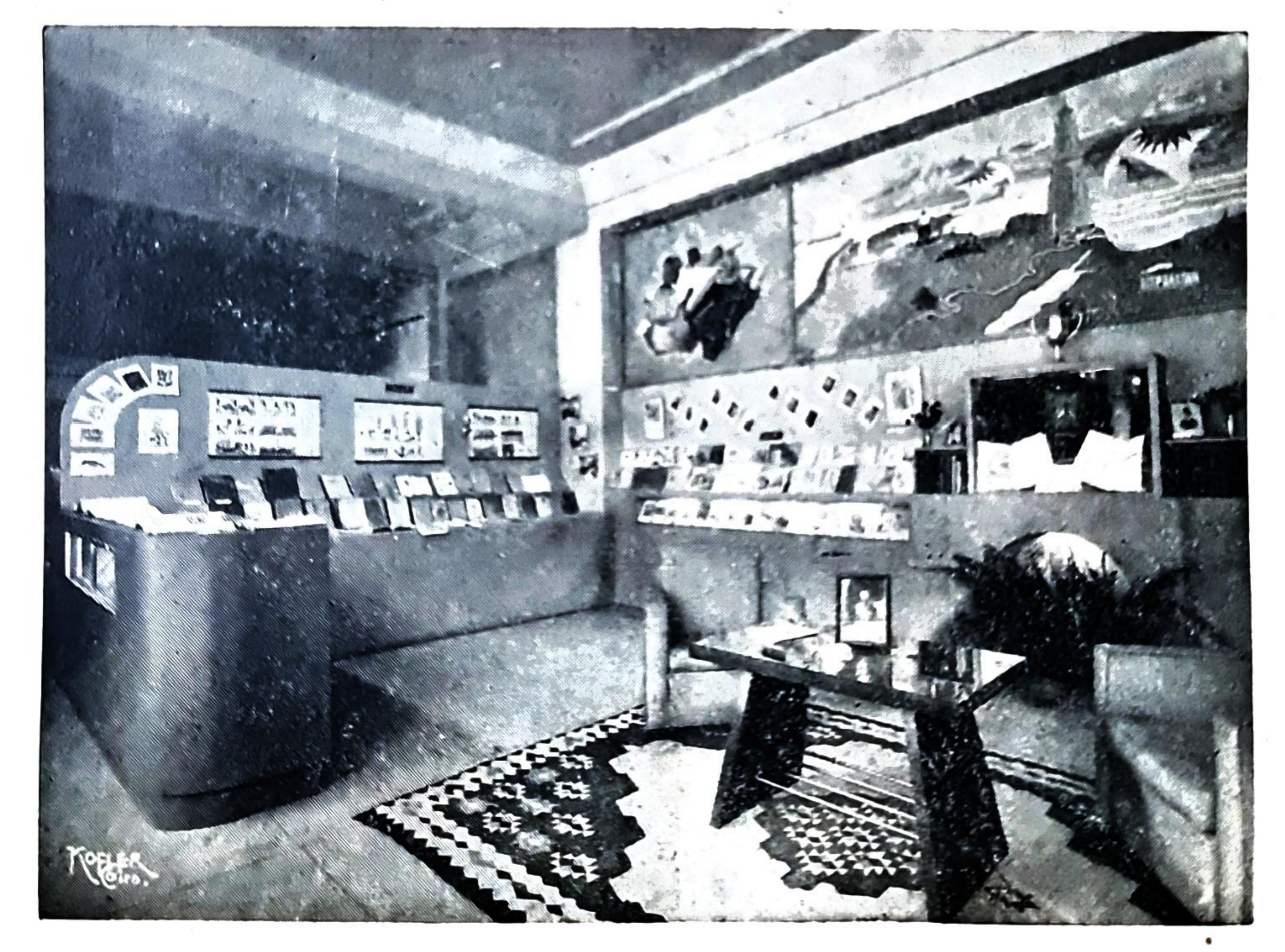
وفي القسم الخاص بعصر جلالة الملك فاروق يظهر الكتاب العربي في غزارة وتنوع في الموضوعات ، وطرافة في العناوين ، وأناقة في الإخراج ، وخصوبة في التلوين. فترى كثرة في كتب التراجم لأعلام الشرق وعظماء الغرب ، وترى خصوبة في الإنتاج القصصي، كما ترى للطفل مكان العناية من الكتاب العربي الحديث . فهناك على يسار الصاعد إلى الطبقة العليا من المعرض ركن تفزع فيه النفس بعد جولة ناصبة لذيذة إلى أحلام الطفولة، حيث يرى الزائر قصصاً شائقة للأطفال قد أتقن تصويرها وساغ تعبيرها .

☆☆☆

ولقد اشتركت في المعرض بعض الهيئات الحكومية . أما دور الطباعة والنشر فقد احتجزت كل منها لنفسها مكاناً في الدور الأعلى افتنت في تنسيقه وتزيينه وترتيبه . ولكل دار من الدور المشتركة في المعرض تاريخها في خدمة الكتاب العربي . ولقد كان من طريف ما حوى جناح دار المعارف سجل ضخم ضمت دفتاه رسوماً كاريكاتورية ملونة لأغلب أعلام الفكر الذين عهدوا إلى دار المعارف في إخراج مؤلفاتهم .

على أن أغلى ما تعتز به دار المعارف للطباعة والنشر تلك الرسالة التي طبعها فيها الأمير أحمد فؤاد (المغفور له الملك فؤاد) رئيس الجامعة المصرية سنة ١٩١١ متوجهاً بها إلى أبناء وطنه المصريين يوم دخول الجامعة في سنتها الرابعة ، وقد جاء في بعض عباراتها : « ومن حسن حظي أن أترأس إنشاء أول جامعة شرقية حديثة ظهرت في العالم الإسلامي، وأن تيسر لي أن أضع معهم (الزملاء الذين أشار إليهم) مستقبلها الزاهر . . . . وقد فتحت مكتبتنا الحديثة العهد أبوابها في شهر فبراير الماضي للطلبة والجمهور ، وتشرفت بتردد الكثيرين عليها من الأشخاص » .

ففؤاد وفاروق يشتركان في إحياء فكرة الجامعات والكتاب ، وهل تقوم نهضة بغير العلم والكتاب ؟ ؟



جانب من جناح «دار المعارف» في أول معرض للكتاب العربي

فينيقيا ومصر

للأمير موريس حافظ شهاب مدير الآثار اللبنانية ببيروت

العلاقات الأولى

كان الفينيقيون منذ الألف الرابع قبل الميلاد على اتصال دائم بالمصريين ، لأن البلاد المصرية أقرب الممالك الكبرى إلى فينيقيا ، ولأن المدن الفينيقية قائمة على شواطىء البحر ، تسد سبلها من الجهة الشرقية جبال شاهقة تكللها الثلوج وتكسو الغابات هضباتها . وقد لبى الفينيقيون دعوة البحر الجذابة ، فأنزلوا السفن فيه واندفعوا إلى البلاد المجاورة ناقلين كل ما هي بحاجة إليه من موارد لبنان الطبيعية ، وكانت الدولة المصرية في إبان ازدهار مدنيتها تقيم القصور الفخمة وتحفظ أمواتها في نواويس خشبية ، فتحتاج لذلك لأخشاب لبنان العطرية الصلبة. فحمل إليها الفينيقيون أخشاب أرزهم وأشجارهم الباسقة، وكانوا يعودون من مصر بأدوات الزينة والبهرجة والمعادن الثمينة والحجارة الكريمة ، فتوطدت العلاقات بين البلدين توطداً وثيقاً ، حتى أوشك الفينيقيون أن يتفردوا بكل ما له علاقة بالملاحة المصرية ، وأطلق اسم « الجبيلي » على كل مركب يمخر البحار للأسفار البعيدة ، فدعيت هذه المراكب « كبنيت » وهذا الاسم مشتق من « كبن » وهو التحوير المصري لكلمة « جبل » اسم مدينة جبيل في ذاك العهد . وقد دخلت تلك العلاقات في عالم الأساطير لقدمها ، حتى صار يعبر عنها في مصر بالأسطورة التالية :

عهد الأساطير

اشتد الخلاف بين الأخوين ست وأوزيريس ؛ فسطا الإله ست على أخيه الإله أوزيريس ومزق عضلاته شر ممزق وألقاها في اليم ، فقذفتها الأمواج على شاطىء مدينة جبيل ، حيث التف حولها غصن نضير نشط وأصبح شجرة وارفة الظل ، فأعجب بها ملك جبيل واقتطعها وجعل منها ركناً لقصره . علمت الإلهة إيزيس بمصير قرينها ، فأتت إلى جبيل متنكرة تبيع بالقرب من الساحة على طريق بركة الماء أثواب الزينة وقد التف حولها نساء جبيل ووصيفات البلاط الملكي ، فحظيت إيزيس بعطف الملكة وأصبحت مربية لولي العهد ، ولما درى الملك بحقيقة أمرها وهب الإلهة العمود الخشبي ، فعادت به إلى مصر

المعبد القديم

هبات المعبد

وما هذه الاسطورة إلا رواية تدل على قدر العلاقات ونوعها بين فينيقيا ومصر. وقد جاءت الحفريات تثبت تلك العلاقات وقدمها ، وأكبر دليل على ذلك الآنية العديدة التي وجدناها في معابد جبيل ، وهي بقايا الهبات التي كان يقدمها الفراعنة لتلك المعابد . وأقدم هذه الآنية إناء يحمل اسم الفرعون « حسخاموى » آخر فراعنة الدولة الثانية الذي كان يحكم في القرن الثلاثين قبل الميلاد . وإرسال الهبات إلى معابد جبيل أصبح من تقاليد المصريين المألوفة ، فوجدنا منها آنية تحمل أسماء الفراعنة خوفو وخفرع ومنكرع بناة أهرام الجيزة . وأوفر الهبات عدداً تقدمات الفرعون « بي » الثاني الذي عاش نحو مائة سنة في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد . ووجدت أيضاً في معابد جبيل آثار عديدة ، أهمها مصغر لمركب فينيقي من الخزف في وسطه غرفة للنوتي ، ومجموعة كبيرة من الأواني الخزفية على شكل عجول وطيور رسمت عليها خطوط حمر وما يربو على أربعمائة إناء من الخزف وعدد من بيض النعام ، وقد رصفت جميع هذه الآثار في غرفة تابعة لأحد المعابد فوجدناها في زوايا الغرفة مرصوفة كما رتبتها يد الكاهن الفينيقي منذ أربعة وأربعين قرناً .

وقد تقدم الفن الخزفي عما كان عليه تقدماً محسوساً ، فأصبحت الآنية رقيقة للغاية يغشيها طلاء أحمر مصقول يشبه طلاء الآنية المصرية ، وأجملها قطعة تمثل رأس ثور ذي قرنين كبيرين على غاية من الجمال والفن .

عهد الثورة

وظلت العلاقات وثيقة بين البلدين حتى عصفت على مصر ثورة شعبية قلبت فيها الحكم والهيئة الاجتماعية رأساً على عقب ، فأصبح العبيد والخدم ينعمون بقصور سادتهم بينما هؤلاء يقفون أمام عبيدهم بالأمس وقفة الخدم ، فزالت دولة الفراعنة وداس الصعاليك ملفات الشرائع في الطرقات ، وأضحى الرعاع سادة السبل ، فعمت المجاعة وانقطعت على إثر ذلك كل علاقة للمصريين بالبلدان الأجنبية ، كما امتنعت السفن عن الإبحار إلى جبيل .

فصدمت جبيل صدمة عنيفة على إثر تلك الثورة المصرية ، وشبت النيران آتية على ما فيها من أبنية خشبية ، وفتتت حجارة جدرانها وحولتها إلى مادة كلسية ، وغشت أرضها بطبقة كثيفة من الرماد ، ودامت الفوضى في مصر عهداً غير يسير ، حتى تمكن

فراعنة الأسرة الحادية عشرة من إعادة النظام إلى البلاد وإصلاح ما أفسد ، وانحصرت سياستهم الخارجية بالاستيلاء على البلدان المتاخمة لحدودهم ، كنوبيا جنوبي مصر وأقطار فلسطين القبلية ، أما مع البلدان الأخرى فاكتفوا بتوطيد علاقاتهم الودية متبادلين الهدايا مع ملوكها .

مدافن الملوك*

وكشفت لنا حفريات جبيل عن مدافن الملوك الذين حكموا في القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل المسيح ، وكانت هذه المدافن قائمة على رابية بين السور والبحر ، وهي بشكل آبار خرقت في الصخر يتروح عمقها بين خمسة أمتار وعشرة ، وعرض جوانبها نحو أربعة أمتار ، يصل هذه الآبار بغرفة المدفن سرداب صغير حيث الميت مسجى في ناووس من الحجر أو الخشب المزدان بالقيشاني . وكان يعلو هذه المدافن بناء بشكل المصطبة ، لم يبق لنا منه إلا أسسه . وعدد هذه المدافن أحد عشر ، عبثت بها أيدي الناهبين منذ القدم ، فلم يسلم منها سوى ثلاثة ، و تثبت الدلائل أن الناهبين معاصرون لتلك المدافن ، وكانت هذه العادة شائعة عند الأقدمين بالرغم من اللعنات التي كان يصبها الميت على من يدنس حرمة مدفنه .



(شكل ١) قلادة من الذهب مرصعة بالحجارة الكريمة والميناء

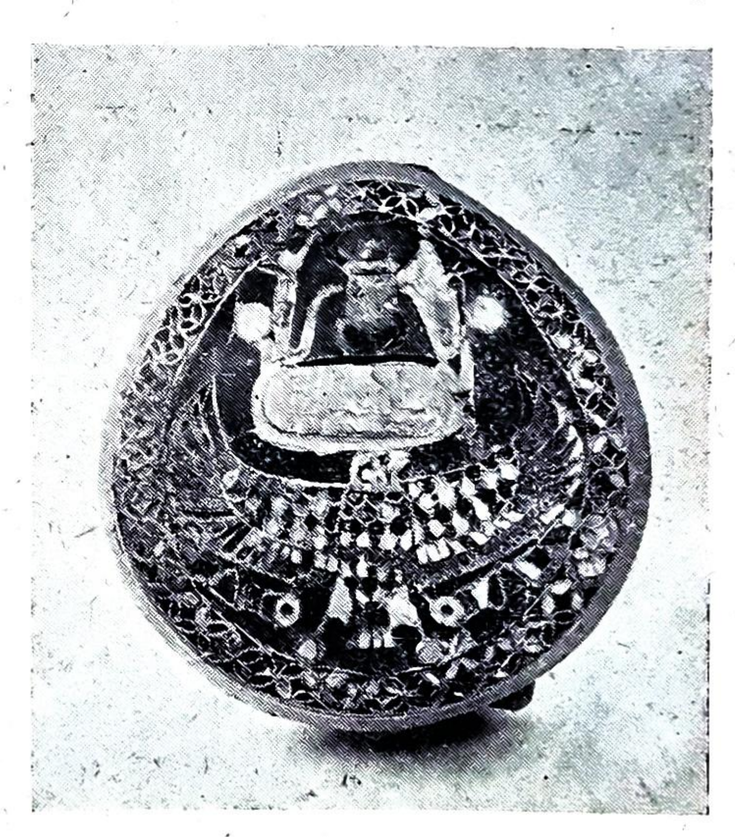
* قام بحفرها العلامة الأثري السيد بيير منتي مدير حفريات تانيس حالياً من سنة ١٩٢٠ — ١٩٢٦ .

وأقدم هذه المدافن مدفن الملك أبي شمو ، الملاصق لشاطىء البحر ، وبالقرب من مدفن ابنه الملك أبشمو أبي ، وهذان الملكان من القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد . وفتح الملك أبشمو أبي في الصخر سرداباً وصل مدفن أبيه بالمعبد الذي كان قائماً فوق مدفنه ، لتستفيد روح أبيه من القرابين التي تقدم فيه .



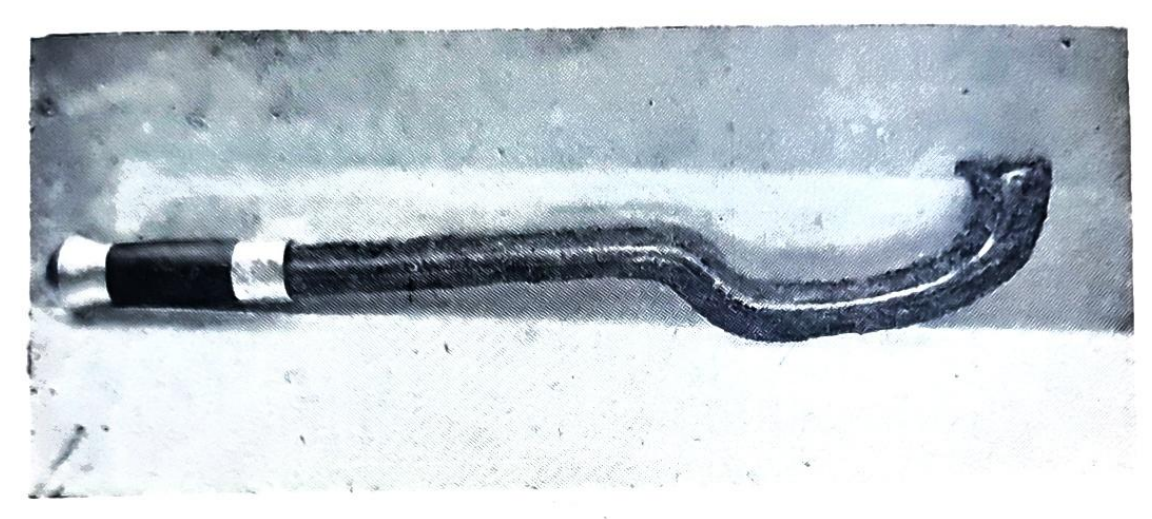
(شكل ٢) إناء من الفضة وجد في مدفن أبي شمو

داخل المدفن كان الميت مزيناً بما لديه من حلى ومجوهرات ، على رأسه عقال من ورق الذهب تعلوه على الجبهة أفعى من البرونز المحلى بالخيوط الذهبية . وعلى صدره قلادات من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة . وقد طوّق عنقه عقد من الذهب نقش عليه رسم باز باسط الجناحين . أو عقود من حبات الجمشت أو العقيق أو الذهب ، وبيده صولجان من البرنز ، يتوسطه نقش يمثل أفعى من الفضة المنزلة بخيوط ذهبية ، وعلى ذراعيه أساور من الذهب والجمشت ، وفي أنامله خواتم ذهبية ذات جعلان من الجمشت ، وحوله آنية من



(شكل ٣) قلادة من الذهب منزلة بالحجارة الكريمة والميناء تحمل اسم الملك أبشمو أبي

الذهب والفضة والبرنز والألبستر والخزف . وقد عرفنا أسماء أصحاب هذه المدافن من الكتابات الظاهرة على إحدى القلادات والصولجان .وقد نقش هذا الرسم على القلادة بالهيرغليفية داخل إطار ، على عادة الفراعنة المصريين دون سواهم ، وكتابة اسم ملك



(شكل ٤) صولجان من البرنز محلى بأفصص من الفضة المحروقة والمنزلة بالخيوط الذهبية

جبيل داخل إطار على هذا الشكل تدل على ما كان له من الميزات ، وعلى التمتع باستقلال في الحكم وهذا الملك هو أبشمو أبي ر.



(شكل ٥) صندوق من حجر الأبسيديين محلى بالذهب وعليه اسم واهبه الفرعون أمنمحت الرابع

ويدلنا الصولجان على أن أبشمو أبي هو ابن الملك أبي شمو ، وكان هذان الملكان على اتصال بالفراعنة ، بدليل القطع الأثرية التي وجدت في قبريهما ، والتي تحمل اسم الفراعنة أمنمحت الثالث وخلفه أمنمحت الرابع . وهذه القطع عبارة عن صندوق للبخور وإناء للطيب من الأبسيديين المطوّق بالذهب . والأبسيديين حجر أسود يستخرجه الفراعنة من نوبيا التي استولوا عليها .



(شكل ٦) إناء من الأبسيديين المطوق بالذهب يحمل على غطائه اسم الفرعون أمنمحت الثالث

وهـذه التحف النفيسة دليل واضح على ما كان عليه ملوك جبيل أبي شمو وأبشمو أبي من علو المنزلة والعظمة والمجد. وجاءت التنقيبات الأثرية التي جرت في المدينة الواقعة ضمن السور تثبت الدرجة الرفيعة التي وصل إليها الفن الفينيقي في ذلك العهد فإن وفرة الهبات في المعابد لأكبر دليل على ثروة مدينة جبيل وازدهارها .

المعبد الكنعاني ✡

شكل المعبد

وأوفر معابد جبيل حفظاً معبد من القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد ، وهذا المعبد صورة صحيحة لما كانت عليه المعابد الكنعانية التي شادها الكنعانيون

✡ اكتشفه الأثري الشهير السيد موريس ديناند مدير الحفريات اللبنانية من ١٩٢٦ - ١٩٤٥

لآلهتهم في يهوذا وإسرائيل ، تلك المعابد التي صبّ الأنبياء عليها لعناتهم . فالمكان الذي كان الفينيقيون يؤدون فروضهم الدينية فيه عبارة عن أرض مقدسة محاطة بسور ، ولهذا السور باب ذو عتبة يمر من فوقها المؤمنون إلى أرض المعبد الحرام . ومعبد جبيل هذا مستطيل الشكل تتوسط أرضه مسلة ضخمة مرتكزة على قاعدة ، وحول هذه المسلة أقام المؤمنون مسلات أخر مختلفة القياسات والأشكال ، وقد نقشت على إحدى المسلات كتابة هيرغليفية ورد فيها اسم الإله رشف واسم الملك أبي شمو . ولاشك في أن هذا الملك من أسرة الملوك الذين اكتشفت مدافنهم بالقرب من البحر ، أما الإله رشف فهو من آلهة الفينيقيين المعروفة ، وفي الأغلب أنه أحد الآلهة التي أطلق عليها فيما بعد اسم أدونيس .

وفي المعبد أيضاً بركة ماء وجرار من الفخار ومذابح من الحجر خشنة الصناعة ، كان لابد للفينيقيين منها لممارسة طقوسهم الدينية والقيام بعباداتهم ، وتدفقت الهبات على المعبد حتى قال في القرن الرابع عشر أحد ملوك جبيل يقول لفرعون : « لا تستخف قط بأهمية جبيل ففي معبدها كنوز كثيرة » .

وفي الواقع ، أن أرض المعبد وأسس جدرانه كانت ملأى بالقطع النفيسة ، وكانت توضع هذه القطع في آنية فخار وجرار وإن كانت ثمينة المادة ونفيسة .

الأسلحة الثمينة

أمام الباب المؤدي من الساحة الخارجية إلى صحن المعبد وضعت جرة فيها خمس عشرة فأساً أغلبها من الذهب وبعضها من الفضة أو البرنز المحلى بالذهب ، وهذه الفؤوس على شكل نصف دائرة تتخللها خلايا ، وفي أشكالها دليل على علاقات الفينيقيين بالبابليين

وعادة تقديم الأسلحة كانت متأصلة عند الأقدمين ، وتذكر التوراة شيئاً عن ذلك في الكلام عن رئيس الكهنة وفي عهد « جواس » عندما أقدم على تسليح اللاويين بالأسلحة التي قدمها داود الملك لهيكل أورشليم يوم أعلن رئيس الكهنة هذا الثورة على عتاليا ، وذلك بعد وفاة الملك النبي بقرن أو أكثر .

وتمتاز فؤوس جبيل عن غيرها ليس بمادتها الثمينة فحسب بل بدقة صناعتها ونقوشها الشبيهة بما نعرفه اليوم باسم كسر الشغت ، ولعمري إن في دقة تلك الحبيبات الذهبية وجمال صناعتها ما يعجز عنه اليوم أحذق الصاغة .

هذا أهم ما وجد عند مدخل المعبد الخارجي . أما في الداخل فالهبات كثيرة

ومتنوعة ، بالقرب من المسلة التي كرسها الملك أبي شمو للاله رشف وجدت مجموعة أسلحة ثانية وتماثيل ، منها أربع فؤوس ، ثلاث من الذهب الخالص وواحدة من الفضة ، وقد نقش على إحداها رسم نافر يمثل كلباً وكبشاً ، وبمجرد النظر إلى رسم الكلب يتراءى للانسان أن الحياة تنبض في عروقه ، أما الكبش فله ذنب رفيع طويل يختلف كل الاختلاف عن ألية الكباش التى ألفنا رؤيتها الآن في لبنان .

وأجمل ما في هذه المجموعة خنجر وقراب من الذهب ، فالخنجر متناسق الشكل له نصل جميل ، يمتد على طوله قناةصغيرة ليسيل فيها الدم ، وعلى هذا النصل حرف فينيقي شبيه بحرف السين .

أما القبضة فيزين إحدى جهاتها رسم الإله رشف وعلى رأسه قبعة من القش مخروطة الشكل ، أما الجهة الثانية فقد نقش عليها غزال يرعى تحته غزالان منتصبان على رجليهما ومتلاصقا القوائم وقد التفت كل منهما إلى رفيقه بحنان جلي .

وقراب الخنجر ذهبي له إطار من الفضة ، عليه مشهد ناتىء لملك راكب حماراً وبيده صولجان وأمامه غزال مرتعب يلتفت إلى أسد يزأر وراءه ، وخلف الأسد فينيقي يهاجمه بخنجر ، ووراء الفينيقي هذا فينيقى آخر يقود سعداناً ، ووراءه ثعلب وسمكة .

التماثيل

أما التماثيل المكملة لهذه المجموعة فعديدة ، وهي من البرنز المغلف بالذهب ، تمثل فينيقيين على رؤوسهم قبعات طوال تشبه بشكلها وبقياسها القبعة المعروفة الآن باللباد .

وبالقرب من هذه المجموعة عثر على مجموعة كبيرة من التماثيل القيشانية ، يبلغ عددها نيفا وثلاثمائة وخمسين ، تمثل حيوانات جميلة الصنع تدل على ما للفنان الذي أبدعها من الحذق وقوة الملاحظة .

وهذه الحيوانات عبارة عن عجول مضطجعة وأسود رابضة وقنافذ وكلاب مختلفة الأجناس والأوضاع ، وكباش وسعادين ، منها ما يحضن صغاره أو يعزف على الكمان ، ومنها ما يمثل دببة وفرس النهر جاثمة أو واقفة أو متشدقة . وقسم من هذه التماثيل يمثل نساء وآلهة في أوضاع سخرية ، فهناك من يلطم وجهه منتحباً أو من يأكل بشراهة ويشرب ومنها أيضاً من يحمل الهبات أو من يجثو مصلياً أو يقهقه واضعاً يداً أمام وجهه واليد الأخرى على قفاه . ومنها من انتفخ بطنه كالإلهة قبيل الوضع ، لأن من مزايا هذا الإله تسلية الإلهة في أوجاعها .

عصر الرعاة

تدل إذن هذه الاكتشافات على أن الفن المصري يمثل المكان الأول في البلاد الفينيقية ، وعلى أن البلاد الفينيقية كانت على اتصال وثيق بالبلاد المصرية ، ولكن مصر لم تكد تصل إلى ما وصلت إليه من الازدهار حتى أصبحت هدفاً للغزاة يطمحون للاستيلاء عليها ونرى طلائع هذه الغزوات في البلاد الفينيقية . إذ تستبدل في القرن التاسع عشر أسماء الملوك السامية الفينيقية بأسماء غريبة تنتمي إلى البلاد الشمالية غير السامية . ولا يطول الأمر حتى تطغى تلك الموجة على البلاد المصرية بشكل غزوة الرعاة الذين لقبهم المصريون « بهاق شاوي » ومعناه رؤساء المشاة ، وقد ذاقت مصر الأمرين في ذلك العهد . ودامت هذه الحال قرناً ونيف ، والمصريون يتألمون كثيراً ، إلى أن تمكنوا من الالتفاف حول أمراء طيبة وقاموا يطردون الغريب المكتسح من بلادهم .

عهد الاحتلال المصري

حالة البلاد

ولا شك أن الساميين من عرب وآراميين وكنعانيين ، أي فينيقيين ، اندمجوا بالغزاة ، فاستوطن بعضهم مصر ، ولنا في التوراة مشهد من مشاهد الحياة في ذاك العصر في قصة يوسف بن يعقوب . فنرى أولاً إبرهيم على رأس قبيلة ينزح عن جنوبي بلاد الكلدان إلى سوريا الشمالية ، حيث يدفن أباه ويميش ، وتنزح بعدئذ قبيلة إبرهيم إلى بلاد كنعان التي دعيت فيما بعد فلسطين ، وتبقى قبيلته مدة في فلسطين الجنوبية ، ثم يتوجه أحد أحفاد يوسف إلى مصر ، فيتوصل بذكائه إلى أعلى المناصب ويصبح وزيراً لفرعون ، ثم يؤم مصر إخوة يوسف ، فيشجعهم أخوهم على العودة إليها ثانية مع أبيهم والإقامة فيها ، أما يوسف فما لقي من فرعون هذا التشجيع إلا لكونه من أصل قريب من أصله ، أو من شعوب أثبتت أمانها لهذا الفرعون الأسيوي ، وساعدته على المصريين ، فكان من صالح الغزاة وهم غرباء عن مصر أن يشجعوا الشعوب الغريبة على توطن وادي النيل ، فيزيد بذلك عدد أنصارهم ، مما يساعدهم على توطيد حكمهم وبسط سلطانهم على المصريين .

وكانت عاصمة الرعاة هواري قريبة من قناة السويس الحالية ، وكان لهم فيها معسكر عظيم ، ولكن المصريين في أوائل القرن السادس عش قبل الميلاد توصلوا إلى

تأليف دولة قوية في مصر الجنوبية ، وهاجموا الرعاة وطردوهم من مصر الشمالية ، فدبت الحماسة الوطنية في نفوس الشعب ، خاصة وأن احتلال الرعاة كان شديد الوطأة عليهم .

وشعر المصريون بضرورة إقامة حاجز بينهم وبين الدول الكبرى المجاورة ، ليتمكنوا من دفع الخطر عن بلادهم ، فهاجموا البلدان الفلسطينية والفينيقية والسورية ، ووصلوا إلى نهر الفرات شمالي سوريا ، وكانت المراكب الفينيقية ومراكب جزر بحر إيجة تساعد على نقل الجيوش والأعتدة من مصر إلى الموانئ الفينيقية ، وتعود إلى مصر بما تقدمه المدن الخاضعة لفرعون من الهبات والفرائض . ووصف المصريون المدن التي مروا بها وثروة الأمراء الذين حاربوهم ، وهذا الوصف يدل على أن المدن الفينيقية والسورية في ذلك العهد قد بلغت شأواً بعيداً في الازدهار والبذخ . ويقول المصريون إنهم كانوا يرون الخمور تسيل كالأنهار من المعاصر القائمة على منحدرات الهضاب بين الكروم، وإن القمح على البيادر كأكوام الرمال.

وأما الأمراء فكانوا يغلفون مركباتهم بصفائح من الذهب والفضة ، ويتقلدون الأسلحة المذهبة والمفضضة ، وقد وجد الجند المصري في خيامهم حول مجدو شمالي فلسطين من الكنوز ما ألهاهم عن مهاجمة المدينة ، وسمح للأمراء المحالفين لملك تلك المدينة باللجوء إلى داخل أسوارها . والدور الذي لعبته الخيل والعجلات في تلك الغزوات كان من الأهمية بمكان ، ولم يكن أهل بلادنا وأهل البلاد المصرية يعرفون من المطايا قبل تلك الغزوات سوى الحمير ، فالغزاة هم الذين أتوا بالخيل ، وكان لسرعة هذا الحيوان أثر كبير في بدء الأمر في تغلب الشعوب المجتاحة على مدنية عظيمة كالمدنية المصرية في إبان ازدهارها .

ولكن سرعان ما اقتدى أهل مصر وأهل البلاد الشرقية بأعدائهم ، فسخروا هذه المطية الجديدة لأعمالهم ، وكروا على الغزاة بسلاح مماثل لسلاحهم ، فتمكنوا من تشتيتهم وكسر شوكتهم .

السياسة المصرية

وقد احتل الفراعنة البلاد الفينيقية والسورية ، وأخذوا يحتكون برؤساء هذه البلاد والبلدان المجاورة ، من ميتانية وحثية ، ساعين بشتى الوسائل والطرق لتوثيق الصلات معهم ، فكانوا يحتفظون في قصورهم بأبناء الرؤساء والملوك ،فيقتبس هؤلاء الفتيان والشبان المدنية المصرية ، ويكونون قد اصطبغوا بها عند ارتقائهم عروش آبائهم ، والذين يقيمون في مصر منهم يكونون رهائن عند الفراعنة تحمل آباء أولئك الشبان على التمسك بالولاء للعرش المصري .

وقد صاهر فراعنة مصر بعض ملوك الميتانيين والحثيين ، وكانوا يحترمون عبادات نسائهم وآلهتهن الخاصة . ومن مظاهر هذا الاحترام إقدام فراعنة مصر على الإتيان بتماثيل آلهة نسائهم لشفائهن في حالة المرض . وقد أثر النساء الغربيات فى ملوك مصر تأثيراً كبيراً ظهرت نتائجه فى عهد الفرعون أمنحوتب الرابع .

عهد الانقلاب الديني

وجد المصريون عند احتكاكهم بالشعوب الفينيقية والآرامية أن هذه الشعوب تؤله الشمس ، والشمس كانت إحدى إلهات المصريين القدماء ، ولكن زالت عبادتها أمام عبادة الإله أمون إله العاصمة الجديدة ، فقام الفرعون أمنحوتب الرابع يسعى لإعادة مذهب الشمس مع كل ما كانت عليه قديماً من منزلة ، مبالغاً في ذلك لدرجة أنه أخذ يبشر بها كالإله الفرد .

قد يكون الفرعون صنع ذلك عن اعتقاد، فساعدته في هذا التبشير امرأته الشرقية، كما أن رغبته في إضعاف شوكة الإله أمون وكهنته من جملة الأسباب التي دفعته بحماسة لمشايعة مذهب الشمس ، فنتج عن هذه البدعة الدينية الجريئة انشقاق واسع في صفوف المصريين ، وأصبح هذا الجهاد الديني شغل الفرعون الشاغل ، وحوّل أنظار المصريين عن السياسة الخارجية والاستعمارية ، وانتهز الحثيون ، سكان آسيا الصغرى وسوريا الشمالية ، فرصة هذا الشقاق بين صفوف المصريين للتوغل في أراضي سوريا الشمالية والتحالف مع بعض ملوكها ودس الدسائس ضد المصريين . وكان رجل الحثيين وقتئذ ملك عامور عبد عشرتا وابنه عزيز ، وتقع مملكة عامور هذه شمالي الممالك الفينيقية ، تلك الممالك التي انشقت إلى فريقين ، منها من ناهض المصريين كمملكتي أرواد وصيدا ، ومنها من حافظ على ولائه لهم كمملكتي جبيل وصور . وكانت ترد على الفرعون أمنحوتب باستمرار تقارير مندوبيه ورسائل ملوك فينيقيا ، ولكنه لم يعرها ماتستحقه من الاهتمام، ظناً منه أنها وليدة المنافسة ما بين الملوك ، وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل، منها كتاب زمرد ملك صيدا ، وكتاب رب هدى ملك جبيل ، وهذه ترجمة كتاب زمرد إلى العربية .

« إلى مولاي الملك إلهي شمسي نفحة حياتي ! هذا ما يقوله حاكم صيدا : عند أقدام مولاي إلهي . . . . سبع وسبع مرات سجدت . ليعلم الملك مولالي أن صيدون هادئة ، صيدون أمة الملك مولاي وديعة بين يدي . عند ما اطلعت على كتاب الملك مولاي حين كتب لعبده امتلأ قلبي حبوراً ، ورفعت رأسي . وعيناي طفحتا بشراً عند

سماعي تلاوة كتاب الملك مولاي . ليعلم الملك أني أقود جيوش الملك مولاي ، وأني أنفذ كل ما يأمر به ، وليعلم الملك أيضاً أن لي أعداء أشداء ، وجميع المدن التي ولاني عليها الملك سقطت بين أيدي السفاحين ، فليضعني الملك تحت حماية أمير جيوشه ليطالب بالمدن التي وقعت في أيدي السفاحين ، وليضعها بين يدي لأتابع خدمة الملك مولاي مثل آبائي قبلي » .

أما كتاب رب هدى فيعطينا التفاصيل الوافية عن حالة جبيل وما كان يجري فيها من الحوادث :

« رب هدى إلى الملك مولاي عند أقدام مولاي طرحت نفسي سبع وسبع مرات ، ها كم قد سمعت أقوال الملك مولاي ، وكان اغتباط قلبي كبيراً ، فليسرع مولاي بإرسال الجند ، وإذا لم يرسل الملك مولاي الجند نموت نحن وتسقط جبيل ، فإنها اليوم مثل البارحة وقبل البارحة في قلق . الآن مثل البارحة وقبل البارحة يردّد السكان لا جند بيننا ، كتبت مرة لحضر الجند وأسر أبا شونو ، وها إنهم الآن يقولون لم يكتب ، فستؤخذ المدينة ، وها إن العدى يحاولون الاستيلاء على مدينة جبيل ، ويقولون إذا استولينا على مدينة جبيل تقوى شوكتنا ، إنهم إذا استولوا على مدينة جبيل يصبحون أشداء ، ولن يخلصني أحد إذا ما زحفت عليهم ، . ها إني أسهر على مدينة الملك ليلا ونهاراً ، وإني إذا توجهت لاكتساح البلدان يتركني الأعوان ، فيستولون على البلدان لحسابهم الخاص ،. ولم يبق أحد لحماية مدينة جبيل مدينة الملك مولاي . ليسرع مولاي بإرسال الجند وإلا كان نصيبنا الموت وحين يكتب مولاي يعلمون أنهم لا شك مائتون ، ويحاولون بث الشر عند ما يقولون للملك : الطاعون في البلاد ، فليصم الملك مولاي أذنيه عن أقوال الناس ، فليس في البلاد أثر للطاعون ، والحالة الصحية أحسن من ذي قبل . إن مولاي يعلم بأني لا أبلغه أقوالاً كاذبة . إن الرؤساء لا يحبون عادة توجه الجند عند ما تسير الأمور سيراً حسناً ، أما أنا فإني أتمنى زحفها ، وأن يرى مولاي بلاده ويضع يده على كل شيء ، وأن البلاد بأجمعها تلتف حول الملك مولاي يوم تزحفون . ومن ذا الذي بوسعه مقاومة جند الملك ، وأرجو من الملك مولاي أن لا يدع لأبناء عبد عشرتي هذا العام أيضاً ، لا شك تعرفونهم وأنهم كلهم في بلاد الملك مولاي » .

هذا ما كانت عليه البلاد الفينيقية من الاضطراب ، والفرعون لاه بجهاده لا يجيب طلبها ولا يرسل لها بعض الجند أو بعض المركبات . ومات الفرعون وخلفه على

العرش أزواج بناته ، وثانيهما « توت عنخ آمون » ، الذي أبدل اسمه الأول « توت عنخ آتون » بتوت عنخ آمون ، معيداً إلى البلاد سيطرة آمون إله طيبة ، وملك هذا الفرعون من ١٣٥٨ — ١٣٥٠ قبل الميلاد ، ولكن البلاد السورية ، وخاصة الشمالية منها ، خرجت من يد الفراعنة وأصبحت تحت سلطة الحثيين . ودامت الحال هكذا حتى القرن الثالث عشر حيث ملكت مصر الأسرة التاسعة عشرة ، فقام ملوكها يعيدون النظام إلى البلاد ، ويرجعون إلى التقاليد السياسية الخارجية ، بإنشاءهم حاجزاً من الممالك الكنعانية والفينيقية والآرامية بينهم وبين الدول الأسيوية الكبرى . وقد استعاد الفرعون سيتي الأول لبنان من الحثيين ، وأقام لنفسه نصباً في مدينة قادش المعروفة اليوم بتل النبي مند ، وهي الواقعة على ضفاف بحيرة حمص ، وقد دعيت البحيرة قدس نسبة إلى المدينة المجاورة ، ولا يزال هناك طاحون يعرف بطاحون قدس . وملك بعد سيتي الفرعون رمسيس الثاني الشهير ، وقد حكم مصر من سنة ١٣٠٠ إلى سنة ١٢٣٤ ق. م. وكان هذا الفرعون من أعظم فراعنة مصر وأشهرهم ، وشيد مكان هواري عاصمة الرعاة ومعسكرهم مدينة هامة أطلق عليها إسم بيرعمسيس وجعل فيها معسكراً كبيرا يسطو منه على البلاد الشرقية وبدأ رمسيس حملاته على هذه البلاد منذ العام الثاني من ملكه ، وقد نقش على صخور عدلون ونهر الكلب نصباً تذكارياً لمرور جيوشه على الشواطىء الفينيقية. وقددفع نزق الشباب الفرعون رمسيس إلى التوغل بجيشه شمالي لبنان ، وكان رمسيس قد قسم جيشه إلى أربعة فيالق ، وسبق مع



(شكل ٧) آثار باب لمعبد اكتشف في جبيل وقد نقش عليه اسم الفرعون رمسيس الثاني .

الفيلق الأول بقية الجيش ، وكان مع جيشه شبان العموريين سكان جبال فينيقيا الشمالية ، وكان الحثيون قد تربصوا له وراء أكمة قادش ، فباغتوه وأوشكوا أن يقضوا عليه وعلى الفيلق المرافق له ، ولم ينج إلا بخوضه المعركة بنفسه وبحماسة الشبيبة العمورية التي دافعت عنه ، وبهذه الصورة تمكن من الصمود حتى وصول بقية الجيش لنجدته .

انتصر رمسيس في قادش ، ولم تمض بضع سنوات على انتصاره حتى وقع مع الحثيين معاهدة اقتسم بها معهم البلاد الشرقية ، فكانت البلاد الواقعة شمال مدينة قادش نصيب الحثيين ، وخضعت البلاد الواقعة جنوبيها للسلطة المصرية . أما رمسيس ، ذاك البناء الجبار ، فإنه ترك آثاراً عديدة لمروره في البلاد الفينيقية ، وزان بنقوشه صخور عدلون ، بين صيدا وصور ، وصخور نهر الكلب على الطريق المؤدية إلى جبيل وبنى معبداً في هذه المدينة لا تزال آثاره محفوظة ، ووهب ملك جبيل أحيرام إناء من الألبستر نقش عليه أسماءه .

وقد وطد رمسيس بعد انتصاره تلك العلاقات الوثيقة التي دامت بين البلادين آلاف السنين والتي لن تضعف فيما بعد إلا بضعف الدولة المصريه أو الشعب الفينيقي .

موريس حافظ شهاب

المعارضات في الشعر العربي

١- في العصر الجاهلي

للأستاذ علي الجارم بك

غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية ، وهي في الإنسان أبين منها في الحيوان وأظهر أثراً ، لأن الإدراك يزيدها قوة ويستحثها إلى البروز والظهور . وإذا كانت في الحيوان غريزة عمياء ، تصدر عن دافع آليّ ، ولا تتجه إلى غاية ، ولا تعمل إلا عملا تسوقها إليه الفطرة عن غير قصد ، فإنها في الإنسان غريزة مبصرة متعمدة ، تعرف ما تأتي وما تذر ، وترمي إلى هدف منصوب ، وتركض لتناول القصب في ميدان سباق الحياة .

وتظهر المنافسة في أنواع الحيوان المنحط الإدراك في التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به ، فإن الفرخ لا يكاد ينقف البيضة ، ويتنسم نسيم الوجود ، حتى يزاحم إخوته على الطعام ، وقد يختطف القطعة من منقار منافسه لينفرد بها في إحدى الزوايا الهادئة من الفناء . وأظنك قد شعرت مراراً أن الدابة البليدة إذا ركبتها فسارت بك منفردة نقلت الخطا بطيئة متثاقلة ، وربما زادتها العصا بطئاً وتثاقلا وحراناً . أما إذا ركبتها وكان بجانبها دابة أخرى أنشط منها وأسرع ، فإنها تبذل جهد الطاقة في مجاراة تلك الدابة ، وتعطيك من النشاط فنوناً لم تكن لك ببال .

هذا شيء مشاهد في الحيوان لا مرية فيه ولا شك ، ولو أردنا أن نستطرد فيه أو أن نعدد له الأمثال لاتسع نطاق البحث وطال بنا حبل الكلام .

أما غريزة المنافسة في الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل ، وتصاحبه من لدن نشأته إلى منتهى رقدته . وتظهر في كثير من أعماله ، وتكتب في سجل القدر ما يكون له من خطر في الحياة وما لا يكون . فهي فيه بمنزلة القوة الدافعة في الآلة الميكانيكية ، تقدر قيمة الآلة بقدرها قوة وضعفاً ، لذلك عني رجال التربية بتقوية هذه الغريزة في الأطفال بكل ما وسعهم من ضروب الإغراء ، فدفعوهم إلى التغالب في كل شيء ، حتى في الصراع والملاكمة . وعدوا الطفل الهادئ المستكين القانع بما لديه ، الذي لا يمد عينيه إلى أفضل مما هو فيه مريضاً مرضاً نفسياً عضالا ، إذا لزمه في صغره فقد الرجولة

الكاملة حينما يشب عن الطوق ، وأصبح فسلا خائراً لا رجاء فيه ولا غناء عنده .

وترتكز غريزة المنافسة على غريزة المحاكاة ، أو على غريزة الإحساس بالنقص ، فإن الحيوان إذا شهد عملا حاول أول الأمر محاكاته ، لما يجول بخاطره أو خاطر فطرته وجبلته من أنه لا يستطيع أن يأتي بمثله ، فيأخذ في محاكاته مرة بعد أخرى ، حتى إذا رأى أنه بلغ في المحاكاة منزلة لا تقل عن الأصل المحاكى دقة وإحكاماً ، تضاعفت فيه الثقة بنفسه ، وتملكه الإعجاب بها ، وطفق يستصغر في يومه ما كان يكبره في أمسه ، وأراد أن يرتفع درجة أو درجات فوق من كان أو ما كان يحاكيه ويعده مثلا عالياً في الإتقان والإجادة ، وهكذا يتنقل الحيوان أو الإنسان من محاكاة إلى منافسة ،إلى سبق وتبريز .

هذه المنافسة وهذه المزاحمة بالمناكب للسبق والوصول إلى الغايات ، هما سر تدرج الحياة الإنسانية نحو الكمال ، وهما سر تطور الحياة من حال إلى حال ، وهما سر تنقل التاريخ البشري في سلم الارتقاء ، لأن المنافسة كما تكون في الأفراد تكون في الأمم وإذا تنافست الأمم سعد العالم بكثير من نتائج هذا السباق التي تنهض بالإنسانية وتخفف كثيراً من ويلاتها .

ويعجبني بيت من الشعر للشاعر الإنجليزي « روبرت برونِنج » Robert Browning وهو :

A mans' reach should exceed his grasp, or what is a heaven for ?

وترجمته :

غايةُ المرءِ فوقَ ما تصلُ الكـَ ـفُّ وإلّا لمن تكونُ السماءُ !

هذا تصوير من أدق ما يصوره شاعر للنفس الوثابة والأمل السباق والمنافسة التي لا ترضى بالقليل ولا الكثير ، إن صاحب هذه النفس يزهد في كل ما يستطيع نيله ، ويعد صغيراً كل ما تصل إليه يده ، ويأنف من أن يخلد إلى الأرض ويرضى بغاياتها الدنيا ، وتثب همته إلى الوصول إلى ما في السماء من خلد ومجادة . وهذا قريب من بيت « البارودي » :

هَمامةُ نفس أرخصتْ كلَّ مطلَبٍ فكلَّفتِ الأيامَ ما ليس يُطلبُ

وهو أشبه جداً ببيت « شوقي » حين يخاطب الشباب :

واطلبوا المجـدَ على الأرض فإنْ هي ضاقتْ فاطلبوه في السمـاء

« وللمتنبي » الطموح شعر كثير في هذا المعنى ، ولعل أقربه إلى ما نحن بصدده قوله :

ولكنَّ قلباً بين جَنْبيَّ ما له مَدًى ينتهي بي في مُرادٍ أحُدُّه

وفي هذا المعنى أقول :

إنّ النفوسَ تضيقُ وهي صغيرةٌ ويضيقُ عنها الكونُ وهي كبارُ

وللمتنبي أيضاً فيما يحوم حول هذا الموضوع قوله :

يقولونَ لي ما أنتَ في كلِّ بلدةٍ وما تبتغي ؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسْمَى !

وقوله :

وشرُّ ما قنصَتْه راحتي قَنَصٌ شُهْبُ البُزاةِ سَواءٌ فيه والرَّخَمُ

هذا استطراد موجز دعت إليه الموازنة بين شعر الإفرنج وشعر العرب ، لندلل على أن فيض الإلهام عام ينتظم الجماعات وإن اختلفت الألسنة والألوان ، وأنّ توارد الخواطر يكون في الأفراد كما يكون في الأمم ، وأن كوكب الفنون يشرق على الشرق والغرب على السواء ، ولنقول للشاعر « كبلنج » الذي قال : « الشرق شرق ، والغرب غرب فلن يجتمعا » إنهما ياسيدي يجتمعان في كثير : يجتمعان في العلوم ، فإن الشرق في العصور الوسطى كان أداة الاتصال في نقل فلسفة اليونان إلى أوربا ، ويجتمعان في الفنون ، فإن الأندلس ، وهي شرقية في كل شيء إلا في موقعها الجغرافي ، نقلت فنون الشعر والنقش والموسيقى إلى أوربا ، ويجتمعان فى العواطف ، لأنهما أدركا بعد لأي أن الإنسانية أسرة واحدة وإن تفرقت بها الأوطان وبعدت الديار .

ألا إنّما الأيامُ أبناءُ واحدٍ وهذي الليالي كلُّها أخَواتُ

نعود فنقول : إن المنافسة في كل شيء حافز إلى الرقي ، يدفع الهمم إلى السخط على كل ما يمكن أن ينال ، وهي إذا سرت إلى الفنون وصلت بها إلى الأوج . والذي يعنينا في هذا البحث أن نبين أن المنافسة الفنية في الشعر دفعت الشعراء إلى ما يسمى بالمعارضة ، والمعارضة الشعرية موضوع خطير الشأن في الأدب العربي، أردنا أن نخصه بالبحث في هذه اللفتات القصيرة ، وأن نعرضه عرضاً قد يكون جديداً في بابته ، وأن نلم بنشأته وأسبابه ومميزاته ، ثم بآثاره ، وبما أفاء على الأدب العربي من ثمرات ، وما جدد فيه من فنون .

والأصل في المعارضة أن تكون بين الأحياء حين يدفع الشاعر إلى معارضة شاعر آخر ما يحس به في نفسه من قوة وما يجيش في صدره من رغبة في التحدي وحب الغلب، فهو رجل معتز بفنه ، واثق الثقة كلها من تمام تمكنه منه وتحكمه فيه . وفي هذا ضرب

من الأثرة وحب الانفراد بالكمال ، فهو لا يريد أن يرى له في شعره قريعاً أو مثيلا . وكثيراً ما كان يسير « امرؤ القيس » في أحياء العرب ، ومعه أخلاط من شذاذهم من «طيء» و «كلب» و « بكر بن وائل » وقد زهاه الشباب ، وأفسده الفراغ والجدة ، وملأه الغرور والزعم بأنه أشعر شاعر رددت صوته جزيرة العرب . فكان يتحدى كل شاعر ، ويماتن كل قوال ، وينافر كل من توهم أنه قد يزحزحه عن عرش شعره. يروى أن امرأ القيس لقي التوأم اليشكري فقال له : إن كنت شاعراً فأجز أنصاف ما أقول . فقال التوأم : قل ما شئت .

فقال امرؤ القيس : أحارِ ترى بُرَيْقاً هب وَهْناً

فقال التوأم : كنار مجوسَ تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس : أرقتُ له ونام أبو شُريح

فقال التوأم : إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس : كأن حنينه والرعدُ فيه

فقال التوأم : عِشارٌ وُلَّهٌ لاقت عشارا

وهكذا يستمران حتى يعجز امرؤ القيس عن إعجاز التوأم، فيلقي السلاح ويحلف أن لا ينازع أحداً الشعر بعده . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنها تصور نازعة غلابة تجيش بنفس كل معتز بفنه . ومما يحسن التنبه له هنا أن امرأ القيس عن قصد أوغير قصد ، أو لأنه هو البادىء بالمماتنة ، اختص نفسه بصدور الأبيات التي تخلو من صعوبة القافية ، ثم إنه كان يتعمد وضع العقبات أمام التوأم ، إما بالإتيان بما يتطلب التشبيه على البديهة ، وإما بالإتيان بأحد طرفي التشبيه وترك التوأم يبحث عن الطرف الآخر .

ومن المعارضة في الجاهلية ما رواه أبو عبيدة قال : كان امرؤ القيس قد تزوج امرأة من طيء حين كان جاراً لهم، فنزل به علقمة الفحل التميمي فقال كل واحد منهما لصاحبه : أنا أشعر منك. وتحاكما إلى زوج امرىء القيس، فأنشدها امرؤ القيس قصيدة طويلة أولها :

خليليَّ مرّا بي على أمّ جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذَّبِ

ثم أخذ في وصف حصانه فأطال ، ومما جاء في هذا الوصف :

فللسّوط ألهوبٌ وللسّاق درّة وللزجر منه وقع أهوج متعبِ

ثم أنشدها علقمة قصيدة طويلة من البحر والقافية أولها :

ذهبتِ بنا في الهجر في غير مَذْهبِ

ووصف فرسه أيضاً وهو يطارد الصيد حتى انتهى إلى قوله :

فأدركهنّ ثانياً من عنانهِ يمر كغيثٍ رائحٍ متحلّبِ

فقالت زوج امرئ القيس له : علقمة أشعر منك ، قال : وكيف ؟ قالت : لأنك زجرت فرسك ، وحركته بساقك ، وضربته بسوطك ، أما فرس علقمة فقد أدرك الصيد ثانياً عنانه ، لم يضرب بسوط ، ولم يزجر بساق ، فغضب امرؤ القيس وقال : ليس كما قلت ولكنك هويته فحكمت له .

ويخيل إلي أن أسواق العرب في الجاهلية كان بها الشيء الكثير من هذا ، وأن الشعراء والنقاد كانوا ينتحون ناحية بعيدة عن المتاجر وأماكن البيع ، فيجتمعون في حلقة واسعة يتزاحم عليها الناس من كل صوب ، لسماع خير ما ينشد من الشعر ولإرضاء ميولهم بمشاهدة ما يقع بين الشعراء من المعارضة والمنافرة والتحدي ، كما نجتمع الآن في سباق الخيل أو حفلات الملاكمة أو المبارزة بالسيوف . والمعارضة الشعرية كالمبارزة في كثير من نواحيها : فكما أن المبارزين يجب أن يستعملا سلاحاً من نوع واحد ، كذلك الشاعران يجب أن يتحدا في البحر والقافية . وكما أن في المبارزة محكمين ، كذلك في المعارضة نقاد محكمون يقضون لمن له السبق والغلب . وكما أن المبارزة قد تنتهي بقتل أحد المبارزين ، كذلك المعارضة الشعرية قد تؤدي إلى موت الشاعر موتاً معنوياً لا تقوم له قيامة بعده . هذا وسيكون لنا بحول الله حديث عن المعارضة في صدر الإسلام في عدد تال .

علي الجارم

ما بعد النفس
أو
الميتابسيشيك

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

هذا علم جديد لم يكتب عنه أحد فيما أعرف باللغة العربية .

اقترح هذا الاسم La Métapsychique شارل ريشيه الأستاذ بجامعة باريس وعضو المجمع عام ١٩٠٥ ، فأجمع المشتغلون بهذه المسائل على قبول هذا الاصطلاح .

وكما أن هناك علم الطبيعة ، ثم علم ما بعد الطبيعة الذي اقترحه أرسطو للبحث في القوانين العامة الفائقة على علم الطبيعة ، فهناك كذلك علم النفس الذي يبحث في الظواهر النفسية المشاهدة بالحواس ، ثم علم ما بعد النفس الذي يبحث في القوى العقلية وفي العقل الحاكم لهذه الظواهر الخفية التي تبدو غير مألوفة .

موضوع هذا العلم ظواهر ثلاث .

١ — الكشف Cryptesthésie ، وهي أداة للمعرفة تختلف عن أدوات المعرفة الحسية العادية .

٢ — التأثيرات النفسانية Télekinesie ، وهي التأثير النفساني في الأشياء والأشخاص بقوى غير القوى المعروفة ، أو كما جاء في تعريف ابن خلدون للسحر والطلسمات : « إنها علوم بكيفية واستعدادات تقتدر النفوس البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر ، إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية ، والأول هو السحر ، والثاني هو الطلسمات » .

٣ — التجسد Ectoplasmie ، وهو تجسد أشياء يبدو أنها تخرج من جسم الإنسان وتتخذ مظهر الحقيقة .

ومما لا شك فيه أن هذه الظواهر جميعاً تحدث وتقع ، ولكنها غير شائعة وغير عامة بين سائر الناس ، غير أن ندرة وقوعها ليست دليلاً على فسادها ، ووجودها عند بعض الأفراد القلائل ممن وهبوا هذه القوى والتأثيرات النفسانية برهان على صحتها .

وقد حاول كثير من العلماء المشهورين مثل ميرز Myres ولودج وغيرهما تفسير هذه الظواهر المشاهدة بإحدى طريقتين : الأولى قراءة الفكر أو انتقال الفكر Télépathie ، والثانية وجود الروح وحياتها بعد موت البدن وتأثيرها في الأحياء Spiritisme .

غير أن الأستاذ ريشيه يقف من هذين الفرضين موقفاً آخر ، فهو لا ينكر قراءة الفكر ، ولكنه يرى أنها لا تفسر كثيراً من الظواهر التي لا يكون فيها انتقال فكر من شخص إلى آخر . ويرى كذلك أن التفسير الروحاني لا يمكن إثباته علمياً ، على حين أن افتراض وجود حاسة أو حواس ، خلاف الحواس المعروفة ، بها نستطيع إدراك الأشياء عن بعد ، والتأثير في الأشياء عن بعد ، هو الفرض الذي يمكن إقامة الدليل عليه علمياً .

ونسوق مثالا من كتابه * لتوضيح ما يذهب إليه :

« في أوائل أغسطس عام ١٨٧٨ كان جدّي شارل رنوارد البالغ الرابعة والثمانين من عمره يشكو مرضاً بسيطاً لم يمنعه من الحركة ، وكان مقيما في قصر إستورز عند مدام شفريه . وفي ١١ أغسطس ذهبت إلى إستورز فوجدت صحة جدي حسنة ، وكنت قد اتفقت مع زوجتي على تمضية بضعة أيام في الأسبوع التالي بإستورز . وكنا وقتئذ في ميدون إحدى ضواحي باريس . وفي صباح يوم السبت ١٧ أغسطس الساعة السابعة ، استيقظت زوجتي وهي تقول : إنه شيء مخيف ، لقد رأيت جدك مريضاً جداً ، راقداً في سريره ، وأمك منحنية إلى جانبه .

لم أحفل بهذه الرؤيا ، لأنني في ذلك العهد لم أكن أعير الرؤيا الصادقة التفاتاً ، فطمأنت زوجتي ، ثم ركبنا عربة إلى باريس ، فلما وصلنا في الساعة العاشرة ، وجدت برقية تنبىء بوفاة جدي ، وأن الوفاة وقعت في الساعة الرابعة .

فكأن زوجتي شاهدت في الرؤيا الوفاة بعد وقوعها بثلاث ساعات » .

تفسير هذه الرؤيا بواسطة قراءة الفكر لا يستقيم ، لأن الرؤيا حدثت بعد الوفاة بساعات ، وتفسيرها بواسطة الاتصال الروحاني فرض يحتاج إلى كثير من الإثبات والأليق أن تفسر بوجود حاسة بها ندرك ونؤثر في الأجسام والأشخاص عن بعد .

وقد تقول إن هذه الحادثة مزورة على العلم ، ولم ينكر ريشيه وجود الأدعياء والدجالين ، غير أنه يقرر وجودهم في ميدان العلم الروحاني أكثر من هذا الميدان . ثم

* Traité de Métapsychique, 1923, p. 403-404.

هو يتحرى الدقة في قبول الروايات والمشاهدات بحيث تكون موثوقاً بها ، لايتهم صاحبها بالطعن أو التزوير .

وقد نقول إن هذه الظاهرة من قبيل المصادفة والاتفاق ، غير أن الاتفاق إن صح في حادثة واحدة ، فلا يصح في حوادث أخرى كثيرة ، ليس هنا مجال ذكرها ، ومناقشة احتمال خضوعها للمصادفة .

لم يبق إذن إلا القول بالاتصال بالأجسام عن بعد بواسطة تموّجات غير منظورة .

الواقع أن في الكون ظواهر موجودة فعلا ، وحواسنا المألوفة لا تهدينا إليها . مثال ذلك الجاذبية ، والقوى المغناطيسية ، والتيارات الكهربائية ، والأشعة فوق البنفسجية وتحت الأحمر ، وأشعة الرديوم ، والأصوات التي تزيد على أربعين ألف ذبذبة .

ويتبين من هذا أن النافذة التي نطل منها على هذا الكون ، ونعني بالنافذة الحواس ، ضيقة جداً .

ولاريب في وجود قوى كثيرة تموج من حولنا في هذا الكون الهائل ، ولا تزال خفية عن حواسنا ، وعن الآلات التي ابتدعها العلم لكشفها . فلا ضير من القول بوجود حاسة أو حواس ندرك بها الأشياء الخارجية ، مما لا توصلنا إليه الحواس المعروفة لنا حتى الآن .

* * *

ولقد مر هذا العلم في أربعة أطوار ، الطور الأسطوري ، والطور المغناطيسي ، والطور الروحاني ، والطور العلمي .

الطور الأسطوري Période Mythique ، يمتد من القديم حتى ظهور مسمر Mesmer عام ١٧٧٨ . ولقد لعب السحر والمعجزات والنبوءات في جميع الأديان القديمة دوراً هاماً . ولا نستطيع القول بأن جميع هذه الظواهر كانت باطلة ، غير أن التمييز فيها بين الصحيح والفاسد من أشق الأمور .

ونحب أن نقف قليلا عند ذلك الصوت الباطني الذي كان يسمعه سقراط فيما يروي أفلاطون وزينوفون ، كان سقراط يعتقد أن هذا الشيطان أو الإله شيء آخر يختلف عنه ، يوحي إليه بالأمور المجهولة ، ويهديه سواء السبيل .

ويشبه الأستاذ ميرز هذا الصوت الذي كان سقراط يسمعه بما كانت تسمعه جان درك منذ صباها ، وكانت وحدها هي التي تسمع هذه الأصوات وترى هذه الرؤى .

الطور المغناطيسي Magnétique ، يبدأ من مسمر إلى الشقيقتين فوكس عام ١٨٤٧ . ومسمر صاحب نظرية التنويم المغناطيسي والتأثير في الحيوان والإنسان . ولما أعلن نظريته في باريس سارع كثير من الأطباء والعلماء والمحامين والقضاة إلى اعتناقها، كان مسمر يقصد بالمغناطيسي التأثير عن بعد ، وهي ظاهرة صحيحة علمياً ، واقتصر البحث في هذا العلم الجديد على شفاء المرضى ، غير أنه لم ينجح نجاحا كافياً في العلاج ، فانصرف عنه العلماء .

الطور الروحاني Spiritique ، يبدأ من عام ١٨٤٧ حيث ظهرت حادثة غريبة في هايدسفيل بالقرب من نيويورك . ذلك أن مشيل وكان أخذ يسمع أصواتاً غريبة خارج الدار ، وخرج ليراها فلم يجد شيئاً ، واستمر يسمع هذه الأصوات ، فأخلى الدار التي سكنها جون فوكس وابنتيه كترين ومرغريت ، وكانتا تسمعان نقراً منظماً ، فقررتا أن هذه النقرات ذات معنى ، ثم وضعتا ألف باء لهذه النقرات الصادرة عن الأرواح ، كما يزعمون . واجتمع العلماء لتحقيق هذه الظاهرة ، واتسعت دائرة الجمعيات الروحانية في أوربا وأمريكا ، وأعلن الدكتور كردك Kardec نظريته الروحانية ، وخلاصتها أن النفس لا تفنى بفناء البدن ، بل تستحيل بعد الموت روحاً ، ثم تتقمص جسم وسيط يتلقى عنها مختلف الأوامر والتأثيرات .

ويبدأ الطور العلمي ، أو الميتابسيشيك ، بظهور السير وليام كروكس في إنجلترا، إذ شرع يدرس حالة الوسطاء ، ويجري عليهم تجاربه ، فوجد أن ما يصدر عنهم لا شبهة فيه ، وأنه حق ، ولكنه لا يفسر بالروحانيات ، بل بقوى فسيولوجية ونفسانية مجهولة، سوف يكشف العلم الستار عنها . فكان كروكس بذلك أول من وضع أسس علم ما بعد النفس ، أو الميتابسيشيك .

* * *

الوسطاء هم أصحاب موهبة الكشف أو التأثير في الأشخاص والأجسام عن بعد، أو هم عند الروحانيين المتوسطون بين عالم الأحياء وعالم الأموات . والذين يظهرون التأثيرات النفسانية والتجسد أندر من الذين يظهرون الكشف ، أولئك قوم نعدهم من الشواذ لفرط قلتهم .

وندرتهم لا تقدح في صحة وجودهم ، ويجب التسليم بأن الناس غير متشابهين من حيث القوى والمواهب ، فنحن نجد بعض الأطفال ذوي ذاكرة فريدة في بابها ، أو لهم القدرة على إجراء عمليات حسابية عقلية ، مما يثير العجب حقاً .

وظاهرة الكشف أكثر شيوعاً من غيرها . ونروي هنا حادثة ذكرها الأستاذ ريشيه في كتاب (حاستنا السادسة)[1] : «برتا فتاة صغيرة اختفت في يوم ٣١ أكتوبر ١٨٩٨ بجهة أنفلد من أعمال نيوهمشير ، بحثوا عنها في كل مكان : في الغابة ، وعلى شاطىء البحيرة ، فلم يعثروا عليها ، وفي ليلة ٣ نوفمبر رأت مدام تيتوس في النوم — وهي بمدينة ليبان نفيل التي تبعد ثمانية كيلو مترات عن أنفلد — جثة برتا في مكان معين وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى قنطرة شيكر على البحيرة ، وأرشدت الغطاس بالضبط إلى المكان الذي توجد فيه الجثة ، وقالت : إن رأسها إلى أسفل بحيث لا يرى إلا كعب حذائها ، واتبع الغطاس تعليمات مدام تيتوس ، فعثر فعلاً على الجثة على بعد سبع أقدام تحت سطح الماء ، قال الغطاس : كانت دهشتي عظيمة ، فالجثث في الماء لا تخيفني بمقدار ما أخافتني المرأة الواقفة عند القنطرة » .

وروى الأستاذ الإمام محمد عبده في سيرته أنه ذهب إلى الجامع الأحمدي بطنطا ، « وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني ، فرأيت أمامي شخصاً يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب ، فلما رفعت رأسي إليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء ؟ فقلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحان الله : من جدّ وجد . ثم انصرف ، فعددت ذلك القول منه إلهاماً ساقه الله إليّ ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا »[2] .

الظاهرة المشتركة بين جميع الوسطاء من أصحاب التأثيرات والتجسد هي النقر Le rap ، وهي عبارة عن ذبذبة صوتية تسمع على خشب المنضدة دون اتصال بها . وهؤلاء الوسطاء معروفون لدى العلماء المشتغلين بهذه المسائل ، ويعدون منهم بضعة عشر نفراً .

غير أنه مع الأسف كثيراً ما يسيء الوسطاء إلى موهبتهم بانصرافهم إلى كسب المال وجمع الثروة ، فهم يستغلون هذه القوة العجيبة في عقد جلسات لا يباح الدخول فيها إلا بالمال ، وعندئذ لا يكون بينهم وبين الغش والتدليس إلا خطوة يسيرة ، وكثيراً ما يخطونها ! !

ولا ينبغي أن ننسى أن أغلب الوسطاء يصبحون محترفين ، فلا يعنيهم العلم ، ويتخذون شتى الوسائل للخداع ، ويجب على العلماء اتخاذ جميع الاحتياطات لكشف القناع عن أساليبهم.

---

(١) Notre sixième sens p. 54-55

(٢) محمد عبده تأليف الأستاذ مصطفى عبد الرازق ص ٢٥

الوسطاء درجات ، ويقسمونهم عادة إلى أربع :

١ — الدرجة الأولى التي تفترق عن الحالات العادية ، صدور حركات لا شعورية خفيفة ، كأنها ومضات أو لمحات ، يستبين منها البصير المتدرب الإحساسات الصادرة عن اللاشعور . ومن الثابت أن خمسين في المائة من البشر يفصحون بأنواع من الحركات عن أفكارهم الباطنة . هذه الحركات غير الإدارية تدرس في علم النفس العادي أو في علم وظائف الأعضاء .

٢ — الدرجة الثانية هي إحداث شخصية جديدة بواسطة التنويم المغناطيسي ، وهذه الشخصية الجديدة الوهمية تحدث بتأثير المُنوّم في الوسيط ، وهي ظاهرة مألوفة تدرس أيضاً في علم النفس العادي .

٣ — الدرجة الثالثة أن يوحي الوسيط إلى نفسه بتقمص شخصية جديدة ، مثال ذلك أن الوسيطة هيلين سميث كانت تتقمص شخصية الملكة ماري أنطوانيت . وتتصل الكتابة الأتوماتيكية بهذا النوع من الوسطاء . ولا شأن للأرواح أو علم ما بعد النفس بهذه الظاهرة ، لأنه حيث أمكن تنويم الوسيط والإيحاء له بتقمص شخصية جديدة ، فشبيه بذلك أن يوحي الوسيط إلى نفسه فيصبح شخصاً آخر . ولا محل إذن لافتراض أن روح الملكة ماري أنطوانيت حلت في هيلين سميث .

٤ — الدرجة الرابعة أن تصبح الشخصية الجديدة قادرة على الكشف مما لا يقدر عليه الوسيط نفسه . ويبدو أن البديل ، أو الشخص الغريب الذي يحل في جسد الوسيط يملك قدرة عجيبة حقاً . وهذه الدرجة الأخيرة هي التي تدخل فى باب الميتابسيشيك ، لأن التفسيرات النفسية العادية لا تكفي لتعليلها .

ومن العلماء من يرى أن الوسيط هو ذلك الذي تصدر عنه حركات بغير اتصال مباشر ، وتحدث عنه ظاهرة التجسد . وهذه هي أعلى درجة في الوساطة والوسطاء . ومن هذا الباب ما شوهد من الوسيطة إزابيا Eusapia من تحريك أشياء بغير لمسها .

ويعزو هؤلاء الوسطاء ما يصدر عنهم إلى شخص آخر يحل فيهم ، يسمونه المرشد Le guide ، وهو شبيه بذلك الهاتف الذي كان يسمعه سقراط .

***

هل يمتاز هؤلاء الوسطاء بصفات خاصة ، أو هم كغيرهم من بني جنسهم ؟

يختلف العلماء في ذلك ، ويرى بعضهم أنهم موهوبون بالحساسية Sensitifs ، ويرى بعضهم الآخر مثل الأستاذ بيير جانيه أنهم آليون Automates ، ويعارضهم الأستاذ

ريشيه في ذلك ، ويعتقد أنهم لا يختلفون في شيء عن سائر البشر ، وأن السن أو الجنس أو التعليم أو القومية لا تؤثر عليهم في شيء .

والعجيب في أمر الوسطاء أن مواهبهم تظهر فجأة وتختفي فجأة ، دون ضابط ، ولا يمكن تعليم الوسيط . يروي الدكتور سيجرد أن ابنته وهي في سن الثانية عشرة أظهرت خلال ثلاثة أيام متوالية حالات بارزة للتأثير عن بعد في الأشياء « تليكنزي » ثم اختفت هذه الأحوال إلى غير عودة .

ولا يثمر التعليم في الوسيط أي ثمرة ، بل الواجب أن يترك لحريته ، حيث إن تأثيرنا عليه مضرّ به ، وكثيراً ما نفسده بالتوجيه والإرشاد .

وإننا لنسيء إلى الوسطاء بسوء موقفنا منهم ، فنحن نعاملهم كأنهم من أصحاب الأرواح الشريرة ، ونسخر منهم ، ونعزو إليهم الغش والخداع ، ثم يهبط عليهم أصحاب الصحف فيتخذون منهم أداة للنشر والدعاية الصحفية لما فيهم من أطوار غريبة ، ويتجه إليهم الناس يستشيرونهم في أمورهم الخاصة : فهذه امرأة تريد التأثير في حبيبها الذي هجرها ، وهذا رجل يرغب في كسب قضية ، وهذا شخص فقد أوراقاً يهمه معرفة مكانها .

الواجب الاحتفاظ بالوسطاء لمصلحة العلم وتجارب العلماء الدقيقة ، بدلا من استثمارهم في كسب المال .

وبعد ، فلا يزال هذا العلم في أول خطواته ، ولسنا ندري ما سوف يتمخض عنه المستقبل .

احمد فؤاد الاهوانى

أتكون القصّة دخيلة في الأدب العربي

للأستاذ كرم ملحم كرم   بيروت

القصة ، هذه النبتة اللدنة الساق في أدب الضاد ، ليست دخيلة على هذا الأدب في عهد البعث الطالع . فإن لها في خزائنه دعائم وطيدة الأس ، ناعمة بالبقاء . فما جئناه بالجديد ونحن نعالج هذا الفن الفسيح الجنبات وقد استظل منه أدبنا التالد دوحة معطاء

عرفت القصة ، بل الأقصوصة ، طريقها إلى أدب الضاد في كتاب « كليلة ودمنة » . فهو باكورة القصة العربية وعنوانها الساطع وقد حفل بنخبة مصطفاة من أقاصيص الحيوانات ، إلا أنها حيوانات متكلمة كمن أوتي الفهم اختارها ابن المقفع لينحلها غوالي العظات ويهدي بها الحكام . والأقاصيص الذائعة على ألسنة العجماوات من طابع ذلك العهد وقد شاعت في الهند والعجم ويونان واستساغها الناس . فمن يعبد الأسود والأبقار لا يعف عن سماع هذه الآلهة تفيض عليه بالحكم والأمثال

ومن الراهن أن ابن المقفع ، وهو المجوسي الفارسي الواقف على أسرار أدب بني قومه ، والناهل من صفايا هذا الأدب ، قد استوحى روائع المنشئين الهنود والفرس وانتقى منها لكتابه الجياد . وهو نفسه يحدثنا في مقدمة الكتاب بأنه ناقل في ما حبانا إياه لا خالق ، على أن الزمن لم يحمل إلينا الأصل الهندي ولا الفارسي . ولو نسب ابن المقفع الكتاب إليه لما لقي من يدحض مقاله . وقد يكون النص لمع يومذاك ثم تلاشى على الزمن . فلم تحتمله الأيام لوهن في أسلوبه ، أو لإهمال في حفاظه . فضاع وبقيت أقاصيص ابن المقفع لقوة سبكها وصفاء وجهها ، فبخل بها أدب الضاد وما أباحها للنسيان

وابن المقفع تفنن في هذه الأقاصيص وخلع عليها من نفسه . فالوضع يطل من جوانبها وقد صبها المنشىء العربي في صيغة التوجيه للهدى والتهذيب وكبح نزوات أصحاب السلطان . وكيفما قلبناها وقعنا على الفن القصصي نابضاً في صميمها . فهي مثال تام الصنعة في الحبك والأداء . إنها لمتعة كل آن ومعجزة كل زمان وقد عصب بها ابن المقفع جبين الأدب العربي ، وهي الطافرة إلى أسمى قمة في البيان

ويدهشنا في ابن المقفع احتجابه في « كليلة ودمنة » . فهو يغرق في التواضع

مع كل ما يتواثب فيه من زهو واعتداد . فأضاف إليها الذيول العراض وأبى أن يجاوز مهمة المترجم . وكنا نود لو كانت « كليلة ودمنة » بضاعة عربية صرفاً لنباهي بها آداب الأمم الباقية على الزمن ، لا بقوة سبك الكتاب وقوة السبك لنا أكثر منها لسوانا ، بل بمتعة الخلق المتألق في الصفحات وفي « كليلة ودمنة » من موهبة الإبداع ما يرفعها إلى مرتبة الشواهق في الآداب عامة وهي من غوالي الفكر الخلاق .

***

وجاءت أقاصيص « ألف ليلة وليلة » بعد « كليلة ودمنة » تحتل مجالس اللهو في بغداد . فتبادلها الرواة والسمار والندامى وقد عقدت لها الحلقات في المجالس والخدور والأزقة للاصغاء إلى غرائبها . وإنها لتمثل روح العصر العباسي الأول بعد ما ولي أبو جعفر المنصور ونعم بمنصب الخلافة ابنه المهدي . فالتشديد على أرباب الخلاعة والمجون في عهد أبي جعفر تراخت حبكته في أيام المهدي ، وانتاب الحنين إلى الانطلاق من عقال العفة كل نفس أكرهت على هذا القيد الضاغط ، فكان لا بد من أن يبلغ الأمر تمامه ، ونشأت هاتيك الأقاصيص المزدانة بالغلو المستعذب الرضي .

وأقاصيص « ألف ليلة وليلة » تحمل من قوة الخيال منتهاها . ففي وضعها ابتكار خصيب والشرق بأجمعه يختلج فيها . فتمثل حياة الهند ، وفارس ، والجزيرة . وليس لمخيلة غير شرقية أن تتمخض بها وقد احتشدت فيها توابل هذا الشرق وحوامضه ، وأفاويقه وأفاويهه . وأدركت على وهي نسيجها من الذيوع ما لم تبلغه الكتب المقتعدة ذروة الأدب العربي . فأقبل عليها الأعاجم ينقلونها إلى لغاتهم بإعجاب وقد وقعوا فيها على الشرق العجيب المضطرب بالأسرار ، ومال كتابهم على كرائمها يقتبسون منها أجمل ما فيها . فزخرت بروحها مؤلفاتهم وبسطوا روائعها على الشاشة يقرون للشرق بالخيال الرحيب .

أما كيف اهتدت « ألف ليلة وليلة » إلى النور فهو مما لا يبرح سراً . على أن غموض تاريخها لا يحول دون استجلاء المبهم . فإن هذا اللون من العيش المخضبة به متأصل في أجواء فارس والهند . فمن ابتدع النارجيلة يتناهى في زخرفتها وفي تشنيف أذنيه بكركرتها ، والضياع في هالات دخانها محتجباً بسماء من ضباب ، يطربه أن يعتلي أجنحة الغمائم ويحلق في مسابح الغيوم بعيداً عما يصطدم به في عالم المادة والحس . ومن يعتكف على الأفيون يذهل به عن دنياه لاغنية له عن مخدر آخر يجود عليه بنشوة تعادل اللذة الموفورة في ما تنبت أرضه وتوحي به سماؤه . فهو من عشاق اللهو الساهي ومن

طلاب الحلم المجنح. ونشأت هذه الأقاصيص محشوة أفيوناً ، إلا أنه أفيون يسطو على القلب والدماغ معاً ، صاغه كلاماً قاص منمق الذهن، وأقام منه فناً أقبل على وشيه ذوو المخيلات الفساح

وراج هذا القصص المستطرف فاحتل في الأدبين الهندي والفارسي المكانة المرموقة وظل وقفاً عليهما لا يجيد غير المنشئين الموهوبين في هذين الأدبين استلهامه ووضعه . واحتل العرب فارس ووثبوا على الهند، فنشروا فيهما تعاليم الكتاب وغرفوا منهما الذهب والأدب . ولما اتسع المجال في ظل الدولة العباسية لإذاعة مباسطات هذا الأدب جلاه هواته في بغداد في عهد هارون الرشيد

ونستطيع الجزم أن أقاصيص « ألف ليلة وليلة » اقتحمت البلدان العربية في أيام أبي الأمين . ودليلنا على وثوبها في ذلك الحين إلى البيئة العربية استقرار الملك ، واتساع الرخاء ، واعتكاف القوم على الملذات يتقلبون في حمأتها وقد سكنت الحروب أو كادت . ولن ننسى سيطرة الموالي ، ولا سيما الفرس ، على الخليفة وسعيهم لإفساد الخلق العربي بالتهتك والخلاعة لإنزاله عن مناعته وإبائه . فالأخلاق في اضطرابها تمحو الأمم والدول ، وهو مطمح الفرس المستعربين

مالوا إلى محو الدولة العربية وعجزوا عنها بالسيف ، ورأس أبي مسلم لا يبرح يتدحرج في بلاط المنصور ، فأقدموا على نسفها بتشويه صفاء الطبع فيها ورموها بمُلَح فارس والهند ، فانسابت في العاصمة العباسية ، بل في بلدان العرب كافة، تستبيح كل خدر وحجاب . فغزت الصروح والصوامع ، وأنشأت لها سوقاً مبسوطة الفناء

وراق العرب هذا الوجه الجديد من أذيال الحضارة فخلعوا عنهم عفة الصحراء وماعوا حيال التيار يجرفهم غير مشفق عليهم . ومن الراهن أن أقاصيص « ألف ليلة وليلة » من صنع الموالي لا العرب وركاكاتها تشهد بأنها من مؤلفاتهم . غير أننا لا نحتج بالركاكة فحسب لندل على كون «ألف ليلة وليلة» من صنع الموالي وبشار وأبو نؤاس من هؤلاء الموالي وكانا من أبلغ الناطقين بالضاد ، بل نقول إن من ترجم «ألف ليلة وليلة» عن مصادرها يجب أن يكون ملماً باللغات الأعجمية ، ولم يكن يصدق في إجادة هذه اللغات غير الموالي . وإذا خلت « ألف ليلة وليلة » من الترجمة ودانت للوضع ، فكانت نفاثة عربية خالصة ، فلا ريب أن الموالي وضعوها وقد تفوقوا على العرب بقوة الخيال . والتآليف الباقيه عنهم بلغاتهم توضح أن هذا الفن فنهم وقد نشؤوا عليه وأزهر تحت سمائهم . وإن هم لم يكتبوها بلغة بشار وأبي نؤاس فليسوا كلهم بشاراً وأبا نؤاس وقل من استوى وهذين الشاعرين في جلاء البيان حتى بين العرب أنفسهم

وبث الموالي الأشعار السفهة المخنثة فى أقاصيص « ألف ليلة وليلة » يرومون بها قتل روح التماسك والرجولة في من يقرؤها ويفتح لها أذنيــه . وهي أبيات أرادوا بها الإغراء والتشويق وللشعر يومذاك قدر ومكانة . فشاعت هذه السموم في الجسم العربي وفتكت به فتكانها الهادمة حتى أمست الدولة العربية دنيا غناء وفحش وسكر وعربدة .

وما اجتازت أقاصيص « ألف ليلة وليلة » عشرات القرون ، ساخرة بكل عقبة، لسوى غريبها ومجونها . فالشاذ الحافلة به صفحاتها صانها من الفناء لا روعة ديباجتها ولا سحر آياتها وهي ليست بذات حرمة في الأدب العربي ليجوز الاعتداد بها . فإن قيمتها سمو خيالها لا نصاعة ديباجتها ، ولا عمق معناها ، وهي من أدب الأزقة لا الصروح

***

وبجانب « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » انتظمت حكايات مجنون ليلى ، وجميل بثينة ، فتفكه بها الناس . ويمكن القول في حكاية المجنون إنها محض اختراع . فالمخيلة أوحتْ بها . وهي وحكاية جميل بثينة مثال الهوى البرىء . فإننا لنستروح بهما روح الصحراء النصوح . فلا غش ولا مين ، بل حب صحيح قاتل تأبى عليه التقاليد أن يلقى الهناء . وهذا هو الطابع العربي المحض ، وهؤلاء هم العرب الأقحاح . فالسجية العربية تأبى التخنث والفحش وثمة إباء وحفاظ تمسك عليهما . ولسنا ممن يقولون إن العرب لم يأثموا ولم يركبوا المعاصي ، بل نحن ممن يرون أنهم على صيانة في الخلق ، فما جازفوا بالكرامات وما ارتضوا الفسق المباح . وهم وقد أقدموا على وضع القصص حبكوها مما في أنفسهم . وهذه هي حكايات المجنون العربي الصميم ، وحكايات جميل بن معمر من بني عذرة وقد هام ببثينة كما هام المجنون بليلى . وقد يكون ثمة مجنون أحب وجن وأنشد الشعر في حبه ، ولكن القاص نسج على هذا الحب الأساطير . فأضاف إلى المجنون كل شعر ولهان ، واستنبط له من ضروب الجنون ما يروق السمع ويبهج النفس . وقد نكون من وقائع جميل بثينة في مثل هذه الحالة، فجسم لنا الرواة الحقائق حتى بتنا منها في عالم القصص أكثر منا في دنيا الملموس . وهذا التفنن يحاكي صناعة « ألف ليلة وليلة » ويتفوق عليها بجودة المنظوم ، كما يبرأ من الخنث والخنى. وهي حجتنا على كون « ألف ليلة وليلة » من صنع الموالى لا العرب ، ولاسيما أن انبثاق هذه الحكايات جميعها يعاصر بعضه بعضاً . فانتظمت كأقاصيص في العهد العباسي الأول يوم ضاقت بغداد بالجواري والحانات. فمال القصاصون العرب على ما ينض في نفوسهم من تعفف عن الفجور فطووا عليه حكاياتهم ، وعمد الفرس إلى ما اعتادوا من الإفراط في المحظور فصبوه في « ألف ليلة

وليلة » وسبقوا القصاصين العرب في رحبة الخيال وشأوهم في المدى غير المنظور ، وهو ما وهب لأقاصيص « ألف ليلة وليلة » قوتها واستبقاها ودفع الغربيين إلى إكبار قدرها والاعتكاف على ترجمتها ومحاكاتها . فهي لديهم عنوان الشرق وطلعته كأنهم استطابوا رائحة الأفيون العابقة بها فأقاموها منهم في أسمى مكان

***

ولم يلبث الفن القصصي أن نهض في المقامات . وهي أقاصيص جمعت المبنى الدقيق والمعنى القوي وحيلة التشويق . وثلاثة من أصحاب المقامات وفقوا في الوضع والخلق واحتالوا على العقدة في ما أنشأوا . والثلاثة هم بديع الزمان الهمذاني ، وأبو محمد القاسم الحريري ، الناطق في المشان والأبكم في الديوان ، ونصيف اليازجي

وبديع الزمان هو الباني . فشيد بيديه المقامة الصحيحة الخلق، وأطلقها في الأدب العربي معجزة من المعجزات، كأنه شاء بها أن يقول لسادة البيان : « أين أنتم مني؟... » . وسادة البيان كثروا يومذاك وحسبنا أن العهد عهد المتنبي ، وابن العميد ، والصاحب ابن عباد ، وابن خالويه ، والخوارزمي . فالمنشؤون مالوا على كل علم في اللغة يدققون فيه ، ويفتحون مغلقه ، ويذللون عصيه . فتطاول ابن جي ، وأبو علي الفارسي ، والوزير المهلبي ، وأبو الفرج الأصبهاني ، يذيبون الجهد في البنيان القويم الطريف . وسبق لخلف الأحمر وأبي عبيدة والأصمعي أن جالوا في صدور الفلوات يمتزجون بأبناء القبائل الخلص ويقفون منهم على المصطلح الفني تسمى به الأشياء بأسمائها ، وعادوا من غزواتهم بشحنات من الألفاظ أغنوا بها اللغة ونهضوا بها إلى مستوى رفيع من علم الكلام . على أن هذه الألفاظ لم تبرح غارقة في بطون الكتب المطبقة عليها ، فاقتحم بديع الزمان الخزائن وزحزح عنها حجر اللحد ، وأحيا الدفين بأن أودعه مقامات اعتمد في نحتها الفن القصصي . فأذابها في هذا الفن وأذابه فيها ، فحمل بعضهما بعضاً وحالفا البقاء . ولا بد لمن يطالع المقامات من أن يعجب فيها بأقاصيصها وبكلماتها الممتنعة وقد اختلجت بالفنين ، فن القصص وفن البيان

والهمذاني من المتضلعين من علم اللغة . ورغبته فى إظهار ضلاعته أهابت به إلى الانطلاق في النهج الرحيب . وكانت مجالس بغداد وحلب والقاهرة قد ضاقت بالحكايات، ولا سيما بحكايات « ألف ليلة وليلة » ينقلها البلد عن البلد والجيل عن الجيل . ووضحت للهمذاني قوة القصص في النشر والذيوع فكتب مقاماته أقاصيص وجلاها آية العصر . وما نام فيها عن المجون ليزيد في الإقبال عليها فحفلت بالأدب المكشوف وقام بها للقصة

في الأدب العربي ركن ركين. وإذا نحن لقينا من ينازعنا «كليلة ودمنة» و «ألف ليلة وليلة» بكونهما من عرق غير عربي، فلن نصطدم بمن ينازعنا المقامات، وهي تراث عربي صرف

ولو اتفق لبديع الزمان أن يجاوز مستهل الكهولة لحبانا من خصبه اللغوي ومن قصصه كل نظيم ثري. بيد أن الهمذاني لم يعمر طويلا. فأصيب في الأربعين بإغماء تمادى فيه، وحسبه القوم ميتاً والطب لم يكن على نضج، فدفنوا الرجل وهو على بقيا من الحياة.

☆☆☆

ونامت المقامات مائتي سنة لا يعالجها منشئ، ولا يذلل صعابها أديب، حتى نطق في المشان الشيخ أبو محمد القاسم الحريري ناتف عثنونه من الهوس. فنفض يده من خمسين مقامة حفلت بأبهى صياغة وأمتن نسيج وقد جمعت قوة الأسلوب وروعة الفن. أجل، إن الهمذاني لخالق، بيد أن الحريري بلغ بالمقامة القمة لا يبقي خطوة لمستزيد. فطوى مقاماته على فن الأقصوصة بأكمله سواء في إعداد الجو، أو الحوار، أو الختام. وطفر إلى حيث جاوز بديع الزمان وإن يكن يقره له بالفضل، ويدعوه أستاذه، ويعلن عجزه عن اللحاق به في المضمار. فكل مقامة من مقامات الحريري قطعة تامة البناء، زاخرة بالفن، تسمو إلى حيث لم يبلغ بالمقامات منشئ من قبل ومن بعد. أما أن تكون خاضعة خضوعاً أعمى لإزميل النحات فالمقامة نحت وإجهاد، ولا بدع أن يكون الحريري غالى في تشييدها على منعة واستحث فيها الخطو في العناية والاستنفاد.

☆☆☆

وظهرت ملحمة عنترة العبسي تحشد العالي بجانب المبتذل، إلا أنها الدعامة الكبرى في القصص العربي. وإذا غلب عليها سجع المقامات فقد ملكت وحدة الموضوع. فالقصه العربية المكتملة لقيت فيها موئلها وعمادها. والغريب فيها أنها ضائعة العهد، مجهولة المؤلف، فتتساوى في يتمها و «ألف ليلة وليلة»، إلا أنها عربية السداة واللحمة. ويعزوها بعضهم إلى العهد الفاطمي في أواخر القرن الرابع الهجري، وينحلها الشيخ يوسف بن إسماعيل أحد علماء القاهرة، بيد أن اليتم راجح عليها، وليس ثمة ما يشير إلى منتماها الأصيل

وانطوى العهد العباسي وعهد الانحطاط، وأشرق البعث والمقامة مثال يحتذى. بيد أن المفلح فيها بعد الحريري لم يكن غير الشيخ نصيف اليازجي. واللغة كانت قد

اجتازت عهوداً مظلمة خشي عليها فيها من الاضمحلال ، ولكن لبنان حفظها وأبى عليها الذوبان ونهد إلى بدائعها يحاكيها وإلى شوامخها يتوقل إليها . وانتفض «مجمع البحرين» للشيخ نصيف بستين مقامة ترفع فيها الأقصوصة رأسها بمضاء ، على أن اللغوي الشائك لان فيها ، والخشن بدا مصقول الأديم . وإنها لتنطق بروح عصرها مع كل سعي للخروج بها عن روح العصر . ومن الضرورة الجهر بتماسكها في معناها ومبناها مما يجعل من المنشىء ثالث الثلاثة في أدب المقامات .

* * *

واتسعت السبل أمام القصة في أدب الضاد والبعث يطل . فالأدباء التفتوا إلى أوربا يجارونها في نهضتها . والنهضة الأدبية الأوربية قامت على مهيعين ، على الشعر وعلى القصة . واندفع اللبنانيون في المضمار فكانوا المجلين وقد اعتمدوا في القصة الترجمة فالوضع . ومن هؤلاء سليم البستاني في « الجنان » ويعقوب صروف في « المقتطف » وجرجي زيدان في « الهلال » ، فنظموها في صحفهم متسلسلة ثم عقدوها في كتب نالت من الرواج الحظ البعيد

ولما اعتزمتُ خوض الميدان لقيت السخر بالفن القصصي فاشياً في أندية الأدب العربي . فليس من يفكر فيه ولا من يرفع له قدراً . فالقصة كانت عندنا أحط بضاعة أدبية . إلا أني أقدمت وإذا الآراء تتبدل وقد أضحت القصة خير تحفة في الأدب العربي

ومن حسن حظ أدب الضاد هذا الإقبال على معالجة القصة وهو ليس غريباً عنها . فنشأت فيه منذ نشأته . إلا أنه التفت إلى الشعر أكثر منه إليها فصاغ منه العقود الغوالي وأهمل القصة ، مع أنها والشعر عديلان في المرتبة والخلود !

كرم ملحم كرم

مستقبل الصناعة في الشرق العربي

للدكتور راشد البراوي

القسم الأول — في مرآة الماضي صورة المستقبل

شاهدت إنجلترا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تغييرات فنية على أعظم جانب من الخطورة ، أطلق عليها اسم « الانقلاب الصناعي » الذي أخذ ينمو سراعاً في ذلك البلد ، ثم انتقل منه إلى فرنسا في العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، وأخذت ألمانيا بأسبابه بعد منتصف ذلك القرن ، وما زال ينتشر من بلد إلى آخر حتى تأثرت معظم الأمم بتلك الحضارة الصناعية الجديدة . ولكن الدولة العثمانية بقيت بمنأى عن هذا التطور ، نتيجة ما كانت تعانيه من ركود متعدد الجوانب ، وكذا ظلت بلدان الشرق العربي المنضوية تحت لواء الدولة تحصل على حاجاتها من المصنوعات من البلدان الصناعية المتقدمة ، إلى جانب ما تخرجه الصناعات والحرف اليدوية المحلية . ثم نشبت الحرب العالمية الأولى ، وانتهت بوقوع بلدان ذلك الشرق في نطاق الاستعمار الأوربي ، فجاهدت للخلاص منه ، واتبعت وسائل متنوعة ، منها الأخذ بالأساليب الصناعية الحديثة ، وبعبارة أخرى أخذ الانقلاب الصناعي يتسرب إليها تدريجاً ، وطفق الإنتاج الكبير يسعى إلى أن يفسح له الإنتاج الصغير السبيل . حدثت إذن نهضة صناعية ، وهي إن كانت لا تزال قاصرة ، إلا أنها تبشر بمستقبل طيب يرجوه كل غيور على صالح هذا الشرق . ولعل في الأرقام الجافة بطبيعتها ما يمدنا بصورة للتقدم الصناعي خلال الفترة الواقعة بين الحربين الاستعماريتين العالميتين . في فلسطين خطت الصناعة خطوات واسعة ، فقد بلغ إنتاج اللبن مثلا ١٢٠ مليون لتر في العام ، واستغلت بعض الثروة المعدنية في البحر إلى حد لا بأس به ، بعد أن منح امتياز استغلال هذه المعادن لشركة سنة ١٩٣٠ وصدرت البلاد سنة ١٩٣٩ ما قيمته ٣٨١،١٦٢ جنيهاً فلسطينياً من البوتاس و ٤٦،٥٢٨ من البرومين، ووصل إنتاج الملح إلى ١٧،٩٩٥ من الأطنان المترية سنة ١٩٤٣ ، وتقدمت صناعة المركبات الكيماوية والمنسوجات . وبرغم تأخر الصناعة في العراق بالنسبة إلى شقيقاتها فإن صناعة

استخراج زيت البترول تتقدم باطراد وانتظام ، وإن كانت في يد الشركات الأجنبية .
والأرقام التالية عن لبنان بشأن بعض الصناعات تلقي ضوءاً كبيراً :

الإنتاج الصناعي من	١٩٣٦	١٩٣٧
الأسمنت (بالطن)	١٣٦ر٠٠٠	١٧٥ر٧٠٠
نسج الحرير (بالمتر)	٢٤ر٠٠٠	٣٨ر٠٠٠
خيوط القطن (بالكيلوجرام)	٥٥٠ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠

فنحن إذن أمام نمو متصل ، ونصل إلى نفس النتيجة بمراجعة الإحصائيات الخاصة بسوريا . ولا شك أن الحرب العالمية الثانية بما صحبها من صعوبة الاستيراد من الدول المحاربة كانت عاملا قوياً على النهوض الصناعي .

وإذا كنا نقول عن يقين إن الصناعة آخذة في التقدم ، فإن هناك أسباباً مختلفة تدعو إلى اتباع سياسة ترمي إلى جعل الصناعة العنصر الأساسي الآخر في الاقتصاد القومي. فالمعروف أن الطابع الزراعي والرعوي لايزال يطغى على البلدان الشرقية ، وأن مستوى الحياة منخفض بوجه عام ، يدل عليه أن الدخل الأهلي يقدر بالمبالغ الآتية بالنسبة للفرد الواحد : ٢٦ (فلسطين) ، ١٣ (سوريا) ، ١٠ (العراق) ، وذلك بالجنيهات الإنجليزية قبيل الحرب العالمية الثانية . والدخل بالنسبة لأهل المدن أعلى منه في الريف . ولما كان أول واجب علينا أن نعمل على زيادة دخول الأفراد ، بتحسين الزراعة وزيادة الإنتاج الزراعي ، فإن الصناعة تهيء احتمالات كبيرة في هذا الصدد ، ونحن نعلم أن متوسط دخل الفرد في البلدان الصناعية أعلى منه بكثير في الأمم الزراعية .

ومشكلة أخرى تواجه الشرق العربي ، وهي الزيادة المطردة في سكانه ، بحيث قدر بعض الكتاب ✡ عددهم سنة ١٩٦٥ كالآتي : ٥ر٥٠٠ر٠٠٠ (سوريا) ، ٤ر٩٥٠ر٠٠٠ (العراق) ، ٣ر٦٠٠ر٠٠٠ (فلسطين ، ٤٥٠ر٠٠٠ (شرق الأزدن) وذلك مقابل ٣ر٧٠٠ر٠٠٠ ، ١ر٥٠٢ر٠٠٠ ، ٣٠٠ر٠٠٠ سنة ١٩٣٩ . هذه الزيادة الكبيرة لا بد أن تتمشى مع التوسع الزراعي ، غير أن هذا الأخير لن يكون كافياً ، بل لا بد أن تقوم الصناعة إلى جانبه . ومن المحقق أن ارتفاع مستوى السكان سيؤدي إلى زيادة الإقبال على استهلاك السلع التي هي من منتجات الصناعة ، وإذن يتعين علينا مواجهة هذه المطالب المتزايدة في المستقبل .

ومن جهة أخرى فتقدم الزراعة وازدياد كثافتها سيلقيان أعباء متزايدة على

✡ A.Bonné : The Economic Development of the Middle East, p. 65

عاتق الإنتاج الصناعي ، ولابد في هذه الحالة أن تقوم الصناعة المحلية بالاضطلاع بنصيب له قدره في هذه الناحية . وأخيراً فالبلاد الشرقية العربية قد وطدت العزم على نيل حريتها واستقلالها مهما كانت العقبات التي في سبيلها . ومن الأمور المسلم بها أن الاستقلال السياسي لا قيمة له من الوجهة العملية إذا لم يصحبه استقلال اقتصادي يدعمه ويقوي قواعده . كما أنه من الخطأ قيام الاقتصاد القومي على عنصر واحد ، هو الزراعة ، بل لا بد من وجود الصناعة إلى جانبها ، وإلا تعرضت البلاد لأزمة عنيفة وانهيار خطير ، إذا جدت ظروف جعلت المحصول الزراعي الرئيسي سيئاً ، أو هبطت أثمان المنتجات الزراعية . وإن في الشرق العربي من موارد طبيعية ما يكفل قيام صناعات كثيرة ناجحة ، ومن هـذه الموارد البترول في العراق وبلاد العرب وجهات أخرى ، ومواد معدنية في فلسطين وسوريا ولبنان ، وظروف صناعة البناء ملائمة في تلك الأنحاء ، وكذلك تشتهر المناطق المجاورة للبحر الأبيض بإنتاج الحرير والزيوت وغيرها ، كما أن المناطق الزراعية في العراق خاصة تصلح لإنتاج القطن . ويضاف إلى ذلك وفرة الماشية والأغنام ... وهذه مجرد أمثلة نوردها على سبيل المثال لا الحصر .

القسم الثاني — الشروط اللازمة للنهوض الصناعي

أوضحنا بالأدلة المستقاة من الإحصائيات الرسمية كيف أخذت بلاد الشرق العربي في العقدين الماضيين بأسباب النهضة الصناعية وفق الأساليب الحديثة في الإنتاج ، وشرحنا العوامل المتباينة التي تحتم مواصلة السير في هذا الاتجاه ، حتى تأخذ الصناعة مكانها اللائق بها في اقتصاد تلك البلاد القومي . ولا نشك أن الصناعة أمامها مستقبل طيب يبشر بأعظم الخير وأكبر الرخاء ، غير أن هذا العمل لا يمكن أن يتم دفعة واحدة ، كما أنه يقتضي التعاون والتآزر من مختلف فرق هذه الشعوب الشرقية . ولا مراء أن ثبات النهضة الصناعية واطراد نموها يتطلبان تحقيق شروط وظروف معينة ، كلها عوامل لا تتم النهضة بدونها ، وسنحاول أن نعالج كلا منها على حدة ، بقدر ما يسعنا من إيجاز معتدل ، وحتى نتبين أثر كل منها في تنمية الإنتاج الصناعي والسير به قدماً .

أولا : زيادة طاقة السكان على الاستهلاك

يتضح من الإحصاء الذي أوردناه من تزايد السكان أن هذه الزيادة قد تصل إلى نسبة ٥٠ ٪ في ربع القرن التالي ، وليس هناك في رأينا ما يحول دون ارتفاع هـذه

النسبة كثيراً إذا وجهت الحكومات أقصى عنايتها إلى المسائل الصحية ، وإذا انتشر التعليم بين صفوف الشعب ، ونعتقد أن محو الأمية بصفة نهائية في ظرف عشرين عاماً عمل بطيء ، لا يتفق مع السرعة التي يتميز بها التقدم في العصر الحديث . هذه الزيادة الكبيرة في عدد السكان التي نتوقعها لا بد أن تصحبها زيادة مماثلة في الاستهلاك بصفة مطلقة ، غير أن الذي يعنينا هو مدى تأثير ذلك في الصناعة . فمن المحقق أن من أول واجبات الحكومات العربية أن تعنى بتوسيع نطاق الإنتاج الزراعي من حيث الكم والكيف ، وأن ترفع مستوى الفريق الزراعي من السكان بنوع خاص ، وأن تعمل على إدخال التشريعات التي تكفل توزيع الدخل على طوائف هذا الفريق الزراعي بطريقة أعدل مما نلمسه الآن . ومن المبادىء المقررة أنه كلما تناقص دخل الفرد زادت نسبة ما ينفقه على الغذاء وما في حكمه إلى مجموع دخله ، والعكس . وبناء على هذا إذا ارتفعت دخول الطبقات الفقيرة والمتوسطة من أهل الريف زادت نسبة ما ينفقونه من دخولهم على السلع المصنوعة عما هي عليه الآن ، كما أن تقدم الصناعة وكثرة انتقال السكان من الريف إلى المدن حيث الأجور أعلى ومطالب الحضارة أكثر ، مما يصل بنا إلى النتيجة نفسها . وثمة أمر آخر ، ذلك أن ازدياد السكان يستتبع الإكثار من بناء البيوت ، كما أن المساكن الحالية سيحتاج العدد الوافر منها إلى أعمال الإصلاح والتجديد ، وهذه كلها عوامل لها خطرها في تنمية صناعات مختلفة ، كصناعة الأسمنت وقطع الأشجار وأعمال الخشب والأثاث وغيرها مما يتصل بالبناء . ويقدر الكاتب A. Bonné نصيب السلع الصناعية من الاستثمارات في أعمال البناء خلال الفترة (١٩٤٣ — ١٩٦٢) على النحو التالي (بالجنيهات الإنجليزية) : .

البلد	المبلغ	النسبة في المدن	النسبة في الريف
سوريا ولبنان	٣١٫٥	٢٥٫٢ ٪	٧٫٩ ٪
فلسطين	٢٢٫٥	٣٠٫٨ ٪	٥٫٦ ٪
العراق	١٩٫٥	١٦ ٪	٤٫٩ ٪
شرق الأردن	٣	١٫٤ ٪	٠٫٨ ٪

ولن يقتصر الأمر على تشييد المساكن للأغراض الخاصة والحكومية ، بل إنه سيشمل بطبيعة الحال المشروعات الصناعية والتجارية وما تحتاج إليه من مبان ، والأعمال العامة من إقامة الجسور وبناء المدن والثغور وشق الترع ومد الطرق الحديدية وما إلى ذلك ، مما يستدعي زيادة وافرة في الإنتاج الصناعي المتصل بهذه الأعمال الإنشائية جميعها .

(ثانياً) وسائط النقل

وليس من المعقول أن نتوقع نمواً في الإنتاج الصناعي دون أن يصحبه في الوقت نفسه تقدم مماثل في طرق المواصلات الحديدية والبرية والمائية . هكذا كان الحال في انجلترا بعد أن حدث فيها الانقلاب الصناعي ، والواقع أن تقدم المواصلات نتيجة مترتبة على الرقي الصناعي، كما أنه عامل قوي في الوقت نفسه على ازدياد هذا النشاط الصناعي من حيث مداه وسرعته . ولا ريب أن تيسير أمور النقل يؤدي إلى سرعة نقل العناصر اللازمة للإنتاج، ويسهل عملية توزيع المنتجات الصناعية في السوق الداخلية خصوصاً ، على أن تكون أجور النقل معتدلة مناسبة ، بحيث تعمل على خفض نفقة الإنتاج . والملاحظ حتى الآن أن المواصلات الحديثة لم تزل حتى اليوم في حالة متأخرة بالقياس إلى ما نرجوه، ففي العراق مثلاً يبلغ طول الخطوط الحديدية ١,١٥٧ ميلا (١٩٤٤) ، ومنذ الحرب العالمية الأولى تم إنشاء ما طوله أربعة آلاف ميل من الطرق البرية المختلفة ، منها ١٢٠٠ ميل استخدمت فيها الأساليب العامية الحديثة . وهذه نسبة ضئيلة إذا ذكرنا أن عدد السكان كان ٣,٥٦٠,٤٥٦ حسب إحصاء سنة ١٩٣٥ ، وقد زاد الرقم كثيراً في السنوات العشر التالية . وتبدو ضآلة هذه النسبة إذا ما عقدنا الموازنة مع بعض البلدان الغربية المتقدمة :

البلد	طول الخطوط الحديدية بالأميال	عدد السكان
العراق	١١٥٧	٣ر٥٦٠ر٤٥٦ (١٩٣٥)
فلسطين	٤٤٦	١ر٦٧٤ر٥٧١ (١٩٤٣)
تركيا	٤٦٠٩	١٧ر٨٢٠ر٩٥٠ (١٩٤٠)
بلجيكا	٧٠٦٨	٨ر٣٦١ر٢١٠ (١٩٣٧)
شيلي	٥٢٠٠	٥ر١٩١ر٠٢٧ (١٩٤٣)

ومن هذا البيان يتضح سوء حال البلدان الشرقية ، غير أن الحال في سوريا أفضل نسبياً ، كما أن تركيا بها ما طوله ٥٩٨٧ من الأميال (طرق برية جيدة) و ٤٣٨٠ (في حاجة إلى الإصلاح) . لهذا كله يتعين على الحكومات العربية أن توجه أقصى جهدها إلى (١) مد الخطوط الحديدية وبخاصة نحو المناطق ذات القوة الصناعية الكامنة (٢) إنشاء شبكة واسعة من الطرق البرية الجيدة المرصوفة (٣) العناية بالملاحة المائية الداخلية ، لأن النقل المائي أصلح للسلع والمواد الثقيلة الرخيصة الثمن (٤) إصلاح الثغور وتوسيع أرصفتها (٥) العمل الجدي على إنشاء الأساطيل التجارية التي تتولى نقل أكبر قدر ممكن من

التجارة الخارجية ، بدلا من البقاء تحت رحمة شركات الملاحة الاحتكارية التابعة للبلدان الأجنبية (٦) استغلال موقع البلاد بصدد الطيران المدني للأغراض التجارية ، على أن تكون الحكومات هي التي تتولى ذلك أو تعهد فيه إلى شركات قومية حقيقة لا وهماً .

(ثالثاً) رؤوس الأموال

هذه من المسائل الشائكة التي تتعرض للكثير من الجدل . فلا شك أن الصناعة في حاجة إلى رؤوس الأموال ، وهنا يكمن الخطر الأكبر ، إذ ترتفع الأصوات بأن هذا العنصر غير متوافر إلى الحد اللازم في البلاد العربية ، ومعنى الأخذ بهذا الرأي أن نعتمد على البلدان الغربية ، فنصبح جميعاً في رق رأس المال الأجنبي ، وهنا يتحقق الاستعمار الحقيقي . وتستطيع الأمم العربية أن تدبر أمرها بنفسها ومجهودها . فلا نزاع أن الحرب العالمية الثانية عملت على تراكم رؤوس الأموال إلى درجة طيبة في أيدي الوطنيين ، كما أن الإصلاح الزراعي ورفع مستوى الفريق الزراعي كفيل أن يهيء لهذه البلدان قدراً طيباً من رأس المال الذي يستثمر في الصناعة ، وعلى المشرفين على مصاير تلك البلاد أن يقوموا بالدعاية اللازمة وتنوير الأذهان ، حتى يقبل الناس على استثمار أموالهم في المشروعات الصناعية المختلفة . وفرض على الحكومات أن تمد المشروعات الصناعية بالمال في حدود الطاقة وبسعر فائدة معتدل إذا لزم الأمر ، وعليها أن تنشىء المصارف الصناعية برؤوس أموال كافية لتمد رجال الصناعة بما قد يحتاجون إليه من عون . ولا شك أن تقدم الزراعة والصناعة عامل في توافر الأموال في أيدي الحكومات تستطيع أن تعد جانباً منه لتشجيع الصناعة إذا حسن التصرف في هذه الأموال . وثمة مسألة أخرى متصلة بفكرة الجامعة العربية ، فإذا توثقت عرى هذه الجامعة، وبخاصة من الناحية الاقتصادية وهي العنصر الأساسي في جميع الأحداث ، وإذا أصبح التعاون حقيقة ملموسة، وإذا أصبح انسياب الأموال حراً بين مختلف بلاد الجامعة — نقول في هذه الحالة نجد عناصر ذات أهمية تجعل في مستطاعنا الحصول على رأس المال للصناعة دون أن نعتمد على الغرب الاستعماري . والواقع أن الضجة التي تثار من حين إلى آخر لا أساس لها من الحق والصدق ، وأمامنا مثل مادي لايسع أي امرىء إنكاره ، فقد تعرضت روسيا سنوات لما يصح تسميته بالمقاطعة الاقتصادية ، ومع ذلك أقامت المشروعات المختلفة في ميداني الصناعة والزراعة ، ولم تخفق لعدم توافر رؤوس الأموال الأجنبية فيها .

(رابعاً) التوجيه والإشراف

تسير بلدان الشرق العربي حتى الآن وفق نظام الاقتصاد الفردي ، فالمشروعات المختلفة يتولاها الأفراد وتعاونهم السلطات بما في حدود طاقتها . ولكننا نعتقد أن الحالة تستدعي أكثر من هـذا . فواجب أولاً أن تقوم هيئات مختصة ببحث حالة الصناعة وما يتصل بها وما ينتظر لها ، بحثاً علمياً دقيقاً مفصلا يلم بكافة نواحي الموضوع . يتلو ذلك وضع برامج محدودة ، على أن تنفذ بدقة في فترة معينة ، على أن يبدأ التنفيذ بالأهم فالمهم ، ولتكن كل فترة خمس سنوات . ويجب أن تنظم الحكومات الإنتاج وتوزعه على الفروع المختلفة بالنسب التي تتفق والمصلحة العامة ، لأن ترك حرية اختيار المشروعات الصناعية لرأي الأفراد ورغبتهم يؤدي إلى فوضى الإنتاج ، إذ في هـذه الحالة يكون اجتناء الربح هو الحافز الوحيد ، وقد يدفع البعض إلى فروع من الصناعة لإنتاج سلع كمالية ، لأن الربح الناجم منها أكبر وأعظم . وقد يتجه البعض الآخر إلى فروع لا تلبث أن تخفق ، وبذا نكون قد بددنا قدراً من قوى البلد الإنتاجية دون جدوى . وبناء على هذا يجب أن يكون الإشراف الحكومي على النشاط الصناعي دقيقاً سلماً يجري وفق خطة مرسومة . والجدول التالي يرينا إلى أي حد يحقق التوجيه والعمل المرسوم نتائج لها أهميتها ، وهـذا البيان عن بلاد اتبعت التوجيه وأخرى لم تعمل به ، والرقم القياسي عن سنة ١٩٢٩ أي قبيل ابتداء الأزمة العالمية (النسب المئوية)[1] :

	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
روسيا	١٠٠	١٢٩ر٧	١٦١ر٩	١٨٤ر٧	٢٠١ر٦
الولايات المتحدة	١٠٠	٨٠ر٧	٦٨ر١	٥٣ر٨	٦٤ر٩
انجلترا	١٠٠	٩٢ر٤	٨٣ر٨	٨٣ر٨	٨٦ر١
ألمانيا	١٠٠	٨٨ر٣	٧١ر٧	٥٩ر٨	٦٦ر٨
فرنسا	١٠٠	١٠٠ر٧	٨٩ر٢	٦٩ر١	٧٧ر٤

ولا عبرة بالاحتجاج بنوع النظام السائد في روسيا ، فإن نفس ظاهرة ازدياد الإنتاج نلمسها كذلك في ألمانيا وإيطاليا وغيرهما قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . كذلك لا نرى الاعتداد بفكرة الحرية وفق المذهب الديمقراطي ، لأن الديمقراطية هدفها خير المجموع وإسعاده ، ولا ريب أنها تتنافى مع إطلاق حرية تؤدي إلى فوضى الإنتاج وخفض في إنتاجية العمل ونقص في استغلال القوى الإنتاجية عن الحد الواجب .

(١) راجع كتاب Political Economy تاليف ا . ليونتيف ص ٢٥٨ .

ويتصل بموضوع الإشراف الحكومي تقديم كافة التسهيلات الممكنة للمشروعات الصناعية، من حيث مدها بالاعتمادات المالية اللازمة ، وخفض نفقة النقل على ما تملك الدولة من وسائط النقل ، وإنقاص الرسوم الجمركية على المواد اللازمة للإنتاج الصناعي المحلي ، والبحث عن الأسواق لفائض هـذا الإنتاج ، وعقد المعاهدات التجارية مع الدول ، والعمل بقدر الإمكان على حماية الصناعات المحلية من منافسة مثيلتها الأجنبية وبخاصة في حالة التساوي في النوع أو الثمن ، وأهمية هذا واضحة إذا ذكرنا ما تلجأ إليه الشركات الكبيرة ، من قتل صناعات البلاد بالطريقة المعروفة باسم إغراق الأسواق Dumping وهي وسيلة لا تمت إلى التجارة النزيهة بصلة ، مما يحتم مكافحتها بكافة السبل الممكنة .

(خامساً) الكفاية الفنية

وأهم عناصر هذه الناحية توافر الأكفياء من المهندسين ورؤساء العمال (الأسطوات) بصفة خاصة . وإذا كان عدد هؤلاء قليلا نسبياً في بلدان الشرق العربي ، فإن لنا في ذكاء أهلها وحسن استعدادهم وإقبالهم على العمل ما يجعلنا نطمئن إلى حد كبير . ويحسن بنا أن نسارع إلى تعميم التعليم الفني بكافة مراحله ، على أن ينال الطالب التثقيف الفني مصحوباً بالتدريب العملي ، ولا بد لنا من الإكثار من البعثات العملية في هذه الفروع إلى أوربا وأمريكا ، حتى إذا ما عاد أعضاؤها عهدنا إليهم في أعمال هي من صميم ما تخصصوا فيه . ولا نقف جهودنا عند هذا الحد ، إذ يتعين علينا العناية بالتعليم التجاري من نظري وعملي ، لإعداد الشبان الصالحين لإدارة المشروعات الصناعية على أحدث الأساليب العلمية من حيث حساباتها وميزانياتها وما إلى ذلك من الأعمال المشابهة . وثمة نوع من مدارس التجارة ليس له وجود في الشرق ، وإن كان منتشراً في المناطق الصناعية بفرنسا ، فهناك يدرس الطالب إلى جانب طرق التجارة كل ما يتصل بالمادة الأولية و إعدادها ، فترى الواحد منهم مثلا إذا تخرج والتحق بمصنع وعرض عليه نوع من قماش أو غيره استطاع أن يميزه في الحال ، وأن يعرف خواصه والمادة التي صنع منها والصبغ الذي استعمل في تلوينه وهكذا . هذا طراز نحن أهل الشرق العربي في أشد الحاجة إليه ، وإذا كانت تقاليد الاستعمار قد حالت دون إنشاء هذه المدارس حتى تصير مصانعنا عالة على الفنيين من الأجانب ، فلا نرى ما يحملنا على متابعة السير على هذه التقاليد في عهد الاستقلال .

ويقول البعض إن هناك اختصاصيين من طراز خاص لا وجود لهم في الشرق ،

ولا غضاضة في الاستعانة بهم من الخارج ، ويضرب هذا البعض الأمثلة بتركيا وغيرها . ولنسلم جدلا بوجاهة هذه الدعوى ، إلا أننا نرى لزاماً علينا أن ننبه إلى ضرورة الاقتصار على الحالات الشاذة النادرة ، وأن نجعل استخدام هؤلاء بصفة وقتية ولأقل مدة ممكنة ، وأن نجعل إلى جانب كل واحد منهم نفراً من أبناء البلاد يتعلمون منهم ويقتبسون .

(سادساً) توفير القوة المحركة الرخيصة

وهذا عنصر هام في الإنتاج الصناعي ، وهو متوافر بالشرق العربي ، فزيت البترول ينتجه العراق والمملكة السعودية بكثرة ، وتجري بشأنه أبحاث في منطقة غزة وغيرها بفلسطين ، وينتظر أن تسفر الأبحاث عن كشف آبار لها قيمتها . ولا شك أن مدّ الأنابيب من العراق والمملكة السعودية إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط سيؤدي إلى توافر هذا الوقود في البلدان المطلة على هذا الساحل . وإذا كان الفنيون يتحدثون عن وجود مقادير صغيرة من الفحم في جنوبي لبنان مثلاً ، فإن في الإمكان استغلال القوى المائية والكهربية من على سفوح المرتفعات ، ولنا في بلاد كثيرة أسوة ، فقد كان من أعظم الأسباب التي أدت إلى تقدم الصناعة في ألمانيا وتأخرها في فرنسا في العقود القلائل السابقة لنشوب الحرب العالمية الأولى ، أن الدولة الألمانية فاقت جارتها الغربية في استغلال القوة المائية ، وإلى تنبه فرنسا الى هذا العامل يرجع جانب من تقدمها الصناعي بعد تلك الحرب.

(سابعاً) تحسين أحوال الطبقة العاملة

من الأمور التي لا تحتمل الجدل اشتداد وعي الطبقة العاملة في العشرين عاماً الأخيرة ، وزاد هذا الوعي قوة خلال سنوات الحرب المنصرمة ؛ ومن الحقائق المقررة أن في رضاء العامل حافزاً قوياً له على العمل . وقد تنبهت كثير من الحكومات إلى هذه الناحية ، وصدرت عدة تشريعات لحماية العامل وحقوقه قِبل أرباب الأعمال ، غير أننا ما زلنا في حاجة إلى الكثير في هذا الموضوع . وأول ما نطالب به لمصلحة البلاد العربية عامة والصناعة خاصة أن تنشأ اتحادات قوية النفوذ للعمال ، ويكون لها من يمثلها في المجالس النيابية ، وبذا يتسنى العمل من جانب طائفتي العمال وأرباب الأعمال للنهوض بالصناعة . ويجب كذلك إدخال القوانين اللازمة بشأن التعويض والتأمين في حالات المرض والعجز والبطالة والشيخوخة والوفاة ، وبذلك يطمئن العامل على مستقبله

ومستقبل أسرته . ولا شك أن حديث العدالة الاجتماعية قد تردد في كل مكان ، ومن هنا يتعين علينا عمل ما يسعنا من هذه الناحية . ويوم العمل مشكلة يجب علاجها ، إذ الإرهاق لا ينجم عنه خير في الأجل الطويل ، ولم يقل أحد أن إنقاص يوم العمل في إنجلترا والولايات المتحدة أدى إلى تقليل الإنتاج الصناعي . وأخيراً يجب أن يتدخل المشرع بصورة حاسمة لتنظيم الأجور ، حتى ينال العمال نصيباً عادلا من الدخل الأهلي . وهذه المسألة بالذات في مصلحة الجميع ، لأن العمال ـــ وسيزداد عددهم باطراد ـــ هم أغلبية الذين يشترون سلع الاستهلاك ، فإذا ما ارتفعت أجورهم زادت طاقتهم الاستهلاكية ، وترتب على ذلك اتساع نطاق صناعات أدوات الاستهلاك ، وهذا بدوره يعمل على نشاط الصناعات التي تخرج أدوات الإنتاج من آلات ووقود وما إلى ذلك . ولا شك أن رضاء النفس عامل كبير في الاستقرار ، وهو من الدعائم التي يستند إليها التقدم الصناعي .

(ثامناً) واجب رجال الصناعة

لا يقتصر الدور الذي يضطلع به رجال الصناعة على إقامة المشروع وتدبير الإنتاج وانتظار الأرباح ، بل إن عليهم واجباً نحو أنفسهم ونحو بلدهم . وهم يعلمون أن خفض ثمن السلعة أكبر عامل في رواجها لدى جمهور المستهلكين ، ولذا يتعين عليهم العمل على خفض نفقة الإنتاج مع الإبقاء على إنتاجية العناصر المختلفة المشتركة في هذه العملية . ومن أول الوسائل لإدراك هذه الغاية الأخذ بأسباب التقدم الفني ، وعدم الوقوف في وجه الأساليب الفنية الجديدة التي تزيد من استغلال القوى الإنتاجية . وفضلا عن هذا فرخص أثمان سلعهم كفيل بحمايتهم من المنافسة الأجنبية في الأسواق المحلية ، كما يتيح لها فرصاً طيبة في الأسواق الخارجية المجاورة على وجه الخصوص .

ولا يسعنا أن نختم هذا القسم من البحث دون أن نقول : إن السعي الجدي في سبيل خلق وحدة اقتصادية من بلدان الشرق العربي يساعد مساعدة كبيرة جليلة على تنمية الصناعة ، إذ يسهل تبادل المنتجات الصناعية والمواد الأولية بين بلد وآخر .

راشد البراوى

عندما نستغرق في النوم

للأستاذ حسن عبد السلام

النوم ظاهرة يفقد فيها المرء إحساسه بالمؤثرات الخارجية فترة من الوقت ، وفي خلاله ينقص مقدار الدم الذي يسري في شرايين المخ ، وينكمش إنسان العين ، ويضعف النبض قليلا ، وتبطؤ حركات التنفس وإن كانت تزداد عمقاً ، كما تنخفض درجة حرارة الجسم إلى حد يسير .

ولم يتفق العلماء حتى الآن على رأي قاطع بشأن كنه النوم وتفسير جميع الأسباب التي تحدثه ، على أنه من الثابت أن حرمان الحيوان منه يؤدي به إلى الموت ، وقد أجريت تجارب على كلاب صغيرة منعت فيها من النوم فماتت بعد خمسة أيام .

ومن الثابت أيضاً أن المخ يستريح خلال ساعات النوم ، ولكنه لا يقف عن العمل تماماً في هذه الساعات ، فهناك أجزاء من المخ ، وهي التي تسيطر على عمليات التنفس والهضم وتحريك القلب ودفع الدم إلى جميع أنسجة الجسم ، هذه الأجزاء عليها أن تنبه الأعصاب الممتدة إلى الرئتين والقلب وشرايين الجسم طيلة ساعات النوم ، أما أجزاء المخ المتعلقة بالتفكير والإرادة واتزان الجسم وتنسيق حركاته فإنها تقف عن العمل في أثناء النوم .

وعندما يغلب علينا النعاس ونحن قائمون بالعمل ، فإننا عادة نفرك أعيننا بأيدينا ، وذلك لأن غدد الدمع تفرز باستمرار خلال ساعات اليقظة ذلك السائل الذي يرطب العينين ويساعدهما على الحركة والبقاء مفتوحتين . وفي أثناء النوم يبطل إفراز هذا السائل فتغمض العينان، فإذا أردنا أن نبعد النوم عن أجفاننا فإننا نضغط على الأعين بالأيدي لكي ننبه الغدد إلى إفراز السائل المذكور ، ومثل ذلك عندما نستيقظ بعد فترة طويلة من النوم ، فإن أول ما نفعله الضغط على العينين بالأيدي لكي ننبه الغدد فتبدأ في إفراز الدمع .

والضوء ينبه أعصاب العينين ، ولذلك نغمضهما عند ما نريد النوم ، وذلك لكي نحول دون وصول الأشعة إلى هذه الأعصاب . وعند ما نكون في أشد حالات التعب

تغمض الجفون من تلقاء ذاتها ، لأن الأعصاب والعضلات المختصة بفتحها تقف عن العمل ، وفي مثل هذه الأوقات يتعذر على الإنسان كثيراً إبقاء العينين مفتوحتين .

وفي خلال الفترة الأولى من ساعات النوم يفقد الإنسان قدرته على الحركة ، بيد أنه يظل شاعراً بما يجري حوله ، كوجود النور أو بعض الأشخاص في حجرة النوم ، ومرور العربات أو الترام في الطريق ، وقد يسمع صوت المذياع من بهو المنزل أو من الحجرة المجاورة . ثم يفقد النائم إحساسه رويداً رويداً ، وبعد نحو ساعة من ابتداء النوم يكون قد فقد شعوره بالمؤثرات الخارجية العادية ، فلا يوقظه منها إلا الأصوات الشديدة والهزات العنيفة .

والمفهوم أنه حتى في أشد أوقات النوم عمقاً تظل الأعصاب تنقل الرسائل من أعضاء الحس إلى المخ ، غير أن المخ لا يأبه لمعظمها ، فإذا وقعت ذبابة على وجه النائم مثلا تنقل أعصاب اللمس الرسالة إلى المخ ولكنه قد لا يعير الرسالة شيئاً من الاهتمام ، أما إذا وقعت ذبابتان أو أكثر فقد يصدر المخ أمراً إلى اليد بالحركة لكي تبعد الذباب عن الوجه ، ومع ذلك يظل الشخص مستغرقاً في النوم ، وإذا تكررت مضايقة الذباب للنائم فإنه يستيقظ ، وقد ينهض لإقفال النوافذ أو إبعاد الذباب من الحجرة بطريقة ما .

أما الشخير الذي يحدثه بعض الناس في أثناء النوم فينشأ عن ذبذبة اللهاة في الفم ، والغالب أن سببه وجود زوائد لحمية بالأنف تعوق التنفس الطبيعي ، فيضطر إلى أن يشهق من الفم ، وهذا يؤدي إلى ذبذبة اللهاة وحدوث الشخير .

ويقول العلماء إن حجم المخ يصغر قليلا في أثناء النوم ، بينما تكبر الأيدي والأقدام ، والسبب فى ذلك أن جزءاً من الدم يغادر المخ خلال ساعات النوم ويذهب إلى الأطراف ، وهو أمر لازم ، لأن الجسم في سكونه قد تبرد أطرافه ، فيهرع الدم إليها ليدفئها .

وهناك عدة نظريات لتعليل النوم وشرح الأسباب التي تحدثه ، منها أن النوم والاستيقاظ سببهما تغيير يطرأ على سرعة سريان الدم في شرايين المخ ، فبعد أن يمكث المرء مستيقظاً عدة ساعات متوالية تتضاءل مرونة الشرايين وتضعف قدرتها على الاستجابة لنبضات القلب ، وذلك من جراء العمل والتفكير المتصلين طوال ساعات النهار ، كما أن مراكز الأعصاب التي تسيطر على الأوعية التي يسري فيها الدم بين ثنايا الدماغ يصيبها الكلل والإعياء وتعجز عن تنبيه هذه الأوعية ، فلا يلبث الدم أن تبطؤ سرعته عند سريانه في أجزاء المخ ، وهذا يولد الشعور بالتعب والميل إلى النوم . وبعد فترة من

النوم والراحة تستعيد الأعصاب والشرايين نشاطها ومرونتها ، فتزيد سرعة سريان الدم في المخ ، وعندها يستيقظ النائم ويحس بالقوة والانتعاش .

وثمة نظرية أخرى تقول : إن الحركة والتفكير وجميع الأعمال التي يقوم بها الشخص في أثناء اليقظة يتسبب عنها تولد حامض اللبنيك وبعض النفايات الأخرى التي تتجمع في الدم وتزيد من حموضته ، أو بتعبير أصح تنقص قلويته عن المعدل الذي يجب أن يكون عليه ، وعند ذلك يشعر الإنسان بالتعب والميل إلى النوم . ومع أن الجسم يعمل باستمرار على التخلص من هذه النفايات فإن سرعة تولدها في ساعات العمل والحركة تزيد عن سرعة التخلص منها ، وبذلك يتراكم جزء منها في مجرى الدم .

أما في ساعات النوم وعند ما يمتنع الإنسان عن العمل والحركة فإن معدل تولد هـذه المواد الحمضية يقلّ كثيراً ، وهذا يعطي الجسم فرصة للتخلص منها ، إما بإفرازها إلى الخارج ، وإما بمعادلتها ببعض الإفرازات الداخلية التي يحضرها الجسم ذاته . وعندما يطهر الدم وتزول منه الفضلات والمواد الغريبة التي أثرت في الأعصاب يعود إليها نشاطها ويستيقظ الإنسان .

والمعروف أن الذين يشتغلون بأعمال فكرية حاجتهم إلى النوم أقلّ ممن يتطلب عملهم اليومي بذل مجهود جثماني كبير ، وتفسير ذلك أن مجهود العضلات يسبب إفراز حامض اللبنيك أكثر مما يسببه المجهود الفكري، ومن ثم كانت فائدة المشي والتمرينات الرياضية قبل النوم للذين يصيبهم الأرق ، لأن الحركة يتولد عنها حامض اللبنيك في الجسم وهذا يتيح إسراع النوم إلى الجفون .

وبما أن القهوة والشاي يحتويان على بعض القلويدات العضوية التي تعادل تأثير حامض اللبنيك في الجسم ، لم يكن من المستحسن شربهما قبل النوم ، حتى لا يبعدا سنة الكرى عن العينين .

والأسباب التي تؤدي إلى حدوث الأرق عند بعض الناس كثيرة ، منها الاضطرابات الصحية ، كالمرض وارتباك الهضم والربو والتهاب المسالك الهوائية والأنيميا والصداع وارتفاع ضغط الدم ، ومنها الألم والإجهاد الفكري والجثماني والقلق والخوف والاضطرابات العصبية والهستريا ، ومنها الإسراف في تناول بعض المكيفات مثل القهوة والشاي والدخان .

لذلك كانت أولى الوسائل اللازم اتباعها لمداواة الأرق استشارة الطبيب لمعرفة نوع الاضطراب الصحي الذي قد يكون مصاباً به الإنسان ، ويجوز أن يأخـذ المرء

جرعات صغيرة من بعض البروميدات للتهدئة والمساعدة على النوم ، بيد أنه من المضر أن يجعل منها عادة يومية يستعين بها على النوم . والأفضل الالتجاء إلى الوسائل الأخرى المعتادة ، مثل الاغتسال بالماء الساخن قبل النوم ، أو شرب قدح من اللبن أو أي سائل ساخن غير القهوة والشاي .

ومن وسائل تجنب الأرق أيضاً عدم التفكير في حل المشكلات والمسائل العويصة قبل النوم بأن يقضي المرء الفترة التي تسبق الساعة المحددة للنوم في قراءة سهلة أو تسلية مشوقة ، أو يشغل ذهنه ببعض الأعمال العادية البسيطة التي يرتاح إليها .

وثمة وسيلة يتحدث بها المختصون بمعالجة الأرق ويقولون : إنها أفضل الوسائل لتجنبه على الإطلاق ، وهذه الوسيلة أن يؤخر المرء وجبته الغذائية الكبيرة إلى قبيل ساعة النوم ، بأن يقتصر على وجبة خفيفة في الصباح ووجبة خفيفة أخرى في الظهر ، وفي المساء يتناول وجبة كبيرة كاملة ، وله أن يملأ معدته كما يشاء ، فلن يضره ذلك شيئاً ، وهذا ما تفعله أغلب الحيوانات ، فإنها تنام مباشرة عقب الأكل .

حقيقة إن النوم مضر بعد وجبة ثقيلة ، وقد ينشأ عنه التخمة وسوء الهضم والأحلام المزعجة ، هذا إذا كانت هذه الأكلة مسبوقة بأكلة أخرى ثقيلة وكانت الفترة بينهما قصيرة ، أما إذا كانت الوجبة بعد فترة من الصوم فإنها لن تضر الجسم مطلقاً مهما كانت مليئة بالأغذية ، وسيشعر المرء بعدها بالانشراح والميل إلى النعاس ، وينام نوماً عميقاً دون أن يشعر بشيء من سوء الهضم أو تقلق راحته الأحلام .

حسن عبد السلام

النباتات والالياف الجديدة

للأستاذ عوض جندي

عنيت بالمباحث الزراعية منذ شبابي ، فكتبت مقالات جمة في النباتات الجديدة النافعة وتتبعت تقدمها . ومما ينبغي ذكره في هذا الموضوع في الجيل الحالي أن صاحب السعادة المرحوم محمود سامى باشا وزير مصر المفوض في واشنطون قابل في أوائل شهر نوفمبر سنة ١٩٢٦ المغفور له صاحب المعالي محمد فتح الله بركات باشا وزير الزراعة حينئذ ، فأفضى إليه بمعلومات زراعية اقتبسها من أمريكا ، وهي (١) تجربة زراعة المطاط في مصر (٢) رش التفاح والكمثرى والخوخ بمادة تستخرج من أمريكا (٣) استخراج الروم والخشب والعسل الأسود وغيرها من مصاص القصب (٤) استخراج السكر من الطرطوفة.

وفي أوائل يناير سنة ١٩٣٨ تلقت وزارة التجارة والصناعة ، من حضرة الأستاذ علي البقلي الذي كان وقتئذ ملحقاً تجارياً بالمفوضية المصرية في مدينة روما — تقريراً خاصاً بصناعه الصوف من اللبن — قال فيه : « إن هذه الطريقة تقوم بفصل الزبدة عن لبنها ثم تحويل المخيض وبراً تصنع منه خيوط ، فتنسج منها منسوجات شتى رائعة الأنواع والألوان ، تصلح لملابس الرجال والنساء . ومن أهم مميزات الصوف المصنوع من اللبن أنه عند خلطه بالصوف ، يكسب الجسم حرارة أكثر منها في الصوف الطبيعي وحده . وقد ثبت ذلك من التجارب الفنية التي قام بها الأستاذ كيوشي أحد أساتذة المعهد الفني الصناعي » وقد فصلت منذ عشرين عاماً طريقة صنع الخشب (السيلوتكس) من مصاص القصب في مقال نشرته أول سنة ١٩٢٣ في المقتطف

ومن النباتات الجديدة «الصوية» ، وقد رأيتها أول مرة في المعرض الزراعي الصناعي المصري سنة ١٩٣٦ وذلك بين معروضات قسم البساتين . والصوية Soya أو (البازلاء) الصينية نبات يزرع في بلاد الصين والهند واليابان . ويعمل من دقيقه خبز خال من النشا للمصابين بالبول السكري ، وقد زرعه الصينيون منذ آلاف السنين . وما زالوا يزرعونه ويقدرونه حق قدره كواحد من الحبوب الخمسة المقدسة التي يعدونها من ضروريات ارتقاء الصين اقتصادياً . وقد تنبه العالم الغربي في التاريخ الحديث ، إلى هذا النوع من البازلاء

(لا الفول كما يقول بعض المترجمين) وعرف حقيقة ميزاتها ، فجعل يبز أهل الصين في وسائل الانتفاع بها . ولذلك أنشأت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في جامعة إيلينوي ، مختبراً كيميائياً خاصاً فظفر بنتائج باهرة من مباحثه ، إذا ستخرج منها ورنيشاً لوقاية سطوح الخشب يقاوم التأثيرات الجوية كل المقاومة ، ولا يكاد يزول بريقه ولا يتشقق على الاطلاق ولا يتقشر ولا يسود على ممر الزمن .

والصوية Soya مختلفة الأنواع ، فمنها ما هو صالح لغذاء الإنسان ، ومنها ما يصلح علفاً للحيوان . وبعضها نافع للصناعة لاحتوائه على مقادير جزيلة من الزيت . وبدأت زراعتها في الولايات المتحدة الأمريكية منذ سنة ١٨٠٤ وكانت معتبرة هناك حينئذ من نباتات الشرق النافعة . ثم انقضى القرن التاسع عشر كله دون أن يهتم بها أحد الاهتمام الواجب . واستمر الحال على ذلك المنوال حتى دارت رحى الحرب العالمية الأولى ، فكانت زراعة الصوية في أمريكا ، محصورة في حقل صغير ، حيث كان زراعها يعلفون بها الخنازير . أما الآن فقد أصبحت زراعتها منتشرة انتشاراً كبيراً يربي على ستة ملايين من الفدادين . وزيتها صالح جداً لصنع الصابون الذي يذوب في المياه العسرة . ويدخل في البويات ومشمع الأرض وحبر الطبع والمفرقعات والمطاط الصناعي .

وتصنع منها عجائن كيميائية كالتي تصنع من مخيض اللبن ، ومن هذه العجائن تتخذ إطارات إدارة السيارات وأزرارها وأبواقها . وقد استغنت مصانع الزبد الأمريكية بزيت الصوية ، عن زيت جوز الهند ، وذلك في صنع (المرجرين) الزبدة الصناعية .

أما في مصرنا العزيزة فقد جربت وزارة الزراعة منذ ١٩٤٠ زراعة الصوية في الوجهين البحري والقبلي بمزارعها الخاصة ، فنجحت التجارب في تفتيش زراعتي ملوي وسدس نجاحاً عظيما . وتبين للباحثين المصريين سهولة استخراج الزيت من الصوية ، وهذا لا يقتضي أكثر مما يتطلبه عصر بذرة القطن . ثم انتشرت زراعتها في مصر الوسطى وشمال مصر السفلى . ولا شك أن هذا المحصول سيحدث في بلادنا نهضة صناعية تساعدنا على رقينا الاقتصادي بعد أن تحققت الوزارة من منافعها الجليلة .

وفي سنة ١٩٤٠ أدخلت الصوية في أغذية الجنود الألمانية . وقد حذت ألمانيا في ذلك حذو بلاد الصين من قدم ، حيث يتغذى أهلها بالخضر والبقول . وقد اتخذوا الصوية طعاماً لهم منذ خمسة آلاف سنة ، عند ما تبينوا جزيل نفعها الغذائي بحيث يمكن الاستغناء بها استغناء تاماً عن اللحوم .

ولا غرو فهم يستعملونها بدلا من البيض واللحم الأحمر واللبن الحليب .

ومن الصوية يستخرج اليابانيون والصينيون لبناً وجبناً . ويزعمون أن الدهن الذي تحويه الصوية أسهل هضما من الزبد الطبيعي . ومنها يصنع الشمع والغراء والمداد . وتستعمل نفايتها سماداً للمزروعات .

ماذا تقول المجلات العلمية الأمريكية فى هذه المباحث الزراعية الفنية الحديثة !

لاشك أننا قادمون على عصر الملابس والمنسوجات الكيميائية على أنواعها كافة ؛ وسنغزل كل ما تنتجه لنا أنابيب الاختبار ، وذلك من عشرات المواد الأولية التي ما كنا لنحلم يوماً من الأيام بصلاحيتها للغزل . لأن بعض ذلك الوبر الكيميائي يفوق القطن والصوف الطبيعيين ، من بعض الوجوه . وهذا من شأنه أن يجعله منافساً قوياً لهما .

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد أن ألمانيا قبل هزيمتها في الحرب الأخيرة كانت تنتج ١٦٨ نوعاً مختلفاً من الغزل الكيميائي . ويزعم العلماء الكيميائيون أن منتجات أنابيب الاختبار سيصبح لها شأن عظيم على الدوام في إخراج مئات الملايين من أرطال المغزولات سنوياً ، وقد تصل منتجاتها إلى بلايين الأرطال .

ومن هذا القبيل صوف الصوية ، (وقد تقدم الكلام عليه) وأصله أن عالمين يابانيين أعلنا قبيل الحرب الحالية أن في وسعهما صنع بذلة كاملة من ذلك الصوف الصناعي ، بمبلغ لا يزيد على ريال .

ومنذ ثلاثه أعوام أنشأ هنري فورد مصنعاً نموذجياً استطاع يومياً إنتاج ألف رطل من صوف الصوية . وبلغ من إعجابه به أن لبس بزة من نسيجه . وإذا اعتبرنا أن متوسط ما تنتجه الشاة سنوياً من الصوف سبعة أرطال ونصف رطل ، وأنها تستنفد فدانين من العشب لعلفها في تلك السنة ، رأينا ذينك الفدانين ، إذا زرعا صوية ، أغلا ١٦٠ رطلا من الصوف الصناعي .

✡✡✡

أما الصوف الذي يستخرج من جبنين اللبن (لبن الفرز) ؛ فقد انقضى على ظهوره في السوق الأمريكية نحو خمس سنوات . ويطلق عليه إسم آرالاك Aralac وقد أنشىء له مصنع في مدينة تافتفيل بإقليم كنتيكوت « هذا هو اللفظ الصحيح للاسم الإنجليزي وأما غيره فخطأ » يبلغ متوسط إنتاجه السنوي عشرة ملايين رطل من الآرالاك . وطريقة صنعه هي أن يعالج الجبنين بالمواد الكيميائية ثم يوضع المزيج في دولاب مثقب ثقوباً دقيقة «مثل دولاب صنع الشعرية البلدية فى بلادنا المصرية» فتبرز من الثقوب خيوط كالشعر ، فتنسج منسوجات لطيفة .

وأفضل الخيوط الصناعية المعروفة إلى الآن هما الريون «الحرير الصناعي» والنيلون . ويصنع أولهما من زغب القطن وعجينة الخشب . أما النيلون فيؤلف من عجينة الفحم الحجري والماء والهواء وكانت أغلب مصنوعاته قبل نشوب الحرب الحالية ، هي جوارب السيدات . وكانت مصانع ده بون الأمريكية تنتج النيلون لصنع المظلات الواقية من السقوط من الطائرات . (وهي الهابطات في عرف بعض الكتاب) وذلك في خلال الحرب الماضية ، فغدت تصنع من هذه المادة ثياباً وستائر وبطانيات ، وأثاثاً وسائر المنسوجات جميعها .

ومن خصائص النيلون قلة امتصاصه للرطوبة ثم مقاومته للتعفن والبلى ، وعدم تأثير العث فيه ، وهذا عدا احتفاظه بشكله .

ومن أغرب الخيوط الصناعية الحديثة ، الغزل الذي يقوم بغزله ، المعهد الأمريكي للمباحث ، المسمى ريجينال ، في مدينة ألباني من أعمال إقليم كليفرنيا ، حيث يغزل غزلا من ريش الطيور . وذلك أن يذاب الريش أولا ، بالمواد الكيميائية فينتج من كل رطل ريش ٦٠ ٪ إلى ٧٠ ٪ من المواد الصلبة . وذلك أن السائل الذي ينتج من هذه العملية يوضع في دولاب مثقب ثقوباً دقيقة جداً ، فتبرز منه خيوط شعرية مرنة جداً ، ثم تنسج ، وقد ثبت من تقرير وزارة الزراعة الأمريكية نجاح هذه الخيوط كل النجاح .

ولم يقتصر الاهتمام بهذا النسيج الجديد على علماء الكيمياء في وزارة زراعة أمريكا بل تعداه إلى خبراء شركة مطاط الولايات المتحدة الأمريكية إذ اخترعوا نسيجاً جديداً يبدو لناظره كالصوف ، على حين أن جله من ريش الدجاج . وطريقة صنعه أن تقوم آلة خاصة بفصل الأجزاء الناعمة من الريش ، عن أنابيب الريش نفسه ، ثم تخلط هذه الأجزاء المختارة بخيوط أخرى ، بطريقة خاصة .

ويؤكد العلماء في شركة المطاط الأمريكية المشار إليها أن بذلة الرجل أو معطفه يتاح صنعه من ريش ٣٨ ديكا . وأصبح الفلاحون هناك يرحبون بهذا الطراز من النسيج الذي سيستنفد مائة مليون رطل ريش كانت تنبذ سنوياً بلا فائدة ، فأصبحت ذات سوق رائجة .

وأعلن حديثاً رئيس المعهد الأمريكي للحديد والفولاذ ، اختراع جوارب للسيدات من الفولاذ الذي يقاوم الصدأ . أجل إن هذا المخترع ما زال معداً من الطرف في ذلك المعهد العلمي الصناعي ، بيد أن كبار منتجي الفولاذ يتوقعون له مستقبلا حسناً ، إذ

أنهم قد أتموا صنع خيوط فولاذية لا تصدأ ، يزعمون أنه يتاح نسجها جوارب تشبه أخواتها التي تصنع من الحرير أو النيلون .

أما الثياب والمنسوجات التي تغزل من الزجاج ، فأمرها ليس جديداً كلية ؛ ولكنها صارت ذات نفع جديد ، إذ تصنع منها ستائر للنوافذ وأغطية لموائد الطعام ، وغير ذلك من الأدوات الزجاجية القليلة التي تم استعمالها . ومن هذا القبيل الثوب الزجاجي الذي عرض في أمريكا منذ أكثر من أربعين سنة .

ولما كان من خواص الزجاج قابليته للتفتت ، فقدصار استعماله في الملابس محدوداً . غيرأن العلماء شرعوا في حل هذه المعضلة . ويحتمل وصولهم إلى تذليلها عما قريب وربما تيسرت لهم هذه الأمنية بخلط خيوط الزجاج ، إما بالحرير الطبيعي وإما بالريون « الحرير الصناعي » وإما بغيرهما من الألياف .

ويتسنى تحسين القماش الذي ينسج من المنسوجات المألوفة ، وذلك بمعالجتها بالمواد الكيميائية ، وأخصها المنسوجات القطنية . ويقوم بهذا العلاج حالياً مصنع تشيكوبي في مدينة ميلتون بإقليم نيوجرسي بالولايات المتحدة الأمريكية ، حيث ينتج نسيجاً قطنياً دون غزل ونسج .

وثمة نسيج آخر تم صنعه من زمن سحيق جداً ، وذلك قبل معرفة الأمريكيين وغيرهم من الغربيين ، للصوف والقطن . ونعني به « الرامي » Ramee أو Ramie

وقد ورد ذكره في التاريخ المصري القديم وبهذه المناسبة أصرح أني قرأت في شبابي منذ أربعين سنة ، وذلك في مجلة Popular Science Siftings ، نبذة موجزة على الرامي ما زلت أذكرها إلى الآن ؛ وهذاهو الباعث القوي الذى حداني على البحث ، بل الاستقصاء عن هذا النبات الحريري الألياف ، لأني لم أكن أتوقع وجوده في بلادنا في العصر الحالي ، كما كان شأنه في العهد القديم فيممت صباح يوم من الأيام شطر قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة بضاحية الجيزة ، وقابلت يوسف بك ميلاد مديره ، وأفضيت إليه برغبتي العلمية الزراعية ، وهي الاستعلام ، أيوجد نبات الرامي في بلادنا المصرية الآن ، كما كان معروفاً في أقدم الأزمان عند الفراعنة فأجابني بالإيجاب ، ثم استدعى إليه الأستاذ حافظ عبد الحميد ، رئيس فرع النباتات الطبية والعطرية والاقتصادية بقسم البساتين ، فرافقني إلى مكتبه حيث تفضل فأعطاني عوداً رامياً مصحوباً * ، جافاً وأليافاً لنبات الكركديه ، ثم وجهني مع رسول من قبله إلى فرع

---

* العود المصحوب أو المصحب الذي لم يقشر

تربية النباتات بقسم البساتين ، ابتغاء مشاهدة الرامي في حقله .

وقد علمت من مباحثة حضرات المختصين أنهم جعلوا يهتمون اهتماماً جدياً فنياً بالتوسع في زراعة الرامي وذلك من حوالي نصف ديسمبر سنة ١٩٤٥ تنفيذاً لأمر حضرة صاحب المعالي وزير الزراعة . وكان قبل ذلك يزرع منه قيراطان في كل تفتيش من التفاتيش الأربعة للتجربة وحفظ النوع . وهناك قابلت الأستاذ سليم نظيف رئيس ذلك الفرع فصارحته بأمنيتي الصحفية العلمية فقدم لي نموذجاً ضئيلا جداً من خصلة لديه من ألياف الرامي ، التي قام بتقشيرها وتنظيفها المختصون لتعرض على الجهات العليا . وهي ألياف مقشورة بالأيدي ومنظفة بالمواد الكيميائية في مصر ، ناصعة البياض ، ناعمة الملمس كالحرير ، متينة جداً وخفيفة . ثم تفضل فأصحبني الأستاذ أبو زيد خليفة جابر المهندس الزراعي ، فرافقني إلى منابت الرامي فيما يسمونه « الصوبات » وهي الحظائر الزجاجية المغطاة ، حيث شاهدت ذلك النبات مزروعاً من البذور في صناديق ملأى بالطمي المخلوط بقليل من الرمل ، وفي الأصص . ومن ثمة ذهبنا إلى المشاتل في الحقل حيث رأيت الرامي نامياً نمواً جيداً يبلغ ارتفاعه زهاء نصف متر ، فعرض علي الجذور الدرنية التي تستعمل في الزراعة بدلا من البذور وتناولت من شجيرة رامي ورقة فدهشت إذ وجدتها ذات لونين فسطحها أخضر نضير ، وظهرها فضي بديع . ثم شرح لى مرشدي الفني نفسه وهو الذي يباشر زراعة الرامي وغيره من نباتات الألياف ، أطوار زراعته ، وما ينتظر له من النجاح فشكرته على حسن صنيعه .

وفي برنامج وزارة الزراعة المصرية وجوب زراعة ٢٠ فداناً هذا العام ، وذلك بتفتيش سخا وستزرع على دفعات .

وكان الرامي في زمن الفراعنة يعدّ من ضروريات الحياة وقد وجدت جثث محنطة جمة ملفوفة بنسيجه لفاً محكما . وشهد علماء الآثار الذين عثروا عليها ، بشدة متانة أليافه وطول بقائها .

وأثبتت التجارب التي جربت في أمريكا وانكلترا حديثاً أن هـذا النسيج أمتن عشر مرات من القطن وأقوى من الكتان أو القنب عدة مرات . غير أنه أضعف تمدداً وأقل تكمشاً من نسيج الصوف أو الحرير الصناعي ، وهو ناعم كنسيج الكتان مع خلوه من خاصية التقصف ، وكل فدان يزرع به ينتج أليافاً أكثر منه إذا زرع قطناً ، وكان الحائل الأكيد الذي حال دون اتساع نطاق استعمال منسوجات الرامي ، هو وجوب استخدام الأيادي البشرية في تقشير أليافه عن سيقانه ، كما سلف القول ، ولا يخفى ما في

هذا العمل من إجهاد وبطء . ولذلك فإن هـذا التقشير يقوم به الصينيون أكثر من شعوب العالم قاطبة ، لزهادة أجور العمال هناك .

ومما يدعو إلى اغتباط منتجي الرامى أن علماء أمريكا قد أعلنوا حديثاً اختراع طريقة لتقشير أليافه عن سوقه عاجلا بالجملة ، تقشيراً متقناً ، وذلك بآلات خاصة تقشره وتزيل من أليافه المادة الصمغية (وهـذا هو سبب اهتمام وزارة الزراعة بزرعه بمصر الآن) وهم يتوقعون انتشار زراعته تدريجاً في كثير من أقاليم بلادهم .

وإذا مانسجت ألياف الرامي ثياباً تبينت متانتها الرائعة . وإثباتاً لهذه الخاصية ، غسل المجربون قميصاً رامياً ٧٢ مرة ، فصار رونقه في كل مرة منها ، يزيد ظهوراً على ما قبلها . وغسل ثوب آخرمنه ١٥٠ مرة ، فظهرت في كل منها ، تجعيدة في موضع معين ولم يتغير مكانها على الإطلاق ، ثم فحصت أليافها بالمجهار ، فتجلت سلامتها من القطع .

ومن المخترعات الحديثة أيضاً خلط القطن بمواد أخرى ، فيغزل مع الأزبستوس (حجر الفتيـلة) منسوجات تصلح للغسل غير قابلة للالتهاب هى المسماة آزبستون Asbeston وهذه تستعمل ثياباً وستائر وغير ذلك . ثم البلـكسون Pleon وهو غشاء من العجائن الكيميائية شديد المقاومة للبلى ، يضاف إلى القطن ، فتصنع منه المفروشات والسيور . ولما وقفت رحى الحرب العالمية الأخيرة ، شرعت شركات الأليومينيم في استحداث منافع جديدة لذلك المعدن الخفيف جداً فاخترعت منه منسوجات إذ أتيح للمهندسين غزله وتحويل الرطل الواحد منه خيطاً أوفتيلا طوله ١١٥٠٠ ياردة أي زهاء ستة أميال . ثم خلطوه بخيوط من القطن فأمكنهم صنع القبعات من هـذا النسيج ، كما صنعوا منه بذلات للاستحمام ، وجاكتات للسهرات وغيرها من الملبوسات . فإذا أثبت الإختبار صلاحية هذه المنسوجات ومتانتها فلا يبعد أن يرتديها الجمهور بعد زمن وجيز .

عوض جندى



محمد شاكر

١٨٦٦ — ١٩٣٩

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

لا أعرف عالماً من علماء المسلمين في عصرنا الحديث اشتغل بالسياسة وبرع فيها كما كان الشيخ محمد شاكر، وكأنه — رحمه الله — خلق ليكون سياسياً قبل أن يخلق ليكون عالماً. ولا يطعن ذلك في علمه وفيما بذله للدين من جهد. فإنه كان سياسياً ناجحاً وعالماً ناجحاً.



وما كان في سياسة الدنيا مضيعاً نصيبه. ولا كان عَرَض السياسة الدنيوية عن الدين شاغله...

وفرق ما بين الأستاذ الإمام محمد عبده وصديقه وتلميذه الشيخ محمد شاكر أن الأول بدأ سياسيًا، فاشترك في الثورة العرابية، وكان كما قال اللورد كرومر: « روحاً مدبرة للحركة »؛ وكان موقفه منها — كما قال عبد الرحمن الرافعي بك:

« موقف الوطني الذي يثور لكرامة البلاد واستقلالها » . ثم انتهى به الأمر بعد النفي أن ولي القضاء والإفتاء ، فاستحال هذا الشيخ الثائر إلى حكيم مصلح هادئ ، وأعرض عن ذكر السياسة جانباً ، وانصرف إلى الإصلاح الاجتماعي والديني الذي ظهر في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وإلى محاولاته في إصلاح الأزهر . أما التلميذ والصديق الشيخ محمد شاكر فقد بدأ حياته أميناً للفتوى فنائباً لمحكمة مديرية القليوبية فقاضياً لقضاة السودان ، فشيخاً لعلماء الإسكندرية ، فوكيلا للجامع الأزهر . ثم انصرف بعد ذلك إلى السياسة منذ الساعة التي عين فيها عضواً بالجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ ، فتأبّى على قيد الوظائف، وأعانته بعد ذلك ثورة سنة ١٩١٩ نخبّ فيها ووضع ، واشترك فيها بقلم كأن أبا تمام كان يعنيه بقوله :

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلى والمفاصل

وطريق الرجلين في الحياة واحدة ؛ إلا أن أحدهما بدأ الطريق من ألفه ، وثانيهما بدأه من يائه ، فالتقيا فى الطريق ولم يلتقيا على غايته . وما لأحدهما في ذلك باعٌ ولا يد . . . ولكنه باع المناسبات التي تملي إرادتها وتحكم بمشيئتها . فقد كان الشيخ محمد عبده في الثورة العرابية بلغ الثانية والثلاثين، على حين كان الشيخ شاكر في ذلك العهد شاباً في السادسة عشرة ، وهي سن لا تسمح لصاحبها باشتراك في ثورة أو خوض في سياسة .

فكأن الشيخ محمد شاكر قد عوض في ثورة سنة ١٩١٩ ما فاته في الثورة العرابية سنة ١٨٨٢. وهو فَوْتٌ لم يكن للشيخ فيه خيار ، ولكنه حكم السنين والأعمار وحياة الشيخ شاكر موزعة على مراحل — كما توزع حياة القمر في منازل . إلا أن القمر إذا رأيته هلالا نامياً أيقنت أن سيصير بدراً كاملا . أما الشيخ شاكر فقد كانت أول مراتبه كمالا . وهي دورة من الزمن الدوار ، والفلك المدار ، استوى طرفاها في القدر ، ولم يستويا في حسان الزمان .

فالشيخ شاكر في القضاء الشرعي بمصر ، هو الشيخ شاكر في قضاء السودان ، وفي مشيخة الإسكندرية ، وفي وكالة الأزهر . وهو في ذلك جميعاً الشيخ شاكر في الجمعية التشريعية وفي المعاش . تختلف عليه أوجه الحياة وتتقلب عليه المناصب ، فلا تختلف له فضيلة لقي الدنيا بها أو لقي الله عليها . حتى كان أوله كآخره ، وباطنه كظاهره .

لقد كان في الشيخ صلابة في الحق ، كأنما كان يضرب بعود الله الذي لا ينكسر ، وينطق باسم الله لا ينخذل . ولقد أخرجته تلك الصلابة من مآزق كان الوقوع فيها شيئاً منتظراً ، وحدثاً مقدراً ...

وتظهر هذه الصلابة في عهد اشتغاله قاضياً لقضاة السودان . وقد كان أول من تولى ذلك المنصب في ١١ مارس سنة ١٩٠٠ عقب انتهاء الثورة المهدية . وهي وظيفة كانت لذلك العهد عبئاً على حاملها ، وهمّاً لشاغلها ، نظراً للمركز الدقيق الذي استحدثته السياسة بين القطر الشقيق وجاره الشقيق .

وكان اختيار مصري لهذا المنصب عبئاً أضيف إلى من بيدهم الاختيار . ووجدت حكومة السودان في الشيخ محمد عبده خير من ينهض بعبء الاختيار ، لما فيه من بعد النظر وصدق الفراسة وتقدير الرجال[١]. وانتظمت نظرة الإمام الشيوخ واحداً واحداً، فرأى أن يمكن للشيخ شاكر في بعض البلدان ، حتى ينفذ آراءه في الإصلاح التي ضمنها تقريره[٢] الذي رفعه إلى الأستاذ الإمام . ولذلك زكّاه لمنصب قاضي القضاة في السودان[٣].

وهذه الصلابة قد جعلت للشيخ شخصية متفردة متميزة ،كان يحسب لها حسابها ، ويخشى لها بأسها . وهي صلابة تستند إلى الحق المدعم والدليل المؤيد ، لا إلى اللجاجة في الجدال والرغبة في النقاش . وسر ذلك أن الشيخ كان فاهماً وظيفته في السودان كل الفهم ، فأراد أن يكون فيها كما يريد الحق أن يكون ، لا كما تريد أهواء السياسة أن تكون فهو في السودان رئيس ديني يستمد سلطته الدينية من الرئيس الأعلى للبلاد ، وهو الخديو في ذلك الحين . ولهذا اضطر حينما تسلم منصبه في السودان إلى إعادة تعيين كل قاض شرعي تسلم مركز وظيفته قبل حضوره ، وبعث لكل منهم إذناً بمباشرة الأحكام الشرعية ، يتضمن إجازة ما أصدره من الأحكام قبل ذلك[٤] .

والمفهوم في لغة العقل ومنطق الشرع أن شيخ القضاة في السودان هو الذي يأذن الموظفين الشرعيين بمباشرة أعمالهم الشرعية في المحاكم المعينين فيها ، وهو الذي يتولى فصلهم من المحاكم التي كانوا فيها أولا . وهي سلطة يستمدها شيخ القضاة من الولي الشرعي للبلاد . ولكن هذه اللغة لا ترضى لغة السياسة . ومن هنا حدث بين الشيخ شاكر والسكرتير القضائي للسودان ما كان كفيلا بتعكير الجو ، لو لم يكن الشيخ فطناً في مناقشته ، لبقاً في معارضته ، قوياً في منطقه وحجته . ومن هنا أكبره الإنجليز

---

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام للسيد رشيد رضا ج ١ ص ٨٧٦ .

(٢) هذا التقرير مصور ضوئياً ومحفوظ بدار الكتب المصرية .

(٣) مجلة المقتطف عدد أغسطس سنة ١٩٣٩ .

(٤) من مذكرات خطية للشيخ رحمه الله .

في السودان على صلابته . لأن الحق واستقلال الشخصية كان يكبره دائماً في نظرهم ، وهم يحبون في الرجال تلك الخلة من الخلال .

في سنة ١٩٠٢ قام القاضي الشرعي لمحلة « الرباطاب » بالإجازة ، من غير أن يعلم الشيخ شاكر بها أو يصرح له بمبارحة مركز وظيفته . فلما علم الشيخ شاكر بهذا كتب إلى السكرتير القضائي ينبئه بخطأ ذلك التصرف ، ثم أرسل برقية إلى قاضي « الدامر » يأذن له فيها بمباشرة الأحكام الشرعية في محكمة « الرباطاب » مدة غياب قاضيها . ولم يسكت السكرتير القضائي على كتاب الشيخ ، ووجدها فرصة لخدمة الأغراض السياسية من جديد . فكتب إلى الشيخ شاكر يلفته إلى أنه لاحظ أن محكمة العموم تزداد ميلا إلى التدخل « إدارياً » في شؤون المحاكم التابعة لها . ومحكمة العموم هذه هي التي يرأسها المترجم له بوصفه قاضي قضاة السودان .

ولكن الشيخ الصلب العنيد في الحق لم يسكت على ملاحظة السكرتير القضائي ؛ فانتضى القلم الذي امتطى أنامله الخمس اللطاف الصلاب ، وردّ رداً طويلا ختمه بهذه الأسطر : « وإلى هذا الحد أرجو أن تعيدوا النظر في هذه الملاحظات ، وتقدروا موضوعها حق قدره . فإن بقاءها على ما هي عليه يذهب بكثير من الثقة التي هي عماد الاشتراك في المصالح ، والتي إن فقد الموظف شيئاً منها فخير له أن يفقد مركزه ليحتفظ بها ؛ وأنا أول رجل يسخو بمركزه في سبيل الثقة بنفسه »[١] .

وما كان الشيخ مازحاً حين عرض السخاء بمنصبه في سبيل كرامته الشخصية ، وثقته النفسية . وما كان آسفاً على المنصب لو ضاع ، أو الدنيا كلها لو ولّت ، ما دام في ذلك أخذ بالتقيّة لدينه ولربه ، وأخذ بالكرامة لنفسه ولقلبه . وقد كان في استطاعته أن يدع الأمور تسير ، وأن يترك « المخالفات » تمر ، وأن يريح نفسه ورأسه من هذا الأخذ والرد ، والجزر والمد ، ولكنه كان « غير آمن على نفسه من مخالطة حكومات هذا الزمان »[٢] . ومن هنا هانت عليه المناصب ، وصغرت في عينيه المراكز والمراتب .

وقد ظن السكرتير القضائي أن تمسك الشيخ بحقه تدخل منه في شؤون المحاكم الإدارية ؛ فطلب إليه الانتباه — بقدر الإمكان — إلى هذا « كما أنتبه أنا — يعني السكرتير نفسه — إلى عدم المداخلة في استقلال محكمة العموم في الأمور القضائية »[٣] .

---

(١) من مذكرات خطية للمترجم له .

(٢) من رسالة خاصة إلى أحد أصدقائه .

(٣) من رسالة السكرتير القضائي إلى الشيخ بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٩٠٢ رقم ٨ سري .

ولكن السكرتير لم يلزم نفسه بالعهد الذي قطع . فتدخل في الأمور القضائية مرة ومرة . تدخل في قضية ادعت فيها امرأة أمام قاضي « السكوة » غيبة زوجها ، فطلقها وزوجت بآخر ، ثم حضر الزوج الأول واستأنف هذا الحكم ، فألغي فسخ عقد الزواج الثاني . فطلب الزوج الثاني إلزام القاضي بالمهر وما أنفقه ، لأنه المتسبب . ومال السكرتير القضائي إلى أن يرد للزوج الثاني المهر الذي دفعه للمرأة . ولكن الشيخ شاكر رد عليه رداً يقطع على المكابرين سبيلهم . فرد السكرتير يقول : « وإن أكن فاهماً بأنه لا بد من وجود قواعد شرعية إذا فسّرت حرفياً حرمت إعادة أي قسم من الصداق في هذه القضية ، إلا أنه لا يسعني إلا الاعتقاد بأن الحكم بإعادة هذا القسم من الصداق إلى دافعه يكون أقربَ معنى وأكثر مطابقة لروح الشرع الإسلامي العادل » . وهنا ثار الشيخ كعادته حينما يحس أن شيئاً مس دينه ، أو تعرض لعدالة روحه وحكمة نصوصه . فرد على السكرتير رداً طويلا ، مبيناً له الحكمة التي لأجلها قضت الشريعة الإسلامية بعدم رد المهر الذي يطالب به الزوج الثاني بعد الحكم بفسخ العقد .

فلم يكن عمل الشيخ إذن في السودان القيام على تطبيق الأحكام الشرعية ، ولكن الله ابتلاه بمن يُغفل حكمة الشريعة في أحكامها ، فوقف له بالمرصاد يرد عليه مغامزه في صحوة المتيقظ ووثبة المتحفز .

ولم تكن هذه المكاتبات لتشغل الشيخ أو تقلق باله أو تصرفه عما كان بسبيله من إصلاح القضاء الشرعي في السودان . فقد مضى إلى غايته ، ومر كما يمر السحاب الثقال . لا يشغله صياح . . . وأجدّ في المحاكم السودانية مبادئ من المذاهب الإسلامية دعت إليها الحاجة في بلد بكر في تشريعه وقوانينه . وهي مبادئ تستند إلى فكر صحيح ورأى رجيح ، كالحكم بالتطليق للغيبة والإعسار والحبس والضرار ونحوها مما جرى به العمل بعد ذلك في مصر سنة ١٩٢٠ . فسبق السودان مصر في بعض نواحي الإصلاح الشرعي بعشرين من السنين .

وظل الشيخ في السودان أربعة من السنين ، لم يقتصر فيها على القضاء ، ولكنه كانت فيه طبيعة المعلم ، وفطرة الواعظ ، ومزية الخطيب . فما ضنّ على أهل السودان بدرس علمي ، ولا بخل عليهم بموعظة ، ولا امتنع فيهم عن خطبة ، وتوّج ذلك كله بقراءة صحيح البخاري كله .

إنما يظهر فضل الرجال في الأعمال حين يعهد إليهم بعمل جديد ، فهنا يظهر فضل

الإنشاء والابتكار والتجديد . وقد ظهر فضل الشيخ شاكر حينما كان أول قاض لقضاة السودان . فكل عمل له هناك كان سابقة ، وكل خطوة جديدة له كانت أثراً ، وكل خطة له كانت تقليداً . ولقد جاء بعده في ذلك المنصب الشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وجاء بعدهما عدد من خيرة القضاة ، فكان للشيخ شاكر فضل الرواد .

وعاد الشيخ إلى القاهرة في أوائل صيف سنة ١٩٠٤ في عطلة سنوية . وكأنما كانت تعده الأقدار لمنصب جديد ، يظهر فيه فضل الإنشاء والتجديد . فقد رئي قبل ذلك بعام أن تلحق الإسكندرية بالجامع الأزهر في التدريس والامتحان . وكان الجامع « الأنور » الإسكندري موقوفاً للتدريس من قبل الشيخ إبرهيم الباشا ، الجد الأعلى للشيخين أحمد الباشا ومحمود الباشا . ورفض أولاد الواقف أخيراً أن يتبعوا مجلس إدارة الأزهر في إدارته ونظامه (١) . وقرر مجلس الأزهر تعيين شيخ لعلماء الإسكندرية غير الشيخ محمود الباشا . فمن يكون ذلك الشيخ الجديد ؟

فكر الأستاذ الإمام في الشيخ شاكر ، وجس نبضه ، فوجد منه ارتياحاً للقبول ؛ ووافقت حكومة السودان على نقله ، ورضي الخديو بتعيينه (٢) . وصدر الأمر العالي بذلك في ٢٦ أبريل سنة ١٩٠٤ .

* * *

كان الشيخ في الإسكندرية رائداً كما كان في السودان . ولئن ظهرت في القضاء الشرعي مزيته الفقهية ، لقد ظهرت في معهد الإسكندرية فضيلته التعليمية . ويظهر أن خاصية الابتكار كانت فيه في كل عمل تولاه . فما عرف التقليد والاتباع إلا في التأسي بالرسول وصحابته . وأما ما عدا ذلك ، من أمور تجب فيها الأصالة ويحمد فيها الابتداع ، فقد كان فيها على غير ما كان الشيوخ . وهو هنا يمتاز بعقلية منظمة وذهنية مرتبة ؛ كانت تظهر في ترتيب منطقه إذا كتب ، وفي ترتيب عمله إذا عمل . ونلخص سيرة الشيخ في الإسكندرية في هذه الأسطر الغزيرة المعنى ، المعتدلة الحكم ، التي كتبها الشيخ محمود أحمد الغمراوي شيخ معهدي دسوق والزقازيق سابقاً : « ثم أنشأ المغفور له الخديو عباس الثاني معهد الإسكندرية ، واختار شيخاً له القاضي العادل ، والمربي الكبير ، المغفور له الشيخ محمد شاكر ، فنهض بالمعهد نهوضاً فائقاً ، وجعل تعلم هذه العلوم

(١) تاريخ الأستاذ الإمام ج ١ ص ٤٧٠ . (٢) المصدر السابق ص ٤٧٠

— يعني علوم الثقافة الحديثة — إجبارياً ، فازدهر معهد الإسكندرية بهذه العلوم ، إلى جانب علوم الدين واللغة ، أيما ازدهار » .(١)

لقد كان الشيخ شاكر إذن من شيوخ التجديد في العالم الإسلامي ، وهي حقيقة ما كانت لتغيب عن منصف . ولا أدري كيف غابت عن الدكتور المستشرق تشرلس آدمز ، وهو يؤرخ للاسلام المجدد في كتابه «الإسلام والتجديد في مصر » .(٢)

استن الشيخ شاكر في معهد الإسكندرية سنَّة التقرير السنوي عن أعمال المشيخة كل عام ، يرفعه إلى ولي الأمر أولا ، وإلى من يهمهم أمر التعليم الديني ثانياً . وقد كان يُعد هذه التقارير بنفسه ويكتبها بقلمه ، ففيها روحه وأسلوبه ، وفيها دقته وترتيبه ، المقدمة وجداول الإحصاء المنظمة ، تارةً بحسب المذاهب ، وتارة بحسب أقاليم الطلاب ، وفيها جداول الامتحان وعدد المتقدمين له والناجحين فيه ، وفيها خطبه التي اعتاد كل عام أن يلقيها في حفل توزيع المكافآت على الناجحين ، وفيها خطة للدراسة ، تدل على فهم سليم لسياسة التعليم .

وما كانت تفوت الشيخ وهو في مشيخة الإسكندرية فطنته وتنبهه إلى كل ما يمس دينه . ولم ير في الوظيفة ثمناً للسكوت عما يقال ، أو سبباً للاغضاء عما يذاع . ولم ير في المنصب خيراً إذا كان لجاماً للحق ، وعقالا لكلمة الصدق . فقد تعرَّض اللورد كرومر مرة للاسلام . فرأى الشيخ رحمه الله أن يختار للرد عليه يوم الاحتفال بنهاية العام ، وهو يوم كان له فى الإسكندرية خطره وقدره ؛ حيث يجتمع نائب الخديو والوزراء والعظماء والعلماء والطلاب . ووقف الشيخ في ٣١ أغسطس سنة ١٩٠٧ يلقي خطبة الاحتفال ، فلما فرغ مما يقال في مثل هذا المقام ، اتجه إلى العلماء قائلا : « إن هذا الدين القويم الذي استضاء بنوره أبناء الإنسان منذ أربعة عشر قرناً ، لا تزال مزاياه الفاضلة محجوبة عن أعين كثير من الناس ، حتى من الذين اقتضت الإرادة الإلهية أن يمتزجوا بأهله . إن احتجاب هذه الفضائل الإسلامية عن العيون ، وإعراض الكثير من المسلمين عن التمسك بها ، وتقاعد العلماء عن التنويه بشأنها والحث عليها ، سوَّغ لرجال نظروا إلى أحوال الأمم الإسلامية الحاضرة ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن حقيقة فضائل الإسلام وآدابه — أن ينسبوا إلى الإسلام عيوب هذا العصر ،

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٦٧٢ ص ٥٤٤ .

(٢) مطبعة الاعتماد سنة ١٩٣٥

وأن يعلنوا في مشارق الأرض ومغاربها " أن التعاليم الإسلامية هي التي وقفت تقدم البلدان التي دان أهلها بدين الإسلام " » (١) .

واستمر الشيخ يعرض أقوال المهاجمين ، ويرد عليها قولاً قولا ، حتى شفى أنفس المسلمين مما تجد من ذلك التعرض المهين .

واستن الشيخ في الاسكندرية سنة لتوزيع الجوائز العلمية على الطلاب الناجحين جميعاً ، وكان يوزعها عليهم نائب الخديو أو رئيس مجلس النظار تشجيعاً لهم. وكانت الجوائز كتباً ، حتى تكون بطالب العلم أليق ، وله أجدى وأنفع . وروعي في انتقائها وجه المنفعة لهم في دينهم ولغتهم ، وتاريخهم وأدبهم ، كديوان الحماسة ، ومقدمة ابن خلدون ، ونهج البلاغة ، وتاريخ أبي الفداء ، والمثل السائر ، وفقه اللغة ، وديوان المتنبي . وهي كما ترى من أمهات الكتب .

وكانت صلات الشيخ مع كرام الرجال المفكرين تعطفهم على الطلاب بهدايا الكتب . فقد أهدى محمد بك طلعت حرب « باشا فيما بعد » مائة نسخة من كتابه « تاريخ دول العرب والإسلام » ، كما أهدى محمود بك أبو النصر المحامي تسعين نسخة من كتاب « إرشاد القاصد لابن ساعد الأنصاري » .

ولقد كان لطبيعة النظام والتنظيم في عقلية الشيخ شاكر أثرها في النهوض بمعهد الإسكندرية في وقت قصير . فألف طلاب الإسكندرية النظام وتعودوه ؛ وتعود شيوخ المعهد ضبط المواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس (٢) وتنظيم ساعات العمل والتقيد بمنهج مرسوم وبرنامج محتوم . واختار الشيخ أربعة من علماء الأزهر ليكونوا عوناً له في الاسكندرية . وهم : الشيخ عبد الله دراز ، والشيخ عبد المجيد الشاذلي ، والشيخ عبد الهادي مخلوف ، رحمهم الله ، والشيخ إبرهيم الجبالي شيخ كلية اللغة العربية إلى عهد غير بعيد ، مد الله فى حياته .

وظل الشيخ في المشيخة ، كما كان في القضاء ، محتفظاً بكرامته ، معتداً بشخصيته ، واثقاً بنفسه ، في غير تنطع ولا كبرياء . وكان يشيع ذلك في طلابه وفي العلماء . حتى لقد كان « طالب العلم » في الإسكندرية يعتز بهذا الانتماء .

ومما يروى عنه في هذا الباب أن أحد مدرسي المعهد دعي من أحد أقسام المدينة ليؤدي شهادة ، ولم يصل « الاستدعاء » إلى المدرس عن طريق المشيخة ، ولكنه وصل

---

(١) التقرير الرابع عن أعمال مشيخة علماء الإسكندرية . مطبعة الملاجئ العباسية صفحة ٢٠

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٤٧١

عن طريق مأمور القسم . فغضب الشيخ وصمم أن لا يذهب المدرس حتى يصحح الوضع . وجرت بعد ذلك الأمور على ما أراده الشيخ الكبير .

وأراد أحد وجهاء الإسكندرية وأبو وجوهها اليوم أن يدفع زكاة ماله لفقراء المعهد الإسكندري . فثار الشيخ على الوجيه ثورة علمته كيف تكون الكرامة والإباء في نفوس العلماء .

انتقل الشيخ بعد ذلك وكيلا للجامع الأزهر في ٩ ربيع الثاني سنة ١٣٢٧ (٢٩ أبريل سنة ١٩٠٩) وفي عهد وكالته صدر قانون النظام في الأزهر سنة ١٩١١ . وبمقتضاه قسمت الدراسة إلى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة . وعهد إلى الشيخ شاكر بتطبيق القانون الجديد . فأنشىء القسم الأولي ، وعين شيخاً له مع بقائه وكيلا للجامع الأزهر . وظل في الوكالة كما كان في مشيخة الإسكندرية شعلة لا تخمد ، وحركة لا تسكن . وقام برحلة إلى الصعيد يزور فيها مدنه وكثيراً من قراه ، ليقف على أحوال الدراسات الدينية في مساجده ، تمهيداً لإنشاء معاهد علمية فيه .

وفي وكالة الأزهر تنتهي حياة الشيخ شاكر الحكومية ، ليصبح عضواً معيناً في الجمعية التشريعية التي أنشئت سنة ١٩١٣ ، وهي عضوية لا يجمع بينها وبين العمل الحكومي . ومن هنا يبدأ نضال الشيخ العنيف في الدفاع عن الإسلام . وكان يهدف في دفاعه إلى أن يكون المسلمون أمة واحدة ، وعصبة متحدة ، نأياً بهم عن مذهب القوميات الذي رآه رحمه الله بدعة لتفريق الكلمة وتقطيع الأوصال ؛ وهي امتداد لفكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها السيد جمال الدين الأفغاني في القرن التاسع عشر .

وقد أعدته هذه العضوية ليكون سياسياً من الطراز الأول . فلما جاءت ثورة سنة ١٩١٩ ، وكان ما كان من حوادث الإضراب والاعتقال والنفي والمفاوضات والمحادثات والانشقاق والأحزاب ، رأينا الشيخ يجول في ميدن السياسة ويصول . حتى فسحت له جريدة المقطم صدرها ، وخصت مقالاته بالمقام الأول من عنايتها . فإذا مالت دواعي الهوى . واختلط القائم بالقاعد ، والصحيح بالفاسد ، رأيت الشيخ واقفاً للأحداث بمرصد ، وللرجال بمشهد ، ينتقد آراءهم ، ويزن أعمالهم ، وينصف مصيبهم ، ويرد مخطئهم ، لا يجامل في ذلك أحداً ، ولا يحابي عظيماً ، ولا يخشى سلطاناً . ولكن الرجال عنده أمام الحق سواء .

وتمتاز مقالات الشيخ السياسية بالصدق فيها ، والإخلاص في بواعثها ، كما تمتاز بقوة جدلية لم تتح لكثير من السياسيين في عهده . ومن عجب أن شيخاً أزهرياً لم

يدرس القانون ولم يتعلم الدساتير ، ولم يعرف لغة أجنبية ، كان يجيد المناقشات الدستورية والمجادلات القانونية كأعلم العلماء بالقوانين ، ولقد أعانه على ذلك نظرة فقهية عميقة ، وذكاء في الرأي ، وحسن في العرض ، وقوة في البيان .

ولو أن مؤرخاً أدبياً همّ أن يؤرخ للأساليب العربية في القرن العشرين ، ما أغفل من حسابه أسلوب الشيخ محمد شاكر من الكاتبين . فقد كان عنده من وسائل البسط والشرح للقضية التي يعرضها ما يجعلها سريعة إلى الفهم لاصقة بالقلب . حتى لقد كان المسلمون في كل قطر عربي يتلقفون مقالاته بشوق عظيم . ومما قاله في ذلك حاج حسين الحاج علاوي ببغداد « فحينما يصل المقطم في البريد نفتح أعداده بلهفة شديدة ، ونتصفح مقالاته ، لعلنا نجد مقالة لحضرة الشيخ مذيلة بإمضائه ، فإذا وجدنا ذلك عددنا ذلك اليوم من أسعد أيامنا »(١) .

ولقد كسبت السياسة الشيخ محمد شاكر وما كان هو منها كاسباً ، ولا فيها طامعاً ولو شاء أن يجعلها تجارة تغل ، لا واجباً وطنياً يؤدى ، لخرج منها بالربح العظيم . ولكنه كان زاهداً في الغنى مع اجتماع أسبابه له . ولقد بلغ من زهده فيما يطمع فيه الرؤساء أنه كان يضع بنفسه ميزانية مشيخة الأزهر ، وكان يضع أمام اسم كل عالم من العلماء والموظفين ما يستحقه صاحبه من العلاوات وغيرها ، إلا اسمه هو ، فكان يكتب أمامه « لا يستحق شيئاً » .

وليست هذه تقية الخائف من قلم « المراجعة » أو « ديوان المحاسبة » ، لو كان في ذلك الزمان مثل هذا الديوان ... ولكنها تقية المؤمن في الأمانة يحملها . فقد كان مكلفاً أن يضع لصرف الميزانية قاعدة منظمة حسبما يراه مفيداً للعلم والتعلم .

لقد شغلت السياسة والمقالة الشيخ محمد شاكر عن التأليف . ولو تفرغ له وعكف عليه لكان له في ذلك الميدان شأن أي شأن .

وعجيب جداً أن هذه الشخصية الأزهرية الكبيرة تتمخض عن ثلاثة كتب صغيرة ، هي : الإيضاح في المنطق(٢) ، والدروس الأولية في العقائد الدينية(٣) ، والقول الفصل في ترجمة القرآن الكريم(٤) . ولكن الشيخ نفسه — طيب الله ذكراه — كان كتاباً حاوياً لفنون من الإبداع ، وحديثاً حسناً لكل واع .

محمد عبد الغني حسن

---

(١) جريدة المقطم ١٢ يناير سنة ١٩٢٣ .

(٢) مطبعة النهضة . القاهرة سنة ١٩٢٦ . الطبعة الأولى .

(٣) المطبعة المصرية بالإسكندرية سنة ١٩٠٨ . (٤) مطبعة النهضة . القاهرة سنة ١٩٢٥ .

من محيط الغرب

صوت ديكرت

لمرور ٣٥٠ سنة على ميلاده

للدكتور عثمان أمين

للفيلسوف الفرنسي ديكرت آثار بعيدة المدى في التاريخ . كانت آراؤه بمثابة ثورة فكرية هائلة ، بل كانت على التحقيق أكبر ثورة فلسفية عرفها الناس منذ أيام الفيلسوف اليوناني سقراط حتى عهد الفيلسوف الألماني « كنت » .

امتد نفوذ « ديكرت » في أواخر القرن السابع عشر ، إلى المفكرين في جميع الأقطار الأوربية ، حتى أصبح الفيلسوف الفرنسي إماما للعصر الجديد كله . فما من مثقف أوربي إلا وقد تأثر به راضياً أو كارها ، أو تلقى منه على الأقل حافزاً قوياً على التأمل والتفكير .

احتل ديكرت مركز المسرح العقلي في إنجلترا ، وإن كان أثره يرجع إلى الظروف العرضية وإلى المعارك النقدية أكثر مما يرجع إلى جهود التلاميذ والأنصار . وقد اعترف الفيلسوف الإنجليزي « لوك » بما لديكرت من فضل عظيم على الفلسفة فقال : « بعد أن عكف الناس على تعلم الفلسفة وتعليمها طبقاً لمختلف المبادىء طوال هذه المئات من السنين ، نهض في ركن من أركان العالم شخص غيَّر وجه الأمور ، وشرع يبين أن جميع من سبقوه لم يفهموا من مبادىء الطبيعة شيئاً . ولم يكن ذلك إدعاءً ولا غروراً ، بل يلزمنا أن نقرّ بأن هذا الفيلسوف الجديد قد منحنا ، للنظر في الأشياء الطبيعية ، نوراً أكثر مما منحنا الفلاسفة الآخرون عن بكرة أبيهم » .

تغلغل نفوذ ديكرت في إنجلترا تغلغلا عميقاً جعل بعض الباحثين الإنجليز يشبه الفكر الديكرتي « بمطعم » عقلي يجد فيه المفكرون الإنجليز من « الأطباق » الممتازة و « الصحاف » المختارة ما يشتهون .

وتقبل الإنجليز الفلسفة الديكرتية ، لأنهم وجدوا فيها محاولة للدفاع عن الحقائق الدينية الجوهرية من جهة ، وتمثيلا طيباً للعلم الرياضي الجديد من جهة أخرى . وقد كان للمذهب العقلي الديكرتي ومبدأ « الأفكار الواضحة المتميزة » أكبر الأثر في الحياة الفكرية الإنجليزية . قدم ذلك المذهب للناس تأويلا جديداً للعلم ويقيناً ثابتاً للدين . وامتزج المذهب بالنزعة التجريبية الإنجليزية ، فأحدث شيئاً من الالتباس في المنهج العلمي ، وأدى إلى إثارة المجادلات عن طبيعة المعرفة الإنسانية ، وأثر فى تطور النظرية عن الزمان والمكان التي نجدها عند « بَرو » و « نيوتن » .

واعتمد اللاهوتيون من الإنجليز على المذهب العقلي الديكرتي للوصول إلى اليقين في الدين . واستخدم بعضهم الدليل الديكرتي المعروف باسم « الدليل الأنطولوجي » لإثبات وجود الله . واستند « كنلم دجي » إلى ديكرت لإثبات روحانية النفس وأنها لا جسمانية . وانتفع الكثيرون بالعلم الديكرتي في نصرة الدين ، وانتهوا إلى بسط تأويلات جديدة عن الله والوحي .

وجملة القول أنه لولا ديكرت لتغير اتجاه الفكر الإنجليزي في نظرية المعرفة والعلم والدين ، ولأعوزه الكثير من الحيوية التي عرفها في ذلك العصر المتغير . ومع أن الكثير من نظريات ديكرت الخاصة لم تحظ في إنجلترا بالاستحسان إلا أن الفكر الديكرتي في إنجلترا استطاع أن يحرر العقول من جمود التقاليد ، وكان اسم ديكرت موضع التقدير في جميع أوساط التجديد . وظل أثر الفيلسوف في الفكر الإنجليزي إلى اليوم أثراً قوياً لا سبيل إلى دفعه أو إنكاره . وحسبنا هنا أن نذكر شهادة عالم إنجليزى كتبها إلى ديكرت نفسه في رسالة باللغة اللاتينية (في ١١ ديسمبر سنة ١٦٤٨) وفيها حماسة وإعجاب ظاهر بديكرت وآرائه . قال « موروس » موجهاً الخطاب إلى ديكرت : « سأعلن لك رأيي ببساطة : إن جميع من سبقوك من كبار الفلاسفة أو من الواقفين على أسرار الطبيعة هم اليوم إلى جانبك أقزام . ويعزّ عليّ أن أكتم عنك هذه الشهادة ، بل إني مصرّح لك بما وجدتُ في قراءة كتبك من لذة وما جنيت من ثمرة شهية . لكي تعلم أن في الإنجليز قوماً يجلون شخصك ، ويقدرون آثارك حق قدرها ، وتخفق قلوبهم إعجاباً بسجاياك الإلهية » .

***

ولما أرادت ألمانيا أن تتحرر من ربقة « الفلسفة المدرسية » (الإسقولائية) أقبلت على ديكرت واتخذت مذهبه مذهباً لها . والحق أن ديكرت ترك أبلغ الآثار في

مختلف المفكرين الألمان في القرن السابع عشر ولا سيما « ليبنتز » الذي تلقى من وحي الفيلسوف الفرنسي خطرات وآراء كثيرة تجلت في نظريته في المعرفة وفي نظريته في الجوهر الفرد (مونا دولوجيا) . ولئن كان « ليبنتز » نفسه قد بذل جهداً كبيراً لتفنيد بعض النظريات الديكرتيه الخاصة إن هذه المعارضة نفسها واضحة الدلالة على مابلغه الفكر الديكرتي من عمق وما تركه من آثار .

وفي القرن الثامن عشر ، أي قبل عهد « كنت » أدى اتجاه ديكرت العقلي (الراسيونالزم) الذي تابعه « فولف » وغيره إلى التأثير في مجرى الفلسفة الألمانية وتحديد مشكلاتها .

وجاءت المثالية الألمانية التي أبدعها « كنت » وكذا المثالية « الكنتية الجديدة » (عند فشته وشوبنهور) موافقتين لبداية المثالية الديكرتية وإن كانتا قد اختلفتا عنها في النتائج الواقعية التي انتهت إليها .

ويبدو مفكرو الألمان اليوم ميالين إلى قبول نظرية ديكرت في المعرفة ، وهم يجلون الفيلسوف الفرنسي ويرون فيه مثال المفكر الصحيح العميق . ومن أشهر من تأثروا في العصر الحديث بفلسفة ديكرت الفيلسوف الألماني « إدموند هوسّرل » وهو نفسه يعترف في مستهل كتابه « تأملات ديكرتية » بأثر ديكرت عليه ، إذ يقول : « سنحاول أن نتأمل على غرار ديكرت ؛ وغني عن البيان أننا سنحرص على توخي الحكمة في نقدنا ، وسنكون دائماً مستعدين لأن نحوّر في المذهب الديكرتي القديم حيثما اقتضانا الأمر ذلك » . ثم يقول « هوسّرل » بصدد مذهبه في « تأمل الظاهرات » (فينومينولوجيا) : « ربما صح أن نسميه ديكرتية جديدة ، وإن كنا قد اضطررنا إلى أن نطرح على التقريب كل ما للديكرتية من فحوى معروف . وذلك لأننا بسطنا بعض المسائل الديكرتية بسطا قائماً بذاته » .

* * *

أما في هولندا فقد لقيت فلسفة ديكررت نجاحاً سريعاً . ففي حياة الفيلسوف قام أحد تلاميذه ، واسمه « رنري » بتعليم تلك الفلسفة في جامعة « أوترخت » . وما انقضى نصف قرن من الزمان على وفاة ديكرت حتى كان مذهبه يعلم رسمياً في المدارس والمعاهد الهولندية ، وأصبح تلاميذه الكثيرون يشغلون الكراسي في الجامعات ويلقون المحاضرات ويؤلفون المؤلفات ، ولهم صوت مسموع ونفوذ واسع في مختلف الأوساط والبيئات . ولعل أحداً في هولندا لم يتغلغل إلى صميم الفكر الديكرتي كما فعل « سبينوزا » الذي

بلغ من إعجابه بديكرت أن بدأ تعليمه ببسط المذهب الديكرتي بسطاً قائماً بذاته .

وانتقل المذهب الديكرتي من مدارس هولندا إلى مدارس هنجاريا ، نقله الطلاب الهنجاريون بعد رجوعهم من جامعات « ليدن » و « لاهاي » و « أمستردام » و « أوترخت » .

ولما أراد « فيكو » الإيطالي أن يهدم الفلسفات القائمة ، وأن ينشىء لإيطاليا فلسفة قومية لم يفكر في مهاجمة أرسطو ، لأن أرسطو كان منسياً في ذلك الحين ، وإنما وجد في ديكرت خصما يعتد به ، لأن ديكرت كان حينئذ « سلطان زمانه » أو « ملكا على عرش الفلسفة » كما قال بعض الباحثين .

***

فلسفة ديكرت هي فلسفة « الأفكار الواضحة المتميزة » ، كما كانوا يسمونها في القرن السابع عشر . أرادت تلك الفلسفة أن تخلص الفكر من نير السلطات ، فلم تقبل دليلا على الحق إلا البداهة ، بداهة العقل الذي هو عند ديكرت « أعدل الأشياء قسمة بين الناس » ، وحظوظهم فيه أقرب إلى المساواة، فلا فرق بين شعب وشعب ولا تفاضل بين جنس وجنس .

وقد كان لديكرت أكبر الفضل في بناء صرح المذهب العقلي الحديث حين قال في كتابه المشهور « المقال في المنهج » : « يجب أن لا أقبل شيئاً أبداً على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة العقلية أنه كذلك . . وأن لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثله ذهني بوضوح وتميز ينتفي معهما كل سبيل إلى الشك » .

و « الثورة الديكرتية » تتلخص في قاعدة البداهة هذه : لأنها إنما تدعو إلى اطراح كل سلطة تحاول أن تفرض نفسها على التفكير ، سواء كانت سلطة فلسفية أو دينية أو سياسية ؛ ولا تقبل إلا حكم العقل الذي لا يرى للحقيقة مقياساً إلا البداهة والوضوح والجلاء . وكثيرون من مؤرخي ديكرت رأوا في فلسفته هذا الطابع العقلي الصريح الذي يجعل من ديكرت كما قال البعض : « أباً للثورة الفرنسية ، وفيلسوفاً انتصرت بفلسفته قضية البحث الحر وتأيد بها سلطان العقل » .

وإذن فتلك القاعدة الذهبية التي صاغها ديكرت في أوربا في النصف الأول من القرن السابع عشر ، تدعو الناس في كل زمان ومكان إلى أن يمارسوا حرية البحث واستقلال الفكر ، واصطناع النقد لجميع معتقداتهم ومألوفاتهم ، لكيلا يستبقوا منها إلا ما يتبين لهم ببداهة العقل حقاً .

ومن جعل هذا القول شعاراً له ولو لم يستطع تطبيقه بنفسه ، فكأنه قد وضع تحت جميع الآراء وجميع النظم وجميع التقاليد ، قنابل بطيئة الانفجار ! والواقع أن تاريخ المذهب العقلي الفلسفي الذي أنشأه ديكرت ينطوي على سلسلة من الانفجارات التي تجاوبت أصداؤها في مجالات العلم والدين والسياسة والقانون .

فبفضل الاتجاه العقلي الديكرتي استطاعت علوم كثيرة ، مثل الفلك والطبيعة والبيولوجيا ، أن تحقق معظم ما كسبت من انتصارات . لأنه إذا كان الوحي وسلطة الكنيسة قد أخذا يتقهقران في هذا المجال كلما التقيا بالبرهان ، فذلك لأن سلطان البداهة في الأمور العلمية قد زاد استتبابا ، ولأن أشد الناس استمساكا بالعقيدة لم يعودوا يجسرون على أن يكذبوا ما يرون بوضوح وتميز أنه حق .

وقد كان من آثار ذلك الاتجاه العقلي الديكرتي ظهور قوة « أحرار الفكر » في فرنسا في القرن السابع عشر ، وإذاعتهم « موضة » جديدة : هي عدم التصديق بالوحي وعدم الاكتراث للأديان ، تلك « الموضة » التي وصفها « بوسويه » بأنها « وباء العصر » والتي أشارت إليها « دوقة أورليان » حين قالت : « لم نعد نجد واحداً من شباب العصر إلا يريد أن يكون من الكفار ! »

وبفضل ذلك الاتجاه أيضاً كان للديكرتيين موقف مشهور في المعركة بين « القديم » و « الجديد » أو بين أنصار المحافظة وأنصار الترقي والتجديد . ولقد بين « جورج سوريل » أن نظرة التفاؤل والاعتقاد بتقدم الإنسانية ترجع إلى أصول ديكرتية .

وتجلت روح ديكرت أول الأمر في صورة سلبية : فكانت تمثل ، في العلوم القانونية والسياسية ، ذلك الميل إلى نقد الأنظمة والشرائع ، ثم تجلت بعد ذلك في صورة إيجابية ، فكانت ميلا إلى استخلاص كل معرفة تشريعية من الفكرة الفطرية ، فكرة الحق والعدالة ، وظهر أثرها جلياً في مدرسة « الحق الطبيعي » . ولقد وجد الناس في دفاع ديكرت عن حرية الفرد ودفاعه عن سلطان العقل عوناً كبيراً على التقاليد التي جرت على امتهان حقوق الفرد وتمييز الأقليات أو الطبقات .

وكان من آثار الروح الديكرتية أن انطلقت العقول من عقالها ، وأرادت أن تخضع للفحص والنقد كل شيء ، وطالبت بتوخي البداهة حتى في الأمور التي لم تكن تتطاول إليها العقول ، واستعملها أهل الجرأة من المفكرين سلاحاً لتقويض أسس الاعتقاد والإيمان . ودارت الأيام وإذا الروح الديكرتية تبلغ من القوة والنفاذ أبعد الآماد حتى أضحت كما تنبأ « بوسويه » وكما قال « كراكيولي » : « أخطر أعداء المسيحية » !

وقد يكون من الإسراف أن نذهب مع بعض الباحثين إلى أن وثيقة « إعلان حقوق الإنسان » متأثرة بروح ديكرت . ولكن مما لا شك فيه أنه بعد أن هدأت العاصفة الثورية في فرنسا ، جاءت « مجموعة قوانين نابليون » Code Napoléon مؤيدة لانتصار حرية الفرد ، تلك الحرية التي اعترف بها المذهب العقلي الديكرتي . ومهما يكن الحكم على علم الحقوق المدنية ، فأكبر الظن أن منهج ذلك العلم وكثيراً من مبادئه هي منهج ومبادىء مدرسة الحق الفردي ومدرسة العقليين في التشريع . وعلى الرغم من عيوب هذه المدرسة التي ينسبها الكثيرون إلى ديكرت ، فإن لها مزية لا يستهان بها ، وقد بينها أحد الباحثين إذ قال : « لقد أصبحنا بفضلها جد حريصين على الحرية الفردية بحيث أنه مهما يأتينا المستقبل بألوان من المذاهب السياسية أو الاجتماعية ، فسيكون هنالك دائماً حد أدنى من الحرية نعده أمراً لا سبيل إلى المساس به ، ونراه لازماً لوظيفة الفرد في هذه الدنيا . وسيكون هنالك قسط من العدالة الفردية يرى العقل والضمير الجمعي أنه لا ينبغي تضحيته لمصلحة المجتمع مهما يكن من سمو هذه المصلحة » .

إذا بلغ مذهب من المذاهب هذا المدى البعيد من الذيوع بحيث أصبح معروفاً حياً ، حتى في نفوس من لم يكونوا على اتصال مباشر بالكتب التي بسط فيها ، فبديهي أنه لا بد أن يتخلى في الطريق عن كثير من تعقده وثرائه ، فلا يبقى من جوهره إلا الأجزاء التي يتيسر اندماجها في التراث الإنساني . فما الذي بقي من صميم المذهب الديكرتي؟ بقي منه روحه ومنهجه اللذان كانا كسباً للفكر حاسماً ، وبقيت قواعده لهداية الذهن ، تلك القواعد البسيطة المتبينة التي وإن كانت لا تطمع في أن تضيء الحقيقة كلها ، فهي على الأقل تعين على دفع بعض الشبهات وكشف بعض الظلمات .

إن الثقة بالعقل معتبراً آلة للمعرفة اليقينية ، و « الحركة التي تسير من الباطن إلى الظاهر ، ومن الفكر إلى الوجود ، ومن الذات إلى الموضوع ، ومن إثبات الوجدان إلى إثبات الجوهر » ، تلك هي القيم الروحية الباقية من التراث الديكرتي . وبهذا المعنى يمكن أن نقول مع «جول سيمون» إنه مهما يكن من مصير الفلسفة الديكرتية كمذهب، فإن « روح الديكرتية خالدة لا تموت » .

عثمان أمين

قدح

لعلي بن العباس الرومي

وبديعٍ من البدائع يَسْبي ... كلَّ عقل ويطَّبي كل طَرْفِ
دقَّ في الحسنِ والملاحةِ حتى ... ما يوفّيه واصفٌ حقَّ وَصْفِ
كفَمِ الحِبِّ في الملاحة أو أشْـ ... فى وإن كان لا يُناغى بحرفِ
تنفُذِ العينُ فيه حتى تراها ... أخطأتْهُ من رقةِ المستَشَفِّ
كهواءٍ بلا هَباءٍ مَشُوبٍ ... بضياءٍ أرقِقْ بذاك وأصْفِ
وَسَطُ القَدْرِ لم يكَبَّرْ لجرْعٍ ... متوالٍ ولم يصغَّر لرشْفِ
لا عجولٌ على العقولِ جهولٌ ... بل حليمٌ عنهنَّ في غير ضَعْفِ
ما رأى الناظرون قدًّا وشكلا ... فارساً مثله على بطن كفِّ
فيه لَوْزٌ معقربٌ عَطَفَتْهُ ... حكماءُ الغيوب أحسنَ عَطْفِ
مثل عطفِ الأصداغِ في وجناتٍ ... من غزالٍ يُزْهَى بحسنٍ وظَرْفِ

الحقيقة السافرة

للأستاذ محمد بهجة الأثري ببغداد

طلعت عليكَ ببِشرِها وسرورها ... ورنتْ إليكَ بسحرِها وفتُورِها

ومشت تُدِلُّ بحسنها ، ولعلَّها ... معذورةٌ في دَلِّها وغرورِها

زهراء قد بَرَزَتْ لعينك آيةً ... أخفتْ شموسَ الحسنِ عندَ ظهورِها

فِعْلَ الغزالة بالنجوم إذا بدت ... في الأفْقِ ترفُلُ في مَواكبِ نُورِها

✡ ✡ ✡

تلك المَفاتنُ في الطبيعة ، كلُّها ... عَجَبٌ ، وأعجبُها جمالُ بدورِها

من كل فاتنةٍ إذا عاينْتَها ... عاينْتَ في الجنّات طلعةَ حُورِها

بيضاءَ تحلُمُ بالنّعيم غَريرةٍ ... تهتزُّ من حُلَلِ الصِّبا بنَضيرِها

رقّتْ عن الطَّبْع الرقيق لَطَافةً ... حتّى حكَتْ نفَسَ الصَّبا بمسيرِها

وكأنَّ غُنَّتها إذا ما حدَّثَتْ ... ترجيعُ شاديةٍ على « صِنْطِيرِها »

وكأنَّ رُوحَ جليسِها مخطومةٌ ... بلسانها النفّاثِ سحرَ نثيرِها

تتقَتَّلُ الصَّبَواتُ في ألفاظِها ... وتُوقَّدُ الشَّهَواتُ تحتَ زَفيرِها

ولرُبَّما سَئِمَ المُحِبُّونَ الهوى ... لِلْأسْرِ غيرَ مُحِبِّها وأسيرِها

✡ ✡ ✡

كَمْ لي معَ الأيّام من مُتَعَتَّبٍ ... لمّا فجَعْنَ علائقي بنظيرِها

ومليحةٍ حجبَ القِناعُ جمالها ... غازَلْتُ منها البدرَ عندَ سُفُورِها

لمّا رأت نَظري إليها عارماً … يَستَنُّ بينَ حسيرِها وسَتيرِها ،
نفرتْ ، وأسبلتِ القِناعَ كما اتّقتْ … أدْماءُ نافذةَ القَنا بنفُورِها
تاللهِ ما أدري وقد جُنَّ النُّهى … بنُفورِها قد جُنَّ أم بسُفورِها ؟
غَلَبَ القُوى هذا الجمالُ فقادَها … قَوْدَ المَذاكي خُنَّعاً بجَريرِها
أنحَى على حرَمِ العقولِ فحازَها … وعلى القلوبِ فرُحْنَ طَوْعَ أميرِها

٭ ٭ ٭

أنا تِبْعُ سافرةِ الحقائق في الورَى … قلبي وفكري غارقانِ بنُورِها
أسلمتُ وجهي لِلذي جعَلَ البها … في وجهِها عُنْوانَ حُسْنِ ضَميرِها
لِدَةُ الدُّهُورِ ، وما تزالُ فتيَّةً … تزهو على آمادِها وكُرُورِها
كالأُقْحُوانةِ طَلَّ وَجْنَتَها النّدى … فزَهَتْ على ضاحي الغُصُونِ طَريرِها
كَرِميَّةُ الآسالِ رَوَّقَتِ النُّهى … وسَرائرُ الأجيالِ حلْبَ عَصيرِها
حَظُّ النّبيّينَ الهُداةِ رَحيقُها … ورَغيبَةُ الأحرارِ كأسُ مُديرِها
طلبوا الشهادةَ في هواها وانتَحَوْا … بالنّفسِ بيضَ الهِنْدِ دونَ خُدورِها
يستعذبونَ مَذاقها ، فكأنّه … عَسلُ الجِنانِ مُطيَّباً بعَبيرِها

٭ ٭ ٭

شرُّ الأنامِ مُحَلِّئُونَ بجهدِهم … صادِينَ وجداً عن وُرُودِ نَميرِها
يجدُ ابنُ جاهلةٍ سعادةَ نفسِهِ … أنْ يُشقيَ الأحرارَ سُوءُ مَصيرِها
وإذا تصاولتِ الضّلالةُ والهُدَى … مَنَحَ الضّلالةَ حدَّ سيفِ نَصيرِها
إنّ السرائرَ إنْ مَرِضْنَ تكشّفتْ … عن كلّ مقبوحِ الفِعالِ حقيرِها

وإذا النّفوسُ ألِفْنَ داعيةَ الخنى   يَصْدِفْنَ عن كَرَمِ الطِّباعِ وخيرِها

* * *

عظَّمْتُ بعدَ اللهِ كلَّ حقيقةٍ   زهراءَ لم تُحْجَبْ وراءَ سُتورِها

أَرَبي من الدُّنيا بلوغُ رِحابِها   ومَنالُ سُدَّتِها ولَمْسُ سريرِها

آليْتُ ألقاها بِحُرِّ صحيفتي   وأَرُودُها في عُرْيِها وسُفورِها

محمد بهجة الاثرى

آهة طفلة

للأستاذ محمود غنيم

أُصيبتْ ولم تدرِ كيف تُبينْ ؟   إذا سُئلتْ فالجوابُ الأنينْ

وحين يُلحّ عليها السّعالُ   تشير إلى صدرِها باليمين

تُسامُ الدواءَ فتُطبِق فاها   – على ضعفها – فهْوَ حصنٌ حصين

وتنفذ آهاتها في الفؤادِ   فتفعلُ فعلَ المُدى بالوتين

تكاد الحرارةُ تَصهر قلبي   إذا ناهزتْ عندها أربعين

* * *

نجا من سهام الكعابِ فؤادي   وأصمتْه بنتُ ثلاثِ سنين

وأقسمُ لو أصبحتْ مثل « جنْدَرْ   كَ » تحمي بعزمِ اللباةِ العرين

وبذّتْ سُكَيْنةَ بنتَ الحسينِ   وعائشةً في بيانٍ ودِين

لما كان هذا كفاءَ الذي   أعانيه من سقمها كلَّ حين

* * *

محيًا كساهُ الشحوبُ جمالاً   وبعض الشحوب جمالٌ يَزين
فما أذبلَ الداء وردَ الخدودِ   ولا أطفأ السُّقْمُ نورَ الجبين
سوى أن ذاك جمالٌ طروبٌ   وهذا الجمال جمالٌ حزين
أسائلها أين راحَ المراحُ   ومن أين هذا المحيَّا الرزين
وما زال صوتك ملءَ الفضاءِ   وفي أذُنِ الجارِ منه رنين ؟

* * *

لئن صدّت اليوم عني فكم قا   بلتْني مقابلةَ الفاتحين
وكم هللَتْ إذ رأتني وكانتْ   لبشرى قدومي الرسولَ الأمين
وما بالها اليومَ عني تُشيحُ   وفي مقلتيها عتابٌ كمين ؟
كأنّي بكفّي زمامَ الشفاءِ   ولكنني بالشّفاء ضنين
لها اللهُ هل حسبتْ أنني   بكل الذي تشتهيه ضمين
بنيَّةُ ليس رداء الشفاءِ   كهذا الرداء الذي تلبسين
ولا هو للجيد عقدٌ فريدٌ   ولا هو للأُذْن قرطٌ ثمين
ولا هو في السوق حلوى تُباعُ   ولا دُميةٌ تُشترى بالمئين
ولكنه مِن شئونِ السماءِ   وربٍّ السماء . فهل تعذرين ؟

* * *

بنيّةُ رفقاً بقلب أبيكِ   فما أنا كالناس ماء وطين
يسيل مع الماء قلبي حناناً   ويُلهِم عودَ المغني الحنين
تخدِّدهُ عبراتُ الرضيعِ   ويحنو على الطفل وهْو جنين

يكاد يذوب لشكوى الغريبِ ... فكيف به عند شكوى البنين ؟

✡ ✡ ✡

لقد حاربتْ شخصيَ الحادثاتُ ... فصادفن ذا مِرّةٍ لا يلين

وحاربْنني في بنينَ صغارٍ ... فأدركن منيَ ما يشتهين

عصافيرُ زُغْبٌ توزَّعن ريشي ... وخلَّفنني مثل طيرٍ سجين

حياتهمو شُغُلٌ شاغلٌ ... وفقدهمو لوعةٌ لا تبين

وما أرخصتْ قدرَهم كثرةٌ ... ولا هان غثٌّ وعزّ سمين

أفكّرُ في غدهمْ فأحسُّ ... بداءٍ يخامر صدري دفين

إذا أنا متُّ وخلّفتهُمْ ... فلن يرثوا غير شعرٍ رصين

بنيَّ مدينون لي بالشّقاءِ ... وإني لهم بالشّقاء مدين

محمود غنيم

الواقعة

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

بليلةِ عُرسي ، وقبْل السَّحَرْ ... على باب بيتيَ دقَّ القدَرْ

كذلك خَطبِيَ مِن هَوْلهِ ... وعزَّ على مثله المصطَبَر

لقد عشْتُ - يا ربّ - دهراً هنا ... كظيمَ الفؤاد ، خفيَّ الضجر

ضحوكاً ، وفي القلب تقطيبةٌ ... تفوق ظلامَ الدجى في الفكر

أُراعي - على وحشةٍ للأليفِ - حُسنَ الغواني ذوات الخفَر

فما حيّيت النفسُ أختاً لها وإن طالعتْ أوجهاً كالقمر

وكدْتُ أجاوز شرْخَ الصبا وتدركني وَهْنَـةٌ من كِبَر

فسُقْتُ إلى مهجتي أختَها كعهدك من حيث لا يُنتظر

فما لي وقد صار لي مؤنسٌ كغيْرِيَ مِن عُرْض هذا البشر

وأُشْعِر قلبي الهوى والرضا وغُصَّ خيالي بأحلى الصور

وبِتُّ على الشكر مستكفياً وحُقّ المزيدُ لعَبْـدٍ شَكَر

يُبادر سهمُ الردى زوجتي وتَهدم بيتي عوادي الغِير

كأنّ السنين الثلاثَ التي طوينا معاً ليلةٌ في القِصَر

فما أنا في لوعتي مُسْرفٌ ولا مُطنبٌ في مَساق الخبر

بليلةِ عُرسي ، وقَبْل السحَرْ على باب بيتيَ دَقَّ القدَر

عبد الرحمن صدقي



في كفة الميزان

ننشر في هـذا الباب نقد النقاد على علاته نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النَقـْـدُ

رسالة الغفران

كما يقرؤها المستشرق نيكلسون

للسيدة بنت الشاطىء

هذا موضوع يبدو للنظرة العابرة العجلى خاصاً محدوداً ، لكنه في الواقع يتجاوز « رسالة الغفران » إلى الأدب العربي بوجه عام ، كما يتجاوز « نيكلسون » إلى جمهرة المستشرقين الذين نعرف لهم أثرهم في نشر كثير من تراثنا القديم الثمين ، ونعترف لهم بالفضل في وضع « منهج » متقن للنشر العلمي الحديث ، وإن كان أكثرنا قد بهره منهم هذا الجهد الشاق في درس الأدب العربي ، وتلك العناية النادرة بنشر مخطوطاته ، فلم يعنه وراء ذلك أن يقف طويلا أمام النصوص التي ينشرونها ، ليسأل عن مدى فهمهم للأسلوب العربي ، ومقدار حظهم من التوفيق في قراءته وتوجيهه .

ولقد كنت من بين هؤلاء الذين فتنهم هـذا الجهد النادر ، وشغلهم الإعجاب بالمستشرقين عن تتبع دراساتهم بالنظرة الفاحصة ، والنقد الرشيد ، حتى فرض عليّ أخيراً أن أقرأ بعض آثارهم قراءة علمية محققة ، ترضى عنها الدراسة الجامعية العليا ، فروعني ما فيها من أخطاء غلاظ فى فهم الأسلوب العربي . وتشاء الصدفة أن يحدث هذا في الوقت الذي قرأت فيه كلمة «أحد مندوبي وزارة المعارف المصرية في مهرجان أبي العلاء» فإذا به يتخذ مرجعه الأول كتاب نيكلسون A Literary History of the Arabs — هنالك ذكرت في مرارة أن أكثر ما ألقي إلينا من أحكام في تاريخ الأدب ، والنقد

الأدبي — ونحن في صدر حياتنا الجامعية — كان يستمد من هذا الكتاب بعينه ، فرأيت أن أحمل « الكتاب » أمانة التنبيه إلى هذه الأخطاء ، فتلك — فيما نرى — هي المهمة الأولى التي نرجوه لها .

* * *

ولهذا الموضوع قصة :

كنت قد فرغت من تحقيق « نص الغفران » مقابلا على النسخ الخطية الأربع التي بين أيدينا(١) ، فلما بدأت أتهيأ لتقديم هذا النص المحقق إلى الجامعة ، كي أنال به درجة الدكتوراه في الآداب ، وقع لي وصف لمخطوطة من « رسالة الغفران » حازها « نيكلسون — المستشرق الإنجليزي المعروف » فعكفت على قراءتها ودرسها ، فإذا بي أضع يدي على أمور لها خطرها في كل نظرة لنا إلى أدبنا العربي متأثرة بآراء المستشرقين وتوجيهاتهم .

وأول ذكر لهذه الرسالة ، خطاب بعث به نيكلسون إلى محرر « مجلة الجمعية الأسيوية الملكية » ونشر في عدد يولية عام ١٨٩٩ — وقد أشار فيه إلى مخطوطات عربية وقعت إليه ، أهمها رسالة الغفران . وفي عام ١٩٠٠ نشرت المجلة وصفاً للمخطوطة ، تبعه في العام نفسه ترجمة موجزة للقسم الأول من الغفران ، وبعد عامين اثنين ، نشرت بقية الملخص ، مع نص عربي لبعض الرسالة ، روعي الأصل فيه ، فلم يتصرف فيه نيكلسون دون أن يدل على ذلك .

أما وصف المخطوطة ، فينص نيكلسون على أن في الصفحة الأولى منها — بجانب توقيع « J. Shakespeare — المستشرق المعروف » اسم مالك سابق وقعت الرسالة في حوزته ، وهو « يوسف ابن المرحرم زين الدين المصري الحلبي » وقد حاولت أن أمضي في تحقيق أصل هـذه المخطوطة ، لعلي أجد نسباً بينها وبين النسخ التي لدينا ، فبحثت طويلا عن هـذا الذي يسمى « يوسف ابن المرحوم زين الدين المصري الحلبي » الذي كانت المخطوطة في حوزته قبل أن تنتقل إلى أيدي المستشرقين ، ورجعت في ذلك إلى بعض الوراقين ، ورجال دور الكتب — في مصر وتركيا وسوريا — لكننا لم نهتد بعد إليه .

---

(١) النسخ المشار إليها هنا ، موجودة في دار الكتب ، وبيانها : نسخة الشنقيطي ورقمها ٢٩ش ، نسخة منقولة عن نسخة بالأستانة ورقمها ١٢٩٩١ ز — نسختان بالمكتبة التيمورية ورقماهما : ٢٨ و ٢٣٢ أدب تيمور . وهناك نسخة خامسة ، علمنا بوجودها بمكتبة سوهاج ، ولما نطلع عليها بعد .

وانصرفنا إلى مقابلة ما نشر من مخطوطة نيكلسون على النسخ التي عندنا ، فلاحت لي بارقة أمل، إذ بدا لي أنها قريبة من نسخة الشنقيطي، وقد تتبعت هذه اللمحة فوجدت مايؤيدها ، فهناك حواش انفرد بها الشنقيطي ووجدناها بنصها في نسخة نيكلسون ، وإلى جانب هـذه الحواشي اتفقت رواية النسختين في كثير من المواضع ، غير أنا لم نستطع المضي إلى أبعد من ذاك . فنسخة الشنقيطي خالية من أية إشارة إلى نسبها وأسماء مالكيها . ونسخة نيكلسون تنقطع سلسلة النسب فيها عند «يوسف ابن المرحوم زين الدين» ولما نهتد إليه .

* * *

أما نتيجة المقابلة والعراض ، فقد أثبتناها مفصلة على نسختنا . وفيما يلي ملاحظاتنا على خدمة نيكلسون للنص ، وفهمه إياه ، مع بيان الأخطاء الكبرى فيه :

وأول مانقرره هنا ، تلك الدقة المنهجية التي اتبعها في نشر المخطوطة وعرضها ؛ تبدو هذه الدقة في مظهرين :

أولهما : أنه وصف النسخة التي نقل عنها ، وذكر نسبها . ولدينا ست نسخ للغفران ، بين مطبوع ومخطوط ، لانجد نسخة سواها تلتزم هذا المنهج في النشر ، فتصف النسخة التي أخذت عنها ، وتحقق نسبها ، وتشير إلى التصرف الذي أباحه الناسخ أو الناشر لنفسه مقارناً بالأصل الذي نقل عنه .

الثاني : الأمانة ، فلم يغير نيكلسون شيئاً من النص دون أن يدل على ذلك ، وقد أشار إلى ذلك صراحة في مقدمته . كذلك لم يبح لنفسه حق زيادة شيء على الأصل ، فإن احتاج تقويم السياق عنده إلى كلمة أو كلمات ، وضعها بين قوسين ، ونص على أنه مسؤول عنها ، وأنها ليست من الأصل بحال .

أما الشيء الواحد الذي أباحه لنفسه ، فهو التجاوز عن بعض مواضع من الغفران رآها « ذات أهمية قليلة ، أو مما لا أهمية له » ومع اعترافنا له بهذه الحرية — ما دام قد اعتذر بأنه لا يريد سوى إعطاء فكرة عامة عن محتويات الرسالة — فإنا نختلف معه بعد ذلك في تقديره لما اقتطع منها ، وحكمه عليه بأنه «قليل الأهمية ، أو مما لا أهمية له» ، فنحن — على العكس — نؤمن بأنه ما من كلمة في الرسالة إلا ولها أهميتها . وإذا لم يبد أننا في حاجة إليها في فهم المعنى ، فإنا نحتاج إليها حين ندرس الخصائص الفنية لأسلوب الغفران ، أو حين نحاول أن نلمح شخصية كاتبها في ألفاظه وكلماته ، ولو كانت مجرد هذيان يراه البعض لا قيمة له .

وفيما عدا ذلك ، لا نرى في تصرف نيكلسون هنا مأخذاً ، ولا ننكر عليه أن يتجاوز عن مواضع من الرسالة ، ما دام لا يسل العبارة من بين أخواتها ، ولا يمزق نظم الجملة فيأتي ببعضها ويعرض عن بعض ، كما نرى ذلك في إحدى النسخ المطبوعة عندنا من الغفران .

٭٭٭

أما فهمه للنص ، ففيه أخطاء كثيرة ، بعضها هين يمكن التجاوز عنه في هذا المقام ، أما الكثرة الباقية ، فتعرض صوراً عجيبة لفهم هذا المستشرق الكبير للنصوص والأساليب العربية .

ولعل من واجبنا ، أن نبدأ هنا بالإشارة إلى أخطاء لم تنشأ عن جهله بالأسلوب العربي ، وإنما سببها جهل نيكلسون بشخصية ابن القارح ورسالته التي كتبت رسالة الغفران ردا عليها . وهو يظن هنا أن ابن القارح هو « أبو منصور الديلمي الذي يعرف بأبي الحسن علي بن منصور ، وهو شاعر مجيد ، كان أبوه في خدمة سيف الدولة » ، وهذا في الواقع لا يخلو من غرابة ، لأن ابن القارح من بين الذين ترجم لهم ياقوت في معجمه ، وليس المعجم مما لا تتناوله يد نيكلسون ، وهو من المظان القريبة فيما نحن فيه .

والمهم هنا ، أن رسالة ابن القارح لم تكن بين يدي نيكلسون حين قرأ الغفران ، فليس غريباً أن يضل ويخطىء فهم الكثير من فقر الرسالة ، ويغيب عنه مدلولها ، وبخاصة في قسمها الثاني . والذين قرأوا الغفران ، يعرفون أن أبا العلاء — في هذا القسم — يتتبع حديث ابن القارح ويرد عليه جملة جملة . ولا يستطيع القارىء أن يمضي في القراءة صفحة واحدة ، بل فقرة واحدة ، دون أن يرجع إلى ما تشير إليه من رسالة ابن القارح .

يقول نيكلسون مثلاً ، في الفهرس الذي وضعه للرسالة : « مدح لشخص يدعى أبا الحسن » ولو قرأ ابن القارح . لعلم أنه « أبو الحسن المغربي — الوزير المشهور » انظر ص٣٦ ا من الرسالة وهي مخطوطة بدار الكتب .

ويقول في الفهرس أيضاً : « مدح لابنة أخت الشيخ » ولو كانت رسالة ابن القارح بين يديه ، لأدرك أن المدح أبعد شيء عما نحن فيه . وإنما يرد أبو العلاء هنا على شكوى الشيخ من سرقتها دنانيره ، فلما هددها الأمير أظهرت بعضها وهي تصرح في غضب أنها لو كانت تنبأت بهذا لقتلت خالها .

وفي رسالة الغفران ، يقول أبو العلاء ما نصه : « وأما ما ذكره — أي ابن القارح — من حكاية القطربلي وابن أبي الأزهر فقد يجوز مثله . وما وضح أن ذلك الرجل حبس بالعراق ، فأما بالشام فحبسه مشهور — ص ١٣٣ » وهي عبارة لا تفهم إلا إذا قوبلت على رسالة ابن القارح ، حيث يقول إن القطربلي وابن أبي الأزهر ذكرا في كتاب اجتمعا على تأليفه أن المتنبي حبس ببغداد — (انظر ص ٣٥١ ب من الرسالة المخطوطة) . وقد غاب ذلك عن نيكلسون ، فوهم أن المشار إليه في قوله « ذلك الرجل » هو القطربلي ، لا المتنبي J. R.A S. 1902 P. 91

وفي الغفران بعد ذلك : « وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب ، قال هو من النبوة ، أي المرتفع من الأرض — ١٣٦ » لم يدرك نيكلسون أن الحديث هنا عن المتنبي ولقبه ، فعجز* عن فهم هذا الاشتقاق .

ثم يقول أبو العلاء : « وأما شكيته أهل الزمان إليه ، فإنه سلك في ذلك منهاج المتقدمين — ١٣٧ » يرد بذلك على الحملة القاسية التي حملها ابن القارح في رسالته على قول المتنبي : « أذم إلى هذا الزمان أهيله » (انظر ص٣٥١ ا من الرسالة) وتوجيه نيكلسون لهذه العبارة صريح في عدم فهمه إياها P. 91 .

* * *

هذا مثل من الأخطاء التي نشأت عن جهل نيكلسون برسالة ابن القارح أما الأخطاء الأخرى ، فنرى ضبطاً للتناول ، أن نقسمها ثلاثة أقسام :

أولها : تحريفات النص العربي في مخطوطته ، ولا نسوقها هنا لأنه غير مسؤول عنها ، ولا يجوز أن نؤاخذه عليها .

الثاني : أخطاء كانت في النص العربي صحيحة ، فغيرها نيكلسون بأخرى غير مفهومة ولا صحيحة .

الثالث : أخطاء لم تنشأ من صعوبة العبارة في الغفران أو تعسف الصنعة في أسلوبها كما يعتذر نيكلسون ، وإنما نشأت عن عجزه عن فهم الأسلوب العربي ، وجهله بالأعلام الذين يتحدث عنهم أبو العلاء .

* * *

فما غيره نيكلسون :

— قول رسالة الغفران ص ١٢٢ « كعصافير المنذر الكائنة للتمنحة » يقصد

---

* قال نيكلسون هنا ما نصه : I do not understand this derivation. p. 91. 1902

النوق العصفورية التي كان المنذر يمنحها لشعرائه . وقد غيرها نيكلسون « الكالثة المتنحنحة » ونص على أن ذلك من عنده ، ولم نفهم العبارة بهذا التغيير .

— في الغفران ص ١٢٣ : « ومن التمس من اللغام كسوة ، فإنه لا يجد أسوة » وهي كذلك في مخطوطة نيكلسون ، واللغام هنا زبد أفواه الإبل . وقد غيرها نيكلسون إلى اللفام « Lifam » وترجمها باللثام « Face covering » ، والأصل فيما نرى أصح وأنسب للمقام .

— في الغفران ١٢٣ : « ولو أني لا أشعر بما يقال فيّ ، لأرحت من إنكاري وتلافيّ ، وكنت كالأرض السبخة ما تحفل أن قيل هي مريعة ، أو قيل لها بئست الزريعة . وكالفرير المعتبط ماياً به لقول الآكل إلخ » قوله « الفرير » هنا ، مفهوم مطمئن في مكانه من السياق ، ولكن نيكلسون غيره بقوله : « وكالغزير المعتبط » ولسنا نرى لهذا التغيير وجهاً .

— في الغفران :

وإنا ولا كفران لله ربنا لكالبدن ، لا تدري متى حتفها البدن

وهي كذلك في مخطوطة نيكلسون ، لكنه أعياه فهمها ، فمزقها وغيرها واحتاج إلى كثير من الإضافات لكي يستقيم له المعنى الذي فهمه . قال نثراً : « وإني لأكفر (من يزعم) أن الله ربنا (له) يدا البدن — two corporal hands — لا يدري متى صفقهما — clasp — لددن sport » ثم أضاف بهامشه : هذا هو الاحتمال الممكن لفهم العبارة (ص ٨٣٨) ونقول : إنه الاحتمال الغريب الذي لا يمكن أن يخطر على بال من له فقه بالأسلوب العربي .

— في الغفران أبيات للقداح حين خرج على الشيعة ومنها :

فلو كان أمركم صادقاً لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا سما عمر فوقكم يخطب

والمعنى واضح ، وعتيق هنا أبو بكر ، وعمر هو ابن الخطاب ، ولكن نيكلسون لم يفهم الأبيات ، فتناولها بالتغيير والإضافة . قال :

ولا غض منكم عتيق ولا عمرتم فوقكم الخطب

أخذ لفظ عتيق هنا من العتاقة في السن ، وعمر من التعمير ، وفهم « يخطب » على أنها من الخطوب لا من الخطابة . ونص ترجمته :

May none of you gain experience by age, and your lives are short, for your misfortunes are sufficient." P. 335,

في الغفران ، بيتان لابن الراوندي : (ص ١٦٨)

قسمت بين الورى معيشتهم قسمة سكران بين الغلط

لو قسم الرزق هكذا رجل قلنا له : قد جننت فاستعط

يقال استعط أدخل السعوط في أنفه ، وهو دقيق التبغ . والمعنى مفهوم . ولكن نيكلسون غيرها بقوله : « فاتعظ » وهو تغيير لا يقوى به المعنى ولا تستقيم القافية .

— في الغفران : من تلبيات العرب في الجاهلية : (ص ١٨٧)

لبيك عن سعد وعن بنيها وعن نساء خلفها تعنيها

سارت إلى الرحمة تجتنيها

غيرها المستشرق الكبير بقوله : « وعن نساء خلفها تنها » ولسنا نفهم لهذا التغيير وجهاً .

* * *

وندع هذه الأخطاء التي كانت صحيحة في الأصل العربي لمخطوطة نيكلسون ثم غيرها فأخطأه الصواب . ندعها ونورد هنا مثلا من أخطائه التي ترجع إلى عجزه عن فقه الأسلوب العربي ، أو جهله بالأعلام التي جاءت في الغفران .

قال في الغفران عن النمر بن تولب « فرحمه الخالق متوفى ، فقد كان أسلم وروى حديثاً منفرداً ، وحسبنا به للكلم مسرداً ١٢٠ »

وهم نيكلسون أن الضمير هنا يعود على الله ، وأن الكلم هنا هي الكلوم (جمع كلم وهو الجرح) ونص ترجمته :

"And God is able to assuge our wounds" p.648. 1900

— في الغفران عن شعراء الجنة « . . . فيبتدئ بزهير ، فيجده شابا كالزهرة الجنية — ص ٢٢ » — الجني : التمرجني لساعته، وواضح أن أبا العلاء وصف زهير بن أبي سلمى بالشباب في الجنة ، لطول ما شكا في الدنيا من شيخوخته . وقد وهم نيكلسون فظن أن الزهرة الجنية علم لشخص فترجمها : "Like Zuhra the Jinnia" — هكذا برسم العلم ، ولم يقل لنا من زهرة الجنية هذا (أو هذه !) .

— في الغفران : « ولقد وجدت في بعض كتب الأغاني صوتاً يقال غنته الجرادتان إلخ — ٥١ » ترجمها نيكلسون : في بعض نسخ الأغاني "in some copies of Aghani" 651. 1900 برسم العلم في الأغاني ، وبين الأصل والترجمة فرق بعيد .

في الغفران ، أنشد لرجل من النصيرية « في الحلول » (ص ١٥٣) :

اعجبي أمنا لصرف الليالي جعلت أختنا « سكينة » ، فارة

واضح أن سكينة هنا علم لأنثى ، وهو اسم الأخت ، لكن نيكلسون ترجمها « جعلت أختنا تسكن فأرة »

"That made our sister dwell in a mouse" 349

— في الغفران : يقول الأعشى مفاخراً : « وإني لفي الجرثومة من ربيعة — ٤٤ » أي من صميمها وأصولها . ترجمها نيكلسون :

"Doubtless, there are tribesmen of Rabiatu l'Faras among the Jurthùma"675

هكذا برسم العلم في الجرثومة ، وشتان ما بين الأصل والترجمة .

* * *

أما تحقيقه للأعلام ، فقد أخطأه معرفة عدد منها ليس بالقليل ، وقد أشار في مقدمته إلى صعوبة يعرفها دارسو الغفران ، وهي « أن أبا العلاء يندر أن يعطي الاسم كاملا ، فهو يكتب مثلا : القطربلي — العلوي البصري . . إلخ ، بحيث يصعب أحياناً أن نعين الشخص الذي يعنيه » ونحن نعترف معه بهذا ، وإن كانت الأمثلة التي اختارها كالقطربلي والعلوي البصري — ليست بعيدة عن تناول المتأدبين ، وإنما الجدير بالذكر هنا مثلا « السروي — الكلابي — الهذلي دون تعيين — أبو جوف — أبو الخطاب — ابن القنسري — ابن القاضي » وغير هؤلاء ممن يصعب تعيينهم أو الاهتداء إليهم في معاجم الأعلام أو مظانها القريبة .

ومن الحق أن من أخطاء نيكلسون في الأعلام ما يمكن الاعتذار عنه بهذا ، إلا أن منها إلى جانب ذلك ما لا يعتذر عنه بمثل ذلك على وجه ما .

— في الغفران ، ورد ذكر أحمد بن الحسين ، (ص١٧) والسياق يعين أنه المتنبي ، والشاهد من شعره المشهور ، ولكن نيكلسون ظن أنه بديع الزمان ، أحمد بن الحسين — ٦٥١ .

— في الغفران « أخو ثمالة وأخو دوس » — ص ١٧ ، يعني المبرد وابن دريد ، والكنية الأولى شائعة معروفة ، لكن الأمر اشتبه على المستشرق فظن « أن واحداً منهما هو الخليل بن أحمد الأزدي وقد يدعى إما أخا دوس « دوس بن الأزد » وإما أخا ثمالة « وبنو ثمالة يتبعون بني نصر بن الأزد » — ٦٥١ .

يقول في الغفران : « فمن لي بأبوي عمرو : المازني والشيباني — ٣٣ » يعني أبا عمرو بن العلاء ، وأبا عمرو الشيباني . لكن نيكلسون زحزح واو عمرو إلى اليسار قليلا فصارت واواً عاطفة هكذا : « فمن لي بأبوي عمر والمازني والشيباني » وجره هذا إلى كثير من التأويلات والاحتمالات .

— في الغفران، ذكر القصار، أثناء الحديث عن الزنادقة (ص١٤٢) يعني القصار الأعور المشهور بالمقنع الخراساني . وقد كان أول أمره « قصاراً » من أهل مرو . ولم يعرفه نيكلسون ، فذهب خطأ إلى أنه قد يكون « حمدون القصار، زعيم الطائفة الصوفية المعروفة بالملامتية » مع إدراكه أنه لا مكان لمثل هذا الزعيم الصوفي بين تلك الطائفة المتزندقة .

— يقول في الغفران : « كم متظاهر باعتزال... يقنت على رهط الأخيار ، ويسند إلى عبد الجبار — ١٥٦ » ظاهر أن عبد الجبار هنا هو القاضي المعتزلي المشهور « أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد » ، لكن نيكلسون ترجمه « خادم الله الجبار The Compeller's servant — أي محمد » . (p.352)

✡ ✡ ✡

ومن حق نيكلسون علينا أن لا ندع الحديث عنه دون أن نعترف بأن نسخته أفادتنا من ناحيتين :

الأولى : المقارنة ، وبخاصة حين تختلف الروايات العربية ويبهم ضبطها ، فتكون الرواية الإنجليزية بدقتها وتحديدها ، عوناً على الفصل في الأمر .

الثانية : التوجيه في بعض المواضع إلى احتمالات لم نكن اتجهنا إليها من قبل . وهي على قلتها ذات أهمية لا تجحد .

— ففي كلمة « زقفونة — الغفران ص٦٠ » نقل نيكلسون عن السير شارل ليال احتمال وجود صلة بينها وبين الكلمة السريانية :

« اصف = elevatus - supensus - crucified »

وفيما روت رسالة الغفران عن تعظيم القواد لقرد زبيدة : « أن يزيد بن مزيد الشيباني دخل فيمن دخل للسلام عليه فقتله ١٥٠ » كذا بتاء فوقية مثناة . لكن نسخة نيكلسون انفردت برواية أخرى «فقبله — Kissed » وهي رواية تستحق النظر .

— يقول أبو العلاء مشيداً بعلم ابن القارح : « .. فأخذ عن الكتابي سور التنزيل — ١٨٤ » هكذا في نسخنا جميعاً . وقد أخذناها على أنها نسبة إلى الكتاب ، أي القرآن الكريم ، مستظهرين بقول أبي العلاء في موضع آخر : « وما عنيت بالكتابي من نسب إلى توراة وإنجيل ، دون من نسب إلى القرآن البجيل — ١٩٩ » غير أن نيكلسون قرأها (الكتاني — Al-Kattâni) وإن كانت فى الأصل عنده « الكتانى » بلا إعجام . ثم أشار في هامشه إلى « الكتانى — شيخ ابن حزم في المنطق — توفي

سنة ٤٠٠ هـ » . ولكن ليس هناك ما يحمل على الفرض أنه المقصود هنا .

وإذا صحت قراءة نيكلسون هذه ، تعين أن يكون الكتاني هنا هو « أبو حفص الكتاني — صاحب أبي بكر بن مجاهد . وأحد شيوخ ابن القارح الذين ذكرهم في رسالته — أنظر ص ٣٦٠ ا »

٭٭٭

وبعد فهذا الذي أوردته هنا من أخطاء نيكلسون ، لم آت به على وجه الحصر والاستقصاء ، وإنما هي مثل أعرضها أمام الذين تفتنهم آراء المستشرقين في الأدب العربي ، لعلنا نأخذها بشيء من التحفظ والحرص والاتزان ، ونعرضها — قبل التسليم بها — على النظر الفاحص ، والنقد الأمين .

بنت الشاطىء
من الأمناء

طفل من القرية

تأليف الأستاذ سيد قطب
٢٠٠ صفحة من القطع المتوسط . لجنة النشر للجامعيين . القاهرة ١٩٤٦
نقد الأستاذ محمود عبد العزيز محرم

تنعدم التراجم الشخصية في الأدب العربي انعداماً يكاد يكون تاماً ، فما من شاعر أو كاتب فكر يوماً أن يسجل حوادثه أو يكتب عن ذاته شيئاً ، ولذا فقدنا ثروة عزيزة كنا حراصاً على أن نظفر بها من العصور الخوالي ، لنعرف العوامل النفسية والاجتماعية التي أدت إلى نشأة هذا الكاتب أو الشاعر ، ونعرف أسلوبه في الحياة وانفعاله بالأحداث. ويظهر أن أدباء العربية لم يكن يعنيهم شيء من ذات أنفسهم قدر ما تعنيهم البيئة المحيطة بهم ، وليس كل ما في البيئة يعنيهم عناية واحدة ، بل تتفاوت عنايتهم بالأشياء كثيراً ، وأقربها إلى نفوسهم ما جر إليهم نفعاً مباشراً ، أو عبر تعبيراً صريحاً عن عواطف ملحة ، كعاطفة الحب أو الكره ، وحتى هذه العواطف لم يكن ميراثها في الأدب العربي ميراثاً كبيراً ، بل هو ميراث ضئيل ، نقف عليه حيناً بعد حين ، كلما طال بنا السير وشق علينا النظر . وهذه العواطف لم يسلم لها صدقها على طول الطريق ، إنما اتخذت أحياناً ، بل أحياناً كثيرة ، وسيلة صناعية إلى النفع المباشر .

والنفع المباشر لم يكن يعود على الشاعر من ذات نفسه ، إنما يعود عليه من القبيلة أو الخليفة أو الأمير أو الثري ، ولذا استغرقت القبائل عواطف الشعراء في الجاهلية ، واستغرق الخلفاء والأمراء والأثرياء عواطفهم في الإسلام ، فلم ينتبهوا إلى ما لأنفسهم عليهم من حق وما لكيانهم من وجود ، وراحوا يتحدثون في شعرهم عن القبيلة والممدوح وما يتصل بهما من قريب أو بعيد ، ولم يتحدثوا عن ذكرياتهم أو آلامهم أو آمالهم .

وشأن الكتاب شأن الشعراء أيضاً ، مع أن مجالهم أوسع وأرحب ، غير أن اللاحقين منهم مضوا على سنة السابقين ، دون عناية بما يجيش في نفوسهم من آمال ، وما يضطرب فى صدورهم من عواطف ، وما يجد لهم من أحداث .

وليس هذا منطبقاً على المأثور كله من شعر ونثر ، بل هو صفة غالبة وحكم عام وإلا فلن نعدم شاعراً ترجم عن عاطفته فى بعض الأحيان، وخاصة في العصر الجاهلي، ويبقى بعد ذلك الشطر الأكبر من آدابنا العربية خالياً من العنصر الإنساني والشعور العميق .

ودلالة هذا أن الشعور بالذات لم يكن متوطناً في نفوس الكتاب والشعراء ، فانماعوا في ضجة المجتمع ، وساروا على نهجه وهديه ، بدل أن يسير هو على نهجهم وهديهم ، وصار المجتمع — أي جمهور الناس — يرسم لنفسه خط السير في الحياة ، لذلك لا نعجب أن نضبت حياته فجأة ، وهوى صريعاً من غير إنذار .

ودلالته أن العواطف الإنسانية ، والشعور المشترك بين الخليقة ، وأفراح الإنسان الخالد وأتراحه ، ومنابع النفس الإنسانية وأسرارها الدقيقة والجليلة — ظلت مجهولة فى آدابنا الموروثة .

ودلالته أيضاً أن الأدب العربي كان أدباً تقليدياً في أغراضه ومعانيه وصوره ، لأنه لم يظفر بالمعين الذي يجدد شبابه ، ويبارك حياته ، ويهبه الحيوية الدافقة . مع أن هذا المعين بين حنايا الكتاب والشعراء وليس عنهم ببعيد .

وليس معنى هذا أننا نطلب ترجمة دقيقة عن حياة الكاتب أو الشاعر بيراعة الكاتب أو الشاعر ، بل نرى أنه كان من الخير لو عنيا بإحساسهما بالحياة ، وانفعالها بالحوادث ، وبالرباط الوثيق الذي يربط بينهما وبين مظاهر الوجود .

ولم يعن الأدب العربي بشيء من هذا إلا فى مطالع النهضة الحديثة ، حين اتصل بالآداب الأجنبية، فانبعث من جديد ، وكتب الأدباء عن أنفسهم كثيراً ، وسجلوا إحساسهم بالنسبة للحوادث والحياة ، وشاركوا بنفوسهم في كل ما جد وما يجد على هذه الأرض ، مما يقع تحت سمعهم وبصرهم وحواسهم جميعاً . ولم يكتف بعضهم بهذا ، بل أخذوا يلتفتون

إلى وراء ، يدونون حياتهم الماضية ، ويحيون أشجانهم وآمالهم القديمة ، في عهد الطفولة والشباب وبين ذلك وبعد ذلك ، بل راحوا يسجلون ذلك تسجيلاً على سبيل القصة أو الحكاية أو الدراسة . أما الأول فهو الدكتور طه حسين بك في كتاب « الأيام » ، والثاني الأديب الساخر الأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني في حكاياته الكثيرة ، وقد نشر بعضها في كتابه «صندوق الدنيا» ، والثالث الأستاذ سيد قطب في كتابه الذي نحن بسبيله.

والأستاذ سيد قطب أديب ناقد شاعر في طليعة أدباء الشباب ، وهو من رواد المدرسة الحديثة على القول بوجود المدارس في الأدب . أعنى أنه التلميذ الأول للأستاذ عباس محمود العقاد . والأستاذ سيد يفخر بهذه التلمذة ، وأنا أهنئه بها أيضاً . ومن هنا غلبت عليه طريقة العقاد في الأداء ، وطريقته في التلقي عن الحياة . غير أن له شخصيته المتكاملة ووجوده المستقل .

وكتابه الذي بين أيدينا ، وعنوانه كما عرف القراء « طفل من القرية » صور ريفية منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً . نقلها عن قرية من قرى الصعيد بما فيها من بأساء وسراء وأحزان كظيمة . وهذه الصور قد شاهدنا بعضها ومارسنا بعضها فى حياتنا الريفية أيضاً . والعجيب أن تتفق هذه الصور والمشاهد فى الشمال والجنوب من مصر الحبيبة على عهدنا وعلى عهد الأستاذ سيد ، مع أني كنت أظن أن الفرق أبعد من هذا فيما بين الشمال والجنوب .

وفي الحق أن هذا يدعو إلى التأمل والروية ، ويدعو إلى البحث عن مصدر هذه الظواهر الخلقية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت مصر الشمالية والجنوبية دون فارق يذكر . ويغلب على الظن أنها انحدرت من عشرات السنين ، وظلت هذه العقلية الريفية لا تعمل فيها إلا بالطرق البدائية ، والطرق البدائية دائماً تحتفظ بالأصل سليماً كما هو ، وتبدع على مثاله صوراً أخرى إن كان لابدّ من هذه الصور — غلبت هذه الظواهر يوم كان المصريون قلة في أحضان الجهالة ، ويوم كان يكثر نزوحهم في جنبات الوادي ، من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال ، ويوم كانوا يفزعون دائماً من المماليك وأشباه المماليك من الأتراك العثمانيين ، ويفرون بأنفسهم وأموالهم إلى حيث الأمن والقرار ولو فترة قصيرة ، وكان كلما ارتحل قوم أو فزعوا إلى مكان آخر نقلوا معهم قوانينهم الخلقية ومظاهرهم الاجتماعية وأساليبهم الاقتصادية ، ومن طبع الإنسان أن ينقل عن الإنسان ، وبخاصة إذا اشتركا في الجهل والفزع والاضطراب ، فساد المصريين في الشمال والجنوب لون من الحياة يكاد يكون متفقاً في أهم نواحيها . وقد يشهد لهذا

النزوح والانتقال ما نشاهده الآن من استقرار أسر صعيدية في دلتا النيل ، وما نلاحظه من تفرق كثير من الأسر التي تحمل اسماً واحداً في بقاع شتى . وإلا فبماذا نعلل هذا الاتفاق بين حياة الشمال والجنوب منذ ربع قرن ؟ وبماذا نعلل هذه الفروق التي أخذت تبدو وتتوضح بين الشمال والجنوب في السنين التالية ؟ والتي ظهرت الآن فارقة بين الوجه البحري والوجه القبلي ؟ إننا نستطيع أن نذكر أن من أهم أسباب هذا الاختلاف استقرار السكان وأمنهم وعدم اطمئنانهم إلى الارتحال .

وقد عني الأستاذ سيد قطب برسم صورة عن الطفل في قريته ، وكأنه لا يريد لهذه الصورة أن تتدرج من سنة إلى أخرى في سني حياتها ، بل يريدها صورة عامة لطفل في فترة من الزمن قد تكون عشر سنوات أو أكثر أو أقل ، من غير نظر إلى ترتيب الحوادث ترتيباً زمنياً . وهذه طريقة حسنة فيما نرى ، وهي أقرب إلى الطريقة التصويرية منها إلى الطريقة الإنشائية التاريخية ، أي هي أقرب إلى فن التصوير والرسم منها إلى فن الكتابة ، لولا هذه الكلمات التي تتخذ مادة لتلوين الصورة والتعبير عنها . وهي تخضع لبعض نظريات علم النفس . والأستاذ سيد لا يفوته أن يشير إلى الانطباعات الأولى في نفس الطفل التي لها أثر في حياته فيما بعد ، وليس يفعل ذلك في كل حين ، لأن الكتاب كله إشارة إلى هذه الانطباعات ، إنما يفعله في أهم الأشياء عنده وأعزها لديه . انظر إلى الشاعر الأديب الذي يهفو إلى نوع خاص من الجمال ، وهو يرده إلى أصله الأول ، إلى البنت — وهي زميلته في المدرسة ، وهواه البكر — التي زارت أخته هي وصواحبها : « كانت هذه الثانية خمرية اللون ، ذات طابع خاص غير مكرر في الوجوه . ولم تكن حسب مقاييس القرية جميلة ، فليست بيضاء البشرة ، وليس أنفها دقيقاً بالقدر المطلوب ، وليس فمها كذلك « خاتم سليمان » . . . ولكنها هي وحدها من بين بنات المدرسة ، بل من بين بنات القرية جميعاً كانت تبدو في نظره جميلة ، وكان سر جمالها عنده أنها ذات طابع خاص ! وإن لم يكن يدرك في ذلك الحين معنى الطابع الخاص ... وعند ما غادر القرية إلى القاهرة ظل هذا الوجه يخايل له ويرسم نماذج الجمال في نظره ، حتى عاد بعد ثلاثة أعوام ، وقد تغيرت حياته وتغيرت ثقافته وتغير عالمه . . . إلا أن السؤال الذي توجه به في حذر والتواء ، كان هو السؤال عن مصير الطفلة التي فتنته أول مرة وعلم أنها تزوجت ، وأنها تزوجت في جهة نائية عن القرية ... ورأى نفسه في حاجة لأن ينسحب من الجمع ، ورأى عينيه تتغرغران بالدموع ! ! ! »

وأهم فصول الكتاب على ما أرى فصل العفاريت ، وفصل حركة ثقافية ، وفصل

أحزان الريف . ففصل العفاريت يؤكد المعنى الذي نقوله من أن الأستاذ له عناية خاصة بهذه الدراسة في ضوء علم النفس ، وهو يقول في ختامه :

« ومرت أيام ، وغادر القرية كلها ، وعاش في المدينة حياته واتسعت ثقافته ، فعادت أسطورة العفاريت مثار تندره وفكاهته .

ولكن اسأل أحلامه اليوم ورؤاه . إنها لتنبئك أن أسطورة العفاريت أعمق في نفسه من الثقافة ، وأن العفاريت التي رافقت عقله في طفولته وصباه ، ستظل ترافق خياله على مدى الحياة... » .

وفصل الحركة الثقافية فصل فيه الأستاذ ما كان يحوزه الطفل من الكتب ، وكان أهم هذه الكتب في نظر الطفل كتاب أبي معشر الفلكي وكتاب شمهورش . إذ كان يأبى إلا أن يستجيب لرغبات الأوانس السيدات في عقد الوداد بين الأزواج والحب بين الأوانس والشباب . ولكن مما يثير التساؤل أنه لم يتكلم عن قصص أبي زيد ، وقصص الزير سالم وكليب ، وقصص الزناتي خليفة ، وذياب بن غانم ، وقصة الأميرة ذات الهمة ، وسيدي محمد البطال ، والملكة حنة . ولم يحدثنا عن مقدار احتفائه بها وكلفه بقراءتها ، مع أنه يخيل إلينا أنها ذات أثر فعال في حياته فيما بعد !

والكتاب مهدى إلى الدكتور طه حسين بك ، وفيه مشابه من كتاب الأيام ، وإن لم تكن مقصودة . وأقلها أنه طلع علينا بالطفل مميزاً يسعى . ووقف بنا معه على حدود القاهرة . وقد أدرك الاستاذ ذلك في إهدائه الكتاب . فقال : « إنها ياسيدي أيام كأيامك ، عاشها طفل في القرية . في بعضها من أيامك مشابه وفي سائرها عنها اختلاف » .

محمود عبد العزيز محرم

الخطيب البغدادي

تأليف الأستاذ يوسف العش

٢٧٦ صفحة من القطع المتوسط . المكتبة العربية . دمشق ١٩٤٥

نقد الأستاذ أحمد محمد شاكر

يعجبني أن يشغف شبابنا الناهض المثقف بتراجم الرجال . فإن فن التراجم من أروع فنون العرب وأبدعها وأكثرها فائدة . وعلماء الإسلام هم الذين شقوا طريقه ، ووطؤوا أكنافه ، ورفعوا مناره ، وجعلوه فناً معجباً ممتعاً . حتى إن علماء الحديث وحفاظه اعتبروه من أهم فنون الحديث ، بل قسموه فنوناً عدة . انظر مثلا كتاب

(علوم الحديث لابن الصلاح) إذ قسمه إلى أنواع أو علوم ، من النوع « التاسع والثلاثين » إلى النوع « الخامس والستين » .

وألف فيه حفاظ الحديث وكبار رجاله مئات المجلدات المطبوعة ، إلى الآلاف التي لا تحصى مما لم يطبع ، وإلى أضعافها مما فقد على أحداث الزمن ، مما وجدنا خبراً عنه في تراجم المؤلفين وفهارس الكتب ، ومما لم يسمع به أحد . وما أظن أمة بلغت في القديم في هذا الفن ما بلغ حفاظ الحديث وعلماء العرب . ويكفي أن تعلم أن البخاري صاحب الصحيح ألف كتاب « التاريخ الكبير » وقد طبع منه بحيدر آباد بالهند نصفه في أربعة جلود كبار ، وأن البخاري مات سنة ٢٥٦ أي منذ أكثر من ألف ومائة سنة . وأن ابن سعد ألف كتاب « الطبقات الكبير » وقد طبع ما وجد منه في أوربة في ثمانية مجلدات ضخام ، وأن ابن سعد مات سنة ٢٣٠ أي قبل البخاري بستة وعشرين عاماً .

فمما يثلج صدرنا حقاً أن يعنى شبابنا الباحثون بهذا الفن الجليل ، وأن يخرجوا فيه الكتب الممتعة ، والدراسات الجيدة ، مرة يجيدون ، ومرة غير ذلك ، ولكنهم على السبيل ، ثم لا يلبثون أن يصلوا ، وأن يحيوا مجد السلف الصالح .

وقد قرأت هذا الكتاب « الخطيب البغدادي » الذي ألفه الأستاذ يوسف العش ترجمة لهذا المؤرخ الترجم العظيم ، فأعجبني حقاً ، أعجبني ما فيه من تعمق في البحث ، واستقصاء للمراجع ، وتحقيق وتحليل ، وإرجاع كل شيء إلى مصدره ، حتى لا يضل القارىء ولا يشك فيما ينقل له . وهذه مهمة ، فإني أرى أن كثيراً من المؤلفين في هذا العصر ، يضلون القارىء بذكر مراجع كثيرة ذكراً إجمالياً ، ثم لا يسندون ماينقلون إلى مواضعه من المراجع ، فلا تكاد تتعقبه ، ولا تكاد تعرف أنقل حقاً أم أخطأ عن غير عمد ، أم شيئاً آخر لا أحب أن أسميه . أما الأستاذ يوسف العش فإنه اتبع الطريق القويم .

ولقد وصف صديقنا الأستاذ أحمد بك أمين هذا الكتاب وصفاً جيداً حين عرضه للقارىء في مقدمته : « ستشهد في هذا السفر صورة موجزة عن عصر متوسط من عصور الإسلام ، وترى فيه حياة محدث قد حفل بالعلم ، وانكب عليه وأخلص له ، فسعد بسببه ، وعرف به ، وقدر لأجله . وستقرأ صورته بطبعه السمح ، ونفسه الطيبة ، وقدرته على الإتقان . وتنتقل من ذلك إلى وصفه في ثقافته وعلمه ، وهما يتكونان ثم يتوسعان ثم ينتجان . ويبدو لك بعد ذلك أدب براق ، وشعر لطيف ، فتتشوق إلى معرفة رأي الرجل ، فتراه متحمساً يعتقد وجوب الأخذ بشيء من التفكير والعقل ، والوقوف عند نصوص الشرع . حتى إذا شاهد من لا يوافقه على رأيه ، لم يخش من

الكيل له بما يراه يستحقه ، يخاصمه مستتراً بأقوال غيره فيه : يورد أشدها وأقواها دون أن يبدي رأيه فيه ، أو يرفع صوته في استنكار أعماله . ولـكن خصومه لا يقفون حيارى ، بل يتناولونه بألسنتهم الحداد ، ويتهمونه بما يرونه مستحقاً له . ويضطرب رأيك فيه بعد الذي تسمع في نقده ، وتود لو سمعت قول المنصفين ليتبين لك الحق ، فترى أئمة المؤرخين معجبين به ، مجلين له ، معتقدين كماله وإتقانه . وتستخلص من ذلك صورة تختم بها رأيك فيه فتعده من خيار الناس الذين يكونون مجد الأمم ، ويخدمون تراث العلم » .

وصنف الأستاذ يوسف كتابه هذا تصنيفاً علمياً دقيقاً ، فقسمه إلى أبواب : (١) عصر الخطيب (٢) حياته في العلم وللعلم (٣) صورته بمزاياه وطبعه (٤) مصادر ثقافته وينبوع أثره (٥) تعداد شيوخه وأقرانه وتلامذته (٦) تسمية ماورد به دمشق من روايته من الأجزاء المسموعة والـكتب الـكبار المصنفة إلخ (٧) أسماء المؤلفين الذين ورد الخطيب بمؤلفاتهم دمشق (٨) فهرست مصنفاته (٩) مقدمة البحث عن ثقافته وأثره (١٠) ثقافته في نشأتها واكتمالها (١١) آثاره وأهدافه فيها إجمالا (١٢) الآخذون عنه وخاتمة القول في أثره (١٣) مذهبه ونزعاته (١٤) صفته في علمه (١٥) مكانته عند الناقدين .

وفي الـكتاب هنات ومآخذ ، لاتغض من قيمة ما بذل المؤلف الفاضل من جهد في التحقيق والتنقيب . وكثير منهـا كان يمكن تداركه ، إلى شيوع الأغلاط المطبعية فيه ، مما لا نستطيع أن نؤاخذ المؤلف وحده عليها ، وكنا نتمنى أن يبذل في التصحيح المطبعي شـيئاً من العناية . ونحن نسوق بعض ما رأينا من المآخذ ليكون موضع نظر المؤلف والقارىء :

ص ٥٣ س ٤ « وبقيت ذا كرته ماثلة في أذهان أهل بغداد » يريد « وبقيت ذكراه » .

ص ٩٤ رقم ٣٠ « قراءة ابن محص ؟ » هكذا كتبها المؤلف ووضع بجوارها علامة الاستفهام . وصحتها « قراءة ابن محيصن » ، وابن محيصن أحد القراء المعروفين واسمه « محمد بن عبد الرحمن المكي » .

ص ٩٦ رقم ٨٨ « كتاب العلل لعمرو بن علي (لعله القلاس) » هكذا كتب ، و « عمرو بن علي » هو « الفلاس » يقيناً ، وهو إمام ثبت حجـة ، صنف « المسند والعلل والتاريخ » فلا حاجة إلى الظن ، ثم هو « الفلاس » بالفاء لا بالقاف . وما أظن هذا خطأ مطبعياً ، فقد تكرر في ص ١٠٨ رقم ٣٥٥ وفي ص ١٠٩ رقم ٤٠٠

ص ٩٨ رقم ١٤١ « كتاب الرد على محمد بن الحسين للشافعي » وصوابه « محمد بن الحسن » وهو الإمام صاحب أبي حنيفة ، وهذا الكتاب مطبوع في مطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٢٥ ضمن كتاب (الأم للشافعي) ج ٧ ص ٢٧٧ — ٢٠٣ ، وكان يجدر بالمؤلف ، وهو بالكتب خبير ، أن ينبه إلى ذلك . ولعل الخطأ في جعل « الحسن » « الحسين » خطأ مطبعياً .

ص ٩٩ رقم ١٦٣ منَ العمود الثاني « كتاب مسائل أبي بكر (أحمد بن محمد) المرودي » وصحته « المروذي » بتشديد الراء المضمومة وكسر الذال المعجمة ، نسبة إلى « مرو الروذ » وهي مدينة قديمة معروفة ، ينسب إليها « المرويذ » و « المروروذي » . أنظر معجم البلدان . وأبو بكر هـذا من كبار أصحاب الإمام أحمد بن حنبل ، له ترجمة في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ص ٣٤ — ٣٢ طبعة المكتبة العربية بدمشق سنة ١٣٥٠ وتاريخ بغداد للخطيب ٤٢٣ ص ٤٢٠ — ٤٢٥ وغيرها . ولعل إهمال الذال من الخطأ المطبعي أيضاً .

ص ٩٩ رقم ١٦٩ « كتاب الموطأ (لمالك) من طريق العغني ومن رواية ابن وهب وابن العا . ؟ » هكذا بهذا الرسم وإهمال النقط . ولو رجع المؤلف الفاضل إلى ترجمة الإمام مالك وأسماء تلاميذه ، وإلى ما كتب في كتب الحديث وغيرها عن الموطأ وأسماء رواته ، لعلم أن صحة الإسم الأول « القعنبي » بفتح القاف والنون بينهما عين مهملة ساكنه ، نسبة إلى جدة « قعنب » والقعنبي أحد رواة الموطأ الثقات ، واسمه « عبد الله بن مسلمة بن قعنب » وهو شيخ البخاري ومسلم وغيرهما ، مات سنة ٢٢١ . ولعلم أن صحة الإسم الثاني « ابن القاسم » فلعله كتب في الأصل الذي نقل عنه من غير نقط على القاف ، أو تأكل الورق أوضاع باقي الإسم ، أو لعله كتب على طريقة الإملاء القديمة في سطرين « القا » في آخر السطر و « سم » في أول السطر الذي بعده . وهو « عبد الرحمن بن القاسم بن خالد المصري الفقيه » أحد رواة الموطأ عن مالك وحملة فقهه . مات سنة ١٩١ .

ص ١٢٢ رقم ٩ « محمد بن ححارة وسان بن بشر » هكذا بدون نقط ، وهما خطأ . والصحيح في الأول : « محمد بن جحادة » بضم الجيم وتخفيف الحاء المهملة ، وهو من صغار التابعين ، روى عن أنس بن مالك . وفي الثاني « بيان » بفتح الباء الموحدة وتخفيف الياء التحتية ، وهو من صغار التابعين ، روى عن أنس أيضاً .

ص ١٢٢ رقم ١٤ « مسند نعيم بن هماز العصعصاني » وهو خطأ ، صحته : « نعيم

بن همار الغطفاني » بفتح الهاء وتشديد الميم من « همار » و « الغطفاني » بفتح الطاء المهملة وبالفاء ، نسبة إلى « غطفان » .

ص ١٢٢ رقم ١٥ « جزء فيه أحاديث مالك بن أنس عوالي » وهذا تعبير عجيب ليس بعربي قطعاً ! لعله يكون إفرنجياً ؟! العرب يقولون في مثل هذا « عوالي أحاديث مالك بن أنس » أو « أحاديث مالك بن أنس العوالي ».

ص ١٢٣ رقم ٢٠ « الفوائد المنتخبة الصحاح والغرائب تخريج الخطيب لأبي القاسم المهرواني ، ذكره ابن الجوزي في المنتظم ٨ : ٣٠٤ بقوله : مشيخته » فهذه « المهرواني » غلطة لعلها مطبعية ، صوابها « النهرواني » بالنون ، وكذلك هو في المنتظم . و « مشيخته » خطأ أيضاً ، صحتها « مشيخة » بدون الضمير ، كما هو بديهي وكما هو في المنتظم .

ص ١٢٣ رقم ٢٤ كتاب « الفصل للوصل المدرج في النقل في تسعة أجزاء » وضعه المؤلف في كتب المصطلح ، ولم أر الكتاب ، ولكني أرجح أنه في الحديث لا في المصطلح ؛ لأن الظاهر من اسمه ومن تجزئته أنه يذكر الأحاديث التي أدرج فيها ما ليس منها ، وينبه على فصل المدرج عن أصل الحديث .

ص ١٢٤ رقم ٢٥ كتاب « الكفاية للخطيب » نقل المؤلف عن بروكلمن أن دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد تعمل على إخراجه . والكتاب أخرج فعلا ، وجاء إلى مصر واقتنيناه وقد طبع سنة ١٣٥٧ أي منذ ثماني سنين .

ص ١٢٥ رقم ٣١ كتاب « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » للخطيب . وصف المؤلف نسخة مكتبة البلدية بالإسكندرية أنها في عشرة مجلدات ، وهو خطأ عذره فيه أنه نقله من فهرس مكتبة البلدية ، ولكن الكتاب عشرة أجزاء صغار في مجلد واحد ، وقد رأيته ، ونسخه بخطه أحد إخواننا الشيخ علي عبد العليم ، الذي كان قاضياً بالمحكمة الشرعية بالإسكندرية رحمه الله ، ورأيت نسخته أيضاً .

ص ١٢٩ رقم ٥٤ كتاب « التطفيل » نقل المؤلف عن بروكلمن أنه مطبوع . وهذا إن رضيناه من أحد فلا نرضاه من الأستاذ يوسف العش ، العارف بالكتب معرفة جيدة ، فإن الكتاب مطبوع منذ عشرين سنة تقريباً في دمشق ، وما أظن أن مكتبة الظاهرية تخلو من نسخة من هذه الطبعة .

ومما لا يعجبني أن يحيل المؤلف القارىء في تراجم العلماء الكبار المعروفين على كتاب بروكلمن ليعرفوا مراجع تراجمهم ! كما صنع في تراجم أبي نعيم ص ٨٠

وابن الصباغ صاحب الشامل وابن بشران ص ٨٢ وأبي إسحق الشيرازي وابن ماكولا ص ٨٥ والخطيب التبريزي ص ٩٠ ، وما أدري لم هذا ؟ وكتب التراجم بين يديه ، يستطيع أن يرشد القارىء إلى مواضع التراجم فيها تيسيراً عليهم ! وكثير من هذه الكتب يقتنيها المثقفون من القراء . أما كتاب بروكلمن ، فإنه باللغة الألمانية أولا ، والعارفون بها قليلون ، وقليل منهم من يعنى بالتراجم أو يقتني كتبها ، ثم أين هو كتاب بروكلمن الآن ؟ إن النسخة منه ليبلغ ثمنها أكثر من أربعين جنيهاً ثم لا توجد .

وخير للمؤلف أن لا يغرب على القارئ ، وإن كان مشكوراً على هذا الكتاب الممتع البديع .

ولئن كان لي أن أقترح على المؤلف أن يحبو المكتبة العربية بأثر آخر نفيس يكون صنواً لكتابه ، إني أقترح عليه أن يؤرخ للحافظ ابن عساكر مؤلف تاريخ دمشق ، كما أرّخ للخطيب مؤلف تاريخ بغداد .

أحمد محمد شاكر

التعريف

أثر العرب في الحضارة الأوربية

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

١٧٥ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

ليس أقدر من الأستاذ العقاد على معالجة هذا الموضوع المتشعب النواحي ، المحيط بجميع أنواع الفنون والعلوم والآداب والفلسفة والاجتماع والسياسة . ففي كل سطر خلاصة رأي أو كتاب . وفي كل صفحة فكرة جديدة تدعو إلى النظر والتأمل .

اختتم الكتاب بعبرتين : « أولاهما أن الأمم الشرقية والغربية جميعها دائنة ومدينة في تراث الحضارة الإنسانية ... وثانية العبرتين أن الأمم تستفيد في باب الحضارة على الرغم منها وعلى الرغم ممن يفيدها » . ومعنى ذلك أنه ينظر نظرة إنسانية شاملة ، يستوي فيها الأفراد في داخل الأمة الواحدة ، والشعوب في جسم العالم ، وجدير بمن ارتفع إلى هذه المرتبة ، وقد خلا من آثار العنصرية والهوى والتعصب ، أن يسمو في آفاق الفكر إلى أرفع المنازل .

مصدر اللذة في هذا الكتاب حياته ، وقوام حياته في خصومة الكاتب لدعاوي بعض المستشرقين ، وتابعيهم من المفتونين بهم ، القائلين بتمجيد الثقافة اليونانية ، وأنها أصل الحضارة العربية والأوربية الحديثة على السواء . لقد نازلهم العقاد بالأسانيد التاريخية الثابتة ، ورد عليهم مزاعمهم بأقوى حجة وأجلى برهان . « فالإغريق نقلوا قبل أن يبدعوا ، وعلماؤهم نبغوا في آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل والإسكندرية وفلسطين والشام وتخوم العراق » ص ٢٥ . ونقل العرب أيضاً عن غيرهم ، لأنه « لم توجد قط حضارة تفردت بالإبداع أو تفردت بالنقل » ص ٢٤ . ولكن « الدفعة التي أحيت الحضارة في رقعة الدول الإسلامية قد جاءت من السلالة العربية ، وإن حضارة الدولة الإسلامية هي التي سمحت ببقاء ما بقي من حضارات الفراعنة والإغريق والفرس والهنود » ص ٢٩ .

هـذه هي الأصول التي بنى عليها العقاد كتابه ، ثم فرع عليها الكلام في العقائد السماوية وآداب الحياة والسلوك وصناعات السلم والحرب ، والطب والعلوم ، والجغرافيا والفلك والرياضة ، والأدب والفنون الجميلة . والموسيقى والفلسفة والدولة والنظام .

ومهما يكن علم القارئ واسعاً بتاريخ الحضارة الإسلامية والأوربية فسوف يجد ناحية جديدة قد لا يكون اطلع عليها من قبل . فالمعروف أن أوربا أخذت علم الجبر عن العرب ، واسمه في الإفرنجية دليل على ذلك ، ولكن قد يجهل الكثيرون أن خرائط الجغرافيين العرب هي التي أوحت إلى خرستوف كولمبس بكشف أمريكا ، وأن منهم من أثبت كروية الأرض في الوقت الذي كانت الكنيسة تنكر استدارتها وكرويتها ، وأن القصة الأوربية تأثرت في نشأتها بما كان عند العرب من فنون القصص في القرون الوسطى ، وهي المقامات ، وأخبار الفروسية ، ومغامرات الفروسية في سبيل المجد والغرام . ص ٦٧ .

هذه شواهد لا تغني عن كمال الاطلاع والاستيعاب . بل جدير بنا ونحن في مطلع النهضة وفجر الوعي القومي أن نقف على الجليل من تراث العرب ، وما كان له من أثر في أوربا ، لنعرف — كما يقول العقاد — أن على الغرب دينا يؤديه لنا اليوم .

أقنعة الحب

تأليف الدكتور وليم شتيكل — ترجمة الأستاذ أحمد سامح الخالدي
١٦٤ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة فلسطين العلمية . القدس ١٩٤٦

كتاب طريف حتماً ، فهو رواية طبيب نفساني لحالات شتى من الشذوذ التي تعتري المرضى بالأعصاب ، كالتردد والوسوسة والخوف من بعض الأمور وحب الاقتناء ، وحالات أخرى كثيرة . وهذا الطبيب تلميذ فرويد ، ولكنه كغيره من التلاميذ لايقف عند نظرية أستاذه ، وهي أن الغريزة الجنسية هي أصل جميع تصرفات الإنسان ، ولو أنه يميل إلى الأخذ بها . وهو يأخذ أيضاً بكثير من التفاصيل في مذهب فرويد ، مثل وجود اللاشعور وتأثيره فى حياة الشعور ، وأن كل عمل يصدر من الإنسان لابد له من من سبب إن لم يكن ظاهراً فهو خفي في اللاشعور ، وأن كثيراً من الأعمال هي رموز لرغبات كامنة في النفس. ويحدثنا المؤلف عن حالات باشر علاجها مبيناً العلة اللاشعورية في المرض الظاهر. وهنا وجه الطرافة في الكتاب ، لأنه لا يعرض نظرية جافة ، بل يتحدث عن شخصيات حية ، بل كثيراً ما يعرج على أساطير اليونان وقصص المحدثين فيستعير منها ما يبعث في كتابه نفحة أدبية .

والمؤلف يقصر بحثه ، كما يؤخذ من العنوان على أقنعة الحب ، أي على الأشياء الباطنة اللاشعورية التي تخفي ما يحبه المرء . وقديماً قيل « ويتمنعن وهن الراغبات » . وهنا تجد العجب في الطبائع البشرية التي تجمع بين المتناقضات .

الكتاب قديم ، نشره المؤلف لأول مرة عام ١٩١٦ ، ولا يعيبه أن تكون بعض الآراء موضعاً للخلاف ، فلا يزال علم التحليل النفساني قيد النظريات المتعارضة في بعض الأحيان . مثال ذلك ما يذكره المؤلف من« أن الإنسان الطاهر كل الطهارة ، أي الذي ليس لديه أية فكرة جنسية ، لا يعرف ما هو الخجل . فالخجل إنما هو اعتراف بالغريزة الجنسية » ص ٥٠ وهو كلام يستقيم إذا سلمنا بنظرية فرويد في جوهرها وتفاصيلها . وأساس الخجل الخوف يضاف إليه شيء آخر ، فإن كان خوفاً من الجنس الآخر سمي حياء . غير أن هناك ألواناً من الخجل لاصلة لها بالغريزة الجنسية ، على الأخص عند من ينكرون نظرية فرويد ، وليس هنا مجال بيانها .

وكيفما كان الأمر فسوف يجد القارىء في هذا الكتاب لذة حين يكشف عن أسرار النفس وما تخفي الصدور .

الأوثان

تأليف الأستاذ ميخائيل نعيمة

٦٨ صفحة من القطع الصغير · مكتبة صادر . بيروت ١٩٤٦

ليست الأوثان في نظر ميخائيل نعيمة هذه الحجارة التي تنحت بأيدي بشرية ليعبدها صانعوها أو يتقربوا بها إلى الله زلفى . كما كان يصنع العرب في جاهليتهم مع لاتهم وعُـزّاهم ومناتهم وغيرها مما حطمته معاول التوحيد في ظل الدين الجديد ، فهناك أوثان أخرى لم تنحت من حجارة ولم تقدّ من صخر ، ولـكن نحتتها أوهام الناس ومطامعهم وشهواتهم، فصرفتهم عن عبادة ربهم وخالقهم إلى عبادة مخلوقات تقدم لها القرابين من أفكارهم وأجسادهم وقلوبهم .

ولو فطن الناس إلى محاربة الأديان للأوثان لما عادوا اليوم مع دياناتهم الموحدة إلى عبادة وثنية استحال فيها صنم الحجارة إلى صنم من المال أو القوة أو السلطان أو الرأي العام أو القومية أو العلم .

وعجيب أن يكون العلم وثناً ، في نظر المؤلف وهو أمضى سلاح يمكن أن تحارب به الوثنية ! ليس العلم في ذاته وثناً ولـكن الناس آمنوا به إيماناً لا يرد ، وأقروا حقائقه إقراراً لا يدحض ، وأخضعوا أحكامه إلى الاختبار الحسي ، وهو اختبار قد تخدع فيه الحواس وقد تضل فيه الأبصار . وتركوا ما وراء الحواس لا يأبهون به ولا يقيمون له وزناً ، اتكالاً منهم على أبصارهم المخدوعة وأحاسيسهم الخادعة . ونسوا أن البصيرة قد تدرك مالا يدركه البصر .

ومن هنا عد المؤلف العلم وثناً ، ورأى أن المغالاة في تقدير أحكامه إنما هي انتكاس إلى عهود الوثنية التي تؤله ما لا يستحق التأليه ، وتقدس مالا يستحق التقديس .

وقد يغضب هذا الكلام العلماء الذين لا يؤمنون إلا بالمحسّ ، ولا يقرّون إلا بالملموس ولا يثقون إلا بما يُرى . ولكن المؤلف يؤمن معهم كذلك ، ويؤمن فوق إيمانهم بأن وراء هذا الحسّ الذي تجوز عليه التجارب معنى لحقيقة مطلقة — غير نسبية — تلفُّ الزمان ولا يلفها الزمان ، وتطوي المكان ولا يطويها المكان . والعلم أقصر باعاً من أن يصل إليها أو يقف عليها .

لقد جعل شوقي العلم مصباحاً إلى شهود الله في قوله :

لو يرى الله بمصباح لما كان إلا العلم ، جل الله شانا

ولكن ميخائيل نعيمة جعل العلم قصير الباع عن إدراك الحقائق المطلقة . وليس معنى ذلك أن ميخائيل نعيمة يتجاهل قيمة العلم ، ولكنه يأخذ على الناس أنهم غالوا في تقديره إلى حد طغت فيه المادة على الروح ، وعصفت فيه المعاينة بالمكاشفة . وهي نظرية صوفية قطبية ...!

لقد قال إبرهيم لأبيه « آزر » أتتخذ أصناماً آلهة . فدعا إلى التوحيد وعبّاد الأوثان عليها عاكفون . واليوم يدعونا الأستاذ ميخائيل نعيمة إلى تحطيم أصنام جديدة لم يعرفها عباد الوثن القديم .

ولكن الوثنية واحدة لا تتغير، سواء تمثلت في صنم قائم أو سلطان غاشم، أو حكم ظالم ، أو في عبادة الدراهم ...

تطور الري في العراق

تأليف الدكتور أحمد سوسة

٢٣٥ صفحة من القطع المتوسط . مجلة المعلم الجديد العراقية . بغداد ١٩٤٦

هناك على الجبال الشاهقة الواقعة في تركيا وإيران ينبع الرافدان التوأمان ، دجلة والفرات . ولقد قامت في حوض التوأمين حضارة قديمة ، كما قامت في حوض النيل حضارة لا تزال الحفائر الحديثة تكشف عنها كل يوم نقاباً ، وما أصدق السير وليم ولككس حين قال : « إن الري هو الذي دفع الناس إلى اقتباس النظام ، واحترام القوانين والخضوع للعادات الاجتماعية . ولعل هذا هو السر في أن جميع المدنيات القديمة في العالم إنما نشأت أول الأمر في الأودية التي ترويها الأنهار التاريخية الكبرى » .

ولقد كان العراق خلال آلاف تولت من السنين موطناً للري الدائم . وكم حاول ملوك بابل القدماء أن يسهلوا على الناس الإفادة من ماء النهر . فتنافسوا في شق الجداول وتقوية السدود التي تحمي جسور النهر من التأثر بماء الفيضان ، كما تنافسوا في إقامة القناطر والخزانات . ولم يعل فخرهم بذلك عن فخرهم بخوض المعارك وكسب المواقع .

ولما استولى الفرس على العراق في القرن السادس قبل الميلاد ، احتفظوا بنظام الري البابلي وزادوا عليه من رسائل التحسين ما سمحت به حالة التطور .

وفي القرن الرابع قبل الميلاد اهتم الإسكندر الأكبر المقدوني بمشروعات الري واستصلح في عهده كثير من الأرض .

وفي العصر الساساني تمتع العراق بكثير من الرخاء وأعيد إحياء كثير من مشروعات الري المهملة . ولقد أعان الاستقرار السياسي البلاد على أن تتمتع بنصيب كبير من العمران .

ولم يقف تطور الري العراقي في العهد العربي ؛ فقد حافظ العرب على المشروعات القديمة التي أقامها أسلافهم الساسانيون ، واعتنوا بالنهروان ، وأعادوا تخطيط جداول الفرات ، ومنعوا تملك الأرض من قبل الفاتحين « ولعل الدافع الذي حملهم على ذلك هو الرغبة فى استمرار الحياة الزراعية على حالتها الطبيعية » .

ولقد صرح السير وليم ولككس « أن أعمال العباسيين في ريّ العراق في الأيام الماضية تشبه أعمال الري في كل من مصر والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا في هذا العصر » . وقد أشار ابن الجوزي في كتابه : « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » إلى المقياس الذي نصبه العرب على نهر دجلة في مدينة بغداد لمراقبة كميات المياه التي تصل إلى النهر في مختلف المواسم وتسجيل منسوباتها .

إن كتاب (تطور الري في العراق) يفيد مهندس الري من الناحية الفنية ، ولكنه من ناحية أخرى يمد المؤرخ العربي بفيض من الوثائق التاريخية عن فضائل الحكم العربي في سهول العراق وأوديته .

بين العلم والأدب

تأليف الأستاذ قدري حافظ طوقان

٣٠٨ صفحات من القطع المتوسط . مكتبة فلسطين العلمية . القدس ١٩٤٦

يمتاز الأستاذ قدري حافظ طوقان بمزية خلقية فوق مزاياه العلمية التي تشهد بها مقالاته وإذاعاته ومحاضراته ، فهو مؤمن أشد الإيمان بقيمة التراث العربي ، وهو وفيّ لهذا الميراث الضخم ، يدعو إليه وينادي به في كل فرصة تصادفه .

ولا يصدر الأستاذ في هذا عن تعصب أو تحيز ، ولكنه ينطق والدليل في يديه ، والحجة تظاهره ، والتاريخ يؤيده ، وغايته من ذلك أن يكون لسان صدق للفضائل العربية في الثقافة والحضارة والعلم والأخلاق يوم أن كان للعرب ثقافة وحضارة وعلم وأخلاق .

وقد ظهر اتجاه المؤلف في كتابين ظهرا له قبل اليوم ، وهما « تراث العرب العلمي » و « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » . أما الكتاب الأول فقد استقل

الأستاذ بعبء تأليفه ونهض به وحده . وأما الثاني فقد اشترك فيه مع جماعة من المصريين التقوا معه على سمو الغرض وشرف القصد .

والمؤلف ممن يؤمنون في إحياء الخصائص العربية بالجهد المنظم والعمل المشترك .

ويرى رأي الدكتور علي مشرفة باشا في عقد مؤتمر للعلوم العربية يبحث في إنشاء مجمع دائم للدراسات العربية والإسلامية ، ويعمل على نشر المؤلفات العربية مع شرحها وبيعها بأثمان معتدلة ، ويبحث في تخليد ذكرى كبار علماء العرب ونوابغهم .

ولقد وقف المؤلف قلمه ولسانه وقلبه على هذه الدعوة . وصدورها من عالم مثله مما يجعل لها قيمة ويضفي عليها قدراً ، فهو مشتغل بالمسائل الطبيعية والرياضية ، وهما موضوع دراسته ، وهو فوق ذلك مؤرخ لتطور العلوم عند العرب وعند الغربيين . فإذا كتب في العلم فهوعلى ثقة مما يكتبه لأنه موضوعه ! وإذا كتب في تاريخ العلوم فلا ينبئك مثله ، لأنه خبير ...

ويمتاز أسلوب المؤلف بالمطاوعة واليسر والوضوح وصحة البناء العربي ، فليس فيه من التعقيد والركاكة والغموض ما نصادفه في بعض المؤلفات التي تنقص مؤلفيها أداة التعبير الصحيح . فهو حين يتحدث عن بيت الإبرة ، وعجائب المعادلات واللانهاية والبرق والرعد ، يجعلك تقرأ العلم الجاف في صياغة أدبيــة لذيذة ، لأن علمه قدأدبته ثقافة أدبية عربية صحيحة . ومن هنا كان كتابه مزيجاً من « العلم والأدب » .

عبد الله فكري

عصره — حياته — أدبه

تأليف الأستاذ محمد عبد الغني حسن

١٢٨ صفحة من القطع الكبير . مطبعة مصطفى الحلبي . القاهرة ١٩٤٦

أديب يكتب عن أديب ، وشاعر يتحدث عن شاعر . هذا هو الإحساس الأول الذي يبقى في نفسك بعد قراءة هذا الكتاب . والحق أن بين صاحب الترجمة وبين المؤلف أوجهاً كثيرة من الشبه ، فكلاهما معلم وموظف وصاحب خلق متين وناثر وشاعر . ولن يحسن الكاتب معالجة شخصية إلا إذا أحبها . ومن عيوب الحب أنه يعمي عن المساوىء . وقد أحب عبد الغني حسن عبد الله فكري دون أن يعرفه أو يراه ، بل من خلال رسائله وكتبه وشعره وعصره ، فصور كل ذلك أبدع تصوير . صحبه طفلاً حين

درس بالأزهر وألقى على أساتذته ضوءاً أنار نشأته الأولى ، كما كشف الستار عن طريقة التعليم بالأزهر قبل أن تتناوله الأنظمة الحديثة بالتغيير . وصحبه معلماً لتوفيق نجل الخديو إسماعيل ، وصحبه وكيلا للمعارف ، ورحل معه إلى أوربا ليحضر مؤتمر المستشرقين.

هذه الصحبة بعثت الحياة في أعصاب التاريخ ، وأهاجت الذكرى بأحداث الجيل الماضي ، وهو جيل حافل بالشخصيات ، عامر بالانقلابات السياسية والاجتماعية . وما أحوج شباب اليوم إلى معرفة ماضيهم . وهل توجد قومية بغير تاريخ ؟

وفي الكتاب فصل لا يقدر على معالجته إلا شاعر، وهو تحليل شعر عبد الله فكري وأغراض من الشعر نفذ إليها المؤلف . وسبق أن تعرض الأستاذ العقاد لشعر عبد الله فكري في كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي » فرأى أن قصيدته الحكمية هي نصائح معلم وليست وحي شاعر . غير أن الأستاذ عبد الغني حسن يعارضه في هذا الرأي ويثبت لعبدالله فكري شاعريته . وهو خلاف قد يكون مثار كلام طويل .

ومن أمانة المؤلف العلمية وطريقته الجامعية أنه يبدأ بذكر المراجع وهي تبلغ تسعة وعشرين ، ثم يثبت في الهامش الصفحة التي يرجع إليها في كل كتاب . وهي طريقة محمودة في التأليف ، تدل على التثبت والتحقيق .

ونأخذ على المؤلف بعض أمور ذكرها عندما تكلم على تصوف عبد الله فكري ، منها أن « من مبادىء التصوف القول بسلطة الأولياء ، والاعتقاد بالمكاشفة والكرامات » ص ١٠ . ولا يعتقد جميع المتصوفة بسلطة الأولياء ، فهو من كلام المتأخرين منهم . وكذلك قوله ص ١٣ « لأن شيوخ الأزهر أنفسهم إن لم يكونوا متصوفين بالفكرة والطريقة ، فهم متصوفون بالعمل » . فما الفرق بين الطريقة والعمل ؟

وبعد فهذا الكتاب على صغر حجمه من أنفس الكتب التي صدرت في هذه الأيام ، فهو يجمع بين رشاقة الأسلوب ، وأناقة السرد ، وحبكة الأطراف ، وطرافة الأحداث .

عصر المنصور الموحّدى

تأليف الأستاذ محمد الرشيد ملين

٢٦٠ صفحة من القطع المتوسط . المطبعة المحمدية . طنجة ١٩٤٦

في التاريخ السياسي للأمة العربية « منصورون » كثيرون منهم المنصور بن أحمد الفاطمي ، والمنصور الراشد بالله الخليفة العباسي ، والمنصور المستنصر بالله العباسي ، والمنصور

الحاكم بأمر الله الفاطمي ، والمنصور بن يوسف الصنهاجي صاحب إفريقية في الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري والمنصور أبو عامر أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي، والمنصور الموحدي عبد الله يعقوب بن يوسف ، الذي تولى عرش دولة الموحدين بالأندلس، وتمت له البيعة في مراكش سنة ٥٨٠هـ — سبتمبر سنة ١١٨٤ .

ودولة الموحدين هي الدولة التي خلفت المرابطين . ومؤسسها داعية ديني أقام على الدين دولة سياسية لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الإسلام بالأندلس وشمالي إفريقية .

والمنصور هذا يمثل الحاكم الصالح المصلح في الحكومة الإسلامية . اشترى — أنفس المسلمين بأمواله وخيراته ، فأحسن إلى المسيء وتصدق على الفقير ، ورفع كثيراً من بيوت الله ، وأنشأ كثيراً من البيمارستانات للمرضى ، وأمن الطريق المخوف وسهل الدرب الوعر ، وقرب إليه العلماء ، وأجرى عليهم أرزاقاً واسعة ، وخص بعنايته الأطباء وجاهد فى سبيل الله أي جهاد . والتقى مع ألفونسو ملك قشتالة الإسبانية في موقعة الأرك المشهورة Alarcos سنة ٥٩١ هـ ، فمزق شملهم ، وقتل ثلاثين ألفاً من رجالهم* وزهرة فرسانهم .

وفي تاريخ هذا البطل تاريخ البطولة العربية المغربية . وهي بطولة لم تكن للسيف وحده ، ولكنها كانت للفكر العربي والروح العربية المتوثبة ، فقد حارب الأمية في المدن والبراري كما حارب العدو ، كأنه كان موكلا بمحاربة الأدواء على اختلاف ألوانها ، حتى كان عصره من العصور الذهبية للاسلام .

ولقد وفق الأستاذ محمد الرشيد ملين إلى عرض هذه السيرة في كتابه الذي طبع بعناية فى بلاد المغرب وبإذن من صاحب الجلالة محمد بن يوسف سلطان المغرب ليطبع في مطبعة جلالته « المحمدية » .

بذل المؤلف كثيراً من الجهد في الرجوع إلى مصادر لبحثه ، ولو أنه فاته بعض المراجع مثل « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي ، و« الحلة السيراء » لابن الأبار و « الاستقصا فى تاريخ المغرب الأقصى » للسلاوي و«تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » ليوسف أشباخ الألماني وترجمة الأستاذ المؤرخ محمد عبد الله عنان ، وهذا الأخير مفيد من حيث الاطلاع على وجهة النظر الأوربية .

---

* تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ الألماني يوسف أشباخ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٠

بقيت لنا كلمة عتب على المؤلف الفاضل ، والود باق ما بقي العتاب ، فإن اللغة التي ارتضخها المؤلف لم تسلم في كثير من المواطن مما لا يرضى عنه الفصاح .

صدى النقد

حضارة العرب

رد الأستاذ عادل زعيتر

قرأت النقد الذي وجهه الأستاذ محمود اللبابيدي في الجزء السابع من «الكتاب» إلى ترجمتي لكتاب « حضارة العرب » ، وكنت أود ألا أتصدى للرد عليه ، والكتاب ترجمتي ، وأنا من القائلين يفتح باب النقد على مصراعيه ، بشرط النزاهة وسلوك سبيل القصد وتوخي الحق ، والابتعاد عن السفاسف والتمسك باللباب والنفوذ إلى روح الموضوع والإحاطة به ، فمن منا لا يؤخذ منه ولا يرد عليه ؟ وهذا « مع شكري للقارئين عنايتهم وللمقرظين رعايتهم وللناقدين همتهم وللمناضلين مروءتهم » .

بيد أن الأستاذ محمود اللبابيدي لم يسر على ذلك ، بل أخذ يتصيد من هنا وهنالك لفظاً أو جملة أو مظهراً لم يرقه ليجعل من الحبة قبة ، فينادي ، متجنياً متعسفاً ، بالويل والثبور ، ولو انتهى إلى نتائج لا تمت بصلة إلى موضوع الكتاب جملة وتفصيلا .

أرى أن ما قاله الأستاذ اللبابيدي يرجع إلى ما يأتي :

١ — لما ظهرت الطبعة العربية لكتاب « حضارة العرب » للدكتور غستاف لوبون تناولها بنهم زائد ، فلما أطلع على الأصل الفرنسي رأى الفرق في المظهر بين النسختين كبيراً . فالمؤلف قد أخرج كتابه وعليه مسحة من آثار القوم الذين درسهم في صفحاته بما زينه به من شتى الصور غير أن المترجم جرد النسخة العربية من هذه الحلية ، مقتصراً على نشر بعض الصور الخاصة بفن البناء ، فجاءت النسخة العربية هزيلة ، ثم أعرب الأستاذ اللبابيدي عن رفضه لأي عذر للمترجم ، ولو احتج المترجم بتعذر طبع اللوحات الملونة في مصر وكثرة النفقات .

٢ — إن المترجم كتم كثيراً من آراء العلامة لوبون تارة بالحذف وطوراً بالتعديل حتى ثبت أن المترجم سار على خطة مرسومة في إخراج آراء المؤلف في ثوب

يرضى عنه العرب والمسلمون ، والمترجم ليس رجل ثقافة فقط ، بل هو رجل شرع وقانون أيضاً ، وقد ترجم كثيراً من كتب الدكتور لوبون ووقف على أسلوبه العلمي ، فيجب عليه أن يثبت آراءه كما هي . وآية الناقد في ذلك ما وجده في الفصلين الكبيرين « خلاصة القرآن » و « حياة محمد وأخلاقه » اللذين قابلهما بالأصل فوجد فيهما الفروق الآتية :

ا — كون المترجم قد حذف قول لوبون : « مع أن القرآن نزل وحياً من الله على محمد فإن هذا الكتاب المقدس ضعيف الارتباط بعضه ببعض » — كون المترجم قد حذف كلمة « لم يكن محمد فيلسوفاً كبيراً قط » من قول المؤلف : « لم يكن محمد فيلسوفاً كبيراً قط ، أي من نمط مؤسسي دين البراهمة والديانة البوذية » — كون المترجم قد حذف كلمة « المنطق » من قول المؤلف : « والقرآن قليل الترتيب والمنطق غالباً » فجعله : « قليل الترتيب » فقط — كون المترجم أغفل تعليل المؤلف لغلو العرب في تعظيم القرآن برده هذا الغلو إلى مزاج الشرقيين ، وذلك بحذفه صفة « شرقي » من كلمة : « ومع ما في ذلك من غلو شرقي » .

ب — كون المترجم قد عدل قول المؤلف : « إن أسلوب القرآن وإن كان ممتازاً . . . » فجعله « والقرآن مع ما فيه من بلاغة أسلوب وإعجاز بيان » — كون المترجم قد عدل قول المؤلف : « ومحمد هو الذي يتكلم في القرآن باسم الله » فجعله « والله هو الذي يخاطب الناس في القرآن » — كون المترجم قد عدل رأي المؤلف : « إن ضعف محمد الوحيد هو حبه للنساء الذي جاء متأخراً » فجعله « ولا يلام محمد على غير حبه الطارئ للنساء » .

ح — كون المترجم قد طرح تسمية المؤلف للحكومات العربية « الإمبراطورية العربية » فجعله « الدولة العربية » — كون المترجم تصرف في عنوان الباب الثاني الذي هو « أصول الحضارة العربية » فجعله « مصادر قوة العرب » فاستبدل كلمة « القوة » بكلمة « الحضارة » .

تلك هي خطوط نقد الأستاذ اللبابيدي الأساسية ، وقد انتهى بها إلى قوله : « إن التعديلات التى أدخلها المعرب الفلسطيني على آراء المؤلف الفرنسي في تعريبه لكتاب حضارة العرب . . . قد قلبت آراء المؤلف في بعض المواقف رأساً على عقب » .

ويظهر أن السيد اللبابيدى شعر بتعسفه فرجع إلى الصواب بعد الأوان ، فختم نقده بقوله : « على أن ما آخذت به المعرب لا يمنعني من أن أوجه إلى حضرته تقديري العظيم

لشجاعته على تحمل مسؤولية إخراج هذا الكتاب الضخم ، وأن أنوه ، بالتوفيق الكبير الذي أصابه في تعريبه ، وباللباقة التي تناول بها نقل الكتاب ، حتى جاء وكأنه وضع بالعربية وضعاً بقلم سائغ » .

ولولا ما اشتمل عليه نقد الأستاذ اللبابيدي من التحريف والزيادة وقلب الحقائق وتحويل الكتاب عن مناحيه الصادقة إلى غير الصواب ما فكرت في الرد عليه طرفة عين .

١ — ظهر الأصل الفرنسي لكتاب « حضارة العرب » سنة ١٨٨٤ ، وقد علمنا من العلامة لوبون أن نفقات طبعه بلغت مئة ألف فرنك ذهباً ، أي أربعة آلاف جنيه أسترليني ذهباً ، مع رخص الأثمان وقلة أجور العمال وارتفاع قيمة الجنيه الذهبي في ذلك الحين ، وقد أثبت العلامة لوبون أمر هذه النفقات في مقالة نشرتها له مجلة التقاويم Les Annales سنة ١٩٢٣ على ما أذكر ، والنسخة الفرنسية الواحدة لا تجدها اليوم بأربعين جنيهاً لنفاد طبعتها ، وقد طبعنا الترجمة العربية سنة ١٩٤٥ . أي في أواخر الحرب العالمية الثانية، حين عز الورق وفقد من الأسواق السود وغير السود ، طبعاً متقناً لم تخرج مثله المطابع العربية منذ سنين ، حتى قال أحد كتاب مصر النابهين في مقالة نشرها : « إن كتاب حضارة العرب جدير برفع ذكر ناشره الذي طبعه في هذه الأيام على هذا الورق الفاخر ، وإن الإنسان ليحار إزاء الطريقة التي حصل بها عليه ، ويسأل : هل يستطيع أن يسترد نفقته ؟ » وإذا كان من المتعذر طبع الكتاب على الوجه الذي يراه الأستاذ اللبابيدي ، وحالة المطابع عندنا ما تعلم ، فهل ننتظر نصف قرن آخر حتى يطبع الكتاب طبعاً شاملا لجميع صور الأصل الفرنسي فيرضي أمثاله ؟ !

والأصل الفرنسي الحافل بالصور والرسوم قد وُضِعَ ، مع ذلك ، للأوربيين أكثر مما للعرب ، وإن حرصَ المؤلف على نقله إلى العربية وعتَب على العرب غير مرة ، لأنهم لم ينقلوه إلى لغتهم ، وما احتواه هذا الكتاب من الصور والرسوم مما هو مألوف عند العرب ، لا عند الأوربيين ، فإذا ما نقل مثل هذا الكتاب إلى العربية أمكن الاستغناء عن أكثر صوره والاكتفاء بما يبحث فيه المؤلف رأساً كالمباني مثلاً ، ولا أدري كيف فهم السيد اللبابيدي أن الاكتفاء بنشر صور المباني يتخذ دليلا على أن الحضارة العربية ليست إلا فن بناء ، فللكتاب فهرس مطول على رأس كل فصل ، وللكتاب فهرس جامع لعناوين الفصول في آخره ، ولم يترجم الكتاب ليتلهى بصوره الصبيان ، بل ليقرأه العرب من بني الإنسان .

ولا أدري هل كان الأستاذ اللبابيدي ، أو غيره ، يشتري نسخة الكتاب بعشرة

جنيهات لو أمكن طبع ترجمته كما يهوى ، إنني أشك في ذلك ، وقد قال أحد أفاضل الكتاب في مقالة نشرتها له مجلة « الرسالة » : « أما والغاية من نشر كتاب (حضارة العرب) تعميمه فأقترح أن تتولى إحدى الهيئات الوطنية شراء هذا الكتاب وتخفيض ثمنه إلى أقصى حد ممكن ، حتى لا يظل بيت خالياً من نسخة منه ، لأنه من حق الرجل الذي أنصف العرب — يوم كان الإنصاف جريمة — من حقه أن ينشر كتابه أعظم نشر . . » ، والنسخة تباع اليوم بجنيه واحد مع إتقانها ، لا بعشرة جنيهات ، أي بما لا يقوم بنفقات الطبع تقريباً ، فتأمل ! . .

ولا يستدل القارىء من ذلك أنني راغب عن إصدار الكتاب كالأصل الفرنسي ، وإنما أقول : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، والذي يؤاخذ عليه الأستاذ اللبابيدي أن يبلغ من التجني ما لا يقبل معه عذراً ، وأن يطلب الغاية فيخسر العرب بذلك البداية ، وأن يكابر فيزعم أن الطبعة العربية هزيلة مع أنها من أنفس ما أصدرته المطابع العربية .

٢ — أصيب الناقد ، الذي تناول الكتاب بنهم زائد ، بالتخمة النفسية لنهمه ، فلم يهضم الترجمة العربية ولا الأصل الفرنسي ، لا إجمالا ولا تفصيلا ، فأسفر نقده عما قذفه من مبتسر المعاني .

ا — يزعم جنابه أننا حذفنا قول لوبون : « مع أن القرآن نزل وحياً من الله على محمد فإن هذا الكتاب المقدس ضعيف الارتباط بعضه ببعض . . » ، أفلم يقرأ في الصفحة ١٢٩ من الترجمة : « والقرآن قليل الترتيب . . . وسبب قلة ترتيبه أنه أنزل بالتدريج تبعاً لمقتضيات الزمن . . . » ؟ أفلم يعلم أن الإنزال هو بمعنى الإيحاء كما جاء في كتب اللغة ؟ فأين الحذف ، إذن ؟

ب — إذا حذفنا كلمة : « لم يكن محمد فيلسوفاً » من كلمة « لم يكن فيلسوفاً أي من نمط مؤسسي دين البراهمة ، والديانة البوذية » ، فلاعتقادنا أن المؤلف قصد بقوله « لم يكن محمد فيلسوفاً » أنه « لم يكن من نمط مؤسسي دين البراهمة » اقتصرنا على التفسير الذي أراده المؤلف ، والمؤلف ، كما نعلم ، كثير التكرار في غير موضع ، ولم يفتنا أن نترجم قول المؤلف بعد أن سرد ما جاء في كتب البراهمة : « ولكن أقوالا مجردة مثل تلك لا تنفع غير الفلاسفة » فأوردنا بذلك ما قصده المؤلف من نفي صفة الفيلسوف عن الرسول ، والمؤلف قد ترجمنا له قوله في الصفحة ٦٣٨ : « وقد يكون فيما جاء به محمد . . من المبادىء اللاهوتية ما يبتسم منه ، ولكن العالم لم يعرف بعد من مذاهب الفلسفة ما هو ذو سلطان كما لبعض

تلك المبادىء . . . » ، فمن ذلك يرى الأستاذ اللبابيدي أن رأي المؤلف ظل كما هو في كتاب « حضارة العرب » .

ح — أن المؤلف حين ذكر كلمة « والقرآن قليل الترتيب والمنطق غالباً » قصد « الترتيب » بكلمة « المنطق » أي إنه سرد تينك الكلمتين على أنهما مترادفتان ، كما عليه قوله بعد ذلك : « وسبب قلة ترتيبه أنه أنزل بالتدريج تبعاً لمقتضيات الزمن ، وحلا لما كان يعترض محمداً من المصاعب والمشاكل ، فكانت إذا ما أنزلت منه سورة أو آية أملاها النبي على كتاب الوحي » . ومن معاني كلمة Logique تتابع الكلام وسياقه ، كما جاء فى الجزء الأول من القاموس الفرنسي العربي للآباء اليسوعيين ، فإذا حذفت إحدى الكلمتين المترادفتين فإن ذلك لايعنى حذف رأي للمؤلف ، بل يعني دفع الالتباس . والمؤلف لم يقصد هنا المعنى الفني من كلمة « المنطق » كما هو ظاهر . ومن أغرب مارأيته من تجني السيد اللبابيدي قوله إننا لم نلاحظ ماتهافت عليه المؤلف من أنواع المنطق في كتاب « الآراء والمعتقدات » الذي نقلناه إلى العربية أيضاً ، وإن المؤلف لم يذكر في « حضارة العرب » نوع المنطق الذي أراده من تلك الأنواع المنطقية ، فليعلم جنابه أن العلامة لوبون وضع كتاب « الآراء والمعتقدات » بعد كتاب « حضارة العرب » بنحو ثلاثين سنة ، وأنه لم يهتد إلى وجود أنواع كثيرة للمنطق إلا في كتاب « الآراء والمعتقدات » وأنه لم يشر إلى هـذه الأنواع المنطقية فى الكتب الاجتماعية الكثيرة التي ألفها في أثناء تلك السنوات الثلاثين ، فذكر المؤلف في كتاب « حضارة العرب » لكلمة « المنطق » مع عدم ذكره لنوع هذا المنطق فيه يؤيد وجهة نظري القائلة إنه أراد بـ« المنطق » « الترتيب » .

ء — إن المؤلف لم يقصد بكلمة Exagération Orientale سوى فرط المبالغة ، لا المبالغة الشرقية ، كما يتوهم السيد اللبابيدى ، وليسأل جنابه من يجيدون اللغة الفرنسية ممن اختلط بالفرنسيين إذا ما أراد ، فإذا اتخذنا كلمة « الغلو » بدلا من الكلمتين فلدلالتها على المعنى الذي قصده المؤلف ، « والغلو » كما جاء فى كتب اللغة يعنى : « التشدد والتصلب حتى مجاوزة الحد » ، ومن يطالع عبارة المؤلف الأصلية يتبين أنه لم يرد تعليلا لغلو العرب في تعظيم القرآن بوصفه « المبالغة » بكلمة « الشرقية » ، ومن يطلع على مقاصد المؤلف الحقيقية يعلم أنه أكبر من أن يهبط في تفكيره إلى الزعم بأن تعظيم العرب للقرآن هو أثر مبالغة شرقية .

هـ — لم نقصد بكلمة « والقرآن مع مافيه من إعجاز بيان » أن نوهم القارىء

بأن المؤلف يقول إن القرآن معجز ، وكيف نقصد ذلك وقد ترجمنا للمؤلف بعد بضعة أسطر قوله : « ويعد العرب القرآن أفصح كتاب عرفه الإنسان ، ومع مافى ذلك من غلو نعترف بأن في القرآن آيات بلغت الغاية من الفصاحة . . . » ، فلو دقق الأستاذ اللبابيدي في هذا ما وهم فى الأمر ، ولكان قد رأى أن المقصود من كلة الإعجاز هنا هو « القضاء بالعجب له » لا الإعجاز الذي يقصده علماء الكلام .

و — لا ندري من أين جاء السيد اللبابيدي أننا قصدنا أن ننفي عن المؤلف رأيه القائل إن القرآن أثر محمد ، بجعلنا كلة « والله هو الذي يخاطب الناس في القرآن» بدلاً من كلة « ومحمد هو الذي يتكلم في القرآن باسم الله » الركيكة غير المنسجمة مع كلام المؤلف في الصفحة نفسها ، فالمؤلف بعد أن ذكر : « أن سبب قلة ترتيب القرآن هو أنه أنزل بالتدريج تبعاً لمقتضيات الزمن وحلاً لما كان يعترض محمداً من المصاعب والمشكلات . . . » ذكر « أن الله هو الذي يخاطب الناس في القرآن » فقصد بذلك التعبير عما يدور في قلوب المسلمين لا عما يعتقده ، وهو الذي نعت الرسول في الصفحة ١٢٦ من الترجمة بأنه من ذوي الهوس أي بالمفتون ، ونعته في الصفحة ٣٣ من الترجمة بالمهوس الشهير إلخ ، والحق أننا لو قصدنا أن ننفي عن المؤلف رأيه القائل إن القرآن أثر محمد لكنا حذفنا تلك النعوت الخاطئة ، والحق أن السيد اللبابيدي لو درس ترجمة الكتاب دراسة الباحث المدقق ما تورط في نقده الخاطف .

ز — ومن تجني جنابه وتعسفه قوله إن المؤلف ينسب الضعف إلى محمد بسبب حبه للنساء وإننا قلبنا هذه النسبة إلى ملامة بسبب الحب ، مع أن المؤلف لم يلم محمداً لا من أجل حبه ولا من أجل ما نسب إليه من ضعف ، فليرجع الناقد بصره إلى عبارة المؤلف ليرى أن المؤلف جعل كلة « الحب » مفسرة لكلمة « الضعف » ، وإن شئت فقل مرادفة لها ، فاختيارنا لكلمة «الحب» فقط ، دفعاً للالتباس ، لايخرج عن مقاصد المؤلف ألبتة ، ودليلنا على أن المؤلف قصد بكلمة «الضعف» معنى «الحب» قوله في السطر نفسه : « ولم يخف محمد حبه للنساء فقد قال : حبب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة » ، ودليلنا الأعظم من ذلك قول المؤلف في الصفحة التالية : « وقد كان محمد قليل المسامحة نحو النساء .. » فكيف تكون قلة المسامحة مع الضعف ؟ وكيف يستسيغ السيد اللبابيدي غير هذا المعنى ؟ وأما لوم المؤلف للنبي على حبه فسياق كلامه يدل عليه ، فمن يطالع الترجمة العربية والأصل الفرنسي يصل إلى هذا المعنى ، وإن في ذكرنا لهذا اللوم ، مع أن المؤلف لم يقله كما يرى اللبابيدي ، دليلاً على نقض

مزاعمه القائلة إنني سرت على خطة مرسومة في إخراج آراء المؤلف في ثوب يرضى عنه العرب والمسلمون . فكيف تكون هذه خطتي وقد عزوت إلى المؤلف أنه لام الرسول على حبه مع أنه لم يلمه ؟ وكيف تكون هذه هي خطتي وقد أثبت رأي المؤلف في أن القرآن بعد أن كان عامل تقدم للعرب أضحى عامل تأخرهم ، فاضطررت إلى دحض هذا القول الخاطئ في مقدمتي للكتاب ؟ ألا يدل ذلك على سعة خيال السيد اللبابيدي وتصوره الأمور على غير حقيقتها ؟

ح — زعم السيد اللبابيدي ، أصلحه الله ، أن المؤلف سمى الحكومات العربية بـ « الإمبراطورية العربية » فجعل ذلك عنواناً للباب الثالث ، ولا يرى وجهاً لترجمتنا كلمة « الإمبراطورية » بكلمة « الدولة » ، فمن أين أتاه أنه لا ينبغي لنا أن نفعل ذلك ؟ فهل كلمة « إمبراطورية » عربية ؟ وهل كلمة « دولة » لا تدل على ما قصد المؤلف ؟ أفلا تعدل كلمة « الدولة الرومانية » كلمة « الإمبراطورية الرومانية » ؟ ليت اللبابيدي ترك هذه المسألة الفقهية إلى غيره من « رجال الشرع والقانون » ! ! . .

ط — وقد أبى الأستاذ اللبابيدي إلا أن يجعل خاتمة نقده قوله إننا تصرفنا بعنوان الباب الثاني الذي وضعه المؤلف هكذا : Les Origines de la Civilisation des Arabes وما ترجمته « أصول الحضارة العربية » فجعلناه كما شاء هوانا في الطبعة العربية هكذا « مصادر قوة العرب » ، فلما فتحنا الصفحة ٧٥ من النسخة الفرنسية وجدنا عنوان الباب الثاني هكذا : Les Origines de la Puissance des Arabes أي ما ترجمته « مصادر قوة العرب » فليقل لنا حضرته ما وجه العلة في هذا التصرف في النقد حتى حملنا وزر عمل نبرأ إلى الله منه ؟ ولكن قل هو التصرف في النقد حسب الهوى ، التصرف الكيفيّ في النقد أو الوهم الباطل ، أو كل ذلك معاً .

والسيد اللبابيدي لو تجرد قليلا من الهوى لرأى ، مع ذلك ، أن الباب الثاني خاص بمصادر قوة العرب ، ومباحث هذا الباب تدور حول الرسول ونشوء الدولة العربية والقرآن وفتوح العرب ، وأما الباب الذي خصصه المؤلف للبحث في حضارة العرب فهو الباب الخامس ، على الخصوص ، ويشتمل هذا الباب على عشرة فصول .

ظهر مما تقدم أن المسألة لم تزد عن اختيار المترجم للفظ رآه أوفق لمقاصد المؤلف ، أو حذفه لفظاً مكرراً دفعاً للالتباس ، أو لوجود ما يقوم مقامه من مترادف اصطلح عليه المؤلف ، وأن كل ما وقع هو مما اقتضاه بيان اللغة وانسجام العبارات ، لا أكثر ولا أقل ، فلا تبديل ولا زيادة ، ولا خروج عن رأي المؤلف ومقاصده ، وإنما هي زوبعة

أثارها الأستاذ اللبابيدي ، سامحه الله ، في فنجان ، فلن تؤثر في كيان الكتاب ، فالفصلان اللذان اختارهما جنابه من الترجمة ملائمان لآراء المؤلف ومناحيه في الأصل الفرنسي معنى ومبنى ، فلو لخص الأستاذ اللبابيدي ، أصلحه الله ، ذينك الفصلين من أولهما إلى آخرهما تلخيصاً نزيهاً ووضع نقده على هذا الأساس ما رأى فرقاً بين الأصل الفرنسي والترجمة ، ولكن حب تصيد الهنات ران على قلبه فكتب ما كتب .

ولو كان طلب الحق رائد جنابه لنظر إلى الكتاب بأسره ، وعرف مقاصد المؤلف الأساسية والمعاني التي أرادها ولخصها ، ثم بحث في هل أدركت الترجمة هذه الأهداف . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

لقد لخصت خطوط كتاب « حضارة العرب » الأساسية ومقاصد مؤلفه والمعاني التي أرادها في ثلاثين صفحة ، فجعلتها مقدمة لترجمة كتاب «حضارة العرب» ، فكان يمكن الأستاذ اللبابيدي أن يتبين منها حقيقة الكتاب ومطابقة الترجمة لموضوعاته . وأما أن يشغل جنابه نفسه في أن هذه الكلمة خير من تلك ، وأن هذه الكلمة زائدة ، وأن هنالك كلمة تركها المترجم أو عدلها ، ثم أن يزعم أن آراء المؤلف خرجت عن محورها ، فذلك يخرجه عن الصدد كما حدث .

وإذا سألتني عن الطريقة التي تمسكت بها في ترجمة الكتاب قلت لك : إنها تقوم على الترجمة الحرفيه ما أمكن ، بشرط أن لا تؤثر في جمال الأسلوب ، وإلا فالعدول إلى المعنى ومقاصد المؤلف ، مع تهذيب في العبارة تهذيباً يقرب من الترجمة الحرفية ، وفي هذا من التشدد الذي لا يأتيه غير الأقلين ما لا يخفى ، وهذا إلى ما يلاحظه القارىء من الجهود الكبيرة التي بذلناها في تذليل كثير من الموضوعات الطريفة والاصطلاحات الجديدة التي لا عهد لنا بها ، فنحن تشددنا أكثر من تشدد أحد أفاضل الكتاب المعاصرين الذي قال في مقدمة كتاب نقله حديثاً إلى العربية : «وقد قصدت في ترجمة هذا الكتاب إلى ترجمة المعاني مع الحرص على الروح التي أملته ، فإن لكل لغة بياناً ، وحسب النقل أن يدرك الغاية ويصيب الالباب » ، ونحن تشددنا أكثر من تشدد المستشرقين أنفسهم في نقل الكتب العربية ، ومنها كتب الحديث ، إلى لغاتهم، فاقتبس العلامة لوبون كثيراً مما ترجموه ، فاضطررنا إلى إعادة نصوصهم إلى أصلها العربي ، فاحتملنا في سبيل ذلك من المصاعب ما يدركه القارئ .

لقد كدت أخرج عن القصد في الموضوع ، فأرى أن أقبض العنان عن القول ، طالباً الهداية لمن ضل عن سواء السبيل .

عادل زعيتر

المسرح المصري في عام

للأستاذ زكي طليمات
مدير المعهد العالي لفن التمثيل العربي

بالقاهرة ثلاث فرق عاملة ، يكاد نشاطها يشغل طوال الموسم التمثيلي ، ولكل من هذه الفرق الثلاث دار للتمثيل يعرف بها وتعرف به ، فالفرقة المصرية مقرها « مسرح حديقة الأزبكية » ومقام فرقة نجيب الريحاني « مسرح ريتز » ولفرقة المطربة ملك مسرح « أوبرا ملك » وإطلاق اسم صاحبة الفرقة على المسرح الذي تعمل فيه ظاهرة نفسية غير عسير تفسيرها ، فالمطربة ملك من الجنس اللطيف الذي يميل دائماً للزهو وللخيلاء ، والذي يأبى أن يراه الناس غير قادر ما دامت القدرة قد منحته سلطانها في ناحية من النواحي .

وهناك فرقة رابعة ، فرقة علي الكسار ، وليس لها مسرح ثابت ، وإنما هي تعمل جوابة بين مسارح القاهرة والمصايف .

ولن يصعب على المتأمل ما تقدمه هذه الفرق من مسرحيات أن يستخلص لكل فرقة خطة في اختيار المسرحيات ، وطابعاً في الأداء التمثيلي ، ولوناً في الاتجاه العام .

الفرقة المصرية

فالفرقة المصرية ، بحكم أنها تحظى بالقسط الأوفر من إعانة الحكومة لترقية التمثيل العربي ، ولأنها تعمل بإشراف مباشر من جانب وزارة الشؤون الاجتماعية بواسطة لجنة اختارتها لهذا الغرض . تنهج خطة مزدوجة الهدف في اختيار المسرحيات التي تقدمها . فهذه الفرقة تعمل تارة في مسرحيات مترجمة بالعربية الفصحى عن الأدب الغربي ، ومرة في نفائسه وروائعه ، ومرة في غير أعيانه وعيونه ، كما تعمل تارة أخرى في مسرحيات

وضعتها أقلام مصرية، أقلها ذو أصالة ووزن، وأكثرها مقتبس من مسرحيات غربية. هذا والأسلوب البياني يجري في المسرحيات التاريخية بالعربية الفصحى، في حين أن الحوار يجري في المسرحيات المحلية المعاصرة باللهجة التي يتكلم بها أشخاص المسرحية كما لو كانوا في الحياة الواقعية.

وقد يبدو غريباً اختلاف المستوى في إختيار المسرحيات من حيث القيمة الأدبية والفنية، بيد أن العارف بما عليه الجمهور المصري من الثقافة الأدبية والفنية، ومن لم يغب عنه أن فن التمثيل باللسان العربي حديث العهد بهذه البلاد وأن حاجتنا إلى المترجمات الغربية ضرورة لا غنى عنها، ومن يدري أن المسرح، على الزمن وفي كل مكان، منبر يجب أن يخاطب جميع طبقات الناس، يقرر أن لا منصرف للفرقة من الجري على هذه الخطة، خطة تقديم الرفيع من الأدب المسرحي إلى جانب ما هو دونه رفعة ونفاسة، وخطة العمل في مسرحيات مترجمة وأخرى مؤلفة. إن الجمهور المصري لم يتشكل بعد ولم تتقارب طبقاته من حيث المستوى الثقافي والتعليمي، فلا حيلة للفرقة لكي تحظى بإقبال الجمهور على حفلاتها وتسوّغ وجودها وتعمل على نشر فن التمثيل في نطاق واسع في أن تكون بمسرحياتها للسواد الأعظم من الجمهور، كما تكون لأقليته المتعلمة، وفي أن تحاول أن تكون عند ما تريده الصفوة المختارة من المتعلمين وأصحاب الذوق المرهف.

هذه الفرقة المصرية، بتكوينها وبما تنعم به من مزايا، تكاد تشبه فرقة «الكوميدي فرنسيز» بفرنسا، فهي مطالبة، ما دامت خطتها ما أجملت ذكره، بأن تكون على نشاط جم بحيث تقدم في الموسم التمثيلي الواحد من المسرحيات ما يخاطب طبقات الجمهور المختلفة، ولكن من غير إسفاف، ومن غير أن تهدر جانب طبقة على حساب الأخرى. وعليه فهذه الفرقة مطالبة بأن لا تقدم في الموسم التمثيلي الواحد أقل من ست مسرحيات جديدة، وبأن تحسن إبرازها في إطار فني رفيع، بحيث يحجب الأداء التمثيلي والإخراجُ ما عسى أن تكون عليه بعض هذه المسرحيات من ضعف في التأليف، وهو ضعف قلما تخلو منه مسرحية من وضع أقلام مصرية، وهذا بحكم حداثة فن تأليف المسرحية بين ألوان الأدب العربي.

مجموعة المسرحيات القومية

ونزول «الفرقة المصرية» إلى تقديم مسرحيات خفت حمولتها من أزواد الأدب والفن لتكون عند ما تستسيغه أغابية الجمهور، لا يبرره أحسن تبرير، إلا أن تعمل

جادة على تشكيل مجموعة من مسرحيات تختار من بين أنفس ما أخرجته الأقلام المصرية في التأليف المسرحي ، تكون لديها بمثابة ذخيرة تعيد تمثيلها في أكثر المناسبات ، لتكون في نطاق مهمتها الحقة ، ولتقيم التوازن الصحيح على أتمه بين ما تقدمه في الموسم التمثيلي الواحد من نفيس المسرحيات — وهو قليل — وبين رخيصها — وهو كثير — هذا الرخيص الذى تضطر الفرقة اضطراراً إلى تقديمه لتخاطب الجمهور في طبقاته الهزيلة ثقافة وتعلماً . هذا ولا يخفى أن القريحة المصرية ما برحت تشكو الجدب في الإنتاج المسرحى السليم ، فما يخرج منها سليما ناضجاً قليل ، لا يغذي فرقة تعمل طوال أيام العام .

وأخذ الفرقة بما أشير به يجعلها فى المنهاج السوي لتكوين مجموعة من المسرحيات القومية Répertoire National تنمو على الزمن ، وتكون بمثابة ثروة قومية في الأدب المسرحي للشرق العربي عامة ، وليس لمصر وحدها، تباهي بها الفرقة في كل مناسبة ، وتجعلها بحق « بيت المسرح العربي » الناشئ الذي نرجو أن يزيد في توثيق العرى بين الأقطار العربية المختلفة .

وما أظن أن اللجنة المشرفة على الفرقة يعوزها التوجيه إلى هذا ، فبين مؤلفات المرحوم أحمد شوقي بك ما يصلح لأن يكون بداية لتأليف هذه المجموعة القومية من المسرحيات التي يعاد تمثيلها في كل موسم . وأذكر له مسرحيات « مجنون ليلى » و « كليوبترا » و « الست هدى » ، وللشاعر الذي يتألق له نجم في هذه الأيام عزيز أباظة باشا مسرحيتا « قيس ولبنى » و « العباسة » ، ولتوفيق الحكيم «أهل الكهف» و« شهر زاد » ، ولمحمود تيمور « حواء الخالدة » و« المخبأ رقم ١٢ » ، ولبشر فارس « مفرق الطريق » ، ولعادل الغضبان مسرحية « أحمس » . والقائمة تطول ولا شك إذا راجعنا ما كتبه إبرهيم رمزي وعباس علام وغيرهما .

وإلى جانب هذه المجموعة المختارة من المؤلفات المصرية تنشأ مجموعة أخرى من روائع المسرحيات المترجمة المقطوع بقيمها الأدبية والفنية، والتي تتفق والمزاج العربي من حيث الموضوع والمعالجة . وفي مترجمات أستاذنا الكبير خليل مطران لبعض مسرحيات وليم شكسبير الإنجليزي وكرني الفرنسي وما أجرت وزارة المعارف العمومية ترجمته بإرشاد معهد فن التمثيل ترجمة أنموذجية مجال متسع للانتخاب .

بهذا وذاك تتألف مجموعة ثابتة من نفائس المسرحيات المؤلفة والمترجمة، تصبح بحق ذخيرةً طيبة يقدم بعضها في كل موسم إلى جانب الجديد الذي تختاره الفرقة من المسرحيات.

موسم تمثيلي هامد

لم تقدم الفرقة غير مسرحيتين جديدتين ، واحدة مؤلفة ، وهي « العباسة » لعزيز أباظة باشا ، والأخرى مترجمة بعنوان « تاج المرأة » عن إسكندر ديماس الابن الكاتب الفرنسي المعروف في مصر بمسرحيته العاطفية « غادة الكميليا » .

مسرحيتان جديدتان تحسب تؤلفان كل نشاط هذه الفرقة في مدى ثمانية أشهر ، اضطرت الفرقة خلالها إلى إعادة المسرحيات التي سبق لها أن قدمتها في الأعوام الماضية !!

ومسرحية « العباسة » أفردت لها مقالا في هذه المجلة ، وواجب الإنصاف يقضي بأن أسجل ، على ما بيني وبين مؤلفها من اختلاف في وجهات النظر إلى بعض عناصر المسرحية ، أن النجاح الذي لاقته الرواية يرجع ، قبل أي اعتبار آخر ، إلى جودة الشعر وإشراقه ، أو بالأحرى ، إلى قلب الشاعر الذي تفجر عيوناً من أعيان البيان . لقد شاهدتها للمرة الثانية فكانت لي نفس النشوة التي ساورتني عند مشاهدتها للمرة الأولى ، وطربت لمقال الشاعر ، وليس لأداء الممثلين في إلقاء الشعر . وما زلت أقول إنه يجدر بالممثلين ، وأكثرهم ذو دربة ومرانة ، أن يقللوا من غلوأئهم في إنشاد الشعر ، بحيث يكونون لإبراز المعاني الكامنة فيه وإعلاء شأنها ، أكثر مما يأخذون بأسباب التنغيم والتفخيم في القول والتنبيه المنغم إلى القوافي ، وما إلى ذلك من البهلوانية الصوتية التي تخلب ولا تؤثر .

إن التمثيل يجري في هذه المسرحية ، ويالاسف ، بحال يذكرنا بأننا أمام نفر من الشعراء يتبادلون القريض في سوق من أسواق الشعر ، فالممثلون من تفاعيل الشعر الذي يمثلونه ومن أوزانه في قيود ، وكذلك الحال من حيث وقف التنفس ووقف المعنى ، وهم من هزة إيقاع الشعر وموسيقاه في إسار يضفي على الإلقاء رتابة مملة ، ويكسب الأداء التمثيلي جموداً ، يسلبه أحياناً هذه الطلاقة التي يجري فيها التعبير عن العوامل النفسية في سهولة ويسر ، وفي صدق وإخلاص ، بحيث يصبح الشعر ، وهو في أفواه الممثلين ، وكأنه نثر ولا نثر ، وشعر ولا شعر ، وإنما هو تعبير صوتي ، لا يختلف في توالي نبراته عن المألوف في إيراد الكلام ، كما يجري في الحياة التي نعرفها ونتكلم فيها ، ولكنه يسمو على المألوف — وذلك في بعض العبارات والأبيات ، وعلى شريطة أن لا يجافي المعقول والمقبول ، وأن لا يقع في المغالاة والتكلف — بإشراقات صوتية ، ولطائف من البر الصوتي الذي قد يجنح إلى التنغيم أو التفخيم والإشباع ، وذلك في بعض الأبيات التي يكون

فيها قول الشاعر نفسه لجمال اللفظ وإشراقات المحسنات الكلامية ، وليس لجوهر المعاني وانفعالات النفس .

مسرحية تاج المرأة

أصدر إسكندر ديماس الابن مسرحيته هذه باسم « دينيز Denise » وهو اسم لإحدى شخصيات المسرحية ، فكيف تغير اسم العلم هذا إلى شيء آخر ، يوحي إلينا ، أول ما يوحي ، بموضوع العفة والحصانة الخلقية لدى المرأة !!

أعلم حق العلم أن الذي حدا بالفرقة إلى إجراء هذا التغيير ، إنما هو إشفاقها أن لا يحسن المطالع إعلانات الفرقة نطق اسم « دينيز » باعتبار أنه اسم أجنبي غير مألوف ، وأن لا يجد في مطالعته ما يستثير فضوله إلى مشاهدة مسرحية .... هذه وجهة نظر ولا شك ، ولها ما لها وعليها ما عليها ، ولا ضير على الفرقة أن تجنح إلى هذا ، ولكن على شريطة أن يكون العنوان الذي تختاره مماشياً لروح القصة ، معبراً عن جوهر موضوعها .

والمسرحية التي نحن بصددها ، لادخل لها بما يجب أن تتخذه المرأة تاجاً تتحلى به ووساماً ، وإنما هي مسرحية تسخر في الصميم من نظام الطبقات بطريق غير مباشر ، فإذا نحن فى المسرحية بسيد من علية القوم « كونت أرستقراطي » ذي حسب ونسب ، يتزوج بشابة من طبقة الشعب ، بعد أن يضرب بتقاليد الأسرة وبنظام الطبقات وبالفوارق القائمة بينه وبين الشابة عرض الحائط .

وأعجب من هذا ، أن هذه الشابة ليست ممن احتفظن بتاج العفة ، فقد وقع لها حادث غرام حطم هذا التاج وسلبها الشارة الرفيعة التي كان يجب أن تتحلى بها !!

ويعلم « الكونت » بهذا ، ولكنه لا يعبأ به ، لأن الحب الصادق المتين الذي يعصف بقلبه — وقد وسع التجاوز عن فوارق الطبقات وتباين التقاليد — لم يضق بغفران زلة من زلات الشباب الأول ، ووهم صبوي من أوهام القلوب .

فالمسرحية بحكم ما تقدم ، حب عجيب ، حب ينتصر على كل اعتبارات وتقاليد . فأين هذا من العنوان الذي اختارته الفرقة لمسرحيتها الأخيرة !!

الأستاذ يوسف وهبي بك بالفرقة

ولا يسعنا ونحن نعقب على نشاط الفرقة المصرية في هذا العام من حيث الناحية

الخاصة بالمسرحية ، إلا أن تكون لنا وقفة أمام مقام يوسف بك وهبي بالفرقة ، فقد تولى إدارتها الفنية منذ أول هذا الموسم حتى عهد قريب .

لم يقدم الأستاذ وهبي مسرحية جديدة ، بل عمد إلى إعادة بعض مسرحياته القديمة ، من بينها ما طالعه الجمهور منذ خمسة عشر عاماً وتزيد . فمن المترجمات قدم مسرحيات « توسكا » لساردو ، و« الطاغية » لسباتيني ، و « الولدان الشريدان » لمن لا يحضرني اسمه من كتاب فرنسا في الحقبة الأخيرة من القرن الماضي، كما قدم من تصانيفه مسرحيات « رسبوتين » ، و « أولاد الشوارع » ، و « بيومي أفندي » ، وكل هذه المسرحيات سبق أن حكم الجمهور لها أو عليها .

فرقة الريحاني

وخطتها صريحه ومتواضعة ، ولكنها على تواضعها تجري على منهاج قويم . ففرقة الريحاني لا تعمل إلا في مسرحيات فكاهية لها أصل في المسرح الفرنسي ، ولكن الاقتباس فيها يجري بلباقة وحذق على أيدي نجيب الريحاني وزميله في المبدأ بديع خيري ، وللأول في هذا اختيار المسرحية التي يجري الاقتباس منها وتعديلها ، وللثاني الصياغة في لهجة عامية رشيقة تختار عباراتها بميزان دقيق ، لتكون في نطاق الفكاهة الممتازة ، وتجري فيها النكات من غير افتعال ولا إقحام ، فتخرج المسرحية وهي تتنفس عن صبغة محلية فاقعة تضيع معها معالم الأصل الغربي ، وتخاطب المزاج المصري العام في كل ما يتوق إلى سماعه تبعاً للظروف التي تحيط به .

وتعتبر هذه المقتبسات من أبرع ما ورد من نوعها في المسرح العربي منذ نشأته الأولى ، أي منذ أن عملت الذهنية العربية في اقتباس فن التمثيل عن الأدب الغربي في العقد السابع من القرن الماضي وإقراره في نطاق الأدب العربي المستحدث .

ويعمل الأستاذ الريحاني في مسرحياته هذه على أن يعلي جانب الفكاهة إلى أبعد مدى ، مع محاولة صادقة من جانبه أن يقول شيئاً ذا وزن . بيد أن هذا الشيء يضيع أحياناً وسط أكداس الفكاهة ، فيصبح كحبات من القمح في ركام من التبن !

ولكن يعوض عن هذا ، حسن الأداء التمثيلي من جانبه ومن جانب أفراد فرقته والأداء التمثيلي من المسرحية مثل « الصياغة » من المعادن والأحجار اللامعة ، وأقر بأن الريحاني « صائغ » ماهر ، ولا عجب فهو على رأس كبار الممثلين الفكاهيين ، بل هو أقدرهم حرفة وأخصبهم موهبة ، وأوسعهم علماً بوسائل التأثير في الجمهور .

ويمكننا أن نلخص نتاج فنه بأنه من أحسن ما يمكن أن يتذوقه الجمهور المصري في مختلف طبقاته ، من الصفوة المختارة إلى العامل ورجل الشارع .

بيد أن نشاطه محدود ، فهو لا يخرج في الموسم الواحد أكثر من مسرحيتين ، وفي هذا الموسم القائم لم يقدم غير مسرحية واحدة « سلاح اليوم » .

وما هو هذا « سلاح اليوم » الذي يشير إليه ؟

أدع التفسير للقارىء الذي شاهد المسرحية ، ورأى أنه سلاح قام منذ أن خلق الإنسان ، ولن يزال قائماً ما دامت الإنسانية يستخفها الملق والمداهنة والرياء ، وما دامت المرأة تلعب في مصاير الناس .

فرقة الكسار

وهي لا تختلف كثيراً في خطتها عن الفرقة السابقة ، ولا عجب في هذا ، فالريحاني وعلي الكسار عملا في وقت واحد ، يرجع زمنه إلى الحرب العظمى الماضية ١٩١٤ — ١٩١٨ ، كما أنهما شربا من منهل واحد ، وحمل كل منهما عبء « تمصير » فن التمثيل وتقريبه إلى أذهان السواد الأعظم من الناس بقدر ما وسعته ثقافته .

فإذا كان الريحاني هو مبتدع شخصية « كشكش بك » فالآخر هو مبتدع شخصية « البربري عثمان » .

بيد أن النتاج الفني يختلف لدى كل منهما من حيث الحذق والاقتباس والإخراج والأداء التمثيلي ، ومن حيث مستوى المسرحيات الغربية التي يقتبس عنها ، فهو لدى الريحاني أكثر التحاماً بالفن الذي هو عليه ، وإن كان الأستاذ علي الكسار يقف بين ممثلي مصر عامة أنموذجاً للممثل الموهوب ، الذي صقلت مواهبه المرانة الدائمة لا التثقيف الفني .

ومسرحيات علي الكسار خليط من التمثيل والموسيقى ، تجرى فيه سياقة الحوادث في منطق بدائي وطريقة أولية . والجدير بالانتباه أن نشاط هذه الفرقة لا ينقطع طوال الموسم .

فرقة السيدة ملك

وهذه للروايات الغنائية غير الكاملة ، وأعني بها « الأبريت » و « الأبرا كوميك » إذ الغناء يمتزج بالحوار على حال تكون فيها الغلبة للموسيقى ، ولا عجب فصاحبة الفرقة

كانت وما زالت للغناء ، وقد اتسع نطاق عملها ، فأصبحت تلحن مسرحياتها وتمثلها وتقول إنها تخرجها أيضاً !

وفي يقيني أنه لو اقتصر مجهودها على التمثيل والإنشاد فحسب لأجادتهما معاً ، ولشقت مسرحياتها أفقاً في التلحين الموسيقي المسرحي ، إذ يتولاه من هم له ومن برزوا فيه ، كما يتعدد طابع التلحين ويختلف .

بيد أن جهودها جديرة بالتشجيع ، ولعلها لا تني عن تقديم المسرحية الغنائية الكاملة أي « الأبرا » ، فإن مسرحنا الغنائي ما زال مفتقراً إليها .

وقد قدمت الفرقة في هذا الموسم ثلاث مسرحيات جديدة هي : « بنت الشيطان » و « عمرو بن العاص » و « سهام » كما أعادت تقديم مسرحية « زينة » و « بنت بغداد » والمسرحية الغنائية بموسيقاها أولا ثم بموضوعها ، وذلك باعتبار أن الموضوع وسياقته إنما هو مندوحات للغناء والعزف . وموسيقى هذه المسرحيات كلها من معدن واحد ، كما أن صاحب الصوت الذي يتفرد بالمقطوعات الغنائية لا يتغير ، وهو صاحبة الفرقة !!

هـذا موجز لنشاط فرقنا التمثيلية في هذا الموسم . وهو نشاط محدود لا يتفق وما نسمعه من اهتمام الحكومة بشؤون المسرح المصري .

زكى طليمات



زينب البدوية

للأستاذ شفيق أحمد خلاف

على ضفة الجدول الصغير الشادي ، وفي ظل النخلة الباسقة الهيفاء التي يهزها النسيم، فتساقط الرطب الذي يذهب ببعضه ماء الجدول ، ويصيب من بعضه بعض الطير، جلست زينب ، تلك الفتاة القروية الحسناء ، بجانب جرتها الفارغة الملقاة على جانبها فوق العشب تستمع في شغف إلى حديث إبرهيم ؛ إلى حديث الحب ، إلى حديث الشباب في ربيع الحياة :

« الحياةُ الحبُ والحبُّ الحياهْ هو من سَرْحتها سِرُّ النواهْ »

« وعلى صحرائها مرَّت يداه فجرتْ ماءً وظلا وجَنَى »

جلست زينب تستمع إلى إبرهيم فيحدثها بحديث قلبه ويستمع إليها إبرهيم فتحدثه بحديث قلبها ، حتى دنت الشمس من الغروب ، وعاد الفلاحون من كل صوب بماشيتهم إلى القرية يغنون ، وعادت الطير من كل ناحية تهزج إلى العشاش ، ونظرت زينب فلم تجد رجلا في حقل يعمل عملا ، ولا امرأة على ماء تملأ جرة ، فثابت إلى نفسها وقامت متثاقلة إلى جرتها ، فشمرت عن ساقيها ونزلت بها إلى الماء مذعورة تتلفت ، وطفق إبرهيم ينظر فى لهفة إلى ساقيها العاريتين الجميلتين يلثمهما الموج ، وإلى جرتها يقهقه فيها الماء ، وحانت منها التفاتة ، فاشتبك النظران ، وخجل الحبيبان وأغمضت الجفون .

وثبت زينب في خفة الغزال إلى الشاطئ ، وسحبت جرتها من الماء ، ورفعتها بمعاونة فتاها إلى رأسها ، وسوتها على حويتها ، وبدت بها وهي تنظر إلى الرطب المتساقط من النخلة في الجدول يتقاذفه الموج ، وعلى الشاطئ يتخاصم عليه الطير كحورية على شاطىء الكوثر ، وظلت كذلك برهة كانت فيها فتنة لكل من يراها ، ثم نظرت إلى فتاها نظرة ساحرة ، زلزلت قلبه ، وزلزلت الأرض تحت قدميه ، ثم ولت عنه تتهادى بجرتها في طريق القرية بين الأشجار التي يصدح من فوق أغصانها الطير .

ظل الفتى المفتون فى ظل النخلة الحبيبة ينظر مهوراً إلى الفتاة الجميلة تسير في

الطريق حتى توارت عنه ، فعاد ينظر مبهوراً إلى النخلة ، وإلى الزلال العذب تحت النخلة ، ويقلب بصره في الحقول الخضر حول النخلة ، حتى سحبت الشمس الغاربة في رفق آخر أذيالها عن الوادي ، ولف الكون سكون شامل لا يقطعه إلا أصوات السماني في حقول الغلال.

ظل الفتى المفتون في ظل النخلة الحبيبة التي جرى في ظلها حديث الهوى فوله الطير ساهماً يستروح نسمات المساء ، ويستمع إلى مناجاة اليمام ، حتى سجا الليل وأطبق الظلام ، فثاب إلى نفسه وودع نخلته وعاد إلى القرية ؛ القرية التي عادت إليها زينب ؛ زينب حبيبته، فهل هو ملاقيها هناك ؟ ذاك شيء لا يدريه ؛ ولكن الذي يدريه ، أن أمامه أهوال ليل طويل ؛ فهل أمام حبيبته مثل أهوال هذا الليل الطويل ؟ ذاك شيء لا شك فيه ؛ ألم تكن تبادله النجوى منذ حين ؛ ألم تكن تستمع إليه فيحدثها ويستمع إليها فتحدثه ؟ ألم يجمعهما الحب في خلوة فينسيا كل جليل في الحياة إلا هذا الحب ؟

لا بد لكل من الفتى والفتاة من سهر طويل يخلو فيه إلى نفسه فيستعيد ما مرّ في ظل النخلة من أحاديث ، ولا بد لكل منهما أن يمر على مخيلته ما مر عليه في ظل النخلة من صور ، ولا بد لكل منهما بعد هـذا السهر أن ينال حظـّـا من النوم ، ومن يدري لعلهما يريان فى نومهما أنهما جالسان إلى النخلة ؟ ومن يدري لعل النخلة تقترب منهما حيناً وتبتعد عنهما حيناً آخر ؟ ومن يدري لعلهما يظلان في هذا الحلم ، وفي غير هذا الحلم حتى يصحوا على أصوات الطير في الفجر، فتهزهما هزاً ، وتدفعهما دفعاً ، حيث يتسابقان خفافاً إلى النخلة التي في ظلها الفتيان يتلاقيان .

ظلت النخلة ملتقى الحبيبين ، يتلاقيان عندها في شغف ، ويفترقان عندها في لوعة ، حتى كان أصيل من الآصال ، فإذا بزينب آتية من القرية في بعض لداتها من فتيات الريف يحملن جرارهن على جوانبها فوق رؤوسهن ساعيات في طلب الماء ، وهن يتحدثن في شؤون الدار والحقل مرحات ، لهن ضحكات عالية يتردد صداها في الفضاء ، حتى بلغن أول ماء فملن إليه ، إلا زينب ، فقد أبت أن تملأ منه جرتها ، وقالت لرفيقاتها وهي تواصل سيرها منفردة : الماء جميل عند النخلة ، وأشارت بيمينها إلى باسقة من النخل هيفاء يداعب سعفها الهواء على ماء بعيد .

ظلت زينب تتهادى بجرتها في طريقها إلى الورد المحبوب في ظل النخلة الحبيبة حتى أدركتها عاصفة هوجاء تزمجر في الفضاء وتعربد في أغصان الشجر ، فجعلت تعبث بثوبها الأسود الرقيق الفضفاض فتجذبه من على بدنها حيناً وتلصقه حيناً آخر ، فتبدو مفاتن جسمها الجميل .

قدٌّ أهيف ملتف لايشينه قصر ولا يذهب به طول ، صورت أعضاؤه كما شاء الجمال ، فكانت فتنة للعيون وهوى للقلوب ، يشرف عليه من فوق عنق طويل ساحر النحر ووجه مليح القسمات ، حلو اللفتات ، به عينان واسعتان ساحرتان سوادهما ساج ، وبياضهما عاج ، تقوس عليهما حاجبان كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بجمر ، وأنف جميل وفم إذا انفرجت شفتاه الورديتان عن ثناياه اللؤلؤية تهلل الوجه وامتزجت فيه أضواء وظلال ، وارتسمت عليه معان تتملاها العين ويخفق لها القلب ولايستطيع وصفها البيان .

ظلت زينب تسير وهي تتعثر بأذيالها وسط هذه العاصفة الهوجاء التي تزمجر من حولها حتى وصلت إلى المكان المحبوب ، حيث كان فتاها ورفيق صباها وحده في ظل النخلة التي تتمايل كالشارب النشوان ، والعصافير تفر من بين سعفها المضطرب صارخة ، ينتظر على أحر من الجمر فتاته ورفيقة صباه ، فهلت عليه فجأة من جانب كثيب أهيل تتلفت تلفت الظبي المذعور ، نخفق فؤاده خفقاناً شديداً ، وعيت ساقاه عن حمل جسمه ، فجلس وجلست إليه حبيبته يشملهما صمت شعري رهيب .

وبينما هما في صمتهما الشعري الرهيب يستمعان إلى أنين النخلة وعويل الريح إذ سقطت عليهما تمرة فتذوقها الفتى فإذا هي مرة فلفظها ، وتذوقتها الفتاة فإذا هي مرة فلفظتها أيضاً ، وعاد الفتى والفتاة إلى صمتهما ، تخاطب عينا كل منهما عيني الآخر ، وفجأة قامت زينب فملأت جرتها وانتصبت بها واقفة تستروح ريح النخلة وتنظر إلى الوادي وإلى الشمس الغاربة ، ثم إلى حبيبها وتبكي ، وينظر الفتى إلى حبيبته الباكية فيرى صورة من أروع صور الجمال الحزين ، فيبكي بكاء مراً من بكاء حبيبته الذي لم يعرف تأويله ومعناه .

حدقت الفتاة طويلا في وجه الفتى بعينين مخضلتين بالدمع ، ثم ولت عنه والدمع يتساقط من بين أهدابها الوطف على وجنتيها كحب اللؤلؤ الرطب يبرق في سنا الشمس تهادى بالجرة إلى القرية ، تاركة إياه في جوار النخلة ؛ وظل الفتى في ظل نخلته الحبيبة يستمع إلى لغة الحب من حناجر الطير ويتنسم ريح الحب من شجرات الحقل ، حتى أظلم الليل ، فعاد إلى القرية ولم يدر ما خبأ له القدر في الغيب .

في أمسية حزينة من أماسي الصيف سمعت من بيت زينب ضجة يتخللها غناء صبية وزغردة نساء . ما الخبر قالوا : زينب بنت عمران تزف إلى أحمد بن سعد ؛ زينب تزف إلى غير حبيبها ؟؟ زينب تزف إلى غير إبرهيم ! ؟ ياللفجيعة ! يالسخرية القدر ! يالشقاء الحياة ! ! فيم إذن كان كل هذا الهوى ؟ ما أقساك أيها القدر ! ما أتعسكم أيها الناس !

شفيق أحمد خلاف

انبـاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج :

مصـر

تقوم لجنة حفظ الآثار بعمل سجل للمساجد على نفقة حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول المعظم ، ينتهي في خلال أربع سنوات ، وسيشتمل على ٥٠٠ صورة فتغرافية و ٣٠ لوحة ملونة وصحائف للشروح .

✡ ✡ ✡

يسرنا أن نشيد على صفحات هذه المجلة بما تمتاز به المجلات الجديدة الصادرة في هذه الأيام عن مختلف البلاد العربية من طابع الرصانة والجد، كأن المخلصين من رجال الفكر والقلم قد شعروا بعظم الرسالة التي يضطلعون بها فى العهد الجديد فآلوا إلا أن يؤدوها على أقرب وجه من الكمال .

وآخر ما وصل إلينا من هذه المجلات الجديدة الرصينة مجلة « اليقظة العربية » الصادرة عن دمشق الفيحاء والمعقود لواء تحريرها بإدارة الأستاذ محمد حمدان . ولقد طالعنا الجزء الأول منها فإذا هو مثال طيب للذوق السليم في الأناقة والإخراج، ومجموعة قوية من الأبحاث الشائقة المنوعة في العلم والأدب والنقد ، دبجتها يراعات كفية تعنى بجودة الأسلوب عنايتها بجودة المعنى . فندعو للزميلة الكريمة بالرواج الذي هي أهله ، ونتمنى لها التوفيق والنجاح في خدمة العرب ولغة الضاد .

✡ ✡ ✡

أنشئت بالقاهرة جمعية لرعاية أرباب القلم والفن . ولقد تفضل صاحب المجد النبيل عمرو إبرهيم بقبول رياستها ، كما أن جماعة من سيدات الطبقة العليا قد اهتممن بالمشروع وبذلن فيه مساعدة ثمينة ، وتنوي الجمعية إقامة مهرجان فخم في الخريف المقبل يكون ريعه النواة الأولى لتمويل المشروع .

✡ ✡ ✡

أقام المعهد الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة معرضاً حافلا للمطبوعات التي نشرهـا المصريون والأجانب باللغة الفرنسية بمصر . ولقد دل هذا المعرض على مدي النشاط المتواصل منذ نحو مئة سنة في جميع النواحي الفكرية من علم وتاريخ وطب واستشراق وأدب، كما دل على الصلات الفكرية التي كانت ولا تزال قائمة بين البلدان العربية وأوربا .

ويقوم هذا المعهد بطبع الأجزاء الباقية من كتاب المؤرخ ابن إياس ، وقد ترجم هذا السفر التاريخي المسيو جستون فييت مدير دار الآثار العربية، وكانت المستشرقة مدام ديفنشير قد شرعت في ترجمته إلى الفرنسية منذ أكثر من ٢٠ عاماً لحساب جمعية المستشرقين بالإستانة .

يشتغل الأستاذ عباس محمود العقاد في كتاب جديد عنوانه « الله » . وسيكون دراسة قوية رصينة للعقائد والألوهة في مختلف الأمم .

✡✡✡

شرع الأستاذ أحمد محمد شاكر يعد للطبع كتاب « مسند أحمد بن حنبل » بعد إذ سلخ أكثر من خمس عشرة سنة في تحقيق أحاديثه وتمييز صحيحها من ضعيفها ؛ وقد صنع له فهارس وافية سماها « مقاليد الكنوز » وسيقع الكتاب كله في نحو ٢٠ جزءاً كل جزء في ٤٠٠ صفحة . وسيصدر الجزء الأول قريباً .

✡✡✡

تستولي وزارة الشؤون الاجتماعية على القسم الاجتماعي من مكتبة مكتب أنباء الحرب الأمريكي بالقاهرة ، ويحوي أكثر من ٤٥٠ مجلداً في مختلف البحوث الاجتماعية ، وذلك لينتفع به موظفو إدارة الأبحاث الفنية بالوزارة .

✡✡✡

أنجز الأستاذ عزيز خانكي بك كتابه « مذكراتي عن المحاماة في نصف قرن » ويحوي خلاصة تجاربه في هذه المهنة وذكريات طريفة عن رجال القضاء والمحاماة في مختلف العهود .

✡✡✡

يعمل سعادة الدكتور هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ في كتاب جديد عنوانه « الأفكار العامة في التاريخ الإسلامي » وهو كتاب ضخم تربي صفحاته على الخمسمائة صفحة .

✡✡✡

سيكون أول أعمال الجمعية التاريخية التي ألفت حديثاً كتاب « جمهورية البندقية وعلاقتها بمصر » للدكتور أحمد عزت عبد الكريم مدرس التاريخ الحديث بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول.

✡✡✡

ترجم الأستاذ راشد رستم بك كتاب « الأمير » لمكيافلي ، وهو من المؤلفات التي هزت الفكر الأوربي ؛ وكان الأستاذ محمد لطفي جمعه قد نقله إلى العربية منذ ربع قرن تقريباً .

✡✡✡

يطبع معالي الأستاذ عبد العزيز فهمي باشا كتاباً بعنوان « مدونة جوستنيان » وهو عبارة عن مجموعة قوانين رومانية ومبادئ فقهية عامة ، نقلها عن الأصل اللاتيني ، ووضعها لانتفاع طلاب الحقوق ، مع بعض تعديلات أدخلها عليها. ويحوي الكتاب ملحقين : الأول مرسوم لجوستنيان، والثاني مبادئ أحكام قضائية .

✡✡✡

أخرجت جماعة علم النفس التكاملي كتابين : أولهما « أصول علم النفس الفردي » للأستاذ إسحق رمزي ، وثانيهما « مشكلة السلوك السيكوباتي» للدكتور صبري جرجس . والكتابان عميما الفائدة فيما يحويانه من بحث مشكلات نفسية تتوقف على حلولها الموفقة سعادة المجتمع .

✡✡✡

يطوف الآن الأب ماك منظم برامج الأطفال في محطة إذاعة لندن والمستر كونر مدير إذاعات ما وراء البحار بعواصم الشرق الأوسط . وقد انتهز الأب ماك فرصة وجوده بالقاهرة فزار حدائق الحيوان بالجيزة ، وسجل أصوات الحيوان التي يجهلها الأطفال الإنجليز لإذاعتها في محطة لندن .

✡✡✡

أصدر الأستاذان جورج جندي بك وجاك تاجر كتاباً ثمينا باللغة الفرنسية عن المغفور له الخديوي إسمعيل ولقد استق المؤلفان معلوماتهما من الوثائق الرسمية فرسما صورة صادقة عن إسمعيل الرجل وإسمعيل العاهل ، ونشرا وثائق هامة عن سياسته الخارجية والداخلية وإصلاحاته في مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والإدارية . والكتاب مصدر بمقدمة نفيسة بقلم سعادة الأستاذ يوسف جلاد باشا .

✡✡✡

تبرع الأستاذ محمود خاطر بك لجامعة الإسكندرية بمكتبته وتحوي قرابة ألفي كتاب في مختلف العلوم والفنون، ومن بين هذه الكتب مخطوطة « مختار القاموس » وستقوم الجامعة بطبعه على نفقتها.

✡✡✡

أخرجت دار الكتب المصرية كتاب « أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها » لابن الكلبي ، بتحقيق المرحوم أحمد زكي باشا ، ويقع الكتاب في ١٣٦ صفحة من القطع الكبير . وثمن النسخة للجمهور ٢٥٠ مليما .

✡✡✡

في الهيئات التي أنشئت بمقتضى نظام الأمم المتحدة هيئة للتعاون الدولي في الميدان الثقافي ، ولقد عرضت رياسة شعبة العلوم الاجتماعية فيها على الدكتور محمد عوض محمد بك فقبل وسافر في أوائل يونية إلى لندن ليتقلد مهام هذا المنصب حتى آخر هذه السنة .

السودان

عقد في سنكات اجتماع كبير للنظر في شؤون التعليم فى إقليم « البجة » برياسة كبير مفتشي التعليم ، وقرر زيادة عدد المدارس الأولية والصغرى ، وبناء أقسام داخلية على أحدث النظم ، ونقل التلاميذ من الجهات البعيدة إلى مدارسهم في هذه المنطقة ، وإدخال الكشافة في نظم المدارس الأولية ابتداء من سنة ١٩٤٧ ، وفرض عقوبة مالية على الآباء الذين لا يتمم أبناؤهم التعليم الأولي ، ومساعدة الموهوبين من أبناء الفقراء بإعانات مالية .

✡✡✡

تبرع أمناء مكتبة العالم الأثري السير وليم فلايندز بالمكتبة لمصلحة آثار حكومة السودان . وتضم هذه المكتبة ١٤٣٠ مجلداً في الآثار مع بعض الصور والرسوم المختلفة . وقد كانت المكتبة في لندن ، ثم نقلت إلى بيت المقدس حيث أضيفت إليها بعض الكتب . ونقلت أخيراً إلى السودان .

✡✡✡

قررت مصلحة المعارف إيفاد لجنة من رجالها إلى مصر للاتصال برجال وزارة المعارف المصرية وجامعة فؤاد الأول ، والاطلاع على برنامج الدراسة بكلية دار العلوم ، والبحث في الوسائل الكفيلة بتخريج مدرسين أكفياء للغة العربية في السودان ، سواء عن طريق افتتاح دار علوم في السودان ، أو إيفاد بعثات إلى كلية دار العلوم المصرية . وستقدم هذه اللجنة بعد عودتها تقريراً بما تراه إلى مدير المعارف .

قررت مراقبة تعليم البنات افتتاح فصل خاص في أم درمان لتعليم السيدات اللائي بين سن العشرين والثلاثين ، يدرسن فيه شؤون التدبير المنزلي ، وعينت للتدريس فيه نخبة من المدرسات المثقفات تثقيفاً عالياً . وذلك لرفع مستوى الأسرة والبيت السودانيين .

☆☆☆

اشترك في امتحانات شهادة إتمام الدراسة الابتدائية المصرية بمدرسة الملك فاروق الثانوية بالخرطوم ١٤ مدرسة من مختلف مدن السودان ، تسير في تعليمها وفق البرامج المصرية . وبلغ عدد الذين تقدموا لهذا الامتحان من البنين والبنات ٤٣٤ تلميذاً .

☆☆☆

أدخلت حكومة نيجيريا التعليم الديني الإسلامي ضمن برامج التعليم كما هو متبع في مدارس السودان . واستعارت من حكومة السودان اثنين من قضاتها الشرعيين للتدريس في مدينة كنو .

☆☆☆

أذاع عميد كلية غردون خطاباً دورياً لمديري المديريات والمصالح لتشجيع موظفيهم على الاشتراك في الرحلة الثانية لمعسكر أركويت الدراسي هذا العام ، وسيعقد في المدة من ٦ نوفمبر المقبل إلى ٢٠ منه ، وموضوع الدراسة بالمعسكر عن « الهند » وتطوراتها الدستورية ، ودياناتها وتأثيرها في مشاكل المجتمع ، ومشاكلها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

فلسطين

تشهد القرى العربية إقبالا على التعليم لا نظير له في تاريخ البلاد . فقد جمعت قرية واحدة في يوم واحد من أيام هذا الشهر ١٢٫٣١٦ جنيها في سبيل إنشاء مدرسة جديدة فيها . ويقدر ما قدمته القرى العربية هذا العام وحده بزهاء ٦٠ ألف جنيه .

☆☆☆

احتفلت دار الإذاعة والصحف بمرور خمس سنوات على وفاة شاعر فلسطين المرحوم إبرهيم عبد الفتاح طوقان؛ وقد فرغت شقيقته الشاعرة الآنسة فدوي طوقان من وضع كتاب عنه ستصدره سلسلة الثقافة العامة في الشهر المقبل .

☆☆☆

افتتح الاخوان المسلمون فرع جماعة الإخوان في بيت المقدس باحتفال كبير . وحضر نائب المرشد العام من القاهرة خصيصاً لهذا الغرض . وقد فتحت بعد ذلك فروع في سائر المدن .

☆☆☆

تعد مجلة الرائد الأردنية كتاباً اسمه « ثمرات الفكر الأردني » يشترك في تأليفه رجال الفكر والأدب في المملكة الأردنية الهاشمية .

☆☆☆

أسس فريق من علماء مدينة غزة مدرسة دينية علمية لتدريس العلوم والدين للطلاب المسلمين من فلسطين وخارجها . وذكر أن شهادة المدرسة تخول صاحبها الالتحاق بإحدى كليات الأزهر .

☆☆☆

تألفت في مدينة يافا جمعية باسم « المقاصد الخيرية الإسلامية » وأعدت منهاجاً للعمل يشتمل على إنشاء مستشفي كبير تقدر تكاليفه بنحو ٥٠ ألف جنيه .

☆☆☆

كسب القائمون على وقف المحسنة الخالدية القضية نهائياً . وسينشؤون مستشفى كبيراً في بيت المقدس على أرض مساحتها ٣٧ دونماً (الدونم ألف متر مربع) .

☆☆☆

تعقد لجنة الثقافة العربية اجتماعاً في أوائل الشهر المقبل لإنجاز الترتيبات الخاصة بإقامة معرض « الكتاب العربي » فى أواخر يولية . وقد وصل إلى القائمين على المعرض رسائل التشجيع والثناء من عدد كبير من المؤلفين والكتاب .

☆☆☆

صدرت في هذا الشهر الكتب الآتية :

١ — الجزء الثانى من كتاب ما تيسر للأستاذ خليل السكاكيني . ٢ — كتاب القصص التاريخية للسيد محمود زايد . ٣ — رسالة عنوانها « المعاهد المصرية في بيت المقدس » للأستاذ أحمد سامح الخالدي . ٤ — رحلات في ديار الشام للأستاذ أحمد سامح الخالدي ، وهو الجزء الخامس من سلسلة الثقافة العامة .

لبنان

وصل إلى لبنان الأستاذ روفائيل لحود موفداً ثقافياً من قبل رئيس الجمهورية الأرجنتينية إلى البلدان العربية ، وهو يحمل رسائل خاصة من الرئيس إلى ملوك العرب ورؤسائهم ، كما أنه مفوض في إقامة علاقات ثقافية بين بلاد العرب والأرجنتين ، وقد ذكر لنا أن الحكومة الأرجنتينية قررت جعل اللغة العربية لغة رئيسية في مدارسها كاللغة اللاتينية فى المدارس الفرنسية والإيطالية مثلا . ويقول حضرته إن قراراً كهذا ضروري ، لأن اللغة الأرجنتينية تحوي من الألفاظ العربية ما يعادل ثلث مفرداتها تقريباً ، ويقدر عدد المهاجرين من العرب هناك بأربعمائة ألف . ويقول أيضاً إن في الكليات الأرجنتينية مستشرقين يخطبون باللغة العربية ببيان فصيح ، وينطقون بجميع الحروف نطقاً صحيحاً ، منهم الدكتور إسفلدو متشادو أستاذ اللغة العربية فى كلية الآداب والعلوم . ويصرح رئيس الجمهورية الجديد لأبناء الجالية العربية بأنه يشعر بالدم العربي يجري في عروقه .

والأستاذ لحود يعود اليوم إلى لبنان بعد غياب ١٨ سنة قضاها في أمريكا اللاتينية ولا سيما فى الأرجنتين ، ويصدر في الأرجنتين جريدتين : الأولى عربية باسم الدفاع ، والثانية إسبانية باسم الشارع . وله باللغة الإسبانية عدة مؤلفات، منها « الطلاق والزواج الحر » ورواية « بدوي في شيلي » وتمثيلية عرضت على أشهر مسارح العاصمة بعنوان « زنوبيا » .

وبمناسبة الأزمة السياسية الأخيرة التي آلت إلى استقلال لبنان استقلالا تاماً ، أصدر « الكتاب الأبيض اللبناني » ومؤلفاً آخر عن فلسطين ، ورسالة إلى الشعب الفرنسي بمناسبة ضرب دمشق بالمدافع في العام الماضي . وله كتاب بعنوان « الإسلام دين التوحيد » يقع في ١٨٠ صفحة .

صدر في النصف الأول من شهر يونية عدد ممتاز من مجلتي « الطريق » و « المكشوف » خصصا بأدب المرحوم الأستاذ عمر فاخوري . أسهم في كتابتهما نخبة من أصدقائه الأدباء ، وعرضوا فيهما لنواحي أدبه الحي وللأثر الذي تركه في الجيل الأدبي الناشئ في لبنان . وتفردت مجلة شهرزاد بنشر فصول أنف له ما طبعت من قبل .

✡✡✡

نشرت المكتبة الأهلية كتاب « البعث » للأستاذ طه المدور . يتناول فيه المؤلف فصولا متنوعة عن الحضارة العربية القديمة ، والغاية التي تستهدفها الأمة العربية الآن . ومن أهم فصول الكتاب: الأسباب التي أدت إلى ضعف الإمبراطورية العربية في الأندلس، والجامعة العربية ومستقبل العرب ، والقضايا الهامة التي تشغل أفكار العرب في الوقت الحاضر . يقع الكتاب في ١٨٠ صفحة من القطع المتوسط .

✡✡✡

يصدر قريباً الجزء الثاني من « معارك العرب » للأستاذ بطرس البستاني . يعرض فيه لوصف المعارك التي آلت الى خروج العرب من الأندلس والمواقع التي دارت بين الأيوبيين والصليبيين ورافقت قيام دولة المماليك . ويختمه بمعركة دابق الشهيرة التي أدت إلى انتقال الخلافة من بني العباس الى بني عثمان.

ويصدر أيضاً للأستاذ بطرس البستاني كتاب في ثلاثة أجزاء باسم « مختارات أدباء العرب » . يتناول فيه أشهر النصوص الشعرية والنثرية شرحاً وتبياناً ، ليسهل على طلاب الأدب وأساتذته الرجوع إليها والإفادة منها . وهذه المختارات هي تتمة لمؤلفه المعروف « بأدباء العرب » الذي صدر في السنوات الأخيرة في ثلاثة أجزاء أيضاً .

✡✡✡

صدر عن دار العلم للملايين الترجمة العربية لكتاب « تاريخ العرب الموجز » بعنوان « العرب » للدكتور فيليب حتي أستاذ آداب اللغات السامية بجامعة برنستون . عربه ثلاثة من رفاق المؤلف الذين أسهموا معه في منهاج التدريس الخاص بالجيش الأميركي في جامعة برنستون، هم السادة : شكري خوري، وفرحات زيادة ، وإبرهيم فريجي . وأشرف على الطبع ووضع الخرائط والفهرس الدكتور نبيه فارس. والكتاب موجز عن مصنف مطول وضعه المؤلف في اللغة الأنجليزية بعنوان « تاريخ العرب » .

✡✡✡

وصدر أيضاً عن دار العلم للملايين كتاب « منهج البحث في الأدلة واللغة » للناقدين لانسون الأستاذ في السربون ، ومايه الأستاذ في الكوليج دي فرانس . يقع في ١١٣ صفحة من القطع المتوسط . نقله إلى العربية الدكتور محمد مندور .

✡✡✡

صدر عن دار المكشوف كتاب « الرؤوس » للأستاذ مارون بك عبود ، يقع في ٣٣٣ صفحة من القطع الكبير . يتناول فيه المؤلف دراسات أدبية ، منها خصائص الأدب الجاهلي التي لخصها في ثلاث « حب وشرب وحرب » ، والعصور الأدبية المشهورة ، فيرسم صورة رائعة للأدباء القمم الذين يمثلون هذه العصور . ومنهم المتنبي الذي يطلق عليه اسم « رأس ضخم » فيوازن بين الدراسات التي عقدت حوله في العهدين القديم والحديث . وتمتاز مباحث هذا الكتاب بالجرأة التي يناقش بها المؤلف آراء القدماء والمحدثين من مستشرقين وشرقيين .

صدرت مجلة شهرية باسم « الطبيب » يساهم فى كتابتها نخبة من الأطباء . ويشرف على إدارتها الدكتور حبيب صادر ، وتعنى بنوع خاص بالبحوث الطبية والعلمية الفنية ، ومن أبرز أبوابها الصفحات التى تخصها بنقل المصطلحات الطبية الحديثة إلى اللغة العربية .

* * *

يعد الأستاذ محسن جمال الدين عدته لإصدار كتاب بعنوان « زفرات مصدور » يحتوي على فصول في السل وضحاياه كما يصفه الطب والشعر والأدب والصحافة .

سوريا

قدمنا في الجزء الفائت من الكتاب ثبتاً بأسماء الأبحاث المختلفة التى قدمها بعض المدرسين السوريين إلى جامعات فرنسا لحيازة الدكتورية ، وها نحن أولاء نتمم سرد هذه الرسائل :

١ — « النقوش في قبب كتدرائية شارتر » للأستاذ سليم عبد الحق .
٢ — « القضية السورية أثناء الحرب العامة ١٩١٤ — ١٩١٨ » للأستاذ نجيب صدقة
٣ — « علم الأصول في الشريعة الإسلامية » للشيخ معروف الدواليبي .
٤ — « تحريات عن الحامض التبغي » للدكتور عز الدين المصري .
٥ — « الأشكال الجنينية واليرقانية لفصيلة الديدان المتطفلة » للأستاذ رفيق الغرا .
٦ — « معالجة التهابات العظام المزمنة المنوسرة بالسلفاميد » للدكتور أحمد الجلبي .
٧ — « قثترة الحالبين الموضعية من وجهة المعالجة » للدكتور كامل كرمان .
٨ — « طرق التفتيش الصحي عن الجلود » للطبيب البيطري رعون توتونجي .

* * *

نال السادة جوزيف شماس وأمين دهبر وسموحي فوق العادة درجة الدكتورية في الحقوق من الجامعة اليسوعية ببيروت. وكان موضوع رسالة الأول « الجنسية السورية » والثاني « الحياة البرلمانية في سوريا » والثالث « الجامعة العربية ».

* * *

ظهرت في الشهر الفائت عدة كتب، وهي : « يقظة العرب » لجورج أنطونيوس ترجمة علي حيدر الركابي وهو مصدر بمقدمة لصاحب السعادة عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية .

و « كتاب الدولة السعودية في الجزيرة العربية » بقلم القائد محمد طارق الإفريقي النجيري رئيس أركان حرب الجيش العربي السعودي السابق .

و « كتاب صنعة الحرب » للسيد عز الدين الجراح ، وهو يشتمل على أبحاث في الفنون العسكرية وتعليمات في مبادئ الحرب ودراسات لأكبر الجيوش .

* * *

عزم الأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان مدير مكتب الدراسات الإسلامية على طبع كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ « الصالحية » لمؤلفه محمد بن طولون الصالحي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ وهو مخضرم عاش في العصر المملوكي وأدرك الفتح العثماني .

✡✡✡

اجتمعت لجنة التحكيم التي انتخبتها الإذاعة البريطانية المؤلفة من الأساتذة : خليل مردم بك ، ومعروف الأرناؤوط ، وشفيق جبري ، ونظرت في المسابقة الشعرية ، ففازت أديبة الفيحاء الآنسة ماري عجمي بالجائزة الأولى .

العراق

أصدر الراهب بولس بهنام مدير « المدرسة الإكليريكية الأفرامية » في الموصل مجلة علمية أدبية تاريخية باسم « المشرق » ظهر عددها الأول في ١ حزيران « يونية » ١٩٤٦ على أن تنشر مرتين في الشهر وتعنى ببحوث تتصل بتاريخ العراق وأحواله الاجتماعية .

وأخذ « نادي الجزيرة » وهو ناد أدبي رياضي في الموصل في نشر مجلة شهرية باسم (الجزيرة) بحجم المجلات الأسبوعية يقوم بتحريرها نخبة من الشباب ، ومديرها المسؤول المحامي ضياء جادر وأوقفت على بحث العلم والأدب والفن .

✡✡✡

وشرع الأستاذ فؤاد بطي الكاتب القصصي في نشر مجموعة قصصية متتابعة تحمل آثار الكتاب العراقيين المعنيين بالقصة موضوعة ومترجمة باسم « ألف ليلة وليلة جديدة » .

ونهضت جمعية العلوم الزراعية والطبيعية في كلية الزراعة بالعراق في « أبي غريب » لخدمة الثقافة الزراعية فأنشأت مجلة « الفكر الزراعي » وهي مجلة زراعية علمية رئيس تحريرها الأستاذ صادق جبران مرشد الجمعية المذكورة . تضم بين صفحاتها شؤونا تفيد المزارعين والمهتمين بالحياة الاقتصادية في هذه البلاد

✡✡✡

قررت وزارة المعارف تقديم هدية قدرها ثلاثمائة دينار إلى الشاعر العراقي المعروف المتوطن الشام من سنين الأستاذ أحمد الصافي النجفي ليطبع ديوانه الجديد « التيار » ، كما أنها عينته مراقباً للبعثة العلمية العراقية من الطلاب في سورية . وينتظر أن يطبع هذا الديوان قريباً .

✡✡✡

ظهر كتاب من مخلفات الشاعر العراقي الشهير المرحوم معروف الرصافي « على باب سجن أبي العلاء » في التعليق على كتاب الدكتور طه حسين « مع أبي العلاء في سجنه » وعلى كتاب عن المعري لأديب أرمني يعيش في لبنان؛ وقد نقل إلى العربية ونشر قبل سنوات ويجد القارىء في هذا الأثر كثيراً من آراء الرصافي في المعري وفلسفته وشعره ونظراته إلى الحياة . نشرت الكتاب « دار الحكمة » للطبع والنشر ببغداد مصدراً بمقدمة لمديرها الأستاذ محمد علي الزرقا .

✡✡✡

من الكتب الجليلة عن أحوال البلاد العراقية الجديدة كتاب « تكوين العراق الحديث » الذي ألفه باحث أمريكي هو البروفسور هنري فوستر أستاذ التاريخ ورئيس شعبة العلوم الاجتماعية في كلية نورث ويست ميسوري للمعلمين في ميريفيل ونشره في أمريكا سنة ١٩٣٥ وكان الأستاذ عبد المسيح جريدة قد سبق أن ترجم هذا الكتاب وطفق ينشره كراسات قبل الحرب العالمية الثانية ، وها هو ذا الآن يعود فينشره كتاباً كاملا بالعربية في نحو ٦٠٠ صفحة بأسلوب عربي مشرق .

☆☆☆

ترجم كل من الدكتور جواد علي والأستاذ عزراحداد كتاب « الدولة العربية وسقوطها » للمستشرق الألماني يوليوس ويلهاوزن — في بحث تاريخ بني أمية . وجل اعتمادهما في نقله إلى العربية على أصل الكتاب باللغة الألمانية مع مقارنتها بالترجمة الإنجليزية وتعليقاتها . وسيعدانه للطبع ..

☆☆☆

صدر كتاب « شرح الدستور العراقي » للدكتور مصطفى كامل — من أفاضل الأساتذة المصريين المنتدبين للتعليم في كلية الحقوق ببغداد .

وكتاب « مشروع إنماء الثروة الوطنية في العراق » للدكتور يوسف عبود . ورسالة « بعث الفاشية في العراق » لمعالي الأستاذ كامل الجادرجي صاحب جريدة «صوت الأهالي» ورئيس الحزب الوطني الديمقراطي .

وكتاب « نظرة في مشروع قانون الأحوال الشخصية » للأستاذ كامل الساحراتي من موظفي وزارة العدلية .

☆☆☆

ينجز هذه الأيام معالي الأستاذ توفيق وهبي دراسته الواسعة عن « اليزيدية وأصل ديانتهم وقدمهم » مع تعمق في بحث العنصر الكردى في الشرق واللغات الآرية ونشأة الأديان .

☆☆☆

أتم الأستاذ محمد مبروك نافع أستاذ التاريخ العربي بدار المعلمين العليا ببغداد — المنتدب من مصر - نقل كتاب « تاريخ العرب » الذي وضعه بالإنجليزية الدكتور فيليب حتى الباحث العربي المشهور والأستاذ في جامعة برنستن بأمريكا، وهو تأليفه المطول — غير الموجز الذى نشرت ترجمته ببيروت هذه الأيام — وطبعه في مطابع بغداد .

الهند

زاد عدد البنوك الوطنية في الهند لزيادة حركة التجارة والصناعة فيها، فيوجد فيها الآن أكثر من عشرين بنكا وطنياً في قوة بنك مصر، وأكثر من عشرة بنوك في قوة بعض البنوك الأجنبية الكبرى.

☆☆☆

بلغ عدد مصانع النسيج الكبرى بالهند في الإحصاء الأخير ٤٠٧ مصانع ، وكل منها أكبر عشر مرات من مصنع المحلة الكبرى بمصر .

☆☆☆

تبرع صاحب السمو نظام حيدر آباد بمليون روبية لإنشاء كلية للطب بالجامعة الإسلامية بعليكرة، وهذا عدا المبلغ الباهظ الذي يساعد به سموه الجامعة سنويا . وتبرع ملا طاهر سيف الدين رئيس فرقة البهرة (وهي من فروع الشيعة ، ويلقبه المصريون بسلطان البهرة) بمائة ألف روبية لهذه الكلية .

☆☆☆

قررت حكومة مقاطعة مدراس إنشاء كليتين جديدتين للهندسة فيها .

☆☆☆

قررت جامعة أكسفرد إعطاء الدكتورية الفخرية في الحقوق الملك خضر حياة خان رئيس وزراء مقاطعة البنجاب ، وقد سافر لذلك إلى أكسفرد .

أقيم اجتماع عام للبت فى أمور التعليم الابتدائى والثانوى في مدينة يونا ، لحضره المندوبون من جميع أنحاء الهند . وقد قررت حكومة الهند إنشاء كليتين في هذه المدينة إحداهما باسم The National Military Academic College والثانية باسم The Academic Military Engineering College

✡✡✡

أقيم في مدينة واردها ، وهي مركز غاندى اجتماع عام من قبل المؤتمر الوطني الهندي للبت في أمور تعليم الصناعة والحرف في الهند .

انجلترا

« عربي يروي قصته » كتاب للأستاذ عطية يستطيع أن يزهو به كل عربي ، لا لأن صاحبه قد جمع بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب وظفر بالتوفيق بينهما ، ولا لأنه يجيد الكتابة بالإنجليزية ويخصص قلمه وجهوده للدفاع عن قضية العرب هنا ، ولا لأن النقاد قد رحبوا بهذا الكتاب ترحيباً كبيراً ، بل لأن الكتاب في نفسه كتاب ممتع ممتاز مشرق الديباجة حسن العرض شائق الأسلوب ، يمسك بانتباه القارئ فلا يتركه حتى يأتي على آخره .

✡✡✡

تستخدم أشعة إكس للكشف عن إصابات الدرن الرئوي غير أنها تعجز عن كشفه في مراحله الأولى . لكن الدكتور موريس مرشال — وهو فرنسي — قد أعلن أخيراً أنه قد اهتدى إلى طريقة استطاع بها أن يحول الأفلام التي تؤخذ بأشعة اكس إلى أشكال تهدي الى الإصابات حتى في مراحلها المبكرة جداً .

✡✡✡

« الحبشة تحت حكم هيلاسيلاسي » كتاب ظهر أخيراً يسرد تاريخ إيثوبيا الحديث ، كتبته سيدة قضت وزوجها سنوات في هذه البلاد ، وبه كثير من الصور والخرائط التوضيحية .

✡✡✡

تحتفل سلسلة بنجوين بعيد ميلاد برنرد شو التسعيني بإصدار طبعة من عشرة مجلدات لمؤلفاته . وقد ذكر الناشرون عند إعلانهم لهذا أن عيد ميلاد شو هذه السنة سوف يقع أيضاً في مناسبة تستحق الاحتفال ، هي الانتهاء من بيع مائة مليون نسخة وزعتها تلك الدار .

✡✡✡

يقول كثيرون إن كتاب « المستعمرون فى الهند » هو أقوى ما كتب ضد الاستعمار على الإطلاق ، ويؤكدون أن ليس هناك خير منه حجة أو تدعيما بالوثائق الخاصة بالهند . وقد ظهر

✡✡✡

هذا الكتاب قبل الحرب ونفدت طبعته منذ سنوات ، حتى ظهرت له أخيراً طبعة جديدة استرعت الأنظار في هذه الأيام التي يتقرر فيها استقلال الهند .

✡ ✡ ✡

« عنقاء العرب » عنوان كتاب يسرد رحلة خلال جزيرة العرب حتى بلاط الملك ابن سعود حين رافق مؤلف الكتاب أول وزير بريطاني أوفدته بريطانيا لدى الدولة السعودية ، وسوف يظهر هذا الكتاب فى أوائل شهر يولية .

✡ ✡ ✡

عقد في الشهر الماضى معرض لكتب الأطفال عرض به كثير من الكتب التى طبعت منذ أربعة قرون حتى اليوم سواء للتعلم أو التسلية . وقد زارت هذا المعرض الملكة ماري وكانت قد أعارته بعض الكتب ومنها بعض الهدايا التى كانت قد قدمتها الملكة الإمبراطورة فكتوريا إلى « حفيدها العزيز الصغير جورج » سنة ١٨٧٧ .

✡ ✡ ✡

قد يؤدي ما وفق إليه سلاح الإشارة بالجيش الأمريكي بالاتصال من القمر بجهاز الرادار إلى تحسين كثير في الإذاعة العادية . فقد شرعت كثير من المعامل أخيراً فى العمل للكشف عن وسيلة تصل بها الموجات إلى سطح القمر ثم تنعكس منه، وبذلك تصفو الإذاعة ويحسن التقاط الموجات .

أمريكا

تبين من التجارب العلمية التى أجريت حديثاً فى أمريكا أن « الرادار » يمكن أن يقيس مسافات شاسعة جداً حول الكرة الأرضية بإرسال إشارات إلكترونية فى الجو من الطائرات إلى أماكن بعيدة ، ثم قياس المدة بين الإرسال والانعكاس . وبذلك يمكن معرفة المسافة التي بين المكانين . وقد أصبح من المؤكد أنه يمكن إعادة رسم خريطة العالم من جديد فى دقة تامة . وقد أعدت قيادة الجيش بعض الطائرات الضخمة التي تستطيع الطيران في طبقات الجو العالية ، وأخذت تقوم بتنفيذ برنامج خاص برسم بعض الجزر والسواحل . وينتظر قريباً أن يتسع هذا البرنامج فيشمل جميع أجزاء العالم .

✡ ✡ ✡

أجرى الدكتور توماس هل الأستاذ بجامعة وسترن ريزيرن عدة تجارب لعلاج تلف الأسنان باستخدام البنسلين . وقد أجريت هذه التجارب على بعض طلبة الجامعة المصابين بتلف الأسنان . وكان متوسط عدد البكتريا فى أسنانهم قبل استخدام البنسلين ٧٢٠٠٠ وبعد ثلاثة أسابيع من استعمال البنسلين يوميا مخلوطا بمسحوق الأسنان هبط عدد البكتريا إلى ٣٠٠ وتعتبر هذه الحالة من الناحية الطبية سلبية .

✡ ✡ ✡

من الكتب التى ظهرت حديثاً كتاب « ستالين » بقلم « تروتسكي » ترجمه ونشره عن الروسية شارل مالاموث ، وكتاب عن ستالين بقلم تروتسكي يعتبر من الأحداث الهامة . إذ ليس من المألوف أن يكتب أحد الزعماء السياسيين تاريخ حياة خصمه . وقد مات المؤلف قبل أن يتم كتابة مؤلفه ، وذكر الناشر أن الفصول السبعة الأولى قد كتبها وراجعها تروتسكي نفسه ؛ أما باقي الكتاب فقد أتمه الناشر . وكان الكتاب معداً للطبع قبل حادث الاعتداء على بيرل هربور ، ثم أجل الناشر طبعه حتى نهاية الحرب .

٭٭٭

صدر أخيراً كتاب « مأساة أوربا » تأليف فرنسيس نيلون ، وهو كتاب ضخم يقع فى خمسة أجزاء ، يشمل تاريخ الحرب العالمية الثانية ، ويسرد حوادثها وتطوراتها السياسية والحربية ويفسر أسرارها . وهو في صورة مذكرات يومية تبتدىء من أول مارس سنة ١٩٣٩ وتنتهي فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٥

٭٭٭

أصدر ثلاثة من كبار الكتاب الأمريكيين كتاب « أهم المؤلفات في الاقتصاد » وهومجلد ضخم يقع فى ٧٥٤ صفحة . وهو عبارة عن ملخص لعشرة كتب تعتبر أهم ما ألف في الاقتصاد لأشهر علمائه ، وهم : كارل مركس وأدم سمث وهنري جورج وجون ستيورت مل وثورستاين فيبلن وريكرد وتوماس مان وترجوت وملثوث وروبرت أوين .

رُوسْيا

يقام بموسكو معرض عام لمؤلفات الكاتب العظيم ليون تولستوى تعرض فيه كافة الوثائق والمخطوطات الخاصة بالمؤلف والطبعات المختلفة التيظهرت بها مؤلفاته ومسودة روايته «أنا كارنينا» وعليها تصميمات بخطه ، وكذلك مؤلفاته المطبوعة خارج روسيا والمترجمة إلى شتى اللغات، ويوجد فى المعرض قسم آخر طريف للطبعات التى لم يتمكن رجال البوليس في العهد القيصري من مصادرتها وإتلافها ، وكانت توزع سراً بين الخاصة.

٭٭٭

تنشر الجمعية الشرقية ترجمة روسية صحيحة لكتاب «الأذكياء» لابن الجوزي بقلم المستشرق إيفانوف أحد العلماء الذين تخصصوا بدراسة العقائد الإسلامية . ومن أشهر مؤلفاته في هذا الفرع من الدراسات كتاب عقائد الفاطميين والمرشد إلى أدب الإسماعيلية .

٭٭٭

كان الأستاذ سعيد نظامي أحد أعضاء المجمع الأدبي الأذربي — نسبة إلى أذربيجان — قد ترجم مسرحية الهادي للمرحوم الشيخ عبدالله عفيفي بك إلى اللغة الأزبكستانية — إحدى لغات القوقاز — ونشرها في مجلة « الأدبيات » لسان حال المجمع ، وقد قام أخيراً نخبة ممتازة من طلاب مدينة باكو بتمثيل هذه الرواية التي حازت إعجاب المسلمين .

٭٭٭

من المؤلفات التي صدرت فى الآونة الأخيرة الكتاب الذي أصدره هنري ترويا — أحد أدباء فرنسا — عن الشاعر الروسي العظيم بشكين الملقب بيرون روسيا ، ومما ذكره عنه أن بشكين كان يجيد الفرنسية لدرجة أنه كان يؤلف بها بعض المسرحيات القصيرة حتى الساخرة منها .

٭٭٭

كتب الأستاذ شيروف عميد معهد العلوم الشرقية بموسكو بحثاً عن مؤتمرات ، المستشرقين وعلاقتها بتقدم العلوم الإسلامية ؛ ومن طريف ما ذكره أن الحرب عطلت هذه المؤتمرات وشبه سنوات التعطيل بأنها تشبه فترة انقطاع الوحي عنالأنبياء ، وهو تشبيه طريف إذا نظرنا إلىالفوائد الجمة التي يجنيها المستشرقون من وراء انعقاد أمثال هذه المؤتمرات واحتكاك الأفكار بعضها ببعض .

✡✡✡

استطاع علماء الآثار فى روسيا أن يعثروا أخيراً على مخطوطات كانت مفقودة للكاتب الإيطالي روسيني ، وهي تكون ملحمة «أورورا» التى كتبها سنة ١٨١٥ ولم يأت لها ذكر في قائمة مؤلفاته.

وهذه الملحمة نظمها روسيني لـكترين كتزوفا ، أرملة الفلد مرشال م . كتزوف القائد الروسي العظيم الذي هزم نابليون بونابرت . وسوف يتاح قريباً للجماهير فى روسيا سماع أناشيد هذه الملحمة فى حفلة موسيقية .

فرنسا

أجمع النقاد على أن مسرحية « بلدتنا الصغيرة » لمؤلفهـا الأمريكي ترتون ولدر هي تحفة القرن العشرين ، وليس أدل على ذلك، من أنها ظلت تمثل على مسارح نيويرك سنتين وأربعة أشهر، وقد تلقت الطبقة المثقفة في باريس نبأ تمثيل هذه المسرحية بفرح وسرور . وتدور الفكرة فيها على أن النفس مهما غرقت في أحزانها لابد لها من النسيان والسلوان، وهذا يطابق قول الشاعر العربي :

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

✡✡✡

توفي في سويسرا العالم الأثري جستاف جيكيه السويسري عن حياة حافلة بخدمة العلم ، فقد تخرج الفقيد سنة ١٨٩٢ في كلية الدراسات العليا الفرنسية بعد أن تلقى دروسه على العالم الأثري جستون مسبرو ، ثم التحق بالمعهد العلمى الفرنسي بالقاهرة واشترك بالحفائر التي قام بها العالم جاك دى مرجان في إيران . ولـكنه خصص جهوده بدراسة الآثار المصرية وظل اثنى عشر عاماً يقوم بالحفائر في سقارة وبقى عضواً بالمعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة مـدة عشر سنوات (من سنة ١٩٢٨ — ١٩٣٨) وفي آخر أيامه قام بتدريس علم الآثار المصرية في نيوشاتل ، وكان عضواً بندوة الآثار الفرنسية منذ سنة ١٩١٩

✡✡✡

انتخبت ندوة الآثار الفرنسية اثنين من الأعضاء الفخريين الأجانب وهما اللود روبرت فنسترت السكرتير الدائم سابقاً لوزارة الخارجية الإنجليزية والمسيو أندرسن وزير خارجية السويد ، بدلا من فرنـكلين رزفلت والمؤرخ البولندي هندلسمان . كما انتخبت المسيو لويس رنو العالم باللغات الهندية .

والمسيو لويس رنو مترجم كتاب الفيدا عن الأصل السنسكريتى وواضع معجم سنسكريتى — فرنسي وأجرومية سنسكريتية ، وهو كذلك أستاذ بالسربون وبمعهد الدراسات العليا .

✡✡✡

أنشئت حديثاً في باريس دار للنشر أطلق عليها اسم : "Raison d'être" تعنى بالآثار الفكرية الـكبرى ، وستعتمد في منشوراتها على صفوة من مشاهير رجال العلم والأدب في فرنسا .

✡✡✡

ظهر في مجموعة «الآداب» "Les Lettres" التي يشرف على إصدارها المسيو أندريه سلفير دراسة خاصة عن الرومنطيقية الإنجليزية، وفيها نصوص من بيرون وكولروج وكيتس وشلي وغيرهم.

✡✡✡

اجتمعت لجنـة جائزة مرياس بمنزل الأديب الـكبير دوهاميل وقررت منح جائزة قدرها ٥٠٠٠٠ فرنك عن ١٩٤٦ لأحسن ديوان شعر ظهر منذ ١٩٤٠ إلى اليوم .

رسائل القراء

التفسير الصحيح للفظ Saracens

تتبعت باهتمام كل ما نشر على صفحات مجلة « الكتاب » الغراء عن تفسير اللفظ Saracens . ورأيت أن الكتبة الأفاضل الذين تباحثوا فيه واختلفوا لما يوفقوا إلى صحته . لذلك آثرت ، حباً للعلم نفسه ، أن أسجل الآتي :

أولا — أول بحاثة أنعم نظره في اشتقاق كلمة « ساراقينوس » Saracens كان القديس العظيم يوحنا الدمشقي (راجع مجموعة الأب مين مجلد ٩٤ عمود ٧٦٤) — وحذا حذوه المؤرخ اليوناني الشهير سوزومانوس — فقال إنها مشتقة من اسم « سارة » امرأة إبرهيم ، ومن النعت « كنين » Kenin العائد إلى هاجر جاريتها التي حينما وجدها ملاك الله ، بعد أن « هربت من وجه سارة » (سفر التكوين ١٦ : ٦) وقال لها : « من أين أتيت وإلى أين تذهبين » ؟ أجابته قائلة : « إن سارة قد طردتني . وأصل هـذا القول باليونانية — حسب الترجمة السبعينية — Zárra Kenín mé apélissen . ومعنى « كنين » منفصلة عن الفعل . فارغة ، مجردة من ، ومعناها مع الفعل : منبوذة ، مطرودة . . .

إن تحول الكلمة Kenin الكتابية إلى Kinin اللفظية يحول دون الأخذ بنظرية الدمشقي ، ولاسيما أن معنى ومغزى هذه بعيد عن العدل والحق والقاعدة . ناهيك عن شد الراء في سرّاقينوس .

ثانياً — وارتأى كتبة الغرب بأن كلمة « سراقينوس » ليست إلا جمع الاسم « سارق » أعني سرّاقون ، لاعتقادهم أن العرب كانوا يزاولون أعمال السلب والنهب والسرقة ... وسخافة هذه النظرية ناطقة واضحة لا تحتاج إلى أي تفنيد وتنديد .

ثالثاً — أما التفسير الصحيح للفظ الذي نحن بصدده فينجلي من اشتقاقه . يشتق هذا اللفظ من كلمتين : الأولى عربية محضة وهي « شرق » والثانية يونانية صرفة وهي inos أحد المقاطع التي تستعمل للدلالة على قومية المرء أو وطنه أو بلدته ، وليس المقطع

النهائي في تصريف الكلمة للمفرد المذكر فحسب . واسم هذا المقطع باليونانية : ipo Koristikon Ethnikon وهو بمثابة ياء النسبة بالعربية . فعلى ذلك معنى Saracens : شرقي ليس إلا .

وغني عن البيان أن الحرف « ش » من الاسم « شرقي » قد تحول إلى « س » لعدم وجوده في اليونانية . وبما أن قواعد هذه اللغة أيضاً لاتجيز اجتماع حرفين صامتين أدخل على الاسم « شرق » ألف بعد الشين وأخرى بعد الراء وصارت الكلمة ساراقينوس أي شرقي .

ووجهة نظرنا هذه لا تقبل شكا حتى من الوجهة التاريخية لأن « بني يقطان كان مسكنهم من ميشا حينما تجيء نحو سفار جبل المشرق » (سفر التكوين ١٠ : ٣٠) أي أنهم كانوا شرقيين .

وخلعت هذه التسمية « سراقينوس » على أبناء الضاد بالسواء لافرق في ذلك بين المسلم العربي والمسيحي العربي . ولدينا أدلة قاطعة بذلك نكتفي بالإشارة إليها .

الأب

أغناطيوس فرزلي

كاهن كنيسة سيدة النياح الأرثوذكسية بالإسكندرية

الملل والنحل في الغزل

مقالة الأستاذ جبور عبد النور « الصابئة وأثرها في الفكر العربي » ذكرتني بهذا الشعر لأبي إسحاق الصابي :

كل الورى من مسلم ومعاهدٍ	للدين منه فيك أعدل شاهد
فإذا رآك المسلمون تيقنوا	حور الجنان لدى النعيم الخالد
وإذا رأى منك النصارى ظبية	تعطو ببدر فوق غصن مائد
أثنوا على تثليثهم واستشهدوا	بك إذ جمعت ثلاثة في واحد
وإذا اليهود رأوا جبينك لامعاً	قالوا لدافع دينهم والجاحد :
هذا سنى الرحمن حين أبانه	لكليمه موسى النبي العابد
وترى المجوس ضياء وجهك فوقه	مسود فرع كالظلام الراكد
فتقوم بين ظلام ذاك ونور ذا	حجج أعدوها لكل معاند

أصبحت شمسهم فكم لك فيهم من راكع عند الظلام وساجد
والصابئون يرون أنك مفرد في الحسن إقراراً لفرد ماجد(١)
كالزهرة الزهراء أنت لديهم مسعودة بالمشتري وعطارد
فعلى يديك جميعهم مستبصر في الدين من غاوي السبيل وراشد
أصلحتهم وفتنتني وتركتني من بينهم أسعى بدين فاسد(٢)

* * *

في (غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم)(٣) لأبي منصور الثعالبي :

كان الصابئون يعبدون الكواكب ، ومن الدليل على عبادتهم الكواكب قديماً وحديثاً قول أبي إسحاق إبراهيم بن هلال الصابي في جارية له تسمى الثريا :

إنني أعبد الكواكب صابي والثريا مع الكواكب تجري
فإذا ما سجدت واحدة للشمس م ثنيت للثريا بعشر

* * *

المعاهد في قوله (كل الورى من مسلم ومعاهد) : الذمي — كما في اللسان — وأهل العهد . أهل الذمة . وتقول . عاهدت الله أن لا أفعل كذا وكذا ، ومنه الذمي المعاهد الذي فورق فأومر على شروط استوثق منه بها ، وأومن عليها . . .

وفي (النهاية في غريب الحديث) : المعاهد من كان بينك وبينه عهد ، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة ، وقد يطلق على غيرهم إذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما . يجوز أن يكون بكسر الهاء وفتحها ، وهو في الحديث بالفتح أشهر .

وفي (المصباح المنير) : ومعاهد بالبناء للفاعل والمفعول لأن الفعل من اثنين ، والمعاهدة : المعاقدة والمحالفة .

السهمي

في العروض

هيأ لي الأستاذ الأسمر ، بمقاله الذي نشرته مجلة الكتاب في عدد مايو ، أن أكتب هذه الكلمة البيضاء البريئة في الرد عليه أو إن شئت فقل في التعليق ، والأسمر

---

(١) (أنك مفرد) في طبعة اليتيمة وفي إرشاد الأريب (أنك فردة)
(٢) في إرشاد الأريب (وقتلتني) والصواب (وفتنتني)
(٣) كتاب عظيم ضخم . نقل جميعه إلى الفرنسية وطبع الأصل والترجمة معاً ؛ منه نسخة في (دار الكتب المصرية) عمرها الله !

شاعر له ثقافته وشاعريته فهو مسؤول عما يقول .

هو في مستهل حديثه يحاول أن يفصل بين ذوق الشاعر وذوق الناقد فصلا كاملا حتى تمنى أن يقوم بجانب كل شاعر ناقد يتصدى لعائبيه وناقديه ، ولست أدري من هذا الذي يريده الأسمر محامياً عنه ، فإن لي لجلسة طويلة أو جلسات مع هذا المحامي !

ونوجز الحديث فنقول . إن الأسمر يريد أن يقعد قواعد في العروض لينجو بها من المآخذ التي تواضعت أذواق الناس على خطئها منذ بعيد .

ولندخل بعد ذلك في الحديث عما زعمه صحيحاً من شعره المؤوف موجهين نظره إلى أن الاستشهاد بنوادر القديم وشواذه لا تنفعه إذ المفروض أن موسيقية الشعر ترقى عصراً فعصراً وجيلا فجيلا ، وأن الشعر يسلم منها كلما توالت عليه الأيام ، وتتابعت عليه نظرات النقاد وأصحاب الآذان السليمة ، ونحن الآن في عصر الروية الشعرية ، والارتجال نادر ، إذ لا يستطيع شاعر الآن أن يرتجل معلقة كما فعل لبيد العامري ، فمن حق الروية إذن على شاعرها أن يسلم لها الشعر من آفاته التاريخية .

إن العروضيين لم يخطئوا حين قرروا أن التشعيث يسقط خطؤه متى كان البيت مصرعاً ، ففي الترنيم الموسيقي الناشئ من التصريع موسيقية تغني عما يفقده البيت من الموسيقية بما يحدث فيه من التشعيث ، هذه ناحية ، وثمة ناحية أخرى تلك أن العروضيين رأوا في التصريع إيذاناً بقطع السابق عن اللاحق ، فالبيت المصرع يكاد يكون مطلعاً جديداً يأخذ من عقل السامع وانتباهه ما يأخذه المطلع الجديد .

والشعر — قبل وبعد — موسيقى ورنة أما هذا النشاز الذي يريد الأسمر أن يقعد له قاعدة يعفى بعدها من المؤاخذة عليه وعلى مثله فأمر لا نظنه جاداً فيه .

العوضي الوكيل

رجع الصـــدى

في عددين سابقين من أعداد « الكتاب » كنت نشرت كلمتين ، الأولى بخصوص ما وقع في قصيدة الأستاذ الكبير محمد الأسمر من خطأ في « سناد التوجيه » ، والثانية بإزاء قصيدة الأستاذ خير الدين الزركلي ، وما وقع فيه من خطأ في « سناد الإشباع » ، والسنادان ، كما لا يخفى باب من أبواب العروض .

وفي عدد « مايو » اطلعت على مقال ماتع رائع للأستاذ محمد الأسمر يتناول فيه سنن العروض والقوافي ويعرضها عرضاً سريعاً موجزاً مبسطاً في لباقة ولياقة . .

ولقد قسم الأستاذ بحثه الجليل إلى أربع مسائل هامة ، القسم الأول في «التشعيث» والثاني في « الإصراف » والثالث والرابع في « الردف والسناد » . .

وأنا ، بعد أن قرأت المقال ، لا أحب الخوض مع الأستاذ في جدال عقيم خيض فيه من قبل مرات ومرات . وإنما أقف وقفة قصيرة فأقول . . الأستاذ الأسمر يوجه الكلام إليّ في مسألته الثالثة ، ويستشهد بما قاله ابن رشيق في كتابه « العمدة » ، وبما قاله القطاع وابن الحاجب وهـذا في حقيقته جميل ، ولكن غير الجميل أن يتمثل الأستاذ ببيت المتنبي « فهمت الكتاب أبر الكتب » وبيت امرىء القيس « وكندة حولي جميعاً صبر » ولكنه يأبى إلا أن يثب وثبة أخرى أوسع فيستشهد بقصيدة شوقي بك « أبا الهول طال عليك العصر » ! وكأنه — رحمه الله — كان من واضعي علم القافية أو من علماء العروض !

وأنا كما قلت لا أحب الجدل العقيم ، ولا أحب أن أحيل الأستاذ إلى هذا أوذاك من الكتب والكتاب ، وإنما أكتفي بأن أحيله إلى مقاله يمعن فيه النظر من جديد ويقف عند أسئلته المبثوثة في التضاعيف هنا وهناك وقفة قصيرة وسيجد فيها الجواب وفصل الخطاب . .

يقول الأستاذ في صدر مقاله « ولكن الذي أريد أن أقوله أن للشعراء ذوقهم الخاص بهم ، فهم غير مطالبين بأن يتقيدوا بما رسمه لهم علماء العروض ! » وفي مكان آخر يقول « وقول علماء العروض ليس حجة أبد الآبدين على الشعراء ، كما أن القواعد التي قعدها علماء البلاغة ليس حجة أبد الآبدين على البلغاء ! » ثم هو يوجه سؤاله إلى علماء العروض توجيهاً لطيفاً فيقول : « لماذا يكون "التشعيث" جائزاً في الشطر الثاني — ويقصد بحر المجتث — غير جائز في الشطر الأول . . أليس كلاهما تشعيثاً ! ؟ ثم ما معنى أن يكون البيت مكسوراً فإذا ما صرع على وزنه الذي هو عليه كان غير مكسور ومادته هي هي ، وميزانه هو هو لم يتغير ؟ ! » ثم يردف الجواب عن السؤال فيقول : « وإني بعد ما أبنت أقول إن ما يجوز دخوله في (الضرب) فهو كذلك يجوز دخوله في (العروض) ، وما جاز لأحد المثلين جاز للآخر » ثم نراه ينتقل نقلة أخرى إلى سناد التوجيه والردف فيقول « وكيف أجازوا اختلاف الحرفين — ويقصد الواو والياء — ولم يجيزوا اختلاف الحركتين ؟ ! »

وغريب من الأستاذ أن يقطع برأيه الخاص وذوقه الخاص ويوجه الخطاب إلى العروضيين متسائلا عن الحكمة فيما وضعوه من علم العروض . وهنا أتساءل : ما رأي

الأستاذ المفضال في همزة الوصل في الأسماء ، وما رأيه في الكلمات التي وصلت إلينا مبنية على صورة واحدة . . . أهي أيضاً من تخابيل السابقين من أهل النحو والصرف .

وأنا أسأل الأستاذ : لم نأخذ بعلم القافية وما يندرج تحته من بحور وأوزان وعلل وزحافات ونستثقل ظل ذلك العلم « المتطفل الدخيل » الذي سمي بالعروض ؟ وإذا كان الأمر كما قال الأستاذ الأسمر من أن الشعراء لهم ذوق خاص بهم وأنهم غير مقيدين بقوانين الأولين ، فلماذا نتقيد إذاً ويتقيد معنا الأستاذ بأوزان الشعر وقوافيه ، ويأبى وحده إلا الخروج على العروض والعروضيين ؟

إن العروض علم وضعه العروضيون أهل السبق والرتق . . وهم حينما وضعوه لم يضعوه ارتجالا ، وإنما وضعوه اختباراً بعد تلبث وتثبت لايحتاج إلى تأويل . وإذاً فليس من الجائز ولا من المقبول والمعقول أن نأتي على آثارهم فنقوض البنيان ، ونحرك الميزان بالتطفيف والنقصان . . وإنما الواجب أن نتأثر خطاهم فنتناول ماتناولوه ونترك ماتركوه واستهجنوه لنسلم من نقد الناقدين ، ونصون أقلامناوأرواحنا من عذل العاذلين.

الزيتون **عدنان أسعد**

محمد عياد الطنطاوي

تلقى الأستاذ محمد عبد الغني حسن الرسالة الآتية من الأستاذ ن . ج . بولوتسكي مدرس اللغة القبطية في معهد العلوم الشرقية بالجامعة العبرية في القدس الشريف فاستأذناه في نشرها تعميما للفائدة :

بعد التحية — لقد طالعت فصلكم المهم عن الشيخ الطنطاوي المنشور في مجلة « الكتاب » يونيو ١٩٤٦ ، فأستأذنكم بأن ألفت نظركم إلى شيء قد فاتكم . فإنه ورد في منتهى مقالتكم أن الشيخ الطنطاوي — بخلاف الشيخ الطهطاوي والشيخ فارس الشدياق — « لم يترك لنا كتاباً عن بطرسبرج وآثارها » بلى ، لقد فعل ذلك ، وإن لم يزل تأليفه (تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا) مخطوطاً إلى الآن : توجد نسخة منه فى دار الكتب لجامعة إستانبول ، على حين أن مسودة الشيخ تصان في لينجراد . لقد تحدث الأستاذ كراتشكوفسكي عن هذا الأثر القيم وعن اكتشافه إياه في كتاب له ظهر (باللغة الروسية) سنة ١٩٤٥ وورد عنوانه معرباً في مجلة « الكتاب » فبراير ١٩٤٦ ص ٦٠٥ .

مساحة الكويت وسكانها

إلى الدكتور الفاضل عبد الوهاب عزام

سلام عليكم ، وبعد فقد ذكرتم — ياسيدي — في كتابكم القيم « مهد العرب » النبذة التالية « وعلى خليج الكويت مدينة بهذا الاسم ويتبعها إقليم فيه اليوم إمارة عربية لآل الصباح . ومساحة الإقليم عشرون ألف ميل وسكانه سبعة وثلاثون ألفاً معظمهم في مدينة الكويت »(١) .

غير أن لي ملاحظتين على قولكم هذا .

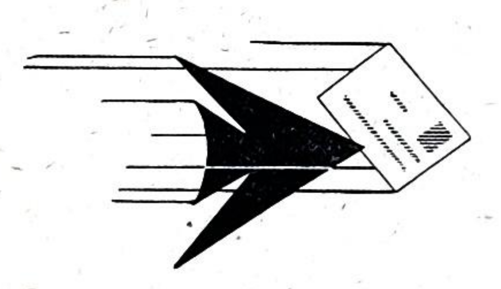
١ — إن مساحة إمارة الكويت لاتبلغ عشرين ألف ميل كما ذكرتم ، إنما هي عشرة آلاف كيلومتر مربع على التقريب أي أنها أصغر من العراق بنحو ٣٥ مرة(٢) .

٢ — إن سكان إمارة الكويت يبلغون اليوم حوالي مائة وعشرين ألف نفس منهم ثمانون ألفاً في مدينة الكويت ، والباقون يقطنون في القرى المجاورة لها . وأهم هذه القرى « الجهرة » و « الفنطاس » و« الرأس » و« الدمنة » و« حَولي » .

ومن هذا يتضح لنا أن المصدر الذي اعتمدتم عليه مصدر خاطىء .

وتقبلوا — سيدي — أصدق تحياتي . والسلام

(الكويت) **فاضل خلف النيلجي**



---

(١) صفحة (٨٨)

(٢) « في بلاد اللؤلؤ » تأليف الأستاذ فيصل العظمة . مطبعة الاعتدال بدمشق صفحة (٢٣)

الكتاب

أغسطس ١٩٤٦

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

بمصر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .

- جميع الحقوق الخاصة بما تنشره المجلة من مقالات ورسائل ورسوم محفوظة لدار المعارف للطباعة والنشر بمصر .

- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .

- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .

- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :

  ١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان .

  ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى أو ما يعادلها .

  -/ ٣ / ١ لإنجلترا

  -/ ٧ / ١ أو ٦½ دولار للبلاد المنتظمة في اتحاد البريد العام

  -/١٣/١ أو ٨ دولارات للبلاد غير المنتظمة في اتحاد البريد العام

بمصر والسودان ١٠ [illegible] ق. الأردن ١٢٠ ملاً

بلبنان وسوريا ١٢٠ غ.ل [illegible] ١٢٠ فلساً

الكتاب

السـنة الأولى — المجـلد الثاني — رمضان ١٣٦٥
الجزء العاشر — أغسطس ١٩٤٦

وحي الشاعر

الشاعر من يستخلص المعنى الرفيع من الشيء الوضيع
جوتة

ما أشبه الشعر في سره ونوره بالـكهرباء في سرها ونورها فكلاهما وضاح السنا وضاء الشعاع وكلاهما ليس له تعريف مانع جامع يُرضي متباين الأذواق والأفهام .

عرّف الأقدمون الشعر بأنه الكلام الموزون المقفى . وأمّن على هذا التعريف من المحدثين جماعة المحافظين الذين يخرجون من دائرة الشعر كل ما لم يكن موزوناً مقفى مهما توافرت فيه عناصر الجمال والخيال وحجتهم في ذلك أن الشعر منه الجيد ومنه الرديء فما لا تطرب له النفس هو من رديء الشعر ليس إلا . .

ونظر قوم من المحدثين إلى هذا التعريف فلم يرقهم لأنه لا يفرق بين النظم والشعر فلو رضوا به تعريفاً لوجب أن ينتظموا في سمط الشعر قول بشار :

ربابة ربـّـة البيتِ تصبّ الخــل في الزيتِ
لهــا عشر دجاجاتٍ وديك حَسَنُ الصــوت

في حين أنهم لا يرون في الشعر أداة من أدوات العلم والمنطق ولا قالباً من قوالب الوزن بل مهزة للإحساس وصورة من صور الجمال ومستوعباً للخيال فهو يتوغل في القلب ويدق فيه ناقوسه ويترك بعده أصداء بعيدة القرار من لطف الجرس وحلو الإيقاع وطريف الألوان على حد تعريف ديشان : « إن الشعر فن سامٍ كامل هو الرسم متنقلا والموسيقى مفكرة » أو رأي الزهاوي :

إذا الشعر لم يهززك عند سماعهِ فليس حريًّا أن يقال له شعرُ

وقد تذهب هذه الجماعة إلى النثر المتصف بصفات الشعر فتعده شعراً أولم يقل حسان لابنه : « شعر ورب الـكعبة » حينما سمعه يصف الحيوان الذي لسعه بقوله : « كأنه ملتف في بردي حبرة » . أولم يصف شاتوبريان كتاب « تلماك » المنشور بقلم فنلون

بأنه من بليغ الشعر . فالنثر المسجوع المعتمد على الخيال من مثل المقامات ورسائل القاضي الفاضل وبعض كتابات جبران هو في رأيهم شعر رفيع محرر من قيود الأوزان .

وهنالك فريق ثالث يرى أن الشعر ظاهرة من ظواهر النفس البشرية ينبعث منها النور والحب والجمال ويرى أن الله نور والله محبة والله جمال فكل تحديد لهذه الآيات الثلاث المنبثق منها الشعر تحديد لمصدرها الإلهي وأنى للمحدود تعريف غير المحدود .

وربما بقي تعريف الشعر مصدر خلاف بين الناس حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

* * *

على أنه إذا اختلف الناس في تعريف الشعر فهم مجمعون على روحانيته وسحره وجميل أثره في النفوس . فلقد غنّى الإنسان ورتّل قبل أن يكتب فكان الشعر صلاة ترتفع بها النفس إلى معبودها مسبحة شاكرة . فمزامير داوود ونشيد الأناشيد ومراثي إرميا وأسفار التكوين والحكمة والجامعة إن هي إلا قصائد يأتلق فيها الشعر ائتلاقاً بله سفر أيوب الذي قيل إنه أقدم الآثار الشعرية نظمه أيوب شعراً عربياً . فأي قصيدة أروع وأبلغ من ترنم داوود القائل :

« سبحوا الرب من السموات . سبحوه في الأعالي . سبحوه يا جميع ملائكته . سبحوه يا جميع جنوده . سبحيه أيتها الشمس والقمر . سبحيه يا جميع كواكب النور . سبحيه يا سماء السموات ويا أيتها المياه التي فوق السموات .... سبحي الرب من الأرض أيتها التنانين وجميع الغمار . النار والبرد . الثلج والضباب . الريح والعاصفة . . . » بل أي قصيدة أجمل وأوقع في النفس من وصف سليمان القائل :

« جميلة أنت ياخليلتي جميلة أنت . وعيناك كحمامتين من وراء نقابك ... شفتاك كسمط من القرمز ونطقك عذب . خدّاك كفلقة رمانة من وراء نقابك . عنقك كبرج داوود المبني للسلاح ... ثدياك كخشفي ظبية توأمين يرعيان بين السوسن .. » .

وليس أدل على تلك الهالة التي كانت تحيط الشعر بروحانيتها من أن الشعر كان محل رعاية الآلهة والعرائس والشياطين فقد كان له أبولون إله النور وسائق مركبة الشمس وراعي الشعراء يجود بسحره ووحيه على المختارين من أبنائه كما كانت له في العرب شياطين وجنيات تلهم الشعراء بفصيح الألفاظ وبليغ المعاني. فأوميروس يستهل ملحمته بمناجاة ربة الشعر ويطلب منها عوناً ومدداً والأعشى يعتز بخليله مسحل فينشد :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنّامَ جدعاً للهجين المذمّمِ

وما أكثر ما تزخر به كتب الأدب عندنا من أحاديث شياطين الشعراء وأسمائهم وأفعالهم .

تنقل الشعر بعد ذلك من العاطفة الدينية إلى العاطفة الدنيوية فكان يطوف على ساحات الوغى ويتملى آيات الشجاعة والبطولة ويجري على لهوات الشعراء تراتيل ساحرة تمجد الأبطال وتصف هول المعارك كما تطوف اليوم على ميادين القتال عدسات آلات التصوير ولكن شتان ما بين التصويرين . ففي الإلياذة والأوذيسة والإنياذة وملاحم الفرنجة وملاحم العرب كالمعلقات والمجمهرات وما إليها من حوليات زهير وحماسيات عنترة وأوصاف أبي تمام والبحتري وروميات المتنبي صور بلغ فيها الشعر أرفع درجات الوحي في تفصيل الوقائع وسرد الحوادث وذكر ما يلم بها من حماسة وفخر ومديح وهجاء .

فبينا يعرض أوميروس على السمع صورة من قتال الإغريق والطرواديين بقوله :

طعانٌ تلاقت في صدورٍ تدجّجَتْ ... وكرٌّ يواري يلمقـــاً فوق يلمقِ

وزفرة مقتـــــولٍ ونعرة قاتلٍ ... بسيل دماءٍ بالأســـنّة مهرقِ

يعرض أبو الفوارس مثل هذه الصورة بقوله :

والبيض تلمع والرماح عواسلٌ ... والقوم بين مجـــدّلٍ ومقيّدِ

وموسّدٍ تحت التراب وغيرُه ... فوق الترابِ يئنّ غير موسّدِ

أو الفند الزماني إذ يصف القتال في حرب البسوس :

مشينا مشـــــية الليثِ ... غدا والليث غضبانُ

بضربٍ فيــــه توهينٌ ... وتخضـــيعٌ وإقرانُ

وطعـــــن كفم الزقّ ... غدا والزقُّ ملآنُ

ولم يكن الشعر سفراً لجلائل الأعمال فقط بل كان أيضاً مرآة تنعكس فيها خلجات النفوس مختلفة بين الفرح والشجن والأمل والألم والحب والبغضاء والكرم واللؤم والسمو والضعة والصفح والانتقام :

دخل سديف الشاعر على أبي العباس وعنده رهط من بني أمية على الوسائد فحسر لثامه وأنشأ يقول :

لا تقيلنّ عبـــد شمس عثاراً ... واقطعن كل رقلةٍ وغراسِ

ذلّهـــــا أظهر التودد منها ... وبها منكمُ كحزّ المواسي

أنزلوهــــا بحيث أنزلها اللّـــه بدار الهوان والإتعـــاس

فكان من أمرهم ما كان .

وما هو أن تدخل على الشعر صور الخيال حتى يستحيل صناعة وفنًّا ويجري والتصوير في مضمار واحد يصف كل منهما الطبيعة ويحاكيها . فغروب الشمس ومطلع الفجر وسقسقة العصافير ونوح الحمام وخرير الأنهار وزمجرة البحار والدمعة المترقرقة في عين الحسناء وأشباه ذلك مصادر لوحي الشاعر يجلو بها للناس شعراً حيًّا جميلاً يتلألأ الوجداني منه بالصدق والصفاء في عصور الجاهلية والإسلام ويتجلى التصويري منه بالقوة والبراعة في العصور العباسية وما تلاها حتى عصر الانحطاط . وكلا هذين اجتمع في الشعر الغربي قديمه وحديثه فيما نظمه أوميروس وفرجيل أو فيما نظمه دانتي وشكسبير وجوته وراسين وموسة وأضرابهم والشاعر الحقيقي في كل هذا كما قال بلزاك هو الله أما البشر فإنما ينشدون قصيدة نظمها الله .

ولكن هل وقفت مصادر الشاعر عند هذا الحد من جسام الموضوعات وباهر المخلوقات ودخائل النفوس. كلا فمصادر وحي الشاعر أوسع مجالاً إنها الحياة كلها بحوادثها وأحداثها تتوالى على بصر الشاعر وبصيرته فتهز شاعريته وتحدوه على كشف أسرار الجمال وإن توارت وراء سجف الوضيع التافه من الأشياء .

إن الشيء الواحد يبدو كبيراً أو صغيراً بحسب مجهر الفكر أو مرقبه الذي ننظر به إليه فكما أن الأشياء تتلاشى من جسم لتحيا في جسم آخر كذلك ليس في الطبيعة شيء صغير أو حقير ما دام وراءه أسرار يقف عندها العقل حائراً مشدوهاً . فالبذرة الضئيلة التي لا تأبه لها العين إذا غرست في الأرض نبتت دوحة باسقة سامقة ذات غصون وورق وزهر وثمر . والوردة الصغيرة ذات الجمال البهي والأريج الفواح واللون الجميل تتضمن من الأسرار ما يثير فضول الشاعر ويهيج قريحته وشاعريته ثم إن الأعمال الجسيمة قليلة نادرة والزمن لا يسمح بها إلا غراراً ولئن انتظرها الشاعر ليطولنّ انتظاره فضلاً عن أن الطب الحديث قد أثبت أن حياة المرء لا تقوم على وظائف الأعضاء الكبيرة في جسم الإنسان قيامها على الإفراز المنظم تأتيه بعض الغدد الصغيرة وحياتنا الفكرية إنما هي بناء هندسي مواده الحوادث تتوالى على أسماعنا وبصائرنا كل يوم فلنا أن نبني منها كوخاً من الأكواخ أو قصراً من القصور .

يعيب بعض المعاصرين على إخوانهم من الشعراء المعاصرين أنهم شعراء «مناسبات» بل يعيبون على شعراء العرب الأقدمين أنهم شعراء قصائد وفي هذا العيب أو العتب ما فيه من الغلو والتجني . فالشعر لا يشرف بموضوعه مثل شرفه بمعالجة ذلك الموضوع فقد يهز

الشاعر موضوع ضئيل طفيف على نحو ما سنرى ويأتي فيه بالمرقص المبدع [« لأن كلا يصف الشيء بمقدار ما في نفسه من ضعف أو قوة أو عجز أو قدرة . . . » فإن رأى جوتة أن الشاعر هو من يستخلص المعنى الرفيع من الشيء الوضيع فالأقدمون العرب رأوا كذلك هذا الرأي فقال الجرجاني والجاحظ وغيرهما : إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي (والمقصود من كلامهم طبعاً هو مادة المعاني) وقال صاحب المثل السائر : « إنه قد يقع المعنى المبتدع في غير أمر غريب الوقوع . . » وقال في مجال آخر : « وكيف تتقيد المعاني المخترعة بقيد أو يفتح إليها طريق تسلك وهي تأتي من فيض إلهي بغير تعليم .. » فهذا الفيض الإلهي يتجلى في شعر الشاعر كلما أخذته غيبوبة الأبرار سواء أكان الجناح الذي يمتطيه إلى مصدره الروحاني حادثاً صغيراً رآه أو سمع به أو تخيله أم حادثاً ضخماً من حوادث الحياة تقوم له الأزمنة وتقعد. والشواهد على هذا أكثر من أن يحدها الحصر ، فهي متفرقة في حياة كل شاعر منذ بدأ الإنسان ينفس بالشعر عن خلجات نفسه ويصوّر بالشعر ما يقع تحت حسه أو متناول خياله .

لا خفاء أنه كان للحيوان نصيب كبير من عناية شعراء العرب فوصفوا الناقة والفرس والأسد والنمر والفهد والذئب والديك والهر والباز والحمام وكان وصفهم في بدء الأمر مستمداً من وقائع حياتهم كرؤيتهم للحيوان وإعجابهم به وقدر فائدته أو صرعهم للضاري منه ثم تبعهم الشعراء المحدثون من العرب والفرنجة فوصفوا الحيوان بل صرعوا الأسد والذئب مرة والنمر والفهد مرة أخرى في معارك لم تدر إلا في خيالهم الخصيب .

فبشر بن عوانة يلاقي الأسد ويهم كل بصاحبه ويسفر القتال عن فوز الشاعر وفوز الشعر برائيته المشهورة . وبدر بن عمار يخرج إلى أسد وثب إلى كفل فرسه فيعجله بضربة سوط تنطق المتنبي بقصيدة منها هذا البيت :

أمعفّر الليث الهزبر بسوطـهِ لمن ادّخرتَ الصارم المصقولا

وقل مثل هذا عن أسد البحتري وسواه أو عن فهد ابن السراج الذي يقول فيه :

تنافس الليل فيه والنهار معــاً فقمّصاه بجلبابٍ من المقلِ

حتى تصل إلى تامر الملاط شقيق شبلي الملاط وتعجب بخياله البديع في وصف النمر وقتاله في قصيدته المشهورة التي يختمها بهذا الختام الطريف :

فبات رويّ الغلّ من منهل الردى أبو الأبرد العاتي وفاز أخو الشبل

وقمتُ فأعددتُ المدى وسلختهُ وأقلمتُ عنه أنفضُ النعلَ بالنعل

أما الذئب فيوحي إلى حميد بن ثور بهذه الصورة البديعة :

ينام بإحـــــدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظانُ هاجع

كما يوحي إلى ابن عنقاء الفزاري والفرزدق والبحتري وألفريد دي فيني بقصائد جميلة هي من عيون الشعر على ما بينها من خلاف في معالجة الموضوع . فالفرزدق يلقى الذئب فيقريه فيتولى عنه والبحتري يلقاه أيضاً في بيداء لم تعرف بها عيشة رغد وكان كل منهما ذئباً جائعاً فينتهي صراعهما بقتل الذئب وباعتزاز البحتري بنصره الخيالي فيقول :

فخرّ وقد أوردته منهل الردى على ظمأٍ لو أنّه عَذْبَ الوِرْدُ

وألفريد دي فيني يعترضه كذلك ذئب في غابة من الغابات وتنجلي الموقعة بينهما عن موت الذئب على أن الشاعر يكبر خصمه ويمجد فيه الإباء والشجاعة ويختم قصيدته بحكمة خالدة يقولها له الذئب وهو يلفظ الروح في عزة وكبرياء : « إن البكاء والانتحاب والتوسل من علامات الخنوع والذل والجبن فاضطلع بعبئك أيها الإنسان وسر به في الطريق الذي رسمه لك القدر وإذا قدر لك أن تتعذب مثلي فتعذب ومت وأنت عزيز كريم » . ولا ندري أوقف ذئب فيني على بيت أبي الطيب القائل :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ بين طعن القنا وخفق البنودِ

كذلك كان لباقي أنواع الحيوان قسط من عناية الشعراء في الشرق والغرب كرثاء ديك لابن معمعة الحمصي وكموت البجع لألفريد دي موسة وهي التي يشبه موسة فيها الشاعر بالبجع فكلاهما مطبوع على التضحية والبذل فبينما يقدم البجع قلبه لأبنائه طعاماً يقدم الشاعر للناس قلبه ونفسه قرباناً يقطر من دمه . وكقصيدة شارل بدلير في الهر وأسبق منها قصيدة ابن العلاف في الهر وهي التي قيل إنه كنى فيها بالهر عن ابن المعتز حين قتله المقتدر وقيل إنما كنى بالهر عن المحسن بن الوزير أبي الحسن علي بن الفرات أيام محنته لأنه لم يجسر أن يذكره ويرثيه ويقول ابن خلكان في هذه القصيدة « وهي من أحسن الشعر وأبدعه . . . » ومطلعها :

يا هرّ فارقتنا ولم تَعُدِ وكنت عندي بمنزل الولدِ

وإذا خرجنا من دائرة الحيوان وأثره في إلهام الشعراء بدت لنا دوائر أخرى من الحياة وكلها فياضة بالحوادث العامة والخاصة التي استهوت نفوس الشعراء وفي مقدمتها حوافز عاطفية دفعتهم إلى التغني أو التشكي من مثل وصية لبيد لابنتيه ساعة احتضاره :

تمنى ابنتايَ أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضرْ

فقوما وقولا بالذي تعلمانهِ ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شَعَرْ
وقولا هو المرء الذي لاصديقهُ أضاع ولا خان الصديق ولا غَدَرْ
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذَرْ

أو شكوى توبة بن الحمير عندما يزور ليلى الأخيلية فتستقبله سافرة بعد إذ تعوّد أن يراها مبرقعة :

وكنتُ إذا ما زرتُ ليلى تبرقعتْ وقد رابني منها الغداةَ سفورُها
وقد رابني منها صدودٌ رأيته وإعراضها عن حاجتي وبسورُها
يقول رجال لا يضيرُكَ نأيُها بلى كلّ ما شفّ النفوس يضيرُها

أو حسرة دعبل يوم يلوح الشيب في مفرقه :

لا تعجبي يا سلْمَ من رجلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكى

إلى ما ينخرط في هذا السلك من فراق الأحباب ورثاء الأعزاء وذل الاسترحام وإظهار الضعف وذكر الأوجاع واحتمال الغربة واستثارة الحنان وإجلال الندى ووصف الرقة . وحسبنا أن نشير من كل هذا إلى أمثلة قليلة فيها بعض الغناء :

فهذا الأعشى الأكبر يستضيفه المحلق فيقول :

لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نارٍ باليفاع تحرّقُ
تشبّ لمقرورينَ يصطليانِها وبات على النار الندى والمحلّقُ

وهذا النعمان يأتيه وفد من الوفود فيموت رجل منهم قبل أن يرفدهم فلما رفدهم جعل عطاء ذلك الميت على قبره حتى جاء أهله وأخذوه فيسجل النابغة هذا الحادث فيقول :

حباء شقيقٍ فوق أحجار قبرهِ وما كان يُحبَى قبله قبر وافدِ

ولو تأخر بالنابغة الزمن لرأى كيف يحبَى الأموات في هذا العصر بالأوسمة والأوشحة ويجاد عليهم بالوصل حين لا ينفع الوصل .

وهذا نصر بن منيع يقدّم بين يدي المأمون وكان قد أمر بضرب عنقه فيستأذنه في كلمات فيسمح له بها ويعفو عنه بعد سماعها وهي :

زعموا بأن الصقر صادف مرةً عصفورَ برٍّ ساقه التقديرُ
فتكلم العصفورُ تحت جناحهِ والصقر منقضٌّ عليه يطيرُ

إني لمثلك ما أتمّمُ لقمــــــةً ولئن شــويتُ فإنني لحقيرُ
فتهاون الطيرُ المدلّ بصـــــيده كَرَماً وأفلت ذلك العصفورُ

وهذا خليل مطران يمر على باب حسناء في إحدى القرى فيرى ورقة خضراء نابتة بين حجرين متلازمين فتهيج نفسه الرقة المنبثقة من القسوة فينشد :

كلٌّ لديك رقيـــــقٌ إذا قسا القلبُ أو رقْ
وليس في ذاك بدعٌ فالصخرُ عنـدكِ أورقْ

وهذا سولي برودوم يشهد انصداع إناء بضربة مروحة فيلهمه قصيدته التي طار بها صيته وعنوانها « الإناء المكسور » وقد ترجمها شعراً المرحوم قسطاكي الحمصي ومنها هذا المقطع :

ففاض ماؤهُ الذي قد ظلّ حيناً يقطرُ
وكان يحوي جوهراً به الحيـــاةُ تظهرُ
وليس مَنْ يدري بما أصابَهُ أو يشـعرُ
إيَّاكمُ ولَمْسَـــهُ فإنهُ مُنْـكسِرُ

ولقد تأثر الشعراء في تشبيهاتهم بأدوات العيش فلفظ المسواك يوحي إلى بشّار :

يا أطيبَ الناسِ ريقاً غير مختبرٍ إلا شهادة أطرافِ المساويكِ

ولفظ الرشاء يستقون به من الآبار يلهم ابن الرومي :

كل امرئ مَدَحَ امرءًا لنوالهِ وأطالَ فيه فقد أساءَ هجاءَهُ
لو لم يقدِّرْ فيه بُعْدَ المستقى عنـــــد الورود لما أطال رشاءَهُ

والعود يفوح منه الطيب إذا احترق يستخدمه أبو تمام مادة للتشبيه فيقول :

وإذا أراد اللهُ نشرَ فضيلةٍ طويتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يُعرفُ طيبُ عرفِ العودِ

والبدر الملألىء من ست جهاته والبحر المنطوي على الدر في جوفه والماء تبخره حرارة الشمس فيستحيل سحائب كل هذا يتفاعل فى ذهن المتنبي فيقول :

كالبدر من حيثُ التفتّ رأيتَهُ يُهدِي إلى عينيكَ نوراً ثاقبا

كالبحرِ يقذفُ للقريب جواهرًا جوداً ويقذف للبعيدِ سحائبا

حتى إذا تنوعت على مر الزمن مجالي العيش وتضمنت ألواناً جديدة من الترف واللهو انصرف السادة الشعراء إلى وصف الرياض والقيان ومجالس الأنس والطرب مستلهمين أدواتهم الجديدة المعاني الرشيقة والتشبيهات البديعة مثال ذلك وصف ابن المعتز للهلال :

انظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلتهُ حمولةٌ من عنبرِ

أو وصف ابن حمديس للهلال آخر الشهر :

كأنّما أدْهَمُ الظلماءِ حين نجا من أشْهَبِ الصبحِ ألقى نعلَ حافرِهِ

أو وصف ابن الرومي لقوس الغمام :

وقد نشرتْ أيدي السحابِ مطارفاً على الجوّ دُكْناً وهي خُضْرٌ على الأرضِ

يطرّزها قوسُ الغمامِ بأصــفرٍ على أحمرٍ في أخضرٍ وسْطَ مبيضِ

كأذيالِ خودٍ أقبلتْ في غلائلٍ مصبّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ

أو وصف أبي نواس للكأس وللحانة التي كان يحتسي فيها الخمر :

تدارُ علينا الراحُ في عسجديّةٍ حبتها بأنواعِ التصاويرِ فارسُ

إلى أن يقول :

مساحبُ من جرِّ الزقاقِ على الثرى وأضغاثِ ريحانٍ جنيٍّ ويابسُ

ولئن كان في الهلال وقوس الغمام وكأس الحميا وأضغاث الريحان موضوعات شعرية إن هناك موضوعات هي أبعد ما تكون عن الشعر ومع ذلك عالجها الشعراء في يد فتفننوا فيها وأبدعوا فأي معنى شعري يمكن أن يتصوره الإنسان في رقاقة العجين تتقلب الخباز إنه المعنى الذي يستنبطه ابن الرومي فيقول :

ما أنسَ لا أنسَ خبّازاً مررتُ بهِ يدحو الرقاقةَ وشْكَ اللمحِ بِالبَصَرِ

ما بين رؤيتِها في كفّهِ كُرةً وبين رؤيتِها زهراءَ كالقمرِ

إلا بمقدارِ ما تنداحُ دائرةٌ في صفحةِ الماءِ يُرْمى فيه بالحجرِ

وأي معنى شعري يوحيه إلى الشاعر صانع الزلابية إنه المعنى الذي يستوحيه ابن الرومي قرص الزلابية فيقول :

رأيتهُ سَـــحَراً يقلي زلابيةً في رقّةِ القِشرِ والتجويفُ كالقصبِ

يلقي العجينَ لجيناً من أناملهِ فيستحيلُ شبابيكاً من الذهبِ

وأي معنى شعري يفكر فيه رجل يريد أن يوصل رقعة إلى السلطان ولكنه يخشى صفاقة الحاجب إنه المعنى الذي يوحي إليه أن يقول بعد إرسال الرقعة مصحوبة بهدية إلى الحاجب :

ما من صديقٍ وإن صحّتْ صداقتهُ يوماً بأنجحَ في الحاجاتِ من طَبَقِ

إذا تلثّم بالمنـــديلِ منطلقاً لم يخشَ نبوةَ بوابٍ ولا غَلَقِ

وأي معنى شعري يفيض به بكاء الطفل ساعة يولد إنه المعنى الذي يتمثله ابن الرومي في ذلك البكاء فيقول :

لِما تؤذنُ الدنيا به من صروفِها يكون بكاءُ الطفلِ ساعةَ يولدُ

وإلا فما يبكيهِ منها وإنّه لأوسعُ مما كان فيـــه وأرغدُ

إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنه بما هو لاقٍ من أذاها يهدّدُ

بيد أن فكتور هوجو يرى في ميلاد الطفل رأياً كله تفاؤل حيث يقول :

« ما أجمل الطفل في ابتسامته الحلوة وإيمانه الصادق العذب وصوته الراغب في الإفصاح وعبراته التي سرعان ما تكفكف . ما أجمله في نظراته الحائرة المدهوشة يقدم معها للحياة نفسه الفتية وفمه المخلوق للقبلات » .

وأي معنى شعري يتامسه الشاعر في سقوط خيمة إنه المعنى الذي اقتنصه أبو الطيب من سقوط خيمة سيف الدولة يوم كان مخيماً بأرض ديار بكر فنظم في سقوط الخيمة قصيدة مطلعها :

أيقدحُ في الخيمةِ العذَّلُ ويشملُ من دهرَها يشملُ

وتعلو الذي زُحَلٌ تحتهُ محالٌ لعمـــركَ ما تسألُ

ويظل الشعراء على هذا المنوال يستوحون حوادث الحياة وأدواتها أرق المعاني وأجزل الشعر على غرار ما ذكرنا وما لم نذكر من مثل رثاء سكين ووصف ثوب خلق وإضراب الحدادين وتكريم رباع وإشارة إلى مدينة غاصة بالكلاب القذرة فتشرف هذه الموضوعات بما يحيطونه بها من معان شريفة سامية وخيال سام مبتكر أولسنا نطرب لقول القائل في وصف ثياب رثة :

ولي ثيابٌ رثاثٌ لست أغسلها أخافُ أعصرُها تجري مع الماءِ

أو لقول المرحوم عبد الحميد الديب :

أثوابهُ كأمانيـــــهِ ممزّقةٌ كأنّها – وهو حيٌّ تحتها – كَفَنُ

أو للقصيدة النفيسة التي نظمها فرنسوا كوبي في إضراب الحدادين ولا يتسع المقام لترجمتها . وعلى ذكر الحديد أليست قصيدة شوقي في تكريم السيد نصير حمال الحديد آية من آيات شوقي استلهم فيها هذا المعدن الجامد معاني مشرقة إشراق اللؤلؤ فقال :

قل لي نصيرُ وأنت برٌّ صادقٌ أحَمَلْتَ إنساناً عليك ثقيلاَ

أحملتَ دَيْناً في حياتك مرّةً أحملتَ يوماً في الضلوعِ غليلا

أحملتَ ظلماً من قريبٍ غادرٍ أو كاشحٍ بالأمسِ كانَ خليلا

أحملتَ مَنّاً بالنهارِ مكرّراً والليل من مُسْدٍ إليكَ جميلا

أحملتَ طغيانَ اللئيم إذا اغتنى أو نال من جاه الأمور قليلا

أحملتَ في النادي الغبيَّ إذا التقى من سامعيهِ الحمدَ والتبجيلا

تلك الحياةُ وهـــذهِ أثقالُها وُزِنَ الحديدُ بها فعادَ ضئيلا

وشوقي الذي له في كل موضوع عالجه آيات بينات يزور الأستانة فيراها مضرب المثل في كثرة الكلاب القذرة فتوحي إليه هذين البيتين الجميلين :

قالوا فروقُ الملكِ دارُ مخاوفٍ لا ينقضي لنزيلها وسواسُ

وكلابها في مأمنٍ فاعجبْ لها أَمِنَ الكلابُ بها وخافَ الناسُ

✡✡✡

وبعد : فالشاعر إما أن يكون مرآة نفسه وإما أن يكون منارة عصره وفي كلا الحالين يصور لنا ما يشعر به في حوادثه الخاصة من حب وبغض وهناءة وشقاوة وما يهزه في حوادث عصره العامة من انقلاب خطير ونكبة فادحة ونصر جليل واختراع مبتكر ومأثرة كريمة . والشاعر إذا صور نفسه أو عكس أشعة منارته على خفايا زمنه فإنما يصور النفس البشرية إطلاقاً ويجلو ما خفي ودق من روح عصره حتى إنه ليطبع بهذه الروح ما يتناوله من حوادث جرت في عصور سابقة ولقد تختلف مصادر وحيه شرفاً وضعة نبالة وسفالة ولكن الشعر هو الشعر إنه قالب الجمال والخيال ومجمع الوزن والموسيقى سواء انحدر إلى وصف صانع الزلابية أم رقي إلى وصف مطلع الفجر الفتان .

عادل الغضبان

حديقة الأفكار

تفسير عظمة الحجّاج بن يوسف الثقفي

تعقيباً على بحث في تفسير طغيانه

للأستاذ محمد لطفي جمعة

مفتاح حياته — اللون الأدبي في التراجم — معرفة العرب بمركب النقص — تغلب العظماء عليه — مهنة الحجاج — طريقة البحث — أهل ثقيف — شدة الحجاج بسبب أهل العراق — خطب الحجاج — أسباب عظمته — مكانه في التاريخ .

١ — كتب الأديب الفاضل الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك ، في عدد يونيو سنة ١٩٤٦ من مجلة الكتاب الغراء ، بحثاً طريفاً عن الحجاج بن يوسف الثقفي ، يريد به تفسير طغيان هذا الحاكم الجبار . وهو يعلل طغيانه الذي سجله بعض مؤرخي العرب بدمامته وضعف جسمه ، وقصر قامته واعتلال صحته ، والتواء نفسه وثورته على المجتمع ونفور النساء منه ، ومرضه بالسرطان المعوي أو المعدي . ولا ندري كيف وصل الأستاذ الأديب إلى تشخيص هذا المرض ما لم يكن مرجعه الكاتب الفرنسي جان بريه . فإذا كان الحجاج مات في الثانية والخمسين من عمره فلا يقوم هذا دليلا على وفاته بهذا الداء .

وإنما أراد الأستاذ الفاضل أن يبحث عن مفتاح حياة الحجاج على الطريقة الحديثة حتى اهتدى إلى تعليل قسوته وظلمه بما وصفه سيجموند فرويد بالعقدة النفسية الناشئة عن مركب النقص . وهذا فتح جديد في تطبيقه على تراجم مشاهير العرب ، وإن بعدت المسافة وتطاولت الدهور بيننا وبينهم . وقد لاح لي أن تاريخ العرب كما كتبه المؤرخون لا يصلح أن يكون مرجعاً علمياً في مثل هذه المسألة الدقيقة ، لأن تاريخ العرب انقلب في أيدي المؤرخين لوناً من الأدب المكتوب . وقد تصلح الدراسة النفسية في حالة الأحياء والمتعاصرين لسهولة الرجوع إلى المصادر الوثيقة ؛ وأضرب مثلا لذلك بما كتبه النقاد الفرنسيون في تراجم بول فيرلين وشارل بدلير ، وهما من مفاليك شعراء القرن التاسع عشر ،

ولم تمنعهما الفلاكة وإدمان الخمر وانحلال العصر وانحطاط الأخلاق عن بلوغ ذروة المجد الفني وتأسيس المدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي ، وقد نجح النقاد في التأريخ لهما ، لأن الذين كتبوا عنهما عاصروهما وسجلوا سائر شؤونهما ، وتحروا الحقيقة في مصادرها ، وأسهبوا إسهاباً بالغاً في الاغتراف من بحر الوثائق التاريخية الصحيحة .

أما الكتّاب المحدثون أمثال إميل لدفيج الألماني وطناً ولغة ، واليهودي جنساً وملّة ، فقد أفسد التراجم حين ابتدع لون التأريخ الرومنتيكي ، بسرد حياة العظماء على صورة القصة الفنية ، ومن قبله صنع ذلك توماس كارليل في حياة الأبطال ، ولم يبلغ أحدهما شأو بلوطرخوس في تراجمه لكبار الإغريق والرومان ، لأنه خلط الحقيقة بالخيال ، وإن لم يترك شاردة ولا واردة من أخبار عظمائه إلا أحصاها . وهذه الطريقة الأدبية الفنية في كتابة التأريخ لا تصلح سنداً للثقافة الحديثة ، مع الاعتراف بجمالها أو حذق مبتكريها . وكذلك العرب لم يحاولوا فيما أعلم تدوين تراجم دقيقة لأبطال الإسلام ، ولم يتقنوا إلا تسجيل الأخبار القصيرة ، وأطالوا في رواية الشعر ، فكان في الأغلب المصدر الصحيح لسيرة الشعراء ومفتاح حياتهم ، فضلا عن أن المؤرخين أطاعوا أهواء الملوك .

* * *

٢ — وأحب أن أبادر بأن بعض كتاب العرب عرفوا مركب النقص ولكنهم لم يتخذوه وسيلة لتعليل معايب الأخلاق عند العظماء ، وإنما ذكروه مشفوعاً بما تتخذه العظماء من وسائل في مقاومة عقدتهم النفسية ومحاربة مركب النقص ، ليظهروا بمظاهر الكمال وتمام القدرة . ولم تكن المعايب البدنية سبباً في إغراقهم أو التواء أنفسهم ، فقد كان زيد بن جندب أشفى أفلح ، ولم يمنع هذان العيبان في فمه اشتهاره بالخطابة . ومن الخطباء من كان أروق وأشدق ، أو أضجم أو أفقم ، وهي اعوجاج في الفم وركوب السن الشفة ، بل كان الأحنف الكبير على كثرة عيوب بدنه حكيم العرب وخطيبهم وحازمهم وباقعتهم ومقدمهم . قال عبد الملك بن عمير : « قدم علينا الأحنف الكوفة مع مصعب ابن الزبير ، فما رأيت خصلة تذم فى رجل إلا وقد رأيتها فيه ، كان أصعل الرأس (يعني دقيق الرأس ، ودقة الرأس تدل من يحكم بظاهر الأمور على صغر العقل) أحجن الأنف ، أغضف الأذن ، متراكب الأسنان ، أشدق مائل الذقن ، ناتىء الوجنة (ونتوء الوجنة من أدلة الميل إلى الإجرام في رأي لمبروزو ، مع أن الأحنف كان من حماة الفضيلة) باخق العين (أى أعور) أحنف الرجلين (ومن هنا كان اسمه ! . .) ولكنه إذا

تكلم أعجز وبهر ، وفتن العقول وخاب الألباب ، وأقر كل من سمعه عن قرب أو عن بعد بفصاحته ولباقته ، وحكمته ، وجلال رأيه ، وجمال نفسه ، وكمال عقله ، وذاع اسمه في الآفاق ، وما يزال ذكره مقروناً بالحلم وبالحكمة والهمة والعدل وفصل الخطاب » .

وكان واصل بن عطاء شيخُ المعتزلة الأشهر مصاباً بلثغة شديدة في حرف الراء ينطقها لاماً ، فتجيء قبيحة ، لأنها تحكي نطق الأطفال. والراء من أكثر حروف الهجاء تراداً في الحديث والخطابة ، ولكن رجاحة عقل واصل صانته عن زلل اللسان ، فاستغنى في كلامه وخطبه عن الراء بتاتاً ، حتى وصفه الشاعر بقوله :

ويجعل البُرَّ قمحاً في تصرفه وجانبَ الراء حتى احتال للشّعرِ
ولم يطق مطراً والقول يجعله فعاد بالغيث إشفاقاً من المطرِ

وسأل أحد أتباع واصل : كيف كان يصنع في العدد بعشرة وعشرين وأربعين ، وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ورمضان ورجب (وكلها ذوات راءٍ) ؟ فأجابه بشعر صفوان :

مُلقّن ملهم فيما يحاوله جمٌّ خواطره جوّابُ آفاق

وقد ذكرنا هذا القليل من عيوب الذات والمنطق عند بعض فحول المشاهير ، أمثال الأحنف وواصل بن عطاء وزيد بن جندب ، لندلل على أن مركبات النقص كانت معروفة عند العرب ، ولا سيما في القرن الأول الذي عاش فيه الحجاج ، ولكنهم لم يعيروه التفاتاً ، ولم يتخذوا منه سبباً لانحطاط الرجال أو تشويه أخلاقهم . لقد عرف العرب كل مركبات النقص التي زعم فرويد أنه اكتشفها ، وفي مقدمتها زلة اللسان Lapsus Lingue وهي من أدق مركبات النقص وأكثرها شيوعاً . كان محمد بن راشد البجلي يتغدى وبين يديه شبّوطة (لون من الطعام) وخياط يقطع له ثياباً ، ورآه يلحظ الشبوطة ، فقال ابن راشد : قد زعمت أن الثوب يحتاج إلى خرقة (أي تكملة من القماش) فكم مقدارها ؟ فأجاب الخياط : ذراع في عرض الشبوطة (وهو يقصد في عرض الثوب !) . ودخل آخر على رجل يأكل أترجة بعسل، فأراد أن يقول : السلام عليكم ،فقال : عسليكم (لانشغال باله بالعسل) . ودخلت جارية رومية على راشد البستي لتسأله عن صحة زوجته ، فبصرت بحمار في الدار فقالت : مولاتي كيف . . . حماركم ؟

وليست العبرة بذكر هذه الزلات الطارئة ،ولكن العبرة بفطنة الأدباء إلى تدوينها واستنتاج مايترتب عليها . وقد وصفوا الحجاج ورووا خطبه ، وذكروا مظالمه وجبروته وشدته وتعسفه في الأحكام وقوة شكيمته ، ولكنهم لم يحاولوا ربط بعض تلك المعايب

بما ظهر من الغلظة في أقواله وأفعاله . وإنما ذكروا القسوة والشدة في مجال التنديد بقوته وهو حاكم يسوس الخلق وينظم الدولة ويطفئ ثورة الخوارج ويردع البغاة وينفذ أوامر الخلفاء ويخضع للشريعة ويطيع القانون ويعامل كل محكوم بما يستحق في نظره . ولا يغيب عن ذهننا أن عصر الحجاج كان عصر فتنة وثورة وكان أعداء النظام والحضارة أكثر من الموالين لهما ، والعرب فى عنفوانهم حديثو العهد بالإسلام ، قريبو الصلة بالجاهلية والحمية والأنفة والفطرة البدوية . وإلا فأين شدة الحجاج في القرن الأول الهجري من شدة جنكيزخان وهلاكو وتيمورلنك الأعرج ، بل من طغيان هتلر وموسوليني وفرنكو وعشرات أمثالهم من رجال العصور الحديثة ، عصور المدنية والإنسانية .

⁂

٣ — عابوا على الحجاج أنه كان معلم صبيان ، وقد درج العامة على وصف المعلمين بالحماقة ظلماً . ومن أمثالهم « أحمق من معلم كتّاب ! » وذكرهم صقلاب الشاعر بقوله :

وكيف يُرجى العقل والرأي عند من يروح على أنثى ويغدو على طفل ؟

وفي قول بعض الحكماء : « لا تستشيروا معلماً ولا راعيَ غنم ولا كثير القعود من النساء » مع أن رعاة الغنم من أعقل الناس ،وكان الأنبياء كلهم رعاة ، وفي مقدمتهم إبرهيم الخليل ، ثم إسحق ويعقوب ، وكذلك كان موسى ، ومحمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، رعى غنماً فى بطحاء مكة . ولم يبق لأمثال هذه الخرافة سبب ولا وجه يقبل ، وإنما هي العداوات الشخصية وأحقاد المهنة ورغبة الانتقاص . والمعلمون في كل وطن أعلام الزمان ومصابيح الهداية . بيد أنه لم يثبت بصفة قاطعة أن الحجاج كان معلم كتّاب ، ولكن أبوه كان معلماً ، ولم يصل داء التعليم إلى العدوى بالوراثة .

ثم إن كل قاض مسلم في العصر الأول ، وكل وال وكل قائد ، كان فقيهاً ، والفقيه معلم بطبيعته . وكان الحسن البصري من أعلام المتصوفة والفقهاء وأهل الحكمة والعدل معلماً ، وكذلك كان واصل بن عطاء ، وكذلك كان سقراط وأرسطو وأفلاطون وكنت وهيجل ، كما كان الغزالي وابن الهيثم أساتذة ومعلمين ، وهم أئمة الفلسفة في المدنيتين الغربية والشرقية ، ولم يتهمهم أحد بالحماقة . ولكن نار العداء التي أشعلها الحجاج بفصاحته وقوة بديهته وإقدامه وصرامة أحكامه ، في زمن كانت فيه الصرامة واجبة لاستتباب أمور الدولة ، حركت الألسنة والأقلام للحملة عليه . ولم يقم أحد من المؤرخين المنصفين بردّ اعتباره كما فعلوا في فرنسا في حق روبسبير ومارات ،

وهما من أكبر الخطباء الأحرار والمصلحين الأبرار ، ولكن عصرهما كان عصر فتنة ، وكان أتباع الملكية وأنصار العهد القديم ، عهد الاستبداد ، أعزّ مالا ونفراً ، وأقدر على الكتابة والنشر وتدويخ خصومهم وتشويه سمعتهم حتى بعد موتهم .

***

٤ — فعلينا إن أردنا النقد التاريخي ، وهو خير وبركة ، أن نتبع أولا طريقة البحث Méthode كما جلاها ديكرت في كتابه ، وأفاض فيها هيجل في « فلسفة التاريخ » ، وكما فعل أستاذ الأجيال ابن خلدون وتبعه وقلده بوكل الإنجليزي في «تاريخ الحضارة الإنجليزية » . وإن كانت الشهرة العامة عن قسوة الحجاج قد غلبته أحياناً ، لا يجوز لي أن أنسى أن الحجاج كان الدعامة التي قامت عليها الدولة الأموية ، وهي أعظم دول الإسلام قاطبة ، والأساس الذي كانت بدونه تنهار الدولة ولا تصل إلى العباسيين ، ولا تدوم الحضارة في الشام والعراق ومصر سبعة قرون ، إلى أن دمرها التتار بقيادة هلاكو . بيد أن الثورات التي نشبت في العراق نفسه ، ولا سيما ثورتا شبيب الشيباني (٧٧هـ) وثورة ابن الأشعث (٨١ هـ) لم يقو على القضاء عليهما قائد ولا حاكم سوى الحجاج .

***

٥ — لم يعيبوا على الحجاج دمامته واعتلال صحته وسرطانه (؟!) ومهنة التعليم التي لم يمارسها ، وحسب ، بل عابوا عليه أيضاً انتسابه إلى ثقيف ! نعم إني لم أضمر حباً لأهل الطائف عاصمة ثقيف ، لأنهم أساؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام في يوم قائظ وهو يدعوهم إلى الإسلام ، ولكن لا أعيب عليهم شدتهم في دفاعهم عن وطنهم في الحروب الأولى ، ولا أنتقد تمسكهم بدينهم الوثني قبل أن يتثبتوا من حقيقة الإسلام . وعلى كل حال فلم يكونوا أكثر قسوة على النبي عليه الصلاة والسلام من أهله وقومه وبني وطنه وعشيرته الأقربين ، وإن كانوا همّوا بالردة فقد ارتد قوم من قريش مسقط رأس الرسول وموطن الخلفاء الراشدين ، ولكن كلمة واحدة من عثمان بن عفان ردت ثقيفاً إلى رشدها . قال عيسى بن يزيد : « ولما همّت ثقيف بالارتداد قال لهم عثمان : « معاشر ثقيف ، لا تكونوا آخر العرب إسلاماً وأولهم ارتداداً » فسمعوا وأطاعوا .

أما فيما خلا هذا فقد كانت الطائف وما حولها ، من أخصب الأرض وأكثرها خيراً وأنبتها لنوابغ الرجال في الفروسية والشعر والشجاعة والسياسة ؛ ولم يكن الحجاج عجباً بينهم ، بل كان من أهل المواهب المعروفة ، لسبب طبيعة الأرض ونقاوة الإنسان ،

وجمال الموضع وارتفاع الجبال ، وجمال النساء ، وعفة الرجال وحكمتهم .

قال عثمان بن أبي العاصي الثقفي لبنيه : «يا بَني قد أمجدتكم في أمهاتكم ، وأحسنت في مهنة أموالكم وإني ما جلست في ظلّ رجل من ثقيف أشتم عرضه ، والناكح مغترس، فلينظر امرؤ حيث يضع غرسه ، والعرق السود قلّما ينجب ولو بعد حين » فسمعه ابن عباس فقال : ياغلام اكتب لنا هذا الحديث (رواية عيسى بن يزيد بن دأب في الأغاني) ومن فحول شعرائهم أبو محجن الثقفي الشهير بقصيدته التي يقول فيها :

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا

٭٭٭

٦ — وحقيقة الأمر أن الحجاج كان مكروهاً من أهل العراق وحدهم ، وهم قوم ورثوا أهل بابل وآشور، وكانوا قبل الإسلام يعبدون الكواكب ، ومنهم الصابئة ، وبعث الله لهم أنبياء كثيرين لم يهتدوا بهم، ومنهم إبرهيم الخليل (بلده أور الكلدانيين)، ونوح الذي دعا عليهم دعوات مجلجلة ، ويونس فأرهقوه حتى ألقى بنفسه في اليم فابتلعه الحوت . وكان دأب هؤلاء القوم قديماً الخضوع للقوة والشدة ، كما روى المؤرخون عن ملكهم حمورابي بعد سارجون الأول ، فليس عجيباً أن يبغضوا في صدر الإسلام حاكماً قوي الشكيمة ، مع قرب عهدهم بالوثنية ، وجوارهم للفرس والكلدان .

وكان يعاصر الحجاج شيخ صالح خطيب لسن ، هو جامع المحاربي . قال للحجاج حين بنى مدينة واسط : « بنيتها في غير بلدك وأورثتها غير ولدك ! ». ولما شكا له الحجاج سوء طاعة أهل العراق وتنقم مذهبهم وتسخط طريقتهم ، قال له جامع المحاربي : «أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك ، على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع ما يبعدهم منك إلى ما يقربهم إليك ، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك ، وليكن إيقاعك بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعدك » .

أي إن جامعاً المحاربي الخطيب الفطن المعاصر للحجاج لم ير شيئاً من معايب الحجاج الجسمية أو النفسية سبباً في كراهة أهل العراق له ، ولكن انتقد طريقة حكمه ، وتلك الطريقة لم يخترها الحجاج إلا بعد التفكير والاختبار . ولذا نجد الحجاج بعد موعظة جامع المحاربي يدعو الله فيقول : « اللهم أرني الغي غياً فأجتنبه ، وأرني الهدى هدى فأتبعه ، ولا تكلني إلى نفسي فأضل ضلالا بعيداً ، والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا بعمامتي هذه ، ولما بقي أشبه من الماء بالماء » . فهل هذا كلام الطغاة الجبابرة ؟

وأول ما يخطر ببالهم أن يجحدوا النعمة وينكروا الألوهية ، ويزعموا التحكم في الخلائق والتصرف في العباد ؟ !

وقد ذكر الأستاذ الفاضل فريد أبو حديد بك أن الحجاج لم يعرف الإنسانية ، ولم يكن له صديق ، فما قوله في ذلك الحوار وتلك المناجاة والدعوة الحارة الصادقة !

لقد اكتوى الحجاج بنار العراق وملأه الغيظ ، ولذا تراه في خطبه يصفهم وصف الخبير المجرب ، بل وصف عالم النفس العريق في علم الأخلاق . فقد خطبهم بعد معركة دير الجماجم ، التى خذلوه فيها أمام ابن الأشعث ، خطبة من نار ، ولم ينس أن أهل العراق كانوا سبباً في هزيمة علي ونزول الحسن عن الخلافة رغم أنفه ، ثم في مصرع الحسين ابن علي . قال الحجاج يشرح حاله مع الرعية : « إن بعثتكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة ! هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ، إلا تبعتموه وآويتموه ونصرتموه ورحبتموه ؟ » وقد ظن الحجاج من شدة ما لقي من أهل العراق أن الشيطان نفسه قد استبطنهم ، فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف ، ولكنه في نفس الموقف الذي خطب فيه تلك الخطبة النارية ، وقبل أن يتنفس التفت إلى أهل الشام في عطف ودعة وعرفان للجميل ، وقال : « يا أهل الشام ! إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ، ينفي عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذئاب ، يا أهل الشام أنتم الجنة والرداء . وأنتم العدة والحذاء » .

فهل يعقل أن رجلا واحداً يجمع بين هاتين العاطفتين في طرفة عين ، إن لم يكن شاعراً بالحنان والشكر والوفاء والأمانة والعفة لأهل الشام ، وبنقيض هذه جميعاً حيال القوم الذين أذاقوه المر ، وهو يريد صلاحهم وتعمير ديارهم ، ونصرتهم على أعدائهم. لو كان الحجاج قاسياً في خطبة أهل الشام قسوته على أهل العراق ، لأمكن القول بأنه طاغية جبار لا يفرق بين قوم وآخرين ، شأن الطغاة البغاة المستبدين ؛ ولكنه حاكم حصيف مميز ، لا يضع السيف موضع الندى ، ولا يضع الندى موضع السيف ، ولكنه يكيل لكل فريق بالكيل الذي يستحقه .

* * *

٧ — ودير الجماجم الذي اختصه الحجاج بالذكر كان علماً على معركة دامية ، هزم فيها جيش الحجاج بسبب تردد أهل العراق ، في ثورتهم التي رفع رايتها عبد الرحمن

ابن محمد بن الأشعث ، وهو من فضلاء الفقهاء والقواد ، وقد تبعه قوم كثير ، ولكن الغلبة كانت أخيراً للحجاج لثباته وحنكته . ومع تقديرنا العظيم لابن الأشعث وأسباب حركته الثورية ، لا يسعنا إلا ذكر غروره وتعجله ، فقد قاتل الحجاج في المربد كما قاتله في الزاوية ودير الجماجم ، فأخذه الزهو قبل النصر ، فخطب الناس فقال : « أيها الناس ! إنه لم يبق من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة ، تضرب بها يميناً وشمالا ، فما تلبث إلا أن تموت ! » فمر به رجل من قشير فقال: « قبح الله هذا ورأيه ، يأمر أصحابه بقلة الاحتراس ، ويعدهم الأضاليل ، ويمنيهم الباطل ! » وهذا الرجل من بني قشير يشبه كثيراً من يسمونه في العصر الحاضر « رجل الشارع » الذي ينطق بالحكمة دون معرفة سابقة أو خبرة ظاهرة ، وكثيراً ما يصدق ظنه وتتحقق خواطره . فقد انتصر الحجاج في النهاية على ابن الأشعث ، وانجلت المواقع عن فوز الوزغة التي لم يبق إلا ذيلها ، لأن الحجاج كان بصيراً بالحرب والسياسة . ولم تكن خطب الحجاج كلها لاذعة محرقة كما يتوهم بعض المتحاملين عليه ، ولم يكن دائماً مقذعاً ، بل كان كثيراً ما يعظ الناس وعظاً عالياً ، وينثر عليهم دراً غالياً . فقد روى مالك بن دينار ، وهو من شيوخ المحدثين ، قال : غدوت إلى الجمعة فجلست قريباً من المنبر ، فصعد الحجاج المنبر ، ثم قال : « امرؤ زَوَّر عمله ، امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ فكر فيما يقرؤه في صحيفته ، ويراه في ميزانه ، امرؤ كان عند قلبه زاجراً ، وعند همه ذاكراً ، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله ، فإن قاده إلى طاعة الله قبله وتبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كفه » .

وتروى هذه الخطبة بتمامها في « فصل ما روي عن الحجاج من الكلمات النافعة » ص ١٢٨ وما بعدها من ج ٩ من كتاب البداية والنهاية في التاريخ للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسمعيل بن عمر القرشي المعروف بابن كثير ، طبع مصر . ولم يكن مالك بن دينار وحده الذي يعنى بصلاة الجمعة مع الحجاج ، بل كان للحسن البصري إمام زمانه في الفقه والتصوف والحديث عناية به ، واهتمام بأقواله وأفعاله .

* * *

٨ — كتب الأستاذ الفاضل فريد أبو حديد بك أن الحجاج كان في مسلكه مع الخلفاء الذين يستطيعون عزله يظهر نوعاً من الذلة عجيباً ، يحار المؤرخ في تفسيره ، وأنه إنما كان ينبعث في حياته عن نفس تضمر الشعور بالذلة (ص ٢١٢ ج ٨ مجلة الكتاب) ، وفي تاريخ خلفاء بنى أمية أنهم كانوا يتملقون عملاءهم وقوادهم ، وفي مقدمتهم الحجاج . فلما استعمل يزيدُ بن أبي مسلم بعد الحجاج قال : « أنا كمن سقط منه درهم فوجد ديناراً » ،

وفي هذه الكلمة من تمليق العامل الجديد (ابن أبي مسلم) على حساب العامل القديم (الحجاج) ما فيها ، قال يزيد لابن مسلم : «قال : أبي (يقصد الوليد بن عبد الملك) للحجاج : إنما أنت جلدة ما بين عيني وأنا أقول : إنك جلدة وجهي كله » . فهذا الخليفة الأموي يتقلب بين التمليق في حضرة عامله ، وبين التقليل من قدره في غيبته وبعد وفاته . ولم يكن الحجاج على شيء من النفاق حتى يذل لهذا الخليفة الذي صعد المنبر يوماً فقال : « علي بن أبي طالب لص ابن لص صب عليه شؤبوب عذاب » ! فقال أعرابي كان تحت المنبر . « ما يقول أميركم هذا ؟ وفي قوله لص ابن لص أعجوبتان . إحداهما رميه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى بأنه لص ، والأخرى أنه بلغ من جهله ما لم يجهله أحد ، أنه ضم اللام في لص »

ولا يمكن اعتبار الحجاج عبداً ذليلا لأمثال هؤلاء الخلفاء ، كما أراد الأستاذ الأديب فريد بك أن يصوره عندما قال ، « إن الحجاج لم يكن ملكا ولم يكن له الفضل في بناء دولة من الدول ، لأنه إنما كان يسطو بسيف وضع له في يده ، ويدل بسلطان لم يكن له فضل في بنائه » . وكذلك كان الخلفاء الوارثون بعد وفيات مؤسسي الدول ، كمعاوية ، وحتى معاوية كان يتقرب إلى القائد النابغ الذي صان كيان دولته وهزم أعداءه وهو زياد بن أبيه ، فكافأه بأن الحقه بنسبه ، أخاً لأب ، ورفعه إلى درجة الإمارة وأسماه زياد بن أبي سفيان . وهذه الحال بين الملوك والوزراء والقواد ما تزال شائعة في عصرنا هذا ، فإن الملك فكتور عمانوئيل هو الذي وضع السيف في يد بينيتو موسوليني وسلمه زمام الدولة ، وأطلق عليه لقب الدتشي ، وحياه بتحية الفاشست ، ثم تنكر له عند هزيمته . وكذلك الرئيس هندنبرج ، رفع هتلر إلى مقام المستشار ، ومهد له سبيل الحكم .

فإن أردنا أن نتخذ من التاريخ أدلة على سير الأمور وتسلسل الحوادث ، فلنذكر دائماً الحقائق كاملة لاستنباط النتائج الصحيحة ، فنرى أن كل ما يبنى على تذلل الحجاج للخلفاء طمعاً في رضاهم ثم انقلابه على الرعية لينتقم منهم بالقسوة وسفك الدماء تعويضاً عن مذلته لسادته ، ، إنما بني على تحكم بعيد عن النصفة ، ولا سيما ما قاله الأستاذ فريد بك « فكانت قسوته على المحكومين مقرونة إلى جانب ذلته أمام الخلفاء ، وهما معاً يدلان على أنه إنما كان ينبعث في حياته عن نفس تضمر الشعور بالذلة ، ويلتمس الوسائل للتعويض عنها كلما استطاع إلى ذلك سبيلا » — لأن الحجاج كان في كل أحواله صادقاً مخلصاً لمبدئه وفكرته ، وكان الجد في الحياة أظهر صفاته ، شأن كل رجل يقطع العمر في نضال عنيف ، بعيداً عن العواطف الرخوة والضعف الذي تقتضيه الرفاهية والدعة

والطراوة التي درج عليها كثير ممن كانوا في مكانته أو أقل منها ، سواءاً في زمنه أو في زمننا هذا . والدليل على جده وعدله واعتداله أن أبا الحسن الماوردي روى في « أدب الدنيا والدين » : أن الحجاج خطب يوم جمعة فأطال الخطبة فقال رجل (وكانت للرعية شجاعة في الحق حتى مع الحجاج) : « إن الوقت لا ينتظرك والرب لا يعذرك » فحبسه الحجاج ، فأتاه أهل الرجل وكلموه فيه ، وقالوا : إنه مجنون ! فقال الحجاج : إن أقر بالجنون خليت سبيله ، فقيل له : أقر بالجنون فقال الرجل : لا والله ! لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني ! فأعجب الحجاج بجوابه ، وعفا عنه لصراحته وإبائه أن يفتري على الله ، ويتهم نفسه بالجنون باطلا ليخرج نفسه من الحبس . ومن أهم أخبار الحجاج عن حفيد عمار ابن ياسر قال : « خرج الحجاج يريد العراق والياً عليها في اثني عشر راكباً على النجائب حتى دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ، فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز ، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ، ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

إلى آخر الخبر . الذى فيه قوله : « إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته ، ثم عجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها عموداً ، فوجهني إليكم » ثم قدومه ملثما وكشفه عن وجهه بعد ذلك ، سر ذلك أن العرب اتخذوا اللثام لأنه أهيب في الصدور ، وأجل فى العيون ، والمتقنع أروع من الحاسر ، وطرح القناع ملابسة وابتذال ومؤانسة ومقاربة ، وقديماً قالوا من تطؤه العيون تطؤه الأقدام .

فلم يكن الحجاج إذن ظالماً ولا متعنتاً ولا متصنعاً ، وإنما كان يتبع قواعد الحكم الصالح ، ويترسم خطى السلف من الصحابة والتابعين .

وكان الحسن البصري يعتبر الحجاج سيفاً من سيوف الله ، يجعلها للانتقام من الأمم الظالمة ، فقال عنه يوماً : « كان الحجاج يتلو كتاب الله على لخم وجذام ، ويعظ عظة الأزارقة ، ويبطش بطش الجبارين ، اتقوا الله فإن عند الله حجاجين كثيراً » . وليس في هذا القول مبالغة لمن يعرف بني أمية ودولتهم (انظر خطبة أبى حمزة يحيي بن المختار أحد نساك الإباضية وخطبائهم ، ص ٦١ ج ١ من البيان والتبيين للجاحظ) .

* * *

٩ — أما أسباب نجاح الحجاج وشهرته ، فلا ترجع إلى قسوته وشدته أو إهراق الدماء ، إنما ترجع إلى رجاحة عقله ، وعدم تقيده بالاوهام ، واستقلال فكره ، وإقدامه وصدق عزمه وبصره بالحرب والسياسة ، وفصاحة لسانه وبلاغة كلامه ، وهو مدين في

هذا لجنسه العربي وثقافته واجتهاده وأدبه ، فقد كان كل شيء مما له صلة بالقول والرأي للعرب بديهة وارتجالا ، وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ولا مكابرة ولا إجالة فكر ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام . وكان الحجاج فارس هذا الميدان ، وبطل هذه الطريقة ، وإمام الفن في عصره ، فما هو إلا أن يصرف إرادته إلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحداً من صحبه . وقد امتاز العرب على كل الأمم بهذه الخصوصية ، فكان للهند معان مدونة وكتب مجلدة متوارثة على وجه الدهر ، وللإغريق فلسفة وصناعة منطق ، وقد كان صاحب المنطق نفسه (أرسطو) بكيء اللسان غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه ، وفي الفرس خطباء ، إلا أن كل كلامهم وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد وخلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن دراسة كتب ، فكانت حكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث من علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم .

***

١٠ — فوجب على الناقد والمؤرخ أن يشيد بفضل كل عربي أحيا تلك الموهبة الجليلة ، وشق لنفسه طريقاً في الحياة بالحرب والسياسة ، ثم بالفصاحة ورجاحة الرأي وقوة الشكيمة وحفظ كيان الدولة ، وأن نعدّ الحجاج وأضرابه — وهم قليل — من مفاخر الحضارة العربية ، وحماة اللسان العربي ، وبناة الوحدة العربية ، وأصحاب الفضل فيما نستمتع به من ثمار الأدب والبلاغة والفنون الرفيعة ، مما شغف به علماء المشرقيات ، وصرفوا فيه أعمارهم ، وبذلوا أموالهم . ولا سيما أن الحجاج كان محسوداً من الأغيار ، كالفرس والكلدان ، الذين نفسوا عليه فصاحته وحصافته وسطوته وسلطانه وحسن تصريفه الأمور ، فحرضوا أهل العراق على قتله ، ومن هؤلاء الحساد المحرضين على عصيانه وخيانته ابن بصيهرى البابلي ، حين شكا إليه الدهاقين الحجاج ؛ قال : أخبروني أين مولده ؟ قالوا : الحجاز ، قال : ضعيف معجب (لحقده على أهل الحجاز قاطبة) قال: فمنشؤه ؟ قالوا : الشام ، قال : ذلك شر وأنكى ! ثم قال : ما أحسن حالكم إن لم تبتلوا معه بكاتب منكم (يعني من أهل بابل) فابتلوا بزاذان فروخ الأعور !! .. ثم ضرب لهم مثلا فقال : إن فأساً ليس فيها عود ألقي بين الشجر ، فقال بعض الشجر لبعض : ما ألقي هذا ها هنا لخير ! قال : فقالت شجرة عارية : إن لم يدخل فى است هذا منكنّ عود فلا تخفنه . أي إن الفأس وهي قطعة من الحديد لا تصلح لقطع الشجر إلا بعود من الشجر

نفسه ، فإن لم يوضع لها العود لتمسك به ما استطاع إنسان أن يقطع بها فرعاً . كذلك الكاتب البابلي يدل الحاكم الأجنبي على عورات أمته ، فيعرف أمورها ويتمكن منها . وهذا المثل صالح في الاستعمار الحديث ، فإن معظم أعوان المستعمرين في الشرق من أهل الشرق أنفسهم ، كما كانت الحال في أول عهد العرب بالحكم في البلاد التي فتحوها .

فتأمل هذه الدعاية الفارسية تارة ، والكلدانية طوراً ، ضد الحجاج ، ثم ثورة الخوارج ، وفتنة شبيب الشيباني ، وثورة عبدالرحمن بن الأشعث ، ورعونة بعض الخلفاء ونفاقهم ، وتغلب أهل العراق وعبادتهم أهواءهم ، تجده بطلا من أبطال الحرب والسياسة ودعامة قوية من دعائم الحكم العربي ، ورائداً من رواد العظمة الشرقية ، ومؤسساً فى مقدمة بناة الدولة الأموية .

وهذا هو الذي يعني التاريخ ويعنينا ، أكثر مما لو كان بغيضاً إلى النساء ، أو جميل الصورة ، أو مديد القامة صحيح البدن . فإن عبرة التاريخ في حياة الرجال بجلائل الأعمال ، لا بمركبات النقص التي ابتدعها أمثال فرويد ليفتوا في عضد أهل هذا العصر الحديث ، فأبت سعة اطلاع الأستاذ فريد بك وتوقد ذهنه إلا أن يطبقها على من ماتوا من أبطالنا منذ اثني عشر قرناً .

محمد لطفي جمعة

المراجع :

(١) الأغاني
(٢) البداية والنهاية
(٣) أدب الدنيا والدين
(٤) البيان والتبيين
(٥) نيكلسون تاريخ الأدب العربي
(٦) ماسنيون « ثورة ابن الأشعث » في الجزء الأول من كتابه عن الحلاج
(٧) مجلة العالم الإسلامي طبع باريس

موقعة عين جالوت

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري ، هدفاً لسلسلة من الحملات الصليبية القوية . ولم يكن قد مضى على تحطيم صلاح الدين للمملكة اللاتينية واسترداد بيت المقدس أكثر من ثلاثين عاماً حين اضطر حفيده الملك الكامل أن يعيد بيت المقدس إلى الصليبيين مرة أخرى ثمناً لجلائهم عن ثغر دمياط . وكان الصليبيون مذ شعروا بأن قوة مصر هي أكبر خطر على مشاريعهم ، يتجهون دائماً إلى تحطيم هذه القوة . وكانت مصر تشعر من جانبها أنها حصن الإسلام المنيع ضد هذا العدوان المتكرر ، وتحرص بكل ما وسعت على رده وتحطيمه . ووصل الصراع في هذا المعترك إلى ذروته حينما قدمت الحملة الصليبية السابعة إلى مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وذلك في سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) أيام الملك الصالح نجم الدين ، واستولى الغزاة على دمياط مرة أخرى وتوغلوا جنوباً في أرض مصر حتى محلة المنصورة ، ولاح لمصر شبح الخطر الداهم قوياً واضحاً . ولكن مصر استطاعت لحسن الطالع أن تصمد في وجه العدو المغير مرة أخرى ، وأن تنزل بالصليبيين أفدح هزيمة نزلت منذ موقعة حطين ، وأن تمزق جموعهم قتلا وأسراً ، وأن يتوج نصرها الباهر بأسر لويس التاسع وأمرائه ، وذلك في المحرم سنة ٦٤٨ هـ (أبريل سنة ١٢٥٠ م) .

وقد حدث هذا النصر الباهر في عهد الملك المعظم تورانشاه ، الذي خلف أباه الملك الصالح عقب مقدم الفرنج . ولكن الفضل في تحقيقه يرجع بالأخص إلى همة امرأة وأميرة بارعة الخلال ، هي شجرة الدر* زوج الملك الصالح وحظيته من قبل ، فهي التي مهدت إليه بذكائها وحسن تدبيرها ، وهي التي أشرفت على ترتيب خططه وتهيئة أسبابه ، وكانت بمثابة الرأس المدبر لشؤون البلاط والجيش في هذا الظرف العصيب .

ولما توفي الملك المعظم قتيلا عقب هزيمة الفرنج لم ير زعماء المملكة وقادتها خيراً

---

* وتسميها بعض الروايات « شجر الدر » ولكن الروايات المتأخرة تسميها « شجرة الدر » وهي تسمية أكبر ذيوعاً .

من تولية المرأة التي قادتهم إلى النصر في أحرج المآزق على عرش مصر . وهكذا تولت عرش مصر الإسلامية للمرة الأولى والأخيرة أيضاً امرأة هي شجرة الدر ، وكان ذلك في العاشر من شهر صفر سنة ٦٤٨ هـ .

وكان لهذه الخطوة الجريئة وقع عظيم في العالم الإسلامي ؛ وتلقبت الملكة الجديدة بألقاب مبتكرة ، مثل « والدة خليل »✡ ، و « المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين » وغيرها . وأقيم للسلطنة نائب قوي هو الأمير عز الدين أيبك كبير المماليك البحرية ، ليعاونها في تدبير الأمور . وبالرغم مما أبدته شجرة الدر من حزم وبراعة في تسيير الشؤون وتصفية الموقف مع الصليبيين وإجلائهم عن مصر ، فقد كان جلوس امرأة على عرش مصر نذيراً بوقوع الفتنة ، واضطرام الخلاف في أنحاء المملكة ، ولا سيما في الشام ، حيث أبى معظم الأمراء أن يحلفوا يمين الطاعة للملكة الجديدة . فعندئذ رأت شجرة الدر أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك ، ولما لم تفلح هذه الخطوة في تهدئة الأمور ، رأت أن تتخذ الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدي سلام المملكة بذلك العرش الذي رفعها القدر إليه ، فنزلت لزوجها عن العرش لثمانين يوماً فقط من جلوسها عليه ، وتولى الأمير عز الدين أيبك عرش مصر باسم الملك المعز . وذلك في آخر ربيع الثاني سنة ٦٤٨ هـ .

وتولى الملك المعز حكم مصر زهاء سبع سنين استطاع خلالها أن يقمع الفتنة ، وأن يوطد سلام المملكة وأمنها . وكانت زوجته شجرة الدر من ورائه تأخذ في توجيه الأمور بأعظم قسط . ثم دب الخلاف بين الزوجين ، وسئم الملك المعز هذا النير المرهق ، فقرر أن يتخذ له زوجة أخرى، ووقفت شجرة الدر على نيته فاعتزمت أمرها ، ودعته ذات مساء إلى جناحها بالقصر ، وكان يقيم بعيداً عنها منذ حين ، واستقبلته بلطف وحفاوة ، ولكنه ما كاد يدخل الحمام حتى انقض عليه بعض غلمانها وقتلوه أشنع قتلة (٢٣ ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ) فلما رأى الأمراء المعزية ماحل بسيدهم نادوا بولاية ولده الملك المنصور، فجلس على العرش مكان أبيه ، وكان يومئذ صبياً في نحو الخامسة عشرة .

وثارت الخواطر على أثر ذلك ودب الخلاف بين الأمراء الصالحية (مماليك الملك الصالح) والأمراء المعزية (مماليك الملك المعز) . وأراد الأمراء المعزية أن ينتقموا لسيدهم من الزوج الغادرة ، فحال الأمراء الصالحية دون بغيتهم ، واعتقلت شجرة الدر باتفاق الفريقين في أحد أبراج القلعة ، واستطاع الأمراء المعزية أن يتغلبوا في النهاية على معارضة

✡ هو ولدها من الملك الصالح وقد توفي طفلا .

الأمراء الصالحية ، ونفذوا ذات يوم إلى البرج الذي اعتقلت فيه شجرة الدر ، وقبضوا عليها ، وحملوها إلى أم الملك المنصور ، فضربها الجواري بالقباقيب على رأسها حتى زهقت وكفّرت بذلك عن جريمتها أشنع تكفير (١٠ ربيع الثاني سنة ٦٥٥ هـ) .

٢

بينما كانت هذه الحوادث الدامية تتعاقب حول عرش مصر ، وبينما كانت المملكة تضطرم بعوامل الخلاف والتنافس ، كان الشرق الإسلامي من ناحية أخرى يجوز فترة من أدق فترات تاريخه ، ويشهد مأساة من أروع ما شهده . ذلك أن جموع التتار التي خرجت من سهول آسيا الوسطى بقيادة جنكيزخان قبل ذلك بنحو ثلاثين عاماً ، واجتاحت أواسط الصين وشمال غربي الهند وخراسان ، ونفذت إلى سهول روسيا حتى نهر الدون ، انسابت نحو الجنوب الغربي ، واجتاحت فارس بسرعة ، وأخذت صروح العالم الإسلامي القديم تنهار تحت ضرباتهم تباعاً . ثم اتجهت هذه الجموع البربرية نحو المشرق بقيادة عاهلها هولاكو ، وكانت الخلافة العباسية يومئذ تسير إلى قدرها المحتوم بخطى سريعة ، وكان الخليفة المستعصم بالله قد خلف أباه المستنصر بالله قبل ذلك بخمسة عشر عاماً (٦٤٠هـ) ولكنه كان ضعيف العزم والخلال يعكف على لهوه وملاذه ، والعاصمة من حوله تموج بالفتن الداخلية ، والدولة كلها قد انحدرت إلى غمر الفوضى ، وتفككت عراها ، وأشرفت على هاوية الدمار . ولما جاءت رسل العاهل التتري إلى الخليفة تطلب إليه الخضوع ردهم المستعصم بكبرياء وصلف ، فزحف التتار على بغداد وحطموا كل مقاومة ، واضطر الخليفة إلى التسليم . ودخل التتار بغداد دخول الضواري المفترسة ، وقتلوا مئات الألوف من أهلها ، ودمروا صروحها ، ونهبوا خزائنها وذخائرها ، وقضوا على الخلافة العباسية وعلى معالم الحضارة الإسلامية في مناظر هائلة من السفك والتدمير ، ثم قتلوا الخليفة المستعصم بالله وأفراد أسرته وأكابر دولته (صفر سنة ٦٥٦ هـ — فبراير سنة ١٢٥٨ م) وانتهت بذلك حياة الدولة العباسية بعد أن عاشت خمسة قرون .

وأخذ العالم الإسلامي يهتز فرقاً لتلك المأساة المروعة ، ويرقب شبح الخطر الداهم جزعاً . وكانت مصر أشد شعوراً من غيرها بهذا الخطر ، لأنها كانت دائماً كعبة الغزاة من المشرق . ولم تمض بضعة أشهر حتى تحركت جموع التتار إلى الغرب وجازت الفرات واجتاحت بلاد الجزيرة ، واستولى هولاكو على ديار بكر ، ثم على حران ونصيبين

والرها ، وخربها وقتل معظم أهلها . ثم سار بعد ذلك إلى حلب مفتاح مصر من الشمال، وكان صاحب الشام يومئذ الملك الناصر يوسف من أمراء آل أيوب . وكانت المملكة المصرية منذ أيام شجرة الدر قد انقسمت إلى شطرين : مصر ويحكمها المماليك البحرية ، والشام ويسيطر عليها أمراء بني أيوب . ولما ظهرت طلائع التتار في الشام اضطرب الملك الناصر وأرسل يطلب الغوث من باقي الأمراء . وفي المحرم سنة ٦٥٨ هـ وصل التتار إلى حلب وحاصروها أياماً قلائل ، ثم استولوا عليها في مناظر مروعة من السفك ، وقتلوا وأسروا من أهلها عشرات الألوف . وفي ذلك الحين كان الملك الناصر صاحب دمشق يحشد كل ما استطاع من قواته للقاء الغزاة ، ولكنه رأى الموقف باعثاً على اليأس ، وفر معظم السكان إلى الجنوب ناجين بأرواحهم ، فقرر مغادرة دمشق ، وسار إلى غزة في جماعة من أتباعه ، وأرسل معظم الأمراء حريمهم وأولادهم إلى مصر ، وقرر أعيان دمشق تسليمها إلى الغزاة ، وأبلغوا قرارهم إلى العاهل التتري ، فأرسل رسله لتسلمها وعلى رأسهم قائده كبتغانوين ، وأصدر الأمان لأهلها (٢٦ ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ) ، وبسط هولاكو بذلك حكمه على شمالي الشام كله ، ثم أخذ يتطلع إلى الجنوب : إلى تلك الدرة الخضراء التي اجتذبت من قبله أكابر الفاتحين .

٣

كان على عرش مصر في تلك الآونة العصيبة التي اجتاح فيها سيل التتار المخرب بلاد الشرق الإسلامي ملك صبي ، هو الملك المنصور ولد الملك المعز ، ولكنه لم يكن سوى شبح فقط ، وكان صاحب السلطان الحقيقي هو نائب السلطنة الأمير سيف الدين قطز زعيم المماليك البحرية . وكان هذا الأمير القوي يرقب سير الحوادث في المشرق بجزع ، ويرى وجود هذا الفتى اليافع على عرش مصر في ذلك الظرف الدقيق خطراً يهدد كيانها ، وإذا كان لمصر أن تصمد في وجه الخطر الداهم فلا بد أن تقودها إلى معترك النضال يد قوية ، ومن ثم فقد انتهز الأمير قطز أول فرصة ، وقبض على الملك المنصور وأمه وأخيه ، وزجهم إلى برج القلعة ، ونادى بنفسه ملكا باسم الملك المظفر قطز وذلك في ٢٤ ذي القعدة سنة ٦٥٧ هـ ، وقبض على عدة من الأمراء الموالين للملك المنصور والذين يخشى منهم ، وأعلن إلى زملائه الأمراء البحرية في صراحة ، أنه لا يبغي الملك لذاته ولكنه يريد التأهب لرد التتار ، وإنقاذ البلاد من شرهم ، فإذا تم القضاء على هذا الخطر الداهم فلهم أن يختاروا غيره للملك من شاؤوا .

وكانت مصر تواجه يومئذ من الناحية الداخلية ظروفاً دقيقة ، فالمملكة منقسمة على نفسها ، والملك الناصر يسيطر على الشام ، وقد يحالف التتار ليحقق مشروعه القديم في انتزاع عرش مصر من المماليك البحرية ، والأمراء البحرية أنفسهم مختلفون فيما بينهم ، وقد ضعفت موارد البلاد من جراء الحروب الصليبية المتوالية والمعارك الأهلية المستمرة . ولكن الملك الجديد كان رجل الموقف، فبادر بمفاوضة الملك الناصر ومهادنته ، وبذل جهده في التأهب وحشد الجند . وكان هولاكو قد وصل أثناء ذلك إلى حلب واجتاح الشام وسلمت دمشق ولاح شبح الخطر قوياً على مصر .

ولم يخطىء ملك مصر في تقدير الموقف وتفهم نية الغزاة . ذلك أنه ما كاد هولاكو يفرغ من غزو الشام حتى وضع خطته لغزو مصر، وعهد بتنفيذها إلى نائبيه في الشام كتبغانوين وبيدر، ثم إرتد بقسم من قواته نحو المشرق . وسار كتبغانوين وزميله بيدر بمن بقي من قوى التتار إلى الجنوب لغزو مصر ورأى هولاكو جرياً على عادته أن يرسل سفراءه إلى ملك مصر يطلب إليه التسليم والخضوع فأرسل إليه أربعة سفراء يحملون كتاباً يفيض بالتهديد والوعيد يقول فيه : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم — باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء ... يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا الطلب فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم . فما لكم من سيوفنا خلاص — ولا من مهابتنا مناص فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . . فإنكم أكلتم الحرام وخنتم العهود والأيمان وفشا فيكم العقوق والعصيان . فأبشروا بالمذلة والهوان " فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " فمن طلب حربنا ندم ومن قصد أماننا سلم . . فلا تضلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمي نحوكم شرارها وتدهون منا بأعظم داهية وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم وأيقظناكم إذ حذرناكم فما بقى لنا مقصد سواكم والسلام علينا

وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى »[١].

فماذا كان جواب ملك مصر على هذا الوعيد المغرق ؟ استقبل سيف الدين قطز رسل هولاكو بكبرياء وغلظة ، وأمر بالقبض عليهم وإعدامهم فأعدموا توسيطاً[٢] كل أمام باب من أبواب القاهرة وعلقت رؤوسهم الأربعة على باب زويلة . ثم حشد قواته على عجل ، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم بالجهاد ، وبذل قطز جهده لإقناع مقدمي المماليك المترددين في السير معه بقواتهم . ولما تكامل الحشد ، خرج ملك مصر من قلعة الجبل في يوم الإثنين الخامس من شهر شعبان سنة ٦٥٨ هـ (أغسطس سنة ١٢٦٠ م) على رأس قواته ، متجهاً نحو الصالحية ، وأرسل طلائعه بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، ليمهد الطريق ويكشف عن أخبار التتار .

كان الملك المظفر قطز يسير إلى لقاء التتار فياض العزم فياض الثقة . ألم يحطم جند مصر قوى الفرنج الصليبيين قبل ذلك بأعوام قلائل وذلك بعد أن غزوا أرض مصر ذاتها ؟ ولقد كان هذا النصر الباهر يرجع قبل كل شيء إلى براعة المماليك البحرية وبسالتهم ؛ وكان هؤلاء القادة البواسل أنفسهم هم الذين يقودون جند مصر إلى لقاء البرابرة التتار فلم لا يحالفهم نفس الطالع الحسن ، فيظفروا مرة أخرى برد هذا الخطر الداهم عن أرض الكنانة وحماية الإسلام والمدنية الإسلامية من هذا السيل المخرب ؟

وكان زعيما التتار في الشام كتبغا وبيدر قد وصلا في قواتهما إلى غربي فلسطين ووصلت طلائع التتار إلى غزة على الحدود المصرية ، ولكنها ما كادت ترى الطلائع المصرية التي يقودها الأمير ركن الدين بيبرس حتى انسحبت أمامها دون قتال واحتل المصريون غزة . ثم وصل سلطان مصر في قواته وسار على طريق الساحل ليحاول لقاء التتار وكانت عكا ما تزال يومئذ في يد الفرنج فتعاقدوا مع السلطان على الحياد ، ثم تحول السلطان بجيشه نحو الجنوب الشرقي حينما علم بأن التتار يسيرون في ذلك الاتجاه نحو الأراضي المصرية .

وكان السلطان يشعر شعوراً عميقاً بخطورة المهمة التي يواجهها ، ولم يكن يرى في تدفق الغزو التتري نحو مصر إلا نوعاً جديداً من الخطر الصليبي يجب أن يسحق كما

---

(١) أورد المقريزى في السلوك نص رسالة هولاكو بأكمله . وقد أغفلنا بعض عباراته (المجلد الأول (١٢ ص ٤٢٧ و ٤٢٨).

(٢) التوسيط هو أن يضرب الشخص بالسيف في وسطه فيقصمه نصفين . وكان هذا النوع من الإعدام شائعاً بمصر في العصور الوسطى

سحقت القوات الصليبية السابقة . ومن ثم جمع السلطان قادته قبيل السير وشرح لهم خطورة الموقف ، وذكرهم بما وقع من التتار في البلاد التي غزوها من شنيع السفك والتخريب ، وما ينتظر مصر وأهلها من مصير مروع إذا نجح التتار في اجتياحها وحثهم وهو يبكي على بذل أرواحهم في سبيل إنقاذ الإسلام والمسلمين من هذا الخطر الداهم ، فضج الأمراء جميعاً بالبكاء ، وأقسموا بألا يدخروا وسعاً ولا تضحية في سبيل مقاتلة التتار وإنقاذ مصر والإسلام من شرهم .

٤

وبعث السلطان بعض قواته بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس لمناوشة التتار واختبار قواتهم فالتقت بطلائع التتار في مكان يقع بين بيسان ونابلس عند قرية عين جالوت وقام بيبرس بمهمته ببراعة حتى وافاه السطان على رأس جيشه . وكانت قوات التتار قد أخذت تتلاحق إلى الوادي بقيادة كتبغا وبيدر ، وسرعان ما اشتبكت الطلائع المصرية بطلائع التتار وردتها وأخذ الفريقان يتأهبان للمعركة العامة . وفي صباح يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان (٦ سبتمبر سنة ١٢٦٠م) نشبت بين الجيشين معركة عامة ، وكان التتار يحتلون في مرتفع السهل أمكنة حسنة فانقضوا على المصريين بقوة ونجحوا في رد الحرس السلطاني إلى الوراء ، وكاد نظام الجيش المصري يضطرب مدى لحظة ، ولكن السلطان بادر إلى استئناف الهجوم بقوات القلب بشدة وهو يصيح « وا إسلاماه » . وأيدته قوات الجانبين بعنف ، وسرعان ما اختل توازن التتار وانفصلت صفوفهم ، وارتدوا قليلاً نحو التلال الواقعة على مقربة من بيسان ، وقتل قائدهم كتبغا خلال المعركة وأسر ابنه ، ولكنهم عادوا فانتظموا ثانية واشتبكوا مع المصريين في معركة جديدة ، وكان الملك المظفر يقود جنده بنفسه خلال اضطرام المعركة ويقال إن فرسه سقط من تحته وكاد يعرض للقتل لولا أن أسعفه فارس نزل له عن فرسه. ويروى أيضاً أن السلطان حينما شعر بشدة وطأة القتال عاد يصيح « وا إسلاماه يا ألله انصر عبدك قطز على التتار » ! وضاعف المصريون قواهم ، وحقت الهزيمة على التتار مرة أخرى ودب إليهم الذعر والخلل ، وتفرقوا في كل ناحية ، واستولى المصريون على غنائم لا تحصى ، ونزل السلطان من على فرسه ، ومرغ وجهه على الأرض وقبلها وسجد لله شكراً على ما أولاه من نصر باهر ، وحُمل رأس كتبغا قائد التتار إلى القاهرة ، وطيف به ، وعمّ البشر والسرور كل مكان ، وسارت بعض القوات المصرية بقيادة الأمير ركن الدين

بيبرس لمطاردة التتار المنهزمين ، فأفنت منهم خلقاً كثيراً وفرت شراذم الناجين منهم نحو المشرق ، وكانت هزيمة ساحقة لم يصب التتار بمثلها منذ سيرهم المظفر خلال الشرق الإسلامي .

ووصلت أنباء النصر سراعاً إلى دمشق ففر من كان بها من نواب التتار وأنصارهم الذين مالؤوهم أثناء الاحتلال ، ثم قدم الملك المظفر قطز إليها في آخر شهر رمضان ودخلها في موكب فخم ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى طهرت البلاد الشامية كلها من بقايا التتار . ولما انتهى السلطان من ترتيب شؤون الحكم واختيار النواب والولاة اعتزم العودة إلى مصر ، فسار إليها في ركبه في أوائل ذي القعدة .

ولكن القدر الباغي كان يتربص بالملك المظفر . ذلك أن نفراً من الأمراء الناقمين على رأسهم بيبرس كانوا يأتمرون به لأنه لم يحقق أطماعهم ومطالبهم ، ويرقبون الفرصة للتخلص منه . وكان الملك المظفر من جانبه يخشى منافسة بيبرس وبأسه ، ويضمر له السوء ، فلما وصل الركب السلطاني إلى مقربة من الصالحية أقيمت للسلطان حفلة صيد فلما عاد منها وقصد إلى الدهليز السلطاني انقض عليه الأمير بيبرس وعدة من زملائه وقتلوه على مقربة من خيمته ، وذلك في ١٥ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ (٢٤ أكتوبر سنة ١٢٦٠م) ولم يمض يومان على ذلك حتى حل مكانه في الملك قاتله باسم الملك الظاهر .

وهكذا قضى الملك المظفر في الملك أقل من عام فقط ، ولكنه حقق في عهده القصير عملاً من أعظم الأعمال ، وأحرز فيه نصراً من أعظم الانتصارات الحاسمة التي خلدها تاريخ مصر الإسلامية .

ولقد كانت كسرة التتار في عين جالوت أجل وأخطر من هزيمة محلية . ولم تكن نصراً لمصر فقط . ولكنها كانت نصراً للعالم الإسلامي كله على هذا السيل المخرب الذي اجتاح المشرق الإسلامي في أقل من ثلاثين عاماً . وقد لبث خطر الحملات الصليبية يهدد قلب العالم الإسلامي منذ أواخر القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) وقضت مصر أكثر من سبعين عاماً في مغالبته والقضاء عليه ، فكانت في مجهودها تمثل الشرق والإسلام كله ؛ ولم يكن خطر التتار أقل من خطر الصليبيين في نتائجه المخربة ، ولم يكن ظفر مصر برده والقضاء عليه إلا تأدية لنفس الدور وتحقيقاً لنفس الرسالة التاريخية التي خصها القدر بأدائها *

---

* لم يفت الرواية الإسلامية المعاصرة أن تنوه بهذا المغزى الإسلامي العام لانتصار مصر على جيوش التتار، فمثلا يقول لنا أبو الفداء الذي عاش قريبا من ذلك العصر في تاريخه تعليقاً على هذا النصر :

وكان يوم عين جالوت يوماً عظيماً،لا في تاريخ مصر وتاريخ الإسلام فقط ، ولكن في تاريخ المدنية كلها . ذلك أن هذا السيل التتري المخرب كان ينذر باقتحام المشرق إلى المغرب ، ولو اجتاح التتار مصر لاجتاحوا المغرب والأندلس وربما أوربا، وانهارت صروح المدنية كلها من شرقية وغربية إسلامية ومسيحية . ولكن مصر استطاعت في عين جالوت أن تنقذ الإسلام والمدنية كلها . ولم تكن موقعة عين جالوت أقل خطراً من موقعة شالون التي هزم فيها « الهون » قبل ذلك بثمانية قرون على يد القوط والرومان (سنة ٤٥١ م) ، بعد أن اجتاحوا أوربا كلها والتي تنوه التواريخ الغربية بفضلها في إنقاذ المدنية الرومانية .

ولما تجدد خطر الغزو التتري بعد عين جالوت بقرن ونصف ووصلت جحافل التتار ثانية إلى الشام بقيادة عاهلها الكبير تيمورلنك (٨٠٣ هـ) هبت مصر لدفع الغزاة مرة أخرى ، ومع أنه لم تقع بين الغزاة وبين مصر يومئذ معارك حاسمة، فإن الغزاة حين ارتدوا من تلقاء أنفسهم كانوا بلا ريب يحسبون لقوة مصر حسابها ويذكرون ما كان لهذه القوة من أثر في رد أسلافهم والقضاء على مشاريعهم .

ولقد كان من نتائج الغزو التتري للشرق الإسلامي، واختفاء الدولة العباسية من الميدان، وما ترتب على تخريب بغداد من سحق العلوم والآداب أن تحولت رياسة التفكير الإسلامي نهائياً إلى القاهرة ، ولبثت القاهرة تحتفظ بهذه الرياسة الفكرية بعد ذهاب قرطبة وبغداد زهاء ثلاثة قرون ، حتى سقطت مصر صريعة الغزو العثماني .

محمد عبد الله عنان

« وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم ، فإن القلوب قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الإسلام ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه » (ابو الفداء ج ٢ ص ٢٠٥)

تراث الفنون الإسلاميّة
في البلقان وأوربّا الوسطى

للدكتور زكي محمد حسن

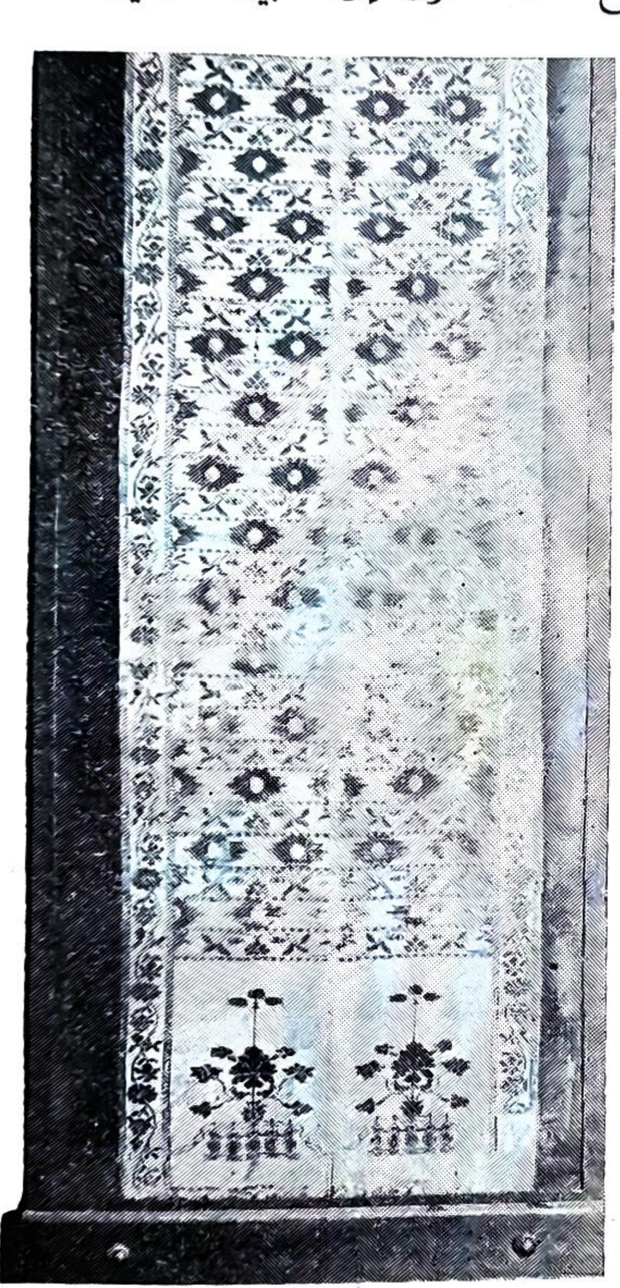
قام في العالم الإسلامي فن طبعه المسلمون بطابعهم ، وألفوا بين مدارسه المختلفة باختلاف الأقاليم الإسلامية ، واختلاف العصور التاريخية التي مرت بها هذه الأقاليم . وازدهر هذا الفن الإسلامي بين القرنين السابع والثامن عشر بعد الميلاد . وكان الفرق كبيراً بينه وبين الفنون المختلفة التي عاصرته ؛ فكانت له مميزاته ، وأهمها أنه كان زخرفياً قبل كل شيء . وذلك بسبب كراهية تصوير الكائنات الحية عند المسلمين ، وانصراف الفنيين إلى الرسوم والزخارف النباتية والهندسية ، وبسبب تأثر أولئك الفنيين بالأساليب الفنية القديمة التي ازدهرت في الشرق الأدنى قبل الإسلام .

وقد أثر الفن الإسلامي في الفنون الغربية منذ العصور الوسطى ، وأخذت هذه الفنون عن الفنيين في ديار الإسلام — سواء أكانوا من المسلمين أم من المسيحيين — أخذت عنهم بعض الموضوعات الزخرفية والأساليب الفنية . ولا غرابة في هذا ، فقد اتصل الشرق الإسلامي بأوربا في العصور الوسطى بوساطة التجارة ، وبوساطة مدنية المسلمين في الأندلس وصقلية ، وبوساطة إتصال المسلمين ببيزنطة ، ثم بوساطة الحروب الصليبية ، فضلا عن مشاهدات الحجاج المسيحيين إلى بيت المقدس ، وما كانوا يجلبونه هم وسائر الرحالة المسيحيين من التحف الإسلامية . ثم كان امتداد نفوذ الدولة العثمانية في البلقان عاملا كبيراً في اتصال العالم الإسلامي بتلك الأقاليم وبأوربا الوسطى .

على أن الذي نريد أن نعرض له في مقالنا اليوم إنما هو إتصال الشرق الإسلامي بالبلقان وأوربا الوسطى ، وما خلفه من تأثير ظاهر في الفنون الزخرفية في تلك الأقاليم .

أمّا التجارة بين موانئ مصر والشام من جهة ، وموانئ البلقان وشبه الجزيرة الإيطالية من جهة أخرى ، فكانت زاهرة إلى حد بعيد . وكان التجار لا ينقلون إلى الغرب ما يجلبونه من بضائع الشرق الإسلامي فحسب ، بل ينقلون أيضاً ما يجلبونه من بضائع الشرق الأقصى . وكانت العلاقات التجارية وثيقة بين الأمم الإسلامية وبلاد

الروس والبلغار وأوربا الوسطى وأوربا الشمالية الغربية ، وكانت قوافل التجار المسلمين منتشرة في الطرق التجارية بين بحار الصين وآسيا الوسطى وسواحل بحر البلطيق . وحسبنا دليلا على ذلك الكميات الوافرة من النقود الإسلامية التي عثر عليها في الروسيا وفنلندة والسويد والنرويج . وترجع قطع العملة المذكورة إلى ما بين القرنين الأول والخامس بعد الهجرة (السابع والحادي عشر بعد الميلاد) ، وفضلا عن ذلك فإن كتب الرحلات وتقويم البلدان تؤيد تردد التجار المسلمين على جنوبي الروسيا والقسطنطينية والمدن التجارية في إيطاليا، وتشير إلى وصول بعضهم إلى أوربا الوسطى ، كما أنها تصف المملكة التي أسسها البلغار في حوض الفلجا الأوسط ، وانتشر فيها الإسلام وزارها الرحالة ابن فضلان سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١م) .

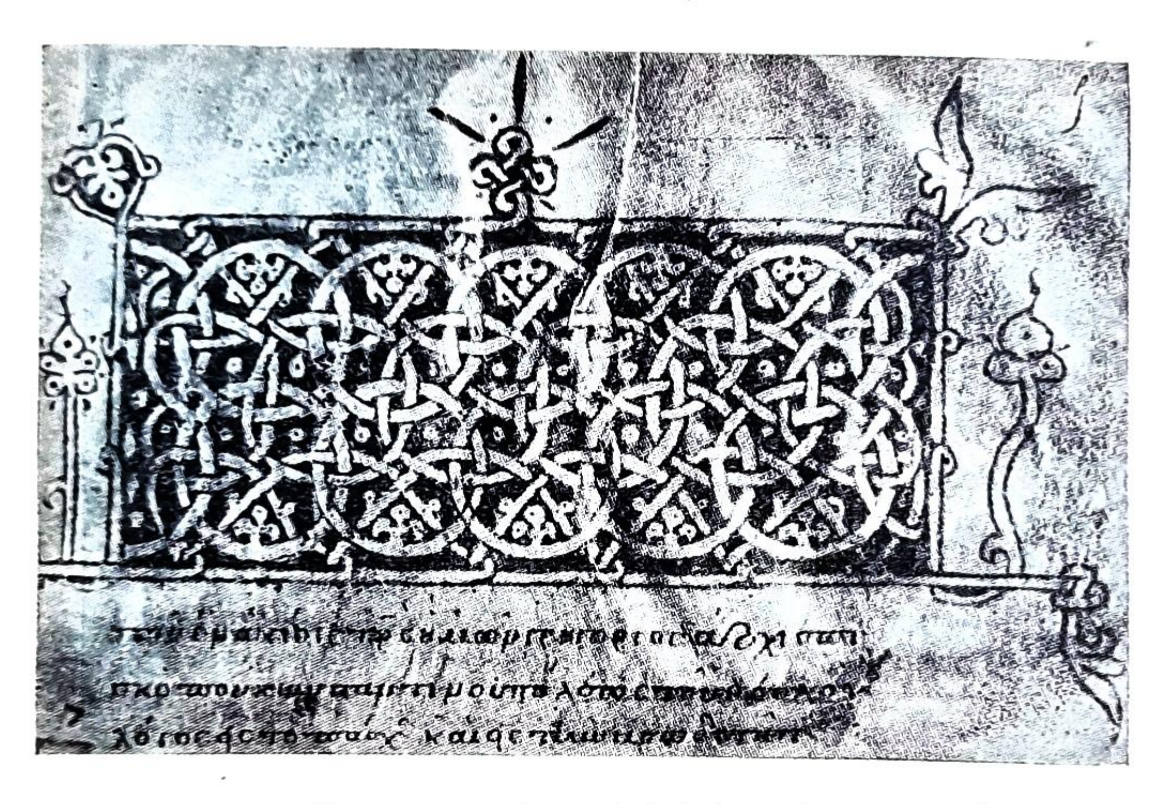


(شكل ١) جزء من حزام بولندي من القرن الثامن عشر

وكانت بولندة من حلقات الاتصال بين الغرب والشرق الأدنى ، ولا سيما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعد الميلاد ، وتأثرت كثيراً بالفنون الإسلامية في إيران وتركيا ، على رغم أنها لم تكن كالبلقان جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ، وذلك أن المدن الواقعة جنوبي شرق بولندة كانت تحصل على تحف شرقية كثيرة من موانئ البحر الأسود* . وفضلا عن ذلك فقد كان في بعض مدن بولندة — ولا سيما لوفوف أو لمبرج — مهاجرون

* كان أعظم هذه الموانئ ثغر كافا في شبه جزيرة القرم . وقد استولت عليه جنوة سنة ١٢٧٠ ثم أخذه الترك سنة ١٤٧٥ وضم إلى الروسيا سنة ١٧٧٠ ، ويعرف الآن باسم ثيودوسيا .

من الأرمن واليونان أقبلوا على استيراد التحف الإسلامية من الإمبراطورية العثمانية. وزاد اتصال بولندة بالشرق الأدنى في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بعد أن امتد نفوذ الأتراك العثمانيين شمالي البلقان، وأصبحت بولندة من أهم الأسواق لبيع التحف التركية والإيرانية، وتأثر الفنيون البولنديون بأساليبها ولا سيما في المنسوجات



(شكل ٢) زخرفة في مخطوط بيزنطي من القرن الرابع عشر [عن إيبرزولت].

والسجاد والتحف المعدنية والحلى والأسلحة. وكان التجار من الأرمن الإيرانيين يترددون على وطنهم الأول لشراء السجاجيد الثمينة والمنسوجات النفيسة والأسلحة الغالية، وكانت بعض الأسر البولندية توصي بنسج السجاجيد الشرقية في تركيا وإيران، على أن تنسج فيها أشعرة تلك الأسر أو شاراتها الخاصة.

وأصبحت مدينة لوفوف البولندية مركزاً كبيراً للتجارة في التحف الإسلامية، ثم عمل فريق من تجارها على إنشاء مصانع للنسج أقبلت على تقليد الأقمشة الشرقية، ولا سيما التركية والإيرانية، وقد أتيح لهذه المصانع أن تنتج من السجاد الديباج وسائر المنسوجات الثمينة ما لا يسهل تمييزه من منتجات إيران وتركيا. وأصاب البولنديون نجاحاً عظيما في تقليد الأحزمة (الشيلان) الحريرية الشرقية التي لم يكن يستغني عنها النبلاء في ملابسهم التقليدية، بل إن كثيراً من هذه الملابس كان يحلى بزخارف إسلامية

الطراز . وتمتاز الأحزمة المصنوعة في بولندة بأن قوام زخرفتها أشرطة فيها رسوم نباتية أو هندسية متتابعة . وينتهي طرفا الحزام البولندي بزخرفين متشابهين كانا في معظم الأحيان من رسوم زهر القرنفل (شكل ١) .



(شكل ٣) كنيسة في دير القديس يوحنا بمدينة ديلا في بلغاريا شيدت بين عامي ١٨٣٤ — ١٨٣٧

وفضلا عن ذلك فقد كان معظم زخارف التحف المصنوعة من الجلود والمعادن ، ولا سيما الحلى والأسلحة ، منقولا عن الزخارف الإسلامية . ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من صناع تلك التحف كانوا من الفنيين الأرمن أو اليونان الذين نزحوا إلى بولندة من الأقاليم الواقعة تحت النفوذ التركي أو الإيراني . ثم نشأ جيل من الفنيين البولنديين الوطنيين احتفظ في منتجاته بكثير من الأساليب الفنية الإسلامية ، وأضاف إليها بعض الأساليب الغربية ، ونجح في الجمع بين تلك الأساليب المختلفة في توافق وانسجام .

وكان للحروب الصليبية شأن عظيم في زيادة الاتصال بين الشرق الإسلامي والأوربيين عامة . وتأثر الصليبيون بما شاهدوه عند المسلمين من فنون وصناعات . شهد بذلك المؤرخ الفرنسي جيزو Guizot وزير لويس فيليب ملك فرنسا . فسجل هذا الفضل

في كتابه « تاريخ الحضارة في أوربا » Histoire de la Civilisation en Europe

"Les croisés de leur côté, furent frappés de ce qu'il y avait de richesses et d'élégance, de mœurs chez les musulmans. A cette première impression succédèrent bientôt entre les deux peuples des fréquentes relations. Elles s'étendirent, et devinrent beaucoup plus importantes qu'on ne le croit communément. Non seulement les Chrétiens d'Orient avaient avec les Musulmans des rapports habituels, mais l'Occident et l'Orient se connurent, se visitèrent et se mêlèrent."

وهكذا يشهد علم من أعلام المؤرخين الأوربيين أن الصليبيين دهشوا لما كان عند المسلمين من ثروة وكرم في الخلق ، وتبع هـذه الفكرة الأولى صلات كثيرة بين الجانبين ، نمت وامتد أثرها وأصبحت أعظم شأناً مما يظن عادة ، فلم يقف الأمر عند حد العلاقات العادية بين المسلمين والمسيحيين في الشرق ، بل تعـارف الشرق والغرب ، وتبودلت الزيارات وزاد الاختلاط بينهما .



(شكل ٤) زخارف في أحد القصور الألمانية من القرن الخامس عشر

والحق أن الحروب الصليبية ساعدت على نمو تجارة الأوربيين مع الشرق الإسلامي ، وظلت الصلة قوية بين الجانبين بعد انتهاء الحروب الصليبية . وعاش في البندقية وجنوة وغيرهما من المدن الإيطالية بعض الصناع المسلمين ، ونشروا فيها أساليبهم الفنية ، وتتلمذ عليهم الصناع الإيطاليون ، ونقلوا كثيراً من الزخارف والأساليب الفنية الإسلامية إلى أوربا الوسطى وغيرها من الأقاليم الأوربية .

وكانت العلاقات بين العالم الإسلامي والدولة البيزنطية عدائية في معظم الأحيان ، ولكن ذلك لم يمنع تبادل السفارات والهدايا ، بل حدث أن أرسل الأباطرة البيزنطيون إلى الخلفاء المسلمين الصناع المهرة والمواد النادرة وما إلى ذلك ، مما كان الخلفاء يحتاجون

إليه في إقامة عمائرهم . ولا ريب في أن الفنيين البيزنطيين أعجبوا بكثير من الأساليب الإسلامية في الزخرفة ، وأقبلوا على تقليدها في تذهيب مخطوطاتهم ، (شكل ٢) وفي تزيين منسوجاتهم النفيسة ، وغير ذلك من منتجاتهم الفنية .

وفي بداية القرن الرابع عشر أغار المغول على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى ، وأفلحوا في القضاء عليها ، وأفاد من ذلك عثمان بن أرطغرل جد الأتراك العثمانيين ، فاستقل بالمقاطعة التى كان السلاجقة قد أقطعوا أباه إياها . وهكذا قامت الدولة العثمانية ، وعملت بعد ذلك على مد سلطانها في آسيا الصغرى ، ثم في البلقان ، فسقطت غاليبولي ثم أدرنة ، وتقدم العثمانيون في أراضي البلغار والصرب ، ووصلوا إلى نهر الطونة بعد التغلب على كل الجيوش المتحالفة التي أرادت الوقوف في سبيلهم ، ثم توّجوا انتصاراتهم بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وقضوا بذلك على الدولة البيزنطية ، وتم لهم إخضاع البوسنة والصرب والمورة وألبانيا والقرم ، فأصبحت شبه جزيرة البلقان جزءاً من إمبراطوريتهم العظيمة . ولكن دبَّ الضعف إلى هذه الإمبراطورية منذ نهاية القرن الثامن عشر ، وعمل الروس على

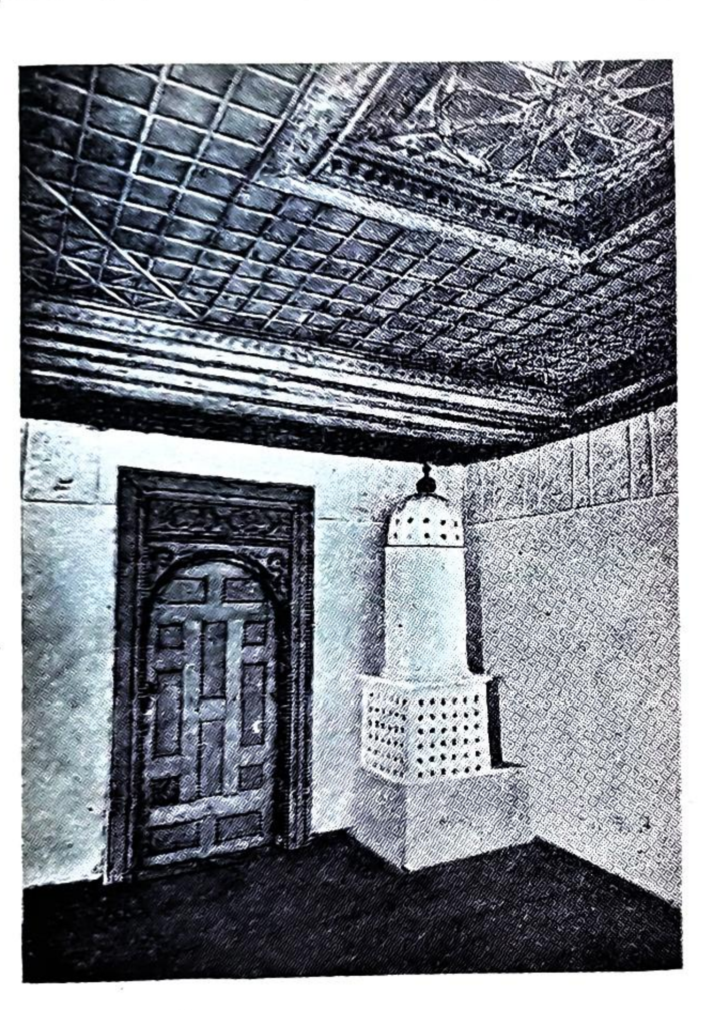


(شكل ٥) علبة من الفضة المطعمة بفصوص المينا من بلغاريا في القرن السابع عشر أو الثامن عشر

الإفادة من ذلك بحماية الشعوب المسيحية الأرثوذكسية التي كانت تخضع للأتراك في البلقان ، وبالسعي للاستيلاء على القسطنطينية والسيطرة على المضايق للوصول إلى البحر المتوسط . وشهد القرن التاسع عشر تفكك الإمبراطورية العثمانية وزوال سلطانها عن معظم أملاكها الأوربية ، فاستقلت بلاد اليونان سنة ١٨٣١ واستقلت رومانيا وبلاد الصرب والجبل الأسود سنة ١٨٧٨ ، واستقلت بلغاريا سنة ١٩٠٨ .

وكانت شعوب البلقان في أثناء خضوعها للترك تعيش بمعزل عنهم ، وكانت جماعات

الترك منتشرة في شبه الجزيرة ، ولكنها لم تفلح في أن تطبع أهلها بالطابع التركي ، وذلك بسبب اختلافهم عن الترك في الدين واللغة والجنس ، فضلا عن عجز الترك في الإدارة وفساد سياستهم في حكم الشعوب التي تتألف منها إمبراطوريتهم . ومع ذلك كله فقد تأثرت هذه الشعوب بالأساليب التركية في العمارة والزخرفة ، وظهر هذا التأثر في مبانيهم ومنتجاتهم الفنيـة ، وامتد هذا التأثير الإسلامى إلى الشعوب المجاورة للبلقان ، كالروسيا والمجر وسائر أوربا الوسطى ، ولا يزال ظاهراً حتى بعد استقلال الشعوب البلقانية عن تركيا .



(شكل ٦) غرفة في منزل بلغاري بمدينة أرباناسي من القرن الثاني عشر

وكذلك جزيرة صقلية، أينعت فيها الحضارة الإسلاميـة منذ فتحها المسلمون من شمالي إفريقية سنة ٨٢٧ م . وبقيت الأساليب الفنية الإسلامية سائدة فيها مدة طويلة ، بعد أن زال عنها حكم المسلمين واستولى عليهـا النرمنديون سنة ١٠٨٩ ، بل انتشرت منها إلى جنوبي إيطاليا وأوربا الوسطى والغربية ، لأن النرمنديين اتبعوا سياسة التسامح الديني ، وعملوا على المساواة بين رعاياهم من المسيحيين والمسلمين .

وازدهرت المدينة الإسلامية في الأندلس ، وأصبحت قرطبة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أعظم المدن الأوربية حضارة وأكثرها عمراناً . ولم يقف تأثير الأساليب الفنية الأندلسية عند أوربا الغربية وإيطاليا ، بل امتد أيضاً إلى أوربا الوسطى والبلقان .

وصفوة القول أن وسائل الاتصال بين ديار الإسلام وأوربا الوسطى والجنوبية

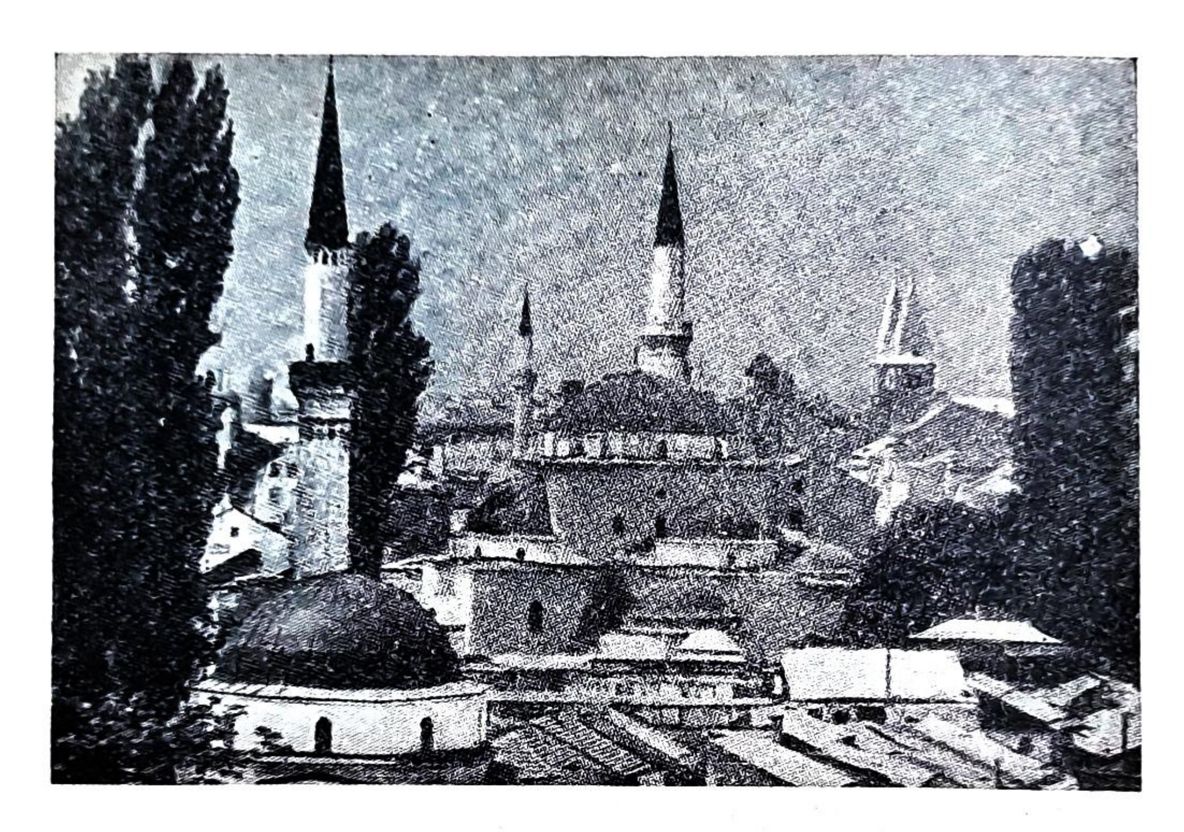


(شكل ٧) جلد كتاب من صناعة ألمانيا
في القرن السادس عشر

الشرقية كانت كثيرة ، وأن تأثر تلك الأقاليم بالفنون الإسلامية واضح في بعض الأساليب المعمارية ، كاتخاذ المقرنصات (الدلايات) والفروع النباتية العربية (الأرابسك) ورسوم وريقات الشجر . ويظهر ذلك كله في الكنيسة الأرمنية بمدينة لوفوف في بولندة . كما أن تأثر بعض العمائر البلقانية بالطراز التركي ظاهر في نوع النوافذ والأعمدة وزخارفها ، كما يبدو في كنيسة في دير القديس يوحنا بمدينة ديلا في بلغاريا ✫ ، وقد شيدت بين عامي ١٨٤٣ و١٨٣٧ (شكل ٣) بل إن أثر الزخارف الإسلامية واضح في بعض القصور الألمانية من القرن الخامس عشر (شكل ٤) . كما نقل الصناع الأوربيون عن المسلمين بعض أنواع الزخارف النباتية والزخارف المجدولة والزخارف المكونة من تقليد الكتابات الكوفية ، ونقلوا عنهم بعض الأساليب الفنية في صناعة التحف المعدنية وزخرفتها (شكل ٥) وفي صناعة السقوف وزخرفة أخشابها (شكل ٦) ، وفي تجليد الكتب (شكل ٧) وزخرفة السجاد والمنسوجات

✫ تشهد بهذا التأثير الإسلامي في العمائر والمنتجات الصناعية كثير من لوحات مؤلف عن الفن البلغاري القديم Die Altbulgarische Kunst كتبه سنة ١٩١٩ الأستاذ بوجدان فيلوف Bogdan Filow أستاذ الآثار البلغاري ، الذي استهوته السياسة فخاض غمارها وولي وزارة المعارف ثم رئاسة الوزارة والوصاية على العرش في بلاده أثناء الحرب الأخيرة ، وأدى تعاونه مع الألمان إلى إعدامه بعد هزيمة المحور .

النفيسة . وفضلا عن ذلك فإن يوغسلافيا لا تزال تشتمل على أقلية كبيرة من السكان



(شكل ٨) منظر بعض المساجد في مدينة سيراجيفو بيوغسلافيا

المسلمين ، ولا تزال هذه الطائفة من أهل البلاد متأثرة في عمائرها (شكل ٨) ومنتجاتها الفنية بالأساليب الفنية الإسلامية .

زكى محمد حسن

تصحيح

ورد في السطر ٨ من الصفحة ٣٦٠ من الجزء الماضى في مقال الأستاذ عباس محمود العقاد عن التتويج والمبايعة ، أن العرب كانوا يتشبهون بملوك الغرب في مراسم الإمارة ، والصواب : بملوك الفرس .

المعارضات في الشعر العربي
٢ - في صدر الإسلام

للأستاذ علي الجارم بك

أشرقت الجزيرة العربية بنور الإسلام ، وقام ابن عبد الله يدعو إلى الدين وحيداً أول الأمر ، وفي قلة من الناصرين بعد حين ، قام يصدع بأمر ربه جريئاً لا يخشى في الله إيذاء ولا تفنيداً ، فدعا إلى التوحيد ، فكانت هـذه الدعوة فتحاً جديداً في هذه الجزيرة التي مردت على عبادة الأوثان ، ثم دعا إلى المساواة وكان شعاره « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » في قوم نفخت خياشيمهم عُبِيّة الجاهلية ، وطبعوا على التفاخر بالأنساب ، ثم دعا إلى هدم كثير من عادات الجهل والعصبية القَبَلِية التي رسخت في نفوس القوم حتى أصبحت من طبائعهم ، ومن أخص مميزاتهم . والجاهليّون أشد الناس جفاء وعناداً ، وأصعبهم قياداً ، وأحرصهم على التمسك بالقديم ، فثاروا على النبي الكريم ، وسد كثير منهم آذانهم عن سماع الوحي الإلهي ، فلما طال به المدى ، وطالت أيديهم إليه بالأذى ، رأى لتذليل سبيل دعوته ولإرغامهم على الحق الذي عميت أعينهم عن نوره الساطع ، أن يحاربهم بسلاحهم ، وأن يتحداهم بوسائلهم ، ولم يكن لهم إلا وسيلتان : السيف والشعر ، فحاربهم بالسيف والشعر . جنّد عليهم جنوداً من أصحابه يقاتلونهم بحدّ السنان ، وجرّد عليهم من الشعراء جنوداً يصاولونهم بعضب اللسان . رُوي أنه لمّا كان يومُ الأحزاب ، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، قال النبي : من يحمي أعراض المسلمين ؟ فقال كعب بن مالك : أنا يا رسول الله . وقال عبد الله ابن رواحة : أنا يا رسول الله . وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله . فقال النبي : نعم اهجهم أنت فإنه سيُعينك الله بروح القدس . وقيل إن رجلاً جاء إلى ابن عباس فقال له : جاء اللعين حسان من الشام . فقال ابن عباس : ما هو بلعين ، لقـد نصر رسول الله بلسانه ونفسه . وكان للمعسكر الآخر من مشركي قريش شعراء مجيدون ، منهم : عبد الله بن الزِّبَعْرَى، وعباس بن مرداس، وضرار بن الخطاب ، وغيرهم . وقد كثرت المعارضات الشعرية في هـذا العهد ، وثار غبارها ، وحمي وطيسها ، فإذا قال شاعر من المسلمين قصيدة في الفريق الذي يناصره ، أو أشاد بمديحه والمفاخرة به ، أجابه

شاعر أو شعراء من الفريق الآخر بقصيدة أو قصائد من البحر والقافية ، فنهض الشعر من حيث إنه فن ، ونهض مرة أخرى من حيث إنه أصبح أداة سياسية للدفاع والهجوم ، ونهض مرة ثالثة من حيث إنه ازداد ثروة فوق ثروته بالكلمات الإسلامية الجديدة التي جاءت في القرآن الكريم ، وفي أحاديث النبي عليه السلام .

وإني ألتقط هذه الفرصة السانحة لأردّ بكل ما في نفسي من عنف على بعض من كتبوا في تاريخ الأدب مدّعين أن الشعر هدأ وخبت ناره عند ظهور الإسلام . وقد احتجوا لهذا الرأي القائل بتعليل شعري جذاب ، لأنهم يقولون : إن العرب بهرهم القرآن ، وأخذتهم بلاغته ، فخرست ألسنتهم وأجدبوا حيناً طويلاً . وهذا كلام يجب أن يطير في الهواء قبل أن يستقر في أذنين . إن ذلك الانقلاب العظيم ، وتلك الثورة الفكرية الشاملة ، وهذا الدين الجديد الذي جاء ليبدّل كل شيء ، كان جديراً أن يثير النزعة الشعرية في أمة مجدبة الخيال لا تعرف الشعر ولا فنون الكلام ، فكيف بأمة طبعت على الشعر وفطرت على البلاغة البارعة التي تصوّر كل ما يمر بها من أحداث ؟ إن من يطلع على كتب السّير يملكه الدهش لما يرى من كثرة ما قيل من الشعر من شعراء المسلمين وغير المسلمين على السواء ، وأكثر هذا الشعر في المعارضات التي اتحد بحرها وقوافيها ، حتى يحارب كل خصم خصمه بسلاحه .

ويمكن أن يسمّى هذا النوع بالمعارضات السياسية ، لأن الشاعر لا يتجه فيها لنفسه ، ولبيان قوة فنه أولاً وبالذات ، بل أعظم ما يكون اتجاهه إلى التغلب على مذهب خصمه ، والتفوق عليه في مجال الفخر والمحامد ، أو في ميدان الهجاء والتنابز .

ولا نريد أن نطيل في هذا الموضع بذكر كثير من الشواهد ، فإن كتب الأدب تزخر بها وتموج ، وبحسبنا أن نأتي بمثالين ، نختار أحدهما مما قاله الشعراء في غزوة انتصر فيها المسلمون نصراً مؤزّراً ، وهي واقعة « بدر » ، ونختار ثانيهما مما قيل في غزوة « أحد » التي كان يومها بلاءً وتمحيصاً للمسلمين .

قال ضرار بن الخطاب يوم بدر :

عجبتُ لفخر الأوسِ والحَيْن دائرُ ... عليهم غداً والدهرُ فيه بصائرُ

وفخر بني النجّار إن كان معشرٌ ... أصيبوا ببدر كلهم ثَمَّ صابرُ

فإن تك قتلى غودرت من رجالنا ... فإنّ رجالاً بعدهم سنغادر

وتُرْدِي بنا الجُرْدُ العناجيجُ وسطَهم ... بني الأوسِ ، حتى يشفي النفس ثائرُ

وهي طويلة . وقد أجابه كعب بن مالك فقال :

عجبتُ لأمر الله والله قادرٌ على ما أراد ، ليس لله قاهرُ
قضى يومَ بدر أن نلاقيَ معشراً بَغَوْا ، وسبيل البغي بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا مَنْ يليهمُ من الناس ، حتى جمعُهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرَنا بأجمعها كعبٌ جميعاً وعامر
وفينا رسول الله والأوسُ حولَه له مَعْقِلٌ منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجّار تحت لوائه يُمشّون في الماذيِّ والنقعُ ثائر
فلما لقيناهم وكلٌّ مجاهد لأصحابه ، مستبسل النفس صابر
شهدنا بأنّ الله لا ربَّ غيرُه وأنّ رسول الله بالحق ظاهر
وقد عرِّيَتْ بيضٌ خِفاف كأنها مقابيسُ يُزْهيها لعينيكَ شاهر
بهن أبدنا جمعَهم فتبددوا وكان يلاقي الحَيْن من هو فاجر
فكُبَّ أبو جهل صريعاً لوجهه وعُتْبةَ قد غادرنه وهو عاثر
وشيبةَ والتيميَّ غادرن في الوغى وما منهمُ إلاّ بذي العرش كافر
فامسَوْا وقودَ النار في مستقرِّها وكلٌّ كفور في جهنم صائر
وكان رسول الله قد قال أقبلوا فولّوْا وقالوا إنما أنت ساحر
لأمرٍ أراد الله أن يهلِكوا به وليس لأمر حمّه الله زاجر

وبحسب قارئ هذه القصيدة أن يرى الفرق العظيم بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام ، وأن يرى تأثر الشعراء الشديد بألفاظ القرآن ومعانيه .

أما في غزوة أحد فقد شمت المشركون بمحمد وأصحابه ، وقالوا في هزيمتهم شعراً كثيراً عارضه المسلمون بشعر كثير ، نكتفي فيه بما قالته هند بنت عُتبة بعد أن بقرت عن كبد حمزة ولاكتها فلم تستطع أن تُسيغها ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها وقالت :

نحن جزيناكم بيوم بدرِ والحربُ بعد الحرب ذات سُعْرِ
ما كان عن عُتبة لي من صبر ولا أخي وعمّه وبكري

شفيتَ نفسي وقضيتُ نذري شفيتَ «وَحْشيُّ» غليلَ صدري
فشكرُ وَحْشيٍّ عليَّ عمري حتى ترِمَّ أعظمي في قبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عبّاد بن المطلب فقالت :

خَزيتِ في بدرٍ وبعدَ بدرِ يا بنتَ وقّاعٍ عظيم الكفرِ
صبَّحك الله غداةَ الفجر ملهاشميين الطِوال الزُهْر
بكلِّ قطاعٍ حسامٍ يفري حمزةُ ليثي وعليٌّ صقري
إذ رام شيبٌ وأبوكِ غدري فخضّبا منه ضواحي النحر
ونذرُكِ السوْءَ فشرُّ نذْر

ونعتقد أن الرواة وضعوا شعراً ومعارضات كثيرة في هذا العصر ، غير أن هذا لا يمنع من كثرة الشعر الذي قيل ، ولا يمنع أيضاً من أن النقاد قبلنا ميزوا بين صحيح الشعر ومنحوله . وينبغي لنا أن نسجل ما كان للنساء في هذه الفترة من الشأن العظيم في كلا الميدانين : ميدان القتال وميدان السياسة والأدب ، مما يقلُّ أن تجد له مثيلاً في عصر من عصور التاريخ أو في أمة من الأمم .

فقد قاتلت أمُّ عمارة يوم أحد مع المسلمين : روت عنها أم سعد أنها قالت :

خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ، ومعي سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه ، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ، فقمت أباشر القتال ، وأذب عنه بالسيف ، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إليّ . ثم قالت أم سعد : فرأيت على عاتقها جُرْحاً أجوفَ له غورٌ ، فقلت : من أصابكِ بهذا ؟ قالت : ابن قمِيئة أقمأه الله ، لما ولى الناس عن رسول الله ، أقبل يقول دلوني على محمد فلا نجوتُ إن نجا ، فاعترضت له أنا ومصعب بن عميرة وأناس ممن ثبت مع رسول الله ، فضربني هذه الضربة ، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ، غير أنَّ عدو الله كان عليه درعان . وسقط لواء المشركين يوم أحد فحملته عَمْرة الحارثية لقريش فاجتمعوا حوله .

وهنا نقف لنتحدث عن المعارضة في عصر بني أمية في عدد يجيء إن شاء الله .

علي الجارم

حـرارتك

للدكتور مصطفى الديواني

سارت الحمى منذ القدم في موكب الزمان ، فكم من يد رقيقة وضعت بسببها على جبين محموم في عطف وحنان ، ومن أجلها اهتزت مشاعر وهلعت نفوس ، وهتف قلب من أعماقه : متى ينتهي الكابوس . حمى ومحموم ، مترادفان متلازمان ، كم أقضّا من مضاجع ، وكم سببا من فواجع ومواجع . ومع هذا لم يحاول أحد أن يقيس ارتفاعها بمقياس ، بل اكتفى القوم بجس الجبين والاستعاذة من شر الوسواس الخناس ، حتى جاء عام ١٨٧٠ فاخترع المقياس الذي نعرفه اليوم ، والذي يوضع في الشرج أو الفم فيرتفع منه عمود زئبق ينبئنا عن درجة الحمى ، ويقدم لنا في سبيل الوقاية والعلاج خدمات جلىّ . وقال القوم : ما دمنا قد تعقبنا الحمى حتى مقياسها ، فلماذا لا نبحث عن ترياق يحد من ضرها وبأسها ، فشمرت السواعد وشحذت الأفكار ، وقفزت أسماء كثيرة إلى الأنوار ، ولكن لم يعش من هذه الشرذمة البدائية غير أملاح الكينا ، التي يرجع عهدها إلى أيام ابن سينا . فكأننا لم نأت من عندنا بجديد أو ثمين ، حتى حل عام ١٨٧٥ حين اكتشف مفعول أملاح السلسلات التي منها الأسبرين ، وبهذا أحدثت ثغرة اندفعت خلالها جيوش العلم والبحث صوب النصر المبين .

وقد لا يكون من لغو القول أن أذكر في بدء المقال طرق قياس الحرارة وأيها أكثر ضبطاً ودقة . فهي في البالغين تقاس من الفم وفي الأطفال من الشرج ، والثابت أن درجة الحرارة عن طريق الفم تقل عن الحقيقة بحوالي درجة سنتجراد ، بينما تزيد حرارة الشرج نصف درجة عن حرارة الجسم الحقيقية . وتختلف درجة الحرارة في الشخص الواحد خلال اليوم الواحد ، فهي تنزل إلى ٣٦,٢° في ساعات الفجر الأولى ، وقد ترتفع إلى ٣٧,٥° في الساعة السادسة مساء ، وهي ترتفع عقب بذل مجهود جسمي شاق . ووجد أنها قد تزيد عن ٣٨,٤° إذا مشى الشخص مدة ساعتين دون فترة راحة . وقد استغلت هذه الظاهرة في الحكم على درجة التئام الإصابات الدرنية الرئوية ، فأي مجهود شاق ، كالمشي مسافات بعيدة أو تسلق منحدر عال ، يزيد الفرق بين حرارة الصباح

والمساء ، كما أنها ترتفع عقب المجهود نفسه . ويرجع هذا إلى حدوث نشاط في الدورة الدموية حول الإصابة الرئوية ، مما يؤدى إلى امتصاص مقدار أكبر من السموم الموجودة بها ، فتصل إلى الدم ومنه إلى المركز المخي المسؤول عن ضبط الحرارة . وبهذه المناسبة نقول : إن هذا المركز يقع في قاع المخ ، وهو حسّاس دقيق يتأثر بأي ارتفاع في درجة حرارة الدم الجاري في الشرايين أو بوجود سموم جراثيم مغيرة . ومهمة هذا المركز المخي حفظ درجة حرارة الجسم عند حد معين . إن الرعشة التي تنتاب الجسم عند تعرضه لبرد فجائي ليست سوى محاولة لزيادة انتاج الحرارة في العضلات في أثناء تقلصها وانقباضها المتكررين .

وهذه الزيادة في الإنتاج الحراري تحدث عقب القيام بأي مجهود شاق ، وعقب تناول الطعام ، فمثلا ينتج جسم الشخص العادي حوالي الثلاثة آلاف سعر في اليوم ، (والسعر هو مقدار الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة جرام من الماء درجة واحدة) بينما ينتج العامل الذي تتطلب طبيعة عمله مجهوداً عضلياً شاقاً حوالي الستة آلاف سعر في اليوم .

ويفقد الجسم حرارته عن طرق ثلاث : أولها الجلد ، وثانيها الرئتان ، إذ المعروف أن جزءاً من حرارة الجسم يستهلك في تسخين هواء الزفير ، ألم تحاول في يوم بارد أن تدفيء راحتيك بالنفخ فيهما ؟ أما الطريق الثالث فهو البول والبراز . وكلنا يعرف ويشعر أن البول يكون ساخناً عقب إفرازه ثم يبرد تدريجاً بعد ذلك .

فإذا ما اقتضت أحوال الجسم أن تزيد من فقدان حرارته فإن المراكز المخية تصل إلى هذا الغرض بالطرق الآتية :

(أولا) حدوث تمدد في الأوعية الدموية الجلدية ، فيزيد هذا من كمية الدم التي تصل إلى سطح الجسم ، ويفقد الجسم حرارته بإشعاعها في الجو المحيط به ... وكلما كانت كمية الدم التي تتعرض لهذه العملية أكبر ، فقد الجسم من الحرارة قدراً معقولا .

(ثانياً) الإكثار من إفراز العرق الذي يفقد الجسم حوالي ١٤٪ من حرارته نتيجة تبخره .

(ثالثاً) تزيد سرعة التنفس فيفقد الجسم مقداراً أكبر في سبيل تسخين هواء الزفير المتزايد ، وما العرق المتصبب على جبين الذي يقوم بعمل شاق أو الذي يصطلي بجو حار إلا محاولة من الجسم لتلطيف ناره المتأججة .

أما إذا تعرض الجسم للبرد فإن أول ما يحدث هو انقباض أوعية الجلد ، فيقلل

هذا من فقدان الحرارة التي يحتفظ بها الجسم بدل أن تضيع هباء في محيطنا الجوي ، فإذا استمر نزول الحرارة الجوية فقد تنتاب الشخص رعشة ليست سوى محاولة لزيادة إنتاج الحرارة في العضلات للتعويض عما فقد .

***

ننتقل من هذه المقدمة إلى الحمى نفسها : وهي حالة ترتفع فيها حرارة الجسم نتيجة غزوه بأجسام ضارة . وهي ليست علامة على أن المركز المخي للحرارة قد أفلت من يده الزمام أو أنه انهار أو تصدع أمام جيش الغازي ، ولكنه مطاط لبق يساير الزمان ، فإذا هاجمه عدو عملاق فإنه يشبُّ على قدميه ليحاذيه ويكشف هويته ، فتتوتر خلياته في يقظة وتنبه ، وترتفع معها حرارة الجسم إلى مستوى أعلى ، وما هذا الارتفاع سوى تفاعل نافع يوقظ قوى الجسم الاحتياطية ، فتنهال على العدو المغير ، وتنشب المعركة التي تنتهي بالشفاء أو الموت . ويلاحظ أن ارتفاع الحرارة الفجائي تعقبه أو تصحبه قشعريرة ينتج عنها ازدياد في الإنتاج الحراري العضلي فتزيد النار اشتعالا . وفي نفس الوقت تبرد الأطراف نتيجة انقباض الأوعية الدموية الجلدية ، فيقلل هذا من فقدان الحرارة عن طريق الجلد ، وكأن صمام الأمان قد سد ، وهذا يزيد في مضايقة المريض . فإذا علمنا أن كمية الحرارة التي يلزم بقاؤها في الجسم لرفع حرارته ثلاث درجات لا تتجاوز مائتي سعر ، أي عشر ما يفقده الجسم يومياً في حالته الطبيعية ، أدركنا اهمية الإشعاع الجلدي في مثل هذه الحالات .

يفيق المركز المخي من تأثير الصدمة الأولى ، وينظر حوله دارساً الحالة الراهنة ، وهو كما قلت كالسياسي المرن اللبق ، فلا يحاول الصمود أمام العدو المغير في صلابة وعناد ، خوفاً على نفسه من أن يكتسحها التيار الذي لا يبقي ولا يذر ، ولكنه يحاول التوفيق بين الطرفين ، فيوجه الجسم التوجيه الصحيح الذي يوجبه ناصح أمين ، ويرسل إشاراته إلى الجلد ليكثر من إفراز العرق الذي يؤدي بتبخره خدمة كبيرة في سبيل راحة الجسم عامة ، وكذلك تتمدد من الجلد أوعيته ، بدليل حمرة الخدين التي نشاهدها في معظم المحمومين ، فيساعد هذا على فقد كمية كبيرة من الحرارة عن طريق الجلد ، ثم يرسل إشارة أخرى إلى مركز التنفس ليزيد من عمقه وسرعته ، ويخرج الهواء الساخن من الأتون المشتعل ، فيلطف من حدته نوعاً ما . ويظل الموقف بين شد وجذب ، حتى يستجمع الجسم قواه ويوجه هجومه الأخير كامل العدة والعتاد ، ليقضي على خصم غير مرغوب فيه .

لننتقل الآن إلى ميدان آخر ، فنذكر في بعض الإسهاب شيئاً عن الأدوية التي تستعمل لخفض درجة الحرارة . وسيرى القارىء كيف تطور اكتشافها وشاع استعمالها بين الخاص والعام لدرجة تحتم إرسال كلمة بين سطورها إنذار وتحذير ، فلقد كان الكينين هو الدواء الوحيد الذي استعمل لخفض الحرارة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم تكتشف سلسلات الصودا إلا عام ١٨٧٤ . وفي عام ١٨٩٩ بزغ نجم الأسبرين ، وظهر في المدة الواقعة بينهما الأنتيبرين Antipyrin (عام ١٨٨٤) والفيناسيتين Phenacetin (عام ١٨٨٧) والأستيلانيد Acetanilide (عام ١٨٨٦) .

أما سلسلات الصودا فقد بطل استعمالها كمهبط للحرارة ، ولكنها محتفظة بمكانتها فى علاج الروماتزم الحاد ، لاينازعها في هـذا الميدان منازع ، وهي تعطى بمقادير كبيرة لتحدث الأثر المطلوب في وقت قصير ، ولذا كان كثيراً مايؤدي هذا إلى حدوث أعراض مزعجة للمريض ، كالقيء و« وش » الأذنين ، فيضطر المريض إلى وقف تعاطيها ، وكما يموت سيد ليقوم آخر من ذرية رشيدة صالحة ، حمل الأسبرين لواء العائلة ، وهو أخـد أفرادها ، لأنه ليس في تركيبه الـكيمائي سوى حمض الأستيل سلسليك Acetyl salicylic acid ، وتختلف مستحضرات الأسبرين في درجة نقائها ، فإذا شممنا فيها رائحة الخل دل هذا على وجود حامض السلسليك الذي يسبب تهيجاً في المعدة ، وهذا هو السر فى أن بعض مستحضرات الأسبرين تسبب آلاما معدية وعسراً هضمياً ، وقد أثبت فحص المعدة بوساطة منظار خاص وجود قروح ترفية صغيرة على الغشاء المخاطي المعدي نتيجة الإفراط في تعاطي مركبات الأسبرين غير النقيّ ، وليس الأسبرين بالدواء السهل المسالم الذي نعتقد ، فقد يؤدي تعاطيه — علاوة على التهيج المعدي — إلى حدوث أنجرية « أرتكاريا » شديدة ، وتورم في الوجه والعينين ، وثبت أخيراً أنه قد يحدث نزفاً من الفم والأنف ، ولذا جرت العادة الآن على إعطاء الفيتامين — وهو الفيتامين المضاد للنزف — في نفس الوقت ، إذا اضطرتنا الظروف إلى إعطاء الأسبرين أو سالسلات الصودا بكميات كبيرة ، كما يحدث في علاج الروماتزم مثلا . ولقد ابتليت عائلة السلسليك بسمعة رديئة ، فشلت كل الجهود في إزالة وصمتها عنها ، وهي تأثيرها السيء على القلب والدورة الدموية ، إذ أن الشائع بين الجمهور أن للأسبرين وبقية أفراد العائلة ، مثل سلسلات الصودا ، تأثيراً سيئاً على القلب . وقد ثبت طبياً بصفة قاطعة أن ليس لهذه الشائعة أي نصيب من الصحة . ولكن هذا لايمنعنا من بعث كلمة تحذير للذين يفرطون في استعمالها ، فإن أعراض تسمم شديدة قد تحدث نتيجة تعاطي كميات كبيرة من هـذه

الأدوية ، ومن أهمها هرش جلدي شديد وهذيان وتهيج عصبي وإسهال ، وقد يفقد الشخص وعيه ويمضي في غيبوبة طويلة قد لا يفيق منها أبداً، نتيجة هبوط مراكز التنفس في المخ . . وهذا يفسر نجاح بعض حالات الانتحار بتعاطي كميات كبيرة من الأسبرين .

٭٭٭

هناك عائلة أخرى نجد أسماء أحد أعضائها دائماً ضمن المركبات المسكنة للآلام والمضادة للبرد والأنفلونزا والروماتزم ، وهي طائفة الأميدوبيرين ، ومن أفرادها الأنتيبيرين Antipyrin والبيراميدون Pyramidon ولكليهما خواص مسكنة للآلام ومهبطة للحرارة . وقد يسبب الأنتيبيرين طفحاً جلدياً مستعصياً يأتي على هيئة لطخ حمر أو فقاقيع لا تلبث أن تختفي لتعود مرة أخرى إذا تكرر تعاطي الدواء . وقد يسبب في بعض الحالات هبوطاً عاماً شديداً . أما البيراميدون فلا بد من إرسال كلمة إنذار شديدة بصدده ، فإذا رأيت اسمه مدرجاً في تركيب دواء ما فخذ حذرك منه ، لأنه قد يكون السم في البلسم الشافي . ويرجع هذا إلى قدرته على النزول بكريات الدم البيض إلى الحضيض ، فيقل عددها إلى حد مخيف ، وبذا ينعدم عنصر هام من عناصر المقاومة في الجسم ، فيسهل غزوه بالجراثيم ، وتظهر بالفم والزور واللثة التهابات شديدة ، وترتفع الحرارة ، وينتاب المريض هبوط شديد . وتحدث هـذه الأعراض في بعض أشخاص في أجسامهم حساسية خاصة لهذا الدواء ، وهم لحسن الحظ قليلون ، ولكن يجب أن نتوقع حدوثها في أي شخص حتى يثبت العكس ، وذلك بتحليل دم كل مريض يتعاطى الدواء بصفة دائمة ، من آن لآخر ، فإذا وجدنا أن عدد الكريات البيض آخذ في الهبوط أوقفنا تعاطي الدواء في الحال ، وبذلك يتجنب المريض آلاماً هائلة . ويدخل البيراميدون في تركيب كثير من الأدوية المسكنة شائعة الاستعمال ، مثل الفيرامون Véramon والسيبلجين Cibalgin والألونال Allonal . والواقع أن ما دفعني إلى كتابة هذا المقال حادث كان له وقع شديد على نفسي . فقد أصيب صديق عزيز منذ أسابيع قلائل بحالة مؤلمة في أسنانه ، استدعت تعاطي أحد الأدوية السالفة الذكر ، فأفرط في استعمالها دون تبصر ، ولكن هو الألم يفقد الإنسان حسن تقدير عواقب الأمور . فلم نشعر إلا وكريات دمه تهوي إلى مستوى مخيف ، وبقيت حياته معلقة في ميزان القدر ، حتى لطف الله به وبأولاده وعائلته . وبعد أن اجتزت الأزمة معه بشعوري وعواطفي طرأ على فكري أن أرسل كلمة إنذار ولفت نظر ، عسى أن يكون فيها منفعة وعظة للذين تستهويهم مباهج شهرة الدواء فيفرطون في استعماله ، دون توجيه طبي علمي ، فيشاء سوء الحظ أن يوقعهم في ورطة ما كان أغناهم عنها .

فحذار من البيراميدون !

ألم يسترع نظرك اسم آخر تقرؤه ضمن تركيب معظم مستحضرات صداع الرأس وآلام الجسم ؟ إنه الفيناسيتين Phenacetin إن كنت لا تعرف . وهو لا يخلو أيضاً من خطورة ، لأن استعماله قد يؤدي إلى هبوط حاد وضعف في الدورة الدموية ، وقد تنتاب الشخص زرقة تبدأ في الأيام الأولى من تعاطي الدواء ، ثم تزداد مع مرور الأيام ، ولا تختفي إلا بعد أسبوعين من وقف الدواء ، وهذه الزرقة ناتجة عن تغيير في هيموجلوبين الدم يحول لونه من أحمر قانئ إلى أزرق قاتم ، وقد تتأثر الذاكرة وقوة التركيز الذهني في حالة التسمم المزمن .

فخذ حذرك من الفيناسيتين أيضاً ! ولكنه يقل في خطورته عن البيراميدون الذي هبط سوقه منذ أن اكتشف تأثيره القاتل الذي سبق أن أسهبنا في بيانه . وتأثير هذه الأدوية المسكنة للآلام يفوق أثرها كمهبط للحرارة ، ولذا نجدها دائماً ضمن محتويات الأقراص المسكنة للآلام ، وخاصة التي تستعمل للروماتزم والصداع ، وهي في متناول الجميع يشترونها من الصيدلي والبدال سواء بسواء ، دون رقابة ، كما يشترون طابع البريد أو علبة السجائر .

* * *

هذه كلمة خالصة أرسلها للقارىء ليسن منها قانوناً في مملكته الصغيرة يحمي به نفسه ومن حوله من سم بريء في صيدلية المنزل ، يود لو كان نافعاً في كل حال ، لولا وجود حساسية خاصة في بعض الأفراد تحملنا على الحذر في استعماله ، لأنه قد يسلمنا مفتاح الجنة بيمينه أو يقودنا إلى باب الجحيم بيساره .

مصطفى الديواني

الجاحظ والمعلّمون

للأستاذ عبد السلام محمد هارون
المدرس بجامعة فاروق الأول

يزعم بعض الأدباء أن الجاحظ كان خصماً عنيداً للمعلمين ، يطلقون ذلك القول إطلاقاً على ما فيه من إجحاف وضعف ، وعلى ما فيه من خطأ في القضاء وظلم في الحكومة .

والحق أن الجاحظ لم يكن خصماً للمعلمين ، ولا شاغباً عليهم ، ولا مجحفاً بحقهم أو مستهيناً بمكانتهم بين الناس، بل كان الجاحظ مدرهاً للمعلمين ، ولساناً ناطقاً بفضلهم، ومشيداً بما لهم من أثر صالح وفضل عظيم .

وقد كان المعلمون في القرنين الثاني والثالث على طوائف شتى :

أولاها : طبقة صغار المعلمين ، الذين كانوا يتولون تعليم الصبيان القراءة والكتابة ، يتخذون لذلك مكاتب خاصة ، أو يجعلون من المساجد مدارس لهم ، ويتكسبون بتلك الصناعة وينالون بذلك دراهم معدودة ، وقد تدعوهم الحال أن يجعلوا أجرهم ما يحمل الصبيان إليهم من الخبز على اختلاف ضروبه . ويروون أن الحجاج بن يوسف كان معلماً بالطائف ، وكان أبوه يوسف معلماً أيضاً . وفي الحجاج يقول القائل[1] :

فماذا عسى الحجّاج يبلغ جهده ... إذا نحن جاوزنا حفير زيادِ
فلولا بنو مروان كان ابن يوسفٍ ... كما كان عبداً من عبيد إيادِ
زمان هو العبد المقرّ بذلّةٍ ... يراوح غلمان القرى ويغادي

وفيه أيضاً يقول القائل — وكان الحجاج يدعى كليباً — :

أينسى كليب زمان الهزالِ ... وتعليمه سورة الكوثرِ
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهرِ

ومن هذه الطبقة أيضاً الكميت الشاعر . قال خلف الأحمر : « رأيت الكميت في مسجد الكوفة يعلم الصبيان » .

---

(١) هو مالك بن الريب، انظر المعارف لابن قتيبة — ٢٣٨ ، ٢٣٩ . والشعراء له أيضا : ١ : ٣١٤ طبعة الحلبي .

والطبقة الثانية : طبقة المؤدبين لأبناء الخاصة والخلفاء ، وهؤلاء كانوا يختارون من ذوي الأقدار ، ومن الأئمة ذوي الشأن ، وقد كان الخلفاء والولاة يرسمون مناهج لهؤلاء المؤدبين كي يحذوا حذوها ، ويترسموا خطاها .

فمن ذلك وصية عتبة بن أبى سفيان — وهو أخو معاوية — أوصى بها عبد الصمد مؤدب ولده ، قال[1] : « ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيّ إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . ثم روّهم من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم ، وتهدّدهم بي وأدّبهم دوني ، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء . وجنّبهم محادثة النساء ، وروّهم سير الحكماء ، وزد في تأديبهم أزدك في بري » .

ومن ذلك أيضاً وصية الرشيد التي أوصى بها خلفاً الأحمر قال[2] : « إن أمير المؤمنين دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه ، وصيّر يدك عليه مبسوطة ، ومقالتك فيه مصدقة ، وطاعتك عليه واجبة . فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعلمه الآثار والأخبار والسنن ، وروّه الأشعار وبصره بمواقع الكلام ، ومره بالرزانة في مجلسه ، والاقتصاد في نظره وسمعه ، فلا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، وكلمة نافعة يعيها ويحفظها . ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه بالتقريب والملاينة ، فإن أبى فبالشدة »

وأما الحجاج فإنه كان يوصي مؤدب بنيه بقوله[3] : « علمهم السباحة قبل الكتابة ، فإنهم يجدون من يكتب عنهم ولا يجدون من يسبح عنهم » .

وأما شريح القاضى فكان له ولد يكثر البطالة ، فنظر إليه شريح يوماً وهو يهارش بكلب له ، فكتب له رقعة إلى معلمه وفيها هذا الشعر[4] :

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها ... طلبَ الهراش مع الغُواة الرُّجَّسِ
فإذا أتاك فعضَّه بملامةٍ ... أو عِظه موعظة الرفيق الأكيس

(١) البيان والتبيين (٢ : ٦٦) .
(٢) المحاسن والمساوي للبيهقي (٢ : ٢١٣) .
(٣) عيون الأخبار (٢ : ١٦٦) .
(٤) الحيوان (٢ : ٢٤) وثمار القلوب ١٧٣ وعيون الأخبار (٢ : ١٦٧) والعقد (١ : ٣٦٣)

وإذا هممت بضربه فبدِرَّةٍ وإذا ضربتَ بها ثلاثاً فاحبس

وليحملنْ مني إليك صحيفةً نكراء مثل صحيفة المتلمس

واعلم بأنك ما أتيت فنفسهُ مع ما يجرعني أعزُّ الأنفس

قالوا : فضربه المعلم عشراً وعشراً ، فقال له شريح : لم ثنيت عليه الضرب ؟ فقال : العشر الأولى للبطالة ، والثانية للبلادة حيث لايدري ما يحمل .

هذه أمثلة من الوصايا التي كان الولاة والخلفاء يوصون بها المؤدبين ، وهي تطلعنا على مدى النظام الذي كان يوضع للتعليم ، وعلى تباين الخطط التي كانت توحي بها النظم السياسية والاجتماعية والخلقية في تلك العصور الأولى .

وهــذه الطبقة من المعلمين كانت على جانب عظيم من التوقير والتبجيل . قالوا : سأل الرشيد يوماً من أكرم الناس خدماً ؟ قيل : أمير المؤمنين . قال : لا ، بل أكرمهم خدماً الكسائي ، فقد رأيته يخدمه وليا عهد المسلمين ، وليس لي من الخدم مثلهما .

وكان الولاة والخلفاء يطلقون لهم اليد في عقاب أبنائهم ، فكان معلم الرشيد يضربه على الخطأ واحداً وعلى اللحن سبعاً . وكان بعضهم يقدر للمؤدب مقداراً للضرب لا يعدوه ، كما سبق في حديث شريح القاضي .

والطبقة الثالثة من طبقات المعلمين : هم جماعة المتحدثين الذين كانوا يتصدون لرواية الحديث ، وعنهم كان يتلقى الرواة والمثقفون أحاديث الرسول والصحابة . وكانت هذه الطبقة كثيرة العدد ، نافقة السوق ، وكتب الرِّجال تطلعنا على مدى النشاط العظيم الذي ظهرت فيه هذه الطائفة . وكان من هؤلاء جماعة كبيرة تعتز بكرامة العلم وفضل العلماء . قالوا * : وجه الرشيد إلى مالك بن أنس ليأتيه فيحدثه ، فقال مالك : « إن العلم يؤتى » . فصار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار . فقال : يا أمير المؤمنين : « من إجلال الله تعالى إجلال العلم » فقام وجلس بين يديه . وبعث الرشيد إلى سفيان ابن عينية فأتاه وقعد بين يديه وحدثه ، فقال الرشيد بعد ذلك : « يا مالك ، تواضعنا لعلمك فانتفعنا به ، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به » .

والطبقة الرابعة من المعلمين : طبقة الشيوخ والفقهاء ، وهؤلاء القوم كانوا ذوي كرامة ظاهرة . كان الإمام أبو حنيفة إذا أخذته هزة المسائل يقول : « أين لذة الملوك من لذة ما نحن فيه . لو فطنوا لقاتلونا عليه » .

* محاضرات الراغب الأصفهاني (١ : ١٤) .

وهذه الطبقة والتي قبلها لم تكن لتتكسب بالتعلم أوتتعمد نيل أجرعليه ، بل كان المحدثون والفقهاء إما من ذوي اليسار والنعمة ، أو يكون لأحدهم صناعة أخرى يتكسب بها ، فمنهم كان القزاز والخزاز والدباغ والرفاء والكواء والخفاف والجرار والجزار والصيرفي والإسكافي والحريري والنحاس والنقاش ، وغير أولئك ممن تغص بهم كتب الرجال .

وإلى جانب هذه الطبقات تجد طائفة القصاص وجماعة المفسرين والنحاة ، وأنماطاً أخرى كثيرة ، منهم طائفة كانت تعلم الفتيان الخطابة(١) .

***

ننتقل بعد هذا العرض إلى التهمة الموجهة إلى الجاحظ في خصومة المعلمين ، حكي عن الجاحظ أنه قال(٢) : ألفت كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من الغفلة ، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب ، فدخلت يوماً قرية فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد علي أحسن رد ورحب بي ، فجلست عنده وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب فإذا هو كامل الأدوات ، فقلت : هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب . قال : فكنت اختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، وطرقت الباب فخرجت إلي جارية وقالت : ماتريد؟ قلت : سيدك . فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله . فدخلت إليه وإذا به جالس، فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر . ثم قلت له : هذا الذي توفي ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتي ! فقلت في نفسي : هذه أول المناحس ! فقلت : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها . فقال : أتظن أني رأيتها ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية ! ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : إعلم أني كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق ، إذ رأيت رجلا عليه برد وهو يقول :

يا أمّ عمرو جزاكِ الله مكرمةً ردّي عليَّ فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي : لولا أن أمّ عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

لقد ذهب الحمار بأمّ عمرٍو فلا رجعتْ ولا رجع الحمارُ

---

(١) البيان والتبيين (١ : ١٠٤) .

(٢) المستطرف للأبشيهي (٢ : ٢٤١ — ٢٤٣) .

فعلمت أنها ماتت ، فحزنت عليها وأغلقت المكتب وجلست فى الدار . فقلت : يا هذا ، إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويت عزمي على إبقائه . وأول ما أبدأ بك إن شاء الله .

ويروون عن الجاحظ أيضاً أنه قال : مررت بمعلم صبيان وعنده عصاً طويلة ، وعصاً قصيرة ، وصولجان ، وكرة ، وطبل ، وبوق ، فقلت : ما هذه ؟ فقال : عندي صغار أوباش ، فأقول لأحدهم : اقرأ لوحك . فيصفر لي فأضربه بالعصا القصيرة ، فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة ، فيفر من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان فأضربه وأشجه ، فيقوم إليّ الصغار كلهم بالألواح ، فأجعل الطبل في عنقي ، والبوق في فمي ، وأضرب الطبل وأنفخ في البوق ، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلي ويخلصونني .

ويروون عنه أيضاً أنه قال[1] : مررت بمعلم وهو يقرىء صبياً : وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً وأكيد كيداً . فقلت له : ويحك ، قد أدخلت سورة في سورة ، فقال : نعم ، عافاك الله ! إذا كان أبوه يدخل شهراً فى شهر ، فأنا أيضاً أدخل سورة فى سورة ، ولا آخذ شيئاً ، ولا ابنه يتعلم شيئاً !

* * *

هذه هي بعض الصور التهكمية التي تسند إلى الجاحظ فيما يمس المعلمين ، وهي وإن تكن تبعد شيئاً عن أسلوب الجاحظ في التعبير فإنها لا تبعد عنه في روح الفكاهة التي عرف بها ، وروح الضحك الذي يتردد في اثنائها . فإن تكن حقاً فإنها ترديد منه لما كان يدور في عصره من التهكم بصغار المعلمين الذين اتخذوا من التعليم صناعة تقيم أودهم وتمسك رمقهم . قال الجاحظ[2] : « من أمثال العامة : أحمق من معلم كتّاب » . وقد ذكرهم صقلاب فقال :

وكيف يرجّى العقلُ والرأيُ عند منْ يروح على أنثى ويغدو على طفلِ

وفي قول بعض الحكماء : « لا تستشيروا معلماً ولا راعي غنم » .

وكان القوم في عصر الجاحظ لايزالون على إرث من آبائهم الذين ينفرون من التكسب بالصناعات الصرفة التي لا تعتمد على رأس المال والثروة ، وكانوا يكرمون العلم أن تنفق فيه دريهمات معدودة تذهب بجماله وشرفه ، وكانت الطبقة التي تتولى تعليم أبناء العامة ترضى بالقليل ، ولا تذهب إلى المحافظة على كيانها الاجتماعي ، فدفعت الناس

(١) ثمرات الأوراق بهامش المستطرف (١ : ١٧٣ — ١٧٤) .
(٢) البيان (١ : ١٧٣) .

أن يضربوا المثل بها ، فيقولوا للشيء قد اضطرب نظمه واضطربت أوصاله : « هو كرغفان المعلم » يعنون أنها تهبط من هاهنا وهاهنا فإذا هي مشيأة مختلفة النجر ، تتعدد فيها الضروب والأشكال .

وروى الجاحظ أن ابن عتاب كان يقول[١] : « يكون الرجل نحوياً عروضياً ، وقساماً فرضياً ، وحسن الكتابة جيد الحساب حافظاً للقرآن ، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما ، ولو أن رجلاً كان حسن البيان ، حسن التخريج للمعاني ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم » .

ومن عجيب ما روى الجاحظ في أمر هذه الطائفة أنها كانت تستخدم أحياناً في بعض الجرائم التي كانت في عصره من الكثرة بمكان ، وهي جرائم الخناقين الذين يخنقون الناس ، قال في شأن هؤلاء القوم[٢] :

« ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتّاب منهم ، فإذا خنق أهل دار منهم إنساناً ضرب النساء بالدفوف ، وضرب بعضهم الكلاب ، فسمع المعلم فصاح بالصبيان : انبحوا . وأجاب أهل كل دار بالدفوف والصنوج كما يفعل نساء أهل القرى ، وهيجوا الكلاب ، فلو كان المخنوق حماراً لما شعر بمكانه أحد » .

أضف إلى ذلك أيضاً أن المهمة الثقيلة التي كانت تلقى على معلم الكتّاب في ظل ذلك النظام الساذج ، بل قل تلك الفوضى البدائية ، وفي ظل تلك الحاجة إلى القليل اليسير من المال ، كانت تعرض بعض أفراد هذه الطائفة من المعلمين لأزمات نفسية تخرج بهم من حد الاعتدال إلى ما يدعى غفلة وحمقاً .

على أن مما دفع بالجاحظ إلى التندر بتلك الطائفة ، ذلك الأسلوب الذي امتاز به وكاد ينفرد به ، هو أسلوب السخرية بالناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم . فالجاحظ لم يتهكم بتلك الطائفة من الناس فحسب ، بل هو يسخر بالقصاص ، ويسخر بالمفسرين والمحدثين ، وبالقضاة وبالحكام وبطائفة المتكلمين أيضاً ، لا يكاد يسلم من لاذع سخريته إلا « المعتزلة » ، فهؤلاء عنده كانوا أعقل الناس وأحزم الناس ، وأهدى الناس إلى المعرفة والتبين وإصابة الحكم .

فمن سخريته بالقصاص ما رواه عن أبي أحمد التمار أنه كان يقول في قصصه :

---

(١) البيان (١ : ٢٥٣) .
(٢) الحيوان (٢ : ٢٦٥) .

« لقد عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الجار وقال فيه قولا أستحي والله من ذكره[١] » !

ومن سخريته بالمحدثين ما روى أن الأعمش كان سيئ الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشرما يحب طيه عنهم ، وتكرار مايحدثهم به . ويتعنتونه ، فيحلف لا يحدثهم الشهر والأكثر والأقل ، فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه ، وتطلعت الاخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاة كانت له في منزله فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول . ليت أني كنت شاة الأعمش[٢] !

ومن سخريته بالقضاة ماروى أن رجلا قال لعبيد الله بن الحسن القاضي : إن أبي أوصى بثلث ماله في الحصون . قال : اذهب فاشتر به خيلا . فقال الرجل : إنه إنما ذكر الحصون . قال : أما سمعت قول الأسعر الجعفي :

ولقد علمت على تجنبي الردى أن الحصونَ الخيلُ لا مَدَرُ القرى[٣]

ومن سخريته بالمتكلمين ما روى أن هشام بن الحكم صاحب الهشامية ، سأله رجل فقال : أترى الله عز وجل في عدله وفضله كلفنا ما لا نطيق ثم يعذبنا ؟ قال : قد والله فعل ولكنا لانستطيع أن نتكلم به[٤] !

ونحن إذا قلبنا كتب الجاحظ لا نجد فيها إلا تبجيلا ظاهراً للمعلمين ، ومنافحة ودفاعاً عنهم . فهو في البيان والتبيين يسهب التعليق على قولهم في المثل : « أحمق من معلم كتّاب » فيقول[٥] : « والمعلمون عندي على ضربين ، منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة . فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي ابن حمزة الكسائي، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى... ولا يجوز هـذا القول على هؤلاء ، ولا على الطبقة التي دونهم . فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القرى فإن لكل قوم حاشية وسفلة ، فما هم في ذلك إلا كغيرهم » .

فالجاحظ لايعمّ أيضاً معلمي الكتاتيب بالحمق ، بل هو ينصفهم أصدق الإنصاف ،

---

(١) الحيوان (٣ : ٢٩٧) .
(٢) رسائل الجاحظ ٤٢ نشرة كراوس والحاجري .
(٣) الحيوان (١ : ٣٥٤ — ٣٥٥) .
(٤) الحيوان (٣ : ١١) .
(٥) البيان (١ : ١٧٤ ، ١٧٥) .

ويحتج لهم بأنهم كسائر الأقوام ، فيهم الغث والسمين ، والصالح وغيره .

ونجده يعتب على من كتب إليه رسالة « الوكلاء » بقوله[١] : « وقد رأيتك حفظك الله خونت جميع الوكلاء وفجّرتهم ، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم ، وجمعت جميع المعلمين وهجوتهم ، وحفظت مساويهم وتناسيت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام الجلة » ، فهو هنا كذلك لا يرضى بتعميم الحكم ، ويذهب مذهباً عادلاً في التقدير .

وقد بحثت ما أبقت الأيام من رسالة الجاحظ في « المعلمين » وهي في مختارات عبد الله بن حسان ، فوجدته يتحدث في تمجيد المعلمين والانتصار لهم ، والاعتراف بفضلهم ، ويقول[٢] : « وليس علينا لأحد في ذلك من المنة بعد الله . . . ما للمعلمين الذين سخرهم لنا ، ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا . . . والمعلمون أشق بالصبيان من رعاة الضأن وروّاض المهارة . ولو نظرت من جهة النظر علمت أن النعمة فيهم عظيمة سابغة ، والشكر عليهم لازم واجب » .

***

هـذه نظرات الجاحظ إلى المعلمين ، وهي ناطقة بإنصاف الرجل ، وعدله في حكومته ، وحسن وضعه طبقتهم في موضعها اللائق بها من الإجلال والتكريم .

عبد السلام محمد هارون

---

(١) رسائل الجاحظ ١٧١ طبع الساسي .

(٢) الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان بهامش كامل المبرد (١ : ١٨) .

حكاية الشقاء

للأستاذ عبد الرحمن الخميسي يافا

يقول القرويون :

حين يقبض الموت روح الأم ، يرف في السماء طائر حزين يهتف بأولادها ، أن قد تخلت عنكم رحمة الحياة أيها الأشقياء .

صدق قولهم ، فإن شقائي أصبح مضرب الأمثال ، بعد أن أودعت جثة أمي جوف التراب ، ودفنت معها سعادتي إلى الأبد .. إن ذكراها تطالعني في رحبات منزلنا الكثيف الوسيع . . وإنني ألتمس وجهها وحنانها على جناح الوهم ، ثم يأبى الشقاء ، إلا أن يردني إلى أصفاد الواقع ، حين يصدمني بالصيحات النكراء التي ترسلها زوجة أبي ترن رنيناً في أرجاء الدار فيهلع لها قلبي ويرجف . . . إن هذه المرأة تسد طريقي إلى قلب والدي وتوغر صدره على ضعفي كلما سنحت لها نهزة خاطفة . وإن حقدها على بقائي في الدار ، يعادل حرصها على امتلاك زوجها . وهي لذلك تحبس عني ينبوع محبته وعطفه بكل الوسائل . فلم يمر يوم دون أن تؤكد قسوته واضطهاده لي بوشاية جديدة . وأمس لحظت في حركاتها الغيظ ، وفي نظراتها القادحة لي كيداً لئيماً . ولم تفتأ تسأل ابنها كل دقيقة عن السر في تأخر أبي عن موعد حضوره . وكانت لهجتها تنم عن ظمأ نفسها إلى التشفي . وحينذاك ، خيل إلي أن كل شيء يتآمر علي . . وفاض في خاطري شوق غامر إلى أن أهيم بين الحقول ، فارتديت معطفي فوق جلبابي الريفي ، وغطيت رأسي بقلنسوة من الصوف ، وحين وصلت إلى عتبة الدار ، سمعتها تطرق ورائي الباب في عنف وهي تقول :

— ليتك تخرج ولا تعود ! !

أخذت أضرب بعصاي في أزقة القرية ، وهي متلبدة بالطين من فعل المطر . كانت الشمس غريقة في دمها الذي تلونت به الغيوم الدكناء ، وأنا أنتزع أقدامي من أوحال الطريق الزراعي المؤدي إلى الترعة . ولاحت لي الأشجار على الجانبين كأنها نساء مصلوبات يضرعن بأكفهن إلى السماء أن تخلصهن من هذا العذاب الأليم . وكان للريح

أزيز في قصب الذرة ، تماوجت له الزروع في الحقول المترامية مدى البصر في كل مكان . سرت وفي نفسي رهبة عميقة ، لا أكاد أرفع عيني عن الأرض ، حتى انتهت بي قدماي المكدودتان إلى الكوخ المعهود . تعودت أن أختلف إلى ذلك الكوخ كل أمسية ، ابتغاء السمر مع صاحبته العجوز « أم شداد » . كانت قوائمه من القصب الجاف ، وأرضه مفروشة بالقش ، وفي ركن مظلم ضيق مرتفع ، حرصت « أم شداد » على أن تضع مقداراً من الشاي في علبة من الصفيح كانت تستعمل للسجائر ، وبعض قطع من السكر في علبة أخرى . وكان إلى جوارها مزمار من الغاب .

وقفت أمام الكوخ ، ولم تكن رجلاي تقويان على حمل جسدي المنهوك ، فخفّت إليّ العجوز وبادرتني بالترحيب . صافحتها ، وجلست بادي الإعياء ، متجهم الأسارير . وعادت المرأة ترحب بي من جديد صادقة مخلصة ، فقد كانت طيبة القلب محبة للناس ، تذكر أمي دائماً ، ويلهج لسانها بالترحم عليها كل حين . لم يكن يرتسم على محياي غير الشقاء الواجم ، وقد ساد المكان سكون يماثل صمت القبور .. سكون طويل سمعت فيه فجأة دقات قلبي وتتابع أنفاسي ، فتولاني رعب شديد .. داعبت بأناملي ثنية في الكوخ نظرت من خلالها ، فإذا أمامي التل المرتفع الذي تتوسد صدره القرية . وإذا الشمس دامية وراءه ، وهو يلفها بردائه الرمادي . وخيل إليّ أن الأرض تكفن السماء في تلك اللحظة الرهيبة . كانت « أم شداد » قد جمعت عيدان الحطب المتناثرة حولها ، وأشعلتها كي تعد لنا قدحين من الشاي . قلت :

— أشكرك يا « أم شداد » لست أرغب في شيء .. لا داعي الآن للشاي الذي تعدين .

كان صوتي مرتعشاً متقطع النبرات ، ووجهي شاحباً ، ومقلتاي ينعقد فيهما ذعر دفين . قالت العجوز :

— إن قدحاً واحداً يرفّه عنك .

وأدركت سوء حالي ، فأردفت :

— هل حدث في الدار ما أحزنك يابني ؟ قلت :

— إن الله لم يخلق الشقاء الإنساني إلا من أجلي أنا .

قالت :

— كن رجلا يا ولدي . ما ينبغي لك أن تسترخي لهمومك فتقضي عليك . إن

الرجل القوي هو الذي يتلقى الضربات ، ولكنه يهزمها بالتمرد ، والثورة على أوجاعها ، ويتجنب الوقوف في سبيلها مرة أخرى .

— ولكن القدر يهوي بمطرقته الخفية على رأسي وحدي دون سائر الناس . وإن نصيبي من الشقاء كاف لأن يجلب الشقاء للجميع لو وزع عليهم بالعدل .

قالت :

— لا تكفر بالله يا ولدي ، إنه منصف رحيم . أتدري ما حكاية الشقاء يا بني ؟

قلت :

— أنا لا أعلم غير أن ما ينالني منه تنوء بثقله الجبال الرواسي .

أطرقت العجوز إطراقة من تستعيد خواطر مبعثرة في ذاكرتها . وكانت الريح تعول إعوالا كأني بها روح معذب منبوذ يولول في الظلام . ورفعت بصري إلى الأفق فرأيت الضباب يؤلف من حلقاته الملتحمة قيداً هائلا يكاد يخنق السماء .

وتهدج صوت المرأة وهي تقول :

— قبل أن يخلق الله الشقاء لبني الإنسان ، كان يقيم في بطن ذلك الوادي فلاح طيب اشتهر بالصلاح والتقوى . ولم تكن تنبض مشاعر الناس وقتذاك بغير الهناءة والفرح . اعتاد ذلك العابد القروي العيش على ما يحصده من تلك الأرض المجاورة للوادي ، قانعاً سعيداً بالحياة البسيطة التي يحياها . كان يهب من نومه حينما تحرق نار الفجر فحمة الليل البهيم ، وفي فمه ناي أخضر ينفخ فيه مقدساً جمال الطبيعة مع الطيور . وكانت أنغامه عذبة تنساب صاعدة يهتز لروعتها قلب السماء . ويظل يطوف بالحقل بياض نهاره ، وهو يروي الزروع حتى تلقي الشمس بجسمها المشتعل في أحضان هذه الترعة ، فيرافق المساء إلى مأواه . وكثيراً ما كان يفني عمر الليل الحالك بصلواته وتراتيله .

وذات ليلة من تلك الليالي التي كان يهبها للعبادة ، اعتكر الظلام ، وانطلقت تقصف الرعود ، وراحت تزأر الريح المعتوهة في كل مكان ، وأخذ الفلاح القانت يتأمل قدرة الله عز وجل في إبداع تلك القوى الطبيعية ، المتوحشة تارة ، المستأنسة تارة أخرى ، وأطرق في ذهول متصل من هول الإيمان ، واستغرقته غيبوبة طويلة أفاق منها على قهقهة مارد عملاق لم يدر من أين أتى ؟ . .

انتفض الرجل من الخوف ، وكادت أطرافه تتقلص من البرودة التي سرت في أوصاله ، وأحس لشعره وخز الإبر المغروسة في رأسه وبدنه ، ونظر ، فإذا أمامه مسخ هائل البناء لا تحيط به العين ، مسخ لم يخلق الله أبشع منه صورة ، عيناه حفرتان

غائرتان يقبع فيهما ظلام دامس ، شعره مديد شائك ينتشر على جسده الضخم انتشاراً ، يلوح بساعده في الفضاء فيسمع لهذه الحركة صوت الإعصار ، يخيل للناظر إليه أنه يسد بمنكبيه عرض الدنيا ويثقب برأسه جدار السماء .

استجمع الرجل جرأته المزيفة ، وتماسكت نفسه الهالعة ، وصاح صيحة كادت تفيض فيها روحه من فرط الوجل :

— من أنت ! وماذا تبغي ؟ . . فدوى عواء المارد :

— أنا الشقاء .

وتناقلت أركان الأرض صدى عوائه الراعد :

— أنا الشقاء . . أنا الشقاء . . . .

كانت هذه هي الليلة الأولى التي هبط فيها الشقاء إلى المعمورة . وحين حل الصباح ، صحا القروي من غشيته ، فوجد حقله أمحل كئيباً . وأيقن أن يد الشقاء هي التي امتدت إلى منبت قوته بالتخريب . ولما تكرر ظهور ذلك المسخ المخيف للعابد المسكين ، اعتزم الرحيل عن الوادي هرباً منه . هام على وجهه حتى التقى بالليل عند أعتاب قرية نائية ، وأخذ يتسلل إلى طرقها الملتوية المظلمة ، إلى أن شاهد حانوتاً مفتوحاً يخفق على بابه نور مصباح كبير ، كان السير قد أدمى قدميه ، والتعب قد استبد به ، فارتمى صوب الحانوت يلهث مجهداً ، وإذا روائح زكية تعطر أنفاسه ، وتخفف عنه شعوره بالنصب ، وأخذ الرجل يستروح النشاط والراحة والقوة شيئاً فشيئاً .

خرج صاحب الحانوت ، فرأى ذلك الغريب المرتمي قبالته على الأرض ، فاستدعاه إليه ورثى لحاله ، وأحس من نقاء ملامحه وصفاء عينيه ، أنه رجل طيب شريف تنطوي سريرته على الخير والفضيلة . كان ذلك الحانوت لبيع الطيب والعطور ، ملآن بالقناني الملونة المرتبة حسب أنواعها ، فرشت أرضه بأجزاء من البسط الخضر والحمر ، وكان عبق الطيب يفوح منه إلى الخارج ويذيع فيما جاوره من الأماكن . جاءت بعد قليل خادم تحمل أطباقاً فيها لحم وفاكهة ، عشاء للضيف ، وتناول الرجل من الطعام حتى شبع وكان جوعان ، وشرب من الماء الرائق العذب ، وحمد الله وشكر صاحب الحانوت ، وحان وقت النوم ، فمهد المضيف للعابد فراشاً مريحاً في الحانوت ، وأغلق بابه عليه ، وانصرف حتى يتنفس الصبح .

كان القروي لم تغمض له عين ! منذ ليال كثيرة . وقد أغراه ذلك الفراش الوثير وتلك الروائح الطيبة بالنوم بعد أن ألح عليه التعب الشديد . وما كاد يعقد الكرى

أجفانه ، حتى أيقظته في جوف الليل قهقهة المسخ . ارتاع الرجل وصاح :

— رباه .. من أين أتى ، وكنت حسبت أني نجوت ؟؟.. والتفت إلى ذلك المارد وقال :

— من أنت بربك ، من أنت ؟؟

ولم يلبث أن أصمت أذنه تلك القرقعة المرعبة العاوية :

— أنا الشقاء .. أنا الشقاء ..

غاب الرجل عن رشده ، ولم يرتد إلى وعيه إلا حينما آلمته لطمات عنيفة تتهاوى على وجهه في الصباح . . وإذا أمامه مضيفه مالك الحانوت يندب حظه العاثر الذي جعله يعطف على الضيف . أين محتويات الحانوت ؟ من الذي هشم كل القناني وأراق ما فيها ؟

حينذاك ، أدرك القروي أنها يد الشقاء . وتساقطت الكلمات مبهمة وهي تتناثر من فمه ، فلم تستقم له جملة واحدة يقولها . وكان المضيف كريماً حين أطلقه ، ضارعاً إلى الله وحده أن يعوضه تلك الخسارة ربحاً من لدنه .

* * *

ظل الشقاء يطارد العابد أينما حل وارتحل ، حتى شح نومه إلا في صرعات الفزع التي تنتابه كلما برزت له هيأة ذلك العملاق اللعين . وكان العابد ينتقل من قرية إلى أخرى ، ومن واد إلى واد ، أملا في الاختفاء عن المسخ الكريه . وكلما جن الليل وغفا الناس ، شق المارد حجاب الظلام ، وهبط إلى المكان الذي يتوارى فيه الرجل . وفي ليلة قارصة البرودة ، تساقطت ثلوجها على الأرض ، وأوشك أن يتجمد فيها الهواء ، كان العابد حائراً يضطرب في دروب إحدى القرى ، وهو يبحث سدى عن ملاذ يقيه بلاء الشتاء . ظل سائراً حتى رأى شرفة منزل كبير ، اتخذها وقاء يدفع به عن جسمه النحيل صيب الثلوج . كانت الشرفة مضاءة يقع النور منها على الطريق ، وكانت الدار لأحد وجهاء القوم . اشتدت ثورة البرد ، والعابد ينتفض من قرصه في الظلام . راح يفكر في وسيلة يلتمس بها مأوى له . ولم يكن أمامه إلا أن يطرق باب تلك الدار يطلب مبيتاً ، ولكنه كان أقسم فيما بينه وبين نفسه أن لا يقبل ضيافة أحد له في منزله ، وآثر أن يرقد في الخلاء خشية أن يفعل المسخ ببيوت الناس ما فعل بحانوت العطور . وفيما هو كذلك ، إذا رجل فارع القامة رائع الهندام ، يطل من الشرفة ويناديه ، وإذا ثلاثة من الخدم العبيد يقودونه في مسالك الدار إلى سيدهم . سأل رب المنزل العابد عما أوقفه في عرض الطريق والبرد يكاد يقتل الأحياء . فسرد العابد قصته من ألفها إلى يائها

والدمع يغالب حديثه بين آونة وأخرى . رق فؤاد الثري لحـــاله ، وأصرّ على أن يتحمل ما قد يجره نومه على أثاث بيته من التدمير والإفساد . وبعد انقضاء ساعة من من الزمن ، كان المنزل يعج بمئات الفرسان الأقوياء الذين أرسل الوجيه في طلبهم . وقص الرجل على ذلك الحشد الكبير حكاية المسخ مع العابد المسكين ، وقرر أن يعمل الليلة على ذبح ذلك الشقاء بمعونتهم حتى يخلصوا الرجل منه إلى الأبد . فرح القروي لذلك فرحاً شديداً ، وشكر لهؤلاء الأبطال مروءتهم وظلوا جميعاً مرتقبين قدوم المارد اللعين .

وفجأة اكفهرت الآفاق ، وتعقدت الأتربة في السماء ، وكان عجيباً أن تحدث تلك الظاهرة في الشتاء . وكان الفرسان قد أعدوا عدتهم ، وتناثروا فوق الدرج وفي أبهاء الدار كل فى يديه رمح ونار . وصاح العابد :

— أوشك أن يقبل الشقاء أيها الفرسان :

قال ذلك ، بعد أن سمع دبات أقدامه وهي تدوي دوياً ألفته أذنه ، وألفت أن تميزه من سواه .. دوياً تحدث منه فرقعات رهيبة مخيفة يكاد يصطك من شدتها الأفق . وصدق العابد ، فما هي إلا ثوان معدودات ، حتى أقبل المسخ تحيط به الأعاصير . عندئذ ، صرخ الرجل صرخة اهتزت لها أركان الدار . والتف الفرسان حول الشقاء ، وأحاطوا به من كل ناحية ، وتمكنوا من ذبحه بعد ساعة كاملة ، راح كل منهم يطعنه فيها طعناً متواصلا .

وحين جاء الصباح ، كانت القرية كلها قد جمعت أحطاب الحقول بأمر الفرسان ، وأوقدوها في قلب الوادي الواسع العميق ، وألقوا بجثة الشقاء في ذلك الجحيم . ولم يكتف القوم بإحراق المارد ، بل آثروا أن يذروا الجثة جزءاً جزءاً في الهواء ، إمعاناً في التخلص من الشقاء . واعتقد كل إنسان أن الأرض قد برئت إلى الأبد من ذلك المسخ ، في حين أنهم قد حولوه عن العابد ، بعد أن ذبحوه وأحرقوه وذروه في السماء ، كي يوزعوا ذراته على العالم بأسره . تنفس كل كائن ، فناله من الهواء قسط من الشقاء المشاع . ومنذ تلك الآونة ، لم يبق على وجه الأرض مخلوق واحد سعيد .

عبد الرحمن الخميسي

خال على ثغر

للأستاذ علي الجندي

قال لي صديقي الأديب ... في إحدى زياراتي له — وهو يقدم لي ابنته الطفل « عزّة » : هل لك أن تملأ عينيك من هذه الدّمية الفاتنة ؟ ! التي كأنما عناها البحتري بقوله :

تمـلّدَ فيها الحسنُ حتى انتهى بها وأبدعَ فيها الظّرفُ حتى تزَندقا[1]

أرأيت أجمل من هذه الطرة الذهبية المصففة ، فوق هذا الوجه الأزهر المقسم ؟!

ثم أرأيت أروع من هذه النقطة المسكية ، فوق هذه الشفة الأرجوانية ؟ !

قلت : المرء مفتون بولده وشعره كما يقولون ، وأخشى أن يكون حبها غطى على بصرك ! وأظنك لا تجهل المثل العامي : « القرد في عين . . . . »

قال: أنا راض بحكمك عليها ، وإن كان عهدي بالشعراء لا يخافون الله في أحكامهم !

قلت : سأكون قاضياً لا شاعراً فلا تخش مني ظلماً ولا هضما !

وأخذت أسرح فيها نظر الفاحص المدقق ! فإذا هي زهرة نضرة الأكمام ! توحي مخايلها بأنها ستتفتح زمن يَنْعها عن ألوان زاهية من السحر والفتون ! !

وإذا في زاوية ثغرها اليمنى خال يومض كأنه زنجي يقظ يحرس عقيق شفتيها ، ولؤلؤ ثناياها ، وخمر رضابها !

خفضت الرأس إجلالا لهذا الصنع العلوي الأنيق ! وسبحت المبدع الحكيم فأطلت التسبيح ! — « والحسن الصريح ينطق الأفواه بالتسبيح » ! !

ثم قلت له : « هنيئاً لك النافجة[2] » إن صدق ظني وصحت فراستي فسيكون « لعزتك » هذه صرعى كثيرون في ميدان الغرام ! ولكنها مع هذه الثروة من الجمال ينقصها « كثّير » يتغنى بملاحتها ، ويشيد بمحاسنها في الخافقين !

---

(١) كان الظرف من سمات الزنادقة في العصر العباسي، حتى كان بعض الناس يتكلف الزندقة لذلك.

(٢) النافجة : البنت . كانت تقوله العرب لمن يرزق بنتاً تفاؤلا بأنها ستتزوج فيأخذ مهرها فينفج به ماله ، أي يوسعه .

قال : وما يمنعك أن تكونه ؟

قلت : يمنعني أن شعراء اليوم . . .

قال : لا يتغزلون مجاناً ! أعرف ذلك حق المعرفة ! وأعرفه خاصة في شعراء « كندة » ! فقد ورثكم جدكم « الملك الضّليل[1] » شعره وطمعه معاً ! ! غفر الله له ! ولا أظن !

قلت : مهلا ! فما إلى هذا قصدت . لقد أسأت إلى الأسلاف والأخلاف ! ولكنني أعني أن الأمل . . .

قال : يفتح الغزل ! قياساً على أن اللّها تفتح اللّها .

قلت : فتح الله عليك ! ما أجود فطنتك !

قال : احتكم ما تشاء في الأجر ! !

قلت : لست أسأل شططاً ! غير أني أعرف من تاريخ « عزّة » أنها كانت شديدة البخل ، كثيرة اللي بالدين ، وإخلاف الوعد ! وقد لقي منها « أخو بني مليح[2] » وله العقل ، وحزازة الصدر ، ولوعة الفؤاد ! أليس هو القائل :

كأنّي أنادي صخرةً حين أَعرضتْ ... من الصُّمّ لو تمشي بها العُصْمُ زَلَّتِ

ووالله ما قاربتُ إلاّ تباعدت ... بهجرٍ ، ولا أكثرتُ إلاّ أقلت

فما أَنصفتْ : أمّا النّساء فَبغَّضتْ ... إليَّ ، وأما بالنّوال فضنت

فكيف تريدني أن أثق بنوال من تحمل هذا الاسم — على لطفه وحلاوته — ومن يدري لعلها تكون على شاكلة سميتها ! وأنا أومن بما تحوي الأسماء من معان وأسرار !

قال : دعنا من اللجاج ! وخذ بنا في اللباب ! ولا تفرّ من المعركة ! وسأرسم لك الطريق .

لقد وصف الشاب الظريف الخال المنحرف عن الخد ، فقال :

وبين الخـــدّ والشّفتين خالٌ ... كزنجيٍّ أتى روضاً صباحاً

تحيَّر في الرياض فليس يدري ... أيجني الوردَ أم يجني الأقاحا ؟ !

---

(١) امرؤ القيس .

(٢) كثير صاحب عزة .

وقال شاعرنا « حافظ إبرهيم » في مثله :

سألته : ما لهذا الخال منفرداً واختار غُرّتك الغرّا له سكنَا

أجابني خاف من نار الخدود ومن سهم الجفون ، لهذا هاجر الوطَنا

فإن كنت شاعراً كما تزعم ، أو يزعم لك الناس ، فقل في خال « عزة » شيئاً ، وإلا فاعترف بأنك لست من الشعر في مغدى ولا مراح ، أو أنك قد أصفيت[1] على الأقل !

وعلي عهد موثق أن أثيبك بكل بيت قبلة منها . فما رأيك في هذه الصلة السنية التي هى فوق أمنية المتمني ؟ !

وهنا رأيت أن الهزل صار جداً ! وأن امتناعي عن قبول هذا التحدي السافر جرح للكرامة والكبرياء ! ! فحميت لذلك وصعد الدم في رأسي !

فقلت . قد رضيت ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه .

ثم انتحيت ناحية خلوت فيها بنفسي ، فأنشأت هذه الأبيات :

عجبتُ لخالٍ مال عن صحن خدِّها إلى ثغرها ! والخالُ أولى به الخدُّ

فقلت له ما كان أحسنَ أن تُرَى بوجنتها مسكاً يحفُّ بك الورد !

فقال : هجرتُ الخدّ لاعَنْ كراهةٍ ولكن لأنّ الثغر يجري به الشّهد

فلما سمعها ، صاح صياح المعربدين ! أحسنت ! لا يفضض الله فاك ! هيه هيه يأبا . . .

وخفت أن يقول : أبا الشمقمق !

فقلت : أبا الحسن ! قال : أبا الحسن ! هذا ما قصدت .

ثم أطرقت برهة وقلت : أرعني سمعك ، وأنشدته :

سألت الخالَ كيف هجرتَ خدًّا يتيه بورده ، وبجلّنَارِهْ[2] ؟ !

فقال : هجرتُه من غير بُغضٍ لأنّى خفتُ أنْ أُصلَى بنارِهْ

وكم جار الزّمانُ على كريمٍ فألقَى رَحْلَه في غـــير دارِهْ

فأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهوباً ! ويقول : ست قبل بستة أبيات ! حسن

---

(١) أصفى الشاعر : إذا انقطع عن قول الشعر ، تشبيهاً بالدجاجة حين تنقطع عن البيض .

(٢) زهر الرمان .

والله ! شعر جزل وثواب أجزل ! إن زدتنا زدناك !

فسكت قليلا ثم قلت : اسمع — لا سمعت — :

خالٌ على الثغر المنوّر مُشبهٌ بسواده اللمّاح أحداق المُقَلْ

أتراه قام عليـــه يحرس دُرَّه أم قام يدفع عنه عُشّاقَ القُبَل ؟ !

قالوا له : أُخترت الأقاحيَ[(١)] ظالماً للورد حتى راح يدميـــه الخجل

فأجاب : يالله ! كيف عجبتمُ مِمّن رأى عسلاً ، فحام على العَسَل

وهنا أخذ يرقص ! ويطوح بابنته في الهواء ! ثم أدناها مني قائلا : « الشرط أملك » ، « أنجز حرٌّ ما وعد » .

ومددت يدي لأتناولها منه ، وإذا بالخبيث ينفلت كالمهر الأرِن ! وهو يضحك وتضحك معه « عزة » ! صافقاً الباب وراءه ! !

فصحت بصوت مسموع : لعن الله عزة ! ولعن أباها ! وبقية الأسماء الخمسة من أجلها ! ولعن الغزل والمتغزلين ! أذلت القبل أعناق الشعراء ! !

ولبثت برهة أتنفس تنفس المحروب !

ثم خرجت حسيراً كاسف البال ! وأنا أردد قول كثير :

قضي كلُّ ذي دين فوفّى غريمه[(٢)] وعزّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

وهكذا يعيد التاريخ نفسه في كل شيء ! ! ! حتى في القبل ! ! !

على الجندى

---

(١) زهر معروف تشبه به الثغور ، مفرده أقحوان .

(٢) روى المؤرخون أن أم البنين زوج الخليفه الأموي الوليد بن عبد الملك ، قالت لعزة : ما الدين الذى ماطلت به كثيرا ؟ قالت : كنت وعدته بقبلة وأخلفته ؛ فقالت لها أم البنين : أنجزيها وعلى إثمها .

حديث النساء

للسيدة وداد سكاكيني

جزى الله أبا حيان التوحيدي خيراً ، فقد جعل في تصانيفه أحاديث للسمر والمنادمة ، فيها إمتاع ومؤانسة ، ونقد للأخلاق ، وصفاء في البيان ، فكان فيما رواه عن معاوية : أن جماعة من الكبراء ، سألوه عما هو أبقى في سرور الحياة وأجمل في النفس وأحلى ؟ فقال الخليفة الأموي الأول :

— إنه الحديث . . . فقد ذقت الطيبات ونعمت باللذات ، وبلغت جهد ما يبتغي المرء من دنياه ، فلم أجد أبقى فى النفس ولا أمتع للفكر من حلاوة الحديث وسحر الكلام .

ولكم هششت لأبي حيان كلما اطلعت على أحاديثه للوزير ابن العارض فى ليالي الأدب ومجالي الشعر والبيان ، فقارنت بين التوحيدي محدث الوزير وبين شهرزاد محدثة الملك شهريار ، ذاك يطوي الليالي في الحديث عن العروبة وأنساب العرب ، مزهواً بأمجادهم ومآثرهم ، راوياً غرر أيامهم وحجولها ، أو محدثاً يشكو بثه وهموم نفسه بفوات أيامه حين كان بحضرة الصاحب بن عباد . الذي تجهم له حسداً ، وشغله بالوراقة زمناً كاد يذهب معه بصره .

وتلك تقص أحسن القصص وأفتنه ، لسلوى الملك وإلهائه عن الفتك بها ، كما فتك بأمثالها من الحسان في لياليه الماضيات .

قلت لألف ليلة وليلة : حدثينا عن دنياك الحالية التي خلعت على شرقنا الروحي روعة وفتوناً ، وبعثت في آفاق الخيال بغداد بقبابها القائمة ونهرها الفياض وكرخها المخمور ، باهرة الأعاجيب في قصص كالأساطير ، عابقة بدخان البخور ، وكأنه طيوب نشمها فننسج من سحابها الهفهاف ، أكواناً من التهاويل ، موشاة بجنيات عبقريات أطلعتهن شهرزاد ، هذه المحدثة الساحرة التي صفدت جباراً من الطغاة في أغلال أنوثتها وصباحتها ، وكان سلاحها البتار لسانها العذب الخلاب ، فخيل إلي أني أرى الملك

شهريار . هذا الفاتك العاتي الذي قتل أنضر العرائس وأجمل الغيد ، لقد تمثل لي وهو هائج كالأسد ، مزبد كالموج ، والغضب يتفجر من وجهه وقد كور على رأسه عمامة مريشة ، غاص فيها رأسه ، ولف على كشحه وشاحاً مذهباً مزركشاً . وحوله الحجاب والجواري يرفلون في ديباج أذهلهم عن غضبه ، وصرخاته تدوي في أرجاء صرحه الممرد ، فتعقد الألسنة ، وترجف القلوب هولا وحزناً على غيد أماليد ، سفك دماءهن شهريار ، واحدة تلو واحدة عند كل صباح .

هذه شهرزاد فلتة من فلتات البيان ، وبدعة في الحسان ، أرسلتها الأقدار لإنقاذ بنات حواء من فتك شهريار ، فتبدأ ليلتها بكان ما كان في قديم الزمان . . . ويرهف الملك سمعه مأخوذاً بسحر حديثها ، حتى يدرك شهرزاد الصباح ، فتسكت عن الكلام المباح .

لئن غابت شهرزاد فيما انطوى من آفاق بغداد ، إن أريج حديثها ما زال يعطر مواهب الأدباء في الشرق والغرب ، فيستمدون من فنها ووحيها روائع القصص ، وهي وإن استحوذت على النفوس بأساطيرها وحكاياتها ، فإن نساء يعربيات قد ملكن العقول والأسماع بمحادثات رائعات ، فنها مطارحة بالشعر ومقارعة بالرأي والحجة ونقد للأحكام ، ولعل معاوية الداهية ، الذي آثر الحديث على كل مناعم الحياة ، كان مأخوذاً بأحاديث النساء اللاتي كنّ يجلسن إليه متوددات مؤيدات ، أو يفدن عليه ناقمات ناقدات .

✡✡✡

ما أشبه الحديث الحلو من ذكية واعية بمطفرة ماء قراح ، فهي إن لم تنقع الصدى وترو الغليل بللت ظمأ العيون ، ولعل هذا التصور وقع في خاطر الشاعر حين سمع امرأة تتحدث دون تكلف ولا فضول ، فتخلب الألباب بحلاوة لفظها وبراعة وصفها ، فراح يقول فيها وفي حديثها :

إن طال لم يملل وإن هي أوجزتْ ... وَدَّ المحدَّث أنهـا لم توجز
شَرَكُ العقول ونزهــة ما مثلها ... للمطمئن وعقـــلة المستوفزِ

وسامحه الله كيف يكون مثل حديثها شركا ، وما هو إلا العتاق والانطلاق ؟

كان للعرب شغف بهذا اللون من فتون المرأة ، وهو حلاوة حديثها ، فأحب الخلفاء والأمراء أن يطرفوا مسامعهم بحديث النساء كما طربوا بغنائهن ، وكان إقبالهم على اقتناء الجواري المحدثات أكثر من إقبالهم على القيان الحسان ، فإن ثمن الجارية في عصر

الرشيد والمأمون كان يقدر بحظها من الشعر والغناء ، وليس على قدر نصيبها من الجمال والدلال ، وفي القيان اللاتي ثقفهن إسحق الموصلي من كانت منية الأسماع والنفوس بحديثها السحر الحلال .

وهل ملكت كليوبترة قلب أنطونيو إلا بسحر حديثها ، فإنها كانت تطعنه بجمالها وتداويه بكلامها . وقد بالغ الرواة فظنوا أنها أسرت أنطونيو بفتونها ، وفاتهم أن أنفها الطويل كان يشوه ذلك الوجه الصبيح . وقد قال فيها أحد علماء الجمال : لوجاء أنف كليوبترة معتدلا لتبدل وجه العالم . وهو لا شك يريد أن يعترف أنها لم تفتن الروماني الجبار بجمالها وحده ، وأن هذا الجمال لو كمل لكانت كليوبترة فتنة الدنيا ، ولتطاحن عليها ملوك الأرض .

وزاحم الرجال النساء على الخلفاء والأمراء ، فغص تاريخ الأدب العربي بأخبار الندام دون الندامى ، منذ كان يجلس إلى جذيمة الأبرش ندماناه . حتى أعقاب العصور العربية التي كان فيها حفاوة بالمسامرة والمطارحة ، وكم في مطاوي أدبنا من أحاديث تنثال عليها الطرافة والحصافة ، في كلام مأثور وعاه التاريخ للرجال ، ولم يحفظ في تضاعيفه إلا القليل من محادثات النساء ، ولعل المرأة لم تكن في حسبان الرجال غنية كل الحواس وغاب عنهم أن المرأة مهما كانت فاتنة الخلقة ، سابية الطلعة ، ولكنها لا تحسن الكلام ، فإن جمالها الصامت معدود في التماثيل .

وما كان حديث النساء أدباً كله أو جدًّا ، ولا سيرة أو هزلا ، وإنما كانت فيه حكمة وعاطفة ، وكان فيه فقه وتشريع ، فرواة الحديث النبوي قد صدر كثير منهم فى مستهل الإسلام عن أحاديث السيدة عائشة زوج الرسول ، أعظم محدثة في العرب . . . وكان الرواة يعنعنون الحديث صعداً إلى أم المؤمنين التي بذت المحدثين بدقة وعيها وروايتها . وهذا لعمري منتهى الفضل والمجد الذي بلغته المرأة العربية .

على أن لحديث المرأة في نفس الرجل مهما كانت ثقافته مشحذة لفكره ورهافة لذوقه وشعوره ، بل هوسلوى له ومؤانسة . فكيف إذا كان الحديث من مثقفة لبقة ، تحسن التحاور والتنادر ، وتتقن المساجلة والمطارحة ؟ وهذا سر مجالس الأدب عند نساء العرب .

فكم غلبت بلاغات النساء في الحديث ، كل خليفة داهية وعامل جبار ، مثل ما كان من هند بنت عتبة ، وليلى الأخيلية ، وأسماء ، وعائشة بنتي الصديق ، ولكم سحرت عائشة بنت طلحة وولادة بنت المستكفي ألباب الكبراء والشعراء بنفاذ البديهة

والذكاء ، وبراعة النقد والأدب ، وإذا ذكر هؤلاء لمعت في الخاطر مجالس حافلة لسكينة بنت الحسين ، كان يسابق إليها أكابر الشعراء الأمويين ، طمعاً في إصغاء بنت الحسين وعطائها ، فكانت تنقد شعرهم وتجزل لهم العطايا ، فذاع صيتها في الحديث وفصل الخطاب .

لقد غبرت تلك العصور ، وترادفت أجيال ، فإذا نحن في أيامنا ولم تبطل المقاييس في حلاوة الحديث ، بل صارت به أحفى ، إذ جعلته فنًّا من فنون البيان ، لا يؤتاه إلا القليل ، وصار لزاماً على المرأة المعاصرة أن تأخذ في أسباب هذا الفن ، لتستوفي ثقافتها ، وتكون صورة حية في فطرتها وزينتها ، فإن اللوح الفني الذي يمثل المرأة الجميلة إنما هو جمال ساكن ، وما يكون متحركا في الحياة إلا إذا أوتيت صاحبته فن الحديث .

وغدا هذا الفن الجميل مجلى من مجالى الثقافة والحضارة في بلاد الغرب ، وقد ازدهر عند الفرنسيين في عصور النهضة والتجديد بمجالس المترفات من المثقفات والأديبات ، أمثال مدام دوسفينيه ودوستال وروكاميه ، اللاتي كن يستقبلن في أبهائهن أعلام الأدب والفلسفة ، ويستملن أكابر السياسيين إلى مجالسهن ، ليتبادلوا معاً الأحاديث والآراء التي كان يتداولها الغربيون في ذلك الحين .

ولم يحرم أدبنا العربي أنداد أولئك المحدثات الغربيات ، فإن نساء عربيات كن في مطل هذ االعصر غرر الأحاديث ، بسداد الرأي وحصافة الفكر وعذوبة الكلام . أذا كرة منهن « ميًّا » في مجالسها أيام الثلاثاء في هذا البلد الكريم ؟ ليت الزمان تقدم بي أو تأخر بها ، إذن لأتيت مجلسها لا يفوتني كما فات يوماً شيخ الشعراء صبري باشا فخلد الأسف عليه بشعره ، ولكنت استمعت فيه لنغمات بيانها ونعمت بحلاوة حديثها ، وإن في رجال العرب أدباء ما زالوا كلما ذكرت « مي » انسابت في مسامعهم أحاديثها ، وكأنهم يسمعونها اليوم ، فيتمثلونها وقد عقصت شعرها بعصابة بيضاء ، وأخذت طلائع الشيب تطفو على سواد شعرها كأنها نجوم سواطع في حلك السماء ، ثم ما زالت تلك النجوم تتناثر وتلمع ويغيب الدجى ، حتى عمّ البياض الأفق وأفل ذلك الكوكب الدري .

كان يقبل على مجلس «مي» أئمة الشعر والبيان ، وأعلام الفلسفة والصحافة ، فتدير بينهم مجرى الحديث بوعي شامل ، وبدون كلفة أو تنطع ، ثم تدور عليهم بشراب من ماء غير مسكر ، مشفقة عليهم ، فقد كفاهم نشوة واحدة من سحرها الحلال الذي كانت تسكنه في حديثها العذب الريان .

وطوى الردي « مي » وانطوت أحاديثها في صدور الذين سمعوها ، وكأنها

أزاهير أتى عليها الزمن وما زالت ندايا ، فليت سامعيها ممن اتصلوا بحياتها وصداقتها ينشرون اليوم شذا تلك الأحاديث .

ولم تكن ديار الشام محرومة حديث النساء ، فإن فيها أديبة لو أوتي الرجال موهبتها في الحديث لكانوا بها ندماء الملوك ، تلك هي ماري عجمي ، وإني لأتمثلها من ضفاف النيل في بيتها بدمشق ، جالسة على صفة من أرائك مخدعها ، وأصص الزهر من حولها ، ورفوف الكتب من خلفها ، وما أدري هل اليوم صديقتي ماري في وحدة وعزلة أو في اجتماع وألفة ، فلقد عرفتها محدثة من الطراز الأول ، وإنها لتسكب الحديث من فيض فن وإلهام .

* * *

شتان بين فن الحديث ولغو الكلام ، فكل حديث كلام ، وليس كل كلام بحديث ، إنه موهبة كالشعر والتصوير ، وقد يؤتاها غير المتعلمات والمثقفات ، فكم من أمية يروق حديثها وتهفو الأسماع إليها ، وتكون خيراً من نساء تطفو الرطانة على أشداقهن فيخدعن الساذجات بلغوهن وتكلفهن الكلام فيما يجهلن من ضروب المعرفة ، ولقد سئل أحد المحدثين عما دار بينه وبين أناس كلهم وأطال ، فقال تكلمنا كثيراً ولم نتحدث ، فذكرني بما تتداوله النساء في أحاديثهن بأيامنا ، وما يعيرهن به الرجال .

إنهم ليتندرون عليهن ويزعمون أن المرأة لا تتقن من الحديث إلا الكلام على الطعام وألوانه ، والثياب وأزيائها ، والخدم ومشاكلهم ، والملاهي وسلواها ، فإن صح هذا في أكثر نسائنا ، فإن الرجال ، مع سبقهم إلى الثقافة وكثرة تمازجهم واتساع آفاق الحياة أمامهم ، ما زالت أحاديثهم إذا جدوا لا تعدو السياسة والأحزاب .

وما يكون فن الحديث إلا بعد فن السماع وتسديد الموهبة بالمرانة والاطلاع ، فلنسمع كثيراً لنتحدث قليلا ، وليكن كلامنا حين يدعو الكلام ، ولنجعله مطابقاً لمقتضى الحال ، وإنه إذا خلا من حكمة أو أفكوهة أو فائدة فالصمت زين لصاحبته .

فما أجمل يوماً يعم فيه تعليم البنات ، وتتأرج فيهن المواهب تأرج الأزاهير ، فيأتي عليهن حين يكون منهن محدثات ، يجددن عهود الغوابر فى عصورنا الزاهرة . وما فن الحديث إلا مرآة لذكاء المرأة وبيانها ، ودليل على قدرها وفضلها ، ولا يكون سحره حلالا إلا إذا اشتمل على الخير والهدى ، وأدخل المسرة المشروعة على النفوس ، فكان جمام الروح ، ومراح العقول من نكد الدنيا وتعب الحياة .

وداد سكاكيني

أحمد فارس الشدياق

١٨٠٤ — ١٨٨٧

للأستاذ مارون بك عبود بيروت

هو أحد أقطاب الأدب العربي العظام ، نشأ في لبنان وشب في مصر ومالطة ، واكتهل في باريس ولندن وتونس ، وشيخ في القسطنطينية . فمات ابن ثلاث وثمانين . ما أحوجته الثمانون إلى ترجمان ، ولم تأخذ من ذلك الرأس شيئاً ، فبقي عوده غضاً ونفسه خضراء ، كما شهد بذلك جورج زيدان .

« قدم مصر وقد شاخ وهرم — ١٨٨٦ — وأتيح لنا مشاهدته وقد علاه الكبر ، وأحدق بحدقتيه قوس الأشياخ ، واحدودب ظهره ، ولكنه لم يفقد شيئاً من الانتباه أو الذكاء . وكان إلى آخر أيامه حلو الحديث طلي العبارة ، رقيق الجانب ، مع ميل إلى المجون . وقد لاقى في أثناء إقامته بمصر — هذه المرة — حسن الوفادة ، فزاره الوزراء والعظماء ، وتشرف بالمثول بين يدي الخديوي ، فأكرمه ولاطفه وذكر خدمته للشرق » .

هذا هو الشدياق الذي نتحدث عنه . كان في حياته حديث عصره ، وهو ، بعد مرور ستين عاماً على وفاته ، حديث حسن لمن وعى .

« الشدايقة » كانوا في لبنان ، وخصوصاً في شماليه ، أكثر من الهم على القلب ، فكل من لبس القنباز شدياق ، وكل من شك دواة في زنارة شدياق ، ناهيك أن هذا اللقب يطلق على كل طامح إلى خدمة المذبح . وأحمد فارس هو ابن واحد من هؤلاء . هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر ، شقيق بطرس الملقب بالشدياق ، من سلالة المقدم رعد بن خاطر الحصروني الذي تولى جبة بشرى في القرن السابع عشر .

فهو سليل بيت كان له ضلع في الحكم . فالشدياق بطرس كان دهقاناً ومحاسباً سنة ١٧١٥ في عهد الأمير حيدر ، ثم صار سنة ١٧٢٩ مدبراً لولده الأمير ملحم . وفي سنة ١٧٣٧ غضب الأمير عليه ، فانتحر في سجنه ، وضبط الأمير بيت الشدياق .

وفي سنة ١٧٦٨ مات الأمير قاسم عمر الشهابي ، وأقام منصوراً الشدياق وصياً على ولديه حسن وبشير – الأمير بشير الكبير أو المالطي – ثم ولي الأمير حسن ، فدعا يوسف بن منصور الوصي إلى خدمته ، فاستعاد دارهم التي ضبطها الأمير ملحم ، واستوطن عشقوت في مقاطعة كسروان . في تلك الدار ولد أحمد فارس ، ثم دارت الأيام دورتها وتعكر صفو خاطر الحاكم فنزح والد أحمد فارس إلى حدث بيروت ، وباع داره إلى أبناء المير يوسف . ومن تلك الدار فر أحمد فارس ، بعد أن مر في أطوار كثيرة ، من طالب علم في عين ورقة ، إلى فتى ينسخ الكتب ، إلى كاتب عند (المير حيدر) صاحب التاريخ المعروف باسمه ، وقد سماه أحمد فارس في فارياقه — بعير بيعر — وتندر عليه وعلى تاريخه ما شاء . وأبت الأقدار ، إلا أن توالي ضرباتها على هذا البيت، فكانت نكبة أخيه أسعد وكان لها أبعد الأثر في حياة أحمد فارس ، ففر من لبنان إلى مصر ، ولم يلحقه ظفر جارح كعبد الحميد ، فعاش طويلا للأدب الخالص .

وفي ظلال ذلك الوادي الأمين طفق الطائر يغرد ، وأعجب الناس ترجيعه ، فاجترا ومضى على سننه ، يعبث بالعرف والعادة والتقليد . وعهد إليه في تحرير «الوقائع المصرية» فبرز في ذلك الميدان . وشاءت الأقدار فمدت يدها الجبارة فإذا بالشدياق في مالطة يعلم الأمريكان ويصحح ما يطبعون من كتب ، ويؤلف كتاباً فريداً قال فيه الأستاذ جبر ضومط في كتابه « فلسفة اللغة العربية وتطورها » : « وجد الشدياق فوجد كتاب (الواسطة) وكتاب (كشف المخبا) وسائر كتاباته الأدبية البالغة مبالغها من الطلاوة والحسن » .

وتستدعيه وزارة خارجية إنجلترا ليعاون الدكتور « لي » في ترجمة التوراة وتنقيحها ، فيقيم في لندرة وضواحيها سنوات ، وصفها لنا أطرف وصف في كتابه « كشف المخبا عن

أحوال أوربا » . ثم يغادرها إلى باريس ، وهناك يطبع كتابه الخالد « الفارياق » . وفي غضون إقامته بباريس ألف « سر الليال » و « الجاسوس على القاموس » و « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » . وفي باريس يمدح أحمد باشا باي تونس بقصيدته المشهورة « زارت سعاد » فاستقدمه إليه على مدرعة وجهت خصيصاً ليحمل الشدياق وعائلته عليها ، فعجب لهذا الإكرام العظيم وقال في فارياقه : « لعمري ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها » .

وفي تونس غرق في نعمة الباي ، قلده أسمى المناصب ، وحرر جريدة الرائد التونسي. وهناك أسلم وتسمى أحمد وتكنى بأبي العباس ، وطار صيته في الشرق والغرب، فطمعت الإستانة به ، فطلبه الصدر الأعظم من الباي ، فتولى تصحيح الطباعة الشاهانية ردحاً من الزمن ، ثم أصدر « الجوائب » في سنة ١٨٦١ فصدرت أمهات جرائد أوربا عن رأيها في سياسة الشرق ، وبقي في القسطنطينية إلى آخر العمر . فكان منه كما قال المتمشرق الأستاذ جب : « أحد الأبطال العظام المدافعين عن الإسلام » .

تعويذة

لقد انتهينا من الكتابة التقليدية ، فلندع القلم يمشي على سجيته وطبعه ، فاتبعني ولا تضع أمامك الهندازة ، فأنا لا أقص عليها . لست أقول كما يقول مؤرخو الأدب الغربي ! الرجل ، حياته ، آثاره . إلخ ، فأنا ، وحياتك الغالية ، خياط مستقل ، سواء عندي أوفد البريد أم لم يفد ، فليس لدفتر الأزياء شأن في نظري . إنني كما عرفتني أفصل على عقلي كصاحبي هذا ، فإن جاء الثوب على القد فقل في ما شئت ، وإلا فإني أذكرك ببيت بشار في الذي خاط له ذاك القباء . .

ما أقل عقل الذين يريدون أن يفهموا الشدياق دون أن يقرؤوه ، فليس في الأدب الصحيح عجائب سيدة لورد ولا هو تلقيح بلح . قد تعودوا أكل السندوش ! أما نحن فنريد لهم الهريسة وغيرها من المآكل الصعبة النضج والهضم ، فإنما اللذة تكون بعد تحريق الأيدي والانتظار العنيف ، وما رأيت السندوش يسد جوعاً ويشبع نهماً !

إن وصف المتحف غير رؤية آثاره قطعة قطعة ، ففي الزنجار الذي يموه العاديات وحي لا يصفه القلم . وقد تفتن العالم قطعة فخار فيجن بها ويعمى عما في المتحف من معدن غالي الثمن . سأقول شيئاً بل أشياء عن الشدياق ، ولكنني أعترف لك بقلب منسحق أن درس دماغ بشري يقتضي عمراً كاملا . فاستنتج إذن ما شئت من خرابيشي

هذه . ثم عد إلى نفسك ، وادرس الرجل على بصيصها . ما قلت على نورها ، لأنه يحلو لي جداً أن أتواضع أمام جاحظ العصر وجبار أدباء القرن التاسع عشر .

أحمد فارس الشدياق أحد ثلاثة أو أربعة في تاريخ الأدب العربي ، وقد يكون فذاً من أفذاذ العالم أجمع في كتابين : الأول « الفارياق » الذي لم يكتب مثله شرقي ، كما يقصر عنه الكثيرون من نوابغ الغرب . أما الثاني فكتاب «سر الليال» الذي كشف الغطاء عن ناووس اللغة العربية ، وأعاد الحياة إلى مومياتها التي تنفست وعطست بين يدي أحمد سبع عطسات كابن أرملة اليشع . . ومن درس هذا السفر البديع يقول مع بيفون : « ليس النبوغ إلا صبراً طويلا » . ولكي تفهم بعض سر الليال اهجر النرد والبريدج مئات ليال ليتني أعطى من الأعمار ما تمناه المتنبي لسيف الدولة فأدرس الشدياق عن بني أمي جميعاً وأعرفهم بأخيهم وابن عمهم هذا .

ليس في القرن التاسع عشر أدب حي ، كما نفهم الأدب اليوم ، إلا ما كتبه الشدياق في « فارياقه » و « واسطته » و « كشف مخباه » . وفصوله التي أذاعتها « جوائبه » . وإنني لأضحك ممن يعد « الفارياق » كتاباً بذيئاً فيؤاخذ الرجل على أحماضه ، متغاضياً عما في كتابه الطريف من حياة راقصة وعبرة باسمة ، فهو أشبه بالعوالم التي اكتشفها بستور في نقطة الماء ، فلنتتلمذ لبستور في الأدب إن نحاول فهم رجل كهذا.

يقول الناس : « لا حياء في الدين » . وأنا أقول أيضاً لا حياء في الفن ، وغير الفنان يرى الفن بذيئاً . فاقرأ الشدياق قراءة فنان إن رمت تعظيمه ، واقرأه قراءة أهبل إن شئت أن تصب على رأسه أقذار البواليع ، فسيان عند أحمد هذا أو ذاك . ولكنك تضحك الناس منك إن رأيت في النظر إلى تمثال الزهرة خطيئة مميتة توقعك في جهنم . الفن لا يدرس إلا على فانوس الوثنية ، ولا نصيب فيه لمن تهلكه خطيئة الفكر . .

قد تقول لي : الأمس دائماً هو فردوسك المفقود ، وأنت تبغض الأحياء ،وعرق عبادة الموتى لا يزال قوياً فيك . أما أنا فأسمعك ما قرأته أمس عن الفن ، جديد ، أيضاً جديد ، دائماً جديد . فاقرأ جيداً هذه الكلمات فهي قاعدة الفن الأولى ، ثم اخلع عنك ذاتك التقليدية واقرأ الشدياق . ألم يجىء الشدياق في زمن كثر فيه القديد الأدبي فوجهنا إلى المأكل الطازج ، يوم كان معاصروه يتلهون بقشاش المائدة . .. فما أحوجنا إلى نسابة أدبي يخزي شياطين هؤلاء الأدعياء المغرضين ، الذين يخمعون خلق القدماء كالجمال العرج . فالبياني Rhéteur كما سماه الرومان ، هو من يتكلم ويروض الألفاظ فيقرنها إلى نير الفكر ، ويحسن تكييفها، ويخزها ويهمزها حتى تلين وتطيع ، ويكرهها

على أشق أعماله وأخطرها وأندرها . فإن كان هذا حدالبياني — وهو هذا — كان شدياقنا من أدرك سر البيان . فاقرأ كتبه ولا بأس عليك من تنينها الجهنمي ، فنعمة روح قدس الفن تحفظك كما حفظتني . سهل علي جداً أن أكون تيس الخطية في هذا الموقف ، فتمسح بي بعد قراءته لأقول لك : إيمانك أحياك اذهب بسلام .

لم يظن الشدياق أنه بلغ السموات العلى، ولم يكن بلا عقل كالمدعين الثرثارين ، ولذلك قال لنا : إنني سأضحك من سخف عقلي حين أقرأ كتبي ! وهذا يصاقب قول كاتب فرنسي كبير : « المغفل منا من يعتقد أنه بلغ نهاية النهاية ، وأن نظرياته مؤكد دوامها» ولكن إذا كان هدف الكاتب في الحياة أن يخلد اسمه بأثر أدبي كما يقول المسيو تاريف ناقد الطان ، فالشدياق قد بلغ الأرب . ولنعلم جميعنا أن الأدب لا يبنيه واحد فقط ، فعلى كل منا أن يضع ولو حجراً في البناية العظمى .

وكما يشق العنب فيعصر ، ويكبس ، ويغلي في الخوابي محنقاً مغيظاً ليصير خمرة هادئة في الكأس، كذلك الأدباء والشعراء . وفي سيرة أديبنا الأعظم ، وقد كتبها بيده ، ما يثبت هذا ، فلولا شقاؤه لم نفز بهذه الآثار الخالدة .

الشدياق الكاتب

كاتب اهتدى إلى ذاته العظمى ، وكان مغامراً فلم يخف على أسلوبه من الموت . فأرسله في العالم العربي ، غير مبال بضواطير الأدب ، ولا بمن صدئت عقولهم لنومتهم العبودية في أقبية التقاليد . كان معلم الجيل في تآليفه الكثيرة ، ومحدثه الدائم في جوائبه أوتي قوة الاختراع فعبر عن فكره الطريف بأسلوب ظريف ، فهو مخترع أبداً حتى في الفصول السياسية والأخبار المحلية . مبتكر في التعبير خاصة . خلق منطقياً جدلياً ، فجاء فارياقه ملآن بالتعابير الفجائية التي يسوق إليها الحوار . وهو لم يفته شيء من الأصول الفنية ، فأدرك أن ما أنطق به الفارياقية ـ زوجته ـ لا يتفق وعلمها ، فاعتذر في مقدمة كتابه ، وهكذا نجا من المؤاخذة . وقد أنبأني ما لاحظت في آثاره الأدبية أن مولانا الشيخ من قطاع الطرق في الأدب لا يدع سبيلا لمتربص به ، بل يسد عليه الدروب كلها . وهذا أيضاً من خواص دماغه الكبير .

أدرك المعلم أن السجع — وهو لم يسلم منه — مرض عصور الأدب فقال : «السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي، فينبغي لي أن لا أتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه ... ولقد رأيت كلفة السجع أشق من كلفة النظم ، ومَن

أحب أن يسمع الكلام كله مسجعاً مقفى ومرشحاً بالاستعارات ومحسّناً بالكنايات فعليه بمقامات الحريري أو بالنوابغ للزمخشري (فارياق ٤٧ – ١) فأما إذا تعنَّت عليَّ أحد بكون عبارتي غير بليغة ، أي غير متبلة بتوابل التجنيس والترصيع والاستعارات والكنايات فأقول له : إنني لما تقيدت بخدمة جنابه في إنشاء هذا المؤلَّف لم يكن يخطر ببالي التفتازاني والسكاكي والآمدي والواحدي والزمخشري والبستي وابن المعتز وابن النبيه وابن نُباتة ، وإنما كانت خواطري كلها مشتغلة بوصف الجمال . . . وبغبطة من خوّله الله عزة الحسن ، وبرثاء من حرمه منه ، وفي ذلك شاغل عن غيره . . . وبعدُ فإني علمت بالتجربة أن هذه المحسّنات البديعية التي تهور فيها المؤلفون ، كثيراً ما تشغل القارئ بظاهر اللفظ عن باطن معناه (ص ١٣ – ١) فارياق . »

أجل ، إن انشغال بال الفارياق بالجمال وهجسه به ليلا ونهاراً خلع هذا الجمال الفني على ما خطه قلمه ، فهو ككاتب ، معلم عصره ، ونوابغ كتاب زمانه تلاميذه . لقد فكك القيود وحرر الأذهان من عبودية القديم ، فهوت ربوبيته عن كرسي مجدها . ولكنه وضع لتقديس القديم حداً لا يمتهن الألوهة ولا يجر إلى الوثنية . ولو برهنت عن أثره هذا بسرد نتف من كلامه لملأت بذلك مجلداً وما اكتفيت . فعد أنت إلى تأليف الشيخ أحمد الشاعر . قال أحمد : « وكان الفارياق يتهافت منذ حداثته على النظم من قبل أن يتعلم شيئاً مما يلزم لهذه الصنعة ، معاعتقاده أن الشعراء أفضل الناس ، وأن الشعر أجل ما يتعاطاه الإنسان (٢٠ – ١) فارياق . »

أما نحن فنقول : إن شاعرية الشدياق كانت قوية جداً ، وقريحته كانت أغزر ما تكون القرائح ، ولو شاء أن يحكي شعراً لقدر ، ولكنه كان قليل التجديد شاعراً ، كثيره ناثراً . بكى الطلول كما بكوا ، وقال الغزل الكاذب مثلهم ، مع علمه أنهم في ضلال مبين . وما أكثر ما انتقد خطتهم تلك ، فالظاهر أن بين فمه وأذنيه أربعة أميال لا أربع أصابع . مدح وهجا ورثى ، وقال الشعر في كل غرض ومطلب ، ولكنه كان يحاول التجديد دائماً ، حتى فكر أن يفكك أغلال القافية ، فقال أربعة أبيات مختلفة القوافي ، وصرح لنا أنه يقصد التجديد ، ثم خمع خلف القدماء . . .

إننا نعذر الشدياق على مدحه ، ففي « بانت سعاد » لم يكن كعب أعلى منه كعباً ، ولو اتيح لشعراء المناسبات عندنا جزء من مليون مما ناله الشدياق لعذرناهم وصفقنا لهم . ولكنهم ، ويا للخجل ، كالقرادين يمدحون الناس ويشتهون الرغيف في يد من يضمه ويشمه كبخيل أبي نواس . شقي أحمد أولاً ، ثم فاز أخيراً بهذا الشعر الذي كان خير

بضاعة عصره — لا تنس أني قلت عصره — فاسمعه يصف شقاءه ، ولاحظ وأنت مار في هذه البيوت الشعرية ، ما فيها من تقليد أعمى :

سميري في وجه النهار يراعة ... وليلي درس الصحف من كل كاذب
فيالك من يوم كريه صباحه ... ويا لك من ليل بطيء الكواكب
كأني في حلق الزمان شجا فلم ... يزل لافظاً بي أرض من لم يبال بي
أما في الورى من عادل غير عاذل ... أما فيهم من صاحب غير حاصب

أما حين ضحك له الدهر بهذا الشعر وحمله الباي على بارجة حربية لأجل « زارت سعاد » فقال : ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيه . ومضى قدماً في السياسة يأخذ بثأر أبيه وجدوده . كان الإمام متشائماً قبلما صلحت حاله ، وكثر ماله ، فشكا الدنيا قائلا :

إن تبتسم دنياك يوماً فلا ... تركن إليها إنها آلقه
فربما شاقك برق سرى ... مبتسما يتبعه صاعقه

ولكن الصواعق زالت ، والحمد لله ، وجاءت الديم ، وسكن الشاعر القصور الشاهقة في الإستانة العلية بعد ذلك الكوخ المالطي الذي قال فيه :

تعالوا وافقهوا عني ثلاثاً ... تعلمكم مراعاة النظير
خلاقي ، ثم جسمي ، ثم بيتي ... صغير في صغير في صغير

وشاعرنا ماجن مهذب في شعره — إلا إذا هجا — متهتك وقح في نثره ، وقد عرفنا بنفسه يوم كان شقيًّا :

ما زارني إلا خليع ماجن ... فدع الحياء إذا حضرت حصيري
إن الحياء أخو النفاق وما صفت ... دون المجون سريرة لعشير

وللمرأة من أدبه ، شعراً ونثراً ، أوفى نصيب ، فهو كالحطيئة ، للأنثى عنده حظ الذكرين . . . وقد أنبأنا في مقدمة فارياقه أنه بناه على أساسين : المرأة واللغة ، وفي المرأة يقول متشوقاً متحرقاً :

أصبحت في غرفتي رهن الهموم فما ... يعتادني غير أشجاني وأوطاري
أرى لكل امرئ أنثى تؤانسه ... وليس عندي من أنثى سوى النار

ويذكرني شقاؤه في أول شأنه ما كتبه ويكتبه الشاعر أحمد الصافي النجفي ، فاسمع وصف الشدياق لشقائه ذاك :

غدا بيتي كثير الفرش لمّا ... تهلهل فيه نسج العنكبوت

فلا عجب إذا ما قلت يوماً لكيد الناس : إني ذو بيوت

ولكنه ينتقم لسوء حاله فيقول أيضاً :

يراني الناس في كوخ حقير فيحتقرون منزلتي احتقارا

فهل يا قوم عندكم المعالي علو مباءة تحوي حمارا

والأستاذ الذي لا يملأ عيني شعره ، وخصوصاً المدحي منه ، ينخدع ويقول لنا :

من ظن أن مفاعلن متفاعلن سر القريض فجهّزنّ به إلى ...

ثم يسمعنا شعر المديح الذي بوّأه سدة اعتبار وإجلال يتمناها كثيرون من رؤساء حكومات العالم اليوم ، فهل تغير ياترى بعد الميسرة فصار كالناس الذين قال فيهم :

الناس في الدنيا على رأي إذا هم أعسروا

لكنما أهواؤهم شتى إذا هم أيسروا

يحدثنا التاريخ أن شاعر زمانه كان لسان قومه في الإستانة ثم إليه يرجعون. كان بيته مفتوحاً لهم ، ولكننا لم نقرأ شيئاً عن كرمه . أما مروءته فكانت كاملة ، فهو لم يتقاعد عن نجدة ، ولم يتهاون بداع من أبناء جلدته . وآخر ما نقوله في شعره أنه كان جاهلياً في إغرابه ، عباسياً في مدحه ومجونه ، شامياً في تصوره وتفكيره . حاول التجديد في الشعر ، ثم مشى على بلاط ملوك عصره في نعال مشركة . يدل نظمه على قلة تنقيح ، وهو لونقح لنفض عن شعره هذه اللزقات الأميركية التي لا تخلو منها قصيدة ، فكأنه عدو للموسيقى الشعرية ، مع أنه كان يعزف على الطنبور . وقصص طنبوره كقصص مداس أبي القاسم.. وفي كل حال هو أمتن شعراء زمانه ، يضعف شعره حين يمدح ، ويسرح في المراسلة ، ويشتد في الهجوحتى يكاد يخلو من الحشو ، ويتساقط كأنه حجارة المنجنيق . وقبل أن أدع شاعريته التي لا أجل نتاجها وإن كانت أسعدته وابنه وحفيدته التي تعيش اليوم في إنجلترا عيشة اللوردات ؛ أحب أن أذكر بيتين لا يستهان بهما ، قد أعجب بهما أحمد حتى عدا طوره ، وحتى تخلق بأخلاق ابن الأثير حين ذكرها فقال :

لا يحسب الغر البراقع للنسا منعاً لهن عن التمادي في الهوى

إن السفينة إنما تجري إذا وضع الشراع لها على حكم الهوا

رحم الله شيخنا وغفر له ، فقد كان يرى العالم كله في المرأة ، وقد قال في بنات حواء : إنهن زخرف الكون ، بل أقول غير متحرج عرف الآلهة ، إذ لا يكاد الإنسان يبصر جميلة إلا ويسبح الخالق (١٤ — ١ فارياق) .

الرمان السياسي

قال عن نفسه :

لقد طفت في الدنيا على غير طائل فلما بدا عجزي أنبت « جوائبي »
فياليت شعري والنـــوائب جمة أيخفق كل من منيب ونائب

فارس الشدياق ابن بيت لبناني عريق، عالج ذووه السياسة في الدنيا والدين — كما علمت — فعركتهم عرك الرحى بثفالها ، مات جده وأبوه وأخوه شهداء حرية الفكر والميـل ، وهو أحد مشردي هذا البيت . قضى عمره مجاهداً ، لم يدع قطراً في الشرق والغرب إلا حلته ركابه ، وكتب عنه بعين لا قطة لا يفوتها شيء ، فكأنها عدسة المصور، ففي « الواسطة » و « كشف المخبا » و «الفارياق» صور شتى لأحوال الشرق والغرب. وإن أكبرنا جهاد المتمشرقين فلا حرج علينا أن نكبر أكثر منهم جهاد هذا المتمغرب الذي كان إعلاناً للدماغ اللبناني بلا ثمن . . وإن أفلح وصار حجة السياسة الشرقية للأوربيين فلأن الوراثة جعلت منه سياسياً عظيماً ، يحسن تعليل الأمور بعقله الثاقب . وليست سياسة العالم بأصعب من سياسة لبنان المختلفة بضاعته الطائفية ، كمخازن ألف صنف وصنف . وأصدق دليل على تمسك الفارياق بأذيال السياسة رسائله التي كانت ترد على أصحابه وذويه، فهي تنبئنا أن كل المتاعب لم تشغل الأستاذ عن استطلاع سياسة وطن مات وفي قلبه حنين إليه ، وإن لم يقل في ذلك شعراً . وما شرده عنه وكتبه «الفارياق» إلا تلك النكبة التي وقعت بأخيه أسعد ، فطوحت به في الآفاق يطوي وينشر ما عن له تنفيساً لـكربته ، فجابت « جوائبه » الأرض ، وكانت مدرسة عامة ، ليلية نهارية ، للناطقين بالضاد . فصحت بها لغة عصره الفاسدة ، وقامت حرب البيان على ساقها . ومن الأنين المتصاعد من منتخبات الجوائب (ج ٣) يظهر لنا إعجابه بصحيفته وتألمه من حاله :

وإن كان سعيي في الجوائب خاسراً فإني لذخر الفخر أصبحت كاسبا

فهو يرى كل ما فيها ، وحاشاه ، فانياً ، وتلك حالة الأديب في كل زمان ، يرى في المجد غنى عن النقد . وكذلك الصحافي العربي ، فهو هو ، والمشتركون هم هم ، كما يخبرنا الفارياق .

على سطح ذي الدنيا أراني نقطة أخط خطوطاً لا تسمن لى ضلعا
وقد أعجب النقاد جمع جوائبي ولـكنني للنقد لم أستطع جمعا

وما بلغت الجوائب ستة وثلاثين أسبوعاً — أي تسعة أشهر — حتى عجز

الشدياق عن إصدارها ، فأعلن إفلاسه في العدد السادس والثلاثين ، قائلا : والضمير في « أقلت » يعود إلى « الدنيا » :

أقلت ذي الجوائب قدر حمل الـجنين وأسقطتها في الترائب
ومن يك قرنه الإفلاس دهراً فكيف يطيعه عاصي المطالب
لقد تربت يدي عن نيل طرس أخط به من الخطط الغرائب
بكيت وليس يجديني بكاء وأرخت «انقضى درس الجوائب»

فاهتز لنجدته الصدر الأعظم فؤاد باشا ، فلم ينقض درس الجوائب ، وعاشت سنين ، حتى قال شيخنا : لله درها . . . وظلت تصدر حتى قضت الحوادث السودانية بوقفها سنة ١٨٨٤ ، أما صاحبها فما وقف قلمه حتى الموت .

اللغوي والمصنف

ما رأينا قبله لغوياً بحث اللغة فرد ألفاظها إلى أصول قليلة اشتبكت فروعها فصارت أدغالا مخوفة ، ولا من كشف الغطاء عن خصائص الحروف فدلنا على حكمة الواضع . فالشدياق عالم قارح ، رأسه كمخازن الترنزيت التي تتكدس فيها البضائع ، أو أهراء فرعون يوم أقام يوسف بن يعقوب قهرماناً له . فهو مستودع الجرايات في هذه المجاعة . لجأ إلى «جاسوسه» و« سر لياليه » كثيرون ، ففي عدل بنيامين ألف كاس يوسفية... تخبرنا أن الذين بحثوا اللغة والقواميس بعده عيال عليه ، كما كانوا على الجاحظ قبله . إنهم ينهبون ولا يستحون ، ويسرقون ثم ينسون أنهم سرقوا الرجل ، فيدعون المعرفة غير منوهين بذكر من جاهد ثمانين حولا ولم يسأم . فما فهمه الشدياق من أسرار اللغة لم يخطر ببال أحد ، وقد كان شديد الإعجاب بسر الليال حتى أفرط في الثناء عليه ، وعقد الفصول معلناً فائدته لأولي الألباب ، فكان كالكريم حين يخشى أن لا تأكل من ألوان مأدبته كلها فيتولى بنفسه تشويقك وترغيبك .

وتلك كانت حاله في خلق الألفاظ للمسميات الحديثة ، فقد جاء الصحافة في صباها ، فكان أبا الراقية منها لغة وسياسة . اعترضته مشاق كثيرة عند وضع الكلمات للفارياق وكشف المخبا والجوائب ، ولكنها لم تعوقه ، فسمى الداليجانس ، حافلة المجد . والفاكونات ، الرتل ، والباخرة سفينة النار ، والفنون الجميلة ، الصنائع الظريفة ، وبوليس التحري الثقاف . وكان يتألم كثيراً من هذا العناء المخلوط ببرد أوربا وسطمبول ، فقال فيه شعراً :

ومن فاته التعريب لم يدر ما العنا ولم يصل نار الحرب إلا المحارب
أرى ألف معنى ما له من مجانس لدينا ، وألف ما له ما يناسب
فياليت قومي يعلمون بأنني على نكد التعريب جدي ذاهب
اسكت يا شيخ ، لقد علموا . . ولكن أنت تنفخ في رماد . .

لقد كتب في تآليفه كل ما هو مبتكر حقاً ، فخلق أدبا حياً لا أدباً ذابلا ، إن تحرك ناس كلعب الأولاد . ويا ليته كتب قصة بمعناها المعروف اليوم ، إذن لكان لنا أروع القصص . وإن صح حشر سيرة الحياة بين القصص ، فالفارياق قصة عالمية رائعة . فما أروع وصف تلك الغربة التي جلت ذاك الصيقل الفرد .

حدثنا رواة الأخبار عن المعري القفلة ، ولكن الدليل على ذاكرته العجيبة لم يقم ، أما إمامنا ففي فارياقه وجميع آثاره ألف دليل على ذلك الدماغ الغريب ، فهو المؤلف العجيب حتى في كتبه اللغوية ، وكل من ألفوا قبله وبعده نساخ ، فمن شاء أن يؤلف في اللغة بعد أحمد فليستح ، وليعذرني أبو عثمان المازني إن استعرت كلمته هذه ، فهنا محلها أيضاً .

الأديب النقاد

الشدياق رجل قوي الباصرة ، ليس في جرابه رغيف من خبز الرومنتيكية ، فهو والجاحظ سواء بسواء ، ولولا تشكيه البرد وتبرمه بالثلج لقلت إنه لم يحس الطبيعة قط ، اكتفى بالمرأة عن كل ما خلق وما لم يخلق ، فكل الصيد في جوف الفرا . . . ولولا كرهه طعام الإنجليز وحنينه إلى طعامنا لقلت إن الرجل يعيش على الانتقاد ، فلم تنج ناحية من نواحي الاجتماع من جراد نقده الزحاف ، لم يدع زاوية من زوايا الكون إلا ولجها ، ينتقد الدنيا جماعات وأفراداً وحكومات وبلداناً ، فقل إذا شئت : لم يسلم من لسانه أحد . أما نقده الأدبي ، ففي الفارياق ، وكشف المخبا ، وسلوان الشجي ، وفصوله المجموعة سبعة أجزاء كثير منه . انتقد أساليب الكتاب والشعراء وتفكيرهم وتعبيرهم ، فكأنه أقام نفسه معلماً أو مدعياً عاماً في محكمة الأدب . وقد اطلعت على رسالة بخطه نقد فيها كتاب أخيه طنوس « تاريخ أعيان لبنان » فما حاباه ولا تغاضى عن هفواته ونعى عليه تذبذبه .

أذكر أنني قرأت كلمة لأمين الريحاني نقد بها « غطارفة البيان » كما سماهم ، وإذا بي أجدها بمعناها في الفارياق ، لست أعني أن الريحاني ناقل ، بل قلت هذا لأدلك على رجل نظر أمس كما ننظر نحن اليوم ، إلى هؤلاء الفحول المقلدين ، وما ننكره نحن الآن عليهم أنكره هو قبلنا في الفارياق وكشف المخبا ، وأشبعهم سخراً وهزءاً . ولكن أولئك

كهؤلاء لا يردعهم شيء حتى ولا الصفع فخصلة البدن لا يغيرها إلا الكفن ، ولو كان ربنا يسمع شعراً لنظموا له عقوداً زبرجدية يعلقها في شماريخ عرشه . . .

ولو قرأت ما كتبه في « الواسطة » عن الزانية التي تضع صورة العذراء بالمقلوب حين تفحش، لتذكرت ، إن كنت قرأت « البعث » ، وصف هذه الحالة الذي كتبه فيلسوف الروس العظيم ، وأدركت أنه لم يفت أديبنا العظيم فسبق إليه .

والأستاذ جريء على استعمال القياس ، فخلحل مكابس اللغويين . لقد جمع ونسب كما قرر مجمع مصر الملكي ، وهو في عمله هذا واثق من نفسه ، يؤدي العبارة على حقها ولا احتكال عنده ، فكأنه يقطع من مقلع . والخلاصة أن الفرق بين أحمد ومعاصريه كالفرق بين رافائيل وبين من ينقلون صوره عن معجم لاروس وغيره .

المتهكم الساخر

تقرأ في الفارياق (ص ٥٣ و ٦٦ / ١) نقداً لاذعاً وتهكما ساخراً بمؤلفي النحو ومعلميه ، وحركات الإعراب ، وتمسك النحاة بها ، حتى يعبر عن مشاكل النحاة وعراقيلهم التي لا تنتهي بقوله صرت أعتقد بخلود النفس لأن مبهمات النحو خالدة ! ! أليس هذا ما يعالجه اليوم معلمو زماننا حاسبين أنهم اخترعوا البارود . وكذلك فعل بعلم البيان والبديع ، فمضى يسخر من أنواع الاستعارة ، وظل يفعل حتى شبع ، وأخيراً شبهها بأشكال الدرج فقال : ومنها القرقي واللولبي والحلزوني إلخ ، حتى قال في علل النحاة : ومات الأصمعي وفي عنقه من رسم الهمزة غدة . ثم يهزأ بتمسك بعض البيانيين بالحروف فيقولون : الواو هنا أفصح من الفاء وأو أفصح من أم ، وهلم جرا ، ويهاجم الساجعين المنمقين الذين يتلاهون عن الحقيقة باستعارة أو كناية أو تصور غريب ، فيقول كلمة عن المؤبنين :

« المصاب ينتحب ويولول، والمؤلف يسجع ويجنس ، ويرصع ويوري ، ويستطرد ويلتفت ، ويتناول المعاني البديعة ، فيمد يده تارة إلى الشمس ، وتارة إلى النجوم ، ويحاول إنزالها من أوج سمائها إلى سافل ». ويقول في مكان آخر : « نقضي ساعة تامة في شرح جملة غير تامة » . ثم يقول : أكثر الكتاب يتهوسون في إهداء السلام والتحيات للمخاطب ، كأنهم مهدون إليه عرش بلقيس . وكقوله للطبيب الذي عالجه علاجاً عنيفاً : أنا صاحب جثتي أفلا تشاورني! وكقوله عن الإنجليزية التي دعاه زوجها إلى العشاء عنده ، وهرب من وجهه ولم يعشه : تسار بناتها كأنما نزل بهن نكبة البرامكة . ولست أذكر

لك شيئاً عن تهكمه بفئة معلومة من الناس ، فاقرأه أنت في محله .

إن المتمشرق الذي قال للأستاذ زكي مبارك في النثر الفني : الأدب العربي رواسم — كلشيهات — مصيب جداً ، ولكنه بلا شك لم يقرأ الشدياق ليعلم أن فينا من خرج من الصيرة . ولو عرف صاحب لسان العرب أن الدهر سيلد لنا واحداً كالشدياق لما تجرأ أن يقول لنا : خذوا لغتكم من أعجمي ، فقد كشف الفارياق عورة هؤلاء العجم وفضحهم.

وقصارى القول كان المعلم جاحظياً نواسياً في فارياقه ، بطوطياً في واسطته وكشف مخباه ، متنبئياً في مدحه ، خليلياً في لغوياته ونحوه . وقد صدقت الإجبشيان غازت حين قالت : إذا وضعت الكتبة الإنجليز سكيت وأمرسون وواردزورت ووايلكلف وبلوتز في شخصية واحدة يمكنك حينئذ أن تتصور عظمة هذا الرجل . ولو ولد الشدياق في أوربا لدفن مع نخبة العظماء ، ولنصبت له التماثيل في مدن بلاده .

إن أحمد فارس ضخم مختوم كقبره ، يمر به الناس ولا يعرفونه ، وهو العارف بكل شيء ، وهو مثال العربي المثقف الكامل في القرن التاسع عشر . لا تقرأ كتبه من عنوانها ، فالجديد يقفز من بين سطورها قفز الأطلاء من دار خولة بالرقمتين . إن أحمد فارس كجبال لبنان ، في كل قرنة معنى خاص ، وفي كل واد صورة جديدة ، فعليك به كله ، فهو للقديم متجر ، وللجديد مكسب .

الأديب المترجم

استعانت به جمعية التوراة فوقف على ترجمتها التي أعجبت العلامة المطران يوسف الدبس، أما الشدياق فكان غير راض عن هذه الترجمة ، لأنه يكره الركاكة التي يضم بها رجال الدين في فارياقه . وها نحن نفسح له المجال ليدافع عن نفسه ، ويلقي التبعة على الدكتور « لي » :

وفي مثل قولنا « ضرب لهم مثلاً » كان يبدل ضرب بقال ، لأنه كان يترجم في عقله لفظ ضرب إلى لغته فلا يجد لها معنى سوى إيصال الألم . وكان يبدل « علم اعتقادهم » برأى اعتقادهم ، ويزعم أنها أبلغ في المعنى ، وأن الاعتقاد ليس بمرادف للايمان ، فإنه إنما ينظر إلى أصل اشتقاقه وهو العقد ، وهو غير مفيد معنى الإيمان . وكان يبدل « ماء البحر » بمياه البحر ، وهذا لا محظور منه إلا أن تبديله هوس . . . وكان يزعم أن لفظة « المعجزات » ليست من كلام النصارى حتى وجدناها في نسخة رومية . ومن أشد وساوسه تجنبه السجع والتركيب الفصيح غاية ما أمكن ، حتى إنه زعم أن ما في

الترجمة من قوله : « خرجتم إلي بعصي كلص » سجع ، وحاول تغييرها فلم يقدر فتركها وهو آسف . وكذا وهمه في : « نلت خيراتك في حياتك » فكان يقول : هو من السجع الذي يجب مجانبته في كلام الله تعالى . وكان كلما رأى كلمة أوجملة تنتهي بواو ونون أو ياء ونون يقول إنها مضاهية لكلام القرآن ، فيبدّلها ، حتى إنه رأى هذه الجملة وهي « وأنتم على ذلك شهود » فقال : إن هذا الوقف يشبه وقف القرآن ، فمن ثمّ بدلها بقوله : وأنتم شهود على هذا . ووجد عبارة أخرى وهي « وما أولئك بعابرين من هناك إلينا » فقال : هذا التركيب فصيح ! فبدل عابرين بيعبرون . ولم أتعجب من تغييره ، وإنما تعجبت من أنه شعر بحسن هذا التركيب .. (كشف المخبا ١٢٣ و ١٢٤)

لا بد وبر العرب

هذا ابن بيت قديم نكبته السياسة ، كما قلنا ، ولكنها تأصلت فيه ، فجاء سياسياً أباً عن جد ، والسياسيون المنكوبون في كل عصر يصبحون أفقر البرية متى انتزعت منهم أملاكهم ، كما حل ببيت الشدياق،فقد أخذ المير أملاكهم حتى لم يدع لهم بيتاً فغادر عشقوت واستقر في حارة البطم بحدث بيروت ، وورث فارس عن أبيه الذي مات في دمشق شهيد ثورة سياسية ، مكتبة ثمينة ، فصار نساخاً له وللناس . وضاق به المعاش فكان «عطاراً» يطوف الضيع خلف حمار ، ثم لم تربح تجارته فانقلب صاحب دكان ، وأخفق أيضاً فصار كاتباً لبعير بيعر — أميرحيدر — صاحب التاريخ الذي طبعته الحكومة اللبنانية مؤخراً — فنسخ له سفاسفه التي يحدثنا عنها في فارياقه ، وقد حدثنا عن غفلة أميره هذا ، وعن أشياء أخر ، لا محل لذكرها هنا ، فارجع إليها بنفسك فليس علي أن أزقك كالفرخ ، أما الآن فاسمع شيئاً من سفاسف بعير بيعر . مما كان يكتبه الفارياق في أساطير بعير بيعر أي في تاريخ المير حيدر :

« في هذا اليوم وهو الحادي عشر من أذار سنة ١٨١٨ قص فلان بن فلانة بنت فلانة ذنب حصانه الأشهب بعد إذ كان طويلا يكنس الأرض ، وفي ذلك اليوم عينه ركبه فكبا به » . إلخ !

« اليوم نظرت سفينة في البحر ماخرة ، فظن أنها بارجة قدمت من أحد مراسي فرنسا لتحرير أهل البلاد، لكن عندالتحقيق علم أنها إنما كانت زورقاً مشحوناً ببراميل فارغة ، وكان سبب قدومها للاستقاء من عين كذا » (الفارياق ٣٩ / ١) .

ونكب أخوه أسعد — كما مر — ففر من بلاده يطوف الدنيا ، وظل يشقى ويسعد

حتى مات أخيراً شبعان من كل شيء . فغير عجيب إذن إن لمحت فيما صنفه وكتبه دروساً عميقة لأخلاق الناس . قد عالج الكثير من شؤون النفس معالجة النطاسي الأخلاقي، ولو كان غير عربي لدرسته المدارس كما يدرسون لابروير ، وعول الناس على رأيه فيها كما كان يعول عليه في سياسة الشرق .

إن فصوله التي أذاعتها جوائبه تحت عنوان « جمل أدبية » وهي كثيرة تبتدئ غالباً بـ« من الناس » تنم عن عالم بسيكولوجي يحلل خوالج النفوس ويصورها بقلم غني جدًّا ، معتمداً في الغالب على عينه التي كانت تسبر الأعماق النفسانية ، فيدرك الكثير مما يمر به سواه ولا يرى فيه شيئاً .

أحمد المتمغرب

عجب الناس لهؤلاء المتمشرقين الذين درّسوا أدبنا وكتبوا بلغتنا . وتمنى الأستاذ إبرهيم المنذر — بمناسبة الكلام على كتاب « المستشرقون » النفيس للأستاذ العقيقي — أن يكون عندنا متمغربون . يا سبحان الله ! أما وجد الشيخ فينا متمغرباً ! أما رأى أولاده في بيته . . . إننا لأحوج إلى التمشرق .

فجبران متمغرب ، وغانم مثله ، والريحاني أيضاً ، والقرم وخلاط وفصيلتهما كذلك ، والسمعاني والحاقلاني ونوفل والتولاوي والفغالي متمغربون ، فما أكثر الغربيين فينا وأقل الشرقيين .

قد تمغربنا ، وكتبنا بلغة القوم كما كتب نوابغهم ، أما هؤلاء المتمشرقون فآثارهم أمامك ، وإن كنت لم ترها فارجع إلى الفارياق وكشف المخبا فعند أحمد الخبر اليقين . أما إذا كنت تبغي متمغرباً بالمعنى الأتم ، فها هو أمامك . هو ذلك الجهبذ — لم أجد لفظة أصلح منها فكأنها وضعت لتقال فيه — هو ذلك النائم في الحازمية نومة الأبد بعد ما ملأ الدنيا نصف قرن . هذا الذي تمغرب وثأر للشرق من كتاب الغرب ، وا كتشف من عيوبهم أكثر مما ا كتشفوا عندنا . ولكنه كان أعدل منهم ، فذكر ما لهم وما عليهم ، بينما هم لا يرون عندنا إلا المخازي والمعايب . قد زيف بضاعة المتمشرقين المزجاة ، فاقرأ تعلم أي مقدار من العلم بلغة العرب عند هؤلاء الذين نمشي وراءهم ولا نسأل إلى أين . فما رأيكم بواحد من هؤلاء يقرأ « حيل بينهما » جبل بينهما ! وذلك في قول الشاعر الأندلسي .

يارب أم وطفـــل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

ثم شرحه شرحاً وافياً ، فصرف ساعات تامة في شرح جملة غير تامة كما قال الشدياق . . . اقرؤا في الفارياق تلك العظة الشهيرة التي ألقاها أحد هؤلاء المتمشرقين في كنائسنا ، ولا ترموا شيخنا بالغلو . فقد سمعت بأذني الثنتين عظة مثلها . فهذا هو المتمغرب الكامل الثقافة .

عرف ابن زهير كما عرف شكسبير وملتون ولامرتين وفرجيل ، حتى حدثنا عن أدب الغرب وخص بالذكر منه الشعر ، ناعياً عليه رموزه وغموضه . إنه لم يترك شاردة ولا واردة ، وأذاع بالطبع كتباً عربية نفيسة كما أذاع المتمشرقون ، وحسبه أنه نشرها سالمة من فاحش الخطأ الذي لا يدركه أولئك .

وإني لأعجب من المتمشرق كراتشكوفسكي الذي عد شدياقنا من غير البلاد العربية . فلو قرأ الشدياق كلمته تلك لنهض من قبره يحمل إحدى الأسطوانتين . وأسمعه ما أسمع سواه من أهل زمانه . فالرجل يأبى أن ينسب إلى غير بلاده ولو أعطيته ملء الأرض ذهباً . وحسبنا دليلا على تعصبه لجبله أنه تمغرب بزيه الشرقي . وكم استغربوه ولم يبال . فليت من يشاء عملا يذكر أن يخوض في عباب سرلياله ويحدثنا عنه ، ولا بأس عليه إن قال : فيالك من ليل تمطى بصلبه . . . . .

خلقه وخلقه

من ينظر رأس أحمد فارس في صورته يخال أنه أمام جبار ، عبل الشوى كحصان عنتر ، ولكن من يقرأ شعره يعلم أنه أقل من مربوع . وإن تقل قد يبالغ الشاعر قلنا لك عليك بالفارياق (ص ٢٨٢ / ٢) فتقرأ : « قد كنت أظن أن صغر جثتك — يا فارياق — لا يكون موجباً لإنشاء تأليف كبير الحجم مثل هذا » . وبعد : فالرجال لا تباع بالذراع ولا تقاس بالأقدام . . . والذي تراءى لي من قراءة الرجل أنه متطرف في كل شيء ، متطرف في اجتهاده وجهاده ، متطرف في عزمه الذي لا يكل ولا يمل ، متطرف في مطالعاته ، متطرف في تأملاته ، متطرف في تعبيره وتفكيره ، يتخطى كالمنطيقي الزنديق ولا يسقط في يده . تسوؤه أقل بادرة فيشهر حرب البسوس ، وترضيه كلمة فيعفو وإذا بالماضي مضى ، يخلص لأصحابه الود ، ويغفر لمن أساء إليه إن استعطفه متذللا . الغريزة الجنسية عنده ملاك الحياة ، فهو لا يعنيه من هذا الوجود إلا ما تدركه الحواس . أما ماوراء الطبيعة فيرى البحث فيه تهليساً ومهارشة . حبه لعائلته يفوق الحد ، وقد عبر عنه بوعظه الأمراء في فارياقه ، وظهر لنا جلياً في حزنه

وبكائه على ولده فائز حين قابل الدكتور لي . لا يؤمن بالوحي ، ويخطىء ما لا يسلم به العقل . لو كان اليوم لضحك من أدبائنا الموسومين الذين يفتشون عن الله والآخرة .

جاء أحمد قبل الوقت فقاسى آلاماً وعذاباً ، وقال شيئاً وترك أشياء كانت تجول في صدره . وتقف على رأس لسانه ، وفي (المرآة في عكس التوراة) الذي أوصى أن لا يطبع إلا بعد وفاته . دليل على ما بقي في ذلك الدماغ . فالمحيط البيتي والبلدي وتلك النكبات المتتالية جعلت منه هذا الساخط الحانق ، وهو بطبعه يجيد الكلام متى حنق ، وقد أوتي قوة استطراد عجيبة ، فكانت سلاحه الماضي في منازلة خصومه . قد يكون حب المجون والأحماض من طبعه ، ولكن مكتبة والده التي عكف عليها صغيراً ، وهي حافلة بالكتب العربية القديمة ، كالكشكول والمستطرف وغيرهما ، قد أنمت هذا الذوق ، ثم عززه النسخ والقراءة ، فجاء صارخاً عجاجاً .

بين التجديد والتقليد

الفن لفظة جوفاء يستتر وراءها كل صفيق الفكر ، أما العبقري فيخلق فنه ، وعلى الذرية أن تضع المقاييس ، فشكسبير وراسين كانا قبل فرويد . وهكذا فعل نابغتنا العظيم ، ولكنه لم يجرؤ على الطفرة ، فوضع كما يقول الفلاح اللبناني : رجلا في الفلاحة ورجلا في البور . فرأيناه تارة يسجع ، وطوراً يدع السجع هازئاً ، ثم يعود إلى تلك الرجل الخشبية ، وكأنه يأبى إلا أن يكون له ما كان لأهل زمانه ، فكتب أربع مقامات ، ولكن في أغراض غير أغراضهم ، فطمست روح المعلم معالم التقاليد ، ولا عجب فهو ممن يصنعون القالب على الرجل ، لا الرجل على القالب .

وبينا نحن نقرأ ازدراءه القديم إذا بنا نراه ينهج نهجهم في عناوين كتبه : « الواسطة في أحوال مالطة » ، « كشف المخبا عن فنون أوربا » ، « سر الليال في القلب والإبدال » ، « السند الراوي في الصرف الفرنساوي » ، « الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنجليزية » ، وأخيراً « أغنية الطالب ومنية الراغب » — على وزن بحث المطالب إلخ . كل هذا يدلني على أن عقلنا مهما كبر وتجرد من قيود الماضي فلا بد أن يظل عالقاً بشيء منه فلا يتفلت منه بسهولة ، والخوف من الغد يزيد هذه الأمور تمكيناً. وإذا تساءلنا : هل الشدياق عالم أو فيلسوف أو مؤرخ ؟ رأيناه كل شيء من هذا وليس بشيء منه ، فهو لا تعنيه إلا أخلاق البشر من حيث الاجتماع فقط ، واستنباطه من الواقع . فالمرئيات كما قلنا نواة أدبه ، تلقى في أرض أسلوبه المغلال ، فتعطي الواحدة

مئة ، كالحبة التي ضربها الإنجيل مثلا . وقد تكون الفكرة مبتذلة فيجلوها المعلم ، كجنان النواسي ، فتفضح العروس وتفتن النظارة ..

ذوق الفني

لا أعلم لماذا يعجبني فن هذا الرجل ، فإذا قرأت الفارياق أنكرت أن يكون سيرة حياة ، فهو عندي قصة رائعة ، وهل نكتب غير قصتنا حين نكتب قصة غيرنا . ماذا كان يقصد أحمد فارس حين ترك الأرقام التاريخية في فارياقه ؟ وماذا كان يقصد حين جرد من نفسه شخصاً سماه الفارياق فكتب قصته بلسانه ؟ أي فن أراد ، وأي إحساس أحس حين فعل هذا ؟أما قرأت أن نقاد الغرب أعجبو اليوم بأندره موروا لأنه فعل ما فعله الشدياق منذ قرن ؟ إنني لواثق بأن شدياقنا كامل الذوق ، وهو لو لم ينفق جل حياته في شؤون أخرى لما قصر في الفن والأدب عن أعاظم رجاله اليوم . وإليك نموذجاً يدلك على ذوق إمامنا الفني . قال في الرقص :

« وكان للحاكم عادة — في مالطة — أن يدعو جميع المعروفين فى خدمته إلى ليلة عيد يرقص فيها الرجال والنساء بحضرته ، وكان من جملة المدعوين الفارياق وزوجته فلما رأت هذه الرجال يرقصون وهم مخاصرون للنساء قالت لزوجها : هل هؤلاء النساء أزواج هؤلاء الرجال ؟ قال : منهن هكذا ، ومنهن بخلاف ذلك . قالت : وكيف يخاصرونهن إذن ؟ قال ، هذه عادة القوم هنا وفي سائر بلاد الإفرنج . قالت : وبعد المخاصرة ما يكون منهم ؟ قال : لا أدري ، ولكن بعد انفضاض الناس يذهب كل إلى منزله . قالت : أشهد بالله إنه ما خاصر رجل امرأة إلا باطنها ! قال : لا تسيئي الظن ، إنها عادة مشوا عليها . قالت : نعم هي عادة ونعمت العادة ، ولكن كيف يكون إحساس المرأة حين يلمسها رجل جميل في خصرها ؟ قال : فقلت : لا أدري ، إنما أنا رجل لا امرأة . قالت : ولكن أنا أدري ، إن الخصر إنما جعله الله في الوسط مركزاً للاحساس الفوقي والتحتي ، ولذلك كانت النساء عند الرقص والقرص في أي موضع كان من أجسامهن يبدين الحركة في الخصر . ثم تنفست الصعداء وقالت : يا ليت أهلي علموني الرقص ، فما أرى فيه لأنثى نقص . فقلت : لو فتحت القاف في كل من المصراعين لكان بيتاً مطلقاً . . . فقالت : يا للفضيحة بين الأنام ، أتقول هذا الكلام في هذا المقام ! ! فقلت . هيت إلى البيت ، فقد كفاني الليلة ما سمعت وما رأيت . قالت : لا بد أن أرى ختام الرقص . قال : فلبثنا إلى الصباح ، ثم انصرفت بها فكانت تقول وهي سائرة : نساء

مع رجال راقصات ، رجال مع نساء راقصون ، راقصات راقصون راقصات . فقلت : فاعلات فاعلون فاعلات ! قالت : الرجال والنساء والبنون والبنات . كيف — متى — أين — » . أرأيت كيف يتحدث وينهي حديثه عن الرقص ، إنه رقص وزيادة . وهذا هو الفن الكامل — تبحر كثيراً في هذا الكلام لتفهم قليلا ، أو كلف أحد العارفين بشرحه لك ، وإلا فيا ضياع تعبي .

أحمد الهجاء

ما أحلى ترديد ما قاله لا مرتين حين قرأ «الشاتيمان» لفكتور هيجو ، ثلاثة آلاف بيت كلها سب ، هذا كثير . ونحن نقول : إن حملة الفارياق على أخصامه عنيفة جداً ، ولكن الرجل خلق هجاء ، والهجاء يدل كثيراً على الشاعر وهذا ما حملنا على خص هجاء أحمد بهذه الكلمة . الرجل سباب شتام حين يهجو ، فقلما يهزأ ويتهكم ، يهاجم الخصم فيكسره شر كسرة . لا حيلة ولا هوادة في الأمر . الحرب الكلامية عنده لا تطول ، دائماً المعركة الفاصلة . وما تخيلناه من تقلب طباعه يدلنا عليه تبادل الهجاء بينه وبين أديب إسحق ، الكاتب الذي نوه به أحمد . ثم قال يهجوه :

لو أن آدم عالم في أنه ستكون من أبنائه فيما غبر
لأباح حوا بالطلاق ثلاثة وأبى لأجلك أن يكون أبا البشر

فأجاب أديب :

عجباً هجوت وكنت قبلا مادحي لا بدع قبلي قد خدعت محمدا
ومكرت في عيسى وخنت أباك في لقب أخذت ولم يكن لك أحمدا

وظهرت في ذلك الزمان جريدة « برجيس باريس » فناوأته وتحدته فاسمع كيف يهجو صاحبها :

إذا البرجيس فاه سددت أنفي فإن بنتنه تعجيل حتفي
فما لعلاج ذاك الفتح منه سوى سد ، وبعض القول يكفي
صنان تشمئز النفس منه ويمنى كل ذي أنف برعف

وقال يهجو زميله المعلم بطرس البستاني ، المشهور بفضله وعلمه :

كابدت من زمني كوارث جمة وأمرها في مرها ثنتان
لغة « الجنان » إذا هذت في مدح قا رئ لغوها و « سياحة البستاني »

وانتقد الفارياق اليازجي الأب فقام ابنه إبرهيم يدافع عن والده فهجاه أحمد بقوله :

عجباً لمجترئ علي وما له عند البراز سوى عتاد هرائه
فكأنه الظربان معتمداً على دفع الملم به بريح فسائه .

لا ريب أنك لاحظت مثلي أن هجاء الفارياق يخلو من الحشو الذي يكثر فى شعره ، وهذا يجعلني أرى أن ظني في محله ، فالرجل كان قليل التنقيح . أما الشيخ إبرهيم فاعتزل هذه الحرب معتذراً اعتذاراً نبيلا فقال :

ليس الوقيعة من شأني ، فإن عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندي
إني أضن بعرضي أن يلم به غيري ، فهل أتولى خرقه بيدي

لسنا ننكر علم الشيخ إبرهيم وأدبه ، ولكننا نرى الأستاذ بطرس البستاني قد اشتط فى كتابه النفيس « أدباء العرب » إذ شبه مناظرة الشدياق واليازجي إبرهيم بمناظرة الخوارزمي والهمذاني ، فقد كان الشيخ إبرهيم يومئذ رخصاً والشدياق قارحاً . وإننا نحمد الله على نقد الشدياق الذي خلق لنا عالماً لغوياً نفتخر بتدقيقه كالشيخ إبرهيم وإنما الظروف والأحوال تخلق الرجال .

الى القارىء

لا تظنن بعد الذى قرأته أنك قرأت أحمد فارس أو عرفته ، لا والله ، فأحمد فارس لا يدرك جله ما لم يقرأ كله عشر مرات ، فهو جديد نفيس ، ولذلك هو غريب عنا.

حينما تقع فى أرض الشدياق تجد الجديد طعماً ولوناً ، فهو الأديب العديد النواحي كأدباء العالم ، بل يمتاز من أكثرهم بأسلوبه الذي يغريك فتقرأ غصباً عنك، إنه لا يمل حتى في « جمله السياسية » وأخباره المحلية ، يقدمها لك في أجمل صحن مبهرة مفلفلة . . وقد عرف الأستاذ حاله فوصفها لنا بقوله :

. ما راج من قولي نخذه ، وما تجد من زائف فاتركه لي ملفوفا
لا بد أن تجد الصيارف مرة بين الدراهم درهماً مزيوفا
إن المصنف لا يكون مصنفاً إلا إذا جعل الكلام صنوفا

فما أكثر صنوف الشيخ ، الشخصية كلها متجسدة فيها ، ولذلك نحني الرأس إجلالا أمام هذا العبقري قائلين : الله أكبر يا أحمد !

مارون عبود

وصية الملكة ماري أنطوانيت كيف سرقت وكيف عثر عليها

للدكتور محمد غلاب

عثر بعض المنقبين في إحدى المكتبات الخاصة منذ بضعة أعوام على رسالة يرجح المؤرخون الأدقاء أنها هي الوصية التي كتبتها ماري أنطوانيت ملكة فرنسا بخطها في الليلة الأخيرة من حياتها ، والتي تحدث عنها التاريخ بعد أن رجع إلى الأمة هدوؤها ، فأعاد هذا الكشف إلى الأذهان من أحداث الثورة الفرنسية المروعة ذكرى ذلك الجانب المؤثر الذي سنحاول هنا أن نرسم منه صورة صادقه بقدر المستطاع ، معتمدين في ذلك على أدق المؤرخين الذين أوشكت أمانتهم في النقل والتحري أن تصل إلى حد الوسوسة ، كالمؤرخين الشهيرين : « لينوتر » Lenôtre و « فنك برنتانو » Funck-Brentano وإليك هذه الصورة :

نحن في أكتوبر سنة ١٧٩٣ ، أي في أشد أيام الثورة حلوكة ، وأكثرها فزعاً ، وأفظعها طغياناً ، حيث كان الأمر كله قد تم لـ « روبسبير » Robespierre ودانتون Danton ومن ورائهما حزبهما المفرط في القسوة والجبروت ، وها هو ذا أصبح اليوم السادس عشر من أكتوبر قد بدأ يتنفس ويسكب الطلائع الأولى من أشعة النهار على سجن « الكونسييرجيري » Conciergerie الأسود المنتصب على شاطىء السين في عبوس وتجهم ، يقبض منظرها النفوس ، ويضيق الصدور . ولقد كان ذلك المبنى الرهيب مقراً للمحكمة الثورية التي كانت تبت في أمر الحياة والموت بكلمة واحدة كأنها القضاء المبرم والقدر المحتوم ، وكان كذلك بمثابة معبر يجتاز عليه التعساء الفراغ الذي يفصل بين الدنيا والآخرة ، والذي تخرج من بابه في كل يوم المركبات المشؤومة زاخرة بالضحايا إلى حيث تنتظرهم المقصلة التي لا تألف الرحمة ولا تعرف الشفقة .

في تلك الليلة النكراء مثل « هرمان » Herman رئيس المحكمة الثورية أمام الملكة ماري أنطوانيت وتلا عليها نص الحكم بالإعدام ، فاستمعت إليه حتى نهايته دون رهبة أو ضعف أو غضب ، كما شهد بذلك التاريخ النزيه . وبعد أن انتهى الخصم والحكم من تلاوة حكمه ، اقتيدت الملكة — وكان الإعياء قد نال منها — إلى حجرتها . وعلى أثر انفرادها بنفسها شرعت تكتب هذه الوصية التي نحن بصددها ، ولما كانت تعلم أن هذه هي ساعاتها الأخيرة على ظهر الأرض ، فقد كتبت تلك الوثيقة التاريخية في صورة رسالة وجهتها إلى شقيقة زوجها « أليزابيث » Elisabeth تلك الأميرة العطوفة الوفية التقية التي كانت مثلاً أعلى من أمثلة الطهر والنقاء ، والتي لم تعرف في حياتها سوى حب واحد ، وهو حب شقيقها الملك « لويس السادس عشر » Louis XVI السيء الطالع ، فقد تبعته إلى كل مكان وساهمت في حظه — عن طيب خاطر — بنصيب موفور ، وكانت ساعة كتابة الرسالة تقاسم ولي العهد وشقيقته سجنهما في برج التمبل Temple وهاك نص تلك الرسالة :

« إنما إليك أيتها الأخت العزيزة أكتب للمرة الأخيرة ، فلقد حكم عليّ منذ هنية ولكن لا بالموت المخجل ، لأن ذلك مقصور على المجرمين ، بل بالرحيل للالتقاء بشقيقك ✲ . . نعم إنني أشعر بأسف عميق لفراق ولديّ البائسين ، ولا سيما أني علمت في أثناء نظر القضية أن ابنتي قد انتزعت منك ، فوا أسفاه على هذه الطفلة المسكينة . . إنني أتمنى أن لا ينسى ابني أبداً كلمات والده الأخيرة ، وهي أن لا يحاول البتة أن يثأر لنا . فأنا قد عفوت عن أعدائي . . وداعاً أيتها الأخت الخيرة العطوفة ، إنني أرجو أن تصل إليك هذه الرسالة ، اذكريني دائماً ، فأنا أقبلك من أعماق قلبي كما أقبل ولديّ العزيزين التعسين .. ياإلهي كم يمزق فراقهما إلى الأبد فؤادي ! .. »

لم تكد ماري أنطوانيت تنتهي من كتابة رسالتها حتى كان الصباح قد بدأ يزحزح نقاب الظلام عن وجه النهار ، وإذذاك أقبل « بولت » حارس باب السجن يتبعه مساعدو الجلاد ليقصوا شعر الملكة التعسة الذي كان فتنة للعيون وسحراً للقلوب ، ثم شيبته الأيام السود والليالي النكراء قبل الأوان . ولما كان هذا الحارس وزوجته وابنته قد احتفظوا بشيء من إنسانيتهم نحو الملكة ، ولم ينقلبوا وحوشاً ضارية كغيرهم ، فقد أسرت إليه تلك الرسالة خلسة ، ولكنه رغم هذه العاطفة الخيرة قد تردد بعد تناوله

✲ تقصد الملكة بهذه العبارة أن تنفيذ هذا الحكم فيها سيلحقها بزوجها لويس السادس عشر الذي كان قد قتل منذ اليوم الحادي والعشرين من شهر يناير سنة ١٧٩٣

إياها ، وساءل نفسه ماذا يصنع بهذه الوديعة النفيسة ، وربتها المنكودة تتجه الآن نحو مصيرها بهذه الشجاعة وتلك العزة وهاتيك الكرامة ، التي هي الطابع المميز للعناصر العريقة والأرومات الماجدة !؟ غير أنه ينبغي أن نسجل هنا أن مبعث تردد هذا الحارس هو فزعه من أولئك الرؤساء القساة ، ولا سيما «فوكييه ـ تنفيل» Fouquier-Tinville ذلك المدعى العمومي الذي كان يعد أشد أعضاء المحكمة الثورية قسوة وإرهاباً ، خصوصاً أن « بولت » لم يكن بعد قد نسي ذلك اليوم الأغبر الذي اتجه فيه إلى هذا الطاغية يتوسل إليه أن يمنح الملكة غطاء في سجنها ، فأجابه بقوله : إن هذا السعي من جانبك كاف لأن يصعد بك إلى المقصلة ! ولهذا كان من الطبيعي أن ينزعج ذلك الحارس من فداحة المسؤولية التي ألقيت على كاهله بتسلمه هذه الرسالة ، وأن يوقن بأن مجرد نسبة إحرازها إليه يودي بحياته في الحال ، وهذا هو الذي دار بخلده ، فلم يتردد في أن يقصد تواً إلى مسكن فوكييه ـ تنفيل ، وكان يقيم في جناح يشغل برجين من أبراج الكونسيرجيري ، وهما برج قيصر وبرج الفضة ، فألفاه في مكتبه ، وكان لا يزال مهتاجاً من أثر جلسة الليلة الماضية التي بات يجاهد فيها حتى ظفر برأس «النمسوية»* ، ولم يكد نظر الحارس يقع على هذا الوحش الضاري الماثل في صورة إنسان ذي جبهة ضيقة وعينين مستديرتين نفاذتين تنخفض أمامهما كل النظرات ، حتى تملكه الفزع واستولى عليه الانزعاج . ولقد صوره لنا الأستاذ لينوتر في تلك الحالة فقال : « إنه كان منحنياً على أعماله كأنه ثور تحت النير ، وكان — وهو يعد ضحاياه بدون انقطاع — يهتف في نفسه قائلا : « ينبغي أن يسير كل شيء على عجل ، إذ يلزم أربعمائة رأس في هذه الأيام العشرة ، وأربعمائة وخمسون في العشرة التي تليها » .

وأيا ما كان ، فقد قدم إليه الحارس تلك الرسالة ، وكانت آثار العبرات الملكية لا تزال بادية على صفحتها ، فتناولها منه في شراهة ، وألقى عليها نظرة عاجلة ، ثم وقعها بإمضائه ، وقذف بها في أحد أدراج مكتبه إلى جانب خصلة من شعر ماري أنطوانيت ، وقفاز لولي العهد كان قد أتى به إليه من سجن التمبل .

وعلى أثر تخلص بولت ، من عبئه خرج يترنح من الرعب ، وحينئذ التقى بزوجته التي كانت قد قلقت لطول غيبته وجعلت تتلمس أنباءه ، فلما رآها قال لها تلك العبارة التي حفظتها ذاكرة التاريخ في أمانة ووفاء ، وهي : «إن مليكتك المسكينة قد كتبت رسالة ووكلتها إليَّ ، ولكني لم أستطع أن أبلغ بها غايتها ، فرأيت أن أقدمها إلى فوكييه » .

---

* لما كانت الملكة أنطوانيت ابنة لإمبراطور النمسا ، فقد كان الثوار يدعونها بالنمسوية .

٭٭٭

مضى على هذا العهد زهاء سبعة أشهر ، والأميرة « أليزابيث » لا تزال رهينة سجن التمبل دون أن تعلم شيئاً عن إعدام الملكة . وهذا طبيعي مادامت الرسالة لم تصل إليها ، وفوق ذلك فإن القابضين على أزمة الأمور قد فرقوا بينها وبين ولدي شقيقها العزيزين ، وفي اليوم التاسع من شهر مايو سنة ١٧٩٤ جاء دورها فنقلت إلى سجن الكونسيرجيري ، وفي اليوم التالي قبل صعودها إلى مركبة الموت لتذهب بها إلى ميدان الثورة [١] كلفت ريشار الحارس الجديد — كما يحدثنا لينوتر — بإبلاغ عواطفها الصادقة إلى أختها الملكة ، وكانت بصحبتها في المركبة إذذاك « مدام دي سيزونان ، شقيقة الوزير العظيم النبيل . . « مالرب »[٢] Malesherbes فقالت لها : «ياسيدتي إن أختك قد خضعت من قبل لنفس القدر الذي سنخضع له نحن الآن » . ولا ريب أن المؤرخين قد اتخذوا من هذا المنظر برهاناً قاطعاً على أن رسالة الملكة لم تصل إلى الأميرة أليزابيث ، وعلى أن فوكييه — باحتفاظه بهذه الرسالة الخاصة — قد ارتكب جناية يعاقب عليها القانون ، ولكن أ كان من الممكن أن يتحدث أحد عن القانون في عهد الثورة ؟ أو لم يكن القانون إذذاك مؤلفاً من أهواء المنتصرين ورغبات الجلادين الحانقين ؟ . ولما كان فوكييه أحد الأدوات الطيعة للسلطة الثورية من جهة ، ووفيا لروبسبير إلى حد الفدائية من جهة أخرى ، فقد وضع بين يديه هذه الرسالة في فتور لا يعرف إلى تأنيب الضمير سبيلا .

استمرت الثورة في طريقها الخطر تحصد الأخضر واليابس ، فقبل أن تأتي على خصومها أخذت تلتهم أصدقاءها في نهم لايعرف الاعتدال ، كأنها « كرونوس » الذي تحدثنا الأساطير الهيلينية أنه التهم أبناءه ، فلم يمض على إعدام الملكة ماري أنطوانيت غير أسبوعين حتى كان زعماء الجيرنديين Les Girondins قد أصعدوا في ٣١ أكتوبر سنة ١٧٩٣ إلى المقصلة مترنمين بتلك الأنشودة الوطنية الساحرة،التي أطلق عليها منذ ذلك الحين أنشودة الجيرنديين . وفي أبريل سنة ١٧٩٤ تحدث دنتون عن الرحمة ، فكان ذلك سبباً كافياً لإصعاده بدوره إلى المقصلة . وإذذاك انفرد روبسبير بالسلطان ، ولكن

---

(١) كان هذا الميدان في عصر الملكية يدعى بميدان لويس الخامس عشر ، ثم أطلق عليه الثوار اسم ميدان الثورة ، وهو اليوم ميدان الكنكرد .

(٢) كان هذا الرجل أحد وزراء لويس السادس عشر ، فلما جاء موعد محاكمته دفعت به الشهامة والأريحية إلى التطوع للدفاع عنه أمام المحكمة الثورية ، وكان ذلك بلاريب سبباً في اصعاده هو وغيره من أفراد أسرته الى المقصلة في سنة ١٧٩٤

لا إلى عهد طويل ، إذ أن عدداً من النواب — وبينهم من لا خلق لهم كـ « تاليان » Tallien و « باراس » Barras قد أحسوا بالخطر يتهدد حياتهم ، فألفوا فيما بينهم حلفاً على أن يتخلصوا من طغيان روبسبير وصديقه سان جوست St. Just وفي السابع والعشرين من شهر يولية سنة ١٧٩٤ نجحوا في قهرهما وإنزالهما عن السطان ، ثم قبضوا عليهما وأصعدوهما إلى المقصلة ، حيث لقيا مصيرهما المحتوم في اليوم التالي .

وبعد مضي أربعة عشر يوماً على إعدام روبسبير ، انتدب المشرفون على الأمور ثلاثة من النواب بينهم ، كرتوا Courtois وهو أحد ممثلي مدينة أرسيس سور أوب ، مسقط رأس دنتون ، ليقوموا بتفتيش تلك الحجرة المتواضعة التي شغلها روبسبير في منزل النجار ، دبليه ، إبان سلطانه ، وبينما كان رفيقا كرتوا — وهما أقل منه دقة وذكاء — يفتشان في الأدراج كان هو معنياً بفتح حشيات السرير للبحث في داخلها ، وفي ذلك المخبأ الحصين عثر على عدة أشياء ، من بينها تلك الرسالة ، فاحتفظ بها لنفسه ولم يطلع عليها أحداً ، وهكذا سرقت تلك الرسالة للمرة الثالثة بعد فوكييه وروبسبير .

***

انقضى على هذا العهد الملتهب اثنتان وعشرون سنة . فنحن الآن في سنة ١٨١٦ وقد انهزم نابليون رغم عبقريته ومواهبه ، وابتعد عن السلطان نهائياً وارتحل إلى منفاه في جزيرة القديسة هيلانة ، المتغلغلة في غيابات المحيط الإطلنطي ، وعادت الملكية الشرعية إلى عرش فرنسا منتصرة ، فصعد عليه « لويس الثامن عشر » شقيق « لويس السادس عشر » الذي أعدم ، وهذا طبيعي ما دام أن ولي العهد مات صبياً في سجن التمبل . وفي ذلك الحين كان كرتوا ، قد صار شيخاً ثرياً ، فاعتزل الحياة العامة ، وأقام مع ابنه وزوجه في منزل فخم بقرية صغيرة على مقربة من مدينة فردان .

وفي التاسع من فبراير سنة ١٨١٦ ، وبينما هم على هذه الحال في منزلهم الهادئ إذا بكوكبة من رجال الشرطة ، يقودها أحد الضباط وتتبعها مركبة مغلقة تحمل البارون دي بنوا le Baron de Benoist مندوباً من لدن الملك ، قد أحدقت بالمنزل إحداق السوار بالمعصم ، ثم سأل الضابط ولد كرتوا عن أبيه ، فأنبأه بأنه مريض ، وإذذاك أنذره بأنه مكلف تفتيش مسكنهم ، وكان كرتوا نفسه هو الذي كتب إلى أحد مستشاري الدولة يبوح له بأن لديه تذكاراً هاماً يخص البيت المالك ، فلما رأى أن الحكومة قد بعثت إليه بقوة مسلحة بدلاً من أن تفاوضه في رد ذلك التذكار كما كان يأمل ، صمم على تقديمه ، محتجاً لدى المندوب على هذا التصرف من جانب ولاة الأمور ،

معلناً أنه لم يكن في نيته إلا رفعه إلى صاحب الجلالة بعد أن حفظه كل هذا الزمن الطويل من عوادي الأخطار . ومن آيات ذلك أنه هـو الذي بدأ بإخطار المستشار . ولما سئل عن السر في صمته طيلة هذه السنين أجاب في لهجة مضطربة : إنه قد فكر من قبل في إعادة هذا التذكار الشاهد بأكبر الفواجع إلى أمراء البيت المالك ، ولـكن لما كان هؤلاء في منفاهم طول حقبة الإمبراطورية ، فإنه لم يستطع أن ينفذ ما كان قد فكر فيه ، وبعد ذلك ضل عنه في أثناء انتقاله من مثوى إلى آخر ، ولم يعثر عليه إلا منذ عهد قريب . وأخيراً أخرج من أحد المخابئ تلك الرسالة وخصلة الشعر وقفاز ولي العهد ، وقدمها إلى مندوب الملك ، وبعد أن فحص البارون دي بنوا هذه المخلفات بدقة ووضعها في غلاف وختم عليها بالشمع في عناية ، أعلن أنه لن يقبض عليه مراعاة لحالته الصحية*، ثم حملها إلى دار محافظة المقاطعة ، وهناك عين رسولاً للرحيل بها تواً إلى باريس ، حيث كان القصر في انتظارها ، ولم يكد الرسول يصل إلى العاصمة حتى استدعي في الحال إلى الديوان الملـكي ، وكان لويس الثامن عشر جالساً في مكتبه ، وعن يمينه دوقة دى أنجوليم أو ابنة لويس السادس عشر، وماری انطوانيت ، وهي الوحيدة التي نجت من مخالب الثورة ، وعن شماله الدوق « دی ریشیلیو » ، رئيس الوزراء . ولما مثل الرسول بين يدي الملك قدم إليه ذلك الغلاف المختوم ، فتناوله وفضه وجعل يستيقن من حقيقة ما فيه ، ثم طفق يتلو رسالة الملـكة بصوت مسموع ، وحينئذ بلغ التأثر بالدوقة أقصى مبلغ ، وتمثلت أمام عينيها ذكريات الماضي الرهيبة التي لم تنس منها شيئاً ، فأغمى عليها .

وعلى أثر إيقان الملك بحقيقة هذه الرسالة أمر أن تتلى في جلسة رسمية على أعضاء مجلس الأشراف ، ولـكن مصيرها بعد ذلك ظل مجهولا في غياهب ثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧٠ إلى أن اكتشفت منذ أعوام في إحدى المـكتبات الخاصة ، كما ألمعنا إلى ذلك في مطلع هذه الكلمة .

محمد غلاب

---

* لم يقبض على كرتوا في ذلك اليوم ، ولـكن الأوامر العليا لم تلبث أن صدرت بنفيه من الدولة وفي ٢٠ فبراير اتخذ سبيله إلى منفاه في بلجيكا يرافقه ابنه و خادم شيخ ، لأن زوجه كانت قد توفيت ولـكن السلطات سمحت له بأن يحمل معه ما شاء من ثروته وأمتعته . ولقد كان إثم كرتوا الذي اقترفه بسرقة هذه الرسالة سبباً في أن مدينة أرسيس — سور — وهي مسقط رأسه ورأس دنتون ، لم تكن فخورة بالأول لوضاعته ، وكانت متباهية بالثاني لصراحته وإخلاصه ، فأقامت له تمثالا .

إعذار

لعروة بن أذينة

إنَّ التي زعمتْ فؤادك ملَّها	جعلتْ هواكَ كما جعلتَ هوى لها
فبك الذي زعمتْ بها وكلاكما	يُبدي لصاحبهِ الصبابةَ كلَّها
ويبيتُ بين جوانحي حبٌّ لها	لو كان تحت فراشِها لأقلَّها
ولعمرها لو كان حبُّك فوقها	يوماً وقد ضحيتْ إذن لأظلَّها
وإذا وجدتَ لها وساوسَ سلوةٍ	شفعَ الفؤاد إلى الضميرِ فسلَّها
بيضاء باكرها النعيمُ فصاغها	بلباقـــــةٍ فأدقَّها وأجلَّها
لما عرضتُ مسلّماً لي حاجة	أرجو معونتها وأخشى ذلَّها
منعتْ تحيّتها فقلتُ لصاحبي	ما كان أكثرَها لنا وأقلَّها
فدنا فقال لعلّها معذورةٌ	من أجلِ رقيبتِها فقلتُ لعلَّها

☆ هو الفقيه المحدث الشاعر، وكان شاعراً غزلا مقدماً من شعراء أهل المدينة، وكان ثقة ثبتاً، روى عنه مالك وغيره.

فتية النيل

للأستاذ سليم الزركلي بدمشق

عللينا بباسمات الأماني يا سماء الخطوب والأحزان
هادنينا لعل نلمح نوراً في ضباب الهموم والأشجان
ما عهدنا السماء تطفح بالشـ ـرِّ وفيها مواطرُ الإحسان
نحنُ ، مَن نحنُ ؟ أمّةٌ سطع المجـ ـدُ قديماً بها سريَّ المعاني
عجمَتْنا يدُ الزمانِ فآبتْ بحديدٍ من اللظى والسِّنان
فإذا نحن في انقضاضِ المنايا لا نبالي طوارقَ الحدَثانِ
نمنحُ الدهرَ عزمةً ، ومضاءً ، وإباءً ، ومهجةً من أمان

* * *

فتيةَ العُرْبِ يا لُبابَ المروءا ت ، ويا ومضةَ الرِّضا والحنانِ
يا مُنى المجدِ ، عدّةً وعديداً ومِدادَ الثغورِ يومَ الطِّعانِ
ما لأبناء يعرب وأدوا المَجْـ ـدَ وآبوا بالضَّعف والخذلانِ ؟
صانعوا الغربَ ، فاستذلّهمُ الغر بُ ، وداسوا معاقدَ التيجانِ
آنَ للعُرْبِ أن تثورَ على الضيْـ ـمِ وتطغى على الأذى والهوان
آن للعُرْبِ أن يُهيبَ بها العـ ـزُّ فتزهى على الشموس الرواني
غفَلاتُ النعيمِ تذهبُ بالملـ ـكِ وتطوي بالتاج والصولجانِ

* * *

« فتيةَ النِّيل » يا دعائمَ مصرٍ يا خيارَ الأنصار والأعوانِ

يا ليوثَ الجهاد ، يا صرخةَ الآ مال ، يا فرحةَ الصباح الدّاني

قُبلةَ الشّوقِ والهوى والأماني وسلامَ الإخوانِ للإخوانِ

ٱلمغاني تذوبُ وجداً إليكم فانزلوها ، ورحّبي يا مغاني !

والشباب الذي تحفّزَ للمجـ د مُعافى من الونىٰ والتّواني

يَحْطمُ القيدَ خيرَ من حَطمَ القيـ دَ ، ويمشي على هدىٰ الفُرقانِ

يصرعُ البغيَ أو ينالَ مناه وهو ثَبْتُ الرجاء والإيمانِ

يبسُطُ الرّوحَ والضميرَ يُحيِّي بِكُمُ المجدَ ساميَ الأركانِ

عاهدوه على الحياةِ جميعاً تَحْيَ فيكمْ كرامةُ الأوطانِ

* * *

ذَلّ مَنْ يحسبُ الحياةَ خلوداً في خمولٍ ، أو عالَماً من أماني

الحياةُ الكفاحُ في طَلَبِ المجـ دِ وبَسْطِ النفوذِ والسُّلطانِ

فالكفاحَ الكفاحَ يا أمّةَ النُّوْ رِ ، ويا شُعْلَةَ الغدِ الإضْحيانِ

أسمعونا نشيدَكمْ يملأْ الأر ضَ فيغدو الوجودُ في ثَوَرانِ

أرأيْتَ البُركانَ يقذفُ بالجمـ رِ ، ويرمي الفضاءَ بالنّيرانِ

صرخاتُ الخلودِ ضَجّ صداها في رحيبِ الأجْواءِ والأكوانِ

نحنُ رمزُ الجهادِ ، رمزُ الأضاحي ونظامُ الورىٰ ، وسلكُ الزّمانِ

سليم الزركلي

أنشودة الكون

مرفوعة إلى الإخلاص المتجلي في الشباب السوري لذكرى يوم الجلاء .

للأستاذ محمد علي الحوماني ببيروت

يومك الضاحك في « نيسان » أنسى   كلَّ باكٍ دمعَه ؛ حتى « فرنسا »

قبستْ منه الليالي قمراً   وبدا في مطلع الأيَّام شمسا

يا دمشق : ابتهجي في عُرُسٍ   هلَّل الكونُ له ، جنًّا وإنسا

نبّهي « فيصلَ » من هجعتهِ   وأحِلِّيه حشا الجوزاءِ رَمْسا

دمكِ الزاكي الذي أهرقتهِ   أينعَ المجدُ به واخضلَّ غرْسا

لاح في وجه الأماني غرّةً   وشفاهاً في فم الأحلام لُعْسا

هتف الكون به أنشودةً   عذبتْ في مسمع الأيَّام جرْسا

يتبنَّى لحنهاَ كلُّ فمٍ   عبقريٍّ صبّح الفنَّ ومسَّى

* * *

رُبَّ دمعٍ حالَت الأرضُ بهِ   أفقاً رصَّع بالنجم الدِّرَفْسا

ودماءٌ ولغ الظلم بها   فمشتْ في خلَدِ التاريخِ قدسا

يا لِأعوامٍ طوالٍ عبثتْ   بالحِفاظ المرّ ، عشرين وخمسا

حسبتْهُ صخرةً حتى إذا   زحزحته كان من « ثهلان » أرسى

ما جلت عنها ولكن عصفتْ   بالذرى أمّ القرى تمعن كنسا

يا فرنسا لك في أعماقنا   وعلى الآماق جرح ليس يؤسى

كان بالأمسِ يغذينا دماً   فاسألينا اليوم عنه كيف أمسى ؟ !

اتخذنا الحبْرَ من أحداقنا أسودَ العينين والأبيضَ طرسا
ثم سجّلنا به أعمالكم فملأنا الكون آلاماً وبؤسا
وندبنا الجنّ والإنس لها فإذا كلٌّ بكلٍّ يتأسى
وإذا وجه الثرى يَندى دماً والسما ، حتى السما تنبت ورسا
نشطت « جِلّق » من أصفادكمْ وستقفوها « رباطٌ » وَبَلَنسا
وستلقى ، سفُنٌ أرستْ على ثغر بيروتَ ، لدى « وهرانَ » مرسى
وسيصحو القدر اللاهي بنا ويرى اللهو بكم أعذبَ كأسا

✲ ✲ ✲

أيها الباكي على « أندلسٍ » وعلى « تونسَ » هوِّن وتأسَّى
وثب الضيغمُ من مكمنهِ وانتهى زمجرةً ما كان همسا
كل شبلٍ تقذف الشامُ بهِ هو صخرٌ عوّذته ألف « خنسا »
هكذا كنا ولم يبرح لنا خلقٌ كالصخر أو أخشنَ مساً
لا يحاول مضغه ذو حنقٍ إنه من حسك الفولاذ أقسى

✲ ✲ ✲

يا حماة المجد لا تُبقوا على ذنَبٍ يوشك أن يصبح رأسا
كل عينٍ خَزِرت مما ترى أطفئوا إنسانها كيلا تجسا
عصب الشاعر ، مهما عصفتْ نوبُ الدهر به . أصدق حِساً
أنسيتم حَدَث الشام ؟ ! وهل حَدَثُ الشام على التاريخ يُنسى
يومَ سالت بالظبى أنفسكمْ وتغشاها الردى نفساً فنفسا
إن مَن أزهقها لما يزلْ ممعناً في نهشها ناباً وضرساً

محمد علي الحوماني

دمعة على قبرها

للأستاذ محمود حسين مرعي

وأغفى بنو الدنيا عيوناً وخاطراً — على راحة الليل الذي ظلّ صاحيا
وساءلتُ قلبي وهو في سجن أضلعي — أتقطعُ هذا الليل يا قلبُ باكيا !؟
فدى لك دمعُ العين والسهد والأسى — وأرخصْ به بذلاً لدمعك فاديا
صحبتكَ يا قلبي وليداً ويافعاً — وشيعتُ آمالي أسًى وغراميا
وطفتُ مع الأيام أشربُ صابها — جهاداً وأطوي راحةَ النفس ذاويا
وما هذه الأيام إلا معاولٌ — تهدّم صرحَ العمر في الدهرِ عاتيا
فقال ولم تكففْ غواربُ دمعهِ — مضى العامُ والذكرى أثارت حنانيا
عذرتكَ قلبي فابْكِ ما شئت روحها — وهيَّا إلى قبرٍ حوى الجسم باليا
هناك تلاقي الموت والحب والأسى — وهبتْ ليالٍ كنَّ قبلُ غوافيا
ومزّقتُ أستار الفناء وعانقتْ — على البعد روحي روحها في ابتهاليا
وناديت أيامي وكنّ شوارداً — وأدنيتُ حتى لا أحسُّ مكانيا
شكوتُ لها الدنيا وكانت بروحها — خميلة حبٍ طرت فيها لياليا
وهل في جمال الكون معنى أحسّهُ — إذا لم يكن فيه هواكِ معانيا ! ؟
أحسّك حولي في الحياة كأنما — تناثرتِ فيها رحمةً وأمانيا
وفي غمرة الدنيا أحسّك فكرةً — تطهّر أفكاري وتهدي حياتيا
وما كنتِ أنثى في حياتي وإنما — تملَّتك روحي رقةً وتساميا
وما كنتِ أنثى يوقظ الجسمَ حسنها — بعيني ويدعو للهيب دمائيا
ولكن أغاريدٌ وصفوٌ وسلوةٌ — وأنسامُ جنّاتٍ تضمُّ جناحيا

ذكرتكِ والآلامُ حولك تحتسي صباكِ وساقي الموت يهتف داعيا
فما كنتِ إلا الصبر يسمو على الردى ويبسم للآلامِ غرثى صواديا
كأني على الدنيا تهاويلُ ملحدٍ تطوف ولا تلقى من الدين واعيا
وقد كنت مأوى القلب حتى كأنهُ لعطفك نشوانٌ يرى الكونَ لاهيا
وقالوا ستنساها فللعيش غمرةٌ وللدهرِ إعصارٌ يموجُ مآسيا
وما كنتِ إلا الخلد في ثوب زائلٍ لجسمك فانٍ والمعاني كما هيا
وما كنتِ أنثى يبذل الجسمَ حبُّها ويرخص حسناً من عفافك حاليا
وكنتِ كزهر الروض يبذل عطرَهُ حناناً ويأبى شوكه الغض عاديا
يدير بنا الدنيا على السخط والرضى جديدان يمشي فيهما الموت ماحيا
فإن وَهَبانا ساعةً في رحابها نعيماً سكبنا بعدها الدمعَ غاليا
وما كنت إلا ساعةً عاطفيةً نسيتُ بها الدنيا وفضتُ أغانيا
وجاسبني دهري عليك ولم يزلْ سهادي وحزني يحرقان جنانيا
وأسمار قلبينا وقد تمل الدجى من الصمت والآلام هجن مآقيا

***

أصيخي فروحي من ثرى الجسم حرّرت وذكراكِ ألقتْ للشجون فؤاديا
وما أنا عند القبرِ إلا كوامنٌ من الشوق تهفو للحطام جواثيا
تدور على الدنيا حياتي فلا ترى على الأرض قلباً ساميَ الحب حانيا
كأن لم يكن حي سواك فأقفرتْ مغاني الهوى والكون أصبح خاليا
وقد كنتِ أفراحاً على كل منظرٍ وكنت أريجاً يملأ النفس ناديا
وما الحب إلا سبحةٌ شاعريةٌ تضم بها روحان في الحس ساميا
ستمضي حياتي في العواصف والرؤى وذكراكِ نجم يسبح العمرَ باقيا

محمود حسين مرعي

الموجة الراقصة

« إلى الإسرائيلية الحسناء الراقصة مع الأمواج في شاطىء سيدي جابر »

للأستاذ حسن كامل الصيرفي

هَزَأَ الموجُ فاُسْبَحِي وسَجَا البحرُ فامْرَحي !

أنتِ في الماءِ رقصةٌ حُرَّةٌ فوق مَسْرَحِ

ضجّةُ البحرِ عندما تتهادَيْنَ تَمَّحِي

هو شَمْشُونُ فاهْزَئِي في هــواهُ المبرِّحِ

بالقُوَى منهُ واُسْبَحي كالخيال المُجَنَّحِ !

* * *

حَدِّثي الموجَ حَدِّثي واكشفِي السِّرَّ واُشْرَحي

لا تظنّيـــــهِ مُعْلِناً ما تَبُثِّين فافْرَحي

أنتما سِرُّ ساحرٍ سِتْرُهُ لم يُزَحْزَحِ

أنتِ كالبحرِ عَالَمٌ مُغْرِبٌ غيرُ مُفْصِحِ

* * *

مَتِّعِي النفسَ مَتِّعِي وانْزَعي القيْدَ واطْرَحي

سِحْرُ موسى مُخَلَّدٌ في الجمالِ المُسَرَّحِ

فافْرِقِي الماءَ واُهبِطي واُضْرِبِي الموجَ واُسْبَحي

واُضحكي الآن وافْرحي واُرْدَحي اليوم واُمْرَحي

فِتَنُ الصَّيْفِ نهبَةٌ للخريف المُصَوِّحِ

حسن كامل الصيرفي

في السموات ...

للأستاذ عمر بهاء الأميري بحلب

« أنا لا أفر من عذاب يحف حياتي ، وألم يؤججه في صدري ، هذا التفاوت البعيد ، في الهدف ، والشعور ، والإدراك : بين روحي وأرواح سواد الناس . فإنني متذوق عذوبة هذا العذاب ، ولذة هذا الألم ، غير جاحد ما بسطاه أمام بصيرتي ، من آفاق الرفعة والإيثار ، وحسن المشاركة العامة ، في أشجان بني الإنسان .

وكل ما أخشاه من عذابي وألمي ، أن يزيد ضغطهما على الروح يوماً بعد يوم ، فيتتالى انطلاقه ، ويتكاثر تردده ، إلى السموات ، وهي مهجره السعيد ، حتى يألفها وتألفه ، ويخلد إلى سكينتها العلوية ، منقطعاً عن تأدية رسالته السامية في حياة الأرض ، أحوج ما تكون ، إلى نفحات الروح المصهور بالألم ، لتطهيرها من أرجاس المادية ، والجشع الطاغي » .

أَيُّها الروحُ : كيف أطفي غليلَكْ ؟   حرتُ واللهِ ما الذي أصْطَفِي لك !

يا جَمُوحاً تَنَكَّبَ الأَرضَ يَسعى   في السّموات ، لا ضللتَ سبيلك

وطَمُوحاً مُناهُ هَدَّ كِياني ،   أتُراني محاولاً تذليلكْ ! ؟

لست أَخْشى عليك تخليفَ كَوْنٍ   قَدْ تعجلت من دُناهُ رَحِيلكْ

غَيْرَ أني مُسَائلٌ حينَ تمْضي :   مَنْ لأَهْلِ الآلامِ يَبقى بديلكْ ؟

عمر بهاء الأميري

في كفة الميزان

ننشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته ، نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النقد

العرب : تاريخ موجز

تأليف الدكتور فيليب حتى

ترجمه : الأساتذة شكري خوري وفرحات زيادة وإبرهيم فريجي

٢٦٠ صفحة من القطع المتوسط . دار العلم الملايين . بيروت ١٩٤٦

نقد الأستاذ عباس محمود العقاد

هذا الكتاب هو موجز لكتاب آخر مطول في موضوعه ، يسمى تاريخ العرب ، بقلم المؤلف نفسه ، وهو العلامة الدكتور «فيليب حتي» أستاذ آداب اللغات السامية ورئيس جامعة العلوم الشرقية بجامعة برنستون ، وقد كتبه بالإنجليزية ، واشترك في ترجمته إلى العربية ثلاثة من زملائه الأفاضل ، الأساتذة شكري خوري وفرحات زيادة وإبرهيم فريجي ممن يساهمون في منهاج التدريس الخاص بالجنود الأمريكية ، وقد أعيد طبع الكتاب بالإنجليزية أربع مرات واعتمدت الحكومة الأمريكية طبعة منها لتعريف جنودها في الشرق خاصة بالأمة العربية وتاريخها . وظهرت طبعته العربية هذه السنة بمدينة بيروت على يد « دار العلم للملايين » .

وقد اطلعنا على الكتاب المطول من قبل فوجدناه من أفضل المراجع الإنجليزية في تاريخ الأمة العربية : توخى مؤلفه البحاثة أمانة العالم ولم ينس مع ذلك أرومته العربية ، فكان كتابه مثلا لسعة الاطلاع وصحة الحكم على الوقائع وصحة العرض في سياق الرواية والتاريخ ، وظهرت فيه غيرته على سمعة العرب في مواضع كثيرة من تلك المواضع الملتبسة التي يخوض فيها المؤرخون الغربيون بما يعلمون وبما لا يعلمون ، وحفظ أمانة العلم فلم ينس العيوب إلى جانب الحسنات ، ولكنه كان أرفق ما يكون الكاتب في ذكر العيوب التي لا جدال فيها ، وأخر ما يكون في ذكر الحسنات التي يكثر فيها الجدل والخلاف ، ولاسيما بين

القراء الأمريكيين ، ومعظمهم منساقون للدعوة التبشيرية التي تروج في أمريكا ولا تحرص على نزاهة الحكم في كل ما ينقل عن العرب الأقدمين .

والنسخة الموجزة من الكتاب — وهي النسخة التي بين أيدينا — تماثل الأصل المطول في هذه المزية وتنصرف فيها العناية إلى التعريف دون التاريخ المتسلسل بمعناه المألوف . لأن التعريف في الكتب الموجزة أولى بالعناية من تسلسل الحوادث على الترتيب الزمني الذي تسرد فيه الحوادث المتعاقبة بالإسهاب والتفصيل . فإذا اطلع القارىء على هذا الكتاب الموجز عرف العرب في نشأتهم وعاداتهم ونهضة حكوماتهم وآثار شعوبهم في الثقافة الإنسانية منذ أقدم أزمانهم ، ولم يتقيد في معرفته هذه بتعاقب الحوادث على النمط التاريخي المعهود في المراجع القديمة على الخصوص ، لأن المؤلف قد اهتم بدلالات الحوادث قبل أن يهتم بتفصيلات الحوادث نفسها في هذا التعريف القصير .

ومع هذا لا يحسب الكتاب من الموجزات المخلة بموضوعه الكبير ، لأنه يقع في نحو مائتين وستين صفحة مطبوعة بالحرف الدقيق ، فهو أوفى بموضوعه من الموجزات الأوربية التي كتبت في هذا الموضوع .

ومن الواضح أن أمانة العالم وحدها لا تكفي لتكوين المؤرخ الصالح لدرس المسائل الكبرى وتصحيح الحكم على مبلغها من الخطر ومغزاها في أطوار التواريخ الإنسانية ، فقد يكون العالم أميناً فيما يراه ثم يكون ما يراه غير صحيح أو مشوباً بسوء الفهم وسوء التقدير . أما الأستاذ فيليب حتي فقد أضاف صحة الفهم إلى أمانة العلم ، فوضع كل مسألة في موضعها الذي لا تزيده المبالغة والتهويل ولا ينقصه التهاون والإهمال . وأبى أن يجاري المؤرخين المشهورين في أحكامهم على بعض الحوادث وتقديرهم لما كان لها من الأثر في أطوار العصور ، وإن بلغت هذه الأحكام مبلغ التواتر الذي يقرب من الإجماع .

فالمؤرخ الإنجليزي الكبير إدورد جيبون يبالغ كل المبالغة في وصف معركة تور التي تراجع فيها عبد الرحمن الغافقي أمام شارل مرتل ، ويزعم أنها من المعارك الكبرى التي حولت مجرى التاريخ . والسير إدورد كريسي مؤرخ المعارك الحاسمة يعتبرها واحدة من خمس عشرة وقعة حاسمة في تاريخ العالم بأسره إلى معركة واترلو التي انهزم فيها نابليون . ولكن الأستاذ فيليب حتي يضعها في موضعها الصحيح فيقول : « إن هذه المعركة لم تفصل شيئاً . فالموجة التي تألفت من العرب والبربر قد استنفدت كثيراً من قوتها فوصلت إلى حد طبيعي من التوقف إذ بعدت عن جبل طارق — نقطة بدايتها —

نحو ألف ميل . وكان قد دب الخلاف الداخلي بين العنصرين اللذين تكوّن منهما جيش عبد الرحمن أعني العرب والبربر . وبدت طلائع الضعف في معنوياته ، ولم يكن للعرب أنفسهم شعور يوحدهم أو هدف يجمعهم . والواقع أنه وإن كبح جماح العرب عند هذه المرحلة فقد واصلوا غاراتهم في جهات أخرى .. »

ولما عرض لمكان الخلافة في الإسلام صحح آراء الأوربيين والغربيين على الإجمال عنها فقال : « إن مقابلتها برئاسة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ورئاسة الكنيسة الكاثوليكية لتضلنا سواء السبيل . فالخليفة في الدرجة الأولى أمير المؤمنين ، عليه تدبير جيوش الإسلام . لهذا ارتكز منصبه على أساس حربي ، وهو في الوقت نفسه إمام له حق التقدم في الصلاة وإلقاء الخطبة . ولكن هذا الحق شائع يجوز لأقل المسلمين قدراً ممارسته . فالخلافة إذن اقتصرت على الناحية السياسية ولم تتناول الناحية الروحية . لأن صفة النبي الروحية جاءت عن طريق الرسالة وانتهت زعامته الدينية بموته ، وما كان لأحد أن يخلفه فيها وهو خاتم النبيين . أما صلة الخليفة بالدين فلم تخرج عن حد الغيرة عليه . فهو حامي الدين بالمعنى المألوف عند ملوك أوربا السالفين ، يفرض عليه قمع أهل الزيغ والإلحاد ومحاربة البدع وخوض غمار الجهاد توسيعاً لدار الإسلام ، وبسبيل تحقيق هذا كله استخدم الخليفة سلاحه الدنيوي . أما الفكرة التي تداولها أبناء الغرب من أن الخليفة أشبه بالبابا ومن أن له سلطة دينية على جميع المسلمين في العالم فلم تظهر حتى أواخر القرن الثامن عشر . . . »

وقد عقد المؤلف فصلا مفيداً عن الحروب الصليبية نظر فيه إلى بواعثها وأدوارها وعواقبها نظرة مستقلة لم يتقيد فيها بآراء من سبقوه إلى الكتابة عنها . وعرضت المناسبات الكثيرة للمقابلة بين صنيع الملوك الصليبيين وصنيع الملوك العرب في معاملة الأعداء والأسرى وسياسة الرعايا ، فلم يتردد المؤلف في مؤاخذة من يستحق المؤاخذة والثناء على من يستحق الثناء ، ومن ذاك ما وقع من قلب الأسد بعد إبرام الصلح مع صلاح الدين على إثر تسليم عكا في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد . فقد كان من شروط الصلح تسريح الحامية في مقابلة مائتي ألف دينار ورد الصليب المقدس إلى الصليبيين . فلما لم يدفع المال بعد شهر أمر قلب الأسد بقتل الأسرى وعددهم نحو ألفين وسبعمائة . قال المؤلف : « وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عند ما احتل بيت المقدس . فصلاح الدين أيضاً كان قد اشترط أن يفتدي الفرنجة أنفسهم بالمال ، ولكن عدداً من الفقراء يبلغ الثلاثة الآلاف عجز عن تأدية الفدية المفروضة ، فأخلى صلاح الدين سبيل

ألف منهم نزولاً عند رغبة أخيه وأطلق سراح فريق آخر منهم إجابة لتوسط البطريرك . ولما رأى صلاح الدين أن أخاه والبطريرك قد أديا الزكاة بهذه الحسنة شعر أن عليه أن يقوم بقسطه من هذا الواجب فأطلق سراح الباقين وبينهم عدد من النساء والأطفال »

ومن الطرائف التي رواها المؤلف فى صدد الكلام على الحروب الصليبية قول الأمير أسامة بن منقذ الذي وصف به الفرنجة في سيرته المسماة بكتاب الاعتبار ، وهي سيرة ترجمت إلى اللغات الأوربيــة جاء فيها عن الفرنجة الذين رآهم في الشرق أنهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير . . . »

وهذا الرأي شبيه بالرأي الذي نقله المؤلف أيضاً عن صاعد بن أحمد الطليطلي في عرض الكلام على قرطبة حيث يقول عن الجرمان النورديين : « فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هواءهم وكثف جوهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة ، فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الأفهام وثقوب الخواطر وغلب عليهم الجهل والبلادة ، ونشأ فيهم العمى والغباوة . . »

ومراجعة هذه الآراء وأشباهها من أنفع العبر التاريخية وأهم الأغراض التى تستحب من أجلها دراسة التواريخ ، فنحن نقرأ هنا رأي « الساميين » في أمم الشمال خاصة وهم الجرمان وفرنجة الحروب الصليبية . فإذا هم فى رأي العرب « بهائم » مطبوعة على الغباوة والعمى موصومة بالجهامة والضخامة ، لا يرجى منها فهم ولا تقترب رؤوسهم من نور البصر ولا نور البصيرة ! . . ثم يدور الزمن ونقرأ أقوال أهل الشمال هؤلاء في الأمم السامية على الخصوص فإذا هم فى نظر أنفسهم معدن المعرفة وينبوغ النخوة ومصدر التفنن والابتكار ، وإذا الساميون على نقيض ذلك خلو من كل فضيلة خلقية وكل مزية عقلية ، ولا يهزل هؤلاء ولا هؤلاء ولكنهم يجدون ويؤمنون بما يقولون . فيقف التاريخ على ربوته العالية ليضحك من هذا الجد الهازل ويعرض للأذهان كيف يتقارب المجون والإيمان فى كثير من الأحيان . فلا أمم الشمال كما وصفهم ابن منقذ وابن صاعد ، ولا أمم الشرق السامية كما وصفها شمبرلين وروزنبرج وغيرهما من دعاة الآرية وأدعياء الآريين ، وهذه هي عبرة التاريخ في معرضه الذي ننظر فيه إلى الحقيقة من جميع الجوانب ولا نقصر النظر إليها على جانب واحد كما يفعل المقيدون في أجيالهم بدواعي الزمن وعصبيات الحروب والعداوات .

***

ولم يخل الكتاب من التلوينات النفيسة والنبضات الحسية التي تبث الحياة في سير

الأبطال فنتمثلهم أمامنا خلائق من اللحم والدم تختلج بالسرور والحزن وتضطرب مع الخوف والرجاء ، ومن ذاك تعقيبه على سيرة عبد الرحمن الثالث حيث يقول :

« ولم تعرف قرطبة من قبل مثل هذا الرخاء ، ولم تحز الأندلس قط مثل هذه الثروة ، ويعود معظم الفضل في ذلك كله إلى مقدرة رجل فرد عاش ثلاثاً وسبعين سنة وصرح في أواخر أيامه أنه لم يصف له من الدنيا إلا أربعة عشر يوماً . . »

فما أدل هذه الضربة الختامية في تلوين هذه الصورة الخالدة على الناحية الإنسانية في حياة البشر حيث كانوا على عروش الملك أو بين زمرة السواد .

أما عبد الرحمن الأول فقد كانت نجاته من الموت رواية وكان وصوله إلى الملك رواية أخرى وكان حنينه إلى البادية المشرقية وهو مسيطر على الفردوس الأندلسي أعجب من تينك الروايتين .

قال المؤلف : « . . . وإذا بفوارس العباسيين يحملون الرايات السود ويقتربون من المكان . ففر للحال ورمى بنفسه إلى النهرواجتازه ، أما أخوه وهو ابن ثلاث عشرة فعجز في نصف الفرات عن السباحة وعاد إلى مطارديه مغروراً بالأمان . فأمسكوه وقتلوه وعبد الرحمن ينظر إليهم . ثم تواري في غيضة حتى انقطع عن النظر . . »

وارتقى هذا الشريد الطريد إلى عرش الأندلس وملك الأقطار وعمر المدن وغرس الحدائق والبساتين وشيد القصور فسمى قصراً منها الرصافة ولم ينس النخلة بين ألفاف الشجر وخمائل الرياض . فجاء من الشرق بنخلة غرسها في قصر الرصافة ونظر إليها فيما قيل فنظم هذه الأبيات :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي

سقتك غوادي المزن من صوبها الذي ... يسح ويستمري السماكين بالوبل

فلا جرم يظل الإنسان فى مغرسه القديم ولو أحاطه الحاضر بالملك والنعيم ، فإنما هي الحياة ذكريات وآمال ، ولعل الذكريات الغابرة أصدق حساً لديه من حاضره المشهود ، وإن أصدق منهما معاً لآماله التي لم تطلع عليها شمس الوجود .

وبهذه النبضات الحسية ومثيلاتها أخرج المؤلف أبطال الأحياء من غياهب التاريخ التي يخيل إلى بعض المؤرخين أنها أشباح ميتة قد انطوى عليها ظلام الفناء .

* * *

ولسنا نوافق المؤلف في جميع ملاحظاته وتقديراته بطبيعة الحال لأن اتفاق الآراء

على جميع الملاحظات التى يحتويها تاريخ العرب في مئات السنين ضرب من المستحيل ، ولكنه لا يستوجب الخلاف الكثير فى المسائل الجوهرية على الإجمال. وهفوات الكتاب اللغوية وما جرى مجراها قليلة جداً لا تعثر بالواحدة منها في عشرات الصفحات ، كالاستهتار بمعنى الاستخفاف ، وتعدية الولع بفى بدل الباء ، واعتماده هذه الرواية لهذا البيت :

الأسودان أبرءا عظامي الماء والتمر دوا أسقامي

وإنما روايته الصحيحة .

الأسودان أبردا عظامي الماء والقت بلا إدام

إذ ليس من المعقول أن يتشوف البدوي إلى الماء والتمر ويراهما كالدواء لداء العظام وليس أكثر منهما لديه ولا أشوق منه إلى طعام غير هذا الطعام .

ومن الروايات التي اعتمدها المؤلف ولا شأن لها باللغة روايات مختلفة عن الثروات والأموال وأماكن العمارة لا نحسبها سلمت من المبالغة التى تتجاوز المعقول ، وعذر المؤلف في اعتمادها أنها كل ما ورد من قبيلها في باب الإحصاء ، وأنها تفهم على معنى الفخامة والوفرة ولا تحسب بمقاديرها من الأرقام .

وهذه كلها أهون من أن تقدح فى كتاب قيم لا نظير له فى تعريف الغربيين بحقائق التاريخ العربي من مصادره التى تنزهت عن العلل والأغراض ، وليس في العربية نفسها موجزات كثيرة تضارعه وتغنى عنه ، على كثرة الكاتبين فى هذا الموضوع .

عباس محمود العقاد

لا مادية بركلي

Berkeley's Immaterialism

تأليف الدكتور ا . ا . ليوس

١٦٥ صفحة من القطع الصغير . لندن ١٩٤٥

نقد الدكتور عثمان أمين

هذا عنوان كتاب صغير نشره الدكتور ليوس Luce أستاذ الفلسفة بجامعة دبلن وقد عكف المؤلف سنوات على دراسة الفيلسوف بَرْكلي ، وقام بطبع بعض آثاره ، ونشر عشرات البحوث في مذهبه وآرائه . وهذا جهد مشكور خليق أن يجعل من الأستاذ ليوس عالماً ثقة في هذا الباب .

اختلفت الأقوال في شخصية بركلي وفي مذهبه ، فرأى بعض الباحثين أنه كان رجلا مزدوج الشخصية ، ورأى بعضهم أنه كان في حياته «مثالياً وواقعياً على حد سواء». وذهب آخرون إلى أنه كان منافقاً مرائياً « يضع على وجهه قناعاً يحجبه عن الناظرين »

لكن الأستاذ ليوس يرى أن هذه الأقاويل باطلة في جملتها ، وأن بركلي كان في حياته العقلية كلها شخصاً واحداً لا ازدواج فيه ، وكان مخلصاً صادقاً في أقواله وأفعاله ، وكان سافراً لم يضع قط قناعاً .

وقد بذل المؤلف جهداً كبيراً ليقضي علي الأساطير التي حيكت حول الفيلسوف ، وحاول أن يرسم لنا عنه صورة جديدة ترينا فيه « رجلا من لحم ودم » ، وإنساناً يعيش في دنيا الناس .

☆☆☆

أما مذهب بركلي الفلسفي فقد تأوله الباحثون تأويلات كثيرة مختلفة ، وقد عرض المؤلف في كتابه لهذه التأويلات محاولا إبطالها لينتهي إلى رأيه هو فى تأويل الفلسفة البركلية .

يوصف بركلي عادة بأنه من « المثاليين » المنكرين لوجود العالم الخارجي ، عالم المادة والاجسام ، والقائلين بأن الوجود الصحيح إنما هو وجود الأشياء فى الأذهان ☆ وليس يعرف على التحقيق متى وصف بركلي بصفة المثالية هذه . ولكن يبدو أن شيوع التسمية راجع إلى الفيلسوف الألماني « كنت » الذي عقد في كتابه « نقد العقل الخالص » فصلا عنوانه « هدم المثالية » فجعل فيه بركلي ممثلا للمثالية « الجزمية »(أى غير النقدية) ونسب إليه القول بأن « المكان وجميع الأشياء التي هو شرط لازم لها هي أمور في ذاتها مستحيلة ، ومن ثم هى أثر من آثار الخيال »

ويرى الأستاذ ليوس أن فى تأويل مذهب بركلي على أنه مثالي تحريفاً له ، وأن ما قاله « كنت » بهذا الصدد لا يعبر مطلقاً عن الفلسفة « البركلية » وأنه لا بد أن « كنت » كان يتكلم عن نظرية بركلي معتمداً علي ما سمعه ونقله عن الناس ، لا على ما تحققه بالدرس والتمحيص .

☆ شاع لفظ « المثالي » في اللغة الجارية وصفاً للرجل الذي يؤمن بالروح والواجب ، والرجل الذي تكون له مثله العليا ويريد أن يحيا عليها . فاذا فهمت المثالية على هذا المعنى العام لم يكن هناك شك فى أن بركلي من المثاليين . ولكن المثالية بالمعنى الفلسفي الخاص عبارة عن القول بأن حقيقة العالم الخارجى هى كونه مدركا .

ذلك أن لفظ المثالية في صميمه يدل اليوم على أمرين : الريبة في الحواس ؛ والتقدير الزائد لقوى العقل الإنساني . ويرى المؤلف أن بركلي ليس مثالياً بأي معنى من هذين المعنيين ، فقد دأب المثاليون على الحط من قدر الحواس ، وجروا على معارضة الحواس بالعقل ، وعلى اعتبار العالم الحسي وهماً من الأوهام أو مشكلة يطلب حلها . أما بركلي فلم يرفض شهادة الحواس ، ولم ينكر عالم الحس بل قبله ، وصرح بحقيقته ، ومنحه منزلة وطيدة فى ميتافيزيقاه . والمثاليون قد يبالغون فى رفع قدر العقل الإنساني ، حتى إنهم كثيراً ما يعجزون عن تمييزه من العقل الإلهي ؛ وعقل الإنسان عندهم — بما يفرض من صوره وقوانينه — محدد للمعرفة ، مشرع للطبيعة ، مقوم للحقيقة . وليس في مذهب بركلي شيء من هذا ، فيما يرى الأستاذ ليوس .

لقد استند المثاليون على أصل من أصول فلسفة بركلي ، وهو قوله : esse est percipi وجود الشيء هو كونه مدركا ، وأولوه على معنى لم يخطر لبركلي على بال . ولقد استهوتهم روحانية الفلسفة البركلية ، فالتمسوا عندها عوناً وتأييداً . ولكن المؤلف يرى أن بركلي في نظرياته الرئيسية بعيد كل البعد عن المواقف المثالية ، فهو بعيد عنها في نظريته عن الله ، وعن الروح ، وعن الحواس والعالم الخارجي ، وعن العلة ، وعن الخيال ، وعن طبيعة المعرفة على العموم . قال كونو فيشر : « إن بركلي ليس مثالياً بل هو واقعي تام »* . ويبدو أن الأستاذ ليوس يوافق هذا الرأي ، ويذهب إلى أن موقف بركلي من مشكلة المعرفة أقرب إلى « الواقعية » الحديثة منه إلى المثالية الحديثة ، وأن المعرفة عند الفيلسوف الإنجليزي هي « اهتداء » لا « صنع » ، وكشف لا خلق . ولقد آمن بركلي بوجود العالم الخارجي ، ونظر إلى الأشياء مباشرة ، وواجهها من غير مواربة .

***

وقد التبس على الناس المعنى المقصود من « لا مادية » بركلي . ولعل منشأ الالتباس هو لفظ « المادة » الذي يستعمل في اللغة الشائعة غير الفلسفية وصفاً للأشياء الحسية أو الأجسام الحسية على وجه العموم .

ولكن الأستاذ ليوس ينصح للمبتدئ الذي يريد أن يقف على تعاليم بركلي الحقيقية أن يضع نصب عينيه أن المادة هنا ، أي الجوهر المادي الذي ينكره بركلي ، ليس هو الجسم المحسوس ، ولا الأجزاء المحسوسة للجسم ، وليس موضوعاً فعلياً أو ممكناً من

* نقلا عن W. Graham, Idealism, 1872 p. 113

موضوعات الإحساس (أي ليس شيئاً نراه أو نلمسه أو نسمعه أو نتذوقه أو نشمه) بل هو « شيء لا نعرف ما هو » هو جوهر وهمي ، وافتراض من افتراضات قدماء الفلاسفة اليونان ، شيء يُزعم أنه غير مشهود وغير ملموس ، وأنه سند روحي لكل ما نراه أو نحسه بالفعل .

وإذن فليس إنكار بركلي للمادة إنكاراً للعالم ، ولا فراراً منه . وكل ما في الأمر أنه نظر إلى العالم فوجده عالم إحساس ، لا عالم مادة ، فأنكر المادة لكي يؤكد المحسوس ، وأنكر الخيال لكي يؤيد الواقع .

* * *

وقد أولت « لامادية » بركلي على أنها مذهب في وحدة الوجود .

ولكن المؤلف يعترض على ذلك بأن بركلي لم يكن قط من أنصار ذلك المذهب ، وما كان له أن يقول بأن كل شيء هو الله ، أو أن الله هو كل شيء ، وإن كان يرى الله في كل مكان ، ويرى أثره في كل شيء . ذلك أن بركلي قد آمن بعالم الحواس ، وعالم الحواس عنده مباين لله ، وآمن بزمرة أرواح متناهية ، وهي عنده شيء آخر غير الله.

* * *

وقد أوّلت لامادية بركلي أيضاً على معنى سلب الوجود عن كل شيء إلا ما كان عقلا أو فكرة أو تصوراً ذهنياً . ويؤيد هذا التأويل ما كتبه بركلي نفسه في مذكرته الخاصة : « لا وجود لشيء وجوداً حقيقياً إلا للأشخاص ، أي للأشياء الواعية المدركة وجميع الأشياء الأخرى ليست موجودات بقدر ما هي أحوال لوجود الأشخاص ».(١) وقد يفيد هذا النص أن بركلي يذهب إلي أن الوجود الحقيقي إنما يكون للكائنات ذات العقل والإدراك ، ولكن بركلي كتب بعد ذلك في مذكرته : « إن لدينا معرفة حدسية (مباشرة) بوجود أشياء أخرى غير أنفسنا بل هي سابقة على معرفتنا وجودنا الخاص»(٢)

* * *

وثمة صفات أخرى نسبت إلى بركلي ، بعضها على سبيل المدح ، وبعضها على سبيل الذم ، فقيل : إنه متصوف ، وقيل : إنه من أصحاب مذهب « الإسمية » القائلين بأن الأجناس لا وجود لها وليست إلا « أسماء » يمكن انطباقها على أشياء مختلفة . وقيل

(١و٢) Berkeley, Philosophical commentaries edited by Luce. 1944, p. 24, 547.

إن بركلي من المنطوين على أنفسهم solipsists وإنه من «الارتيابيين » sceptics وإنه من أنصار المذهب الحسي ، وإنه من الأفلاطونيين ...

ويرى الأستاذ ليوس أن شيئاً من هذه الصفات لا ينطبق في الحقيقة على مذهب بركلي . وخلاصة رأى المؤلف فى الفلسفة البركلية أنها محاولة جدية دائبة لفهم خصائص الإدراك في العالم المدرك الذي يهم الإنسان من حيث هو كائن أخلاقي ، وأنها فلسفة لا تتنافى تنافياً صارخاً مع الحس العام ، وأنها إذا كانت مذهباً يثير الانتباه ، فليست مذهباً يثير الاستنكار بحال من الأحوال .

* * *

ذلك مجمل لكتاب « لامادية بركلي » . ومن فضائل المؤلف أنه على تواضعه ، قد بحث بجرأة وإقدام ، فلم يركن إلى القضايا المألوفة التي طال ترديدها في الكتب المدرسية والمختصرات ، ولم يقنع بالأقوال المتداولة التي شاعت بين الناس حتى أصبحت كالرواسم « والكليشيهات » .

لكنا مع ذلك نلاحظ على المؤلف الفاضل أنه ، على الرغم من الجهد المشكور الذى بذله لرسم صورة جديدة عن بركلي ومذهبه ، لم يستطع أن يقدم إلينا شيئاً إيجابياً ، وإنما كانت قضاياه في الغالب سلبية .

وليس يتسع المقام في هذه العجالة لمناقشة آراء المؤلف وتفصيلات تأويلاته للفلسفة البركلية. ولكنا نبادر فنقول : إن ما ذهب إليه من إنكار المثالية عند بركلي دعوى غير مقبولة ، وليست مؤيدة بأدلة مقنعة معقولة ، وفي كلامه ، من حيث لا يشعر ، خلط بين مذهبي التشكك والمثالية ، إذ يبدو أنه يأخذهما على معنى واحد ، مع أنهما متميزان .

ولكن الإنصاف يقتضينا أن نلاحظ أيضاً أن الصعوبة الرئيسية في الدراسات البركلية قائمة في فهم ما يريده الفيلسوف بوضوح وجلاء . ومهما يكن الأمر فالأستاذ ليوس خليق بالثناء لانقطاعه لدراسة الفلسفة البركلية ، وبسطها وتأويلها ، في هذا العصر الذي سيطرت فيه « المادية » على النفوس ، فلم تقتصر على مناوأة الدين والأخلاق ، بل طغت على السياسة والفن والتاريخ والاجتماع ، وهى توشك أن تقلب القيم والمعايير ، وأن تفسد علينا أساليبنا فى الحياة وفي التفكير .

عثمان أمين

الشوامخ — أبو عبادة البحتري

تأليف الدكتور محمد صبري
٢٠٤ صفحات من القطع المتوسط . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٤٦
نقد الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

البحتري — في نظر المؤلف — أكبر شعراء العربية على الإطلاق ؛ ولكل وجهة هو موليها ؛ فقد يرى بعض الرائين أن الشاعر الأكبر هو أبو تمام ، وقد يراه بعضهم المتنبي ، وقد يراه بعضهم ابن الرومي . وليس بكائن ولا متفق أن تلتقي الأنظار على موقع واحد ، أو تجتمع الآراء على رجل واحد . وليس بمعقول أن يقصرنا إنسان على هواه ومذهبه ومزاجه . وما أراد الدكتور صبري ذلك حين تعصب للبحتري وانتصر له هذا الانتصار ؛ ولكنه أحب البحتري وأسرف في حبه ، فأراد أن يعرضه لنا كما بدا له . وما في ذلك بأس .

وقد يتهم بعض المعارضين البحتري بقلة الغور والتعمق في الإحساس . ولكن هذه التهمة لم تفت على الدكتور صبري حين نصب نفسه للدفاع عنه والمحاماة دونه . فقد ردها غير مرة : ردها في تصدير الكتاب أول الأمر حين قال : « وقد خدعت سهولة شعره الرقراق الكثيرين عن بعد غوره واتساع مذاهبه وتشعبها وصعوبة ورده وصدره ، وقوة مخيلته الضاربة في الآفاق » .

وردها مرة ثانية في صفحة ١٥ حين قال : « ومعظم شعره بلغ الغاية في الجودة وعلو النفس وقوة السبك ، وكان شعره يسمى سلاسل الذهب ؛ ولكنه لسهولته وصفائه لم يلتفت أحد إلى ما تشف عنه هذه السهولة من تعمق في الإحساس والتخيل ، وإبداع في تنسيق الألوان والأنغام » .

وكان منتظراً من المؤلف ، وهو في معرض الحديث عن تعمق الإحساس عند البحتري أن يسند ذلك بالشواهد المؤيدة والأدلة المثبتة ؛ ولكنه روى في صفحة ١٦ — أي في الصفحة التالية — أبياتاً من قصيدته في وصف بركة الجعفري ، ثم قرر بعد الأبيات « أن البحتري لم يأت بجديد في أبياته التي ذكر فيها الدمن والمحبوبة ، فموضوعها مطروق رتيب ، ولكننى أحب القصيدة كلها والتغني بجميع أبياتها لجمال بحرها ورويها وروعة موسيقاها » .

والدكتور هنا لم يحسن الدفاع ولم يجد الاستدلال . فالقصيدة عنده محبوبة لجمال البحر والروي وروعة الموسيقى . أما بعد الغور والعمق في الإحساس والتخيل . وهو موضع الدفاع في القضية . فهي عناصر خلت منها قصيدة تخذها الدكتور درعاً حصيناً ليدفع بها نبال المعارضين فكانت نصالها . . .

والحق أن قصيدة البركة لا تحسن مثالا في شعر البحتري على عمق الحس وبعد الغور ، ولكنها قد تكون أصدق مثال على حسن التصوير وصدق التمثيل ؛ ولقد أعطاها المؤلف حقها من ذلك حين عرض لها في باب التمثيل والتصوير ص ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ والحق أن التصوير في شعر البحتري لا يختلف فيه اثنان . ولكن الدكتور صبري استطاع أن يجعل من لوحات البحترى الشعرية لوحه نثرية رائعة فى الفصل الذي عقده للتمثيل والتصوير عند الشاعر الطائي ، فقد نحس جمال الصورة في شعر البحترى ، ولكننا لا نستطيع التعبير عن هذا الجمال كما عبر عنه الدكتور ، ولا نستطيع إبرازه كما أبرزه . وتلك مزية فى المؤلف عرفناها له حينما أخرج جزءاً من الشوامخ في امرىء القيس[1] ، وجزءاً آخر فى الشعر الجاهلي وخصائصه وأعلامه[2] .

وسر هذه المزية عند الدكتور صبرى أنه شاعر قديم — أعنى قدم التاريخ لا قدم المذهب — وأن فيه فوق مزية الشعر حاسة الفن مرهفة . فهو يتعشق الفنون الجميلة ويجود فيها بمضنون التلاد . . . فقد أراني مرة دمية أخذ يقلبها بين يديه وتحت عيني حتى كاد ينطقها عن جمالها . وهو يصنع ذلك حين يعرض عليك البيت أو الأبيات من الشعر . فما يزال بك يضع قلبك على مواطن الجمال فيها حتى ترى ما لم تكن رأيت وتحس ما لم تكن أحسست .

فهو يقول في بيت البحتري :

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة من حبل مجريها

« وفود الماء من رائع التعبير ، والبحتري وحده يعرف كيف يأتي بالكلمة التي تطربنا بلفظها وتنوع ألوانها ولمحاتها . فهو يصور لك بكلمة وفود حركة انصباب الماء من عل وتزاحم الأمواه في قدومها ، وحركة تسلسل تيارها واطراده وسرعة هذه الحركة » .

والمؤلف متفطن دائماً إلى اللوحة الشعرية التي يرسمها الشاعر ، فلا يفلت منه لون أو يهرب منه ظل ، أو يعشو أمامه ضوء أو تجمد أمامه حركة . ويرى في الكلمة

---

(١) مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤

(٢) مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤

من البيت ما يراه ناقد الصور من قطرة اللون أو بقعة الزيت . . وإذا أتيحت هذه الفطنة لناقد الشعر أو ناقد الفن أعانته على كشف النقاب عن جمال مكنون وفن مدفون .

ولكن هذه الفطنة الواثبة المتيقظة قد تكون لها سوءتها . . فقد تطوح بها المبالغة إلى افتراض ما لم يفترض والتماس ما لم يقصد ، واصطياد ما لم يرد ... وهنا يتحول الجمال تكلفاً ، ويستحيل الرأي تعسفاً :

وإلا فأين جمال التصوير في قول البحتري :

وإذا النهروان ساح عليهم ؟ ؟

إن المؤلف يراه في قوله « ساح عليهم » ولو أن البحتري قال فاض عليهم لوجد المؤلف فيها ذلك الجمال عينه ، لأن الدكتور صبري هنا لا يجد الجمال ولكن يتلمسه . .

وهذه المبالغة عينها هي عين الرضى التي يقول عنها الشاعر العربي . . والتي هي كليلة عن كل عيب . فقد عاب المؤلف على غير البحتري قوله . « تضحك الأرض من بكاء السماء » . ولم يعب على البحتري قوله :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها

بل جعل في قوله « يضاحكها ويباكيها » موسيقى وجمال انسجام ، وجعل في ضحك الأرض وبكاء السماء عند الشاعر الأول « كلمات فقدت الحياة وأصبحت كالأزاهير الصناعية التي يحبها أنصار البديع » .

وحبك الشيء يا سيدي الدكتور مبتدأ لا أذكر خبره(*) إلا لمن يكرهك .... فإنك أحببت البحتري حباً أنساك ما في بيته من البيان والبديع والاستعارة والطباق ، وهي عيوب غيره التي أحلتها في شعره إلى محاسن . فلا فرق بين شاعرك وشاعرنا من حيث البيان والبديع ، ومن حيث الصورة الحية . ولكنك أحببت البحتري فكلت له الكيل . وملت على غيره كل الميل . . .

على أن قوة التمثيل في الشعر قد عرضتها أجمل عرض حين قلت : « وقد يتوهم بعض الشعراء أن شعرهم ليس في طاقته ترجمة ما يختلج في النفس من عواطف ، كما يتوهم بعض الناس أن تصوير المصور لمناظر الكون التي أوجدها الخالق لا يحكي الأصل ، والواقع أنه لا يحكيه من ناحية الشكل أو الحقيقة الشكلية ، ولكنه يحكيه بقوة التمثيل في لون جديد ، فالتمثيل ليس مجرد حكاية أو محاكاة . وكيف نتكلم عن حكاية إذا كان الشاعر أو المصور يصف في كلمات محدودة ، أو في قماشة مسطحة ضيقة الحيز ، منظراً

(*) من أمثال العرب « حبك الشيء يعمي ويصم »

واسعاً بخطوطه ومسافاته وارتفاعاته وأعماقه ، بما فيه من سهولة وحزونة ، ولون وضياء ، ووجد وحنين ... إنما قوة التمثيل في القدرة على الإيجاز والتلميح في خط أو خطوط . وبعبارة أخرى : القوة التي تجعلك تعيش في جو المنظر وتصل بين خيالك وخيال الشاعر أو المصور ، فتولد في مخيلتك وحسك صورة تبعث الأصل في جو يضاهي جوه ، والجو هو أهم أهداف الفن »(١) .

وهذا كلام لا يقوله إلا من رزق مقدرة الدكتور صبري على الإحساس بالجميل والتعبير عنه في كلام تشيع فيه النظرة الفنية والحماسة الذوقية .

***

ولقد أنصف المؤلف حين شرح كثيراً من الألفاظ في شعر البحترى شرحاً لغوياً . وهو عمل لم يكن منه بد لمن يتحرى أن يعرف ما وراء الألفاظ من معان . ولكن الإطالة في هذا قد تجعل من الكتاب معجماً لغوياً تضيق به الصدور ولا تتفتح له القلوب . فلقد شرح المؤلف كلمة « شرف » في قول البحتري :

في حلبة تضحك عن بدورها   صار الرجال شرفاً لسورها

ولكنه كاد ينقل لنا مادة « شرف » من المعاجم نقلا لم تكن بنا ولا به حاجة إليه ، وما حاجة القارئ شعر البحترى أن يقرأ : « إن الشرفة ما يوضع في أعالي القصور وجمعها شرف ؛ والشرفة من القصر ما أشرف من بنائه ، وشرف الحائط جعل له شرفة ، وقصر مشرف مطول »(٢) .

وما حاجة القارئ أن يقرأ في عرض جميل لشعر البحترى هـذا الكلام شرحاً لكلمة قيض : « تقيضت البيضة تقيضاً إذا تكسرت فصارت فلقاً ، وانقاضت فهي مناقضة(٣) ، تصدعت وتشققت ، وقاضها الفرخ قيضاً شقها ، وقاضها الطائر شقها عن الفراخ فانقاضت ، وفى حديث ابن عباس .. قيضت هذه السماء الدنيا . وقال ابن الأثير : قضت القاروة فانقاضت أى انصدعت ولم تتفلق ، وانقاض الجدار انقياضاً أي تصدع .. » . وبعد هذا كلام كثير في مادة قيض .

اللهم إن هذا ليس عرضاً للشعر ولا تحليلا له ، ولكنه حشو للدماغ بما به ينقاض . . . على نحو ما كان يصنع شراح القصائد من أمثال ابن حجر المكي في شرحه

---

(١) ص ١٢٨ من الكتاب ، (٢) ص ١٤٢ من الكتاب .

(٣) خطأ مطبعي صوابه « منقاضة »

لبردة البوصيري[١] ، وابن عمر الهندي لقصيدة بانت سعاد ، والشيخ المناوي لقصيدة ابن سينا الفيلسوف في النفس[٢] ، وعبد الله باشا فكري لقصيدة حسان بن ثابت الهمزية. فقد نقل في خلال الشرح كثيراً من مادة لسان العرب ، كما صنع في تفسير لفظة «قفر»[٣].

ولا نعيب على الدكتور صبري هـذه الثروة اللغوية التي نعرفه منقراً عنها وباحثاً فيها ؛ ولكن الذي نعيبه هو ازدحام هـذا الشرح الجميل بما كان يمكن الاستغناء عنه والتخلص منه .

والحق أن هذه الثروة قد نفعت المؤلف حين كان يوازن بين النصوص . فهنا كانت تلهمه فطرة لغوية سليمة يظاهرها اطلاع رحيب . فإن رواية بيت البحتري في وصف البركة :

يعمن فيها بأوساط مجنحة كالطير تنقضّ في جو خوافيها

لم تعجبه . وكذلك لم تعجبه رواية « تنشر » و«تنفض » فرآها « كالطير تنغض في جو خوافيها » . لأن المقصود وصف حركة الخوافي في الجو وهي مكشوفة ترتجف في الهواء ؛ والنغض المتحرك في ارتجاف .

ورواية البيت الآتي في وصف إيوان كسرى :

لابسات من البياض فما تبـ صر منها إلا غلائل برس

لم تعجبه ، ويرى أن تكون « فلائل برس » جمع « فليلة » وهي الشعر المجتمع . وفات أستاذنا المناسبة اللطيفة بين لابسات وغلائل ، والغلائل ما يلبس تحت الثوب .

وكذلك لم تعجبه رواية البيت الآتي من قصيدة يصف فيها البحتري معركة دارت بين ابن دينار والروم :

كأن ضجيج البحر بين رماحهم ـ إذا اختلفت ـ ترجيع عَوْدٍ مجرجر

ورآها : — « كأن ضجيج البحر بين رياحهم » . لأن اختلاف الرماح — عند المؤلف — لامعنى له ولاعلاقة لضجيج البحر به . والدكتور صبري شاعراً لا يرضي أن يضيف الرياح إلى الجيوش المقاتلة ، فيقول : رياح جيشنا أو رياح عدونا . وهل للجيوش رياح ؟

* * *

ولم يسلم شعر البحتري — كشعر كثيرين غيره — من اختلاف في الرواية .

---

(١) المطبعة اليمنية سنة ١٣٠٧ هـ . (٢) مطبعة الموسوعات سنة ١٣١٨ هـ .
(٣) الآثار الفكرية ص ٢٥٦ .

وللمؤلف هنا فضل التحقيق والترجيح حين تتعدد الروايات ، وهو جهد لايستهين به إلا من لم يجربه . ولكن الدكتور صبري آثر العافية أحياناً في بعض المواطن على تنوع المصادر وازدحامها بين يديه . فقد روى بيتاً من سينية البحتري هكذا : —

من مدام تقول ها هي نجم ضوَّأ الليل أو مجاجة شمس

وتلك روايته ؛ أما رواية الديوان فهي « من مدام تقولها هي نجم » . ورواية أبي العلاء المعري « من مدام تقول ها وهي نجم » و« الوهي » مصدر « وهى » بمعنى سقط . ولكن الدكتور لم يشر إلى رواية ياقوت في معجمه « من مدام تخالها ضوء نجم ». وهي رواية تخلصنا من تأويلات المعري ومن شروح الشراح ، وما كان لها أن تندّ عن اطلاع أستاذنا الكبير[١].

والمؤلف تسعفه في تحقيق النصوص أمور : منها ذوقه وقد كتب الله له السلامة ، ومنها فطرته العربية وقد أكلها الله بالصحة ، ومنها معرفته بأسرار الأساليب ومفاتيح الكلام . وهو يقف أمام النص الواحد مهما أجمعت عليه المصادر فيرى فيه الراي ، فيذكر الروايات المختلفة ويذكر رأيه هو ، وقد يبنيه على الظن فيقول : لعل الصواب كذا . وذلك ظن قد يسمو إلى اليقين . وقديماً قال الشاعر : « ... وظن الألمعي يقين » . وأحياناً يصحح المؤلف الرواية من غير أن يشير إلى التصحيح ، وحبذا لو أشار ! حتى يقف القارىء على النص كما روي والنص كما صحح .

ففي صفحة ١٧٠ روى عن ابن خلكان أنه قال : كان البحتري كثيراً ما ينشد هذا الشعر ويعجبه وهو :

حمام الأراك ألا فاخبرينا لمن تندبين ومن تعولينا
لشققت بالنوح منا القلوب وأبكيت بالندب منا العيونا
تعـالي نقم مأتماً للهموم ونعول إخواننـا الظاعنينا
ونسعدكن وتسـعدننا فإن الحزين يواسي الحزينا

والبيت الثاني في ابن خلكان هو : « فقد شُقتِ بالنوح منا القلوب »[٢] . وورد كذلك في تاريخ ابن العماد الحنبلي[٣] ولكن الدكتور صبري لم تعجبه « شقت » من الفعل « شاق يشوق » فجعلها « شققت » من الشق والصدع ، ولا أدري عن أي مرجع كان هذا التصحيح الذي لم يدلنا عليه الدكتور ؟!

---

(١) معجم الأدباء طبعة الدكتور أحمد فريد رفاعي ج ١٩ ص ٢٥٦ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٣٤ (٣) شذرات الذهب طبعة حسام الدين القدسي ج ٢ ص ١٨٨ .

إن أحاسيس النفس الإنسانية عامة بين الأمم ، لم يختص بها قبيل دون قبيل . وقد يكون للشاعر البدوي من دقة الحس في بعض المواطن ما لا يكون لغيره . وقد يكون عند العربي من لفتات الذهن وإيماض الفكر ما نجد نظيره عند الغربي . فالخيال الإنساني لا يكون قاصراً بين الأمم إلا بمقدار ما يكون القصور بين فرد وفرد من أمة واحدة . والدكتور صبرى عنده كثير من الموازنات بين هذه اللغات . فإذا ذكر قول أبي العتاهية : روائح الجنة في الشباب ! ذكر بجانبه قول « لى كونت دي ليل » أيها الشباب ! يا أرج الغاب والشجر . وإذا ذكر قول البحترى

ولو فهم الناس التلاقي وحسنه   لحبب من أجل التلاقي التفرق

ذكر معه قول « ألفريد دى موسيه » : Le Retour fait aimer l'adieu

وإذا ذكر قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالى*

ذكر معه قول الشاعر الفرنجي فى بلبل وجده ميتاً على الأرض : Comme un caillou de sang أى كأنه حصاة من دم .

وهذه اللفتات فيها تيقظ كثير لمواهب الشاعرية العربية التى يؤمن بها المؤلف إيماناً كبيراً ، وهو إيمان العلم والمعرفة ، لا إيمان التعصب ودعوى الجنس . وهذا الإيمان البالغ قد يعرض الأحكام إلى المثار من الكلام ... فإن الدكتور صبرى يقول في صفحة ٦ « إن الشعر الجاهلى يمتاز بأنه فى مجموعه صادر عن الطبع والعاطفة ، لا يعرف الاستجداء والهجاء » . وفي هذا الحكم نظر . لأن الهجاء قد صاحب النفس العربية منذ غضبت وكرهت وسخطت ، ومنذ احتربت على الكلأ واقتتلت على المرعى ، والجاهلي إذا غضب هتك حجاب الشمس . . . وذلك غايته ، أو هجا خصمه وذلك أدنى مراتب الغضب عنده . فالشعر الجاهلي قد عرف الهجاء وسجل كثيراً منه ، ولكنه هجاء الفطرة الصادقة التي تثور فتشتم فى غير فحش ولا إقذاع .

ولم تظفر قصيدة بحترية من عناية المؤلف كما ظفرت قصيدة إيوان كسرى . فقد أطال الوقوف عندها ، وبين جمال التصوير فيها . وتلك عنايه بالغة بشاعر يراه المؤلف خير من بكى واستبكى على أثر ... ولكن القصيدة فى عرضها لم تسلم من ملاحظات ، فالأبيات الموصولة فيها رسمت على غير صحة ، مثل :

والمنايا مواثل وأنو شروا   ن يزجي الصفوف تحت الدرفس

---

* الشوامخ امرؤ القيس جـ ١ ص ٣٥

وصواب الرسم ليستقيم الوزن :

والمنايا مواثل وأنو شر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس

وسأورد هنا الأبيات الموصولة في القصيدة مصححة الرسم :

تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس
وكأن الإيوان من عجب الصنـ عة جوب في جنب أرعن جلس
وكأن القيان وسط المقاصيـ ر يرجعن بين حوٍّ ولعس
فكأن الجرماز من عدم الأنـ س وإخلاله بنيةُ رمس

والدكتور يطيل الوقوف في مواقف لا تستحق إطالة ، وقد لا تستحق وقوفاً ، بينما يمر على مواقف الاستحقاق مر الكرام باللغو .. فقد أطال الوقوف بباب الأبواب وأبيض المدائن والإيوان حتى الجرماز . ولكنه لم يقرئ « البلهبذ »(1) السلام ، ولم يعره أي اهتمام ، ولم يقل لنا ما هذا اللفظ الذي ما كان يستحق الإغفال والإهمال . أما لفظة الجرماز في قول البحتري :

فكأن الجرماز من عدم الأنـ س وإخلاله بنية رمس

فقد ذكر الدكتور أن البحتري يريد بها الإيوان نفسه ، ثم ذكر بعد ذلك قوله « وقد وجدنا بخط عبد السلام المصري على هامش نسختنا الخطية من ديوان البحتري ما يأتي : قال أبو سهل : الإيوان بالفارسية كرمانزي ، فعربه وقال جرماز » . وهنا لي كلمة . فإذا كانت الإيوان هي الجرماز فلماذا لم يستعملها البحترى في مكانها وهي لا تكسر البيت ولا تخل بالوزن ؟ وخاصة أنه استعملها بعد ذلك بأبيات فقال :

وكأن الإيوان من عجب الصنـ عة جوب في جنب أرعن جلس

وكلام عبد السلام المصرى نفسه فيه نظر فإنه يذكر عن أبي سهل أن الإيوان بالفارسية كرمانزي ومعربها جرماز . وهذا يوهم أن الإيوان عربية ، ولكنها أعجمية ، كما ذكر الجواليقي في معربه (2)

دع ذا وعد القول في الدكتور صبري . . . فقد تجملت فيه سماحة النفس وحسن التماس المعاذير حين تعرض لهجاء البحترى لمن ظل يمدحهم طويلا من الرؤساء . والهجاء في مثل هذا الحال لا يجد في الناقد معدى من أن يرمي البحتري بخبث النفس ونكث

(1) وردت كلمة البلهبذ فى بيت البحترى :

وتوهمت أن كسرى أبرويـ ز معاطى والبلهبذ أنسي

ولم يفتح الله على بفهمها وكان الدكتور صبري يضن علينا بتفسيرها .

(2) كتاب المعرب للجواليقي تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ص ١٩ سطر ١١

العهد . ولكن الناقد محمد صبري كان أكثر تقديراً للظروف التي عاش فيها البحتري ، وأكثر التماساً للعذر له عن عصر فسد ففسدت فيه القيم وتذبذبت فيه الأخلاق . وقد لا يعفي ذلك الدفاع البليغ البحترى من وقوع اللوم عليه وشدة المؤاخذة له . ولكن خلق صبري الكريم من ناحية ، وحبه للبحتري من ناحية أخرى ،كان أرحب من أن يضيق بما لا تتسع له الصدور .

* * *

أما ولادة البحتري فقد أرخ لها المؤلف سنة ٢٠٤ هـ . وهو تاريخ لم نجده إلا في دائرة المعارف الإسلامية [١] فى مادة « بحتري » . وهي مادة كتبها المستشرق مرجليوث ورجع فيها إلى الأغاني ووفيات الأعيان . ولكن [٢] ابن خلكان يذكر سنة ٢٠٦ وقيل سنة ٢٠٥ . وفى تاريخ بغداد [٣] أنه ولد سنة ٢٠٦ أو سنة ٢٠٠ ، وفي معجم [٤] الادباء أنه ولد سنة ٢٠٦ . وذكر ابن العماد الحنبلي أن ولادته سنة ٢٠٦ وصحح هذه الرواية [٥] . وذكر ابن الجوزى [٦] أن ولادته سنة ٢٠٦ . فالمصادر كلها مجمعة على سنة ٢٠٦ . ولم يذكر سنة ٢٠٤ إلا مرجليوث كما سبق بيانه . ولا أدرى سبب المخالفة عن هذا الإجماع ! على أن الاختلاف فى عام أو بضعة أعوام لا يقدم شيئاً فى قضية الشعر عند البحترى ولا يؤخر ، ولكن الرجوع إلي الإجماع أولى من هذا الانصداع .

بقيت أخطاء في الطبع نحب أن نشير إليها . ففي ص ١٢٤ « فهو يبدى تجلداً عليه » : والصواب « تجلداً وعليه » وفي ص ١٣٧ «جازت على الجوازات» والصواب « الجوزات » وفي ص ١٦٣ :

رأيت العراق ناكرتني وأقسمت ... علي صروف الدهر أن أتشاءما

والصواب « أتشأم » [٧] وفي ص ١٧٢ :

أيظلمني المستضعفون وقد رأوا ... تجهم ظلام متى يكو ينضخ

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة بحتري مجلد ٣ ص ٣٦٥

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) تاريخ بغداد جـ ١٣ ص ٤٧٧ .

(٤) جزء ١٩ ص ٢٤٨ طبعة دار المأمون .

(٥) شذرات الذهب جـ ٢ ص ١٨٨ طبعة حسام الدين القدسي

(٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ ٦ ص ١١ طبع حيدر آباد الدكن بالهند .

(٧) تشأم : أي انتسب إلى الشأم .

والصواب « ينضج » بالجيم لا بالحاء وفي صفحة ١٧٥ « فؤاد ملاه الحزن حتى تصدها » والصواب « تصدعا » وفي ص ١٧٨ « المعمِّر » وصوابها « المعمَّر » بالفتح وفي ص ٦٥ « الفتح بن خاقال » وصوابه « خاقان » وفي هامش ص ١٤٩ « مكان وحشي » والصواب « وحش » وفى ص ٦١ من شعر البحترى .

بأبي أنت والله للبر أهل والمساعي بعد وسعيك قبل

والشطر الأول مختل الوزن ولم أهتد إلى صحته وفى ص ١٦٩ « وجوههم السمحاء » والصواب المعروف « السمحة » . وهي من غير أخطاء الطبع .

لقد أحب الدكتور صبرى البحتري فعرضه في كتاب هو أول دراسة تحليلية للشاعر فى الأدب العربي . وليت شعراء العربية يظفرون من أستاذنا بمثل هذا الحب ، حتي يكون لكل منهم في عنق الدكتور كتاب مثل هذا الكتاب .

محمد عبد الغنى حسن

التعريف

المجاني الحديثة

عن مجاني الأب شيخو

شرح وترتيب وتبويب الأستاذ فؤاد أفرام البستاني

الجزء الأول في ٣٩٦ صفحة من القطع المتوسط . المطبعة الكاثوليكية . بيروت ١٩٤٦

لما أصدر الأب لويس شيخو اليسوعي كتابه الباقي « مجاني الأدب » لقي من أدباء العربية وقرائها ما يلقاه الكتاب المفيد حين يحدث في الأدب حدثاً أو يشق طريقاً أو يفتح معلماً . وسل من شئت من الأدباء والمتأدبين عن فضل مجاني الأدب عليهم وأثرها فيهم ، وهو فضل يبين كلما تقادم العهد وتطاول الزمن ، يدل على ذلك توالي طبعانه بنسبة لم يلقها كتاب عربي .

وتعرف قيمة الكتاب بمقدار موافاته لحاجة أهل عصره ومطابقته لرغباتهم . فإذا جاز عصره إلى عصر تال وظل على قدره فهو الكتاب الذي لا يغيره زمان .

وقد كان من الممكن أن يظل مجاني الأدب على الوضع الذي تركه عليه جامعه ،

وعلى الأسلوب الذي التزمه فيه واضعه ، فلا يفقد بذلك شيئاً من نفاسته وذخره ؛ ولكن الأستاذ فؤاد أفرام البستاني رأى أن يضيف على هذا الكتاب من المادة والأسلوب ما يبلغ به الغاية التي كان يرنو إليها واضعه الأول . ورأى أن يحدث في ترتيب المجاني على تسلسل العصور ما يعطي القارئ فكرة واضحة عن تدرج أساليب الشعر والنثر تبعاً للتدرج الزمني .

والحق أن المجاني القديمة كانت روضة ائتلفت فيها الأزهار وفق نوعها لا وفق زمانها وعصرها . فقد تجد فيه زهرة أموية وبجانبها زهرة من نوعها لعصر متأخر ، وقد تجد في صفحة فحولة البادية وأسرها بجانب رقة الحضر ولينه . ولكن الأستاذ فؤاد أفرام البستاني رأى أن يوائم بين العصور ، حتى يظهر كل عصر متميزاً بطابعه ومميزاته ، وخصائصه ومؤثراته ؛ فجعل الجزء الأول — وهو الذى نحن بسبيل التعريف عنه اليوم — في العصر الجاهلي ، والجزء الثاني في صدر الإسلام ، والجزء الأخير في عصر النهضة أو الانبعاث الجديد .

وفي « المجاني الحديثة » من مزايا التبويب العلمي والإخراج المنهجي ما يجعله مرجعاً صحيحا موثوقاً به من مراجع الأدب العربي . ولقد بدا العصر الجاهلي برمته في هذا الجزء على أكمل ما يبدو عليه عصر من العصور من حيث التاريخ الأدبي ، فهناك الشعراء الصعاليك وأصحاب المعلقات وشعراء البلاط والشعراء الفرسان وسائر الجاهليين . ولكل شاعر ترجمته في إيجاز يوثقه التدقيق ، وكلمة عن ديوانه وما اختلف عليه من طبعات المستشرقين وتحقيق المحققين مع ذكر سنوات الطبع في الشرق والغرب . وذلك عمل يضفي على المجاني الحديثة ثوباً من التحقيق العلمي الذي يفيد الكاتب حين يكتب ، والباحث حين يرجع .

ولكل قصيدة في هذا الكتاب مفتتح من عمل صاحبه ، يعرف بها ويخرجها ويذكر أصح الروايات فيها ويحللها ويبين أغراضها والمعاني التي اشتملت عليها . وذلك عمل آخر يستحق الثناء .

ولقد استقلت المجاني القديمة بجزء سابع للشرح ، وهو شيء يشق على القارئ حين يعثر باللفظة الغريبة فيلجأ إلى كتاب آخر مفتشاً ومنقراً . أما المجاني الحديثة فقد وقتنا هذا العناء بالشرح الدقيق في أسفل الصفحات ، فلا تتكلف عين القارئ غير تقليب الطرف من أعلى المتن إلى أسفله .

وجاءت مادة الشعر الجاهلي في هذا الكتاب خمسة أضعاف ما جاءت في المجاني

القديمة . وتلك ثروة يفرح لها عشاق الأدب العربي القديم .

ولقد بلغت فهارس الكتاب عشرة في الأشخاص والقبائل والأماكن والحيوان والنبات والثياب والمعبودات والأيام والمعارك والأسلحة والكواكب وأسماء الكتب . وذلك عمل يعنى صاحبه لراحة القراء ، وهو شأن الثقات من العلماء .

بناة العلم في الحجاز الحديث

السيد أحمد الفيض آبادى

تأليف الأستاذ عبد القدوس الأنصاري

١٠٣ صفحات من القطع المتوسط . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٦

هذا كتاب في تاريخ حياة رجل أعان — بقدر كبير — على نشر العلم في الحجاز الحديث . ومن نشر علماً فكأنما أحيا أمة وطوى من صحائفها صحف الجهل الذي يهد الأركان وينقض البنيان .

ونحن محتاجون إلى نشر سير دعائم النهضة في البلاد العربية ، وأقل ما في ذلك الوفاء لهم ، حتى لا يقال : جميل زرع في غير أهله ، ومعروف صنع في غير مستحقه . وهناك فوق الوفاء لهم عرض سيرتهم على الناس حتى يجدوا منها المثال الصالح والقدوة الطيبة ، فيشيع فيهم الاقتداء بالعامل ، والاحتذاء بالمثل الكامل .

وأسرة المترجم له تنزع إلى العرب بعرق كريم ، ولكنها نزحت إلى الهند منذ فتح الله على المسلمين بها في عهد الغزنويين ، وظلت هذه الأسرة العربية تحن إلى وطنها العربي الأول حتى كان لبعض أفرادها في مدينة الرسول مقام حميد .

ومنذ نصف قرن رغب السيد أحمد الفيض آبادي في تأسيس مدرسة بالمدينة المنورة تجمع إلى العلم النظري العلوم العملية ، وهي رغبة لم تسعف الأيام صاحبها على تحقيقها إلا منذ ربع قرن — أي في سنة ١٣٤٠ هـ .

وبدأت مدرسة العلوم الشرعية في المدينة — تبعاً لسنة الأشياء — صغيرة ، ولكن همة منشئها كانت أكبر من الزمن ، فوصلت بجهده وإخلاصه وصدق عزمته ، وبظهير من أخلاقه وطموحه إلى غاية نرجو المزيد منها حتى تتحقق رغبته في جعلها جامعة إسلامية عربية .

وأمدت المدرسة الحجاز الناهض على يد العاهل ابن سعود بطائفة من المتخرجين فيها، اشتغلوا بوظائف الحكومة وزاولوا التدريس، فكانوا طلائع نهضة علمية في الحجاز ومنهم مؤلف الكتاب الذى يصدر اليوم في الحجاز مجلة « المنهل » الشهرية وهى تعد فتحاً جديداً فى تاريخ الصحافة الأدبية العربية بالمملكة السعودية .

لقد كان المؤلف وفياً لأستاذه حين ترجم له في هذا الكتاب ، ووفياً لعهده حين أرخ له في خلال الترجمة ، ووفياً لقومه حين أخرج لهم مثلا من الجهاد العربي حين يصدق ، ووفياً للغته حين كتب بها في بيان مشرق وأسلوب معجب ، فيه كثير من الواقع ، وفيه شيء من الخيال الذي مزجه بالحقيقة ، حتى تكون الترجمة طرفة أدبية لا مجرد حقيقة تاريخية .

إن بين الأقطار العربية من وشائج الأمل المشترك والهدف المتحد مايجعل الواحد منها يفرح بالخير يصيب أخاه . وفي انتشار العلم بالحجاز خير يفرح له العربي في مختلف أوطانه : ولهذا كان فرحنا بهذا الكتاب فرح الإخوان ، مهما باعدت بينهم الأوطان ...

ده لا كروا

تأليف الأستاذ قيصر الجميل

٦٥ صفحة من القطع المتوسط و٣٢ لوحة مصورة . دار المكشوف . بيروت ١٩٤٥

« ده لا كروا » مصور فرنسي رأى النور في الحياة مع الثورة الفرنسية فخرج ثائراً على تعاليم المِفنّ « دافيد » كما ثار عليها زميله ومعاصره « جريكو » .

ولم تكن ثورة ده لا كروا الفنية طيشاً ولا غروراً كما يصطنع ثوار الفنون حين لا يجدون ما يبدعون . ولكنها ثورة على الرغم من التجديد فيها تستند إلى روعة القديم وتستمد منه وحياً لفنها الجديد .

ألم يختلف ده لا كروا إلى متحف اللوفر فيقف ويطيل الوقوف إلى لوحات «رافائيل» « وروبنس » «وفيرونيز» « وتيسيان » يأخذ منها إلهاماً ووحياً لفنه الغني ثم يضيف إليها جواً من وحي نفسه فتخرج له لوحة مثل « محرقة سردنبال » التي بلغت القمة فى روعة الفن لأنها تنبض بالحياة وتندى بالظلال الندية وتزدهر باللون الوردي المتلألئ الذي أخذه ده لا كروا عن روبنس الذي لم يجد الفن أسخى منه يداً في قيمة الألوان .

وهذه الروح الثائرة في فن ده لا كروا لم تفارقه حتى وهو يدون أحداث التاريخ ،

وهو بهذه النظرة يرى الدنيا كلها مجزرة عنيفة وشعلة تؤججها أحقاد الإنسان التي لا تنتهي إلا بنهايته. ولقد كان هو نفسه حاقداً على النقاد الذين حقدوا عليه ، وبلغ بأحدهم الحقد أن يكتب عن إحدى لوحاته « إنها صورت بمكنسة سكرى » . لذلك ظلت ثورة هـذا الفنان عارمة لا تهدأ ، وامتدت إلى لوحته التاريخية « موت شارل الجسور » فأشاعت في جوها الفجيعة . . . في السماء وهي تعبس ، وفي الجواد وهو يكبو ، وفي عُصب الخيل وهي تختلط بالرجال ؛ وفي الرمح وهو ينفذ إلى الجسد المطار . . .

ترك ده لا كروا عدداً من اللوحات ارتفع بعضها إلى أعلى القمم . وترك وراءه حياة مملوءة بالصراع والنزال ، أما لوحاته فقد بلغت بضعة من الآلاف منها ٨٥٣ لوحة زيتية . وأما صراعه فقد انتهى بانتصار فنه ورسوخ قدمه .

ولقد عاش مؤلف هذا الكتاب مع ده لا كروا في القرن التاسع عشر ، فاستطاع في صفحات من الكتابة وصفحات من الرسم أن يصور لنا لوحة لمصور ، واستطاع أن يجعل هذه اللوحة القلمية غنية بالألوان والظلال ، زاخرة بالحركة والحياة كأن كل كلمة من كلماته نبضات عرق وخفقات قلب . .

جميل أن يدرك الشرق العربي في إبان وعيه القومي قيم الجمال وأقدار الفنون . فهي ضرورية لمجتمع بدأ ينزع عن معاقد أجفانه سبات السنين . وأجمل من هـذا أن يكون توجيهنا في عالم الفن بيد جماعة هذب الفن نفوسهم وصفّى أرواحهم ورقق أذواقهم. والأستاذ قيصر الجميل ذو فن بريشته ، وذو فن بشباة قلمه . وناهيك بالفن الجميل إذا اجتمع للأديب المصوِّر ، وللرسام المعبِّر . .

موجز تواريخ الحروب والقرون

تاريخ القرن العشرين — الجزء الأول

٤٠٠ صفحة من القطع الكبير . مكتبة الهلال : القاهرة ١٩٤٦
تأليف الأستاذ حنا أبي راشد

ومن وعى التاريخ في صدره أضاف أعماراً إلى عمره

سيظل هذا البيت حكمة القرون ما دامت سلسلة التاريخ البشري موصولة الحلقات . وسيظل الناس محتاجين إلى قراءة الماضي ليصلوا ما بين تاريخ الإنسانية وحاضرها .

وليست قراءة التاريخ للتسلية والحكاية ، وإنما هي للعبرة والدراية . والمعرفة

بالتاريخ ضرورية لكل أمة تتخذ من الماضي عبرة الحاضر وأمل المستقبل . ومعرفة الأمة تاريخها نفسها ضرورية لها لما في ذلك من المعرفة بالنفس. وإذا جهلت الأمة تاريخها فقد جهلت قدر نفسها ، ومن جهل قدر نفسه كانت حياته قليلة الغناء أو عديمة الجداء .

ومعرفة الأمة تاريخ غيرها من الأمم أشد ضرورة لها ، لما في ذلك من المعرفة الشاملة بأحوال الإنسان وتقلبات الزمان . وهي معرفة تبصر الأمم بأحداث جرت على غيرها فتتخذ منها عبرة لنفسها .

والمعرفة بالتاريخ جملة تولد بين الأمم ألواناً من حسن التفاهم والتعاون ، حتى يتحقق بينها نوع من الإخاء المنشود لحفظ السلام وبث الوئام ، على شرط أن يكون سرد التاريخ على نحو لا يؤجج عداوة ولا يؤرث حقداً . ولكن على نحو يبين مواهب الرجال ومميزات الأبطال مهما اختلفت أجناسهم وأديانهم، كما صنع الأستاذ حنا أبو راشد في كتابه هذا . فقد جمع سيرة الدنيا كلها في كتاب ، وأرخ لكل قرن ميلادي بأهم أحداثه في العالم كله ، حتى يعرف القارىء ما كان يدور في كل قرن من مشرق الأرض إلى مغربها، وانتهى إلى القرن الثالث عشر الميلادي ، ولعله منجز بقية القرون إلى العصر الحديث فيما يلي من أجزاء .

ومزية هذا الكتاب أن القارىء يعرف تاريخ العالم كله في كل قرن ، ففي القرن العاشر الميلادي مثلا يقرأ تاريخ العباسيين والفواطم وفرنسا وإنجلترا والمانيا في حقبة متحدة من الزمان ، فلا يكون التاريخ العالمي مفككا ، ولكنه يقع في الكتاب كما وقع في الزمان موصول الحلقات .

وحي العزلة

تأليف السيدة أمينة السعيد

١٦٣ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٦

ثلاث شقيقات عرفن في تاريخ الأدب الإنجليزي باسم الشقيقات برونتي : أولاهن شارلوت ، والثانية إميلي ، والثالثة آن . نشأن في عزلة سحيقة قاتلة في برية من براري إنجلترا ، وولدن في قرية ثورنتون قرب بردفرد إحدى مدن يركشير .

نشأ مستر باتريك برونتي سليلا لأسرة سادت بضعة قرون ، ولكن الزمان

ضعضعها حينما انتهت نسبتها إليه ، فاشتغل بالتدريس زمناً ولكنها مهنة أسأمته وكادت تقتل طموحه ، فدرس اللاهوت، وانتهى به الأمر أن كان وافهاً « رئيساً دينياً » لبيعة هاوارث القريبة من بردفرد

وقرية هاوارث مثل أغلب قرى الريف الإنجليزي ، تغلب عليها مسحة الحزن والهدوء والصمت الذي يشبه صمت القبور . وهي في عزلتها الموحشة وسط براري يركشير توحي إلى ساكنها بمعنى موحش حزين .

في هذا الجو الحزين بين قرية معزولة وبيعة مهجورة ودار محزونة عاش الشقيقات عيشة نغصتها الأيام كل يوم بمطلع همّ جديد . ولم تكن شارلوت كبرى شقيقاتها ، ولكن سبقتها إلى الوجود ماري وأليزابث ، ولكن الموت اختطفهما صغيرتين ، وأبقى للوالد الحزين ثلاث بنات وولده برانويل .

ولم تكن حياة هذه الأسرة التاعسة على حال من السعادة أو قريب منها . فقد فقد الأبناء عطف الأم ورعاية الوالد الذي كان في شغل عنهم بأمور بيعته . وكانت دار البيعة على انقباضها وضيقها وحرمانها الشمس والهواء وانخفاض سقفها لا تجعل الحياة فيها سعيدة ولا مريحة بعض الراحة . ولم يبدل سلوك الأب نحو أبنائه من وحشة الدار شيئاً ، فقد كان في طبعه جمود ، وفي أوامره صرامة ، وفي قلبه بغض للأطفال ، لأنهم جعلوا حياته سلسلة من مضايقات لم يكن يتوقعها من زواجه . وكان يحب الخشونة في عيشه وفي مظهره ، حتى لقد ضاق صدره بثوب حريري لزوجته فألقى به إلى نيران الموقدة ...

وأضيف إلى الأسرة هم جديد : فقد كان الشقيق برانويل فتى وسيم الطلعة ظاهر المواهب في التصوير ، ولكن الحياة انحرفت به وتعرف إلى صاحب حانة الثور الأسود ، فكان ذلك مبدأ انحداره إلى الهاوية . وأصابت الفتى الطموح لوثة جناها عليه إغراقه في الخمر والأفيون ، تشبهاً بالأديبين الكبيرين كاريدج ودي كونسي . وانحطت صحته وآذنت شمس حياته بمغيب . فمات ولم يدرك من الشهرة الأدبية أو الفنية ما كان يطمح إليه .

وفي وسط هذه الأحزان المفجعة كان النبوغ يأخذ سبيله إلى الشقيقات الثلاث . فكتبت شارلوت روايتها « جين إير » ، وإميلي تحفتها « مرتفعات وذرنج » ، وآن روايتها « أجنس جراي » . وهي قطع خوالد في الأدب الإنجليزي .

وقد لقي الأديبات الشقيقات في إخراج هذه الروائع ما يلقاه النبوغ الباكر من جحود ، ولقين في طبع كتبهن عنتاً من الناشرين ، وإهمالا من الناقدين ، وإغضاء من القارئين . ولكن الجحود لا يدوم ، وظلم التقدير لا يستمر ، والقيم الصحيحة لا تظل

منكرة إلى الأبد . فتنبه العالم الأدبي إلى قيمة مرتفعات وذرنج الأدبية ، ورفعها النقاد إلى مصاف الروايات الخالدة ، ولكن إميلي مؤلفتها لم تظفر أذناها بكلمة من المدح الذي أخذ ينهال على مواهبها بعد . فقد كانت حينذاك تنعم في صفائح القبر بصمت طويل .

إن قصة الشقيقات « برونتي » هي قصة شقاء وكفاح وحزن طويل . وهي أحق أن تهدى إلى الذين يعملون في عزلة ، ويشقون في وحدة ، ويتعذبون في حرمان ، ويحملون الألم في صبر جميل ، لعل مجد الموت يعزيهم عما فاتهم من مجد الحياة وسعادتها .

لقد جلت امرأة إنجليزية كاتبة اسمها مسز جسكيل حياة الشقيقات الثلاث « برونتي » في كتابها الذي يعد أوفى ترجمة لأولئك المعذبات العبقريات ، واستطاعت السيدة أمينة السعيد أن تجلو في بيان عربي مبين هذه الحيوات .

ولعلها بذلك قد تأسو جراح المعذبات والمعذبين من الذين يعدون في تاريخ البشرية بالملايين . . .

صدى النقد

البيـــادر

رد على رد

بقلم الأستاذ خليل هنداوي حلب

قرأت رد الأستاذ سيد قطب على ردي ، فكان لا بد من التعقيب على نقده ، أو على نقدي السابق ، بهذه الكلمة توضيحاً للقصد أو للرد . وليست غايتي منها الإمعان في الجدل الذي لا يراد منه إلا الجدل !

يتساءل الأستاذ بعد أن أورد فقرات من مقالي — كيف فهمت ما دخلت في المناقشة فيه — وأية جملة من جمله أوحت إلي بذلك ؟

وإن له الحق أن يتساءل ، ولي الحق أن أجيب ، وأن أضع الجملة بأمانة أمام القراء .

يقول الأستاذ في نقده الأول : « وبعد ، فالمؤلف يظل موفقاً ما ظل في الدائرة

الواضحة ، وما ظل يواجه المسائل التي يبحثها مواجهة . ولكن يعن له في بعض الأحيان أن يدخل في دائرة الرمز . وهنا يفارقه التوفيق » .

وهذا كلام لم أتعرض له في قليل ولا كثير من ردي الأول ، ثم يعقب الأستاذ : « كما أن هناك بعض الموضوعات التي تهبط عن مستوى الكاتب والكتاب ، مثل مقالي . « البيادر والصخور » فليس فيهما من ميزة فنية أو ذهنية تجعلهما جديرين بالنشر في مثل هذا الكتاب الذى يحوي في جانبه الآخر قضايا كبيرة عولجت أحسن علاج » .

لنحصر إذن نقطة الخلاف في هاتين القطعتين : فماذا يرى الأستاذ فيهما من نقص فني أو ذهني يجعلهما غير جديرتين بالنشر ؟ أيعود هذا النقص إلى أنهما غير لائقتين بأن تقفا أمام بقية مواضيع الكتاب الكبيرة ؟ وإذا شاء الكاتب فليفسر لي مفهوم عبارته الصريحة ؟ أولا ، لأنها بلغت من الصراحة ما يجعلها غنية عن التفسير ! ولكن الأستاذ يستطيع أن يعيد النظر في هاتين القطعتين ، وإنه سيستطيع ، بل يجدر به — بعد أن اتفقنا على أن « الموضوعية » نفسها لا تقدم ولا تؤخر فى قيمة الموضوع الفنية — أن يبدل نظرته التى كانت قاسية عليهما ، لأنني رأيت في القطعتين من الناحية الفنية والشعرية نموذجاً عالياً بلغ القمة ، وهما بعد واضحتان ، لأن نعيمة لم يعالجهما بطريقة الرمز والإيماء ، بل عالجهما بفن قويم عرف كيف ينسق بين الألوان فيها والصور والخواطر المبثوثة .

ثم من التسرع في الحكم أن يتهمني الأستاذ بأنني أقدر القطعة الفنية بقدر ما أعرف عن حقيقتها ، لأنه يدرك جيداً أن هذا الاتهام هو آخر ما يجب أن تنفضه يده . وإنما طلبت إليه ، وإلى كل ناقد ، أن لا نستعجل الحكم على شيء قبل أن نتمثل طبيعته وبيئته التي يحيا فيها .

وأذكر أن نقاداً كثيرين — ومنهم صاحب الوساطة — دعا إلى مراعاة هذا الجانب، لأن كثيراً من الاستعارات والمجازات وبعض الصور التي تستسيغها بيئة ، قد تمجها بيئة أخرى ، لا لضعف أو انحطاط ، ولكن استجابة لعوامل البيئة وحدها . وشاهدنا على ذلك كثير مما ينقل إلينا من صور واستعارات في الأدب الغربي ، وإن كان بعضها يتبع طبيعة اللغة نفسها . وأردت أن أنتقل من هذا الحكم الخاص إلى الحكم العام فيما تفعله مستلزمات البيئة فى الأدب المصري والسوري والأندلسي مثلا ، فإذا بالأستاذ يريد أن يفسر ذلك بأنه وليد حركة أدبية انفصالية، أو على الأقل يريد أن يرى تفسيري مدفوعاً بهذه الروح . وما كل هذا ولا بعضه مر بنفسي حين عالجت الموضوع . ولكن

أرى — على رغم تقديري بأن مناهلنا الأدبية والثقافية تكاد تكون واحدة — أرى مع ذلك أن روح إنتاجنا سيكون مختلفاً، لأن هذه الطبيعة المختلفة تريدنا على هذا الاختلاف. فهل يريد الأستاذ أن ينكر فواعل هذه الطبيعة والبيئة في نفوسنا وأدبنا؟ لأن هنالك — كما تدل عليه أبسط قواعد النقد — ميزات عامة تفرضها البيئة، وميزات خاصة تفرضها طبائع الأفراد التي تسلك إلى غايتها طرائق أدبية مختلفة. وها هم أولاء كتاب المهجر أنفسهم يختلفون في كثير من خصائصهم الأدبية عن قرنائهم في الوطن نفسه! وإني لأذكر هذا تأييداً لحجتي وحجة الأستاذ نفسه في وقت واحد.

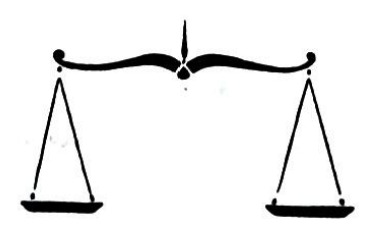
على أنني — فيما كتبت — لم أقصد أن أتصدى لذوق الأستاذ الذي أحترمه، وأجد أن الخلاف بيننا مما يوجب عليّ احترامه أيضاً، لأن الاختلاف في الأذواق ليس بعجيب في الأدب، بل العجيب ألا يكون هنالك اختلاف في الأذواق. وأنا لم أرد من هذا الاختلاف أن أزيد الاختلاف انفراجاً، بل أردت السعي إلى الإمعان في تفهمه وتقديره، لنجعله من خصائص هذا الأدب الذي يحيا في أجواء مختلفة، وعند ذلك يتسامح النقد في تقدير وجهات الفروق الظاهرة عليه. وعلى كل، ما جئت به كان اجتهاداً مني يقبل الأخذ والرد، والنقد والجدل. وهناك اتهام آخر أريد أن أرده بكل ما في وسعي. لقد ظن الأستاذ الكريم أنني أردت الطعن في الأدب المصري حين تناولت مسألة التجرد المصري الذي نعته بالتقليد اجتهاداً، وأنا أربأ بنفسي من أن أسم بهذا الميسم أدباً أحترمه وأطالعه وأنشره. وها هي صفحات المقتطف والرسالة مثلا جمعت مراراً بين اسم الأستاذ وا سمي وغيره من الكتاب. وكيف أنكر على الروح المصرية ذهابها إلى الرمز، وهي الروح العالمية الثانية التي نطقت بالرموز بعد الروح الهندية. وإنما أردت «الجو الخيالي» الذي تتناسب ألوانه بحسب البيئات الباعثة عليه. أليس يرى الأستاذ معي أن البيئة الأندلسية مثلا كانت أكثر ألواناً وأوفر صوراً من أية بيئة عربية؟ مع أن مصادر ثقافة هؤلاء الشعراء كانت واحدة. ومعنى هذا أنني إذا قلت: إن عوامل البيئة اللبنانية أغنى ألواناً من البيئة المصرية، لم أكن منتصراً للأولى، ولا ظالماً للثانية!

وأما قول الأستاذ «بأن كتابي سارق النار — وهو أهم أعمالي الفنية عنده — جاء بعد مسرحيات الحكيم الرمزية» فلا أدري سبب إقحام هذا القول في الموضوع، إلا أن يريد أنني متأثر بروح الحكيم، وظلي تابع لظله. وهذا قول أترك للأستاذ نفسه تفنيده حين تناول كتابي بالنقد على صفحات الرسالة نقداً نزيهاً أعجبني، لأنه صادر عن رأي

حر صريح . وكان من جملة أحكامه أن الحكيم ومؤلف سارق النار يسير كلاهما في طريقه بدون أي تأثر . وفي كتابي سارق النار قطعة « بيجماليون » . ويذكر القراء أن للحكيم مسرحية « بيجماليون » ، فإذا كان هناك اتباع أو تقليد فليظهر على الأقل في هاتين القطعتين المتحدتين . ولكن الأستاذ الصيرفي قارن بين القطعتين على صفحات المقتطف وانتهى من هذه المقارنة إلى أن كل شيء — في هاتين المسرحيتين — من ألوان ومعان وصور ، يبعد الواحدة عن الأخرى ، كما يبعد الكاتب الاول عن الثاني . فلا أنا متأثر بالحكيم فيها ، ولا الحكيم متأثر بي ، ولا كلانا متأثر ببرنرد شو في بيجماليون . على أن الأدب قد عرف أن قطعتي سبقت قطعة الحكيم نفسه ، فلم أدع لنفسي الفضل بهذا السبق . على أنني والحكيم — حين نتناول هذه الأساطير — نبقى تلميذين في الناحية الفنية للفن اليوناني الأصيل ، وإن الذي يمنعنا عن نشر الشيء في إبانه هو ما نلاقيه من عوائق في وطننا الخصب بصوره وطبيعته ، المجدب بروح أهله المقدرين للأدب . وهذه حقيقة مرة يحملني على الجهر بها أنها حقيقة .

وختاماً يجدر بي أن أنبه الأستاذ الكريم إلى أن يجنب ذهنه أي ظن يطرقه بسوء الظن مني في أدبه واستقامة مقاييسه الفنية . وهو الذي دل بكتابه « التصوير الفني في القرآن » على ذوق مرهف ، ولكنني أكرر ما قلت : إن الخلاف في الأدب والفن قد يكون — أحياناً — أكثر ائتلافاً من أي اتفاق .

خليل هنداوي



دنيا القصص

انفجار

للأستاذ محمود عزت موسى

استيقظ محسن أفندي فى الصباح على طرقات « أم حنفي » المتوالية على باب غرفته ، وهي تذكره بأن الساعة قد صارت السادسة والنصف ، وأن موعد الديوان قد أزف . ولكنه شعر بتثاقل لذيذ ، وخمول هادىء وتراخ يتمشى في أعصابه ويوحي إليه أن يخالف تلك العادة السخيفة التي تقضي عليه أن يبكر في صحوه ، كأنما يعيش بلا إرادة ، وكأن جسمه وعقله وعواطفه قد صارت كلها ملكاً للوظيفة ، ما هذا ؟ ما هذا ؟ولأول مرة شعر بحنان الفراش على جسمه الذي خدرته الأحلام ونشوة الليل الذاهبة ، وشعر بأن الفراش يجتذبه إليه ، ليستسلم إلى أحلام تذكره بالليلة الماضية التي قضاها في المرقص، وقد شاهد فيه السيقان والنحور والأذرع عارية والنهود تكاد تمزق أطرافها الثياب الحريرية الملتصقة بها، والظهور لاتتصل بالثياب إلا بأشرطة رفيعة ... لقد كانت الراقصات يسرن أمامه ويمررن من حوله متهاديات ، ثم قال فى نفسه : لقد كان كل شيء مغرياً ، اهتزازات أجسامهن الممتلئة ، والضحكات المتهتكة ، والعيون المعسولة النارية ، والشفاه التي تتحدث صامتة ... مرت تلك الصور الناعمة عليه ممتزجة ، فرفع يده ليدفع عن نفسه تلك التذكارات الحلوة في بطء وحسرة . شعر محسن بمرارة الحياة وقسوتها ، فلو أن « شريف بك » ، صديقه القديم منذ عهد التلمذة فى المدرسة القريبة ، لم يقابله أمس فى الطريق فجأة ، ولو أن ذلك لم يقع ، ولو أن شريف لم يلقه فى غبطة الصديق القديم وهو يهز يده هزاً عنيفاً ، ويتحدث إليه مشتاقاً عن عهود الماضي وأيامه الحالية ، ثم يدعوه إلى عربته الأنيقة ليذهبا بها بعيداً عن صخب المدينة ، لما قدر له يوماً أن يذهب إلى ذلك المرقص .

تذكر محسن كيف ركب السيارة الفخمة مغتبطاً ، وكيف شعر بضآلة نفسه للمرة الأولى وهو جالس في تلك العربة الأنيقة ، وقد انطلقت بهما في الطريق إلى هليوبوليس، وكيف أحس بشيء من الحسد حينما لاحظ أن شريفاً يرتدى ملابس تساوي مرتبه في نصف عام .

وقال في صوت مبحوح كأنما يخاطب شخصاً آخر لا وجود له في غرفة نومه الضيقة الحزينة : ستة جنيهات في الشهر ، يالله يالله ! . . . لماذا تبخل الحياة على بعض الناس هكذا وتقتر ؟ . . إن شريفاً كان يلعب أمس بالجنيهات . . بينما يحدث أحياناً أن أحتاج في نهاية الشهر إلى خمسة قروش فلا أجد من يقرضني إياها . . . ما هذا البؤس والشقاء يا رباه ! هل أظل هكذا إلى أن أموت ؟ . إن هذا كثير كثير جداً ، ثم ما معنى أن يستمتع بعض الناس بالحياة ولذاتها ويحرم غيرهم ؟ أي فرق سحيق بين الاثنين ؟

أحس بأن الأفكار تزدحم في ذهنه وينوء بها ، وثار في صدره سخط شديد على الحياة . تمنى لو يظل هكذا في فراشه مختفياً عن الناس ، ما دام لا يستطيع أن يبدو سعيداً كما يحلم . وسمع مرة أخرى « أم حنفي » وهي تدق الباب دقاً عنيفاً وتقول :

— يا محسن أفندي . يا محسن أفندي . الساعة سبعة إلا ربع . يا خرابي يا سيدي ! تتأخر ... فهاج من ثرثرة تلك الخادم العجوز التي يراها كل يوم في بيته ، وتذكره بالفقر والقناعة والحرص الشديد ، فنهرها :

اخرسي ، لعنة الله على وجهك المنحوس وعلى الدنيا والديوان معاً . . . كل يوم أصطبح بك !

— الله يسامحك ويرضى عنك يا سيدي ، يا حبيبي . وقام من النوم متثاقلا واتجه إلى المرآة الصغيرة المعلقة بجوار المشجب ، وأزاح قليلا من الغبار العالق بصفحتها الباهتة ، ومضى ينظر إلى وجهه ، فبان له أنه وإن لم يكن قد شارف الثلاثين إلا أن علامات الفقر أفسدت شبابه وأرهقته ، وأخذ يرتدي ثيابه متباطئاً متذمراً يهتاج لأي شيء . . وخرج من باب منزله الصغير وهو يرى — ربما للمرة الاولى — أنه يعيش في بيت كالقبر ، وبدت في مخيلته القصور المنيفة على النيل .. والنساء ... والراقصات ... والسيارات . وسار في الأزقة الطويلة المظلمة الملتوية ، وكلما اجتاز طريقاً شعر بمقدار حقارته وضعة شأنه فى الحياة .

ووصل إلى الديوان متأخراً عن موعده نصف ساعة ، ودخل المكتب وهو يحاول أن يتطلع إلى وجوه زملائه كعادته كل يوم ، واكتفى بتحية قصيرة مقتضبة .

٢

خرج محسن أفندى من مكتبه بمصلحة المساحة بالجيزة قانطاً جداً ، ومع أنه سأل نفسه عن سر ذلك الوجوم الذي انتابه دفعة واحدة ، فإنه ارتاح إليه ، ورأى أن ذلك التذمر الذي شعر به نحو حياته المجففة القاتمة أولى من أن يظل هكذا منسياً بعيداً عن لذات الحياة ، مقصى عن متعها ، لقد استطاع ليلة أمس أن يرى صالة المرقص بكل ما فيها من الصور العجيبة التي لا يعرف مثلها إلا فى كتاب (ألف ليلة وليلة) فسأل نفسه : كيف يمكن أن أطيق الحياة على هذا النحو الجافي ؟ كيف أستطيع ؟ هل تكون كل ملذاتي في الحياة أن أقرأ كتاب ألف ليلة وليلة . . لا شيء أكثر من هذا ؟ . . إنني رأيت فى المرقص مئات من الناس ، ومع ذلك فإن كل واحد منهم كان بادي الإشراق والهناءة ، ما معنى هذا ؟ سوى أنني مغبون ... تذكر أنه قد أوفى على الثلاثين ، وأنه لم يتحادث مع امرأة تشاركه في شيء من حقوق الجسم والشباب ، ثم تذكر كيف كانت الراقصات في ثيابهن الشفافة يخطرن في أنحاء المرقص ، فلو أنه كان يقدر . . لكان من السهل أن يتقدم لإحداهن كما فعل غيره ، ولكن كيف يتقدم . وكيف يطلب من إحداهن أن تجلس معه ؟ آه لقد حدث له ، وإنه لشيء يثير في نفسه الأسى والشوق معاً — أن تلاقت عيناه مرات ، ربما ثلاثاً أو أربعاً ، مع الراقصة فتحية . . هل اسمها فتحية ؟ أخرج محسن البرنامج الذي حفظه باحتراس في جيبه ليلة الأمس ، وأخذ ينظر في الصور ويتأمل .. يالله ! يالله ! ووقع نظره على صورتها وقرأ (الراقصة الفاتنة فتحية صالح) ما أحلى الاسم وأشهاه !

وغرق فى بحر زاخر من التأملات وهو سائر في طريقه ، يحاول أن يجد حلا نهائياً لمسألته ، وبدت له (المسألة) جديرة بالاهتمام والتفكير ، إنه يتقاضى من عمله نحو ستة جنيهات ، ينفق منها جنيهاً أجراً للمسكن ، وينفق ثلاثة على مأكله وملبسه ، ولا يدخن ولا يفعل أي شيء آخر . وجنيهان يرسلهما كل شهر إلى والدته وإخوته فى القرية ليستعينوا بهما على حياتهم المضنية . . ولكن لماذا تتواثب الذكريات عليه هكذا دفعة واحدة ؟ لماذا ؟ تذكر أنه يرسل جنيهين لوالدته وإخوته الأربعة . . وتذكر حياة البؤس والشظف التي يعانونها فى القرية كباقي أهلها . . ولكن أي شيء يستطيع أن يفعله هو ؟.. لا شيء .. لا شيء .

وأنا ، وأنا أريد أن أستمتع بالحياة أيضاً . إن الشباب يفلت مني كل يوم ،

وربما أبلغ الأربعين أو الخمسين أو الستين دون أن أسعد بامرأة واحدة ، كيف أستطيع أن أحتمل هذا ؟ ولكن هل يمكنني أن أتزوج بأربعة جنيهات كل شهر ؟ . . . لا . . . إن الزواج فكرة سخيفة ، ولكن أيضاً ، ألا يحدث أن أهمل إرسال الجنيهين ولو شهراً واحداً فقط . . هل هي ضريبة مقررة مستمرة ؟ أنا أريد شيئاً ولو تافهاً من الحياة ، ثلاثين يوماً فقط . . فأستطيع أن أنفق الجنيهين على بعض حاجاتي الخاصة في الشهر القادم ، أما هم فليفعلوا ما شاؤوا . . هل أنا مكلف هذا العناء كله حتى أموت ؟ فإذا مت مثلا فمن أين يأتيهم المال ؟ ومع ذلك فإنني لن أهمل إرسال الجنيهين إلا في الشهر القادم . وارتاح إلى الفكرة وابتسم لها ، وشعر بأن آلامه تتبدد ووجومه يتلاشى ، وأنه استطاع أن يحل (المسألة) حلا موفقاً . ابتسم لهذه الفكرة وقر عليها رأيه ، وقال في نفسه : سأستطيع أن أذهب في الشهر القادم إلى الصالة مرات كثيرة ، سبعاً ، ثماني ، تسعاً . . من يدري ؟ وسأرى (فتحية صالح) وتبتسم لي . . من يدري . . من يدري . وأحس في جسمه برجفة هادئة ناعمة ، زادته انتعاشاً ، وكان قد اقترب من المنزل ، فدخله مسرعاً مرتاحاً .

٣

في أول الشهر لم يذهب (محسن أفندي) كعادته إلى المنزل ، وبدا له أن يأكل خارجه في أحد المطاعم الكبيرة ، فذهب إلى مطعم أنيق ، وأمضى ساعة تناول فيها طعاماً جيداً لم يذقه في حياته ، ودفع ثلاثين قرشاً ثمناً لوجبته ، وخرج يتهادى ، ومر ببائع سجائر فاشترى منه علبة ، وقصد إلى الحلاق ، وكان الرجل واقفاً أمام حانوته يستقبل الزبائن كعادته بأطيب التحيات . ولما كان اليوم هو أول الشهر فإن الأسطى توفيقاً بدا في أجمل وأرشق ثيابه ، ينتقي الألفاظ انتقاءً مدهشاً ، وكان (محسن أفندي) من زبائنه القدماء ، وإن كان ينظر إليه نظرة شفقة لحالته المالية ، وامتدت يد محسن إلى جيب بنطلونه وناول حلاّقه (الشهرية) فاستعد الحلاق ليمتحن القطعة ذات العشرة التي اعتاد أخذها كل شهر منه ، ولكنه أعطاه ريالا ، فانتبه الحلاق جيداً وابتسم قائلاً : ربما يكون مزيفاً يا سيد محسن .. لا ، لا إنه فضة ، فأنت تريد مني الباقي نصف ريال ؟ فقال محسن له فى بطء : لا أريد شيئاً ، الريال كله لك يا عم توفيق هذا الشهر ! فبهت وقال : هل أتتك علاوة ؟ مبروك ربنا يديم عزك يا محسن بك .

في هذه المرة كان (الأسطى توفيق) يحلق له بنفسه في دقة متناهية ، وقد أوصاه

محسن بذلك ، فابتسم الحلاق مبتهجاً وغمز بعينه ، وكان محسن مستسلماً إلى أحلام ذهبية تدنو منه راقصة حتى يكاد يراها وقد غمرته لذة غامضة ، كالشعور بالترف وحب الاستمتاع بكل ما يستطيع أن يحققه فى الحياة ، متناسياً ساخطاً على الأيام السخيفة المكررة التي كان يقضي الحياة على منوالها . وخرج يفوح منه العطر ويبدو المسحوق الأبيض في وجهه كأنه ذاهب إلى عرس . فلما أقبل الليل فكر في قضاء السهرة في المرقص ، وذهب في خطوات متزنة وهو يدخن ، يحاول أن يضفي على نفسه شيئاً من الجلال ، ويتغلب على فرحه ، فلما اقترب من نافذة التذاكر ونظر إلى داخلها وقف لحظة ، وفي تلك اللحظة ، اهتز جسمه كله وبلله العرق ، لم هذا كله ؟ لماذا ؟.. لقد شعر بأن العينين اللتين تنظران إليه أقوى منه ، أقوى من مقاومته ، فتهالك جسمه ، وغاب عن كل شيء آخر . ثوان مرّت به كالبرق ، وكانت هي لا تزال تبتسم ابتسامة صامتة لاحل للغزها ، وقالت في صوت ناعم سرى في جسمه كمخدر : تذكرة صالون يابك ؟ فأخرج من حافظة نقوده بيد ترتجف الورقة التي معه ذات الخمسة الجنيهات ، وقال لها : (صالون) ، وأخذ التذكرة والنقود من يدها وقد مدت له ذراعها العاجي وحاولت أن تمسه بأناملها فى مهارة ورقة ، فضغط على يدها فجأة ، وكأنما شعر بأنه فعل شيئاً معيباً ، فاختفى في داخل المرقص ذاهلا . لا يدري ماذا فعل ، إذ يبدو له كأنها تلاحقه وتبحث عنه .

٤

اختلطت الأنوار الملونة أمامه لأول وهلة حين دخل المرقص ، وظل دقائق لا يستطيع أن يميز شيئاً ، كأنما قد أصيب بحمى مفاجئة ، ولكنه أخذ يهدأ رويداً رويداً ، ويدخن في سكون ، ثم انزوى في جانب الصالون ، وقد شعر بأن تفكيره يضمحل ، وأن عاطفة جامحة تسيطر عليه وتقوده كالحمل ، فلما بدت على المسرح لترقص ، نظرت إليه ، فلماذا كانت ترمقه هكذا ؟ أي شيء كانت تضمره لتعصف بحياته ؟ وكان هو مأخوذاً ، فاستسلم إلى تلك القوة التي تسوقه في رضاء وسكون ، استسلم إلى تلك المرأة بكل شيء ، ورأى أنها جديرة بالعبادة وأكثر منها — لو يستطيع — فلما مرت به جلست إلى جانبه وقضت معه بضع دقائق خاطفة ، وفي هذه الفترة تقابل مع شريف بك وجهاً لوجه ، وحارت النظرات في عينيه ، ولم يستطع أن يقول شيئاً .

أخذت الأيام تمر به وتغيره كل يوم تغييراً جديداً ، انتهى معها إلى حب جنوني صارخ ، وفاضت عواطفه المختزنة كما ينفجر الماء من خزان عظيم ، وانحدر وظل ينحدر ،

فأما الماضي كله فقد طواه ونسيه ، وأخذ يعمل جهده لينعم بذلك العالم الجديد الذي دخله ، فأهمل دفع أجرة مسكنه ، ولم يأبه لرجاء صاحب المنزل أو تهديده ، ثم اعتزم أن لا يرسل بعد ذلك درهماً واحداً لأهله : إنهم لا يستحقون شيئاً .. ليعلهم غيري ، لا أستطيع أن أقدم لهم شيئاً بعد الآن .. يكفي أنني قضيت السنوات الماضية الغالية هباءً في قناعة الراهب وزهده ، ولماذا أشتغل ما دام نصيبي من الحياة لا يتعدى الرغيف ؟ ..

وواظب على زيارة المرقص كل ليلة والسهر فيه ، ليس من أجل الرقص ولكن من أجلها ، إنه يود لو تكون له وحده ، ولقد مرت عليه أسابيع وهو لا يقوى أن يطارحها هواه ، فكل ما فعله أن لمس يدها يوماً ومس جسمها ، أي شيء يجري في جسم هذه المرأة يجتذبه ويلهب عواطفه ؟ ولماذا لا يمكنه الآن أن يغالب عواطفه وشهوته ؟

كانت (فتحية) قد فازت به كل الفوز وعرفت — وهي لا شك خبيرة بضعف الرجال — أن ذلك الرجل قد وقع في قبضتها وأنه يحب حب البلهاء ؟

أي حب ! وضحكت ومضت تفكر .

وبدأت الخطة، أما هو فأحبها بلا قانون أو قيود أو حدود ، وأما هي فإن حبها كان (مسألة) حسابية لا أكثر ولا أقل ، ووقع في الدين ، وأخذ يمد يده إلى أصدقائه ، وكان الأمر سهلا في بدايته ، فكان يختلق المعاذير لبعضهم ويموّه على الآخرين ، وكان يظن أن في استطاعته أن يتخلص من تلك القروض ، ولكنه كان يستدين كل يوم لكي يسد الفراغ ولا يبدو أمامها عاجزاً عن رغباتها وعن تقديم الهدايا لها ، وأخذ الدين تتسع دائرته وتتعمق حفرته ، والأمر لا ينتهي — ومتى ينتهي ؟ — ففي كل يوم يزداد كلفاً بها وهياماً ، وهي تسقيه الحب قطرة قطرة ، وهو ظمآن .

وبدأ الدين يشغله عن الحب قليلا ، وتلميحات أصدقائه عن ديونهم عنده ، ولكنها كانت تجرفه أمامها ، وهو يطيعها ذليلا يجري من أمامها وكأنه لا يقوى على الافتراق عنها ، كانت قد أمسكت زمامه وتركته يعوي ككلب جائع .

ولجأ إلى شريف بك صديقه القديم ، فكان يعطيه ويجزل في إعطائه ، وظن في أول الأمر أنه يقرضه ديوناً سيوفيها ، ولكنه لم يكن ليقوى على وفاء دين واحد . فعرف أن صديقه يتصدق عليه ويجزل في الإحسان ، وحاول أن ينتشل نفسه ولكنه عجز وخاب ، مضى يجذف بذراعيه الكليلتين في بحر لا شاطىء له ، وهي لا تزال تلاحقه طوراً وتسبقه آخر ، وهو كالمجنون لا يبرحها .

كان جسدها الذي يراه في كل يوم وقد ازداد حسناً وفتنة يكفي أن يبدد ما يفكر

فيه ساعات ، وكانت هي قد سرها أن تلهبه بالسوط حتى تشويه ، كجلاد مجنون لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا ، والدم ينبجس من جسمه وقلبه .

☆☆☆

مرت ثلاثة أشهر أوفت ديونه فيها على مائة جنيه ، نصفها من صديقه شريف بك ، وهو لا يزال يتقاضى ستة جنيهات كل شهر من عمله ، ومع ذلك فإنه في تلك الأشهر لم يسدد أجرة بيته ، ولم يرسل لأهله درهماً ، وأهمل رسائل أمه التي ترد له تسأله فيها وتطلب المعونة ، والأمر لا ينتهي أيضاً ، وحاول أن يجدد الاستدانة ، وكان الأمر ميسوراً في أوله ، ولكن أصدقاءه كفوا . . . وأشاحوا بوجوههم عنه . وحملته أقدامه إلى منزلها ذات يوم ، كعادته منذ فتحت أبوابها أمامه ، وهو لا يجد من يقرضه خمسة قروش فقط وسأل الخادم عنها ، فقالت له : إنها في غرفة نومها ، فظل ينتظرها ، ثم خرج شريف بك بعد ساعة وهي تتبعه من حجرة نومها ، فوجم الثلاثة من فرط الدهشة بضع ثوان ، ولكن شريف ابتسم ابتسامة ذات معنى ، ووضع يده في جيبه وأخرج حافظة نقوده وقال وهو يقدم له جنيهاً :

هل أنت في حاجة إلى النقود أيضاً يا محسن ؟ خذ هذا !

وكانت فتحية منصرفة إلى وضع الطلاء الأحمر على شفتيها .

محمود عزت موسى

انبـاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصـر

قامت المستعربة المسز أرسكين التي اشتهرت بكتابها « فلسطين العربية » ، بترجمة مسرحية شوقي بك « كيلوبترة » إلى اللغة الإنجليزية .

☆☆☆

تصدر دار الكتب قريباً كتاب « السياسة » لأرسطو ، وقد نقله إلى العربية معالي الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا وزير خارجية مصر ، وسبق أن نقله إلى الفرنسية المسيو سنت هلير وزير خارجية فرنسا .

☆☆☆

شرعت الجمعية المصرية للقانون الدولي في وضع الأسس الخاصة بإنشاء ندوة للقانون الدولي بالإسكندرية ، وقد وعدت الجمعية بأن تكون علاقة المعاهدة المصرية البريطانية بميثاق هيئة الأمم المتحدة في مقدمة المسائل التي يتضمنها برنامج دراستها العلمية .

☆☆☆

تعقد اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية اجتماعاً يوم ٢ سبتمبر القادم في عاصمة الأمويين ، وأهم ما يحويه جدول الأعمال وضع تشريع موحد لدول الجامعة في حماية حقوق المؤلف ، والنظر في إنشاء معهد للفقه الإسلامي .

☆☆☆

عرض الأستاذ الشيخ مصطفى علي بيومي على وزارة الأوقاف عشرين فهرساً من الفهارس التي استخرجها لأمهات المراجع ، فانتدبت لجنة لفحصها فاقترحت اللجنة شراء ستة فهارس منها ، وهي : فهارس صحيح مسلم ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وسنن ابن ماجة ، ورياض الصالحين ، واللآلىء المصنوعة ، فابتاعتها الوزارة منه لتقوم بطبعها عند سنوح الفرص .

☆☆☆

ظهر كتاب « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » لعبد الرحمن بن نصر الشهرزوري ، وقد حققه الأستاذ الباز العريني ، مدرس الأدب العربي بمدرسة الخديو إسماعيل بالقاهرة .

☆☆☆

ذكرنا في العدد الماضي أن هناك ترجمتين ظهرتا بالعربية لكتاب « الأمير » لمكيافيلي ، ثم علمنا أن هناك ترجمة عربية ثالثة لهذا الكتاب بقلم الأب روفائيل الراهب ترجمها عام ١٨٣٥ بناء على رغبة

أبداها ساكن الجنان محمد علي باشا الذي كان معجباً بهذا الكتاب ، وتوجد نسخة خطية منه بمكتبة جامعة فاروق بالأسكندرية ، ولم تطبع بعد .

☆☆☆

يصدر عن دار المعارف في مستهل هذا الشهر كتاب « حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر » للأستاذ جاك التاجر، وهو الكتاب الفائز بجائزة سعادة أنطون الجميل باشا في المباراة التي عقدها المجمع اللغوي بمصر .

☆☆☆

عقد « المؤتمر الموسيقي الأول » بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية برياسة معالي وزير المعارف، للعمل على ترقية الموسيقى العربية. وبعد أن والت اللجان الفنية اجتماعاتها لبحث كل ما لديها من آراء ومقترحات خاصة بالألوان الفنية في الموسيقى والغناء قررت إصدار كتاب خاص بأعمال المؤتمر .

☆☆☆

وقع اختيار وزارة الشؤون الاجتماعية على ثلاثة من أدباء الشباب للسفر إلى الولايات المتحدة ، تلبية لدعوة المعهد الأهلي للسينما ، للعمل في ترجمة الحوار في بعض الأفلام الأمريكية إلى اللغة العربية .

☆☆☆

أصدرت جمعية الطرق المصرية رسالة أوضحت فيها أغراضها، وذكرت أن إنماء الاقتصاد القومي بمصر رهين بتيسير سبل النقل المختلفة، لأنه ليس للحاصلات الزراعية ولا للانتاج الصناعي قيمة إذا لم تتوافر لها وسائل نقل سريعة ورخيصة ، وأن العمل على زيادة هذه الوسائل إنما هو علاج لمشكلة البطالة .

السودان

وافق المجلس الجامعي الداخلي للتعليم العالي في المستعمرات ، على مساعدة السودان في النواحي التعليمية . ويقترح البعض أن تكون لكلية غردون التذكارية بالخرطوم صلة بالمجلس ، وأن يساعد المجلس الكلية بتجنيد المدرسين الصالحين .

☆☆☆

اكتشف مدير الآثار عدداً من مواقع القرى القديمة حول ملتقى النيلين ، وترجع جميعها إلى العصور الأولى التي قبل تاريخ الأسر . وقد وجدت إحدى هذه القرى شرق مستشفى الخرطوم الملكي . وما زال التنقيب جارياً للعثور على آثار أخرى في هذه المنطقة.

☆☆☆

ما زالت وفود المدرسات الإنجليزيات تأتي إلى السودان للالتحاق بوظائف التدريس بمدارس البنات التي تفتح على نطاق واسع من أولية ووسطى .

☆☆☆

افتتح سعادة الحاكم العام في احتفال كبير أول مدرسة وسطى في مديرية أعالي النيل بجوار ملاً كال كي يتلقى فيها أبناء هذه المديرية نوعاً من التعليم العالي يمكنهم من ملء المناصب الحكومية والإدارية في جنوب السودان . وتضم هذه المدرسة لأول مرة في تاريخ حياة الجنوب ، أبناء قبائل النوير والدنكا والشلوك والأنوك . وهي خطوة محمودة في سبيل إزالة ما بين هذه القبائل من نفور وتشاحن ومنافسة .

✡✡✡

يخشى المسؤولون من رجال الدين والاجتماع من بوادر السفور الذي تعودته الفتيات المتعلمات . ويرون في إعراض البيوتات المحافظة عن السماح لبناتهم بالعمل في وظائف التدريس والتمريض دليلا على ضعف ثقتهم بالتعليم النسوي من الناحية الدينية . ويقترح الكثيرون الاستعانة بالمدرسات المصريات الحائزات على شهادات عالية في إعداد المدرسات السودانيات لتدريس التدبير المنزلي ، ورعاية الطفل ، ونظافة المطبخ ، وخياطة الملابس ، وحسن التنسيق ، والذوق الإسلامي الشرقي .

✡✡✡

طلبت السلطات المختصة في طرابلس انتداب بعض المدرسين السودانيين للعمل هناك .

فلسطين

كان التعليم الثانوي في مدارس الحكومة مقصوراً على صف واحد أو صفين في بعض المدن الكبيرة وقد تقرر أن تزاد الصفوف الثانوية إلى أن تصبح كاملة في عدة مدارس في مدن فلسطين الكبيرة . وهذه الخطوة مهمة في التعليم العربي إذ ستؤدي إلى زيادة عدد الطلاب الثانويين وتخفيف الضغط عن مدرستي القدس الثانويتين الكاملتين .

✡✡✡

يفاوض ممثل للحكومة اليمنية الجمعية الطبية العربية في فلسطين لإرسال بعثة طبية تمثل جميع فروع الطب والجراحة لتعمل في اليمن مدة معينة .

✡✡✡

يزور فلسطين الأستاذ ميخائيل نعيمة . وقد ألقى عدة محاضرات في مختلف الأندية .

✡✡✡

خصصت الحكومة مبلغ ٤٨٠ ألف جنيه لتوسيع الكلية العربية في القدس و١٢ ألف جنيه لبناء مدارس زراعية .

✡✡✡

تبذل مساع لإنشاء كلية إسلامية في مدينة يافا .

✡✡✡

ستصدر لجنة الثقافة العربية كتاباً خاصاً بالكتاب العربي الفلسطيني بمناسبة معرض الكتاب العربي الذي سيقام في بيت المقدس . وسيشتمل على جميع المؤلفات العربية الفلسطينية التي وضعت في ربع القرن الأخير .

✡✡✡

وضع الشاعر السيد محيي الدين الحاج عيسى مسرحية شعرية موضوعها «مصرع كليب وائل» .

✡✡✡

صدر في هذا الشهر كتاب « الحياة المثالية » للسيد إبرهيم مطر في يافا .

لبنان

أصدرت « دار العلم للملايين » كتاب « قضية العرب » للأستاذ علي ناصر الدين ، أهداه صاحبه إلى روح فيصل الكبير الزعيم والقائد والملك الخالد ، وإلى أرواح الذين استشهدوا في سبيل القضية العربية ، وإلى شباب العرب وشاباتهم بصورة عامة في آسية وإفريقية . والكتاب محلّى بالرسوم ويقع في ١٣٥ صفحة من القطع المتوسط .

✡✡✡

نشر الدكتور عمر فروخ الحلقة السابعة عشرة من السلسلة الأدبية والفلسفية التي بدأ بإصدارها عام ١٩٤٠ بعنوان « دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة » يتناول في حلقته الأخيرة دراسة فلسفة ابن طفيل الفيلسوف المغربي المشهور الذي كان له الأثر الأكبر في تعريف سلاطين الموحدين بابن رشد . وتقع هذه الحلقة في مائة صفحة من القطع المتوسط .

✡✡✡

احتفل رجال الأدب والمعجبون بأدب عمر فاخوري بتكريم ذكراه في السابع من يوليو . اشترك في إحياء هذه الذكرى بعض الوزراء والنواب ، وكان الكلام فيها لنخبة من الأدباء والسياسيين ، منهم حبيب أبو شهلا نائب رئيس الوزراء سابقاً ، وخليل مطران شاعر القطرين ، وخليل تقي الدين وزير لبنان المفوض في موسكو .

✡✡✡

صدر للسادة جورج شهلا وشفيق جحا وصبحي المحمصاني الأساتذة في الجامعة الأمريكية ببيروت كتاب بعنوان « أداة الحكم في لبنان » . يبحث في النظام الإداري والسياسي ، ويبسطه للعامة وطلاب المعاهد . ويقع الكتاب في ٢١٠ صفحات من القطع الكبير .

✡✡✡

صدر لفائز صايغ الأستاذ في الجامعة الأمريكية كتاب بعنوان « البعث القومي » وهو مجموعة المقالات والمحاضرات التي نشرها المؤلف أو ألقاها في السنوات الخمس الأخيرة . ويقع الكتاب في ٢٢١ صفحة من القطع الصغير .

✡✡✡

من المطبوعات التي صدرت في بيروت مجموعة من الشعر لمحمد الجوال آ ل الشيخ أحمد الجزائري بعنوان « حل الطلاسم » . يعارض فيها قصيدة الشاعر إيليا أبو ماضي « الطلاسم » ، فيرد على رباعياته الشاكة المتسائلة المنتهية بقوله « لست أدري » برباعيات إيجابية من بحرها وقافيتها . وينهي كلا منها بقوله « أنا أدري » وقدمهد للمجموعة بكلمة كل من الناشر محمد قره علي والشاعر الحوماني والشيخ عبد الله العلايلي .

سُوريَا

تألفت بدمشق لجنة قومية دائمة لتنظيم أمور التربية والعلوم والثقافة في البلاد السورية وتنسيق العلاقات الثقافية بينها وبين البلاد الأخرى .

✡✡✡

عزم الأستاذ جبرائيل جبور مدرس الأدب العربي في جامعة بيروت الأمريكية على طبع مخطوطة « حوادث دمشق اليومية الواقعة من سنة ١١٥٤ هـ إلى سنة ١١٧٦ هـ » وهي التي جمعها الشيخ أحمد البديري الشهير بالحلاق الدمشقي واختصرها ونقحها المرحوم الشيخ محمد سعيد القاسمي.

✡✡✡

يشغل العالم العربي اليوم قضيتان هامتان : الأولى جلاء الجيوش الأجنبية والاستعاضة عنها بجيوش قومية . والثانية القضية الفلسطينية . وقد أثارت هاتان القضيتان همم المؤلفين والكتاب لمعالجة هذين الموضوعين ، فقد أصدر السيد عز الدين الحفار كتيباً أسماه « مذكرات حول الحياة العسكرية » وأصدر السيد عز الدين تحسين الجراح كتيباً آخر أسماه « صناعة الحرب » وغرضه « توسيع أفق ثقافة الفتيان العسكرية » .

وأصدر السيدان بشير كعدان وشفيق شالاتي كتاباً عنوانه « هؤلاء الصهيونيون » وهو ليس في الواقع كتاباً أدبياً ولا علمياً ، وإنما هو تحقيق صحفي مطول .

✡✡✡

أصدر المحامي داود التكريتي كتاب « الوقف » وهو عبارة عن النصوص القانونية المعمول بها في المحاكم السورية ، ونشر السيد أحمد السمان أستاذ الاقتصاد في كلية الحقوق بدمشق كتاب « الوقائع والنظريات الاقتصادية في العصر الحديث »

✡✡✡

أنجز الأستاذ إبرهيم الكيلاني ترجمة رواية « المعلم توباز » Topaze للكاتب المشهور « مرسيل بنيول » Marcel Pagnol وهي تمثيلية نقدية رائعة ذات أربعة فصول ، دام تمثيلها على مسارح باريس طوال أربع سنوات ، وترجمت إلى جميع لغات العالم .

✡✡✡

ألف الأستاذ ياسين الحموي كتاباً عن « تاريخ الجغرافية عند العرب » ويشتمل هذا الكتاب على نظارة عامة عن الجغرافية في العصور القديمة وزمن بطليموس ومعارف العرب الجاهليين في علم الجغرافية ، وعن أصل التأليف الجغرافي عند العرب ، وعمل المأمون الجغرافي وجغرافيي العرب في القرن الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس للهجرة ومؤلفاتهم .

✡✡✡

أسس في حلب معهد فني للموسيقى الشرقية ، وهو مشمول برعاية وزارة المعارف السورية ومدة الدراسة فيه سنتان .

☆☆☆

من مقتنيات دار الكتب الظاهرية نسختان خطيتان من كتاب : « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » لشمس الدين أحمد بن خلكان سنة ١١٥٥ هـ وكتاب « يتيمه الدهر في شعراء أهل العصر » لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسمعيل الثعالبي سنة ١٠٧٠ هـ . وتختلف هاتان النسختان في مواضع عدة عما في أيدينا من النسخ المطبوعة .

العراق

أسس بالعراق « المعهد الملكي للتاريخ العراقي » برعاية سمو الأمير عبد الإله الوصي وولي العهد المعظم . وكانت الخطوة الأولى للمشروع أن ألفت وزارة المعارف لجنة لوضع تاريخ العراق من نخبة رجال العلم والأدب المهتمين بهذه المباحث والدراسات وقد اجتمعت اللجنة وانتخبت الأستاذ طه الراوي رئيساً والدكتور جواد علي نائباً للرئيس والدكتور عبد العزيز الدوري مقرراً وانعقدت جلساتها هذه الأيام باستمرار واستقر الرأى على أن تؤلف أولا التاريخ المفصل للعراق وهي تعني بتوزيع أبواب الكتاب على أعضائها وعلى المختصين بهذه الأبحاث من رجال العراق من غير الأعضاء .

☆☆☆

تألفت شركة عراقية لصنع الأفلام السينمائية العراقية وجرت بينها وبين بعض المشتغلين بهذه الصناعة في مصر لتوحيد الجهود كما استقدمت خبيراً إنجليزيا في المشروع قدم بغداد منذ بضعة أسابيع وأخذ يدرس موضوعه .

☆☆☆

يشتغل الدكتور عبد الجبار الجومرد بنقل مؤلفه الفرنسى « تطور الدستور العراقي لعام ١٩٢٥ نظرياً وعملياً » وهو الأطروحة التي نال بها إجازة الدكتوراه من جامعة باريس . وسيضيف إلي نسخته العربية كثيراً من نظراته المستحدثة بعد طبع الكتاب بالفرنسية وإيصال البحث إلى هذه الأيام وبخاصة التعديل الأخير الذى أجرى على الدستور العراقي .

☆☆☆

ألفت دائرة أمناء للجامعة الجديدة التي تنوى الجماعات العلمية والثقافية في الولايات المتحدة إنشاءها في بغداد وانتخب المستر هوفر رئيس الولايات المتحدة الأسبق عميداً لهؤلاء الأمناء وقد وضعت تصميمات البناء لهذه الجامعة . وفى العراق جمهور كبير من المتعلمين الشبان الذين درسوا أو أنجزوا تعليمهم العالي فى الجامعة الأمريكية ببيروت أو فى الجامعات الأمريكية فى أمريكا نفسها

الهند

جونا كدة إمارة إسلامية في شبه جزيرة كاتياوار بمقاطعة بومباي تبلغ مساحتها أربعة آلاف ميل مربع وعدد سكانها مليون نفس تقريباً ، وقد نشر أخيراً احصاء عن التعليم فيها ، فبلغ عدد المدارس فيها خمسمائة يشمل عشر مدارس عالية وعشرين ثانوية والباقى ابتدائية وبينها أربعون مدرسة

للبنات من الابتدائية والثانوية والعالية ويبلغ عدد الطلبة فيها أربعين ألفاً والطالبات عشرة آلاف وفيها كلية شهيرة تسمى كلية بهاء الدين تتولى التعليم للشهادات العالية الجامعية مثل M. A و B. Sc والتعليم الابتدائي والثانوي مجاني على نفقة الحكومة لجميع الطبقات بغير تميز بين المنبوذين وغير المنبوذين .

☆☆☆

خصصت حكومة مقاطعة مدراس عشرة ملايين روبية لتعليم الطلبة الفقراء من طبقة المنبوذين

☆☆☆

قررت الإمارة ميسور في جنوب الهند إنشاء مركز كبير لإنتاج الحرير الأصلي برأس مال قدره ثمانية ملايين روبية وستفتح لذلك معهداً لبحث كل ما يتعلق به بحثاً علمياً ، وكذلك مدرسة لاستخدام متخرجيها في المركز ، وذلك في مدينة سريخاتيم إحدي المدن فيها .

☆☆☆

خصصت حكومة مقاطعة بنجال مليونى روبية لمساعدة عامة الناس الذين لحق بأملاكهم الضرر من الحرب .

☆☆☆

اكتشف أخيراً المعهد العلمي للبحث الغذائى في مدينة غرت نجر أن لب نواة المنجة يصلح أن يكون غذاء للانسان والحيوان علي السواء ، إذ ثبت بالتحليل أنه غني بمواد كاربوهيدرات والمواد الدهنية . فمقدار البروتين السريع الهضم الذي يتحصل عليه من ثمانين رطل شعير يمكن أن يتحصل عليه من مائة رطل من لب النواة ، وكذلك المادة النشوية التي تحصل من ثمانين رطل شعير يمكن أن تحصل من ستة وثمانين رطلا من لب النواة ، والهند وطن المنجة ، فيمكنها أن تحصل كل سنة علي ٧٠ مليون رطل بروتين سريع الهضم و ٧٨٠ مليون رطل مادة نشوية من المصدر الذي كان لديها إلي اليوم .

انجلترا

« العصيان في فلسطين » لمؤلفه ج . مارلو كتاب يدور حول العراك بين العرب واليهود ، يقال إن مؤلفه يعرض لهذه المشكلة مزوداً بمعرفة عميقة جمعها خلال السنوات الطويلة التي قضاها في الشرق الأوسط .

☆☆☆

« تاريخ مدافن الجيزة » مجلد ضخم ثمين قضى مؤلفه ج . ريسنر أربعين عاماً يعمل تحت ظلال الأهرام يعيش بين معاونيه والعمال الذين يقومون بالحفائر يتحدث إليهم بلسانهم ويدربهم منذ صغرهم على الأعمال الفنية من إصلاح الآثار إلى التقاط الصور . ويدور هذا الكتاب وما فيه من صور وخرائط حول أهرام الأسر الرابعة والخامسة والسادسة ، فيصف جميع أنواع المدافن ويتناولها بالتحليل والوصف الدقيق .

☆☆☆

أصدرت دار هتشنسون للنشر بمناسبة بلوغ برنردشو التسعين من عمره في ١٨ يوليو كتاباً عن بعض نواحي حياته ومؤلفاته ، اشترك فى تأليفه أشهر الكتاب الإنجليز المعاصرين ، مثل جود وبريستلي وهكسلي وولز ومسفيلد وكثيرون غيرهم .

✡ ✡ ✡

صدر أخيراً كتاب عن إيران يتحدث فيه مؤلفه و. س. هاس عن حاضرها وماضيها . والمؤلف قضى سنوات في طهران . وهو يلخص تاريخ هذه البلاد منذ تاريخها القديم وعلاقتها بالحضارات التي جاورتها أو عاصرتها حتى العصر الحديث .

✡ ✡ ✡

كان قد شاع بين الجنود خلال الحرب أن المشتغلين منهم بجهاز الرادار يصابون بأمراض عدة أسوؤها العقم والصلع ، على أن مجلة اللانست الطبية نشرت في الشهر الماضي تقريراً عن تجربة أجريت على الفئران ثبت بها أن طول التعرض للأشعة التي تصدر عن جهاز الرادار لا يؤدى البتة إلى العقم أو الصلع .

✡ ✡ ✡

من الكتب الطريفة التي ظهرت أخيراً كتاب عملي عن التأليف المسرحي مؤلفه ف . ل. كاري وهو طبيب نجح في تأليف المسرحيات وقبلت من قلمه روايات كثيرة مثلت في لندن وفي غيرها ، وهو يعرض في هذا الكتاب مختلف الحيل والأفانين التي تعين على كتابة المسرحية الناجحة .

فرنسا

احتفل بالذكرى العشرين لتأسيس جائزة « تيوفراست رينودو » أشيد فيها بذكر أول صحفي فرنسي ، وقد وضعت لوحة تذكارية في المكان الذي كانت تقوم فيه الدار التي أنشئت فيها « غازيتة فرنسا » أول صحيفة فرنسية .

✡ ✡ ✡

كانت إدارة الآثار التاريخية في فرنسا قد اتخذت التدابير لصيانة التحف الأثرية هناك من أخطار الحرب ، فأقامت أكياساً من الرمل حول الآثار الثابتة ، ونقلت إلى مخابىء مأمونة أثمن التحف ، فلم يحدث بها ضرر يذكر ، ولكن دمر خلال معارك التحرير ٦٨ داراً أثرية من ٧٨٠٤ وأصيبت ٥٦٩ داراً بأضرار جسيمة و٥٥٣ بأضرار طفيفة . وقد تم إصلاح ١٢٢٢ داراً أثرية و٤١١ نصباً أثرياً .

✡ ✡ ✡

منح الكاتب الفرنسي فرنسيس أمبرير جائزة جونكور لعام ١٩٤٠ لمؤلفه الذي أخرجه وهو في الأسر ، وعنوانه « الإجازات العظيمة » وكان بين المؤلفات التي فضلت على غيرها كتاب « ضحية الصباح » لجوبلان دوبينوفيل ، وكتاب « عالم الحشر » لدافيد روسيه الذي منح جائزة تيوفراست رينودو ، لأنه أقوى مؤلف ظهر حتى الآن عن معسكرات الاعتقال الألمانية .

ومنح الأسقف جروجان جائزة لابلياد عام ١٩٤٦ ، وقيمتها مائة ألف فرنك ، لمجموعة شعرية بعنوان « أرض الزمن » وقد أسست هذه الجائزة عقب تحرير فرنسا . ومنحت في عام ١٩٤٥ للمسيو روجيه برويل عن مؤلفه « بروتس » ، وفي عام ١٩٤٤ للمسيو مولود جن عن روايته « أمريكو » .

✡✡✡

من الـكتب التي تعني بالشؤون الإسلامية في اللغة الألمانية مؤلف بعنوان «محمد : حياته ومذهبه» للمستشرق تورأ ندره Tor Andrae الأستاذ في جامعة أبسال upsal ، يمتاز بالنظرات الخاصة التي ألقاها المؤلف على موضوعه ، وبالآراء الطريفة التي أوردها في تضاعيف كتابه . ومن فصوله الهامة : الحالة الدينية في بلاد العرب عند ظهور الإسلام ، النبي بين الحداثة والدعوة ، الدعوة ، شخصية النبي . ولقد نقله إلى اللغة الفرنسية جان كودفرواده مونبين ، وهو نجل المستشرق الفرنسي المشهور موريس كودفروا ده مونبين صاحب المؤلفات المعروفة عن الشرق والإسلام . وقد مهد لترجمة نجله بمقدمة مقتضبة عرض فيها لمقام كتاب تور أندره في عالم الاستشراق . صدرت الترجمة الفرنسية فى أواخر عام ١٩٤٥ .

أمريكا

يقوم بعض العلماء الآن في أمريكا بمجهود جبار لاستخدام القوة الذرية في تحسين وسائل الحياة، كاستخدام القوة الذرية مباشرة في استنباط الوقود ، وفى استخدام إشعاع الانفجار الذري في كثير من فروع الصناعة . وهناك أمل كبير في أن يؤدي هذا الإشعاع خدمة عظيمة في ميدان الطب وعلم الحياة وعلم الفسيولوجيا . ويرى العلماء أنه بفضل هذا الإشعاع سيصبح ممكناً معرفة ما يجري في داخل الأجسام الحية بدقة لاتتوافر في الوسائل المعروفة الآن . وهناك أمل أيضاً في إمكان استخدام هذه القوة الهائلة في السفر إلى الـكواكب والنجوم ...

✡✡✡

لم يقنع علماء التليفزيون بالأجهزة المستعملة الآن في مراسم التليفزيون التي تعكس المناظر الموجودة في غرفة الإذاعة ، بل اتجهوا أخيراً إلى اختراع أجهزة خاصة تستطيع إرسال المناظر من الشوارع ومن الجو ومن أعماق البحار، وهكذا يستطيع كل فرد أن يشاهد وهو جالس على مقعده في غرفته الهادئة كثيراً من الحوادث التي تقع في الخارج في أماكن نائية . ولقد جهزت طائرات خاصة مزودة بهذه الأجهزة تستطيع عند وصول أي نبأ بوقوع حادث ما مثل حريق مصنع أو انفجار منجم أو تصادم قطارين أو غير ذلك من الحوادث، أن تطير في الحال إلى مكان الحادث وتسجل صوره فيراها الناس وهم في بيوتهم كأنهم موجودون بأنفسهم في مكان الحادث ... وكذلك أعدت آلة خاصة لالتقاط المناظر في أعماق البحار .

✡✡✡

حينما تأسست الجمعية الأمريكية للتقدم العلمي «A.A.A.S.» في عام ١٨٤٨ م كان عدد أعضائها ٤٦١ عالماً ، أما اليوم فعدد أعضائها يربي على ٢٧٠٠ عالم ينتمون إلى ١٦ فرعا من فروع العالم المختلفة ، ويوجد بأمريكا أيضاً ١٩٠ جمعية علمية أخرى تضم حوالى نصف مليون عضو .

✡✡✡

من الـكتب التي صدرت أخيراً كتاب جديد عن « فلسطين » ، فلا يزال اليهود في أمريكا يقومون بالدعاية الواسعة النطاق لإقناع الأمريكيين بحقهم المزعوم في فلسطين . وهم في هذه الدعاية لايقتصرون على المقالات والإعلانات ينشرونها فى الصحف ، والمحاضرات يلقونها فى الأندية

المختلفة ، بل إن نشاطهم قد اتجه أخيراً إلى تأليف الكتب الضخمة عن مشكلة فلسطين . وهم في هذه الكتب — بطبيعة الحال — يعالجون المشكلة من وجهة نظرهم الخاصة ، ويحاولون التأثير في عقول الأمريكيين بمختلف وسائل التضليل والتمويه .

وقد أشرت في إحدى رسائلي السابقة عن كتاب لهم في هذا الصدد عنوانه « عن فلسطين » ، وقد صدر أخيراً كتاب آخر ضخم يتعرض لنفس الموضوع بعنوان « فلسطين » قام بتأليفه ثلاثة من اليهود الأمريكيين وأشرف على إصداره معهد فلسطين الأمريكي بواشنطن .

ويحاول المؤلفون بيان ما قام به اليهود من نشر المدنية والعمران والرخاء في أنحاء فلسطين وما تستطيع أن تقوم به فلسطين اليهودية من تقدم واسع النطاق في الشرق الأوسط جميعه لو أتيحت لهم الفرص لذلك .. ومثل هذه النغمة تجد أذناً صاغية لدى كثير من الأمريكيين الذين تخلبهم فكرة التقدم الإنساني ..

وإني إذ أطنب في ذكر ذلك إنما أحاول تنبيه أولي الأمر في البلاد العربية إلى مدى اتساع الدعاية اليهودية في أمريكا ، وإلى تنوع وسائلها ، لعلهم يفكرون في مقاومتها بنفس الأسلحة التي يعتمد عليها اليهود .

☆☆☆

صدر أخيراً كتاب «رجال وقوة» لمؤلفه هنري تيلور أحد رجال الصحافة والإذاعة المشهورين في أمريكا. «والرجال» هم الشخصيات والعقليات المختلفة التي شكلت وما زالت تشكل تاريخ البشرية ، « والقوة » هي التيارات البشرية المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية التي نشأت في أثناء هذه الحرب العالمية الثانية ، والتي تسيطر الآن في تشكيل مستقبل الإنسانية .

رُوسْيا

قدم المستشرق كرتشقويفسكي إلى المطبعة كتاباً جديداً عنوانه « الرحالون العرب » يحوي معلومات قيمة عن الرحالة والجغرافيين العرب منذ أقدم العصور . ومما هو جدير بالذكر أن زوجة الأستاذ كرتشقويفسكي التي عاونته في إعداد هذا الكتاب هي أيضاً باحثة متخصصة في الفن العربي ، وقد اشتركت بالمراسلة مع الأستاذ جستون فييت مدير دار الآثار العربية بالقاهرة في وضع كتاب عن الفن العربي الذي صدر منذ سنوات .

☆☆☆

خصصت الموسوعة التاريخية المعروفة باسم «التاريخ العالمي» مكاناً بارزاً في طبعتها الأخيرة عن تاريخ البلاد العربية، وقد هيء للطبع منها جزء خاص بتاريخ الشرق القديم وآخر يتناول الشرق بين القرن الرابع والقرن العاشر، وفيه معلومات قيمة عن تاريخ البلاد العربية بقلم البحاثة رازومو فسكايا .

☆☆☆

من الروايات التي أثارت اهتماماً خاصاً لدي الجمهور والتي نقلت إلى معظم اللغات وبخاصة اللغة الفرنسية رواية « العاصفة » للكاتب إيليا أهرنبورج تحدث فيها عن الفترة ما بين سنة ١٩٣٩

وسنة ١٩٤٥ وسجل فيها الأحداث البارزة في الجبهة السوفيتية وفى فرنسا ، وقد أنصف المؤلف فيها مصير المتواضعين ومتوسطي الذكاء، وشرح فيها — لا من الوجهة الاقتصادية أو الاستراتيجية بل من الوجهة النفسانية — هزيمة الفاشية وسحق القوات الديمقراطية لها .

✲✲✲

صدر كتاب شائق عنوانه « رحلات روسية حول العالم » من تأليف نوزيكوف ، فصل فيه معلومات طلية عن الرحلات التي قامت بها بعثة الكشف البحري في المناطق الشمالية المتحدة والجزائر الاستوائية في البحيرات الجنوبية . والمعروف أن هذه البعثة أبحرت من « كرنستاد » من موانىء البلطيق لتجول جولة حول ما يزيد على منتصف الكرة الأرضية ، فذهب اثنان عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وآخرون عن طريق رأس القرن بجنوب أمريكا ، وبعد أن تجهزوا مرة أخرى في الموانىء الروسية عند شبه جزيرة « كامتشاكا » مضوا يبحثون الشواطىء الأسيوية والأمريكية ، وحملوا من هناك أبحاثاً علمية ومعلومات عن السكان وعن موضوعات أخرى تهم العلم والعلماء، وغيرها من الفصول التي تضمنها هذا السفر الجغرافي .



تصويب

في العدد الماضي (يوليو سنة ١٩٤٦) ص ٤٦٢ س ٨ « المرويذ » وصحتها « المَرُّوذِي » .

حول عبد الله بن ميمون

قرأت في مجلتكم الزاهرة (ج ٨ م ٢ ص ٣٥٠) ما أجابني به الأستاذ الكاتب محمد عبد الله عنان من « أن جعفراً الصادق توفي سنة ١٤٨ هـ وقد توفى ولده إسمعيل أثناء حياته ، ولكنه قد عهد إليه بالإمامة من بعده ، وعهد قبل وفاته أيضاً بالإمامة من بعده إلى ولده محمد ، وذلك بموافقة أبيه جعفر الصادق ، ووقع ذلك كله قبل (وفاة) الإمام جعفر سنة ١٤٨ هـ وكان عبد الله بن ميمون يومئذ حسبما تؤكد لنا الروايات الشيعية شاباً لم يجاوز الثلاثين من عمره، وقد عمر ابن ميمون بعد ذلك طويلاً ، وتوفي وفقاً للرواية الشيعية ١٨٠ هـ وإذن فليس هناك تناقض زمني ، ومن الممكن والمعقول أن يدعو ابن القداح إلى إمامة محمد بن إسمعيل إلخ » ثم أبدى الكاتب عدم ثقته بالرواية الشيعية اعتماداً على (ماسينيون) وغيره ، وأن المهم بعد ذلك مايرجحه البحث من أنه يرجع إلى أصل مجوسي وأنه قام بدعوته السرية . ثم خرج بأنه لا يعنى بغير البحث العلمي المجرد ، وأنه لايحب أن يقف عند بيانات أو روايات مذهبية لاتؤيدها الأدلة التاريخية الوثيقة .

ونقول : إن طائفة من الشيعة ظنوا أن الإمام بعد جعفر الصادق هو إسمعيل ، فلما توفي أشهد الصادق أصحابه على وفاته ، ليعلم أنه ليس إماماً ، إذ الإمام لايموت قبل والده لئلا تنتفي فائدة الإمامة ، وبقي جماعة لم يشهدوا ذلك يعتقدون بحياته ، فلما توفي الصادق رجعت فرقة عن حياة إسمعيل وقالت بإمامة ابنه محمد بن إسمعيل وثبتت فرقة على حياته ، والفرقتان تسميان الإسمعيلية ، على ماذكره الشيخ المفيد وغيره .

وطائفة من الشيعة ظنوا أن الإمام بعده هو عبد الله الأفطح ، لأنه كبير أولاده إذ ذاك ، وهم الفطحية ، وقد توفي هذا بعد والده جعفر الصادق بسبعين يوماً ولم يعقب ولداً ذكراً ، ورجع الأكثر منهم إلى القول بإمامة موسى الكاظم ، لما تبينوا ضعف دعواه وقوة براهين الكاظم ، الذي هو الإمام السابع عند الشيعة الاثني عشرية ، وقد تواترت الأدلة بإمامته بعد والده من طرق الشيعة .

فجعفر الصادق لم يعقد الإمامة لإسمعيل ، ولا وافق على إمامة محمد بن إسمعيل ، لا في حياته ولا بعد وفاته ، سواء روى ذلك المستشرقون أو المستغربون الذين لايقيمون وزناً إلا لما يأتي من الغرب (وصاحب البيت أدرى بالذي فيه) .

ومحمد بن اسمعيل هذا هو الذي سعى للرشيد بموسى الكاظم، وحلف له بأنه خليفة يأتيه الخراج ، فمات من ليلته تلك .

ونحن لا ننكر أن الأستاذ الكاتب استطاع أن يثبت معاصرة القداح لمحمد بن إسمعيل ولكن لم نقتصر نحن على إنكار المعاصرة ، بل أثبتنا وثاقة الرجل وبعده عن الإلحاد ، فإصرار الكاتب على أنه يدعو إلى مذهب إلحادي سري لانعرف معناه ، وقد قدمنا في كلامنا السابق أن الأعاظم من أصحاب الأئمة يروون عنه ، وأن جميع الإمامية ينقلون رواياته في أبواب الفقه بلا تردد في قبولها .

والذي جعله يدعو إلى مذهب إلحادي سري هو كونه شيعياً لا غير، إذ كل مايصدر عن الشيعة هو إلحاد وكفر ، والشيعة هم أتباع أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، والذين ما أخذوا إلا عن جدهم (ص)، ولا يهمنا بعد أن يثق الكاتب بالرواية الشيعية في تاريخ وفاة القداح أو لايثق اعتماداً على قول المستشرقين الثبت .

ولا ندري متى نتخلص من هذه النعرات الطائفية، وكل مافي هذا العصر من المصائب والويلات الإسلامية ، يدعو إلى الاتحاد ، فلتبق العقائد في القلوب ، ولا يجاهر بعض المسلمين بعضهم الآخر بفساد مبدئه ياناس ، ومن الله الهداية .

جبل عامل — البياض ابرهيم سليمان

٢

وهم بين لجنتين

قرأت في عدد يونية الفائت (ص٣٥١) الكلمة اللطيفة التي تفضل بها الأستاذ عبد الحميد جودة السحار سكرتير لجنة النشر للجامعيين مصححاً الالتباس الذي وقع لي بين « لجنة الجامعيين لنشر العلم » وبين « لجنة النشر للجامعيين » .

وأحب أن أعترف للأستاذ بأنني كنت أحسب أنهما لجنة واحدة ، وأنني مذ اطلعت على صنع اللجنة الأولى في كتاب « تراث الإسلام » أشحت بوجهي عن آثار لجنة النشر للجامعيين تماماً ، رغم وقوعها تحت بصري مراراً وتكراراً ، متوهماً أنها آثار تلك اللجنة .

ولهذا فإني إذ أشكر صاحب التصحيح على كلمته وعلى إفساحه المجال أمامي للاطلاع على آثار اللجنة التي يمثلها ، أسأله هلا يوافقني على أنني كنت معذوراً في الوقوع في هذا الإلتباس الناشيء عن الشبه العظيم بين إسمي اللجنتين ، وأن الذنب ليس ذنبي وحدي .

حلب محمود الدابيري



الكتاب

سبتمبر ١٩٤٦

الفهرست

دار المعارف للطباعة والنشر

بمصر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان

- تنشر المجلة من المقالات والرسائل ما توافق عليه ويكون مخصوصاً بها .
- جميع الحقوق الخاصة بما تنشره المجلة من مقالات ورسائل ورسوم محفوظة لدار المعارف للطباعة والنشر بمصر .
- ترسل المكاتبات إلى : مدير دار المعارف للطباعة والنشر - قسم المجلة - ٧٠ شارع الفجالة بالقاهرة .
- الإعلانات يتفق عليها مع دار المعارف بمصر .
- لا يقبل الاشتراك إلا عن سنة وقيمته :

  ١٠٠ قرش مصري لمصر والسودان .

  ١١٠ قروش مصرية للبلاد العربية الأخرى أو ما يعادلها .

  -/ ٣ /١ لإنجلترا

  -/ ٧ /١ أو ٦½ دولار للبلاد المنتظمة في اتحاد البريد العام

  -/١٣/١ أو ٨ دولارات للبلاد غير المنتظمة في اتحاد البريد العام

ثمن النسخة :

بمصر والسودان	١٠ قروش	بفلسطين وشرق الأردن	١٢٠ ملاً
بلبنان وسوريا	١٢٠ غ.ل.س	بالعراق	١٢٠ فلساً



السنة الأولى — المجلد الثاني — شوال ١٣٦٥
الجزء الحادي عشر — سبتمبر ١٩٤٦

تهنئة

يصدر هذا الجزء وعيد الفطر المبارك قد طلع على العالم الإسلامي بآيات نوره وبهائه ، وقلوب المسلمين والعرب فياضة بالفرحة تلوح في صفحات العيون وقسمات الوجوه .

و « الكتاب » تقدم أصدق التهانئ للمسلمين في أقطار الأرض ، وتدعو الله أن يحقق للأمم العربية أمانيها الغوالي ، وأن يشمل عباده بموصول النعم وموفور الخير والبركات .

زبد وَحباب

لو شبهنا الحياة في قَضِّها وقضيضها وفي حوادثها الرخية وأحداثها الضخمة لو شبهناها بالبحر في هديره ودويه وتوالي أمواجه تسفل لتعلو وتعلو لتسفل لكان موقع الوهم والخيال من حقائق الحياة موقع الزَبَد من أمواج البحر .

ولو شبهنا الحياة في سلطانها على عقول الناس وأثرها في قلوبهم الظامئة وفعلها في نفوسهم المستسلمة لو شبهناها بالخمر في عنفوانها وأثرها ومذاقها لكان مكان المحال والأحلام من حقائق الحياة مكان الحَباب من سورة الخمر .

ولئن كان الزبد زينة من زينات البحر بما يطرزه على ثوبه الأزرق من وشي أبيض يتلاحق تارة وينقطع أخرى في سبائك منتظمة متناثرة من اللجين الوضاح أو كان الحباب هو الحلي الذي تزدان به لمّة الخمر وتزهى بحبائكه المشعشعة . . . إن الأوهام والأحلام هي كذلك زينة الحياة وحليها فهي الزبد من أمواجها الصاخبة أو الحباب من حميّاها المسكرة يستسلم الإنسان إليها فترفه عنه بعد ضيق وتريح عقله وقلبه بعد نصب ولأواء وتنقل فكره إلى عوالم أخرى من الغبطة والارتياح وهو يعلم أن تلك العوالم إنما هي زبد يتلاشى وحبب يذوب .

وهذا الإخلاد إلى الوهم الجميل سلوى للحزانى وراحة للمتعبين وهدنة للمتقلبين في أعطاف النعيم فهو يقطع على النفس موصول بؤسها أو هناءتها ويكشف لها آفاقاً أخرى من آفاق الحياة فقد خلق الله الليل وأردفه بالنهار وبسط المهمه القفر وأتبعه بالجبال العالية والرياض الأريضة وجعل الأيام فصولاً ومواسم وقسمها إلى ربيع وصيف وخريف وشتاء وأبت حكمته إلا أن تبرأ الأشياء وأضدادها لينجو الإنسان من حال رتيبة فيها كل الضيق والسأم والملال وليتطلع دائماً أبداً في رجاء وأمل إلى الغد المجهول وبذلك تتصل أسباب الحياة بل أسباب العمل والجهاد .

* * *

درجت هذه المجلة على أن تقدم للقارىء أبحاثاً عميقة ينتخلها الكتّاب من أعماق الفكر وموضوعات طلية يعصرونها من كروم الوحي فلا أقل من أن تقدم له اليوم بهذا

المقال بعض الزبد والحباب لا على أنه زينة تجمل في العين وتتلألأ في الذهن بل على أنه ترويح للنفس في هذا الصيف القائظ الذي اعتصم فيه الناس بقمم الجبال أو سالوا فيه على شواطىء البحار . ولم لا يكون للزبد والحباب مقال وأولهما على ما فيه من صفة الاضمحلال قد اتخذته الصناعة مادة تصنع منه مختلف الأشياء والأشكال وثانيهما على ما فيه من نسب إلى الهواء قد أقبل عليه الرسامون فصوروه في لوحات خالدات .

ولعل ما نعم به الخاطر من فتنة البحر في شاطىء الإسكندرية وما شهدته العين فيه من أقداح وكؤوس يشعشع الشراب فيها مرصّعاً بلآلئ الزبد والحباب وجله شراب مثلوج حلال يطفىء حرّ الأوام ويروي الغليل لعل هذا هو الذي أوحى إلينا بعنوان هذا المقال وبالمقدمة التي تلته توطئة لتسجيل بعض الخواطر أوحت بها زيارة قصيرة للإسكندرية .

كان آخر العهد بالإسكندرية بضعة أيام قضيناها فيها إبان الحرب الأخيرة نغّص لياليها سواد حالك كان يلفها في طياته لفاً فلا يتنفس منه بصيص نور ولا تتميز فيه حدود الأشباح وسهاد متقطع تفري أوصاله نذر الشؤم بهجمات طائرات الأعداء وما يتبعها من أزيز مخيف وقذائف تلقى من الجو على غير هدى فيختلط دوي انفجارها بدوي المدافع التي كانت تطلق حممها إطلاقاً لا انقطاع فيه ولا هوادة وترد على المغير التحية بأحسن منها . . .

فلما شددنا الرحال إلى الإسكندرية في هذا الصيف وشدُّ الرحال اليوم هو حجز مجلس مريح في طائرة أو غرفة أنيقة في باخرة أو مقعد وثير في مركبة سكة الحديد أو امتطاء سيارة توافرت فيها أدوات الترف ... مضى الخاطر يتذكر ليالي عروس البحر يوم كانت غارقة في حلك الثياب ويتمثلها اليوم مجلوة في أبهى ما تجلى به العرائس من زخرف وحلي وزينة وانصرف الذهن كذلك في أثناء خبب القطار إلى ما لقيه هذا الميناء على مدى الحقب والأجيال من غارات شعواء شنتها دولة طاغية في إثر دولة طاغية وهو باق على الزمن يبسم بسمة الاستهزاء والسخرية ويقول :

« إن الباطل وإن طال به الأمد يتلاشى كما يتلاشى هذا الزبد تلفظه أمواجي إلى أخاديد الرمال وإن الذي يعجب بجمالي ويهوى أنسي ويطلب وصالي لن يجرر إلا أذيال الخيبة والعار إذا هو اعتدى على أهلي وسكاني وحطم أسواري ودك معاقلي .

لقد عدا عليّ الفرس فلم يهنؤوا بعدوانهم وغزاني الإسكندر فأعجبه جمال ثغري وزرقةموجي وسمائي فضم إليّ الجزر وألبسني من تفصيلُ بناته ومهندسيه ثوباً زاهياً أنيقاً ثم زفني إلى أحد قواده فرعى عهدي حتى تداولني خلفاء هذا القائد فأقاموا في صعيدي النصب والتماثيل وشادوا فيه المتاحف والمعابد وأنشؤوا المكتبات والمسارح وميادين الألعاب ولـكني كنت مع هذا أشعر بثقل الحياة في كنف الفاتح الغازي . ودخلني قيصر الرومان فعاث رجاله في أحيائي فساداً وما هو أن ينقضي حول على استحلالهم حرماتي حتى حزّ في فؤادي أن أرى « كنوز النفس » التي كانت تحتويها مكتبتي النفيسة قد أصبحت طعاماً للنار وأنا التي كنت أباهي بمكتبتي كلاًّ من طيبة فيما تعتز به من « صيدلية النفس » وأورشليم فيما يكتنزه هيكلها من أسفار مقدسة . ثم قدر لي بعد نحو من أربعة قرون ونصف قرن أن أُرمى بمثل هذه الفاجعة فأرى نفائس كتبي فريسة للنيران مرة أخرى. ولقد لقيت الأمرّين بين أنطنيوس وأكتفيوس وقد جعل هذا مصر مستعمرة رومانية وجعلني عاصمتها ولم ينقذني من هذا الهوان غير العرب فأبقوا على مكتبتي وأكرموا أهلي فدخلوا في دينهم أفواجاً وعاشوا معهم في عدل وحرية وأمن وطمأنينة . وما ساءني ميلاد شقيقتي القاهرة ونموها وازدهارها وتحول الأنظار عني فقد كنت أطرب لها في قرارة نفسي لأنها شقيقتي الصغرى وإن تكن سبقتني اليوم في الجاه العريض والعز والسلطان ولا سيما أني بلوت الدهر وبلاني فأذاقني حلوه ومره وأفاض علي بخيره وشره فما عدت أهتز لنعمى وإن عظمت ولا أضطرب لبلوى وإن قست ثم دهاني القدر بالأتراك فبطاغية الفرنسيس من بعدهم فلقيت من المحن ما لقيت حتى كتب الله لمصر الخير والبركات وقيض لها الأسرة العلوية ترفع شأنها وتعلي كلمتها وتصلح أمرها فنالني من غيث إصلاحها رشاش نضّر ثوبي وأخصب تربتي فكدت أنسى عنت الدهر لولا ذلك الأسطول الذي أمطرني بقذائفه في سنة ١٨٨٢ » .

توالت على الخاطر هذه الصور الخاطفة فكانت آثارها تنطبع في النفس فيما تصوره من سعادة وشقاء ومجد وانحطاط حتى إذا انتهى هذا العرض الخيالي إلى آخر عدوان منظم لحق الإسكندرية وامتد أثره إلى مصر قاطبة ثارت النفس ثورتها وغلى الدم في العروق وخيل إلى الناظر في لوح الزمن أن الاعتداء ابن ساعته فتحفز للوثوب دفاعاً عن عروس البحر واضطرب المقعد من تحته ولم يصحُ من تلك الرؤى المزعجة إلا على صفير القطار ينبئ الركاب بوصوله إلى بعض محاطّه فما زادته اليقظة إلا حسرة وأسى على

ظلم فادح وحق سليب وتذكر أن الإسكندرية في تلك الساعة هي حلبة مصاولة ومحاورة بين الأسد البريطاني والنمر المصري فتمنى أمنية كل عربي صادق أن تتقشع قريباً هذه المفاوضات عن صبح الحق والحرية والاستقلال أبلج ناصع الأفق والجنبات . . .

وتابع القطار سيره فواصل الفكر جولانه في عالم الرؤى والأحلام فذكر بعض إخوان له في الإسكندرية من أساتذة جامعة فاروق ومن الأدباء والشعراء فسرّه قريب ملقاهم ورقي به جناح الخيال إلى الأزمنة التي كانت فيها الإسكندرية عاصمة العالم الثقافية في مكتباتها العامرة بمئات الآلاف من المجلدات تنهب وتبعثر وتحرق غير مرة وفي متاحفها الزاخرة بالنفائس والبدائع لم يبق منها إلا أعمدة وأنقاض وبقايا لا تزال دفينة في الرمال وفي مدارسها الزاهرة بشموس العلم والمعرفة والذكاء والمختلفة بين رياضية وعلمية وفلسفية وأدبية وكيف كانت ملتقى العلماء ومحط طلاب العلم يتخرجون فيها فيطير لهم صيت في الشرق والغرب وفي مجامعها التي عقدت فيها وارفضت على تقرير مبدأ أو رفض نظرية أو تكفير فيلسوف . ذكر كل هذا وذكر معه جامعة فاروق ومهمة أساتذتها وتوثب أدباء الثغر وشعرائه إلى أن يكون لهم من نهضة الشرق الأدبية والعلمية مكان ماحوظ فقال في نفسه : لعله قد آن الأوان لأن تلبس الإسكندرية ثوبها الجامعي وتشير إلى العلوم والآداب والفنون أن هنا مطلع شمسك ومجلى كواكبك ونجومك . . .

وكان القطار قد بلغ خاتمة مطافه وهو يزفر ويلهث ويصفر صفيراً طويلاً أيقظ راكبيه من سبات أحلامهم وقطع عليهم كل تفكير وكل حديث فنزلنا ولا وعثاء أصابتنا ولا غبار للسفر ننفضه عنا وتوجه كل إلى مقصده وتوجهنا إلى بعض الفنادق المطلة على البحر فمرت بنا السيارة بشوارع الإسكندرية وطرقها وميادينها بين عمارات تناطح السحاب وحوانيت نظمت واجهاتها الزجاجية تنظيماً يتجلى فيه الذوق والأناقة فقلنا سبحان من أحال هذه القرية الصغيرة التي كانت مثوى الصيادين والرعاة إلى مدينة عظيمة تنافس عليها الملوك والدهاقين في غابر الأزمان وقامت اليوم تضيف إلى تليدها طريفاً نيّراً وعرجنا في طريقنا على «دار المال» وكاد يبلغ مسامعنا ما يجري بين جدرانها من صخب وضوضاء تعلو معهما ثروات وتنخفض ثروات في حركات يقوم بها أولئك الوسطاء وهي بحركات المجانين والمتوهين أشبه منها بحركات العقلاء ومع ذلك يتم بها التفاهم على عقد الصفقات وعلى ضياع زيد وإغداق الثراء على عمرو .

ومدينة الإسكندرية مدينة تجارية عريقة فقد ظلت ملتقى تجارة الشرق والغرب زمناً طويلاً ثم شالت كفتها بإنشاء القاهرة ونكبات الفتح العثماني وكشف أمريكا وارتياد السفن رأس الرجاء الصالح وحفر قناة السويس ولكنها على توافر اللدات والعداة ما ونت ولا ضعفت بل جاهدت وجدت وسارت من نجاح إلى نجاح ومن ازدهار إلى ازدهار حتى لبست هذا الثوب المشرق الزاهي من ثياب الغنى والعمران ولولا القيود المضروبة على القطن المصري وحبسه عن طلابه في العالم أجمع لزادت الإسكندرية وباقي المدن المصرية ثراء على ثراء..

ولكن كل هذه الخواطر زبد وحباب تلاشيها نسمات البحر فما كان للمصطاف أن يفكر ويدرس ويقارن وقد جاء يملأ رئتيه بالنسيم المنعش ويكحل عينيه بإثمد الجمال ويقضي يومه في حضن الطبيعة كالطفل الغرير .

شواطئ الإسكندرية طِوَلٌ مرخي قام على كل ثِنْي منه قصر عظيم لملك عظيم أو سلسلة مفردة تميزت كل حلقة منها بأَخْذٍ من الفتنة والسحر وغصت كلها بمنتجعي الصحة والعافية وطلاب اللهو والمرح يستقبلون الصباح ويودعون الشمس وهم في غبطة موفورة ونعيم موصول فمن شيوخ قبعوا في حجراتهم الخشبية أو استلقوا على كراسيهم تحت المظلات ينظرون إلى هذا الفضاء الواسع وإلى البحر الذي يبدو في ظلال السحب منوع الألوان بين الأزرق والأخضر ولون الطحلب فيدركون طول الشقة التي تفصلهم عن أيام الصبا ويذكرون ما مر عليهم من تغير الزمن وتلون العيش . إلى شباب استودع الأمواج همومه وشؤونه ونفر منها يبسم للحياة بسمة الأفق للسماء ويجول في أطراف الشاطئ جولة آدم في فراديس الجنان . إلى ظباء يرتمين على طهر في أحضان البحر عاريات إلا مما يزيد قليلاً عن وريقات الشجر التي تسترت بها أمهن حواء وقد اختارت كل حوراء منهن لملبسها لوناً فكأنما هبط قوس قزح من صفحة السماء إلى صفحة الماء ثم انتقل مع أولئك الحور إلى صفحة الرمال لما تمددن عليها وعرضن أجسامهن للشمس يطليهن شعاعها بطلاء الذهب أو الشبه كأن ليس هناك عيون نهمة ترتاد لحاظها حدائق الفتنة والإغراء . إلى نظارة يأخذ منهم العجب والحيرة كل مأخذ فيسائلون النفس انتقلت مستعمرة العراة إلى شواطئ البحار أم هذي هي مجالي المدنية الحديثة ومن أنكرها أو تنكر لها عد من الجامدين الرجميين . هذا والبحر يضحك ملء شدقيه على أنه سهل لإبليس اصطياد النفوس .

ويظل القوم في هذا الهرج سحابة نهارهم لاينقطعون عنه إلا ليعودوا إليه حتى

إذا حان الأصيل وضُرِّجت كبد الشمس بسهام السحب وناشها ناب البحر وقرض جوانبها قبل ابتلاعها أشرقت منارة الإسكندرية ترسل شعاعها الجوّال إلى أثباج الماء وزوايا الشواطىء جرياً على عادتها منذ ألفي عام وهي لو أنطقها الله لروت أفانين من القصص والأسرار . أما ليل الإسكندرية فزاهر لا بأشعة المنارة ولا بأنوار الكواكب والشهب ولا بتلك المصابيح الكهربية التي امتدت إلى جانبي طرقاتها ولا بالثريات الملألئة في سماوات حاناتها وملاهيها ولكن بذلك الطوق النوراني الذي كان يرصع نحر البحر وما هو إلا أنوار مراكب الصيادين قد انتثرت في الأفق وبدت على الماء نجوماً ساطعة تحيي شقيقاتها في السماء . فبمثل هذه الأنوار التي يتدفق في سناها الكسب الشريف يزدان الليل والنهار وبمثل أولئك الصيادين الذين يقضون آناء الليل في مصارعة الأمواج ليوفروا للناس الطعام وليضمنوا رزقهم ورزق عيالهم تفخر البلاد وتسمو . . .

* * *

أيتها الإسكندرية الحسناء ما أروع مفاتنك وأعجب سحرك وأكثر عشاقك . . . سيرحل المصطافون عما قريب عنك مثقلين بالذكريات ولكن لن يبقى منها في نفوسهم وأذهانهم وقلوبهم غير ذكرك الجميل وصورة فتنتك وبهائك فليس ماعداك إلا حلم ليلة صيف أو دفقات من الزبد والحباب . . .

عادل الغضبان



المعارضات في الشعر العربي

٣ - العصر الأموي

للأستاذ علي الجارم بك

هذا عصر الفتن والأحداث ، والـكوارث العظام ، وتقلب القلوب ، واللعب بالنفوس ، وعهد الملك العضوض ، وانتقال الخلافة من رفق الزهاد الناسكين ، إلى سيطرة الدهاة المالـكين ، ثم هو عهد انطلاق العرب من ربقة الوحدة العربية التي قهرهم عليها الإسلام في عهد النبي الـكريم والخلفاء الراشدين ، فما كادت قبضته تنفرج عنهم أصابعها حتى عادوا قبائل وشيعاً ، وفرقاً وأحزاباً ، وحنوا إلى نعرة الجاهلية الأولى ، وإلى الفخر بالأنساب والتحدث بالمآثر والأيام ، ونبشوا ما دفنه الإسلام من أحقاد وترات ، وانفصمت تلك العروة الروحية الجميلة التي بذل الدين غاية الجهد في عقدها ، وتأليف وحدة محصدة الفتل من أشتات العرب تغزو العالم بقوة الإيمان ، وتجبه الدنيا بعقيدة تنهزم أمامها الجحافل .

طلعت الشمس في بداية هذا العصر ، محمرة حزينة ، تنفث أشعتها دماء متناثرة ، وأطرق الإسلام واجماً وهو يرى أبناءه الذين كانوا جسما واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، يحتكمون إلى السيوف ، ويحز منهم المرء رأس أخيه ، جذلان مرحاً ، كأنه في سبيل الله يجاهد ، وفي إعلاء كلمته يجالد ، ولـكنها الفتنة العمياء ، والداهية الدهياء ، والرين يغشى القلوب فلا ترى الضلال ضلالا ، ولا ترضى الصواب صواباً .

بدأ هذا العهد بالخلاف بين علي ومعاوية ، فسالت دماء عزيزة على المسلمين ، ووثب شيطان الفرقة يفتر عن أنياب أفعى ، ويحجل حجلان الغراب المشؤوم ، ثم خرج كثير من المسلمين على علي لأنه حكم في دين الله ، فنشأت فرقة الخوارج التي عاشت

شاغبة ساخطة ، لا تريد حكماً ، ولا ترضى عن حاكم ، حتى استأصل شأفتها المهلب بن أبي صفرة في خلافة عبد الملك بن مروان . ثم قام ابن الزبير في مكة يدعو إلى نفسه ، ويطالب بالخلافة ، فكان له جند مناصرون . وهكذا انتثر العقد ، وانشقت العصا ، وانتقض الغزل أنكاثاً ، وتفرق المسلمون شيعاً ، وتبددوا أحزاباً مخلصين أو غير مخلصين ، راغبين في عرض الحياة الدنيا أو غير راغبين . فإننا نعتقد أن النفس الإنسانية في هذا الزمان هي النفس الإنسانية في كل زمان ، وأن اتجاه الناس إلى الزعماء في ذلك الحين ، لم يكن كله خالصاً عن محض عقيدة أو اقتناع بمذهب .

والناس من يلق خيْرًا قائلون له ... ما يشتهي ولأمّ المخطئ الهبــل

ومن الناس من يحتال في أيام الشغب والفتن ، فيلبس ثوباً ذا لونين ، ويصطاد في ماءين ؛ فقد رأينا من هؤلاء من يتصل بعلي ، لأن الصلاة خلفه أخشع ، ويحوم حول مائدة معاوية ، لأن الطعام على خوانه أدسم . وإني أشك كثيراً في أن مسكينا الدارمي كان صادقاً حين كان يرفع عقيرته بالدعوة إلى مبايعة يزيد بن معاوية ويقول :

بني خلفاءِ الله مهلاً فإنما ... يبوّؤها الرحمنُ حيث يريد

إذا المنبر الغربيّ خلّاه ربُه ... فإنّ أمير المؤمنين يزيد

وما أظن أن أعشى ربيعة كان يصور ذات نفسه حين قال :

وفضّلني في الشعر واللبِ أنني ... أقول على علم وأعرف من أعني

وأنيَ إذْ فضلت مروانَ وابنه ... على الناس قد فضّلت خير أب وابن

أغلب الظن أن شاعراً يعيش من فتات قوافيه ، لا يحتاج إلى أن يقول على علم ، ولا أن يعرف من يعني . والشعر كالناس ، أو قد يكون أبعد منهم نظراً ، وأسرع إلى الفرص اهتبالا ، وحاجة الزعماء إلى الشعر والشعراء كحاجتهم إلى تكتيب الكتائب وتجنيد الجنود ، فكان لعلي شعراء ، ولمعاوية شعراء ، وللخوارج شعراء ، ثم للزبيريين بعد ذلك شعراء . وأشهر شعراء الشيعة الكميت ، ويبرز من شعراء معاوية الأخطل وجرير وابن جعيل ، ويحمل لواء شعراء الخوارج عمران بن حطان ، ويشيد بآل الزبير عبيد الله بن قيس الرقيات .

وإذا كان للشعر ميزان حرارة ، فإن حرارة شعر الأحزاب تنحط وتتدلى كثيراً إذا قورنت بشعر الصدام والكفاح والنار المتأججة بين شعراء النبي وشعراء المشركين ، ذلك لأن البون بعيد ، بين من يقول عن إيمان لاصق بالقلب ، أو للنفح عن شرف قديم

ممتزج بالدم ، ومن يقول لينتصر لمسلم على مسلم ، إما لعقيدة واهية ، وإما لأجر يناله لقاء ما يقول . فقد أستطيع أن أزعم وأنا مغمض العينين أن شعراء الحزب الأموي لم يرسلوا سهام أشعارهم عن رأي صح عندهم وزنه ، أو وضح لديهم برهانه ، ولكنهم كانوا في جملتهم أبواقاً مأجورة تنعق هنا وهناك ، وجرائد صفراً يوجهها الخليفة أو صاحب دعايته كما يشاء . وحسبك أن قائد كتيبتهم كان الأخطل ، وهو هو الذي لا يعنيه من أمر الخلافة الإسلامية شيء إلا ما تدره عليه من لبن وعسل . أما شعراء الشيعة فكانوا مخلصين في غضبهم وبكائهم ، ولكن قلوب بعضهم كانت تضعف أمام سيطرة الأموي ، وترجف فرقاً من سيفه المسلول . فإذا قالوا نظروا قبل أن يقولوا يمنة ويسرة ، وإذا انزلق بهم اللسان مرة أو مرتين باتوا بليلة الملسوع ، وأعدوا العدة للفرار . وإذا صح ما نسب إلى الكميت من رعبه من هشام بن عبد الملك ، وهربه من السجن بعد أن لبس ثياب زوجه ، وتركها خلفه تلاقي من شياطين السجن ما تلاقي ، والتجائه إلى قبر معاوية بن هشام ، واستنقاذ نفسه بمدح بني أمية ، ثم استمراره في مدحهم إلى آخر أيامه ، علمنا ما يفعل الخوف بالعقائد ، وكيف تستل الغرائز شهامة الرجال . يقولون إنه عمل بمذهب التقية ، ولكننا لا نفهم كيف تستباح هذه التقية إلى آخر أنفاس الحياة ؟ وقد حدث هذا بعينه لعبيد الله بن قيس الرقيات شاعر آل الزبير حين أهدر عبد الملك بن مروان دمه ، فتنقل مختفياً في الأحياء والقبائل ، حتى استعاذ ذليلا خانعاً بعبد الله بن جعفر ، فسعى للعفو عنه ، فلما ظفر بالعفو انطلق يهدر بمدح المروانيين كأنما أطلقت سيلا حبيساً !

وكان الفرزدق شيعياً ، ولكنه كان لبقاً دواراً ، لا يتخذ من عقيدته حلية يعرضها على الناس ، ولا يجعل من مذهبه شارة يلصقها بكم قميصه حتى يراها كل ناظر ، وله شعر كثير في مدح بني أمية ، والقصيدة المنسوبة إليه في مدح علي بن الحسين، موضوعة في أغلب الظن .

وأريد هنا أن أنبه على حقيقة يجب ألا يغفل عنها مؤرخو الأدب ، تلك هي أنه كلما اشتدت المنازعات الدينية أو السياسية كثر الوضع والانتحال ، وقامت مصانع كل حزب تسبك شعراً في صور يصعب فيها كشف التزييف والتزوير ، وأخذت تنسب إلى كل شاعر من أي فريق شعراً يحاكي فيه أسلوبه ، وتبرز مميزاته ،حتى لقد يخدع فيه بعض صيارفة الكلام . فيا أيها الأدباء خذوا حذركم ، وراجعوا أنفسكم مرات كلما التقيتم بشعر سياسي أو ديني ، وادرسوا البيئة ، والنفوس الإنسانية ، وأساليب كل عصر ، قبل أن

تبتوا برأي أو أن تسرعوا بنفي أو إثبات .

أما شعراء الخوارج ، فقد زهدوا في الدنيا وزخرفها ، وسخطوا على الحكم ورجاله ، وانصرفوا إلى عقيدتهم صحيحة أو فاسدة ، يغذونها بأرواحهم ويذودون عنها بسيوفهم وألسنتهم . وسيرة عمران بن حطان رأس شعرائهم سيرة الفوضوي المجاهد الذي باع نفسه لمذهبه . والذي ينطبق عليه بيت المتنبي أصدق ما ينطبق :

تغرّبَ لا مستعظماً غيرَ نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

وشعر قطري بن الفجاءة يصور الفدائية والثقة بالنفس والاستهانة بالموت في أسلوب ساذج رصين :

وضاربةٍ خدًّا كريماً على فتى أغرَّ نجيبِ الأمهات كريمِ
أُصيب بدولاب ولم تك موطناً له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهِدتنا يومَ ذاك وخيلُنا تُبيح من الكفار كلَّ حريم
رأت فتيةً باعوا الإلهَ نفوسَهم بجنات عدن عنده ونعيم

هكذا كانت حال الأحزاب ، وهكذا كانت حال شعرائها ، ولقد قيل شعر كثير في نصرة كل حزب ، ولكنه لم يكن شعراً ملتهباً متأججاً ، حتى إنه لكثيراً ما كان يفر من الحديث عن الحزبية البحتة إلى حديث المديح والهجاء . ولم تكن المعارضات في هذا الشعر السياسي شديدة أو كثيرة ، لفتور نفوس الشعراء ، أو لأنهم كانوا مشتتين في الأقطار بين الشام والعراق والحجاز ، ولبعد الشقة بينهم وعسر الاتصال لم تستطع أجنحة الشعر أن تطير خفاقة بين هذه الأقطار .

والذي وعيناه من معارضات الشعر السياسي ما ذكره المبرد من أن معاوية أرسل إلى علي كتاباً كتب في آخره أبياتاً لكعب بن جعيل هي :

أرى الشامَ تنكر مُلْكَ العراق وأهلَ العراق له كارهينا
وكلاًّ لصاحبه مبغضاً يرَى كلٌّ ما كان في ذاك دينا
إذا ما رمَوْنا رميناهمُ ودنّاهمُ مثلَما يُقرضونا
فقالوا عليٌّ إمامٌ لنا فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
وقالوا نرَى أن تَدينوا له فقلنا ألا لا نرى أن نَدينا
ومن دون ذلك خرطُ القتاد وضربٌ وطعنٌ يُقرُّ العيونا

فكتب إليه عليّ جواب رسالته ، ثم دعا النجاشي أحد بني الحارث بن كعب ، فقال له : إن ابن جعيل شاعر أهل الشام ، وأنت شاعر أهل العراق ، فأجب الرجل فقال : يا أمير المؤمنين أسمعني قوله، قال : إذن أسمعك شعر شاعر، فقال النجاشي يجيبه :

دَعا يا معاويَ ما لا يكونا فقد حقّق الله ما تحـذرونا

أتاكم عليٌّ بأهل العـراق وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟

لا نجد كثيراً من المعارضات القوية السياسية في هذا العهد ، ولكننا نجد نوعاً آخر طريفاً ، ابتكره معاوية ، وجرى الخلفاء بعده على أثره ، فقد أحيوا العصبية بعد أن أخمد الإسلام نارها ، وأرثوا العداوة بين الشعراء ، وأثاروا بينهم عاصفة من التهاجي والإقذاع ، حتى يصرفوا الناس عما أحدثوه من أحداث ، وحتى يبعثوا روح الجاهلية الأولى ، التي كان لهم فيها مجد عريق ، وشرف ورياسة ، وحتى يجدوا لأنفسهم فيما يتنابز به الشعراء ملهاة ، كما يتسلى المترفون بمهارشة الديكة ، ومناوشة الكلاب ، وحتى يقفوا بينهم موقف المحكمين ، ليرفعوا من تشاء السياسة رفعه .

وقد كثرت المعارضة الشعرية في هذا النوع ، وطمى سيلها ، وهي التي نسميها بالمعارضة الهجائية ، ولا يقصد بها إلا المباراة في فنون الهجاء المقذع ، والتباهي بمجد الجاهلية وأحسابها وأيامها ، ونبش ما دفنه الإسلام من مثالب القبائل في عهودها الأولى.

فقد ثارت حرب الهجاء ضروساً طاحنة بين جرير والفرزدق والبعيث المجاشعي ، وسبب ذلك أن ناساً من يربوع يقال لهم بنو ذهيل سرقوا إبلا للبعيث فقال جرير قصيدة طويلة يهجو بها البعيث أولها :

طاف الخيال وأين منك لماما فارجع لزورك بالسلام سلاما

فثار البعيث وعارضه بشعر من الهجاء أوله :

أجريرُ أقصر لا تحنْ بك شِقْوَةٌ إنّ الشقي ترى له أعـلاما

وكان الفرزدق في ذلك الحين ، قد قيد نفسه ، وحلف أن لا يطلق قيده حتى يحفظ القرآن ، ولكن هجاء جرير للبعيث أقض مضجعه ، وأثار فيه نازعة النجدة ففك قيوده ، وهب ينتصر للبعيث بقصيدة أولها :

ألا استهزأت مني هُنَيْدة أنْ رأت أَسيرًا يداني خطوَه حَلَقُ الحِجْل

وتبعه البعيث بأخرى يهجو جريراً :

أَهاج عليك الشوقَ أطلالُ دمنة بنا صفة الجوَّيْن أو جانب الهَجْل

فانبرى لهما جرير بقصيدة مطلعها :

عوجي علينا واربعي ربةَ البعل ولا تقتليني لا يحلُّ لكم قتلي

فرماه الفرزدق بأخرى أولها :

ألا حيِّ رَهْبَى ثم حيِّ المطاليا فقد كان مأنوساً فأصبح خاليا

ويرى الباحث في هذه المعارضات أو النقائض أنها ابتدأت ببحر الكامل ، ثم انتقلت إلى بحر الطويل ، والتزمت فيه قافية واحدة ، حتى نقلها الفرزدق إلى قافية أخرى ، وهو ضرب يعمد إليه المعتز بفنه في المباراة للعبث بالخصم وإعجازه وتحديه .

وكان من أسباب اشتعال المهاجاة ، وتأجج المعارضة بين الفرزدق وجرير ما رواه الرواة من أن الأخطل فضل الفرزدق على جرير أمام بشر بن مروان أمير الكوفة ، وأرسل قصيدة طويلة يعلن فيها هذا التفضيل أولها :

بكر العواذل يبتدرن ملامتي والعالمون فكلهُّم يَلْحاني

وفيها يقول :

قَبَح الإله بني كليب إنهم لا يحفظون محارم الجيران

تاج الملوك وفخرهم في دارم أيامَ يربوع مع الرُّعيان

فأسرع الفرزدق يعاضده في هجاء جرير :

يا ابن المراغة والهجاء إذا التقت أعناقُه وتماحك الخصمان

يا ابن المراغة إنّ تغلب وائل رفعوا عَناني فوق كل عَنان

فصال عليهما جرير يقول :

لمن الديار ببُرْقة الرَوْحان إذ لا نبيع زماننا بزمان

وفيها يخاطب الأخطل:

أَنسيتَ ويلَ أُبيك غدرَ مجاشع ومجرَّ جِعْثِنَ ليلة السِّيدان ؟

ونسيت أَعْيَنَ والرَبابَ وجارَكم ونَوار حيث تصلصل الجلجلان !

يقول للاخطل : أنسيت غدر مجاشع ، وهي قبيلة الفرزدق، بالزبير بن العوام حين استجار بمجاشعي بعد وقعة الجمل ، ثم يذكر بعد ذلك حادثة غريبة ، هي أن غالباً أبا الفرزدق جاور طلبة بن قيس بالسيدان ، وكانت جعثن أخت الفرزدق صديقة لظمياء بنت طلبة تتحدث إليها كل ليلة ، وكانت إذا أرادت لقاءها صفقت لها بحجل لتجيء

إليها، فاشتهى الفرزدق أن يلتقي بظمياء ، وحدث أن شغلت أخته ليلة بأمر نفسها ، فأخذ حجلها وحركه فجاءت ظمياء كعادتها ، فارتابت بالفرزدق وصاحت ، وعادت إلى رحلها ، فلما علم فتيان الحي من أهلها أسرعوا فأخرجوا جعثن من خبائها ، ثم سحبوها ليشهروا بها .

وكان من ضروب إثارة المنافسة والمعارضة بين الشعراء ، مارواه أهل الأدب من أن الفرزدق والأخطل وجريراً كانوا في حضرة عبد الملك بن مروان ، فأحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار ، ثم قال : ليقل كل منكم بيتاً في مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فبدأ الفرزدق فقال :

أنا القَطِرانُ والشعراء جَرْبَى ... وفي القطران للجرْبَى شفاء

وقال الأخطل :

فإن تك زقَّ زاملةٍ فإني ... أنا الطاعون ليس له دواء

وقال جرير :

أنا الموت الذي آتي عليكم ... فليس لهارب مني نجاء

فقال عبد الملك : لعمري إن الموت يأتي على كل شيء ، وقضى له .

ويروون أن الفرزدق قال في هذا المجلس : النوار طالق إن لم أقل شعراً لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبداً ، ولا يجد في الزيادة عليه مذهباً ، فقال عبد الملك : ما هو ؟ فقال :

فإني أنا الموت الذي هو واقع ... بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله

وما أحد يا ابن الأتان بوائل ... من الموت إن الموت لا شك نائله

فأطرق جرير ثم قال : أم حزرة طالق ثلاثاً إن لم أكن نقضته ورددت عليه ، فقال عبد الملك : هات فقد والله طلق أحدكما لا محالة ، فقال :

أنا البدر يغشَى نورَ عينيك فالتمس ... بكفيّك يا ابن القَيْن هل أنت نائله ؟

أنا الدهر يفنَى الموتُ والدهرُ خالدٌ ... فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

فقال عبد الملك : فضَلك والله يا أبا فراس وطلق عليك .

تلك روايات تصدقُ أو لا تصدقُ ، ولكنها من ذخائر الأدب وطرائفه على أي حال ، وحسبنا هذا القدر من المعارضة الشعرية في هذا العصر ، وسنتحدث عن المعارضة في العصر العباسي في عدد يجيء إن شاء الله .

على الجارم

حرّيّة الفكر
نظرات تأمّليّة وتحليل

للأستاذ إسمعيل مظهر

نخطىء كثيراً إذا تصورنا أن حرية الفكر هي من أوضاع العصور الحديثة ، ونعني بها أربعة القرون الفارطة من عمر الحضارة . وكذلك نخطىء بعض الخطأ إذا خيل إلينا أن الحرية الفكرية وليدة التاريخ المكتوب ، أي أنها من أوضاع الحضارات التي وصل إلينا منها آثار مكتوبة ، سواء أكانت هيرغليفية ، أم رمزية أم مسمارية أم غير ذلك . ولعلنا نصيب إذا قلنا : إن حرية الفكر ولدت مع بدايات الفكر الإنساني ، فإن اختلاف اثنين على مبدإ من المبادىء ، وأخذ كل منهما بوجهة من النظر خاصة به ، فيه من حرية الفكر أثر كبير . أما خروج شخص ما على معتقد سائد ، أو عرف محترم ، أو قاعدة مرعية ، والدعوى إلى مخالفة ماهو كائن من ذلك ، ففيه من حرية الفكر كل العناصر التي ندركها في عصرنا هذا من اصطلاح حرية الفكر .

حرية الفكر إذن لها بداياتها في العصور التي أخذت فيها قوى الإنسان العقلية توازن بين فكرتين . ولقد كان لهذه الحالة نواة بدأت في الفكر الإنساني بنماء القوة التقديرية للماديات ، فمنذ أن عرف الإنسان أن اجتياز النهر من شاطىء لشاطىء أقرب شقة من متابعة مجراه من منبعه إلى مصبه ، ومذ عرف أن ورقة شجر التين أكبر من ورقة شجر النرجس بزغت في عقله بوادر التقدير والموازنة ، ومن ثم تدرج من الموازنة بين الماديات إلى الموازنة بين العقليات ، وانتهى إلى تلك القدرة الفذة التي مكنته من الموازنة بين المعنويات ، فشبت معها صفاته الخلقية وفكراته في الجمال ، ورهفت من حسه ، فأخذ يصغي إلى تغريد الطيور ، وتعشق موسيقى الطبيعة ، ومضى ينظر إلى السحب المشوبة بأشعة الشمس عند الإصباح وعند الأفول ، ثم امتدت قواه إلى البحث عن علل هذه الأشياء .

القوة العاقلة عند جميع الناس ، وربما كانت عند الحيوان ، واحدة من حيث الأصل والمبدأ ، أما تدرجها نحو الغايات العليا فسببه على ما يقضي به النشوئيون ظهور صفات جديدة في كائنات قديمة ، فالطابع العقلي في عصر من العصور يظل كما هو

طابعاً محصوراً في حيز بعينه ، مدموغاً بصورة بذاتها ، حائماً حول غايات محدودة ، فإذا طرأ عليه تغاير نشوئي سببه البيئة أو الوراثة أو التغاير الفجائي على ما يقول ثقات الناظرين في علم الوراثة ، انحرف عن طابعه القديم ، وتواردت عليه مسائل ومشاكل ، وراح يعالجها بطريقة في المنطق لم يعرفها طابع العقل الأول . تلك هي بدايات حرية الفكر على مدى الأزمان .

لم يقف العلم ولا وقف التاريخ على تلك الدرجات التي تنقل فيها الفكر الإنساني حتى وصل إلى الصورة التي انطبعت بها الحضارات القديمة ، ولكنه لا ريبة البتة في أن الفكر قد تدرج في حالات عديدة أسلمت بالإنسانية إلى الصورة التي قامت عليها حضارة الكلدان ومصر وبابل وآشور ، واليونان ثم الرومان . على أن البحث في ذلك إنما يرجع إلى تعميمات كلية كالتي سقنا فيها القول إلى الآن ، فإذا انحدرنا إلى الحضارات الأولى استطعنا أن نأخذ منها قرائن تدل على السوابق التي عفى عليها الزمن ، ومن هذه الأوليات ثورة أخناتون المصري على الأوضاع الكهنوتية التى خضعت لها دولة مصر في عهده ، فقد كان للكهنة عقائدهم الخاصة ، وكان لهم سلطان على الشعب مزدوج التشعب ، فإن عقائد الشعب كانت على مايظهر من الآثار جزءاً من العقائد التي يؤمن بها الكهنة ، فكان للكهنة أسرار لايطلع عليها الشعب ، احتفاظاً منهم بذلك السلطان الواسع الذي مارسوه في الدولة ، وكان الانحراف الأخناتوني عبارة عن ثورة جامحة من حرية الفكر ، محصلها أن الله واحد ، وأنه إله جميع الناس لا إله الكهنة وحدهم ، وإذن وجب أن يعبده الناس على طريقة واحدة ومن سبيل واحد ، وسواء أأخفق أخناتون في عصره أم نجح ، فإن ثورته الفكرية قد فرخت في العقل العبراني ، وراحت تزاحم فكرات قديمة كانت ماثلة فيه ، وظهرت هذه الفكرات واضحة في المزامير ، إذا وازنت بين فقرات منها وبين أدعية توجه بها أخناتون إلى إلهه الواحد الأزلي .

وانظر إلى بدايات الفكرة الفلسفية عند اليونان ، فإن العقائد الأورفية ، وهي عقائد دينية مشوبة بتأملات عقلية ، هي أوالي ما وصل إلينا من مخلفات الفكر اليوناني، وقدظهر بعضها في آراء فيثاغورس الرياضي ،وكان أجلى مظاهرها في تعاليمه قوله : «العالم عدد. العالم موسيقى» . ولا أعتقد صحة مافسر به بعض المعلقين قول فيثاغورس «العالم عدد» أنه رمى إلى أنه مؤلف على نسبة عددية ، وإنما أعتقد أنه أراد أن يقول العالم وحدة كأنه عدد لايتجزأ ، أي واحد تربط بينه ألفة ، هي موسيقاه .

على هذه الصورة الفكرية التي انطبع بها الفكر اليوناني ، وهي صورة كادت

تصبح قدسية ، لأنه تلقاها عن عقائد ، فاقت ثورة سقراط الأخلاقية ، لأنها في حقيقتها ثورة وجهت كل قوتها نحو الجمود الذي أصاب الفكر اليوناني ، ففرخت هذه الفكرة ، بالرغم من أن سقراط قضى دونها مسموماً ، فكانت مذاهب أفلاطون وأرسطو وأرسطيس وديمقريطس وأبيقور ، وتفرعت الدوحة العظمى عن ذلك الانحراف الذي نشأ في عقل سقراط .

***

سبق ظهور الأديان الكبرى في العالم حالات باتت آثارها جلية شديدة الجلاء في تاريخ التطور الإنساني ، فالدين الموسوي ظهر أثر ذيوع صورة من الوثنية في مصر استبدت بجميع مرافق البشر . استبدت بعقائدهم كما استبدت بأحوالهم الشخصية ، فنزلت هذه الحال بالجماعات إلى أسوأ ما تنزل الفوضى بجموع من الناس أخذ بخناقهم ذل العبودية ، وظهر الدين النصراني والإمبراطورية الرومانية في أول انحلالها ، وظهر الدين الإسلامى والعالم جميعه ، بما فيه الإمبراطوريتان الساسانية والرومانية ، في تنكس رج العالم رجاً عنيفاً ، وأطلق الميول الإنسانية الخسيسة من عقالها ، فراحت تطيح بكل ما رأبت جهود الإنسان الأول من صدوع الأخلاق والمثل العليا . أليس في هذا كله المثل كل المثل على أن ظهور هذه الأديان العظمى كأنه استجابة لمقتضى التطور الارتقائي إذلالا لحالات من التنكس الاجتماعي ، وكأني بالكائن الاجتماعي وقد أودعت فيه الطبيعة كل العناصر اللازمة للانفجار كلما صرت عليه قيود الجمود والظلامية .

في كل خطوة تخطوها الإنسانية نحو الارتقاء عوامل فساد من شأنها أن تؤجل من تلك الخطا وتعوق من استرسالها إلى ما شاء الله . عوامل تجعلها تنعقد وتتبلر فتجمد وتظل جامدة حتي تحركها عقيدة جديدة ، أو فكرة من الأفكار التي تنحرف شيئاً ما عن مجرى العقلية الثابتة المستحجرة .

عند ما انتشرت النصرانية في العالم الروماني ، واشتد ساعدها ، وأصبحت الدين الرسمي لتلك الدولة الفانية ، مضت في الطريق الطبيعي الذي يرسمه العقل عند ما تستقوي سلطة على سلطة ، وعند ما تقضي قوة بإذلال قوة أخرى ، راحت تحطم كل الآثار التي خلفتها الدولة البائدة من عقائد الوثنية والأساطير ،فاجتاحت فيما اجتاحته كل آثار الفكر القديم التي ورثها الإنسان عن الحضارات القديمة ، وعملت ، غير متعمدة بطبيعة الحال ، على قتل كل بزرة من بزور الأفكار اليونانية والرومانية ، فظللت الحضارة غيامة من الجمود، ظلت تتخطر في سماء الفكر ألف عام طوالا ، فمنذ بداية القرن الخامس إلى

أواسط القرن الخامس عشر والفكر الإنساني مشغول بحقائق العقاب والثواب والجنة والنار والخلاص وملكوت السماء ، كأن الإنسان انتقل ببدنه وعقله من هذه الكرة الأرضية إلى فلك أفلاك الوهم ، فسيطرت هذه الحال على العقول والأفكار والنزعات ، وتسلطت على العواطف والانفعالات ، وحتى على هواجس النفس وهسيس الروح ، وخيل لكل إنسان أن الساعة قائمة وأنها إليه أقرب من حبل الوريد ، وأن جهنم تحت قدميه ، وأن نارها قد تفج بين آونة وأخرى من صدع في صخر أو بئر في حديقة أو كوة في بيت . حال من فوضى العقل أيدتها حال من فوضى النفس ، وعنت في الفكر أيده يأس في الروح . تلك كانت حال الإنسان عند ماهجر عقائده الرومانية القديمة ، ونزل على حكم العقائد الجديدة التي كانت من قبل قد أخذت بيده شيئاً ما في سبيل التحرر من نير الوثنية الثقيل .

الساعة مقتربة والأجل محتوم ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ، وقضاء الله مسلول على رقاب عباده خبثاء وطيبين ، والدنيا من الزوال قاب قوسين أو أدنى ، فأي حافز يحفز الهمة الإنسانية إلى العمل ، وأي باعث يبعثها على الإنتاج ، وأي عامل يحملها على التفكير في شأن من شؤون هذه الدنيا ؟ فالدنيا ضياع ، والفكر عدم ، والعمل خسران . وعلى هذا ظل العالم الأوربى ينتظر القارعة ألفاً من السنين ، حتى ظهر غليليو بمنظاره يجوب به أنحاء السماء في أواخر القرن السادس عشر .

بماذا أوحى منظار غليليو ؟ أوحى إليه بأن الأرض تدور من حول الشمس ، وأن عكس ذلك غير صحيح . والعقيدة السائدة تؤيد الواقع الملموس ، وتنفي مايذهب إليه ذلك العالم المسكين من أنهم يرون الشمس تشرق من المشرق وتغرب في المغرب رأي العين ، ويلحظونها تدور من حول الأرض في نصف دائرة كاملة ، أولها الشروق ومنتصفها الظهيرة ونهايتها الغروب . جلت القدرة الصمدانية ، كيف يريد ذلك العالم بعدسة من الزجاج أن يخرجها عن إرادتها وأن يدس عليها في نظامها الأبدي الذي سبق إليه علمها علماً جديداً لاتؤيده إلا بضعة أرقام هي من عمل الإنسان ، ترمز إليها تسعة رسوم ، أولها الواحد وآخرها التسعة ، ولكن يضخمها شيء يقال له الصفر ، وهو عند الذين يعلمون من أهل الكتاب رمز العدم والفناء ؟ ولكن هذه العدسة الزجاجية ومن ورائها فكر غليليو وعينه قد حرقت العالم كله وساقته في طريق جديد ، بدايته على ما نعلم حتى الآن بضعة ارقام ، ومداه متفجرات الطاقة الذرية .

انتهت المرحلة التي بدأها منظار غليليو بأن الكرة الأرضية سيار صغير في النظام الشمسي ، وأن النظام الشمسي حصاة صغيرة في فضاء غير متناه مملوء بالمجرات العظام . وإذن فالأرض ذرة صغيرة في بحر خضم من الرمال . تضاءلت الأرض التي كانت من قبل مركز النظام وقطب الكون ، وارتدت إلى موضعها الذى أراده لها الله ، والذي ردها إليه منظار غليليو ذو العدسة الزجاجية ، بعد أن ضخمته الأوهام البشرية .

إذا كانت الأرض مركز النظام الكوني ، فالإنسان ، وهو أشرف مخلوقاتها ، هو محور دائرة الحياة ، وهو أشرف المخلوقات والحي المختار من بارئ الأكوان . ولكن الأرض بعد أن فقدت مركزها الكوني القديم لم تجر معها الإنسان أشرف أبنائها إلي مركزها الثانوي فظلت الفكرة في الإنسان على أنه أشرف الكائنات ، وأنه يمت بأصله إلى خلق بذاته ، لايشركه فيه شيء من مخلوقات الله .

ولكن ماهذه الكائنات الصغيرة الحية التي كشف عنها منظار غليليو ، فكان كشفها أروع من كشف جبال القمر وتوابع المشتري ! هي الخلايا التي تتكون منها الكائنات الحية جميعاً ، هي أصل الحياة ، هي البذرة الأولى التي شاءت الطبيعة أن تتفرع منها دوحة الأحياء ، هي في النبات أصل لكل نبات ، وهي في الحيوان أصل لكل حيوان . فياهول مالقيت فكرة الخلق وفكرة الهبوط ، وفكرة أن الإنسان يمت بأصله إلى ينبوع قدسي رفيع .

إذا اشترك الإنسان في تكوينه الأصيل مع الحيوان ومع النبات ، إذ ينشأ كل منها من خلية واحدة ، طريقة نمائها أن تنقسم ثم تنقسم حتى يتألف من نمائها الانقسامي كل فرد من الحيوان أو النبات حتى يبلغ مبلغه ، ثم يمضي إلى حيث يطويه غبار القرون ، فذلك دليل مادي واضح على أن للحياة مبدأ واحداً ، يتشكل بمقتضى نواميس طبيعية بثها الخالق فى المادة ، فتكون نباتاً مرة ، وحيواناً أخرى ، وإنساناً ثالثة .

مبدأ الحياة واحد ، هو الخلية ، فالأحياء بمقتضى ذلك واحدة من حيث الأصل . ولكنها تخلقت بالنشوء والتطور على مدى أزمان طويلة ، تقدر بمئات الملايين من السنين .

ذلك ما أدى إليه منظار غليليو ذو العدسة الزجاجية . أرض هي مركز الكون تصبح ذرة في بحر من الرمال ، وإنسان نشأته في السماء يصبح من القردة العليا قاب قوسين ، على ما أثبت العلامة درون في بحوثه النشوئية .

إسمعيل مظهر

جنكيزخان

للأستاذ عقيل هاشم بالقدس

في السهول المنفسحة في شرق آسيا خلف سور الصين العظيم ، وفي بقعة من الأرض مترامية الأرجاء تقوم جمهورية « منغوليا » التي عاش في ربوعها في غابر الأزمان قبائل رحالة ، يمتاز رجالها بالقساوة والشراسة ، وهم غلاظ الرقاب صلاب الأجسام ، طغى حب القتل والسلب على جميع نواحي معيشتهم ، وكان لها جزءاً متمماً لا ينفصل عنها ، وكثيراً ما لجأت تلك القبائل إلى غزو الأراضي المتاخمة لها في الصين وتركستان ، إذا ما أعوزها الطعام أو اللباس ، بل كثيراً ما كانت بغية النهب والسرقة تصطدم فيما بينها في حروب دامية رهيبة اصطبغت بطابع الوحشية والضراوة ، وتسبب عنها خسارة هائلة في الأرواح والممتلكات ، وكان الفريق الفائز في هذه المعارك ، يخرج من لجتها متخماً بالأسلاب ، مثقلاً بالغنائم ، قابضاً على زمام السبايا الذين كانوا يرسلون إلى قصور الأمراء والعظام والمثرين ليخدموا فيها خدمة الرقيق .

من بطون تلك القبائل ذاتها ، خرجت إلى الوجود في القرن الثالث قبل الميلاد قبيلة الهون ، تلك التي ترأست الهجوم الدافق على أوربا ، ودحرت قبائل الغوط الجرمانية ، وأظهرت من ضروب الشراسة والهمجية ما لم يعهد قبل ذلك التاريخ ، وتحدرت منها أيضاً بين القرنين السادس والثامن بعد الميلاد قبائل « تليو » التي عاشت على ضفاف نهري «أورخون» و «تولا» حيث تقوم الآن عاصمة منغوليا «أولان باتور» . وقد سيطرت تلك القبائل على السهول من أقصاها إلى أقصاها خلال ذلك الوقت ، وفرضت سلطانها على جميع القاطنين هناك ، من جماعات متفرقة وقبائل مختلفة ، وفرضت عليها قسراً ضرائب فادحة . أما النظام الاجتماعي الذي عاشت في ظله قبائل « تليو » فإنه نظام طبقي ، قوامه فئتان من الناس : الأولى ، وهي طبقة الأرستقراطيين المتربعة على دست الحكم ، والمالكة لكل الأراضي ، والأموال والمقتنيات ، وتؤلفها مجموعة الأشراف وعلى رأسها « الكاغان » الذي يحيط به عدد من قواد الجيش والحكام والقضاة وجامعي الضرائب . والثانية ، وتؤلفها جمهرة الشعب المستعبد لسادته ،أبناء الطبقة الأرستقراطية ،

الذين يعملون في أراضيهم ويخدمون في قصورهم ويأتمرون بأمرهم ، ويلاقون منهم أنكى أنواع الابتزاز والإرهاق .

ولقد جعلت طبقة الأرستقراطيين تبحث بين حين وآخر ، عن ملهاة تصرف بها أنظار الشعب عن حقيقة حاله ، وحقيقة ظلمها له ، لئلا تتيقظ حوافز الثورة في أعماقه إن شعر بالظلم ، فعبأت جيوشاً هائلة من أبناء الطبقة الفقيرة ، وأخذت تدفعها إلى البلدان المجاورة ، فتكرّ كرات عنيفة ، وتستميت في القتال ، لتملأ بطونها الفارغة بالأغذية ، وتطفىء لهيب معدها المحترقة ، وتستولي على خيرات البلدان المتهورة وأموالها .

وبقيت تلك حال القبائل التليوية ، إلى أن ظهر على مسرح الحياة في تلك البطاح تكتل قبلي جديد ، وكانت القبائل المنضوية تحت لوائه تقطن شرقي « كيريتس » الواقعة إلى الشمال من جمهورية « ترنسبيكليا » السوفياتية الحالية ، وهي التي سميت بالقبائل التتارية ، وقد تمت لها ، بعد حروب شعواء ، السيطرة والسيادة على جميع القبائل المبعثرة في جنبات السهل ، وأخذت تشدد النكير بعد ذلك ، وتشن الغارة تلو الغارة على شمال الصين ، فتبسط حكمها فوقه مدة من الزمن ، ولكنها تعود فتتراجع أمام ضغط الصينيين ، ودعا الصينيون قبائل تليو بالتتار السود ، أو التتار المتوحشين ، تمييزاً بينهم وبين التتار البيض المرابطين في ضواحي سور الصين العظيم .

ولم تكن تجمع بين أفراد القبيلة الواحدة من قبائل « تليو » أية وحدة قبلية ، بل كانت كل عائلة أو جماعة تقطن في خيامها على حدة ، وتتعهد شؤونها بنفسها ، ولم تكن العائلات متساوية من حيث المركز الاجتماعي ، وإنما تفصل بينها فروق طبقية شاسعة . فمنها الغنية صاحبة الأطيان وصاحبة الصول ، التي تؤلف بمجموعها الطبقة الأرستقراطية ، وهي التي يسمح لأبنائها فقط بحمل ألقاب « أمير » و « نبيل » و « قائد عسكري » و « حكيم » و « شجاع » ، وإحاطة نفسها بسور من الحرس . ومنها العائلات الفقيرة المعدمة ، وهي عائلات الفلاحين والصيادين المجردة من معظم الحقوق . ومنها العبيد وجلهم من أسرى الحروب ، وهؤلاء كانوا عرضة لمختلف أنواع الاضطهاد والعذاب ، ومجردين من جميع الحقوق .

والعلاقات بين هذه الطبقات الثلاث كانت دائماً على أشد ما يكون التوتر ، وتعرضت كلها لحروب داخلية ، مبعثها شعور الطبقات الذليلة بالظلم المجحف والذل البغيض ، وقد روت القصص والروايات التاريخية ، أن طبقة العبيد كانت حال إعلان

الطبقة الفقيرة الحرب على الأرستقراطيين ، تخف إلى معاضدتها وشد أزرها بكل قواها ، وتباغت سادتها الأرستقراطيين وتقتلهم .

ولا يخفى على الباحث في تطور العلاقات بين تلك الطبقات ، مدى تحول النظام الاجتماعي عند تلك القبائل بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر بعد الميلاد . فالفروق أصبحت أقل اتساعاً بين الطبقات ، وطبقة المزارعين وعامةُ الشعب لم تعد خاضعة لأمير القبيلة أو نبيلها أو حاكمها ، وإنما لفئة حاكمة تشكلت بعد اندماج القبائل في جسم واحد وخضوعها لنظام واحد وإدارة واحدة ، وفي ذلك الوقت قام رجل طاغية من قبيلة « تيدشت » يسنده ذوو الشأن ، يحاول إخضاع القبائل الساكنة في ضفاف نهر « أونق » . وكان في الأصل رجلا بسيطاً يرعى الأغنام ، ولكنه استطاع بقوته وجبروته أن يعتلي أسمى محل ، فأسلمته الطبقة الأرستقراطية زمام الحكم ، وتسترت بظله لتنفذ أغراضها وتحقق مراميها ، وقد تمت له الغلبة على خصومه ، ثم رزق من زوجه الأسيرة « نوين » ابناً أسماه «تيموشين » ، ترعرع في كنف أمه سليلة الأمراء ، وأخذ عنها طباعها ، وتشبع بروحها الأرستقراطية ، وبقيت هي حريصة على حياة ابنها ، تردّ عنه عاديات الزمن ونوائبه ، وتجنبه ويلات الحروب التي يشنها الأعداء على قبيلة زوجها ، وكبر الفتى وصلب عوده ، وقبض على ناصية الحكم بيد من حديد ، وتمكن في عام ١١٩٣ من إخضاع التتار المقيمين في «بوير نور» ، مما ساعد في تقوية مركزه وتوطيد أقدامه في الحكم ، ثم أحاط نفسه بفئة الأرستقراطيين ، وعلم يقيناً أن قوته العسكرية وحدها هي التي ستكفل له الثبات في مركزه .

وفي سنة ١٢٠٦ نادت طبقة الأرستقراطيين بتيموشين « كاغناً » ولقبته بـ «جنكيز خان» ، أي «مبعوث من السماء» ، ثم دعت القبائل كلها بالقبائل «المنغولية» . ولكن جنكيز خان والزمرة المتلفة حوله ، كانوا يعلمون أن حكمهم لا يدوم إن لم تعضدهم قوة عسكرية هائلة ، لأن النضال الداخلي بين الطبقات لا يزال مستعراً أواره ، وروح التمرد عند أبناء الشعب ثائرة يحرقها لظى البؤس ، فكان من الضروري إذن أن تشكل فرق لحفظ الأمن في الداخل ، وفرق عسكرية ضخمة العدد يدخل في صفوفها معظم أبناء الشعب ، لفتح الأقطار المجاورة ، وسلبها واغتنام ثرواتها ، فتنطفيء جذوة النار المتأججة في قلوب أبناء الشعب الجائعين .

وشرع جنكيز خان ينفذ سياسته الجديدة ، فبث تعاليم مفادها أن الشعب المغولي فوق كل الشعوب ، وأن عليه إخضاع الأمم الأخرى ، والسير فوق رقابها ، وجعل

أبنائها عبيداً للمغول ، فأشعل نار الحقد على الشعوب الأخرى فى صدور المغوليين ، وتمكن من جعلهم يؤمنون أنهم أعظم الشعوب وأسماها عنصراً ، فمن أقواله مثلا :

«ستتحررون يا أبناء شعبي بعد قليل . إن الغنائم التي ستكسبونها من الأعداء ، والأسلاب التي ستستولون عليها من مال وماشية وعبيد ، كلها لكم » ، ومنها أيضاً : « إن أبناء الأجيال المقبلة سيرتدون اللباس الموشى بالذهب ، وسيجرشون المأكولات الدسمة ، ويمتطون ظهور الخيل المطهمة ، ويرفعون بين أذرعهم أجمل النساء » .

بهذا ومثله استطاع جنكيز خان أن يطمع شعبه ويمنيه بمستقبل زاهر ، يسد رمقه ويعوضه ما فقد من ملذات ، واستطاع كذلك أن ينشىء جيشاً عرمرماً يقتحم السهل والجبل ، لا تصده عوائق ، ولا تقف فى طريقه سدود .

وبدأ جنكيز خان منذ سنة ١٢٠٦ ، يعد العدة لحروب الاعتداء ، فشب المغول جميعهم على الأقدام يستعدون . وأدخل جنكيزخان على الجيش نظاماً دقيقاً يجعله مجهزاً للقتال في كل وقت ، وكان حريصاً على تنصيب قواد الجنود فى كل قبيلة من رجالها ، لئلا يتبادر إلى الأذهان أنه يسعى لتمزيق الوحدة القبلية ، ثم فرض على كل جماعة أو قبيلة أن تقيم خيامها بأشكال تسهل للجنود من رجالها أن يحيوا حياة عسكرية محضة ، وكوّن من مجموع تلك الفرق جسماً واحداً متماسكاً ، منظماً تنظيماً عسكرياً ممتازاً ، ولكي لا يفشل نظامه الجديد ، وخوفاً من أن يتعرض لحملات الذين يعارضونه ، أنشأ حراسة داخلية متينة ، فشكل فرقاً متعددة ، تتألف الواحدة منها من عشرة آلاف فارس من الشبيبة المتخدرة بسموم تعاليم جنكيز خان ، مهمتها حفظ النظام الداخلي بالقوة والإرهاب والتجسس على العصاة .

وبعد أن تم توحيد قبائل المغول في جهاز واحد يديره جنكيز خان ، أغارت جيوشها على شمال الصين ، وشنت هناك حروباً ، وصمت بوصمة الثأر والانتقام ، وفي المدة بين سنتي ١٢١٥ و ١٢١٦ وقع أول اشتباك بين جنكيز خان وشاه خوارزم علاء الدين محمد ، عند ما اعتدى جنود جنكيز خان على حدود خوارزم ، وكانت خوارزم تمتد من إيران إلى فرغانة ، ومن بحر أرال إلى منابع نهر أندوس ، وعاصمتها « جرجانج » المنتصبة على نهر « أموداريا » كانت في ذلك الزمن من أعظم المدن وأقدمها مدنية ، ولا تزال أطلالها ترى إلى يومنا هذا في ضواحي مدينة « كن أورغنش» في جمهورية تركمانيا السوفياتية .

ولقد سويت الخلافات بين الشاه وجنكيز خان بعد معركة الحدود ، وتعاهد

الاثنان على تحسين العلاقات ، وتبادل قوافل التجارة ، ولـكن عندما وقف الشاه علاء الدين على سوء تصرف جنكيزخان ، واتخاذه القوافل أداة للتجسس على أسراره ، احتجز قافلة من القوافل في مدينة « أترار » وأمر بقتل قائدها ؛ وغضب لذلك جنكيز ، وأرسل يطلب من الشاه أن يسلمه حاكم مدينة أترار ليقتص منه ، فرفض ، وأخذ جنكيزخان على إثر ذلك ، يعد هجومه الوحشي على خوارزم ، ذلك الهجوم الذي خطته الدماء في صفحات التاريخ .

وتدفقت جيوش المغول في عام ١٢١٩ بقيادة جنكيزخان من كل حدب وصوب على خوارزم ، وحاصرت مدينة «أترار» . ثم تغلغلت في الداخل ، وتفرقت جيوش ثلاثة في أنحاء مختلفة ، أحدها بقيادة ابن جنكيزخان الأكبر «جوشي» ، وقد سار إلى الجنوب ، وثانيها اتجه نحو الشمال ، والثالث ، وسار بقيادة جنكيزخان نفسه ، اتجه نحو مدينة « بخارى » ، واستسلمت مدينة الجمال دون مقاومة ، واستسلمت بعدها بأيام قليلة مدينة « سمرقند » ، وقد حرقت المدينتان حرقاً تاماً ، ودكت معالمهما وذبح السكان فيهما ذبح النعاج بالرماح والسيوف ، إلا العمال الفنيين الذين قبض عليهم وسيقوا إلى المغول لتنتفع من خبرتهم في الصناعة والزراعة ، أما الشاه علاء الدين ، فقد فر من خوارزم والتجأ إلى جزيرة صغيرة وسط بحر قزوين حيث مات بعد قليل . وأما ابنه جلال الدين فإنه بقي يتصدى للمغول ويقض مضاجعهم ويؤلب عليهم الإيرانيين ، ويقف في طريقهم ويشن عليهم كرات عنيفة متتالية ، ولـكنه لم يستطع أن يجمع مرة جيشاً يكفي لـكسر شوكة المغول ودحرهم وإخراجهم من البلاد .

واستمر المغول في زحفهم نحو الغرب ، فاجتاحوا شمالي إيران ، ومحوا مدن نيسابور ، والري ، وقزوين ، وتبريز ، ووصلوا إلى أذربيجان عام ١٢٢٠ ، ثم اجتاحوا القوقاز بقيادة « جب نوين » و « سبوداي باغاتور » ودخلوا القرم ، واحتلوا مدينة سوداك سنة ١٢٢٣ ، ووصلوا إلى أواسط آسيا وحاصروا مدينة كييف ، وهناك تصدت لهم جيوش الروس بقيادة الأمير « مستسلاف رومانوفتش » ولـكنهم قهروها ، وحصدوا بلدان روسيا وأواسط آسيا حصداً ، وتحولوا بعد ذلك إلى الشرق ، وعادوا إلى موطنهم يحملون الأسلوب على مختلف أنواعها .

وبعد حملة خوارزم ، أعد جنكيزخان العدة للهجوم على « تنغوت » وتقع على الحدود بين المغول والتبت ، وقد فاجأه الموت على إثر حمى شديدة في سنة ١٢٢٧ أثناء الحملة على تنغورت ، وخلفه ابنه الأكبر « أوغيدي » الذي تتبع خطوات أبيه ، فهجم

على الصين ثم على الغرب بين سنتي ١٢٣٦ ، ١٢٤٠ ودخل بجيوشه الأراضي الروسية ثم بلغاريا وبولونيا وبوهيميا وهنغاريا ، حتى وصل مدينة البندقية في إيطاليا . وأما ما سببته تلك الاعتداءات البربرية ، فهو أنها أزالت من الوجود لمدة طويلة مدنيات شيدتها شعوب كانت أسبق إلى التنظيم ، وأنها أغرقت أوروبا في بحار من الدماء ، وأرجعتها القهقرى أعواماً طويلة .

واكتنف نظام الحياة بعد موت أوغيدي تفكك وارتخاء ، أديا إلى انحلال الإمبراطورية العظيمة تدريجاً ، فالطبقة الأرستقراطية الجشعة شددت الضغط على الفقراء وأرهقتهم إرهاقاً لا يحتمل ، وأصبحت غير قادرة على شن حروب جديدة ، لتعب الجيوش واتساع رقعة الإمبراطورية ، وأخذ عامة الشعب يعانون من ألوان الحرمان والإذلال أبشعها ، ويتذمرون من مرارة البؤس من جديد ، وتأججت نيران الثورات في الإمبراطورية ، وعملت الأمم المستعبدة على الخلاص من نير المغول المستبدين الظالمين ، وشرعت تشن حروب التحرر ، فتحررت الصين أول الأمر حوالي سنة ١٣٦٠ ثم تحررت أوروبا بأسرها بما فيها روسيا في عام ١٣٨٠ ، وبعد ذلك بقليل أصبحت الإمبراطورية المغولية لا تتعدى حدود أراضيها الأصلية ، وهي السهول المنبسطة الممتدة في شرق آسيا .

عقيل هاشم

صناعة الجعل ـ "الجعران"
في التاريخ المصري القديم والحديث

للأستاذ أحمد يوسف رئيس قسم الرسم بالمتحف المصري سابقاً

لم تشتهر عادية من العاديات المصرية القديمة كما اشتهر الجعل — الجعران — ولم تنتشر تحفة في أيدي الناس بمثل ما انتشر .

وقد لا يكون في ذلك غرابة إذا علمنا أن المصريين القدماء قد أكثروا من صنع هذه التحفة ، حتى بلغ الإنتاج منها رقماً لا يتصوره الذهن . إذ اتخذوها في مناسبات كثيرة طابعاً تذكارياً لحادث من الحوادث أو تكريماً لمعبود أو فرعون . فيقدمون منها الآلاف ويتهادون بها . هذا فوق مالها ، في الأصل ، من صفة خاصة تتعلق بعقيدتهم وطقوسهم .

وليس موضوعنا الآن تاريخياً . فنتناول الأسباب والتعليل والتعليق . بل الحديث عن هذه التحفة من الوجهة الفنية والصناعية . وقد نعود إلى موضوعها تاريخياً في فرصة أخرى .

أما شهرة هذه التحفة في عصرنا الحاضر . فترجع إلى أمرين : أولهما جمال شكلها وطرافته دون بقية الأنواع ، وثانيهما الفكرة المتداولة عنها بأنها مفيدة لشأن من الشؤون ، فقد يحسب أنها تجلب الخير وتمنع الشر والحسد عن المتحلي بها ، إلى غير ذلك من شؤون الحفظ والوقاية . ولذلك حببت إلى الناس فاتخذوها حلية مرغوبة .

وفي العالم هواة لهذه التحفة يجمعون منها عدداً ضخماً ، ومنهم من يدفع مبالغ طائلة في سبيل الحصول على الطريف منها . والهواة المختصون من العلماء يجمعون منها كل ما له أثر تاريخي وقيمة من القدم والانتساب إلى عهد جليل من العهود .

وكل متحف من متاحف الآثار في العالم لا يخلو من نوع هذه التحفة ، بكثرة متباينة الكمية ، بحسب توفيق كل منها في اقتنائها . ولله الحمد يجمع متحفنا المصري أكبر مجموعة في العالم من نوع هذه الجعلان ، ففيه آلاف كثيرة ، زادها ضخامة في العدد هدية المغفور له جلالة الملك فؤاد الأول التي وهبها للمتحف المصري . إذ يبلغ عددها عشرة آلاف من أبدع وأفخر الأنواع .

هذا فوق ما يوجد من عدد الجعلان في محال تجار الآثار المنتشرة في كل مكان .

***

وليس المتداول بين الأيدي قديماً كله . فإن القطع المقلدة غمرت الأسواق ، حتى ليحار المرء بين القديم والجديد .

بل إن في مصر من المقلدين لنوع الجعل مهرة تضرب ببراعتهم الأمثال . ومنهم من اشتهر شهرة عالمية ، إذ يعرفه جميع علماء الآثار في أنحاء العالم ، وهو أحد سكان القرنة بالأقصر بناحية نجع الطارف ، ويدعى عمر المطعني . ومن غريب أمر هذا المقلد أنه يضلل علماء الآثار في بعض ما ينتج ، حتى إن أغلبهم عند ما تطلب استشارتهم في بعض القطع قد يجيبون بأنها إن لم تكن من صنع عمر فهي إذن قديمة .

والمدهش أن هذا الشخص أمي لا يكتب ولا يقرأ ، ولكنه أوتي من البراعة في تقليد الرسوم والكتابات الهيرغليفية ، ومن المهارة والدقة في الصناعة ، بحيث يدهش إنتاجه كل من يرى ويفحص عمله .

ولتقليد الجعلان طريقة يتبعها المقلدون البارعون ، تقرب من الطريقة المصرية القديمة ، التي سنشرحها في هذا المقال .

فإن المصريين القدماء صنعوا من تلك التحفة الآلاف المؤلفة ، التي تكاثرت على طول تطورات الأسر والدول المختلفة ، بإحدى طريقتين : إما بالنحت ، إذا كانت المادة حجراً من الأحجار العادية أو الكريمة ، وإما بطريقة الصب في قوالب ثم الحرق في الفرن ، إذا كان الجعل من الخزف .

وطريقة النحت أدق بالطبع بكثير من الوسيلة الأخرى ، حيث يستلزم كل جعل عناية خاصة . وقد استخدم المصريون سائر أنواع الأحجار لذلك الغرض . فصنعوا الجعلان من الحجر الجيري ، والجرانيت ، والبازلت ، والشيست ، وحجر المسن ، والبللور الصخري ، والدهنج ، واليشب ، والعقيق ، والسليماني ، والثعباني ، واللازوردي ، والبركاني (أوبسيديان) ، والأماتست ، وغير ذلك من الأنواع . وناهيك بالصعوبة التي يعانيها الحفار مثلا في حجر صلب كالأوبسيديان ، أو اليشب ، أو الحجر الثعباني .

ونحت الجعلان له أدوات خاصة دقيقة ، كآلات التقطيع وأحجار التجليخ والصقل . ويعتمد المقلدون الآن في ذلك على الآلات الصناعية ذات الطارات التي تدار باليد أو القدم ، ثم الأزاميل الصغيرة المختلفة الأنواع والمقاسات ، المصنوعة من النحاس القوي ، لعملية النقش والحفر الدقيق .

أما طريقة الصب ، وهي النوع الثاني من صناعة الجعلان ، فهي عملية تتم بواسطة صهر المواد الخزفية (القاشاني) ، أي المعادن الزجاجية ، التي كان يجلبها المصريون من أماكن خاصة في الجبال على شكل أحجار ، تصهر بواسطة الحرارة بعملية خاصة وبدقة ، وتوجد من هذه الأحجار أنواع تختلف في طبيعتها ، يعطي كل منها لوناً خاصاً يتباين من الشفافية إلى الزرقة إلى الخضرة .

ولهذه العملية أدوات كثيرة ، من أفران أولية ، وأفران ثانوية ، وبواتق مختلفة ، ومحاريك ، وأدوات ، للتقطيع ، وللحمل ، وللتكوين ، وللتصليح «الرتوش» وموازين دقيقة توزن فيها كميات الخزف المطلوبة ، والأنواع المرغوب في خلطها مع المادة ، إذ أن تلك العملية تستلزم دقة في الكميات .

وكان المصريون القدماء يتخذون للجعلان قوالب من الفخار ، يصبون فيها عجينة الخزف ويطبخونها في الأفران لتنضج . وفي العادة يصنعون لظهر الجعل قالباً ، و لبطنه الذي يكتب عليها الإسم أو النقش قالباً آخر . ويلاحظ في هذه القوالب أنها جميعاً ذات خدش طولي في وسطها . هو المجرى الذي كانوا يدخلون فيه سلكا نحاسياً ، أو إبرة لتثقب الجعل ، إذ كانت الجعلان تتخذ في الغالب خرزة للعقود ، أو ختماً إذا كان عليها اسم من الأسماء وقصد بها إلى هذه الغاية .

وقد عثر علماء الآثار في فرصتين على مجموعة هائلة من نوع هذه القوالب ، وفيها شكل الجعلان أو غيره من الزخارف والأشكال ، وذلك خلافاً لما وجد منها في أماكن أخرى بكميات قليلة . الفرصة الأولى في تل اليهودية بالقرب من شبين القناطر ، من مخلفات قصر الملك « رمسيس الثالث » . وكان المضطلع بعملية التنقيب العلامة المغفور له المسيو إدوار نافيل سنة ١٨٨١ ، والفرصة الثانية في بلدة قنتير بجوار فاقوس بمديرية الشرقية ؛ في مخلفات قصر الملك رمسيس الثاني ، وكان القائم بعملية التنقيب الأستاذ محمود بك حمزة كبير أمناء المتحف المصري حالياً .

***

ولمناسبة مقلدي الجعلان فقد يطيب للقارىء أن يعرف طرفاً من قصة المقلد المشهور « عمر المطعني » الذي سبقت الإشارة إليه . فإن هذا الشخص لم يكتف في عملية التقليد بأن يتقن الصناعة فحسب ، بل إنه عكف على التعمق في البحث عن الطريقة الفرعونية بكل خطواتها ، فقضى في ذلك وقتاً طويلا يدهش له القارىء ، إذ هو قد صرف من عمره ٢٤ عاماً وراء هذا البحث ، فكان يجول في الصحراء الشرقية باحثاً

عمر المطعني

في المناجم الأثرية القديمة ، ومتنقلا بين الجبال ، يفحص أسراراً تفيده في عمله . حتى توصل إلى نوع المعادن الحجرية ، وعينات مادة الخزف ، من نفس الأماكن التي كان يأخذ عنها المصريون القدماء . وبلغ أمره إلى أن كشف سر الأفران التي كانوا يوقدونها لطبخ المادة ، وعرف نوع الوقود الذي كانوا يستخدمونه . وكان لي حظ زيارته في منزله بنجع الطارف بقرنة الأقصر في سنة ١٩٣٧ . وما كان أشد إعجابي بذكائه ومهارته ونشاطه ، مع وداعة الخلق التي تجعل منه فناناً عبقرياً . ومن شرحه وقفت على نوع الفرن الذي صنعه بنفسه من الفخار ، وجعل بداخله مجاري متعارضة ، وهو على شكل استدارة المنخل بغطاء على شاكلته ، يرص بداخله القوالب ، ثم يوقد عليها بوقود من الفحم المصنوع أقراصاً متماثلة الشكل والوزن ، يزيد بها درجة الحرارة بمقدار ، إن لزم لذلك زيادة قرص أو قرصين أو أكثر . وهكذا قال لي إنه نقل هذا الأمر بذاته عن بحوثه في أفران القدماء وطريقتهم ، وكان يحفظ عنده نوع الأقراص القديمة ، وجزءاً مكسوراً من نوع الفرن القديم ، فإذا بي أومن بنظرياته ، وأؤكد الحقيقة فيما وعت ذاكرتي من نفس شكل هذا الفرن محفوظاً عندنا بالمتحف المصري ، وكان الكثيرون يمرون به ولا يدركون أمره .

أحمد يوسف

الخلفاء والغناء

للأستاذ منير الحسامي ببيروت

رأى أفلاطون فى الموسيقى والحكام

يعنى أفلاطون في (جمهوريته) عناية كبيرة بالموسيقى ، ويذكر تأثيرها الحثيث في النفس والأخلاق ، ويجعلها من ضرورات الحياة لتهذيب النفس . ويشترط على الحكام أن يثقفوا أنفسهم بالموسيقى قبل أن يتولوا الأحكام ، حتى تباين طباعهم ، وتدمث أخلاقهم وينفعوا نفوسهم والدولة معاً ، فيقول : « ... ونمتحنهم ولا امتحان الذهب بالنار ، لنرى أصلب عودهم في كل الأحوال ، فلا يخدعهم التدجيل ، فتثبت كياسة تصرفهم حسن الإدارة لأنفسهم وللموسيقى التي ثقفوها ، مبرهنين في كل حادثة على محافظتهم على قوانين اللحن والإيقاع ، ساعين جهدهم ليكونوا أعظم النافعين لأنفسهم وللدولة ، فمن جاز الامتحان ، وخرج من التجربة سليماً ، فهو الذي نختاره حاكما ومديراً ويجب إكرامه في حياته وفي مماته ، ويخول أعظم الامتيازات ».(١)

ورأي أفلاطون في الموسيقى رأي موسيقي خبير اضطلع بها ومارسها وألف فيها كتباً . وهو عندما نظم «جمهوريته» يصرح بأن الحاكم يجب أن يكون فلسفي النزعة ، عظيم الحماسة ، سريع التنفيذ ، شديد المراس ، كما يجعل الموسيقى والرياضة ركني التهذيب للحكام . فالرياضة للجسد والموسيقى للعقل . وهو يفضل تقديم الموسيقى ويؤثر الشروع بتهذيب الحكام بالموسيقى قبل تهذيبهم الرياضي .

وأفلاطون يكره أغاني الميوعة والرخاوة . وينبذ ألحان الحزن والكسل . وهو يشيد بأغاني البطولة والحماسة ، وألحان الرجولة والكرامة . وهو يثبت الموسيقى في المقام الأول في نظام « جمهوريته » . ولا غرو فقد كان موسقياً يتذوق الموسيقى ويتفهمها ويزاولها ، ويقدرها قدرها ، حتى إنه جعلها في مقدمة أسس الدولة التي يجب أن يتثقف بها الحكام فضلا عن الشعب .

وكأن خلفاء الدولة الأموية ، وخلفاء الدولة العباسية ، اطلعوا على رأي أفلاطون في وجوب تهذيب نفوس الحكام بالموسيقى ، وشرطه أن يتثقفوا بها كي يصبحوا صالحين

✡ الجمهورية ص ٨٩ ترجمة حنا خباز

لحكم الشعب ، فإذا بهم يعتنقون رأيه ، ويطبقونه على أنفسهم ، بل إنهم لم يكتفوا بذلك ، فمارسوا الفن بممارسة عملية لفرط شغفهم به ، وبرعوا فيه حيث نظموا الأغاني ، ولحنوها وغنوها في مجالسهم الخاصة ، وعزفوا على الآلات الموسيقية ، وأفسحوا مكاناً رحيباً للمغنين في قصورهم ، واتخذوا منهم ندماء وسماراً ، وأكرموهم وأثابوهم وأجزلوا لهم المنح والمكافآت . وكان لهم معهم مواقف ونوادر لطيفة ، ومساجلات ومسامرات طريفة ، تشف عن غرامهم بالغناء ، واحترامهم للمغنين . وكتب الأدب والتاريخ العربي حافلة بأخبارهم ، «كالأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني و «نهاية الأرب في فنون العرب» للنويري و «العقد الفريد» لابن عبد ربه ، وغيرها ، مما يدل بوضوح على تأصل حب الغناء في قلوبهم . فقد كان لكل خليفة وأمير ووزير وغني جوار وقيان في قصره ، يقضي بينهن أوقات فراغه في السمر واللهو والشراب والغناء والعبث . وكن يحذقن فضلاً عن الغناء والعزف فنون الأدب من شعر ورواية وتاريخ .

خلفاء العصر الأموي والغناء

عمر بن عبد العزيز

أول من تغنى من الخلفاء ، الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، خلال حكمه الحجاز ، إذ تغنى بسبع أغان تغزل بها جميعها بسعاد . وكان يتمتع بصوت جميل ، وصنعة محكمة ، وأداء حسن ، وتلحين متقن . ومن غنائه هذا الشعر وهو لجرير ، ولحنه ثقيل أول مطلق في مجرى البنصر :

ألما صاحبيَّ نزر سعادا   لوشك فراقها وذرا البعادا
لعمرك إن نفع سعاد عني   لمصروف ونفعي عن سعادا
إلى الفاروق ينتسب ابن ليلى   ومروان الذي رفع العمادا

ومن غنائه في سعاد ، ولحنه خفيف ثقيل ، هذا الشعر :

علق القلب سعادا   عادت القلب فعادا
كلما عوتب فيها   أو نهي عنها تمادى
وهو مشغوف بسعدي   قد عصى فيها وزادا

ومن أغانيه هذا الشعر ، ولحنه رمل مطلق :

يا سعاد التي سبتني فؤادي   ورقادي هي لعيني رقادي

ثم هذا الغناء ، ولحنه رمل بالسبابة في مجرى البنصر :

حظ عيني من سعـاد أبداً طول السهاد

يزيد بن عبد الملك

ومن الخلفاء الأمويين الذين ولعوا بالغناء وتغنوا به ، يزيد بن عبد الملك . فقد شغف بالمغنية حبابة ذات الصوت الساحر ، وكان ينظم الشعر ويلحنه ويغنيه . ومن أشهر أغانيه تغزلا « بحبابة » هذان البيتان ، ولحنهما ثقيل أول :

أبلغ حبـابة أسقى ربعها المطر ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر

إن سار صحبي لم أملل بذكركم أو عرسوا فهموم النفس والفكر

وقد تغنى يزيد بن عبد الملك « بحبابة » بهذين البيتين عندما رآها لأول مرة وهو نازح عن الحجاز ، فأغرم بها ، ولكنه لم يجرؤ على ابتياعها خوفاً من أخيه سلمان بن عبد الملك ، أو من أخيه عمر بن عبد العزيز ، فغناهما بعده « معبد » و « حبابة » وغيرهما من مشاهير المغنين والمغنيات . ثم اشترى « حبابة » بعد ذلك وقضى معها زمناً يستمتع بها وبصوتها الرخيم ، إلى أن كانت ذات يوم معه تقذف حبة رمان إلى فمها فشرقت وماتت ، فحزن عليها حزناً شديداً .

الوليد بن يزيد

وكان الوليد بن يزيد شغوفاً بالغناء كأبيه ، ذا صوت جميل وصنعة متقنة ، وله مواقف فنية عديدة تدل على فرط غرامه بالغناء ، وكان يعزف على العود ويضرب بالطبل ، ويسير بالدف على طريقة أهل الحجاز ، ومن أغانيه المشهورة هذان البيتان ، وهما من نظمه وتلحينه ولحنهما خفيف رمل :

وصفراء في الكأس كالزعفران سـباها التجيبي من عسقلان

تريك القـذاة وعرض الإنا ء ستر لها دون لمس البنـان

خلفاء العصر العباسي والغناء

العباس الواثق بالله

وبلغ الغناء العربي قمة مجده في عصر الدولة العباسية فكان أول من اشتهر به من الخلفاء العباسيين العباس الواثق بالله ، وقد لحن مائة أغنية جميلة جيدة الصنعة ، جميعها في مستوى رفيع من الفن ، وكان أحذق من غنى على العود وأبرع من عزف عليه وكان يغني شعره وشعر غيره . .وكان له مواقف ونوادر في الغناء كثيرة ، منها

أنه كان يجلس مع طائفة من المغنين فيبدؤهم في الغناء والعزف على العود ، فيتبعونه ، ويقضي مجالس طرب وسمر حافلة .

وقد تحدث إسحق الموصلي ، بأنه دخل يوماً على الواثق بالله في مجلس خاص ، فسمع غناء أقسم بأنه لم يسمع مثله البتة في حياته . وكان الواثق حينئذ يغني شعراً لأبي العتاهية من تلحينه ، وهو يوقع على العود . فغناه ثلاث مرات بثلاثة ألحان مختلفة وهو :

أضحت قبورهم من بعـد عزهم تسفي عليها الصبا والحرجف الشمل
لايدفعون هواماً عن وجوههم كأنهم خشب بالقـاع منجدل

وقد بلغ من حذق الواثق لصنعة الغناء ، أن حدث إسحق الموصلي قال :

لما صنعت لحني في :

خليليّ عوجا من صـــدور الرواحل

غنيته الواثق ، فاستحسنه وعجب من صحة قسمته ، ومكث أياماً ، ثم قال لي : يا إسحق ، قد صنعت لحناً في صوتك وفي إيقاعه ، وأمرفغنيت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، بغضت إلي لحني وسمجته عندي . وقد كنت استأذنته مرات في الانحدار إلى بغداد بعد أن ألقيت اللحن الذي كان أمرني بصنعه في :

لقد بخلت حتى لو اني سألتها

فمنعني ودفعني بذلك . فلما صنع لحنه الرمل في :

خليلي عوجاً من صدور الرواحل

« قلت له : يا أمير المؤمنين ، قد والله اقتصصت وزدت . فأذن لي بعد ذلك » ✲

وذكر إسحق أيضاً أنه كان لايحضر مجلس الواثق أحد أعلم منه بالغناء ، كما كان أبرع من غنى بعزف العود ، وكان إذا لحن أغنية عرضها على إسحق ، فنظر فيها ونقحها، ثم يغنيها الواثق بعدذلك ، وكان لإسحق لديه منزلة سامية بين المغنين . وقد ألف إسحق عن فن الواثق : « كتاب الاختيار من الأغاني للواثق » .

وكانت له مجالس طرب وسمرخاصة شائقة ، يحضرها المغنون ، فلا يلبثون يتغنون ويشربون ويسمرون ، والواثق يساهم معهم فى الغناء والطرب والعبث . وقد أسهب في وصف هذه المجالس أبو الفرج الأصفهاني في كتابه « الأغاني » .

✲ الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني ج ٩ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ طبعة دار الكتب (ج ٨ ص ١٥٨ طبعة الساسي)

المنتصر بالله

ولع المنتصر بالله بالغناء قبل توليه الخلافة ، وكان ينظم الشعر ويلحنه ، ثم يأمر المغنين بغنائه . فلما ولي الخلافة أمر بطمس ماضيه الفني . ومن تلحينه في شعره ، وهو من الثقيل الأول المذموم :

سقيت كأساً كشفت عن ناظري الخمُرا

ومن شعره وتلحينه وغنائه هذا الشعر ، ولحنه ثاني ثقيل :

متى ترفع الأيام من قد وضعته وينقاد لي دهر عليّ جموح
أعلل نفسي بالرجاء وإنني لأغدو على ماساءني وأروح

وكان له مجالس طرب مؤنسة ، كان يغني فيها ويعزف على العود ، ويتنادر بها مع المغنين ، وينافسهم . وكان يعطف عليهم ويجزل لهم العطاء بجوائز وخلع ومبالغ من المال .

المعتز بالله

وكان المعتز بالله يحب الغناء ، ويتغنى من شعره وتلحينه ومن شعر سواه ، ومن غنائه هذا الشعر لعدي بن الرقاع ، ولحنه خفيف رمل :

لعمري لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمعصب
فمن يك منا يبت آمناً ومن يك من غيرنا يهرب

وكان له مع المغنين والقيان نوادر جمة .

المعتمد على الله

وكان المعتمد على الله جميل الصوت ولوعاً بالغناء . وكان يجيده ويتقن التلحين . ومن أغانيه في شعر الفرزدق .

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

المعتضد بالله

ورث حب الغناء عن أبيه المعتمد ، ولقد جمع النغمات العشر في أغنية لحنها في شعر دريد بن الصمة وهو :

ياليتني فيهـا جذع أخب فيهـا وأضع

وهذا اللحن نادر في الفن ، قد أبدع فيه المعتضد بالله وأعجب . وكان المعتضد حسن الصنعة ، لحن أغاني سبق أن لحنها مشاهير المغنين القدماء . وعارضهم فيها بتلحينه فأدهش وأطرب . ومما لحنه هذا الشعر من الثقيل الأول بالبنصر :

أما القطاة فإني سوف أنعتها   نعتاً يوافق نعتي بعض ما فيها

فأبدع في صنعته وتلحينه إبداعاً بزّ فيه جميع مشاهير المغنين الذين سبق لهم تلحينه ، مثل معبد وابن محرز ونشيط ومالك وسنان وعمر الوادي وابن جامع وعلوية وإبرهيم الموصلي وإسحق الموصلي .

ومن أجمل ما لحنه هذا الشعر وهو لإبرهيم بن العباس ، ولحنه ثقيل أول :

أناة فإن لم تغن عقب بعدها   وعيداً فإن لم يغن أغنت عزائمه

وقد بلغ ما لحنه المعتضد نحو مائة ، جميعها متقنة الصنعة . ومكانته في الغناء بين الخلفاء بعد الواثق بالله .

***

هؤلاء هم الخلفاء الأمويون والعباسيون الذين أغرموا بالغناء إغراماً جعلهم يتخذونه غذاء لأرواحهم وتسلية لنفوسهم ، في أوقات فراغهم ، من متاعب الحكم ومشاكل الدولة . وقد حققوا أمل أفلاطون بهم ، ونفذوا نظريته الفلسفية في الحاكم وضرورة تثقيفه بالموسيقى كي تتهذب أخلاقه ويتثقف عقله ، ويكون صالحاً لتولي الأحكام .

منير الحسامي

في مسارح الجن

للأستاذ كامل محمد عجلان

كانت للعرب أوهام ، وكانت لهم أحلام ، قد تضحك إذا أردت أن تلهو بها ، وتسري عنك إذا جئتها بذلت من شهيها ما يرد عنك غوائل الجد ومشقات التفكير .

ولـكن الأحلام الأولى للعربي ومخاوفه ومخاطره في خبايا الصحراء لم تمض هباء فقد خلفت لنا ظلالا ، وتركت أثاراً واضحة في الشعر والنثر ، ولم تتخلص منها العقلية العربية حتى في عصور التحضر الثقافي والرقي الفكري واستغلتها قرائح الشعراء وأقلام النقاد وريشة المفتنين ، وانتفعت اللغة أيضاً بتعابير خلقتها أوهام العرب ، ومضينا عنها مغفلين ما وراءها إلا ألفاظها التي ورثناها كما ورثنا غيرها .

* * *

كان العربي بدائي التفكير ، تعتاده شياطين الصحراء التي مثلها له خياله المنسرح وراء الانفساح الصحراوي .

فهو إذا ضل الطريق أو انساق إلى مجهل أو تعمق في مخارم السهوب والرمال ظن أن ذلك من إغواء الشياطين ، فإذا عاد وارتد من المفازة فقد آمن ببطولته .

وجسم له خوفه ما قاساه وما عاناه فارتد يَتنفّسُ عن روايات وأحاديث يوحي بها خياله دون أن يجد رادعاً ، فهو قد لاقى الغول ، وهو قد تزوجها ، وهو قد انتصر عليها ، وليس لإنسان أن يرد عليه ما يخيل له وهمه من وصف وادي الجن ومسارح العفاريت ومبارح السعالى .

والرواة قد أمتعونا بلذائذ من أدب السمر ، وجدّ بعضهم في عرضه وسخر منه الآخر فزاد فيه وأضاف إليه . والذي يَشوقنا فيه هو الشعر الذي بدت فيه حرارة العاطفة التي أصابها مسّ الشياطين وسنمر في أودية الجن وأفاعيلها برأس العربي . . .

جعلت العرب كل شيء فائق عبقرياً ، وعندهم أن الجني هو الذى يقابل الناس من « الأرواح » ، ويسمونه « عامراً » ويقولون عن الذي يتعرض للصبية « أرواح » فإذا تخابث في تصرفاته فهو شيطان ، وإذا شق وأمعن في العبث والإيذاء فهو عفريت

وإذا تعرضت الجنية وتلونت سموها « الغول » ، إذا هوت إلى إنسان يقولون مع فلان رئي يلهمه ويصاحبه ، مثل رئي المأمون الحارثي .

وأسرفوا فأضافوه إلى الكاهن والعراف والكاهنة والعرافة مثل كاهنة باهلة ، وعراف اليمامة ، وعراف نجد . وكثيراً ما كانت الأعراب تفد إلى هؤلاء الناس يستشفون من عزائمهم إن أصابهم هوى قاتل أو مرض مقعد .

وقلت لعرّاف اليمامةِ داوني فإنَّك إنْ أبرأتني لَطبيب

وقد أسرفوا في الاعتقاد بقدرة الجن واختلاطهم بالناس ، وتصرفهم وإغرائهم ، حتى قالوا إن الجن قتلت الغريض المغني المعروف ،

وإذا رجعنا إلى الآثار الفنية ، كانت رسالة الغفران للمعري ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد من الأمثلة على تلوين الأدب ونتاج الأدباء ، حتى في العصور المتأخرة ، بما خلفته تلك الأوهام للمكتبة العربية ، وما تركته على ألسنة الرواة أولا ، ثم في حنايا الصحف والكتب أخيراً .

وقد تخيل الشعراء أن للجن مدناً وحيوات خاصة ، ولهم خيل ولهم كلاب فيهم غرائب : والزوابع بنو زوبعة ، وزوبعة الجني .

إن الشياطين أتوني أربعهْ في غبش الليل وفيهم زوبعهْ

وأبعدوا في ذلك فأسندوا فنهم الشعري إلى شياطين يوحون إليهم بالفن والسحر والإمتاع . ولكل شاعر شيطان وصاحب ، كما لكل كاهن رئي ، يقول رؤبة .

إذا ما ترَعْرَعَ فينا الغلامُ فليس يقال له من هُوَهْ ؟

إذا لم يَسُدْ قبل شَدِّ الإزار فذلك فينا الذي لاَ هَوَهْ

ولي صاحب من بني «الشيصبان» فطوراً أقول وطوراً هُوَهْ

ظلت كتب الأدب تروي زعم الشعراء وهواجسهم فشيطان المخبل السعدي اسمه « عمرو » ، وشيطان الأعشى اسمه « مسحل » ، وللفرزدق جني ، ولأمريء القيس أيضاً وطرفة إلى جميع الشعراء . ولعل أبيات أعشى سليم تصور لنا ما يرونه .

وما كان جِني الفرزدق أسوة وما كان فيهم مثل فَحْل المُخَبَّلِ

وما في الخوافي مثل عمرٍو وشيخه ولا بعد عمرٍو شاعرٌ مثل مِسْحَلِ

وأبو النجم الراجز يفخر بشيطانه أو يفخر بنفسه .

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرْ شيطانُه أنثى وشيطاني ذكَرْ

وذلك رجز يسعفك بالرأي في تقدم الشياطين ورفعة سهمهم والتمدح بقدرهم ، حتى اسندوا إليهم لقب الإمارة .

إني وإن كنت صغير السنِّ وكان بالعين نبوّ عني

فإن شيطاني أمير الجنِّ

وقد تأثر الشاعر الحديث شوقي بروائح الشياطين ، فعرج على وادي عَبْقَر وصور عقائد العرب في رواية مجنون ليلى ، فاستطاع المسرح العربي أن يظفر بظلال الشاعرية وأفانينها في مسارح الجن ومدالف الشياطين .

وشوقي أصيل في الصور البيانية التي هتف بها لا يقل في توفيقه عن « ذى الرمة » الذي استهوته شياطين الشعر واستحب ذكر الأصداء وأكثر من التشبيهات في ملاعب الجن .

من ذلك لذي الرمة .

كم عرّست بعد السرى من معرس بها من صداء الجن أصوات سامر

وقال :

ورمل لعزف الجن في عقداته هرير كتضراب المغنين بالطبل

ويصور الفلاة ويروعك بأشباحها وأبوامها النواحة وبنياتها المعشعشة المتنادية :

فلاة لصوت الجن في منكراتها هرير وللأبوام فيها نوائح

وقال :

بلاد يبيت البوم يدعو بناته بها ومن الأصداء والجن سامر

وزعم بعض الشعراء أنه آخى الشيطان وحالفه واتخذه معيناً وأمعن في الزعم حتى جانب الناس وانصرف إلى هوايته المتوهمة ففاخر بها ولوح بقوته ومقدرته التي استمدها من الجن :

أخو قفرات حالف الجن وانتفى من الإنس حتى قد تقضت رسائله

والمؤاخاة والمناصرة والمتابعة التي يمتزج بها العربي والشاعر موضع تمدح وتكاثر عند الشاعرين منهم :

إني امرؤ تابعني شيطانيه آخيته عُمْري وقد آخانيه

ولم ينس العربي عون الشياطين ولا ذكرهم في وسائله إلى المرأة والمرأة المعشوقة فقد قارن بين طريق الحبيبة الممنَّعة ومحرجات الأودية العبقرية ، وخلط في متجهاته وأثار الشكوك حول أقبية الحبيبة بتعريضه وأوصافه القاصة .

ومثل هذا الفريق من الشعراء عبيد بن أوس الطائي في تعرضه لأخت عدي ابن أوس :

هل جاء أوساً ليلتي ونعيمها ومقام أوس في الخباء المشرج
ما زلت أطوي الجن أسمع حسهم حتى وقعت إلى رواق المروج
فوضعت كفي عند مفرق خصرها فتنفَّسَت بُهْرًا ولما تَنْهَج
قالت وعيش أبي وحرمة والدي لأنبهن الحي إن لم تخرج
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت فعرفت أن يمينها لم تحرج

ووادي الجن يطول بك الوقوف على منعرجاته ويحملك على أن تكذب كثيراً من قصصه وترفض أغلب ما نسب للشعراء .

لكنك لن تنكر أنه كان متنفساً كبيراً للرواة وكتب السمر كما كان منفذاً واسعاً لكذب يروي غليل العربي الذي تنزل به همته وتقعد شجاعته فينطلق لسانه يهتز بالأكاذيب والمعجزات التي لم يكن لها ظل إلا في خياله . وإليك صورة من تراقيش الأعرابي الكذاب تشهد بإبعاده . يقول الطهوي :

لقيت الغول تهوي في ظلام بسهم كالعيابة صحصحان
فقلت لها كلانا نضو أرض أخو سفر فصدي عن مكاني
شددت عقالها وخططت عنها لأنظر غدوة ماذا دهاني
إذا عينان في وجه قبيح كوجه الهر مشقوق اللسان

إلى غير ذلك من الألوان الفكهة والظلال الخفيفة مما يسعد بالإضحاك ويعجب في الإطراب .

كامل محمد عجلان

مع الليل

للأستاذ علي شرف الدين

نام كل شيء في الوجود على حصن الليل الرفيق ، وأخذ كل كائن مرقده تحت أجنحته السوداء ، وراحت النفوس المحزونة تجوب دنيا الليل ، لا تهزها واحة الأحلام بما تحمل من زهر وعطر ، لأن آلامها الشاعرة العميقة أرفع من أن يثير سكونها الروحي بسمات الأمل ، ، أو لفحات يستجيب لها الجسد .

ولا يفزع هذه النفوس ما ترى في مفاوز الليل من أشباح رهيبة ، لا تحمل بواسم السعادة ، ولا تنفح بعطر الأمل ، لأن آلامها الشاعرة العميقة قد استحالت إلى نوع من الرضا اليائس الجميل .

وكنت كلما أصغيت إلى الليل أو غلت في الصمت ، وكلما أرهفت نفسي أذنها غرقت في السكون ، فإذا سبحت روحي في أطباق هذه السكينة تتحسس السمع ، سبقني الليل فتكشف عن سكون جديد أعمق وأروع من سابقه ، ولكأني معه كمن عثر على كنز من كنوز فرعون ، لا يكاد يخرج من بهو يحوي نفيس الآثار ، حتى يبهره آخر ، أعلى كعباً في جلال العتق وروعة الفن . إن عمر البشرية السامية الرفيعة أسمى من أن يدخل في حسابه ساعات العمل ، وأوقات السعي والاضطراب في النهار ، وما تحمل معها من جلبة الأصوات وصراخ الآلة .

ذلك لأن نتاج هذه الساعات مهما جل أثره في بناء الحضارة ، لا يصلح في جملته غذاء للأرواح ولا ريًّا للقلوب ، تحس به برد الراحة والدعة ، وقصاراه أن يسد حاجة الحاسة ، ويجيب نداء البطن ، ويلتمس السبيل إلى تلبية رغبات الجسد .

وإن أخصب الأوقات في عمر الإنسانية لفي ساعات الصمت وآناء التأمل والسكون. ذلك لأن مظاهر الحضارة الحقة ، لا تخاطب غير القلب ، ولا تناجي غير الروح — ولو التمست سبيل الحواس في الوصول إليها . وإن أجمل أنواع التأمل في ساعات السكون ما ترسل فيها القلوب على طبيعتها ، وتلقى أرسان النفوس على غواربها ، دون أن يصحب ذلك ملاحظة تعترض استرسال التأمل ، ودون أن يعكر صفوه حوار يقوم الفكر فيه مقام السائل والمجيب .

ذلك لأن الملاحظة والحوار عمل من أعمال العقل ، وهما سبيلان لرحلة شاقة مضنية ، تنتهي إلى غاية بغيضة يسمونها « العلم » .

ولا أعرف شيئاً يؤذي القلب كما تؤذيه هذه المعارف القائمة على الملاحظة ، ولا أعرف شيئاً يسيء إلى الروح كما تسيء إليه هذه النتائج الناهضة على حوار العقل ، مع ما في طبيعته من صدوع سترها غرور الإنسان ، ومع ما أفضنا عليه من ثقة لا تخلو من إسراف . إن العقل يهدم ثقتنا بأنفسنا ، ويحملنا في النهاية على احتقار ذواتنا ، حين ينتهي بنا إلى أشياء غامضة ، تثير انتباهنا دون أن يساعدنا في الإجابة عليها ، وهو يكرب الناس حين يخلعون عليه هذه الثقة الزائفة التي تمسخهم ، وتجدد من شقائهم .

إن خير أنواع المعارف وأخلدها ، وأقربها إلى اليقين ، ما وصل إلى الإنسان عن طريق الروح ، وما هداه إليها القلب .

وإن أتفه أنواع المعرفة ، وأقربها إلى الفناء ، وأدناها إلى الحدس والتخمين ، ما وصل إلى الإنسان عن طريق العقل .

فإن وصل الإنسان به إلى موقف يقيني فإنما يكون ذلك في المطالب الأرضية ، ولن يكون بحال في قضايا الكون الكبرى ، ذوات المنازع الروحية العالية .

إن سبيل الروح في كسب المعارف سبيل مأمونة العثار ، وهي أقرب إلى تحقيق النفع لبني الإنسان . لأن قيادة الروح ليست لنا ، ولكنها لبارئها ، فهي ترتسم في سيرها شعاعاً يصلها به ، ويكشف لها مجاهل الطريق ، فتتجنب الوهاد التي يتردى فيها العقل ، وتتحاشى النجود التي يصطدم بها الفكر . لأن العقل في سيره نحو الغاية أشبه بالتاجر ، لا يعطي إلا بعد أن يأخذ : يعطيك الفهم والعلم ، بعد أن يأخذ عناصر المقدمات بالمناقشة والحوار . فهل أنت واثق من صواب هذه المناقشة ؟

وإن كنت على ثقة من صوابها ، فهل أنت واثق من غزارة هذه العناصر وكثرتها إلى الحد الذي يعطيها صفة الشمول والإحاطة ؟ وإن كنت على ثقة من هذا ، فهل أنت واثق من صحة استخدامها لغاية روحية ، مع أنها لا تعدو أن تكون عناصر أرضية محدودة أقيمت على الملاحظة والتجربة ؟

لقد جاءت أساطير الأمم القديمة ، قبل ظهور الديانات السماوية ، بأحاديث عن الإله ، وما وراء الطبيعة ، قال بها فلاسفتها ، وقادة الفكر فيها ، واستخدموا لذلك عقولهم ، فهل نملك عند سماعها غير الابتسام مرة ، والاشفاق عليهم أخرى ؟

إن المثل العربي يقول : « لا يفل الحديد إلا الحديد » فكذلك لا يفهم قضايا

الروح غير الروح ، ولا يدرك منازع القلب غير القلب ، فاحذر أن تستخدم لها هذا الطفل المغرور الذي يسمونه «العقل» ، ذلك العضو الخطر الهدام لحياة الإنسان الحسية والروحية معاً .

إن العلم ينمي العقل ، وكلما نما هذا العضو المخيف الطفيلي ، الذي يعيش على حساب الأعضاء ، بعدت الشقة بين الإنسان والطبيعة وانقطعت الصلة بينهما ، وهي خسارة لا يعزينا عنها هذه الثرثرة التي يضللنا بها ، ولا تلك الألاعيب التي يسرقنا بها هذا البهلوان .

لقد أجمع الناس في القديم والحديث على جمال الشروق ، فهل تستطيع أن تقيم دليلاً عقلياً على تعليل هذا الجمال ؟

لا تقل : إنه الانسجام والتجانس . فالجبال أروع ما تكون في بروز غواربها ، وتغضن هياكلها ، والبحار أجمل ما ترى في اصطخاب موجها ، واضطراب حواشيها .

ولا تقل : إن جمال الشروق يفيض على النفس ألواناً من الدعة والقرار ، وأنه يسلمها إلى ذكريات جميلة تلذها ، وتأنس إليها — لا تقل ذلك أيضاً . فإن هذه آثار الشعور بالجمال ، وهي لا تنهض تعليلاً لهذا الشعور .

***

إن كل صوت في الليل تسمعه الأذن على نحو ماتسمع الأصوات المألوفة ، ولكنها لاتسلمه إلى العقل ليحلله ويفهمه كشأنها في النهار ، بل تسلمه إلى القلب ليفهمه على النحو الذي يجيب أحلام النفس ، ويثير ذكرياتها الماضية .

إن البريد بين السمع والعقل ـ هذا البريد القائم على التحليل والفهم والوضوح ـ يكاد يكون معطلاً في الليل ، ليحل محله بريد الأرواح والأشباح والإلهام والذكريات . وكل ما في عالم الشعر والأحلام من صور وأطياف — هي على غموضها وآلامها وإثارتها للدموع — أكثر قيمة للإنسان وأدخل في تهذيب وجدانه ، وتحقيق إنسانيته .

إن هذه الأصوات الغامضة التي نسمعها في الليل ، والتي تمتاز بالخفوت والهمس والإيحاء — هي التي يتحدث عنها الشاعر الوقور فيكتور هيجو في قصيدته « الطبيعة والإنسان » والتي يشبهها « بنشيد مرتبك » مضطرب الأنغام ، يرجّعه أحباب قلوبنا الذين باعد الموت بينهم وبيننا .

إنها في رأيه « أصوات الحياة في عمرها السحيق ، حين تمر على البحار والأنهار والغابات الخضراء ، وعلى جباه الجبال المتجعدة » .

« إنها صوت الطبيعة الدؤوب ، التي تظل محتفظة بشبابها لا ينالها الهرم ، ولا يبدو عليها الإعياء » .

إن هذا الهمس الغامض الذي تذهب النفس في استيضاحه كل مذهب — لا يعيب القلب الشاعر أن يتعلق به ، لأن جمال الفنون قائم على هذا الغموض — أو قل على هذا الوضوح الناقص ، الذي تكمله الروح بما تضيف إليه من الظلال والألوان ، وهو الحد الفاصل بين العلم والفن ، فقضايا العلوم كاملة واضحة لا لبس فيها ولا خفاء ، وهذا الوضوح هو السبب في جفافها ، لأنه يخالف طبيعة الروح ، ولا يصلح موضوعاً لها ، فيعطل في الإنسان شطره الأسمى ، وحتى العقل نفسه لا يتناول قضايا العلوم غير مرة واحدة ليطمئن إليها، ثم يرددها بعد ذلك في غير تفكير، كما تحكي الببغاء ما تسمع من الأصوات.

وليس كذلك الفنون ، فالشعر والموسيقى والرسم والتمثيل ، لا تعدو أن تكون في جملتها رمزاً لمعنى ، وإشارة إلى فكرة ، وإلماعاً إلى غرض .

إنها أشبه بالجملة التي يستغني الكاتب عن ذكر جميع كلماتها ، مكتفياً بما يضعه من النقط مكان المحذوف منها، ثقة بذوق القارىء الذي سيكملها بما يوحي به سياق الحديث.

إنها «وصلة» المغني لم تسمعها بعد ، ولكنك تحمل من صدى لحنه الأول ما يصورها لك.

إنها دقات الناقوس تنتهي وتمضي ، ولكنها تترك في الأذن والقلب رنيناً هامساً متصلاً ، هو حديث النفس .

الفنون بلاغة موجزة يقترن الإعجاز فيها بالإيجاز ، وتنعقد العبقرية عندها بالتلويح لا التصريح . فلتذهب الروح في إدراك مراميها كل مذهب ، وعلى الخيال أن يتبع سبحات هذه الأرواح ، وهو لا شك واصل إلى أهدافها ، وإن انفردت كل روح بطريق خاص . وخير ما في الفنون ما فيها من عنصر الطفولة ، فالنحات والمثال لا يعدو كل منهما — مع تجاوز يسير — أن يكون كصانع العرائس ، والشاعر طفل حين يغرق في الخيال ، ثم يؤكد لك في إصرار غريب أن ذلك حقيقة ، مستعيناً على ذلك بضروب من المغالطة والتهويل .

يقولون : إن في الأدب نوعاً هامساً يخاطب النفس في أناة وانكسار ، ويطبع فيها صوراً شاحبة ضارعة لا تخلو من حياة وقوة . وكذلك الطبيعة يتجلى فيها الهمس مرة ويجافيها أخرى .

فالخريف في حزنه وانكساره ، والغروب في لوعته وشحوبه ، والليل في سكونه وجلاله ، هي ألوان من أدب الطبيعة الهامس ، تحمل معانيها في ونىً وخفوت ، يوشك أن يكون غناءً جريحاً من أغاني الرعاة ، وضراعة شاكية من ترانيم الرهبان .

على شرف الدين

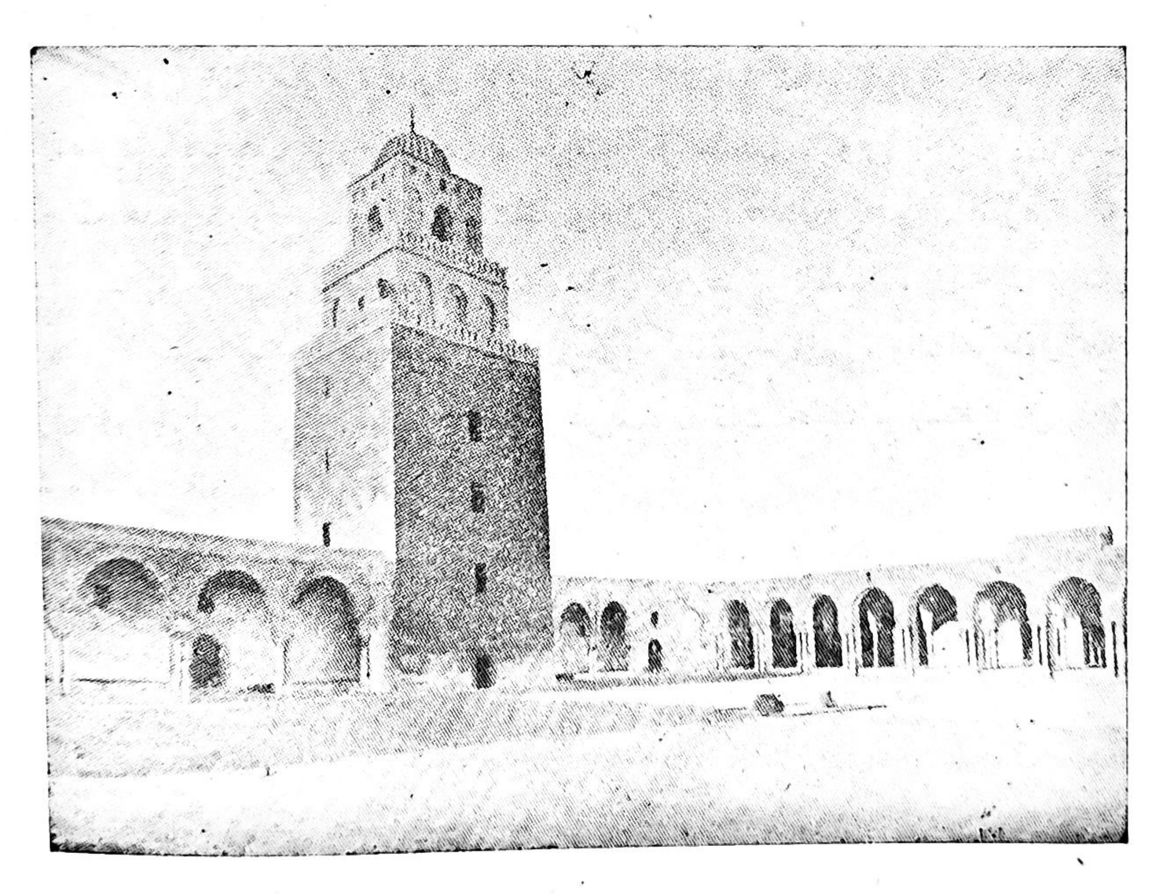
تطوّر المآذن

للدكتور زكي محمد حسن

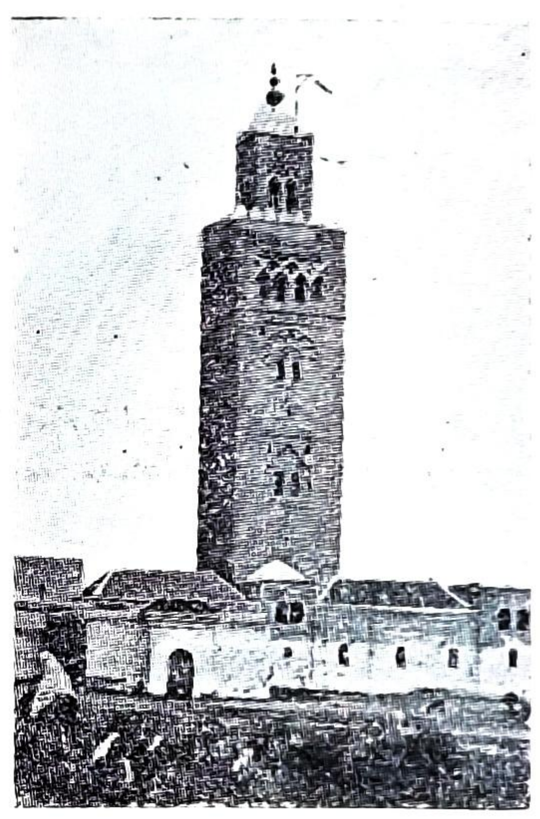
كان النبي وأصحابه يصلون في البداية من غير أذان ، ثم أمر النبي مولاه بلالا أن يؤذن داعياً إلى الصلاة ، فكان بلال أول مؤذن في الإسلام ، وكان يؤذن من أعلى سطح يجاور المسجد . وكانت المساجد الأولى في الإسلام بغير مآذن . وكان يحدث أحياناً أن يدعو المؤذن إلى الصلاة من سور المدينة .

واتخذ المسلمون المآذن لأول مرة في دمشق ، حين أذنوا للصلاة من أبراج المعبد الوثني القديم الذي قام على أنقاضه المسجد الأموي ، وكانت هذه الأبراج الأربعة الأصل الذي بنيت على مثاله المآذن الأولى في الإسلام ولا سيما في مصر والشام وبلاد المغرب .

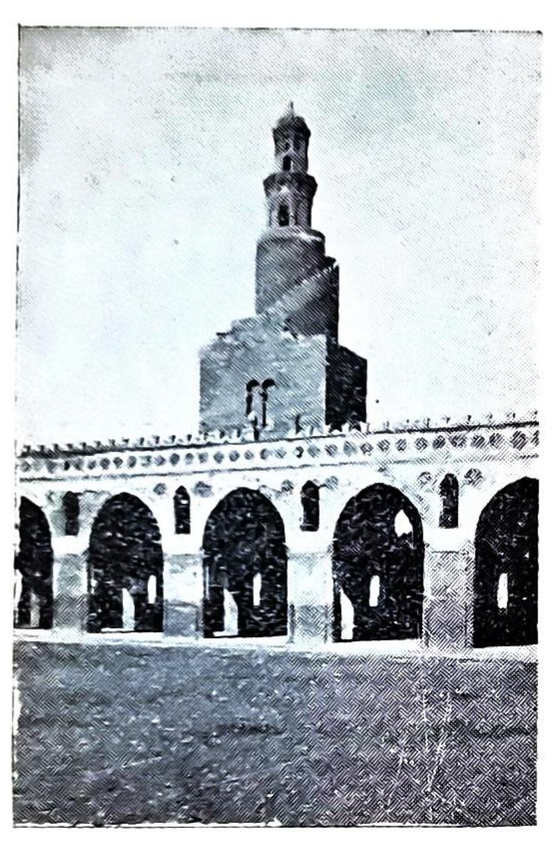
وعرف المسلمون المكان الذي يلقى منه الأذان باسم المئذنة أو الصومعة أو المنارة



(شكل ١) مئذنة مسجد سيدي عقبة في القيروان



(شكل٢) منارة الكتبية في مراكش



(شكل٣) مئذنة جامع ابن طولون بالقاهرة

وكان العرب يطلقون على أبراج الزهاد اسم «الصوامع» ولعل بقاء هذه الكلمة للدلالة على المآذن راجع إلى أن المآذن الأولى في الشام وغيرها كانت مربعة كأبراج الزهاد. وسنرى أن طراز هذه المآذن المربعة هو الذي عم استعماله في المغرب. وقد ظلت المئذنة تسمى صومعة في بلاد المغرب حتى الآن. ومن الغريب أن بعض أهل المغرب يسمون المئذنة «عساس» بمعنى مكان المراقبة أو الملاحظة، مما يشهد بأن المآذن لم تكن تستخدم للأذان فحسب بل كانت تستعمل للكشف والمراقبة في بعض الأحيان. أما كلمة المنارة فكانت تطلق في البداية على المكان الذي تشعل فيه النار أو ينبعث منه النور ثم أطلقت على الفنارات عامة وانتقلت منها إلى المآذن لمشابهتها أبراج الفنارات.

وقد ذهب العلماء في أصل المآذن من الوجهة المعمارية مذاهب شتى فقيل إنها مشتقة من أبراج الكنائس أو من أبراج الحراسة والمراقبة أو من الفنارات القديمة أو من بعض أبراج العبادة في الهند وبلاد الجزيرة والعراق.

وكان استعمال الحجر أو الطوب في بناء المآذن يتوقف على مادة البناء المستعملة في الإقليم ففي أسبانيا استعمل الحجر، وفي المغرب غلب استعمال الطوب، وفي مصر



(شكل ٤) المنارة الملوية في المسجد الجامع بسامرا



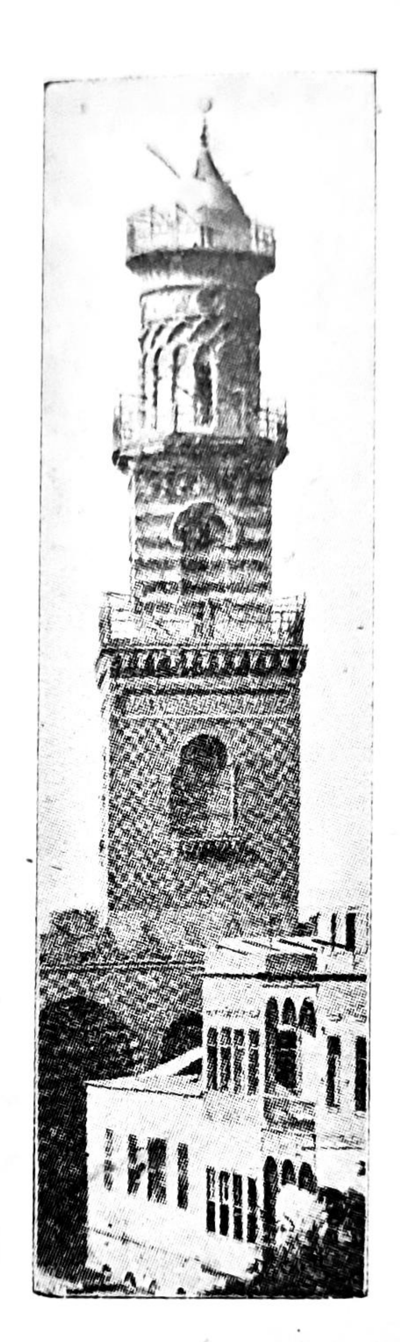
(شكل ٥) المئذنة البحرية بجامع الحاكم بالقاهرة

استعمل الحجر ، وكذلك استعمل الحجر في بلاد العرب والشام وآسيا الصغرى وبلاد الجزيرة . واستخدم الطوب في العراق . وكذلك غلب استعمال الطوب في إيران وأفغانستان ، وفي الهند استخدم الحجر والطوب على السواء .

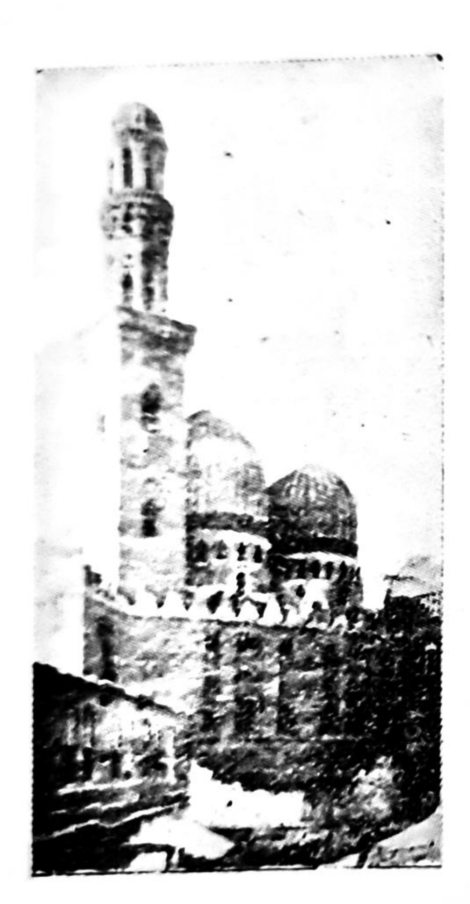
وأول إشارة إلى بناء المآذن في مصر جاءت في خطط المقريزي عند الكلام على إعادة بناء جامع عمرو بالفسطاط ، فقد كتب المقريزي أن الخليفة معاوية أمر الوالي مسلمة أن يبني صوامع للأذان فبنى مسلمة أربع صوامع لهذا المسجد في أركانه الأربعة وقد تهدمت هذه المآذن فلم يصل إلينا شيء منها .

ولكن الثابت أن المآذن الأولى التي شيدها المسلمون كانت أبراجاً مربعة وأن هذا الطراز السوري في بناء المآذن انتقل إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي ولا سيما بلاد الجزيرة ومصر وبلاد المغرب والأندلس ثم أتيح له البقاء في غربي العالم الإسلامي ولا يزال الطراز السائد فيه .

وأقدم « الصوامع » القائمة في بلاد المغرب مئذنة جامع سيدي عقبة في القيروان (شكل ١) . وقد شيدت في عصر هشام بن عبد الملك وهي برج مربع ضخم يضيق قليلا



(شكل٦) مئذنة مارستان قلاوون بالقاهرة



(شكل٧) مئذنة مدرسة سنجر الجاولي بالقاهرة

كلما ارتفع وتعلوه شرفات وطابقان بني أحدهما في عصر متأخر . ومن أمثلة هذا الطراز في بناء المآذن منارة الكتبية في مراكش (شكل٢) ومئذنة المسجد الجامع في أشبيليه وهي الآن برج الكاتدرائية وتسمى La Giralda ومئذنة حسن في رباط وترجع ثلاثتها إلى القرن السادس الهجري (١٢ م) .

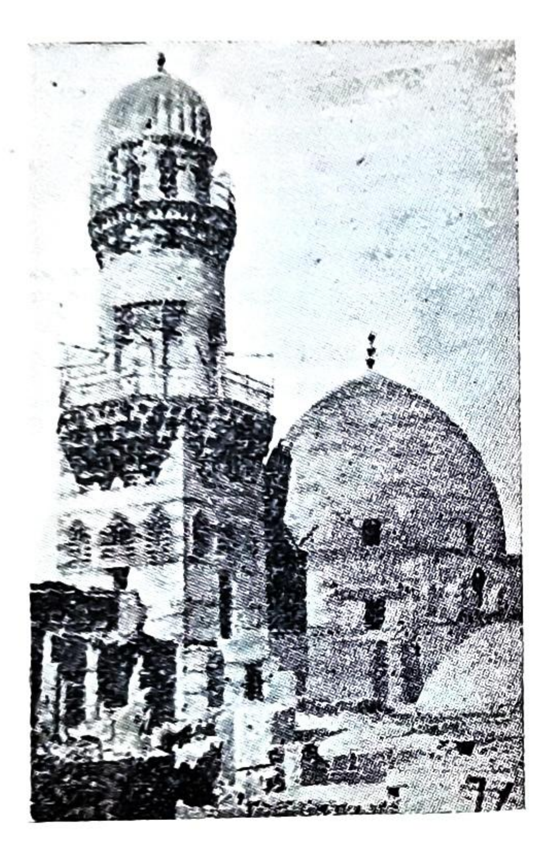
أما في مصر فقد ذاعت طرز مختلفة من المآذن حتى ليمكن اعتبار القاهرة معرضاً لمعظم أنواع المآذن التي عرفتها العمارة الإسلامية ، وأقدم ما نعرفه من هذه الأنواع في مصر مئذنة جامع ابن طولون . وهي تقع في الرواق الخارجي وتكاد لا تتصل بسائر



(شكل ٨) مئذنتان مملوكيتان في الجامع الأزهر



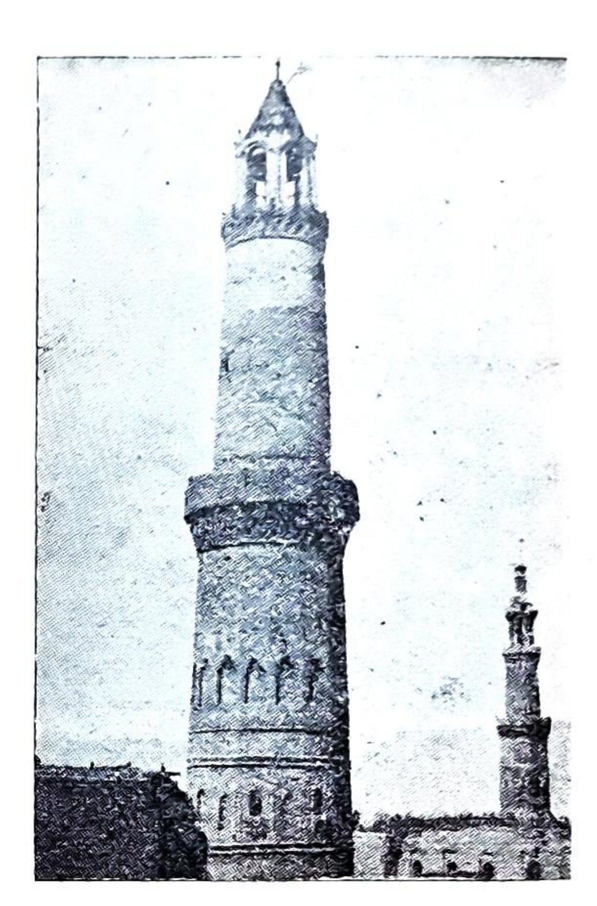
(شكل ٩) مئذنة مملوكية الطراز بالقاهرة

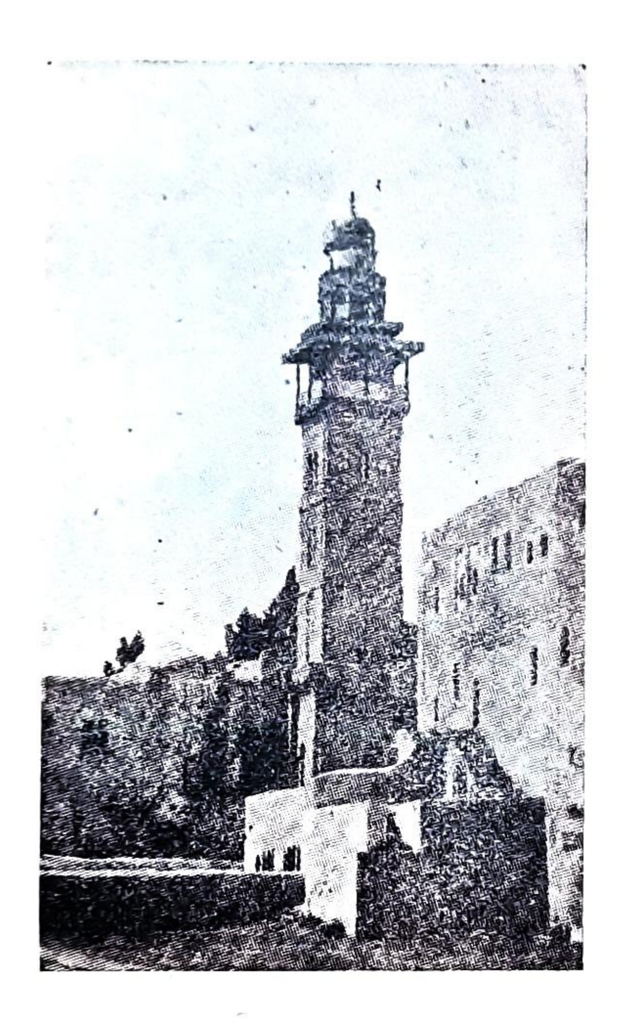


(شكل ١٠) مئذنة خانقاه بيبرس الجاشنكير بالقاهرة

بناء الجامع . وتتألف من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة أسطوانية ، عليها أخرى مثمنة وفضلا عن ذلك فإن مراقيها من الخارج على شكل مدرج حلزوني (شكل ٣) . وليس لهذه المئذنة نظير إلا في المسجد الجامع وفي مسجد أبي دلف بمدينة سامرا . وتعرف منارة المسجد الجامع باسم الملوية (شكل ٤) وقد فطن علماء الآثار إلى أوجه الشبه بين هذه المنارات الثلاث والمعابد القديمة التي شيدت في العراق والجزيرة على يد السومريين والبابليين وعرفت باسم « زيجورات » أو معابد النار التي كانت للساسانيين وعرفت باسم « آتشكاه » .

وتقوم على طرفي الوجهة البحرية فيجامع الحاكم بالقاهرة مئذنتان كل منهما فوق برج يتألف من مكعبين أجوفين يعلو أحدهما الآخر . والجزء العلوي في المئذنتين يرجع إلى عصر المماليك، أما الجزء السفلي فيرجع إلى عصر الحاكم بأمر الله ويختلف في إحدى المئذنتين عنه فى الأخرى اختلافا بسيطاً فهو في الشمالية مستدير (شكل ٥) أما في الجنوبية فمربع ينتهي بمثمن . وشكل هذه المئذنة الأخيرة يؤذن بالشكل الذي غلب على المآذن المصرية في العصور التالية فإن معظم المآذن التي شيدت في مصر بعد ذلك كانت ذات طبقات ثلاث : مربع ثم مثمن ثم أسطواني . وإنما تناول التطور الذي حدث بعد

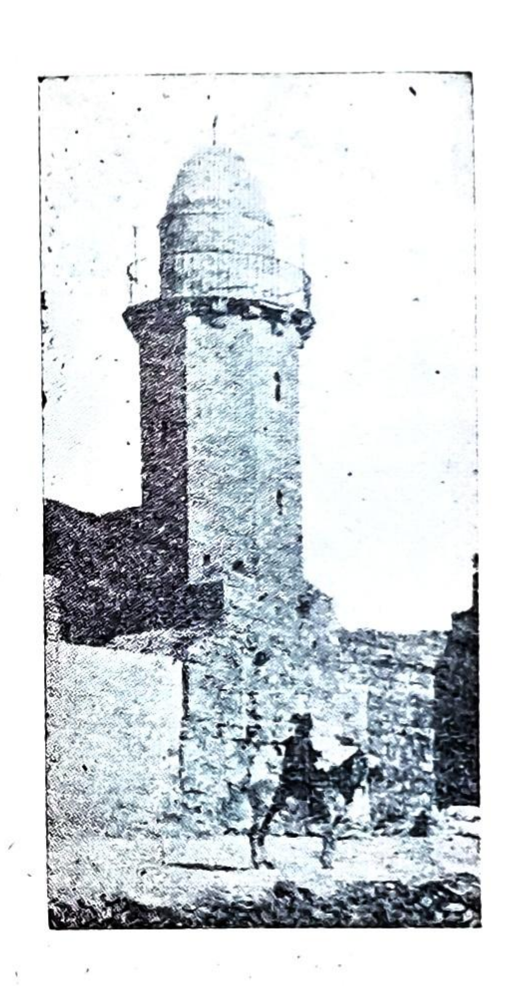


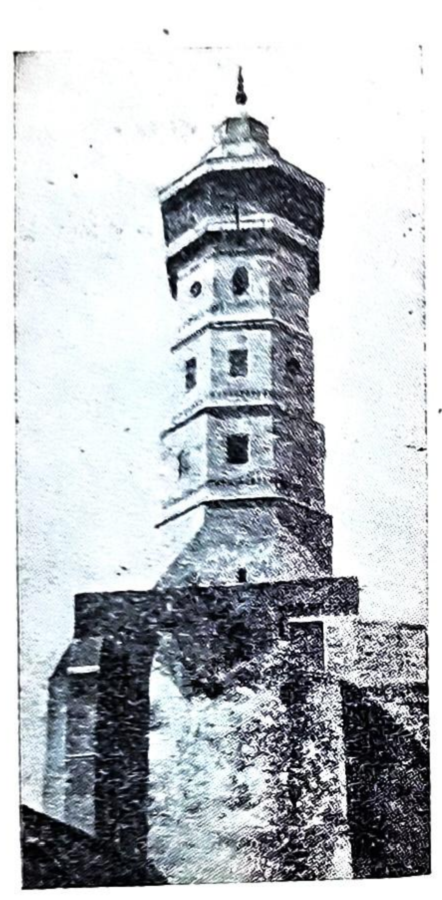


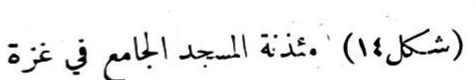
(شكل ١١) مئذنة فى مدينة الأقصر بالمملكة المصرية (شكل ١٢) مئذنة في بيت المقدس

العصر الفاطمي النسب بين الأجزاء المختلفة سعياً وراء الرشاقة والجمال (شكل ٦) وقد بلغ هذا التطور أوجه في نهاية دولة المماليك الجراكسة ولا سيما في عصر قايتباي (٨٧٣ — ٩٠١ ﻫ) وقد أصاب المعماريون في عصر المماليك قسطاً عظيما من التوفيق في تجميل المآذن بالطاقات والدلايات (المقرنصات) وسائر الزخارف المعمارية (انظر الأشكال من ٦ إلى ١١).

أما فلسطين وشبه جزيرة العرب فلم يكن لهما طراز خاص في بناء المآذن. فكان التأثر بالأساليب المصرية ظاهراً في فلسطين وذاع بناء المئذنة المربعة ثم المثمنة الأضلاع على قاعدة مربعة (الأشكال ١٢ و١٣ و١٤). وشيدت المآذن في جزيرة العرب من الطراز المملوكي ثم الطراز التركي. وكذلك بنيت المآذن في الشام على الطرز الملوكية ثم التركية بعد أن كانت تبنى في البداية مربعة (شكل ١٥)





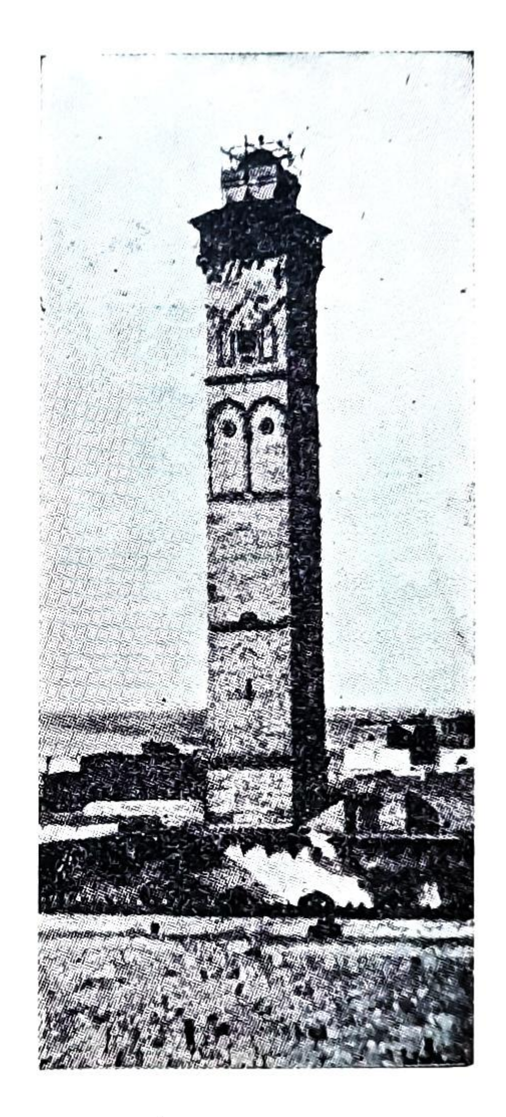


(شكل١٣) مئذنة مسجد النبي داوود ببيت المقدس

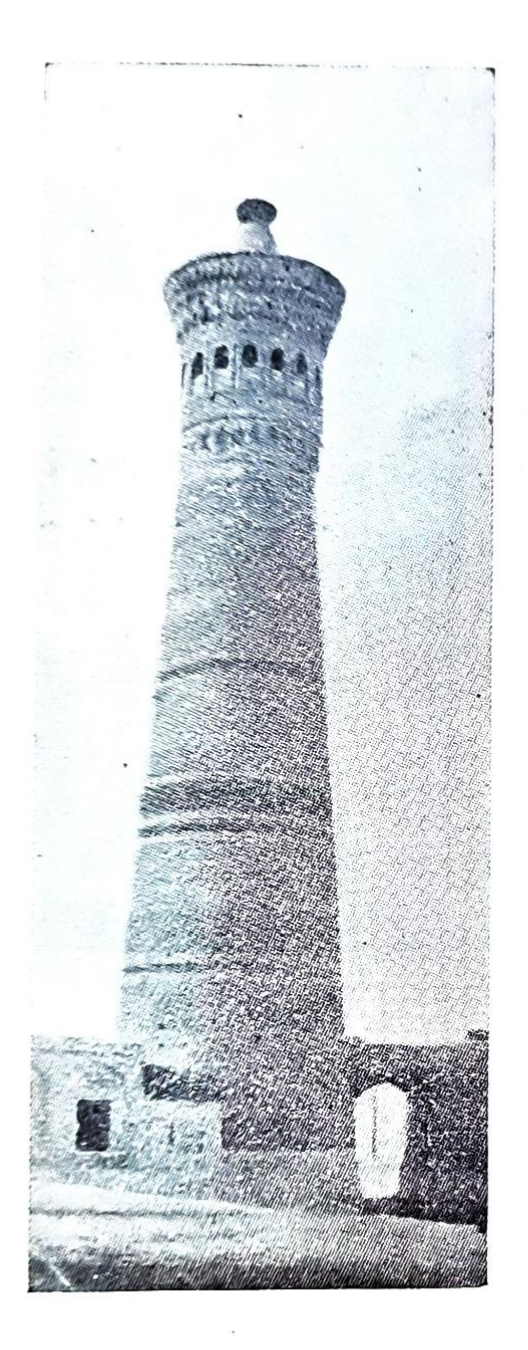
(شكل١٤) مئذنة المسجد الجامع في غزة

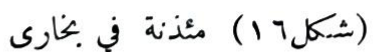
وفي العراق وبلاد الجزيرة عرف المعماريون طرزاً مختلفة من المآذن فشيدوا مئذنتي سامرا وأبي دلف اللتين ظلتا مع منارة ابن طولون فريدتين في العمارة الإسلامية ثم شيدوا المآذن المربعة والثمنة والأسطوانية .

وكانت المآذن الأولى في إيران معظمها مثمن الشكل ، ثم غلبت المآذن الأسطوانية منذ القرن الخامس الهجري (١١ م) وأصبحت تجمل بالزخارف الهندسية في الطوب المشيدة منه أو بكسوة من القاشاني ، وكانت المئذنة الإيرانية دقيقة الطرف قليلا وتنتهي في أعلاها بردهة تقوم على دلايات أو مقرنصات (الأشكال ١٦ و ١٧) وتكسبها شكل الفنار . وقد أصبح لمعظم المساجد الإيرانية منذ القرن التاسع الهجري (١٥م) مئذنتان تحفان بالمدخل وتختفي قاعدة كل منهما خلفه إلا في بعض المساجد ، فإنهما ظاهرتان وتزيدان المدخل ضخامة وارتفاعاً . وتختلف المآذن الإيرانية عن سائر المآذن الشامية والمصرية والمغربية في أنها لا طبقات لها ولا نوافذ . فالمئذنة الإيرانية بناء



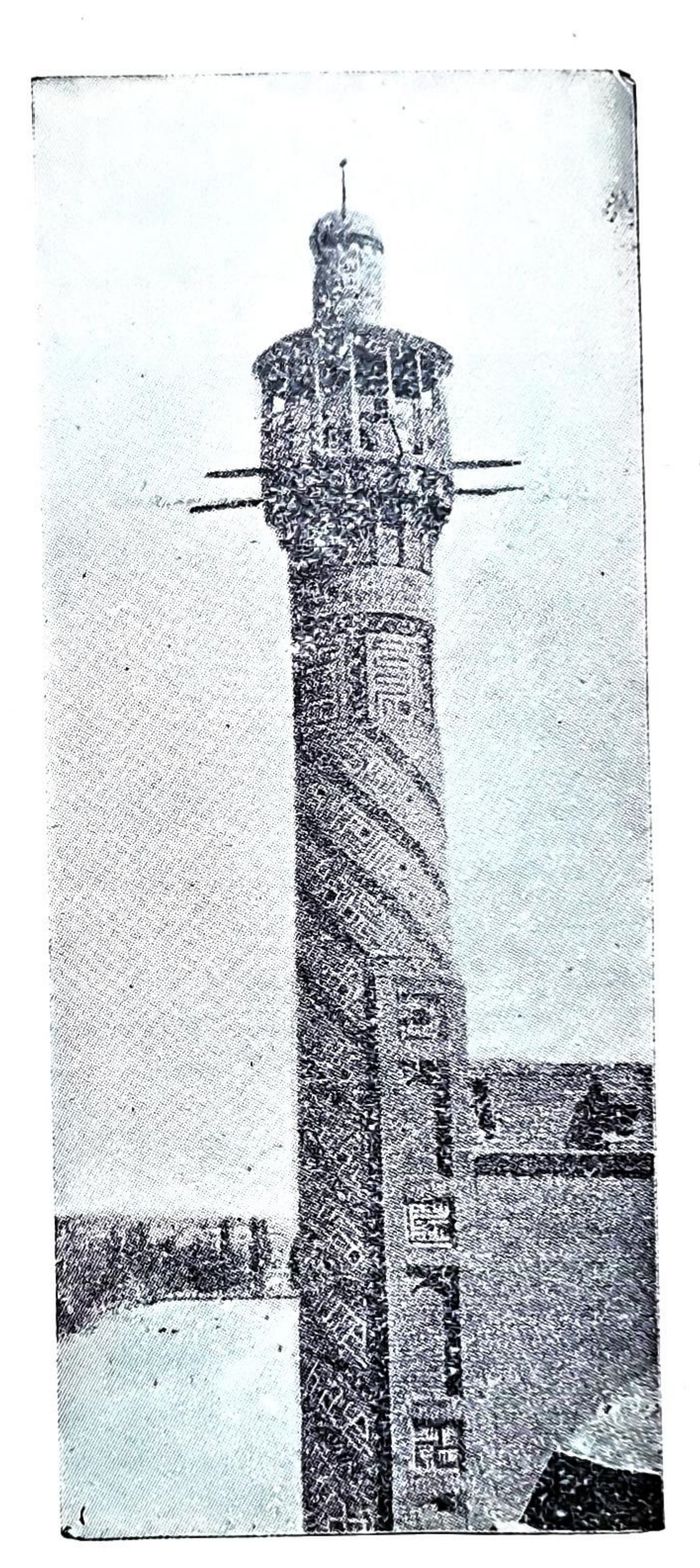
(شكل١٥) مئذنة المسجد الجامع في حلب



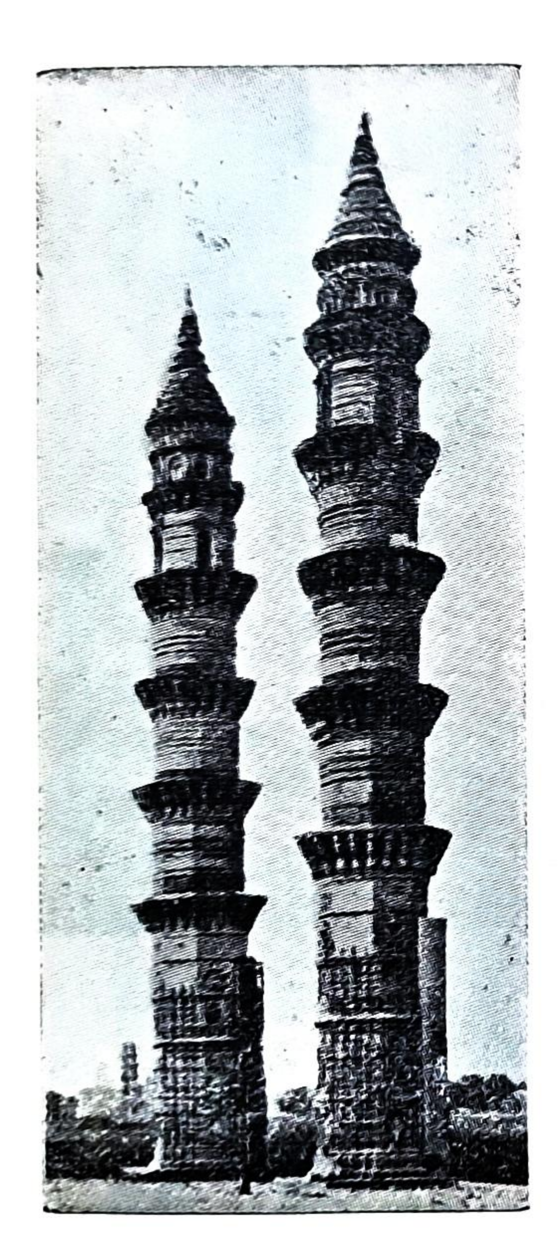


(شكل١٦) مئذنة في بخارى

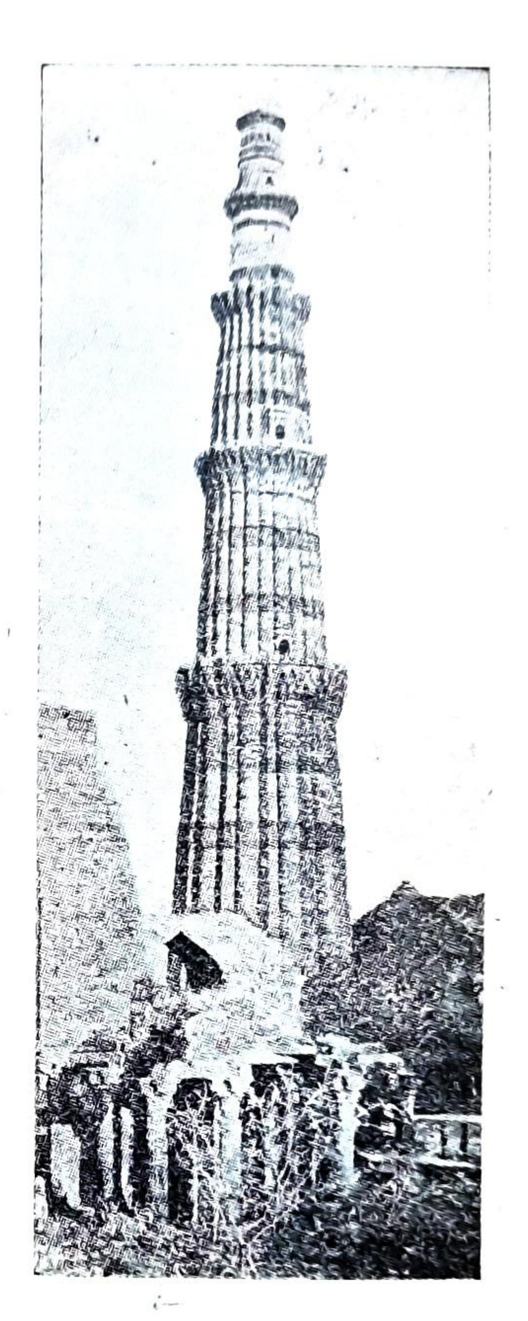
شاهق مبني لذاته وليس لتهيأ فيه سلالم تقود إلى ردهات أو دورات يسير فيها المؤذن . وفضلا عن ذلك فإن المئذنة الإيرانية الأسطوانية الشكل والشاهقة الارتفاع قد عمّ استعمالها في إيران منذ القرن السادس الهجري (١٢ م) بينما ظلت المآذن في القسم الغربي من العالم الإسلامي موكولة إلى ذوق الأفراد فكانوا يتصرفون في تشييدها بعض التصرف في حدود الطرز السائدة في كل إقليم . ولم تكن المآذن الإيرانية تستخدم في الأذان بسبب ارتفاعها العظيم وإنما كان المؤذن يدعو إلى الصلاة من فوق سطح المسجد



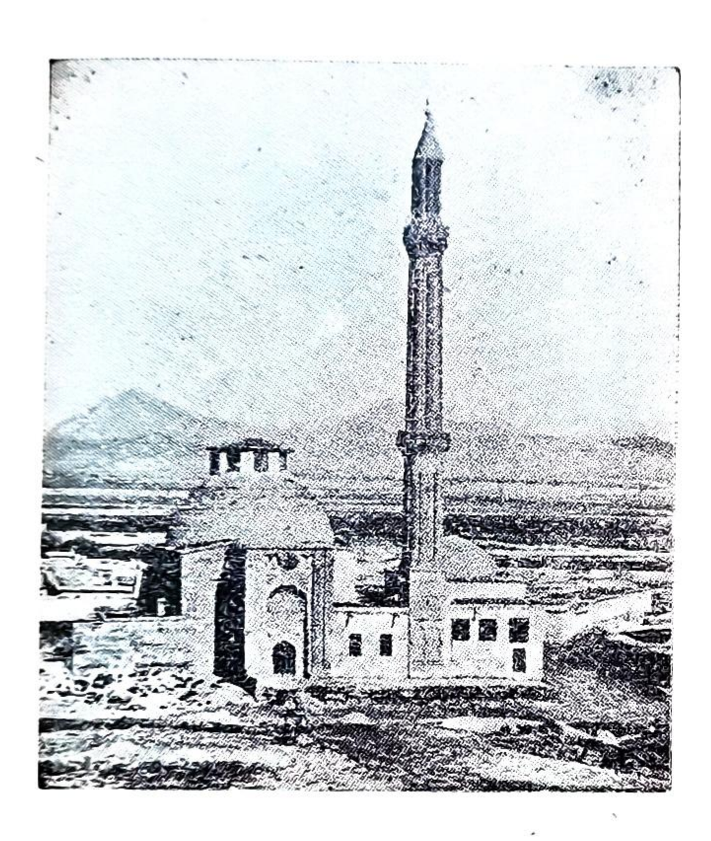
(شكل١٧) مئذنة مسجد الشاه في أصفهان



(شكل-١٨) مئذنتان من الهند

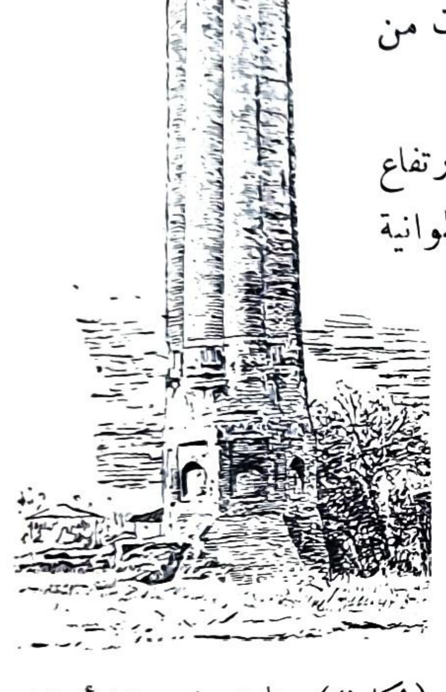


(شكل١٩) قطب منار بدهلي



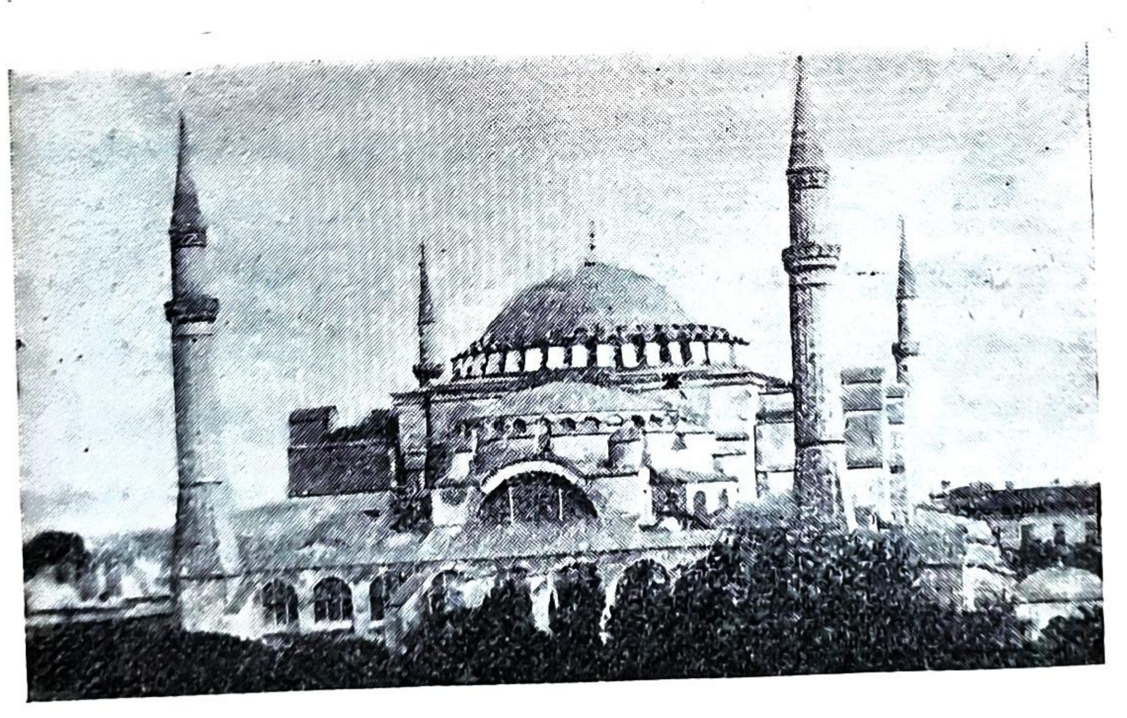
(شكل٢٠) منارة في قونية

أما في الهند فقد ظلت المساجد تشيد بغير مآذن مدة طويلة ثم عم استعمال المنارات منذ القرن التاسع الهجري (١٥ م) وسار القوم على سنة الإيرانيين في ترتيبها مزدوجة بحيث يكون للمسجد مئذنتان تحفان بمدخله ، وكانت المآذن الهندية في معظم الأحيان أسطوانية تضيق كلما ارتفعت وتزينها شرفات وتضليعات (شكل ١٨) ومن أجمل المآذن الهندية القديمة « قطب منار » في مسجد قوة الإسلام بمدينة دهلي القديمة (شكل ١٩) وقد شيدت للأيباك قطب الدين وأتمها خليفته التتمش من سلاطين الهند في بداية القرن


(شكل٢١) منارة سلجوقية في أضاليا

السابع الهجري (١٣م) . ولعلها أفخم المآذن الإسلامية على الإطلاق . ويبلغ ارتفاعها ٧٢٫٥ متراً وقطر قاعدتها ١٤ متراً وطبقاتها الثلاث السفلية من الحجر الأحمر أما الطبقتان العلويتان فقد جددتا وهما من الرخام الأبيض وفيهما طبقات من الحجر . وتكسو هذه المئذنة تضليعات وعصابات من الكتابة وأشرطة من سائر الزخارف المعمارية .

أما في آسيا الصغرى فقد زاد العثمانيون في ارتفاع المآذن عما عرفه السلاجقة وأصبحت المآذن عندهم أسطوانية وطويلة ممشوقة تعلوها قمة مخروطية مدببة . (الأشكال ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) وزاد عدد المآذن في المساجد التركية بحسب أهميتها حتى بلغ ستا في جامع السلطان أحمد في القسطنطينية . وقد انتشر الطراز العثماني في البلاد الإسلامية التي ضمها الترك إلى أمبراطوريتهم . ومن أبدع المآذن التركية الطراز في مصر مئذنتا جامع محمد علي باشا بالقلعة ويبلغ ارتفاع كل منهما ٨٤ متراً عن أرض المسجد .


(شكل٢٢) جامع أيا صوفيا من الطراز التركي

زكي محمد حسن

الأولاد الوحشيّون

للأستاذ إلياس الغضبان

ذكرت الصحف في الآونة الأخيرة ، أن بعض الصيادين في صحراء تدمر ، عثروا على صبي في الخامسة عشرة ، جسمه مغطى بطبقة من شعر أملس يشبه شعر الغزال ، وقد أطلقوا عليه اسم الصبي الغزال . وذكرت أيضاً أن هؤلاء الصيادين كانوا يطاردون الظباء بسياراتهم ، فوقع نظرهم فجأة على قطيع منها ، فاقتفوا أثره وظلوا يطاردونه ساعة أو نحوها ، ولما اقتربوا منه تبين لهم أن بين القطيع مخلوقاً يشبه الإنسان قد سقط على الأرض من شدة الإعياء ، وأنه صبي نحيل البدن ، في شفته العليا شق مفتوح ، لا يتكلم بل يهمهم كالغزال ، وقد نقلوه إلى مستشفى شركة بترول العراق في الصحراء حيث تعهده الدكتور موسى جلبوط .

ولا يزال هذا الإنسان الغزال ممتنعاً عن تناول أي نوع من الطعام غير العشب .

ويرجح الدكتور جلبوط أن هذا المخلوق لا بد أن تكون أمه قد فقدته في الصحراء وهو رضيع ، فتعهدته غزالة وأرضعته ثديها فشب وترعرع مع الغزلان حتى أصبح واحداً منها .

ثم كذبت صحف دمشق المبالغات الرائجة حول قصة هذا الصبي ، وذكرت عنه أنه ابن بدوية من تدمر قد ضل السبيل أياماً في الصحراء ، وهو فقير ومريض وأبكم ، وأنه يأكل الخبز ويمشي كسائر البشر ، وقد وصلت والدته لتتسلمه .

وسواء أكان هذا الصبي ولداً وحشياً أم ولداً عادياً ، فذلك لا ينفي وجود الأولاد الوحشيين .

* * *

يسمى بالوحشيين أولئك الأولاد التائهون أو المتخلفون عن ذويهم في الأحراج أو الصحارى، وهم الذين قد تداركوا بالغريزة أمر معاشهم ، وحافظوا بالسليقة على حياتهم .

ولقد زعم بعض المؤلفين أن هؤلاء الأولاد ، قد أرضعتهم إناث بعض الحيوان ، فغذوا بلبانها حتى بلغوا سن الفطام .

ولا يسع الباحث أن ينفي هذا الزعم بتة ، ولا أن يثبته ويؤكده، بل يخيل إليه أنه إذا كانت الوحوش الضارية لم تفترس هؤلاء الأولاد ولا توصلت إلى الفتك بهم ، فذلك لأنهم قد تاهوا في عمر تمكنوا به من حراسة أنفسهم ، واتقاء غدر الوحوش الضارية من أن توقع الأذى بهم وتفترسهم .

ثم إن هؤلاء الأولاد بانقطاعهم عن الهيئة الاجتماعية وعدم استئناسهم بمن هم على شكلهم ، قد أضاعوا لغتهم ، ونسوا أصلهم وكل ماله علاقة بالخصائص العقلية والمزايا الذهنية ، بحيث كانت أفكارهم تمحى شيئاً فشيئاً ، ويستعاض عنها بفكرة واحدة ، وهي تدارك أمر غذائهم والمحافظة على حياتهم .

وإن هذه الفكرة القوية قد أنمت فيهم على غير القياس قسم الدماغ الرئيسي ، وبذلك استمرت باقي أقسام العضو الدماغي صماء ، لم تكتسب سوى نمو غير كامل ، فضلاً عما أنمت التمرينات الرياضية في أجسامهم من القوى العضلية ، وما أثرت في تركيبهم تقلبات الطقوس وعدم الانتظام في البيئة والمعيشة .

وأخيراً قد جعلهم تعود العيش الوحشي يفقدون كل دراية شخصية ، ويساوون البهم في أحوالهم ، ويماثلونها في حركاتهم وسكناتهم ، ذلك ما يشير حقيقة إلى أن الإنسان لا يختلف عن الحيوان ، بسوى الرأس ، والأداة الصوتية واليدين ، وأن هذه الأعضاء هي التي يتوقف عليها سموه على سائر المخلوقات ، وكل أنواع العجماوات .

٭٭٭

إن بطون التواريخ مليئة بالشواهد على الأولاد الوحشيين ، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال :

١ — ورد في تاريخ بولونيا الطبيعي أنه في نحو سنة ١٦٦١ أبصر بعض الصيادين في إحدى غابات لتوانيا بين سرب من الدببة ولدين يجدان في اللعب ، يقرب أن يكون عمرهما بين التاسعة والعاشرة ، وأنهما كانا قويي الجسم ذوي خفة ونشاط غريبين . وقد قام الصيادون بتهريب الدببة ، واجتهدوا في القبض على الولدين ، وبعد أن بذلوا غاية الجهد والعناء ، تمكنوا من القبض على أصغرهما سناً ، وذلك بعد أن قاومهم مقاومة عنيفة ، وهارشهم بأسنانه وأظافره .

وكان هذا الولد ذا شعر أشقر ، وملامح تستلفت الأنظار ، وقد قدموه إلى ملك بولونيا إذ ذاك ، فأمر بأن يعمد في الحال ، وكانت الملكة عرابته ، والسفير الفرنسي عرابه .

ثم إنهم عنوا كثيراً بتأديبه ، ولكن ذهب تعبهم ضياعاً ، وعناؤهم دون فائدة ، ذلك لأنهم لم يتوصلوا إلى إيناسه ، فأصبح أمر تأديبه ضرباً من المحال ، بحيث إنه كان يتضايق من الثياب التي كانوا يلبسونه إياها ، فيمزقها إرباً إرباً كلما خلا له الجو وغفلت عنه أعين الرقباء .

ولقد ذهب ما تجشمه معلموه من الصبر والعناء في تعليمه النطق وتلقينه الكلام صرخة في الفضاء ، ورقماً على الماء ، لأنه لم يكن لسان هذا الغلام الوحشي يقبل النطق ، بل كان يتعذر عليه تلفظ الكلام ، وقد حافظ حتى الثانية والعشرين من عمره ، وهي السنة التي قضى فيها نحبه ، على الصياح وتكرار عادات الدببة .

٢ — تتبع بعض الرحالة في أواخر شهر أغسطس سنة ١٧١٧ ابنة وحشية في غابة جبلية في مقاطعة أوفرإيل ، وقبضوا عليها ، وكانت سنها بين الثامنة عشرة والعشرين ، إلا أنهم كانوا يجهلون المدة التي أقامت فيها هذه الابنة في الغابات واستوطنتها .

وكان أديم بشرتها أسمر اللون ، ذا غضون ومغطى بالشعر ، وكان شعر رأسها كثيفاً وطويلا ينسدل فوق كتفيها الممتلئتي العضل ، فيظللها .

ولم يكن لها لغة تتكلم بها ، بل كان صراخها مصدعاً وذا حشرجة صماء ، وهذا كل ما نطقت به وسمعوه منها . أما أخلاقها فكانت وحشية صرفاً ، وغريزة الدفاع فيها قوية ، تساعدها عليها قواها العضلية ، مما جعل القبض عليها شاقاً خطراً .

وبعد أن ألقوا القبض على هذه المخلوقة التعسة أسلموها إلى جمعية الراهبات اللواتي قمن بملاطفتها والاعتناء بأمرها أحسن قيام .

غير أنه فضلا عما بذلنه معها من الجهد ، وما أبدينه نحوها من الغيرة ، لم يستطعن تعليمها التكلم ، ولم تتوصل هي إلى أن تنبس بكلمة . ولما كان العيش الرهباني قد أثر في هذه الابنة المسكينة ، ولم يكن في استطاعتها أن تحتمل هذا الحبس الضيق ، أصابها هزال شديد ، ذوى على أثره غصن قامتها ، وأدركتها المنية بعد قليل من الزمن .

٣ — جاء في مجلة المقتطف عن شهر سبتمبر سنة ١٩١٤ أنهم وجدوا في غياض نيني تال في بلاد الهند ابنة عمرها نحو تسع سنوات ، لا تأكل إلا العشب ، لها شعر غزير على رأسها وعلى جانبي وجهها وظهرها ، وفي بدنها علامات تدل على أنها طعمت وهي طفلة للوقاية من الجدري ، والظاهر أنها تركت في الغابة صغيرة ، فعاشت فيها كالبهائم .

وهناك قصص كثيرة تشير إلى أمثال هؤلاء الأولاد الوحشيين ، قد اقتصرنا منها على ما تقدم . وفي كتابنا « تاريخ الإنسان الطبيعي » قصص عدة أولاد وحشيين

وجدوا في جهات مختلفة من الكرة الأرضية على مدار الأعصر والتواريخ .

ومما يلاحظ أن الخاصة الأكيدة التي تخلق بها الأولاد الوحشيون هي فقدانهم النطق ، وعدم استطاعتهم تلفظ الكلام ، ولم يكن تعبيرهم عن الفرح والألم إلا بالصراخ الحاد والأنين الأجش ، وأنه فضلا عن الأمثولات المترادفة التي لقنوهم إياها ، والجهد المتواصل الذي بذلوه نحوهم ، لم يكن بالإمكان تعليمهم التكلم ، حتى إن مجموع الكلمات التي حفظها بعضهم ، كانت مقتصرة على الألفاظ الدالة على الحاجات الطبيعية ليس إلا .

أما هذا النقص في هؤلاء المخلوقات فناشيء عن ارتخاء الحبال الصوتية وفرط ضعفها بسبب عدم تمرنها ، ولا سيما أنهم قد لاحظوا أيضاً أن ألسنتهم قد صارت ثخينة جداً ، وفقدت طبيعة تنقلها ، ومن جهة أخرى ، إن الحواس والغرائز التي كانوا يعملون بها ، قد اكتسبت نمواً فائقاً ، مع أن القوى العقلية قد أغفل أمرها وانمحى تقريباً أثرها من مخيلتهم .

وقد استمر هؤلاء التاعسون كل مدة حياتهم وحشيين متصفين بالبلادة والجبن ، وراغبين في الوحدة والانفراد ، وهم يمارسون آلياً ما تلقنوه وتعلموه . وكانوا يأسفون دائماً على ماضي أيامهم ، وسابق عيشهم الوحشي .

إلياس الغضبان



أعلام النهضة الحديثة

١١

عثمان نور الدين

أول أمير للأسطول المصري في عصر محمد علي

١٧٩٤ — ١٨٣٤*

للأستاذ جمال الدين الشيال

وجه محمد علي بعوثه إلى مختلف دول أوربا ، ولم يختص واحدة منها بهذه البعوث دون الأخرى ، وإن كان العدد الأكبر من هذه البعوث قد أرسل إلى فرنسا .

كان طليعة البعثات في عهد محمد علي ، ورائدهم الأول هو « عثمان سقه باشي زاده » أو عثمان نور الدين باشا فيما بعد . ذكر الأمير عمر طوسون — في كتابه عن البعثات — ونقل عنه الدكتور عزت عبد الكريم — في كتابه تاريخ التعليم في عصر محمد علي — أنه كان واحداً من أعضاء البعثة الثانية في عصر محمد علي ، وأنه أرسل إلى فرنسا في سنة ١٨١٩ ، وعاد إلى مصر سنة ١٨٢٠ ، وذكر أيضاً أن أولى بعثات محمد علي إلى أوربا هي التي أوفدت إلى إيطاليا بين سنتي ١٨١٣ و ١٨١٦ ، وكان أهم أعضائها نقولا مسابكي مدير مطبعة بولاق فيما بعد .

هذان هما أحدث المراجع العربية التي كتبت عن البعثات ، وعنهما نقلت معظم المراجع الأخرى هذه الحقيقة . غير أن البحث دلنا على أن هذا الرأي بعيد عن الصواب ،

---

* لم تعن المراجع المختلفة بتحقيق تاريخي مولد عثمان ووفاته ولا حفظت لنا صورته ، والتاريخ المذكور هنا تاريخ تقريبي اعتمدنا عند ذكره على :

René Cattaoui — Le Règne de Med. Aly d'après les Archivee Russes en Egypte. T. I. 1931. P. 388 فقد ورد في هذه الصفحة خطاب صادر في سنة ١٨٣٠ من Pezzoni أحد رجال المفوضية الروسية بالقاهرة لصديق له ، وفيه ترجم لعثمان فقال عند الكلام عن سنه : « إنه يبلغ السادسة والثلاثين من عمره تقريباً » : (Il est âgé d'après 36 ans.) واعتماداً على هذا التقدير يكون مولد عثمان حوالي سنة ١٧٩٤ ؛ كذلك ذكرت المراجع المختلفة أنه بعد اختلافه مع محمد علي في سنة ١٨٣٣ . عاد إلى الإستانة حيث توفي بعد قليل ، ولهذا جعلنا تاريخ وفاته سنة ١٨٣٤ تقريباً .

وعمدتنا في تحقيقه وثيقة معاصرة ، هي خطاب[١] تاريخه ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٣٠ موجه من « بزوني Pezzoni » إلى « ريبوبيير Ribeaupierre» هما من رجال القنصلية الروسية في القاهرة في عهد محمد علي .

في هذا الخطاب ترجم « بزوني » لعثمان نور الدين ، فذكر أنه واحد من التلاميذ الذين أرسلهم في سنة ١٨٠٩ المغفور له « يوسف بكتي[٢] Joseph Bokty » قنصل السويد العام في القاهرة ليتلقوا العلم في إيطاليا على نفقة محمد علي باشا ، ثم ذكر أنه مكث يطلب العلم في « بيزا » نحو الخمس السنوات ، ثم رحل إلى فرنسا ليتم بها تعليمه ، فلبث بها سنتين ، وعاد إلى مصر أخيراً في سنة ١٨١٧ .

من هذا يتضح :

أولا — أن أولى بعثات محمد علي أرسلت إلى إيطاليا سنة ١٨٠٩ لا سنة ١٨١٣

ثانياً — لم يعرف من أفراد هـذه البعثة غير عثمان نور الدين ، وقد تلقى العلم في إيطاليا ثم في فرنسا — لا في فرنسا فقط .

ثالثاً — أنه مكث في البعثة نحو سبع سنوات من ١٨٠٩ — ١٨١٧ ، لا سنة واحدة (١٨١٩ — ١٨٢٠) كما ذكر المغفور له الأمير عمر طوسون .

---

(١) Cattaoui — Le Règne de Med. Aly d'après les Archives Russes en Egypte . T. I. P, 387.

(٢) أسرة « بكتي » من أقدم الأسر السورية المشهورة ، وقد نزح أفراد كثيرون منها إلى مصر في القرن الثامن عشر ، وقد أهلتهم معرفتهم باللغات الأوربية لتولي مراكز القنصلية للدول الأوربية فى القاهرة ، وقد ورد في سجلات العماد والزواج والوفاة للآباء الفرنسكان في الإسكندرية اسم « يوسف بكتي » وذكر أنه كان حاضراً فى حفل زواج أحد الفرنج في ١٤ نوفمبر سنة ١٧٥١ ثم فى ٨ يناير ١٧٥٤ وقف عراباً عند عماد طفل إنجليزي ، وقد ورد في سجلات القاهرة للطائفة نفسها أنه في ٣٠ ابريل ١٧٤٩ تم زواج جرجس بكتي ، وانظر الأب قرألي « السوريون في مصر » ج ا ق ا ، ص ١٢٠ ، ١٠٨ حيث يذكر أن جد هذه الأسرة « أبوجبران » وفد على مصر ، وتوفي بها سنة ١٧٦٢ وهو في سن الثمانين ، وقد نبغ من هذه الأسرة في أواخر القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر رجلان ، أولهما بطرس بكتي وكان قنصلا للروسيا في القاهرة ، وقد مدحه ببعض الأبيات الشيخ شهاب الدين الشاعر المصرى — انظر ديوانه — وكان لهذا الرجل الفضل الأكبر في تمهيد السبيل لسفر الشيخ محمد عياد الطنطاوي ليكون أول أستاذ للغة العربية في الروسيا ، وثانيهما يوسف بكتي هذا ، وفضله هنا واضح في مساعدة محمد علي عند إيفاد أولى بعثاته إلي إيطاليا . انظر : قسطنطين الباشا : محاضرة في تاريخ طائفة الروم الكاثوليك في مصر ، ص ١٨ ، ٤٣ ، وشيخو : الآداب العربية في القرن ١٩ ، ج ا ، ص ٨٢ ، وقطاوي : المرجع السابق ، في صفحات كثيرة منه ، وانظر أيضاً مقالنا : الدكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي ، مجلة كلية الآداب بجامعة فاروق الأول ، العدد الثاني سنة ١٩٤٤

ويهمنا أن نقرر بعد ذكر هذه الحقائق أن محمد علي وفق حقاً في اختيار عثمان نور الدين ، فقد كان هذا التلميذ من خيرة أعضاء البعثات* ، فلما عاد إلى مصر كان ساعد محمد علي الأيمن في نهضتيه الحربية والتعليمية .

لقد اقترنت هاتان النهضتان كما اقترن إنشاء المطبعة وتاريخ الترجمة في عصر محمد علي باسم عثمان نور الدين وجهوده ، غير أن حادثة سياسية خاصة — سنعرض لها فيما بعد — كانت السبب في حدوث شقاق بينه وبين مولاه محمد علي ، وانتهى هذا الشقاق بسفره إلى بلاد الدولة العثمانية ، ولهذا نلاحظ أن وثائق السنوات الأخيرة من عصر محمد علي ، ومراجع ذلك العصر الحديثة تهمل ذكر عثمان نور الدين — عن قصد أو عن غير قصد — غير أننا نحب أن نعرض لتاريخ هذا الرجل بشيء من التفصيل تقديراً له ولجهوده .

أسرته تركية من جزيرة « مدللي » ، رحلت إلى مصر واستقرت بها ، وكان أبوه « فراشاً » أو « سقاءً » بقصر محمد علي ، ومن هنا اكتسب اسمه « عثمان سقه باشي زاده » ؛ التقطه محمد علي — وكانت له ميزة اختيار الرجال وتكوينهم — وأرسله في بعثته الأولى لتلقي العلوم الحربية والبحرية ، وفنون السياسة وإدارة الحكم في إيطاليا وفرنسا .

ولما عاد إلى مصر في سنة ١٨١٧ عين « كاشفاً » في حرس محمد علي الحربي ؛ ثم عهد إليه بتنظيم الكتب الكثيرة التي أحضرها معه من فرنسا — إجابة لرغبة محمد علي - وبهذا كون في قصر إبرهيم بن محمد علي في بولاق أول مكتبة وجدت في عصر محمد علي، ثم ألحق به في سنتي ١٨٢٠ — ١٨٢١ بعض التلاميذ المصريين ليدرسوا عليه وعلى مدرسين آخرين الهندسة واللغات العربية والتركية والإيطالية .

هذه هي مدرسة بولاق ، وهي أول مدرسة نظامية أنشئت في عصر محمد علي ، وذلك تنفيذاً لاقتراح عثمان نور الدين نفسه ، وقد تولى هو نظارتها والإشراف عليها ، وكان يدرس لتلاميذها الهندسة واللغة الفرنسية ؛ وقد زار هذه المدرسة الرحالة الإيطالي « بروكي .Brocchi » في ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢ ، وذكر أنه كان بهذه المدرسة ثلاثة مدرسين مسيحيين هم :

١ — دون كرلو بيلوتي — وهو إيطالي من كالابريا — ويدرس الرياضة .

---

* انظر : كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر (الترجمة العربية) ج ٢ ، ص ٥١٠ حيث يقرظ عثمان نور الدين ، ويعده من نوابغ البعثات الأولى .

٢ — القس سكاليوتي — من بيدمنت — ويدرس اللغة الإيطالية .
٣ — الأب روفائيل أنطون زاخورا ويدرس اللغة العربية (؟) .

ثم زار « بروكي » المكتبة السابق ذكرها ، وتحدث عن أنواع الكتب التي كانت فيها ، فقال إنه رأى بها كتباً تبحث في فنون الحرب والزراعة والرياضة ، وكتباً في القانون والتشريع والأدب ، من بينها : « الكوميديا الإلهية » لدنتي « Il poema di Dante » وقال « بروكي » أيضاً إنه دهش الدهشة كلها إذ وجد في تلك المكتبة نسخةً من كتب « فلتير » و « روسو » والكتاب المقدس ، ومجموعة من القصص الفرنسية لكتاب مختلفين ، وزادت به الدهشة وهو يتنقل بين هذه المجلدات إذ وجد مجموعة كبيرة من الكتب التي تبحث في النظم الدستورية للحكومات الأوربية ، وهذه كتب على حد قوله « لا ينتظر أحد أن يجدها في مكتبة عامة في بلد تحكم حكما أوتقراطياً » وراعه أخيراً أنه لا يجد بهذه المكتبة كتباً خاصة بمصر وتاريخها ، إذ لم يجد بها من هذا النوع إلا « رحلة فلني » والكتاب الكبير الذي وضعه المعهد الفرنسي — يقصد كتاب وصف مصر « Description de l'Egypte. » وبعض أعداد من جريدة « الديكاد »[١] .

وفي هذه المدرسة أيضاً كان يقوم بعض التلاميذ بترجمة « كتب الفنون الحربية وسائر الصنائع »[٢] تحت إشراف عثمان نور الدين وأساتذة المدرسة .

ولتلاميذ هذه المدرسة — فيما أرجح — وضع الأب روفائيل قاموسه « الإيطالياني العربي » الذي طبع في بولاق سنة ١٨٢٢ — وهو ثاني أو ثالث كتاب طبع في هذه المطبعة بعد إنشائها — بل لقد صرح روفائيل نفسه بهذا في مقدمته للقاموس إذ يقول :

« . . . وكان أنني قد أقمت على تعليم اللغة الإطاليانية (كذا) بأمر صاحب العزة . . . الحاج محمد علي نائب السلطنة بمملكة مصر . . . وقد اضطررت من قبل (كذا) وظيفة التعليم ، وسهولة درك معنى الألفاظ بهذه اللغة ، والتفهم على التلامذة الدارسين ، وعلى من ينتدب لترجمة الكتب من المتفقهين ، لأني (كذا) أؤلف قاموساً ترجماناً وجيزاً . . . في اللغتين الإطاليانية والعربية . . . »[٣]

(١) Brocchi. — Giornale delle asservazioni fatte né viaggi in Egitto, nella Siriane nella Nubia, Bassano. 1841, I, PP. 159—161.

(٢) الدكتور عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، ص ٤٣٥ .

(٣) انظر مقدمة القاموس المذكور .

وكان النشاط على أتمه حينذاك لتكوين الجيش المصري الجديد وتدريبه على النظم الأوربية الحديثة ، فقام عثمان نور الدين بترجمة الكتب الحربية المختلفة في نظم الجيش وتعاليمه عن الفرنسية إلى التركية .

وفي سنة ١٨٢٣ عين عثمان « سر عسكر » الجيش المصري ، وحصل بذلك على لقب « بك » ، وفي سنة ١٨٢٥ ترجمت قوانين ونظم البحرية الإنجليزية إلى اللغة التركية تحت إشرافه ، ثم عهد إليه محمد علي باشا أن يتولى بنفسه الإشراف على تنظيم البحرية المصرية الجديدة ، وتعليم ضباطها بالاشتراك مع الجنرال « لتليبه Letellier » ، وبهذا أصبح لعثمان بك الإشراف التام على شؤون الجيش والأسطول المصريين ، فبذل في النهضة بهما جهوداً فذة ، فلما حطم الأسطول المصري في « نفارين » كان عثمان نور الدين المساعد الأول ، والمشجع الأول — بعد محمد علي — للمسيو « سيريزي Cerizy » على إنشاء دار الصناعة والأسطول الجديد في الإسكندرية .

وكان محمد علي لثقته الشديدة بعثمان يعتمد عليه في أمور كثيرة ، وكان يحبه حباً جماً حتى كان لا يناديه إلا بقوله « ولدي عثمان » ، ولهذا زوجه من إحدى جواري القصر ، وبنى له منزلا غربي قصر رأس التين ليكون على مقربة منه ومن سفن الأسطول ، ثم ولاه في سنة ١٨٢٧ قيادة الأسطول المصري بعد زوج ابنته محرم بك ، وقد تولى عثمان قيادة هذا الأسطول في حرب الشام الأولى ، وكان لقيادته فضل كبير في إسقاط عكة ، وإحراز النصر النهائي في تلك الحرب .

هذا موجز لجهود عثمان نور الدين الحربية . وجهوده في تدعيم النهضة التعليمية الأولى لا تقل عنها ، فإنه لبث بعد إنشاء مدرسة بولاق يرسم الخطط لمحمد علي ؛ وقد نفذت هذه الخطط واحدة بعد الأخرى ، ففي سنة ١٨٢٥ قام بتأسيس مدرسة قصر العيني ، وكان أول مدير لها ، وفي نفس السنة أيضاً أنشئت مدرسة أركان الحرب في قرية « جهاد آباد » بناء على مشورته ، ولما استقدم محمد علي الدكتور « كلوت » وعهد إليه في إنشاء مدرسة الطب المصرية ، ترك لعثمان نور الدين سلطة الإشراف على إنشاء تلك المدرسة ، وإليه رفع « كلوت بك » تقريره الأول الذي عالج فيه ما قد يعترض إنشاء المدرسة من صعاب .

وإلى عثمان نور الدين يرجع الفضل في إيفاد البعثة الكبرى إلى باريس سنة ١٨٢٦ وذلك أنه اتصل في أثناء تلقيه العلم في فرنسا بالمسيو « جومار » أحد علماء الحملة الفرنسية والمشرف حينذاك على نشر جهود المعهد المصري العلمية ، فأعجب به « جومار » ثم تحدث إليه عن الوسائل التي يمكن أن تعيد الصلة العلمية بين مصر وفرنسا

قوية وثيقة ، واقترح عليه أن تفكر مصر في إيفاد بعض تلاميذها لتلقي العلم في فرنسا ، وقد حمل عثمان هذه الرغبة إلى محمد علي ، وظل يحبذها لديه حتى وافق محمد علي ، وأرسلت البعثة الكبرى سنة ١٨٢٦ ، وعهد إلى المسيو « جومار » في الإشراف عليها وعلى البعثات التي تلتها ✡ .

وهذا أيضاً موجز لجهود نور الدين العلمية ، يبين في وضوح أنه كان رجلا مثقفاً واسع المعرفة ، فهم عن سيده أغراضه ، وراح يسعى جهده لتنفيذها ، غير أنه لم يكن يقدم على مشروع من مشروعاته إلا بعد أن يقتله بحثاً ودراسة ، يقول « بزوني » في خطابه السابق إن لعثمان نور الدين « عناية خاصة باستشارة الكتب والمراجع لدراسة الموضوعات التي يوكل إليه تنفيذها » .

ولهذا تقدمت به هذه الجهود ، وهذا الإخلاص في تنفيذها ، إلى أعلى الرتب ، وأهم المراكز في الدولة ، حتى غدا ثاني رجل محبب إلى محمد علي بعد ولده إبرهيم ، وحتى أصبح بنفوذه وسلطته يشترك مع « بوغوص بك يوسف » في كونهما الرجلين الأولين في الدولة اللذين يعتمد محمد علي على جهودهما في الداخل والخارج .

وأخيراً ، وفي سنة ١٨٣٣ سافر محمد علي باشا إلى جزيرة « كريت » لتنظيم الحكم المصري بها ، وكان في معيته في تلك الرحلة عثمان باشا نور الدين « أميرال » الأسطول المصري ، وبعد عودتهما أذيعت بين الأهلين أخبار الإصلاحات الجديدة ، ومن بينها إخضاع الأهالي لنظام التجنيد الجديد ، فثار الأهلون ، وأرسل إليهم محمد علي قوة عسكرية بقيادة عثمان نور الدين لإخضاع تلك الثورة ، فأخضعها بعد أن أسر ثلاثين من زعمائها ورأى أن يأخذهم باللين ليتم له إخضاع الثورة والجزيرة ، فوعدهم بالعفو ، وأرسل إلى محمد علي يخبره بهذا الوعد ويسأله رأيه ، فلم يلتفت محمد علي لرأيه ، وأرسل يأمره بوجوب قتل هؤلاء الزعماء ، وهنا عزّ على عثمان نور الدين أن يهمل محمد علي رأيه هذا الإهمال ورأى أن يترك خدمته ، فكتب إلى « بوغوص بك » ناظر خارجية محمد علي يخبره باعتزاله خدمة الباشا ، وأنه سافر إلى وطنه الأول ، جزيرة « مدلي » .

وقد غادر عثمان نور الدين هذه الجزيرة بعد قليل إلى الإستانة حيث مات بها .

وهكذا انسحب عثمان من الميدان المصري ، والحاجة إليه ماسة ، فقد كانت

✡ نشر المسيو « جومار » تقريراً مسهباً عن هذه البعثة في Journal Asiatique ,1828 وقد لخص المغفور له الأمير عمر طوسون هذا التقرير في كتابه عن البعثات ، ص ١٢ — ٣٤ . أنظر أيضا : كلوت بك المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٥١١ .

السنوات التالية لسنة ١٨٣٣ سنوات إعداد واستعداد للنضال العنيف النهائي بين محمد علي والسلطان ، وبينه وبين الدول الأوربية ، وهنا قد نتساءل : ترى هل كان حادث كريت هو العامل الأول والأخير في انفصال عثمان نور الدين عن محمد علي ؟

يبدو لي أن هذا لم يكن العامل الأول والأخير ، بل يصح أن نقول إنه كان التكأة التي اتكأ عليها عثمان لانفصاله عن سيده في مصر ، والتجائه إلى سيده في الإستانة. أما ما هي الأسباب الحقيقية الأخرى ؟ فهذا ما لا نستطيع الجزم به ، لسكوت المراجع المعاصرة عن تبيانه ، ولكننا نستطيع أن نستنتج من بين السطور أن الدور الهام الذي لعبه عثمان نور الدين في حرب الشام الأولى دفع السلطان إلى اجتذابه إليه ، وأنه سعى إلى هذا الاجتذاب سعيه ، وثار النزاع في نفس عثمان ، وانتهى به إلى ترك مصر والذهاب إلى الإستانة . بهذا الرأي يقول أستاذنا شفيق غربال بك في مقدمته لكتاب صديقنا الدكتور إبرهيم عبده عن « تاريخ الوقائع المصرية » فقد قال : « ويرتبط إنشاء المطبعة والوقائع برجل من رجال محمد علي ، أهمله المؤرخون وهو جدير بعنايتهم ، أعني عثمان نور الدين وهو من رجال العهد الأول من النهضة المصرية ، وكان ساعد محمد علي في الطور الأول من أطوار الإصلاح ، ثم شاءت الظروف أن ينسحب عثمان نور الدين من مجال الإصلاح المحمدي العلوي ، وأن ينضم للسلطنة العثمانية ، وكأني بمحمد علي وقد جرحه هذا العقوق أو هذه الخيانة ، فأسدل الستار على عثمان ، وسقط اسمه من الأفواه وأغفله المؤرخون .

« وحياة عثمان نور الدين ونهايته تثيران ألواناً من التفكير والأحكام ، فقد توزع الرجل بين محمد علي والسلطان ، واضطرب قلبه بين هذين العاهلين ، وتحكم في ولائه السيدان ، ثم اختلف كلاهما ، فكيف يكون حال عثمان ؟ ؟ مسألة لها في الأدب وفي الأخلاق وفي التاريخ نظائر ، ولا يمكن أن يقال إن الحكم فيها نهائي . . » .

وبعد : فهذا موجز عن جهود الرجل عملا وعلماً ، أما العمل فكان ميدانه الجيش والأسطول ، وأما العلم فكان ميدانه التعليم وتأسيس المدارس ، وإيفاد البعثات ، ويتوج هذا جميعاً الترجمة ، وقد بذلت الجهود لإحصاء ما ترجم عثمان نور الدين من كتب فاعترضتني صعوبات كثيرة ، أهمها :

أولا — أن الكتب الحربية التي ترجمت في عصر محمد علي قد ضاع معظمها ، وليس فى دور كتبنا منها إلا القليل النادر ✲ .

✲ أعددت قائمة كاملة بالكتب الحربية والبحرية التي ترجمت في عصر محمد علي في كتابي تاريخ الترجمة في عصر محمد علي ، وسيطبع قريباً .

ثانياً — أن القوائم التي رصدت الكتب الحربية التي ترجمت في ذلك العصر لم تذكر فيها أسماء مؤلفيها أو مترجميها إلا في النادر جداً ، فلعله من بين هذه الكتب ما هو من ترجمة نور الدين .

والذي نستطيع أن نقرره أن الكتب التي ترجمها عثمان نور الدين كانت كلها كتباً حربية بحرية ، وأنها جميعاً ترجمت عن الفرنسية إلى لغته الأصلية التركية ، وقد عثرت منها على كتاب : « قانون نامة سفاين بحرية جهادية » طبع في بولاق سنة ١٢٤٣ ؛ وقد ذكر إسمعيل سرهنك باشا أنه ترجم « كتاب القواعد البحرية ، وآخر في السياسة البحرية ، أي قانون العقوبات »* ، ولعل الكتاب الذي ذكرناه واحد منهما .

جمال الدين الشيال



* حقائق الأخبار في معرفة دول البحار ، ج ٢ ، ص ٤٨ .

من أدب العرب

الاتحـاد

هاجت العصبية بالشام بين النزارية واليمنية في سنة ثمانين ومئة ، فقال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن أخرج أنا . فخرج جعفر وشيعه الرشيد فأصلح الشام ، وظفر بجماعة ممن سعى بالفساد ، وشرد آخرين ، حتى استقامت أمورها أحسن استقامة . وقد خطب خطبة فيهم وهي :

الحمد لله الذي لم يمنعه غناه عن الخلق من العائدة عليهم ، ولم تمنعه إساءتهم من الرحمة لهم ؛ دعاهم من طاعته لما ينجيهم ، وزادهم من معصيته عما يرديهم ، كلفهم من العمل دون طاقتهم ، وأعطاهم من النعم فوق كفايتهم ، فهم فيما حملوا مخفف عنهم ، وفيما خولوا موسع عليهم ؛ وصلى الله على محمد نبي الرحمة ، والمبعوث إلى كافة الأمة ، وعلى أهل بيته الطاهرين ، وسلم تسليما .

أما بعد ، فإني أوصيكم بالألفة ، وأحذركم الفرقة ، وآمركم بالاجتماع ، وأنهاكم عن الاختلاف ، قال الله جل وعز « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » فأمر بالجماعة في أول الآية ، ثم لم تنقض حتى نهى فيها عن الفرقة ، توكيداً للحجة ، وقطعاً للمعذرة . إن الفرقة تنشئ بينكم إحناً ، يطلب بها بعضكم بعضاً ، وإن الجماعة تعقد بينكم ذمما يحمى بها بعضكم بعضاً حتى يكون المكاثر لواحدكم كالمكاثر لجماعتكم ، فمتي يطمع عدو فيكم إذا كانت النائبة تعمكم ؟ إن غفل بعضكم حرسه بقيتكم ، وإن عزبت طائفة منكم منعها تألفكم . إنه لم يجتمع ضعفاء قط إلا قووا حتى يمتنعوا ، ولم يفترق أقوياء قط إلا ضعفوا حتى يخضعوا ؛ واجتماع الضعيفين قوة ، وافتراق القويين مهانة تمكن منهما ؛ غافل الجماعة لاتضره غفلته لكثرة من يحفظه ، ومتيقظ الفرقة لاينفعه تيقظه ، لكثرة من يطلبه ؛ وصاحب الجماعة يدرك أرشه في الخدش والشجة ، وصاحب الفرقة يذهب حقه في النفس والحرمة .

من محيط الغرب

المدرسة الرومنطيقية

نشأتها وخصائصها ومكانها بين المدارس الأدبية

للأستاذ محمد روحي فيصل بحمص سوريا

١

لا أخفي على القارئ أني منذ عامين قد ظننتني إذ انتهيت من طبع كتابي « من النقد الفرنسي » وبعثت به إلى مقبرة السوق برسم الدفن ، والقراء له مشيعون . . . أرتاح من عناء البال ، وأجلس مطمئن البدن . وقد تشابكت أصابع يدي ، وتصالبت رجلاي ، وجعلت شفتاي تصفر مرحة لاهية . ولكن شيئاً من هذا الكسل الحلو اللذيذ لم يكن ، فما راعني إلا وذهني يختلج بموضوع جليل : قصة الأدب في فرنسا .

وإنما وقعت — في أرجح الظنون — على الأدب الفرنسي خاصة ، لأنه في جملته وتفصيله أصدق صورة للأدب الذي توزعته المذاهب والتيارات ، وسحبته الحركة العنيفة في مسراه على الزمان ، فكانت « المدارس » التي تقوم على رقعة ونهج وخصائص أبرز ما يسم عصوره في ثلاثة قرون من التاريخ . وياليت رجال السياسة الاستعمارية في فرنسا لم يرضوا مرتين عن ضرب دمشق بالقنابل ، ولم يعبثوا بحقوق سوريا ولبنان في السيادة والحرية والاستقلال ، ولم يتورطوا حيال آمالها القومية المشروعة بأبشع صور العسف والختل والعقوق ، إذن لكان للأدب الفرنسي والفن الفرنسي والثقافة الفرنسية مكان أي مكان في صدور السوريين واللبنانيين . ولكنها السياسة . . . التي ترفع وتضع في هذا العصر ، عصر القوميات ، فتبيض لها وجوه وتسود وجوه ! !

٢

نظرت في الأدب العربي* يوماً ، وفي الشعر منه بوجه خاص ، وهو مظهره

---

* قصة الأدب في العالم ، فصل الأدب العربي ، تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود .

الفني الأول ، وصاحب المقام الرفيع عند العرب ، ثم استعرضت وجوه أعلامه من امرئ القيس حتى أحمد شوقي ، فعدت بهذه النتيجة : إن الأدب العربي وجداني المنزع غنائي الروح ، لم ينعتق فيه الأديب من إسار نفسه وحياته ، وما يضطرب فيهما من خلجات وأحداث . تظاهرت على إنشاء هذا الاتجاه ، وتثبيت دعائمه فردية نامية ، وكبرياء قومية وانسحاب وراء السلف ، واحتقار لآداب الأمم القديمة كاليونانية واللاتينية . فقد كان الشاعر أيام الجاهلية يتغزل ويهجو ويمدح ويرثي ويفخر ، وما زال بعد الإسلام وإلى هذه الأيام يضطرب في هـذه الأغراض الفنية ، لايتجاوزها إلى غيرها كالملاحم والمسرحيات ، إلا أن تكون هنالك خمرة في كأس أو قينة تغني أو فتى مليح . وحتى في هذه المعاني المستجدة بعض الشيء أيام العباسيين ، لم يكن المبين لينظر إليها نظرة فنية ولا موضوعية ولا واقعية ، وإنما كان ينظر إليها من خلال مزاجه وطبيعته ، أو على ضوء وجدانه وشعوره . فمن هنا كان أكثر الأدب العربي مدرسة واحدة هي المدرسة الرومنطيقية ، أو كان كما قلت مرة [١] : « لقد يدق صوته ويرهف نفسه ، فما تجحظ له عين ، ولا يدر له وريد ، كما يقول ابن الرومي في مغنيته ، ولكنه في كل حالات غنائه شخص فرد ، له أسلوب لا يتغير أو يتغير بعض الشيء ، وجرس لا يتطور أو يتطور إلى حد ما » ، وقلت فيه أيضاً : « إن ظاهرة السكون في أدبنا غريبة لدى بعض الأذهان ولكنها صحيحة ، مؤسفة عند جمهرة الباحثين ولكنها واقعة ، فلا تهنوا ولا تحزنوا ، إن الرسالة الأدبية الكبرى نحن نتممها ، ونحن نؤديها . . »

ثم نظرت في الأدب الفرنسي [٢] فإذا تقلبه على المدارس شيء يستوقف النظر ويثير الدهش .

فقد كان في القرن السابع عشر نفسانياً اجتماعياً ، أعني أن الحقيقة النفسية والحقيقة الأخلاقية كانا مناط درسه وتحليله « ولذة الإنسان — كما يقول بوسيه — في فهم الإنسان » من حيث هو كائن حي له أهواؤه وغرائزه . والإنسان الموصوف هنا ليس إنسان عصر ما ، في قطر ما ، إنما هو إنسان كل العصور وكل الأقطار ، هو الإنسانية في أعم صفاتها وعلى تعدد صورها . وهذا الأدب الذي يعنى بالحقائق العامة قد أطلقوا عليه « الأدب الكلاسيكي » ويعنون به الأدب الذي يجري على غرار الآداب

---

(١) من محاضرة « بين الأدبين : العربي والفرنسي » ألقيتها بحلب ونشرتها مجلة « الحديث » عدد أيار ١٩٤٢

(٢) Parvillez — Moncarey. La Littérature Française, P. 196 — 1191

القديمة كاليونانية واللاتينية ، والذي يمثل طبائع الناس جميعاً في حوار بين شخص وشخص . وهو أدب كما ترى غير ذاتي ولا شخصي ، يكتبه الأديب كله وهو مختبىء بآرائه وعواطفه وراء الشخوص الذين أبدعهم خياله التركيبي ثم أجرى في نفوسهم نفوس الأحياء من بني آدم .

وهنا تفريق لا بد منه بين أدباء القرن السابع عشر : فكورني يحرص على أن يرسم شعور التسامي والبطولة فيما « يجب » أن يكون عليه المرء من الحياة النفسية والعملية ، وأدبه أدب « الصراع بين الواجب والعاطفة » أو أدب « الإنسان كما ينبغي أن يكون » على حد تعبير لابرويير . وراسين يروح ويجيء خلف غيرة « ركسان »* مثلا ليدفع بقلب هذه المرأة العاشقة إلى المصير المقدر لها ولغيرها من النساء إذا أحببن في كل العصور حبّاً يعمي ويصم كما يقولون . فراسين إذن واقعي فيما يعرضله من وصف الخلائق الآدمية، وقد كان يرى في الإنسان كائناً ضعيفاً تسوقه الأهواء — بالرغم منه — إلى الغايات والأهداف . وملبير يصور الحياة هازئاً لا يعنيه إلا الضحك والإضحاك من حالها ومساوئها . ولافنتين يتخذ الحيوان شبحاً يجري على لسانه ما يحب من فنون النقد الاجتماعي ، وأفاعيل الغريزة الإنسانية . ولابروييير يصف الغني والفقير والشره وما إلى هؤلاء من « نماذج » كريمة منصوبة كالتماثيل من أيامه إلى أيامنا .

حتى إذا كان القرن الثامن عشر ، تطور الأدب من وصف « النفس » إلى وصف« المجتمع » : ينقد نظمه وعاداته وحملة الدين فيه .فقد فسدت الملكية ، واستبدت الأرستقراطية ، وساءت أحوال الشعب من الظلم والفقر والجهل . فكان لابد من أدباء يعنون بذلك كله عناية إهاجة وإصلاح ، لا عناية عرض خالص للفن . من هؤلاء الأدباء ، كان الفلاسفة الذين يؤمنون بالعقل وحده كفلتير ، ورجال الموسوعات الذين ينشرون الفكرة العلمية كديدرو ، والصحفيون الذين يرسمون الأنباء والأحداث كفريرون . وتركز هذا الأدب الاجتماعي في الصالونات التي كثر عددها كثرة رائعة بحث في ظل صواحبها الجميلات أدق مسائل الفكر ومشاكل المجتمع . وكان للثقافة الإنجليزية تأثير كبير في توجيهه إلى دراسة الأمة من كافة مقوماتها . والنتيجة المحتومة لهذه اليقظة الشعبية قيام ثورة كبرى هي الثورة الفرنسية المشهورة ، التي قررت حقوق

---

* بطلة رواية « بابازيد » ألفها راسين عام ١٦٧٢ وموضوعها النزاع بين ركسان هذه وبابازيد ، وهي تصور ما كان يدور في قصور السلاطين من آل عثمان من مؤامرات ودسائس ، ولا تخلو من اللون الشرقي الدائر يومئذ في القسطنطينية .

الإنسان من حيث هو جديرة في جسم له خطره في وضع السيادة وسن القوانين وإنشاء الدولة .

ويطل القرن التاسع عشر بعد الثورة الدامية والفتح النابليوني ، فيفزع الناس إلى نفوسهم ليتبينوا مواقع قلوبهم بين الجوانح . وكان مظهر هذا الرجوع إلى النفس شعراء وجدانيون كلامرتين وهوغو وموسيه وفيني ، تغنوا بآلامهم وأفراحهم وسائر ما يعتلج فيهم من الأحاسيس . ويطلق الباحثون على هذه الحركة الأدبية الجديدة « الحركة الرومنطيقية » ويقصدون بها تصوير العاطفة كما تتردد في النفس ، عاطفة الأديب التي تجيش في صدره هو لا في صدور الآخرين ، فلربما كان الأديب باكياً وغيره ضاحكا، كما هو الحال عند لامرتين ، أو كان متشائماً وغيره متفائلا ، كما هو الحال عند فيني أو كان عاشقاً وغيره خلي البال . فمادة الأدب الرومنطيقي حساسية الأديب وأحداث جرت له في الحياة — بخلاف الأدب الكلاسيكي الذي لا يسمح لعواطف الأديب ولا لأحداث حياته أن ترتسم فيه ظلالها كما رأيت . وسأقف عند الطريقة الرومنطيقية هذه وقفة طويلة ممعنة ، لأنها طريقة الأدب العربي ومدرسته الكبرى .

وبقي المذهب الرومنطيقي في فرنسا سائداً مرموقاً مدى عشرين عاماً « ١٨٢٠ — ١٨٤٠ » . فلما كان عام ١٨٥٠ بدت في الجو الأدبي علائم البرم من « الأنا » التي طالما مجدها الرومنطيقيون وأداروا فنونهم حولها . قال قائل[١] : « ماينبغي لأحد أن يسفر عواطفه فيما يكتب . إن الرواية التي تشف عن آراء مؤلفها لهي رواية لا تصلح إلا طعمة للنار . والكاتب ، وهو إنسان مراقب ، إذا وضع نفسه مكان شخوصه ، ففكر وعمل كما يفكرون ويعملون ، خليق أن يقال فيه إنه جاهل صناعته» . وقال آخر[٢] : « ينبغي للشاعر أن ينظر إلى الأشياء الإنسانية كما ينظر إليها إله من قمة الأولمب ، يعكس صورها في أحداقه الغائمة على نحو حيادي ثم يخلع عليها أسمى حلة من حلل البيان » . فهذا كلام يومئ إلى مذهب أدبي جديد ، هو المذهب الطبعي الواقعي ، ومناطه كما ترى الحرص على وصف الأشياء ، لا سيما الأشياء المادية ، بصورة « موضوعية » لا تلمح معها شخص الأديب أبداً . واقترنت هذه النظرة عند بعضهم بنظرات « جمالية » ، فكان مذهب « الفن للفن » كما هو الحال عند تيوفيل غوتيه وسائر « البرناسيين » ، أعني أن الفن عند هؤلاء هو غاية الغايات في الأدب ، وما عداه فتابع له في القيمة والخطورة ،

(١) مكسيم دي كمب في « ذكريات أدبية » نشرتها مجلة « العالمان » .
(٢) تيوفيل غوتيه في « تطور الشعر » .

فالأخلاق والدين والاجتماع أشياء لا شأن لها إلا بمقدار ما تمد البيان بالجرس وأصالة الألفاظ. وعلى الجملة كان همّ هؤلاء الفنانين إبداع صور من البيان الشعري الأخاذ تستمتع بها وتهش لها « حواس » الإنسان. كما اقترنت هذه النظرة — النظرة الموضوعية إلى الأشياء — عند آخرين بنظرات « علمية »، فكان « الأدب العلمي » كما هو الحال عند تين ورينان: « ولطالما افترق الفن عن العلم بسبب ما بذله العقل من الفعالية المتباينة، وآن أوان اتصالهما على نحو دقيق، إن لم يكن اتحادهما اتحاد امتزاج وتعشق »[1].
وساقت النظرات الجمالية والنظرات العلمية إلى تصوير الحياة في واقعها الجميل أو الدميم:
« إذا كان المؤرخون — كما يقول الأخوان غنكور — يقصون حكاية الماضي، فالروائيون يقصون حكاية الحاضر ».

إن كان لا بد من تأريخ النهاية لهذا المذهب الطبعي الواقعي، فإنني أقول إنه: مع عام ١٨٩٠ قد خمدت جذوته وفتر الحماس له عند عامة الأدباء وجمهرة القراء. ذلك أن جيلاً جديداً سئم « موضوعية » رجال البرناس والوقوف من دون النفس عند العالم الخارجي المادي، فتطلع إلى الكشف عن أخفى ما في ذاته من الأحاسيس، ولكنه تطلع إلى ذلك بواسطة « الرموز »، فنشأ المذهب الرمزي، وأعطى فيه رمبو ومالرمى وفرلين وريني ومرياس وكربير ولافرج وفرهارين وسامان وغيران وكردونيل وكاهن وما زاد وآخرون كثيرون أقوى النماذج الدالة عليه. وماذا يعني هؤلاء بالرمز؟ يضرب الناقد الكبير « أميل فاجيه » مثلاً على الرمز فيقول[2]: « تقرأ وصفاً لمشهد من مشاهد الطبيعة، قد قرن بحالة من حالات النفس، فلا تدري أيراد بالوصف « حالة » طبيعية أم « مشهد » نفسي! فالمشابهة واقعة بين الشيئين، شريطة أن يكون الكاتب قد « عقل » عاطفته أو « أحس » فكرته، لا أن يكون قد « ترجم » فكرته أو عاطفته ». فأنت ترى أن الرمزيه إنما تقوم على « انفعال الإحساس » قبل كل شيء، ولكنها لا تحكي هذا الانفعال حكاية أو تصفه وصفاً، وإنما تومئ إليه « وتوحي » به إيحاء خفياً. وسبيلها اصطناع الرمز وموسيقية اللفظ، وجهدها مصبوب على إيجاد « الصلة » بين الشاعر والقارئ . . .

في الرمزية كما ترى ملامح من الرومنطيقية، ولكن لا تنس أن الرومنطيقية تعتمد على العاطفة الواضحة منفوضة ببيان واضح، في حين أن الرمزية تعتمد على العاطفة المهموسة

(١) ليكنت دي ليل في « أشعار قديمة ».
(٢) Emile Faguet, sur le Symbolisme.

منفوضة ببيان إيحائي ، فذلك هو الفرق بين المذهبين ، وإن التبس عند كثير من القراء والمنتجين أيضاً ، في لبنان على الخصوص !

٣

لا أريد الآن أن أسترسل وراء قصة الأدب في فرنسا ، فإن لهذه القصة تتمة هي « المذهب المكعب » ومذاهب أخرى طريفة ومفيدة في آن واحد . وحسبي أني دللتك على « جيشان » الأدب الفرنسي في شتى عصوره ، مما لا نجد له إلا أثراً محدوداً في الأدب العربي الموسوم بسمة واحدة ، هي السمة الوجدانية الغنائية .

وليس من بد هنا ، لتستوفي صورة المذاهب الأدبية شكلها العلمي ، من إيراد ملاحظات ثلاث :

١ — لم نتعرض في كل مذهب إلا لأعم خصائصه وأظهر خطوطه ، من غير أن تكون هذه الخصائص والخطوط مع ذلك واضحة كلها عند جميع الكتاب والشعراء الذين انضووا تحت لوائه ، فربما مثل فريق منهم جانباً من الخصائص ، ومثل فريق الجانب الآخر . وإذن فما حكيناه من خصائص كل مذهب إنما هو أميال « عامة » تنطبق على « مجموع » الأدباء الذين أخذوا ، في جملتهم ، بشتى جوانبه .

٢ — لا يعني قيام مذهب ما ، في زمن ما ، خضوع كافة من عاصروه لأحكامه خضوعاً مطلقاً ، فربما خرج بعضهم عليه بكليته ، فمثل نفسه وكان موضع « الشذوذ » في القاعدة .

٣ — إن المذاهب الأدبية ليست منفرزة بعضها عن بعض في واقع الأمر ، على الشكل الذي حكيناه ، وإنما تتداخل وتستمر في سيرها بحيث لا يعني قيام أحد المذاهب موت الذي سبقه . وآية ذلك أننا نجد في مستهل القرن العشرين : الكلاسيكي إلى جانب الرومنطيقي والواقعي والرمزي ، وكلهم ينتجون بفرنسا وفاقاً للمذهب الذي يؤمنون به ، ولا نعدم الآن من يأخذ من كل مذهب بطرف !

٤

هذا الموضوع ، قصة الأدب بفرنسا ، خليق إذا كتبه كاتب بشيء من التفصيل أن يفتح الأعين العربية على آفاق جديدة . وسأكون هذا الكاتب إن شاء الله ، على الرغم من أن التبسط في ملابسات كل مذهب ، وترجمة أشهر أعلامه ، ونقل « أخص » النماذج الرائعة الدالة عليه ، قد يستهلك كتاباً ضخماً ، ولكنني أرجو أن أخلص منه إلى نتائج قيمة .

وإذا كان لكلامي خلاصة عامة ، فخلاصته أني رجل مؤمن بضرورة ترجمة المذاهب الغربية والآداب الأجنبية ، لا أتورع أن أكرس في هذا السبيل كل حياتي الأدبية ، لأن الأدب العربي لا يمكن أن ينهض على أرجل صحيحة إلا في اليوم الذي يتصل فيه بالآداب العالمية ، يأخذ عنها أو يتأثر خطاها أو يفيد من ألوانها ، وعلى الجملة يتلقح بمصلها ... هنالك نسير في ركب الإنسانية ، وندرك مكاننا من الأدب العالي ، وننتج على أساس الأصالة والإبداع . أما دوران حول أنفسنا ، وإعجاب مطلق بما نكتب ، فذلك من الجعجعة بلا طِحْن ! . . .

٥

والآن ، إلى مدرسة الأدب العربي أو المدرسة الرومنطيقية* كما وعدتك بوجه خاص ، بعد أن عرفت مكانها بين المدارس الفرنسية .

ليست التسمية فرنسية الأصل ، وإنما هي إنجليزية . أطلقها « ستندال » في كتابه « راسين وشكسبير » على نهج هذا الجيل من الأدباء الذي ظهر حوالي عام ١٨٢٠ بفرنسا . وجدد شباب الأدب بلون من الكلام الوجداني الغنائي . ولكن ستندال حددها تحديداً مبهماً لايدل على شيء ، قال : « إن الرومنطيقية هي الفن الذي يقدم للشعوب آثاراً أدبية من شأنها أن تحدث فيها أعظم لذة ممكنة » . وجاءت «مدام ستايل» فاستعملت الرومنطيقية مقابل الكلاسيكية ، وصمتت فلم تقل هي الأخرى شيئاً واضحاً ولا دقيقاً . فأما الجيل الجديد فماض في إنتاج النماذج الدالة على ما يتحسس ، وإن لم يع مذهبه وعياً عقلياً . فنشر لامرتين «تأملاته» عام ١٨٢٠ ، وفيني «أشعاره» ، وهوغو « أغانيه » عام ١٨٢٢ . ولكن هوغو هذا صرح عام ١٨٢٤ أنه لايزال يجهل معنى الشعر الكلاسيكي والشعر الرومنطيقي . على أنه يبدو من جماع الأدب الحديث أنه لايرضى عن قاعدة أرسطو « الوحدات الثلاث» ويطالب بإدخال اللون المحلي والعاطفة في الشعر. حتى إذا كان عام ١٨٢٧ اتخذت الرومنطيقية شكلا حاداً عنيفاً فأعلنت «حرية الفن» وجاهرت بالعداء للأدب الكلاسيكي . وحمل لواء الحرب الشاعر فكتور هوغو والناقد سنت بيف . وكثر الجدل بين الرومنطيقيين والكلاسيكيين ، وكانت الرومنطيقية خلال هذا الجدل الصاخب تتضح أهدافها وأساليبها . وما جاء عام ١٨٤٣ حتى كانت أسسها قد تركزت وجلبتها قد هدأت .

* Parv.—Moncarey. La littérature Française, le Romantisme P. 938 — 952

٦

ماهي العوامل التي كونت الحركة الرومنطيقية ؟

١ — أول هذه العوامل ما أشرت إليه من قبل ، وهو أن الناس بعد ما أتعبتهم مجازر الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، وطوحت بهم حروب نابليون في الدماء الأوربية ، وجدوا أنفسهم مضطربين يحيون حياة يأس ، لاتخلو مع ذلك من طموح إلى الأمجاد ، وشعور بظمأ في القلب . وكانوا كمن ينتظر الأدب المعذب بأشواق العاطفة ، الذاهب مع الأحلام وكبرياء الخيالات كل مذهب . وتلفتت هذه الأميال الجماهيرية فإذا بها ترى نفسها في أدب طائفة من العباقرة الموهوبين ،كلامرتين وهوغو وموسيه وفيني ، فهللت لهم وعملت على سيرورة أدبهم الجديد .

٢ — قلت « الجديد » . والحق أن الحركة الرومنطيقية لم تكن حركة جديدة بالمعنى التاريخي حين ظهرت واضحة في إنتاج جيل ١٨٢٠ ، فقد هبت على الأدب الفرنسي من قبل نسمات وجدانية طريفة، جاءت من جانب أدباء ثلاثة ، هم طلائع الحركة الرومنطيقية ، وروادها الذين دلوا عليها ، وهيؤوا لها التربة الصالحة للنمو والإزهار . وأول من أذكر من هؤلاء الرواد « جان جاك رسو » وكان أديب القرن الثامن عشر بشبوب عاطفته ، وخصب خياله ، وفيض رؤاه وأحلامه ، وقوة فرديته ، وحبه للطبيعة حب مجنون مستهام ، فهو كما يقول الناقد « سنت بيف » أول من وضع « الخضرة » في الأدب الفرنسي ، إلى جانب أحزانه وأشواقه واعترافاته ! وثاني الرواد « برنادان دي سنت بير » صاحب رواية « بول وفرجيني » التي تصور الحب البسيط الحالم توشيه روائع الماء والسماء والأرض الفيحاء ، والتي تغمر طفولة البطلين الصغيرين بكثير من الطراءة والشاعرية والجمال . أما ثالث الرواد فشاتوبريان الوصافة لأدق هواجس النفس ومناظر الطبيعة ، ومبدع « مرض العصر » أوروح الحزن والكآبة . قال فيه أحد النقاد : لم يكن لامرتين إلا شاتوبريان منظوماً شعراً . . .

٣ — أثر الأدب الإنجليزي ، من ناحيته ، في ظهور الحركة الرومنطيقية ، أثراً كبيراً . فقد صفق الباريزيون كثيراً لهملت وعطيل وروميو وتاجر البندقية ، ثم أعلن هوغو في مقدمة « كرمويل » أن شكسبير أكبر عبقرية أدبية في العصور الحديثة . وكان « بيرون » بطراز حياته ولون آثاره أقوى من ساهم في وضع نموذج للبطل الرومنطيقي : « الرجل المكتئب الجبري »✡ .

✡ E. Faguet. Etudes Littéraires. 19 siècle. P. 262

٤ — أما تأثير الأدب الألماني فواضح من طريق غوتي وشيلر . ولعل قصة «فرتر» بماتضم من آلام الحب المبرح هي التي سيطرت طويلا على نفسية لامرتين وموسيه وفيني . ويجيء بعدها في ذلك « فوست » وإن لم يكن حظها من الفهم والتأثير كحظ أختها . وبرز أثر شيلر في الدرامة الرومنطيقية بوجه خاص .

٥ — ولم يخل الأدبان الإيطالى والإسباني من بعض العمل في تكوين الرومنطيقية الفرنسية . أما الشرق فقد أثر بجمال طبيعته وبما يوحيه الشرق عادة إلى نفوس الغربيين من طرافة « السر » المحجوب . وهذا ظاهر عند شاتوبريان الذي زار القدس ، وعند لامرتين الذي زار بيروت وفجع فيها بابنته ثم كتب «رحلة إلى الشرق»

٧

تلك هي جملة العوامل والظروف التي لابست ظهور المذهب الرومنطيقي ، كما وردت في « تاريخ الأدب الفرنسي » لبرفي ومنكاري . والباحث يستطيع أن يستخلص منها أن الرومنطيقية ليست حركة فرنسية خالصة ، وإنما هي حركة أوربية عامة ☆ ، أو قل إنسانية محضة .

ولكن المذهب نفسه ، ماهو ؟ ما خصائصه على التحقيق ؟ لعلك لمست مما قدمت لك كثيراً من هذه الخصائص . فلنستعرضها الآن معاً على نحو منسق مختار :

وأول مانستعرض منها أن المذهب الرومنطيقي وجداني مئة بالمئة ، قوامه «عاطفة» الأديب نفسه مسرودة بصيغة المتكلم أو من طريق بطل الرواية . فالرومنطيقيون مافتئوا يهزون قلوبهم التى بين جوانحهم ، لأنها مصدر العبقرية كما يقول ألفرد دي موسيه ، ولأن الفن لايصنع إلا كلاما موزوناً ، فأما الشاعر فهو القلب وحده كما يقول أندره شينيه . والحق أن الفن ليس أكثر من صناعة الكلام ، وهو ككل صناعة يحتاج إلى مادة يعرضها مصقولة الحواشي ، منسقة اللفظ ، ومادة الفن عند الرومنطيقيين عاطفة وخيال ، على أن القلب يحتاج هو الآخر إلى صناعة الفن ، وإلا كانت الأمهات جميعاً حين يتحدثن عن أولادهن شواعر كالبحتري وشوقى ! ومهما يكن من أمر الفن فالقلب هو الأصل الذي يصدر عنه كل شيء ، وآية ذلك أن الشعر مبثوث في آثار الكتاب الناثرين الذين تضطرب صدورهم بالإحساس المشبوب والعاطفة العميقة . فهذا شاتوبريان الكاتب يقول . « يكفيني لأحلم شيء ضئيل : ورقة يابسة تطاردها الريح أمامي ، أو كوخ

☆ Daniel Marnet. Histoire Générale de la Litt. Fr. P. 182

يتصاعد منه الدخان إلى قمة الأشجار العارية ، أو صخرة مطروحة على الأرض ، أو مستنقع قاحل تتمايل على سطحه قصبة فارغة ذابلة » . وإذن يستطيع الأديب أن يكون شاعراً وإن لم ينظم بيتاً من الشعر ، وهذا يعني أن الشعر شيء غير النظم ، وغير الكلام الموزون ، مقفى كان أو مرسلا . والنظم يكفيه الفن ، ولكن الشعر لا ينهض به إلا القلب[1] :

والشعر إن لم يكن ذكرى وعاطفة أو حكمة فهو تقطيع وأوزان

والخاصة الثانية من خصائص المذهب الرومنطيقي هي صب « الخيال » على مشاهد الطبيعة ومعالم الشعوب وعادات الماضي . والخيال إذا كان خصباً مولداً هام بالصور الحسية والموصوفات الفخمة . ويقول الناقد أميل فاجيه : « لئن كان قوام الشاعر عاطفة وخيالاً ، إن واحدة من هاتين الملكتين كافية إذا كانت مستملحة أو قوية . على أن اجتماعهما معاً خليق أن ينتج أروع الآثار الشعرية ، فإلى الصفة المميزة لكل منهما ، وإلى نسبة الاتحاد بينهما ، يعود طابع الشاعر وأصالته المبدعة وشخصيته الفنية »[2] . والأدب الوجداني ، لئن كان موضوعه المعاني الشعورية ، إنه يتناول أيضاً الكشف عن المعاني المادية ، والطبيعة بشتى مجالاتها الجمالية ، من نبات وحيوان ، وأرض وسماء ، مصدر إيحاء خصب للذين أحبوها واستجابوا لدواعيها ، وهي في القصة على الخصوص إطار أخضر تجول في حدوده الأحاسيس الآدمية لتختلط معه اختلاط تجاوب ومشاركة . والوجدانيون جميعاً نظروا إلى الطبيعة على أنها « كائن حي » ينبض بالحياة ، لا جماع أشياء ميتة خلت من الحس واستوحش في حضرتها الجالسون ، فما أروع « أزاهير الأقحوان وسط حقول القمح » وما أجمل « شعاع الشمس يسطع في الماء » ، ولشد ما تأخذنا الغبطة « إذ نحلم وحدنا ونحن مستلقون على ظهورنا في مركب صغير ينساب مع الموج هادئاً نحو الشاطئ »[3] .

أما الخاصة الثالثة فناشئة من الخاصتين السالفتين ، وهي أنه لما كانت الرومنطيقية لحمتها العاطفة وسداها الخيال ، فمن الطبيعي أن تكون « غنائية » ، وأعني أن تكون « محمولة على البوح بأشد حالات النفس انفعالا » . وتعليل ذلك هين ، فالمرء إذا كان يتميز من غيره بشيء فإنما يتميز بطبيعة عاطفته ولون إحساسه ، وهو لن يقوى على الدلالة على هذا الامتياز إلا بالحديث عن نفسه . والمتفوق بعقله وتفكيره يجد السبيل إلى إظهار

---

(١) Fleury. Compositions Littéraires, CH. XCIII

(٢) E. Faguet. Etudes Littéraires, 19 siècle. P. 43

(٣) Fleury. Compositions Littéraires, CH. LXII

تفوقه بالكشف عن خواطره وآرائه التي ربما كان موضوعها أشياء شتى خارجة عن ذاته ولكن الانفعالات النفسية ، وهي شيء يتصل بصميم الإنسان ، لا يمكن تصويرها إلا بتصوير أمجاد النفس ومواضع القوة فيها ، فالعاشق يحب أن يرسم حركات عاطفته ، والحالم المتخيل يعجب بألاعيب خياله فيراقبه مراقبة شديدة . والرجلان كما ترى لا يخرجان من إطار ذاتيهما على كل حال ، وذلك على الضبط شأن جميع الوجدانيين ، فهم « يتغنون » بأحاسيسهم حيال الطبيعة ، والموت ، والحب . . . وهم يتغنون بها على نحو شامل ، بحيث يجد كل قارىء فيها متعة ولذة .

من هنا أطلقوا على الأدب الرومنطيقي بالعربية «الأدب الغنائي » ، كما أطلقوا عليه « الأدب الوجداني » والتسميتان صحيحتان ، لأنه وجداني غنائي معاً .

وإنما كان الأدب الوجداني غنائياً ، لأنه يصلح للغناء الخالص في أكثر الأحيان ، لا سيما إذا كان شعراً :

يكاد إذا هو غنى الورى ... بقافية ، ينطق القافيه
وتحكم في النفس أوتاره ... على العود مطربة حاكيه

ويقول فكتور هوغو : « العبقرية عبقريتان : عبقرية غنائية تصور نفسها ، وعبقرية تمثيلية تصور غيرها » . والتفريق بين الغناء والتمثيل على هذا النحو صحيح إلي حد بعيد ، فالغنائية مظهر الفردية كما يقول الناقد « برنتيير » ، وهي تصف هذا « الحلم الداخلى » الذي يتردد في أحناء الصدر ، ولا يستطيع الشاعر الغنائي إلا أن يدور حول نفسه فيما يغني ، فهو يطرح كل شيء مما يحفه فى دنيا العتمة ليلقى الضوء ساطعاً على اهتزازات نفسه إزاء الأحداث ، وما يهمه انحراف الأشياء عن حقائقها ما دام يمثلها لنا من خلال «موشور» إحساسه وحسبانه ... فأما العبقرية التمثيلية فلا تستطيع إلا أن تصور الآخرين ، لأن الأديب المسرحي مضطر إلى خلق « الشخوص » وإلى خلقهم بخلائق فارقة غير متشابهة . ولو لم يفعل ذلك لجاء أبطال روايته على نحو رتيب ، ولكان شأن القراء معهم شأن من يزور مدينة كبرى كلندن مثلا ، تعج بالناس من كل صوب ، فلا يرى إلا « روبنسون » وحده يحيا في طول الجزيرة وعرضها ✡ .

وخاصة رابعة من خصائص المذهب الرومنطيقي ، هي انطواؤه على روح التمرد والكره للأوضاع القائمة والسنن الجارية ، وهذا طبيعي من أناس يقيمون وزناً لأنفسهم ويحترمون شعورهم ، فكل ما يحول دونها من حواجز المجتمع يستثيرهم إلى الثورة عليه .

✡ المصدر المذكور CH. LXIV .

و «الأنا» إذا لم تر إلا نفسها في هذا الوجود صعب عليها أن تنقاد لما تواضع عليه العرف والقانون . . .

٨

وبعد، فما قيمة الأدب الرومنطيقي ؟

لقد كتب بعضهم* إلى لامرتين ينعى عليه أدبه الباكي فقال : « أيها البكّاء ، يا من يعذب نفسه بنفسه ، أنت تشبه ورقة صفراء ذابلة ، وماذا يعنيني أنا من بكاك وأساك وبؤسك ؟ لتمت أيها الشاعر المحتضر ، فلست أول من يموت على هذا النحو » . ولكن الشاعر لم يهمل الإشارة إلى الشكوى في مقدمة تأملاته ، فقال: «يتبرم بعضهم من الكتاب الذين يرددون : نحن ، نحن ، ثم يتساءلون : لماذا لا تتحدثون عنا نحن معشر القراء؟ ». وأجاب على الشكوى فكتور هوغو فقال : « واحسرتاه لكم أيها اللائمون . أنا إذ أتحدث إليكم عن نفسي إنما أتحدث إليكم عن أنفسكم أيضاً . ومن قال لكم ، يا من سلبتم الفهم والشعور ، أني لست إياكم ؟ » .

الواقع أن الأدباء الوجدانيين لا يتحدثون إلا عن أنفسهم ، ولكنهم لا يعدمون قراء كثيرين يلامسون فيهم أوتاراً تحبهم وتهزهم وتتغني بما يتغنون . والناس يتشابهون في عواطفهم ، وإن اختلفوا في عقولهم ، لأن الفكر الإنساني تطور على الزمان ،وتبدلت طرائقه في فهم الأشياء ، ولكن العاطفة بقيت حيث كانت عند إنسان الغاب وإنسان الكهف لم تتطور ولم تتبدل . فأفاعيل الحب واهتزازات القلب على العموم ما تزال على حقيقتها الأولى ، وإن اصطبغت بألوان العصر ودواعي الأحداث . والأدب الوجداني مداره العاطفة الخالدة ، فلا بد أن يجد الذين يقفون عند صفحاته الغنائية « صوراً من أنفسهم تشع وسط هذا الماء العميق الحزين الذي تراكم رويداً رويداً في مستقر إحدى النفوس » .

ربما لم يلامس أدب الأديب وتراً في نفسك ، كأن تكون أنت باكياً أو متشائماً أو حالماً ، ولكن هذا لايعني أنه لايلامس أوتاراً في نفس غيرك ، فأحوال الناس شتى وقلوبهم عجيبة .

محمد روحي فيصل

---

* المصدر المذكور CH. LIX .

ذهول

للمخبل القيني*

خليليَّ قد قِسْتُ الأمورَ ورُضتُها ... بنفسي وبالفتيانِ كلَّ زمانِ

فلم أخفِ سوءًا للصديقِ ولم أجدْ ... خليًّا ولا ذا البثِّ يستويانِ

من الناس إنسانان ديني عليهما ... مليَّانِ لو شاءا لقد قضياني

خليليَّ أمَّا أمُّ عمروٍ فمنهما ... وأمَّا عن الأخرى فلا تسَلاني

بلينا بهجرانٍ ولم أرَ مثلنا ... من الناسِ إنسانين يهتجرانِ

أشدَّ مصافاةً وأبعد من قِلًى ... وأعصى لواشٍ حين يكتفيانِ

تحدَّثَ طَرْفانا بما في صدورِنا ... إذا استعجمتْ بالمنطقِ الشَّفتَانِ

فواللهِ ما أدري أكلُّ ذوي الهوى ... على ما بنا أو نحن مبتلَيانِ

فلا تعجبا مما بيَ اليومَ من هوًى ... ففي كلِّ يومٍ مثلُ ما تريانِ

وكنَّا كريمي معشرٍ ضمَّ بيننا ... هوى فحفظناهُ بحسْنِ صيانِ

سلاه بأم العمر من هي إذ بدَا ... به سَقمٌ جمٌّ وطولُ ضمانِ

فما زادَنا بُعْـدُ المدى نقض مرةٍ ... ولا رَجَعا من علمنا ببيانِ

خليليَّ لا واللهِ ما ليَ بالذي ... تريدانِ من هجرِ الحبيبِ يدانِ

ولا ليَ بالبَيْنِ اعتلاءٌ إذا نأتْ ... كما أنتما بالبَيْنِ معتليانِ

* شاعر حجازي إسلامي أحد المتيمين المشهورين بالعشق .

وحي العزلة

إلى السيدة أمينة السعيد
للأستاذ خليل مطران بك

وحيُكِ يا سيّدتي أمينه ۞ جاءَ من الهدى بما تبغينَه
في مَثَلٍ حيٍّ تخلّدينه ۞ يُثيرُ شَجْوَ الأنفسِ الرزينه
ويستدِرُّ الأدمُعَ السخينه

* * *

كانت بُنَيَّتي أسْرةً مِسكينه ۞ مجيدةً مُرهَقةً حزينه
أخلاقُها قويمةٌ مكينه ۞ لكنها لم تعرفِ السكينه
ولا رضاً كانتْ به قمينَه ۞ نبوغُها كما تُصَوِّرينه
شَذَّ بها فَحَطَّمَ السفينه ۞ وَصَفتِها صادقةً أمينه
في قِصَّةٍ مُحْكمَةٍ رَصينه ۞ لُغَتُها فصيحةٌ مُبينَه
حِكْمَتُها واعِظةٌ مَتينه

* * *

وتلك يا سيّدتي أمينه ۞ مَأثُرةٌ جديدةٌ ثمينه
مما على الأيامِ تبذلينَه ۞ لمصرَ من جُهدٍ فما تألينَه
وفخرُ مِصرَ أنها مَدينَه ۞ بما تقولينَ وتفعلينه
وتُبدِعينَهُ وَتنقُلينَه ۞ لنهضةِ الشَّعبِ الذي تهوينَه

* * *

بيّنْتِ للقرية والمدينه ما بهما من قُدْرةٍ كمينه

إنْ جُليت كنوزُها الدفينه ليس النساء صُوَرًا للزينه

هُنَّ القُوى المُسعِفةُ المُعينه ما أنجحَ الشأنَ الذي يَلينه

ما أصلحَ النشءَ الذي يَبنينه أحسنت يا سيّدتي أمينه

خليل مطران

زهرة المجندات

للأستاذ علي الجندي

تَسلَّيْتُ عن «ليلى» وأقصرتُ عن «هندِ» بمقدودةٍ[1] قادت فؤادي إلى الوجدِ

تمير الهوى قلبَ الخليِّ من الهوى ولو أنه من معدِن الحجر الصَّلْدِ

تميس بخُوطٍ ناعمٍ تحت هالةٍ تبلَّجَ من أقطارها قمرُ السعدِ

إذا اهتزَّ عِطفاها تنسَّمتَ منهما — على هجرها للطِّيبِ — رائحةَ النَّدِّ

نماها إلى «التأميز» شَعرٌ مُعصفرٌ يَنوس[2] على خدَّيْن في صِبغة الوَرْدِ

وزُرقةُ طَرْفٍ هاتكاتٍ سِهامُه على مُهَج الأبطال مُحْكمةَ السَّرْدِ[3]

يُجيل[4] فنونَ السحر بين مَحاجرٍ[5] يَجور بها ذو الرُّشْد عن منهج الرُّشْدِ

ويَسقي بخمرٍ دونها خمرُ «بابلٍ» تزيد غليلَ الشوق وقْدًا على وَقْدِ

(١) حسنة القد (٢) يتذبذب (٣) الدرع المتينة الحلقات

(٤) الضمير للطرف المتقدم (٥) جمع محجر كمجلس، وهو من العين ما بدا من النقاب

لقد زادها حسناً على الحسن أنها فتاةُ وغًى تختال في شِكَّة[1] الجُندِ
مُجنَّدةٌ للحرب ، عُدَّةُ مثلِها — إذا اشتجرتْ سُمْرُ القنا — أسمرُ القدِّ
وسيفُ لحاظٍ فاتكٌ غيرَ مُغْمَدٍ ويزداد فتكا وهْو في ذِمّة الغِمدِ
عَجِبْتُ لها « غرْبيّةً » وعيونُها تُجرِّد من أجفانها مُرْهَفَ « الهِندِ »
بدتْ عاطلًا من كلّ حَلْيٍ وزينةٍ سوى اللؤلؤ المنظوم في المَبْسِم البَرْدِ
وكافورتَيْ نَهْدٍ على لوح فضّةٍ على فَنَنٍ غضّ على كِفلٍ نَهْدِ
وما حاجة الحسناء في رَيِّق[2] الصِّبا إلى ذهب القُرْطَيْن أو جوْهر العِقدِ
مَفاتنُ أبْدَتها — وكانتْ خفيّةً — فلِلّه ما تُخْفِي من الحسن أو تُبْدي
جلاها لنا التجنيدُ في زيِّ فارسٍ صَيودٍ على العِلّات للفارس النّجْدِ
إذا نطقتْ « بالضّادِ » أطربَ لفظُها — وإن خانه الإعرابُ — منْ حَلّ في نجْدِ
تجمْجِمه[3] كالطفل قلّدَ ظِئْرَه[4] وتعذُبُ في أسماعنا لغةُ المهْدِ
تقول: أُحِبّ الشِّعرَ. قلتُ: ومُغرَمٌ بك الشِّعرُ يَسْتعْدِي[5] عليك ومن يُعْدي؟!
« كُثَيِّرُهُ » تحت الجوى و« جَميلُهُ »[6] يُحَيِّي الجمالَ الفرْدَ في رِئْمِهِ[7] الفرْدِ

* * *

أبنتَ الوغى يَفديكِ في حَوْمة الوغى بنوها، ويَسمو قَدْرُ حسنِك أن تَفْدي

---

(١) الشكة : السلاح (٢) أوله كالرّوْق (٣) الجمجمة : عدم إبانة الكلام (٤) المرضع لغير ولدها (٥) الاستعداء : طلب النصرة : تقول : استعديت الأمير على الظالم فأعداني أي طلبت نصرته فنصرني (٦) جميل بثينة وراويته كثير عزة شاعران معروفان يمثلان المدرسة العذرية في الغزل (٧) الرئم والريم : الظبي الخالص البياض يسكن الرمل وجمعه آرام وأرآم

تُرَى كيف بات «الخِدْرُ» غاباً مُؤَشَّباً ... وكيف اكتست «غِزلانُه» لِبْدَةَ الأُسْدِ ؟

ومن نقل البيضَ الدُّمَى عن طباعها ... فباتت تُديرُ السُّمَّ ساقيةُ الشُّهدِ ؟ !

لنا الويلُ من عصرٍ به استأسَدَ المها ... وحالت سَيالاً[1] دامياً قضُبُ الرَّنْدِ

أيَقْتُلْنَنا في السِّلم دونَ تعمُّدٍ ... ويقْتلننا يوم الهياج[2] على عَمْدِ ؟ !

* * *

«أبنتَ الوغى» بيني وبينك موثقٌ ... وعهدٌ، ومثلي مَنْ يدوم على العهد[3]

حنانَك مالي كلما جئت خاطباً ... وصالَكِ لم أظفرْ بشيءٍ سوى الصدّ

أأرجع من حبٍّ لبستُ به الضّنى ... وبرَّحَ بي تبريحُه عاثرَ الجَدّ

فرأسي على صدري من الهمّ والأسى ... وكفّي على قلبي، ودمعي على خدّي

أما آنَ أنْ ترثي لمُضْنًى متيّمٍ ... يسرّك منه الحبُّ في القُرْب والبعد

أخو صبْوة «عُذْرِيّةٍ» لا تشوبها ... قذاةٌ إذا بات الهوى كَدِرَ الوِرْد

معاذَ الهوى ما جئت بابَك أقتضي ... ديونَ الهوى بل جئت بابك أستجدي

أنزّه نفسي أن تَمُنَّ صنيعةً ... على الحبّ، إنّ المنّ من شيمة الوغد

هو الحبّ في شرع العلا توءمُ النّدى ... وما منهما إلّا علاً قدرُه عندي

وعدتِ بوصلٍ منك يشفي من الجوى ... فمالي أرى «عرقوبَ» نام عن الوعد

وماطمعي في وصل حسناءَ، وصلُها ... أُصارع عنه مخلبَ «الأسد الورد»

علي الجندي

---

(١) شجر شائك وهو شجر الخلاف بلغة اليمن

(٢) الحرب

(٣) في هذه المقطوعة إشارات لا تخفى على الأريب

النجم الغارب

للأستاذ إبرهيم الوائلي ببغداد

لا تسلني عن حياتي إنّها طيف أوهامٍ توارى وذهبْ
وأماني النفسِ في ظل الصبا قد خبتْ مني كما يخبو اللهبْ

***

جفت الكأسُ ولكن في يدي أثرٌ منها نديٌّ العبَقِ
وبجفنيَّ لهاتيك الرؤى ذكرياتٌ كبقايا الشَّفَقِ
إيه يا فجرُ ابْتَسِمْ ثانيةً فلقد تهت بدنيا الغَسَقِ
خفق النجمُ ولولا وحشةٌ من خيالات الدجى لم يخفقِ

***

لا تسلني . ربما تذكي الأسى صورة مرّتْ مع الأمس البعيدْ
كلما حاولتُ أن أمحوَها من شغافِ القلب عادتْ من جديدْ
في الصبا الحالم آمالٌ تموتْ مثلما تذهب أكوامُ الجليدْ
ونشيد كان مرنان الصّدى عاد كالهمسة في ثغر الوليدْ

***

لا تسلني فلقد مرّ الضحى معجلَ الخطْو وخفَّتْ قدماهْ
وذوى الزنبق ريَّان وكم عطّر الأفق بأنفاس شذاهْ
وعلى الدّوحة طير غردٌ هجر اللحن وأغفت مقلتاهْ
يا لقلبٍ كان رفّاف المنى عصف اليأسُ فألوى بمناهْ

* * *

ما لهاتيك الرُّبى قد عريتْ من سنا الزهرِ وأنفاس العبيرْ ؟
ما لأوراقِ الغصون انتثرتْ وخلا الروض من الورد النضيرْ ؟
ما لذاك النهر في روعتهِ بات لا يعرف ألحان الخريرْ ؟
يالأحـلامٍ عذابٍ هدأت مثلما تهدأ أمواجُ الغـديرْ

* * *

لا تسلني عن ترانيمي التي كنتُ أمليها وألحاني العذابْ
وخيـال كلـما راودتُهُ في مجال الشعر لبَّى وأجابْ
تلك أيامٌ قصارٌ سلفتْ وحياةٌ طويتْ خلف الضبابْ
وإذا النجم توارى غائباً لا تقولوا : أين ذاك النجم غابْ ؟

* * *

كنتُ بالأمس أناجي حُلُـماً ناعمَ المأتى رقيقَ الخطواتْ
وأغنّي كل آنٍ قطعاً من نشيد عبقريٍّ النغماتْ
يالقيثارٍ تلاشى في يدي ولعـودٍ حطمتـه النكباتْ
وإذا ما اللحن في العود اختفى لا تقولوا لِمَ ذاك اللحن ماتْ ؟

* * *

كنتُ بالأمس مع الطير ضحى نتناغى في حقول ومروجْ
وبجفنيّ رُؤًى عالقـةٌ كالندّى العـذبِ وأطياف تموج
فإذا بي مثل صبٍّ راح في مقفر الآثار يسعى ويعوجْ
كلما اجَّ برسم لم يجبْ منـه إلا بصدى الصوتِ اللجوجْ

* * *

كم غرستُ الشعر أسقي نبتَهُ بدم القلبِ كما تسقى الغصون
حاسباً أني سأجني ثمرا من جهودي فإذا الغرس شجون
لا تسلني بعد هـذا ما الذي كان بالأمس وماذا سيكون ؟
هان من عيشيَ شطر وكذا ما سيأتي فهو كالماضي يهون

* * *

عَبثاً يحلم في نجوى المنى شاعرٌ ضاق به رحبُ الفضاء
فبلوغُ القصد في عرف النهى — للأديب الحر — والنجم سواء
ليس عيش العبقريين وإنْ غمروا الدهر سوى محضِ شقاء
ضيَّع الجيل بنيه ومضى يحصد الشوكَ ويجتر الغُثاء

* * *

أوَ بعد النغمة الأولى وما مرّ من عيشيَ في ظل الشباب
حيثُ لا الأنفاسُ تذكو حُرقاً بين جنبيّ ولا القلبُ مذاب
أبصر الآن وجودي فإذا كلٌّ ما حوليَ قفرٌ وسَراب
وكهوف لم يكن فيها سوى زُمَرِ الوحش وقطعان الذئاب

* * *

يا نظامَ الكون رفقاً فلقدْ بلي الكون وما يبلى النظامْ
أغدٌ غامضة أسرارهُ ومصيرٌ كلٌّ ما فيه خصامْ ؟
أم وراء الليل فجرٌ باسمٌ ينبت النور ويجتث الظلام ؟
نسي التاريخ أنّا معشرٌ نعشق الصفو ونشتاق السلامْ

إبراهيم الوائلي

ثغـر

للأستاذ محمد فهمي

جمال الثغر يا ويحي   من الإشراق كاللَّمحِ !
أرى الأسنان كاللؤلـ   ـؤ إذْ أسفر في صُبحِ
بها السر الذي ينسا   ب للأعماق من رُوحي
بها السحر الذي يُضفي   على المسفوح من جُرحي.

* * *

منَ الفجر الذي بالثغـ   ـر قد أشرق... أستوْحِي
من الزهر الذي فتَّـ   ـح من شفتيْك كالبَوْحِ
من الدُّر الذي فجَّـ   ـر للأضواء والنَّفحِ !

* * *

هنا الفتنة كالإعصا   رِ جبَّاراً بلا صَفحِ
هنا السحرُ الذي يبعـ   ـث الأموات في مَرْحِ
هنا البلسم لَوْ توفين   يا حسناء بالمنْحِ
لقلبٍ هائمٍ حَـيْرا   نَ في الدنيا على لمحِ
يُرى بالحُسْن مطعوناً   ويا كم سيم من ذَبْحِ !

محمد فهمي

في كفة الميزان

ننشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته ، نزولا عند حرية الرأي تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة .

النَقـْدُ

العقل في الإسلام

تأليف الدكتور كريم عزقول
١٨٠ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة صادر . بيروت ١٩٤٦
نقد الأستاذ عباس محمود العقاد

تحكيم العقل واجب أمر به القرآن الكريم في عشرات الآيات . فليس أكثر فيه من الآيات التي تحث على التعقل والتفكر وتنحي باللائمة على من يهملون العقل والتفكير ، وليس التفكير مقصوراً على موضوع دون موضوع في أوامر القرآن الكريم . فالإنسان مطالب بأن يتفكر في نفسه « أو لم يتفكروا في أنفسهم » ... وأن يتفكر في الكون كله : « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » وأن يعرف المعبود الحق بفكره : « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » وأن يجيل نظره فيما يحيط به من المشاهد والأسرار : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » . . و « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

والحكمة صفة من صفات الله « الحكيم » التي كررها القرآن في شتى المواضع . فكل ما في الكون فإنما يجري على مقتضى الحكمة الإلهية ولا يخالف العقل السرمدي أو ينقضه في عمل من الأعمال ، وإن قصرت عن إدراك كنهه عقول الآدميين .

فليس بالمسلم من يقضي بتعطيل العقل وينهى عن التفكير ، لأن الإنسان ينكر العقل ليؤمن بالنص الذي لا اجتهاد فيه ، والنص هنا صريح متواتر في وجوب النظر

والتفكير وإطلاق هذا الوجوب على مسائل التصديق بوجود الإله ومسائل العلم بمخلوقاته والتدبر في أوامره ونواهيه .

وغاية الأمر فيمن تكلم بشيء في إنكار حكم العقل أنه يؤمن بعقل أكبر من العقل الإنساني ، ويأبى أن يجعل هذا العقل قسطاساً للعقل السرمدي المحيط بالإنسان وبسائر المخلوقات . فلابد للعقل الإنساني من حد يقف عنده ويلجأ فيه إلى التسليم ، وليس هذا مناقضاً للعقل الإنساني في أساسه ، ولا هو من قبيل الكفر بدين العقل والقضاء ببطلانه . لأن العقل الإنساني نفسه يعلم أنه محدود ، ويعلم أن المحدود لا يحيط بما ليست له حدود . فهو يقضي بالعقل حين يقضي بأن العقل مضطر إلى التسليم في بعض الأمور .

وقد أثرت عن بعض المتكلمين أقوال يخيل إلى الناظر فيها لأول وهلة أنها أقوال قوم ينكرون العقل ويبطلون أحكامه ولا يعولون عليه في شيء من الأشياء . ومن أمثلة ذلك سؤال من يسأل : هل تتعلق قدرة الله بالمستحيل ؟ فإن الفلاسفة يقولون إن المستحيل ممتنع في العقول ، وبعض المتكلمين يقولون إن قدرة الله تتعلق بالمستحيل . فهل معنى ذلك أنهم ينقضون العقل ويحكمون بإلغائه وإلغاء كل مايقتضيه ؟ كلا .. بل هم يرجعون في ذلك إلى قضية عقلية يسلمها من يدينون بالتفكير وإن كانوا من غير المتكلمين ، لأنهم يقولون إن الله الذي خلق لنا هذا العقل قادر على أن يخلق لنا عقلاً آخر يخالفه في تقدير الاستحالة والإمكان ، وقادر على أن يرفع العقل الإنساني درجة في مراتب الإدراك فيرى بعيني الإلهام الإلهي ما ليس يراه بغير ذلك الإلهام ، فهم يبنون رأيهم على «قضية منطقية» ويبطلون العقل بعقل أصح منه وأقدر على الإدراك ، وليس هذا شأن من يسقط العقل جملة واحدة من الحساب .

فالعقل أصل من أصول الإيمان في الإسلام لا شك فيه ، وكل ما هنالك أن العقل عند المسلم وغير المسلم له حدود ينتهي إليها ، وأن علماء المسلمين وحكماءهم يختلفون في رسم الأمد الذي تنتهي إليه تلك الحدود .

هذا الموضوع الدقيق هو الموضوع الذي يدور عليه كتاب « العقل في الإسلام » من تأليف الباحث الفاضل الدكتور كريم عزقول ، وربما صح أن يقال في العنوان إنه كتاب عن العقل عند « الغزالي » ، لأنه هو في الواقع كذلك بعد التمهيد الضروري لهذا الموضوع ، وقد قال المؤلف الفاضل في مقدمته : إن « الصدق في تصوير آراء الغزالي والأمانة في نقل أفكاره والضبط والدقة في عرضها بعد محاولة فهمها على حقيقتها ، فهماً موضوعياً مجرداً خالياً من كل غرض ، متحرراً من كل فكرة سابقة ،

هو جل ما توخيته من هذه الدراسة ، تاركاً لمناسبات أخرى أمر قدر تلك الآراء والحكم عليها ، مكتفياً ههنا بالقيام بهذا القسط المعين من واجبي الحضاري البشري والإنساني والقومي ، وهو تعريف القارئ العربي إلى أهم ناحية فكرية في الحضارة الإسلامية كما عكسها دماغ أكبر مفكر في الإسلام » .

ويشهد من قرأ الكتاب أن المؤلف الفاضل قد أحسن الاختيار ، لأن الغزالي ولا ريب أكبر نموذج للفكر الإسلامي ، يرجع إليه في تبيان موقف الإسلام من العقل والتفكير، وأنه قد بر غاية البر بوعده في صدر كتابه ، فكان أميناً نزيهاً مخلصاً في صدق العرض وصحة البحث عن حقائق الموضوع في مراجعها الكثيرة ، فأجمل في كتابه كل ما يلزم أن يقال عن عناصر هذه المسألة ، ووضع العقل في موضعه الصحيح من فلسفة الإمام العظيم أو مجموعة آرائه ومحصل تفكيره .

وخلاصة القول في هذا البحث أن الغزالي يؤمن بالعقل ويقيس عليه المعارف والمعلومات ، ولا يستثنى باباً من أبواب المعرفة من هذا القياس أو هذا الميزان ، فيقول : « لا أدعي أني أزن بها — أي بموازين النظر — المعارف الدينية فقط ، بل أزن بها العلوم الحسابية والهندسية والطبيعية والكلامية وكل علم حقيقي غير وضعي ، فإني أميز حقه عن باطله بهذه الموازين » . . ويقول في موضع آخر : « وزنت بها جميع المعارف الإلهية ، بل أحوال المعاد وعذاب القبر وعذاب أهل الفجور وثواب أهل الطاعة .، »

نعم إن الغزالي شك في العقل حيناً فتساءل على لسان المحسوسات وهي تخاطب الباحث عن الحقيقة : بم تأمن ألا تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقاً بي فجاء حاكم العقل فكذبني ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ؟ »

ولكن الغزالي لم يستقر على هذا الشك طويلا ، بل خرج منه واعتبر أن إبطال العقل بالشك المطلق «آفات تصيب العقل فيجري مجرى الجنون ولكن لا يسمى جنوناً . والجنون فنون » .

إلا أننا لا نفهم من ذلك أن العقل — عند الغزالي — قادر على إدراك كل حقيقة وكفيل بالوصول إلى كل معرفة . لأن القياس شيء والوصول شيء آخر . فنحن بالإبرة المغناطيسية نستطيع أن نعرف الهدى والضلال ، ولا يلزم من ذلك ضرورة أن الإبرة المغناطيسية قادرة على البلوغ بنا إلى مكان الهدى واجتناب مكان الضلال ، وقد يكون تشبيه العقل بالإبرة المغناطيسية تشبيهاً غير جامع لوجوه الشبه الصحيح ، فحسبه أنه تشبيه يدل على الغرض المقصود : وهو أن العقل يصلح للتمييز بين الصواب والخطأ

ولا يلزم من ذلك ضرورة أنه صالح للوصول إلى الغايات جميعاً بغير تكملة من قدرة أخرى ومعونة من « عقل » أكبر لا يلغي حكم العقل إصالة بل ينتقل به من طبقة إلى طبقة ومن مجال إلى مجال .

هذه التكملة عند الغزالي هي « الكشف » أو النور الذي يفيض على قلب الإنسان من الجود الإلهي بالرياضة والاستعداد ، وهو شيء لا ينقض العقل في أساسه ، بل يتمم للعقل ما هو ناقص فيه ويعينه على ما يؤوده ويعييه .

ويرد على الخاطر هنا سؤال لا ينسى في صدد الكلام عن الغزالي على التخصيص، وهو : كيف اجتهد الغزالي ذلك الاجتهاد العنيف في هدم الفلاسفة وإثبات تهافتهم إذا كان على إيمانه هذا بهداية العقل والتفكير ؟ هل فعل ذلك لأنه يبطل الفلسفة ويلغي الأقيسة المنطقية ؟ أو هو قد فعله لأنه يرى أن الفلاسفة مخطئون في تطبيق الفلسفة واستعمال القياس ؟

الرأي الأول يميل إليه كارّادي فو ، والرأي الثاني يميل إليه آسين بلاسيوس .

أما المؤلف الفاضل فهو يفصل بين الرأيين بكلام الغزالي نفسه، وفحواه أن الفلاسفة قد أساؤوا استعمال القياس ،فمنعوا ماليس يمنعه العقل ،وأوجبوا ماليس يوجبه في المسائل الغيبية ، و « أن ما شرطوه في صحة مادة القياس في قسم البرهان من المنطق وما شرطوه في صورته في كتاب القياس وما وضعوه من الأوضاع في إيساغوجي وقاطيغورياس التي هي من أجزاء المنطق ومقدماته لم يتمكنوا من الوفاء بشيء منه في علومهم الإلهية » .

فليس اللوم إذن على المنطق بل على المناطقة ، وليس اللوم على العقل بل على الذين يوجبون به ما ليس بواجب ويمنعون به ما ليس بممنوع .

* * *

ونعتقد أن التوفيق قد لازم المؤلف في جميع تقريراته وتمحيصاته ولم يفارقه بعض المفارقة إلا في مقام واحد وهو مقام المقابلة بين الغزالي والفلاسفة الأوربيين .

مثال ذلك مقابلته بين الغزالي وديكرت حيث يقول : « إنه قد تنبه ستمائة سنة قبل الفليسوف الفرنسي ديكرت إلى أن هذا التحديد — تحديد اليقين — ينبغي أن يكون حكماً بديهياً لا اختبارياً . وبهذا سلم من التناقض الذي وقع فيه ديكرت ، إذ ظن أنه وضع لليقين تحديداً اختبارياً ، بينما كان في الواقع قد عرف ماهية اليقين قبل الاختبار . فديكرت ظل ممتنعاً عن تحديد اليقين إلى أن عثر على حقيقة يقينية هي : أفكر . إذن أنا موجود . وظن أنه بواسطتها قد أدرك ماهية اليقين واستنبط تحديده . على أنه سها

عن باله أنه لا بد كان يعرف ما هو اليقين من قبل حتى عرف أن هذه الحقيقة المعينة هي حقيقة يقينية » .

والإنصاف بين الحكيمين أن معرفة الشك تستلزم معرفة اليقين ، سواء ثبت بالاختبار أو ثبت بالبداهة . فلا يقول قائل إن هذا مشكوك فيه إلا إذا عرف ما يطلب وعرف أن اليقين غير مشكوك فيه ، ولا يناقض الباحث نفسه إذا وفق بين البداهة والاختبار بمثل من الأمثال .

كذلك أراد المؤلف أن يفرق بين مذهب الغزالي ومذهب دافيد هيوم في إنكار الأسباب فقال : « أرى من الضروري توضيح فكرة عن موقف الغزالي قد تكون غامضة عند البعض مشوهة عند البعض الآخر من المشتغلين بالفلسفة العربية . فإنه من الشائع عند الكثيرين من هؤلاء أن الغزالي قد نفى مبدأ السببية ، ولذا نراهم يشبهونه بالفيلسوف الإنكليزى داود هيوم ويفاخرون أهل الغرب بسبق الغزالي ذلك الفيلسوف إلى نفي هذا المبدأ . على أن من تعمق في فهم رأي هذين المفكرين في السببية وجد أن فكرة الواحد تختلف جوهرياً عن فكرة الآخر . وإن كان يجمع بينهما وجه من وجوه الشبه العرضية . فإن داود هيوم لا يعتقد بالمبدأ القائل بأن لكل سبب نتيجة ، وهو ينفي كون العلاقة بين السبب والنتيجة علاقة ضرورية ... أما الغزالي فإنه بالعكس يؤمن بضرورة المبدأ القائل إن لكل سبب نتيجة ... فالله في نظره هو السبب الحقيقي الوحيد لكل حوادث الكون ... » .

ونحن لا نرى أن الغزالي أنكر مبدأ السببية ، كما ذكرنا ذلك في مقالنا عن الأسباب بينه وبين ابن رشد بمجلة الكتاب ، ولكننا نرى أن داود هيوم لم ينكر العلاقة بين المقدمة والنتيجة في الأقيسة المنطقية ، وإنما أنكر أن يكون السبب في المشاهدات الاختبارية ثابتاً بالبداهة بغير تجربة محسوسة . فعلمنا بالنار لا يلزم منه بالبداهة علمنا أنها تقتل من يحترق بها قبل أن نشاهد ذلك بالتجربة والاختبار ، ومعنى ذلك أن السببية المنطقية قائمة لاشك فيها ، ولكن اقتران الحوادث شيء وتلازم المقدمة والنتيجة في البداهة العقلية شيء آخر ، ولولا ذلك لما أنكر هيوم علاقة السببية في المشاهدات المحسوسة ثم قال إنه ينكرها لهذا السبب أو لهذا الدليل ... فإن الذي يقدم لنا سبباً لإنكاره لا ينكر مبدأ السببية في أساس التفكير ، وعلى هذا لا يقال إن المشابهة بين الغزالي وهيوم عرضية في هذه المسألة ، إذ هي مشابهة تمتد من العرضيات إلى الجوهر الأصيل .

وزبدة ما يقال بعد هذا في كتاب « العقل في الإسلام » أنه كتاب محقق للغرض

من البحث فيه ، مستخلص من اطلاع كاف وعزيمة صادقة على التمحيص والتجرد من الأهواء ، ولا يؤخذ عليه شيء غير هنات هينات من قبيل ما أشرنا إليه ، وغير عبارات إفرنجية التركيب قد يدل عليها بعض ما اقتبسناه من شواهد الكتاب ، وحسب المؤلف الفاضل نجاحاً أنه أنجز ما وعد بمثل هذا التوفيق النادر في أمثال هذه المؤلفات .

عباس محمود العقاد

في موكب الشمس

تأليف الدكتور أحمد بدوي مدرس التاريخ
والحضارة المصرية القديمة بجامعة فؤاد الأول
٢٤٣ صفحة من الحجم المتوسط . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٦
نقد الأستاذ عبدالهادي حمادة
مدير قسم التفاتيش بمصلحة الآثار

طالما شكوت وبكيت ، لما كنت طالباً يافعاً ، من علم التاريخ . وعلى نقيض ذلك كان الحساب من العلوم المحببة إلي . ذلك لأن الأول كان يقتضيني أن أحفظ عن ظهر قلب أسماء جمة ، منها ما هو لأشخاص ومنها ما هو لبلدان ، وكثيراً من سني الحوادث . وكان كتاب التاريخ إذ ذاك محشواً بذلك اللغو حشواً . وقليل من الناس ، ممن سقطوا في أطوار تعليمهم الأولى على كتب للتاريخ من هذا النوع ، من لم يعلق بذهنه أن كتابة التاريخ تتمثل في سرد أسماء الملوك والحكام ، وذكر أعمالهم وما حدث في عهودهم من حروب وما قاموا به من إصلاح . وفي جل الكتب القليلة التي طبعت باللغة العربية عن تاريخ مصر القديم منذ بدء القرن العشرين ، درج الكتاب على أن يجعلوا همهم الأول أن يعددوا الأسرات وملوكها وسني حكم كل منهم وحروبه ، وما أشبه ذلك مما لا تعيه الذاكرة وتمجه الأسماع لكثرة التكرار ، وجعلوا من ذلك غاية التاريخ . ولمعظم هؤلاء الكتاب العذر فيما كانوا يفعلون ، فهم لم يدرسوا مصر القديمة دراسة مستفيضة ، ولم يعرفوا سوى النزر اليسير عن تاريخ حضارتها ، وظنوا أن الكتابة عن تاريخ مصر لا تقتضيهم سوى أن ينقلوا ما يستطيعون فهمه من مختلف كتب التاريخ ، أو يترجموه إلى العربية ، مع ترتيب في الحوادث وتنسيق للموضوعات ، ليجعلوا منه كتاباً عليه مظهر الجدة والاختلاف عما سبقه من كتب . وهؤلاء هم من ينعتون بالأدعياء . أما من درسوا مصر

قديمها وحديثها ، وتعمقوا في لجج حضارتها القديمة ، ونقبوا في أسس تاريخها ، فإنما يعدون عهود الملوك المختلفة وسيلة لا أكثر لتحديد فترات تطور حضارة البلاد ، ثم ينصرفون عن ذلك إلى ما يفيد منه القراء من مقارنة الحوادث وربط القديم بالحديث ، والتمثيل وتوضيح الأسباب والأغراض . إذ أن تاريخ أمة من الأمم هو في الحقيقة تاريخ حضارتها من حيث التقدم في العلوم والفنون والآداب ، بل إن شئت فقل : هو مبلغ ما اشتركت به تلك الأمة في تقدم التفكير البشرى . بذلك وبذلك فقط يصبح علم التاريخ غذاء للروح ، وشاحذاً للهمم ، وملهماً للمُثل العليا ، ومرشداً إلى السياسة الرشيدة . وليست كتب التاريخ التي خلت من المقارنات في الأزمنة المختلفة وضرب الأمثال وإيراد الصلة بين تاريخ الأمة قديمها وحديثها كسلسلة مرتبطة الحلقات ، مع حسن الأسلوب والعرض المشوق ، بمسايرة هذا الزمن الذي بلغت فيه البحوث والدراسات حد الكمال .

وقد طلع علينا الدكتور أحمد بدوي في ربيع هذا العام بكتاب يمثل حلقة من حلقات تاريخ مصر القديم ، سمّاه « في موكب الشمس » خالف فيه من سبقه من كتاب تاريخ مصر ، فهو قد فكر وقدر ، ورتب ووازن ، وجافى التقليد بعد أن فشا بين الكتاب .

وقد لا يتفاوت الناس كثيراً في معرفة تاريخ مصر ، غير أنهم يتفاوتون تمام التفاوت في التعبير عما يعرفون . وقد وفق الكاتب في إيراد الحقائق التاريخية وبسط آرائه فيها مع الملاحظة والاستنتاج ، كما أبدع في بيان الأسباب والأغراض ، ووازن بين القديم والحديث ، كل ذلك في عبارة متينة وأسلوب رصين ، يملك على القارئ أمره ، ويغريه بمتابعة القراءة حتى يوفي على آخر ما بيده من بحث .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى سبعة فصول ، بعد تمهيدين دعاهما « قصة الكتاب » و « قصة التاريخ المصري » . وشمل الكتاب طرفاً هاماً من تاريخ حضارة مصر من عهد الإنسان الأول حتى سقوط الدولة القديمة ، بجانب ما فيه من بحوث أخرى ، ليست من صميم التاريخ ، ولكنها تمت إليه بسبب قوي .

أما قصة الكتاب فعرض شيق لبعض اعتقادات القدماء في كوكب الشمس ، وتنقله في بحار السماء ورحلته المخيفة في ظلمات العالم السفلي ، ونضاله أعداءه في ذلك العالم ، وما يعتوره فيه من تغيير في المظاهر ، ثم خروجه من كل ذلك ظافراً في صبيحة اليوم التالي من بطن أمه على هيئة عجل ذهبي ، مشرقاً على الدنيا بنوره ! وقد وصف الكاتب

في شيء كثير من الطنطنة والتهويل صورة من العالم الآخر ، حيث جاس رب الغرب وإله الموتى على عرشه يحكم ويقضي بين البشر ، فإما إلى جنته وإما إلى ناره . ويبرز لنا الجحيم وويلاته في صورة بشعة ، تقشعر من هولها الأبدان ، ويذكر لنا من أهل النار أصحاب الدرك الأسفل ، وهم الذين خانوا أوطانهم أيام محنها المنكرة ، متخذاً من الخيال سبيلاً إلى الحقائق وإبداء الآراء . ويذكرني ما يرويه الكاتب هنا « بجحيم دنتي » وربما كان لذلك الكتاب أثر في وصف جحيم أزريس ، ثم يرينا ألواناً من نعيم الجنة وعيشة الأبرار .

وها هو الكاتب قد خرج من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة ، فانصرف إلى وصف وادي النيل بجماله الرائع ونخيله الباسق ، متنقلاً بين جبل الطير ووادي الكاب ، ملتوياً مع النهر عند أسيوط ، ومداعباً للصخور معه عند أسوان ، ناعتاً النهر حيناً بالقوة والبطش ، وحينا بالحنو واللين . ثم ينثني في ديباجة من الخرطوم حتى يبلغ بحر الروم ، محدثاً عن واحات مصر الخضراء ، وسلاسل جبال العرب الذهبية ، متغنياً بهواء مصر العليل ، وفيضان نيلها المبارك . فإذا بلغ المنتهى ، انتقل مرة أخرى من عالم الحقائق إلى عالم البحث والنقد ، فهو لا يقر المؤرخين فيما ذهبوا إليه من إرجاع الفضل في كل شيء لأصحاب الحكم والسلطان ، متغاضين عن أصحاب العلم والمعرفة ، ويفرد بضع صفحات لهذا البحث تحت عنوان « بين العلم والسلطان » ، فهو ثائر لحق العلماء والمفكرين المهضوم مقسم «المجد والخلود بين السلطان والعلم» فرجال العلم يفكرون، ورجال الحكم ينفذون ، ضارباً الأمثال بنابليون ومحمد علي . وهو رأي — يعلم الله — جدير بالتفكير حقاً ، لا سيما بعد الكشف عن الطاقة الذرية . وفي هذه الصفحات نفسها ، يتحدى الكاتب سد أسوان ، بعد أن غمر الماء قصر أنس الوجود ، ذلك الأثر الرائع ، وينعى تلك التضحية العظيمة دون الانتفاع من ورائها بتنفيذ مشروع الكهربا .

وقبل أن يفرغ الكاتب من تلك المقدمة الطويلة ، وما حولها من حواش ، ينطلق في حماسة بالغة ، إلى تمجيد مصر ، ووصف عظمة مصر ، وطبيعتها الرخوة الحلوة ، وخيرها العميم ، ونيلها العظيم ، وما قدمته للعالم في الماضي من حضارة ، وما أذاعته في أقطار الشرق والغرب من أنوار المعرفة ، مبشراً المخلصين للوطن الذائدين عن ذماره ، منذراً الغافلين عن حقوقه ، ناعياً على أهل مصر الحاضرة تهاونهم في حقوق البلاد ، وجهلهم تاريخها المجيد ، وضعفهم واستكانتهم ، مستنهضاً هم الشباب للأخذ بسبيل رفع شأن البلاد ، وإرجاعها إلى ما كانت عليه من قوة وسؤدد . صرخة منبعثة

ولا شك من قلب رجل حر وفيّ لوطنه ، سيأتي الكلام عنها فيما بعد . هكذا ينتهي الكاتب « بمصر الخالدة » من « قصة هذا الكتاب » .

وفي « قصة التاريخ المصري » يشرح لنا الكاتب فكرة المصريين عن الخير والشر ، وتمثيلهما بأخوين متنازعين منذ بدء الخليقة ، وكيف ظفر الشر بالخير ، فساد العالم الفساد زمناً ما ، ثم كيف كانت الغلبة للخير في آخر الأمر ، فاستقام وجه العالم وانتظمت أمور الدنيا . ثم يتدرج من ذلك إلى فتح مصر على يد نابليون ، وإلى جهود علماء أوربا في البحث في تاريخ الحضارة المصرية . ثم ينتقل الكاتب « بنظرة عابرة » إلى استعراض تاريخ مصر استعراضاً سريعاً ، يقفز في سطور قلائل من عهد مينا حتى يصل إلى عمرو بن العاص ، ويستغرق من الزمن ستة وثلاثين قرناً . وفي بضعة سطور أخرى تشير عقارب الساعة إلى زمن محمد علي الكبير رأس الأسرة الملكية الكريمة .

ثم تأتي من بعد ذلك فصول الكتاب السبعة . وفيها يتتبع الكاتب تاريخ مصر ، مبتدئاً بتلخيص مصادر التاريخ ، وما اعتمد عليه المؤرخون الذين كشفوا القناع عن المدنية المصرية ، ومثنياً بعصور التاريخ ، مميزاً بين العهود في عصر ما قبل التاريخ ، مبيناً كيف اتحد القطران البحري والقبلي ، متحدثاً عن ملوك مصر وأعمالهم وآثارهم ، موضحاً السياسات التي نهجتها البلاد في عصورها المختلفة ، وصلاتها مع العالم الخارجي . وقد يطول بنا القول إن نحن حاولنا أن نلاحق الكاتب في كتابه كله . وحسبنا أن نقول إنه كسواه من كتب التاريخ ، غير أنه يمتاز من ناحيتين : الأولى ما فيه من تحليل واستنتاج في براعة ومقدرة . والثانية ما أورده الكاتب من بحوث جانبية في سياسة الملوك والحكام في تلك العصور ، وفي تأثير المعتقدات الدينية في توجيه سياسة البلاد .

والآن وقد استعرضنا موضوعات الكتاب استعراضاً سريعاً ، وأتينا على بعض ما به من حسنات ، فقد آن لنا أن نعطف على الناحية الأخرى ، وهي تتمثل في بضع ملاحظات تهدف إلى الوصول بالكتاب إلى حد الكمال .

وأولى تلك الملاحظات تتعلق بتبويب الكتاب . فالمؤلف قد أفرد الفصل الرابع لبحث العقائد الدينية ، فجاء هذا الفصل معترضاً سلسلة متصلة الحلقات من التاريخ ، وتتابع عهود الملوك ، وفصل بين العصر العتيق وعصر الدولة القديمة . وليست هناك حكمة ظاهرة لهذا الوضع ، وكان الأولى أن تتصدر العقائد الدينية فصول الكتاب .

كذلك كان أجدر بالفصل السابع أن يكون عقب الكلام عن الأسرة الرابعة ، فكل مافيه راجع إلى تلك الأسرة ، لا سيما وأنه لم يتناول سوى هرم الجيزة الأكبر — دون الأهرام الأخرى — وبعض قصص خوفو ونبذة عن أبي الهول . وفي نظري أن الفصل السادس أليق باختتام الكتاب من هذا الفصل .

وتأتي بعد ذلك ناحية أخرى كنا نود أن تكون كاملة وافية ، تلك هي ناحية الأسانيد التاريخية ، التي يعتمد عليها المؤرخ لتدعيم آرائه وبحوثه . ففي الفصل الخامس مثلاً (صفحة ١٩٤ وما بعدها) انطلق المؤلف في الاستنتاج ، فقطع شوطاً بعيداً ، حين ذكر لنا قصة « رع ور » وما كان من أمره في ذلك الحفل ، لما أن لمسته عصا الملك عن غير قصد ، وشرح لنا كيف بالغ الملك في الاعتذار إليه ، فقد حلل الكاتب القصة وخرج من ذلك التحليل باستنتاجات أجاز فيها أن الملك قد فكر في قتل الكاهن ولكنه بالغ في الحرص على إخفاء قصده . ولا مشاحة في أن الملك ، لو كان قد فكر فعلا في قتل « رع ور » لما عجز عن التماس الوسائل لذلك ، وليس من المعقول أن يختار يوم الزينة في هذا الجمع الحاشد لتنفيذ مأربه . على أن النص المصري نفسه يقول إن عصا الملك قد لمست الكاهن لمساً . فهل كان سقوط العصا عليه كافياً لقتله ؟ أما ما جاء بعد ذلك من أن الملك بعد فشله هذا قد دس السم للكاهن فقتله ، فليس هناك من الأسانيد التاريخية ما يستطيع المرء أن يركن إليه في ترجيح مثل هذا الرأي .

ومن المحاسن التي قد تنعكس آيتها في كتاب للتاريخ مثل هذا ، أن جعل المؤلف شعاره عصبية شديدة لوطنه ، وقد تجلت تلك العصبية في معظم صفحات الكتاب ، وهي ولا شك صادرة عن إيمان قوي ووفاء وإخلاص ، غير أنه يخيل إليّ أن تلك العصبية قد أضاعت بعض ما كان يحتاج إليه الكتاب من الاتزان ، ونحن نعلم أن الكاتب قد درس في الجامعة المصرية في بدء نشأتها ، وسمع بتلك الضجة التي أثيرت حول مبدأ اتخذه بعض أساتذة الجامعة في بحث له ، يحتم على المؤرخ أن يتجرد من العصبية والقومية كي يأتي بحثه خالصاً من كل تأثير ، جديراً بثقة العالم أجمع . وكنا نتمنى لو أن المؤلف قد تأثر ولو قليلا بهذا المبدأ . فقد كان يستطيع مثلا أن يستعيض عن تلك الصفحات الطويلة الملتهبة حماسة لمصر وعظمة مصر وفضلها على العالم ، ببحوث هادئة ، تبين بعض ألوان الحضارة التي قدمتها مصر للعالم ، مدعماً أقواله بالأسانيد العلمية والتاريخية .

وقد ظهرت تلك العصبية القوية عندما أخذ الكاتب ينعى على شباب مصر تواكلهم وضعفهم وجهلهم المطبق بأمور بلادهم . ولا نشك مطلقاً أن الكاتب إنما يرمي

من وراء ذلك إلى استنهاض الهمم وشحذ العزائم للنهوض بالبلاد ، لكنه بالغ فيما ألصقه من النقائص بأبناء وطنه ، في وقت تتزعم فيه مصر أمم الشرق ، وتضرب بسهم موفور في الشؤون العالمية . ويذكرني هذا اليأس الذي اجتاح قلب الكاتب من حالة بلاده الحاضرة ، وتحسره على الماضي وتفضيله عن الحاضر ، بما يُرى في نصوص عصر الفوضى الأول الذي أعقب سقوط الدولة القديمة ، من شكاوى الكتاب وتحسراتهم ، حين اضطربت أحوال مصر ، وأصبح السيد مسوداً ، وارتد المعدم مثرياً ، وأنكرت الأرض خيرها ، وعم الفساد أنحاء البلاد . وقد يكون الكاتب قد تأثر بما كتبه أجداده من تلك النصوص .

وقبل أن أنتهي من هذا المقال ، أود أن أذكر ما سمعته عن الكتاب من نقد ، فقد قال قائل : « لقد نبذ المؤلف فكرة التأريخ ظهرياً ، لا سيما في صدر كتابه ، وانصرف إلى تنميق اللفظ ، وزركشة الأسلوب ، فجاء وصفه لتلك الأساطير القديمة مبتوراً ، لا يستطيع من لم يقرأ عن عقائد المصريين من قبل أن يفهم منه شيئاً » . وقال آخر : « لقد أغرى الأدب الكاتب على الانصراف عن فنه الذي فيه يكتب ، وطالما غرر السياق الأدبي بالكتّاب ، وطوح بهم في أودية سحيقة ، فلم يصلوا إلى ما ابتغوا من بحث ، ولم يبلغوا من الأدب أرباً » . ولا شك أن الاثنين لم ينصفا الكاتب وتحاملا عليه ، ذلك لأنه بالرغم من أن موضوع التاريخ ذو نواح عديدة متشعبة ، كلها تستحق الدرس ، وليس في مقدور شخص أن يلم بأطرافها ، إلا أن الكاتب قد أوفى موضوعه حقه من البحث ، وقدم من المادة ما لا يتسع كتاب في مثل هذا الحجم لأكثر منه ، فضلا عن أن أسلوبه الرصين وبلاغته وحسن عبارته تضعه فعلا في مصاف الأدباء .

وعلى كل حال ، فإن لم يرد الأدباء أن يعترفوا بأنهم زادوا فرداً ، فإن رجال الآثار والتاريخ لم ينقصوا أحداً، بل ازدادوا فخراً .

عبد الهادي حماده

أسامة بن منقذ

تأليف الأستاذ محمد أحمد حسين

١٤٠ صفحة من القطع الكبير . دار الكتب المصرية . القاهرة ١٩٤٦

نقد الأستاذ أحمد محمد شاكر

وهذا كتاب آخر من كتب التراجم ، مما ألف شبابنا المتوثب إلى المجد ، في درس سيرة بطل من أبطال الإسلام الكبار ، وأديب من أدباء العرب الفصحاء ، وسياسي من الطراز الأول .

ولي بهذا المترجم البطل شبه اختصاص . فقد أخرجت له في سنة ١٩٣٥ كتاب « لباب الآداب » ونشرته مكتبة سركيس بالفجالة بمصر ، وهو كتاب من عيون كتب الأدب ، وترجمت للمؤلف ترجمة متوسطة في ١٧ صفحة ، وكنت شرعت فيها ترجمة وافية ، ثم وجدت مجال النشر ضيقاً إذ ذاك ، فأوجزت فيها ، ووعدت أن أكتب له ترجمة في جزء خاص ، أستوعب فيها أحواله وأحوال أسرته ، وأستقصي ما أجده من شعره ومناسباته . ولكني لم أجد الفرصة المواتية للوفاء بهذا الوعد ، وقد قام الأستاذ المؤلف بما كنت حريصاً على الوفاء به .

وأسامة بن منقذ رجل فذ ممتاز ، يمثل فروسية العرب وشهامتهم ، وكرمهم وشجاعتهم ، ويمثل عصره وبيئته أصدق تمثيل ، وعنه وعن أمثاله اقتبس الإفرنج في الحروب الصليبية كثيراً من محاسن العرب وتقاليد الإسلام . قلت في وصفه في ترجمته التي أوجزتها في أول « لباب الآداب » ص ٢٠ — ٢١ : « نشأ أسامة في كنف أبويه وعمته وجدته ، وفي وسط أسرة من أعظم الأسر العربية ، أكثر رجالها فرسان محاربون من الطبقة الأولى . وبعد ولادته بنحو سنتين بدأت الحروب الصليبية في بلاد الشأم سنة ٤٩٠ ، ورباه أبوه على الشجاعة والفتوة والرجولة ، ومرنه على الفروسية والقتال ، وكان يخرجه معه إلى الصيد ، ويدفع به بين لهوات الأسود . فأخرج منه فارساً كاملاً ، وسياسياً ماهراً ، ورجلاً ثابتاً كالرواسي ، لا تزعزعه الأعاصير ، ولا تهوله النكبات والرزايا ، فهو يقول عن نفسه بعد أن جاوز التسعين ، إذ يحكي بعض ما لقي من الأهوال : " فهذه نكبات تزعزع الجبال ، وتفني الأموال ، والله سبحانه يعوض برحمته ، ويختم بلطفه ومغفرته . وتلك وقعات كبار شاهدتها ، مضافة إلى

نكبات نُكبتها ، سلمتْ فيها النفس لتوقيت الآجال ، وأجحفتْ بهلاك المال " (الاعتبار ص ٣٥) ويقول أيضاً : " فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر ، ولا يؤخره شدة الحذر ، ففي بقائي أوضح مُعتبر ، فكم لقيت من الأهوال ، وتقحمت المخاوف والأخطار ، ولاقيت الفرسان ، وقَتلت الأسود ، وضُربت بالسيوف ، وطُعنت بالرماح ، وجرحت بالسهام والجروخ ✲ وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغتُ تمام التسعين . . . فأنا كما قلت :

مع الثمانين عاث الدهر في جَلَدي ... وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي

إذا كتبت فخطي جد مضطرب ... كخط مرتعش الكفين مرتعد

فاعجب لضعف يدي عن حملها قلماً ... من بعد حطم القنا في لبة الأسد

وإن مشيت وفي كفي العصا ثقلت ... رجلي ، كأني أخوض الوحل في الجلد

فقل لمن يتمنى طول مدته : ... هذي عواقب طول العمر والمدد

(الاعتبار ص ١٦٣ — ١٦٤) » .

وقد عمر أسامة عمراً طويلاً ، عاش ٢٥ يوم ٢ شهر ٩٦ سنة ، لأنه ولد يوم الأحد ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ (يوليو سنة ١٠٩٥) ومات ليلة الثلاثاء ٢٣ رمضان سنة ٥٨٤ (نوفمبر سنة ١١٨٨) . وكان المستشار الحربي لصلاح الدين الأيوبي ، بما نال من خبرة طويلة ، في الحرب والسياسة ، وبما خاض من غمار الحروب الصليبية ، وقد نشأ في عنفوانها . نقل أبو شامة في الروضتين (ج ا ص ٢٦٤) عن العماد الكاتب ، مؤرخ صلاح الدين ولسانه الناطق ، يصف مجيء أسامة إلى دمشق باستدعاء صلاح الدين، وهو شيخ قد جاوز الثمانين ، قال : « فلما جاء مؤيد الدولة — يعني أسامة ، فذا لقبه — أنزله أرحب منزل ، وأورده أعذب منهل ، وملكه من أعمال المعرة ضيعة زعم أنها كانت قديماً تجري في أملاكه ، وأعطاه بدمشق داراً وإدراراً ، وإذا كان — يعني السلطان صلاح الدين — بدمشق جالسه وآنسه ، وذاكره في الأدب ودارسه . وكان ذا رأي وتجربة ، وحنكة مهذبة ، فهو يستشيره في نوائبه ، ويستنيرْ برأيه في غياهبه ، وإذا غاب عنه في غزواته ، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته ، واستخرج رأيه في كشف مهماته ، وحل مشكلاته » .

✲ بالجيم في أوله والخاء المعجمة في آخره ، وهي من أدوات الحرب ترمى عنها السهام والحجارة ، والكلمة معربة عن التركية أو الكردية .

فهذا الفارس كما قال المؤلف في تصدير الكتاب : « مثل أعلى للفروسية العربية التي ثقفها الغربيون عن فرسان العرب زمن الحروب الصليبية ، فهو فارس حمل علم الجهاد في أعنف صراع شهده العالم الإسلامي ، حينما وجه الغرب حملاته الصليبية عليه لانتزاع بيت المقدس » . فهو جدير بأن يترجم وتدرس حياته وأحواله وآراؤه السياسية والاجتماعية والعلمية دراسة واسعة وافية ، ليكون مثالاً يحتذى ، وكما قال المؤلف أيضاً : « فنحن إذ ندرس سيرة أسامة بن منقذ ندرس الخطوات التي خطاها العالم الإسلامي في جمع شمله وتوحيد صفوفه ، حين نهض ليرد عادية الصليبيين . ويزيد في شأن هذه الدراسة التاريخية قدراً أن أسامة نفسه قد خلف في كتابه " الاعتبار " صورة لأحداث عصره ، وقد اعتمد عليه كثير من المؤرخين في دراساتهم لهذه الحقبة الصاخبة من تاريخ الجهاد الإسلامي » .

وهذا الكتاب سيرة ممتعة ، درس فيها المؤلف حياة أسامة وحياة أسرته ، والعصر الذي نشأ فيه . وتتبع آثاره العلمية والأدبية تتبعاً لا بأس به . وعني بتحقيق مسائل تاريخية هامة ، وعني بجمع كثير من شعر أسامة ، فقد كان شاعراً فحلاً . وله ديوان مفقود ، رآه ابن خلكان بخطه في مجلدين ، وليت المؤلف أو غيره من الباحثين المتقنين ينشط إلى البحث عنه لينشره ، فإذا لم يوجد جمع كل ما يجد من شعره مفرقاً في الكتب ، وينسب كل شيء منه إلى موضعه الذي نقل منه ، فيخرج لنا كثيراً من هذا الديوان الفريد النادر .

والكتاب مطبوع في مطبعة دار الكتب المصرية ، وسيكون مرجعاً مفيداً في أيدي العلماء والباحثين والأدباء . فكنا نرجو أن يخلو من الأغلاط المطبعية الكثيرة ، وبعضها مما لا يجوز التساهل فيه . مثل قوله في (ص ٩) في شعر لأسامة :

ظلومٌ أبت في الظلم إلا التماديا   وفي الصد والهجران إلا تناهيا

ومن البين أن صواب الشطر الأول « إلا تماديا » دون حرف التعريف .

وفي (ص ٢٥ س٣) « لم يشأ الفرنج أن يتركوا شيزر في هدوء هامدة طويلة » ! وصوابه « في هدوئها مدة طويلة » .

(وفي ص ٣٧ س ١٦) : « مالم يكن يره فيه » وصوابه « مالم يكن يراه فيه » .

ومثل بيت لأسامة في (ص ٥٤) :

هل فيهمْ رجل يغني عَنَـائي إذ   جلَّى الحوادثَ حدَّ السيف والقلم

وصحته « فيهمُ » و « غنـائي » بالغين المعجمة و « حدُّ السيف » بالرفع .

وفي البيت الذي بعده « ذَرَعَ الرجالُ » وصحته « ذَرْعُ الرجالِ » . وفي البيت الأخير في الصفحة نفسها ، « فاسلم فما عشتُ لي » وصوابه « عشتَ » . وفي (ص ٩٠ س ٤) « كالجواد العلاف » وصوابه « كجواد العلاف » كما في الاعتبار الذي نقل عنه . وفي (س ١٦) « بالسهام والجروح » وصوابه « الجروخ بالخاء المعجمة ، كما شرحناها آنفاً ، وكما هو في الاعتبار . والشعر الذي في (ص ١٠٧) فيه كثير من أخطاء الطبع أيضاً . ولو تتبعنا ذلك لطال جداً .

وقد أثبت المؤلف في آخر الكتاب ثبتاً بالمراجع التي اعتمد عليها في كتابه ، وذكر طبعاتها وتاريخها ، فلم يكن في حاجة للاطالة بوصف كل مرجع منها في الهوامش عند النقل عنها ، وثبت المراجع كاف .

ومما أخذت عليه أن نقل فقرة طويلة (ص ٤ — ٥) ونسبها في الهامش إلى « ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق . ص ١٣٠ » . وهو تساهل غير جيد ، بل خطأ يخشى أن يوقع الشك في صحة نسبة كثير من المقتبسات . لأن هذه الفقرة نقلها ناشر تاريخ ابن القلانسي في هامش (ص ١٣٠) عن تاريخ « سبط ابن الجوزي » فليست من كلام ابن القلانسي ولا صلة لها به ، إلا نشرها بهامش كتابه !

وقال المؤلف في (ص ٣٦) حين عرض لتعلم أسامة العلم : « وكان أبو الحسن السنبسي يعلمه الحديث ، وابن المنيّرة يعلمه الأدب» . وكتب على ذلك في الهامش مصدره وهو « أحمد أمين . فارس كنانة : فيض الخاطر ، الجزء الرابع ص ١٢٠ » وأنا أظن أن المؤلف الفاضل قرأ الترجمة التي كتبتُها لأسامة في أول « لباب الآداب » . فكان الأجدر به وبالأمانة في النقل أن يشير في هذه الفقرة إلى الموضع الذي نقل منه الأستاذ أحمد بك أمين ، أو يتخطى هذين المصدرين المعاصرين ، ويرجع إلى المصادر التي أشرت إليها في هذا ، فاني قلت في (ص ٢١) من الترجمة : « ولم يكتف أبوه بتربيته الحربية ، بل كان يحضر له الشيوخ الكبار ليعلموه هو وإخوته ، فسمع الحديث من الشيخ الصالح أبي الحسن علي بن سالم السِّنْبِسي في سنة ٤٩٩ كما في تاريخ الإسلام للذهبي ، وقد روى عنه حديثاً في أول لباب الآداب ص ١ وكان يؤدبه الشيخ العالم أبو عبد الله محمد ابن يوسف المعروف بابن المنيرة المتوفى سنة ٥٠٣ — الاعتبار ص ٨٥ ولباب الآداب ص ١٠١ و ١٩٠ » .

وفي (ص ٧٣) يقول المؤلف : « لم تحو المصادر التاريخية ما يشير إلى خوض أسامة وهو في بلاط نور الدين المعارك ضد الإفرنج كما عودنا ذلك ، ولعل كبر سنه

أقعده عن ذلك ، ولكنا نجد أبا شامة المقدسي قد نوه بشجاعة أسامة في حصار قلعة حارم ، فقال : « إنه كان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها » إلى آخره . وأخشى أن يكون في هذا شيء من التناقض ، نفي ثم إثبات ! فماذا بعد أن يذكر أبو شامة اشتراكه في الحصار ، وعوده من الغزو ؟ أما يكفي هذا في الإشارة إلى خوض المعارك، وهو بالتصريح لا بالإشارة ؟ !

والمؤلف يحرص على ذكر التاريخ الإفرنجي بجوار التاريخ الهجري . ولا بأس بذلك . ولكنه ينسى في بعض المواطن فيقتصر على التاريخ الإفرنجي ، وهو يؤرخ لبطل عربي إسلامي ، ويؤرخ وقائع عربية عن كتب العرب ! كما فعل في (ص ٧٥ ، ٧٦) مثلا .

ويقول المؤلف (ص ٨٩) : « كنا نود أن تكشف لنا المصادر التاريخية عن الصلة بين أسامة والقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني وزير مصر الكبير ، ورسائل الفاضل التي بين أيدينا ليس منها رسالة واحدة إلى أسامة . غير أن العماد قد حفظ في الخريدة رسائل جرت بينهما عن كتاب العصا ، ومن الغريب أن العماد هو الوحيد الذي حفظ هذه الرسائل ، مما جعل الشك يتطرق إلى صحة نسبة هذه الرسائل إلى الفاضل » ! !

وهذه طريقة طريفة في الشك وفي الاستدلال عليه ! يستدل بما ذكر في هامش هذا الموضع من أنه « بين يدي المؤلف جميع المخطوطات التي تحوي رسائل القاضي الفاضل » وما أدري من أين جاء هذا الحصر الكامل ، حتى يكون سبباً للشك في رواية مؤرخ ثقة كالعماد الكاتب ؟ العماد ذكر رسائل من القاضي الفاضل لأسامة ، وأثبت نصها ، والمؤلف يقول إن بين يديه مخطوطات فيها رسائل القاضي وليس من بينها ما ذكر العماد ، أليس ما ذكر العماد من المخطوطات التي تحوي رسائل القاضي أيضاً ، وإن لم تكن خاصة بها ، والعماد معاصر للمرسِل وللمرسَل إليه ؟ ! ولم يتهمه أحد بالوضع والاختلاق ، فأنى يأتي الشك للمؤلف ، إلا أن يكون على طريقة المستشرقين ! !

ومن مثل هذا ، وإن كان المؤلف مقلداً فيه فقط ، ما جاء في وصف النسخة المخطوطة الوحيدة من كتاب الاعتبار المحفوظة بالإسكريال (ص ٩٣ — ٩٤) فقد نقل ما كتب في آخرها من قراءتها على « مرهف بن أسامة » والقارىء حفيد مرهف ، لأنه يقول: « قرأت هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عدة مجالس ، على مولاي جدي الأمير» الخ ، وأن ذلك كان في ١٣ صفر سنة ٦١٠ وكتب مرهف عقيبه : « صحيح ذلك . وكتب جده مرهف بن أسامة بن منقذ ، حامداً ومصلياً » فقال المؤلف عقيب ذلك :

« وقد أوضح فيليب حتي أن (١٣ صفر سنة ٦١٠) ليس هو تاريخ نسخ مخطوطة الإسكوريال، بل هو تاريخ النسخة الأصلية التي نقل عنها مخطوطة الإسكوريال » ! لماذا ؟! لا أدري ! هكذا أراد فيليب حتي وهكذا أراد المؤلف . لو كان لهما ممارسة طويلة بالمخطوطات العتيقة ، وبطرق المتقدمين في الإجازات وإثباتها على الكتب ، ونقل صورها عن أصولها إن لم تكن هي أصلا ، ما قال واحد منهما شيئاً من هذا . ومن المستطاع بهذا الاستنباط التحكمي العجيب أن ننفي كل شيء ، وأن نكذب بكل شيء ، ثم لا يؤثر ما نقول في الوثائق الصحيحة ، والدلائل الثابتة . ولقد رددت مثل هذا التحكم على الدكتور موريتس في تشكيكه في أصل « كتاب الرسالة » للشافعي الذي بخط الربيع ابن سليمان ، والمحفوظ بدار الكتب ، فليرجع اليه القارئ في مقدمة شرحي على الرسالة (ص ١٧ — ٢٢ من المقدمة) .

وقد صنع المؤلف مثل هذا في وصفه مخطوطة ليدن من « كتاب العصا » لأسامة ، إذ قال في (ص ٩٧) : « ولا يمكننا الجزم بأن التاريخ المكتوب عليها (١٠٩٤ هـ = ١٦٨٣ م) هو تاريخ نسخها » ! لماذا ! لا أدري أيضاً ، وليته تثبت قبل أن يلقي ظلال الشك على مخطوطين ، أنا واثق أنه لم يرهما ، وإنما نقل وصفهما عن غيره ، لعله لو رآهما لقال غير ما قال ، والله يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل .

أحمد محمد شاكر

هايني

تأليف الأستاذ أحمد الصاوي محمد
١٧٧ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦
نقد الأستاذ حبيب الزحلاوي

ليس بين من عرفت من البائسين من شعراء عالميين ، شاعر تكاثرت الهموم عليه ، ونزلت به النوازل ، وحاقت به الرزايا ، وتحالفت عليه نوائب المجتمع ، كما حلت بالشاعر العظيم هايني ، وما عرفت إنساناً سواه ممن براهم الوجد ، عن هوَج أو عن قصد مجهول ، ليكونوا من المنكوبين ، حمل مصائبه مثله ، بصبر العاقل وجلد الحكيم ، وقد بز بهما جده البعيد « أيوب » الذي كان منذ القدم وما برح حتى الساعة مثالاً للصبر على محن الدهر ، وويلات الزمن .

لقد ابتلي « أيوب » بصحته وماله ، فبكى واستبكى ، ولم يترك سوى الدموع والتأوهات ، فلولا التوراة ، وقدم اسفارها ، وقدسية تاريخية لعهد قديم ، لكانت قد تبخرت دموع أيوب وامحت سطور شكواه . بيد أن شاعرنا هذا قد اختصته الطبيعة بالبلوى ، وبفتاة طائشة خرقاء ، كأنها اصطفتها من بين بنات حواء لتكون امتحاناً لصبر زوجها ، وقد صار بحكم نوائبه ورزاياه ، محباً لطبيعة اللدد والرعونة والمشاكسة وما يليها من مضاعفات ، لأنها خلائق دخيلة صارت بفعل العادة والتكرار تحفز نفسه الكبيرة إلى رؤية الأمور والأشياء من ناحيتيها المتقابلتين .

ولد « هاين » من أم يونانية وأب يهودي يعيشان مع أولادهما في بلد ألماني ، أخذت تصل إلى أهله أخبار ثورة فكرية ، واضطرابات اجتماعية واقعة على مقربة منهم ، وتعالت أصوات الحرية والمساواة والإخاء التي نادى بها أحرار الفرنسيين تقرع أسماع اليهود المضطهدين قبل غيرهم في ألمانيا فتدغدغ آمالهم ، وتنعش عنصر الثقة بطيب الروح الإنساني ، وتبعث فيهم الرجاء بخلاص من عبودية وذلة ونبذ لهم من جيرانهم الألمان مواطنيهم .

في ذلك الجو المكهرب بالثورة ، وفي وسط اضطراب فكر العالم ، لا الفكر الألماني وحده ، نشأ « هاين » وقد ذاق مرارة الذل والاحتقار من لداته في المدرسة ، وناله منهم الضرر والأذى ركلا وصفعاً وتحقيراً ، وشب وهو يرى أسس الأرستقراطية تتزلزل وتتداعى ، ودبيب روح الشعب يدب ويزحف ويحبو ، وأصوات المناداة بحقوق الإنسان والمثل العليا في الحرية ترتفع وتنتشر ، رأى هاين وسمع كل ذلك وهو لم يقو بعد على الوقوف وحده ، والثبات في حلبة الحياة الصاخبة ، وتزاحم الناس وتدافعهم بالمناكب ، لا في سبيل كسب الرغيف فحسب ، بل طلباً للحرية ، وهي زاد الروح والفكر ، فأخذه القلق ، وحاقت به الحيرة ، فارتفعت فوق سارية أحلامه راية المثل الأعلى تخفق مع دقات قلبه الفتي المتحفز للوثوب .

حاول الشاب المتوثب سلوك سبيل الاستقرار ليساير الناس في غدوهم ورواحهم في طريق الحياة ، فحالت يهوديته دون ذلك . عزم — وهو اليهودي المعترف بأن اليهودية ليست ديناً ، « وأنه لا يتمنى هذا الدين القديم لألد أعدائه ، لأنه لا يأتي بغير الخزي وانتهاك الحرمات » — أقول عزم على اعتناق النصرانية ، فتنصر دفعاً للاضطهاد المسيحي ، وهرباً من تعصب المتدينين ، ولكن هيهات لشعب متعصب مستمسك بالخرافات الدينية أن يؤخذ بحيلة المحتال ، لأنه لا بدّ للخرافة من ضحية ومحرقة ،

ولا محيص للمسيحي الجاهل من يهودي ذليل يفرغ فيه نقمته وينفث لعنته ، وقد انتقم الألمان النصارى من هايني ، الذي ليس هو بمنكر اليهودية كل الإنكار قولا وفعلا ، ولا هو بمؤمن بالنصرانية على ما فيها من خوارق وطقوس .

هكذا شب هايني ، وهو وليد الزمن والظروف والإرث ، وقد صدمه وسطه القومي والعائلي ، وصدمته أمان مثالية في الحياة ، وأمان عاطفية وجدانية ، لقد أحب ابنة عمه وهو ثري من أصحاب الملايين ، وقد طمع بأن يفوز بيدها وقلبها بعد أن يفوز بشهادة الحقوق التي أرادها له عمه الثري ولم يردها هو لنفسه المفطورة على الأدب والفن وحب الجمال . لقد صدمته ابنة عمه بعدم التفاتها له لأنه عالة على والدها ، ولم تأبه له لأن المال في عرف عبّاده ، خصوصاً المرأة ، هو المقياس الحقيقي لعظمة الرجل وقدره في الحياة الاجتماعية ، بل انصرفت عنه دون أن تحس لوجوده معنى . وصدمته ابنة عمه الثانية برفضها الزواج منه ومصارحتها إياه هذا الرفض ، ولعل نكبته الكبرى هي في صدمة الحياة إياه ، فقد جعلته « غير مخلوق ليعيش في الواقع » .

كل هذه الصدمات وسواها ، وما ذكرت منها إلا القليل ، جعلت نفس هايني تضيق ببلده وأهله ، فسافر إلى برلين وأخذ ينشر المقالات في الصحف ، وسلك مسلك المتحزبين في السياسة ، فصار له خصوم وأنصار ، وأعداء وناقدون ، وأخذ ينشر شعره ديواناً بعد ديوان على يدي ناشر بارع جشع ، يفتن في نشر مؤلفاته وتوزيعها رغم رقابة الحكومة .

التفت إلى مؤلفاته رهط من ذوي السلطان والنفوذ ، فكرهه البروسيون ونقموا عليه وحكموا عليه بأشد عقوبة . وسلقه بألسنة حداد تقاد أشرار أقوياء ممن يؤجرون أقلامهم وضمائرهم ، فكره ألمانيا المستمسكة بأهداب القديم المهلهل ، الطافرة شبيبتها إلى الاقتباس القلق غير المهذب عن مدنية مذبذبة مضطربة .

سافر إلى إنجلترا ، وعاش مع أهلها ، فأحس بفضائلهم كشعب ، ولم يحسوا بفضائله ، فعاف بلادهم ، وسافر إلى إيطاليا ثم إلى فرنسا وقد أحبها ، « ما أشبه فرنسا بفردوس يقطف منه المرء أجمل زهور لينسقها في باقة ، وهذه الباقة تدعى باريس »

عرف في باريس مفاتنها ومباذل أهلها ، ومجامع البوهيميين فيها ، وعرف نساء بائعات المتعة ، فاستعاض بهن عن عرائس فكره وآلهة أحلامه وشعره ، وانغمس فيهن أي انغماس ، وصارت هذه الطغمة من فاجرات الطريق قبلته وديدنه ، لا يأنس بواحدة حتى يلوذ بسواها .

ما أحسب أن هذا من نكسة طارئة أو ما يسمونه مركّب النقص ، بل أعتقد أنه الحافز النفساني إلى رؤية الأشياء واختبار الأشخاص من نواحيهم المتقابلة ، وأعتقد أيضاً أن الصدمات التي صدمت هذا الشاعر الطموح في مستهل حياته هي التي صقلت روحه فجعلته وضاء بهياً ، وصفّت نفسه ونقتها من زغل المجتمع وزيفه ، فصارت نفساً إنسانية خالصة من الشوائب والأدران ، وطهرته من الرجس فصار فيلسوفاً ساخراً يبسم من ضعة الإنسان وفساد المجتمع ، وهكذا تحول إلى ناقد ساخر يفيض من نبع متدفق ، وإلى شاعر غريد لطيف الحس رقيق الشعور ، ينشر القصيدة فيغنيها كل الناس ، ولو أن مخلوقاً سواه ، ناله من دهره ، ومن وسطه ، ومن زمنه ، ومن إرثه ما نال هايني لأصبح حتماً لصاً ، أو نصاباً ، أو مجرماً ، أو أشياء أخر تبدو فيها عناصر الإجرام وتتضح خصيصة الشر .

أضف إلى نكبات هايني المسكين ما نكبته به زوجته وهي فتاة، من «الميدينيات» كما يسميها الباريسيون ، أي عاملة في المحلات التجارية ، التقطها هذا الشاعر العظيم من دكان متواضع ، وكلف بها — لأنها كانت تجهل شأنه في الهيئة الاجتماعية ، ومكانته في عالم الأدب والفن . وعظمته في الشعر ، ولأنها ما كانت تعرف عنه إلا أنه زوجها الطيب ورجلها الحبيب ، فتحمّل زهوها وغطرستها ، وتبذيرها وسوء إدارة بيتها ، ودلالها وحماقتها ، وثرثرتها مع العاملات أترابها، وازورارها عن علية القوم وعظماء الفكر أصدقاء زوجها ، وخشونتها الفظة وغيرتها الآكلة ، فامرأة بهذه الخلائق تكفي لإخراج رجلها ، أياً كان ، عن أطواره الطبعية ، ولجعله على الأقل يتململ أو يشكو ، ولكن هايني كان يسكت لأنه كان يحب زوجته حب الهيام ، ولعلي لا أعدو الحقيقة إذا قلت إن مبعث هذا الحب العجيب هو « الليبيدو » الذي حدثنا عنه « فرويد » العالم النفساني العظيم ، وهو حب يماثل حب « بدلير » لعشيقته السمراء . وكثيراً ما كان هايني يكف عن الكتابة ليسمع غناء زوجته الحلو العذب الرقيق على قلبه ، وما كان يتأفف قط من إهمالها إياه إبان مرضه ، وهي منصرفة إلى تضميد أذن قطتها وقد أصيبت بخدش بسيط . فهذه « الزوجية المزمنة » والمصيبة الدائمة التي لا ترحم ولا تني ، بقصد أو بغير قصد ، عن تعكير حياة الشاعر وهي عكرة بطبيعتها ، قد أضيف إليها المرض فأخذ يدب إليه فيشل إصبعاً ثم إصبعين في يده ، ويقهره على أن لا يكتب ، وتلازمه أوجاع الرأس ، ثم العين ، ثم ينشب الشلل أظافره في جسمه، ولكنه يقي ذهنه النير فلا يصيبه بسوء . وهكذا أصبح الشاعر طوال مدة المرض وقد دامت ثماني سنوات

كأنه رأس انكمش فتجمعت فيه الحياة ، وقد كانت موزعة في الجسم والأعضاء .

إذا جمعنا هذه النكبات لنقارنها بما أصاب «أيوب الصابر» ونوازن بين نواح أيوب وبكائه وتوجهه إلى ربه يستغفره ، وبين الشاعر هايني يملأ الدنيا تغريداً من شعره الغنائي البديع ، ومن سخريته البارعة اللاذعة ، رأينا الفرق في النفسيتين : تدور الأولى حول ذاتها ، لا تدفع ولا تجذب إليها أحداً ، وتضم الثانية العالم بأسره بين ذراعي هايني ، ينشد للمعذَّبين فيه أناشيد العزاء والترفيه والفرح ، ويأخذ المعذِّبين فيضرب بهم وجه الأرض ويسوطهم بالسخرية للعبرة والنصح . وأزعم أن شاعرية هايني بما فيها من خصائص العذوبة والحلاوة والسلاسة والسهولة والرقة واللطف والموسيقى التي تبلغ المكامن في النفس فتوقظها ، والمشاعر فتهزها ، تتساوى بقوة النقد الساخر فيه . قال الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد : « يسمع الناس بفلتير ويحسبونه ملك الساخرين ، فهايني أقدر على السخرية من فلتير ، وله بعد ذلك مزية في بدائع الشعر الغنائي لاتعلو عليها مزية شاعر في الأدب القديم أو الأدب الحديث . سخرية تجمع بين الأدب والمجاز ، ولا يختل منها حرف واحد إذا اخترت أن تفهمها على الحقيقة أو اخترت أن تفهمها على المجاز » .

كان هايني من الأحرار الذين يدعون إلى الديمقراطية في البلاد الألمانية ، يوم كان الأمراء والكهان فيها يحكمونها حكم الطغاة المتجبرين ، فقال من أبيات :

« حذار من أمراء عصرنا فإنهم طوال الأيدي ، وحذار من كهانه فإنهم طوال الألسنة ، وحذار من أفراد الشعب فإنهم طوال الآذان ... » .

فافهم من طول الأيدي أنهم منتقمون بطاشون ، أو افهم منها على المجاز أنهم لصوص . وافهم من طول الألسنة أنهم خطباء لسنون ، أو افهم على المجاز أنهم وشاة كذابون . وافهم من طول الآذان أنهم يسمعون ويصدقون ما يقال ، أو افهم منها على المجاز أنهم ... حمير .

يعلم القراء أن تمثال « الزهرة » ربة الجمال مكسورة الذراع ، فلما أحس هايني المسكين بدبيب الشلل يسري في جسمه العليل ، ذهب إلى متحف اللوفر يودع التحف الفنية وداعه الأخير ، وكتب في ذلك التوديع يقول :

« ياربة الجمال ، عبدتك وقضيت العمر في الصلاة لك دون غيرك من الأرباب ، فمدي لي ذراعيك . . . » .

« وا أسفاه إنها بغير ذراعين ! » .

وعقد مقارنة بينه وبين « دون كيشوت » الفارس المجنون فقال :

« علام السخر من دون كيشوت، وأنا نفسي دون كيشوت يعيش في هذه الأيام، غاية ما هنالك من الفرق أنه كان يرى طواحين الهواء في زمانه فيحسبها مردة ، وأنا أرى المردة في زماني فأحسبهم طواحين هواء » !!

« وأنه كان يرى زقاق الخمر فيحسبها سحرة نائمين ، وأنا أرى السحرة النائمين فأحسبهم من الزقاق المملوءة بالخمور » ! !

« وأنه كان يرى جواري الطرق فيخيل إليه أنه يخاطب السيدات والخواتين، وأنا أخاطب السيدات والخواتين فيخيل إلي أنهن جواري الطرق متنكرات أو سافرات ».

وأحب فتاة هي « ابنة عمه » خطبت لغيره وثارت به الغيرة يوم زفافها ، فتسلل إلى الدار بين الأشجار ليسمع في الظلام أنغام الموسيقى وضحكات الراقصات والراقصين ، فنظم في ذلك أبياتاً يقول فيها :

«هل رأيتني في ذلك المساء ؟ لا ... إنني أنا رأيتك ... لأن من في الظلام يرى من في النور ، ولكن من في النور لا يرى من في الظلام ».

أختم هذا الاقتباس بمثالين من السخرية البالغة في الإيلام :

« كان المرضى ينذرون للقديسة . . . نذوراً فيصوغون للجسم المعلول تمثالا من الفضة أو من الشمع يضعونه عند بسطة هيكل القديسة فتحضر القديسة في الحلم تبشر أهل المريض أو لا تحضر » .

« قدم أهل مريض تمثالا من الشمع لقلب وليدهم العليل ، وكان في مقدورهم صياغته من الفضة ، زارتهم القديسة في الحلم تبشرهم بتقبل النذر » .

« هبوا فرحين مستبشرين وإذا بمريضهم قد فارقته الحياة » ؟ ! !

وكتب يقول : « إن في النساء أديبات كاتبات ، ولكن المرأة حين تكتب تنظر بالعين الواحدة إلى ما تكتبه وتنظر بالعين الثانية إلى رجل . . . إلا فلانة فإنها تنظر إلى الرجل وإلى ما تكتب بعين واحدة . . . لأنها عوراء » !

٭٭٭

صنف الأستاذ أحمد الصاوي محمد كتاباً في «هايني» قال فيه : « إن حياته كانت حياة العذاب والإبداع » فقرأته قراءة الناقد المتجرد ، ولما فرغت من قراءته وقفت وقفة الحائر أسائل نفسي : أين جوانب هايني المتعددة ؟ أين شعابه ومسالكه ونظراته في الحياة التي عرف بها ؟ وأخذت أتلمس الأثر الذي تركه في نفسي عن سيرة المترجم له .

لم أجد في هذا الكتاب سوى ناحية نشأة « الطفل اليهودي الملعون » وصلته بعمه « اليهودي المليونير الخنزير » وأنواع فجوره بالعاهرات وقد حملنه « مرض الزهري اللعين » وزواجه من « فتاة ملعونة بائعة أحذية » ، ورأيته يخب في هذا النطاق الضيق تارة ، ويمضي تارة أخرى يجد السير في استعراض الشهوة العارمة التي أضلت ذلك الفتى البائس المريض المسكين ! ! !

ورأيت الأستاذ الصاوي يسرد أسماء طائفة من الكتب استمد منها المعونة . وأزعم أن لو لخص صفحة واحدة من كل كتاب من الكتب العشرين التي ذكرها لأحاط كتابه بكل هذه الجوانب المتعددة التي أثرت عن هايني .

وبعد : فهل عرض الأستاذ الصاوي موضوع مصنفه عرضاً مقبولا وأبرز مزاياه وخصائصه وصفاته بحيث يصل بالقارىء إلى لب الغرض الذي بعث المصنف على تصنيف كتابه ؟ أقول : كلا ، لأن المؤلف اكتفى بالجانب الذي له من نفسه أغلب الميل والهوى ، ذلك بأن شخصية الكاتب هي الكتاب ، والكتاب هو الكاتب ، أعني أن صفات الكاتب فطرية كانت أم مكتسبة ، ودراسته عميقة كانت أم ضحضاحة ، ولغته ركيكة كانت أم فصيحة ، وروحه جامدة كانت أم متحركة ، وغايته نبيلة كانت أم وضيعة ، إنما هي كلها مزيج مركب لا ينفصل ، فالنقد الذي ينصب على كتاب من الكتب ينصب كذلك على المصنف ، ولا عبرة في ادعاء المدعي بفصل شخصية المؤلف عن مؤلفه .

ثم يقولون : هذه أمور ذاتية وتلك موضوعية، وأنا أقول : إن الكاتب الأديب والشاعر والفنان إطلاقاً ، إنما هو ذاتية وموضوعية معاً في كل أداء أدبي للحياة ، حتى في الاعترافات الخاصة ، فإن كانت الذاتية تدل على شمائل وسجايا وخلائق صاحبها ، فالموضوعية تدل على مبلغ روحانيته وشعوره وإحساسه بالحياة الإنسانية خارج نفسه ، وكلا هذين لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، لامتزاجهما معاً ، أو لاندغامهما في بعض .

فالأستاذ الصاوي عالج جانباً واحداً من الموضوعات ، ومنها كتابه « هايني » ففنيت ذاتيته فيه ، وثبت أسلوبه عليه ، فمن الافتئات والمكايدة أن نطالبه بالتحول عنه..

حبيب الزحلاوي

مرحلة وأجواء

تأليف الأستاذ توفيق اليازجي
١١٢ صفحة من القطع الصغير . دار المكشوف . بيروت ١٩٤٦
نقد الأستاذ محمد عبد الغني حسن

نحن في هذه الحياة على سفر ، نطوي العمر أو يطوينا العمر في مراحل ، وتنزلنا الأيام كل حين في منازل . والشاعر لايقف أمام هذه الرحلات صامتاً ؛ ولكنه يسجلها في شعر موزون أو في شعر منثور ، لأنه يجد في ذلك التسجيل عزاء نفسه حين يتلفت إلى ماضيه القريب أو البعيد؛ فيرى أمساً لا يعود وماضياً لايرجع .

ومؤلف هـذا الكتاب له كغيره من الوامقين ذكريات من الحب تعج بها ليالي سهد وساعات وجد . وهومحب تأكل الغيرة قلبه ، فكل جارحة فيه تنطق بالغيرة المتأججة في صدره . ولقد نطق شعره بذلك حيث يقول :

غيران كل جوارحي غيرى   رسمت شفاهي بسمة حيرى
غيران تاتهم الظنون دواخلي   فتبينها عيني لها جهرا . . .

والمرأة عند الأستاذ توفيق هيَ كل شيء في الحياة . وأنغام قيثارته لا تطرب إلا على حبها حاضرة ، وبكائها هاجرة . فهي النورفي عينه والخيال في فكره والحقيقة في وجوده والملموس في شعوره . وهو يفديها بالفؤاد إذا سخطت والوجود كله إذا غضبت :

فداك الفؤاد فداك المنى   فداك الوجود أيا غاضبه
وجهري وماقد أسر وأخفي   ونشوة ذي القبلة الذائبه

ولقد تظلم الدنيا أمام صاحبنا المؤلف فلا تجلوها إلا ابتسامة من ثغر من يحب فيناجيها قائلا :

ابسمي فالظلام يطفو على عيـ   ـني وفي خافقي ظلال المنون
ابسمي علّ غيهباً في حيـاتي   ينجلي عن غموضه المكنون

ولكن الوشاة يرجفون بباطلهم ويريبون بأقوالهم ، ويظنون في هواه الظنون ، فلا يسكت عنهم ولكنه يرميهم « بمآثم الظنون » فلا يكاد يخلص من عراكهم حتى يرى الدهر له متربصاً فينفث هذه الآهة المتحسرة :

أبني على أنقاض أيا   مي ودهري رابض لي

وفي قيثارة المؤلف استواء في اللحن وانسجام في النغم ؛ إلا أن التوقيع قد يخطئه

أحياناً فينكسر البيت في قصيدته كما ينكسر الوتر في قيثارته حين تتحطم .. اسمعه وهو يقول:

فداك العيون وقد ملها السهـ د سقما مما يعانيه يا عاتبه

ولفظة « مما » زائدة في الوزن . والوزن يستقيم بحذفها فيصبح البيت :

فداك العيون وقد ملها السهـ د سقما يعانيـه يا عاتبه

وهناك قصيدة « مالها » صفحة ٤٤ فقد اختلط فيها الوزن على بحرين هما مجزوء الرجز ومجزوء الرمل المحذوف الذي تصير فيه (فاعلاتن) إلى (فاعلن) والفرق بعيد في الوزن بين هذه الشطرات « في خدرها محتجبه » « أيامه ملتهبه » « أحلامه منتهبه » وهي من مجزوء الرجز وبين « في الهوى ما أغربه » « أي شيء عذبه » وهي من مجزوء الرمل .

ولقد ولد الشاعر أوزاناً جديدة من تفعيلات الشعر المعروفة ، فصنع قصيدة « شقراء » من شطرين : الأول من بحر الخفيف ووزنه «فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن» والثاني وزنه « فاعلن فاعلن » فجاءت قصيدة غريبة على الأذن ! وقد يكون ذلك مقبولا لولا اضطراب الوزن المولد في يديه . فجاء البيت الآتي على هذه الصورة :

اي فجر علا شفتيك عزائي فجرك الدائم

وهو وزن مختل لم أهتد إلى أصله بعد قوله في القصيدة نفسها :

حـلم تائه يضـل طريقي عن عيوني خفي

« فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن فاعلن فاعلن »

والمؤلف ممن يجدون التساهل في اللغة أمراً هيناً ومركباً سهلا ، وتلك سبيل تجرىء الضعاف على التطلع إلى مواطن الفحول ... والذنب في ذلك ذنب الذين جرؤوهم . ولعل الأستاذ ميخائيل نعيمة ملوم على ذلك أشد اللوم حين نشر ذلك في « غرباله » . ولكن مقدمة الأستاذ العقاد (للغربال) شفت نفوسنا مما تجد ...

وأي تساهل أكثر من أن يقول الشاعر :

سكرة في خفوق قلبي غشتها . والصواب غشيتها .

أو أن يقول :

« وطغت مادَة الوجود عليه » بفتح الدال من كلمة مادة والصواب تشديدها .

أو أن يقول :

« هاله الأمس وهذا الغد الداميُ الجرح على مدنف » . بإثبات الضمة على لفظة الدامي ، وهي ثقيلة !

ولا يعتذرنّ المؤلف بأن الضرورة ألجأته والأوزان أحوجته فإنه في شعره لم يبال بوزن ، وفي بنائه لم يبال بلغة ولا نحو . فعذرنا نحن إليه ؛ حين نطالبه بما يشق عليه .

محمد عبد الغني

التعريف

لقـــاء

تأليف الأستاذ ميخائل نعيمة

١٠٥ صفحات من القطع المتوسط . مكتبة صادر . بيروت ١٩٤٦

هي قصة موسيقي عاش لفنه السحري الرفيع ومات في سبيل فنه وحبه ، ولم يكن بين حياته وموته إلا أيام قصار في عمر الزمان الطويل ، ولكنها أيام عذّبت أسرة بأكملها ولم يكن للمسكين يد في العذاب . . . ولكنها « كمنجته » الساحرة التي كان يأنس الوحش إليها في الفلاة ، وتسكن السباع إليها في الوادي السحيق . . . وادي العذارى الذي قيل فيما قيل إن أحد الرعاة فيه فتن ثلاثاً من العذارى بنايه السحري الرقيق ، وكن يتهافتن على أنغام نايه ويتهالكن على حبه ، وهن بنات أمير مطاع له صولة وأتباع . . . فابتلع الوادي المحبات والحبيب إلى حيث لم يعلم لهم قرار ، ولم تبق لهم آثار .

أما بطل القصة « ليوناردو » فقد سمعت الفتاة « بهاء » لحناً من ألحانه اسمه « لقاء » ففتنها اللحن في ليل خطبتها إلى شاب لم يؤلف بينها وبينه حب ولم يرتبط قلب . وما سمعت اللحن حتى ضاع صوابها وجمدت أعصابها ويئس القريب والبعيد من عودة الحياة إليها، وظن الناس أولا وجزموا أخيراً أن «ليوناردو» نفث فيها عقدة من السحر.

واتهم ليوناردو بالسحر والحق أنه كان مسحوراً . فلما رأى ما حل ببهاء ولم يكن له في ذلك باع ولا يد ، هرب إلى وادي العذارى وأودع « كمنجته » صديقاً له ، وأنس بالوحدة في إحدى مغاور الوادي عازفاً على ناي لعله الناي الذي فتن الثلاث الفتيات من قديم الزمان . ولعل ذلك الراعي القديم هو بعينه صاحبنا الموسيقي الجديد مرت عليه عصور وهو روح تسرى في الأجساد حتى استقرت في جسد جديد . . . ولعل «بهاء»

الجديدة هي بعينها الأميرة القديمة إحدى الشقيقات الثلاث ، ولعلهما تعارفا في سالف الأزمان يوم كانت ابنة أمير عظيم وكان هو راعياً لأغنام أبيها .

فلم تكن بهاء للشاب ليوناردو يوم التقيا في حفل خطبتها إلى روح غريبة عليها ، ولكنها كانت له منذ التقيا قبل ذلك بأزمان ، ولم يطو لقاءهما مرور الزمان . .

ولكن الناس يقيسون الزمان والمكان بمقاييسهم التي هي مقاييس البدء والنهاية ، فالولادة عندهم بداية ، والموت عندهم نهاية . أما أن تكون قبل البدايات بدايات ، وبعد النهاية نهايات ، وأما أن يكون الزمان وصلاً لا قطع فيه ولا انفصال، فذلك عند الناس من ضروب المحال . .

ولم يستكثر الناس على الزمان دوام الاتصال وعقولهم أقصر من أن تدرك الغايات وتحيط بالبدايات والنهايات .

هذه فلسفة قصة « لقاء » وهي فلسفة الأرواح التي يقول فيها الحديث النبوي الشريف (الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف) .

حكايات من الهند

الجزء الثاني . ترجمة الأستاذ عبده حسن الزيات المحامي

١٠٠ صفحة من القطع المتوسط . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٦

في فن الحكاية على بساطته لذتان : لذة القصة حين تطرب لها الأذن ويرهف لها السمع ، ولذة العبرة حين تصادفها النفس في غيرها فتحمد الله أنها لم تكن هي ذاتها هدفاً للتجربة وموضعاً للامتحان . .

ولكل أمة حكاياتها وحكّاؤها . . ولكل حكاية لونها المحلي الذي تصبغها به العادات والتقاليد والمذاهب القائمة . ولكن حكايات الأمم على اختلاف أجناسها وأديانها تلتقي في النفس البشرية التي لا تحدها أرض ولا تسورها تخوم .

وقد تبدو بعض الحكايات تافهة لمن لا ينعمون النظر فيما وراءها . ولكن حاكيها لم يدونها عبثاً ولم يسطرها عفواً ، ولكنه يرمي إلى النصح في قالب حكائي، فإن النصيحة المجردة المسبوقة بأداة الأمر أو النهى لا تفعل في النفس ما تفعله الحكاية على سذاجتها ، وخير مثال على ذلك حكاية امرأة الأب وابن زوجها . فقد قال الغلام

لامرأة أبيه غاضباً : أ كنت تعامليني هذه المعاملة السيئة لو كنت لي أمّاً ؟ فلم لا تعامليني كما لو كنت ولدك ؟ فأجابته . أ كنت تخاطبني بهذه القحة لو كنت لي ولداً ؟ فلم لا تعاملني كما لو كنت أمك ؟

وهناك حكاية اللفظة والصفعة : فقد نعت رجل آخر بأنه لص ، فصفعه صفعة مدوية جعلته يصرخ ألماً ، وبعد دقائق قال المضروب للضارب : إن ضربتك ما زالت توجعني ، فأجابه الآخر : وكلمتك أيضاً ما زالت تؤلمني .

ألا يحضرنا بهذه المناسبة قول الشاعر العربي : —

جراحات السنان لهـا التئام ولا يلتام ما جرح اللسـان

وفرق ما بين الحكمة الهندية والحكمة العربية أن حكيم الهند سوّى بين إساءة اليد وإساءة اللسان في شناعة العدوان . ولـكن حكيم العرب جعل إساءة اللسان مما يعز على الغفران .

وهنـاك حكاية الغراب والـكركي : فقد رزق كل منهما فرخاً ، فحمل الـكركي فرخه إلى الغراب وقال وهو ممتلىء عجباً بصغيره : هل تستطيع أن تفرخ فرخاً له مثل هذا البياض ؟ فأحضر الغراب فرخه وقال للـكركي : وهل تستطيع أنت أن تفرخ فرخاً له مثل هذا السواد ؟ !

وهي حكاية على سذاجتها تحمل في حضور الجواب وصدقه ووجه التعجيز فيه ما ينقطع معه نفس المفاخر بما لا مزية له في اكتسابه ولا فضل له في اجتلابه .

لقد وضع هذه الحكايات بالإنجليزية الـكاتب الهندي . أ . آيار . ليهيء لقومه حكمة في جو من الفكاهة والتسلية حتى لا تثقل على نفوسهم . ثم رأى المترجم أن ينقلها إلى العربية ضنّاً بها أن تظل حبيسة عن كثيرين من قراء العربية ممن لم يتح لهم الاطلاع عليها أو الوصول إليها .

وحري بأفكار الأمم أن ينشرها التداول ويذيعها التبادل في عصر تشتد فيه حاجات الشعوب إلى حسن التفاهم .

من عبقريات نساء القرن التاسع عشر

تأليف الأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

٢٥٢ صفحة من القطع المتوسط . مطبعة المعارف . بغداد ١٩٤٦

ما عقم تاريخ العرب في نسائه منذ كان للعرب تاريخ مروي أو تاريخ مكتوب ، فهؤلاء الشواعر في الجاهلية وصدر الأسلام والعصر الأموي كان لهن من الشعر ما يتناشده الرواة ، فهذه الخنساء ملأت الأدب العربي بدموع الحزن على أخويها وأولادها ، ولكنها لما جاءها نعي أولادها في وقعة القادسية حمدت الله الذي شرفها بقتلهم . وهذه السيدة سكينة بنت الحسين بن علي كانت تستمع إلى الشعراء فتجلس بحيث تراهم ولا يرونها ، وتفاضل بينهم وتجيز مجيدهم . فبدأت بذلك الندوات الأدبية التي اشتهرت بها فرنسا في القرن التاسع عشر .

ولقد ظهر في القرن التاسع عشر ثلاث أديبات عربيات حللن في التاريخ الأدبي للمرأة العربية مكانة لا يستهان بها . وهن السيدات عائشة التيمورية ووردة اليازجي وزينب فواز . وقد ولدت وردة وزينب في لبنان ، ولكن الأقدار طوحت بهما إلى مصر ، وكان للاسكندرية نصيب من حياتهما . أما عائشة فقد ولدت بالقاهرة من أم شركسية .

والواقع أن ظهور الثلاث الأديبات في عصر واحد كان بداية لنهضة المرأة العربية بعد أن ظلت في زوايا النسيان بضعة من القرون ، وهي نهضة مكنت بعد لظهور باحثة البادية ملك حفني ناصف والنابغة مي زيادة ومن جاء بعدهما من أديبات القرن العشرين

أفرد المؤلف لكل أديبة من الثلاث فصلا خاصاً بها ، فترجم لحياتها ودرس تلك الحياة على أضواء شعرها أو نثرها ، وأورد في خلال ذلك طائفة من آثارهن مع شرح المناسبات التي قيلت فيها تلك الآثار .

ولقد اتسع له مجال القول في التيمورية واليازجية ، على حين لم تحظ منه السيدة زينب فواز إلا بدراسة موجزة ، كنا نود لو طالت حتى يعتدل ميزان الترجمة في الكتاب.

وقد ازدحم الكتاب بأغلاط مطبعية كثيرة ، تدارك المؤلف بعضها في جدول بآخر الكتاب ، وفاته منها الكثير .

ابن طفيل وقصة حي بن يقظان

تأليف الدكتور عمر فروخ

٩٨ صفحة من القطع المتوسط . بيروت ١٩٤٦

حي بن يقظان قصة فلسفية بلغ من أهميتها أنها ترجمت إلى كثير من اللغات الأوربية الحديثة ، ونقلت إلى اللاتينية من زمن بعيد . ويرمي ابن طفيل من هذه القصة — إلى جانب عرض آرائه الفلسفية — إلى التوفيق بين العقل والنقل ، أو بين الحكمة والشريعة ، أو بين الفلسفة والدين . ففي القصة أن حي بن يقظان تولّد في جزيرة من غير أب ولا أم ، ثم نشأ ونما ، وعلم نفسه بنفسه ، فعرف كل شيء بالنظر ، وانتهى إلى معرفة الله الواحد علة الكون ومحدث العالم . وفي جزيرة مجاورة نجد سلامان وصديقه أسال يحكمان أهلها على ملة صحيحة مأخوذة من الأنبياء ، ويهجر أسال جزيرته ويذهب إلى حي بن يقظان فيلتقيان ويجدان أنهما متفقان في معرفة الله ، أحدهما عن طريق العقل ، والثاني عن طريق الشرع والنبوة .

لخص الدكتور فروخ كل ذلك تلخيصاً حسناً ، وبين عصر ابن طفيل وتوسع في تاريخ الدول المعاصرة ، ثم ترجم لابن طفيل ذاكراً مولده ووفاته وأساتذته وتلاميذه ، وحلل بعد ذلك فلسفته ورأيه في المعرفة والعلوم الطبيعية وعلم ماوراء الطبيعة والاجتماع والأخلاق . واختتم الرسالة بأثره في الشرق والغرب .

وحاول ابن رشد التوفيق بين الدين والفلسفة كذلك ، ولا غرابة ففلاسفة ذلك العصر في الشرق والغرب على السواء شغلوا بهذا التوفيق ، ويعتمد ابن طفيل في فلسفته على أرسطو مازجاً بين آرائه وآراء الأفلاطونية الحديثة وغيرها . قال أرسطو بقدم العالم وبأن الله هو المحرك الأول ، وقال ابن طفيل بأن الله هو الصانع الأول وأن العالم محدث .

غير أن المشكلة الكبرى التي تعرض لها ابن طفيل وأبرزها الدكتور فروخ هي « النشوء المرتجل » وهي نشأة الأنسان من تراب الأرض بعد تطورات طبيعية حدثت من زمان طويل ، هذه هي خلاصة مذهب التطور أو النشوء والارتقاء ، ومع ذلك فالتسليم بهذا المذهب لايحل كيف يخرج الحي من الميت ، وكيف ظهر النوع الإنساني من أنواع الحيوان .

رسائل ابن المعتز

في النقد والأدب والاجتماع
جمعها وشرحها الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي
١٤٤ صفحة من القطع الكبير . مطبعة مصطفى الحلبي . القاهرة ١٩٤٦

أمير المؤمنين — ولكن لليلة واحدة — عبد الله بن المعتز ، من أعلام الأدب والبيان ، في القرن الثالث الهجري ، مات في ٢ ربيع الثاني سنة ٢٩٦ ، وهو شاعر عبقري ، وأديب ممتاز ، لم تشغله الإمارة ولا ألاعيب السياسة ، عن الأدب والتأليف . وآثاره نادرة ، منها ديوان شعره ، ومنها كتاب البديع ، وقد نشره جامع هذه الرسائل في العام الماضي ، ومنها طبقات الشعراء ، وقد طبع قسم منه في أوربة .

وهذه الرسائل كلمات منثورة ، وكتب صغيرة ، جمعها الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي من مصادر عدة ، استقصى مااستطاع الاستقصاء ، وأحسن في جمعها وتبويبها وشرحها . جعلها أثراً نفيساً في أيدي القراء . وقسمها إلى أقسام أربعة :

القسم الأول : آثاره في النقد الأدبي

القسم الثاني : رسائله الأدبية وآثار أخرى

القسم الثالث : حكم وآداب

القسم الرابع : أرجوزتان له ، الأولى في تاريخ المعتضد ، وهي طويلة ، تتجاوز الأربعمائة بيت ، وصفها الأستاذ أحمد بك أمين في ظهر الإسلام بأنها « صورة مصغرة لنمط الملاحم ، كالإلياذة والشاهنامة ، وسدت بعض النقص الذي يوجد في الشعر العربي » ! ويقول الأستاذ جامع الرسائل إنها « بقيت مهملة بحوادثها التاريخية المجهولة ، حتى قمت اليوم بشرحها ونشرها في هـذا الكتاب ، وهو عمل له قيمة كبيرة في خدمة تراث ابن المعتز الأدبي » . والأرجوزة الثانية في ذم الصبوح ، وهي طويلة أيضاً ، وإن كانت لاتبلغ مبلغ تلك في الطول . ثم ذيل الأستاذ هذه الرسائل بقصائد وقطع لابن المعتز ، خلا منها ديوانه المطبوع . وهذه فائدة جليلة يسديها الأستاذ للأدب وللشعر ، تصلح تمهيداً لتحقيق ديوان ابن المعتز وطبعه طبعة كاملة مصححة ، فإن الديوان المطبوع مليء بالتحريف والتصحيف ، ولا يحوي كل شعر ابن المعتز . وفي دار الكتب المصرية نسختان كاملتان منه كما يقول الأستاذ . فلعله يوفق للعناية بإخراجه إخراجاً علمياً صحيحاً إن شاء الله ، يضيف به مأثرة إلى مأثرتيه في خدمة كتب ابن المعتز وأدبه .

صَدَى النقد

الشوامخ — أبو عبادة البحتري

رد على نقد

بقلم الدكتور محمد صبري

ليس هذا رداً على نقد بالمعنى الصحيح، وإنما هي ملاحظات عنت لي بمناسبة ما كتبه الأستاذ محمد عبد الغني حسن، وما تفضل به من نظرات قيمة كان رائده فيها الإخلاص. والنقد في جميع بلاد الله حر، فنحن لا ننقد النقد ولكننا في الوقت الذي نتقبل فيه كل نقد سليم لا نرى بداًّ من تصحيح بعض المواقف تحقيقاً لغرض النقد الأول وهو الوصول إلى الحقيقة :

١ — يقول الأستاذ الناقد : « وإلا فأين جمال التصوير في قول البحتري :

✡ وإذا النهروان ســاح عليهم ✡

« إن المؤلف يراه في قوله « ساح عليهم » ولو أن البحتري قال فاض عليهم لوجد المؤلف فيها ذلك الجمال عينه ، لأن الدكتور صبري هنا لا يجد الجمال ولكن يتلمسه إلخ ».

وأقول : تكلم البحتري في موطن آخر عن سيح النهروان ولكن كلمة ساح تفيض بالشاعرية .. وهي كلمة مشرقة وضاءة ذات حركة ولون ..

٢ — وقال : « فقد عاب المؤلف على غير البحتري قوله : « تضحك الأرض من بكاء السماء » ولم يعب على البحتري قوله :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها وريق الغيث أحياناً يباكيها

بل جعل في قوله : « يضاحكها ويباكيها » موسيقى وجمال انسجام ، وجعل من ضحك الأرض وبكاء السماء عند الشاعر الأول « كلمات فقدت الحياة وأصبحت كالأزاهير الصناعية التي يحبها أنصار البديع » .. وحبك الشيء يا سيدي الدكتور يعمي ويصم، فإنك أحببت البحتري حباً أنساك ما في بيته من البيان والبديع والاستعارة والطباق، وهي عيوب غيره التي أحلتها في شعره إلى محاسن » .

وأقول : البحتري هو الذي أحال البديع والاستعارة في بيته إلى صور شعرية موسيقية ساحرة ، وهو هنا يصف البركة ويصف الشمس وهي تضاحكها والغيث وهو

يباكيها... وظاهر أن شاعرنا يحس هنا بجمال الطبيعة ويصوره ، والاستعارة قد تكون مجرد استعارة ، وقد تكون صورة حية أو تصويراً ، والفرق كبير بين الحالتين .

٣ — قال : « ولقد أنصف المؤلف حين شرح كثيراً من الألفاظ في شعر البحتري شرحاً لغوياً وهو عمل لم يكن منه بد ... ولكن الإطالة في هذا قد تجعل من الكتاب معجماً لغوياً تضيق به الصدور .. فلقد شرح كلمة "شرف" في قول البحتري :

في حلبة تضحك عن بدورها كان الرجال شرفاً لسورها؛

وأقول : إن كل ما نقلته عن اللسان في شرح كلمة شرف جمع شرفة لا يشفي الغليل وفيه إبهام وعدم دقة « الشرفة ما يوضع في أعالي القصور وجمعها شرف » . والشرفة من القصر « ما أشرف من بنائه » وقصر مشرف بالتشديد أي مطول ... » فهذا يطابق وصف الحيوان والنبات المبهم في جميع معاجمنا . .

وتحديد معنى الكلمة هنا له خطره ، لأن تصوير البحتري أول تصوير من نوعه في الشعر العربي ، لأنه كما قلت لم يكتف بوصف الحلبة بل ذكر السور الذي يحيط بها وذكر المتفرجين المشرفين من أعلاه أو من جنباته .

٤ — ثم قال : « وما حاجة القارئ أن يقرأ في عرض جميل لشعر البحتري هذا الكلام شرحاً لكلمة قيض " تقيضت البيضة تقيضاً إذاتكسرت فصارت فلقاً ، وانقاضت فهي منقاضة تصدعت وتشققت ، وقاضها الفرخ قيضا شقها ، وقاضها الطائر شقها عن الفراخ فانقاضت ، وقال ابن الأثير : قضت القارورة فانقاضت أي انصدعت ولم تتفلق ، وانقاض الجدار انقياضاً أي تصدع" ... »

وعلق الكاتب قائلا : « اللهم إن هذا ليس عرضاً للشعر ولا تحليلاً له ، ولكنه حشو للدماغ بما به ينقاض .. على نحو ما كان يصنع شراح القصائد من أمثال ابن حجر المكي إلخ . . »

وأقول : إن هذه مبالغة ظاهرة ، وكان يحسن بالناقد أن يذكر البيت أو الشطر الذي وردت فيه الكلمة حتى يحكم القراء على بينة :

☆ وما قيض للأحزان قيض المعمّر ☆

استعمل البحتري هنا كلمة « قيض » استعمالا شعرياً رائعاً لمح فيه إلى جميع معانيها وألوانها وشروحها اللغوية . أقول جميعها ، وقد عقبت على ذلك بقولي : « أي إن الإنسان ينقض ويتصدع للأحزان ويتشقق عنها كلما كبر . . وكلما كبر توافدت عليه الأحزان والفواجع ورق حسه وظهرت الصدوع في كيانه »

فهل في ذلك الشرح والتعقيب « حشو للدماغ بما به ينقاض » ؟ ذلك ما أترك الحكم عليه للقراء .

٥ — قال : « وكذلك لم تعجبه رواية البيت الآتي من قصيدة يصف فيها البحتري معركة دارت بين ابن دينار والروم :

كأن ضجيج البحر بين رماحهم — إذا اختلفت — ترجيع عَوْدٍ مجرجر

ورآها " كأن ضجيج البحر بين رياحهم " لأن اختلاف الرماح — عند المؤلف — لا معنى له ولا علاقة لضجيج البحر به . والدكتور صبري شاعراً لا يرضى أن يضيف الرياح إلى الجيوش المقاتلة فيقول : رياح جيشنا أو رياح عدونا. وهل للجيوش رياح ؟ » .

وأقول : إن حضرة الناقد فاته أن يذكر أن ابن دينار كان أمير البحر ، وأن المعركة كانت معركة بحرية ، وأني لم أضف الرياح إلى الجيوش المقاتلة وإنما أضفتها إلى الجيوش المقاتلة في البحر ، أو بعبارة أدق إلى الأساطيل ، وللأساطيل رياح إذا اختلفت زاد اضطراب البحر وعلا ضجيجه ، واختلاف الرماح هنـــا لا معنى له ولا علاقة لضجيج البحر به .

٦ — قال : « .. لكن الدكتور صبري آثر العافية أحياناً في بعض المواطن على تنوع المصادر وازدحامها بين يديه ، فقد روى بيتاً من سينية البحتري هكذا :

من مدام تقول ها هي نجم ضوّأ الليل أو مجـــاجة شمس

وتلك روايته . أما رواية الديوان فهي " من مدام تقولها هي نجم " ورواية أبي العلاء المعري " من مدام تقول ها وهي نجم " و «الوهي» مصدر « وهي » بمعنى سقط . ولكن الدكتور لم يشر إلى رواية ياقوت في معجمه "من مدام تخالها ضوء نجم" وهي رواية تخلصنا من تأويلات المعري ومن شروح الشراح ، وما كان لها أن تندّ عن اطلاع أستاذنا إلخ» .

وأقول : إن رواية المعجم للشعر لا يعول عليها كثيراً ، وروايته هنا بالذات قد تخلصنا من تأويلات المعري ومن شروح الشراح . . . ولكنها لا تؤتي العافية ولا ترضي ذوقنا ، فإن كلمة "تخالها" تهبط بالبيت كله وتخمد ذلك «الإشعاع» الرائع في الشطر الثاني..

٧ — وقالْ : « والدكتور يطيل الوقوف في مواقف لا تستحق الإطالة ، وقد لا تستحق وقوفاً ، بينما يمر على مواقف الاستحقاق مر الكرام باللغو . . . فقد أطال الوقوف بباب الأبواب وأبيض المدائن والإيوان حتى الجرماز. ولكنه لم يقرئ "البلهبذ" السلام . . » .

وأقول : إن المواقف التي لا تستحق الإطالة في نظر الأستاذ الناقد كباب الأبواب وأبيض المدائن وغير ذلك من الأماكن الكبرى التي تعرض لها شاعرنا بوصفه الفذ كان يجب الوقوف عليها طويلاً ، لأن جميع الشراح الذين سبقوني لم يفهموها وقد أخطؤوا في شرحها ، كما أخطأ معجم ياقوت في شرح القصر الأبيض، ولا بد من شرح "جغرافية" القصيدة إذا أردنا تفهم الشعر ، فهذه بديهية ، ولا إخالني مررت بمواقف الاستحقاق مر الكرام باللغو . أما كلمة الباهبذ فظاهر أن معناها الخمر؛ لأن المعاطاة لا تكون إلا في الخمر

وتوهمت أن كسرى أبرويـ ـز معاطيّ والباهبذ أنسي

٨ ـــ وقد أشار الأستاذ محمد عبد الغني حسن إلى الأخطاء المطبعية ، وحسناً فعل ، وإن كان أكثرها ظاهراً من سياق الرواية أو من الشرح . على أني لا أوافقه على قوله « وفي صفحة ١٦٣

رأيت العراق ناكرتني وأقسمت عليّ صروف الدهر أن أتشاءما

والصواب "أتشأم أي أنتسب إلى الشام"...»

وأقول : إن «أتشأم» بمعنى أنتسب إلى الشام لا يستقيم بها المعنى هنا ، والصحيح أتشاءم أي آخذ ناحية الشام ، أي أرحل . . والبيت التالي يقوي هذا المعنى :

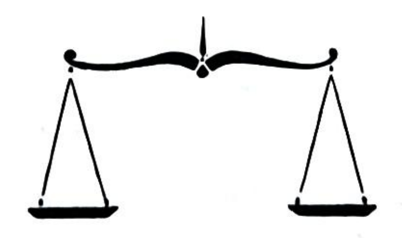
وكان رجائي أن أؤوب مملكاً فصار رجائي أن أؤوب مسلماً

وفيه إشارة إلى قول امرئ القيس :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

ولا يسعني في ختام هذه الكلمة إلا أن أقدم إلى مجلة الكتاب وإلى الناقد عظيم ثنائي لعنايتهما بالتأليف والمؤلفين .

محمد صبري



دنيا القصص

مباراة

من أساطير الإغريق

للأستاذ دريني خشبة

هلموا يارفاق الصبى نستبق مرة أخرى إلى شعاف الأولمب ، في طريقه المنضورة بالورد ، الموشاة بعرائس الغاب ، وحور الوادي ، العبقة بأنفاس العذارى أهرعن من فجاج الأحلام ليشهدن معنا موكب الآلهة . . . فاليوم يوم مينرفا ربة الحكمة وربة الفنون وربة المعرفة ... واليوم ، يوم نبتون رب البحار المتكبر الجبار ، الذي كبر عليه أن تكون أثينا عروس المدائن وأم القرى ، وأثمن جوهرة في كنوز الأرباب ، هبة خالصة لمينرفا لايشركها فيها أحد ، ولا ينازعها عليها أحد ، ولا يكون معها لأحد عليها سلطان .

هلموا إذن نستبق إلى شعاف الأولمب ، لنشهد كيف يقضي الآلهة بين الرب والربة وبين الجبار المدل بقوته ، وبين الحكيمة الفنانة التي تتيه بفنونها ...

* * *

ماذا ؟ . . .

إن أبواب الأولمب الوردية تنفتح ، وتندث منها الآلهة أفواجاً .. وأخشى أن نكون قد جئنا بعد الأوان . . . وإلا . . . فما لربات الفنون فرحات مرحات ، يتواثبن خلال السحاب الموشى ، هاتفات باسم الزعيمة المقدسة ، متغنيات باسم مينرفا ، الملهمة الكبرى أن قد بوركت ... بوركت ... بوركت ... فلقد اشترط سيد الأولمب أن يهب الناس نبتون إحدى بركاته ، وأن تهب الناس مينرفا من أنعمها ، فمن وهبهم خيراً مما يهب الآخر كانت له عروس المدائن ، وخاصت له أثينا أم القرى . . .فإذا نبتون يهب الناس أول

جواد شهده ظهرالأرض ، فإذا هويصول ويجول ، وإذا هو يشمس على الإنسان ويجمح ، ويضرب الأرض بحوافره الغلاظ الشداد ، فيتطاير منها شرر يشيع الذعر في نفس الإنسان ، فيزهد فيه ، ويزور عنه . . . وهنا تبرز مينرفا . . بسامة ريانة . . تنظر إلى المشرق الضاحك ، فتستيقظ أورورا لترقص بين يدي ربة الفنون ولتنثر من أوراق الورد والبنفسج على بساط الشفق ، وليثب بعد ذلك أبلو — إله الموسيقى — فيداعب أجفان الورى بقيثاره ، حتى إذا كانت الدنيا كلها آذاناً مرهفة ، تبسمت مينرفا عن فم شتيت حلو . . ثم مدت في النسيم السعيد ذراعاً بضة ، وتلقت من السماء بأناملها الفينانة الغضة ، وَدِيّـةً[1] صغيرة كأقل ماترى العين من صغار الشجر ، ثم نظرت إلى الثرى المعطر فانفجرت فيه حفرة يسيرة ، فجعلت فيها مينرفا جذور الودية ، ولم تمض لحظات حتى بسقت زيتونة كبيرة مباركة ، طيبة الجنى ، دانية الأكل ، لم يفرح الإنسان من قبل بصبغ[2] مثل صبغها ، ولم يفئ عليه شيء واحدكالذي أفاءت عليه من خير كثير .

وأقر الآلهة بفضل مينرفا . وذكروا ماقدمت للانسان من قبل من أنعم لاحصر لها ، فمنحوها أثينا ، وقدسوها باسمها[3] .

وهكذا فازت ربة الحكمة والفنون بعروس المدائن . . .

***

والآن ... فلنعد أدراجنا من الأولمب يارفاق . مادامت هذه المباراة بين نبتون ومينرفا قد فاتتنا . ومادمنا قد فزنا بهذا النشيد الحلو الذي ترقرق في أسماعنا من أفواه عرائس الفنون وهن يتغنين مجد مينرفا ، فعرفنا منهن أنها انتصرت على جبار البحار .

ترى من هذا الفتى الشاحب المتداعي الذي جلس عند حفافي الغدير وحده ينشج ويبكي ، ويمزج دموعه بقطر الندى ، ولما تشرق ذكاء ؟

لنقصد إليه لنحييه تحية الأولمب ، ولنواسه ولنسله ، فاليوم يوم الفرحة الكبرى التي لا ينبغي لإنسان فيه أن يأسى .

— « ألا عم صباحاً أيها الأخ الكريم ..

— « أنعمت عليكم السماء بما تحبون ..

---

(١) الودية الفسيلة من صغار النخل ، واستعرناها هنا لأي نبات صغير .

(٢) الصبغ الأدم (كل ما يأكله الإنسان مع الخبز) (٣) من أسماء منيرفا أثينا وباللاأثينا

— « نرجو أن لانكون فضوليين إن ألممنا بهذا المكان فجلسنا فيه معك لحظة !
— « استغفر الآلهة ! تفضلوا فأقيموا ، فهذا كرْمي ، وإنه لكرْمكم ...
— « باركتك السماء أيها الأخ الكريم
— « وباركتكم أنتم . أكنتم عند أولمب ؟
— « كنا عند أولمب ، فلماذا لم تأت لتشهد موكب الآلهة ؟
— « موكب الآلهة ؟! إن لهذا لحديثاً طويلا .. مشجياً .. ولكن .. أليس لكم في شيء من عنب وبرقوق ؟
— « بل هات حديثك أيها الأخ الكريم ... لماذا آثرت الوحدة في كرْمك هذا وعلى حفافي ذاك الغدير ، على المشاركة في عيد الأعياد ، مع الشعب كله ؟
— « عيد الأعياد . . . !
— « أجل .. عيد مينرفا ، ويوم فوزها الأكبر !
— « لا شيء ... إن هذا سري ، وأفضل أن يبقى لي وحدي ...
— « ولماذا ؟ ...
— « لا شيء ...
— « بل ثمة أشياء تكتمها في قرارة نفسك ، وإنها لقاضية عليك لامحالة ...
— « ألا ليتها تقضي عليّ فأستريح !
— « ياعجباً ! ... أتتمنى الموت ؟ ..
— « الموت ؟ ... لا ... بل أتمنى شيئاً آخر ... شيئاً آخر ...
— « ألا تصرح لنا أيها الأخ الكريم ؟ ... إنا لنراك تنطوي على سر هائل ... ولا بد لك من شكوى إلى ذوي مروءة يواسونك ...

***

وامتقع وجه الفتى فجأة وأخذ يرأرئ في أوجه القوم بناظريه الغائرين المترقرقين بالدموع ... ثم تخاذل المسكين ، وسقط إلى الأرض مغشياً عليه .

وأخذوا ينضحون وجهه بالماء يحملونه من الغدير بأيديهم ، لكنه .. وا أسفاه لم يفق .. بل ظل نبضه يضعف ، وجسمه يبرد ، وروحه تسيل ، حتى قضى ...

ووقف القوم يحدجونه بأعينهم المشدوهة ، وهم واجمون محزونون ، لايحيرون ... ثم نظروا من حول الجثة المسجاة فوق الكلأ ، فرأوا أزهار الأقحوان والشقائق تنبت وتتفتح ، ثم تمتد سوقها وتعلو ، ثم تميل عند الوسط لتؤلف إكليلا حزيناً باكياً ، وباقة

آسفة كاسفة ، لاتلبث أن تكون روضة كبيرة حالية بألوان الورد ، وأفواف البنفسج ، ومائة نوع من مختلف الأزهار والرياحين ...

وتنحبس أنفاس الريح لحظة . . ثم تمر يد زفيروس ☆ على الطبيعة الأسوانة فيسري نسيم حلو خافت ، وعندئذ تهتز الروضة النامية فوق جثمان الفتى فتنتثر من أفنانها قطرات هن من غير شك بقية تلك الدموع ... ثم ينظر القوم مسبوهين مشدوهين فإذا زهرة كبيرة بنفسجية تبرز من بين الأفنان فتتحرك هنا ثم تتحرك هناك . كأنما تتفرس في وجوه القوم . ثم تهتز اهتزازة شديدة قاسية . . ثم ينبعث منها صوت حزين موسيقي ، في نبراته شجو ، وفي جرسه أسى ، وتنشىء تقول :

— « اسمعوا إذن قصة صاحبكم يارفاق ... قصة هذا العاشق البائس الذي قست عليه مينرفا قسوة لم تقسها على أحد من قبل ، فحرمته حبيبته إلى الأبد ، وكتبت عليه أن يحزن إلى الأبد ، وأن يأسى أسى لايريحه منه إلا الموت ... لقد آثر الصمت فلم يكلمكم ولم يحرك لسانه بحرف واحد من كتاب قصته الباكية ، التي لن تفتأ العصور ترويها ، وألسنة العشاق في كل زمان ومكان تهتف بها ، وتتسلى وتأسى ...

لقد لقيها في صبيحة باسمة تعبث بقدميها الصغيرتين في كومة من اللؤلؤ قريباً من الصخرة الوردية المشرفة على البحرعند الطريق التي تنعرج بالسائر إلى قصرها المرجاني ، فخفق قلبه ، وسحِّرت عيناه ، واستولى على مشاعره خَدَر غريب لم يحس به من قبل في حياته الحمراء المترعة بالمغامرات — وخشي أن يزعجها ، فاختبأ في دَغَل قريب ، وراح يرقبها وهي تنثني لتلقط الدر ثم تقذف به في الموج ، وحين تسابق سراطين الماء فتحتمي منها بالشبج ، وكلما مرت لحظة مكن المنظر الجميل الساحر للحب الطارىء في فؤاد الفتى حتى لم يحتمل أن أرسل من صميمه آهة عميقة طويلة ، لفتت انتباه الفتاة ، فنظرت ناحيتها ، فرأت هذا الجمال الشاب المفتون منبطحاً على رمال الشاطىء ، وقد ذُهِب به ، فأسرعت إليه ، وشرعت تمر أناملها الغضة الصناع على جبينه الأبيض العاشق ، وتصفف عليه تلك الطرة الناعمة من شعره الفاحم ، تفرقها مرة ، وتسويها مرة أخرى ، حتى أفاق الفتى آخر الأمر ، ونظر فوجدها كلها ! ... وجدها بكل جمالها الذي سحره ، وفتن لبه ، وملك عليه قلبه .. وقد أخذت رأسه في حجرها ، وجعلت توقع أنغام أناملها فوق خديه ووجنتيه ... وملء شعره ... بل في كل جارحة من جوارحه ، بل في كل قطرة من دمه . . . وامتلأت عيناه بالدموع فجأة . . . ثم افترت شفتاه

☆ إله الصبا — ريح الشمال — في الميثولوجيا اليونانية .

عن ابتسامة جعلت ترتجف ثم تأتلف ... فحيتها الفتاة بابتسامة عذبة هادئة :

— « من أنت ؟

— « ... ؟ ...

— « أكنت مختبئاً حينما كنت أداعب اللؤلؤ ؟

— « أجل ... وعفواً ...

— « وفيم غشيانك هذا المكان المجهول من شاطئنا المهجور ؟

— « كان هذا بقضاء وقدر !

— « وكيف ؟

— « أتسألينني كيف ؟ لقد كنت أحس أنني أعيش لهذه اللحظة التي ألقاك فيها الآن ... لقد كنت أحلم بك ولا أدري أين تعيشين ... وقد حاولت ألف مرة أن ألقاك .. وكنت أحسبك إحدى هؤلاء الحسان اللائي ينثرن حبائلهن لكل صيد .. فلم أجدك بينهن ... ولما أيست من العثور بك بين البشر ، خيل لي أنك من الحور . . . من عرائس الغاب أو عذارى الماء ... فرحت أضرب في كل غابة ، وأتلبث بكل أجمة ، وأشرف على كل لجة ، وأستأني عند كل غدير ، وأستذري بكل روض ... حتى رأيتك هنا... ولم تمض لحظات حتى أيقنت أنك ضالتي وأملي ... وتأويل أحلامي ... فخبريني بحق الآلهة عليك من أنت ؟.. من أنت يا من كنت تملئين بالأمس أخيلتي ، وأنت اليوم تضيئين يقيني ؟ ..

— « أتسأل من أنا ؟

— « أجل .. خبريني بربك

— « لا أذكر لك حتى تذكر لي أنت .. من أنت !

— « الذي أستطيع أن أذكره من ذلك الآن أنني بُشِّرت منذ عام أنني سألقاك ، وسألقاك في مكان كهذا المكان ، لكنني لم أكد أبشر تلك البشرى ، حتى أنذرت أنني إن ذكرت لك اسمي فقدتك في لحظات .. أفلا تضربين صفحاً عن معرفة اسمي ، اكتفاء برسمي ؟

— « وأنت ؟ . . لماذا لا تقنع بذاك مني ؟

— « لست أقنع بذاك لأنه لا ضرر من معرفته .. ناهيك بما يغمرني من سعادة وينالني من بهجة إن عرفته . .

— « إذن . . لك ذاك . . ولكني لست ذاكرة لك منه شيئاً إلا أن نكون

نحن الاثنين ، في قصري المرجاني الذي ترى قبابه في الأفق . . فهلم معي ننطلق إليه » .

ثم لفت بذراعها ذراعه ، وذهبا يطويان الرحب إلى القصر . . حتى إذا استقر بهما المقام فيه ، أخذته فطافت به أرجاءه وأبهاءه ، وأطلعته على غرائب فنونها وتحفها ، فلقد كانت الفتاة أبرع أهل زمانها في صناعة الغزل والنسج ، وتوشية الأثواب بالتصاوير التي يحس الناظر إليها أن الحياة تدب في كل دقيقة من دقائقها .

ولم يكد الفتى يفرغ من التفرج بالقليل من تلك الفنون وهذه التحف ، حتى تمتم بصوت سمعته الفتاة :

— « إن تكن هذه الغرائب من صنعتها حقاً ، فإن ظني لا يكذبني أنها أركنيه ! »

فتبسمت الفتاة وقالت ، وهي تتخابث عليه ، أو لعلها كانت تعبث به :

— « وما أدراك بأركنيه ؟ أتعرفها ؟ أرأيتها ؟

— « لم أرها قط ، ولكني أعرف أنها تلك الفتاة المزهوة التي لا تبالي أن تصرح بأنها أمهر ناسجة بنول ، وأحذق مصورة على ثوب ، ولا تستثني من الناس أحداً ، بل هي تغلو فلا تستثني أحداً من الآلهة . . حتى مينرفا ؟ . . .

— « وهل تراها على حق ؟

— « على حق ؟ . . . وكيف ؟ أأكفر بعد إيمان !

— « وماذا في ذاك من الكفر ؟

— « ألا يكون كفراً أن نشهد بأن أركنيه أمهر من مينرفا وأحذق ؟

— « وهل رأيت نسجاً لمينرفا حتى تشهد لها بالحذق والمهارة ؟

— « كل شيء يحذقه البشر فمينرفا أحذق منهم فيه . . .

— « هذا كلام يقال .. انظر إلى هذا الساج الذي نسجته من خيوط الحرير ... أرق من خيوط العنكبوت . . كيف طيرته بمختلف تصاوير الطير . . وكيف جعلت فيه تلك الغابة الكاملة من شتى ألوان الشجر . . . أنعم النظر فيه لحظات ، فماذا ترى ؟

— « أكاد أري طيراً يطير ، وأغصاناً من الشجر مزهرة تتثنى كأنما تهزها الريح ، ويعبق منها الشذى !

— « تكاد ترى ذلك ؟ تكاد ؟ !

— « بل حق ما أرى . . . بل أنا أسمع تسجيع البلابل وترجيع الكنار . . بل أنا أرى جنة كاملة من الطير والشجر والزهر . . . ما أبدع هذا . . . !

— « فإذا كنت أنا صانعة هذا كله ، أفلا أكون عندك أحذق من مينرفا ؟

— « . . . ؟ . . .

— « أراك لا تجيب ، لأنك تخشى الكفر بمينرفا . . . إذن فإليك هذا الطيلسان فماذا ترى ؟

— « أرى عجباً أعجب من العجب !

— « صفه لي . . .

— « ومن يستطيع وصف هذا ؟ بحرلجي تسبح فيه ألف حوراء ، لكثير منها أجنحة عجيبة ترف بها في السماء ، ثم تهبط فتكون في أعماق الماء . ثم هنا سحب مذهبة ، لا تلبث أن تنتقل بما فيها من حمرة الشفق فتكون في أفق المغرب ، كأنما هناك شمس تغرب حتماً . . هذا منظر لا ينتهي يا . . . يا أختاه !

— « هل شهدت الحياة التي تدب فيه !

— « إنها حياة دؤوب فياضة . . إنها تتدفق في كل أركانه !

— « هل تقدر على شيء من مثله مينرفا ؟ . . .

— « . . . ! . . .

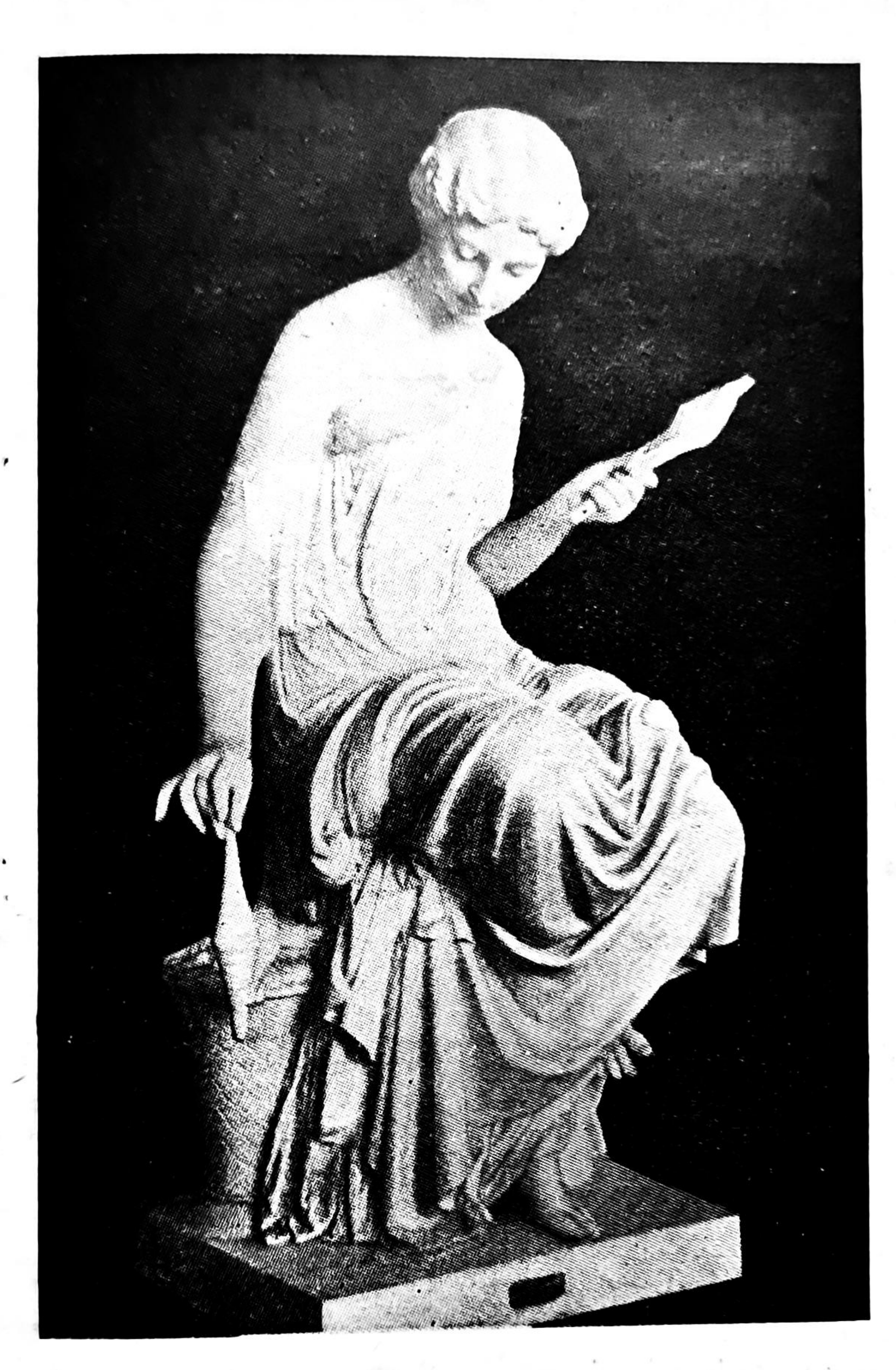
— « بل . . لا بد لك من أن تشهد . . أتقدر على شيء من ذلك مينرفا !

— « وكيف لا تقدر ربة الفنون على خير من هذا ؟

— « إذن . . . فاذهب . . إليك عني أيها المؤمن الوقح ! . . إني أكرهك . . إنك منافق . . إنك غير جدير بحبي . . إن أركنيه تضيق بك . . بل تمقتك . . اذهب اذهب . . لا تدنس قصري . . . . »

ثم شدت حبلاً في الحائط فأقبل الحراس الغلاظ الشداد ، فقبلوا الأرض بين يدي أركنيه ، ثم أشارت إليهم أن يقذفوا بالفتى خارج القصر . . فامتثلوا . . وانطلق المسكين يهيم في الأرض ، مسبحاً باسم مينرفا . . في حين يسبح قلبه بحب أركنيه . . . بل في حين تسبح كل قطرة من دمه بهذا الكنز من الجمال الذي لم يكد يملكه . . . حتى فقده !

وزارتها بعض صويحباتها في ذلك اليوم ، فلاحظن ما يختلط بشحوبها من الهم ، وما يترع عينيها من الفكر ، فسألنها عن ذاك ، فلم تنكر ، بل قامت إلى تحفها وطرفها تعرضها على صويحباتها من جديد ، وتناشدهن الصدق إن كانت مينرفا تقدر على شيء من ذاك . . . فتجيب صواحبها في لين وفي رفق . . . وفي حيطة وفي حذر . . أنها صنعة عجب ، وأنها عبقريات حسان ، ثم يترفقن بالفتاة المزهوة الفخور ، فيزجين إليها



أركنيه تغزل (من عمل الرسام مورو)

النصيحة بأن لا تكثر من ذكر مينرفا في معرض كلامها عن غزلها ونسجها . . . فليس من كلمة تقال إلا وعلمها عند الآلهة ، وليس من زهو على مينرفا وخيلاء إلا وهي تدري بهما . . . « فلماذا يا أركنيه تثيرين غضب ربة الحكمة وربة الفنون والمعرفة ، وهي التي علمتك ما لم تكوني تعلمين من نعمة الغزل وصنعة النسج والتصوير ؟ ثم كيف تؤثرين أن تفقدي محبة أجمل شباب أهل الأرض لأنه ، مع حبه لك ، وهيامه بك ، أبي أن يكفر بمينرفا ، فيدعي أنك أحذق منها غزلا وأبرع نسجاً وأروع تصويراً ؟ . . ثوبي إلى رشدك يا أركنيه وتوبي . . واندمي على ما قدمت واستغفري ؟ »

ولكن الفتاة تركب رأسها . . وتغلظ في ردها . . وتصر على أنها أمهر من مينرفا وأحذق ، وأنها تتحدى ربة الحكمة والفنون والمعرفة ، بل تتحدى الأولمب جميعاً « إن كان ثمة ربة للحكمة والفنون والمعرفة . . أو إن كان ثمة أولمب مما تخالون ؟ »

ولم تكد تتم هذا القول ، حتى سمع طرق بالباب ، وإذا امرأة عجوز حيزبون ، كتبت الأيام في غضون وجهها الناشز المكلثم أسطراً بعضها دقيق وبعضها غليظ ، كما أنقض الزمان ظهرها بحمل ثقيل من شيخوخة وهرم ، استعانت عليهما بعكازة كبيرة قليلة الاستواء :

— « من منكن الجميلة أركنيه يا بناتي ؟ . .

— « مرحباً مرحباً بالأم العزيزة سيرس . . هل أنستك الأيام محياي يا أعز الأمهات ؟ هأنذي أركنيه يا أماه ، فمرحباً بك وأهلا » .

— « وحق الآلهة يا ابنتى ما أبقت السنون من ذاكرتي شيئاً . . إليّ إليّ أضمك إلى صدري المشتاق » .

وضمتها المرأة العجوز إلى صدرها ، فأوجست الفتاة في نفسها خيفة ، فالذراعان عبلتان قويتان ، والصدر يضطرب بنبضات دفاقة خارقة ، والعينان زبرجديتان يكاد زيتهما يلتهب ...

— « ماذا أرى ؟ . . . بوركت يا أولمب ! أصنعتك هذه يا أركنيه ؟ . . .

— « أجل يا أماه . . صنعتي . . . وأستحلفك بما لشيخوختك من كرامة ، هل رأيت فيما مر بك من سنين صنعة مثلها ؟

— « أما للبشر فلا . . .

— « للبشر ؟ وماذا تعنين ؟

— « أعني أن أحداً من البشر لا يستطيع شيئاً من هذا !

— « ومن الآلهة ؟

— « الآلهة ؟ . . . أكفر بعد إيمان يا فتاتي ؟

— « أكفر بعد إيمان ؟ . . ليست هذه كلمتك . . بل هي لغيرك . . لقد قالها فتى هنا من قبل . . .

— « أجل . . قالها هذا الفتى الذي طردته من عندك بعد إذ جن بك . .

— « وكيف عرفته ؟

— « لقيته في حنية من حنايا الغابة يبكي ، فرثيت له وأخذت أواسيه ، حتى ذكر لي من أمره ما كان معك . . . فآليت إلا أن أصلح بينكما . . مالك وميترفا يا أركنيه ؟ لماذا لا تدعين السماء للآلهة ، ما دام أن لك في الأرض شغلاً يعنيك ؟ لماذا تتعرضين لربة الحكمة والمعرفة والفنون في أحاديثك يا بنيتي ؟ من ينكر أنك أحذق أهل الأرض في صنعة الغزل والنسج والتصوير ؟ وما دمت بهذه المنزلة بين بني جنسك وبناته فما لك وللآلهة ؟

— « ذلك أنني لا أعترف لمينرفا بما يدعيه لها أهل الأرض من التفوق في صنعتي هذه . . وقد تحديتها أن تحضر من ذرى الأولمب لتباريني . . . إن كان ثمة أولمب ، أو كانت ثمة مينرفا !

— « يا بنيتي ترفقي بنفسك ، وأبقي على شبابك .. وحسبك فخراً أن تبزي أهل الأرض جميعاً ، فهذا ما يشهد به أهل الأرض أنفسهم لك .. بل يعترف لك به الآلهة . .

— « لا بد من هذه المباراة .. إن كان ثمة أولمب ، أو كانت ثمة مينرفا .. وإلا فلا أولمب .. ولا مينرفا . . .

— « يا لغرور الإنسان ، ويا لزهوه ! يا ابنتي ثوبي وتوبي . .

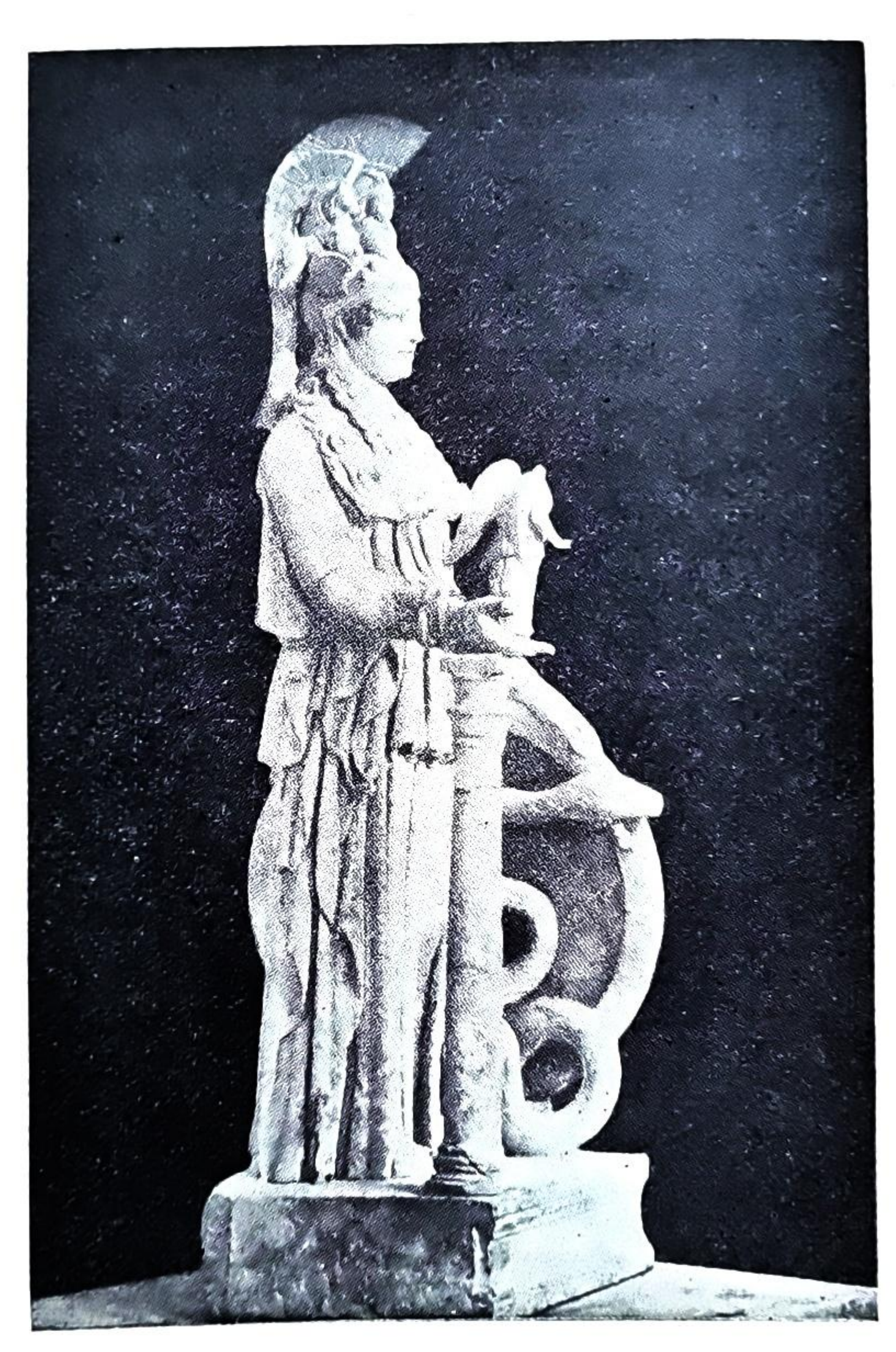
— « بل . . لا بد . . لا بد . . وإلا . . فأنا أول من يكفر بهذا الإفك كله !

— « واهاً لك ! . . إذن . . . فانظري ! . . .

✡ ✡ ✡

ونظرت أركنيه ، فرأت العجوز الحيزبون تنفض أردية شيخوختها . . . وإذا وجناتها تتورد ، وتجاعيد وجهها تزول ، وبشرتها تملس وتلتمع ، وما اعوج من ظهرها يعتدل ، وماخشن من شعرها ينسرح ويغدودن .. وإذا هي مينرفا الخالدة ، ربة الحكمة والمعرفة والفنون ، بدرعها إيجيس التقليدية ، وخوذتها الذهبية الأولمبية ، وطاووسها المزهو المختال ، الذي ركبت في ذيله عيون مديوسا ✡

✡ خليقة شوهاء أسطورية قتلها أحد فرسان الإغريق وأهدى رأسها إلى مينرفا



مينرفا (من تماثيل المتحف الوطني بأثينا)

— « أرأيت إذن أيتها المختالة الفخور . . . ألا تثوبين وتتوبين ؟ هأنذي مينرفا .. أفلا تستغفرين ! إن الفرصة في يديك ، ولم تفلت منك بعد ؟ !

— « أما أنك مينرفا فشيء . . . وأما أنك أحذق مني في صنعة الغزل والنسج والتصوير ، فشيء آخر . . . ولا حكم فيه بيننا إلا للمباراة .

— « مباراة بين ربة وإنسية ؟!

— « ولم لا ؟ . . . هذه صنعتي ، وأنت أول من يشهد لها بالحذق والسمو ..

— « لو لم أكن ربة الحكمة لجعلتك حجراً الساعة !

— « هذا لتتخلصي مني فلا يكون لك منافس في هذه الدنيا ! . . .

— « مسكينة ! لشد ما تجنين على نفسك !

— « وما أنت وذاك ! . . . لتفصل بيننا المباراة !

— « لا تركبي رأسك يا أركنيه ! إن لم ترحمي شبابك فترفقي بالفتى البائس الذي أوقعه سوء حظه في حبك !

— « لا بد . . .

— « إذن . . فلك هذا يا وقاح ! هلمي فهاتي نولك ومنسجك !

* * *

وانطلقت الفتاة فأحضرت النول والمنسج ، ونسيت أنها إنسية من البشر الفاني .. وأنها تتحدى ربة خالدة . . بل ربة هذا الفن الذي تعجب هي به وتتيه . . .

وشرعت أركنيه تغزل خيوطها ، وكلما فرغت من لفة منه حدجت مينرفا بنظرة ساخرة وقالت : خيوط أرق من خيوط العنكبوت ! فتبسم مينرفا وتقول : أجل . . ما أمهرك يا أركنيه ! . . خيوط أرق من خيوط العنكبوت . . بل أدق من خيوط عقلك . . إن لم تكن أوهى !

وفرغت أركنيه من غزلها ، ونظرت إلى مينرفا فلم ترها قد صنعت شيئاً . . فخيل لها أنها فائزة . . وأن ربة الفنون عاجزة . . . فأعدت النول ، ونظمت عليه غزلها . . ثم شرعت تنسج . . وهنا . . . مدت مينرفا يديها في الهواء . . فكان أمامها نول عجيب أولمبي ، وخيوط غريبة كآراد الشمس . . ثم أخذت تعمل هي الأخرى . . . وتبتسم !

وفرغتا من نسجهما . . . ثم أخذتا تصوران . . . أما مينرفا . . . فقد شرعت تصور حادث انتصارها على نبتون وفوزها بأثينا العظيمة المقدسة .

فهذا هو مجمع الآلهة الاثني عشر المقدس ، وقد استوى زيوس ، سيد الأولمب ،

في وسطهم ، وعلى وجهه سيماء العظمة والوقار ، ومن حوله نبتون ، جبار البحار ، وفي يده صولجانه الضخم يضرب به ظهر الأرض فيبرز منه هذا الجواد الجامح الذي يقدمه هدية للانسان . . . ثم مينرفا التي لبست درعها إيجيس ، وقد أخذت تتلقى الودية من الهواء ، فتغرسها في الأرض فتكون زيتونة مباركة . . . فيشهد لها زيوس ، بل تشهد لها الآلهة ، وفيهم نبتون ، بالزكانة والعبقرية والتفوق . . . هذا في الوسط . . . أما في أركان الثوب الأربعة ، فقد صورت مينرفا بضعة مناظر لهؤلاء الأدعياء المفتونين من البشر ، الذين يملأ صدورهم الغرور فيحسبون أنهم أقدر من السماء على كل شيء . . . ولم يكن ذلك إلا نذيراً آخر لأركنيه ، عساها أن ترعوي أو أن تزدجر . . .

وأما أركنيه . . . فقد تعمدت أن تصور فصولا بأكملها من نقائص الآلهة ، وما يعزى اليهم من فعال السوء والخزي والفضيحة ! !

فهذا زيوس . . سيد الأولمب . . يسحر نفسه فيكون ذكراً من ذكران البجع ، ثم يمضي في البركة التي تستحم فيها حبيبته ليدا إلى حيث تستحم هذه الفتاة التي كانت تضيق به وبحبه ، وتشيح عنه وتزور منه . . فلم يملك أن ينعم بالقرب منها إلا بتلك الوسيلة المخزية . . فها هي ذي تداعبه في الماء بيديها الناعمتين ، وهي تحسبه ذكراً من ذكران البجع حقاً ! ...

ثم هذا زيوس في فضيحة أخرى . . يزور داناي البائسة . . التي حبسها أبوها في برج نحاسي حتى لا تتصل بأحد من الناس ، فلا تحمل ، فيقتله ولدها . . كما أنبأت بذلك النبوءة . . فيراها زيوس من علياء الأولمب فيهيم بها حباً . . فيسحر نفسه شؤبوباً من المطر الذهبي ، فينسرب إلى نافذة البرج فيكون إلى جانبها . . . ثم ينتفض فيكون شاباً جميل الطلعة فاتن اللفتات . . فيغري الفتاة . . . فيكون ما حذر منه الوالد المسكين . . . ! وتلد داناي ولدها برسيوس . . قاتل جده !

ثم هذه أوربا . . . عروس الغاب المفتان ، التي هويها زيوس كذلك . . لكنها تصد عنه ، وتضيق به . . . فيحتال لكي يفوز بها ، كما فاز بمائة غادة قبلها . . . فيسحر نفسه فيكون ثوراً ! . . . ثوراً هادئاً أليفاً . . لا يزال يدنو من الفتاة حتى تأنس به وتسكن إليه . . . ثم تستعمله لركوبها . . . فإذا فعلت عدا بها إلى أعماق الغابة . . . ! ! ثم خاض بها البحر حتى يكون في كريت . . .

هكذا صورت أركنيه مخزيات سيد الأولمب . . وفضائح سكان الأولمب . . وناهيكم بما غمزت فينوس . . ولمزت أبلو . . وفضحت مارس ! !

وعرضت مينرفا ما زخرفت به ثوبها . . . فضحكت أركنيه . . بل قهقهت . . قهقهت ساخرة بما صورت ربة الحكمة والمعرفة والفنون . . . ثم نثرت طيلسانها أمام الربة . . . فلم تملك مينرفا أن تعجب ، بل أن تبهت . . . لقد كان تاريخاً للأولمب ، مصوراً حياً ، يوشك أن يتكلم . . بل يوشك أن يعيد نفسه ! ! لقد أوشكت مينرفا أن تقر ، وأن تعترف . . لقد أوشكت أن تنزل عن عرشها لأركنيه . . لولا ما ثار في قلبها فجأة من الغيرة . . وما تولاها من الألم والحزن . . لما جرأت عليه هذه الإنسية من فضح سكان الأولمب على هذه الصورة ! وما عسى أن يشهر بها أهل السموات والأرض من هزيمتها أمام إحدى بنات الفانين في تلك المباراة . . .

لذلك . . . نسيت مينرفا أنها ربة . . فنظرت إلى الفتاة المسكينة نظرة كلها نقمة وكلها جبروت ! قائلة : لقد كنت تفخرين بأن خيوطك أرق من خيوط العنكبوت . . ألا . . فكوني عنكبوتاً . . . وانسجي إلى الأبد خيوطاً أدق من خيوط مينرفا ! !

ولم تكد الربة الظالمة تتم عبارتها ، حتى أخذت أطراف أركنيه تتقلص ، وحتى أخذت خلقتها تتبدل . . وجمالها يذبل ويذوي . . وجسمها يرق ويدق . . حتى كانت عنكبوتاً آخر الأمر . . . ثم أقبل الفتى العاشق من مخبئه الذي كمن فيه بأمر مينرفا . . . فلما أشارت إليه الربة كي ينظر إلى حبيبته ، فزع أيما فزع ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، ومضى لا يلوي على شيء . . قائلاً والريح تقول معه :

تبا لك يا مينرفا أين حكمتك ؟ ردي عليّ أركنيه التي كفرت بها لأومن بك ! !

لكنها سخرت به هو الآخر ، ولم ترد عليه أركنيه . . فانطلق ليهيم في الأرض ، حتى لقيكم . . وحتى مات . . . وسأذهب أنا الأخرى لشأني . . وستتقدمون لتفرقوا هذه الأزهار عسى أن تنظروا إليه . . ولكن هيهات . . . فلن تجدوا من الفتى الذي لا اسم له غير ذكرى .

✡✡✡

ثم تسكت الزهرة الكبيرة البنفسجية . . . ثم ترتد إلى وراء . . ثم تختفي ، ثم تتضاءل الروضة الحالية بمائة لون من ألوان الورود والرياحين . . ثم لا تكون شيئاً . . ويتقدم القوم لينظروا إلى الفتى الميت . . لكنهم لا يجدون شيئاً . . إلا ذكرى . .

دريني خشبة

انبـاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصر

في التاسع من أغسطس سنة ١٩٤٦ تفضل حضرة صاحب الجلالة « فاروق الأول » ملك مصر فرفع بيده الكريمة العلم المصري على « القلعة » بعد أن ظل هذا العلم مقصى عنها أربعة وستين عاماً فكان هذا فألا طيباً سرى في النفوس فبعث فيها الأمل والرجاء .

وهكذا شاء الله أن يعود العلم المصري خفاقاً فوق « القلعة » التي ربضت فوق المقطم ناطقة بما كان لمصر من عزة ومنعة ، ثم دار الفلك دورته فإذا بها أسيرة محتلة تشهد الأحداث وتتطلع إلى المستقبل البسام .

ولو شاهدت العلم وهو ينتفض فوق ساريته لأحسست له في القلوب خفقات الأمل والفداء ، فما صعد درجة إلا رقيت معه الأرواح درجات متشوفة إلى يوم يكون أتم فرحاً وأشمل بهجة وهناء ، يوم تخفق الأعلام المصرية فوق كل بقعة من هذا الوادي السعيد .

وإنا لنسأله تعالى أن يكون هذا الفوز المبارك كوكب الفجر يتلوه صباح جميل ، تنال فيه مصر أقصى ما تصبو إليه من حرية واستقلال في ظلال مليكها المفدى فاروق الأول حفظه الله .

✡ ✡ ✡

تكونت بمراقبة الثقافة في وزارة المعارف لجنة أخذت على عاتقها الإشراف على ترجمة مائة كتاب في شتى العلوم والفنون وتنشر هذه السلسلة بعنوان « أمهات الكتب » .

✡ ✡ ✡

يعمل الدكتور هرست مدير مصلحة الطبيعيات السابق بوضع كتاب عن حوض النيل على نفقة وزارة الأشغال ، ظهرت منه سبعة أجزاء ، ويصدر المجلد الثامن في غضون الشهر القادم .

✡ ✡ ✡

تشرف وزارة الشؤون الاجتماعية على إخراج ثلاثة أفلام خاصة بتثقيف الأطفال لعرضها في « رياض الأطفال » والإصلاحيات .

✡ ✡ ✡

ترجم الأستاذ علي أدهم كتاب « روضات الفردوس » للعلامة مادرياجا ، ويحوي سلسلة دراسات وأبحاث في الفلسفة والأدب والاجتماع .

✡ ✡ ✡

قدم الأستاذ لطفي فام للمطبعة ترجمة رواية « كنديد » لفلتير مذيلة ببحث واف عن شخصية

فلتير الأدبية وتحليل فنه وبالأخص في هذه الرواية . ومما هو جدير بالذكر أن المترجم نال عن هذه الترجمة إجازة الماجستير من كلية الآداب بجامعة فؤاد .

✲ ✲ ✲

من المشروعات الثقافية التي تعمل وزارة المعارف على تنفيذها في العام الدراسي القادم : افتتاح فصول خاصة لتدريب طلاب المدارس الثانوية على الترجمة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية وإليهما، وذلك لإعداد طبقة من المترجين الأكفاء ، وافتتاح سلسلة من المعاهد الثقافية في العواصم والمدن لنشر ألوان المعرفة ، على أن يستفاد من التجارب التي قامت بها الجامعة الشعبية في هذه السبيل .

✲ ✲ ✲

قررت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية عقد مؤتمر ثقافي في القاهرة لغرضين :الأول وضع حد أدنى مشترك لمواد الثقافة العربية في كافة مراحل التعليم . والثاني تحسين طرق تدريس اللغة العربية ومعالجة نقصها والسمو بها إلى مايحقق الغرض منها .

✲ ✲ ✲

كان قد اتصل بالمجمع اللغوي أن الدكتور فيشر عضو المجمع وصاحب المعجم اللغوي التاريخي المعروف باسمه قد توفي في أثناء الحرب بألمانيا ، بيد أن الدكتور فيشر اتصل بمعالي رئيس المجمع وأنبأه أنه لايزال على قيد الحياة، وأنه يؤمل شهود الدورة القادمة للمؤتمر اللغوي التي ستعقد في يناير القادم .

✲ ✲ ✲

يعمل الأستاذ نور محمد ناهين من طلاب البعثة الصينية في الأزهر في ترجمة كتاب « التصوف الإسلامي » للدكتور زكي مبارك إلى اللغة الصينية. وقد سبق للأستاذ المترجم أن نقل إلى لغته كتاب « تاريخ فلاسفة الإسلام » للأستاذ محمد لطفي جمعة . كما أنه يوالي تغذية صحف بلده بأنباء تطور الحركتين الثقافية والدينية في مصر .

✲ ✲ ✲

اتخذت رابطة الأدباء بالقاهرة مقراً جديداً لاجتماعاتها برقم ١٨ شارع مصطفى كامل باشا . وانتخب زكريا مهران باشا مستشاراً للرابطة ، والدكتور إبرهيم ناجي رئيساً ، والأستاذ مصطفى عبد الهادي نائباً للرئيس، والأستاذ خليل جرجس خليل سكرتيراً عاماً .

✲ ✲ ✲

وضع الأستاذ جرجس حجار المحامي معجماً عربياً جديداً سماه « المنار » ورفعه إلى معالي وزير المعارف فأحاله إلى مجمع فؤاد للغة العربية. وهو على نظام المعاجم الأجنبية من حيث البحث عن الكلمة بحسب لفظها لا بحسب اشتقاقها .

✲ ✲ ✲

نشرنا في الجزء الماضي أن هناك ترجمة عربية ثالثة لكتاب « الأمير » وجاءنا من الأستاذ جمال الدين الشيال أن الاسم الكامل للمترجم هو الأب أنطون روفائيل زخور راهبة ، وأنه ترجمه عن الإيطالية في سنة ١٨٢٤ — ١٨٢٥، وأن هذه الترجمة موجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة .

السودان

سافر إلى إنجلترا بعثتان دراسيتان ، إحداهما للتخصص في الزراعة والغابات بجامعة أدنبرة ، والثانية للتخصص في الفنون الجميلة بجامعة لندن .

☆☆☆

تواجه مصلحة المعارف أزمة شديدة في المدرسين ، خاصة بعد أن وضعت برنامجاً للتوسع في إنشاء المدارس الأولية في سنة ١٩٤٧ ، وذلك بسبب إضراب طلبة معهد التربية ببخت الرضا في الدويم ، لتحسين مرتبات المعلمين . وقد اتخذت الحكومة إجراءاتها لمواجهة هذه الحال بتعيين كثير من طلبة السنوات النهائية مدرسين في المدارس الأولية والوسطى ، على أن يتمموا دراستهم فيما بعد لمدة ستة أشهر بمعهد التربية .

☆☆☆

أعدت جمعية الكشافة السودانية برنامجاً لتدريب معلمي الكشافة في أركويت يبدأ من أول سبتمبر الحالي وينتهي في ١٢ منه .

☆☆☆

تلقى اتحاد المدارس الثانوية من مؤتمر الطلاب العالمي في براغ كتاباً ، يطلب إليه فيه ندب من يمثله في المؤتمر . وقد اجتمع طلاب المدارس الثانوية يوم ١١ أغسطس الماضي ، واختاروا من يمثلهم في هذا المؤتمر .

☆☆☆

توفي إلى رحمة الله عميد الفن الموسيقي والغناء السوداني الحاج محمد أحمد سرور ، وقد نعته الصحف بالمقالات الطوال . وتفكر لجنة تخليد ذكراه في إقامة نصب تذكاري نصفي لشخصه ، ووضع كتاب عنه يشترك في تأليفه أصدقاؤه ومعاصروه من رجال الفن .

☆☆☆

قررت وزارة المعارف المصرية استقدام طلبة سودانيين في بعثات مجانية لمعاهدها العالية وكليات جامعتي فؤاد وفاروق ودار العلوم ، على أن يمنح كل طالب مقبول مكافأة شهرية قدرها خمسة جنيهات مدة الدراسة ، مع مجانية التعليم ونفقات المعيشة . وستتولى لجنة التعليم السودانية بالقاهرة تقديم طلبات المتقدمين لهذه البعثات إلى وزارة المعارف للبت في قبولها .

☆☆☆

أوصت لجنة المجلس البلدي بأم درمان بمنع الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ١٠ سنة من الدخول في المقاهي والحانات ، وإنشاء حدائق عامة وملاعب وأندية للصبيان .

☆☆☆

وافقت اللجنة الوزارية الاستشارية لبعثات الحكومة المصرية على إيفاد بعض النابهين من أبناء السودان الذين يتعلمون في المدارس المصرية على نفقاتها في بعثات تعليمية إلى إنجلترا وأمريكا .

فلسطين

تأجل معرض الكتاب العربي الفلسطيني إلى أوائل أكتوبر رغبة في الحصول على أكبر عدد ممكن من الكتب العربية التي طبعت خارج فلسطين . وتعنى لجنة الثقافة العربية بنشر كتاب يشمل أسماء الكتب ومؤلفيها

✡ ✡ ✡

احتفلت محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية بمرور خمس سنوات على تأسيسها ، وأذاعت بهذه المناسبة كلمات لفريق من الأدباء من مختلف البلدان العربية .

✡ ✡ ✡

تعنى طوائف مختلفة من الشبان المتعلمين بإقامة وحدات ثقافية في الصيف لنشر التعليم بين الأميين ، وعلى رأسهم خريجو الجامعة الأمريكية في بيروت .

✡ ✡ ✡

كان شهر تموز « يولية » شهر الامتحانات . وقد بلغ عدد المتقدمين لامتحان الدراسة الثانوية زهاء ٤٨٧ طالباً باللغات العربية والإنجليزية والعبرية ، ولامتحان الدراسة المتوسطة ٩ طلاب ، ولامتحان الدبلوم طالباً واحداً .

✡ ✡ ✡

لأول مرة في تاريخ الشطرنج وفق السيد علي نصوح الطاهر ، مدير الزراعة العام في شرقي الأردن ، إلى إدخال ثلاث قطع جديدة فيه : الأولى تمثل دبابة، والثانية قاذفة قنابل ، والثالثة قنبلة ذرية . وجعل لكل قطعة نظاماً خاصاً . وقد أعجب جلالة الملك عبد الله بذلك، وأطلق عليه اسم الشطرنج الكبير . وينوي السيد الطاهر عرض ذلك على نادي الشطرنج الدولي .

✡ ✡ ✡

عين السيد فاضل شوا الموسيقى المصري المعروف مساعداً فنياً لمراقب البرامج العربية والأخبار في دار الإذاعة الفلسطينية في القدس .

✡ ✡ ✡

أعلنت جمعية إصلاح القرية العربية في نابلس عن عزمها على إنشاء مراكز ثقافية في القرى العربية ، للعمل على رفع مستوى القرية العلمي والصحي والزراعي . وعينت جائزة مالية لمن يقدم اقتراحات عملية لتحقيق هذه الأهداف .

✡ ✡ ✡

نشط المؤلفون لوضع كتب مدرسية ، فوضعت لجنة مؤلفة من بعض الأساتذه كتباً في الدين الإسلامي، ووضعت لجنة ثانية كتباً للقراءة الإضافية للأطفال ، ووضعت لجنة ثالثة كتباً للمحفوظات ، ووضعت لجنة أخرى كتباً في تاريخ العرب .

✡ ✡ ✡

صدر في هذا الشهر كتاب « الإعلام بفضائل الشام » للمنيني ، مع شروح وتعليقات بقلم الأستاذ أحمد سامح الخالدي ، ورسالة أهل العلم بين مصر وفلسطين بقلم الأستاذ أ . س . الخالدي وكتاب الشهادات والتقارير التي قدمت إلى لجنة التحقيق الأنجلو أمريكية للسيد جميل الشقيري .

تأسيس محطة الشرق الأدنى ١٩٤١

الشطرنج الكبير

لبنان

استقبل صاحب الفخامة رئيس الجمهورية أعضاء اللجنة القانونية اللبنانية التي تمثل لبنان في اللجنة القانونية لجامعة الدول العربية ، بعد أن عادت إلى بيروت واشتركت في الاجتماعات المتعددة التي أدت إلى إقرار توحيد القانون التجاري لدول الجامعة ، وتوحيد القانون البحري والتجاري ، وإنشاء معهد للفقه الإسلامي . ورفعت إلى فخامته تقريراً بالنتائج التي انتهت إليها .

✡✡✡

من منشورات « مكتبة الكشاف » كتاب « بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى وموجز لتاريخ حلول أوربا في الشرق » تأليف جان بيشون . نقله إلى العربية محمد عزة دروزة ، يعرض فيه المؤلف للتنافس بين فرنسة وإنجلترة ، ولسعي الروس والجرمان للتبسط فيه ، ولموقف الدول الأوربية من الأقليات العثمانية .

✡✡✡

لاتزال أعمال الترميم ناشطة في قصر بيت الدين الأثري ، وكثيراً ما تمتد هذه الأعمال إلى الليالي إنجازاً للأعمال الفنية واستعداداً لاستقبال ضيف عظيم ، لعله جلالة الملك فاروق الأول .

✡✡✡

ينصرف الأستاذ مارون بك عبود في مصيفه « عين كفاع » إلى كتابة الفصول الأخيرة من قصة « فارس آغا » التي يصف فيها الحياة اللبنانية في عهد المتصرفين . والكتاب زاخر بالنقد اللاذع ، والفكاهة ، والوصف الواقعي . وشخصية « فارس آغا » شبيهة بشخصية ترتران ده ترسكون لدودي ، ودون كيشوت لسوفنتس فيه .

✡✡✡

عينت جامعة الدول العربية الصحفي المعروف الأستاذ عماد الصلح معتمداً صحفياً لها في لبنان .

✡✡✡

وصلت إلى بيروت مكتبة عطوفة الأمير شكيب أرسلان ، وتبلغ ١٧٠٠ كتاب من أنفس الكتب المختارة ، وقد تسلمها شقيقه الأمير حسن، فنقلها إلى داره، انتظاراً لقدوم عطوفة شقيقه إلى وطنه بعد أن قضى سنوات الحرب في سويسرة .

✡✡✡

من الأدباء والعلماء الذين نزلوا لبنان للترويح عن النفس في أيام الصيف العلامة السيد أبو الحسن الأصفهاني الذي يرجع بنسبه إلى آل البيت الكريم . وللسيد أبي الحسن مؤلفات ورسائل وفتاوى كثيرة مشهورة ، أهمها « وسيلة النجاة » . وقد تسنم ذروة الرياسة الدينية للطائفة الإسلامية الشيعية في كل أنحاء العالم وهو يعيش عيشة الصالحين المتقشفين . ومنهم الأستاذ روفائيل بطي صاحب جريدة « البلاد » البغدادية وقد غادرنا إلى مصر . والأستاذ صالح البهنساوي المرافق لفرقة الجوالة المصرية ، والأديب الحلبي المعروف الأستاذ خليل هنداوي .

✡✡✡

قرر مجلس أمناء الجامعة الأميركية وخريجيها في جميع أنحاء العالم جعل مستشفيات الجامعة في بيروت من أكبر المستشفيات في الشرق ، بحيث تتسع لأربعمائة سرير . كما أنهم قرروا أيضاً تشييد

بناية ضخمة لنقل المكتبة الحالية إليها ، وتجهيزها بما ينقصها من المصنفات، بحيث تصبح مرجعاً أساسياً للباحثين والمحققين .

✡✡✡

صدر في « دار المكشوف » مجموعة شعرية باسم « زوابع » للأستاذ مارون بك عبود ، وهي قصائد زاخرة بالمعاني الوطنية والأخلاقية . نظمها الأديب في أوقات مختلفة بين الحربين .

وصدر عن الدار نفسها مجموعة شعرية أخرى لقبلان مكرزل بعنوان « الخلود » ، تضم قصائد وطنية وغزلية .

✡✡✡

يطبق المنهاج التعليمي الجديد الذي أعدته اللجان المؤلفة لهذه الغاية ابتداء من مطلع العام المدرسي المقبل . وأبرز مافيه أن اللغة العربية تحتل فيه مكان الصدارة ، بعد أن أصبحت اللغة الرئيسية في جميع المدارس الوطنية والأجنبية على السواء . وتسعى وزارة التربية الوطنية إلى تأليف لجنة خاصة لوضع كتب مدرسية جديدة على طرق حديثة وفقاً لروح المنهاج المقبل .

سوريا

عقد في دمشق مؤتمر تعليمي برئاسة وزير المعارف السورية ، غايته درس أوضاع التعليم في البلاد السورية والنهوض بالبلاد علمياً وثقافياً وتوجيه الطلاب توجيهاً صحيحاً يتفق مع الأهداف القومية والأسس التي تم الاتفاق عليها في الجامعة العربية .

✡✡✡

يبلغ عدد المعلمين والمعلمات في سوريا (٣٣٠٠) أما عدد الطلبة في المدارس الرسمية فهو ١٦٥ ألف طالب وطالبة ، وتنفق الحكومة على ميزانية المعارف ما لا يقل عن ١٧ ألف ليرة سورية ، وفي نية الحكومة زيادة الاعتمادات المرصدة للتعليم لزيادة عدد المدارس .

✡✡✡

يصدر المجمع العلمي العربي ثلاثة كتب من سلسلة مطبوعاته لعام ١٩٤٦ وهي : ديوان ابن عنين شاعر دمشق في العصر الأيوبي ، حققه ونشره معالي الأستاذ خليل مردم بك ، وتاريخ حكماء الإسلام للامام ظهير الدين أبي الحسن علي بن أبي القاسم زيد البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، والمستجاد من فعالات الأجواد لأبي علي المحسن بن علي التنوخي . وكلا الكتابين الأخيرين من نشر وتحقيق وتصحيح الأستاذ الرئيس محمد كرد علي .

✡✡✡

صدر في حلب كتاب « علم الاجتماع الديني » للأستاذ يوسف باسيل شلحت . ومن فصول الكتاب القيمة : تعريف الديانة ، وقوامها والنظريات المفسرة للديانة ، والطوتمية ، وفصل السلطة عن الدين ، والعوامل المؤثرة في الديانة ، وأثر الديانة في الحياة ، وقوانين التطور الديني .

✡✡✡

ترجم السيد منير سليمان كتاب « الاقتصاد المنهاجي في الاتحاد السوفيتي » للعالم الروسي آ . كورسكي . والكتاب من مطبوعات جمعية التعاون الثقافي بين سوريا والاتحاد السوفيتي بدمشق .

☆☆☆

أصدر السيد منير الريس صاحب جريدة بردى الدمشقية كتاباً عنوانه « سوريا بين عهدين » بحث فيه عن حالة سوريا زمن الانتداب وبعد زواله .

☆☆☆

أصدر مكتب النشر العربي كتاب « عقبريات شامية في الحكم والسياسة والإدارة » للأستاذ إبرهيم الكيلاني ، وهو يتضمن أبحاثاً عن ثلاثة زعماء دمشقيين ، وهم أسعد باشا العظم ، حاكم الشام في القرن الثامن عشر ، وعزت باشا العابد ، كاتب سر السلطان عبد الحميد الثاني ، وعلي رضا باشا الركابي رئيس الوزارة الفيصلية الأولى .

☆☆☆

صدر كتاب « النصوص العقارية » للمحامي داود التكريتي وهو يحتوي على سائر النصوص العقارية المعمول بها في سوريا ، الناسخ منها والمنسوخ .

وصدر « فهرس القوانين والأنظمة الصادرة عن الحكومة العثمانية والسلطة التشريعية السورية حتى ٣٠ حزيران (يونية) ١٩٤٤ » للمحامي جورج أنطاكي ، وقد طبع بإشراف نقابة المحامين بدمشق .

وصدر كتاب « المؤتمر الأول للمحامين العرب » وهو يتضمن كل ما قيل في المؤتمر الأول للمحامين العرب الذي عقد في دمشق في شهر أغسطس سنة ١٩٤٤ .

☆☆☆

ألف الدكتور منير العجلاني المدرس بكلية الحقوق بدمشق كتاباً عن « معاوية بن أبي سفيان » وسيطبع قريباً .

☆☆☆

أهاب سيادة الحبر الجليل بطرس الشالي مطران حوران وجبل الدروز بأبناء رعيته وأهل الخير من سائر البقاع أن يخصوا إخوانهم مسيحيي درعا بشيء من جودهم لكي يتمكنوا من ترميم معبدهم الذي نهب في الحوادث التي وقعت في مايو سنة ١٩٤٥

العراق

تعنى الحكومة بتشييد متحف للآثار القديمة والعاديات في الموصل ، وقد أرصدت نفقاته في الاعتمادات المالية اللازمة للميزانية ، كما أعدت مديرية الآثار القديمة ما يلزم من خرائط وتصميمات .

متحف الموصل

☆☆☆

كشف المنقبون الأثريون العراقيون الموفدون من مديرية الآثار القديمة ببغداد مسناة سنحاريب الملك الأشوري على بعد عشرين كيلومتراً من الشمال الشرقي لمدينة أربيل حيث نقش الملك عليها كتابة مسمارية تخليداً لمشروعه الخطير الذي بواسطته جمع المياه المنحدرة من الجبال وأجراها في قناة إلى أربيل . وأوضحت هذه الكتابات بعد قراءتها فن الري القديم في عهد الأشوريين .

أشوريات

☆☆☆

ترجم العقيد عبد المطلب الهاشمي — من ضباط الجيش المولعين بالتاريخ الإسلامي — كتاب « عقيدة الشيعة » The Shiite Religion تأليف المستشرق الإنكليزي Dwight M. Donaldson

✡✡✡

نشرت « دار الرابطة » كتاب « دراسات في العصور العباسية المتأخرة » تأليف الدكتور عبدالعزيز الدوري أستاذ التاريخ الإسلامي بدارالمعلمين العليا ، بحث فيه عن الواثق والمتوكل وثورة الزنج والإمارات الفارسية في العراق والإسماعيلية والقرامطة وعصر المقتدر والبويهيين .

✡✡✡

طبع في أمريكا كتاب بالإنكليزية عن نتائج الحفريات في « تل حسونة » الواقع قرب الموصل ، من الأطلال ذات الأثر ، بقلم الأستاذ فؤاد سفر — الأثري العراقي — وقد مهد لبحثه بفصول علمية تاريخية ثم تناول اللقى الأثرية في التنقيب في هذا الموقع . كما طبعت له في أمريكا أيضاً رسالة عن حفريات « تل العقير » من أهم التلول الأثرية في هذه الديار .

✡✡✡

كان المستر سي . أي . جود — القاضي في محاكم العراق — والمعني بالدراسات عن الشرق والعرب ، قد سأل المستشرق المعروف البروفسور جب رأيه في كتاب يترجمه إلى الإنكليزية ، فاقترح عليه ترجمة كتاب « تاريخ العراق بين احتلالين » تأليف المؤرخ العراقي الأستاذ عباس العزاوي المحامي .

وسبق للمستر جود أن ترجم إلى الإنكليزية كتاباً آخر للأستاذ العزاوي هو « تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم » وأرسل به إلى مطابع أمريكا لطبعه في خلال الحرب العالمية المنتهية .

✡✡✡

من أحدث الترجمات العربية « لرباعيات عمر الخيام » بالنظم الترجمة التي قام بها الأستاذ عبد الحق فاضل الموظف في السلك الدبلوماسي العراقي وينتظر أن تصدر قريباً .

✡✡✡

نشر الدكتور مظفر مدحت الزهاوي الجزء الثاني من كتابه الطريف في المسائل الجنسية الذي عنوانه « بيني وبينك » وقد سمى هذا الجزء « في مخدع المرأة » وحلاه بالصور ودونه بأسلوب سهل محبب إلى القارئ .

وظهرت مجموعة قصص لأديب شاب هو الأستاذ عبد الملك عبد اللطيف نوري وعنوانها « رسل الإنسانية وقصص أخرى » .

وصدر في النجف الأشرف الجزء الأول من ترجمة وافية لجعفر الصادق « رضي الله عنه » بعنوان « الصادق » وضعها العلامة الأستاذ محمد الحسين المظفري وهو يدل على سعة اطلاع المؤلف ، وسيوالي نشر بقية الكتاب .

ونشر « منتدى النشر » في النجف أيضاً كتاب « مالك الأشتر » بقلم الأستاذ محمد تقي الحكيم ، عارضاً فيه شخصية هذا البطل الإسلامي عرضاً موفقاً .

✡✡✡

هيأ الشاعر الأستاذ عبد الستار القره غولي ديوانه الجديد « وحي المعتقل » أودعه الشعر الذي قاله حينما كان معتقلا في « معتقل العمارة السياسي » في خلال الحرب الأخيرة . وفيه عواطف وحنين ، كما يتضمن وصفاً شائقاً لألوان من حياة العراقيين التي حيوها في تلك الفترة .

✡✡✡

نشرت إدارة « المعلم الجديد » لوزارة المعارف كتاب « نظام الحكم في العراق » . الذى ألفه الدكتور مجيد خدوري الأستاذ بدار المعلمين العليا ، وأصله موجز بالإنكليزية طبع قبل سنتين ،

فاضاف إليه المؤلف نفسه فصولا جديدة ونقله إلى العربية مع الأستاذ فيصل نجم الدين أطرقجي ، فجاء خير كتاب يوجز للمطالع أحوالا وأسراراً عن تكوين دولة العراق بعد الحرب العالمية الأولى وأطوار الحكم والسياسة فيها ، بطريقة في التحليل والتعليل تقف القراء على موقف الشعب والحكومة في بلاد الرافدين .

✡✡✡

أقام نعيم عبد العزيز وعبد الله أغاسي ، وهما من خريجي « معهد الفنون الجميلة » في عاصمة العراق ، معرضاً للرسم والنحت في بناية مدرسة أهلية ، أظهرا لرواده طليعة نبوغ فني ومستقبل لهذين المتفننين .

الهند

اكتشف أخيراً أقدم قبر لإنجليزي في الهند ، وهو قبر جون ملدن هال الذي أرسلته ملكة الإنجليز أليزابث في سنة ١٢٩٩ م سفيراً إلى عاهل الهند المغولي جلال الدين أكبر . مات هذا السفير في بلدة أجمير ونقلت جثته إلى مدينة آجرة ودفنت فيها .

✡✡✡

أحلب بقرة في الهند هي التى تسمى أونا ، فقد حلب منها في ثلاثمائة وستين يوماً ١٥٣٢٤ رطل لبن ، أي ٢٣٨٨ رطل لبن في شهر و ٦٢٣ رطل لبن في الأسبوع .

✡✡✡

يوجد بالهند في مكتبة بانكي بوربتنه الشهيرة نسخة من « كيمياء السعادة » وهو من تصانيف حجة الإسلام الإمام الغزالي باللغة الفارسية والنسخة مكتوبة بيد المصنف رحمه الله .

وفيها نسخة مخطوطة من ديوان الشاعر الفارسي الشهير حافظ ، التي استعملها ملوك المغول بالهند وعليها تعليقات بأيديهم، ولا سيما عند تفاؤلهم بأبياتها في المسائل الهامة من أمور الدولة .

✡✡✡

يوجد بالهند كتاب « تعبير الرؤيا » لأبي الريحان الأندلسي ، ومما يزيد قيمة الكتاب أن العاهل المغولي جلال الدين أكبر أهداه إلى أستاذه بيرم خان في ذكرى عيده الرابع والعشرين لتوليته الأمر، والإهداء مكتوب بيد الملك . والكتاب الآن في المكتبة الآصفية بحيدر أباد .

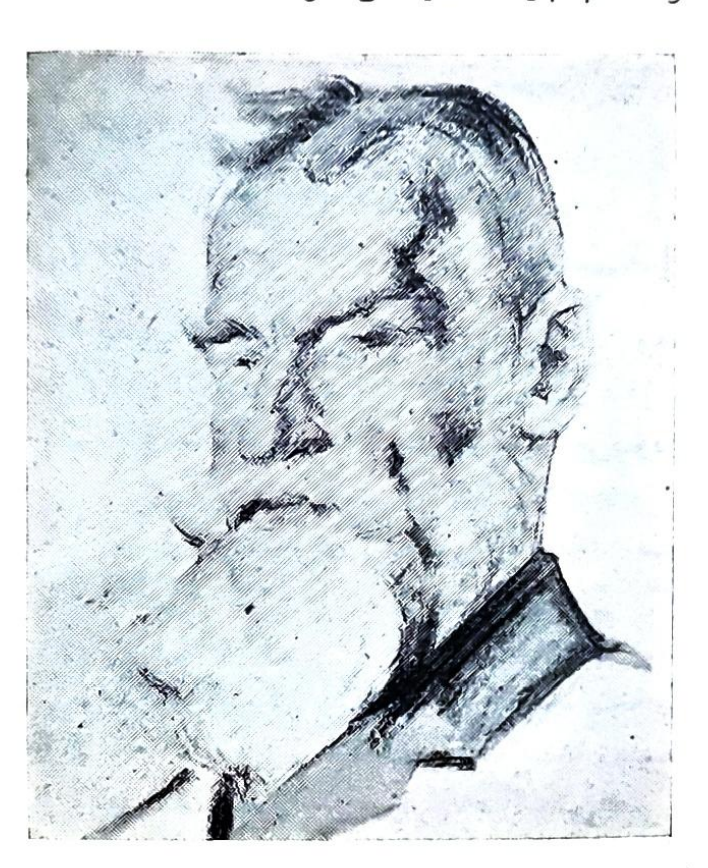
✡✡✡

في جنوب الهند مكتبة قديمة تسمى مكتبة « سروستي محل » وتشتمل على ثلاثين على ألف كتاب معظمها باللغات الهندية المختلفة . ومما يزيد شأن المكتبة خطورة أنها تحتوي على ثمانية آلاف مجلد مكتوبة على أوراق الشجر . يزور هذه المكتبة كل سنة خمسون ألف زائر ، يطالعون فيها على الأقل ألفي كتاب خطي .

انجلترا

كان الشهر الماضي شهر برنرد شو في ميدان الفكر والنشر . فقد حفلت الصحف السيارة ومجلات الأدب بل واجهات المتاجر بذكره لمناسبة بلوغه التسعين من عمره .

أما من ناحية النشر فقد ظهر له أو عنه في هذه المناسبة ما يأتى :



١ — أصدرت سلسلة بنجوين المعروفة مليون نسخة من عشرة من كتبه المعروفة مثل ماجور بربارا ، والزنجية تبحث عن الله ، وغيرها .

٢ — نشر عنه كتاب اشترك في تأليفه سبعة وعشرون من أساطين الفكر والعلم هنا، عرض كل منهم لتحليل ناحية خاصة من فلسفة شو وأدبه ، فعرض الأستاذ جود مثلا «لفلسفة شو» ، وكتب الأستاذ برنال عن « شو العالم » وعرض برستلي للنقد الاجتماعي عنده ، وعرض الأسقف إنج « لعقيدة شو » . وغير هذا وذاك من خصائص هذا المفكر وسمات شخصيته.

٣ — نشر عنه أيضاً كتاب بعنوان « صورة ج . ب . ش » وهو مجلد فخم يحوي أكثر من ثلاثين صورة بريشة الفنان توبولسكي .

٤ — نشرت له في سلسلة أكسفرد لروائع الأدب العالمية طبعة منقحة « العودة إلى متوشالح » مع كلمة خاصة منه عن هذا الكتاب كتبها عام ١٩٤٤ .

هذا إلى ما لا يقع تحت حصر من بحوث ومقالات وتعليقات وذكريات وإشارة عنه في مختلف الصحف والمجلات . .

كما أقيم عنه معرض نظمته « رابطة الكتاب » افتتح يوم ميلاده ، وسوف يبقى مفتوحا حتى أواخر شهر أغسطس . وقد امتلأ هذا المعرض في أقسامه المختلفة بكثير من الآثار الخاصة بمختلف النواحي التي تتصل بفن شو وحياته .

ومن أطرف ما عرض فيه شهادة سمسار الأراضي الذي كان يشتغل شو عنده سنة ١٨٧٨، وقد قال فيها: « إنه شاب عظيم الاستعداد للاشتغال بالأعمال التجارية ، فائق الدقة ، جدير تماما بالثقة به والاعتماد عليه، قام على أحسن وجه بكل ما كلفناه القيام به ، وإنه ليتركنا اليوم ونحن آسفون عليه ولسوف يسرنا دائماً أن نسمع عن نجاحه » — أترى لو كان أولئك السماسرة قد امتدت آجالهم يرضون عن نجاح شو . . ؟ !

وخصص جانب كبير من هذا المعرض لبرنرد شو المؤلف المسرحي، فعرضت به الطبعات الأولى من مسرحياته وبعض مخطوطاتها وبرامج حفلاتها الافتتاحية والصور الشمسية للنابهين ممن مثلوها وكذلك بعض مناظرها .

وعرض لشو القصصي خمس مخطوطات لبعض قصصه ، أعارها المتحف الوطني في إرلندا — ومن هذه مخطوطة لم تتم ، ولم تعنون ولم تنشر .

ولعل أطرف أقسام هذا المعرض ماخصص منه لشو السياسي الداعية ، فقد غص بالمنشورات التي كتبها في مختلف وجوه نشاطه في هذا الميدان ، يدعو فيها إلى آرائه ويجاهد في سبيل إذاعتها .

ومما أمتع المشاهدين إلى جانب اللوحات الفوتغرافية والزيتية والتماثيل والصور الكاريكاتورية لشو ، ذلك الحشد من بطاقاته التي طبع كل منها بلون مختلف ، يجيب بها على الناس في مختلف المناسبات ، بدلا من إضاعة الوقت بالرد على مايأتيه من الرسائل ، نذكر منها بطاقة تقول :

« يأسف المستر برنرد شو لعدم استطاعته القيام بأي عمل أدبي جديد في الوقت الحاضر ، لأن لديه من العمل ما يستغرق شهوراً » .

وكان يبعث بها إلى الناشرين الذين يريدون منه جديداً .

وهذه البطاقة: « يرجو المستر برنرد شو أن لا تسألوه مالا . إذ ليس عنده مايكفي لعون العدد الضخم من قرائه ، إنه يستطيع أن يؤلف لكم، لكنه لايستطيع أن يزودكم بالمال » .

وبهذه المناسبة كانت آخر بطاقة ظهرت عنه واحدة يعبر بها عن نفوره من اتخاذ مناسبة الاحتفال بمولده حجة لإضاعة وقته والاتصال به !

هذا بعض مادار عن هذا الرجل الذي اجتمع القول على رفعه إلى مرتبة شكسبير ، بل إلى مرتبة أرفع من هذه بين الخالدين من رجال الفكر والأدب .

☆☆☆

صدرت أخيرا الطبعة الثانية من كتاب عن حياة الكاتب المعروف أسكار ويلد بقلم هـ . برسون . وقد قيل عن هذا الكتاب إنه أصدق وأعدل ما كتب حتى الآن عن ويلد .

☆☆☆

يظهر في أواخر أغسطس قصة بعنوان « غبار مصر » للكاتبة هـ . بلاك .

☆☆☆

فليكس توبولسكي مصور تخطيطي ذائع الصيت ، صدر له أخيرا كتاب يحوي اللوحات التي رسمها في أثناء تجواله في الصين والهند وفلسطين ومصر وسوريا وإيطاليا وألمانيا خلال الحرب الأخيرة .

☆☆☆

صدر أخيراً مجلد جديد من سلسلة المكتبة الدولية لعلوم الاجتماع التي يشرف على إصدارها الأستاذ كرل منهايم . وهذا الكتاب الأخير يدور حول « المرأة » في العالم الحديث ، حاولت مؤلفته الدكتورة فيولا كلاين أن تجمع فيه الآراء التي يقول بها علماء النفس والاجتماع والإنسان « الأنتروبولوجيا » عن مشكلة المرأة في الحضارة المعاصرة .

☆☆☆

عقدت الجمعية الملكية « المجمع العلمي » دورة خاصة بمناسبة مرور ثلاثمائة سنة على ميلاد العالم إسحق نيوتن .

انتهى اجتماع اللجنة التحضيرية للهيئة العلمية الثقافية التابعة للأمم المتحدة . ومن المشروعات التي تقرر الإسراع بالبدء فيها أعمال التعمير العلمية ، وإصلاح المتاحف والمكتبات ومساعدة الفنانين ، كما رسم المنهج الذي تسير عليه الهيئة ، وهو يتضمن التعاون مع الهيئات العلمية في مختلف البلاد ، وجمع المعلومات وتبادلها ، وعقد المؤتمرات الثقافية الدولية ، وتشجيع الأبحاث ، وتبادل الطلبة والمعلمين والعلماء ، ونشر الروح الدولية بين مختلف الأمم .

ومن المشروعات التي تقرر القيام بها : دراسة نظم التعليم ، وبحث الكتب المدرسية ، ودراسة حقوق التأليف ، وتبادل الأفلام السينمائية . ومن المشروعات التي تقرر عرضها أيضاً على الاجتماع السنوي الذي يعقد خلال شهر نوفمبر في باريس : إنشاء مؤسسة دولية لخدمة الشباب ، وتكوين لجنة لإحصائيات التعليم ، ونشر كتاب سنوي عن التعليم في مختلف الأمم ، وإنشاء مركز لدراسة العلاقات الدولية ، وإنتاج الأفلام ، والدعوة إلى إنشاء مؤسسة لمعونة المؤلفين .

✡✡✡

افتتح حديثاً المعرض السنوي الثاني الخاص « بتصميم الكتب » وقد كان المعرض مقصوراً في العام الماضي على الكتب البريطانية ، لكنه اتخذ هذا العام صفة دولية ، فعرضت فيه كتب من فرنسا والدنمرك والسويد والولايات المتحدة .

أمريكا

تصدر بأمريكا عدة صحف يومية عربية ، منها ست في نيويورك ، وواحدة في واشنطن ، وأربع في ديترويت . وتصدر أيضاً مجلة شهرية في ديترويت .

وتعتبر جريدة « الهدى » التي تصدر في نيويورك من أقدم الجرائد العربية في أمريكا ، إذ هي الآن في عامها الثامن والأربعين .

✡✡✡

أعلن الدكتور لورنس كوبي بجامعة كولمبيا أن العناية بالجنود العائدين من الحرب المصابين بأمراض عقلية يقتضى تمرين ألفي معالج نفساني على الأقل . وتبلغ تكاليف تمرينهم مائة مليون دولار . وأن إعداد معالج نفساني كفء قد يكلف ٥٠ ألف دولار . وتبلغ تكاليف الجندي الواحد المصاب بمرض عقلي دائم ٤٠ ألف دولار .

✡✡✡

من الكتب التي صدرت أخيراً « الطاقة الذرية » Atomic Energy لمؤلفه جورج جامو Geroge Gamow . وفيه يعطي المؤلف صورة واضحة سهلة للطاقة الذرية ، ويسرد قصة اكتشافها ، ويبين وسائل تكوينها ، ويشرح طرق استخدامها في الحرب والسلم .

✡✡✡

أصدر الأستاذ « جون ويلد » John Wild بقسم الفلسفة بجامعة هرفرد كتاباً بعنوان « نظرية أفلاطون عن الإنسان » Plato's Theory of Man . وفيه يشرح المؤلف فلسفة أفلاطون العملية المتعلقة بالإنسان والنظم الاجتماعية والسياسية .

✡✡✡

نشر إدورد باوز مثرس في أعوام سابقة ثلاثة كتب تحتوي على بعض الأسفار المشهورة في

اللغات الشرقية : السنسكريتية والصينية والهندستانية والأفغانية ، مترجمة إلى الشعر الإنجليزي. وكان قد نشر في عام ١٩٢٥ مختارات من ألف ليلة وليلة . وقد صدر له أخيراً كتاب جديد بعنوان « أغاني الحب في آسيا » وهو عبارة عن مختارات من هذه الأشعار التي سبق ظهورها في هذه الكتب التي تقدم إلى أدباء الغرب نموذجاً من الأدب الشرقي وصورة من الروح الشرقية .

☆☆☆

يعلم كل من له هواية بالموسيقى اسم ذلك الموسيقي المشهور سرجي بروكوفييف Sergei Prokofief . وقد صدر أخيراً كتاب عن هذا الموسيقي بقلم إسرائيل نستيف Israel Nestyev وفي هذا الكتاب دراسة مفصلة لحياته الموسيقية ، وتحليل فني لمؤلفاته الذائعة الصيت .

☆☆☆

نشرت أخيراً مذكرات مكسيم غركي Reminiscences by Maxim Gorky نقلها إلى الإنجليزية ليونرد ولف Leonard wolfe وآخرون . وفيها يوميات غركى وبعض رسائله ، وفيها آراؤه وتقديره لبعض الشخصيات الأدبية المعاصرة له . وعلى الأخص تولستوي وشيكوف وأندرييف وبلوك .

☆☆☆

صدر كتاب « أوسكار وايلد » : حياته ونبوغه بقلم هكس مرسون :
Oscar Wild : his life and wit by Hecketh Pearson وفيه يسرد المؤلف قصة حياة هذا الكاتب والشاعر المشهور ويبين العوامل المختلفة التي كان لها أكبر الأثر في إنتاجه الأدبي ..

رُوسيا

احتفل بمرور مائة عام على مولد الشاعر العبقري الكنت دي لوتريامون الذي ابتدع في الواقع مذهباً في الشعر ، وهو مذهب التعبير عما وراء الواقع ، وعما يعتلج من عواطف وانفعالات خفية في أعماق العقل الباطن ، كما أنه يعد هو والشاعر الرمزي رمبو من مؤسسي المدرسة السوريالزمية ، وقد شاركت المحافل الأدبية في روسيا فرنسا في الاحتفال بذكرى هذا الشاعر العظيم الذي تأثر به نفر من شعراء الشباب في روسيا .

☆☆☆

عهدت الحكومة إلى المؤرخ نرلاه بوضع سفر مستفيض عن تاريخ الدبلوماسية الروسية، وقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب وهو يتناول تاريخ العلاقات الروسية الخارجية حتى عام ١٨٧١ وسيصدر الجزء الثاني عما قريب ، وفيه شرح ضاف عن كل ما يتعلق بأواخر عهد القيصرية وقيام الحكومة السوفيتية .

☆☆☆

أصدر الروائي فيدور جلادكوف قصة جديدة تحمل اسم « المعركة الفاصلة » وهي تعد الحلقة الثانية من روايته الكبيرة المعروفة باسم « الإسمنت » وفيها يصف الكاتب وصفاً رائعاً الحالة النفسية التي كانت سائدة في روسيا في أثناء معركة ستالنجراد ، وتعتبر هذه الرواية من الروائع التي ظهرت في الأدب الروسي الحديث .

✡✡✡

أصدر الروائي أرثر كسلر قصة بعنوان « الصفر واللانهاية » وفيها يصف المحاكمات المشهورة التي وقعت في روسيا قبل نشوب الحرب ، والتي أدين فيها أنصار تروتسكي .

✡✡✡

أجري استفتاء أدبي في روسيا عن أحب الكتاب الأجانب إلى القراء ثبت منه أن الروائي الإنجليزي ديكنز والروائيين الفرنسيين فلوبير وموباسلان ومليير وزولا يتمتعون بشهرة واسعة النطاق بسبب مؤلفاتهم التي ترجمت غير مرة إلى اللغة الروسية .

فرنسا

من المنشورات القيمة التي تعنى بالتاريخ الإسلامي كتاب وضعه الأستاذ بيرو فيلار Beraud-Villards بعنوان « الطوارق في بلاد السيد » . يعرض فيه لفتوح دولة المرابطين في أسبانية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للميلاد . وقد اعتمد المؤلف على المراجع الفرنسية والعربية القديمة ولا سيما بعض المخطوطات الأسبانية التي تجلو حياة « السيد » فتنقلها من عالم الأسطورة إلى عالم الواقع . وفصل الكتاب نشأة الطوارق وأصلهم واستيلاءهم على المغرب ، ثم انتقالهم إلى الأندلس ووقوفهم في وجه الموجات المسيحية .

✡✡✡

صدر في « المجموعة الدبلوماسية والسياسية الدولية » كتاب بعنوان : « الإسلام أمام العالم الحديث » لألفنس جويي A. Gouilly ، حاول فيه المؤلف استعراض التطور الذي طرأ على الأقطار الإسلامية عامة والبلدان العربية خاصة في أثناء الحرب العالمية الثانية ، ليكون مرجعاً للفرنسيين الذين انقطعوا عن العالم الخارجي في هذه الفترة من الزمن . وقد مهد لبعض فصوله بمقدمات تاريخية عن المشاكل السياسية التي يضطرب بها الشرق . ومن أبوابه بحث يعرض للإسلام كدين ، وللنهضة الإسلامية المعاصرة ، وسياسة الشعوب الإسلامية المستقلة ولا سيما تركية ومصر والبلاد السعودية وأفغانستان وإيران والعراق ، وفصل يعرض فيه القضية العربية والمسعى المبذول لتوحيد كلمة العرب ، وفصل يلخص فيه موقف الدول العظمى من الإسلام . وآراء المؤلف صادرة عن جهل تام بالإسلام والعرب ، يستوحيها من المصلحة الغربية .

✡✡✡

احتفل بالذكرى الأولى لوفاة بول فاليري ، وأقيمت له حفلة كبيرة برياسة وزير المعارف ، في شارع فيلجوست الذي عاش فيه هذا الكاتب الكبير نصف قرن ، ولهذا المناسبة أطلق اسم بول فاليري على هذا الشارع .

فاليري

✡✡✡

تعنى نساء فرنسا الآن بالمساهمة في نهضة البلاد، بتوسيع ثقافتهن ، والعمل على إخراج مؤلفات أدبية أخاذة تدل على أعمال المرأة وبحث مسائل الأمومة والمرأة الحديثة في قالب روائي . ولهذا الغرض يدعو اتحاد النساء الفرنسيات إلى الاشتراك في جائزة « جورج صاند » التي تبلغ قيمتها ٥٠ ألف فرنك . وقد تألفت لجنة تحكيم لفحص جميع المؤلفات من ١٥ من ذوي الشخصيات البارزة وستنشر المؤلفات التي يقع عليها الاختيار في مجموعة « لهجة القراءة » .

رسائل القراء

١

مقامات الحريري وتصويرها في العراق

في العدد الثامن من مجلة الكتاب الغراء نشر الدكتور إبرهيم جمعة مقالا عن « المقامات الحريرية ، وتصويرها في العراق » أرفقه ببعض الصور للكتاب المذكور وغيره .فى الشكل ١ (١) قال : « " يا معشر الحجاج الناسلين من الفجاج " المقامة الحادية والثلاثون : الرملية » والصواب أن المقامة الرملية التي تحوي هـــذه الجملة هي المقامة الخامسة والأربعون . وكذلك يقول : « من المقامة الحادية والعشرين " القطيعية " أو " النحوية " وفيها يلقي أبو زيد على رفقائه ألغازاً في علم النحو ، يقول : " فما هي كلمة ، إن شئتم حرف محبوب . . . ؟ " » الشكل ٣ (١) . والصواب أن المقامة «النحوية» التي فيها "فما هي كلمة إلخ" ... هي المقامة الرابعة والعشرون فهل هناك اختلاف في النسخ أم أن الخطأ هو في مقال الأستاذ جمعة ؟؟؟

أحمد لواسانى

الغازية . لبنان — جبل عامل

رد الدكتور إبرهيم جمعة

أشكر للأديب الفاضل الأستاذ أحمد لواساني تدقيقه وتساؤله ، غير أني عاودت النظر في الطبعة التي أملكها للمقامات فوجدت المقامة الحادية والثلاثين الرملية هي التي تحتوي عبارة أبي زيد السروجي « يامعشر الحجاج الناسلين من الفجاج ... » (انظر المقامات طبعة المطبعة الحسينية المصرية ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م ص ٣٢٥) أما المقامة الخامسة والأربعون التي يريد الأديب أن يرد إليها هـذه العبارة فهي للعجب المقامة « الرملية » أيضاً — ولكنها الرملية المنسوبة إلى مدينة « الرملة » وفيها ذكر لقاضي الرملة يترافع إليه شيخ فان في ثوب خلق ، وذات جمال تلبس الأسمال ... وليس في هذه المقامة ذكر للحجيج .

أما ملاحظته عن المقامة التي أشرت إليها باسم المقامة القطيعية أو النحوية فقيمة ، لأني رجعت إلى المقامات التي تحت يدي فوجدت المقامة النحوية هي فعلا المقامة الرابعة والعشرون . لا الحادية والعشرون ، لهذا وجب عليّ أن أشكره .

ابراهيم جمعه

٢

النفط أو البترول والشرق

لقد طالعت في العدد السابع من مجلتكم الكتاب — جمادى الأولى سنة ١٣٦٥ ، مايو سنة ١٩٤٦ — مقالا للأستاذ السيد أبي النصر الحسيني الهندي عن : النفط أو البترول والشرق . ولقد كان الأستاذ ملماً إلماماً كافياً في موضوعه القيم ، كما أنه ظهر بمظهر البحاثة الذي يهمه اكتشاف جميع نواحي الموضوع الذي يخوضه بدقة وأمانة مراعياً الحقيقة المحضة . والمطالع لذلك المقال القيم يجد اللذة في تتبعه ، لأن الأستاذ الفاضل قد اقتفى آثار تطورات استعمال هذه المادة الحيوية لا سيما في الحروب القديمة ، وقد أظهر في مقاله رقي العقلية العربية وما توصلت إليه من حضارة .

كما أن الأستاذ كان يدحض جميع الآراء التي تقول بأن أهل الغرب هم الذين كشفوا القناع عن هذه المادة، وقد كان موفقاً كل التوفيق .

ثم جاء الأستاذ أيضاً داحضاً الآراء التي تقول بأن مخترع البارود هو « برتولد شورتز » ومخترع الطباعة هو « جوتنبرج » ومخترع إبرة الملاحة هو « فلاديوجوجيا » ثم يقول : « إن البحث العلمي الحديث قشع غمامه وحسر لثامه ، وأثبت أن هذه الدعاوى باطلة وعارية عن الصحة . »

ولكنه في الوقت نفسه لم يذكر لنا من هو أول من اخترع البارود والطباعة وإبرة الملاحة حتى يكون الأستاذ قد نور القراء بهذه المعلومات القيمة في هذا الصدد ، ويكون موضوعه في نفس الوقت كاملا وبعيداً عن النقصان فنحن نأخذ على الأستاذ عدم ذكره هذه النقطة الأخيرة التي هي غير غائبة عن ذهنه المتوقد . فحبذا لو أن الأستاذ قد تطرق إلى هذه النواحي في مقال آخر وله منا الشكر والاحترام .

العراق — يعقوب الحمراني

رد الأستاذ السيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

أقدم إلى الأستاذ الحمداني جزيل شكري على حسن ظنه بي ، وعلى تقديره الكريم ما تيسر لي من التحقيق عن مساهمة أسلافنا في كشف الأشياء وتقديرها ، حفزتني على تقديمه إلى أمثاله القراء الكرام ، الغيرة العربية الشرقية إثر قراءة مقال نشره في مجلة الكتاب الغراء أستاذ بجامعة فؤاد الأول في مصر . وما قدمته إن هو إلا جهد المقل ، ولم أك أحسب أنه في هذا العصر — عصر طغيان الأدب القصصي على معظم نواحي الفكر — سيكون مما يستعذب ارتشافه ويستطاب اقتطافه ، ولكن توجه الأستاذ الحمداني المقدر المشجع قد زادني نشاطاً وتأكداً أن هناك بعيداً عن وادي النيل — في وادي دجلة والفرات — يقطن شعب فتي ناهض ، يقدر رجاله على خوض الطغيان واستخراج اللآلىء من قعره تقديراً لها . وعلى كل حال لو كان من نتيجة بحثي المتواضع أن يلفت نظر بعض أفراد الأمة العربية من أمثال حضرته إلى عظمة نهضة العرب الغابرة ومجيد أعمالهم السابقة فهذا قصدي وغايتي .

أما سؤال الأستاذ عن مخترع البارود ، ومخترع الطباعة ، ومخترع إبرة الملاحة وأخذه عليّ عدم شرحها في المقال ، فظاهر أنها كانت خارجة عن موضوعه ، ولم تكن تمسه مباشرة ، لذلك ذكرتها عرضاً وتمثيلا . وكل منها مبحث مستقل لا يكون إذا تم أقل حجما من مبحث النفط ، ولا أزال أشتغل في دراستها . بيد أن البحث الأخير كاد أن ينجز ، ومتى أنجز فإني أعد الأستاذ بأني سأنشره بإذنه تعالى .

القاهرة — **السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي**

٣

المردفات من قريش

قرأت في عدد يونية من مجلة الكتاب في تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون لكتاب المردفات من قريش « . . . ومنهن أم البنين زوج علي بن أبي طالب ، ولدت له العباس وجعفراً وعبد الله . . . إلخ » ص ٢٨٢ م ٢ .

نفهم من هذا القول أن أم البنين زوج الإمام علي بن أبي طالب ، ولدت له . . . ثلاثة أولاد فقط ، مع أن جميع المؤرخين نصوا على أنها ولدت أربعة أولاد ، وهم العباس

وجعفر وعبد الله وعثمان . وحسبي أن أورد هنا مصدرين يؤيدان هذا القول :

ـــ قال الطبري « . . . ثم تزوج بعد أم البنين بنت حزام وهو أبو المجل بن خالد بن ربيعة بن الوحيد بن كعب بن عامر بن كلاب، فولد لها منه العباس وجعفر وعبد الله وعثمان ، قتلوا مع الحسين عليه السلام بكربلاء . . إلخ . . » ج ٤ ص ١١٨ .

٢ ـــ وقال ابن الأثير « . . . وتزوج بعدها ـ أي بعد فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ـ أم البنين بنت حزام الكلابية، فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان ، قتلوا مع الحسين بالطف . . إلخ . . » ج ٣ ص ٢٠١ . يتضح مما ذكرناه أن المصدر الذي نقل عنه الأستاذ عبد السلام هارون مصدر لا صحة له .

فاضل خلف التيلجي

رد الأستاذ عبد السلام محمد هارون

ماذكره الأستاذ صحيح لاغبار عليه ، بيد أن القول بأن المصدر الذي نقلت عنه في أثناء التعليق ـــ وهو كتاب المعارف لابن قتيبة ـــ مصدر لا صحة له ، فيه شيء من المبالغة والتسرع ، ونحن نربأ بالأستاذ الفاضل أن يقع فيهما . فمن المألوف لقراء كتب التاريخ والأنساب ، أن المؤرخ كثيراً مايترك التقصي للأعلام واستيعابها ، فإذا أورد نسل رجل من الرجال لم يلتزم إطلاقاً أن يسردهم جميعهم سرداً ، بل يكتفي بذكر من برز له أو وصل علمه إليه ، ولقد يتعمد حيناً إغفال بعضهم أو تناسيه لأغراض خاصة قد يكون الإيجاز أحدها .

وكثيراً مايدرج النسابون أسماء بعض الآباء والأجداد في عمود النسب ، وذلك شائع متعارف بين الباحثين . ونحن إذا نظرنا إلى طبيعة عبارة ابن قتيبة وجدناها لا تعني الاستيعاب الكلي ، فهو يقول : « أم البنين كانت عند علي بن أبي طالب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله » . يعني بذلك أن هؤلاء الثلاثة منها لا أنهم كل من ولدت . فمبلغ مايستطيع أن يقول الناقد هو أن ابن قتيبة قصر فى استيعاب أولاد أم البنين بله القول بانه اقتصر على ذكر هؤلاء الثلاثة . ومما حمل ابن قتيبة على هذا الاقتصار أن هؤلاء البنين الأربعة لم يعقب منهم أحد إلا « العباس » وإنما يهتم النسابون بذكر المعقبين من الأولاد . فهذا هذا .

عبد السلام محمد هارون

زهرات منثورة

فوائد

لا تشرب الخمر

للأستاذ فهمي عطا الله

يعتقد كثير من الناس أن القليل من الخمر لايضر ، بل ربما ينفع .. إلا أن هذا الاعتقاد الفاسد ، هو بدء المصائب . . لأن الخمر كغيرها من المخدرات ، يزيد متعاطيها الكمية في كل مرة ، حتى يحس نفس المستوى من التخدير .. ومن ثم يكون الإدمان .

والذين يشيعون أن للخمر منافع ، هم كذبة آثمون .. إذ أن أضرارها كثير عددها ، وإليك بعضاً منها :

١ — تخدر المراكز العصبية العليا ، فيصاب شاربها بجنون وقتي ، فيلحق الأذى بالناس أو بنفسه .

٢ — تنبه القلب تنبيهاً شديداً ، يعقبه ضعف وهبوط .

٣ — تضعف مناعة الإنسان ضد العدوى بالأمراض .. وهي تخدر الكرات الدموية البيضاء التي تعتبر حارسة الجسم من كل عدو خارجي يفكر في الاعتداء على صحة الإنسان .

٤ — مدمن الخمر معرض للإصابة بالسل أكثر من غيره .. وإذا أصيب بالتهاب رئوي ، كان الأمل في نجاته منه ضعيفاً جداً .

٥ — نسبة نجاح العمليات الجراحية في مدمني الخمر قليلة .. ولذا لاتؤمن شركات التأمين على حياة السكيرين .

٦ — أجري فحص دقيق ، في عدة مستشفيات للأمراض العقلية ، في أنحاء مختلفة من العالم ، وقد أسفر هذا الفحص عن أن مايقرب من ٥٠ ./. من نزلاء تلك المستشفيات ، هم سلالة آباء اعتادوا شرب الخمر .

٧ — الخمر تتلف الكبد والكلى .... وتسبب الضعف العقلي، والجثماني، والعصبي.

٨ — المصابون بضغط الدم، والبول السكري، وأمراض القلب لو شربوا الخمر، كانوا بمثابة المنتحرين.

٩ — إن الخمر لا تساعد على الهضم، كما يشيع الواهمون هذا النفع عنها، بل هي على النقيض تعرقل عملية الهضم.

١٠ — ليس لابنة الحان — وهي رجس من أعمال الشيطان — أي قيمة غذائية .. ويكفيك أن تعرف عن مدى تفاهتها كغذاء، أن زجاجة البيرة لا تحتوي على قدرة غذائية أكثر مما تحتويه ملعقة أرز واحدة.

١١ — مدمن الخمر الفقير، ينفق على كؤوس الطلا، أضعاف أضعاف ماينفقه على صحاف الطعام، وهو يجوع ليسكر، ولكن على حساب صحته وصحة زوجه وأطفاله الصغار فيتعرضون جميعاً للأمراض الفتاكة التي تتسبب عن نقص التغذية، كالبلاجرا وغيرها، وهم أيضاً يصابون بالسل.

١٢ — تدل الإحصاءات الطبية على أن نسبة كبيرة من الذين يصابون بالأمراض التناسلية. تعرضوا لهذه الأمراض على أثر شربهم للخمر التي تضعف في شاربها عقل الكبت الذي يختزن فيه الإنسان تعاليم الدين والأخلاق.

١٣ — ما من مدمن للخمر أعقب نسلا قوياً .. حيث أنها تورث صفات الضعف للجنين من الخلية الضعيفة السكرى التي تكونه.

١٤ — إن أكثر من ٤٠ ٪ من حوادث السيارات يرجع السبب فيها إلى الخمر .. لأن أوقيتين وربع أوقية منه، تنقص الاستجابة للمؤثرات إلى النصف .. فلو أن خطراً يتطلب وقوف السيارة بعد ثانية، أوقفها المخمور بعد ثانيتين .. ولذا فإن القانون يحتم سحب رخصة السائق إذا ثبت أنه كان شارباً خمراً وقت وقوع الحادثة.

***

هذي هي غانية الكؤوس ... ساحرة .... قاتلة !!

فهل أنت بعد اليوم شاربها ؟؟!!

إي .. وثالث اسمائك!

فهمي عطا الله

فرائد

١

قدم وفد من العراق على سليمان بن عبد الملك فقام متكلمهم فقال :
والله يا أمير المؤمنين ما أتيناك رهبة ولا رغبة .
قال سليمان : فلم جئت لاجاء الله بك ؟
قال : نحن والله وفد الشكر . أما الرغبة فقد وصلت إلينا منازلنا . وأما الرهبة فقد أمناها بعدلك . ولقد حببت إلينا الحياة وهونت علينا الممات .
فأما تحبيبك إلينا الحياة فبما تيسر من عدلك ، وحسن سيرتك .
وأما تهوينك علينا الممات فإنا نرجوك لمن تخلف من أعقابنا .
فاستحيا سليمان لما استقبله به وأحسن جائزته وجوائز أصحابه .

٢

أخذ مصعب بن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه فقال :
أصلح الله الأمير ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذي يستضاء به فأتعلق بأثوابك وأقول : أي ربي سل مصعباً فيما قتلني .
قال : أطلقوه .
قال : أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض .
قال : قد أمرت لك بمائة ألف درهم .
قال : فإني أشهد الله ، وأشهد الأمير أن لابن قيس الرقيات نصفها .
قال : ولم ذلك ؟
قال : لقوله :

إنما مصعب شهاب من اللـــــه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد أفـــــلح من كان همه الاتقاء

فضحك مصعب وقال : أرى فيك موضعاً للصنيعة وأمر بلزومه وحسن جائزته .

الكتاب

الفهرست

أكتوبر ١٩٤٦

دار المعارف للطباعة والنشر

الكتاب

مجلة شهرية للآداب والعلوم والفنون

تصدر عن دار المعارف بمصر

رئيس تحريرها عادل الغضبان



السنة الأولى — المجلد الثاني — ذو القعدة ١٣٦٥
الجزء الثاني عشر — أكتوبر ١٩٤٦

اللغة العربية بين المعلم والطالب

تُرى أكان الناس في الغابر من الأزمنة يضجّون من ضعف أبنائهم في اللغة ضجتنا منه في العهد الأخير . تُرى أكانوا يقيمون لهذه العلة المآتم كما نقيم لها نحن في كل موسم مأتماً وعويلا نرثي فيه ونندب ونادي بالويل والثبور ونذهب أحياناً إلى مكمن الداء فنسبر غوره ونصف للبرء منه الدواء ثم يرفضّ المأتم وتتبدد الصيحات تبدد الدخان في أجواز الفضاء ويعود العام سيرته من الدوران فنعود إلى الضجيج والنحيب ...

وليس لأحد أن ينكر علينا هذا الهوس بأمر أبنائنا ولا هذه العناية بشؤون لغتنا فأولادنا كما يقول الشاعر هم أكبادنا تمشي على الأرض أو كما يقول الآخر :

هم منى النفس فسبحان الذي جمع الدنيا فكانت في البنين

ولغتنا هي رمز رقينا وعنوان حضارتنا بل هي الدليل على وجودنا أمة حية بين الأمم فمصير كل شعب مرهون بمصير لغته قوة وضعفاً رقياً وانحطاطاً حياة وموتاً فإن نحن بذلنا من ذات أيدينا وذات أنفسنا الجهد والمال فإنما نصون بهما تراثاً وصل إلينا رائعاً مجيداً ونتعهد غراساً نرجو منه أنضر الزهر وأطيب الثمر ونسوق البرهان على أننا شعب حي يُضفي من حياته على لغته ويستمد من لغته معاني الحياة فيسير بها كما تسير به في فجاج العزة ومناكب المجد يستوحي روائعها وينفخ فيها روحاً جديدة من فنون شعرائه وكتابه فيُبقي على هذه الصلة الروحية بينه وبينها وتكون له رسول فكره ومجلى وحيه ويضمن لها كما تضمن له البقاء والخلود وإلا انقرضت بقايانا ودرست معالم لغتنا وصار كل منهما في ليالي الحياة شبحاً من الأشباح وما أصدق قول القائل :

إن الشعوب هي اللغات حياتُها بحياتها والموتُ في خذلانها

والناس في العصور الأولى ما كان لهم أن يرضوا ولا أن يغضبوا سواء أقصّر أبناؤهم في تحصيل أشتات العلوم أم برعوا فيه لأن التماس العلم إنما كان ترفاً عقلياً يظفر

به المحظوظون من طلاب المتعة الروحية أو ليست كلمة « مدرسة » معناها المتعة في اللغة اليونانية ومعناها اللعب في اللغة اللاتينية فلا عجب أن كان تحصيل العلم متعة عقلية ورياضة روحية يقبل عليها الإنسان إقباله على أنفس ما يمتع به نفسه من لذائذ العقل والروح .

وإن نحن تجاوزنا عهد القرون الخوالي وانحدرنا من زمن الكتابة الهيرغليفية والكتابة الصينية إلى الزمن الذي ألهم الله فيه هؤلاء الفينيقيين باختراع الحروف الأبجدية وبالإيحاء إلى الإغريق فاللاتين بأن يستنبط كل منهما من ذلك الاختراع حروف لغته ومدلولات أفكاره وأصواته إذا هبطنا من ذلك العهد السحيق إلى عهد المسيحية فالإسلام رأينا الأنبياء والملوك يهتمون بأمر التعليم اهتماماً نشعر معه بالهدف الأعلى الذي كانوا يصبون إليه من نشر العلم فهذا عيسى عليه السلام وقد كان ينادَى يامعلم يأمر رسله أن يطوفوا بالبلاد ويعلموا الناس وهذا محمد عليه الصلاة والسلام يفتدي أسرى بدر فمن لم يكن له فداء أمره أن يعلم الكتابة عشرة من أبناء المسلمين وهؤلاء الخلفاء المسلمون يعنون بافتتاح المدارس عناية رجال الكنيسة بإنشاء الأديرة والمدارس وهؤلاء ملوك الفرنجة يلحقون المدارس بقصورهم وهذا شرلمان يستقدم العلماء من كل جنس ويعمل جاهداً في أخريات أيامه في أن يتعلم الكتابة .

ولا خفاء أن المعلم كان يلذ له التطوع في سبيل الله وفي سبيل العلم فقد كان يشعر باغتباط روحي سام إذا هو استطاع أن ينقل إلى المستمعين له ما يزخر في صدره من حقائق الدين وآيات اللغة والبيان وكان الطالب كذلك يلذ له تجشم الصعاب ومعاناة الأسفار وقد كانت قطعة من العذاب للأخذ عن إمام من الأئمة وللاغتراف من منهل عالم من العلماء أو أديب من الأدباء فمعلم هذي فضيلته حريّ أن يكون مغرماً بالمثال الأعلى يسعى له ويتفانى فيه وطالب هذا استعداده جدير بأن يبلغ من العلم غاية الغايات . ولعل الروحانية التي كانت تحيط بالمعلم هي التي دعت سقراط إلى أن يرى وجوب تجرد المعلم عن المادة فلا يتناول أجراً على تعليمه فوجه الحقيقة التي يبث رسالتها أصون من أن يلوث بشوائب المادة . ويقرب من هذا تعليم المسيحيين في الأديرة بيد أن فقهاء المسلمين وإن أجمعوا على أن المعلم لاينبغي له أن يطلب سمعة أو جاهاً أو مالا أو مصلحة قد أقروا مع ذلك بالأجر للمعلم وربما كان هـذا الإقرار أول خطوة قادت التعليم إلى سبيل الحرف والمهن .

* * *

واستيقظ المعلم والطالب على صوت النفير نفير العصر الحديث فإذا للعلم مدارس

منظمة تتدرج بين المدرسة الإلزامية وكلية الجامعة وإذا المعلم يتخرج في أرقى معاهد التعليم والتربية وإذا الطالب يجد أمامه السبل إلى العلم ممهدة معبدة فإن ركب بعدها غوارب الأسفار فاستكمالا للتفرد والتخصص وإذا للتعليم مناهج وطرائق وامتحانات تعقد في آخر كل عام دراسي هي جواز الوصول والانتهاء إلى الغرض الأسمى أو إلى مرحلة من المراحل التي توصل إليه . ولقد كان المأمول بعد هذي الأنظمة الحديثة التي تفتقت عنها أذهان المشتغلين بالتربية والتعليم أن يجري نهر التعليم جرياً صالحاً يسقي غراس العقول وتنعرج جداوله حاملة الري إلى القصي النائي من رياحين النفوس ونباتها فتنمو وتزكو وتزدهر وتثمر فتقر بها عيون الغارسين وتنشرح صدورهم فلا يجأرون بشكوى ولا يرتفع لهم صوت ينذر بخيبة أو ملال .

ولكن وما أقسى لكن هنا لم ترتفع العقائر بالشكوى إلا من هذا النظام الحديث في فرع اللغة العربية وأئن عددنا اللغة العربية فرعاً لنكون متجنين عليها فهي أصل أيّ أصل سواء أنظرنا اليها من زاوية الوطنية أم نظرنا إليها من زاوية النفع والفائدة فاللسان والقلم هما الرسولان الحكيمان من الذهن إلى الذهن ومن القلب إلى القلب فالقلم هو إن شئت غصن زيتون وإن شئت ذبابة سيف واللسان هو مفتاح الخير والشر في الإنسان على زعم إيزوب ذلك العبد الذى أمره سيده يوماً بأن يشتري له خير ما في السوق فأتاه بعدد من الألسنة صنع منها عدة ألوان من الطعام فتأفف الضيوف لما لم يجدوا إلا الألسنة طعاماً وغضب رب البيت فكان جواب إيزوب أنه أطاع أمر سيده وأتاه بخير ما في السوق لأن اللسان مفتاح الخير وشاء سيده في اليوم الثاني أن يورط عبده فطلب منه أن يبتاع له شر ما في السوق فجاءه أيضاً بعدد من الألسنة وقال لسيده : إن اللسان مفتاح الشر ففطن السيد لحكمة عبده . . .

واللغة هي التي تحرك القلم واللسان فإن لم يكن الإنسان منها في ثروة وغنى عجز في الإعراب عما في ذهنه وجنانه ولا جدال في أن اللغة وسيلة لا غاية ولكن من ذا الذى يسعى إلى غاياته بوسيلة ضعيفة ويأمل في الفوز الباهر والنجاح الأكيد يقولون : إن الحسناء حسناء حتى في الثوب الخلق وإن اللؤلؤة لا يغضّ من فرندها المشرق كمٌّ من النحاس غير أن الحسناء لو جليت في ثوب قشيب دقيق ألا يزيدها جمالاً وفتنة وأن اللؤلؤة لو ركبت في كمٍّ من اللجين أو العسجد ألا يكون ذلك الوعاء الغالي أدعى إلى الاحتفال بقيمة تلك اللؤلؤة وهل عاشت على الدهر فكرة أو سار

مسير الشمس بيت من الشعر إلا كان للأسلوب فضل صون تلك الفكرة ومعنى ذلك البيت يسلمهما عصراً بعد عصر إلى كنف البقاء والخلود ولا نخال معلماً من معلمي اللغة لا يعترف بهذه الفائدة وذاك الجلال فكيف إذن يضعف عن أن يبث تلك الروح في نفوس طلابه وعن أن يقطع بذلك دابر الشكاوى المريرة التي تطلقها الحناجر والأقلام في نهاية كل عام .

على أن المعلم ليس وحده المسؤول عن ذلك الإخفاق فالتبعة موزعة بين استعداد الطالب وكفاية المعلم وصحة المنهج .

فالطالب حباه الله بالذكاء وحلّى نفسه بحلة استيعاب العلوم والمعارف فإن هو قصّر عن إدراكها ولم تكن فيه عاهة ولا شذوذ ولا انصراف عن العلم فلا سبيل إلى تبرئة المعلم والمنهج من علة السقوط والخيبة . لقد شبه الأقدمون ذهن الطالب بأنه « كمثل ورق أبيض نقي لم يكتب فيه شيء . فإذا كتب فيه شيء حقاً كان أم باطلا فقد شغل المكان ومنع أن يكتب فيه شيء آخر ويصعب حكه ومحوه » ونشبهه نحن اليوم بلوحة المصور تنطبع فيها ما ينعكس عليها من الصور والمرائي . فمن العدل وحب الخير وحق الوطن أن نعنى بما نعكس على هذه اللوحة من أفانين الصور وبما نخط في ذلك الورق الأبيض من سطور نيرة لا تزول ولا تمحى ولا سيما أننا نفرض على الطالب الطاعة ونكبت فيه عوامل التذمر والثورة ونفرغ ملكاته في القالب الذي نهوى أفبعد هذه العوامل المساعدة يخفق معلم اللغة العربية في تعليم الطالب إذن لابد أن يكون هناك مع كفاية المعلم وصحة المنهج أسباب تعيق الطالب عن مجاني اللغة وأول هذه الأسباب قيام المربيات الأجنبيات على تربية أطفال الأثرياء وتعويدهم الحديث بكل لغة إلا اللغة العربية وتزويدهم عند ما يشبون عن الطوق بمكتبة صالحة من الكتب الأجنبية فينشأ الطفل عربي الجنس أجنبي الفكر واللسان ويزداد إعراقاً في العجمة إذا تعلم العلوم بلغة غير العربية ثم يطلب الآباء والرؤساء من معلم اللغة العربية أن يأتي بالمعجزات أما أبناء الشعب فإن نجوا من التوجيه الأجنبي فهم كأبناء الأغنياء مصابون ببواعث أخرى تصدفهم عن العلم فمن هذه البواعث معلم غير كفي أو معلم كفي ولكنه مرهق بالعمل ومنهج مشحون بالمواد وأساليب في التدريس عقيمة وتهاويل مخيفة تصور لهم اللغة العربية أعقد من ذنب الضب ونقصان المكتبة العربية الحديثة من الكتب المشوقة وإقبال الشباب على مطالعة صحف المتعة والتسلية

إقبالهم على الملاهي البريئة وغير البريئة في مرأى الآباء ومسمعهم وما أبعد العلم عن ذهن مشتت وفؤاد موزع ونفس حائرة . . .

والمعلم صحيح أنه كاد أن يكون رسولا ولكنه لم يوهب القدرة على الإتيان بالخوارق والمعجزات فهو بشر محدود القوى آدمي الجهاد والكفاح ولئن حفت بالمعلم القديم هالة من الروحانية وسيّرته صوفية تفانى فيها وتفانت فيه وحبّب إليه التعليم طلاب ظماء إلى العلم إن المعلم الحديث مبتلى بطلاب لا تتقد في جوانح أكثرهم تلك الجذوة المقدسة من الحماسة للعلم ثم هو ينقصه أول شرط من شروط التعليم وهو الحرية فهو أسير المنهج أسير المفتش أسير نتائج الامتحان وهو كذلك غريق في مجموعة من « الحصص » يؤديها في جهد و إرهاق في حين ذهنه مشغول بأسباب معاشه في عصر كثير المطاليب كثير النفقات وفي حين نفسه مهمومة بـ « كادر » ضخم اللوائح والقوانين زاخر بالمنشورات والمذكرات المفسرة أعوج الطرق لولبي المعاني ضئيل الفائد: والعائدة على أن المعلم الكفي صاحب الضمير الحي لو تقاضى راتب وزير ما نال غير جزاء وفاق عن أنفاسه التي يلفظها كل يوم قطرة قطرة في كؤوس الحروف والكلمات . حكى ابن الدباغ أن عبد الله بن غانم الرعيني قاضي القيروان عام ١٧١ﻫ دخل عليه يوماً ولد صغير له من المكتب فسأله عن سورته فقال حولني المعلم من سورة الحمد فقال له اقرأها فقرأها فقال له تهجَّها فتهجاها فقال له أبوه ارفع ذلك المقعد فرفعه فإذا تحته دنانير دون العشرين وفوق العشرة فقال له : ارفعها إلى معلمك فرفعها إليه فأنكرها المعلم على الولد وظن بعض الظن وحملها إلى عبد الله بن غانم فقال له عبد الله كالمعتذر : لعلك رددتها استقلالا لها فقال المعلم ما أتيت لهذا و إنما ظننت ظناً فقال له القاضي : أتدري ما علمته يا معلم كل حرف منها خير من الدنيا وما فيها .

إن الأفراد كالأمم لا تنعم بالهوادة والاستقرار ولا تنجح في التفرغ لشؤون الحياة ما لم تكن في مأمن من اقتصادها ومالها فالمعلم هبه تقاضى أعلى الأجور على مهنة التدريس فلن يبلغ بإنتاجه أمراً خطيراً إذا فقد الاستقلال في الرأي لأن الحرية في التعليم هي روح التعليم فأنى للرجل أن يمشي وهو مكبل بالأغلال فضلاً عن أعباء ثقال يلقى منها عرق القربة وتقطع عليه سبل التجويد فإن قضى المعلم سحابة نهاره متكلما وآناء ليله مصححاً فمتى يقرأ ويثقف ومتى يفكر في شؤون طلبته واستنباط النافع المفيد لهم ومتى يشارك عصره في سيره الأدبي أو العلمي ويكون له كلمة في ذلك السير يشعر معها الطالب

بسمو معلمه ورفعته فيخالجه ذلك الفخار الذي كان يخالج الطالب القديم الذي كان كأنما يتلقى عن معلمه الآيات البينات ولا بدع فشهرة المعلم منجذَب إليه . ولقد يكون من هالة العصمة والإكبار في المعلم خطر على ذاتية الطالب وتفكيره الخاص لأن تأثره بعلمه وتقديسه لآرائه وإنزالها منه منزلة الرضى والاقتناع والقبول قد تجعل من الطالب صورة طبق الأصل للمعلم على أنه خطر يزول إذا ناجى المعلم روح الطالب وعني بذكائه قبل ذاكرته وربّى فيه ملكات الاستقلال فيشب الطالب خالص الطبع سليما من التطبع .

بقي المنهج وهو علة العلل فإن ولاة الأمر لما هالهم إخفاق الطلبة في التمكن من اللغة العربية لم ينصرف همهم إلى معالجة الحال النفسية للطالب والمعلم بقدر انصرافه إلى مداراة المنهج فتعاونوا عليه بالتهذيب مرة والتشذيب أخرى وبالحذف حيناً والتبسيط أحياناً حتى صار التبسيط شنشنة تعرف في أخزم وفي غير أخزم وحتى صار الكلام على التبسيط يدخل في روع الطالب أنه مقبل على حمل دونه ثقل الجبال وأن اصطياد مفردات اللغة والوقف على الأساليب الصحيحة وكشف أسرار البلاغة إنما هو أمر دونه اصطياد العنقاء أو الظفر بالنوق العصافير ناهيك بالطريقة التي يعمد إليها المعلم في حشو رأس الطالب بالمعارف التي لا تستقر في رأسه الصغير إلا ريثما يجوز الامتحان ثم تتبخر مع أول شعاع من أشعة شمس العطلة والفراغ . ولم لايعمد المعلم إلى هذا الأسلوب ومعيار كفايته وقدرته على التعليم ما تسفر عنه نتيجة الامتحان من نسبة مئوية في نجاح طلابه وما عليه إذا نجح طلابه وقرن اسمه في تقرير المفتش بنعت جيد أو ممتاز أن يجترح أشنع جريرة بها يخنق روح تلميذه ويطفئ جذوة ذكائه ويقضي على ملكة التفكير في ذلك الذهن الذي كان في يديه وديعة غالية .

ولقد عمت موجة التبسيط كل مقومات اللغة فتناولت اللفظ والأسلوب والصرف والنحو والبلاغة والأدب فبدت اللغة العربية لذهن الطالب بعد ذلك التبسيط شجرة جرداء مقلمة الفروع جافة الغصون .

لقد عوضوا الطالب عن الألفاظ والأساليب القديمة ألفاظاً وأساليب عصرية لأنها أدل على روح العصر الذي نعيش فيه فاللغة يجب أن تكون مرآة العصر وهذا صحيح ولكنه كان يجب أن يكون في المرحلة الأخيرة من التعليم لأن تمكّن الطالب من الألفاظ والأساليب القديمة يكسبه ثروة ضخمة من الأدوات فيبني منها مايشاء ويبتدع مايبتدع وليست الألفاظ القديمة كلها من طراز الجحمرش والسجنجل والعيطل ففي ألفاظ الجاهلية نفسها بله ألفاظ العصرين الأموي والعباسي ثروة من الخير ألا تهمل وليس الرجوع إلى القديم جموداً

ورجعية بل صلة لاغنى لنا عنها إذا كنا نحفل بهذا التراث الضخم الذي وصل إلينا أو إذا كنا لا نريد أن نقيم الحواجز بينه وبين أبنائنا . كان الشاعر القديم يخرج إلى البادية ليتلقى صحيح اللغة من أفواه الأعراب ولقد روى لنا من نثق بروايته أن الشيخ إبرهيم اليازجي وهو من هو قدرة وبلاغة أسلوب كان يقرأ كتاب كليلة ودمنة عشر مرات في السنة هذا ولايخفى أن أعرف الناس باللغة الفرنسة مثلا أعرفهم باللغتين اليونانية واللاتينية وبمصادر الألفاظ ومشتقاتها فكان من إغراقنا في الدعوة للأسلوب الحديث أن رأينا من يدعو للعامية لأنها أوثق صلة بالحياة من اللغة الفصحى في حين أن الدعوة للعامية ما تنفست في زمن من الأزمنة حتى خنقت في مهدها وهذي المجامع الكنسية قد حرمت الصلاة باللغة العامية وليس هناك صلة أوثق من صلة العبد بخالقه وأعجب العجب ما قرأناه أخيراً من أن أستاذاً في الجامعة يملي على تلامذته تفسير القرآن باللغة العامية ومن أن كاتباً من الكتاب يزدري بكتاب وفيات الأعيان لأنه سجل للأموات ..

وقواعد الصرف والنحو قواعد عتيقة رأي وجوب تجديدها وتبسيطها وفي معظم الأحيان كان ذلك التبسيط والتجديد حذف فصول برمتها بدل أن يكون التبسيط حذف الحواشي والذيول إبقاء على تلك الوحدة التي تجمع في سلكها فرائد الكلام على الحرف والاسم والفعل . يدرس الطالب مثلا باب المبتدأ والخبر أو باب المنادى في أبسط وجوهه . ثم ماذا يفعل لو طرح عليه في الامتحان إعراب : «لاخيل عندك تهديها ولا مال » أو إعراب : « ياتيم تيمَ عدي لا أبا لكم » . في رأينا أن الغلو في تبسيط القواعد العربية مجلبة إلى تشويه ذلك المنطق العجيب الذي يجمع شتاتها فإعراب الجمل كحل المسائل الهندسية والحسابية فيه تمرين للذهن وفيه انصراف إلى التاريخ العربي نفسه وفيه عون على جلاء خوافي المعاني في أساليب الكتاب والشعراء فالقواعد ليست فقط علماً يشرح ما اعتور اللغة من تحول وتبدل في مجرى التاريخ بل هي أيضاً فن غايته الإتقان والكمال .

والاهتمام بالقواعد كان المحور الذي قام عليه ازدهار البلاغة والآداب في كل عصر ففي الهند قام علماء القواعد وعلى رأسهم پانيني (من علماء القرن الرابع قبل المسيح) بأبحاث طريفة في قواعد اللغة الهندية . وفي اليونان أفاض أفلاطون في دراسة أصول الكلمات وصيغها كما عني أرسطو بتركيز القواعد على المنطق ثم كانت مدرسة الإسكندرية فعقد الفقهاء إلى دراسة شعر أو ميروس في ضوء ما قعدوه من قواعد وحذا حذوهم الرومان بعد ذلك ولكنهم عنوا في الوقت نفسه بعلم الأدب ولا ننسى أثر علماء الكوفة

والبصرة ولا أثر علماء أوربا منذ عصر الانبعاث إلى يومنا هذا وأشهر تعديل أدخلوه على قواعدهم أنهم أخذوا بما قلناه عن صلة القواعد العربية بالتاريخ والأدب . أما البلاغة فقد أخنى أيضاً عليها الذي أخنى على القواعد فبسطت بالحذف دون مراعاة جلال شأن المحذوف فقد حذف من أبوابها باب الفصل والوصل ولعله في نظرنا أهم أبواب البلاغة . والطريف أن للبلاغة تعريفات جمة منها أنها « معرفه الفصل من الوصل » ولو عرف كثير من الكتاب هذا الباب ووقفوا على أسراره ودقائقه لاهتموا بأن يقدموا للقارىء أسلوباً لا تتعادى فقره ولا تتجافى ألفاظه ولا تختلط فيه حروف العطف اختلاطاً متنافراً متناكراً .

وأما الأدب فيطول الكلام فيه ولن تؤتي دراسة الأدب أكلها إلا إذا مكن المنهج المعلم من أن يقتدي بذلك الفلاح الذي يقلب أرضه بطناً لظهر قبل أن يبذر فيها البذور وإلا نما غرسه على حفافي الأخاديد مما لا يكون فيه كبير جدوى .

وسنظل نشكو من ضعف الطلاب في اللغة العربية مالم يشترك الأهلون والدولة على حسم ذلك الداء بالوسائل التي أشرنا إليها في هذا المقال إشارات عابرة والله ولي التوفيق .

عادل الغضبان

مولد الفلسفة الإسلامية

للأستاذ عباس محمود العقاد

« لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم »

حديث شريف

صدق الرسول الكريم

فإن تاريخ المذاهب والفرق في الإسلام قريب الشبه بتاريخها في المسيحية، وقريب الشبه بتاريخها قبل ذلك في الإسرائيلية، بل هو قريب الشبه بتاريخ كل عقيدة دينية انتقلت من دور الإيمان إلى دور الشرح والتفسير أو دور التوفيق بين النصوص وما يستلزمه العقل من معاني النصوص. لافرق في هذا التطور بين دين ودين إلا من حيث السرعة أو تراخي الزمن قبل ظهور الأطوار المتعاقبة. فهي في الإسلام أسرع، وهي في المسيحية أقل من ذلك سرعة، وهي في اليهودية أبطأ من كلتا الديانتين الكتابيتين، لأسباب معقولة تقتضي ذلك التفاوت في سرعة الانتقال من دور الإيمان إلى دور الشرح والتفسير.

فيلو

فالتأويلات الفلسفية لم تظهر في الديانة اليهودية قبل « فيلو » الإسكندري المعاصر للسيد المسيح، أما الخلاف على نصوص التوراة بين السامريين وغيرهم فقد ظهر في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد، ثم انقضت تسعة قرون بعد الميلاد حتى اتسعت فجوة الخلاف بين القرائين والربانيين، أي بين القائلين بالتزام الحرف وهم القراؤون، والقائلين بجواز التفسير وهم الربانيون، وكان الخلاف بينهم في مسائل العقيدة الكبرى مناسباً لكل خلاف بين المتشددين والمتجوزين. فكان القراؤون يقولون بالجبر، والربانيون يقولون بالاختيار، ويقاس على ذلك كل ما بين الفريقين من وجوه الخلاف.

القراؤون
الربانيون

ولم يكن « فيلو » من الفلاسفة المنقطعين للفلسفة أو المتفرغين للمنطق والعلوم العقلية، بل كان يمزج بين الدين والفلسفة، ويزعم أن الفلسفة كلها مأخوذة من نصوص التوراة، ولكنه يجتهد في تأويل تلك النصوص بحيث تتسع للمعاني الفلسفية التي تعلمها واطمأن إليها بعقله، ويجعل الكلمات رموزاً وإشارات إلى القضايا المنطقية

والمعاني المجردة . فهو مؤمن بالتوراة ومؤمن بالمنطق الذي تستلزمه المدارك الإنسانية ، ولا محيص له بين الإيمانين من تحويل الكلمات إلى رموز وإشارات ، لئلا يكفر بالعقل أو يكفر بالدين .

وقد نظر فيلو إلى الأوصاف الحسية التي وصف بها الإله في كتب التوراة فلم يقبلها على ظاهرها ولم يستطع أن يرفضها لاطمئنانه الموروث إلى دين آبائه وأجداده ، فقال إنها رموز ومجازات تقرب المعاني إلى الذين يفهمون بالحس ولا يدركون المعاني المجردة بالرياضة والتفكير ، وانفتح له باب التأويل ، فذهب في التجريد إلى أبعد مداه ، وأنكر الصفات الإلهية ، لأن الصفة حد والله منزه عن الحدود ، بل نزه الله عن التأثير في مادة الكون ، لأن المعنى الإلهي أشرف من جميع الأجساد المادية ، فإذا أثر فيها فإنما يكون هـذا التأثير بالواسطة التي يودعها الله في بعض « القوى » الإلهية ، واحتال على تأويل الصفات بأنها نفي للنقص الذي لايتصوره العقل في حق الخالق العظيم ، فهو قادر لأنه ليس بعاجز ، وعالم لأنه ليس بجاهل، وغني بنفسه لأنه ليس بمفتقر إلى أحد ، وهو في قدرته وعلمه وغناه مقام فوق كل مقام يتخيله العقل من صفات الإنسان ، وكل مايستطيعه العقل الإنساني من القربى إلى الله أن يدركه بالرياضة ثم يدركه بالعلم ثم لايغنيه كلاهما عن الإلهام الذي يختص به سبحانه وتعالى من يشاء من عباده الخلص المقربين .

* * *

وكان أوريجين Origenes أكبر المجتهدين السابقين من أصحاب القول بالتفسير والتأويل في الديانة المسيحية ، ولم تظهر دعوته مع ذلك قبل القرن الثالث للميلاد .

شغل أوريجين كما شغل فيلو بمسألة النصوص والتوفيق بينها وبين المعقولات ، ومن عجيب الأمر أن هذا المجتهد الجريء على النصوص قد بلغ من الإيمان بالنص الحرفي في كلمة من الإنجيل مبلغاً لم يبلغه قبله ولا بعده أشد المؤمنين بالنصوص الحرفية في دين من الأديان ، فخصى نفسه لأنه قرأ في إنجيل متّى أنه « يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خَصَوْا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات ، من استطاع أن يتبتل فليفعل » .

ومن ثم يُرى أن أوريجين لم يكن من الفلاسفة المنقطعين للفلسفة ، بل كان من المؤمنين المتبتلين الغلاة في النسك والعبادة ، ولكنه تعلم الفلسفة وأدرك البدائه العقلية فاضطره فرط الإيمان إلى التوفيق بينها وبين نصوص الكتب الدينية ، ولاسيما النصوص التي تشير إلى بنوة السيد المسيح ودلالة الثالوث والتوحيد . فقال إن البنوة كناية عن

القربى ، وفهم معنى الكلمة التي كانت في البدء فهم الرجل الذي اطلع على مذهب هيرقليطس ومذهب أفلاطون ، لأن الأول يقول إن الدنيا تتغير أبداً فليس لها وجود حقيقي وراء هذه الظواهر غير وجود الكلمة المجردة أو العقل المجرد الذي لاينقطع عن تدبيرها ، ولأن أفلاطون يقول بسبق الصور المعقولة على الأجسام المحسوسة ، فجاء أوريجين بعدهما ليقول إن السيد المسيح هو مظهر العقل الخالد تجسم بالناسوت ، وأن ظهوره في الدنيا حادث طبيعي من الحوادث التي يتجلى بها الإله في خلقه ، واجتهد في تأويل النصوص ، فجعل للكتب الدينية تفسيرين : أحـدهما صوفي للخاصة ، والآخر حرفي لسائر الناس ، وبشر بخلاص خلق الله جميعاً في نهاية الأمر حتى الشياطين ، ولم يكن ينكر الشياطين أو ينكر قدرة السحرة على تسخيرها في الإضرار بالناس ، ولكنه — من عجب التناقض في الطبع الإنساني — كان يرى أن الأسماء العبرية دون غيرها هي الأسماء التي تجدي في الاستدعاء والتسخير ، وينسى أنه جعل للأسماء والحروف هنا سلطاناً على الكون يقصر عنه سلطان المعاني والمسميات .

وخلف أوريجين تلميذان قويان، هما آريوس في الإسكندرية، ونسطور في سورية، فمضيا في التأويل والتوفيق بين النصوص والمعاني ، ولكنهما اختلفا بينهما أشـد اختلاف يخلقه اللدد والشحناء ، وتراميا كما ترامى أتباعهما زمناً بتهمة الكفر والجحود ، لأن آريوس كان يقول بأن المسيح إنسان حادث ، ونسطور كان يؤمن بالطبيعة الإلهية في المسيح ويأبى التسوية بينه وبين الله في الدرجة والقدم . ودخلت العوامل السياسية فى هذا الخلاف فدفعت به إلى أقصى مداه .

وهذه كلها كما رأينا مذاهب في الدين تصطبغ بالصبغة الفكرية ، ويمتزج فيها الإيمان بالتفكير . أما مذاهب الفلسفة المسيحية التي تصدى لها المفكرون من غير رجال الدين فلم تظهر في العالم المسيحي قبل انقضاء عدة قرون ، وتأخر ظهورها إلى مابعد ظهور الفلسفة الإسلامية في أوربة الغربية .

٭٭٭

على أن الفرق والمذاهب لم يتراخ بها الزمن في الإسلام كما تراخى بها في اليهودية والمسيحية ، ولم ينقض جيل النبي نفسه حتى ظهرت مسألة النص والتفسير ولحقت بها المسائل التي اقترنت بها في كل عقيدة دينية ، كمسألة القضاء والقدر ، ومسألة الظاهر والباطن ، ومسألة الصفات الإلهية ، وما ينبغي للروح من الصفات بمعزل عن عالم المادة أو عالم الأجساد .

ويتوقف فهم الحقائق في هذه الحركة كلها على فهم البواعث التي أوجبت السرعة هنا وسمحت بالإبطاء والإرجاء هناك .

فاليهودية عند نشأتها لم تنهض لها ضرورة قاضية بالتعجل في التفسير والتأويل ، لأن اليهودية نفسها كانت بمثابة فلسفة تجريدية بالقياس إلى العقائد الوثنية والأديان المجسمة التي نشأت بينها ، إذ كانت تدعو إلى التوحيد وعبادة الإله المجرد في السماء بين أناس يعبدون الأوثان ويجسمون الأرباب .

وكان أنبياء اليهود يتلاحقون واحداً بعد واحد ، فيشغل النبي الأمة بأقواله عن تفسير أقوال الذين سبقوه إلى استنزال الوحي من الله .

وينبغي أن نذكر هنا أن الدينين الكتابيين العظيمين اللذين ظهرا بعد اليهودية إنما كانا تعديلين في نصوص الدين اليهودي ومعانيه ، فهما خليقان أن يشغلا كل فراغ كان متسعاً لتفسير النصوص ومحاولة التوفيق بين المنقول والمعقول .

وقد تلاحقت الهجرة والتشتيت على الأمة اليهودية منذ أيامها الأولى ، وأصابتها المحن من ذوي قرباها ، ونزل بها الحيف من الدول القوية المسلطة عليها ، فاشتدت في نفوسها العصبية القوية ، ونفرت كل النفور من البدع الأجنبية ، وتحصنت دونها بحصن منيع من العزلة الروحية والفكرية ، فأحجمت عن الفلسفة التي تطرقت إليها من جانب الإغريق وجانب المشارقة الفارسيين والهنديين ، ولم تكن هـذه الفلسفة على هذا قد تكاملت في بلاد الإغريق أو تفرقت منها بين الأقطار الشرقية ، لأنها لبثت في دور التكون والتكامل والتعليق والتذييل إلى ما بعد ميلاد المسيح .

أما المسيحية فقد تأخر تدوين كتبها إلى أواخر القرن الثاني للميلاد ، وكان معظم هذه الكتب مسطوراً باللغـة الإغريقية ، فلا يطلع عليها سواد المسيحيين . وقد كانت جمهرة المسيحيين في أوائل الأمر من عامة الناس الذين يقنعون بالإيمـان اليسير ، ولا يتعمقون في النصوص ولا في التأويلات ، فلما آمن المتعلمون بالدين الجـديد ، كان اختلافهم مقصوراً على بيئات الدرس والثقافة ، إلى أن قام في العالم المسيحي ملوك يجلسون على العروش ، فخرج الخـلاف المدرسي إلى معترك السياسة الزّبون ، ونجمت الفرق والمذاهب ، وهي في أحضان الدولة تعتمد على بأس الملوك والأمراء من أحد الطرفين أو من كلا الطرفين ، أو من جميع الأطراف في بعض الأحوال .

أما الإسلام فقد كان الاستعداد فيه لظهور الفرق والمذاهب على غير ما رأينا في اليهودية والمسيحية من جميع الوجوه . كانت الأسباب مهيأة لظهورها منذ الجيل الأول

سواء من جانب الفلسفة أو من جانب المشكلات اللاهوتية التي شغلت عقول الباحثين بين اليهود والمسيحيين .

كان الإسلام خلواً من الكهانة التي تستأثر بالدرس والتأويل ، وكان القرآن صريحاً في الأمر المتكرر بالنظر والتفكير ، وكان القرآن كتاباً محفوظاً في حياة النبي عليه السلام ، فلم يطل العهد بالمسلمين في انتظار التدوين والاتفاق على نصوص الكتاب. وكان المسلمون يؤمنون بأن محمداً عليه السلام خاتم النبيين ، فلا ينتظرون نبياً آخر يتمم الرسالة أو يغنيهم عن الاجتهاد في معاني الكتاب أو معاني الأحاديث النبوية .

ولم يجهر محمد عليه السلام بالدعوة الإسلامية حتى كانت مشكلات المذاهب المتقدمة قد ملأت آفاق الشرق العربي ، وانعقدت عليها الأقوال من طوائف المختلفين هنا وهناك ، وتسرب الكثير منها إلى الجزيرة العربية قبل الدعوة الإسلامية ، سواء منها أقوال الفلاسفة وأقوال رجال الدين من جميع النحل والأجناس ، وأشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة ، فجاء فيه من سورة الحج : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد » . وأشار إلى الدهريين ، فجاء فيه من سورة الأنعام : « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » ؛ وجاء فيه من سورة الجاثية : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » . . . بل أشار في سورة آل عمران إلى تأويل المتشابه من الكتاب ، فقال : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله ».

وكان بعض المسلمين يسمعون بالتوراة ، ولم يطلعوا عليها ، ولكنهم سمعوا أنها أنبأت بظهور النبي وبغير ذلك من أحداث آخر الزمان ، وأن الأحبار يخفون هذه النبوءات إمعاناً منهم في الكفر والضلالة وحب الرئاسة في الدنيا ، وقال لهم كعب الأحبار : « ما من الأرض شبر إلا مكتوب في التوراة التي أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة » .

وفهم المسلمون أن هذه الأسرار لا يعقل أن تودع في التوراة ، ولا تودع في القرآن ، لأن الله لم يفرط في الكتاب من شيء ، وإنما تبذل هذه الأسرار لأهلها ، وإنما سبيلهم في معرفتها أن يتوسلوا بالتقوى ، ويستعينوا بمن سبقهم من أحبار الأمم

الأولى ، ويستدرجوهم بالمحاسنة والنصيحة إلى الكشف عنها، فلم يكن لطلاب المعرفة بد من الدخول في معترك الفرق الدينية بين من يزعم أنه على الحق ومن يقال إنه على الضلال .

ولما انتشر الإسلام كان انتشاره في الرقعة التي جمعت كل هذه الفرق والمذاهب وشهدت بينها مجالس المناظرة ومصارع النزاع والقتال . وكانت الفلسفة الإغريقية قد بلغت أوجها في آسيا الغربية ، ومدرسة الإسكندرية ، وترددت أقاويلها ومناقضاتها ما بين مصر وسورية والعراق وأطراف البلاد الفارسية ، حيث يتصدى للتعليم أطباء النساطرة ومعهم كتب الإغريق في الحكمة والتصوف والمنطق والجدل وأشباه هذه الموضوعات ، فلم يبق سبب من الأسباب التي تنشئ الفرق والمذاهب إلا وقد تهيأ للظهور من جميع نواحيه عند قيام الإسلام .

على أن السبب الذي طوى كل هذه الأسباب جميعاً هو قيام الدولة مع قيام الدين الإسلامي في وقت واحد ، وهو ما لم يحدث في بني إسرائيل ولا في عالم المسيحية ، وعليه تدور الخلافات بين الفرق جميعاً من قريب أو بعيد .

فالنزاع على الدولة بين علي ومعاوية مرتبط بنشوء الخوارج ونشوء الشيعة ، ومرتبط كذلك بنشوء القدرية والمرجئة ، والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح ، ومذهب أهل الحقيقة ومذهب أهل الشريعة ، وما استتبعه من فرق الباطنية وأصحاب الرموز والأسرار ، على تفاوت نصيبهم من الحكمة الدينية ، أو الحكمة الفلسفية .

ويستطاع رد الخلاف هنا إلى محور واحد ، وهو الخلاف بين أنصار الواقع وأنصار التغيير ، أو بين أنصار المحافظة وأنصار التجديد حيث كان .

روي عن يزيد بن معاوية وقد حُمِل إليه رأس الحسين أنه سأل مَنْ حوله وهو يشير إلى الرأس الشريف : « أتدرون من أين أُتي هذا ؟ إنه قال : أبي علي خير من أبيه ، وأمي فاطمة خير من أمه ، وجدي رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما أبوه فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي ، وأما جده فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً ، ولكنه أُتي من قبل فقهه ولم يقرأ : "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ..." » .

فمن خدمه الواقع هذه الخدمة الجلّى لاجرم يؤمن بأن « الواقع » هو قدر الله وقضاؤه الذي يدان به العباد .

ومن خالفه في ذلك لاجرم يعتصم بالرأي والتفسير ليفهم القدر الإلهي على الوجه الذي ينهض به دليله ويسقط به دليل خصمه .

ومن ثم تنفرج الطريق بين طلاب الواقع وطلاب التغيير في كل مجال .

فطلاب الواقع يقولون بطاعة السلطان القائم ، وطلاب التغيير يقولون بطاعة الإمام المستتر ، ويقولون بعلم الظاهر وعلم الباطن ، أو بعلم الحقيقة وعلم الشريعة ، أو بالفرق بين الكلام الواضح الذي يفهمه الدهماء والكلام الخفي الذي يفطن له ذوو البصر والاطلاع .

يروى عن الإمام الباقر أنه قال : « إن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً يعرف منها سليمان حرفاً واحداً تكلم به فأتي إليه بعرش مملكة . . . ونحن عندنا منها اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في عالم الغيب وحده » .

ويدور على هذا المحور من جانب آخر خلاف القائلين بإسلام بني أمية والقائلين بتكفيرهم والقائلين بإرجاء الحكم عليهم إلى يوم القيامة ، وهم أصحاب الفرقة التي اشتهرت باسم المرجئة من أوائل فرق الإسلام .

ويغلو من هنا فريق كالخوارج فيكفرون عليًّا ومن والاه ، ومن هنا فريق كالسبائية فيؤلهون علياً وينكرون القول بموته ، وإنما شبه للناس فقتل ابن ملجم شيطاناً تصور بصورته وصعد علي إلى السحاب ، فالرعد صوته ، والبرق سوطه ، وموعده يوم يرجع فيه إلى الأرض فيملأها عدلا ويقضي على الظالمين ! أو يقولون كما يقول البنانية أتباع بنان بن سمعان إن روح الله حلت في علي ثم في ابنه محمد بن الحنفية ثم في ابنه أبي هاشم ثم في بنان ، أو يقولون بتناسخ الأرواح من آدم إلى علي وأولاده الثلاثة ، أو يقولون كما قالت الزرامية إن الله قد حل في إمام بعد إمام إلى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة العباسية ، وإنه لم يقتل ولا يجوز عليه الموت وفيه روح الله .

ويكثر الكلام بين هذه الفروض والظنون على ماهية الروح وماهية الحقيقة الإلهية وما ينبغي لله جل وعلا من التنزيه وما يمتنع في حقه من التجسيم والتشبيه ، وتمتزج النوازع الذهنية بنوازع المصلحة والسياسة والعواطف المكبوتة ، فيستمد كل منها عوناً من الآخر على الإقناع واستجلاب الأنصار والأشياع .

ومن البديه أن دعاة التغيير يتقون جهدهم سلطان الواقع حيث هو قائم عزيز الجانب مبثوث العيون، فابتعدوا من دمشق الشام واتخذوا لهم ملاذاً مأموناً عند أطراف الدولة الشرقية فيما وراء النهر خاصة ، كما كانت تسمى في تلك الأيام .

* * *

هنالك لم يكن أحد من المتعلمين يشتغل بالأمور العامة دون أن يعرض له البحث في الشريعة والحقيقة ، والظاهر والباطن، وأقوال المختلفين على القضاء والقدر وعلى صفات الله وحرية الإنسان وماهية النفوس والأرواح ، وما يصح أن يفرض عليها من العقاب أو تجزى به من الثواب ، وكل أولئك هو موضوع الفلسفة الأصيل ، قد تسرب إلى خراسان من مراكز الدولة الإسلامية ومن تراث الأمم الخالية ، ثم أعانه جوار الهند بمورد آخر من موارد الحكمة والعلم التي لا تزال مشغولة بأشباه هذه البحوث .

ولما ذهبت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية لم تتبدل الحال في تلك الأرجاء ، لأن العلويين والعباسيين على السواء خبراء بالمذاهب والتفسيرات وكلهم من أنصار النظر والاستدلال . وقد قامت الدعوة في الشرق باسم آل النبي، قبل أن تقوم صريحة باسم بني العباس ، ثم زيد على الأطراف التي تتطلع إلى التغيير طرف آخر في أفريقية الغربية بعد قيام الدولة العباسية ، فقامت هنالك دعوة الفاطميين ، وعرفت سبيلها إلى أقصى المشرق حيث كان الناس يؤثرون العلويين على العباسيين ، ولا سيما بعد تشريد أبناء علي وحرمانهم واضطهادهم في أيام بني العباس .

فأصبحت الأطراف الشرقية وكراً يسمع فيه كل صوت من أصوات البحث والنظر والاستدلال .

عباس محمود العقاد

المعارضات في الشعر العربي
٤ - العصر العباسي

للأستاذ علي الجارم بك

وهذا عصر كل ما فيه جديد ، فهو جديد في اتجاهه العربي ، جديد في سياسته ، جديد في روحانيته وفلسفته ، جديد في مدنيته . أو قل هو جديد في كل شيء ، فإنك إذا وازنته بالعصر الأموي ، وبخاصة الصدر الأول منه ، رأيت حضارة جديدة ، وأخلاقاً جديدة ، وصنفاً من الناس جديداً .

انتُزِعت الخلافة الإسلامية من براثن الأمويين بسيوف الفرس ورماحهم ، فركن العباسيون إلى سياستهم ، واتخذوا منهم وزراء وقواداً ، وفتحوا لهم أغلاق أسرارهم ، فدخلوا إليها من كل باب . ولم ينس الفرس ، أو طائفة منهم ، أن العرب هم الذين ثلوا عروشهم ، وأذلوا تاريخهم الحربي المجيد . ثم إنهم لم ينسوا ما مُنوا به من الاضطهاد في عهد بني أمية ، لذلك ناصروا بني العباس وعملوا جاهدين في بطء وحذر أن يستلوا النفوذ والسلطان من أيديهم قليلاً قليلاً .

وقد نام العباسيون وهم في سكرة الأمل ، والتعطش إلى الملك ، وشفاء أضغان قديمة أركدتها سماحة الإسلام في صدورهم حيناً ، عن هذا الخطر واستغشوا ثيابهم دون رؤية أشباحه وتهاويله . ولم يهمس في أذنهم ذلك الخاطر الذي جال بصدر المتنبي بعد مائتين من السنين :

ومن يجعل الضِرْغام بازاً لصيده تصيّده الضِرْغام فيما تصيّدا

ولم يُصيخوا إلى قول نصر بن سيار :

أبلغ ربيعة في مروٍ وإخوتهم فليغضبوا قَبْلَ أن لا ينفع الغضبُ

ولينصِبوا الحربَ إن القوم قد نصبوا حرباً يُحرّق في حافاتها الحطبُ

ما بالكم تُلْقِحون الحربَ مُدْ نكمُ كأنّ أهل الحجا عن رأيكم عُزُبُ

وتتركون عدواً قد أظلّكمُ بما تأشّب ، لا دينٌ ولا حسبُ

قِدْماً يدينون ديناً ما سمعت به   عن الرسول ولم تنزل به الكتبُ
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم   فإن دينهُمُ أن تُقْتل العربُ !

وتيقظ المنصور للأمر الداهم وتوهم أنه أدركه ، واهتز منه عرش الرشيد وظن أنه استأصله ، ولكن هيهات هيهات !

تغلغل الفرس في الدولة العباسية فأصبحت فارسية إلا في شعارها ، كسروية إلا في رايتها ، وفتنوا الناس بمدنية الفرس ، وأدب الفرس ، وبالمال ينثرهنا وهناك ، فاجتذبوا القلوب ، وأذلوا أعناق الرجال ، وكانت لهم دولة في الدولة ، وملك في الملك ، وجند وحاشية وشعراء وعز وسلطان . وكان الخلفاء قد مدّوا لأنفسهم في أسباب اللهو والعبث ، وسحروا بالمدنية الجديدة فاستناموا إلى اللذات ، وتفنّكوا في النعيم، وتركوا لهم شؤون الدولة ينقضون فيها مايشاؤون ويبرمون . واهتزت القصور بالموسيقى والرقص والغناء ، وثملت مجالس الشراب بما فيها من عربدة ومجون ، وكأن كلْ شيء في بغداد كان يردد قول أبي نواس :

إنمـا العيش سمـــاعٌ   ومُـــدام ونِـدامُ
فإذا فاتك هـــذا   فعلى الدنيا السـلامُ !

وأصبح للقيان الملك والسلطان من دون الخليفة ، فسمعنا الرشيد يقول بما يزعم الرواة :

مَلكَ الثلاث الآنسات عناني   ونزلن من قلبي بكل مكانِ
ما لي تطيعنيَ البريّة كلُّهـا   وأطيعهنّ وهنّ في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطـان الهوى   — وبه قوين — أعزُّ من سلطاني

ثم سرت الفتن في أحشاء الدولة وأوصالها كلما أطفئت فتنة تأججت أخرى . وكانت هذه الفتن تظهر أول الأمر في صورة خلاف ديني أو مذهبي ، ولكنها لم تكن في الحقيقة إلا محاولة أجنبية لانتزاع الحكم من أيدي العرب . أما هؤلاء فكانوا في نشوة من الملك والسلطان غافلين سادرين ، ولم تكن حياتهم اللاهية العابثة الماجنة إلا نذير الفناء ، وطلائع البلاء . وهذه كارثة الأمم العربية التي هيأت لابن خلدون أن يؤلف من نكباتها المتلاحقة فلسفة وكتاباً ، فإن الاستعصام بالأجنبي والاستقواء به مصيبة لازمت ممالك الإسلام منذ هذا العهد ، فكانت أمّ قيحها ومصدر بلائها ومعول انهيارها .

استعان بنو العباس بالفرس ثم بالأتراك فدالت دولتهم وذهبت ريحهم ، وأصبح الخليفة العربي الهاشمي كما يقول الشاعر :

خليفـــــة في قفص بين وصيف وبُغـــا
يقـــــول ما قالا له كما تقول البَبّغـــا

واستعان الفاطميون بالأرمن أيام خلافة المستنصر بالله فتمزق ملكهم بدداً ، وجلب الصالح بن أيوب المماليك لينا صروه فقضوا على دولة الأيوبيين . أما الأندلس فلا تزال العين تدمع من أجلها على ملك كان زينة الدنيا وحديث الدهور .

هكذا نشأت الدولة العباسية ، وفي هذا الجو المائج بالخداع والدسائس والمدنية الخلابة ترعرعت ، وفيها نشأ الشعر صورةً من حياتها ، مشتقاً من أفئدة الناس وميولهم ونزواتهم ، نشأ الشعر فيها ساخطاً على القديم ، مندّداً به ، بعد أن بهرته حضارات الأمم المغلوبة ، ولعبت بعقله تلك الإباحية التي نعم الناس في ظلالها بكل مافي الحياة من متع وفتن وإغراء . فقد رأى الشعراء في البساتين الضاحكة ما أسخطهم على الصحراء العابسة ، وفي القصور الشامخة ما أنساهم الرسوم والأطلال ، وفي مجالس الخمر والقيان ما بغّض إليهم ذكر هريرة وبَوْزع ، وفي ترجمة علوم الأولين ما فتح عقولهم لدنيا من الثقافة جديدة . ووجدت الشعوبية في الشعر ميداناً فسيحاً للنيل من العرب ، والتهكم بهم والإزراء بمحامدهم ، وتشويه مآثرهم ، ولم يغضب الخلفاء لقومهم ولم يقفوا لصد هذا الاضطهاد الأدبي الذي يتخوّن مجدهم . أين هذا من تعصب الأمويين للعرب وإسكات كل صوت يهمس بمجد غير مجد العرب ؟ فإن إسمعيل بن يسار ما كاد ينشد أمام هشام ابن عبد الملك قوله :

إني وجَدِّك ما عودي بذي خَوَرٍ عند الحِفاظ ، ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ، ومجدي لا يُقاس به إلى لسان كحدّ السيف مسمومِ
أحمي به مجد أقوامٍ ذوي حسب من كلِّ قَرْمٍ لتاج الملك معمومِ
مَنْ مثلُ كسرى وسابور الملوك معاً والهُرْمُزانِ لفخرٍ أو لتعظيمِ ؟ !

حتى برقت عينا هشام من الغضب وقال : أعليّ تفخر ؟ وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ غطوه في الماء ، فغطوه حتى كادت نفسه تخرج . والحق أن ابن يسار كان موغلاً في الصفاقة وقلة الذوق ، وكانت بلواه أنه لم يعرف أن لكل

مقام مقالاً ، هكذا كانت الحال في عهد بني أمية . ولكنّ الشعر في هذا العصر نال حرية فوق ما كان يجب أن ينال ، وكان أكثر الشعراء من الموالي الناقمين من العرب ، وعلى رأسهم بشار وأبو نواس والخريمي ، فأصبحنا نسمع بشاراً يقول :

نمت في الكرام بني عامرٍ فروعي ، وأصلي قريشُ العجمْ !

ويقول :

من خُراسانَ وبيتي في الذُرا ولدى المسعاة فرعي قد سَمَقْ

وسمعنا منهم من يقول :

فلستُ بتاركٍ إيوانَ كسرى لتُوضح أو لحَوْمَلَ فالدَّخُولِ

وضبٍّ في الفلا ساعٍ وذئبٍ بها يعوي ، وليثٍ وَسْطَ غِيلِ

ومن يقول :

بني هاشم عودوا إلى نَخَلاتكم فقد صار هذا التمر صاعاً بدرهمِ

فإن قلتمُ رهطُ النبيِّ محمدٍ فإنّ النصارى رهطُ عيسى بن مريمِ

أما المتوكلي ، وهو من ندماء الخليفة المتوكل ، فقد بلغ الغاية في النفج :

أنا ابن الأكارم من نسل جَمْ وحائزُ إرث ملوك العجمْ ☆

فقل لبني هاشمٍ أجمعينَ هلمّوا إلى الخلْع قبل الندمْ

ملكناكُمُ عَنْوةً بالرماحِ طعناً وضرباً بسيف خَذِمْ

وأولاكم الملكَ آباؤنا فما إن وفيتم بشكر النعمْ

فعودوا إلى أرضكم بالحجازِ لأكل الضِباب ورعي الغنمْ

فإني سأعلو سرير الملوكِ بحدِّ الحسام وحرف القلمْ

وهذا المذهب الشعوبي إصبعٌ من أصابع الغزو الأجنبي البطيء المستور ، فقد كان لأعداء العرب جماعة تشبه في عصرنا الحاضر (وزارة الدعاية) وكانت النزعة الشعوبية أمضى أسلحتها ، وأنفذ سهامها ، فأطلقوها في صور شتى من الشعر والتأليف والقصص الدالة على بلاهة العرب وجهلهم ، ثم دسوا سمومهم في التفسير والحديث .

تمرد الشعراء في هذا العصر على القديم ، وسخِر كثير منهم من الشعر الجاهلي ،

☆ جم : جمشيد ملك الفرس .

وتندروا بأغراضه ، وهزؤوا بنؤيه وأطلاله . وفي الحق إن معظم الشعر نحا في هذا العصر منحىً غريباً ، ولم يكن عربياً إلا في ألفاظه وأسلوبه ، أما فنونه التصويرية فكانت بدعاً جديداً . لذلك لم يكن ليظن، وقد وصل الشعراء إلى قمة هذا الترف الفني، وبلغوا هذه المنزلة من الاعتداد بأنفسهم ، والزراية على من سواهم، أن تحدث أحداً منهم نفسه بمعارضة الشعر الجاهلي أو الأموي ، لأن المعارضة لاتكون إلا في إحدى حالين : الرغبة في تحدي القوي، أو الفلَج على الخصم في الجدال الديني أو السياسي. أما في الأولى فقد عرفنا نظرتهم إلى الشعر والشعراء قبلهم ، وأما في الثانية فإن استقرار صخرة الإسلام وانتهاء الأمر إلى بني العباس جملة لم يترك إلا حزبية ضئيلة . وإذا كان بالدولة أضغاث من نصراء الأموية أو العلوية فإن الخوف وقلة النصير لم يدع لهم إلا صوتاً خافتاً .

والمعارضات إنما تزدهر وتكثر بين عواصف الخلاف العنيف ، ولم يكن في صدر هذه الدولة شيء مما يثير المعارضة إلا ذلك الصراع القومي بين العرب والفرس ، وكان في أكثره شعراً يتساقط من أحد الجانبين من غير أن يُلتزَم فيه اتحاد البحر والقافية ، وكان يسلك أحياناً سبيل المعارضة المعروفة ، كما جرى بين عبدالله بن طاهر (من الفرس) ومحمد بن يزيد (من العرب) . قال عبد الله بن طاهر يتغنى بمآثر أهله ويفخر بقتلهم الأمين العباسي :

أَقصري عما لِهجْتِ به ... ففؤادي عَنكِ مشغولُ
أنا من تدرين ما نسبي ... سلفي الغرُّ البهاليلُ
وأبي من لا كِفاء له ... من يساوي مجده ؟ قولوا !

فعارضه محمد بن يزيد بقوله :

لا يَرُعْكَ القالُ والقيلُ ... كل ما بُلِّغْتَ تضليلُ
يا ابن بيتِ النار ، موقدُها ... ما لحاذَيْه سراويل ✲
مَنْ حسينٌ ؟ من أبوك ؟ ومن ... مُصْعبٌ ؟ غالتكُمُ غُول !

وهذا شعر ضعيف خائر لم يتفجر عن روية شعرية حاذقة .

وقد أثار الخلاف في أحقية بني العباس بالخلافة دون بني عليّ شيئاً من الشعر الجدلي ، وقامت حول ذلك معارضة بين الشعراء ، وكان من أكبر دعاة العباسيين مروان بن

✲ الحاذان : ما وقع عليه الذنب من أدبار الفخذين .

أبي حفصة ، فقد قال قصيدة يمدح بها المهدي حينما عقد البيعة لابنه الهادي جاء فيها :

يا ابن الذي ورِث النبيَّ محمداً دون الأقارب من ذوي الأرحامِ
الوحيُ بين بني البنات وبينكم قطع الخصامَ فلاتَ حينَ خصامِ
ما للنساء مع الرجال فريضةٌ نزلت بذلك سورة الأنعامِ
خلُّوا الطريق لمعشر عاداتهم حَطْمُ المناكب كلَّ يوم زحامِ
ارضَوا بما قسم الإلهُ لكم به ودعوا وراثة كلِّ أصيدَ حامي
أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثةُ الأعمامِ

وحنق شيعة أبناء فاطمة من هذه القصيدة ، وكان أشد ماغاظهم منها قوله :

أنّى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثةُ الأعمامِ

روى صاحب الأغاني : أن صالح بن عطية لما سمع منه هذا البيت عاهد الله أن يغتاله ، فلم يزل يلاطفه حتى أنس به ، ثم مرض مروان بالحمى ، فخلا البيت يوماً به وبصالح ، فوثب عليه صالح حتى أخذ بحلقه ، فما فارقه حتى مات . وتابع ابنَ أبي حفصة الطاهرُ بن علي العباسيّ فقال :

لو كان جدُّكُمُ هناك وجدُّنا فتنازعا فيه لوقت خصامِ
كان التراث لجدِّنا من دونه فحواه بالقُربَى وبالإسلامِ
حقُ البنات فريضةٌ معلومةٌ والعمُّ أولَى من بني الأعمامِ

وهبَّ الشعراء يعارضون هذا الشعر بشعر كثير، منه ما قاله محمد بن يحيى التغلبي :

لِمَ لا يكون ، وإنّ ذاك لكائن لبني البنات وراثةُ الأعمامِ
للبنت نصفٌ كامل من ماله والعمُّ متروكٌ بغير سهامِ
ما للطليق وللتراثِ وإنما صلّى الطليق مخافة الصَّمْصامِ

ويشير في البيت الأخير إلى أن العباس بن عبد المطلب كان مع المشركين يوم بدر ، ثم أسر فافتدى نفسه . والمسألة كلها مغالطة سافرة ، ومناظرة اختلف فيها اتجاه النظر . فالعباسيون يرون أن ابن العم ، وهو علي بن أبي طالب ، لا يرث النبي مع وجود عمه العباس ، والعلويون لا يحتجون بعلي وإنما ينظرون إلى فاطمة الزهراء وإلى ولديها الحسن والحسين ، ويرون أن البنت في الميراث أقرب من العم .

وقد استمرت هذه الحجة بيد العباسيين يلوحون بها كلما حدّثت علويّاً نفسه بالخلافة، حتى جاء عبد الله بن المعتز فشد من أواصرها وقوى من أركانها بقصيدته الرائعة الغاضبة التي يقول فيها :

ونحن وِرثنا ثيابَ النبيِّ فَلِمْ تجذبون بأهدابها ؟
لكم رَحِمٌ يا بني بنتهِ ولكن بنو العم أولى بها

ثم يقول :

قتلنا أمية في دارها ونحن أحق بأسلابها
إذا ما دنوتم تلقّيْتُمُ زَبوناً أَمَرَّت بجلاّبها

وما زالت هذه القصيدة تجتاب السنين بلا معارض ، حتى جاء صفي الدين الحلي فسأله نقيب نقباء الأشراف ببغداد أن يعارضها فقال :

ألا قُل لشرِّ عبيد الإلهِ وطاغي قريش وكذّابها
وباغي العناد وباغي الفسادِ وهاجي الكرام ومغتابها
أأنت تفاخر آل النبيِّ وتجحدها فضل أحسابها ؟
أعنكم نفى الرجس أم عنهم لطُهْرِ النفوس وإلبابها ؟ ✲
وقلت « ورِثْنا ثيابَ النبيّ فَلِمْ تجذبون بأهدابها »
وعندك لا تورث الأنبياء فكيف حظيتم بأثوابها ؟

ثم كان من أسباب المعارضة في صدر هذا العصر أن يهجو شاعر عظيما فيعارضه أحد الشعراء المنتمين إلى ذلك العظيم ، ونحن نوجز هنا مارواه صاحب « الكامل » في شأن عبد الله بن محمد بن أبي عيينة وإسمعيل بن جعفر . قال : كان ابن أبي عيينة بين الرؤساء الذين أخذوا البصرة للمأمون من المخلوع ، وكان معاضداً لذي اليمينين طاهر بن الحسين في حروبه ، وكان إسمعيل بن جعفر جليل القدر مطاعاً وكانت الحال بينه وبين ابن أبي عيينة ألطف حال ، فوصله ابن أبي عيينة بطاهر فولاه البصرة ، وولى ابن أبي عيينة اليمامة والبحرين وغوص البحر ، فلما رجعا إلى البصرة تنكر إسمعيل لابن أبي عيينة ، فاشتعلت بينهما نار البغضاء ، ثم عُزل ابن أبي عيينة فأخذ يهجو إسمعيل ويسأل طاهراً عزله ، ولكنه كان يدافعه ويضن بالرجل . وفي ذلك يقول لطاهر :

✲ إلبابها : إخلاصها .

مالي رأيتك تدني كل منتكثٍ إذا تغيب ، ملتاثٍ إذا حضرا
إذا تنسم ريح الغدر قابلها حتى إذا نفخت في أنفه غدرا

ويتطير ابن أبي عيينة لإسمعيل بالعزل والأسر حين يقول :

لا تعدَمِ العزل يا أبا الحسن ولا هُزالاً في دولة السِّمَنِ
ولا انتقـالاً من دار عافية إلى ديار البـلاء والفتن
ولا خروجاً إلى القفـار من الـ أرض ، وترك الأحباب والوطن
كم رَوْحةٍ فيك لي مهجِّرةٍ ودُلْجةٍ في بقيّة الوَسَنَ

وقد وقع لإسمعيل ماتطير له به ، إذ حمل إلى دار الخلافة معزولا مقيداً ومعه ابناه في ذل ومهانة . وفي ذلك يقول ابن أبي عيينة :

مرَّ إسمعيل وابنا ه معاً في الأُسَرَاءِ
جالساً في مَحْمِلٍ ضَنْـك على غير وطاءِ
يتغنى القيدُ في رجـ ليْهِ ألوانَ الغناءِ
باكياً لا رقأت عيـ ناه من طول البكاءِ

وقد عارض قصيدة ابن أبي عيينة النونية عمرو بن زَعبل مولى بني مازن فقال أبياتاً كلها فحش صيغ في صور من الأحاجي منها :

إني أحاجيك ماحنيفٌ على الـ فطرة باع الرَّباحَ بالغبنِ
ياذا اليمينين اضرب علاوته يُدْفعْ وماني في النار في قَرَنِ

قال المبرد . وكان «ماني» رأساً من رؤوس الزنادقة .

ويرد إبرهيم السواق على عمرو بن زعبل مدافعاً عن ابن أبي عيينة بقصيدة منها :

قد قيل ما قيل في أبي حسن فانتحروا في تطاول الزمن

ولابن أبي عيينة قصائد رائعة في معاتبة ذى اليمينين ، يدعونا جمالها الفني إلى الخروج عن جادة الموضوع قليلا ، فإن شعراً مثل هذا لايصح أن يمر به الأديب مراً .
وأروع هذه القصائد قوله :

أيا ذا اليمينين إنّ العتـا ب يُغري صدوراً ويشفي صدورا
وكنتُ أرى أنّ ترك العتـا ب خيرٌ وأجدرُ أن لا يُضـيرا
إلى أن ظننتُ بأن قد ظننـ ـتَ أني لنفسيَ أرضى الحقـيرا
فأضمرتِ النفسُ في وَهْمِها من الهمِّ هماً يكُدُّ الضميرا
ولا بُدَّ للمـاءِ في مِرْجـلٍ على النار مُوقَدةً أن يفـورا
ومن أُشْرِبَ اليأسَ كان الغنيّ ومن أُشْرب الحرصَ كان الفقيرا

وكثر في هذا العصر تحدي الشعراء أو اختبار صدق بديهتهم بمطالبتهم بإجازة بعض الشعر ، وهذا ضرب من المعارضة قد ندعوه « معارضة البدائه » . من ذلك ماروَوْا من أن الرشيد كان ليلة بين سماره فغناه بعض المغنين قول جرير :

إنّ الذين غَـدَوْا بلبّك غادروا وَشَلاً بعينكَ لا يزال معينـا

فطرب الرشيد وقال لجلسائه — وكان بين يديه بدرة — إن هـذه البدرة لمن يجيز منكم هذا البيت . فلما لم يصنعوا شيئاً قال خادم كان على رأسه : أنا لها يا أمير المؤمنين ، فقال له : شأنك . فاحتمل البدرة وأسرع إلى دار الناطفي ، فاستأذن منه على عنان ،فلما أخبرها الخبر قالت : ويحك اكتب :

هيجتَ بالقول الذي قـد قُلته داءً بقلبي ما يزال كمينـــا
قـد أينعت ثمراته في طينها وسُقِين من ماء الهوى فرَوِينا
كذب الذين تقوّلوا يا سيدي إنّ القلوبَ إذا هوِيْنَ هَوِينا

فسر الرشيد ، وكان ذلك سبب شرائه عنان .

ومن ذلك مارواه بكر بن حماد ، قال:دخلت دار الناطفي ، فقال لجاريته عنان : هذا بكرشاعر باهلة ، يريد مجالستك ، فقالت : لا والله إني كسلى ، فحمل عليها بالسوط ثم قال لي : ادخل ، فدخلت ودمعها يتحدر ، فقلت :

هذي عِنانٌ أسبلتْ دمعَها كالدرِّ إذ ينْسَلُّ من خيطهِ

ثم قلت : أجيزي ، فقالت :

فليمت من يضربها ظالماً تجفُّ كفاه على سَـــــوطهِ

ثم قلت لها : إني وجدت بيتاً على ظهر كتاب لي لم أقدر على إجازته ، فقالت قل ، فأنشدتها :

فما زال يشكو الحبَّ حتى حَسِبتُه تنفّس في أحشائه فتكلّما

فأطرقت ثم قالت :

ويبكي فأبكي رحمةً لبكائه إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

ومن ذلك ما رواه صاحب بدائع البدائه نرويه موجزاً ، قال: قال دعبل الخزاعي: بينما أنا بباب الكرخ إذ أنا بفتاة تسمى قرة ،معروفة بظرف وجمال وشعر وأدب وغناء ، فتعرضت لها وقلت:

دموعُ عيني لهــــــا انبساطٌ ونومُ عيني به انقبـــــاضُ

فقالت :

وذا قليل لمن دهته بســـحرها الأعينُ المِراضُ

فقلت :

فهل لنـا منك عطفُ قلبٍ أو للذي في الحشا انقراضُ ؟

فقالت من غير تلبث :

ن كنت تبغي الوصال منا فالوصل في ديننـــــا قِراضُ

قال دعبل : فنقلتها من تلك القافية وقلت :

أتُرى الزمان يسرُّنا بتلاقٍ ويضمُّ مشتاقاً إلى مشتـــاقِ ؟

فقالت :

ما للزمان تقول فيــه وإنما أنت الزمان فسُرَّنا بتلاقِ

وهنا نقف القلم ، ولنا عودة إن شاء الله نذكر فيها ماجد في أخريات هذا العصر من معارضات .

علي الجارم

الانتداب وكيف فرض على العراق

للأستاذ السيد عبد الرزاق الحسني بغداد

لما اندلع لهيب الحرب الكونية الأولى في عام ١٩١٤ م ، كان من جملة مظاهر الحلفاء لتسويغ توجيه عطف العالم على قضيتهم ، أنهم يحاربون لرفع الظلم وتحرير الشعوب المضطهدة من نير السيطرة التي فرضها أعداؤهم عليها ، فأكثروا من الوعود المعسولة للشعوب المظلومة ليستروا الشبهات التي كانت تحوم حول نواياهم ، حتى استطاعوا أن يجندوا أبناء البلاد التي تحت نفوذهم ليقاتلوا في صفوفهم ، ولم يكن من المنتظر أن يحارب أبناء المستعمرات وأبناء الأمم المتحالفة مع الحلفاء في سبيل إبقاء الرق الإجماعي ، وإنما حاربوا في صفوفهم أملا في الحرية والظفر بالاستقلال .

لا ينكر أن من أهم أسباب الحروب بين الدول الكبرى التنازع الاستعماري ، فقد أتاح الزمن لبعض الدول أن تستولي على أراض شاسعة من الكرة الأرضية ، وأن تستغل مواردها وشعوبها كما تشاء وتريد ، فأصبح منها غني وفقير ، وحال الاستعمار دون التبادل الاقتصادي بين شعوب البلاد المستعمرة والدول الأخرى ، إذ اعتبرت الدول القوية المستعمرة البلاد الخاضعة لاستعمارها أجزاء تابعة لها ، تستغلها كما تشاء وتحرم التبادل الاقتصادي معها على من تشاء ، وتتحكم في شعوب أبناء المستعمرات وتستغلهم ، محتجة بالقاعدة القديمة البالية «قاعدة حق الفتح»، فكان من المنتظر أن تزول — استناداً إلى تصريحات الحلفاء — أهم أسباب الحروب بزوال « قاعدة حق الفتح » ، ورعاية المستعمرات بمنح شعوبها « حق تقرير مصيرهم » ، وكان من المتوقع أن لا تضاف إلى الأسباب المؤدية إلى الحروب بين الدول القوية أسباب أخرى ، وأن لا تضاف مستعمرات جديدة إلى مستعمرات الدول المنتصرة .

وكان ولسن ، رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، قد دفع بلاده إلى تأييد الحلفاء إيماناً منه بعدالة قضيتهم ، وكان يعتقد أن الحلفاء مخلصون في وعودهم ، حريصون على تجنب بواعث الحرب وإلحاق بلاد جديدة واضطهاد شعوبها ومنع حق تقرير مصيرهم ، فأصدر تصريحاته الأربعة عشر بقلب سليم ونية خالصة ، ولم يدر في خلده أن « نظام

الانتداب » الذي سنبحث عنه سيكون وسيلة مقنعة لنوع من السيطرة التي يفرضها القوي على الضعيف .(١)

تعاون العرب مع الحلفاء

كان العرب من جملة الأمم التي تعاونت مع الحلفاء على أمل الفوز باستقلالهم ووحدة بلادهم ، فحاربوا في صفوفهم الدولة العثمانية المسلمة وهم مثلها مسلمون ، لا لاستبدال سيطرة العثمانيين بسيطرة دولة أجنبية أخرى ، بل اطمئناناً إلى صدق وعود الحلفاء ودعوتهم للتحرّر .

كان اللورد كتشنر ، المقيم السياسي البريطاني في مصر ، قد انتهز مرور الشريف عبد الله ثاني أنجال الحسين بن علي شريف مكة المكرمة بمصر في عام ١٩١٣ م فزاره مصحوباً بالمستر ستورس ، السكرتير الشرقي في المقيمية ، وبلغه شكر حكومته البريطانية لوالده الحسين على ما يلقاه الحجاج الهنود من عناية في الحجاز أثناء القيام بتأدية فريضة الحج ، فلما كان شهر آب سنة ١٢١٤ م كان الشريف عبد الله يزور القاهرة زيارة أخرى ، وكانت الحرب العالمية الأولى على الأبواب ، فاتصل الشريف باللورد كتشنر ، وسأله عن السياسة التي تنوي بريطانيا اتباعها في بلاد العرب ، فأجابه « إن إنكلترة حريصة على إبقاء علاقاتها ودية بالترك ، وأنها تساعد العرب ضمن هذه الدائرة مراعاة لتقاليدها القديمة »(٢) . فلما كانت سنة ١٩١٥ م تبدل الوضع الحربي ، فشعرت إنكلترة بحاجة ماسة لضم العرب إلى صفوف الحلفاء والتحالف معهم ، فاستؤنفت المفاوضات ، فأبرقت دائرة الاستخبارات البريطانية في مصر إلى حكومة لندن بأن الأمر قد دبر مع شريف مكة ، فأصدرت هذه أوامرها إلى معتمدها في القاهرة أن يعجل في إدخال هذا الأمر دوره التنفيذي . فدارت مراسلات بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون ، وكان قد خلف اللورد كتشنر في منصبه ، الأولى في تموز سنة ١٩١٥ م ، وفيها وعد الشريف بتقديم المساعدة الحربية للحكومة الإنكليزية في مقابل « وعد باستقلال بلاد العرب ، بحيث تضم منطقتي مرسين وأطنة شمالا ، وتمتد من خط العرض رقم ٣٧

---

(١) تسوية جميع المطالب من أجل المستعمرات بصورة حرة صريحة بعيدة كل البعد عن التحيز، تسوية تعترف اعترافاً دقيقاً بالمبدأ القائل بلزوم أخذ مصالح السكان الذين يهمهم الأمر بنظر الاعتبار إلى جانب المطالب العادلة التي تطالب بها الحكومة التي ستقرر ملكية المستعمرة باسمها ، وذلك عند حسم جميع المشاكل المتعلقة بالسيادة . « الشرط الخامس من شروط ولسن الأربعة عشر » .

(٢) أمين سعيد في « الثورة العربية الكبرى » ج ١ ص ١٢٦ .

إلى الحدود الإيرانية . أما الحد الشرقي فيبدأ بالحدود الإيرانية وينتهي في خليج البصرة، ويكون المحيط الهندي مع استثناء عدن حدّها الجنوبي ، ويكون البحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسين الحد الغربي للمملكة »[1] فما كادت فرنسة تحيط علماً بهذه المراسلات حتى قلقت واضطربت لمصيرها في الشرق[2] ، فعادت الحكومتان البريطانية والفرنسية إلى الأساليب الاستعمارية القديمة ، فعقدتا اتفاقية سرية في ٥/١٦ أيار سنة ١٩١٦م « لتنظيم الأوضاع المقبلة في شرقي البحر المتوسط بين الإنكليز والفرنسيين ، وتثبيت السياسة البريطانية المقبلة في الأمور التي قد تنشأ من تفسير مراسلات الحسين ـ مكماهون وما يتعارض معها في هذه الاتفاقية »[3] . وقد وقع هذه الاتفاقية كل من السير مارك سيكس باسم الحكومة البريطانية ، والمسيو جورج بيكو ، باسم الحكومة الفرنسية ، فسميت « اتفاقية سيكس ـ بيكو » ونصت على تجزئة البلاد العربية التي نشد الحسين وحدتها إلى المناطق الخمس التالية :

١ ـ المنطقة الحمراء : تكون تحت إدارة الحكومة البريطانية المباشرة ، وتشتمل على ولايتي البصرة وبغداد من العراق ، وثغري حيفا وعكا من سورية الجنوبية .

٢ ـ المنطقة الزرقاء : تكون تحت إدارة الحكومة الفرنسية المباشرة ، وتشتمل على كليكية وجزء من الأناضول وقطعة من سورية الغربية .

٣ ـ منطقة «A» : تكون جزءاً من دولة عربية تشكل تحت الحماية الفرنسية، وتشتمل على ولايات دمشق والشام وحلب والموصل ، فيكون لفرنسة حق الأفضلية في المشروعات والقروض المحلية وفي تقديم المستشارين والموظفين الأجانب لها .

٤ ـ منطقة «B» : تكون جزءاً من دولة عربية تشكل تحت الحماية الإنكليزية، وتشتمل على الأراضي الواقعة بين فلسطين والعراق المسماة « شرقي الأردن » فيكون لبريطانيا حق الأفضلية في المشروعات والقروض المحلية وفي تقديم المستشارين والموظفين الأجانب لها .

---

(١) جريدة « الطان » الفرنسية الصادرة في ١٨ أيلول ١٩١٨م نقلها جمال باشا في مذكراته ص٣٦٢ وكذا ص ٢ من « الكتاب الأبيض الإنكليزي » الرسمي الصادر في عام ١٩٤٠

(٢) « إن لنا في لبنان وسورية مصالح تقليدية نحن عازمون على جعلها محترمة من الغير ولقد صرحت لنا الحكومة البريطانية بلهجة قاطعة أن ليس لها في تينك المقاطعتين أية نية أو تصميم أو أمان سياسية من أي أنواع كانت » اهـ من تصريح لوزير خارجية فرنسة في ١٩١٢م رواه لوكه (ص ١٨٣) من كتاب « سورية الغد »

(٣) Ph. W. Irland. Iraq, a study in political development P. 69

٥ — المنطقة السمراء : تكون تحت إدارة دولية ، وتشتمل على القسم الجنوبي من سورية « أي فلسطين » على أن تستشار روسية في نوع هذه الإدارة ويتفق عليها مع باقي الحلفاء والشريف حسين اهـ .

وكانت لبريطانية مصالح في ولاية الموصل وفي فلسطين لا تقل عن مصالحها في المنطقتين الأولى والرابعة المذكورتين سابقاً ، ففي الأولى مظان النفط الذي بذل السفير الإنكليزي في الآستانة أقصى جهوده لحمل حكومة السلطان على منح الإذن بالتحري عنه إلى « شركة النفط التركية » في ٢٨ حزيران ١٩١٤ م . وهي شركة أكثر سهامها للإنكليز ، وفي الثانية حصون منيعة لموقف إنكلترة في مصر لا يمكنها أن تغض الطرف عنها ، ولكنها تظاهرت بعدم الاكتراث بهذه المصالح ، لئلا تثير مخاوف الروس فيناصبوها العداء جهاراً ، فلما أمنت شر الغوائل الروسية انتزعت ولاية الموصل من فرنسة في ١٥ أيلول سنة ١٩١٩ م[١] ، لقاء :

ا — أن تحصل فرنسة على بعض السهام في نفط الموصل بتعديل اتفاقية $\frac{١٥}{١٧}$ إيار ١٩١٦ « اتفاقية سيكس — بيكو »

ب — أن تؤيد فرنسة تأييداً مطلقاً أمام الاعتراضات الأمريكية .

حـ — أن تكون دمشق وحلب والإسكندرونة وبيروت تحت انتداب واحد هو الانتداب الفرنسي إذا قرر نظام الانتداب[٢] .

وادعت بريطانية أنها تريد أن تكافئ اليهود الذين استخدموا نفوذهم المالي لحمل أمريكة على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء ، فوجه وزير خارجيتها ، اللورد بلفور . رسالة إلى زعيم الصهيونيين ، اللورد روتشيلد ، في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ م . قال فيها :

« إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تنظر بعين العطف والاستحسان إلى إنشاء وطن قومي بفلسطين للشعب اليهودي ، وإنها ستبذل خير مساعيها لإدراك هذا الغرض ، على أن يكون من الجلي الذي لا لبس فيه أنه لن يتخذ أي عمل قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة بفلسطين أو بوضع اليهود السياسي وحقوقهم التي يتمتعون بها في أي بلد آخر »[٣] .

---

(١) « وجعلني السير لويد جورج أستنتج شخصيا أن مسألة الموصل انتهى أمرها بالنسبة إلى فرنسة ، وأنه لم يبق غير المفاوضة لإنجاز معاهدة الصلح مع تركية على أساس تشكيل حكومة عربية واحدة من الموصل وبغداد والبصرة » من كلام لاي ت ولسن الحاكم الملكي العام في العراق مع لويد جورج في نيسان ١٩١٩م راجع كتاب A clash of Loyalties P.124

(٢) تاريخ مؤتمر الصلح ص ١٨٢ من ج ٦ (٣) آيرلند ص ٤٥٩

ثم حملت الصهيونية على معارضة وضع فلسطين تحت إدارة دولية أو جعل الهيمنة الأخيرة عليها لغير الإنكليز ، ففازت بها كما فازت بولاية الموصل من قبل ، وقد ظهر بعدئذ أن جورج كلنصو ، رئيس وزارة فرنسة ، الذي تنازل عن ولاية الموصل للويد جورج ، رئيس وزارة بريطانية ، كان يجهل أهمية النفط وغزارته في الموصل ، كما أن بلفور ، وزير خارجية بريطانية ، كان يجهل درجة استيعاب فلسطين لليهود .

فكرة الانتداب

لما وضعت الحرب العالمية أوزارها في عام ١٩١٨م ، وجاء عهد توزيع الغنائم الحربية وأسلاب الأمم المغلوبة ، وضعت سياسة التوفيق بين « قاعدة حق الفتح » القديمة وبين « نظرية تقرير المصير » التي أشارت إليها تصريحات الحلفاء موضع البحث والمذاكرة ، فطال حولها النقاش واحتدم من أجلها الجدال ، فلم تصل إلى نتيجة ما ، ذلك لان الدول الغالبة كانت ترى وجوب اتباع سياسة الضم أو الإلحاق ، في البلدان التي دخلتها عنوة أو احتلتها حرباً دون التقيد بتلك الوعود ، على حين أعلن ولسن في شروطه الأربعة عشر وجوب ترك حق تقرير المصير إلى هذه البلدان لتختار شعوبها نوع الحكم الذي ترتضيه لنفسها ويتفق مع عاداتها وتقاليدها . وقد « زادت الحالة حرجاً بالعهود المقطوعة للعرب ، سواء كان قطعها بحكمة أم بغير حكمة ، وهي العهود المتعلقة بتقرير مصيرهم ونيل الاستقلال ، وقد أعطيت للعرب عامة وأهل العراق خاصة ، ثم نظر في الأمر ونصب العين هذه الاعتبارات المختلفة »[١] .

وأمام هذين الرأيين المتضادين ، وضع الجنرال البوري جان سمطس ، رسالة موجزة[٢] ارتأى فيها أن تؤلف عصبة أممية ، تعمل على تجنب الحروب وتراعي الحقوق العامة ، وتتولى الانتداب على البلدان التي انسلخت عن الإمبراطورية العثمانية فتعهد به « وديعة مقدسة من ودائع المدنية .. إلى الأمم الراقية التي تستطيع بفضل ثروتها أو اختبارها أو موقعها الجغرافي أن تتحمل هذه المسؤولية . . . على أن تستمد الإرشاد والمساعدة من دولة أخرى ، حتى يأتي الزمن الذي تصبح فيه قادرة على الوقوف بمفردها . . إن اعتبار رغبات هذه البلاد يجب أن يكون في المقام الأول في انتقاء الدولة المنتدبة[٣] » ؛

---

(١) سير نيجل داورسن في رسالة « العراق أو الدولة الجديدة » ص ٤ مطبعة العرب بالقدس سنة ١٩٣٢

(٢) طبعها في لندن سنة ١٩١٨ واسمها : The League of Nation, a practical suggestion

(٣) راجع الفقرات الأولى والثانية والرابعة من المادة الـ ٢٢ من عهد عصبة الأمم

إلا أنه جعل الانتداب اسماً مستعاراً للاستعمار وستاراً له[١] . و « الانتداب هو أنفق ما جاءت به سياسة الحرب العظمى إذ ما هو إلا حماية مستترة » على حد تعبير الأستاذ دبوي ، عضو المجمع العلمي في باريس [٢] . وقد لقي هذا الاقتراح قبولاً حسناً من الرئيس ولسن ، أملاً في إنهاء « قاعدة حق الفتح » وتأمين تنفيذ « نظرية حق تقرير المصير » ، « وإن كانت لولسن مثل هذه الفكرة قبل وصوله إلى أوربة . [٣] » كما استحسنته دول الحلفاء المنتصرة ، لعلمها أن سيكون لها الكلمة المسموعة في العصبة المنوي إنشاؤها أو تأسيسها ، فتعمل في البلدان التي احتلتها أو دخلتها ما تريد أن تعمله ، مستترة تحت إشراف عصبة الأمم وتأييدها ، وقد استعار الرئيس ولسن مشروع الجنرال سمطس وراح يدعو إليه بكل حرارة وحماس ، حتى إنه طالب بسريانه على المستعمرات والجزر المنتزعة من ألمانية ، فلا يقتصر تنفيذه على البلدان والشعوب التي انسلخت من الإمبراطورية العثمانية ، « وحتى يروى عنه أنه قال فيه : لم يحدث في العالم تقدم أعظم من هذا ، لأن فكرة الوصاية ليست نهجاً إنسانياً للشعوب المتأخرة فحسب ، بل إنها سوف تعمل على تجريد طغاة الاستعمار السياسي والاقتصادي من سلاحهم »[٤] .

تنويع الانتداب وتوزيعه

في أواخر عام ١٩١٨ م « دعيت الدول المنتصرة إلى باريس لوضع شرائط الصلح ، وتسابق إلى العاصمة الجميلة رجالات الشعوب الصغيرة والأمم المستضعفة ، يحملون أماني المظلومين والمقهورين الذين ناموا في سنوات البؤس والشقاء على الوعود المعسولة ، تغذيهم خيالات الشرف وأحلام الوفاء ، ووقف العالم بأسره خاشعاً صامتاً يرتقب ما ينطق به رجال الساعة ، ولكن الأقوياء ضعفوا في اقتسام الأرباح ، وكشف الطمع عن حقيقة ما كانوا يسترون .. وأنشؤوا مجلساً أعلى من الدول الخمس القوية — إنكلترة وفرنسة وأمريكة وإيطاليا واليابان — ليصدروا القرارات الأخيرة .. ومرت الأيام تعقبها الأسابيع ولم يصدر من باريس أمر حاسم ولا عمل خطير ، فقد سادت الفوضى

---

(١) إن كلمة الاستعمار كانت قد أصبحت ممقوتة في نظر الشعوب الغالبة والمغلوبة ، ومن أجل التوفيق بين الاعتراف الاسمي بحقوق البلدان المنسلخة عن تركية وتنفيذ مبادئ الفتح ابتدع أسلوب جديد سمي بالانتدب ليستر من جهة حق الفاتح ويؤمل من جهة أخرى للمغلوب بإمكان الحصول على استقلاله اه من خطاب للملك فيصل في ٢ تشرين الأول سنة ١٩٣٠ م

(٢) رواه « صاحب كتاب الانتداب وروح السياسية البريطانية » ص ١٤

(٣) كتاب « تكوين العراق الحديث » لهنري فوستر ص ١٦٨ (٤) هنري فوستر ص ١٧١

وتعاكست المطامع، وغرق رجال الصلح في محيط من القضايا الطارئة .. وصارت كل دولة تسعى لتحقيق أهدافها غير عابئة بالمبادئ السلمية التي بشرت بها قبل الهدنة »[١] اه .

وكانت فكرة توزيع أسلاب الحرب وغنائمها على الدول المنتصرة من أهم القضايا التي عالجها مؤتمر الحلفاء الأعلى في جلسته المنعقدة في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩١٩ م . فقد « تقدم البريطانيون باقتراح ينص على أنه لا يجوز في أية حال من الأحوال أن تعاد إلى ألمانية أية مستعمرة من مستعمراتها ، وكانت لهذه اللحظة خطرها الخارق لأن المسألة لا تنطوي على مصير جماعات كاملة من الشعوب وحسب ، بل يترتب عليها أن تمنح ألمانية أولا تمنح صلحاً مبنياً على التراضي الصحيح ، على نحو ما وعد به ولسون، وكان قد أعلن مراراً معارضته في فكرة ضم الممتلكات ، وكان ذلك واضحاً في الشرط الخامس من الشروط الأربعة عشر التي قبلها البريطانيون وسائر الحلفاء أساساً للصلح ، ولكنه وافق لويد جورج على طلب تجريد ألمانيا من جميع مستعمراتها ، إذ كان مقتنعاً بأن ألمانية لا تستحق أن تملك أية مستعمرات . . . وبهذا خطا أول خطوة من الخطوات[٢] » نحو الفشل ، فقسمت الانتدابات إلى ثلاثة أنواع (ا) و (ب) و (ح) فجعلت البلدان المنسلخة من الإمبراطورية العثمانية من النوع الأول ، والمستعمرات الألمانية في القارة الإفريقية من النوع الثاني ، والجزر الألمانية في المحيط الهادي من النوع الثالث[٣] ، وبني هذا التقسيم على درجة رقي الشعب ومركزه الجغرافي ووضعه الاقتصادي ... إلخ[٤].

ظهور الاتفاقية السرية

كانت اتفاقية سيكس — بيكو السرية لطخة سوداء في جبين الاستعمار الأوربي ، كما كان وعد بلفور الذي جاء بعدها ، لأنها تضمنت أحكاماً تخالف الشرط الأول من شروط ولسن[٥] مخالفة تامة ، كما أنها كانت تتعارض مع مراسلات الحسين — مكماهون تعارضاً صريحاً ، وقد تمت دون علم الحسين ، بحيث لو أتيح له أن يطلع على بنودها أو يسمع بخبر من أخبارها لكانت لديه الفرصة الكافية لإنهاء تحالفه مع بريطانية

---

(١) يوسف يزبك في كتابه « النفط مستعبد الشعوب » ص٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٢) مجلة المختار ص ٤٥ من الجزء الأول من السنة الثانية .

(٣) راجع الفقرات ٤، ٥، ٦ من المادة الـ ٢٢ من عهد عصبة الأمم . (٤) الفقرة السادسة منها.

(٥) التوصل إلى مواثيق صريحة لضمان السلم فلا يبقى بعدها معاهدات سرية بين الدول مهما كان شغلها ، بل تستمر الدبلوماسية على العمل بصراحة أمام أنظار الجميع اه الشرط الأول من شروط ولسن الـ ١٤.

والاتفاق مع العثمانيين على تأمين مستقبل العرب مباشرة . فإن هؤلاء أخذوا يتوددون إلى رجالات العرب بعد ثورة الحسين عليهم ، ويعرضون حلولاً للقضية العربية تتفق مع آمالهم ، ولكن الحسين كان يثق بالإنكليز ويعتمد على شرف وعودهم في تحقيق هذه الآمال ، فلم يلتفت إلى الحلول التي عرضت عليه أو انتهت إليه ، بل كان يبعث بها إلى الإنكليز(١) ، إمعاناً في إظهار ثقته بهم وعدم ميله إلى غيرهم ، أما وعد بلفور فكان إنكاراً علنياً لحرية العرب ، وانتزاعاً فظيعاً لحقوقهم السياسية والتاريخية في أرض آبائهم وأجدادهم ، فلسطين .

واجتمع مجلس الحلفاء الأعلى في ٢٠ آذار سنة ١٩١٩ م ، في الشقة التي يقيم فيها المستر لويد جورج في باريس ، فرأس الاجتماع المسيو جورج كلنصو ، فأشار على وزير خارجيته ، المستر بيشون ، أن يتكلم ، فعرض الوزير الفرنسي اتفاقية سيكس — بيكو السرية ، فذعر الرئيس ولسن لهذه المفاجأة ، لأنه لم يسمع قبل تلك الجلسة بأن بين حلفائه مثل هذا الاتفاق ، وأن إنكلترة وفرنسة فرضتا على البلدان التي انسلخت من الإمبراطورية العثمانية حالة من قبل تخالف المبادئ التي كان يبشر بها ، بل تعد مؤامرة على فكرته السلمية ، وعلى ما كان يرجوه من إيجاد عصبة الأمم لتوطيد السلم في العالم ، لهذا رفض الاشتراك في هذه المؤامرة ، ورأى أن يتنصل من تبعة هذه المسؤولية الوجدانية ، فلما شعر رئيسا الوزارتين البريطانية والفرنسية بأن رئيس الولايات المتحدة لا يزال على شيمته ، وأنه سيخالفهما في كافة أعمالهما ، أبديا رغبتهما لمجاملته ومسايرته حتى يفوزا بإقرار الاتفاقية السرية المذكورة .

كان جل ما يريده الرئيس ولسن تطبيق أهم ركن من أركان الانتداب الذي اقترحه الجنرال البوري ، فأقره هو وارتضاه الحلفاء ، وهو تحقيق رغبة الشعوب المنسلخة من تركية في مستقبل الحكم الذي تريده لها ، فاقترح أن تؤلف لجنة من عدد «متساو» من البريطانيين والفرنسيين والأمريكانيين والإيطاليين ، فتذهب إلى سورية ، وإذا دعت الحاجة فإلى البلاد المجاورة(٢) ، وتحقق في أماني الشعوب المذكورة ، بغية الوصول إلى تسوية عادلة دائمة ، فقبل اقتراحه ، وتقرر تعيين عضوين اثنين من كل من الدول المذكورة ، وأخذ ولسون على عاتقه تدوين نصوص صلاحيات اللجنة ، فتأجلت الجلسة إلى حين الفراغ من هذه المهمة « وإذا نادى الرئيس ولسن بحقوق الأمم فما ذلك إلا لأن الشعوب كانت مستعبدة ، يسوق الأقوياء الضعفاء لخدمة منافعهم ، كما يسوق الجزار

---

(١) و (٢) The arab awakening. P. 256 and 288

مواشيه للذبح ، وتطارد الجماعات القوية الجماعات الضعيفة كما تطارد الذئاب النعاج ، فتارة باسم الحرية ، وطوراً باسم حقوق الإنسان ، ومرة باسم الفتح ، في عهد ألغيت فيه الفتوحات ، ومرات باسم الحماية والوصاية ، ولكنها جميعها أساليب ونماذج للاستعباد . . . »[١] .

وتألفت عصبة الأمم على صورة رسمية في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٩م . أي في اليوم الذي أمضيت فيه معاهدة فرساي نفسه ، « وفي المحل نفسه الذي أعلن به انتصار ألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية في ١٠ مارس سنة ١٨٧١ م »[٢] — وتلك الأيام نداولها بين الناس[٣] — صدق الله مولانا العظيم .

اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى في ٧ كانون الأول من هذه السنة ، فوزع المستعمرات الألمانية في القارة الإفريقية والجزر الألمانية في المحيط الهادي على الحلفاء ، مراعياً بذلك القربى الجغرافية ، وأجل البت في أمر البلدان التي يجب أن تشمل بالانتداب من نوع « ا » حتى تنتهي لجنة الاستفتاء من مهمتها في البلدان المنسلخة من الإمبراطورية[٤] .

لجنة الاستفتاء وتقريرها

أتم الرئيس ولسن وضع النصوص النهائية لصلاحيات لجنة الاستفتاء المقرر إرسالها إلى سورية ، وعين الممثلين عن حكومته الأمريكية ، فحذت حذوه بريطانية فعينت ممثلها وتنحت فرنسة فأبدت مخاوف كثيرة من القيام بهذا العمل الذي سيكشف دون ريب عن معارضة السوريين لفرض سيطرتها عليهم ، ويؤدي إلى حرمانها من غنيمتها في اتفاقية سكس — بيكو السرية . والظاهر أن بريطانية خشيت أن تلاقي هذه اللجنة في العراق ، في حالة ذهابها إليه ، ماستلاقيه في سورية ، فأخذت تتنصل من الاشتراك في مهمتها بطرق مختلفة ، أما إيطالية فإنها لم تكترث للموضوع أصلا لعدم وجود مصالح لها في هذه البلدان ، أما الرئيس ولسن فقد أصر على إرسال اللجنة وإن تألفت من

---

(١) راشد طبارة في « الانتداب وروح السياسة البريطانية » . ص٧ . مطبعة طبارة بيروت ١٩٢٥

(٢) الدكتور سوسة في رسالته « عصبة الأمم والعراق » ص ٢ . (٣) سورة آل عمران الآية ١٤

(٤) كانت المستعمرات الألمانية في أفريقة والجزر الألمانية في المحيط الهادي والممتلكات العثمانية في آسية « سورية ولبنان ، وفلسطين وشرقي الأدن والعراق » وبلاد العرب ، غنائم وافرة ، فأخذت فرنسة سورية ولبنان وأخذت بريطانية فلسطين وشرقي الأردن والعراق وبلاد العرب ، وحصلت اليابان على الجزر الألمانية في المحيط الهادي في شمالي خط الاستواء وحصلت بريطانية على الجزر الألمانية في المحيط الهادي جنوبي خط الاستواء ، وتقاسمت هي وفرنسة المستعمرات الألمانية في أفريقية .

أعضاء أمريكيين فقط ، وهكذا كان فوصلت اللجنة إلى يافا فى ١٠ حزيران سنة١٩١٩م، وكانت باكورة أعمالها أنها أذاعت هذا البيان :

« إن الشعب الأمريكي ليس له مطامع سياسية في أوربة أو الشرق الأدنى ، بل يفضل على قدر الإمكان تجنب كل علاقة بالمشاكل الأوربية والأسيوية والإفريقية ، ويرغب بإخلاص في أن يسود السلام الدائم ، وإنه بهـذه الروح يدنو من مشاكل الشرق الأدنى » .

« لقد عين مجلس الأربعة لجنة دولية لدرس الحالة في المملـكة التركية لعلاقتها بالوصايات ، فغاية القسم الأمريكي الموجود الآن هي الوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان والطبقات وعلاقاتهم ، ليكون الرئيس ولسن والشعب الأمريكي على بينة من الحقائق في كل سياسة يدعى إلى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى ، سواء أكان ذلك في مؤتمر الصلح أم في جمعية الأمم » اه[١] .

وشرعت اللجنة الأمريكية تزاول أعمالها في جو تكتنفه دسائس الإنكليز والفرنسيين ورغبة العرب في التحرر من الطرفين ، وبعد أن زارت (٣٦) مدينة ، وتلقت أكثر من ألف وثمانمائة عريضة ، عادت إلى باريس في أواخر آب من هذه السنة ، فاقترحت أن يطبق « نظام الانتداب » من نوع (ا) على سورية وفلسطين والعراق ، على أن يكون لمدة محدودة ، وأن يعامل العراق كوحدة ، وأن تحافظ سورية على وحدتها ، « أي سورية ولبنان وفلسطين » ، فيكون شكل الحكومة في كلا القطرين ملـكيا دستوريا ، ويكون الأمير فيصل بن الملك حسين ملـكا على سورية ، أما العراق فيختار ملـكه بالاستفتاء ، وأن يسار بالقطرين المذكورين نحو الاستقلال بالسرعة التي تسمح بها الأحوال ، وقد ذكرت اللجنة في تقريرها أن الرأي العام في سورية يستنكر شكل السيادة التي يتضمنها « نظام الانتداب » إلا أنه يميل إلى أن تقدم المساعدة إليه من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، وفي حالة رفض الولايات المذكورة ذلك فيكون من جانب الحكومة البريطانية ، ولـكنه يرفضها من جانب فرنسة بأي شكل كان[٢] .

وأدرك الرئيس ولسن في آخر لحظة أن أمريكة في واد وإنكلترة وفرنسة في واد آخر ، فآثرت الولايات المتحدة اعتزال سياسة التمويه والتعليل ، فانسحبت من مجلس الحلفاء الأعلى ، فاجتمع المجلس المذكور في سان ريمو في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠م . فقرر تجزئة

---

(١) كتاب « الثورة العربية الكبرى » ص٤٧ من الجزء الثاني

(٢) جورج أنطونيوس في كتابه The arab awakening P. 297

سورية الكبرى إلى ثلاثة أقسام : فلسطين ولبنان وسورية « الصغرة » ومنح بريطانية الانتداب على العراق وفلسطين ، ومنح فرنسه الانتداب على سورية ولبنان ، دون أن يتقيد برغبة سكان هذه الأقطار في الدولة المنتدبة ، كما صرحت بذلك الفقرة الرابعة من المادة (٢٢) من عهد عصبة الأمم ، ودون أن يراعي القربى الجغرافية التي راعاها في توزيع الانتدابات من نوع (ب) و (ج) ، فيكون هذا المجلس قد أقر اتفاقية سكس — بيكو السرية من جهة ، وهي الاتفاقية التي أنكر الحلفاء وجودها لما أذاع الشيوعيون أمرها[١]، وخلع على الاستعمار حلة جديدة للتوفيق بين مبادئه القديمة والمبادئ التي أعلنها الحلفاء في غضون الحرب من جهة أخرى ، أي كان مثل الاستعمار أو الانتداب في فض هذا الخلاف كمثل الشاة التي تسلم إلى الذئب ليفترسها في الحالة الأولى ، وتسلم إليه ليرعاها دون أن يفترسها في الحالة الثانية ، ولهذا ما كادت أسلاك البرق تنقل في أيار عام ١٩٢٠م قرارات مؤتمر سان ريمو حتى ولدت شعوراً جديداً في العالم العربي ، هو شعور الاحتقار لدول الغرب واتهامها بنقض العهود الدولية الصريحة والخروج على مبادئ العدل والإنصاف[٢] ، فإن وعود الحلفاء للعرب كانت قد كتبت وختمت بالدم ، فإذا بمقرراتهم الجديدة يشطب عليها بجرة قلم ، فلا عجب أن تسوء العلاقات العامة بينهم وبين العرب ، وتؤدي إلى سلسلة من الثورات الدموية في سورية وفلسطين ، وفي العراق بعد زمن قصير ، ولا عجب أن يرسل المستر جون دبليو ديفس « سفير الولايات المتحدة الأمريكية في لندن » في ١٢ أيار ١٩٢٠م كتاباً إلى وزارة الخارجية البريطانية يندد فيه بقضية

---

(١) بعد أن تسلم الشيوعيون زمام الحكم في روسية في تشرين الأول سنة ١٩١٧ م ، نشروا جميع ما كان لدى وزارة الخارجية القيصرية من معاهدات واتفاقات سرية عقدها الحلفاء في غضون حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ومن ضمنها اتفاقية سيكس — بيكو المذكورة ، فلما اطلع عليها الملك حسين ووجد فيها نقضاً صريحاً للعهود التي حصل عليها لقاء ثورته على الإمبراطورية العثمانية أذاعت الحكومة البريطانية « أن الوثائق التي عثر عليها الشيوعيون في وزارة الخارجية في بترغراد لا تكون معاهدة قد عقدت فعلا ، ولكنها تتضمن محاضر لمبادلة وقتية ومحادثات بين بريطانية العظمى وفرنسة وروسية حدثت في أوائل أيام الحرب وقبل الثورة العربية لغرض تجنب المصاعب في إدارة الحرب ضد تركية » اهـ

(٢) سلكت السياسة الإنكليزية في بلاد العرب ثلاثة مناهج للاستعمار الأول : الإلحاق ، الثاني : الحماية ، الثالث : الانتداب ، وجميعها سبل إذا اختلفت في لينها وشدتها ، أو في مرونتها وصلابتها ، اتفقت في غايتها وأوصلتها إلى ضالتها المنشودة : بسط سلطانها وتأييد نفوذها في بلاد إذا امتلكتها كانت بلا ريب درة في التاج الإمبراطوري ، فكيف بها إذا كان لها في تلك السياسة مآرب أخرى ، مثل المحافظة على طريق الهند ؟ اهـ راشد طبارة ص ٧١ .

تعيين الانتدابات المتفق عليها في سان ريمو ، قائلاً : « إن ذلك لايتفق في أي حالة مع سياسة أمريكة التقليدية في المحافظة على سياسة الباب المفتوح[١] » .

كيف قابل العراقيون الانتداب ؟

« لم تعد القضية العراقية محلية وإدارية في بدء المفاوضات لمعاهدة الصلح ، بل أصبحت قضية سياسية عالمية ، وهذا ماأشير إليه كما يظهر في البلاغ البريطاني — الفرنسي الصادر في تشرين الثاني ١٩١٨ ، الذي نص على أن الغرض الذي ترمي إليه كل من بريطانية وفرنسة في الشرق هو تأسيس حكومات وإدارات وطنية ، تستمد سلطانها من تأييد رغبة السكان الوطنيين أنفسهم ومحض اختيارهم ، واعترافهما بهذه الحكومات عندما يتم تأسيسها تأسيساً فعلياً ، وكان موضوعاً بصورة أولية ليشمل وضع سورية والحجاز ، ولكن العراقيين طلبوا شموله العراق — كذا — كأمر طبيعي ، وفي الوقت ذاته برزت فكرة الانتداب »[٢] .

وقد عهد مجلس الحلفاء الأعلى بالانتداب على العراق إلى بريطانية في ٢٥ نيسان سنة ١٩٢٠ م دون أن يستشير الشعب العراقي في عمله هذا ، كما حتمت ذلك الفقرة الرابعة من المادة الـ ٢٢ من عهد عصبة الأمم ، ودون أن يتقيد بالوعود التي قطعتها الحكومة البريطانية في مناسبات مختلفة ، وآخرها ما جاء في البلاغ البريطاني — الفرنسي المشار إليه ، لهذا استنكر العراقيون قرارات المجلس المذكور استنكاراً تاماً ، وحملت عليه أوساطهم حملات منكرة شديدة ، وأخذت مقاومتهم لكل هيمنة أجنبية تتخذ شكلا خطيراً حتى أدّى الأمر بهم إلى إعلان الثورة على البريطانيين في ٣٠ حزيران من هذه السنة فاستمرت ثورتهم ستة أشهر ، وكبّدت الطرفين ضحايا كثيرة في الأموال والأنفس ، « ولم يكن الهياج حركة ضدّ الإنكليز ، ولكن ثورة ضد نكران الاستقلال والتعمد في فرض الانتداب »[٣] .

كتبت المس بل إلى والدها في ٥ أيار سنة ١٩٢٠ م ، أي قبل اندلاع لهيب الثورة بأقل من شهرين ، تقول : « إن كلمة الانتداب لفظة بغيضة غير مألوفة في نظر الجمهور ، وإن عقد معاهدة تتم المفاوضة عليها في جوّ حر طليق تكون أفضل بكثير منها ، فضلا عن أن ذلك يطلق يدنا في العمل أكثر مما هو في الوقت الحاضر ،

---

(١) هنري نوستر ص ١٩٩ .

(٢) تمبرلي في « تاريخ مؤتمر الصلح في باريس » ص ١٨٠ من المجلد السادس .

(٣) أنطونيوس ص ٣١٣ .

وإننا لنعلم على الدوام أن فيصل سيصر في الأخير على عقد معاهدة عوضاً عن الانتداب ، فالفرصة سانحة الآن لأن نقوم بعمل جميل ، ونعطي من تلقاء أنفسنا وبمحض إرادتنا ما يترتب علينا إعطاؤه فيما بعد بناءً على طلبه »(١)

يقول السير برسي كوكس الذي كلف السفر إلى العراق في تشرين الأول سنة ١٩٢٠م : « لقد بلغ الاستياء ، الذي كانت تقابل به فكرة الانتداب في العراق دائماً ، حداً فائقاً ، حتى إن لفظي الانتداب والدولة المنتدبة كانتا تعدان تجديفاً في نظرهم »(٢) .

فكان من الطبيعي أن يذهب مذهب المس بيل ، فيقترح على حكومته البريطانية إفراغ الانتداب في قالب معاهدة ترضي العراقيين من جهة ، وتقنع عصبة الأمم بأن بريطانية لا تزال عند تعهداتها الانتدابية من جهة أخرى ، وإلى هذا يشير التقرير البريطاني الخاص بهذه العبارة : « وفي الوقت عينه أخذت مقاومة الجمهور العراقي لأي نوع من الرقابة الخارجية تتزايد تزايداً سريعاً ، حتى أصبحت من أعظم المسائل القومية شأناً حينذاك ، وأثارت هذه المقاومة هيجاناً خطيراً هداماً في كثير من أنحاء البلاد ، فرأت حكومة صاحب الجلالة البريطانية أنه ما لم تجد واسطة لمجابهته فلا مفر لها من إطالة الاحتلال العسكري إطالة غير محدودة ، وبعد التروي الدقيق قرّ قرارها أنه من الأفضل تحديد مركزها الحقوقي في العراق ، ليس في شكل انتدابي مألوف ، كما كان قد اقترح مبدئياً ، بل بشكل معاهدة بين حكومة صاحب الجلالة والحكومة العراقية ، على أن ترضي شروطها العصبة ، وتقنعها بأن حكومة صاحب الجلالة ما زالت في الحقيقة في وضع تستطيع معه القيام بعهودها الانتدابية ، فلقد كان في نية الحكومة البريطانية ليس إحلال معاهدة محل الانتداب ، بل بالأحرى تحديد الانتداب وصوغه في شكل معاهدة »(٣) .

على أن استنكار الانتداب البريطاني على العراق لم يقتصر على العراقيين فحسب ، فقد عارضته أمريكة ، كما عارضته بعض الشخصيات البريطانية المعروفة ، عارضته أمريكا بعد أن أذاع أحد صحفيها لائحة الانتداب التي وضعتها الحكومة البريطانية وقدمتها إلى عصبة الأمم بصورة سرية في ٩ كانون الأول سنة ١٩٢٠ م فإذا هي تختلف عن شروط ولسن اختلافاً كبيراً ، وتناقض الغاية التي قصدها من إقرار فكرة الانتداب مناقضة صريحة ، وعارضها بعض السياسيين البريطانيين بزعم أن بقاء بريطانية في العراق يكلف

---

(١) رسائل بل ص ٥٩٣ من المجلد الثاني من الطبعة الأولى .

(٢) The letters of Gertrude Bell. vol. 2, P. 535

(٣) Special report... on the progress of Iraq P. 14

دافع الضريبة البريطاني نفقات لامسوغ لها ، فأسكتت الحكومة البريطانية هذه المعارضات على هذا النحو :

أولا — أشارت على البريطانيين بالسكوت ، لأن تحت أرض العراق بحيرة هائلة من النفط يتوقف عليها حياة الأسطول البريطاني في البحر المتوسط ، فسكتوا !

ثانياً — منحت الشركات الأمريكية حصّة في النفط المذكور ، فكان لا بد للحكومة الأمريكية أن تسكت !

ثالثاً — وأنتم يا أهل العراق ! هذا فيصل بن الحسين شريف مكة المكرمة وسبط رسول الله ، فقد عرشه في سورية ، فاتفق معه تشرشل أن يوليه عرش بلادكم ، فيؤلف لكم حكومة عربية مستقلة ، ولكن تحت الانتداب البريطاني ، وما دمتم تكرهون كلمة الانتداب وترون أنها مرادفة لكلمة الاستعمار ، فقد وعده الوزير البريطاني المذكور بجعل العلاقات بين العراق وبريطانية قائمة على أساس معاهدة تعقد بين الطرفين ، فتصاغ فيها بنود الانتداب صوغاً .

وفي الواقع « إن الدولة المنتدبة لم تكن تستطيع الوفاء بالالتزامات الانتدابية المترتبة عليها لعصبة الأمم ، ولا أن تجعل مصالحها المالية في العراق في مأمن ، ما لم يكن في يدها مقدار ما من الهيمنة ، وكان السبيل المفضي إلى التسوية أن يحول الانتداب إلى معاهدة ، وهذا وقع بالحقيقة ، فحولت الهيمنة البريطانية المفروضة على دولة العراق بحكم نصوص الانتداب إلى عدة التزامات بشكل معاهدة ، قبلها الشريك الأصغر بشكل محالفة . . وبدلا من أن يفرض الفريق الأقوى قيوده فرضاً ويمليها إملاء على الفريق الأضعف الممثل بهيئة حكومة راضخة له ، أصبحت القيود التي يقيد بها استقلال العراق التام تشبه على صورة ما قسما من مساومة دائرة بين الدولتين ، بحيث كان نصيب العراق ، والأمر من قبيل مبادلة شيء بشيء ، أن ينال المعاونة والمساعدة من حليفه الكبير ، وفي الوقت نفسه ظل مقدار الهيمنة التي احتفظت به بريطانيا العظمى تحت شروط المعاهدة كافياً ليمكنها من رعاية المسئولية الانتدابية المطلوبة لعصبة الأمم »☆

السيد عبد الرزاق الحسني

☆ نيجل دافيدسن في « العراق أو الدولة الجديدة » ص ٧ .

قلعة الجبل

تذكاراً لرفع العلم المصري عليها

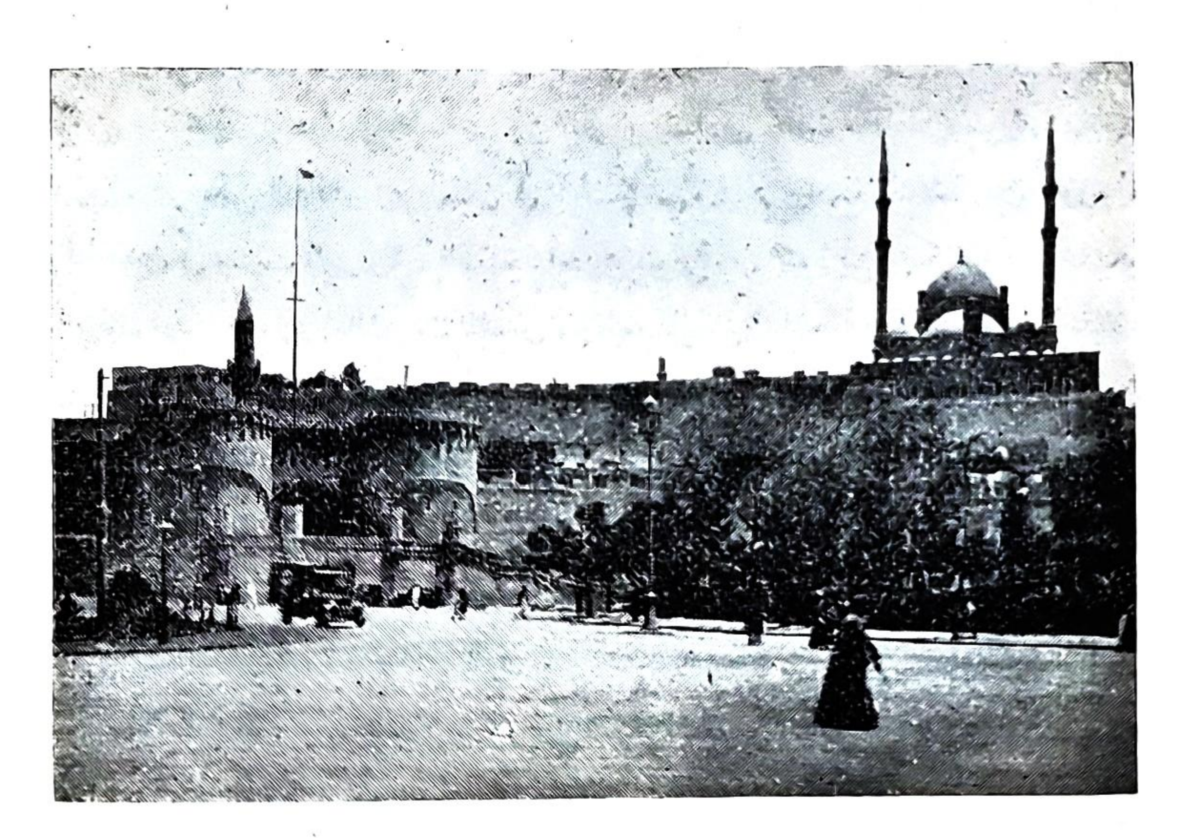
للدكتور زكي محمد حسن

بدأ نجم الدولة الفاطمية في الأفول منذ منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) بسبب النزاع بين الأجناس المختلفة في الجيش وبسبب ضعف الخلفاء واضطراب حبل الأمن وانتشار القحط والمجاعة . وفي القرن السادس كانت مقاليد الأمور كلها بيد الوزراء فلم يكن للخلفاء الفاطميين في الحكم شيء ؛ ثم زادت المنافسة بين الوزراء والطامعين في منصب الوزارة ، فاستنجد أحدهم بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب ، واستعان آخر بعموري ملك بيت المقدس ، وطمع كل من السلاجقة والصليبيين في الاستيلاء على وادي النيل ، وكتب النجاح في النهاية للحملة التي أرسلها نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، فأصبح هذا القائد وزيراً على مصر للخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٤٦ هـ (١١٦٩م) ولكنه توفي بعد شهرين نخلفه في منصب الوزارة ابن أخيه ، صلاح الدين ، واتخذ لنفسه لقب « ملك » على عادة الوزراء في نهاية الدولة الفاطمية فأصبح يعرف باسم الملك الناصر يوسف صلاح الدين .

وهكذا أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي الشيعي، وكان في الوقت نفسه قائداً من قواد السلطان نور الدين محمود ، السني الخاضع للخليفة العباسي . ولكنه استطاع ان يوفق بين الصفتين بالتريث في تحويل البلاد إلى المذهب السني ؛ فبدأ بالدعاء في الخطبة للسلطان نور الدين بعد الدعاء للخليفة الفاطمي ، وعمل على تهيئة الجو للانقلاب الديني المنتظر ، وقضى على دسائس الجند السودانيين من أعوان الخليفة العاضد وطردهم من حراسة القصر ، وجعل رئاسة هذا الحرس لقائده الأمين قراقوش . ثم رأى أن الوقت قد حان لإجابة طلب الخليفة العباسي والسلطان نور الدين بإقامة شعائر المذهب السني في البلاد ، فأمر في المحرم من سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) بأن تكون خطبة الجمعة باسم المستضيء الخليفة العباسي . ومات العاضد بعد هذا التغيير ببضعة أيام فكان آخر خلفاء الفاطميين ، وأصبح صلاح الدين صاحب الكلمة العليا في مصر ، ولكنه لم يخرج على ولي نعمته نور الدين ، بل اكتفى بأن عمل على التمكين لنفسه في مصر وبلاد النوبة واليمن .

وزادت شكوك نور الدين وكاد حقده يدفعه إلى السير إلى مصر لانتزاعها من يد صلاح الدين ولكن المنية عاجلته سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) فخلا الجو لصلاح الدين.

وكان استيلاء صلاح الدين على مقاليد الأمور في مصر فاتحة عصر جديد في تاريخها، ازدهر فيه نظام الإقطاع بين الطبقة الارستقراطية الجديدة التي ظهرت في مسرح الحكم وهي طبقة المماليك، كما ظهر فيه عنصران جديدان من عناصر العمارة الإسلامية: الأول طراز المدارس التي شيدت لنشر المذهب السني ومحاربة المذهب



شكل ١ — باب العزب وقلعة الجبل

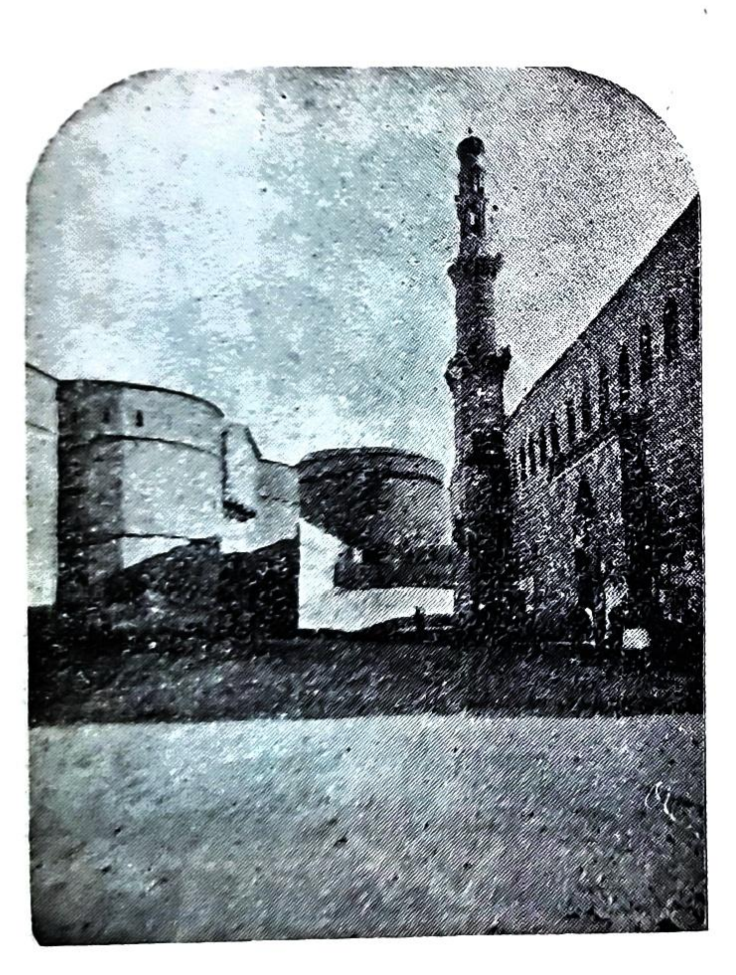
الشيعي، والثاني تطور بناء الأسوار والاستحكامات والقلاع بتأثير ما عرفه المسلمون عند الصليبيين، الذين كانوا قد عمدوا منذ بداية عهدهم بالاستقرار في الشام إلى تشييد القلاع الضخمة لتضم المحاربين وأسراتهم وأتباعهم.

***

وكان صلاح الدين يخشى شيعة الفاطميين في مصر، ولا سيما بعد أن قاموا بعدة ثورات للقضاء على حكمه، ففكر في أن يتخذ لنفسه ولأسرته معقلا في مصر يمتنع فيه.

ولم يكن غريباً أن يفكر في ذلك بعد أن نشأ في الشام ورأى أن لكل مدينة كبيرة من مدنها سوراً يحميها وقلعة تستخدم في الدفاع عنها ويلجأ المحاربون إليها فتستطيع أن تقاوم ولو سقطت المدينة ، بل يمكن الحاكم أن يعتصم بها إذا ثار أهل المدينة ضده .

وقد ذكر المستشرق لينبول Lane - Poole في كتابه عن صلاح الدين (ص ١١٩ — ١٢٠) أن مما دفعه إلى بناء القلعة رغبته في أن تكون حصناً يدافع به عن أسرته وعن مصر إذا هاجمها سيده نور الدين محمود بن زنكي . ولكن هذا القول مردود بأن صلاح الدين لم يشيد القلعة إلا بعد وفاة نور الدين بعامين .



شكل ٢ — جامع الناصر وباب القلة

والمعروف أن صلاح الدين سار إلى الشام بعد وفاة نور الدين فاستولى على كثير من مدنها . وذكر المقريزي في الخطط (ج ٢ ص ٢٣٣) أنه عاد إلى مصر ووصل إلى القاهرة في السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٢ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١١٧٦ م) فأمر ببناء سور يحيط بالقاهرة ومصر (القطائع والعسكر والفسطاط) وبتشييد قلعة الجبل وجعل الإشراف على هذا البناء للأمير بهاء الدين قراقوش .

واختار صلاح الدين للقلعة موقعاً طيباً على مرتفع من المرتفعات التي تمهد لجبل المقطم وتتصل به ويشرف هذا المرتفع على مصر والقاهرة . وقد فُصلت القلعة عن جبل المقطم بهوة كبيرة نُحتت في الصخر ، حتى لا يستطيع أي عدو يسيطر على جبل المقطم أن يهاجم القلعة . ولم يكن هذا سهلاً في عصر لم تتهيأ فيه أسلحة بعيدة المرمى . وكتب

المقريزي في الكلام على موقع القلعة أن أول ما عرف من خبره أنه كان فيه قبة تعرف « بقبة الهوا » بناها حاتم بن هرثمة والي مصر سنة ١٩٤ ﻫ (٨١٠ م) ولما بنى أحمد ابن طولون القصر والميدان تحت قبة الهوا كان كثيراً ما يقيم بها . وعني بها خمارويه ابن أحمد بن طولون وجعل لها الستور الجميلة والفرش العظيمة ، فلما زالت الدولة الطولونية وخرب القصر والميدان كانت قبة الهوا مما خرّب أيضاً . ثم قامت في موضعها مقبرة وبنيت فيها عدة مساجد .

ولا شك في أن هذا المكان الذي اختاره صلاح الدين للقلعة كان يمتاز بإشرافه على عاصمة البلاد فضلاً عن أنه كان موقعاً صحياً . ومن طريف ما رواه المقريزي في هذا الصدد أن الذي دعا صلاح الدين إلى إختياره « أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بين يوم وليلة فعلق لحم حيوان آخر في موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين »

✵✵✵

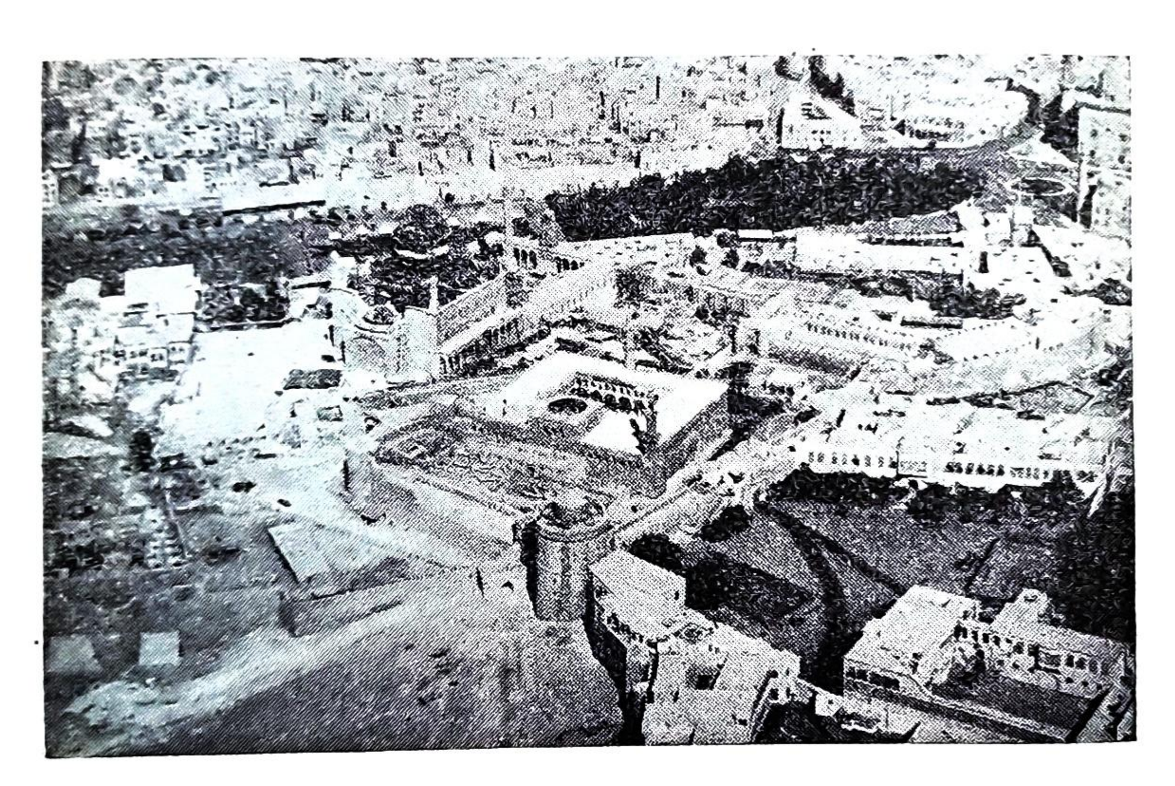
بدأ العمل في تشييد القلعة سنة ٥٧٢ ﻫ (١١٦٦م) وجلبت لها مواد البناء من بعض أهرام الجيزة كما ذكر عبد اللطيف البغدادي وغيره من الكتاب المسلمين الذين جاءوا من بعده . وساعد في بنائها وبناء السور ألوف من أسرى الفرنج . وقد ترك صلاح الدين كتابة على باب المدرج في القلعة مؤرخة من سنة ٥٧٩ ﻫ . ويشير هذا التاريخ إلى نهاية عمارة صلاح الدين في القلعة . ولم يكن ذلك خاتمة عمارتها فقد أضيفت إليها أجزاء كثيرة بعد ذلك ، كما حدث فيها تعديل غير بعض معالمها الأولى . وهذا نص الكتابة التاريخية وهي تسعة أسطر بالخط النسخي الأيوبي :

« بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً . أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة بالعزمة التي جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجى إلى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقرش بن عبد الله الملكي الناصري في سنة تسع وسبعين وخمس مائة »

والظاهر أن صلاح الدين شغل بعد هذا التاريخ بحروبه في الشام فلم يعن بإتمام القلعة ولا سيما أن خطر الفاطميين وأنصارهم قد زال تماماً . وهكذا لم تتم عمارة القلعة إلا في عهد ابن أخيه الملك الكامل سنة ٦٠٤ ﻫ (١٢٠٧م) فهو الذي شيّد أول

ما بني فيها من قصور ، وهو الذي شيّد أبراجها الرئيسية وأقام بها (شكل ٥) ، وحذا حذوه من خلفه من أمراء مصر فظلت مقر الحكم إلى أن اتخذ الخديو إسمعيل قصر عابدين سكناً رسمياً .

ويتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من مساحتين من الأرض مستقلتين : الشمالية تقرب من شكل المستطيل ولها أبراج بارزة . أما الجنوبية فتمتد من الشمال إلى الجنوب بعد أن تكوّن زاوية قائمة مع المساحة الشمالية . ويفصلها جدار سميك



شكل ٣ — منظر لقلعة الجبل حين أعيد تشييد القبة في جامع محمد علي

ذو أبراج ويبلغ طوله نحو مائة وخمسين متراً وفي وسطه باب القلة الذي يعرف الآن باسم « الباب الجوّاني » . والحق أن في قلعة الجبل بالقاهرة ظاهرة غير عادية في أسوار القلاع ؛ لأننا لا نرى لها سوراً كاملا يضمها بأبراجه واستحكاماته البارزة . وقد كتب المقريزي في هذا الصدد : « وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهي إلى القصر الأبلق على غير أوضاع أبراج القلاع » . ولعل السبب في ذلك أن قلعة الجبل تتألف من المساحة الشمالية وهي الحصن نفسه ، ومن ملحقات تضمها المساحة الجنوبية ، وقوامها قصور وبيوت واسطبلات وميادين ، وهى أصغر قليلا من المساحة الشمالية ، فإن أقصى أبعادها نحو ٥١٠ أمتار من

الشمال إلى الجنوب و ٢٧٠ متراً من الشرق إلى الغرب ، ولكنها غير منتظمة الشكل وترجع إلى عصور مختلفة وليس لسورها كثير من الأبراج المربعة أو نصف المستديرة كما لسور الحصن نفسه . وهكذا نتبين أن قلعة الجبل لم تكن حصناً فحسب وإنما اتصلت بهذا الحصن مدينة ملكية صغيرة (مثل فرساي أو بوتسدام ، على حد قول المستشرق كازانوفا*) كانت تضم القصور والميادين والبساتين والمساجد ودواوين الحكومة ، وكانت تنقل إليها المياه من النيل على ظهور الدواب وبواسطة ساقيات عند فم الخليج تحمله إلى قناطر بنيت لهذا الغرض حتى تصل إلى القلعة . وأكبر الظن أن الجزء الشمالي من القلعة — أي الحصن الحقيقي — تم تشييده في عصر صلاح الدين ، وأن الكامل أضاف إلى القلعة عمائر مستقلة في جزئها الجنوبي . ومهما يكن من الأمر فإن مباني صلاح الدين في القلعة لم يبق منها سوى جزء كبير من سور الحصن بأبراجه نصف المستديرة فضلا عن باب المدرج أو باب السارية والجزء الداخلي من باب القرافة أو باب الجبل . وكلاهما في الجهة الجنوبية .

ومن المعالم التي ترجع إلي عصر صلاح الدين بئر يوسف في المساحة الجنوبية من القلعة . وتقع الآن في الجهة الجنوبية الشرقية من جامع الناصر محمد بالمساحة المذكورة . وتنسب الأساطير الشعبية هذه البئر — ومثلها بعض المعالم الأخرى في القلعة — إلى سيدنا يوسف الصديق لما يتجلى من عظمتها التي تحير سواد الشعب . ولسنا نظن المقصود بيوسف هنا صلاح الدين « يوسف » كما ظن بعض العلماء . وتعرف هذه البئر باسم « الحلزون » وقد أشرف على حفرها في الصخر بهاء الدين قراقوش لتكون مصدراً للماء في القلعة وقت الحصار . وتتألف من طابقين ، عمق الأول نحو خمسين متراً ، والآخر نحو أربعين ، ولكل طابق منهما ساقية ترفع المياه منها بواسطة الدواب . ويقال إن هذه البئر كانت متصلة بالنيل بواسطة سرداب تنفذ منه مياه النهر إلى القلعة ، وإنه حدث في العصر العثماني أن فريقاً من الثوار نفذوا إلى داخل القلعة بواسطة هذا السرداب .

---

* كتب بول كازانوفا Paul Casanova مؤلفاً جليلا عن قلعة الجبل نشره المجمع الفرنسي للآثار بالقاهرة سنة ١٨٩٧ بعنوان Histoire et Description de la Citadelle du Caire. ونشر المجمع المذكور بحثاً عنها للأستاذ كريزول K.A.C. Creswell سنة ١٩٢٤ بعنوان Archeological Researches at the Citadel of Cairo ودرس الأستاذ ماكس فان برشم M. Van Berchem الكتابات التاريخية التي وجدت في القلعة في مؤلفه جامع الكتابات التاريخية العربية Corpus Inscriptionum Arabicarun الذي نشره سنة ١٩٠٣ المجمع سالف الذكر .

وشيد الملك الكامل في القلعة إيواناً وباباً للقصور السلطانية سماه باب السر كما شيد باب القلعة الذي يصل الجزء الشمالي بالمساحة الجنوبية ، وبنيت له كذلك الاصطبلات السلطانية وأبراج الحمام وخزانة الكتب ومقر للوزير كان يسمى قاعة الصاحب . ثم شيد الملك الصالح أيوب القاعة الصالحية في القلعة وكان يجلس فيها كثير من السلاطين إلى أن أحرقت سنة ٦٤٨ هـ

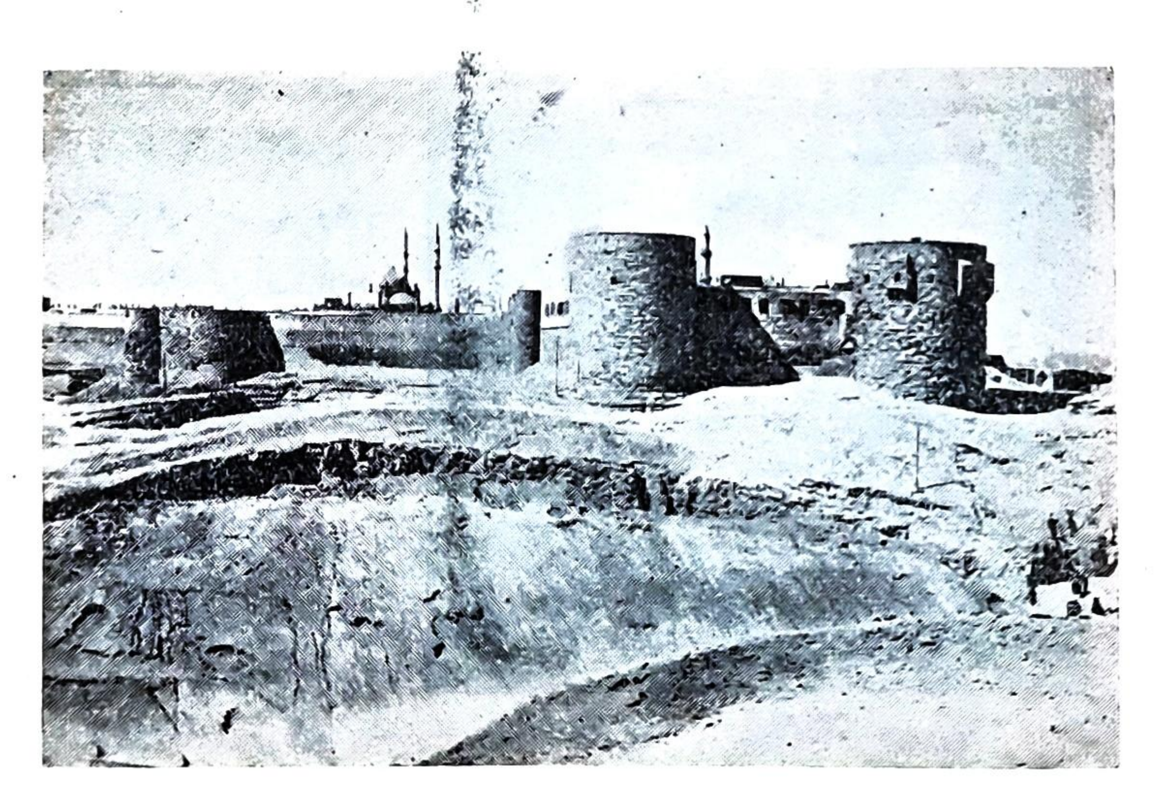
وكانت القلعة في عصر المماليك محل عناية السلاطين ، ولا غرو فقد كان هذا العصر أعظم عصور التاريخ المصري الإسلامي في الحرب وفي العمارة ، فضلا عن أن آثاره أتيح لها أن تظفر بنفر من المؤرخين أطنبوا في وصفها ، وعلى رأسهم المقريزي . ومن المعالم التي أضيفت إلى القلعة في ذلك العصر قاعة الأعمدة على يد المعز أيبك أوشجرة الدر ، ودار الذهب التي شيدها الظاهر بيبرس ، ورسمت له فيها صور حاشيته وأمرائه ، وكان من بدائع عمارتها قبة محمولة على اثني عشر عموداً من الرخام الملون . كما بنيت للظاهر بيبرس دار كبيرة أعدها لابنه الملك السعيد .

شكل ٤ — باب المدرج

ومن أعظم الأحداث التي كانت القلعة مسرحاً لها في بداية عصر المماليك استقبال الأمير العباسي أبو القاسم أحمد ، حين قدم من دمشق بعد فراره من وجه التتار في بغداد ، وقد هيأ له الظاهر بيبرس مكاناً جليلا في القلعة وبايعه بالخلافة فاتخذ اسم المستنصر بالله سنة ٦٥٩ هـ . فلما تمت البيعة قلد الخليفة الجديد سلطان مصر الملك الظاهر « البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار » ثم

أعد السلطان جيشاً للخليفة يسير بإمرته لاستخلاص بغداد ، ولكنها كانت حملة فاشلة إذ أوقع التتار بها هزيمة منكرة وقتل الخليفة ولم يفلت من أصحابه إلا أمير عباسي آخر : هو أبو العباس أحمد الذي قدم إلى مصر وبويع بالخلافة سنة ٦٦٠ هـ وتلقب بالحاكم بأمر الله ، وأنزله السلطان الظاهر في البرج الكبير داخل قلعة الجبل .

ويلوح أن الملك المنصور قلاوون هدم القبة التي شيدها الظاهر بيبرس وبنى مكانها قبة جديدة على أعمدة ملونة ومذهبة ، وفي جدران أروقتها رسوم قلاع الإمبراطورية المصرية في ذلك العصر . وقد قيل في هذه القبة إنها كانت «من عجائب



شكل ٥ — برج الإمام وبرج الحداد في سور قلعة الجبل

الأبنية التي ماعمر مثلها ملك في مملكة من الممالك » . وأنشأ الملك الأشرف خليل بن قلاوون مقعداً عالياً في القلعة يطل على النيل ورسمت له على جدرانه صور أمراء الدولة وعظمائها .

على أن ما أحدثه سلاطين المماليك من عمائر في القلعة قبل عصر الناصر محمد بن قلاوون زالت معظم آثاره على يد هذا السلطان . ولاعجب فقد كان الناصر محمد من أعظم سلاطين المسلمين حباً في المنشآت الجديدة . وكانت معظم عمائره في القلعة ، فعدل في مبانيها وأضاف إليها حتى لم يبق من معالمها القديمة إلا السور والتخطيط العام . ولعل

أعظم ما وصل إلينا من عمائر الناصر في القلعة الجامع المنسوب إليه وقد شيده في موضع مسجد صغير ومخازن ومطبخ أمر بهدمها كلها (شكل ٢) . وامتاز جامع الناصر بمئذنتين جميلتين قمتهما مغطاة بالقاشاني ، كما امتاز بدقة النقش في سقفه وبجمال الشبابيك الجصية التي كانت تغطي النوافذ الموجودة في الجزء العلوي من جدران الجامع . وأصلح الناصر محمد باب المدرج (شكل ٤) ، ولا يزال هذا الباب قائماً إلى اليوم خلف الكتف الأيسر للباب الجديد الذي بني في عصر محمد علي باشا سنة ١٨٢٥ م . وهدم الناصر برج الرفرف (وهو المقعد الذي شيده أخوه الأشرف) وبنى مكانه برجاً جديداً لا تزال آثاره باقية على مقربة من الركن الشمالي الشرقي لجامع محمد علي .

ومن عمائر الناصر الإيوان الكبير الذي هدم وقام مكانه جامع محمد علي . وقد وصفه كثير ممن زاروا مصر في القرن السابع عشر ، وكان يعرف حينئذ باسم ديوان يوسف . ومن عمائر الناصر التي هدمت عند بناء الجامع المذكور القصر الأبلق ، وقد عرف بهذا الاسم لأن جدرانه الخارجية بنيت وجهاتها بصفوف أو مداميك من الحجر الأبيض والأصفر على التعاقب ؛ ولا تزال بعض هذه الجدران قائمة على مقربة من المبنى الذي تشغله الآن إدارة مهمات ومخازن الجيش المصرى .

وقد وصف المؤرخون عمائر شتى شيدها الناصر في القلعة ولم يصل إلينا شيء من آثارها ومعظمها قصور وبيوت وأبواب وثكنات وبينها جب كان يستخدم سجناً للجند والأمراء ، ومما شيده خلفاء الناصر محمد قصر البيسرية ، بناه الناصر حسن وأسرف في عمارته وتأثيثه حتى اتخذ له النوافذ من الذهب وأعد فيه مكتبة كبيرة .

وعني سلاطين المماليك بتحصين القلعة قبيل الفتح العثماني . أما في عصر الولاة العثمانيين فقد أهملت عمائر القلعة ونقلت بعض أجزائها إلى الآستانة وسكن الإنكشارية الجزء الشمالي منها . أما الولاة فقد نزلوا بيوتاً متواضعة على مقربة من القصور التي شيدها المماليك وتطرق إليها الخراب . ومن العمائر التي شيدت في هذا العصر جامع السارية ثم باب العزب الذي بناه الأمير رضوان كتخدا الجلفي والذي يطل على ميدان صلاح الدين (شكل ١) وقد تمت في العصر العثماني بعض تعديلات في أسوار القلعة ومبانيها دعا إليها استخدام المدافع في القتال .

وقام الفرنسيون بكثير من أعمال التخريب في القلعة عند ما احتلوها في أثناء الحملة الفرنسية على مصر . وقد سجل الجبرتي بيان هذه الأعمال .

ولما تولى حكم مصر محمد علي باشا ظلت القلعة مقراً للحكم وعادت إليها عظمتها

الأولى ، فأصلحت أسوارها وأبراجها وأبوابها ، وشيدت فيها الثكنات ومصانع الذخيرة والأسلحة ، ورفعت الأنقاض وشيدت مجموعة فخمة من العمائر الجديدة هي جامع محمد علي وقصر الجوهرة وقصر العدل وقصر الحرم ، ويتجلى في معظم عناصرها المعمارية التأثر بالأساليب الفنية التركية التي كانت سائدة في ذلك العصر .

وفي عصر المغفور له الملك فؤاد الأول أعيد تشييد قبة جامع محمد علي ، بعد أن ظهر ما في بنائها من خلل يؤدي إلى انهيارها . أما عصر الفاروق فيشهد الآن أعمال إصلاح وتجديد عظيمة في عمائر القلعة سوف يبرز بدائعها ويحفظ تراثها للأجيال القادمة.

* * *

هذه هي قلعة الجبل ! شهدت جنود الأيوبيين والمماليك يسيرون ليدفعوا عن مصر غارات الصليبيين والمغول ثم يعودون إليها ظافرين منصورين ، وسجلت فيها كثير من أحداث التاريخ المصري في العصر الإسلامي ، وشهدت على تعاقب الأجيال ما كسبته مصر من انتصارات وما حل بها من نكبات .

هذه هي قلعة الجبل ! رفع الفاروق عليها علم الوطن بشيراً بتحقيق ما تصبو إليه البلاد من سيادة واستقلال .

زكي محمد حسن

أعجوبة الكهرباء في نشر الوباء

للأستاذ عبد السلام فهمي

إذا كان المثل يقول : « البس دائماً كل ما يعجب الناس » فما ذلك إلا اتقاء كلام الناس فيما لو شذذت في لباسك عما يألفه الناس ، فلست أدري إذن ماذا عساها تكون قولة الناس عني وقد شذ موضوعي عما يراه الناس .

إذ كيف تكون الكهرباء مصدراً للوباء وقد عهدها الجميع مصدراً لشفاء ما استعصى من الأمراض جمعاء ؟ بل كيف يصح في الأذهان أن تكون كذلك وقد خلع عليها العلماء لقب « الكهرباء الطبية Doctor Electricity » من فرط استخدامها في علاج حالات لم يجد الطب الحديث وسيلة لها غير الكهرباء؛ فبها يعالج اللمباجو والروماتزم والصلع واليرقان والشلل وكافة الأمراض العصبية وأمراض لين العظام لدى الأطفال ، ثم الاستعانة بها في الإرشاد عن مواقع الطلقات النارية وأكياس الصديد وتشخيص الأمراض الجسام في داخل الأجسام ، واستخدامها سلاحاً معقماً للتشريط في العمليات .

أكثر من هذا أن طبيباً نمساوياً كان قد رأى أن يعالج الشلل العام بإحداث حمى الملاريا في جسم المريض ، وذلك بلدغة من بعوضة الأنوفيليس «Anopheles» على اعتبار أن آثار هذه الحمى تقضي على أعراض المرض ، وكادت هذه الطريقة تنجح ، لولا أن وطأة هذه الحمى كانت تسبب الوفاة في أغلب الحالات ، مما دعا إلى استبدال العلاج بحمامات أشعة الموجة القصيرة ، فأتت بنتائج باهرة نعمت بها البشرية . ولكن مع كل هذا علام العجب ؟ أهناك يا ترى أمر كله صفاء وليست له ضراء ؟ فالماء الذي نشربه قليله ينفع ولكن كثيره يغرق . والنار نصطلي بها بينما هي تحرق . بل العلم ذاته كم رأينا مهلكاته ترعد ثم تبرق . فكذلك الكهرباء فآونة بنورها تشرق ، وآونة لا ترحم ولا تشفق ...

فلكي نلم بمادة الموضوع إلماماً ، وليس لماماً ، وجب أن نقلب الطرف قليلا في خلق كهرباء السموات والأرض ، ونتعرف ما خفي من أسرارها العجيبة ، فتنكشف لنا عظمة خالق الكون جلت قدرته .

كهربية الأرض

من عجب أن تكون الأرض في ذاتها مولدة للكهربية ، فهي تولد تيارات شديدة على سطحها ، تكون في نهايتها العظمى تجاه خط الاستواء ، والصغرى عند القطبين . والأرض تولد هذه الكهربية من دورانها حول الشمس بسرعة تزيد عن ١٠٠٠ كيلومتر في الساعة ، فيتولد من احتكاكها المباشر — لأنها موصلة جيدة مع طبقة الأثير العازلة المحيطة بها والتي يبلغ سمكها ١٠٠ كيلو متر — كهربية إستاتيكية . فيتكهرب بالشحنة الموجبة الأثير ، وبالشحنة السالبة الأرض من التأثير . وتختلف كثافة هذا التيار تبعاً للفصول ، إلا أن متوسطها لا يعدو بضعة أجزاء من المليون من الأمبير لكل كيلومتر مربع من الأرض ، أي بما يقدر بنحو ١٥٠٠ أمبير من سطح الكرة كلها . وإذا قيس فرق التكهرب بين أية نقطة ثابتة وجملة نقط على سطح الأرض يرى أنه ثابت المقدار مهما تعددت النقط ، ولكنه يبدأ في الزيادة مع الارتفاع في طبقات الجو . ولقد وجد أن متوسط قيمة هذه الفروق عبارة عن ٩٠ فلتاً لكل متر ارتفاع عن سطح الأرض ، وفي بعض الحالات التي تكون مصحوبة بالزوابع والسحب المشحونة بالكهرباء يصل هذا الرقم إلى آلاف الفلتات ، بل إلى عشرات الآلاف ، حتى إنه قد يبلغ على ارتفاع ٥٠٠٠ متر نحو ٥٠,٠٠٠ فلت ، وهذه هي القوة التي ينتج من تفريغها البرق ، سواء أكان بين الشحنات بعضها ببعض ، أم بينها وبين الأرض ، أو يحدث ذلك النوع العجيب من الصواعق الذي يصعد من الأرض إلى الجو في شكل شجرة أصلها في الأرض وفروعها في السماء . أما بعد ارتفاع ٥٠٠٠ متر فإن الضغط الكهربي يقل مع الارتفاع بمعدل ١ : ١٠ عن قيمته السابقة ، وذلك لغاية ارتفاع ٩٠٠٠ متر ، وذلك بسبب زيادة قوة توصيل الجو في هذه الطبقات العالية للكهرباء ، حتى إنها لتصل إلى عشرة أمثال قيمتها على سطح الأرض .

كهربية الشمس

هذا هو شأن الكهربية التي تولدها الأرض نفسها . فلننتقل بعد هذا إلى الكلام عن الكهربية الأخرى التي تولدها الشمس ، فكأنما والحالة هذه تتولد من تحتنا كهرباء ، ومن فوقنا كهرباء . فسبحانك ربي ما خلقت هذا عبثاً أو هباء ...

الشمس هي ذلكم الكوكب العظيم الذي يرسل تلك الأشعة الذهبية اللون

والقيمة ،إذ عليها يتوقف مدار الحياة الدنيا لكل الكائنات ، من إنسان وحيوان ونبات حتى وميكروبات ، كما هو آت . بل إن هذه الحياة لتتصل رأساً بحالة الشمس وتغيرها بين الهدوء والثوران اتصالاً وثيقاً ، ولم يقصر مدى هذا الأثر على كوكب الأرض فحسب ، وإنما هو قد شمل حياة النجوم والكواكب كلها ، فهذه هي الأخرى مدينة بحياتها للشمس ، لأنها مثلنا تماماً ، حيث تولد فتحيا ثم تموت ، ففي بدء حياتها تكون في أحجام كبيرة ، وتكون درجة حرارتها إذ ذاك ٣٠٠٠ مائين ، ثم بعد هذا تبدأ في دور النمو ، فتزداد حرارتها تدريجاً حتى تصل بين ١٥٠٠٠ ، ٢٠٠٠٠ درجة ، وبعد ذلك يتضاءل حجمها حتى تفقد حرارتها ، ومن ثم تأخذ في الانكماش وتبرد شيئاً فشيئاً حتى تنطفىء كلية وتفارق الحياة . لذلك توزعت طاقة الشمس بين الأرض وهاته الكواكب العديدة التي هي بمثابة أراضي السموات ، وتستنفد كلها نحو مائة جزء من المليون من طاقة الشمس في حين أن أرضنا لا تصيب من هذا المعين إلا نصف جزء من المليار أو ما يعادل $\frac{١}{٢٠٠٠٠٠٠}$ مما تستهلكه هذه الكواكب التي يبلغ عددها ٢٠٠٠ ، ذلك لأنه إذا فرضنا أن الشمس كرة قطرها متر فيكون حجم عطارد كحمصة ، وأما الزهرة والمريخ والأرض فتكون بجانبها في حجم الكرات الصماء الصغيرة التي يلعب بها الأطفال . بل إذا اعتبرنا الأرض وحدة فيكون قطر الشمس ٦٥ وأورانوس ٢,٥ ونبتون ٣ وزحل ٦ والمشتري ٧ وتكون أيضاً كتلة المشتري ٣١٨ مرة قدر كتلة الأرض ، وعطارد يساوي $\frac{١}{١٨}$ منها ، أما الزهرة فعبارة عن $\frac{٩}{١٠}$ الأرض ، مع علمنا بأن قطر الشمس ١٣,٩١٨,٠٠٠ كيلومتر .

ضوء الشمس

وما دمنا الآن بصدد الكلام عن الشمس عماد الحياة ، وهي في درجة حرارتها العادية ٦٠٠٠ مائين من تلك الأشعة فوق البنفسجية ، وهي التي تكسب الجو زرقة اللون ، وهاته الإيونات التي يحملها الهواء بمعدل ٨٠٠ من الإيونات الموجبة الشحنة ، و٦٨٠ من السالبة الشحنة في السنتيمتر المكعب الواحد . فيحسن بنا أن نقضي وقتاً طفيفاً ، ونبحث بحثاً طريفاً ، قد لا يخطر على البال ، فنسأل : هل لهذا الضوء ضغط ؟ وهل له وزن ؟ أما عن الأمر الأول فقد أثبتت التجارب أن ضوء الشمس حينما تكون السماء صافية يحدث في أوقات الظهيرة ضغطاً قدره أربعة جرامات على سطح كل هكتار ، وهو يساوي ١٠,٠٠٠ متر مربع ، وأما عن الأمر الثاني ، وهو أن للضوء وزناً ، فهو والحق جد عجيب .

فلقد ذهب «نيوتن» إلى أن الضوء ، وهو يحمل معه جسيمات ضئيلة بالنظر إليه كطاقة ، يشترك مع المادة في خواصها ، ولما أن أرشدته أبحاثه إلى أن القذيفة كانت تتخذ لنفسها مساراً أفقياً لا نهاية له فيما لو لم تكن متأثرة من جاذبية الأرض ، وأنها هي التي تغير اتجاه سير القذيفة وتجعلها تنحدر تدريجاً إلى أسفل ، فتسقط خمسة أمتار بعد الثانية الأولى ، ثم عشرين متراً في كل من الثواني التالية ، فقد خلص إلى أن الضوء لا بد أن تنطبق عليه هذه القاعدة بلا خلاف ، فيسقط بذلك خمسة أمتار بعد الثانية الأولى ، أي بعد ما يكون قد قطع مسافة قدرها ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر ، وقد شاركه أنشتين «M. Einstein» في هذا الرأي ، ولكنه خالفه في المسافة التي يسقطها الضوء ، فقدرها بعشرة أمتار بدلا من خمسة .

ثمن الضوء بالوزن

وإذا نحن حولنا الضوء إلى حرارة ، وقدرنا ما تساويه هذه الطاقة الحرارية بالوزن ، باعتبار أن كل عشرين ملياراً من الوحدات الحرارية تحدث طاقة قدرها عشرة مليارات كيلو جرام متر ، وهذه تتولد من اختفاء مادة وزنها ملليجرام واحد ، فإنا نرى أن الشمس بذلك تورد لسطح الكرة الأرضية يومياً من الضوء ما زنته ١٦٠ طناً ، وعلى هذا فإذا جازلنا أن نبيع يوماً ما ضوء الكهرباء بالوزن بدلاً من العدادات ، فيكون ثمن الكيلوجرام الواحد منه عبارة عن ٢٥ مليون جنيه فقط !

ثوران الشمس

بقي علينا بعد هذا البحث أن ننتقل إلى صميم الموضوع ، فنقول : إن الشمس هي كمدفعي يسلط على الأرض قذائف مستمرة ، هي ألكترونات تنتشر في الأثير بكميات تتغير بين القلة والكثرة ، تبعاً لحالة الشمس ، سواء أكانت في هدوء أم في ثوران ، وحزمة الأشعة التي تصدر من هذا البركان الكهربي تسير في أنحاء الفضاء حول الكرة الأرضية مثل ضوء المنارة في شكل دورة قدر لها «غاليلي» سنة ١٦١١ أنها تستمر خلال (٤ ساعات و ٢٥ يوماً) . وإذا نحن قلنا الآن إن الشمس تدور ، فلا يعني هذا أن سطحها يدور قطعة واحدة كما تدور الأرض ، لأنه ليس صلباً ، بل هو غازي ، ويجري دورانه حول محور الشمس بسرعة تأخذ في القلة من خط الاستواء إلى القطبين ، وفي كل مرة تصدم أشعة المنارة الشمسية سطح الأرض تفيض عليها بوابل من شحنات الكهرباء لمدة ثلاثة أيام ، وهذه بالرغم من صدورها من بعد ١٥٠ مليون كيلومتراً

فإنها تكون محتفظة بقوتها التي نرى أثرها المغناطيسي في أجهزة المراصد ، فضلاً عما لها من آثار خافية سنأتي على ذكرها الآن .

منذ سنة ١٨٢٦ ميلادية كان البارون « شواب » أحد أعلام الفلك أول من شغل نفسه بحصر البقع الشمسية ، وظل ٢٥ عاماً يزاول هذه العملية ، حتى أعلن في سنة ١٨٥١ أن الشمس كالبركان ، فطوراً تراها هادئة ، وطوراً تجدها ثائرة ، فتحدث آنئذ في وجهها تشققات تعرف بالبقع الشمسية ، قد يبلغ اتساع التشقق الواحد منها نحو ٣٨٠٠٠ كيلو متراً على الأقل ، أي ما يقرب من قدر قطر الأرض ثلاث مرات، وبعضها يصل طوله أحياناً إلى ١٠٠,٠٠٠ كيلو متر ، ويظل هذا الثوران قائماً خلال بضعة شهور ، يبدأ بعدها في الهدوء تدريجاً حتى يتلاشى نهائياً ، وقدر « شواب » أن تقع الشمس في نشاطها هذا فترات تختلف بين تسع سنوات إلى ١٢ سنة ، فحين تكون الشمس في نهاية ثورانها يرى أن قرصها محاط بهالة مستديرة من اللهب ، ولكن قبيل نشاطها الأعظم ينتشر اللهب من أربعة أوضاع مائلة حولها كالقرون ، وفي بداية الأمر يشع اللهب من وضعين أفقيين متقابلين .

أعراض النشاط الشمسي

بعد أن أتينا على شرح ما يصيب الشمس من هـذه الحمى الدورية ، وما يلازمها من زيادة الشحنات الكهربية التي تملأ الجو بها ، قد آن أن نميط اللثام الآن عما لهذه التغيرات من علاقة مباشرة ببقاء الكائنات الحية جميعها ، سواء في ذلك حياة الخليات أم الميكروبات أم حياة الأجسام العضوية ، فضلا عما لها من آثار جدية في الحياة الاجتماعية ، فهذه الحيوات الثلاث ترتبط كل الارتباط بضوء النهار ، كما نرى حياتنا ترتبط بمقدار الأكسجين في الهواء .

وإن أعجوبة آثار النشاط الشمسي ، أو بالتالي آثار هذا الطوفان الحادث في الكهرباء الجوية ، لم تقتصر على ما ذكرناه فحسب ، بل إن لها أكبر الأثر في وفرة المحاصيل الزراعية وجودتها وزيادة سمك جذوع الأشجار وازدهار النبات ، وكذلك الحال في كثرة توالد الأسماك والطيور والحيوانات، فضلا عن انتشار الوفيات الفجائية ، وتعدد الحرائق والجرائم الغرامية ، ووقوع حوادث الانتحار ، بسبب قلة الجير في الدورة الدموية وتفشي مرض الرقص "Maladie de Danse" بين الشبان ، كما تتغير أوزان المواليد عن حالتها الطبيعية . وقد عكف البحاثة المعروف كاميل فلامريون

«Camille Flamarion» مع زوجه على عمل أرصاد شتى في مرصد باريس دامت نصف قرن ، أرشدتهما إلى أن سني البرودة والأمطار والفيضانات تحدث حينما تكون الشمس في هدوء بينما تجيء أعوام القيظ والقحط الشديد في أوقات النشاط الشمسي . وأكثر من هذا أن العالم الروسي تشيفسكي «A.C. Tchijevsky» قد كشف كشفاً علمياً كان من قبل خفياً ، وهو أن الحروب والثورات الداخلية ، ولو أن منشأها في نظرنا السطحي نعزوه دائماً إلى عوامل اقتصادية ، كما يخيل لنا ذلك ، إلا أن الباعث الحقيقي لها يرجع أيضاً إلى نفس هـذه التغييرات الشمسية ، بالنسبة إلى أن الميكروبات الوبائية لا تفرخ بكثرة إلا عند حدوثها ، بدليل أن التاريخ لم يحدثنا قط عن انتشار الأمراض الفتاكة إلا عقب الحروب والثورات ، وأكبر شاهد ناهض على صحة هذه الظاهرة ، هو ما دهى العالم سـنة ١٩١٨ حينما ابتلي بوباء لم تكشف طفيلياته الأجهزة المكبرة ، وكان يحصد وقت ظهوره الأرواح حصداً ذريعاً ، ويفتك بها فتكا مروعاً ، وهو «الحمى الإسبنيولية» ، ثم ما كان قد حل بالهند سنة ١٨١٦ من انتشار الكوليرا في ربوعها انتشاراً وبيلا ، لم تر له مثيلا . وعاودتها مرة أخرى سنة ١٨٩٤ هي وهمبورج ، بل لعلنا نذكر جيداً ما كانت الصحف نشرته في أبريل سنة ١٩٣٨ تحت عنوان « عاصفة مغناطيسية » حول ما كان قد حل بأوربا وأمريكا الشمالية من العطل الفجائي لكافة مواصلاتها البرقية والتليفونية دفعة واحدة ، وظل قائماً عدة ساعات ، ولقد ذهل الناس جميعاً أمام هـذه الحادثات الغريبة ، التي لم يعهدوها من قبل ، وراحوا يقولون « إن الأمراض فينا » وهي تتولد منا ومرجعها إلينا كما قال الدكتور بيدكس « Pidoux » ما في ذلك من شك ، ولـكن ما بالنا نرى الآن هذه الأمراض تنتشر على جناح البرق بين أصقاع متباينة متنائية في وقت واحد ، مع أن وسائل العدوى وهي اللمس والماء والغذاء لا تتحقق إلا في إقليم واحد ؟ كما أنه لا يجوز القول تعليلا لهذه الحالة بأن تكون الريح هي ناقلة هذا البلاء ، كما ذهبوا فعلا إلى ذلك ، لأن الأبحاث العلمية دلت على أن العدوى التي تنقل بالهواء إنما تجيء من ذرات الأتربة التي تتطاير فيه ، بدليل أن الهواء على سطح الأرض يحمل قدراً من الجراثيم لا يوجد في هواء المناطق العليا ، بل ها نحن أولاء نرى مستشفيات الأمراض المعدية تحيط بها المساكن دون أن ينشأ منها خطر ما على الصحة العامة .

صحيح أن للأمراض مطايا تنتقل عليها من مكان إلى آخر ، فالباراتيفود تنتقل في المواد الغذائية ، والكوليرا في الماء ، والتيفوس في القمل ، والملاريا في بعوض

الأنوفيليس ، والحمى الصفراء في بعوض الأيديس «ædes» ، والطاعون في الفيران ، وكذلك الحال في الرطوبة ، فإنها أعدى أعداء البشرية في نقل الجراثيم ، فإنك حينما تزور مريضاً في حجرة هواؤها ساخن ، فإن الجراثيم سرعان ما تستقبلك على باب الحجرة ، حيث تجتذبها برودة ملابسك ، فتلتصق بها من الخارج .

بل إن هاته المراوح التي نديرها أيام القيظ لا ندري أن تيارها يساعد على تشابك الجراثيم التي بهواء الحجرة وتضخمها .

وقد يكون الهواء مطية صالحة للنقل أيضاً ، ولكن هذا لا يحدث إلا في المدن ، حيث تستطيع الميكروبات أن تجد غذاءها مما يتطاير فيها من الأدخنة والغازات الكريهة والذرات العضوية . وحسبنا تدليلا على ذلك أن مكروب الدفتريا مثلا يعيش ١٠٠ يوم في الهواء العفن ، ولكنه يموت بعد خمسة أيام على الأكثر من تعرضه للهواء العادي .

إذن فلا يعزى نشر الوباء العالمي إلا إلى زيادة أثر الكهرباء الحادث وقت النشاط الشمسي ، كما سجلته الأرصاد ، وهو يمطر الأرض بوابل الكهرباء في كل من الحالات السابقة .وأكثر من هذا أن التجارب العملية قد حققت ذلك ، حيث أمكن تفريغ مزرعة الميكروبات العضوية بوضعها في مجرى تيار كهربائي .

الكهربية الصناعية

لقد رأينا كل هذه العجائب الصادرة عن الكهرباء ، ثم رأينا كيف أن الهواء المحيط بنا متكهرب من مصدرطبيعي ، وهوضوء الشمس الغني بالألكترونات ، فضلا عما يكتسبه من مصدر صناعي ، وهو موجات اللاسلكي ، أما الآن فنقول : إن الأرض تتكهرب من مصدر آخر صناعي سنفصله فيما يلي : في سنة ١٨٣٣ لما أنشأ «Gauss Et Weber» أول خط للبرق بطول ثلاثة كيلومترات كانت الدائرة الكهربية حينذاك تحتوي على سلكين ، أحدهما لإرسال التيار ، والآخر لإرجاعه ، ولكن بعد بضع سنوات فكر « Steinheil » في أن يستخدم الأرض بدلا من سلك الإرجاع ابتغاء الاقتصاد ، ومن ثم بدأت التيارات الصناعية تنساب في إثر بعضها بكميات هائلة إلى جوف الأرض ، حتى إننا صرنا من جراء ذلك نرى الأجراس والأجهزة الكهربية تتذبذب أحياناً من نفسها ، وهي متأثرة بالتيارات الأرضية ، بل منذ أن صارت الكهرباء عماد الصناعات ونحن ما فتئنا نجعل من باطن الأرض مخزناً لها ،

فتتراكم فيها الشحنات المختلفة ، فوق ما توليده هي ، وما تقذفها به الشمس ، ولا يعلم إلا الله نتيجة ذلك . وللتيارات الصناعية ثلاثة مصادر ، كلها تستخدم الأرض كسلك للارجاع :

الأول : تيارات التليفونات والبرق .

الثاني : تيارات الترمو ايات والسكك الحديدية الكهربية .

الثالث : تيارات الإضاءة ، سواء أكانت بالتيار المستمر أم بالتيار المتغير ذي الضغط العالي . فلنتصور إذن مبلغ ما تسرب من هذه التيارات إلى الأرض منذ سنة ١٨٣٣ لغاية الآن ، أي منذ ١١٣ سنة ، فنراه الشيء الكثير ، حتى لقد صار من اليسير استخراج الكهرباء من باطن الأرض .

أما بعد ؛ فلقد رأينا الآن ما كان خافياً من أمر الكهرباء في نماء الجراثيم ونشرها ، فإذا كان لنا أن نضرع إلى خالق الشمس أن يقينا شر نشاطها ، فلست أدري والحالة هذه كيف تعجل البشرية بنفسها لنفسها هذه الأضرار ، ولا تحسب قط حساب هاته الأخطار ، باستخدامها الأرض مرجعاً للتيار .

عبد السلام فهمي

المعاهدات والمهادنات في الإسلام

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

لم تعرف المعاهدات والمهادنات المكتوبة في الأمة العربية قبل الإسلام، على الرغم مما كان بين القبائل من حرب كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء. وكانت علاقات العرب في الجاهلية بجيرانهم من الفرس والروم على حال من التبعية لهم، كما حدث بين الغساسنة والروم من ناحية، والمناذرة والفرس من ناحية أخرى. وهي حال خففت كثيراً من المناوشات التي كانت تقوم على التخوم، وهذه المناوشات لم تكن على صورة الحرب المنظمة التي تستوجب صلحاً أو تستلزم عهداً.

فلما جاء الإسلام حدثت حروب في شبه الجزيرة العربية نفسها بين المسلمين والمشركين، وهي الحروب التي تمثلت في غزوات النبي، حتى انتشر الدين الجديد ودخل الناس فيه أفواجاً، ولم تكن هذه الغزوات اعتداء، ولكنها كانت دفاعاً عن الدعوة الجديدة وحماية لها. ثم حدثت بعد ذلك الفتوحات التي اتجهت نحو الإمبراطوريتين الكبيرتين: الفارسية والرومانية. وهي حروب اقتضت قيام سلسلة من العهود والمهادنات بين الغالبين والمغلوبين.

وظل تاريخ الأمة العربية — أو الإسلامية بمعنى أوسع — يتراوح بين مد الحروب وجزرها مدة ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وخاصة حينما التقوا بالأسبان في شبه جزيرة الأندلس، وبالصليبيين في مصر والشام.

وقد التقى المسلمون مع الأوربيين في زحف آخر على يد السلاطين من بني عثمان، وهو زحف لم يكن عربياً في جنسه، إلا أن راية الإسلام كانت تظله في ظلال الفاتحين من المسلمين العثمانيين، من أمثال محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م، وسليمان القانوني الذي فتح بلغراد سنة ١٥٢١ م ورودس ١٥٢٢ م، وغزا النمسا حتى بلغ عاصمتها «فينا» سنة ١٥٢٩ م، ولكن رداءة الجو اضطرته إلى فك الحصار عنها*.

وما كانت المعاهدات والمهادنات وعهود الصلح جديدة على المسلمين، فقد عرفوها منذ غزواتهم الأولى مع الرسول، وكان في كثير من هذه المهادنات كسب سياسي للدولة

* التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية ص ٨٩.

الإسلامية الناشئة ، واعتراف بكيانها السياسي ، ولم تكن مجرد انتهاء للحرب أو وضع لأوزارها ، أو مجرد ربح عسكري يظفر به الغالب على حساب المغلوب . وأول ما يحضرنا من ذلك صلح الحديبية الذي عقده المسلمون مع قريش بعد بيعة الرضوان[١]، وهو صلح فرضته مقتضيات الأمور على قريش ، حتى لا يتحدث العرب عنها أن النبي عليه السلام دخل مكة عنوة . وقد جرت في سبيله محادثات طويلة قبل إمضائه والتصديق عليه — كما يحدث اليوم تحت سمع الناس وبصرهم — وكادت تلك المحادثات تنقطع في بعض الأحيان[٢] ، لولا حكمة النبي في نجاحها .

وفي صلح الحديبية دلالة دبلوماسية ذات خطر ، فقد كان يحمل في طياته اعترافاً ضمنيّـاً من المشركين بالدولة الناشئة للإسلام[٣]، وهو اعتراف غير منطوق به من قريش — ولنسمها دولة الشرك — بأن محمداً لم يكن ثائراً عليها ولا متمرداً على حكمها ولا عاصياً ، لأن الصلح المهادن لا يعقد بين الدولة والثائرين عليها . وإنما يعقد بين هيئتين لهما شخصية وجودية قائمة ، وهذا أول نصر لدولة الإسلام من حيث كيانها السياسي وقوامها الدولي .

ومن الطبيعي أن يكون كل صلح يأتي بعـد ذلك توكيداً لهذا الاعتراف بشخصية الدولة الإسلامية المستقلة ، كما حدث في صلح خيبر بعد ذلك ، وهو صلح قضى على سلطان اليهود السياسي في جزيرة العرب[٤] .

وإذا كان صلح خيبر كسباً للدولة الإسلامية الجديدة من ناحية الحرب والسياسة فإنه كان كسباً آخر لها من الناحية الاقتصادية ، وهو صلح تدل مواده القليلة على فهم النبي لأحوال الزراعة والاقتصاد في عهده ، وأحوال الأيدي العاملة وتوزيع العمل بينها ، فقد أبقى لأهل خيبر أرضهم التي صارت إليه بحكم الفتح ، على أن يعاملهم في الأموال على النصف[٥] ، أي أنهم يعملون في الأرض لما لهم من الخبرة بشؤون الزراعة ، على أن يؤدوا للمسلمين نصف ثمرها ويبقى النصف لهم جزاء قيامهم بالعمل .

وكان طبيعياً أن تمتد غزوات النبي في الدولة الإسلامية الجديدة إلى تخوم الجزيرة العربية ؛ وهو امتداد لم يكن على قدر واسع في عهد النبي ، كما حدث بعده بقليل في خلافة عمر بن الخطاب ، حيث بدأ سيل الفتوح ينصب على الفرس والروم من كل

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٥ . (٢) حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل باشا ص ٣٦٢ .

(٣) كتاب « محمد القائد » للصاغ محمد عبد الفتاح إبرهيم ص ٦٦ .

(٤) حياة محمد ص ٢٧٧ . (٥) سيرة ابن هشام جزء ٣ ص ٣٨٩ .

جانب . ولكنه امتداد لم يكن بدّ منه ومن الإعلان به للمسلمين حتى يتهيؤوا لقتال الروم، على خلاف ما كان يصنع النبي في تكتمه حين كان يتوجه إلى ناحية غير التي يقصدها تضليلاً للعدو . وانسحبت جيوش الروم من حدودها استعداداً لتحصنها داخل الشام ؛ وصالح النبي بعد انتهائه إلى تبوك « يُحنَّة بن رؤبة » صاحب « أيلة » ، وحالف « أكيدر » صاحب « دومة » ، بعد أن عرض عليه الإسلام في مكة فأسلم(١) .

وتعد معاهدة الحدود « بأيلة » ، ومحالفة صاحب « دومة » آخر ما عقد النبي من مهادنات على أطراف الجزيرة العربية ، أو بعبارة أخرى آخر المعاهدات الإسلامية داخل إطار الجزيرة العربية . أما ما جدّ بعد ذلك من عهود ومصالحات في خلافة عمر فقد كان على إحدى رقعتين : إما أرض تتبع الجزيرة في جغرافيتها ولا تتبعها في السيادة السياسية كالشام ؛ وإما أرض بعيدة عن الجزيرة العربية في جغرافيتها وبعيدة في سياستها كالعراق الفارسي ومصر ، فقد كان الأول تابعاً للفرس ، والثانية تابعة للرومان .

ولقد كانت أرض فارس مشهداً لمواقع حربية كثيرة ، كما كانت تبعاً لذلك مسرحاً لكثير من المعاهدات وعقود الصلح ، إلا أننا لا نشهد في الأعوام المستحرَّة الأولى من فتح فارس توقيع عهود بين العرب والفرس ، فلم تكن إليها حاجة ، لأن حملة العرب الصادقة عليهم بلغت من الشدة حدًّا لم يدعهم يجتمعون للتفكير في صلح ، ولكنهم طار صوابهم ، فطاروا إلى الجبال ، حتى ما كان الرجل منهم يستطيع الصبر على القتال ، ولقد كان العربي يشير إلى الإسوار من أهل فارس فيجيء إليه وعليه السلاح التام فيضرب عنقه ويأخذ ما يكون عليه(٢) . فلما ذهبت دهشة المفاجأة من حرب الفتح الفارسي رأينا بعد ذلك المصالحات بين العرب وبينهم في أمثال « صلح الماهين » « وصلح ماه دينار » « وصلح جرجان » في السنة الثانية والعشرين من الهجرة ، « وصلح أذربيجان » في السنة نفسها(٣) . وتلك ظاهرة معقولة التعليل ، فقد كان غياب الطرف الثاني من المعاهدة مانعاً من عقدها ، لأنها لا تتم إلا بين طرفين ، فلما تهيأ الطرف الثاني تهيأت أسباب عقد المعاهدات .

ويلاحظ في المعاهدات الإسلامية تدرجها من البساطة والإيجاز ، إلى التفصيل والإسهاب ، تبعاً لتدرج أساليب الكلام في العصور الإسلامية المتعاقبة . حتى لم يزد صلح

(١) سيرة ابن هشام جزء ٤ ص ١٨٠ ، ١٨١ .　(٢) الطبري جزء ٤ ص ١٣٥ .

(٣) الطبري جزء ٤

الحديبية على ثلاثة أسطر ، كما أورده أصحاب السير[١] ، وإن كان ابن هشام المؤرخ أورده في عشرة أسطر[٢] .

وظلت المعاهدات والمهادنات على عهدها الأول من الإيجاز ، والقصد إلى النقص من غير تزيد في العبارة ، والبعد عن زخرفة اللفظ بالمحسنات والسجع ، حتى جاء عصر الصناعة اللفظية ، في أواخر العصر الفاطمي وما تلاه من عصور الأيوبيين والمماليك ، فرأينا أن نصوص المعاهدات قد طالت حتى لقد بلغ بعضها ثماني صفحات من القطع الكبير ، كالهدنة التي وقعت بين الظاهر بيبرس البندقداري صاحب مصر وبين أسرة الإسبتار من الفرنجة المتغلبين على بعض البلاد الشامية ، وكان ذلك في القرن السابع الهجري « الرابع عشر الميلادي » . وقد تضمنت هذه المهادنة التي نحن بسبيل الحديث عنها مواد تتصل بمناصفة الأرض المتعاقد عليها بين الطرفين ، والحرص على عمارتها وحمايتها ، والحكم فيها بشريعة الإسلام على المسلمين وحدهم ، وحرية أهل النصفين في الإقامة في أي نصف أرادوا ؛ كما تضمنت حقوق صيد السمك في المنطقة ، ومنعت تعدّي أحد أصحاب طرفي الهدنة على الطرف الآخر ، كما ضمنت لفلاحي أسرة الإسبتار حرية الغدو والرواح والتصرف في البيع والشراء ، وأعطت لفلاحي بلاد الإسماعيلية من الحرية مثل ما أعطت للفرنجة .

أما السجع فقد خلت منه المعاهدات الإسلامية الأولى خلوّاً تاماً ؛ فلا تجد في صلوح النبي وهدنه ، ولا في معاهدات الفرس والشام ومصر أثراً لسجعة واحدة . وخير مثال لذلك صلح الحديبية فقد جاء فيه : « هـذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلال — أي لا سرقة ولا خيانة — وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب ، السيوف في القراب لا تدخلها بغيرها » .

أما حين ظهرت طريقة ابن العميد في السجع ، وتلتها طريقة القاضي الفاضل ، فقد استعمل السجع في ابتداءات المهادنات ومقدماتها ، كما استعمل — أحياناً — في

---

(١) صبح الأعشى جزء ١٤ ص ٦ .   (٢) سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٣٦٦ .

داخل موادها . ونرى ذلك في المهادنة لمدة عامين بين المهدي بن تومرت سلطان الموحدين بالمغرب ، « والدون فرندة » ملك قشتالة ، وكان موضوع تلك الهدنة الصلح على مدينة « مرسية » من بلاد الأندلس . وكان ذلك في القرن السادس الهجري « الثاني عشر الميلادي » .

وعلى الرغم من قوة المسلمين حينما كانوا أطرافاً في معاهداتهم الأولى مع غيرهم فإنهم لم يعمدوا إلى المباهاة بالألقاب والحرص على أساليب التفخيم ، فقد كان القائد أو العاقد منهم يذكر اسمه مجرداً من كل لقب بعيداً من كل افتخار . إلا أن النبي عليه السلام كان يحرص على نعته برسول الله ، ولم يكن ذلك منه افتخاراً ولا تعظماً لنفسه ، ولكن تذكيراً للناس برسالته ، وتوكيداً لمعناها في النفوس ، حتى لا ينكرها عليه منكر ، وما كان أكثرهم . . . فقد أنكرها بالفعل سُهيل بن عمرو نائب المشركين في صلح الحديبية حينما سمع النبي يملي : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتبْ : محمد ابن عبدالله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « والله إني لرسول الله وإن كذبتموني » . ولكن كياسة النبي ولباقته ومرونته السياسية لم تحمله على الإصرار على لقب الرسالة في مقام اجترأ فيه المعاند وتوقح فيه الجاحد . فقال لكاتب الصلح : « اكتب محمد بن عبد الله !! » وكاد كاتب هذه الهدنة — عليّ بن أبي طالب — يضيق صدراً بما حدث ، لولا أنه أذعن لمشيئة النبي ، حتى لا يضيع مكسب سياسي كبير ، من أجل أمر — في نظر المهارة السياسية — صغير . . .

ونرى بعد ذلك كبار القواد من المسلمين يكتبون المعاهدات بينهم وبين المغلوبين بأسمائهم مجردة من كل لقب يراد به التعظيم ، كما صنع سويد بن مقرّن في صلح قومس وفتح جرجان[١] ، وكما صنع النعمان بن مقرن في صلح الماهين مع الفرس[٢] ، وكما صنع خالد بن الوليد في عهده لأهل الشام[٣] ، وكما صنع عمرو بن العاص في صلحه مع أهل مصر[٤] . فإنهم كانوا يفتتحون هذه العهود بقولهم : « هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر » أو : « هذا ما أعطى النعمان بن مقرن» . وما حاجة القوة العاقلة والعظمة الماثلة إلى اتخاذ الألقاب والمماحكة بترفيع الجناب ؟ ؟

---

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٥٤ . (٢) الطبري ج ٤ ص ٢٤٥ .

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي لجورجي زيدان ج ٤ ص ٩٢ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٩ .

وأين من هذه القوة الحقيقية تلك المظاهر المصطنعة والألقاب المخترعة التي كانت في غير موضعها — كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد . . . ؟

على أن المهادنات الإسلامية المتأخرة لم يفتها أن تخلع ألقاب التفخيم على المتعاقدين تعظيماً لهم ورفعاً لقدرهم ، وكان يدفعهم إلى ذلك إما حسن التأدب مع خصومهم ، وإما الشعور بالضعف أمامهم . ومن النوع الأول مهادنات الملك الظاهر بيبرس مع ملوك الفرنجة ، كما صنع مع أسرة الإسبتار في المعاهدة التي أمضيت بينهما سنة ٦٦٥ هـ[١] ، ومع ملكة بيروت من الفرنجة في سنة ٦٦٧هـ في الهدنة التي افتتحت بهذه العبارة : « استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وبين الملكة الجليلة المصونة الفاخرة »[٢] .

ولقد بالغ الملك الأشرف خليل المملوكي بن المنصور قلاوون في استعمال التفخيم حينما هادن صاحب « برشلونة » الإسباني سنة ٦٩٢ هـ . فخلع عليه ألقاب : « الملك ، الجليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخم ، المبجل . . . »[٣] .

* * *

وكانت المعاهدات قبل تدوين الدواوين تكتب في مشهد من الطرفين المتعاقدين ، فيملي المملي ، ويكتب الكاتب ، ويمضي المتعاقدان ، ويشهد الشهود ، ويجري ذلك كله في جلسة واحدة . كما حدث في صلح الحديبية بين النبي وقريش ، فقد كان النبي يملي ، وعلي بن أبي طالب يكتب ، وسهيل بن عمرو نائب قريش يعترض ، والشهود يشهدون ، فلما دونت الدواوين اختص بكتابة المعاهدات والمهادنات كبار الكتاب في الدولة ، ووضع لها من الشروط ، ورسوم الكتابة ، وقواعد العقد ، وصيغ التعبير ، وأصول التحرير ، ما جعلها صناعة . وجاز لنائب الخليفة أو القائد أن يمضيها نيابة عن منيبه . وجاز أن تحمل نسخة من المعاهدة إلى مقر الطرف الثاني مع الرسل والسفراء لإقرارها والتصديق عليها ، كما جدث بين المعتمد بن عباد ملك أشبيلية بالأندلس ، وألفنس السادس ملك قشتالة في القرن الحادي عشر الميلادي . فقد بعث المعتمد سفيره ابن عمار ، وكان حاذقاً في السياسة ، إلى الملك ألفنس لينوب عنه في عقد معاهدة معه ليعاون ألفنس الأسباني ابن عباد العربي على خصومه من المسلمين نظير مبلغ كبير من المال يدفعه له ، وعلى أن لا يتعرض له في انقضاضه على إمارة طليطلة ، وقد نجح السفير العربي — ابن عمار —

(١) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣١ .
(٢) صبح الأعشى جـ١٤ ص ٤٠ .
(٣) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٦٣

وظفر من الملك ألفنس بخاتمين ثمينين لنجاحه في تنظيم المعاهدة [١] .

على أن هذه السفارة العربية الناجحة تقابلها سفارة بعث بها ألفنس السادس أيضاً إلى المعتمد ، وكان السفير فيها « ألبرهانس » Alvar Faney ومعه يهودي صيرفي ناقد ليميز الأموال التي تدفع إلى ملك قشتالة على سبيل الجزية من المسلمين [٢] .

ولم تخل المعاهدات الإسلامية من وقوع الإشهاد عليها وإثبات ذلك في ذيل المعاهدة أو الصلح ، وقد أشهد النبي على مصالحته مع قريش في صلح الحديبية رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين ، وكان من شهودها أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وعلي بن أبي طالب الذي جمع بين تحرير الوثيقة والشهادة عليها [٣] .

وشهد على صلح بابليون الزبير بن العوام ، وابناه عبد الله ومحمد ، وكتبه وردان [٤] . كما شهد كثير من الصحابة على مصالحات الشام وفارس . أما صلح بعلبك الذي عقده القائد أبو عبيدة عامر بن الجراح مع أهلها فلم يشهد عليه أحداً ، واكتفى في نهاية الوثيقة بقوله : شهد الله وكفى بالله شهيداً [٥] .

وكان المسلمون أحرص الناس على حفظ عهودهم والوفاء بها ، وهو حرص أكدته الشريعة وأوجبه الإسلام . ومن هنا شهدنا في تاريخ المعاهدات الإسلامية حرصاً شديداً على الوفاء بنصوصها والقيام بتعهداتها ، لقوله تعالى : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً » وقوله: «وأوفوا بعهدالله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها» .

ولا يجيز الإسلام نقض المعاهدات إلا إذا خاف من الطرف الآخر خيانة أو رأى نقضاً . فإذا بدت الخيانة وجب على المسلمين النبذ والإعلام بذلك لقوله تعالى : « وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لايحب الخائنين » .

وإذا نقض الطرف الآخر فواجب المسلمين أن ينقضوا ، كما حدث بعد صلح الحديبية . فقد صالح النبي قريشاً وصالحوه على أن يضعوا الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، ودخلت خزاعة في عهد الرسول عليه السلام ، ودخلت « بنو بكر » في عهد قريش ، ولكن بني بكر عدت على خزاعة ونقضوا

---

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين للمؤرخ الألماني يوسف أشباخ ، وترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان – ص ٦٠ – ج ١ . (٢) المصدر السابق ص ٧٨ . (٣) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٦٨ . (٤) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٢٢٩ . (٥) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣٦ الطبعة الأولى للموسوعات .

عهدهم ، فندمت قريش على ما فعلت ، وخرج أبو سفيان إلى المدينة ليستديم العقد ويزيد في الصلح ، فرجع بغير حاجة ، وتجهز النبي لفتح مكة ، ففتحها في العام الثامن من الهجرة[١]. ولما نقضت بنو قريظة من اليهود عهدها الذي أمضاه كعب بن أسد نائبهم مع النبي حل قتالهم ، على الرغم مما كان عليه المسلمون من نصب بعد طول حصار قريش وغطفان لهم [٢] .

ولما نقض أهل فارس عهدهم مع المسلمين في سنة تسع وعشرين سار إليهم عبيد الله بن معمر ليقاتلهم [٣] ، وكذلك فعل معاوية في سنة ٣٣ هـ مع أهل قبرص حين نقضوا عهدهم مع العرب وأعانوا الروم على الغزو في بحر الروم بمراكب لهم ، ففتح الجزيرة عنوة وقتل وسبى من أهلها كثيراً [٤] .

وكان المسلمون في معاهداتهم ومهادناتهم يؤمنون غيرهم على أنفسهم ومللهم وأموالهم وأرضهم ، فلا يغيّرون عن ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم .[٥]

وقد جهد المسلمون أن يحتفظوا في معاهداتهم بقوتهم المادية وعزتهم الأدبية ، فمن سبّ مسلماً أو استخف به نُهِكَ عقوبة ، فحفظوا بذلك حق أنفسهم وحق غيرهم ، وتلك قصارى الأقوياء الكرماء حين يحكمون ، وغاية المنتصرين الرحماء حين يكتبون الشروط أو يملون . . .

محمد عبد الغنى حسن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي – جـ ٨ ص ٦٥ ، ٦٦ . (٢) حياة محمد ص ٣٢٨ . (٣) الفتوحات الإسلامية لابن دحلان ص ٣٢٣ . (٤) المصدر السابق ص ٢١٩ . (٥) تاريخ الطبري جـ ٤ ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦

قصة المضايق

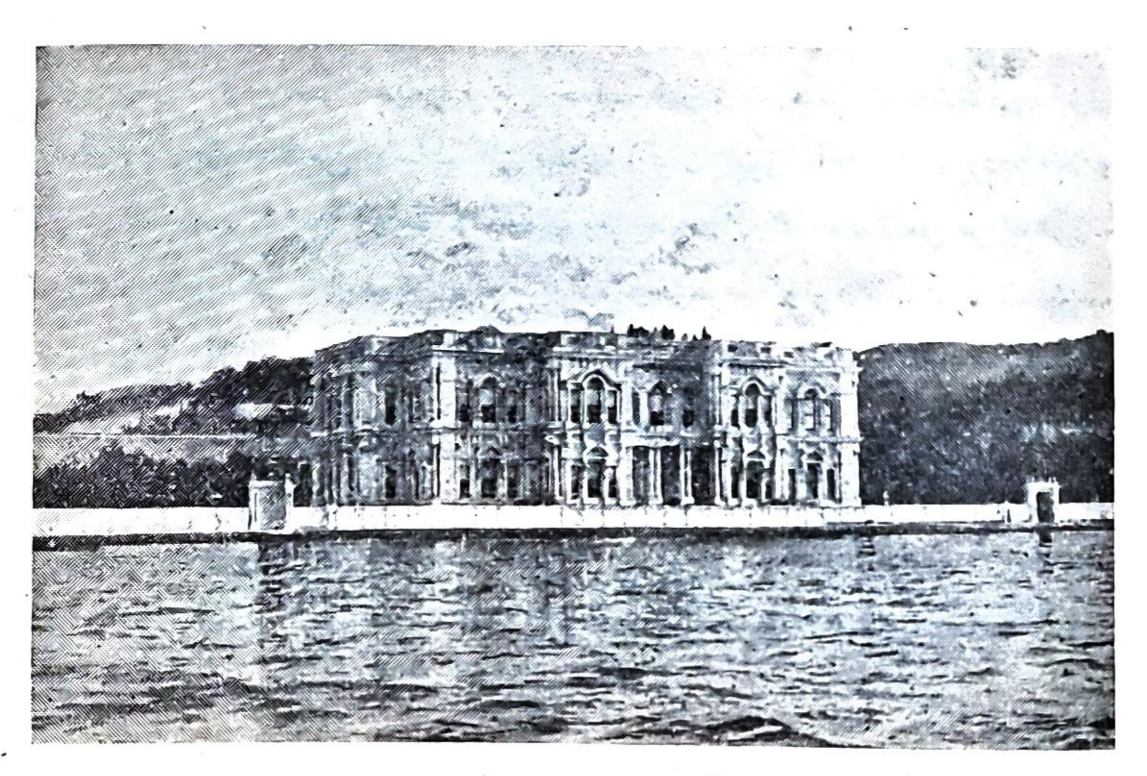
للبكباشي عبد الرحمن زكي

حين نذكر قصة المضايق ، لا ريب يرتسم في الأذهان توًّا « المضايق التركية » التي ما انفكت مثاراً للمطامع ، ومحكًّا للأهواء . . . وهي قصة قديمة طال عليها العهد . توقظ حيناً ، وتسجّى حيناً آخر . . حسبما توحي به الظروف المتباينة .

أجل ! تدور حول هذه المضايق أحداث كبار ، منذ سكن شواطئها اليونانيون القدامى . بل إن هناك من الأساطير التي نسجها الخيال العتيق ، ما لايزال يردده طلاب التاريخ القديم . . تاريخ الإغريق والرومان وما تحتويه آثارهم الخالدة على مر الدهور ، مدن بادت ، ولكن ذكرها باق . . طروادة وخزكوس وردانا . . حيث نشبت معارك دامية في البر والبحر ، عمادها رجال أثينا وإسبرطة وسكان المستعمرات الإغريقية في « فريجيا مينور » . . كل منهم يبغي السيطرة على مياه تلك المضايق ، وتضمحل خزكوس لتحل محلها بيزنطيوم ، وتصبح وحدها سيدة الموقع الجميل . في تلك الأيام القديمة كان بحر مرمرة « محيطاً » يمرح على مياهه القراصنة ، لا ينازعهم منازع ، فإذا أسدل الليل ستاره ألقى البيزنطيون السلاسل الحديدية الغليظة حول مينائهم في مياه القرن الذهبي لوقاية سفنهم التجارية من عبث هؤلاء وسطوتهم .

وما إن علت قلاع المراكب واشتدت سواعد بحارتها وكثر عددهم حتى تقلصت أهمية ، مرمرة وطفق القرصان يجدون في البحث عن أوكار أخر ، وبدأت تزدهر التجارة ويعمّ الأمن والطمأنينة بين شعوب جمهوريات بحري إيجة والمتوسط الناشئة ، ثم تغلب روح الاستعمار على حكام رومة ، فيدفعون شعبهم إلى التسلط والسيادة ، فيتغلبون على بزنطيوم (١٩٤ م) ويطلقون عليها أنطونيا ، وما يلبثون أن يبدلوا اسمها باسم آخر هو « نوفا رومة » (٣٣٠ م) وتصبح عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وتنطوي ضلوعها على نصف مليون نسمة . وإذا كان الإمبراطور قسطنطين قد استبدل اسمها باسمه رمزاً للقوة ، فإن القسطنطينية لم يك لها من السلطان والجاه ما تهيمن به علي مياه مرمرة وتبسط سيادتها على سفائنه .

ولما اضمحلت طروادة ودردانوس وخزكوس ، انطلقت جحافل الفرس يغيرون على الساحل الأوربي ، ويحاولون عبور الدردنيل ، أو مضيق «هلسبونت» كما كان يعرف إذ ذاك ، فكانوا أحياناً ينالون الظفر ، وأحياناً يغلبون على أمرهم ، ويرتدون على أعقابهم خائبين ، ولم يستطع — في ذلك الحين — رجال بيزنطيوم نجدة رجالهم وغوثهم ، لبعد المسافة بينهم وبين « هلسبونت » . حدث ذلك في أيام لم تعرف بعد الطائرات الشراعية ، أو المغاوير (رجال الـكومندو) — وأمام تلك الغزوات التي كان يشنها رجال فارس تعلم الإغريق والبيزنطيون درساً عمليًّا أفادهم ليردوا عنهم العدوان الأسيوي ، فشيّدوا حول مدينتهم الرائعة في حسن الذوق ، وجمال التخطيط



قصر بيلر بى أحد القصور الرائعة الجمال التي تطل على البسفور

أسواراً تقيهم ، وبنوا أبراجاً وقلاعاً وحصوناً هنا وهناك على سواحل بلادهم ، فاحتموا خلفها حيناً من الدهر ، إلى أن سلط الله عليهم من أوردهم موارد الهزيمة ، حين فشلوا في الدفاع عن تلك الأسوار وعن أنفسهم .

وقد بذل الأباطرة البيزنطيون كل ما في وسعهم ليجعلوا من هذه المضايق أرضاً إقليمية ، ونجحوا في ذلك أيما نجاح ، طالما كان في ميسورهم حماية سواحلهم المطلة على تلك المضايق بمختلف أساليب الدفاع المعروفة وقتها : سواحل تمتد على جانبي الدردنيل ومرمرة والبسفور ، ولا مشاحة في أنها كانت مهمة شاقة تثقل كواهلهم ،

نظراً لأن الوسائل لم تك تامة الإحكام، فضلاً عن أنه لم يك في مكنتهم سد المضايق و إغلاقها كما يرغبون .

وحاول العرب في مستهل توسعهم عدة محاولات ضايقت أهل بيزنطيوم، وحاول من بعدهم الروس (٨٦٠ — ١٠٤٨ م) بيد أنهم لم يفوزوا بطائل . وإزاء هذا العدوان نمت الحصون، وتضخمت الأسوار، وارتفعت الأبراج، وتكاثرت المزاغل، وتضاعف — نسبياً — عدد المسالح، ثم أتيح للصليبيين في عام ١٢٠٣ أن يزحفوا نحوها براً، واستولوا عليها ومثّلوا بأهلها شر تمثيل، وكان من جراء مسلكهم هذا أن انحط عدد سكان بيزنطيوم — خلال إقامتهم — إلى مائة ألف .

وأخيراً هبت القبائل الطورانية تحت قيادة زعيمها ووحدت شملها، وانتهى بها الأمر إلى أن تقف على مياه مرمرة تتحين اللحظة الحاسمة ونجحت بعض قوات العثمانيين في التسرب إلى البر، وراحت تستولي على ولاية بعد ولاية ومدينة إثر مدينة، وبيزنطيوم قابعة وراء أسوارها تدافع، وترد عنها آل عثمان .

وفي النهاية تقع المعركة الحاسمة، إذ يضطلع محمد الفاتح بحصار القسطنطينية في عام ١٤٥٣، ويتغلب برجاله البواسل ومدفعيته الضخمة على البيزنطيين، وفي إثرهم بعض البنادقة وأهل جنوة الذين كانوا قد استولوا على غاليبولي وما وراءها خلال انهيار بيزنطة، ومنحوا بأمر الإمبراطور بعض الامتيازات .

وما إن استتبت الأحوال للعثمانيين حتى جردوا الجميع من تلك الامتيازات، وذهبوا يحصنون أسوار القسطنطينية، بعد ما أصابها من التلف والدمار، ويقيمون القلاع على سواحلهم الجديدة الممتدة من البوسفور إلى نهاية الدردنيل، وما زالت آثار تلك الأسوار والقلاع باقية إلى اليوم حول إسطنبول وسد البحر وجناق وخلد البحر والفنار بمدافعها النحاسية القديمة، كما وضعها الوزير الجندي كوبريلك، وقد أدت واجبها بجانب المدافع الساحلية الحديثة، وتنتظر تأدية واجبها في أي وقت .

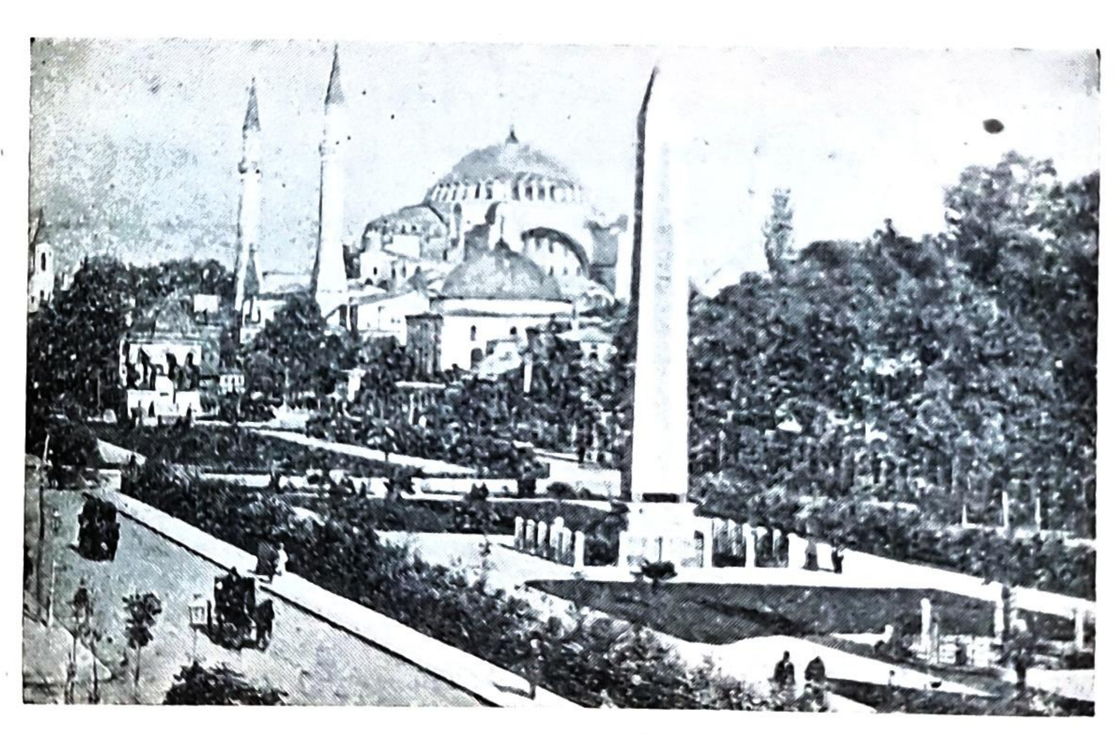
ومذ وطئت أقدام العثمانيين تلك البقاع أغلقوا منافذها عمن عداهم، وأصبحوا سادة المواقع، يفتحونها لمن شاؤوا ويغلقونها في وجه من شاؤوا .

ونهضت روسيا نهضتها المعروفة أيام بطرس الأكبر، الذي جعل شعاره هذه العبارة التاريخية « ينبغي إيجاد نوافذ لروسيا تستطيع بها التنفس » . فطمحت نفسه للاستيلاء على منفذ يطل على بحر العالم، بل اشتهت الإستانة ذاتها ! وقد أطلق عليها الروس حينذاك زاريجراد (مدينة القيصر) . وتوسل الروسيون بشتى الوسائل والدعاية

لتبرير موقفهم ، ألم تكن القسطنطينية مهد الكنيسة الأرثوذكسية ، وروسيا حامية هذه الكنيسة وراعيتها ؟ ! فلماذا لا تكون الإستانة روسية لكي تحمي رعايا هذا المذهب ، وجامع أياصوفيا كان في سالف ماضيه معقلا أرثوذكسيًّا ؟ !

ونشبت الدسائس والحروب في القرن الثامن عشر بين الدولتين ، إلا أن روسيا كانت تبوء بالخيبة ، وظلت المضايق ثلاثة قرون لا تعكر مياهها سفن حربية أجنبية .

وتاريخ المضايق خلال القرن الثامن عشر حافل بشتى المعارك بين الدولتين : تركيا وروسيا ، فقد تمسكت الملكة كترين الثانية بشعار سلفها بطرس ، وفي سبيل ذلك قامت بتعزيز سواحل القرم وأكرانيا وتشييد ميناء أودسا ، كما استولت على القرم ، ثم فتحت قواتها القوقاز وضمته إلى أراضيها في عام ١٨٠٣ ، بينما كانت الإمبراطورية التركية تعاني أسباب الضعف وبداية الانهيار .



مسجد السلطان أحمد بمآذنه الأربع الرشيقة يطل على الميدان (الهيبد روم) الذي يعد من أجمل ميادين إسطنبول وتتوسطه مسلة مصرية

ولكن أنى لروسيا والبحرية الإنجليزية واقفة لها بالمرصاد تعاونها بحرية فرنسا ... فعمدت حكومة القيصر إلى إثارة دويلات البلقان ، وهي في ظلال السيادة العثمانية ، واستهلت عملها بأن أثارت الصربيين والبلغاريين والرومانيين واليونانيين للخروج عن طاعة السلطان .

ونحن إذا استعرضنا تاريخ تركيا خلال القرن التاسع عشر وجدناه نضالاً مستمرًّا

بينها وبين الروس ، لا تخلو أعوامه من المعارك والفتن والثورات ، تلك المعاول القاسية التي كانت تهدم كيان الإمبراطورية الأسيوية الأوربية ، ولعله من الصعوبة بمكان أن نتصور كيف استطاعت هذه الدولة طيلة تلك السنين مقاومة هذا العدو الجبار .

ففي عام ١٨٠٦ تدفع روسيا بالصرب للثورة ضد العثمانيين ، ويباد جيش تركي بأكمله ، وعقب بضعة أعوام تحقق مأربها ، ويعترف السلطان بإدخال الصرب في نطاق النفوذ الروسي ، كما اعترفت إنجلترا وفرنسا بالقيصر الروسي حامياً للكنيسة الأرثوذكسية .

وفي خلال حرب الاستقلال اليونانية ــ وقد ساهمت فيها الجيوش المصرية بنصيب حافل من الانتصارات ــ تنتهز روسيا الفرصة وتستولي على أدرنة ، بل هددت جيوشها الإستانة .. فيوقع السلطان اتفاقية أدرنة التي أصبح لروسيا بمقتضاها الحق في عبور البوسفور من منفذيه ، وظلت تنتفع بهذا الاتفاق حتى عام ١٨٣٩ ، لما أرسل مترنيخ مذكرة شديدة اللهجة إلى قيصر روسيا للتخلي عن نفوذه على تركيا ، الشيء الذي تم تنفيذه في اتفاقية مؤتمر لندن (عام ١٨٤٠) التي بموجبها منعت السفن الحربية من دخول المضايق ، وأقفلت في وجه الأسطول الروسي .

ولم تقف روسيا مكتوفة اليدين أمام هذا التحدي . . فاستمر أصبعها يلعب في البلقان إلى أن اشتعلت حرب القرم (١٨٥٤) وأفضت إلى انتصار جيوش الأتراك والإنجليز والفرنسيين على الروس . ومما يذكر في هذا السياق مساهمة الجيوش المصرية في تلك الحرب بمعاونة الحلفاء خير معاونة .

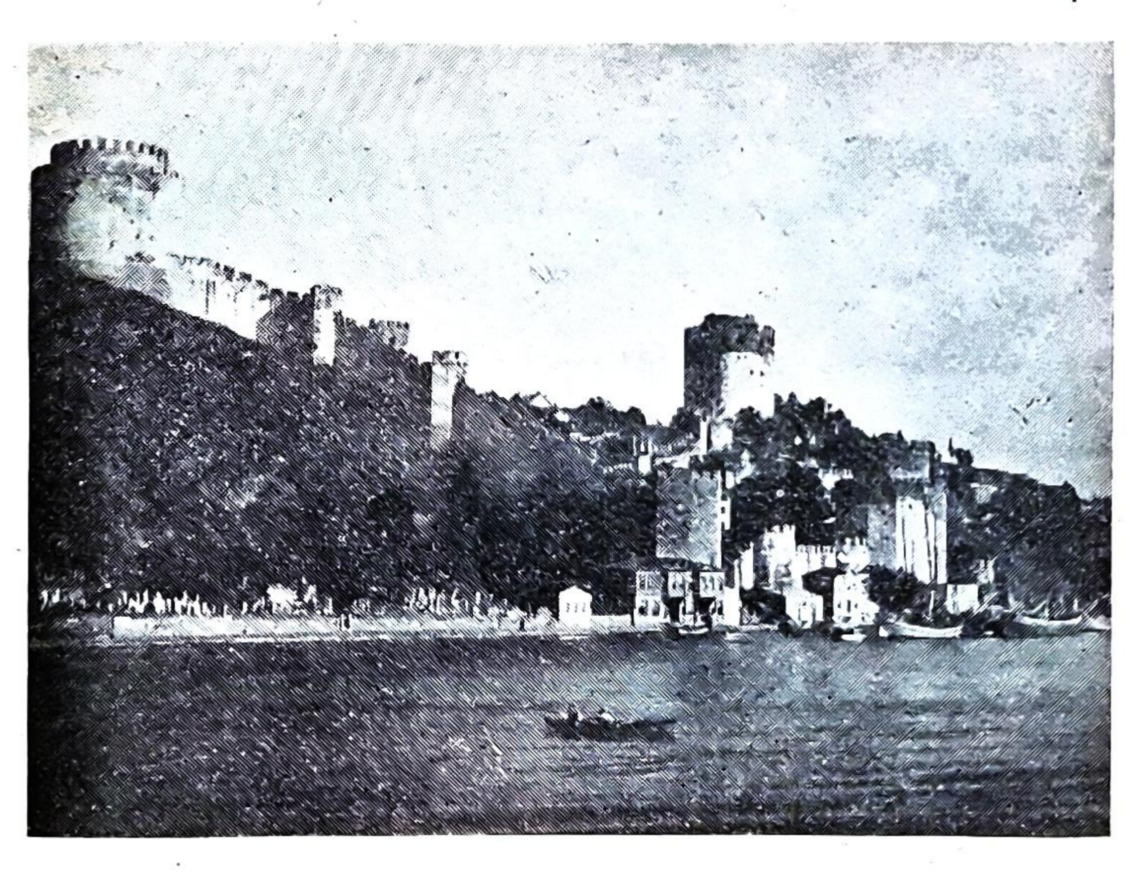
ورغماً عن هذه الهزيمة فلم تيأس روسيا ، ومثلها في ذلك مثل الملاكم الذي يتلقى سيلا من الضربات وهو مع هذا يحاول ــ خلال صموده ــ أن ينال من خصمه بلكمة قاضية ترد إليه اعتباره ، فوقفت لعدوتها التقليدية تركيا بالمرصاد ، إلى أن أعلنت الحرب عام ١٨٧٧م ، وألبت عليها دول البلقان ، وكان النجاح حليفها هذه المرة ، فكسبت نفوذاً وسطوة في شرقي أوربا ، وإن لم تنجح في بلوغ هدفها الأساسي ــ الإستانة .

ونعتقد أنه منذ هذه الحرب ، أصبحت المضايق مسألة أوربية حيوية . . ترنو إليها إنجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا نظرة واحدة ، بيد أن شيئاً واحداً كسبته تركيا ، وهو أن يكون لها السيطرة المطلقة على المضايق لأن مياهها إقليمية ، وهي حرة في اتباع ما تراه لتحصينها والدفاع عنها ، وفي فتحها أو غلقها ، على حسب مشيئتها ، ولم يك هذا الرأي ليرضي روسيا ، لأنها ترى أن تجعل المضايق تحت سيطرتها ، أو تكون

مشتركة مع تركيا في الدفاع عنها ، فإن لم تصل إلى تحقيق إحدى الوسيلتين ، فلتكن دولية . . !

✡✡✡

وهدأت مسألة المضايق نوعاً ، إلى قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وهنا لجأت إنجلترا وفرنسا — رغبة في استبقاء روسيا في صفها لمحاربة الألمان — إلى عقد اتفاق سري في لندن بين الدول الثلاث ، نُصَّ فيه على أن تكون الإستانة والمضايق عقب انتهاء الحرب من نصيب روسيا ، بشرط أن يستولي الإنجليز على جزيرتي تندوس وأمبروس ، الواقعتين عند مدخل الدردنيل في بحر إيجة ، ولكن لم يتحقق هذا الحلم الذهبي لنشوب الثورة البلشفية في روسيا وخروجها من الحرب قبل نهايتها .



قلعة روملي حصار المنيعة بأبراجها وأسوارها تحمي الآستانة
منذ شيدها محمد الفاتح على ضفاف البسفور

وشاءت الحوادث أن لا ترغم إنجلترا على الخروج عن تقاليدها الموروثة — هذه التقاليد التي تعني أن وجود أسطول روسي في البحر المتوسط خطر عظيم على قناة السويس وإمبراطوريتها في الهند .

وفي معاهدة سيفر ، التي عقدت بين تركيا والحلفاء في سنة ١٩٢٠ ، اضطرت

تركيا إلى قبول ما فرض عليها ، فرفعت سلطتها عن المضايق ، وجعلت إسطنبول بمثابة مدينة دولية ، وتنازلت هذه الدولة عن جميع الولايات غير التركية ، بينما قسمت ذاتها إلى مناطق نفوذ بين الدول المنتصرة .

بيد أنه لم يقدر لهذه المعاهدة التنفيذ ، إذ لم يمض عليها حولان حتى كانت الحركة الوطنية الكمالية قد فازت فوزاً مبيناً ، وانهزم اليونانيون في آسيا الصغرى ، واضطر الحلفاء إلى التسليم بالأمر الواقع ، فانسحبوا من الإستانة وسائر المناطق المحتلة ، وانطلقت تركيا بزعامة مصطفى كمال إلى استعادة مكانتها المفقودة .

المضايق في مؤتمر لوزان

وعلى هذا اضطر الحلفاء لإعادة النظر في الصلح مع تركيا ، فعقد في لوزان (في ٢٠ نوفمبر ١٩٢٢) مؤتمر ضم دول الحلفاء من جهة وتركيا من جهة أخرى ، وكان يمثلها القائد عصمت باشا ، وفي هذا المؤتمر اعترف باستقلال تركيا وإلغاء القيود التي فرضتها معاهدة سيفر على الجيش والبحرية ، كما ألغيت المراقبة على المالية التركية ، وفازت تركيا بإلغاء الامتيازات الأجنبية . . . . ؟ إلخ .

وفيما يختص بالمضايق فقد كان ممثل روسيا « شيشرين » وزير خارجيتها أقوى نصير لتركيا ضد الحلفاء وضد إنجلترا — فقد جاءت هذه بنظرية جديدة خالفت فيها نظريتها التقليدية الخاصة بالمضايق ، وتمسكت بحرية البحار وحرية الملاحة لجميع الدول ، وبموجب هذا الرأي رأت أن تترك تركيا المضايق حرة ، فلا تنشيء فيها قواعد بحرية أو جوية ، ولا تبني على سواحلها حصوناً أو قلاعاً تقيم فيها مسلحات أو مطارات ، ولا ترسي بمياهها سفناً مسلحة ولا تبث ألغاماً تعوق الملاحة في السلم أو في الحرب .

واعترضت روسيا وتركيا في بادىء الأمر على هذه الاتفاقية الجديدة ، لأنها لم تكن في صالح تركيا ولا روسيا ، إلا أن الأولى ما لبثت أن رضخت مقابل ما استعاضته من مزايا إقليمية أخرى . وأخيراً لم تجد روسيا بداً من الانضمام إلى الاتفاقية (٤ أغسطس ١٩٢٣) .

وفي طليعة ما نصت عليه معاهدة لوزان حرية الملاحة في المضايق لجميع الدول ، كما قررت حيدة غاليبولي وجزيرتي تندوس وأمبروس (تركيا) ومعظم جزر بحر مرمرة وضفتي البوسفور إلى مدى عشرة أميال من الداخل ، ورخص لتركيا بتحصين إسطنبول وإبقاء حامية قوتها ١٢,٠٠٠ جندي .

اتفاقية مونترو (٢٠ يوليو ١٩٣٦)

ظلت حالة المضايق على أساس ما أقرته اتفاقية لوزان إلى صيف عام ١٩٣٦ — لما طفق الجو الأوربي يكفهر بالحوادث ، وبدأت ألمانيا تتملص من قيود معاهدة فرساي ولوكرنو . . فدعت الدول التي وقعت معاهدة لوزان إلى عقد مؤتمر في مونترو لإعادة النظر في حالة المضايق على ضوء الأحداث الجديدة في أوربا عقب الحرب الإسبانية الأهلية وحرب الحبشة واحتلال الألمان منطقة الرين وتحصينها .

وقد أبلت الصحافة التركية بلاء حسناً في عرض طلباتها واضحة ، وقد كانت وجهة نظرها سليمة للغاية ، فالمضايق هي قبل كل شيء جزء من الأراضي التركية (المياه الإقليمية) — كقناة السويس التي تشق الأراضي المصرية ، وكقناة كيل الألمانية — والأتراك هم أصحاب المضايق والمدافعون عنها وحراسها ، وهم أحرار في تحصينها دفاعاً عن بلادهم .

عقد المؤتمر في الحادي والعشرين من شهر يونية ، حيث تجدد النضال القديم بين روسيا وبريطانيا ، وبعد جدال طويل ، أشرف المؤتمر في خلاله على الحبوط ، تم اتفاق جديد ، استردت الحكومة التركية بمقتضاه سيادتها الكاملة على المضايق وحقها التام في تحصينها ، وتقرر إلغاء اللجنة الدولية التي كانت تشرف عليها ابتداء من أول أكتوبر سنة ١٩٣٦ .

ولعل أهم مايتضمنه الاتفاق هو :

١ — حرية الملاحة التجارية في المضايق وقت السلم .

٢ — لايسمح بالمرور في المضايق للسفن الحربية التي تزيد حمولتها على ١٠,٠٠٠ طن ولا الغواصات ولا حاملات الطائرات — أما ما عدا ذلك من السفن فيسمح لها بالمرور في النهار فحسب .

٣ — وفي وقت الحرب — إذا ظلت تركيا على الحياد — لايسمح لسفن الدول المتحاربة بالمرور في المضايق ، إلا إذا كان ذلك طبقاً لقرار صادر من جامعة الأمم ، أو كان تنفيذاً لمعاهدة تحالف وتعاون تدخل تركيا فيها طرفاً ، بشرط أن تكون هذه المعاهدة قد أعلنت وأودعت في جنيف .

٤ — أما إذا كانت تركيا محاربة فإن المضايق تغلق في وجه الملاحة التجارية الخاصة بالدول المعادية ، أو سفن الدول المحاربة التي تحمل رجالاً أو مؤناً لإمداد العدو، وبوجه عام يترك الأمر لتركيا في هذه الحالة . . فإما أن تسمح أو ترفض ، ولتركيا

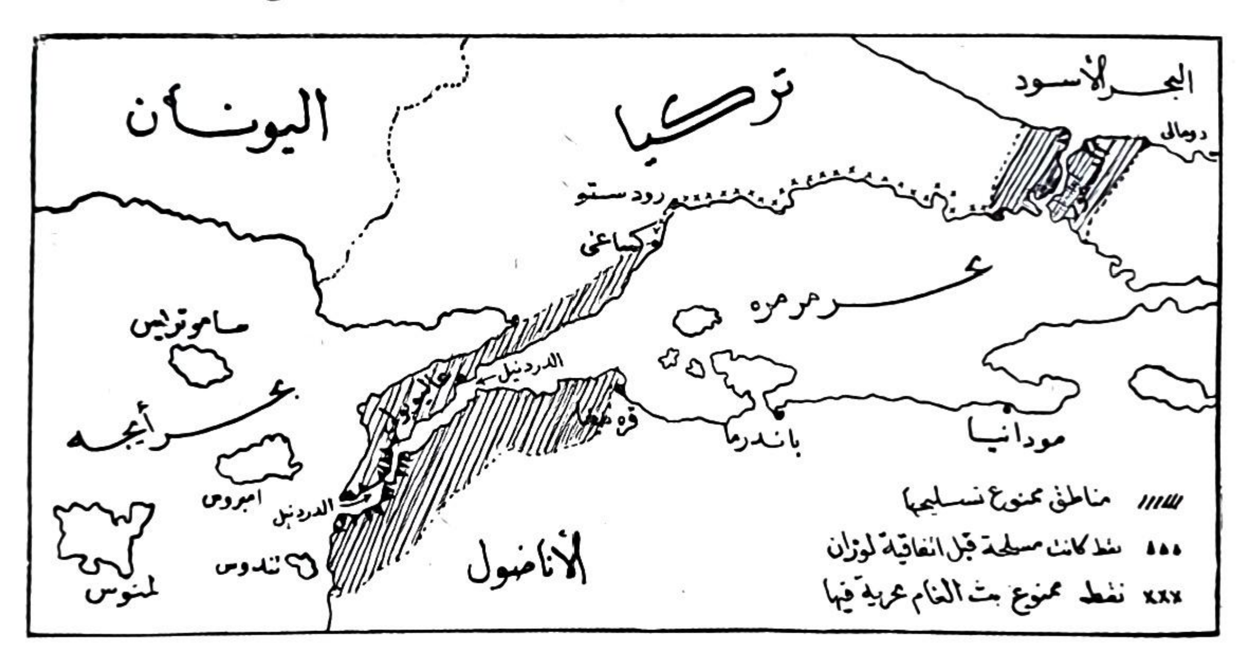
أن تتبع القاعدة نفسها وقت السلم في حالة ما إذا شعرت بأنها مهددة بالحرب .

ومدى الاتفاقية عشرون سنة ، ويجوز لإحدى الدول التي وقعتها أن تلغيها بعد انقضاء خمسة أعوام على إعلانها ذلك .

وهكذا سجلت الدول في هذه الاتفاقية اعترافها بحقوق تركيا في المضايق .

وفي سبتمبر سنة ١٩٣٩ نشبت الحرب العالمية الثانية ولزمت تركيا الحياد الدقيق ، واستطاعت أن تسلم بنفسها ، على أن جيشها كان معداً لنزول الميدان ، ولكن انتهت الحرب بدون أن تشتبك على مياه المضايق أساطيل القتال ، ولم تحاول سفينة حربية واحدة عبور أحد منفذيها ، فكانت تركيا حقاً الحارس الأمين الجبار .

وبانتهاء تلك الحرب عام ١٩٤٥ قفزت صحافة السوفييت بإيعاز من حكومتها تطالب تركيا بإعادة النظر في معاهدة منترو ، والمطالبة باشتراكها في الدفاع عن المضايق ،



ولزمت تركيا الهدوء ، فلم تتأثر بتلك الدعاية ولم تعبأ بها ، وظلت متمسكة بنصوص ميثاق ١٩٣٦ .

وفي ٨ أغسطس عام ١٩٤٦ قدمت حكومة السوفييت مذكرة تتضمن مقترحاتها إلى كل دولة من الدول التي وقعت معاهدة مونترو — ومنها تركيا طبعاً — وقد تضمنت هذه المذكرة تعديلا أساسياً للميثاق .

وأهم ما اشتملت عليه المذكرة النظام الجديد الذي تقترحه روسيا ، وهو :

١ — تظل المضايق مفتوحة باستمرار لمرور السفن التجارية التابعة لكل دولة من الدول .

٢ — تظل المضايق مفتوحة لمرور السفن الحربية التابعة لدول البحر الأسود: روسيا، ورومانيا وبلغاريا وتركيا.

٣ — لا تستطيع السفن الحربية التابعة للدول الأخرى المرور في المضايق إلا في حالات خاصة ينص عليها في الاتفاق.

٤ — إنشاء نظام للمضايق، باعتبارها الطرق البحرية الوحيدة لدخول البحر الأسود والخروج منه، ويجب أن تكون من اختصاص تركيا ودول البحر الأسود الأخرى.

٥ — تقوم تركيا وروسيا باعتبارهما أكثر الدول اهتماماً بحالة المضايق لتحول دون استخدام دولة من الدول إياها بغية الاعتداء على دول البحر الأسود.

وجاء في المذكرة أن حوادث الحرب الأخيرة دلت دلالة ظاهرة على أن نظام المضايق طبقاً لقرارات مونترو لا يكفل سلامة دول البحر الأسود، ولا يحول دون استخدام المضايق للاعتداء على هذه الدول.

وقد يكون أهم ما اشتملت عليه هذه المذكرة مطالبة روسيا بمنحها قواعد بحرية وبرية وجوية على الدردنيل مساحتها ٩٠٠ فدان، وتخويلها حق إنشاء مطار، مشترطة أن لا يكون عدد القوات محدوداً، وأن يقفل البحر الأسود في وجه سفن الدول غير الواقعة عليه، على أن تؤيد روسيا في مقابل ذلك استقلال تركيا، وتضمن لها حقها في الدفاع المشترك عن المضايق.

وهكذا نرى روسيا تعود إلى نفس سياستها القيصرية القديمة، التي ما برحت تتعلق بها في القرن التاسع عشر وترنو إلى تحقيقها.

وبعد أيام من تسلم الحكومة التركية هذه المذكرة ودراستها أصدر السيد رجب بكر، رئيس وزرائها، بياناً هاماً جاء فيه:

فيما يتعلق بالمذكرة الروسية سندافع عن سلامة أراضينا وسيادتنا القومية، والتحالف مع إنجلترا أساس السياسة الخارجية التركية، كذلك سنرعى ما بيننا وبين الولايات المتحدة من علاقات خاصة.

ثم تكلم عن مركز تركيا في هيئة الأمم المتحدة وعلاقتها بالدول العربية وصلتها باليونان، واشترطت لتعديل الاتفاقية أن لا يمس ذلك استقلالها وأمنها.

رفضت تركيا مطالب روسيا في المضايق رفضاً باتاً، وكانت متفقة في ذلك مع حكومتي لندن وواشنطون.

ويهمنا في هذا المقام أن نقف على رأي حكومة الولايات المتحدة الأميركية ، وهي عنصر جديد في سياسة المضايق التركية أو في الشرق الأدنى .

احتوت المذكرة الأميركية على أربع نقط أساسية :

أولها — عدم موافقة الولايات المتحدة على اقتراح روسيا الخاص بدفاع مشترك روسي تركي عن المضايق .

ثانيها — عدم موافقة الولايات المتحدة على اقتراح روسيا بأن يكون الإشراف على المضايق بموجب اتفاق يعقد بين الدول الواقعة على البحر الأسود لا غير .

ثالثها — رغبة الولايات المتحدة في أن تسوى المسائل المشتركة وفقاً لميثاق هيئة الأمم المتحدة .

رابعها — يسر الولايات المتحدة أن تشهد أي مؤتمر دولي يمكن عقده لتعديل الإشراف على المضايق . وتطابق هذه الاقتراحات رأي الحكومة البريطانية ، على نحو ما جاءت به الأنباء ، وهكذا وقفت الدول الثلاث ، أميركا وبريطانيا وتركيا ، موقفاً حازماً تجاه مطالب روسيا القديمة والجديدة في المضايق ، ولا يدري إلا علام الغيوب ما تخبئه الأقدار في آفاقها .

عبد الرحمن زكي



الفتاة الشهيدة

إلى التي رأت نفسها في وطنها « تلك الشريدة الطريدة التي
لا وطن لها ! »

للسيدة بنت الشاطىء

في اليوم التاسع عشر من أكتوبر عام ١٩٤١ ، أغمضت فتاة عينيها في مصحة هادئة ، بضاحية «المعادي» الجميلة الحالمة ، ونامت في سكون بعد أن ألح عليها السهاد ثم مد الزمن يده فأسدل الستار على قصتها ، وكانت قصة استشهاد مر طويل !

***

نعاها الناعون هنا وهناك : في مصر ولبنان ، وفي كل مكان من الشرق العربي ، فاهتز وطنها الكبير حزناً وأسى ، واتشحت المنابر بالسواد حداداً عليها . وحملت إلى مرقدها الأخير تحف بها آلهة الفنون ، وتزفها أغاريد الشعر ، وتسير من ورائها جموع الراثين والباكين ! من الفتاة ؟ ظن الجميع أنهم يشيعون « مي » الأديبة النابغة والكاتبة النابهة ، والخطيبة التي تاهت بها أعواد المنابر ، ولكنهم كانوا في ظنهم هذا خاطئين ، فما ماتت « مي » ولن تموت . . . لقد انضمت إلى موكب الخالدين . أما التي سجل اسمها في كتاب الموتى في ذلك اليوم ، ففتاة أخرى لم يعرفوها . . . فتاة عاشت أعواماً مغمورة مجهولة ، تئن فلا يكترث لها أحد ، وتبكي فلا تجفف دمعها يد ، وتشكو فلا يصغي إلى شكواها إنسان . . . إنها « ماري إلياس زيادة » ... وأي الناس قد عرف « ماري » تلك أو اهتز لها

أي الناس قد تألم لها ورثى لبلواها وهي تعيش في وطنها « غريبة لا وطن لها » .

أي الناس قد أحسّ محنتها وهي تحيا في عزلة مرهقة ، وسط جموع المعجبين ؟

لا أحد . . . لقد رآها الناس في هالة من الأضواء ، فلم يلمحوا وراء إهاب الكاتبة النابهة ، شبح « المخلوقة » التي تتألم ، وتتوجع ، وتتلوّى والناس من حولها يهتفون لها !

ضاعت إنسانية « مي » وتجوهلت ، وفنيت في غمار الشهرة ، وأنا اليوم أنضي عنها ثوب الكاتبة ، لأرى الإنسانة المتألمة ، الشاكية ، الضالة ، المحبة ، المحرومة . . .

٭٭٭

كانت حياتها كما قلت قصة استشهاد مر طويل . نشأت في أحضان لبنان ، ودرجت على سفوحه وذراه ، صبية ناعمة مدللة ، وخايلتها هناك رؤى الجمال في جنة المشرق ، وأطافت بها مواكب ساحرة من الأطياف والظلال الراقصة بين أشجار الأرز السامقات ، فنشأ معها في هذا المهد الجميل مزاج رقيق ، وحس مرهف ، ونفس ذواقة شاعرة .

٭٭٭

وجاء أبواها إلى مصر ولما يكتمل صباها ، فتفتحت عيناها هنا على مشاهد السحر في جنة الوادي ، وفتنها مرأى النيل تجري فيه السابحات بشراعها البيض ، وتنبسط على جانبيه الشطآن الخضر ، وتحف به نخل باسقات يتوج هاماتها أكاليل السعف والطلع النضيد ، وتقوم على حراسته أرواح الفراعين ، ملوكه الخالدين . .

راحت الصبية تنهل من هذا السحر مخدرة الحس مبهورة الأنفاس ، فلما زايلتها النشوة الأولى ألفت نفسها كياناً رقيقاً تعصف به أعصاب فائرة ، ويرهقه حس دقيق مرهف ، ويلهبه الانفعال العنيف بمشاهد الجمال . وبهذا الكيان الملتهب الحساس ، بدأت الفتاة خطواتها الأولى في الميدان . فاتجهت — شبه مسحورة — نحو عالم الفن والأدب ، يجذبها مزاج فني أرهفته رؤى الجمال في مصر ولبنان ، وتسوقها وراثة قاهرة ، أودعها أبوها في دمها قبل أن تولد . . اتجهت الفتاة نحو هذا الميدان . فألفت الطريق إليه معبداً . إذ كان أبوها يحرر « المحروسة » في ذلك الحين . .

ودفعها ما في طبيعتها من تطلع وامتياز إلى استكمال الثقافة العالية ، فعكفت على كتب الأدب والفلسفة تدرس وتطالع ، قد شغفتها المعرفة حباً ، وفتنها هذا البدع الجديد الطارىء على حياة الفتاة الشرقية ، وعانها ذكاؤها الفطري وأنوثتها الرقيقة ، وظروفها المواتية فوثبت إلى الطليعة ظافرة ، ومضت كالشعلة ، تضرب الأرض فتتلهب

وهنا تلألأ نجمها في الأفق المشرق ، وأصغى الناس مبهورين إلى آياتها الروائع في الفن والأدب . .

وهنا بدأت « الفتاة ماري » تنزوي وتختفي ، لتفسح المكان لشخصية جديدة هي « مي » الكاتبة الأديبة . . وهنا تبدأ المأساة . . احتفل عالم الفن بمولد النجم الجديد . . وأخذت الأيام والليالي تنسج كفن فتاة من البشر . .

ومضت أعوام . . وبلغت « مي » أقصى ما طمحت إليه من مجد أدبي . رأت الشهرة التي جنّ بها القوم ملء دنياها .. وأبصرت المال الذي فتن الناس ملء راحتيها . لكنها افتقدت في عالمها شيئاً آخر فآبت بالخيبة والحزن .

هذه « مي » الأديبة الظافرة تصل وتنال ، فأين « ماري » الإنسانة الفتاة ؟ !

لقد نسي الناس أن هناك مخلوقة تدعى « ماري إلياس زيادة » . ونسيتها مي كذلك في ضجيج السباق . فلما وصلت إلى قمة المجد الأدبي . شعرت فجأة بتلك « الفتاة » التي تنزوي وراء الستار مغمورة مجهولة . ولمحت « مي » بوادر المحنة ...

إن كل الذي ظفرت به « الأديبة » من أمجاد . لا يغني « الفتاة » عن حاجتها الطبيعية إلى الشريك القوي الأمين . ولا يروي حنينها الظامىء إلى البيت ، ولا يطفىء أشواقها الملتهبة إلى الأمومة . ولا يمتعها بشيء من « سعادة الأنثى » التي تحلم بها . .

هنا لك وقفت المسكينة تسطر الفصل الأول من مأساتها وتقول :

« وقفت عند كوة الحياة وإذا بالناس يمرون ... ثم أوحي إلي بأن هناك وجوداً غير ملموس يدعى السعادة . وشعرت باحتياج محروق إلى التمتع بها . ولما انتهى دور الوقوف في الكوة وجدتني بين الجماهير ووجهتي مرقص الحياة . جاهلة من ذا يسيرني ، فتناولني حينا دوار الاختلاط بالجمع الكبير . . . ولم يفتأ ذلك الوحي المعذب يهمس فيّ سورته ، وذلك الاحتياج المتوهج يضرم في ناره . ففهمت أمراً آخر . وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة . فهناك النزاع الأليم والاستشهاد ... وإذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على مضض الحروق والكروب ، فهناك مأساة تتجدد مع الأيام ! » .

هكذا شعرت « مي » بالاحتياج المتوهج يضرم ناره في « ماري » الفتاة ، فهل من سبيل إلى استدراك ما فات ؟ هيهات .. هيهات ! فما عاد هناك أحد يشعر بوجود « ماري إلياس زيادة » أو يكترث لها . .

كان هناك شخصان اثنان يعرفانها وهما أبواها ، لكن الموت اختطف الأب ثم الأم وبقيت الفتاة وحدها في تيه الحياة . غريبة . مهجورة . منبوذة .

كان الناس يظنونها سعيدة في غمرة المجد ، وكانت « هي » تقف في نافذتها ساهمة تحدق في الشمس الغاربة وتناجي نفسها قائلة :

« أي شمس تغيب فيك أيتها الفتاة ؟ ... ولماذا يشجيك المساء لتغشى عينيك هذه الكآبة الربداء ؟ .. لقد انتعشت جميع الأشياء ، أما أنت فتلوبين جائعة عطشى ، ووراء الملل والسآمة وهيج فيك واحتدام . أخبريني ما بك ؟ لماذا أراك ترقبين ماليس بالموجود ،

وتشتاقين ما ليس بالبادي ... وإذا تحولت عنك إلى مرآتي ، رأيت هناك وجهك مفجعاً حزيناً ... جميع الأشياء انتعشت ... وأنت ، أي علة تضنيك ، فتلوبين وتتأوهين ؟ .»

أجل أية علة تضنيك يافتاة ؟ إنه « الحرمان » يقضى به على إنسانة ذكية الفؤاد ، كبيرة القلب ، ملتهبة الحس .

إنه الحرمان المرعد ، تزيده الوحدة رعباً وهولا .

كانت ظامئة إلى الحب تمضي لياليها الطويلات عاكفة على نسج أحلام رائعة ، فإذا ولى الليل كشف نور الصبح عن زيف الوهم . وتشردت أحلامها ممزقة مبعثرة ، وألفت نفسها ضاربة في تيه الحياة ، تفتش عما لاتجد ، وتنادي من لايجيب ، وهنالك وقفت في ظلام التيه ومجاهل الآفاق ، ترفع صلاتها إلى «رجلها الغريب» وتردد نجواها في ضراعة وابتهال :

« أنت أيها الغريب ... سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأماني ، وأبثك شكوى أحزاني ، أنا التي تراني طيارة طروبا . . . وأحصي لك الأثقال التي قوست كتفي وحنت رأسي منذ فجر أيامي ، أنا التي أسير محفوفة بجناحين . متوجة بإكليل ! وسأطلعك على ضعفي واحتياجي . . أنا التي تتخيل في قوة الأبطال ومناعة الصناديد . ! » .

هذه صلاة الإنسانة المشردة المتعبة ، الضعيفة المحتاجة ، رفعتها إلى الغريب .
لكن الغريب لم يلب النداء ! ومضت المسكينة تكابد ، وتتجلد ، وتموت . . .

✡✡✡

وكانت جائعة مقرورة ، تلتمس دفء العيش ، وتشتاق الأمومة ، فلما عز عليها الري ، وأرهقها الجوع ، مضت فالتمست « عصفوراً » تخذته طفلا لها يغرد لكآبتها . ويناجي وحشتها ، ويغني لقلبها ، وينادم وحدتها .

لكن طائرها المغرد صمت ، فهلعت وارتاعت ، وصاحت ترثيه :

«مات الصغير الغريد . . . مات صغير حشاشتي . . صديق صغير غرد فأطربني ، وسكن في جواري فآنسني . ولما مزق قلبي العالم بشره وصغائره ، غنى طائري فأنساني قبح القباحة . . . هذه قيثارتي فقدت أحد أوتارها . . . فما أتعس القلوب الشديدة التأثر . وما أمر الجرح الصغير الذي يفتح جراحات كبيرات ! »

أجل يا مي .. ما أمر الجرح الصغير الذي يفتح جراحات كبيرات .

وتعالى من حول « مي » هتاف الهاتفين ، لكنها لم تسمع منه حرفا ، لقد كانت تصغي إلى « ماري » وهي تهتف في توجع ومرارة :

« سمعت طفلا يبكي فهلع قلبي فرقا . . . دنوت منه متوسلة ، وأجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء ، ورفعت شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنما تلمس شيئاً مقدساً . . . صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين يا أم الصغير ؟ عودي واركعي أمام الصغير واستميحيه عذرا ... تعالي فاسجدي أمام السرير ، سرير الصغير... اسجدى أمام هذا المهد الذي لعبت بين ستائره طفلة ، وحلمت به فتاة ، وانتظرته زوجة فما خجلت أن تهمليه أما ... اسجدي أمام المهد ، فإن المهد محجتك القصوى... »

* * *

وازدحم صالون « مي » بالمعجبين ، لكنها لم تعد تحس منهم أحداً ... لقد كانت تحدق في «ماري» التي حطمها ضلال الأمل ، ومزقتها أشواق الأمومة ، وأضناها الظمأ ، والجوع ، والبرد ، والحرمان . . . تألمت الإنسانة ، تعبت المخلوقة ، صرخت الشهيدة :

« إن الذكاء يتعب ، والعلم يعذب ، والحرية الفكرية تقلق النفس ! أنا لغز حيّ تائه ، تلبد جو فكري بالغيوم ، وقلبي منفرد حزين . . . أراني في وطني ، تلك الشريدة الطريدة التي لا وطن لها . . أنا وحدي . . وحدي في الدنيا . . تلك التي لا وطن لها ! »

أجل . . . صرخت الشهيدة ، ولكن صرختها تاهت وسط صيحات الهتاف ..

تأوهت الإنسانة ، ولكن تأوهاتها ذابت في شعاع الشهرة . . . هنالك نفضت « مي » يديها من الشهرة ، والمجد ، والناس ، لتحمل جثة « ماري » التي ماتت فيها . . ماتت الفتاة ، حين كانت الخطيبة تتيه بها أعواد المنابر ، فلم يحس موتها أحد ، ولم تبكها عين . . . وأحسته هي ، فراح بعضها يبكي على بعضها . ومضت ترثي نفسها وتقول :

« جاء المساء مرة أخرى . . . جاء المساء وتبعه الليل . وعيناك قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جثة . فأشعر بأن شيئا فيك أمسى جثة . . . لقد استسلمت لجمال المساء . فطعنك بسكين تقطر دما وظلاما . . . »

وكانت وطأة المحنة ثقيلة على « مي » فاهتز كيانها كله وهي تشهد وحدها مصرع الفتاة . وروعها الاستشهاد الطويل والمصير المحزن . فأمسى غناؤها بكاء ، وحديثها نواحا . حتى جزع الناس وانفضوا من حولها . . .

* * *

ثم كانت المحنة التي نعرفها جميعا .. تمزقت أعصابها ، وانزوت عن الدنيا والناس لتحدق في أطلال عالمها المنهار ، حتى رحمها الموت أخيرا ، فنامت . بعد أن ألح عليها السهاد

بنت الشاطىء
« من الأمناء »

أعلام النهضة الحديثة

١٢

عمر مكرم

١٧٥٥ — ١٨٢٢

للأستاذ عبد المنعم حمادة

مولد السيد عمر مكرم ونشأته

ولد السيد عمر مكرم في مدينة أسيوط ، وقيل إن ولادته كانت حوالي عام ١٧٥٥م أي في أواخر حكم إبرهيم بك ورضوان بك ، وهما أميران من أمراء المماليك توليا حكم مصر مناصفة ، وظهرت في عهدهما لمحات من التقدم والاستقرار والانتعاش القومي . وليس السيد عمر أول من اختلف المؤرخون في تاريخ مولده ، فشأنه في ذلك شأن كثير من عظماء التاريخ وأبطاله الذين ظهروا من بين صفوف العامة ، وبنوا لأنفسهم مجداً يتحدث به الناس في كل زمان . « أدرك وعقل في مدة علي بك الكبير ، ثم شهد فتوحه وما بلغته مصر في أيامه من التقدم الاقتصادي والمجد السياسي ، ثم رأى الانقلاب الذي أحدثه محمد بك أبو الذهب ، ثم وفاته العجيبة وهو في قمة المجد وزهو الانتصار ، ورأى بعد ذلك ما أصاب مصر من الانتكاس والاضطراب في أيام إبرهيم ومراد ، وما لحق بها من تدهور في حياتها العامة وثروتها ونظامها* » . وامتد به العمر حتى شهد طلائع النهضة الحديثة في عهد محمد علي باشا الكبير رأس الأسرة العلوية وباعث النشاط في كل ناحية من نواحي الحياة في مصر .

والسيد عمر من بيت عريق شريف ، نشأ في أسرة ينتمي نسبها إلى الإمام عليّ كرم الله وجهه ، كما يتضح من حجتين لوقفين له ، إحداهما عام ١٢١٠ هـ والأخرى عام ١٢٣٥ هـ وفيهما نعت بأنه « فرع الشجرة الزكية ، وطراز العصابة الهاشمية ، الشيخ الإمام العلامة الهمام ، أوحد الأفاضل العظام ، السيد الشريف الطاهر العفيف ، مولانا سراج الدين عمر أفندي نقيب السادة الأشراف » .

وترعرع السيد عمر في مدينة أسيوط ، حتى إذا نال قسطاً من التعليم على أسلوب زمانه ، انتقل إلى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف ، وفيه تخرج ، ولكنه لم يشتغل

* سيرة السيد عمر مكرم للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك صفحة ٤١ .

بالتدريس على عادة شيوخ ذلك العصر ، بل انصرف إلى الشؤون العامة ، ومشاركة الناس في حياتهم والدفاع عنهم وعن حرياتهم . وكان السيد عمر من غير شك كبير القلب ، واسع المواهب ، ثابت الرأي ، عظيم الجنان ، محبوباً من الخاصة والعامة ، وليس من شك في أن هذه المواهب جعلت منه شخصية كبيرة ، يحسب لها حسابها ، وتوزن أقوالها في ميزان المشورة والرأي .

عهد الأمراء

وفي الوقت الذي شبَّ فيه السيد عمر مكرم عن طوقه ، وأخذ يسرع الخطا نحو الشباب ، كانت حياة المماليك قد بلغت الدرك الأسفل من الانحطاط ، وتميز عهدهم بأنواع من الظلم والفوضى والاضطراب لم تشهد البلاد شبيهاً لها من قبل . وقد اضطرت الدولة العثمانية إلى أن تبعث عام ١٧٨٦ م حملة قوية بقيادة القائد التركي حسن باشا الجزائرلي ، لتأديب إبرهيم بك ومراد بك أميري مصر على ما اقترفاه في حق هذه الأمة ، وعاد الجزائرلي باشا إلى بلاده بعد أن نجح في مهمته ، وبعد أن انتزع الحكم من أيدي الطاغيتين اللذين فرا إلى الصعيد .

وفي هذا الوقت — أي حوالي عام ١٧٩١ م — كان نجم السيد عمر مكرم يعلو صعداً في ميدان السياسة ، فقد لجأ إليه إبرهيم ومراد في أثناء فرارهما بالصعيد ، ليكون رسولهما في مفاوضة الحكومة القائمة ، والتفاهم معها على عودتهما إلى القاهرة والاشتراك في الحكم من جديد . ونجح السيد عمر في تأدية الرسالة ومكن من العودة للأميرين ، وقام بهذا الأمر خدمةً لرجلين اتصل بهما ، فكان بمثابة صديق يؤدي خدمة لصديقه[*]

وكان من الطبيعي أن يعترف مراد وإبرهيم بالجميل ، وأن يكافئا من وقف يشد أزرهما في الوقت العصيب ، فأسندا إليه نقابة الأشراف عام ١٢٠٨ هـ — ١٧٩٣ م بعد وفاة السيد محمد البكري ، فسار فيها سيرة حسنة ، وكان فيها مثال الرجل الطاهر الشريف . على أن صداقته للأميرين لم تمنعه من الوقوف على الحياد ، كما أن هذه الصداقة وهذا الحياد لم يحولا بينه وبين الإسراع لنصرة الشعب والدفاع عنه وعن حقوقه كلما دعا الأمر إلى ذلك . وكان له عام ١٢٠٩ هـ — ١٧٩٥ م فضل الاشتراك في كتابة وثيقة سياسية كبرى ، تعهد فيها مراد وإبرهيم والأمراء بالعدل والرجوع عن المظالم ، والقيام بالواجبات التي يفرضها القانون والعرف . وهكذا عاش السيد عمر هذه السنوات من حياته

---

[*] سيرة السيد عمر صفحة ٤٢

رسول سلام ووئام بين الناس وبين الحكام والمحكومين ، بعيداً من الثورات ، قريباً من الشعب برأيه ومشورته لإحقاق الحق ورد المظالم .

الحملة الفرنسية على مصر

وفي هذه الأثناء أنفذت حكومة الديركتوار الفرنسية حملتها على مصر بقيادة نابليون بو نابرت ، ولا تعنينا أسباب هذه الحملة وتطوراتها وتاريخها وأعمالها في مصر ، بقدر ما يعنينا موقف السيد عمر في هذه الفترة من التاريخ . فقدكان ذلك الموقف منه إيذاناً بتطور جديد ، تمثلت فيه العنصرية الدينية في أول الأمر ، ثم أخذت هذه الناحية تنصهر في بوتقة المحن شيئاً فشيئاً ، حتى حلت محلها الوطنية المصرية الصميمة في أجلى معانيها .

نزل نابليون بجنوده غربي مدينة الإسكندرية ليلة ٢ يولية عام ١٧٩٨م (١٨ محرم عام ١٢١٣ هـ) فلما استولى عليها واصل تقدمه إلى دمنهور ، ومنها إلى الرحمانية ثم شبراخيت ، فلما هزم جيش المماليك اثنى مراد راجعاً إلى القاهرة استعداداً للمعركة الفاصلة . وفي يوم ٢١ يولية تقابل في شمالي أنبابة جيش نابليون ، المعتز بانتصاراته وفتوحه ، مع جيش مراد المفتقر إلى العدة والسلاح وحسن التنظيم والقيادة الحكيمة البصيرة ، ودارت الدائرة على جيش المماليك ، الذي قتل منه من قتل ، وغرق من غرق ، وفرّ طلباً للنجاة من فر ، وأصاب القاهرة في هذا اليوم بلاء عظيم ، وكرب لامثيل له .

وكان السيد عمر على رأس المصريين المدافعين عن سلامة بلادهم ، وحرية وطنهم : يقوي من عزيمتهم ، ويشد أزرهم ، ويلهب حماستهم ، ويثير فيهم الشعور بالعزة الدينية والكرامة الوطنية . وعند ما احتدم القتال ، واشتد لظى المعركة كان السيد عمر بين المقاتلين واحداً منهم ، يعرض نفسه للأخطار كما يعرضون ، ويؤدي من أعمال الحرب كل ما في استطاعته وأكثر مما كان في استطاعته ، حتى لاتفتر همة أحد ممن حوله. فلما لم يجد كل ما بذله هو وأنصاره نفعاً أمام ذلك الفن الجديد ، والأسلحة الحديثة ، والنظام الدقيق الذي جاء به الفرنسيون ، اضطر نقيب الأشراف ومن اشترك معه من زعماء الشعب في الدفاع عن حرية المدينة .. اضطر أولئك جميعاً والسيد في مقدمتهم إلى مغادرة القاهرة إلى بلبيس ثم إلى يافا .

وآثر النقيب أن يترك وطنه الذي جاهد في سبيله وبذل من أجله ما بذل ، حتى لايشهد دخول الفرنجة قاهرة المعز ومقر الأزهر الشريف . ولو كان ممن يؤثرون الحياة

الهادئة وراحة الجسم ، ومتع النفس ، وحب المسالمة ، لبقي مع من تخاف في القاهرة ، ومد يده إلى من طمعوا في مسالمته وترضيته ، واشترك في عضوية الديوان الذي أنشأه نابليون للاسترشاد برأي أعضائه في شؤون البلاد .. لو كان يرجو شيئاً لنفسه ، أو راحة لجسمه ، لآثر أمراً من هذه الأمور ، ولكنه كان أنبل قصداً من كل من بقي في القاهرة أو اشترك في عضوية الديوان أو غيره تحت نفوذ الفرنجة .

وهكذا « آثر الهجرة والنفي وشظف العيش إباء للضيم ، ونفوراً من الذل ، وترك في مصر أملاكه وأمواله عرضة للنهب والمصادرة ، وظل في منفاه بمدينة يافا إلى أن احتلها الفرنسيون في أثناء الحملة على سوريا ، فقابله بها نابليون ، وكان يعرف منزلته من قبل ، فأمر بإرجاعه إلى مصر معززاً مكرماً ✲ » .

وعاد السيد عمر إلى مصر ، ينظر إليه الفرنسيون نظرتهم إلى الرجل الأبي الذي يعتز بالكرامة ، وينظر إليه المصريون نظرتهم إلى رجل ضحى وجاهد في سبيلهم ، وتعرض للأخطار حباً لإسعادهم ، وأصيب في نفسه وماله ليدرأ عنهم السوء ، وقد ازداد بذلك تقديرهم له ، وإعجابهم به . عاد السيد عمر تحفه المهابة والجلال، ولكنه اعتزل في بيته ، وكأني به قد تعمد هذه العزلة لسببين : حتى لا يثير شكوك الغزاة الفاتحين حوله ، فيحبطوا ما يعتزم القيام به من عمل يرى فيه خلاصاً للبلاد من شرهم ، وحتى يخلو إلى نفسه ثم يفكر في أمر هؤلاء الفرنجة وأمر البلاد . . ومما لا شك فيه أن هذه العزلة قد دعته إلى إطالة التفكير في أمر الفرنجة ، وزيادة النفور من أولئك الأتراك والمماليك الذين لم يكن عهدهم عهد إصلاح أو خير كله .. وليس من شك في أنه رأى بثاقب نظره — بعد أن رأى ما جاء به أولئك الفرنجة من نظم وما نشروه من علوم ، وما نسبوه إلى أنفسهم من مبادىء — أن هناك سبلاً أخرى للشعوب تحيا وتسعد بها ، غير الخضوع للسلطان أو الطاعة للمماليك .

وأما الأمة فقد آلمه من علمائها أنهم لم يحفظوا لأنفسهم كرامة ولا عزة ، وأنهم تهاونوا في شؤونهم وشؤون بلادهم ، فانحازوا للغاصب ، وخضعوا له ، وآثروا العافية في ظلاله . . وقد دفعته إطالة النظر في أمر الفرنجة وفي أمر الأمة إلى ارتقاب الفرص لمعاودة العمل وإنقاذ البلاد من ذلك الشر الذي حاق بها وبأهلها .

ثورة القاهرة الثانية

وتطورت الحوادث وثارت القاهرة ثورة ثانية في ٢٠ مارس عام ١٨٠٠م في أثناء

✲ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر لعبد الرحمن الرافعي بك ج ٢ ص ٢٨٦ .

التحام الفرنسيين والأتراك في معركة طاحنة بالقرب من عين شمس . وكانت الثورة في هذه المرة عنيفة هائلة ، اشترك فيها المصريون على اختلاف طبقاتهم . وكان الشعب عند ما بدأ حركته الجديدة قد اتجهت أنظاره إلى زعمائه الأحرار ، وكان السيد عمر مكرم على رأس هؤلاء الزعماء الذين لبوا نداء الشعب ، فتركوا عزلتهم ، وانخرطوا في سلك المجاهدين .

وحدثت خلال الثورة أحداث جسام ، قاسى منها الشعب المصري الأمرّين ، واشتدت عليه من جرائها المصائب ، وضاقت به سبل العيش . وأخمدت الثورة ، وهاجر السيد عمر مع جيش الأتراك والمماليك ، وقد ناله من سخط الفرنسيين قسط كبير .

وجلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال دام ثلاثة أعوام وشهرين . وعاد الجيش التركي ليعيد البلاد إلى حكم الدولة العثمانية ، ورجع السيد عمر مع هذا الجيش ، وأصبح « بعد رجوعه مع الجيش المنتصر رجل مصر وزعيمها ، اجتمعت فيه الزعامة والجهاد والتضحية ، وقدعلاه عند ذلك تاج الانتصار والانخراط في سلك رجال الدولة الجديدة* »

بعد الحملة الفرنسية

وكان من آثار الحملة الفرنسية على مصر أن وضح العامل القومي جلياً لاخفاء فيه ، وأن انبثق فجر جديد ، تمثل في تلك المقاومة الشعبية التي دلت على تغير الأفكار ، وظهور الوطنية المصرية ، وتكوّن الرأي العام . ومما يلفت النظر أن هذا العامل القومي الذي رفعت الحملة عنه الستار ، كان من أقوى الأسباب في فشل هذه الحملة وخروج الفرنسيين من مصر .

وما إن تم جلاء الفرنسيين عام ١٨٠١ حتى عادت البلاد إلى سابق عهدها من الفوضى واضطراب الأمن ، وتطاحن الهيئات في سبيل الحكم وامتلاك ناصية الأمور . ومن الغريب أن تتجاهل كل الهيئات التي طمعت في أن تنال نصيباً من خيرات البلاد وثمراتها الطيبة ، والتي طمعت في حكمها من جديد ، أو بسط نفوذها عليها . . . نقول : من الغريب أن تتجاهل كل هذه الهيئات تلك الناحية الجديدة التي كانت وحدها كافية لترجيح كفة على كفة ، تلك هي قوة الشعب المصري التي ظهرت على مسرح النضال السياسي ، وأخذت تنمو ويشتد ساعدها ، لأنها مطمئنة إلى حقها الطبيعي في تقرير مصير البلاد .

ولم تعرف البلاد في هذه الفترة التي أعقبت الحملة الفرنسية يوماً من أيام الراحة

---

* تاريخ الحركة القومية صفحة ١٥٦

والاستقرار ، لما كان يدبره الأتراك للمماليك من مؤامرات ، ولقيام الحروب بين جنود هؤلاء وهؤلاء ، وللثورات التي كان يشنها الجنود على الولاة ، وتنتهي بعزل أولئك الولاة أو نقلهم . وبقي المرجل يغلي في نفوس الشعب الذي ضاق ذرعاً بآلامه حتى انفجر في أول مايو عام ١٨٠٥ في ثورة عنيفة ، بلغت أشدها في ١٢ مايو ، حيث اجتمع العلماء في دار المحكمة ، واحتشد في فنائها وحولها ما يقرب من أربعين ألفاً ، ينادون « يا رب يا متجلي أهلك العثملي » مما دلّ على ما كان يجيش في نفوس المصريين من روح السخط على الحكم التركي واعتزام التخلص منه . وفي هذا اليوم رفع زعماء الشعب ظلامتهم إلى وكلاء الوالي ، وفيه حرروا مطالبهم ، وطلبوا تبليغها إلى الوالي لتنفيذها ، واعتبر الوالي امتناعهم عن تلبية دعوته التي دعاهم إليها تمرداً وعصياناً ، وأبى أن يذعن لإرادتهم فأهمل الوثيقة التي بعثت إليه ، وكان إهماله هذا معجلاً لسير الحوادث .

فقد اجتمع زعماء الشعب مرة ثانية يوم الاثنين ١٣ مايو من العام نفسه بدار المحكمة ، لبحث الموقف من جديد ، وهناك اتفقت كلمتهم على التخلص من خورشيد باشا ، وتعيين محمد علي باشا والياً بدله ، وانتقلوا إلى دار محمد علي باشا لتنفيذ قرارهم وإبلاغه ما استقر عليه الرأي ، وقام السيد عمر والشيخ الشرقاوي مقام الشعب في إلباسه الكرك والقفطان وخلع حكم البلاد عليه ، وبذلك تمت مبايعة الشعب له ، وظهرت إرادة الأمة تخط لنفسها في سجل التاريخ صفحات خالدة في تاريخ الحركات القومية .

وإذا كان السيد عمر مكرم قد اختفى من الميدان قليلاً في أثناء الفترة التي سبقت هذه الحوادث الأخيرة ، والتي سادها القلق والاضطراب وتنازع الهيئات الطامعة في السيادة والحكم ، فلأنه كان يرجو أن تخرج جميع هذه الهيئات وقد ضعفت قوتها ، وضاعت هيبتها ، وغلبها اليأس على أمرها ، وبقيت للشعب قوته التي يستخدمها عند ما تحين الفرص . وقد حانت إحدى هذه الفرص عند ما تحرجت الحالة ، وكان لا بد من وجود شخصية قويه تسيطر على الموقف ، وتنقذ البلاد مما وصلت إليه ، ثم حانت فرصة أخرى بعد ذلك في حصار القلعة خلال مايو عام ١٨٠٥ لإخراج خورشيد باشا من حصنه ، والقضاء عليه وعلى ولايته ، وانتزاع الأمر منه نهائياً ، وتثبيته لتلك الشخصية القوية التي سيطرت على الموقف ، وليس من شك في أن السيد عمر مكرم كان صاحب القدح المعلى في انتهاز هاتين الفرصتين .

فى عهد محمد على

وهكذا تولى محمد علي باشا ولاية مصر بإرادة الشعب واختياره ، وكان من أثر

المواهب التي تميز بها أن كان أول من عرف قيمة العامل القومي وأثره في ترجيح كفة من يريد حكم البلاد ، وكان أول من عرف ما للزعماء وقادة الرأي من أثر في توجيه الرأي العام وقيادته ، فتقرب إلى أولئك الزعماء ، وخطب ودهم ، واستشارهم ، ونزل عند رغباتهم ، كيما يمهد لنفسه ، ويمكن لحكمه .

وبقي محمد علي باشا في أول عهده عند رأيه في الزعماء وأثرهم ، وبقي معترفاً لهم بالفضل فيما وصل إليه ، ولذلك غمرهم بحبه وتقديره ، حتى إنه كان يلجأ إليهم ، ممثلين في السيد عمر مكرم ، في كثير من شؤون الحكم والإدارة .

ولم يبخل السيد عمر مكرم على محمد علي باشا بمساعدته وتأييده ، فما إن دبرت الدسائس حوله ، ونشطت السعايات ضده ، وأحكم الأمر لعزله عن ولاية مصر ونقله إلى سلانيك ، حتى أسرع الزعيم إلى إحباط المؤامرات ، والقضاء على السعايات ، وقد اجتمع لهذا الغرض مع العلماء والمشايخ ، فكتبوا محضراً في شكل التماس ، يعترضون فيه على عزل محمد علي باشا ، ويحتجون على تولية موسى باشا ورجوع السلطة إلى المماليك ، كما كتبوا رسالة أخرى إلى قبطان باشا ، الذي جاء يحمل فرمان العزل ، يعلنون فيه رضاء الخاصة والعامة ، بل رضاء الرعية كلها ، بعدل الوالي وبره ، وانتصر الشعب بزعامة السيد عمر مكرم في دفاعه عن محمد علي باشا ، فقد جاء الفرمان محققاً آماله ، متضمناً « إبقاءه واستمراره على ولاية مصر ، حيث إن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله ، بشهادة العلماء وأشراف الناس » .

الحملة الانجليزية

وفي عام ١٨٠٧ جرد الإنجليز حملتهم على مصر ، وقد أسرعوا بها قبل أن يستتب النظام ، وتستقر الأمور نهائياً في وضعها الثابت ، وتسد بذلك جميع المنافذ في وجه أية حركة من الداخل أو من الخارج . غير أن مصر التي جاهدت الحملة الفرنسية حتى كتب لها النصر ، أبت أن تستسلم لهذه الحملة الجديدة ، فما إن نفخ في الصور ، حتى هبّت الأمة كتلة واحدة ، تناضل بكل ما أوتيت من حول وقوة ، وتبذل في سبيل حماية الذمار رجالها وأموالها دون أن تحس في ذلك ألماً ، وكان السيد عمر مكرم يتولى زعامة المقاومة الشعبية بما عهدناه فيه من حزم وقوة وإخلاص .

ولما استولى الإنجليز على ثغر الإسكندرية أحدث ذلك في البلاد عامة والقاهرة خاصة بلبلة في الأفكار ، وهياجاً بين الناس ، وراح زعماء الشعب في العاصمة يجتمعون ويتشاورون ، وقد استقر رأيهم في النهاية على دعوة الشعب لقتال العدو المغير ، وزاد

من حميتهم أنباء انتصار المصريين في رشيد ، وظهر أثر الزعامة الشعبية في قيادة الجماهير ، وفي حماستهم ، وفي تأهبهم للقتال والدفاع عن البلاد ، جلياً واضحاً ، مما جعل المسيو منجان يقول : « كان السيد عمر مكرم يذهب في صبيحة كل يوم تتبعه الجماهير إلى حيث يشتغل العمال في إقامة الاستحكامات » ✲ .

ويطول بنا الحديث لو تتبعنا خطوات الحملة الإنجليزية على مصر ، وما دار بعد ذلك في أبي حماد وغيرها . وكل الذي يعنينا أن الحملة فشلت كما فشلت أخوات لها من قبل ، وأن الشعب المصري حمل لواء الجهاد صابراً ، وإليه يرجع الفضل الأكبر فيما وفق إليه الجنود من نصر ، وإلى الزعامة المصرية ممثلة في السيد مكرم ترجع تلك الحماسة التي دبت في النفوس ، وتلك التضحيات التي بذلها المصريون طواعية واختياراً ، وتلك الروح العالية التي ظهرت في كل مكان اشتبك فيه المصريون والإنجليز .

الخلاف بين الباشا والزعيم

ومما تحسن الإشارة إليه أن محمد علي باشا رغب في أن يتحمل هو وجنده دون أفراد الشعب مهمة لقاء العدو في ميدان القتال ، وأن تقتصر مهمة الشعب على إثارة الحمية والنخوة في نفوس الجند ، وحماية ظهورهم ، وحراسة المدن في غيبتهم ، وأنقذ محمد علي باشا البلاد من الحملة الإنجليزية ، وأغلب الظن أن زهو الانتصار ، وتخلص البلاد من الطامعين والمتربصين ، مال به إلى حكم الفرد ، والاستئثار بالسلطة .

وكانت أولى البوادر التي دلت على رغبة محمد علي باشا في الاستئثار بالسلطة والقضاء على الزعامة الشعبية ، ما أعلنه من اعتزامه خوض معارك القتال بالجند وحدهم . وكان السيد عمر يرى أن يشترك الشعب في الجهاد والدفاع عن البلاد ، غير أن الباشا كان صريحاً في رده ، إذ رفض اشتراك الشعب في النضال بعد أن أصبحت قوة الدولة كفيلة بالدفاع ، وصدم هذا الرفض السيد عمر صدمة قوية ، كانت أول خطوة نحو النفور الذي دبّ بين الباشا والزعيم .

وخطا محمد علي باشا في إصلاح شؤون البلاد خطوات واسعة ، حتى إنه نقلها إلى حال جديدة من الأمن والنظام ، وأخذ — بعد أن تم له ما أراد — ينظم الإدارة ويصلح المالية ، ولما كان الإصلاح الداخلي الذي يكلف الناس قليلاً من الأعباء يقابل دائماً بالسخط والغضب من جمهور الشعب الذي لم يعتده ؛ بل يعتبره من المحدثات الجديدة في النظم الاجتماعية ، اضطر إلى مواجهة الشعب بعد الأعداء ، وكان الباشا

✲ عصر محمد علي للأستاذ عبد الرحمن الرافعي بك صفحة ٥٢

يريد أن ينفرد برأيه في فرض الضرائب ، فعارضه السيد عمر معارضة قوية ، شاركه فيها بعض العلماء ، خوفاً على امتيازاتهم . غير أن السيد عمر وقد حنكته التجارب ، وعلمته الأيام ، رأى أن الفرصة لم تكن سانحة لمهاجمة صديقه والوقوف أمامه وجهاً لوجه ، وخاصة وقد علم ما تنطوي عليه نفوس العلماء والمشايخ من حقد عليه وحسد له ، وتهافت على المنافع الشخصية قبل المنافع العامة .

نفي السيد عمر

ولما كان السيد عمر مكرم يطمع في حكومة الشورى التي تصغي لآمال الشعب وآلامه ، وكان محمد علي باشا يميل إلى حكومة الفرد الذي لايعارض ، فقد دب الخلاف بين الوالي والزعيم . ولما كان هذا الخلاف يزداد يوماً بعد يوم ، انتهز الحاقدون فرصته للإيقاع بزميلهم ، واختلاق المطاعن عليه ، والمبالغة في اتهامه وتجريحه ، فلما رفض السيد عمر مكرم أن يضع اسمه إلى جانب أسماء الزعماء على حساب مقدم إلى الدولة العثمانية ، زادت الجفوة ، واشتد العداء ، ووجد الباشا الفرصة سانحة ليضرب ضربته الأخيرة ، فاجتمع في ٩ أغسطس من عام ١٨٠٩ بالقاضي والمشايخ بمنزل ابنه إبرهيم باشا بالأزبكية ، وأشهدهم على تخلف السيد عمر عن الحضور على الرغم من توجيه دعوته إليه ، كما أشهدهم على ما قدمه الزعيم في حقه من مناوأة له ، واعتراض على سياسته ، رغم حرصه على إكرامه والتودد له ، ثم أمر بنفيه وهو آسف ، لأنه كان يعلم فيه حرصه على العدالة ومصلحة البلاد ، وكأني به أراد إبعاد الثائر ، ولم يرد نفي الصديق .

وسافر السيد عمر منفياً إلى دمياط في ١٣ أغسطس من العام نفسه (١٨٠٩م) ثم انتقل إلى طنطا بعد سنوات أربع قضاها تحت المراقبة وملازمة الحراس له . والتمس السيد عمر الإذن له في الحج وزيارة البلاد المقدسة ، فأذن له الباشا في ذلك ، وفي ٩ يناير من عام ١٨١٩ عاد إلى القاهرة بعد عشر سنوات ، وكانت السن قد ارتفعت به في ذلك الوقت إلى أواخر الحلقة السابعة ، واستقبله الشعب في ابتهاج عظيم وحفاوة بالغة ، غير أن الزعيم اعتكف في داره ، حتى لا يثير الشكوك حوله .

النفي الأخير ثم الوفاة

ولما فرضت الضريبة على مساكن القاهرة بعد مساكن القرى والمدن ، لتموين الأسطول العثماني المار بالإسكندرية في طريقه إلى كريت ، ضج الناس وخرجوا إلى الطرقات متذمرين ، معلنين شكواهم ، مرددين اسم السيد عمر مكرم ، غير أن الباشا

كان شديد الحرص على تنفيذ خططه ، فما إن ترامت إلى أسماعه أخبار القلق حتى عاد فأمر بنفي الزعيم الخطر إلى طنطا ، خوفاً من قيام ثورة مهددة صاخبة كتلك الثورات القديمة ، وسافر السيد عمر في ١٥ أبريل من عام ١٨٢٢ م ، ولكن الوقت لم يطل به ، فقد كانت وفاته في العام نفسه .

وهكذا أصبحت حياة زعيم الشعب في القرن الثامن عشر ، صفحة جديرة بالذكر والتخليد . وإذا كان شباب الجيل الجديد قد بدؤوا يفكرون في دراسة سير الزعماء الذين عبدوا طريق النهضة والرقي ، فليس من شك في أن السيد عمر مكرم سيكون على رأس هؤلاء الزعماء الذين فكر فيهم الشباب ، وعمل على إحياء ذكرهم من جديد ، ليكون نوراً يضيء معالم الطريق في العهد الجديد ؟

عبد المنعم حمادة

المراجع :

(١) تاريخ العصر الحديث — للأستاذ عباس الخرادلي

(٢) مصر الحديث — « محمد عبد الرحيم مصطفى

(٣) الشرق الإسلامي في العصر الحديث — « حسين مؤنس

(٤) سيرة السيد عمر مكرم — « فريد أبو حديد بك

(٥) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، الجزء الأول والثاني — « عبد الرحمن الرافعي بك

(٦) عصر محمد علي — « عبد الرحمن الرافعي بك

(٧) تاريخ الجبرتي — للشيخ عبد الرحمن الجبرتي



رابعة

لسويد بن أبي كاهل اليشكري ☆

بسطَتْ رابعةُ الحبْلَ لنا فوصلْنا الحبْل منها ما اتسعْ

حرّةٌ تجلو شتيتاً واضحاً كشعاع الشمْس في الغَيْم سَطَعْ

صقلَتْه بقضيبٍ ناضرٍ من أراكٍ طيّبٍ حتى نَصَعْ

أبيضَ اللونِ لذيذاً طعمُهُ طيّب الرّيقِ إذا الريقُ خَدَعْ

تمنَحُ المرآةَ وجهاً واضحاً مثلَ قَرْنِ الشمسِ في الصحو ارتفعْ

صافيَ اللون ، وطرْفاً ساجياً أكحلَ العيْنَيْنِ ما فيه قمَعْ

هيّجَ الشوقَ خيالٌ زائرٌ من حبيبٍ خَفِرٍ فيه قَدَعْ

شاحطٍ جازَ إلى أرْحُلِنا عُصَبَ الغابِ طُروقاً لم يُرعْ

آنسٍ كانَ إذا ما اعتادَني حالَ دُونَ النوم مني فامتنعْ

وكذاكَ الحبُّ ما أشجَعَه ! يركبُ الهَوْلَ ويعْصِي مَنْ وَزَعْ

☆ سويد بن أبي كاهل اليشكري شاعر مقدم مخضرم عاش في الجاهلية دهراً وعمر في الأسلام عمراً طويلا عاش إلى ما بعد سنة ٦٠ من الهجرة .

ميراث الكون

للأستاذ عبد الرحمن صدقي

طَلَع الكونُ بعد طولِ مغيبِ لحبيبَين مثلنـا يا حبيبي

فقدَا جنَّةً فلاذَا بأخرى مِن هوًى، وارفِ الظلال رطيبِ

فلِنَيْرِ الخليِّ قد خُلق الكو نُ وما فيه مِن جمالٍ وطيبِ

كلُّ ما يُطْبق الفضاء عليه هو إرْثُ المحبِّ والمحبوبِ

غَصَب الناسُ حقَّنا، فاقضِ حقّي نتعوَّضْ مِن مُلكِنا المغصوبِ

إنه الحبُّ حَسْبُنا من وجودٍ وخلودٍ رَحْبِ الخيال عجيب

نملأ اليومَ بالمراح، ونُحْيِي لَيْلَنا بالغناء والتطريب

تَسْتَبي مهجتي بحُسْن أنيقٍ وأنا أسْتَبيك بالتشبيبِ

نتلاقى بمَسْمَعٍ مِن غريمٍ وبمَرْأًى من عاذلٍ ورقيبِ

أنفَدوا جهدَهم على غير جدوى ليَغُرُّوكَ بالهوى المكذوبِ

جَهْدُ هذا الأنام ـ لو أسعف الشِّعْ رُ بمعنًى بِكرٍ ولفظٍ قشيب

أنْ يَعُوا ما أصوغهُ مِن نسيبٍ ويَرَوا فيك صدقَ هذا النسيبِ

عبد الرحمن صدقي

الطبعُ الأصيل

« إلى الحالمين بالسلام العالمي »

للأستاذ محمد بهجة الأثري ببغداد

النّاسُ كالنّاسِ مُذْ كانُوا وكُلُّهُمُ
إلى القيامةِ قابيلٌ وهابيلُ ☆

فلا تَرَجَّ سوى ما عندَ أوّلِهِمْ
من أهلِ جيلِكَ ، إنّ اللؤمَ موصولُ

وما الثقافةُ من غَيٍّ بمانعةٍ
وإنْ يَزِنْها من الأقوالِ تحجيلُ

رَوَوْا لنا عن أُناسٍ صالحين مَضَوْا
وما أرى غيرَ أنّ الأمرَ تهويلُ

أينَ الصّلاحُ ؟ فهلاّ أعقبوا خلَفاً
يقومُ منهُمْ على الأسلافِ تدليلُ !

قد رابني المعشرُ الأَحياءُ بعدَهُمُ
كأنَّ كلَّ فتًى لافَيْتَهُ غُولُ

قالوا : فلانٌ تقيٌّ ، قلتُ : وَيْحَكُمُ !
حتّامَ تخدَعُكُمْ منه الأباطيلُ ؟

تُقَبِّلونَ ككفِّ اللصّ منه يداً
من حقِّها القطعُ لا لَثْمٌ وتقبيلُ

تَرَوْنَ في طُول عُثْنُونِ الفتى خَبَراً
للنُّسْكِ ، وَهْوَ عن النُّسّاكِ معزولُ

متى تقومُ لِأَهْلِ الأرضِ قائمةٌ
فيحكُمَ العقلُ فيهمْ لا التهاويلُ ؟

ضَلُّوا الحنيفةَ واستهوَتْ نفوسَهُمُ
من الضلالِ قِبابٌ أو تماثيلُ

ما إنْ يقومونَ من تدجيلِ ذي دَجَلٍ
إلاّ لِيُرْكِسَهُمْ في الغَيِّ تدجيلُ

قد عُزِّزَ البُطْلُ فيهمْ فَهْوَ منتصرٌ
وأُضْرِعَ الحقُّ فيهمْ فَهْوَ مخذولُ

والشرُّ طبعٌ أصيلٌ في جِبِلَّتِهِمْ
ومنه فيهمْ يَهِجُ القالُ والقيلُ

☆ أي ظالم ومظلوم .

لولاهُ ما بُعِثتْ يوماً لهم رُسُلُ ... ولا تنزَّلَ قرآنٌ وإنجيلُ
ماحرَّفَ المسلمونَ «الذكرَ» في غرضٍ ... لكنْ بأعمالِهِمْ «للذِّكرِ» تعطيل
وكلَّ يومٍ لأهلِ الأرضِ نازعةٌ ... تأتي بما نالَ من هابيلَ قابيلُ
طالَ اللّجاجُ ولم تُحْسَمْ بَواعِثُهُ ... وكلُّ نفسٍ بها منها عقابيلُ
سيَلبثُ الشَّرُّ يُبْدي من نواجذِهِ ... يعيثُ منه بهذي الأرضِ تفويلُ
سِكّينُ قابيلَ كالذرِّ الّذي اخْترعوا ... في الموت، كلٌّ مُبيدٌ فيه عِزْريلُ
أعيا صلاحُ بني الإنسانِ لا رُسُلٌ ... قد أدَّبتْهُمْ ولا الطّيْرُ الأبابيلُ

محمد بهجة الأثري

مخلوقة

« إلى ذات الرداء الأبيض والشغاف الأسود »

للأستاذ زهير مرزا بدمشق

أنتِ أحلامي الّتي أبْدَعْتُها ... من خيالاتِ شَقيٍّ عاشقِ
كانَ رسَّامَ رُؤاها خاطرٌ ... قَلِقُ الفِكرةِ رَعْشُ الخافقِ
تَرْعَشُ الريشةُ في أنمله ... فإذا الخطُّ أمانيِ وامِقِ
مُبْهَمُ التَّهْديفِ يُزجيهِ الأسى ... والأسى بَوْحُ رجاءٍ آبقِ!

* * *

حُلُمٌ ؟! أشْتاتُ مَجْهولٍ قَسا ... فانْطَوى في خَلَجاتٍ مُحْرِقَهْ
وَسْمُ مَحْبُوبٍ منَ النُّورِ، لهُ ... صُورةٌ حَيْرَى ورُوحٌ دَفِقَهْ

كلّما خطّطْتُهُ في خاطري   طمسَ التخْطيطَ نفسٌ قلِقه
وأراني أحرقُ العُمرَ سُدًى   بينَ أنْ أبقِيَه أو أمْزِقه !!

☆☆☆

أنتِ إنسانٌ مزيجٌ مِنْ مُلَى   كلّ حينٍ خُضِبَتْ أيَّ خُضابْ
دفقاتُ النّورِ في إبْهامِـهِ   وأماني الشّرْبِ في كأسِ شرابْ
وعصيرُ الحُبِّ في علقمِهِ   وثُمالاتُ شبابٍ في اغترابْ
كلُّ ما فيكِ يُناديني سِوَى   وترِ الإحساسِ أو لحنِ اكتئابْ !

☆☆☆

رعشةُ القلْبِ وحزّاتُ الهوى   واعتِصارُ الرّوحِ في أسرِ الألَمْ
لمْ أذُقْ محلولها إلاّ بما انْـ   ـتحضرَ الخاطرُ منْ أُفْقِ العدَمْ
كُنْتُ أُزجي فيكِ ما أشْتاقُه   في حبيبي ، ثُمَّ أجْثو للصّنَمْ
لمْ تزلْ فِيَّ قوىً مبدِعَةٌ   يا لهمِّي إنْ تلقّاني الهرَمْ !

☆☆☆

كمْ تمجّدْتُكِ والليلَ معاً   وعلى جفنكِ أغفَى العالَمُ
وتضوّتُ اليوْمَ جسماً والتوَى   منْطقي ؛ والفِكْرُ شِلْوٌ هائِمُ
وأنا السّكْرانُ مِنْ خمْرِي وبي   حشْرجاتُ الكبْتِ يطْويها فمُ
أنْتِ حوّاءُ تناسَتْ خُبْثَها   أتُراني اليوْمَ مِنْها « آدمُ » ؟

زهير مرزا

أقدام في الرمال

للأستاذ سيد قطب

نحنُ ؟ أم تلك على الأرض ظِلالْ ؟ وخيالٌ ســارب إثر خيالْ
في متاهاتِ وجودٍ لِزوالْ كبقايا الخطْوِ في وجه الرمالْ

زُمرٌ تدلف في إثر زمرْ ويحَ نفسي ! إنه رَكْبُ البشرْ
مغمض العينين في كف القدَرْ كلما أوغل في التيـه اندثرْ

أين رأسُ الركْب أم أيَّان سارا ؟ ما أرى في إثره حتى غبارا
ما أرى قبرا وما أُبصر دارا ضَلّةً لى ! ذاك ظلٌّ وتوارى

من ظلام الغيب في التيه البعيدْ لظلام الغيب في التيه المديدْ
ومضةٌ كالبرق تجتاز الوجودْ ويسميها بنو الأرض الخلودْ !

خدعةٌ راقت لأبنـاء الفناءْ حينما أعْيا على الأرض البقاءْ
المساكينُ هباءٌ في فضاءْ رحمةً للذرِّ في مَسْرى الهواء !

ما أرى الأرض تحس الوافدينْ أو أرى الأرض تحس الراحلينْ
كلُّ ما كان وما سوف يكونْ نأْمةٌ تهجس في جوف السكونْ

خطواتٌ ذاهبات في الرمالْ وخيـالاتٌ تَراءى لخيـالْ
وشخوص تتوارى كظلالْ للزوال ... كل شيء للزوال !

سيد قطب

في كفة الميزان

نشر في هذا الباب نقد النقاد على علاته ، نزولا عند حرية الرأى
تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ما قد يدعو إلى المناقشة

النَقـْـدُ

نحل عبر النحل

لتقي الدين المقريزي

تحقيق الأستاذ جمال الدين الشيال

١٢٦ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة الخانجي . القاهرة سنة ١٩٤٦

نقد الأستاذ أحمد محمد شاكر

ما أجدني في حاجة إلى وصف هذا الكتاب ، ولا التنويه بقيمته العلمية ، وقد كفانا الأستاذ محققه مؤونة ذلك ، بمقال ممتع وصفه فيه وصفاً جيداً ، نشر في مجلة « الكتاب » في المجلد الأول ص ٨٨٦ — ٨٨٩ قال في آخره : « ولقد بدأت في طبع الكتاب ، وأرجو أن أكون قد وفقت في شرحه وتحقيقه ، بحيث يرضي قراء العربية » .

وقد أوفى بوعده ، ولكني لا أراه أوفى بشرطه . وأرجو أن يعذرني الأستاذ الشارح إذا لم أرض عن طريقة إخراجه للكتاب وعما صنع في شرحه ، في أكثر ما صنع ، فما أريد التعنت ولا تتبع الأغلاط ، ولكني أريد الخير له ولقراء العربية .

وأول ما آخذ على الكتاب هذا العنوان الإفرنجي الذي وضع في ظهر الكتاب ، فما الضرورة إليه ؟ ! لقد علمت من الأستاذ الشارح أن هذا ليس من عمله ، وأنا أصدقه وأعذره ، ولكن يجب أن يعلم الناس أن التعلق بأذيال الإفرنج ومحاولة كسب ثنائهم ورضاهم ليس مما يسيغه أبناء العروبة في هذا العصر ، كتاب عربي ينشر للعرب ولمن يعرف العربية من غيرهم ، فما بالنا نضع له عنواناً بغير لغته ؟ ! الإفرنجي الذي يطلب مثل هذا الكتاب يعرف العربية ، والذي لا يعرف العربية منهم لا يطلبه . أخشى أن يكون هذا تقليداً صرفاً لهم حين ينشرون شيئاً من آثارنا ، ولكنا لا نستطيع أن نرغمهم على ما يرضينا ، ولكنا نستطيع أن نعرف لأنفسنا قدرها ، وللغتنا حقها ، فنخرج الكتاب عربياً أصلا وعنواناً .

ثم الأخطاء المطبعية في الكتاب كثيرة ، لا أحب أن أعرض لشيء منها ، فإن ذلك يطول جداً ، وكثير منها يدركه القارئ المتوسط .

وقد اجتهد الأستاذ الشارح في تحقيق متن الكتاب ، وتعب فيه تعباً شديداً ، وهو جهد مشكور ، فإنه لم يجد من الكتاب إلا نسخة واحدة مخطوطة ، كتبت في شهر شوال سنة ١٢٢٩ ويظهر من وصفها ومن تحقيقات الأستاذ الشارح أنها غير جيدة التصحيح ، فلذلك اضطر لأن يراجع نصوصها عند تحقيق متنها إلى كل الكتب العربية التي كتبت عن الحيوان . ولكني أراه غلا في ذلك غلواً شديداً ، لا أريد الغلو في الرجوع إلى المصادر التي رجع إليها ، فهذا عمل واجب . ولكني أريد الغلو في تحكيم النصوص الأخرى في نص المؤلف ، حتى إنه ليغيره في أكثر المواضع إلى ما في المصادر الأخرى ، دون ضرورة ولا موجب ، من خطأ يصححه ، أو نقص يكمله ، فأخرج الكتاب للمقريزي بنصوص كثيرة لم تكن كلام المقريزي ، بل كانت كلام غيره ، ولو اتبع الطريق العلمي الصحيح في إخراج الآثار العلمية القديمة ، لأثبت النص كما هو ، ثم قرن إليه مايشاء من نصوص غيره ، إن وجد إلى ذلك حاجة ملحة أو ضرورة ملجئة .

وسأذكر مثلاً من ذلك مما في الكتاب ، لا على سبيل الحصر والاستقصاء ، وهي تدل على ما وراءها :

ص ١ — ٢ في أول الكتاب ، قال المقريزي : « النحل حيوان ، وهيئته ظريفة ، وخلقته لطيفة ، ومهجته نحيفة ، وسطه مربع » إلخ . هذا نص المؤلف الذي يؤخذ من التعليقات التي كتبها الشارح ، فإنه غيّره في صلب الكتاب ، وأثبت في الهوامش ما كان في الأصل ومصدر التغيير ، أثبته هكذا : « النحل حيوان [ذو] هيئة ظريفة ، وخلقة لطيفة ، وبنية نحيفة ، وسط [بدنه] مربع » . أظن أن القارئ يرى أن معنى النصين واحد ، وأن كلام المقريزي سليم ، فما الذي دعا الشارح إلى أن يزيد كلمتي (ذو) و (بدنه) وأن يغير « مهجته » إلى « بنيته » ثم يقول إن التصحيح عن القزويني ومسالك الأبصار ؟ ! لو كان القزويني وابن فضل الله العمري متأخرين عن المقريزي ونقلا كلامه لكان له عذر أن يعتبر النص فيهما نسخة أخرى من كلام المقريزي ، ولكنهما متقدمان عليه . والمقريزي لم يزعم أنه نقل كلامهما ، بل كل مؤلف يعبر عما يعلم مما قرأ في كتب المتقدمين بالعبارة التي تروقه ، فليس لنا أن نلزم واحداً منهم بكلام الآخر ، إلا أن يكون خطأ ، فنثبت كلامه كما هو ، ثم نبين ما نرى من تصحيحه .

ص ١٣ : « وجنس النحل ألطف أجناس الحيوان كلها ، ولذلك تكره كل رعي يكون منتناً أو زهم الرائحة [وهي تكره النتن ، وتكره أيضاً الروائح الدهنية] والأدهان » . فهذه الجملة المزادة بين حاصرتين من الشفا لابن سينا ماالحاجة إليها ؟ أليست تكراراً لما قال المقريزي ، وإضعافاً لجزالة الكلام ؟ !

ص ١٤ : « وتشرب الماء الصافي [العذب تطلبه حيث كان] » هذه زيادة زادها الشارح في النص من كتاب في الحيوان دون ضرورة ، ولا النص يقتضيها ، خصوصاً وأنها ستأتي في كلام المقريزي ص ١٨ س ٣ .

ص ٦١ : « [وروى ابن ماجة عن أبي بشر بكر بن خلف قال : حدثني يحيى بن سعيد عن موسى بن أبي عيسى الطحان عن عبد الله عن أبيه ، أو عن أخيه عن] النعمان بن بشير [رضي الله تعالى عنه] أن النبي صلى الله عليه قال : إن مما تذكرون » إلخ ، ثم قال : [ورواه الحاكم ، وقال] : صحيح على شرط مسلم » . فهذه زيادات زادها الشارح عن الدميري ، لا أدري ما الحاجة إليها ، بعد أن ذكر أن في الأصل : « ولابن ماجه من حديث النعمان » ؟ المقريزي يروي الحديث ، ويكتفي بأن ينسبه لابن ماجه دون ذكر إسناده ، فأين النقص في الأصل الذي يدعو إلى أن نغيّر نصه بنص الدميري الذي ذكر الإسناد ؟ ثم ماذا يضطرنا إلى زيادة (ورواه الحاكم ، وقال) ؟ هذه زيادة يحسن أن تكون في الشرح تعليقاً ، لأن المعنى يتغير بها بعض التغير ، فإن المقريزي محدث معروف ، فهو يصحح الحديث على شرط مسلم بأنه يوثق به في ذلك ، ولكن هذه الزيادة جعلت التصحيح من كلام الحاكم وحده ، أما لو بقي الكلام على أصله لكان لنا تصحيحان : تصحيح الحاكم ، وتصحيح المقريزي .

وقد أخطأ الشارح هنا خطأً عجيباً في ترجمة يحي بن سعيد الذي في الإسناد ، فزعمه « يحي بن سعيد الأنصاري » ! مع أنه ذكر أنه مات سنة ١٤٣ وذكر في ترجمة الراوي عنه « بكر بن خلف » أنه مات في سنة ٢٤٠ ، فأنى يستطيع بكر أن يسمع من يحي وبينهما هذا العمر الطويل ؟ إن يحي بن سعيد في هذا الإسناد ، هو « يحي بن سعيد القطان » المتوفى سنة ١٩٨ ، ولو رجع الشارح إلى ترجمة « موسى بن أبي عيسى » في التهذيب لوجد أن من الرواة عنه « يحي القطان » . ثم إنه أثبت لقبه « الطحان » وهو « الحناط » كما في التهذيب ، وليس هذا الخطأ منه ، بل هو من نسخة الدميري ، ولم يتنبه له الشارح . وفي الإسناد خطأ آخر : « عن عبد الله عن

أبيه » والذي في الدميري ٢ : ٤٠٣ طبعة بولاق « عن عون بن عبد الله عن أبيه » ، وهو الصواب .

ص ٦٤ في أثر عن كعب الأحبار : « ليس بفاحش ولا بسخاب » هكذا في الأصل ، فغيره الأستاذ المحقق إلى « ليس بفحاش ولا صخاب » . وذكر في الهامش أن التصحيح عن الدميري . وهذا الأثر نقله المقريزي عن « مسند الطبراني » وهو غير موجود حتى يتيسر الرجوع إليه ، فكان على المحقق أن يثبت الأصل كما هو ، ثم إن شاء أثبت رواية الدميري ، لأن الأصل صواب غير خطأ ، خلافاً لما يوهمه صنيعه ، فإن « الفاحش » و « الفحاش » بمعنى ، وكذلك « السخاب » و « الصخاب » بالسين والصاد ، جاءا كلاهما في الأحاديث ، وفي لسان العرب . « والسخب والصخب بمعني الصياح ، والصاد والسين يجوز في كل كلمة فيها خاء » . فلم يكن ما في الأصل خطأ حتى يجوز للأستاذ تجاوزه وتغييره إلى غيره .

وأعجب من هذا كله أن ينقل المؤلف قطعة من كلام الغزالي في الإحياء ، والإحياء كتاب مطبوع متداول، فلاينشط المحقق لمراجعة النص على أصله ، بل يراجعه على نقل الدميري عنه ، ويتصرف في نص المقريزي بما نقل الدميري . ثم يزيدك عجباً واستغراباً أن يقول المؤلف بالحرف الواحد (ص ٦٦ هامشة ١١) : « ونلاحظ هنا أن اتفاق المقريزي والدميري في الصيغة يدل بوضوح على أن الأول ينقل عن الثاني في هذا الفصل نقلا حرفياً » !

ولماذا هذا الجزم ؟ لاأدري والله ! ألا يستطيع المقريزي أن يجد نسخة من كتاب الإحياء ينقل عنها حتى يضطر إلى النقل من الدميري ؟ والمقريزي أعلم وأوسع اطلاعاً وأخبر بالكتب من الدميري ألف مرة ! أفإذا نقلت أنا هذا الفصل عن الإحياء في بعض ما أكتب أتهم بأني نقلته عن الدميري أو عن المقريزي بأنهما أقدم مني ؟ ما أظن أحداً يزعم هذا أبداً .

ثم قد أطال المحقق هوامش الكتاب بتراجم لكثير من الرجال الذين يرد ذكرهم فيه ، دون حاجة إلى ذلك ، وليته لم يفعل ! ففي كثير منها العجائب :

انظر إلى ص ٤٩ : « وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن خيثمة عن الأسود قال : قال عبد الله (؟) » فترجم للأعمش نقلاً عن المعارف ، وذكر أنه مات سنة ١٤٨ وترجم لشيخه « خيثمة » نقلاً عن كتاب (الأعلام) ! ! فذكر أنه « أبو الحسن خيثمة بن سليمان القرشي الطرابلسي » وأنه

مات سنة ٣٤٣ ! ! أيعقل هذا أحد ؟ الأعمش الذي مات سنة ١٤٨ يروي عن شيخ مات بعده بنحو ٢٠٠ سنة ؟ ! وهذا خيثمة الذي يزعمه يروي عن الأسود ابن يزيد الذي ذكر المحقق أنه مات سنة ٧٤ أو ٧٥ ؟

الأستاذ الشارح يرجع كثيراً إلى تهذيب التهذيب ، فلو رجع إليه لوجد ترجمة « خيثمة بن عبد الرحمن الجعفي الكوفي » وهو تابعي يروي عن الصحابة وعن كبار التابعين ، فهو الذي يروي هذا الأثر ! وقد وضع المحقق بجوار اسم « عبد الله » في الإسناد علامة استفهام ، ليدل على أنه شبه عليه ، فلم يعرف من هو ، وهو عبد الله ابن مسعود ، كما يعرف كل من له خبرة بعلوم الحديث ، لأن الأسود بن يزيد إذا روى عن « عبد الله » بإطلاق ، فهو عبد الله بن مسعود . وكذلك فعل الشارح في أثر بعد هذا عن « عبد الله » ص ٥٠ فوضع بجوار اسمه علامة استفهام ، وهو هو .

ومما لا يعجبني من تصرف المحقق في التراجم : أن يترجم لابن سينا في هامش ص ١١ ، ثم يقول : « انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن سينا ، وما بها من مراجع » ! ! أفأفاست كتب التراجم من مؤلفات علماء الإسلام المطبوعة حتى نحيل القارىء على مراجع نادرة يشير إليها مؤلفو دائرة المعارف الإسلامية الأجانب ، وكثير من مراجعهم مطبوعات أوربية نادرة ، وأكثرها مصادر غير عربية ؟ ! فليت الشارح ترك هذه الترجمة ، فابن سينا أشهر عند أبناء العروبة من أن يعرفوا ترجمته من مصادر أجنبية .

ومن نحو هذا أن يترجم للترمذي صاحب السنن مرتين ص ٦٠ و ص ٧٠ ، يخطىء في الأولى ، فيذكر أنه مات سنة ٧٩ ويصيب في الثانية أنه مات سنة ٢٧٩ وما كانت به حاجة إلى ترجمته هنا ولا هناك . فالترمذي معروف لأكثر القارئين ، وكتاب عبر النحل ليس موضع تراجم العلماء ، وما إلى هذا قصد مؤلفه ! وانظر أيضاً التراجم التي في ص ٤٧ أتجد واحدة منها كانت ضرورية في تحقيق الكتاب ؟ !

ومن المعروف بداهة أن المحقق ليس من علماء الحديث ولا كانت علوم الحديث صناعته ، فما ذا يلجئه إلى أن يخرج الأحاديث على غير طريقة المحدّثين ، ماله ولهذا ؟! يذكر المقريزي حديثاً (ص ٥٦) ينسبه إلى سنن أبي داود ، فيأتي الأستاذ فيذكر في الهامش : « روي هذا الحديث بإسناد آخر في : ابن قتيبة ، عيون الأخبار » ! متى كان عيون الأخبار كتاباً من كتب السنة يخرج منه الحديث ، وابن قتيبة لغوي أديب إخباري ، وكتابه كتاب أدب ، وكتب السنة كثيرة متوافرة ؟ !

ومن الأغلاط في الأعلام ما جاء في ص ٧٩ س ٣ : « وكتب أبو بكر محمد بن عمر ، وابن حزم إلى عمر بن عبدالعزيز ، وهو عامله على المدينة » ، وصوابه «أبوبكر ابن محمد بن عمرو بن حزم » ، وهو الذي كان عامل عمر بن عبد العزيز على المدينة ، فظنه المحقق رجلين ، وإن كان هذا يناقض سياق الكلام أنه رجل واحد ، « أبو بكر محمد بن عمر » بحذف « ابن » و « ابن حزم » ، وهكذا وضعه في فهرس الأعلام مقسوماً إلى علمين « أبو بكر محمد بن عمر » ص ١١١ في الجدول الأيسر ، و « ابن حزم » ص ١١١ في الجدول الأيمن ، ولما ظنهما اثنين أعرض عن الترجمة لهما ، إذ لم يجد في مراجعه ما يرشده إليهما على النحو الذي أثبته .

ومنها أيضاً ما جاء في ص ٧٥ : « عن سليمان بن موسى أن أبا سيار النسعي (؟) قال للنبي صلى الله عليه وسلم » إلخ ، وعلامة الاستفهام من وضع الأستاذ المحقق وصحة هذا الاسم « أبو سيارة المتعي » بضم الميم وفتح التاء المثناة الفوقية ، وله ترجمة في الإصابة ٧ : ٩٤ وذكر له الحديث الذي هنا ، ونسبه لأحمد والبغوي وابن ماجة . وهو في مسند أحمد ٤ : ٢٣٦ وسنن ابن ماجة ١ : ٢٨٧ ورواه أيضاً ابن حزم في المحلى ٥ : ٢٣٢ بتحقيقنا ، ورواه ابن سعد في الطبقات ج ٧ ق ٢ ص ١٣٦ .

ومما يتصل بذلك أيضاً ما جاء في ص ٦٨ : « وفي تاريخ أصفهان في ترجمة أحمد ابن الحسن عن عمر رضي الله عنه — برفعه — أول نعمة ترفع من الأرض العسل » . وعلق الأستاذ على هذا بأن المقريزي لم يعين اسم مؤلف هذا التاريخ ، ثم نقل عن الصفدي أسماء الكتب التي ألفت في تاريخ أصفهان ، وذكر أنه لم يطبع منها إلا «أخبار أصفهان لأبي نعيم» وأنه طبع في ليدن سنة ١٩٣١ . وهذا تقصير شديد منه، فإن المحدثين إذا أطلقوا النسبة إلى تاريخ أصفهان فإنما يقصدون كتاب أبي نعيم ، وهو مطبوع كما ذكر المحقق ، فلو أنه نشط إلى مراجعته بدلاً من مراجعة الوافي للصفدي لوجد هذا الحديث فيه ١ : ١١٦ في ترجمة « أحمد بن الحسن بن عبد الملك » ولوجد أن صحة اسم الصحابي « عبد الله بن عمر » لا « عمر » . ثم إن إثباته كلمة « برفعه » بالباء الموحدة خطأ ، فإن هذه الكلمة اصطلاح للمحدثين ، إذا أرادوا أن يختصروا ، قالوا: « يرفعه » بالياء المثناة التحتية ، فعلا مضارعاً ، يعني يرفع الحديث إلى رسول الله ، بدلاً من أن يقولوا : « قال رسول الله » .

وقد أخطأ الأستاذ المحقق في تحريف نص للمقريزي يحكي فيه اختلاف القراء في قراءة حرف من القرآن ، إذ لم يعرف اصطلاح علماء القراءات في حكايتهم للروايات،

ولم يرجع إلى شيء من كتبهم ، وهي كثيرة مطبوعة ، ولم يسأل أحداً من أهل العلم بها، وما ينبغي مثل هذا في التعرض لحروف القرآن : اختلف القراء في كلمة « يعرشون » من آية النحل ، فحكى المقريزي قراءتهم قال : « فقرأ ابن عامر « يعرشون » بضم الراء ، وقرأ الباقون بكسرها . إلا عاصماً فإنه اختُلف عنه ، فرُوي الوجهان جميعاً » وهذا كلام واضح لا عوج فيه . أكثر القراء قرؤوا بكسر الراء ، وابن عامر قرأ بضمها ، وعاصم قرأ بهما معاً ؟ روي عنه الوجهان جميعاً . ولكن الأستاذ المحقق أفسد الكلام ، و يعذرني الأستاذ إذا استعملت هذه الكلمة ، فإني لم أجد خيراً منها في موضعها ، غيّر كلمة « عنه » فجعلها « عنهم » وغير كلمة « الوجهان » فجعلها « الوجهين » ، فصار الكلام هكذا : « إلا عاصما فإنه اختلف عنهم ، فروى الوجهين جميعاً » وهذا كلام لا معنى له ، ولا يجوز لأحد أن يتصرف في كلام المؤلفين إلى هذا الحد ، وإن أثبت الأصل بالهامش، فإن هذا عبث وإقدام على العلم وجرأة ، نعيذ أبناءنا المتثبتين أن يفعلوه ، أو أن يعود إليه من فعله منهم مرة ، والله يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل .

ولو ذهبت أتتبع أمثال هذه الأغلاط في الكتاب ، لتعبت وأطلت وأمللت القارىء ، وما أريد إلا وضع الأمور مواضعها ، وتنبيه الأستاذ المحقق إلى أمثلة مما صنع، عساه أن يتحرى في إخراج سائر كتب « مكتبة المقريزي الصغيرة » فيخرجها على النحو الذي يجب أن تخرج فيه بين يدي القراء ، حتى تكون تحفة وأثراً نافعاً، إن شاء الله.

وقد رأيت في الكتاب بعض أغلاط لغوية ، أحب أن أنبه إلى ثلاثة منها :

ص ٨ : « سوس المدائن الكثيرة الأهل » . قال الأستاذ في تعليقه : « كذا في الأصل ، والصحيح سياسة » . وما في الأصل صحيح ، فالسوس والسياسة : كلاهما مصدر « ساس يسوس » كما في لسان العرب .

ص ٣٢ : « فتجدها الرعاة » ذكر الأستاذ في التعليق : « في الأصل : الرعا » ، والمعتاد في الخطوط القديمة حذف الهمزة ، لا حذف الهاء ، فالصواب أن تقرأ « الرعاء » بكسر الراء وبالمد ، وهو جمع راع ، يقال : « راع ، ورِعاء » ، و « راع ورعاة » .

ص ٨١ : « ثم قام مسعود إلى مجلس عظيم الأقطار (؟) » . فيظهر من علامة الاستفهام أن الأستاذ المحقق اشتبه في أن كلمة « الأقطار » خطأ ، وهي صواب . الأقطار : النواحي ، واحدها « قطر » ، وهي كلمة قرآنية معروفة .

أحمد محمد شاكر

مشكلة السلوك السيكوباتي

تأليف الدكتور صبري جرجس
٣٠٩ صفحات من القطع الكبير . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦
نقد الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

١ — هذا الكتاب من منشورات جماعة علم النفس التكاملي ، وهو أول ما تصدره من كتب ، وسوف يعقبه منشورات أخرى . وليست هذه الجماعة غريبة عن الجمهور ، فهي التي تصدر مجلة علم النفس .

والمؤلف طبيب بشري ، حصل على بكالريوس الطب ، ثم اختص في الطب النفساني ، وهو يزاول عمله بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية ، وتقدم إلى كلية الآداب بالجامعة ، فنال إجازة الماجستير ، في علم النفس ، وبذلك جمع بين دراسة الجسم والنفس .

والكتاب كما جاء في عنوانه بحث في علم النفس الطبي الاجتماعي .

ويبقى بعد أن عرفت الجماعة ، والمؤلف المنتمي إليها ، أن تعرف موضوع الكتاب : وهو يتركز في هذه اللفظة « السيكوباتية » . إنها اصطلاح أعجمي فني خاص ، لايفهم مدلوله إلا المقربون أشد القرب من العلم بالأمراض النفسية والعصبية . وكان حرياً بصاحب الكتاب ، وليس هو بالغريب عن علم النفس ، أن يستهوي جمهور القراء بتوضيح العنوان ، وتذليل هذا الاصطلاح الجديد ، حتى لا ينفر فينصرف ، أو يرهب فيصدف .

ومع ذلك فالمؤلف معذور ، لأن نقل الاصطلاحات إلى اللغة العربية عسير ، ولأن التعريفات التي وضعت له في اللغات الأجنبية مختلف فيها أشد الخلاف . وقد انتهى المؤلف بعد عرض المشكلة ، وتاريخها ، وموضوعها ، ومنهج البحث ، وبعد دراسة بضع عشرة حالة في مظاهرها الإكلينيكية ، وبعد تعليل السلوك السيكوباتي ، إلى الفصل الرابع في التعريف والتصنيف . وكان يحسن أن يبدأ بالتعريف حتى لا يترك القارئ في غموض إلا إذا كان يفترض معرفة القراء بطرف من هذا البحث . ولكل شيخ طريقته .

قال في صفحة ٢٥٩ : « ونحن نرى أن الحالة السيكوباتية يمكن أن تعرف بأنها اضطراب خطير في الشخصية يمنعها من التكامل ، ويشوه علاقة الفرد بالعالم الخارجي ، ويصدر هذا الاضطراب بصفة خاصة عن قصور في نمو الأنا ، والأنا الأعلى ، يلازم الفرد منذ نشأته ، أو ينشأ في سن مبكرة لا تتجاوز البلوغ ، فيعجزه عن تمثيل الزمن كخبرة حية ، وعن إدراك جانب المعنى في الحياة والعلاقات الإنسانية . وتبدو مظاهر هذا القصور في سلوك لا اجتماعي أو مضاد للمجتمع ، يتميز بالاندفاع ، وبأولية القيم القصيرة الأجل ، وباتباع مبدإ اللذة ، مما يجعل صاحبه عاجزاً عن الإفادة من التجربة ، ومن ثم عن التكيف مع البيئة الاجتماعية . وليست تجدي معه وسائط العلاج ، أو وسائل الردع فيما نعرف حتى الآن » .

وهو تعريف يحتاج إلى تعريف .

٢ — الحالات التي عرضها ووصف تاريخها طريفة كل الطرافة ، لأن سلوك أصحابها أشبه بالقصص ، والاطلاع عليها يقرب فكرة السيكوباتية إلى الذهن . ونلخص إحدى هذه الحالات ، وهي الحالة الثانية (ص ٣٧ — ٤٦) ، لكي نلقي الضوء على السلوك السيكوباتي :

أحضر المريض «ب» إلى مستشفى الأمراض العقلية لاعتداءاته وسرقاته المتكررة، وعلى الأخص سرقة السيارات، وتشرده وشذوذه . وأبرز شيء في تاريخ أسرته انفصال أبيه عن أمه ، وهو في السادسة من عمره ، ثم زواج أبيه من غير أمه ، وأمه من غير أبيه . وقد أصيب وهو في الثالثة بحروق ، ووقع في الخامسة من فوق الدرج ، وأصيب بارتجاج في المخ ، وفي السادسة وقع من الدراجة وأصيب بهذيان ثلاثة أيام . كان أبوه كثير الخلاف مع أمه ، فلما طلقها أصبح سلوكه مع زوجة أبيه سلوك العناد والتحدي ، وكان أبوه يعاقبه بالضرب ، ونجح في المدرسة الابتدائية ، وابتدأ شذوذه في المدرسة الثانوية ، وكثر هروبه من المدرسة ، وأدركته المراهقة ، وتعود العادة السرية ، وتعرف إلى كثير من الفتيات ، وانزلق إلى سرقة السيارات لكي يصطحب عشيقاته فيها ، ثم أخذ يسرق بعض أثاث المنزل للحصول على المال ، وكان تشخيص حالته بالمستشفى في المرة الأولى « النقص الخلقي » . وفي المرة الثانية « جنون الصرع » .

وهذه خلاصة الحالة الخامسة (ص ٥٩ — ٦٨) .

جيء بالمريض «و» إلى المستشفى لارتكابه طائفة من المخالفات الخلقية والقانونية آخرها انتحال شخصية موظف عمومي . بدأ شذوذه يظهر بعد السنة الأولى من حياته

في العناد والمشاكسة ، وكان في المدرسة متلافاً كثير الاعتداء على غيره ، وتعلم العادة السرية منذ المراهقة ، ولم يقلع عنها حتى الآن ، بالرغم من اتصاله بالنساء ، يحب الاتصال بالخادمات وإيذاءهن ، وحالفه الحظ ، فاجتاز الدراسة ، وتوظف في بلدة ، ولكنه كان مثال السلوك السيء بين إخوانه ، يكثر الاقتراض منهم دون سداد ، بل من كل شخص يعرفه أو يتعرف إليه ، وفصل من العمل لتهم خلقية ، ثم ارتمى في أحضان راقصة فتزوجها ، ثم طلقته بعد أن ابتز مالها ، وتزوج غيرها من طبقة لاتليق بمنزلته ، ثم عاش عيشة التسكع والابتذال والاحتيال ، منتحلاً شخصية ضابط بوليس ، ليتسنى له ارتياد أماكن المومسات ، والبنسيونات ، وضبط وأحيل إلى مستشفى الأمراض العقلية ، فشخصت حالته بأنها « نقص خلقي » .

فالسيكوباتي شاذ في سلوكه ، والسيكوباتية نوع من الشذوذ يرجع إلى الاندفاع ، وطلب اللذة العاجلة من أي سبيل ، حتى لو أدت إلى معارضة الأخلاق والمجتمع والقانون .

وأقترح لفظة « المستهتر » مرادفة للسيكوباتي ، على أن تختص بمعنى الشذوذ والانحراف . والسيكوباتية : هي الاستهتار ، الذي يحمل معنى الاستخفاف بالمجتمع والأخلاق والقانون .

الأمراض العصبية والنفسية * من أشق الأمراض وصفاً وتعليلاً ، ولا يزال العلم بهما في بدايته ، والخلاف بين العلماء عظيم على التشخيص والتعليل . غير أن علم الطب العقلي يخطو ولاريب خطوات واسعة مع تقدم العلوم الفيزيقية والبيولوجية ، واختراع الآلات الضابطة لمختلف أنواع السلوك ، وإرجاعها إلى ما يوازيها من أعضاء الجسم .

وقد أشار المؤلف (ص ١٣) « إلى نتائج الرسم الكهربائي للمخ ، في بعض أمراض المخ العضوية ، وفي حالات الصرع والحالات السيكوباتية » . ودراسة كهرباء المخ والعلاج بالكهرباء آخر ما وصل إليه العلم ، ونحن نرجو أن يصل منه العلماء إلى شيء مفيد ، كما أن التقدم في دراسة الغدد وإفرازاتها قد يبين العلاقة الوثيقة في المستقبل بين الجسم والعقل .

ومشكلة المستهترين أو السيكوباتيين هي قبل كل شيء في إلحاقها بإحدى المجموعتين من الأمراض العصبية أو النفسية ، ويرى المؤلف أنها وسط بينهما . وهناك مذاهب مختلفة في تعليل سلوك المستهتر ، منها مدرسة التحليل النفساني ، التي ترى أن سلوكه

* استعمل المؤلف لفظتي العصاب والذهان

لايتعدى طور الطفولة ، ومذهب المدرسة الاجتماعية ، ومذهب ثالث يجعل علة الاستهتار في الجسم ، ورابع يلحقه بالأمراض العقلية ، ويقول الدكتور إدورد إستركار : « إن الشخصية السيكوباتيـة أدنى إلى العيوب الخلقية ، منها إلى الأحوال المرضية » ✲ .

A defect rather than a pathologic alteration

ومهما يكن من شيء فلابد للطبيب المعالج من تكوين نظرية موحدة متماسكة ، يشرف منها على السلوك الإنساني ، فيرده إلى أسبابه وتنكشف له دوافعه ، ويهتدي بعد ذلك إلى علة الانحراف والشذوذ والمرض . فالأصل أن هناك دوافع أساسية تحرك الفرد إلى العمل . ونظرية فرويد خير مثال للنظريات الكلية المفسرة لسلوك الصحيح والمريض على حد سواء ، وهذا لا ينفي وجود اعتراضات كثيرة على هذه النظرية ، في تفصيلات جزئية ، ولـكن جوهرها يبقى سليماً ، وخطوطها الرئيسية صحيحة .

وقد سبق أن وجهت إلى الدكتور القوصي نقداً خلاصته أنه يعرض نظرية مكدوجل ثم نظرية فرويد من غيرأن يتخذ منهما موقفاً صريحاً محدوداً ، أهو من أتباع مكدوجل ، أم من أنصار فرويد ، أو أن له مذهباً خاصاً يختلف عنهما ؟ ويبدو أن هذا النقد نفسه يمكن أن يوجه إلى الدكتور صبري جرجس : فهو يعرض نظريات العلماء المختلفة ، ويحسن ولا شك عرضها وتلخيصها ، ويكثر من الإحالة إلى المراجع المختلفة ، ولـكن أين نظريته أو مذهبه ؟ قد يقول إنه لخصه في التعريف الذي سقناه عنه في صدر هذه الكلمة . غير أن هذا التعريف متعارض في أطرافه ، يحاول صاحبه التوفيق بين شتى المذاهب حتى لا يفوته ما في كل منها من محاسن ، فهو يبدأ بقوله : إن الحالة السيكوباتية اضطراب في الشخصية يمنعها من التكامل ، وهذه نظرة في علم النفس فردية لا اجتماعية ، ثم يحاول أن يفسر الحالة تفسيراً اجتماعياً ، بل لقد جعل نظرته الاجتماعية جزءاً من عنوان الـكتاب، فقال : بحث في علم النفس الطبي الاجتماعي . وكذلك يأخذ بطرف من مذهب فرويد ومن غيره .

وقد تسألني عن مذهبي الخاص في هذه المشكلة ، ولك الحق في هذا السؤال ؛ إذ لا يكفي النقد وبيان ما في نظريات الغير من أخطاء وقصور ، بل الواجب أن تدلي بالرأي الذي تعتقد أنه الصواب .

والرأي عندي ، وأنا أتابع فيه بعض العلماء ، أن الاضطرابات النفسية إذا لم تكن ناشئة عن أسباب وظيفية أو عيوب فسيولوجية ، فإنها ترجع إلى سوء التربية منذ

✲ Strecker : Fundamentals of Psychiatry

الصغر ، وإلى فساد العلاقة بين الطفل وأبويه وإخوته والأشخاص المحيطين به ، وما يترك ذلك من آثار وجدانية في نفس الطفل تصحبه حتى الشباب والكهولة ، وقد يصعب التخلص منها .

وقد أشار المؤلف إلى هذا الرأي في ختام كتابه فقال : « فقلما نرى علة من علل النفس أو العقل ، أو لوناً من ألوان الزيغ والانحراف ، أو مشكلة من مشكلات السلوك ، إلا اتصلت منابعها بالسنوات الأولى للحياة . »

٤ — يقول المؤلف إن السيكوباتيين لا تجدي معهم « وسائط العلاج أو وسائل الردع فيما نعرف حتى الآن » وليس هذا عيب المريض بل عيب الطبيب . ذلك أن أساس العلاج النفساني حسن الصلة بين الطبيب المعالج والمريض ، فينقل إليه هذا الأخير انفعالاته المخزونة ، ويفضي إليه بجميع مكنونات نفسه ، فإذا فقدت هذه الصلة فلا جدوى في العلاج . جاء في ص (٥٢ — ٥٣) عن الحالة الثالثة أنه « مما تجدر الإشارة إليه أن (م) في تاريخ حياته لم يكن يشير إلى أمه أو إلى أخواته ، وكان يستبعد كل سؤال عنهن بالإسراع إلى القول بأنهن لا يتدخلن في شؤونه ، وأن أثرهن في حياته قليل ، وبغير أن نحاول التكهن بتفصيلات علاقته بهن ، فإننا نستطيع الاشتباه في أن هذه العلاقة كانت من عوامل الصراع في نفسه » .

والسؤال الآن : كيف يصل الطبيب إلى اجتذاب المريض واكتساب ثقته التامة ؟ الواقع أن العلاج النفساني فن يكتسب بالممارسة ، ويحتاج إلى استعداد خاص ، ومواهب لا تتوافر في كل عالم بهذا العلم ، وليس من الضروري أن يفلح الطبيب ، مهما تكن قدمه راسخة ، في اجتذاب ثقة جميع المرضى .

أقول هذا عن خبرة بهذا الفن في العلاج ، وخلاصته خبرتي أن المرضى أصناف ثلاثة : صنف ينفر تماماً ، وصنف يستسلم كل الاستسلام ، وثالث ، وهو الأغلب ، يركن إلى الطبيب بعد مقاومة قد تطول وقد تقصر . والمقاومة دليل المرض النفسي عند أرباب هذا الفن .

وأكرر ما قلته سابقاً من أن امتزاج نفس المريض بالطبيب هو الشرط الأول في العلاج ، وعندئذ يفضي المريض بأسرار تعد حقاً من الغرائب .

كنت أعالج شابا وسألته عن أحواله الجنسية فقال : إنه يقضي الإجازة الصيفية عند أهله في الريف ، وفي الحقل يشبع غريزته الجنسية مع الفلاحات ، ومع الخادمات في الدار ، قلت له : مادمت تجد بغيتك خارج المنزل فلماذا تنتهك حرمة الدار ؟ فروى لي

أنه يجد في نفسه دافعاً لا يقاوم يحركه إلى طلب الخادمة على ما في ذلك من خطورة انكشاف الأمر وافتضاح السر . وعجبت لهذه النزعة ، وظللت أسبر غوره في التحليل ، حتى تذكر أنه في عهد الطفولة ، في سن الثالثة أو الرابعة ، كانت الخادمة التي تعنى بأمره ، وهي امرأة متوسطة السن غير متزوجة ، تتجرد من ثيابها ثم تضعه فوقها ليعبث بها عبثاً جنسياً ، وكان يجد في ذلك لذة كبيرة لم يمح الزمن ذكراها من نفسه ، وما زالت تلح عليه في طلب مثل ما كان يشعر به من لذة . وقد أورد المؤلف في حالاته انصراف الكثيرين إلى الخادمات ، فلعل القاعدة السابقة تلقي شيئاً من الضوء على سلوكهم .

ومن سوء التربية في الصغر أن يترك الآباء أبناءهم في أحضان الخدم ، فينشأ الأطفال متعلقين بهذه الطبقة متخلقين بأخلاقها . ولقد ذكر ابن سينا في كتاب سياسة الرجل أهله وولده أنه ينبغي حسن اختيار المربية للأطفال . وهذه مسألة فطن إليها القدماء ، كما يعنى بها المحدثون ، في غير حاجة إلى طول تعمق في النظريات .

٥ — من الخلال التي يتصف بها المستهترون التماس المعاذير لكل ما يفعلون ، فلا يعترفون بالخطأ ، ولا يشعرون بالندم ، وهي عملية خاصة ، من شأنها تسويغ جميع الأفعال ، وتبرير أنواع السلوك . ويعرف هذا بمنطق التبرير ، في مقابل منطق الواقع ، وهو منطق شائع مع الأسف الشديد عند كثير من المصريين ، وإليه تعزى أغلب النقائص الموجودة عندنا ، ولا أمل في تقدم شبابنا إلا إذا تغيرت عقليته من التبرير إلى منطق الواقع الصريح ، ومرجع ذلك سوء التربية في الصغر ، واختلال الأمور بين الأب والأم . إن الأمهات عندنا رقيقات العاطفة ، يسترن عيوب أبنائهن ويخفينها عن أعين الآباء ، خشية غضب الوالد وثورته على الابن وضربه إياه . فإذا احتاج الابن إلى مزيد من المال ، أعطته أمه إياه دون علم أبيه ، وإذا تأخر خارج الدار ليلاً ، قامت تفتح له الأبواب خفية عن العيون . فإذا رسب في دراسته انتحلت له المعاذير . وهكذا يفسد الابن بين شدة أبيه وإهماله ولين أمه وسوء تصرفها ، يتعلم الاندفاع لأن أمه تجيبه إلى كل ما يطلب ، ثم يتعود الكذب والإهمال والكسل والغش ، حتى ينتهي أمره إلى الاستهتار ، وهو ما يسميه المؤلف المشكلة السيكوباتية ، ومرد ذلك كله إلى فساد التربية .

وقد تسأل : وما أساس صلاح التربية ؟ ونقول إنه في شيء واحد ، منه يتفرع كل شيء : تحمل المسؤولية ، أو الاعتماد على النفس . وتتفاوت الأمم بمقدار نشأة

أبنائها على الاعتماد على أنفسهم وتحمل أعباء المسؤولية في الحياة . كانت إنجلترا أقوى دولة لعناية أهلها بالتربية ، ثم فاقتها أمريكا لمزيد عنايتها بهذا الفن ، وانصراف شعبها إلى التربية على أساس علمي صحيح . وهذا لا ينفي أن بعض الأمريكان شواذ وفيهم المستهترون؛ ولكن نسبتهم إلى مجموع الأمة نسبة ضئيلة ، بالقياس إلى هذه النسبة في مصر .

غير أن الاهتمام الملحوظ في مصر والشرق بقراءة كتب التربية وعلم النفس والصحة والعقلية ، دليل على يقظة الوعي القومي ، واتجاه الشرقيين إلى علاج مشكلة التقدم والرقي علاجاً يقوم على الأساس الصحيح ، وهو أساس العناية بالطفولة من الناحية النفسية .

وسوف يجد قارئ هذا الكتاب فائدة محققة في ناحية من نواحي الاضطرابات النفسية ، لم يتعرض لها الباحثون بلغة الضاد من قبل .

وكنا نحب أن تسلم لغة الضاد في هذا الكتاب من بعض الأخطاء اللغوية . أما قول الدكتور مصطفى زيور في تقديمه للكتاب إن هذا الجهد قد انسجم فى أداء بليغ متسق بل شاعري أحياناً ، فهو نوع من الإسراف في التحية ، كان يحسن أن يقصرها على الجانب العلمي .

وفي آخر الكتاب قائمة بالمراجع ، وثبت بالألفاظ والمصطلحات العلمية . وإذا كنا نختلف مع المؤلف في بعض المصطلحات العربية التي وضعها ، فله أجر العامل المجد ، والباحث المجتهد .

أحمد فؤاد الأهوانى

عربي يروي قصته

An Arab Tells His Story

تأليف الأستاذ إدورد عطية

٢٢٩ صفحة من القطع الكبير . جون مري . لندن ١٩٤٦

نقد الأستاذ إسحق رمزي بلندن

مما يلفت النظر ويبعث على التفاؤل من نواح عدة كثرة الكتب التي تصدر في هذه الأيام باللغة الإنجليزية خاصة بالشرق العربي والأحداث التي تجري فيه ، وأكثر ما يبعث على الرضى في هذا أن جانباً طيباً من تلك المؤلفات قد أصدره مؤلفون من أبناء العروبة قد جمعوا بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب ، وأنهم بسبيل التقريب بين

الثقافتين ، لأنهم يعرفون كيف يعرضون وكيف يكتبون للجمهور هنا ، فيلقى ذلك العرض وتلك الكتابة إقبالا كبيراً من القراء ، يكفي للدلالة عليه ما تلقاه كتبهم من ثناء النقاد وامتداحهم في الصحف والمجلات السائرة ، مما يدحض القول بأن هذه الكتب لا تتعدى سوى فئة محدودة من المستعربين والمهتمين بالمسائل السياسية في الشرق . وكم يعجب المرء حين يرى بعيني رأسه مثل هذا الكتاب الذي نتناوله اليوم بين أيدي بعض القوم في السيارات الحافلة في لندن أو في قرى بعيدة في صميم الريف الإنجليزي ، لم يكن المرء ليتصور أن أحداً من أهلها يحفل بالتعرف حتى على مكان بلاد العرب من رقعة العالم .

وهانحن اليوم بصدد كتاب استمتعنا بقراءته ، وسعدنا بأن مؤلفه قد استطاع في أمانة وحيدة ، وفي شجاعة وقوة ، أن يعرض تاريخ حياته هو ، عرضاً يلخص التيارات المتعارضة التي عصفت ومازالت تعصف بحياة المفكرين والمتعلمين في الشرق العربي ، فتؤثر في حياة الفرد أثراً أبعد مدى وأكثر تغلغلاً في كيانه من العوامل المألوفة التي تقيم الحياة النفسية والروحية للأفراد في غير هذه البلاد .

انتظرنا أن نرى في هذا الكتاب عرضاً يقتصر على السياسة وعلى المشكلات الخاصة بالحياة العامة في الشرق العربي ، وخاصة لأن مؤلفه ممن يعملون في هذه الناحية، لكن مالقيناه من متعة عقلية أدبية خالصة من قراءتنا إياه تتطلب منا أن ننوه به وأن نلفت أنظار من يقرؤون اللغة الانجليزية إليه .

وخير مايوجز فكرة هذا الكتاب ما يقوله مؤلفه في تقديمه : «لقد خبرت في حياتي الخاصة وفي عملي شكولا مختلفة وألواناً من المشاعر التي يبعثها ضغط الحضارة الغربية ، وخاصة أثر بريطانيا السياسي في العالم العربي — وهذا الكتاب محاولة لوصف هذه الخبرة وأسسها على شكل ترجمة لحياتي . ومما يسوغ كتابتي إياه أني لم أجد أحداً عرض لهذا الموضوع من قبل ، على الأقل من ناحية الخبرة الشخصية الخاصة ، وأن الكتابة الصريحة من هذه الناحية قد تعين الإنجليز والعرب على فهم بعضهم بعضاً ، فهماً لم يوفقوا إليه من قبل » .

يبدأ الكتاب بوصف سوريا قبل ١٩١٤ ، وبحديث عن الخلافات التي كانت تفرق بين طوائفها المختلفة ، ثم يتحدث المؤلف عن تاريخ أسلافه وأسرته ، وكيف كان يتغلغل الإيمان قوياً عميقاً في نفوسهم حتى ليكتب جده إلى ابنه — أبي المؤلف — حين أنعم عليه بلقب البكوية على الكتب التي يبعث بها إليه « حضرة صاحب العزة (والعزة لله

وحده) الدكتور سليم بك عطية » حتى يخلص مما كان يعده كفراً .

ثم يتحدث المؤلف عن سنوات طفولته ، ويصف في بيان رائق أثر الثقافة الإنجليزية والكتب الإنجليزية والمدارس الإنجليزية في تكوين ذوقه وتوجيه ميوله ، وكيف دفعته إلى الإيمان بكل ما هو غربي، وإلى أن ينظر بعين الإعجاب وما هو أكثر من الإعجاب إلى مظاهر الحضارة الأوربية وكافة ماتحويه، حتى ليصبح كما يقولون أكثر تعصباً للقوم من تعصبهم لأنفسهم — ويستغرق هذا الجانب من القصة فصولاً مفعمة بالنظر الأدبي والفني ، وبألوان العاطفة والمشاعر التي تعرض لحياة الفتى الناشئ ، حتى ينتهي بنا إلى خروجه من جامعة أكسفرد « فأقبلت على الدنيا قطعة من منتجات التقاليد البريطانية أومن بأن الأسلوب البريطاني في الحياة ، ذلك الأسلوب الذي يقوم على الديمقراطية الحرة ويحترم الفردية ، هو خير أشكال التقدم الاجتماعي والسياسي ، وأنه الطراز الذي ينبغي أن تهدف إليه أمم الأرض قاطبة » (ص١١٨) حتى يقول : « سوف أستيقظ في الغد لأرى الطرابيش والجلاليب . . ولأسمع الثرثرة باللغة العربية — إني لفي طريق العودة إلى أهلي ، كي أعيش وأعمل بين السوريين والمصريين . إني لأعود إلى الشرق كي أستقر فيه ، ذلك الشرق الذي حاولت جاهداً أن أقطع الأواصر التي تربطني به . . وإني لأعود اليوم إليه بينما يشيع في النفس إزاءه جانب كبير من النفور ، بل الكراهية » (ص ١٢٣) .

يحدثنا المؤلف عقب هذا عما خالج نفسه عند عودته إلى وطنه ، وعما لقيه في أثناء اشتغاله بالتعليم في السودان ، وينتقل بنا انتقالا وئيداً من حيث كان يؤمن بكل ما هو بريطاني ، إلى بدء نفوره من البريطانيين ، وكيف ابتدأت الانفعالات التي ثارت بنفسه نتيجة للمعاملة التي لاقاها من المستعمرين تعتمل بين جنباته ، فتؤثر في الناحية الذهنية الخالصة ، حتى أتت الريح التي تلهب النار المخبوءة « في شخص الحاكم العام ، إذ أتى صاحب السعادة يوماً يزور كلية غردون . فاصطف المعلمون الإنجليز لاستقباله ، وتشرفوا بالتقديم إليه واحداً إثر واحد ، أما المعلمون من غير الإنجليز فقد طلب إليهم أن يبقوا في حجرتهم، فلم يكن لهم مكان في الاحتفال . وهكذا بقينا في حجرتنا ، كما تخفي الأسرة في المطبخ أحد الفقراء من أقاربها إذا وفد على الدار ضيف ممتاز ، جلسنا في غرفتنا ننتظر ، بينما جلس صاحب السعادة يحفه الإنجليز في فناء الكلية يشهدون عرض الألعاب ، ثم صافح الضيف الممتاز أعضاء الأسرة مرة أخرى وارتحل ، فأذن للمغمورين أن يخرجوا من المطبخ » .

ولم يطق « العربي » هذا اللون من التفرقة ، وبدأت المعايير تتغير عنده ، واختلفت وجوه النظر . . حتى واتته الظروف بعمل آخر ، وبألوان أخرى من الخبرة ، استطاع خلالها أن يهتدي إلى أشكال من العاطفة ، وطرائق في التفكير يوفق فيها بين ولائه للشرق واعتزازه بالانتساب إليه والعمل في سبيله ، وبين الإيمان بثقافة الغرب وحضارته .

رغم هذا كله فليس هذا هو أكثر ما يشوق في هذا الكتاب ، إذ يبدو لنا أن خير ما فيه وأعمق ما فيه هو قدرة صاحبه على سرد حياته الخاصة ، وعلى تبيان أثر الأحداث العامة في تكوين نفسيته . مما يبعث على كثير من الروية ، ومما يمكن أن يكون بداءة لتفهم جانب من العوامل التي ستبعث كثيراً من أسباب القلق وألوان العناء النفساني التي تلقاها فئة غير قليلة من الشباب في مختلف البلاد العربية ، تلك العوامل التي ينبغي أن نعمل على دراستها ، وأن نشرع في تناولها بالوقاية والعلاج قبل أن تعصف بحياة الأفراد، بل بحياة جيل أو أجيال بأسرها .

ومما يغبط عليه المؤلف أيضاً طلاوة أسلوبه وتدفقه وقوة بيانه الرائق وغناه . على أنا رغم إعجابنا أيضاً بجرأته في التعبير عن آرائه كنا نؤثر له أن يتريث قليلاً ، بل كثيراً ، عند حديثه في الموازنة بين الحضارة والعقلية العربية وبين الحضارة والعقلية الأوربية (ص ١٨٤ — ١٨٦) إذ يلوح لنا أنه قد جنح هنا كثيراً نحو ترديد كثير من الآراء التي ترددت بين مفكري الغربيين . هذا إلى أنه لولا إشفاقنا من أن نثير نقاشاً لاخير فيه البتة لناقشنا رأيه الذي يميل إلى قصر دور التوفيق بين الشرق والغرب على بعض البلاد العربية فحسب ، رغم ما في هذا من مبالغة ظاهرة .

وبعد ، فإن هذا كتاب جدير بأن يهنأ به صاحبه ، جدير بأن يزهو به كل شرقي « يجدر حقاً أن يشتريه المرء وأن يتأمل ما فيه وأن يعيد قراءته ، وهو سجل سوف تبقى قيمته إلى ما بعد الأزمات الحاضرة » كما قال عنه واحد ممن عرضوا له بالنقد والتقريظ

إسحق رمزي

تغريدات الصباح

٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط . دار المعارف . القاهرة ١٩٤٦

نقد الأستاذ حسن كامل الصيرفي

عندما طلب إليّ صديقي رئيس تحرير هذه المجلة دراسة ديوان « تغريدات الصباح » والكتابة عنه ، رحبت بذلك الطلب ، لأن لناظمه الأستاذ محمد الأسمر في نفسي

من المحبة ما يوجب عليّ ذلك ، ولشعره من التقدير ما يدفعني إلى العناية بدرسه . ولكنني خشيت أن تتغلب عوامل المحبة والإعزاز على واجب الناقد ، فتحيد به عن وجه الحق . ذلك أن بيني وبين صاحب الديوان من الروابط الروحية والإقليمية ماقد يميل بالميزان الصحيح . فموطن الأسمر موطني ، ومطلع شاعريته هو مطلع شاعريتي ، فكلانا من « دمياط » ، تلك المدينة الساحرة القائمة كابتسامة الفاتنة الحالمة على ثغر النيل الجميل ، يحاول لسانها الرقيق أن يحيل صخب الموج الثائر عند المصب الشرقي في البقعة الذهبية الساطعة التي يسيل لها لعاب البحر الأبيض ويجزر مده عنها وهي ضاحكة ساخرة من لقاء ذلك الهدوء بذلك الصخب ... تلك البقعة هي « رأس البر » ... وقد تكون للنعرة الأقليمية ما للنعرة القومية من آثار في النفس .

ولكنني آثرت أن أرضي جانب الحق — والأستاذ الأسمر من حماة هذا الجانب فهو لاتغضبه الحقيقة — لذلك جعلت بين شعره وبين تلك الروابط حجاباً ، ولم أقرأ مقدمة الأستاذ أنطون الجميل باشا إلا بعد أن أتممت قراءة الديوان ، وكونت فكرتي عنه حتى لايكون لها تأثير في رأيي .

وقبل أن أبدأ في عرض الديوان أرى لزاماً عليّ أن أعطي القارىء صورة عن شعر الأسمر ، فهو شعر رصين ، يجمع بين قوة الديباجة ورقة الشعور ، وفيه نزوع إلى الطلاقة والتحرر من بعض القيود ، والتحرر هنا مبني على قدرة وتمكن ، وهو يقول في التعريف والتمهيد الذي قدّم به ديوانه : « ولست في صياغتي لهذه القصائد من الذين يلزمون أنفسهم ما لايلزم ، ويضيقون ماليس بضيق ، فربما خالفت علماء العروض فيما لا يتعارض مع النغم الشعري كما أراه . . . كما أني إذا وجدت للفظة المألوفة الخفيفة على السمع ما يجيزها من النحو أو الصرف أو القياس اللغوي أجزتها وفضلتها على غيرها ، مادام غيرها لايقوم في النغم الشعري مقامها » .

وإنه لجميل من الأسمر أن يتجه هـذا الاتجاه ، وجميل منه أن يصرح به ، فلقد أعجب المحدثين هذا التصريح ، وكانوا يظنونه من المحافظين المتعنتين ، فإذا هو غير ذلك . وقد أشار إلى هـذه الناحية الأستاذ الكبير أنطون الجميل باشا في المقدمة التي طرز بها الديوان ، حيث قال إن تعبير الأسمر ... « يتنازعه عاملان : عامل التقليد ، فينزع منزع الأقدمين ؛ وعامل التجديد ، فيذهب مذهب المحدثين » .

على أن من يطالع شعر الأسمر يجد أنه في نزوعه منزع الأقدمين لايبعد في ذلك إلى الأفق الذي يطلع منه هـذا اللون ، ولا هو في ذهابه مذهب المحدثين بالذي يقع

كثيراً على مايقع عليه هؤلاء ، ولكنه وسط بين هذا وذاك . ولعله لو أطلق لنفسه العنان غير مقيد بشيء — وهو بطبيعته نزاع إلى التخلص من القيد كما يقول — من قيود البيئة وقيود المجتمع ، وخلص لنفسه لوقع على شيء كثير مما يقع عليه المحدثون ، وأصاب الهدف الذي يتجه إليه الشعر في هذا العصر .

وديوانه « تغريدات الصباح » مجموعة ضمت ماجاشت به نفسه في صباح حياتها الشعرية ، وما ترنمت به من التغريدات ، وإنها ليست كلها تغريدات الصبا الأول ... وقد قسمها إلى عدة أبواب ، اجتمع لها مائتان وخمس وأربعون قصيدة ومقطوعة ... على أن في هذه المجموعة ما لايمكن أن تنطبق عليه كلمة « تغريدات » بل إن فيها ماهو أقرب إلى الزئير ...

وقد وضع للأبواب أسماء لما انطوى تحت جناح كل منها من مقطوعات وقصائد . فثمة باب « الملكيات » وفيه مانظمه في المغفور له الملك فؤاد الأول . ومن أجمل قصائد هذا الباب القصيدة التي أنشدها بالجامع الأزهر في عيد من أعياد جلوس جلالته ، ومن أجمل مافيها قوله :

مولاي ليس الشعر فيك تخيُّلاً ... بل منطق بين الحقائق مُعرقُ

نظرتْ لك الشعراءُ ثُمَّتَ غرّدت ... فكأنما أعطيتهم ما نمّقوا

وفي ذكرى الأربعين لوفاة جلالته يقول :

لم يدر مدفعه غداة أقلّه ... لمقرّه من حمّلوه ولا وعَى

لو كان يدري لاشتكى فولاذُه ... والحزن إن لبس الحديد تضعضعا

فاعجب له من مدفع يمضي إلى ... بعض القبور لكي يواري مدفعا !

وهذا البيت يذكرني ببيت للأستاذ العقاد من قصيدة له في ذكرى الأربعين لوفاة المغفور له سعد زغلول وفيه يقول :

خرج المدفع يطوي مدفعاً ... الأساطيل اتّقته والحصون

ثم يلي ذلك باب « هدى شعراوي » وفي هـذا الباب مقطوعات وجهها الشاعر إلى السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي التي قدم إليها هذا الديوان ، ومن أحسن ماقال فيها:

تلك التي كم أنشأت من رجل ... وغيرها الرجال ينشئونهـا

على أن الشاعر قد وقع فيما أخذ على المرحوم شوقي بك حين استهل قصيدته في رثاء سعد بقوله :

ودّعوا الشمس ومالوا بضحاها   وانثنى الشرق عليها فبكاها

فقد أخذوا عليه أن يصف المرثيّ ، وهو رجل ، بصورة يجب أن توصف بها الأنثى . وقد قال الأسمر :

« بغداد » عادت فهي في دار «هدى»   شعراً ونثراً ، و « هدى » «هارونها»

وهو مأخذ في محله هنا ، ولا ينهض عذراً أن الشاعر قد مهد لهذه الصورة قبل ذلك ببيت يقول فيه :

إن صحّت المرأة كانت رجلاً   بل أسداً ، وخدرها عرينها

ثم باب « القوميات » ، ولعله من أكبر أبواب الديوان ، وفيه تظهر القوى المذخورة في شعر الأسمر — التي تظهر في شعر كثير له لم ينشر في هذا الديوان — فهو من شعراء الوطنية ، وشاعريته فيها دفاقة ، وبيانه فيها طيع مُوات . وهو في هذا الباب الشاعر الباكي على مايصيب أمته من خلافات حزبية ، وما تجر هذه الحزبية من ألوان الشحناء والبغضاء والتنابذ . وقد قال الشاعر في مقدمته إنه يلفت « النظر إلى أن بعض القصائد في هذه المجموعة نظم لرجال خاصاً بهم ، ولكني رأيت بعد ذلك أن أجعل هذه القصائد عامة ، فأبعدت أسماء أصحابها عنها » ... ونحن نقول إنه كان من الخير للوطنية وللأدب أن لاتضم المجموعة بعض هذه القصائد ، لأنها احتوت طعنا وتجريحاً في كثير من رجالات مصر ، ومنهم من ربطت الأيام — فيما بعد — بينهم وبين من قيل فيهم هـذا الشعر ، ولن يضير الشاعر أن تخلو مجموعته من بعض هذه القصائد ، فهي ليست في المرتبة التي يرتفع إليها الكثير من شعره ، وإنما دفعت إليها المناسبة العارضة ، ولن يضير التاريخ أن لايسجل الشاعر هذه الأحداث ، فليس كل مايقال بواجب أن ينشر ، على قاعدة أن ليس كل مايعرف بواجب أن يقال . وكان جديراً أن يغفل الشاعر نشر هذه القصائد كما أغفل ذكر أسماء من وجهت إليهم ، لأن إغفال الأسماء لم يطمس ظلها .

ومن أبدع ماقال في هـذا الباب أبيات هي صورة دقيقة للحالة الاجتماعية فى مصر ، ينادي الناس في كل مجتمع وناد بالعمل على إصلاحها وتوقي النقص الذي يجر إلى فساد هذه الحالة ، فهو يشير إلى ذلك بقوله :

تعشقنا مصالحنا ، وهِمْنـــا   بها ، ومصالح الأوطان أحرَى

عجبتُ لها تفيض بكل خير ولا تاقي على الأيام خيراً
بها ما شئت من قمح وقطن ولكنا نجوع بها ونَعْرَى

ثم يأتي بعد ذلك باب أسماه « بكاء الطفولة » وهو من أزخر أبواب الديوان بالمشاعر المتباينة . وفي قصائده وقصائد الباب الذي يليه ، وهو « عبث الطفولة » ، نجد شاعرية الأسمر منطلقة على سجيتها ، معبرة عن أحاسيس الشاعر وعن صور من حياته . ومن أبدع قصائد هذين البابين : « دموع الشاعر » ص٦١ — و « زفرة » ص ٦٣ — و « شعري » ص٦٦ — و « الذكرى » ص ٨٣ — و « الإنسان والرزق » ص ٨٨ — و « صورة » ص ٩٩ — وهي وحي صورة لحسناء يقول فيها :

كبّرتُ للصورة في حسنها فكيف لو أبصرتُ من صُوِّروا ؟ !
أقول للقوم وقد رابهم ما رابهم مني : خذوا وانظروا !
عينان دعجاوان ، كلتاهما خُبِّئَ فيها ساحر يَسحر
وباسم يفترُّ عن لؤلؤ يخطف خطف البرق لا يفتر
كأن ما في الثغر من عقدها تشابه الجوهر والجوهر
أصبح قلبي خافقاً بالهوى وكان ميت الحس لا يشعر
كفرت بالحب زماناً مضى أيتها الصورة أستغفر !

وكذلك قصيدته الغنائية الرقيقة « ليلة الوداع » — ص ١٠٨ — فهي من مبدعاته ، وفيها يهتف من قلبه في لهفة وأسى :

في غدٍ أمضي ، ويلي من غدٍ ليته لا يخلق الله الغدَا

وهي من عيون الشعر الحديث ، مشبوبة العاطفة ، صادقة التعبير ، قوية الأداء . إلى غير ذلك من قصائد هذين البابين ، ومعظمها يسيل رقة وعذوبة . ولذلك ليس عجيباً أن يقول في شعره فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق — وهو صاحب الدراسة الممتعة عن البهاء زهير ، شاعر الرقة والسهولة ، هذه الكلمة : «لشعرك تأثير في نفسي أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبها ، وقد يكون سحراً ذلك الذي ترسله نغماً موسيقياً في أسلوب سهل فيسري في الأرواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجيراً » .

ويلي هذا أربعة أبواب هي « الرازقيات » ، وهي قصائد وجهها إلى الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق ، و « الجميليات » ، وهي قصائد نظمها في الأستاذ أنطون الجميل باشا ، و« المدرسيات » وهي القصائد التي قالها في عهد التلمذة ، وقد كان جديراً بالشاعر أن يعيد النظر فيها ، فإن من بينها ما لا جديد فيه ، ثم باب « الإخوانيات » . ولعل أرق ما في هذه الأبواب الأربعة باب « الرازقيات » .

وبعد ذلك ينتهي الديوان بباب أخير أسماه الناظم « مختلفات » . وفي هذا الباب قصائد كان يستطاع ضمها إلى أبواب سبقت . على أن في هذا الباب ألواناً لطيفة يعرضها الشاعر في بعض الصور التي يرسمها لدمياط في قصيدته « الحنين إلى أرض الطفولة » — ص ١٧٠ — وفيها يقول :

وللأصيل أيادٍ كلها ذهب كيلَتْ جزافاً ولم تُوزن بمثقالِ
يكسو الربى ومياهَ النيل أردية من الحرير ، ولم يظفر بمنوالِ
خيوطها غزلتها الشمس مسرعة قبل الغروب ، فأعيت كل غزّالِ

أو « بو رسعيد » — ص ١٧٢ — أو « مصطاف رأس البر » في قصائده المنشورة من ص ١٩٢ — ١٩٦

***

وهناك ملاحظة يلحظها قارىء شعره ، تلك هي مقدرته على رسم بعض المناظر بريشة ساخرة ، حتى إن قصائده التي من هذا النوع لتكاد تكون لوحات كاريكاتورية ، كما في قصائد « حاجب » ص ١٢٨ — و « ألف صديق » — ص ١٤٥ — و « شاعر ! » — ص ٢٠٣ — و « ضارب الرمل » — ص ٢٠٧ — وفيها يقول :

أمسى يحدّث عن غدٍ ولو أنه يدريه لم يجثم على الطرقاتِ
متدثر بالباليات خصاصة ويروح يسأله ذوو الحاجات !

***

هذه كلمتي في ديوان « تغريدات الصباح » وهذه هي صورة مصغرة لهذا الديوان ، وإنه إذا كانت تلك المجموعة الأولى لما كتبه شاعرنا في صباه الأول بهذه الرقة ، فما أحرانا بالتلهف على أن يخرج لنا مجموعته الثانية ، وقد ضمت الجيد المعروف من شعره ، وقد نشر منه الكثير في الصحف والمجلات ، فلقي ما هو جدير به من التقدير

حسن كامل الصيرفي

التعريف

النظرية العامة للفسخ

في الفقه الإسلامي والقانون المدني
تأليف الدكتور حسن علي الذنون
٤٢٤ صفحة من القطع الكبير . مطبعة نهضة مصر . القاهرة سنة ١٩٤٦

تجري أحكام القانون المدني في مصر على مستنبطات من قوانين غير إسلامية ، وهو في ذلك على الضد من القانون المدني العراقي الذي يجري على أحكام الشريعة الغراء عملا بمجلة الأحكام العدلية التي وضع موادها جماعة من العلماء الأتراك في القرن الماضي على الراجح من مذهب أبي حنيفة النعمان . والعقد من أهم الأمور في القانون المدني ، وهو التزام تطغى مكانته على سائر مصادر الالتزامات الأخرى . وعلى الرغم من القيمة المادية للعقد وضرورة القيام بالتنفيذ فيه فإن أحد المتعاقدين قد يخل بتنفيذ الالتزام أو يتأخر في التنفيذ أو يمتنع عن التنفيذ عامداً أو غير عامد . وهنا يتدخل القضاء وقد يحكم بفسخ العقد وإعفاء الطرف الثاني من الوفاء بما التزم به .

وليس غريباً أن هذه النظرية الموجزة للفسخ يتوافر عليها الدكتور حسن علي الذنون موضوعاً لرسالته في الدكتورية ، فيجعل الحديث عنها في أكثر من أربعمائة صفحة ؛ ويقرأ لها من المصادر العربية الحديثة والقديمة ما يبلغ العشرات عدّاً : ثم يألف المؤلف الوقوف عند عبارات الفقهاء والأصوليين من أمثال الزرقاني والشاطبي والشوكاني وابن عابدين والسرخسي وغيرهم ، وهي عبارات وكتب كاد يبرم بها المحدثون من الحقوقيين ، لولا أن بعث الله في بعضهم همة لبعث التراث التشريعي الإسلامي بعثاً جديداً.

وكان من الطبيعي أن يدخل المؤلف على موضوعه بنبذة تاريخية من نظام الفسخ عند الرومان فالقانون الكنسي فالقانون الفرنسي الحديث . ثم انتقل بعد ذلك إلى أصلاب موضوعه ، وهي ماهية الفسخ وأسبابه وأنواعه وآثاره ودعوى الفسخ وانقضاؤه، وهي أبحاث يجد فيها رجال القانون ورواد الفقه الإسلامي وعشاق الدراسات المقارنة فائدة ولذة عظيمتين . .

دمعة يزيد

تأليف الأستاذ كرم ملحم كرم .
٢٧٤ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة صادر . بيروت ١٩٤٦

« ما من كأس صافية إلا وفي قرارتها نفثة من حثالة » ، ودمعة يزيد قصة وتاريخ بينت ذلك أصدق تبيين ، وصورت ما أحاط بقيام الدولة الأموية ، وتثبيت أركانها من خدع وسفك دماء ، وأظهرت أن السياسة لا تتبدل دسائسها على مر العصور ، فهي دائماً تبحث عن المرتزقة وتسخو عليهم لقضاء حاجتها ، في حين أنها تزدريهم في أعماقها ، وتدير لهم ظهرها إذا نالت بهم طلبتها .

وما أظلم السياسة في حكمها السقيم ! إنها تدفع إلى كل كريه . فهذا معاوية يتفنن في المصانعة — وهو يملك منها الزمام — حتى استمال الأعداء ، وركن إليه من أقام منه على كره وقلى . وها هو ذا يحتال حتى يحمل عبد الله بن سلام على طلاق زوجه أرينب بنت إسحق ليزفها إلى ابنه يزيد الذي شغف بها حباً . وها هو ذا يسعى جاهداً للقضاء على الحسن بن علي ، وإن عده دون أبيه خطراً ورجولة « فالخلافة إن لم تقبض عليها يمينه من قرطها إلى خاخالها فليس سيف العرب الضارب في أقفية أعلاج الروم ولا أميراً للمؤمنين » ، وهولهذا لا يتعفف عن أن يدفع ابنه يزيد يغريَ بخالب وعده « جعدة » زوجة الحسن ويتكلف لها الحب ، ويتصنع الصبابة ، وكلاهما في ريق شبابه فتنخدع وتدس السم للحسن ، فإذا قتلته ، وصفا الجو لمعاوية وابنه ، تنكرا لهؤلاء الذين سخراهم ، وأمعنا في طردهم وإقصائهم .

ولكن السيف الذي حارب به معاوية أعداءه أصاب كبده ، فقد تزوج الحسين أرينب ، بعد طلاقها من عبد الله ، فطعن الأمويين في مناعتهم . وأصاب يزيد في قلبه وشممه ، فبقي ينفث الزفرات الحرار ، ويستحم في دموع سواحم ، كأنها الزيت على متأجج النار ، وكأن فاجعة كربلاء حيكت خيوطها السود انتقاماً لهذا الهيام الضائع ، والخيبة الأكول في أرينب بنت إسحق ! .

لقد أوضح المؤلف هذا كله في أسلوب مبين ، ولغة صحيحة ، وتحليل دقيق ، وسياق مشوق أخاذ ، يدفع بالقارئ إلى الاستزادة .

ولقد جارى المؤلف المؤرخين في وصفهم يزيد بأنه كان لاهياً خسيس المطمع ،

معشاقاً ، طِلب نساء ونديم كأس — غير أنه خالفهم حين صوره « ابن أبيه » : سياسياً داهية ومحنكا مشيراً ، صاحب رأي وفطنة .

ولا شك أن القارئ سيجد في هـذه القصة خير متعة وأكبر فائدة أدبية ، بما اشتملت عليه من حوادث محكمة الرباط ، تجلو صفحة من صفحات الدهاء السياسي والضغن الحزبي ولوعة الحب والهيام ، في بيان امتاز بتشبيهات وصور مستحدثة في لغة الضاد .

الحرب ومهالـكها

بحوث علمية وأدبية في الجرائم والحرائق والغازات
المرحوم الدكتور إيليا جبران كنعان

١٤٤ صفحة من القطع الـكبير . المطبعة المخلصية . لبنان سنة ١٩٤٦

يطالعك في أول صفحات هذا الـكتاب صفحة وجه مضيء إلا أن الموت لم يبق على ضيائه . ومتى كان للموت بُقيا على الضياء ؟

ولـكن الموت المعفي على الوجوه والذوات ، لايعفي على الآثار والذكريات . . فقد بقيت بعد المرحوم الدكتور الشاب إيليا كنعان مجموعة من آثار قلمه شاء الأوفياء من أصدقائه أن يجمعوها في كتاب ، هو الذي نعرّفه اليوم إلى القراء .

والدكتور إيليا كنعان — رحمه الله — في أدب الطب يذكرنا بالدكتور أحمد زكي بك — بارك الله عمره — في أدب العلم . فأنت تقرأ المقال للأول فترى نفسك أمام أديب عالم يمزج علمه بأدبه ، ويصوغ لك الحقيقة العلمية الجافة في عبارة أنيقة وفي صياغة رقيقة ؛ فيستحيل جفاف الحقائق إلى شيء سائغ يلذك وتطرب له ولا تجد نفسك متبرماً بتلاوته ، أو ضائقاً صدرك بالنظر إليه .

والتعبير الأدبي في مسائل العلم موهبة لا تتاح لـكثير ممن يشتغلون بالعلوم ، وتكليفهم ذلك هو تكليف ضد الطباع .

فإن الأدب فطرة قبل أن يكون اكتساباً ، وطبع قبل أن يكون صناعة ، وقد كان المؤلف — رحمه الله — أديباً بفطرته ، فظهر أدبه في طبه ، وظهرت طبيعته الأدبية في أسلوبه ، وبدت في لغته ، فهو يتنوق في اختيار اللفظة ويحتال على جمال الأسلوب . حتى لقد طبعت كتابته بطابع يجعلها فريدة في موضوعات الطب .

وأول فصول الكتاب في الجراثيم ومسالكها ومناقلها . فالمسالك هي المحيط الذي

لا حياة فيه كالتراب والمياه والهواء والمآكل والملابس . والناقل هي المحيط الحي المتحرك بنفسه كالبعوض والقمل والجرذان والإنسان . وقد شرح المؤلف كل مسالك ومنقل شرحاً ليس بعده زيادة لمستزيد .

والكتاب الثاني في الحرائق . وقد مهد له بماهية النار وجواهرها وأعراضها ونتيجتها ، ثم انتقل إلى مكافحتها على ضوء العلم ، ومكافحة الحروق الناجمة منها على ضوء الطب .

والكتاب الثالث في الغازات وأنواعها وطرق الوقاية منها . وقد زين الكتاب بكثير من الصور التوضيحية التي تعين على فهم الحقائق ؛ وإن كان أسلوب هذا الكتاب المبين لا يحتاج إلى معين . . .

قوس قزح

تأليف الدكتور شكيب الجابري

٢٠٠ صفحة من القطع الصغير . دار اليقظة العربية . دمشق سنة ١٩٤٦

قصة غرام يتفلسف . بدأ الفصل الأول منها في ألمانيا وأسدل الستار على آخر فصولها في قطر عربي شقيق .

وبطل القصة علاء الدين شاب عربي طوح الطلب به في مطارح الغربة بعيداً عن وطنه ، وكان ملء جنبيه آمال كبار ، وبطلة القصة فتاة ألمانية ألجأها الجوع والحرمان إلى ارتياد شوارع برلين ليلاً حتى كاد يلتوي عليها الطريق وتجتمع عليها الذؤبان من الشباب . ولكنها وجدت في علاء الدين حمية ومروءة لم تجدها في زرق العيون . .

وترك البطل العربي ألمانيا بعد أن اجتاز دراسة الطب بنجاح ، ولكنه ترك وراءه الفتاة « إلزا » ومعها منه الطفل محمد علي الذي لم يكن كالأطفال . وكان الطفل صورة من أبيه الشرقي ؛ صورة لم تخرم من الأصل حرفاً ولم تفت شبهاً ؛ حتى ذلك الولوع بالفتيات الذي كان شهرة أبيه يوم كان يطلب علم الطب بألف قلب وقلب .. !

ومات محمد علي بعد ظروف قاسية مرت على الأم المعذبة في حبها ، البعيدة عن حبيبها ، الذي لا تدري عنه في وطنه العربي شيئاً ولا تسمع نبأ .

وبقيت « إلزا » وحدة في كفاح الأيام ، حتى لقيت مرة رفيقتها في الدراسة « غريتا » تطل عليها من سيارة أنيقة فتنكر منها ما صنع بها الزمان . ولقد كانت

« إلزا » تلقب في المدرسة بقوس قزح لأناقتها في اختيار الألوان لثوبها ، بينما كانت « غريتا » تلقب بخرقة السندان ، لما بين ذلك وبين ثوبها من معان .. !

ولكن ماذا حدث فبدل حال الرفيقتين ؟ لقد سارت غريتا في طريق كله أشواك لتجني منه أزهاراً لا تلبث أن تزول بعد قليل . وكان لها من ذلك فلسفتها الخاصة في الحياة والرجال . .

وأغرت هذه الأزهار إلزا المحطمة في شبابها وحبها ، فاحترفت الرقص، وجاءت إلى الشرق — وطن حبيبها علاء الدين — تعرض فيه جسمها كما تعرض الأجسام الراقصات .

ورأت في الشرق رأي العين غير ما توهمته حين لقيت علاء الدين في برلين ...

رأت فيه تفاهة ومجداً تولى وبهاء مضى — والعهدة على راوي مذكراتها الدكتور شكيب نفسه — رأت فيه استغلال أصحاب العمارات والسيارات لأصحاب الأطمار والأسمال ، فكرهت كل مظهر من مظاهر الترف فيه ...

وانقلبت المحبة المعذبة إلى فيلسوفة ساخرة ، ولطالما تمنت وهي في محنة الأيام أن يعيش ابنها من علاء الدين لتصنع منه البطل الشرقي الذي تبدت البطولة على ملامحه بين لداته في الملاعب وأقرانه في المضارب ...

ولكن الابن مات . . فهل آن لأبيه أن تنير الشمس سبيله حتى يكون بين الرجال بطلا فوق الأبطال ؟ ؟

علم الاجتماع الديني

تأليف الأستاذ يوسف باسيل شلحت

١٧٨ صفحة من القطع المتوسط . مكتبة الأمنية . حلب ١٩٤٦

هذا كتاب له أهمية خاصة في اللغة العربية ، لأن المؤلفات في علم الاجتماع قليلة جداً . وعلم الاجتماع الديني أول كتاب من نوعه في هذا الباب . وقد عرض المؤلف لموضوعات طريفة حتماً ، فمهد لبحثه بنبذة عن علم الاجتماع والظواهر الاجتماعية والنظريات المختلفة المفسرة لهذا العلم . ثم انتقل إلى تعريف الديانة وقوامها ، فتكلم عن المعابد وتطورها ، والنفس واعتقاد الشعوب المختلفة فيها ، والعقائد وقوانين تطورها ، والعبادات والمراسيم . واستعرض بعد ذلك أهم النظريات في تفسير الديانة مثل نظرية تيلور ومكس مولر ونتشة وبرجسون ، وانتقل إلى الكلام على الطوطمية في الشعوب

البدائية ، واختتم البحث بكلمة عن فصل السلطة عن الدين والعوامل المؤثرة في الديانة وأثرها في الحياة .

ومن الواضح أن المؤلف بذل جهداً مشكوراً في معالجة هذا الموضوع الشائك الدقيق ، إذ رجع إلى كثير من المؤلفات الأجنبية أثبتها في آخر الكتاب ، كما أحال إلى الهامش مشيراً إلى الصفحات التي أخذ منها . وهي طريقة جامعية في التأليف تدل على سعة الاطلاع مع التثبت والتحقيق . ولم ينس كذلك أن ينظر في آراء العرب كما ورد في بعض المعاجم وعند ابن خلدون . وكان من الواجب أن يتوسع في هذه الناحية فيذكر آراء لبعض المحدثين من المسلمين ، مثل فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه « الدين والوحي والإسلام » وله فيه رأي طريف جديد يذهب إلى أن الدين مشتقَ من الدّين . وللأستاذ الإمام محمد عبده آراء مشهورة ومساجلات لكتاب أوربا مثل سبنسر كان يحسن أن يشير إليها .

وقد أعجبتنا لغة الكتاب ، ومع أن المؤلف غريب عن مصر فقد عالج موضوعه الجديد في اصطلاحات وأسلوب يكاد يكون مصرياً ، وهذا دليل على أن الجامعة العربية أصبحت حقيقة واقعة . ومع ذلك فهناك بعض الاصطلاحات اليسيرة خالف فيها المألوف عند جمهرة الكتاب ، مثل الحدث الاجتماعي "phénomène" ، والمتداول « الظاهرة الاجتماعية » وجمعها ظواهر . وقال عن اعتقاد قدماء المصريين إن للانسان جسداً وشبيهاً يدعونه « كا » والصواب أنه قرين لا شبيه .

وكان يحسن أن يذكر المؤلف مذاهب الماديين في تفسير أصل الديانات إلى جانب التفسيرات الأخرى التي عرض لها ، ومهما يكن من شيء ، فإن أساس الديانات التسليم بوجود الروح ثم بحياتها في العالم الآخر أي البعث ، سواء أكان بالأجساد والأرواح أم بالأرواح فقط . ومشكلة الروح هي أعظم المشكلات الفلسفية ، وسوف تعجز المادة عن حلها لأن الطريق إلى معرفتها يختلف عن الطريق المألوف لنا وهو الحواس .. بل البرهان على وجود الله أقرب وأوضح من إثبات الروح وفي ذلك قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » ومعنى ذلك أن الروح من الأمور الغيبية التي نؤمن بها تسليما واعتقاداً لا نظراً وبرهاناً . ومن هذه الجهة تعجز العلوم المادية عن تفسير الديانة ، ولكنها تفسر بعض المظاهر الاجتماعية المتصلة بهامش الحياة الدينية .

وسوف تجد في هذا الكتاب رأي كثير من العلماء في تفسير ظواهر دينية تقوم بها ، ولم يعن أغلبنا بالتفكير في أصلها .

دنيا القصص

الشيخ عمران

للأستاذ طه عبد الباقي سرور

تجمعت قطرات العرق الممزوجة بالغبار ثم تفرقت وشقت لنفسها طرقاً ودروباً في وجه الشيخ عمران ، حتى غشي بصرة منها غاشية ، وانحدر إلى فمه منها قطرات كريهة الطعم والمذاق .

وارتفعت يد الشيخ عمران بالفأس ، ثم توقفت وقد اعتراها الضعف والوهن ، وقيدها الإعياء والملل ، وعجب عمران لنفسه ، وسرى في وجدانه خاطر مبهم قلق ، فما هكذا عهده بنفسه ، وهو ابن القرية البكر ، والفلاح المحنك القوي المعتد بأسه وجلده ورجولته.

عشرات من السنين انقضت وهو حليف هذه الأرض ، يقوم عليها بنفسه في وقدة القيظ وقسوة الصقيع ، فما وهن ولا ضعف .

واليوم ما بال يده ترتعش ، ورأسه يعتريه الدوار والألم ؟ ثم ما هذه الصور والأخيلة التي تتراءى في تفكيره قاتمة مبهمة حزينة ؟ إنه ليشعر بكراهية عميقة لعمله ، واحتقار مرير لحياته ، وتمرد ملتهب على أوضاع الدنيا ومبادئها ونظمها .

ألا طوبى للأيام الخالية ، أيام القناعة والرضا ، والزهد والهدوء . . . أيام الاستسلام للأمر الواقع والرضى بالمقدور !

لقد عاش عمران في قريته ، ودنياه محدودة بذلك البيت الصغير اللاصق بالأرض ، وتلك البهم الحنون الصبور التي تقوم منه مقام الأولاد والأهل ، ثم ذاك الحقل الجميل في أطراف القرية ، ينبت البقل والقطن ، كما ينتج الفاكهة والقصب ، لا يشغله من الحياة إلا نقص الماء أو زيادته ، وضعف الماشية أو صحتها ، وهذا النبت الكريم الحبيب يستوي على ساقه قوياً معتزا ، أو يهيج فتراه ضعيفاً مصفرًا .

هذه دنياه ، وتلك هي سياسته المالية ، فإذا آب مع الشمس إلى منزله في ليلة الجمعة من كل أسبوع ، انطلق إلى شيخه وأستاذه ومربي روحه ، والضامن له نعيم الجنة

وحورها ، مولاه العارف بالله ، الشيخ أبو حمزة ، شيخ الطريقة وخازن الفردوس .

وشيخ الطريقة في الريف هو الحاكم بأمره ، المنعم المسعد المشقي ، بيده الأمر وإليه ترجع القرية !

وهناك يقبل عمران يد شيخه مثنى وثلاث ورباع ، ثم يجلس بجواره خاشعاً متصدعاً ، يتمتم « ورده » ويتلو أدعيته ، ثم تقام حلقة الذكر ، فيتمايل ويهتز مع الذاكرين ، حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم يغدو إلى داره متعباً مكدوداً ، فيختطف لمحات من النعاس ، حتى إذا نادى منادي الشمس هبَّ من نومه سعيداً قانعاً ، قوياً جلداً ، يهدهد الأرض بفأسه ، ويشق الأديم بمحراثه ، ويقيم الحدود والخطوط ، ويجري الماء ، وينظر إلى زهوره وغلاله وثماره نظرة القائد الكبير إلى جنده ، والغني الواسع الثراء إلى نقده . نظرة تفيض بالرضا والسلام .

فإذا نضج الثمر على ساقه ، وابتسم الزهر في إهابه ، وآن أوان الحصاد ، ووهبته الأرض الخير جزاء صبره وجهده ، فلشيخه العارف بالله نصيب غير منكور ولا مجحود في ثمره وزهره ، ولعمدة القرية الرهيب القوي حق معلوم في هذه الخيرات ، وما بقي من هذا وذاك ، فله وحده يحمله إلى بيته ، أو إن أردت فله ولماشيته .

وهذا الجزء الباقي له بعد ضريبة شيخ الطريقة ، وعمدة القرية ، مهما دق وضؤل ففيه الكفاية ، وفيه السعادة والهناءة ، وهل السعادة والهناءة إلا في الرضا والاطمئنان !؟

وتتابع العمر والسلام القلبي والسعادة الروحية ترفرف على بيته ، حتى طرق منزله ذات صباح ذلك المخلوق الغريب الشاذ ، صاحب الطربوش الأحمر اللامع ، والسروال الطويل الضيق ، والخد المصقول المجرد من الشعر علامة الرجولة والقوة .

ومد ذلك المخلوق يداً بضة ناعمة ، وخاطبه بصوت ضعيف متكسر ، بلغة منغمة لم تألفها أذن عمران . ثم انكشف الغطاء فإذا بهذا المخلوق المدني ، هو حمدي أفندي ابن شقيقته زوج الموظف الكبير بالقاهرة (المحمية) .

ورحب عمران بنجل شقيقته ، واستقبله بذلك البشر القروي الساذج البريء ، ونحر له أعز ما حوى منزله ، وأنزله غرفته ، ووهبه أجمل فرشه ، وظن أنه فعل الواجب وبالغ ، ولكن عجباً ! فكل هذا الترحاب لم يرض حمدي ولم ينل من نفسه ، بل لقد ظهر الامتعاض جلياً على وجهه ، ولاح التأفف في فمه وعينه ، وحار عمران فيما يفعل ، ثم استسلم إلى القضاء والقدر ، استسلام الريفي إلى الأمر الواقع .

وألف عمران أن يسمع من حمدي أفندي كلمات غريبة عن النظافة والتعليم

والحرية والكرامة والراحة والمال ، كلمات جميلة ناعمة لم تطرق سمع عمران من قبل !

ولكن عمران حملها لغرابتها محمل القصص الجميل الساحر الذي يرويه الشاعر على ربابته لأبناء القرية عن بطولة عنتر ودياب والزناتي وأبي القمصان ، وفي ختام حديث حمدي كانت الابتسامة الكبيرة ترتسم على شفتي عمران ، ثم تثاءب قائلا في صوت مدوّ : مالنا ولهذا نحن أبناء الريف ؟ هذا لكم أنتم يا أبناء المدن ! ثم تثاءب عمران مرة ثانية وودع ابن أخته ، وانصرف إلى مضجعه ليحلم بالناعورة والقطن والبقرة التي على وشك الوضع !

وجاءت الأنباء تترى بفيضان النيل وتدفقه على الوجه البحري ، وهذا الفيضان وإن كان نكبة على الأرض والفلاح ، فهو نعمة كبرى على العمد وزعماء القرية ، حيث يظهرون نفوذهم ، فيساومون الفلاح على ثمن حريته وعدم ترحيله إلى « حراسة النيل » .

وبعث عمدة القرية إلى عمران يخيره بين الدفع والخروج ! وعمران يؤمن بقوة العمدة وسيطرته ، إيمانه بقوة الله وعظمته ، ويعتقد اعتقاداً لا يخالطه الشك أن واجبه هو الخضوع والرضا لأوامر العمدة ، وتلبية صيحاته ودواعيه . . . ! أليس العمدة من أولي الأمر ؟ أوليست طاعة أولي الأمر من الدين ؟ !

وفي غير غضب أو تمرد أو ألم ، اختصر عمران قوته ، وجمع للعمدة ما ادخره لحياته ، وذهب طائعاً راضياً إلى ممثل أولي الأمر ليدفع ضريبة الحياة !

وشاهد حمدي أفندي حركات خاله المبهمة ، فاستوضحه الأمر ، وفي بساطة ودعة أنبأه خاله بأمر النيل ، وأولي الأمر !

وذهل حمدي لهذا الذل الصارخ ، وهذا الاستسلام المهين ، وصرخ في وجه خاله يذكره بحقوق الأفراد وكرامتهم ومسؤولية العمدة وواجباته ، وأن هناك من يستطيع أن يكبح جماح هذا العمدة الظالم السارق ، وينتصف منه لأمثال عمران .

ولم يفقه عمران شيئاً من تلك الكلمات ، بل ابتسم في خضوع قائلاً في حكمة خالدة : نحن هنا في الريف يابني ! وهذه هي حياتنا ! ! !

وطال الجدل واشتد الكلم ، وتقابل تمرد المدينة مع استسلام القرية في منظر ظريف جميل ، وأخيراً وبكثير من المرارة قبل عمران أن يرجىء دفع الضريبة إلى غد حتى يتمكن حمدي أفندي من الإسراع إلى عاصمة المديرية لمقابلة كبير من رجال الإدارة تربطه بوالده صداقة قوية وود قديم ، ومن ثم فهو الكفيل بإنقاذ خاله من براثن العمدة الحاكم بأمره .

وكانت تلك الليلة فاتحة الألم والشقاء لعمران ، فقد بات مسهداً لم يطرق النوم جفنيه إلا لماماً ، بات يضرب الرأي ويقلبه : مامصيره بعد هذا التمرد ؟ وماذا سيفعل به العمدة ؟ هل يخرجه من قريته ؟ أويحبسه ليجلده في مقر الحكم ، أو . . . ! ! !

وأشرقت الشمس مبكرة ، فأسرع عمران إلى حقله فراراً ، وشقت الشمس منتصف السماء فلم يرجع عمران إلى بيته ، بل واصل الشرود والهيام في الحقل ، حتى مال ميزان الزمن وتطرقت الظلمة إلى أطراف السماء ، فحمل عمران نفسه إلى منزله في خطوات متهالكة ثقيلة ، ولأول مرة شاهد سكان القرية في ذهول عمران آيباً إلى منزله مطرق الرأس عابس الوجه ، تكلله سمات الألم والعذاب !

وعلى باب المنزل استقبله حمدي أفندي الخبيث في ضحك ومرح ، فلم يجرؤ عمران على سؤاله ، ولم يسعفه حمدي بالجواب ، وطال الصمت حتى طرق الباب ، فانتفض عمران فزعاً ، وتضاعف الفزع إذ ارتفع صوت من وراء الباب يدعو عمران إلى مقابلة حضرة العمدة ! وفي ذهول رأى عمران نفسه يزحف زحفاً إلى بيت العمدة الرهيب ، وقد طار في رأسه ألف طائر أسود ، وفي ذهول أشد راح عمران يستمع إلى العمدة وهو يستقبله مرحباً متلطفاً ، بل خجلا خائفاً ! واستمع عمران إلى كلمات عذبة جميلة لم يألفها ولم يستطبها لأول وهلة ، ومضت دقيقة فساعة ، وتتابع الزمن وعمران يستمع إلى حفل تكريمي له ، لا يعلمه ولا يفهمه ولا يطمئن إليه .

وبات عمران ليلة غامضة رهيبة ، أحقاً أن العمدة قد تودد إليه ؟ ثم أعفاه من الضرائب المتلاحقة التي تعود دفعها ؟ رباه ! كيف يرجو منه العمدة أن يذكره بالخير والثناء عند (البيك) الكبير ، والكبير جدا في مقره بعاصمة المديرية ؟

ولكن هل سعد عمران بحريته وتخلصه من نير العمدة ؟ وهل سعد حقاً بإعفائه من الضرائب الجبرية ؟ لايعتقد عمران هذا ، إنه يشعر بأن شيئاً في حياته قد نقص ، وأن صرح سعادته قد ثلم ، وأن تلك الراحة الفطرية قد بدلت قلقاً واضطراباً !

إنه تعود الخضوع لسيد القرية ، فكيف يتساوى به اليوم ، وإذا كان سيد القرية ضعيفاً واهياً كما ظهرلعمران في ثوبه الأخير ، فما فائدة الأمن والنظام والحكومة ؟ وأين هم أولو الأمر الواجب الخضوع لهم ؟ وإذا كان الإنسان لايخضع لواجبات أولي الأمر فتعساً لتلك الحياة .

إن رهبة العمدة وجبروته والاستسلام لأوامره في الريف هي ميزان الحياة في نظر الريفي ، وهي الشكيمة التي تمنعه من الجريمة والتمرد ، فإذا زالت تلك الرهبة

وطار هذا الجبروت فقد القرويُّ معنى الراحة ، ومعنى السعادة ، ومعنى السلام .

هكذا اعتقد عمران ، وبتلك الفكرة آمن ، وها هو ذا يدفع القسط الأول من العذاب .

وأتت ليلة الجمعة المقدسة ، فأراد عمران أن يذهب بحمدي إلى شيخه ليمنحه البركة والرضوان ، ويفيض عليه من بحر علمه ماينيرله الحياة ويملأ وجوده سعادة وهناء .

وذهب حمدي أفندي مع خاله ليشاهد تلك الأعجوبة الريفية ، التي قيل إنها تأكل النار وتبلع الزجاج وتقبض على الحيات وتطوي الأرض طياً في مسيرها لتصلي في مكة المكرمة وبيت المقدس المطهر ؟

وقبل عمران يد الشيخ في إيمان عميق ، وطاعة عمياء ، ثم كاد أن يصرخ حينما شاهد حمدي وهو يصافح الشيخ اللدني بأطراف أصابعه في ترفع واعتداد ، فأخذ يشير لابن أخته إشارات خفية وواضحة ، ولكن الخبيث أغضى طرفه عن حركات خاله ولفتاته . وابتدأ الشيخ اللدني يهذي ويتمتم ! ورجال القرية وفتيانها من حوله يهللون ويكبرون ، وبه يتمسحون ويتقربون ، ثم قامت « حفلة الذكر » ، فانتظمت الصفوف واعتدلت الأجساد ، وتمايلت وتراقصت ، وأدت عملا شاقّاً مضنياً .

همس حمدي بينه وبين نفسه : ما كان أجدر الأرض بهذا المجهود العنيف ، وما كان أجدر هذه الأجساد المتعبة بالراحة والنعاس ، بدل هذا الرقص والضجيج .

وعند ماخفق طائر الصباح بجناحه ، هدأ الضجيج ، وجلس القائم ، وصمت الصارخ ، وخمدت حركات التشنج ، وأعلن الشيخ العارف بالله ، أنه تكريماً للشيخ عمران ، واحتفاء بابن أخته حمدي بك المصري ، ستقام حفلة الذكر في منزله ليلة الجمعة القادمة . أدرك حمدي في وضوح جلال تلك القوة العظيمة التي يفرضها الشيخ على القرية ، ولمس في وضوح أيضاً مقدار الأموال والضحايا التي يبتزها الشيخ من رجال القرية وفتيانها وعجائزها ، فأصر وأجمع أمره على تطهير القرية منه .

وراح حمدي ينتقص الشيخ المقدس أمام خاله ، ويشرح له بسائط الدين وطرائقه ، وبعده عن تلك الشعوذة ، كما راح من ناحية أخرى يترصد حركات الشيخ ويتعقب هفواته ، حتى كشف من أمره أشنع المثالب وأقذر العيوب البهيمية ، التي ترتكب باسم الدين والفضيلة والتطهير .

وأتت ليلة الجمعة ، فأقيمت معالم الزينة ، ونحرت الذبائح ، ومدت الموائد ، وامتلأ عمران فرحاً وسروراً ، وازداد سروره ، وفاض البشر في وجهه ، إذ رأى حمدي

يتقرب من الشيخ ويتودد إليه متزلفاً خاشعاً متبتلا . وفاض الغرور بالشيخ المقدس ، فاعتقد أن حمدي بك ، كما كان يلقبه ، قد خضع لسلطانه ، وآمن بولايته ، فراح يختال مزهواً معجباً متكبراً .

وتتابع الزمن ، وحمدي يمازج الشيخ ويترصده في خلواته ، ويخدعه بكلماته ، ويطرق باب الغرور من نفسه في رفق وحذر . واطمأن الشيخ إلى هذا الحديث الناعم الساحر ، كما اطمأن إلى تلك الصور الفاتنة التي يصور بها حمدي حياة المرأة ودنياها المغرية ، وانطلق الشيخ يفاخر بنفسه ، ويكشف من أسراره ، ويتيه بوثباته وفتكاته .

وقع الشيخ في الشباك ، وأتيحت الفرصة لحمدي ، فراح يسعى إلى خاله ، وأخذ يستدرجه في الحديث ، ثم هتف به : ماتقول في جريمة الزنا ! ؟ فصاح عمران الطاهر متعوذاً محوقلاً مستغفراً ! مطلقاً اللعنة من فيه على صاحبها ، وابتسم حمدي وقال : هيا بنا حتى أريك عجباً .

ورأى عمران وشاهد بنفسه ، فكذب نفسه . ثم أرسل بصره ، ثم كذب نفسه ، ثم أقبل وأدبر وفكر وقدر ، ثم خر مغشيًّا عليه ، فقد تحطم في نفسه الصنم الأكبر . وتتابعت الأيام بعمران ، أيام سود حوالك ، فقد فيها الثقة بنفسه وبحاكمه ، وبشيخه ، بمثله العليا جميعها . أيام طار منها السلام والاستقرار ، وفقد فيها كل الفضائل التي تلقاها في صغره ، ودرج عليها بفطرته .

أصبحت تريبه حركات زوجه ، ولمحات جاره ، وكلمات بنيه ، ونظرات أبناء قريته ، أصبح في شك ملح ، وريبة دائمة .

فقد الإيمان ، ففقد السلام ، وضل المسكين في تيه من الحياة لايفهمه ولا يهضمه ولا يدرك له حداً . لقد كان المسكين يحيا في تعب بدني دائم ، وحرمان من اللذائذ الجسدية سرمدي ، ولكن الراحة القلبية والسعادة الروحية كانت تغمره وتفيض عليه ، وكان الإيمان ، يحبب إليه التعب والجهد ، ويحيل طعمهما في فمه شهداً وكوثراً .

كان يعيش في حياة من صدأ الحديد ، ولكن كان قلبه من الذهب النقي الصافي ، كانت أياماً خوالي ، ألا طوبى لها من أيام !

وارتمى عمران في وسط الحقل ، وقد عجزت يده عن ضبط الفأس ، وغامت قطرات العرق على بصره ، فذرف دمعة ذهبت هباء في لجج العرق .

ط عبد الباقي سرور

أنبـاء

ننشر في هذا الباب أخبار النشاط الفكري والأدبي وأنباء الكتب والكتاب مما يوافينا به مندوبونا ومراسلونا بمصر والخارج .

مصـر

يهتم ولاة الأمور في الجامع الأزهر بنشر الكتب النادرة فقد تمكنوا من الحصول على مخطوطات للكندي اشتروا صورها الفوتغرافية من إسطنبول ومجموعها ٣٦ رسالة منها « مقالة في العقل » . والمعروف أن كتب الكندي كانت تعد في حكم المفقودة إلا بعض ترجمات لها باللغة اللاتينية حتى أن رسالة « مقالة في العقل » التي نشرها الأستاذ يوسف كرم قد نقلها عن اللاتينية .

وقد صدر الجزء الأول والثاني من فهرست مكتبة الأزهر . وسيكون لهذه المكتبة قريباً بناء جديد خاص .

✡✡✡

تلقت وزارة الخارجية كتاباً من الحكومة البلجيكية تقول فيه : إن بلجيكا كانت قد قررت عقد مؤتمر دولي لحماية حقوق التأليف قبل الحرب ولكن الظروف الطارئة حالت دون انعقاده ، أما وقد زالت هذه الموانع فقد بدأت في تحضير ما يلزم لعقد مؤتمر دولي للمحافظة على حقوق المؤلفين يعقد في بروكسل وطلبت تقديم مقترحات مصر في هذا الصدد مع ترشيح مندوبين للاشتراك في المؤتمر .

✡✡✡

دعت الجمعية العلمية الإفريقية كلا من الأستاذ مصطفى عامر بك والدكتور حزين إلى الاشتراك في مؤتمر « عصر ما قبل التاريخ في إفريقية » المزمع عقده قريباً بنيروبي .

✡✡✡

كان حفدة المغفور له رفاعة رافع الطهطاوي قد تبرعوا بمكتبة هذا العالم الجليل لمدينة سوهاج بيد أن مجلس المديرية لم يستطع الانتفاع بمحتويات هذه المكتبة القيمة ومعظمها من الكتب العربية طبع أوربا والخرائط والرسوم . وقد اقترحت أخيراً جامعة فاروق الأول الاستيلاء على هذه المكتبة لمنفعة الأساتذة والطلاب .

✡✡✡

من المؤلفات التي خلفها المرحوم الشيخ عبد الرحيم عنبر الطهطاوي كتاب « تفسير الكتاب بالكتاب » يقع في قرابة ألفي صفحة . وهو أول تفسير يطابق روح العصر في تحليل الآيات القرآنية والكشف عن معانيها ومقاصدها .

✡✡✡

وضع الأستاذ علي بك إسمعيل كتاباً طريفاً يحمل عنوان : « علم الديبلوماسية » ويحوي فصولا في أصول الديبلوماسية وموضوعاتها ، وقد اعتمد فيه على معلومات ووثائق عني بجمعها في أثناء اشتغاله في السلك السياسي . وقد فرغ من الجزء الأول منه منذ سنوات خمس ويكاد الآن يفرغ من الجزء الثاني . ويحوي فصولا عن تاريخ الديبلوماسية في الممالك الإسلامية .

✡✡✡

وافق مجلس الوزراء بمصر على زيادة أعضاء مجمع فؤاد الأول للغة العربية بحيث لا يقل عددهم عن ثلاثين ولا يزيد عن أربعين يختارون من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية وآدابها أو في العلوم والفنون ويجوز أن يكون بينهم عدد من العلماء غير المصريين لا يتجاوز العشرة .

✡✡✡

كان الدكتور بشر فارس قد كشف عن مخطوط عربي قديم من بداية القرن السابع الهجري فيه صورة تمثل حادثا من حوادث السيرة النبوية وسينشر البحث الخاص بهذا الكشف في منشورات المجمع العلمي المصري .

السودان

سافر في الشهر الماضي إلى إنجلترا ثلاثة من رجال القانون في السودان ، وهم الأساتذة محمد صالح الشنقيطي ، والدرديري محمد عثمان ، ومحمد علي شوقي ، في بعثة دراسية ، وذلك توطئة لإسناد منصبين في القضاء العالي إلى الأول والثاني عند عودتهما ، وتعيين الثالث مسجلا عاما . وقد تبعهم خمسة من موظفي السجلات ترشحهم الحكومة لتسلم بعض المراكز ذات المسئولية .

✡✡✡

خصص المجلس البريطاني في لندن إعانتين دراسيتين للسودان . وتتجه النية لمنحهما إلى خريجي الجامعات ومدرسي اللغة الإنجليزية والأشخاص الذين لديهم مؤهلات فنية تعادل شهادات الجامعات . وليست الإعانة مقصورة على الدراسة في الجامعات وما شابهها من معاهد عليا ، بل يمكن منحها لمن يلتحقون بالشركات الصناعية أو السلطات الإدارية العامة .

✡✡✡

حال فيضان النيل وجرفه للخط الحديدي دون الاحتفال بالمهرجان الأدبي في عطبرة ، بعد أن ظلت البلاد شهوراً عديدة تستعد للاشتراك فيه . وقد تقرر تأجيله إلى العام القادم ، فأسف لذلك رجال الفكر والشعراء والأدباء والصحافة الذين كانوا ينتظرون عرض نتاجهم في هذه السوق الأدبية

✡✡✡

مر أغاخان بالخرطوم ، وقال إن مسلمي الهند يعملون على إرسال طبيبات هنديات للعناية بالسودانيات . وقال : « سنعمل على إيفاد بعثات من السودانيات إلى الجامعات في المملكة المتحدة للتدرب على مثل هذه المهن الضرورية ، وإن الحكومة البريطانية تعنى بتحقيق هذه الفكرة .

✡✡✡

تأسس في الخرطوم ناد للعمال ، ترعاه الحكومة وتشرف على أوجه نشاطه وعلى شئونه الإدارية وعلى النقابات المشتركة فيه . وقد تبرعت الحكومة للجنة النادي بمبلغ ألف وخمسمائة جنيه لبناء دار جديدة .

فلسطين

أعد الأستاذ خليل بيدس ثلاثة مجاميع قصصية للنشر . الأول أسماه «أسرار الحياة» . والثاني « أحلام الحياة » . والثالث « صور الحياة » .

✡✡✡

تأسس في القدس معهد عال للادارة والسياسة والاقتصاد لإعداد الشبان لتولي إدارة الأعمال التجارية والصناعية وإشغال المراكز الرئيسية في المؤسسات العامة ودوائر الحكومة . وأعد له منهج خاص يقطع في أربع سنوات . وهو أول معهد عربي من نوعه .

✡✡✡

سافرت في أول سبتمبر بعثة علمية مؤلفة من تسعة شبان وشابة للدراسة في المعاهد البريطانية على نفقة إدارة المعارف .

✡✡✡

أقيم في هذا الشهر مهرجانان للشعر : الأول في حديقة نادي أسامة في عكا والثاني في دار جماعة الإخوان المسلمين في القدس . واشترك في كلا المهرجانين عدد كبير من الشعراء .

✡✡✡

طلبت حكومة شرقي الأردن من وزارة المعارف المصرية أن تعيرها عشرة أساتذة للتدريس في مدارسها .

✡✡✡

نشرت الحكومة تقرير لجنة التحقيق في المعارف اليهودية باللغة الإنجليزية .

✡✡✡

وضع الدكتور إبرهيم جورج أحد أطباء الأسنان البارعين كتاباً عن أمراض الفم باللغة الإنجليزية وسينشر في أمريكا .

✡✡✡

صدر في هذا الشهر «ديوان العنقود» وهو يضم أكبر مجموعة من شعر السيد اسكندر الخوري البيتجالي، «وتاريخ الممالك العربية» وهو كتاب مدرسي للصفوف الابتدائية للسيدين أحمد خليفة وراضي عبد الهادي . وجزءان من كتاب «الروضة» في المحفوظات للسادة أحمد خليفة ومحمد العدناني وراضي عبد الهادي ووهيب البيطار .

لبنان

أنعم صاحب الفخامة شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية على الشاعر بشارة الخوري « الأخطل الصغير » بوسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى على أثر القصيدة التي ألقاها في المهرجان الذي أقامه نادى العائلات بدمشق تحت رعاية فخامة الرئيس .

✡✡✡

من المؤلفات القيمة التي صدرت في بيروت كتاب « قضية فلسطين » للأستاذ نجيب صدقه ،

قدم له سعادة عبد الرحمن عزام باشا والسيد جمال الحسيني . يستعرض فيه المؤلف تاريخ المشكلة الفلسطينية منذ نشوئها إلى الوقت الحاضر ، ويعالجها من جميع نواحيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويدافع عن النظرية العربية دفاعاً منطقياً بليغاً .

☼☼☼

صدر عن « مكتبة الكشاف » كتاب « نخب العدد » للأستاذ سعيد تقي الدين . والمؤلف مهاجر لبناني مقيم في مانيلا من أعمال الفلبين ، وله جولات أدبية موفقة . وهو شقيق الروائي المعروف الشيخ خليل تقي الدين وزير لبنان المفوض في روسيا . و « نخب العدد » مصنف يضم بين دفتيه تمثيلية في ثلاثة فصول وأقصوصات أخرى تتعلق بالمهاجرين وما يختلج في نفوسهم من عواطف ، وما يتعقد بينهم من مشاكل . مهد له المؤلف بمقدمة قيمة تتعلق بفن الدراما .

☼☼☼

عززت المعاهد الأميركية هيئتها التعليمية في الشرق بإضافة سبعين مدرساً وأستاذاً على أفراد الهيئة السابقة . وصل منهم ثمانية وعشرون إلى بيروت للانضمام إلى الجامعة الأميركية ، وتوجه ثلاثة وعشرون إلى كلية إستانبول وخمسة إلى كلية أثينا ، واثنان إلى كلية بغداد وواحد إلى كلية دمشق ويرأس بعثة الأساتذة الدكتور إلن هوبيل الذي اعتزل منصبه في جامعة كولومبيا ليتولى منصب جراح في المعهد الطبي الأميركي ببيروت ،

☼☼☼

انتقل إلى رحمة الله الأب لويس معلوف اليسوعي أحد رجال العلم والأدب الذين خدموا اللغة العربية في الحقبة الأخيرة خدمات جلى ولا سيما في تأليفه المعجم العربي « المنجد » ، ولقد اشتهر الفقيد بمقدرته الكتابية وسعة التفكير ، فتولى رياسة تحرير جريدة « البشير » سنوات طويلة وله فيها وفي غيرها من الصحف آثار خالدة .

☼☼☼

طلب فريق من الأدباء أن تعلق صورة المرحوم الشيخ مصطفى الغلاييني في دار الكتب الأهلية ببيروت أسوة بصور أعلام النهضة الأدبية المعلقة هناك من أمثال الشيخ الأسير والشيخ نصيف اليازجي والشيخ إبرهيم اليازجي والدكتور يعقوب صروف وجورجي زيدان وغيرهم .

☼☼☼

صدر عن وزارة التربية الوطنية مرسوم يعتبر شهادة البكالوريا العراقية للتعليم الثانوي معادلة لشهادة البكالوريا اللبنانية . وتخول هذه المعادلة حاملها من غير اللبنانيين حق الانتماء إلى معاهد الطب ببيروت .

☼☼☼

وصل إلى العاصمة اللبنانية المستشرق الروسي المعروف إيفان تشوكين ، وأخذ يتصل بأهل العلم والأدب ، وزار المكتبة الوطنية ، واجتمع بأعضاء المجمع العلمي وفي مقدمتهم السيدان عيسى المعلوف ومحمد كرد علي .

سُوريَـا

عزم النادي العربي بدمشق على طبع المحاضرات التي ألقيت في ردهته . فقد أصدر بحثا عن « القومية العربية » للسيد عزة دروزة ، وهو يتناول أسس الفكرة القومية الحديثة وخصائصها وأسس القضية العربية التاريخية والروحية والثقافية والتشريعية .

وسيصدر النادي بحثاً آخر عن « دمشق في عصر الأيوبيين » للأستاذ ياسين الحموي .

وأصدرت دار الكتب الوطنية في حلب بحثاً للمحامي عبد السلام الترمانيني عن « مراقبة دستورية القوانين » .

✡ ✡ ✡

في مدينة حماه نهضة فكرية تتجلى في نتاج طيب . فقد أصدر الشاعر الشاب علي دمر مجموعة أسماها « رعشات » . وأصدر السيد عبد الرحمن عياش مسرحية تاريخية نثرية عنوانها «الحجاج» .

✡ ✡ ✡

نال الأستاذ سامي الدهان شهادة الدكتورية في الآداب من جامعة باريز ، ونال الأستاذ رزق الله الأنطاكي شهادة الدكتورية في الحقوق من جامعة اليسوعيين في بيروت . وكان موضوع رسالة الأول « ديوان أبي فراس الحمداني » والثاني « القضاء الجمركي فيسوريا » .

✡ ✡ ✡

عزم الأمير جعفر الحسيني عضو المجمع العلمي العربي على نشر كتاب « تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس » لأبي المفاخر عبد القادر بن محمد النعيمي المتوفى سنة ٩٢٨ هـ وسيكون من جملة مطبوعات المجمع العلمي العربي لعام ١٩٤٧ .

✡ ✡ ✡

أصدر السيد منير الشريف كتاباً عنوانه « العلويون من هم ؟ وأين هم ؟ » وهو يبحث عن حالة محافظة اللاذقية جغرافياً واقصادياً وتاريخ العلويين ومذهبهم وعشائرهم وعدد أفراد كل عشيرة وعاداتهم ونفسيتهم وحياة المرأة عندهم وأخلاقهم وأعيادهم ووطنيتهم واندفاع بعضهم مع الأجنبي .

✡ ✡ ✡

أصدرت دار اليقظة العربية بدمشق ديوان « التيار » للشاعر أحمد الصافي النجفي . ويصدر السيد خالد حمدي في حلب سلسلة أسماها « فن المسرح والسينما » وهي تحوي موضوعات قصصية تاريخية وسينمائية .

✡ ✡ ✡

يصدر السيد حسن السقا عضو الجمعية الكيميائية المصرية موسوعة في « الكيمياء الصناعية » تقع في أربعة مجلدات شاملة .

النعيمي

العراق

أصدرت « مكتبة بغداد » كتاباً جديداً « الحرب العالمية الثانية — منشؤها وطبيعتها » للكاتب الروسي ليونثيف وقد نقله إلى العربية أحد الأدباء العراقيين لم يذكر اسمه .

☆☆☆

يعد كتاب « العراق : دراسة في النشوء السياسي » الذي ألفه الدكتور فيليب آيرلند الأمريكي والسكرتير الشرقي للمفوضية الأمريكية في مصر الآن — من أحسن الكتب التي نشرت بالإنكليزية عن نشوء العراق السياسي قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها وعن الصلات بين بريطانيا والعراق من أقدم العهد . وقد قام الأستاذ جعفر الخياط « مدير التعليم الثانوي في العراق سابقاً » بترجمة هذا الكتاب إلى العربية .

☆☆☆

إن الاعتراف بشهادة المدارس العالية في الخارج كان مقصوراً على مصر وبعض الأقطار . وقد وافقت أخيرا وزارة المعارف الفرنسية على اعتبار شهادة الليسانس من كلية الحقوق العراقية مؤهلة لحاملها ليتقدم صاحبها لنيل « دكتوراه الدولة » من جامعة باريس .

☆☆☆

وضع الأستاذ محمد بهجة الأثري كتاباً عن الشاعر العراقي المعروف « عبد المحسن الكاظمي » الذي قضى شطراً كبيراً من حياته في مصر مقدراً من أهلها مكرما من أدبائها ، وهذه الدراسة تشمل حياة الشاعر الخاصة وسيرته وجهاده السياسي ، ونظرات في شعره وخصائص هذا الشعر والينابيع التي استمد منها الكاظمي عناصر أدبه

☆☆☆

زار العراق أخيراً الدكتور فيليب حتي الأستاذ اللبناني الذي يشرف على الدروس الشرقية في جامعة برنستن وخزانة كتبها الشهيرة وصاحب المؤلفات والبحوث الدقيقة في تاريخ العرب، والسوريين وأعظمها شأناً كتابه « تاريخ العرب » الذي يعد من أوثق المصادر بالإنكليزية عن الحضارة وسمو العقلية العربية . وقد نقل هذا التاريخ الى العربية تلميذ الدكتور حتي وزميله في جامعة برنستن الدكتور أروارد جرجي وستنشر ترجمة الدكتور جرجي بعد قريب .

☆☆☆

كشفت الحفريات الأثرية التي قام بها المنقبون الذين يشتغلون بإشراف مدرسة الآثار القديمة ببغداد عن شطر كامل من مدينة محصنة في « تل الحرمل » الذي يبعد أربعة أميال شرقي بغداد . ويعتقد المستر سيتن لويد الخبير بهذه الآثار أن هذه المدينة بنيت سنة ١٨٠٠ ق.م .

☆☆☆

صدر كتاب « العرب والمشكلة اليهودية » للأستاذ قاسم حسن المحامي بحث فيه هذه المشكلة وصلتها بالاستعمار وعزز آراءه بسرد الصلات بين العرب واليهود منذ فجر التاريخ .

ونشر الشيخ عبد الله السبيتي من علماء النجف الأشرف كتابا عن « عمار بن ياسر » البطل الكبير الذي جاهد جهاداً عظيما في خدمة الإسلام منذ انبثاقه . ودعم تأليفه بالتحليل والاستنتاج والأدلة والبراهين التاريخية .

☼☼☼

يشتغل الدكتور مجيد خدوري بتأليف كتاب بالإنكليزية يستعرض فيه الوضع السياسي في العراق منذ زوال الانتداب ودخول العراق عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وإعلان استقلاله في العالم الدولي إلى الآن ، ويسير المؤلف على طريقة التحليل للوقائع والحوادث ولاسيما أن هذه الحقبة من تاريخ العراق المعاصر كانت حافلة بالانقلابات والأحداث الجسيمة .

☼☼☼

لدى وزارة المعارف المصرية اتجاه لتعيين ملحق ثقافي بالمفوضية المصرية ببغداد كما هو موجود ملحق ثقافي بالمفوضية العراقية في القاهرة .

انجلترا

ستزور بعثة علمية إنجليزية البرازيل في شهر مايو من العام المقبل لرصد كسوف الشمس الذي سيحدث في يوم ٢٠ من هذا الشهر . وسيرأس البعثة البروفسور كارون أستاذ الفلك بجامعة كمبردج . وسيكون الرصد من أصلح بقعة في ولاية ميناس جيرايس .

☼☼☼

توفي في الشهر الماضي الكاتب العالمي المعروف هنري جورج ولز في نحو الثمانين من عمره . وقد حفلت الصحف السيارة والمجلات بتأبينه وسرد تاريخ حياته وأثره في الأدب المعاصر ومكانته في تاريخ الآداب الإنجليزية ، كما نشرت إحدى الصحف مقالا كان قد كتبه هو بقلمه يؤبن فيه نفسه، ونشر برنرد شو مقالا طريفاً يؤبنه فيه .

ولد ولز في سبتمبر ١٨٦٦ من أسرة فقيرة وجاهد حتى أتم تعليمه العالي فيما أصبح الآن الكلية الإمبراطورية للعلوم واشتغل حيناً بالتعليم ثم بالصحافة . ونشر أول كتاب له « آلة الزمن » عام ١٨٩٥ ولازمه النجاح وواتته الشهرة منذ ذلك الحين وكثر إنتاجه وكانت مؤلفاته في وقت ما أوسع المؤلفات انتشاراً في العالم كله .

وقد تميز بكتاباته العلمية ومزجه الأدب بالعلم واهتمامه بالشئون العالمية وميوله الاشتراكية ونبوءاته في المخترعات والسياسة حتى إنه كتب سنة ١٩٣٣ ينذر بوقوع حرب ١٩٤٠ .

وكانت سلسلة كتب بنجوين تعتزم الاحتفال ببلوغه الثمانين كما احتفلت بميلاد شو التسعيني . وذلك بإصدار عشرة من كتبه ، وسوف تصدر هذه الكتب العشرة رغم وفاته .

☼☼☼

« إيزيس وأوزيريس » كتاب يؤمن مؤلفه بأن السبيل الوحيد لإنقاذ المدنية المعاصرة من الإنهيار هو التوفيق بين طرائق الشرق والغرب في الثقافة والمعرفة . وكتابه هذا محاولة في سبيل هذا التوفيق في ميادين العلم والفلسفة والاجتماع وعلوم النفس والروح .

☼☼☼

« ألا بد من سقوط إنجلترا » كتاب يعرض للأسباب التي يبدو أنها تنخر في كيان هذه الأمة ويلتمس العلاج لما يبدو عليها من هرم ، ويرى أن خير ما ينقذها هو الإبقاء على حرية الفرد والإقلال من سيطرة الدولة الاشتراكية عليه .

✲✲✲

« رحلة أفريقية » قصة جولة طويلة قامت بها سيدة من زنوج أمريكا لاستطلاع أحوال بني جنسها في جنوب أفريقيا وكينيا وأوغندا والكونغو ، والبحث فيما يؤثر عنهم من عقلية بدائية لا تصلح لاستقبال أنوار الحضارة الغربية غير أن الذي وقفت عليه لا يخرج عما هو معروف عن الاستعمار وشؤون المستعمرات ويدور كله حول الفقر والمرض والاستغلال والإجحاف ، الذي تلقاه الشعوب الملونة من سيطرة الرجل الأبيض :

✲✲✲

يقال إن أحوال النشر لن ترجع إلى حالتها الطبيعية قبل خمس سنوات . وقد ذكر مدير أحد دور النشر أخيراً أن لديه ما يقل عن ألف كتاب تنتظر الطبع . وقد قدر عدد ما نفدت طبعاته من الكتب الأدبية والعلمية والمدرسية بما يصل إلى أربعة وأربعين ألف كتاب (لا نسخة) ، هذا عدا الكتب الجديدة التي يقدر عدد ما ينتظر النشر منها ثمانية آلاف .

✲✲✲

« ثلاث سنوات مع إيزنهاور » كتاب ظهر أخيراً قال عنه النقاد إنه سجل فريد لم ينشر حتى اليوم ما يضارعه عن تاريخ الحرب الأخيرة كتبه أحد الضباط الذين لازموا أيزنهاور خلال تلك الفترة ، والكتاب ملىء بالطرائف والأقاصيص ودراسات الشخصية .

أمريكا

اهتم قسم الطب السيكولوجي بجامعة كولمبيا بمدينة نيويورك منذ سنتين بدراسة سيكولوجية المجرمين وعائلاتهم . وقد تبين من التقرير الذي نشر أخيراً عن نتائج هذه الدراسة أن المجرمين يعانون في الواقع بعض الأمراض البدنية والنفسية إلى حد يفوق كثيراً ما يعانيه المرضى بالأمراض العقلية .

✲✲✲

أعلن الدكتور أناتول چيمس شنيدروف بجامعة هوبكنز أن هناك خطراً جسيماً يهدد العالم من استعمال القنابل الذرية . إذ أنه يخشى أن يتسبب عن انفجارها حدوث زلزال عالمي يهدم الكرة الأرضية . وقال إنه حدث في زلزال كاليفورنيا عام ١٩٠٦ أن انطلقت من الأرض في تسع دقائق قوة فاقت قوة ألف بليون حصان . وهذه القوة الهائلة كامنة في القشرة الأرضية تنتظر أن تحدث فجوة في الأرض تهيئ لها سبيل الانطلاق . فإذا حدث أن انفجرت إحدى القنابل الذرية في مكان من الأرض تكون فيه هذه القوة الطبيعية قد بلغت أشدها فإنه يحدث لا محالة حينئذاك زلزال هائل قد يخرب الأرض .

✲✲✲

من الكتب التي صدرت أخيراً كتاب « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » لمؤلفه الدكتور أرنولد جازل وآخرين The child from five to ten by Arnold Gesel . والمؤلف مشهور بأبحاثه العديدة عن تطور إدراك الطفل ونمو ملكاته العقلية والنفسية في مراحلها المختلفة . وفي هذا الكتاب نتائج دراسات تجريبية قام بها المؤلف ومساعدوه منذ عدة سنوات في معهد تطور الطفل بجامعة ييل .

وقد ذهب المؤلفون إلى أن رجال التربية الذين يعتقدون أن الطفل كالعجينة المرنة يسهل تشكيلها بالضغط الخارجي يخطئون خطأً كبيراً في فهم طبيعـة العقل البشري ، ويكون أقرب إلى الصواب أن يشبه بالنبات لا بالعجينة . إذ أن النبات ينمو من الداخل ويتطور طبقاً لقوته الطبيعية ، ويقاوم ما يعترض نموه من عوامل البيئة الخارجية . وهذه هي طبيعة تطور العقل

✵✵✵

قد يكون من المتفق عليه أن كثيراً من الشعوب قد أساءت فهم حقيقة الشعب الألماني وأساءت تقدير مواهبه وملكاته إلى حد كبير . وقد شعر أخيراً بعض المؤرخين في إنجلترا وأمريكا بهذه الحقيقة وأخذوا على عاتقهم كتابة تاريخ صحيح للشعب الألماني يبين مزاياه وملكاته المختلفة حتى يستطيع العالم الحديث المتأثر بدعاية الحرب أن يفهم هذا الشعب فهماً صحيحاً ، فتتغير بذلك مقاييس معاملة ألمانيا المنهزمة . ومن هذه الـكتب كتاب « الأمة الألمانية » : تاريخها وحضارتها من عصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى الريخ الثالث لمؤلفه فايت فالنتين .The German people. Their History and civilization from the Holy Roman Empire to the third Reich, by Veit Valentin.

✵✵✵

« تلاقي الشرق والغرب» لمؤلفـه نور ثروب The meetitg of East and West, by F.S.C. Northrop يحلل المؤلف في هذا الـكتاب الحالة السياسية والاقتصادية في كل من أمريكا وأوربا وآسيا ، كما يحلل العقائد والأديان والآراء المختلفة في كل من هذه القارات الثلاث تمهيداً لتوحيد الجهود بين شعوب هذه القارات .

✵✵✵

« تاريخ النحت والرسم في مصر في المملـكة القديمة » لمؤلفه وليم ستيفنس سميث A Historyof Egyptian sculpture and painting in the old Kingdom, by W .S.Smith والمؤلف كان ضمن أعضاء بعثة التنقيب عن الآثار المصرية التي أرسلتها إلى مصر منذ سنوات جامعة هارفارد . وقد أتاح له وجوده في مصر فرصة دراسة الفن المصري القديم دراسة واقعية .

✵✵✵

كان الدكتور حامد عبد الفتاح جوهر بك مدير محطة الأحياء البحرية بالغردقة قد سافر إلى أمريكا لبعثة علمية . وقد دعته بعض المعاهد والجامعات الأمريكية لإلقاء سلسلة من المحاضرات عن الدراسات البحرية في مصر . فألقى في معهد سكريبز المائي بكاليفورنيا محاضرة عن « دراسة الأحياء البحرية في مصر » وألقى في محطة هوبكنز للأحياء البحرية محاضرة عن « البحر الأحمر » وألقى في جامعة ستانفورد محاضرة عن « محطة الأحياء البحرية بالغردقة » وأخيراً ألقى بجامعة واشنطون محاضرة عن « الأعمال العلمية للباخرة المصرية مباحث » .

روسيا

عقد معهد الاستشراق بلنينجراد جلسة خاصة لدراسة موضوع المصادر العربية لتاريخ أوربا الشرقية والشعوب السلافية ، وافتتح الجلسة الأستاذ كراتشقويفسكي بخطاب عرض فيه لمسألة وضع سفر للمصادر الشرقية التي تتعلق بتاريخ أوربا الشرقية وبالشعوب التي كانت تقطنها في العصور

الوسطى وأشار الى ترجمة مذكرات ابن فضلان عند ما كان سفيراً لدى البلاط البلغاري وقال إن هذه الترجمة طبعت في عام ١٩٣٩ بزيادة شروح عليها . وفي هذا العام نشر جزءان لترجمة المصادر الشرقية عن آثار التركمان . ثم استطرد قائلا : إن دراسة المؤلفين العرب الذين عنوا بالتنظيم العسكري لشعوب الفولجا هي دراسة طريفة ومفيدة إذ أن المعلومات الموثوق بها عن التنظيم العسكري لشعوب الجزر تجدها في مؤلفات المسعودي في القرن العاشر، وهذه المؤلفات مؤيدة بشهادة ابن فضلان نفسه. وقدم يا كوبوفسكي العضو المراسل في المعهد تقريراً دون فيه ملاحظاته عن دخول المسلمين إلى منطقة الفولجا عن طريق خوارزم .

✡✡✡

لم يقدر للشاعر العبقري لرمنتوف أن يحتفل بذكراه المئوية كما احتفل في عام ١٩٣٧ بذكرى قرينه الشاعر بوشكين فإن الصراع الذي كان قائماً في الميدان الشرقي لم يفسح لدولة القلم أن تنصرف إلى إحياء ذكرى بطل من أبطال الفكر . وفي غضون هذا الشهر استطاعت المحافل الأدبية أن تحيي هذه الذكرى المئوية التي كانت مؤجلة وظهرت على صفحات المجلات عشرات الدراسات والرسائل والمقالات وقد حوت بعضها مقارنات عن شخصية الشاعرين سواء فيما يتعلق بالأصل الأجنبي الذي انحدرا منه أو في المولد أو في تشابه الميول والعواطف وطريقة نظم الشعر .

✡✡✡

ظهرت ترجمة حديثة عن حياة نيقولا بارا تشفيلي (١٨١٨ — ١٨٤٥) من الشعراء الكلاسيكيين والملقب بشاعر جورجيا ومن طريف ما حوته هذه الترجمة أن بارا تشفيلي كان من القلائل الذين تعمقوا في دراسة لغات الشرق وآدابه لاسيما اللغة العربية .

✡✡✡

من المؤلفات التي راجت رواجاً فذاً في الفترة الأخيرة الكتاب الذي وضعه باسترناك عن « شارلي شابلن » الممثل الهزلي المعروف حيث حلل فيه شخصيته تحليلا طريفا في نوعه وقال فيه : إن شارلي اختتم مجده الفني برواية الدكتاتور التي تنبأ فيها بمصير زعماء الفاشية .

فرنسا

كان من الرسائل الكثيرة العديدة التي تليت آخر جلسة عقدتها أكاديمية الطب بباريس رسالة للباحثين لوكوك وبول شوشار والآنسة هازول بسطت فيها طريقة علمية ابتكروها لقياس قوة مقاومة الجراثيم وإحساسها السريع للبنسلين والسولفانياميد .

✡✡✡

أطلع البرفسور ليبو زملاءه أعضاء أكاديمية العلوم بباريس على كشف جديد ينتظر أن يحدث دويا كبيرا في الدوائر العلمية . فقد توصل زميله الأستاذ ترومب بمعاونة الأستاذ فوكس والآنسة فلوري لابلانشته إلى اختراع فرن شمسي ذي حرارة مرتفعة جدا ، وهذا الجهاز يسمح بصهر الأجسام الصعبة الانصهار عن طريق تركيز الإشعاع الحراري للشمس .

✡✡✡

استطاع الكابتن لوسيان كاسبان الخبير الفرنسي في بناء الأنفاق وجسور سكك الحديد صنع عربة

هي الأولى من نوعها في العالم تقوم بجس جدران الأنفاق وتسجيل رسمها وقياس الأبعاد الدقيقة بين القضبان . وقد أمكن بوساطة هذه العربة إصلاح جزء كبير مما دمرته الغارات الجوية من الأنفاق الفرنسية النمسوية .

✡✡✡

عثر بين مخلفات الدكتور جاك فواليز الذي توفي أخيرا في آراس على تصميم جهاز جديد يرد التنفس آلياً كان قد سماه جهاز التنفس . والدكتور فواليز كان يعمل منذ سنة ١٨٧٦ في اختراع جهاز « الرئة الفولاذية » .

✡✡✡

انتخب الأب لوجاي المعروف بأبحاثه في الجغرافيا والكهربا الأثيرية عضوا في أكاديمية العلوم وقد كان من أثر أبحاثه في التقلبات الجوية الكشف لأول مرة عن تيارات المجموعات الهوائية في الطابق الأعلى من الجو .

✡✡✡

عقدت في لندن الجمعية العامة لمجلس البعثات العلمية الدولي ومثلت فرنسا فيها بوفد ضم الكثيرين من أعضاء أكاديمية العلوم . ومما قررته اللجنة إلغاء سرية البحوث وتعاون علماء جميع الدول بإخلاص في سبيل السلم .



الخطيب البغدادي

قرأت في الجزء التاسع من مجلتكم « ص ٤٥٩ — ٤٦٤ » تقداً لكتاب « الخطيب البغدادي » بقلم العلامة أحمد محمد شاكر ذي البراعة والبداعة في النقد والتقويم ، ولكنه قد فاتته أمور نستجيز لنفسنا أن ننعتها بالإقليمية ، فلا يؤاخذ بها إلا المؤلف الصديق المحقق ولا تطلب إلا من مؤرخي العراق الذين عاشوا حيث عاش الخطيب البغدادي، وتلك هي :

١ — جاء في ص ٢٧ في ترجمة الخطيب : « ويخرج من بغداد سنة ٤٤٤ في بريد السماوة » والصواب « في برية السماوة » ، وهي المعروفة بالجوف الشمالي .

٢ — وجاء في ص ٤٦ : « واستقرَّ في حجرة بباب المراتب بدرب السلسلة جوار المدرسة النظامية » . وهذا غلط منكر في خطط بغداد ، معناه طي الجانب الشمالي من بغداد الذي فيه درب السلسة على الجانب الجنوبي الذي فيه باب المراتب حتى يلتقيا ، وكان المؤلف حرياً أن يقف عند قول ابن الجوزي — وتاريخه من مراجعه — « توفي ... في حجرة كان يسكنها بدرب السلسلة في جوار المدرسة النظامية » . فيجب على من لا علم له بخطط بغداد الاكتفاء بإيراد النصوص لئلا تزل به القدم زلة لا تقال .

٣ — ورد في ص ٥٠ : « فلما رأوا ذلك جاؤا إلى أبي سعيد الصوفي صاحب الرباط الذي كان يسكنه أبو بكر(٭) بن زهراء هذا وذكروا له ذلك » .

وقال الأستاذ المحقق يوسف العش في الحاشية « لعله أبو سعد أحمد بن محمد الزوزني أحد من حدثوا عن الخطيب ولعل الرباط هو المعروف برباط الزوزني » . وكان خيراً له أن أضاف « لعل » إلى قوله ، فإن صاحب الرباط هو « أبو سعد أحمد بن محمد النيسابوري الصوفي » لا أبو سعد الزوزني ، وكلما ورد اسم « أبي سعد الصوفي » و« أبي سعد النيسابوري » كان مراداً به . قال أبو الفرج بن الجوزي في وفيات سنة ٤٧٧ من تاريخه المنتظم — ج ٨ ص ١١ — : « أحمد بن محمد بن دوست أبو سعد النيسابوري

(٭) جاء اسمه الكامل في أول الخبر « أبو بكر أحمد بن علي الطريثيثي الصوفي » .

الصوفي ... قدم مرة من البادية فنزل عند صاحبه أبي بكر الطريثيثي وكانت له زاوية صغيرة ... »

ورباط شيخ الشيوخ هذا قد أصبح اليوم خاناً يعرف بخان الباججي في الجانب الشرقي من بغداد في سوق الكمرك العتيق ، وكان بابه مقابلاً لباب المدرسة النظامية ، وهذه المدرسة قد صارت أسواقاً صغيرة للخافقين والخياطين .

٤ — وجاء في ص ٥٢ : «حمى الشريعة من غاد يدنسها »ولعل الأصل «غاو» .

٥ — وجاء فيها « ولما وافوا باب حرب تقدم أبو سعد بن أبي عمامة فصلى عليه ثانية بأهل النصرية والحربية الذين نقل جثمانه ليدفن عندهم » .

والصواب « ليدفن في قرب الحربية » لأن مقبرة باب حرب وقد اشتهرت بدفن الإمام أحمد بن حنبل فيها كانت فوق المحلة الحربية لا عندها ، وقد زالت هذه المقبرة العظيمة قبل ثلاثة قرون أو أكثر منها بكسور ، وكانت في غربي مشهد الإمام موسى ابن جعفر العلوي الحسيني الحالي المعروفة بلدته بالكاظمية نسبة إلى لقبه « الكاظم » ، في الجانب الغربي من دجلة بغداد على أربعة كيلو مترات من صميم بغداد .

٦ — وقد فاته في تعداد شيوخ الخطيب وأقرانه وتلامذته « ص ٧٩ » ذكر الشيخ جعفر بن محمد بن الحسين السراج القارئ وقد ذكره في ص ١٢٣ من الكتاب نفسه . وفاته كثير منهم إلا أنه قد تحلل من ذكرهم بما شرطه في أول هذا الفصل ، فلا يكون ذلك مما يؤاخذ هو عليه .

٧ — وجاء في ص ٥١ : « وكان في من حمله شيخ الخطيب الإمام أبو إسحق الشيرازي » ولكنه ذكره في ص ٨ في عداد أقرانه الذين حدثوا عنه وحدث عنهم .

٨ — وورد في ص ٨٨ : «محمد بن الحسين بن علي بن إبراهيم الشيباني أبو بكر المرزقي » نقلاً عن شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي . والصواب « المزرفي » بالميم والزاي والراء والفاء والياء المشددة وكانت المزرفة قرية كبيرة فوق بغداد من قرى دجيل على الجادة بقرب دجلة من طسّوج قطربل — كما في مراصد الاطلاع لابن عبد الحق الحنبلي وغيره . قال أبو الفرج بن الجوزي في وفيات سنة ٥٢٧ من تاريخه المنتظم — ج ١٠ ص ٣٣ — : « محمد بن الحسين بن علي بن إبرهيم بن عبد الله أبو بكر ويعرف بالمزرفي ، ولم يكن من المزرفة وإنما انتقل إلى المزرفة أيام الفتنة فأقام بها ، فلما رجع قيل له المزرفي » . وذكره أيضاً في مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ٥٢٨ .

٩ — وجاء في ص ٨٩ : « محمد بن محمد بن زيد العلوي البغدادي أبو المعالي الشريف المرتضي ٤٥١ — ٤٨٠ محدث متشيع » . ولم أدر أنى وجد صديقنا الفاضل وصفه بالمتشيع وقد لازم الخطيب البغدادي وتلمذ عليه ؟ ومن المصادر التي لم يذكرها المؤلف في ترجمته المختصرة « تاريخ بغداد للبنداري » من مخطوطات باريس ، والمنتظم لابن الجوزي « ج ٩ ص ٤١ » .

١٠ — وورد في ص ١٠٢ : « كتاب محاسبة النفس والإزراع (؟) عليها لابن أبي الدنيا » والصواب « والإزراء عليها » مصدر أزرى يزري .

١١ — وفي ص ١٠٦ : « أخبار ابن دهبل الجمحي » والصحيح « أبي دهبل الجمحي » .

١٢ — وورد في ص ١٧٣ في الحاشية منها : « كتب قبله — يعني قبل الخطيب — في تاريخ بغداد أحمد بن أبي طاهر وابن سفنديار : الإعلان بالتوبيخ ص ١٢٣ » ومن الحق أن يبحث المؤرخ اليوم عن معنى كلمة « تاريخ » في زمان الخطيب ومعنى « أخبار » فالذي ألفه ابن أبي طاهر كما في معجم الأدباء لياقوت « ج ١ ص ١٥٢ » كتاب تاريخ بغداد في أخبار الخلفاء والأمراء وأيامهم ، وذيّل على تاريخه ولده عبيد الله ، ونقل ياقوت من كتاب فهرست ابن النديم ، وهو مشهور ، أن اسم الكتاب المذكور « كتاب بغداد » وقد طبع الجزء السادس منه في بازل بسويسرة سنة ١٩٠٨ باسم « أخبار بغداد » وليس هو من بابة تاريخ الخطيب . بقي تاريخ بن اسفنديار ، فليت شعري من ابن إسفنديار هذا الذي ذكره شمس الدين السخاوي ؟ إنه لا يراعي التسلسل التاريخي عند ذكره المؤلفين مراعاة تامة ، ألا تراه ذكر في « تاريخ البصرة » تأليف عمر بردهجان قبل عمر بن شبة ؟ مع أن الأول متأخر عن الثاني بعدة مئات سنين . فالظاهر لي أن ابن اسفنديار متأخر عن زمن الخطيب على أن الذي سبق الخطيب حقاً إلى تأليف « تاريخ » لبغداد هو أبو القاسم محمد بن حبيب النيسابوري المتوفى سنة ٢٤٥ كما في ذيل كشف الظنون لإسمعيل باشا البابانى البغدادي « ج ١ ص ٢١٤ » وابن حبيب أحد أعلام الثقافة العربية في القرن الثالث للهجرة ، وله في أكثر الفنون تآليف منها كتاب « المحبر » الذي نسبه الناس إليه فقالوا « المحبري »

١٣ — وقال في ص ١٩٣ : « ولا تتعب نفسك بالبحث فيه عن تراجم الفلاسفة وأصحاب علوم الأوائل فالمؤلف — يعني الخطيب — لم يُعن بهم لا قليلاً ولا كثيراً . »

قلت : إنه تاريخ أهل الرواية والحديث ، فإن شارك أولئك الذين أشار إليهم

الصديق الفاضل في هذين الفنين فكيف لا يترجمهم الخطيب ؟ ألا تراه قد ترجم «أبا علي كوشيار الجيلي المنجم المشهور صاحب التآليف في « ج ١٢ ص ٤٩٣ » ؟ وإنما ترجمه لأنه جمع رواية الحديث إلى علم الأوائل الذي لا يعني الخطيب ولا يشبهه .

١٤ — وقال في ص٢٤٨: « ولعل رجلا كهذا معذور لجهله ، ولكن ما قولك بابن تغري بردي يروي ...» وقد نشرنا في هذه المجلة مقالة تثبت أن ابن تغري بردي كان قريباً من الطبقة العامية بين الناس ، بله أنه كان حنفياً ، وقد فعل الخطيب ما فعل بسيرة الإمام أبي حنيفة .

١٥ — ورد في ص ٢٥٥ : « وقال ابن النجار : انتهى إليه — إلى الخطيب — علم الحديث وحفظه في وقته . وتابعه في ذلك ابن شافع فقال : انتهى إليه الحفظ والإتقان .. » وقوله « تابعه » يفيد إتيانه بعده أو تقليده ، والصحيح العكس فيكون ابن النجار متابعاً لابن شافع ، لأن ابن النجار توفي سنة ٦٤٣ وابن شافع توفي سنة ٥٦٥، واسمه الكامل « أبو الفضل أحمد بن أبي المعالي شافع الجيلي الأصل البغدادي المولد والدار » ترجمه ابن الجوزي في المنتظم » ج ١٠ ص ٢٣٠ » وغيره .

هذا ما ربثنا في أثناء تصفحنا لهذا الكتاب الجديد المفيد فائدة جليلة ، ولولا أن العلامة أحمد محمد شاكر قد وفاه حقه من التقريظ لقرظناه بكلمة طيبة . والله الموفق لصائب القول .

بغداد

مصطفى جواد

فهرست المجلد الثاني

من مجلة الكتاب

١ – الكتّاب

٢ – الموضوعات✲

افتتاحيات

حديقة الأفكار

✲ اختصارات الفهرست : ب = بحث ، ت = تعريف ، ن = نقد .

عالم المرأة

أعلام النهضة الحديثة

من أدب العرب

نوادر المخطوطات

من محيط الغرب

في ظلال الوحي

في كفة الميزان

المسرح والخيالة

دنيا القصص

أنباء

رسائل القراء

زهرات منثورة

٣ — الكتب

٤ – الكتب الإفرنجية